شعب الإيمان

تأليف

الإمام الزاهد أبي محمد عبد الجليل بن موسى بن

عبد الجليل القصري

• ت ٦٠٨هـ •

تحقيق

أيمن صالح شعبان — سيد أحمد إسماعيل

دار الحديث

القاهرة

شعب الإيمان

تأليف

الإمام الزاهد أبي محمد عبد الجليل بن موسى بن
عبد الجليل القصري
« ت: ٦٠٨ »

تحقيق

أيمن صالح شعبان
سيد أحمد إسماعيل

الجزء الأول

دار الحديث
القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

رقم الإيداع ٧٩٤٨/ ١٩٩٦
الترقيم الدولي I.S.B.N.
977-5227-82-8

دار الحديث
طبع . نشر . توزيع

١٤٠ شارع جوهر القائد أمام جامعة الأزهر
تليفون : ٥٩١٨٧١٩ - ٥٩١٩٦٩٧ - ٥١١٣٠٣٦ فاكس : ٥٩١٩٦٩٧

شعب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا .

إنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تسآءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾ .

﴿ يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدًا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا ﴾ .

إن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

أما بعد :

فإن أعظم ما امتنّ الله به عز وجل على عباده الإيمان به وبرسوله ﷺ وهذه نعمة عظيمة ، فإن العباد لهم ظواهر وبواطن ولكلٍ منهما مقومات للحياة .

فكما أن للظاهر المطعم والمشرب والملبس للحياة ، فإن للباطن «الإيمان» ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين ءامنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ .

والإيمان في عرف علماء الشريعة الأجلاء : « كمال المحبة ، مع غاية الذل» وهما شرطي الإيمان ، فلا يتم إيمان بالله ورسوله إلا بالتفاني في محبتهما .

وأوثق علامات المحبة الانقياد الظاهري . هذا وللإيمان «طعم» «وَوَجْد» و«ذوق» . كما ورد في أكثر من حديث صحيح .

أما ماهية الأعمال التي يتحقق بها مطلق الإيمان ، فهي كما وصف رسول الله ﷺ « شُعب» في حديث مجمل مروي في الصحيحين في رواية «بضع وستون» وفي أخرى «بضع وسبعونشعبة» .

هذه الشعب المجملة قد بحث وسبر عنها العلماء في ذكرها ، واستدلوا عليها بما ورد في القرآن والسنة .

وهذا السفر الجليل الماثل بين يدي القارىء العزيز يعد اجتهاد لعالم مدقق محقق ممن شهد له المؤرخون بصحة العقيدة والالتزام بظاهر الكتاب والسنة ، بحث فيه المؤلف - رحمه الله - ماهية شعب الإيمان ، وما يندرج تحتها بكلام حلو معسول وتناول للحقائق بالتصوف المشوب بالأثر الموافق

للكتاب والسنة ، فعقد فيه من الدرر الحسان ما يقوي الجنان، ويوقظ القلب الغفلان . فجزاه الله خيراً .

ترجمة المؤلف

قال الذهبي - رحمه الله - في سير أعلام النبلاء :

القصري

الشيخ الإمام العلامة العارف القدوة شيخ الإسلام أبو محمد عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأنصاري الأوسي الأندلسي القرطبي المشهور بالقصري لنزوله بقصر عبد الكريم ، وهو قصر كتامة : بلد بالمغرب الأقصى .

روى «الموطأ» عن أبي الحسن بن حنين صاحب ابن الطَّلاع ، وصحب بالقصر أبا الحسن بن غالب الزاهد ولازمه ، وساد في العلم والعمل . وكان منقطع القرين .

صنَّف «التفسير» و«شرح الأسماء الحسنى » وكتاب «شعب الإيمان» ، وكلامه في الحقائق رفيع بديع منوط بالأثر في أكثر أموره ، وربما قال أشياء باجتهاده وذوقه ، والله يغفر له .

قال أبو جعفر بن الزبير : كلامه في طريقة التصوف سهل مُحَرَّر مضبوط بظاهر الكتاب والسنة ، وله مشاركة في علوم وتصرّف في العربية ، خُتم به التصوف بالمغرب ورزق من عليٍّ الصيت والذكر الجليل ما لم يرزق كبير أحد .

حدث عنه أبو عبد الله الأزدي ، وأبو الحسن الغافقي ، وغيرهما ، وتوفي بسبتة في سنة ثمان وست مئة . اهـ .

وقال ابن الأبار :

كان متقدمًا في علم الكلام مشاركًا في فنون، وكان صاحب زهد وتبتل .

وقال السيوطي :

شيخ الإسلام كان مقدمًا في الكلام ، مشاركًا في فنون ، رأسًا في العلم والعمل، منقطع القرين ، متصوفًا ، ورعًا عن الدنيا .

وكان له من الصيت والذكر الجميل ما ليس لغيره ، وختم به التصوف بالمغرب على طريقة أهل السنة(*) .

(*) راجع ترجمته من : «سير أعلام النبلاء » (٢١/ ٤٢٠) ، «التكملة» لابن الأبار (٦٥٣)، «ذيل الابتهاج» لابن التنبكي (١٨٤)، «طبقات المفسرين» للداودي (١/ ٢٥٩) .

خطة العمل

* نسخ أصل الكتاب ، ومقابلته - سيأتي وصف المخطوط .

* تخريج الآيات وشكلها .

* تخريج الأحاديث وتحقيق درجاتها .

* إيضاح غريب اللغة .

* التعليق على المواطن التي سبق بها قلم المؤلف - رحمه الله- وعفا عنا وعنه ، وهي قليلة . قالها من ذوقه مع وجود النص فألزم منّا التعليق .

* تقدمة الكتاب .

* ترجمة المؤلف .

وصف الأصل

أقمنا نص الكتاب المحقق عن أصل محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رمز (١١٠ توحيد) . يقع في جزئين .

عدد الأوراق (٤١٧) لوحة .

مقاس الصفحة ١٧× ٥ , ١٠ سم .

لم يذكر اسم الناسخ ، ولا تاريخ النسخ .

نوع الخط نسخي جيد مشكول في الغالب .

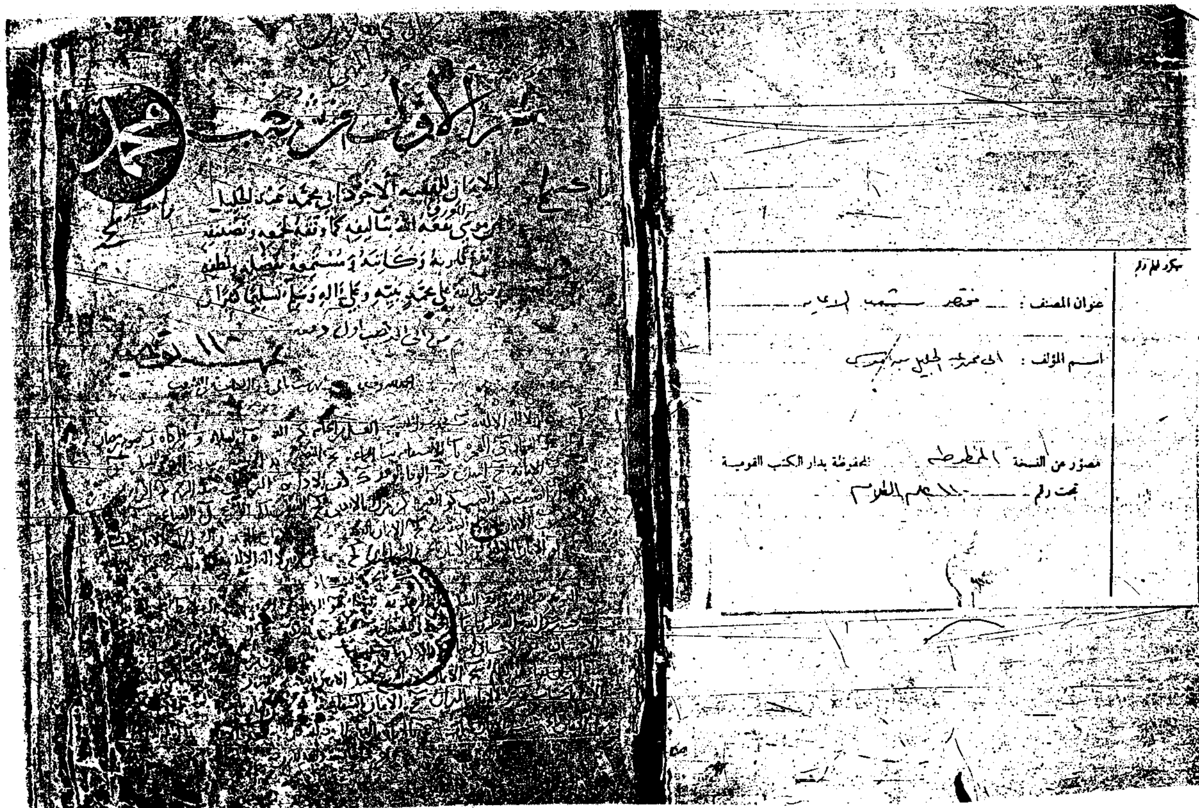
وعلى النسخة بلاغات ومقابلات تفيد توثيق النسخة .

وكتبه

أيمن صالح شعبان
مدير مركز تحقيق النصوص

سيد أحمد إسماعيل
الباحث بمركز تحقيق النصوص - قسم خدمة الكتاب والسنة

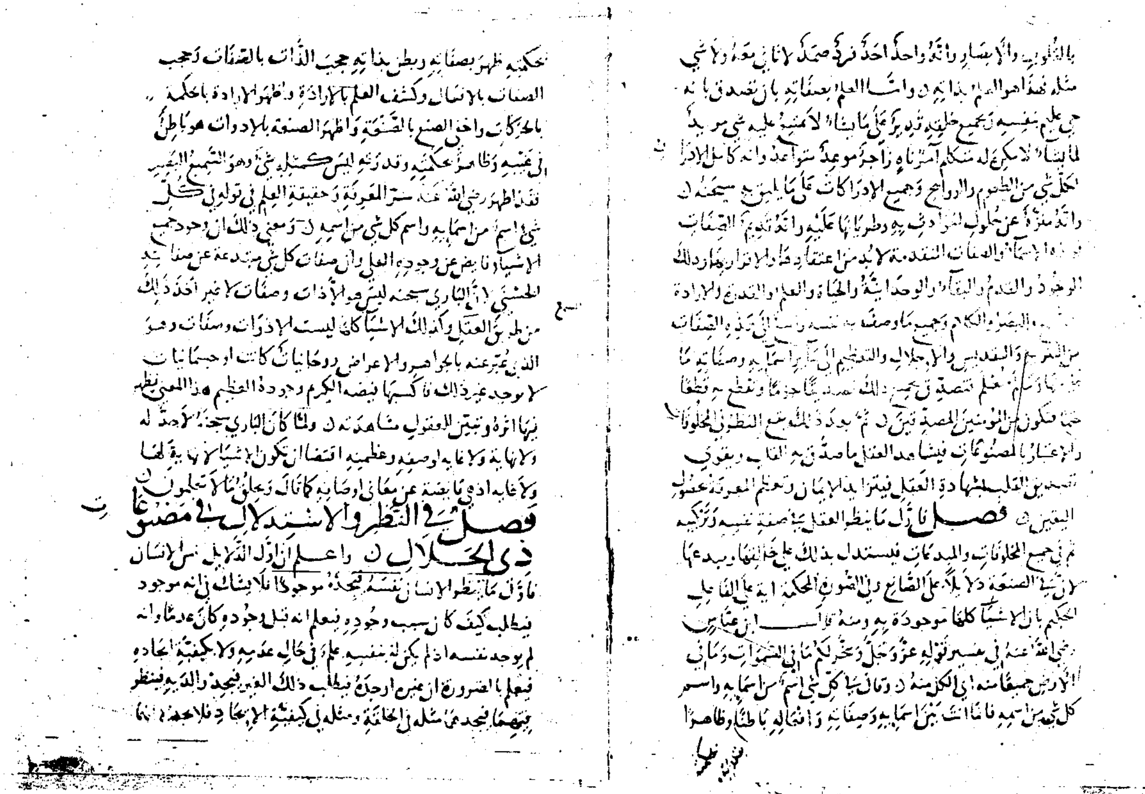
نماذج المخطوط



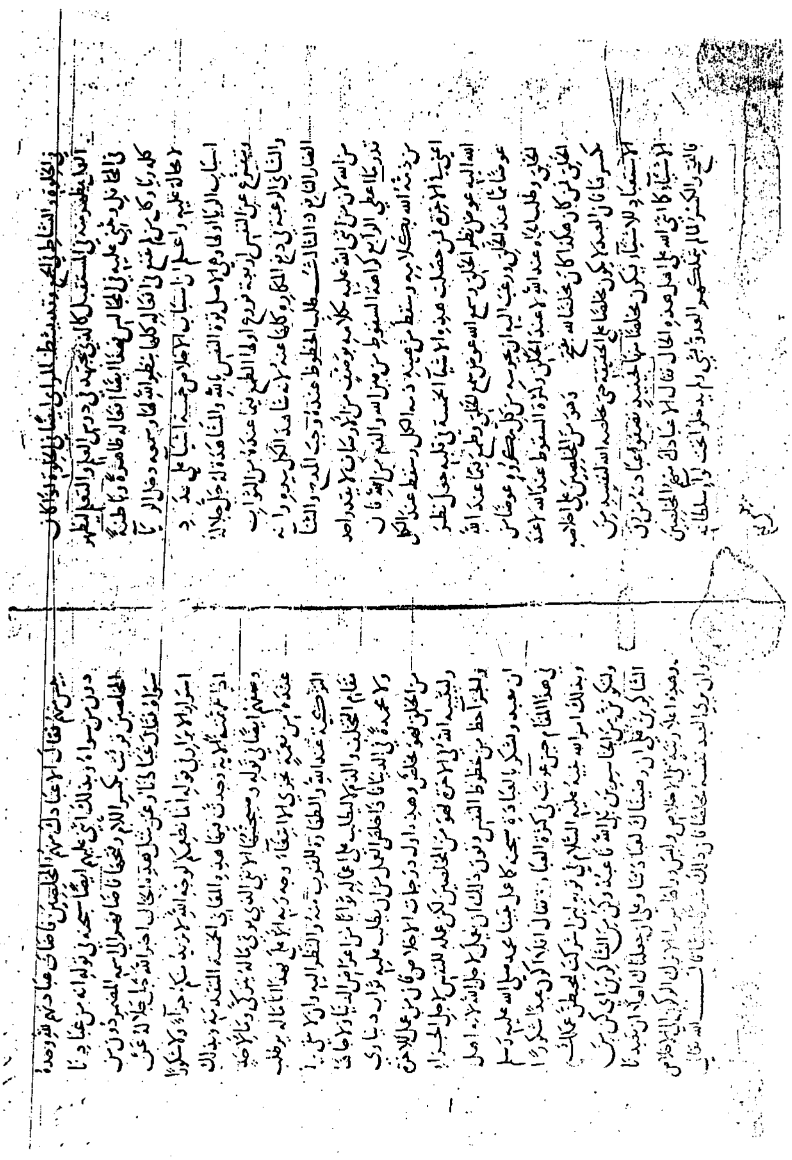
الورقة الأولى من مصورة المخطوط ـ بها العنوان



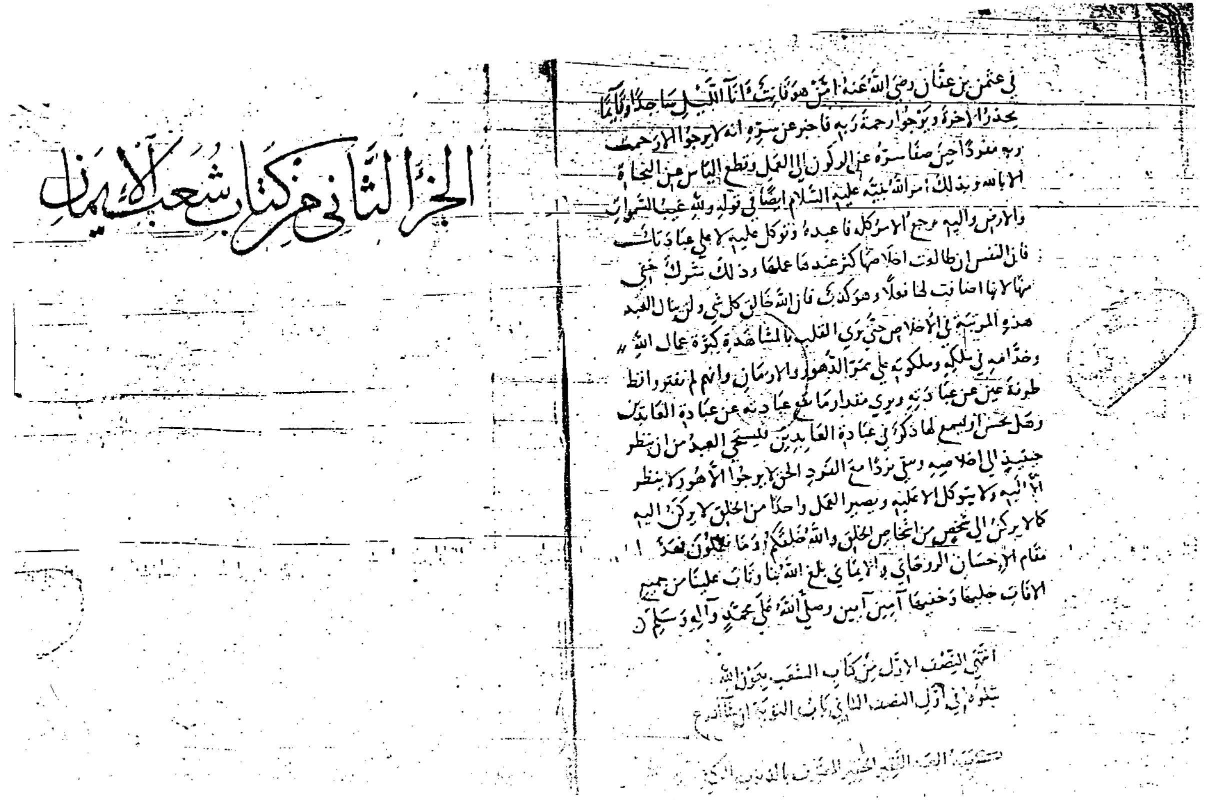
الورقة الثانية من مصورة المخطوط. الجزء الأول



الورقة الثالثة من مصورة المخطوط.الجزء الأول



الورقة قبل الأخيرة من مصورة المخطوط - الجزء الأول



الورقة الأخيرة من الجزء الأول ، وعنوان الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نَسْتَعين

الحَمْدُ للَّه بحقائق حَمده ، وتَمجيده كَما يَجب لَه على كَريم جُوده[١] حَمدًا يحيط بمعَاني الثَّنَاء من جَميع وُجوهه ، ونشكرُه على قَدر ما يعلم ربنا من النِّعم التي أنعم بها على جَميع عَبيده .

وصلى اللَّه على النبي الأمي ، التّقي ، النّقي ، السّيد ، الغَريب ، الوَلي ، الحبيب مُحمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب ، صَلاةً تحيط بأنواع الآلاء[٢] ، والأنعام ، وتدُوم عليه بدوام ذي الجلال والإكرام ، وعلى مَن استظل تَحت لَوائه ، ودخل في دين اللَّه من بَابه من النَّبيين ، والمُرسلين ، والمَلائكة المُكرمَين ، والأزواج المطهرات أُمَهات المؤمنين ، والأصحاب ، وجَميع التابعين ، والطائعين ، وسلم تسليمًا .

---

(١) في الأصل : وَجوده .

(٢) الآلاء : النعم : وفي القرآن الكريم ﴿ فَبأي آلاء ربّكما تُكذبان ﴾

فَصل

اعلمْ أن أول شيء يجبُ على العبدِ معرفةُ صانعه ، وكيف كَان صُنعه ، ثمَّ التعبد له ، وكَيف يعبده .

وبهذين الفَضلين مع التوفيق القَديم تُنَال السعادة ، ويُرتَقى في مَعارج زُلَف[١] الكَرَامة ، وبضد هَذين الفَضلين ، وهو الجَهل والعصيان مَع الخُذلان[٢] القديم تُنال الشّقاوة ، وينحط إلى مَحل الخزي ، والإَهانة .

قال اللّه جَل جَلاله ، وتقدست أسماؤه :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[٣] .

[فهذا فضل العلم به .

وقال الله عز وجل :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونَ ﴾[٤] .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾[٥] .

---

(٣) جمع زلفة : وهي تقدم ودنا .

(٤) الخذلان : التخلي عن النصرة .

(٥) سورة الطلاق [الآية ١٢].

(٦) سورة الذاريات [الآية : ٥٦] .

(٧) سورة البقرة : [الآية : ٢١] .

فَهَذَا فَضل التَّعبد لَه ، فعلى هَذين الفَضلين اللّذين هُمَا العلم ، والتَّعبد مَدارُ الأمر كله في جميع مخلوقات اللَّه تَعالى، وَهما علَّةُ خَلق الأشياء كلها؛ لأن اللَّهَ تعالى مَا خلق شيئًا إلا بحكَمة كما قال: / ١/٢

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴾(١) .

واللَّه يتَعالى أن يخلق شيئًا لغير حكمة ، وأن يخلق شيئًا هَملاً(٢) سُدًا(٣) ؛ لأن الهَمَل فعل العَبث ، واللعبْ ، فإذا تَبين هذا فإنَّمَا خلق مَا خَلَقَ ليُعلَم ، ويُعبَدْ؛ لأنَّه لو لَم يخلق شيئًا كما كَان في أزليته لمْ يَعرفه أحد سواه ؛ لأنَّه كيف يَعرفه من ليس بمَوجود ، ولا له وجودٌ ، فَامْتَن على خَليقته بأن أوجدهم بفضله، ودلهُم بكرمِه على نفسه .

فأمَّا طريق العِلم به فمن وَجهين :

أحدهما : طريق السَّمع منه ، ومن سفير بيْنه وبيْن خلقه .

والوَجه الثَّاني : طَريق الدَّليل والنَّظر الذي يَحصل منه البرهان(٤) العقلي .

وأمَّا التَّعبد فمأخُوذ من جهة السَّمع ، وعلى العِقل التَّسليم ، والانقياد حتى يَظهر له وجه الحِكمة في الاستعباد ، والاستخدام.

---

(١) سورة الدخان : [الآية ٣٨] .

(٢) الهمل : المهمل المتروك ليلاً ونهارًا بلا رعاية ولا عناية .

(٣) السدى : يقال ذهب جهده سدًا - ضاع - .

(٤) البرهان : الحجة الفاصلة البينة .

فَصْل ما تَقَدم

أَمَّا العِلمُ : فهو مُتقدم الوجود على التعبد ، لابد أن يَحصل العلم أولاً ، ثم بَعد ذَلك يقع التَّعبد بالعِلم ؛ لأن الجَهل لا يُوجب شيئًا من العمل .

فأَمَّا طريق العلم به سبحانَهُ من جهة السَّمع فهو قبول ما أخبَر سُبحانه عنْ نَفسه ، أو رسُوله عليه السَّلام ممَّا نطقت به كُتبُه ، أو أُخبرت به رسله عليهم السَّلام من صِفاته ، وأسمَائه بالتصديق ، وإمرار أخبار الصِّفَات كما وَرَدتْ .

وأَمَّا طريق العلم به من جهة النَّظر العَقلي ، والدليل البُرهاني فَبالبَحث في المَخْلُوقَات ، والاعتبَار[١] بالمصنُوعات ، والتدبر[٢] في الأخبار والآيات ، وتفهم الحكم ، والأحاديث المسندات ، ومثال ذَلك في الطريق الأوَّل -الذي هو السمع - أن تصدق بأن الله موجودٌ قديم ، وأوَّل بنفسه ، لم يُوجده أحدٌ ، ولم يُوجد نفسه ، باق أبدًا ، وأنَّهُ ليس بجَوهَر[٣] ، ولا جسم ، ولا عرض وأنَّه لَيس في جهة من الجهَات ، وأنَّه غَير مستقر على مكانٍ ، وأنه يُرى / ٢/ب بالقلوب والأبصار ، وأنَّهُ واحدٌ أحدٌ ، فردٌ صمدٌ[٤] ، لا ثانيَ معه ، ولا شيء مثله فهذا هو العلمُ بذاته .

وأَمَّا العلم بصفاته : بأن تصدِّق بأنه حي عَليمٌ بنفسه ، وبجميع خلقه ، قديرٌ عَلَى مَا يشاء ، لا يَمْتنع عليه شيء ، مُريد لما يشَاء ، لا مُكره لَهَ ،

(١) الاعتبار : الاتعاظ .

(٢) التدبير : النظر والتفكر .

(٣) الجوهر : جوهر الشيء حقيقته وذاته .

(٤) صمد : ثبت واستمر ، ومنه قول الإمام علي « صمدًا صمدًا حتى يتجلى لكم عمود الحق » .

مُتكلمٌ، آمرٌ ناه، زاجرٌ، مُوعد مُتواعد، وأنَّه كَاملُ الإدْرَاك لكُل شَيء من الطعوم، والرَّوائح، وجميع الإدرَاكات على ما يليق به سُبحانَه.

وأنَّه مُتَنَزَّه عن حلول الحوادث به، وطرآتها عَليه، وأنَّه قديم الصِّفات؛ فَهَذه الأسْماء، والصفات المتقدمة لابُد من اعتقادها، والإقرار بها، وذلك الوجُودُ والقدمُ، والبَقَاء، والوَحدانية، والحَياة، والعلمُ، والقُدرة، والإرَادة، والسَّمع، والبَصر، والكَلام، وَجَميع مَا وَصَفَ به نَفْسُه، راجعٌ إلَى هذه الصِّفَات من التَّنْزيه[1]، والتقديس، والإجْلال[2]، والتعظيم إلى سائر أسمائه، وصفَاته ما عُلمَ منها، وما لم يُعلمْ، فَتُصدق بجَميع ذَلَك تَصْديقًا جزمًا، وتقطَع بِه قَطعًا حتمًا، فتكون من المؤمنين المصدقين.

ثم بعد ذَلك يقع النَّظر في المخلوقات، والاعتبار بالمصنُوعات فيُشاهد العَقل ما صدَّق به القلب، ويقوى تصديق القَلب، بشهادة العقل، فيتزايد الإيمَان، وتَعْظُم المَعرفة بحُصول اليَقين.

فَصْل

فأَوَّل مَا يَنْظر العقل في صفة نفسه، وتركيبه، ثمَّ في جَميع المخلوقَات، والمبدعَات[3]، فيستدل بذلك على خَالقها ومُبدعها؛ لأن في الصنعة دلائلاً على الصَّانع، وفي الصُّورة المحكمة آيَة على الفَاعل الحكيم، بأن الأشيَاءَ كُلها مَوجودة بِهِ، ومِنه، قَال ابْن عَبَاس - رضي الله عنه - في تفسير قوله عز وجل:

---

(١) التنزيه: تنزه عن الشيء يبعد عنه.

(٢) الإجلال: العظمة وفي القرآن الكريم: ﴿ وَيَبْقَى وَجهُ رَبِّكَ ذِي الجَلاَلِ والإكْرَامِ ﴾.

(٣) المبدعات: جمع بدعة، وهي التي أنشأها البديع على غير مثال سابق.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾[(١)] .

أيْ الكُل منْه .

وقَال في كُل شَيء اسمٌ من أسمائه ، واسْم كُل شَيء من اسمه فَإنَّما ٣/أ أنْت بيْن أسمائه ، وصفاته ، وأفْعَاله بَاطنًا ، وظَاهرًا / بحكمته ؛ ظَهرَ بصفاته ، وبطَن بذَاته حَجَب[(٢)] الذَّات بالصِّفات ، وحَجَب الصفات بالأفْعَال ، وكشفَ العَلم بالإرادة ، وأظهرَ الإرادَة بالحكمة بالحركات ، وأخفى الصنع بالصَّنْعَة ، وأظهر الصنعة بالأدوات ، هو بَاطن في غَيبه ، وظاهر بحكمته ، وقدرَته :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[(٣)] .

فقد أظهر - رضي الله عنه - سرّ المَعرفة ، وحقيقة العِلم في قوله كل شيء اسمٌ من أسمَائه ، واسمُ كُل شيء من اسمه .

ومعنى ذلك أن وجود جميع الأشياء فَائض عن وجوده العلي ، وأن صفات كل شيء مبتدعة عن صفاته الحسنى ؛ لأن البَاري سُبحانه لَيس هُو إلا ذَات ، وصفَات لا غير ، أُخذَ ذلك من طريق السَّمع [و][(٤)] العقل ، وكذلك الأشيَاء كُلها لَيْست إلاَ ذَوات ، وصفَات ، وهُو الذي عُبِّر عنه بالجَواهر[(٥)] ، والأعراض ، روحَانيات كانت أو جسمانيات ، لا يُوجد غَير ذَلك ، فأكْسَبَها فَيْضه الكَريم وجُوده العظيم ، هَذا المَعنى ، فَيظهر فيها أثَره ،

(١) سورة الجاثية : [الآية : ١٣] .

(٢) حجب : ستَر ، وحَالَ دونها .

(٣) سورة الشورى : [الآية : ١١].

(٤) زيادة يقتضيها السياق .

(٢٣) الجواهر : جمع جوهر : وهو حقيقة الشيء وذاته ، وفي الفلسفة : هو ما يقوم بنفسه ، ويقابله العوض الذي يقوم بغيره .

وتبيَّن للعُقول مُشاهدَته .

ولَمَّا كـان البـاري سُبـحـانه لا حـدَّ له ، ولا نـهـاية ، ولا غـاية لوَصـفـه وعظمته اقْتَضى أن تكون الأشياء لا نهاية لها ولا غَاية ، إِذ هي فَائضَة عَنْ مَعاني أوصَافه، كَما قَال :

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

(١) سورة النحل : [الآية : ٨] .

فَصل
في النَّظر والاسْتدْلال
فِي مَصْنُوعات ذِي الجَلاَل

وَاعلمْ أن أوّل الدَّلائل[١] نَفْسَ الإنسان ؛ فأول ما ينظر الإنسانُ نفسه ،
فيجده موجودًا ، فلا يشك في أنه موجود ، فيطلب كيف كان سبب
وُجوده ، فيعلم أنَّه قَبل وُجُوده كَان عدمًا ، وأنّه لم يُوجدْ نَفْسَه إذْ لَمْ يكن له
بنفسه علمٌ ، وَفي حَال عَدمه ، ولا بكَيْفية إيجَاده فَيَعلَم بالضَّرُورة أنَّ غَيره
أوجَدهُ ، فيطلبَ ذلك الغير فيجد وَالديه ، فَينظرَ فيهما ، فَيجدهما مثله في
٣/ب الخلقَة ، ومثله في كيفية الإيجاد ، فلاَ يجد إلا أنهما / منْ أبوين آخرَين إلَى
أبوَين أولين ، يقف عنْدهُمَا ؛ لأن التَّسَلسُلَ إلى غيرِ نهَاية مُحَال[٢] فِي
العقل .

ثُم يَنظر فِي أصْلِ خلْقة الأبوين الأولين فَيَجدهما مَعْدُومين مثل الآباء كُلهم ، فينظر إلى السَبَبَ الذي خلق الكل منه ، وإلى سبب بقائه مدة ما وعدوهُ ، فلا يَجدُ إلا المادة التي مدَّت الأجساد الكلَ إلى حين العدم ، وهوَ الغذاء من التراب وَالماء ، والهواء ، والنار ، فيجد الكل مخلوقًا من هذه الأربع ، وهي مادة وجوده ، وسبب بقائه .

ثم ينظر إِلى كلِّ مخلوقٍ من هذِهِ الأربعَة فيجدهُ مخلوقًا محدثًا مثله ،

---

(١) الدلائل : الإرشادات التي تُبلغك معرفة الصانع سبحانه .

(٢) المحال : ما لا يمكن وقوعه .

ومادة الكُل من هذه الأربع مثل الحيوانات ، والنبات ، وجواهر[١] الأرض كلها ، ومعادنها ، فلا يجد صانعه في شيء من ذلك .

فيرجع نظرهُ إلى العَالَم الأكبر لما وجد الجزئيات كلهَا مثله ؛ يَلْزَمُهَا مَا يَلْزَمُهُ، فيجدُ تركيبَهُ وتَرْكيب الحيَوان ، والنبات ، والمعَادن من العالَم الأكْبَر وهُوَ جُزء من أجزائه ، فيَعلم بالضرُورة أنَّهُ منهُ ؛ إذ الجزءَ بعَض الكل ، وأن هذه الأربع التي هيَ الأرض، والماء ، والهوَاء، والنار منهـا يَسْتَمدُّ كل مخلوق ؛ فمن الأرض يأكل ومن الماء يشرب ، ومن الهواء يتنفس ، ومن النَّار يتحرك حَركة الطَّبع الغَريزي[٢] ، فيجد العَقل هذه الكُليات الأربع مثله .

ومثل جَميع الجُزئيات المتركبات منها ، فلا يَجد مُوحده في شَيء منها ؛ لأنَّها تجتمع ، وتَفترق عند التَّركيب والتَّحليل ، ويَستحيل بعضها إلى بعض كاستحالة أجزاء أجسَاد الجُزئيات ، فلا فَرق بينها ، وبين الجُزئيات ؛ إذ مَا جَازَ على الجُزء جَاز على الكُل ، فَيرْتقي[٣] عنها إلى طَلَب مُوجده في غَيرها فيجد عَالَم السموات ، والأفلاك ، والنُّجوم فَيجد أجسَامًا عظامًا ذات أجزاء ، وجَواهر لا تُحصى ، وجَماعات كَوَاكب صغارًا ، وكبارًا ، وحُمرًا ، وبيضًا ، وإلى الصُّفرة، والزُّرقة ، مُختلفة / في الصغر ، والكِبر، ١/٤
وحَركات كثيرة ، ودورات مختلفة .

ويجد أجسَامًا قد انْضم كُل جزء منها إلى صَاحبه ، واجتمعَت كُلها

---

(١) الجواهر : جمع جوهر ، هو ما قام بنفسه ، ويقابله العرض ، وهو ما يقوم بغيره .

(٢) الغريزة : الطبيعة والسجية ، « وفي علم النفس » صورة من صور النشاط النفسي ، وطراز من السلوك أساسه الفطرة والوراثة ، والجمع : غرائز .

(٣) يرتقي : يرتفع ويصعد ، يقال ارتقى العرش ، تولى الملك وارتقى إلى المجد : أي وصل إلى القمة ، وترقى العامل ارتفع من درجة إلى درجة .

فصارت شَيْئًا واحدًا ، وجسمًا واحدًا [. . . .][1] عظيم ، وأرجاؤها واسعة الأطراف ، والآفاق[2] فيَعلَم العقل بالضَّرورة أن اجتماع أجْزائها وجَواهرُها كَان عن افتراق قَبل الاجتماع ، ثمَّ اجتمعت بعد افتراَق ، ثمَّ تماسكت بَعضَها إلى بعض ، والتأمت[3] فَصَارت شَيْئًا واحدًا ؛ لأنّ الجسم يُقسمه العَقل إلى جُزء لا يتجزأ .

ثم يَنظر إلى اجتماع الكواكب[4] فيها ، فَيجد الكَواكب فيها مُعتمدة على أماكنها التي وضعت فيها ، لولا تلك الأمَاكن التي أمسكتها لانتقضت ، وتَلفت ، ولمْ توجد ، فعُلمَ أن كُل كوكب في السَّموات ، وأن السموات ، والأفلاك[5] حاملة لهاَ ، ومُحركة لجمَاعتها ، وبها كَان اجتماعها ، ولولا جَمعها لها لافترقت ؛ فهي مُعتمدة عليها .

وكذلك كُل جزء من جسم السَّموات مؤتلف[6] إلى غَيره مُعْتَمد بَعضه على بَعض ، قد شمل كُل جَزء منها الافْتقار ، والاعتَماد إلى غَيره ، فلولا ذَلك لانحلت أجزاءُ السماء ، وتلاشت[7] أعضاؤها ، فإذًا قد شَمُلَ الكُل افتقار بعضه إلى بَعض ، وظَهر فيها أثر الصَّنعة وشَهد العقَل شَهادة ضرورية أنَّ تماسك أجَسَام السَّموات والأفلاك والنُّجوم بغيرَها ، لا بنفسها ، وهو الجَامع لها بعد الافتراقَ ، والماسكَ لها عنْ الانحلال والتلاشي ؛ لأن

(١) بياض في الأصل .

(٢) الآفاق : جمع أفق ، وهو - الناحية - أو خط دائري ترى فيه المشاهد السماء كأنها ملتقية بالأرض ، ويبدوا متعرجًا على اليابس ومكونًا دائرة كاملة على الماء .

(٣) التأمت : انضمت والتصقت وصلحت واجتمعت ، يقال : التأم الرجلان ، اتفقا .

(٤) الكواكب : جرم سماوي يدور حول الشمس ويستضيء بنورها .

(٥) الأفلاك : جمع فلك ، وهو المدار الذي يسبح فيه الجرم السماوي .

(٦) مؤتلف : مجتمع متوافق .

(٧) تلاشت : فنيت .

التَّلاشي ، والافتراق ينْتهي حقيقته إلى العَدَم ، والعَدَم[١] لا يكون مَوجودًا بعد عَدمه إلا بغَيره ، فقد ظهر وُجود السَّموات ، وجميع الأجسَام بلا مزية[٢] ، لاَ مِن شيء ، فافتقرت افتقاراً ضَروريًا إلى مُوجد لها بعد العَدم .

وحكَم العقل على كل جسم في جَميع المخلُوقات حَيث كان بهذه القَضية ؛ وهَذا الحكم لأنَّ الجسم / في حُكم اللُّغة هُو المُؤتلف من الأجزَاء ، ٤/ب
وهوَ الطَّويلُ العَريضُ العَميق ، فطلب العَقل مُوجدَه في عالم الجُسوم[٣] فلم يجدُه ؛ لأنَّه لم يَر في الأجسَام شيئًا يصلح لذلك ، ولا من يليق به الربوبيَّة ؛ إذ قَد شمل الأجسَام كُلها صفة التأليف والصَّنعة والإحدَاث ، ولأنَّ كُل عُضو من أعضاء العَالَم قد خُصَّ - بعد الاشتراك الكُل فيَ التَّأليف- بما لم يُخصّ به غَيره من الأعضَاء ، وأُلزمَ عملاً لم يُلزَم غيَره كالسَّماء ، والأرض ، والأفلاك ، والهَواء ، والنَّار ، والماء ، والشَّمس ، والقَمر ، والنُجوم ، والأنوار ، والظُّلمات ، وغيرَ ذلكَ ؛ كُل واحد من المخلُوقَات على عملٍ ، لا يَتَعداه ، قَد قيد به ، وحُصر وعَجز العُضو الآخر عما قَيد به غيره .

ثم مع اختلاف الكُل ، واختصاص هذا بما لمْ يُخصّ هذا قد ضُم بَعضه إلى بعض ، وذُمّ ذماً[٤] ضَروريًا حتى صَار مُلكًا واحدًا كجسم وَاحد ، لو عَجز مِنه جُزء ، أو عضو واحد انخرم[٥] النظام ، وبطل العَالم ، فوجبٌ في

(١) العدم : ضد الوجود ، ومنه الإعدام : يقال حكم القاضي بإعدام المجرم قضى بإزهاق روحه قصاصًا.

(٢) المزية : الفضيلة يمتاز بها الشيء على غيره ، الجمع : مزايا .

(٣) الجسوم : جمع جسم وهو : الجسد ، وكل ماله طول وعرض وارتفاع ، وكل شخص يُدرك من الإنسان والحيوان والنبات ، ويجمع أيضًا أجسام .

(٤) زُمَّ زَمّاً : ضم بعضه إلى بعض بشدة .

(٥) انخرم : خرم الشيء خرمًا ثقبه ، وخرم من الحديث شيئًا : أي أنقصه ، وخرم الوباء القوم : =

ضرورة العقل جَامع لهذه الجُملة ، قاهرٌ لها ، ومُحرك ، ومُصرف لها ، في أعمالها ، ليس منْ جنسها ولا هُو واحد منها ، فلم يَبق إلا النَّظر في صِفات الموجود الصَّانع بهذه الصَّنعة .

=أفناهم واستأصلهم .

فَصْل

ثُمَّ يَرجع العقل يطلب صَانعه خَارج الأجسام كُلها؛ إذ شَاهد جميع الأجسَام لا يليق بها إلا التأليف، والصَّنعة، والعُبودية، والحُدوث، فنظر إلى الأعـرَاض[١]، وَالأفعَال مثل الحَركَات، والسكَنَات والاجْتماع، وَالافتراق، والعَدَم، والوُجود، والإيجاد والطُّلوع، والاستواء، والمَيل، والغُروب، وَغير ذلك مِمَّا لا يُحصى من الأعراض، والأفعَال، فرآها حَادثة، مع كُل نَفس، وطَرفة، فشاهد شيئًا عظيمًا، وأمرًا مُهولاً، واختلافًا كثيراً، فعلم أنَّه لا يقدر على تَدبير هذه الأُمور العظام، والأفعال الكثيرة الجسَام إلا ما هو أعظم منها، وأجلّ قَدراً وأنّ ذَلكَ العَظيم لا يكون إلا ذا علم/ عَظَيم وقُدرة عظيمَة فحصل له تَعظيم الصَّانع، فطلبه فَرأى ٥/أ جَميع الأَجسَام لا تنفعل بنَفسها، ولا تَتحرك، ولا تَسكن[٢] بذَواتها؛ إذْ الأفعال لا تَصدر عنْ الأَجسَام بل هي كَالآلات بيد الفَاعل المُحَرك المُسكن لها.

فاستحال عنْده أن يكون الفَاعل جسمًا؛ إذْ لو كان جسمًا لبطل الفعل منه؛ لأنَّ الجسم لا يَفعل شَيئًا، فارتقى لطَلبَ مُوجده عَن عَالَم الأجسَام فنظر إلى جَسَده، ونَفسه فوجد نَفسه مُحركة لجسَده، ورُوحه قَائم بجسده، فعلم أَنَّ الأرواح[٣] . . . .

---

(١) الأعراض: جمع عرض وهو ما يطرأ أو ما يزول من مرض ونحوه ومتاع الدنيا قل أو كثر، وفي القرآن الكريم ﴿ لِتبتَغوا عَرَض الحَيَاة الدُنيا ﴾ ويقال: جاء هذا الأمر عرضًا بلا قصد.
وهو ما قام بغيرة كالبياض والطول والقصر والعرض ضد الجوهر.

(٢) تسكن: أي تتوقف حركتها.

(٣) الأرواح: جمع روح، تذكر وتؤنث، ويسمى القرآن، وعيسى وجبرائيل - عليهم السلام - =

والأنفس[١] بها تَتحرك الأجسَام ، وتَسكن ، فطلب مَعرفة النَّفس فَوجد جَسده آلة مُصرفة بيد رُوحه .

وكذلك أعضاء جسد العَالم كله بأيدي أرواح العَالم كُله ، وأرواح الملائكة ، وأجسَادهم كذلك لا تَتحرك ، ولا تُسكن متحرك ، أو سَاكن إلاّ بتحريك مُحرِّك رُوحاني ، ولا يَسكن إلاّ بضَبطه ، وتَسكينه من الذَّرة ،[٢] والخَردلة[٣] إلى أعظم المَخْلوقات ، فرأى الأفعال كُلها ، والأعراض أجْمَعها صَادرة عن الأرواح بلا شَك ، ولا افتراء ؛ إذ لا يكُون الفعل إلا عن إرَادة ، ولا تكون الإرادة إلا عن علم ، ولَا يكونَ العلم إلا لحَي ، ولَا تكونَ الحَياة إلا ومعها الإدْراكَ الكَاملَ ، والأجسَام عن هَذا كَله بمعزلٍ .

فَصْل

فَعنْدَ ذَلك علم العَقل أنَّ المخلوقات تَنْقسم قسمين : جُسمانيًا ، ورُوحانيًا .

وأن الجُسماني يَنقسم إلى أشخاص ، والأشْخَاص إلى جَواهر ،

=روحًا ، وكذا كل شيء فيه حياة تنبعث من الروح .

(١) الأنفس : جمع نفس : والنفس هي الروح ، يقال : جرحت نفسه ، والنفس هي الدم يقال : سالت نفسه ، وفي الحديث « ما ليس له نفس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا مات » والنفس هي الجسد ، ويقولون ثلاثة أنفس فيذكرونه لأنهم يريدون به الإنسان ، ونفس الشيء : عينه ، يقال : رأيت فلانًا نفسه وجاءني فلان بنفسه

(٢) الذرة : أصغر جسم في عنصر ما ، ويصح أن يدخل في التفاعلات الكيماوية ، والجمع ذرات .

(٣) الخردلة : نبات عُشبي حريف من الفصيلة الصليبية ينبت في الحقول ، وعلى حواشي الطرق ، تستعمل بذوره في الطب ، ومنه بذور يتبل بها الطعام ، الواحدة : خردلة ، وكذا يقال : ما عندي من كذا خردلة ، والجمع خرادل .

وأعراض، والأعـراض لا تُحصى كثرتهـا. وأنَّ الروحاني يَنقسم إلِى قِسمين أيضًا: جَواهر وأعراض.

والجواهر تَنقسم إلِى أنواع كثيرة:

أرواح الملائكـة(١)، والأنبـيـاء(٢)، والآدمـــيين، والجـن(٣)، والشياطين(٤)، وكل ذي رَوح في السَّـمـوات، والأرض غـيـر أنَّ الأرواح قسمتها غَير قسمة الأجسَام؛ لأنّ الأجسام تَتجزأ بالقسمة، والأرواح خُلقت / مُفْرَدَةَ ولا تَقبل الانْقسامَ، إلا أنَّها من حيث تَنَاكَرت، واخْتلفت، واتْتَلفت، وأدرك رُوح هذا ما لم يُدركهُ رُوح هذَا انقسمت أيضًا، وتكثرت إلِى مَا لا يَحصى والأعرَاضُ الرُّوحَانيَة. ٥/ب

كَذلك أيضًا في الكثرة، والقسمة مثل العلوم، والإدراكات كلها من القُـدرة، والإرادَات، والكَلام، والسَّـمع، والبـصَـر، والرّحــمـة، والغلظة(٥)، وَالصَّبر، والجـزع(٦)، والخَـوف، والرَّجـاء، والشُّكر، والرَضـاء، والوِد، والبُـغض(٧)، وغـيـر ذَلكَ مِـمَّـا لا يَتَنَاهى مِـثـل الخُضوع(٨)، ....

---

(١) الملائكة: جمع ملك، وهي جسم نوراني من خلق الله كجبريل وإسرافيل.

(٢) الأنبياء: جمع نبي وهو: إنسان يصطفيه الله من خلقه ليوحى إليه بدين وشريعة ينبئهم بها.

(٣) الجن: خلاف الإنس، واحده جني، وهي جنية، وفي القرآن: ﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جآن﴾ والجان - أيضًا - ضرب من الحيات أكحل العينين يضرب إلى الصفرة لا يؤذي.

(٤) الشياطين: جمع شيطان، وهو: روح شريرة مغو، وكل متمرد مفسد.

(٥) الغلظة: خلاف الرقة وهي الخشونة، وفي القرآن الكريم ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ فهو غليظ والجمع غلاظ، وهي غليظة، والجمع غلائظ.

(٦) الجزع: عدم الصبر على ما نزل به، فهو جزع وجازع وجزوع.

(٧) البغض: مقت الشيء وشدة كراهيته.

(٨) الخضوع: الميل والانحناء واللين في الكلام، والرضاء بالذل.

والذِّلة(١) ، والتَّـواضع ، والكبـر(٢) ، والأنفـة(٣) ، والفكر، والذكـرِ ، والهَيبة(٤) ، والإِنْس ، جَميع الأخْلاقِ ، الحسنَ منها ، والقَبيح .

وهذا كُله قد شَمل جَميع الرَّوحَانيات كُلهَا ، وعمَّها، فوجد العَقل العَرض عامًا لجميع المخلُوقات كُلها جسمَانيًا ، وروحَـانيًا، وكُل جَوهَر روحَاني ، أو جسَماني لا يوجَد إِلا بعرضٍ يَعرض فيه ، ويحلّ ذاته بعد أن لم يكن حالاً بها .

والعرض لا يُوجد إلا في جَوهر أصلاً ، ولا يوجَد منفردًا بنفسه ، ولا يَسبق واحدٌ منهُمَا صاحبهَ في الحدوثِ ،وهو والجوهرُ مُقترنان(٥) ، لاَ يوجَد واحدٌ منهُمَا إِلا مع صَاحبه أصلاً .

والعَرض حادث بالضَّرورة ، وما لا يسبق الحَادث فهو حادث .

مثَال ذلك : حَركات جَميع أجسَام السَّموات والأرض ، ومَا بيْنَهُما ، وألوانهما؛ لا تُوجد حركة ، ولا سُكون إلا في جسم ، فشهد العَقل على جميع الأجسَام ما غاب عَنهُ ، وما حضَر ، وما آمن به، وصدَّق ، وعلى جَميع الرُّوحَانيات ما عَلم منهَا ، وما لم يَعلم أنَّ الكُلّ حادث ، مَوجود ، مخلوق مَربوب من مَلَك ، أو إنْس ، أو جن ، أو عرش ، أو كُرسي ، أو حجاب ، أو سَماء ، أو فَلك ، أو طَبيعَة ، أَو أرض ، أَو بحر ، أو جزء ، أوَ كُلٍّ ، أو ما غَابَ ، أو حضَر ، وعلى نَفْسه مع الكُل فبان ذَلك / كله لَه ؛ ٦/أ

(١) الذلة : الضعف والمهانة والرفق .

(٢) الكبر : العظمة والتجبر ، والإثم الكبير وفي القرآن الكريم : ﴿ والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ .

(٣) الأنفة : العزة والحمية .

(٤) الهيبة : هاب الشيء : أجله ، وعظَّمة ، وحذره ، وخافه .

(٥) مقترنان : متَّصلان متلازمان متصاحبان .

بأنَّه لا يليق به شَيء من الربوبية شَهادَة ضَرورية[١] ، لابدّ منهـا حين رأى الأفعال ، والتَأثيرات، والأعراض الحَادثات ثَابتة ، ولجميع المَخْلوقات من غَير قصد منهُ ، بَل من خَارج ذَاته ، لمْ يحدث في ذَاته ، وذَات غيره ، فعلَم أنْ لهذه الصَّنعة صَانعًا عظيمًا ، ليس بجوهَر ، ولا عَرض ، ولا يُشبه شيئًا من المَخلوقات ؛ إذ لو كَان يُشبهها لحلت به الحادثات مع الأنفاس ، والخَطرات ، ويدركُ بحدُوثها فيه مَا لَم يُدركه قَبل حدوثها ، فيكمل بعدَ النُّقصان ، أو يَنقص بعدَ الكمال ؛ كما يَجري لجميع الحُدثان .

فَوَجَب في النظر البُرهاني أنْ يكون الفَاعل لها مُخالفًا لها من جميع الجهات .

فمعرفة العَقل من جهة التنْزيه ، والتَّقديس[٢] ، والبراءَة منْ جَميع مَا يليق بالمخلوقَات من النقائص[٣] ، والعَجز ، والآفات[٤] ، والحَدث كُله ، وأنَّهُ قديمٌ ، بذاتَه ، والنظرُ في القدَم من وجه ؛ أنَّه ينظُر في العَالَم فيجدُه محدَثًا مفعولاً ضرورة - كما تقدَّم - مُفتقراً إلى موجد مُحدث فيقول : أوجده غيره، وذلك الغير ما هو ؟ أوجده غَيره أَم لا ؟ .

فلو أوجده غيره اضطر ذَلك الغَير إلى غَير ، وتسلسل إلى مَا لا نهاية له حتى يَنْتهي بالضَّرورة إلى مُوجد لا مُوجَدَ له أصلاً ؛ بل هو وُجود بنفَسه ، لم يزل كذلك ، لا يُقالَ : أوجدهُ غيره ولا أوجدَ نفسه ؛ إذ لو أوجَد نفْسَه لكان قبل الوجود عَدمًا ، والعَدَم ليس بشَيء ، فكيف يُوجد نفسه ، أو يُوجِد غَيره؟ .

---

(١) الضرورية : هي ماتمس إليه الحاجة الملحة .

(٢)التقديس : التعظيم والتكبير ، وفي القرآن الكريم ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ .

(٣) النقائص : جمع نقيصة وهي : الخُصلة الدنيئة .

(٤)الآفات : جميع« آفة » والآفة ، العاهة .

فثبت بالضرورَة قدمه ، ثم وُجدت منه الأفعال فثبت بالضَّرورة قدمه على الإيجَاد ، وإذا ثَبُتَ قُوته ثَبت حياته ، وقُدرته ؛ إذ الميت لا قُوة ، ولا إدراك لَهُ ، والعَاجز لا يُحدث فعلاً .

وثبت علمه بُوجود الصَّنْعَة منه ؛ إذ الجَهل لا يوجبُ عملاً .

٦/ب وثَبت حكمته / بوجود الإتقان في صَنعَته ؛ إذ القَاصر لا يُتقن ، ولا يُحكم ما يُحكم البَالغ الحكيم .

وثبت بَصره بتصرفه في أفعاله ؛ إذ الأعْمى المَؤُف(١) لا يُبصر رُشده ، ولا يَتَصرف في مُلكه بالإيَجاد والتَّصريف .

وثبت إرَادته بالتقديم ، والتَّأخير ، والرفع ، والخفض ، والتخصيص ؛ إذ مَنْ لا قصَد له في فعله لا يُوجد شَيئًا ، ولا يُرتب الأشياء على حُكم اختياره ، ولا يَترك الإيجادَ إذَا أرادَ تركهُ ، بلْ هو بصفة الإهمال .

وثبت كلامه بمخاطبته أفعاله بكلامه ؛ أي كن على مَا أُريد منك ، وطَاعة كلامه ، وانقادت بالإيَجاد ، والتعبد على حسب ما أمر به .

وثَبَتَ : سمعه ، وإدراكه للأصوَات ؛ لأنَّ مَنْ به آفة الصَّمَم ، وعدم الإدراك دخلت عليه الآفَات مَنَ حيث لا يَدري في فعلَه ، وَفي نفسه .

وإذَا دخلت الآفة انخرم عليه النظام ، وبطل هو في نفسه ، فَثَبَت بالضرورَة أنَّ المؤف الناقص لا يوجد منه الأفعال الكَاملة ، ولا يدفع عن نفسه وغيره الآفات ؛ فثَبُتُ كماله ، وإدراكه لجميع المدركات ، لكن على شرط لا يُفهم .

ومنْ ذلك مَا يُفهم منْ صفات البَشر ، بَل يَنْبغي أنْ تعلم أن الله تَبَاركَ

(١) المؤف : المصاب بعاهة « العمَى » .

وتَعَالَى لا يَسْمع بعد أنْ سَمع ، أو بَعد أن لمْ يَسمع ، ولاَ يَعْلم مَا لمْ يَعلم ؛ لا يَتَجدد له سَمع ، ولاَ بَصر ، ولا قُدرة ، ولا إرَادَة ، بل الإدراك القديم في الأزل[(١)] هو إدراكه الآن ، وفي الأَبَد .

وكَذَلكَ ثَبتَ للعُقُول عزه لذل جميع الأشياء له على كثرتهَا ، وعُظَمِهَا ، إذْ لا تُذَل إلا لعزيز قَاهرٍ .

وكَذَلكَ : كبْريَاؤه لتَصاغر الأشياء له ، وجلاله لتَضاؤُلها لجَلاله ؛ إذْ مَن يُزدرَى[(٢)] لا يُعبأ به .

وثبت للعقول فيض جُوده ، وكرمه لعُموم فَضله وعَطَائه على جميعِ / بريَّته ؛ إذ البخيلُ لا يخرجُ مِنْ يَدَه شَيء . ١/٧أ

وثَبَتَ للعُقول حُلْمَه ؛ لإمهَاله ، وقلَّة مُعَاجلَته بالعُقُوبات عَلى كثرة العصيَان في جَميع الأوقات ، وجَعَلَ الصَّاحبَة والولد لَه ، والشَّرَيك ، وهوَ مَع ذَلك يَحلمُ أو يَرحَمُ ، ويَقبلُ مَنْ تَاب ، ورَجَعَ ؛ لأنَّ العَجُول يتغيّر ، ويتعجّل بالعقوبة .

وثبت لطفه ، ورحمته ؛ ليهنأ العيش والدعة في ملكه .

وثَبَتَ حسن جميع صفاته[(٣)] مَا عُلم منْهَا ، ومَا لَمْ يُعلم بحسن أياديه ، وتَجاوُزه عن مخالَفيه ، وإحْسَانه إليْهم وَإكرامه مَنْ أطَاعه ، وغَير ذلكَ مما لا يُحصيهَ أحدٌ منْ حَسن أخلاقه ، وكَريم أفَضالَه ، فلم تُطق العُقول وَصْفَه بمَا هُوَ عَلَيْه منْ الكَمال ، والجَمَال ، والعزة ، والجَلال ، وصفَاته العُلَى ،

---

(١) الأزل : القدم : وقال بعض أهل العلم : أن أصل هذه الكلمة قولهم للقديم لم يَزَلْ ، ثم نسب إلى هذا فلم يستقم إلا باختصار فقالوا : يَزَلي : ثم أبدلت الياء ألفًا ؛ لأنها أخف فقالوا : أزَليّ .

(٢) يُزْدَرَى : يُحقَّر .

(٣) تم وضع كلمة « صفاته » بدلاً من «أخلاقه» حتى يستقيم المعنى ، والله أعلم بالصواب .

فَأَقَرّت(١) بالعَجز عنْ حقيقة وصفه ، فَامْتَن على العُقول بأنْ وصف لهم نفسَهُ في كُتبه بمَا هو لَهُ أهَلٌ من الثناءَ ، والتَّحامُد ، فعلَّمهم أسماءَهُ الحسنَى الدَّالة عَلى صفَاته العُلى ، ثمَّ نَظَرتَ العُقول في مخلوقَاته فَظَهَرت لهم دَلائل صفاته ، فتَعَبَّدت له، وأحبتهُ ، واشتَاقت إليْه ، وتَسَابَقت في ميدَان القرَب ، والتَقرب منه ، وإليْه للذي كَاشَفَهم به منْ جَماله ، وأظْهر لَهُم منْ مَحاسن جَلاله ، وكَمَاله .

(١) فأقرت : استقرت على الأمر ، واعترفت به .

فَصْل
فِي النَّظر فِي المَخْلُوقَات عَلى وَجْه الحِكمَة وإتْقَان الصَّنعَة

وكُلمَا تقدم في النظر إنَّما هو في إِثْبَات الدليل عَلى وجود الفَاعل سُبحانه .

وهَذا الفصلُ نَذْكُر فيه الآن الدَّليل عَلى صِفَات الفاعلِ الحكيم .

أَمَّا جسْم العَالم الأكْبر ، فلو قدَّرتهُ جَميع العُقول عَلى غير مَا هو عليهِ مِنْ الوضع والتركيبِ لانخرم نظامُهُ .

مثالُ ذَلكَ : أنَّ الأرض خُلقَتْ / كثيفةً [١] ، ولم تُخلق سَيَّالة مثل الماء ؛ ٧/ب لتستقرَ عليهَا الخليقَةُ ؛ لأن اللهَ تَعالى جعلَهَا قَراراً للمخلوقَات ، ولمْ تُخلَق أَيْضًا صَلبةً شديدةً مثل الحجَارة ؛ لأنَّها لو كانَت كذلكَ لَمْ تَصح فيها الحراثَة ، والغراسَةُ ، فكانَ يَبطل العَيش ، وتَخرب الدارُ ، والحكمة لو كَانَتْ كَالَماء ، أو الحجَارة ، أو على غَير مَا هي عَليه ، ولَمْ تخلق صورتها مُسْتَطيلةً قَائمَةً إلى فَوقَ ، أو إلى أسفل فلا يثبت عَلَى وَجْههَا أحَدٌ ، ولا يَتَهنَّى بوعَورَتَها عَيش لو كَانَت كذلكَ ، بل جعلت وطيّةً مُمَهَّدةً ، فحسنَ وطابَ عيش الخليقَة بهذَا .

وَجُعلَ فيهَا بعض التسنيد والتكوير لتجري المِيَاه على وَجههَا إلى

---

(١) كثيفة : كثف الشيء كثافة : غلظ وثخن ، وكثر مع الالتفاف والتراكب فهو كثيف .

نَواحي الأرض في الأودَية[(١)] ، والسهول[(٢، ٣)] ، ولا يَسْتقر المَاءُ عَلى وَجْهَهَا ؛ لأنها لو كَانَتْ وطيّة جداً ، مضطَجعةً بخط الاستواء، واستقرت المِيَاه عَلَى وَجهها لغرقت الأرض، وعَادَتْ مستنقعةً كلها ، ولَم يصح فيها نباتٌ ، ولا عيش .

ثم نُصبَت الجبَالُ عليْهَا ، وفيهَا لتضم أجزاءَ ترات الأرضْ كله ، بعضه إلى بعض ؛ كيَ لا تَتَحرك ، وتمتد ، فتنشق ، وتندثر ؛ لأن فيها بعض التخلخل ؛ ولو تحركت لانفصلت أجزاؤهَا بعضها من بعض ؛ لأن الأرض في الماء كالسَّفينَة في البَحر ، والماءُ محيط بهَا منْ جميع الجِهَات ، والماءُ متحركَ بطبعه ، فكان يحرِّك الأرض فتميدُ ، كَمَا قَال تعالى :

﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[(٤)] .

فجعلت الجبالُ في غَاية الصَّلاَبة التي لا يَفصل الحركة أجزاءَهَا بعضَهَا من بعض ، وَجُعلت في غاية العظَم ، ونُصبت في وسط الأرض ، وفي أطرافهَا ، وفي جميع نواحيها ، وفي بَاطن الأَرض، وظاهرهَا ، كالعظام في جَسَدَ الإنسَان فضمت أجزاء التراب وزمَّته ، وثَبَّتَت الأرضُ على ما هي عليه في مكَانهَا اللائقُ بهَا ، ولو قدّر أن تكون الجبال علىَ غَيْرِ مَا هي عليه لاتفسدَ النظام .

١/٨ وجُعلت الجِبالُ أيضًا مرتفعةً أسنمتُها[(٥)] ، والكُدَى[(٦)]/ . . . .

---

(١) الأودية : جمع وادي وهي : كل منفرج بين الجبال والتلال والأكام . وتجمع أيضاً وديان .

(٢) في الأصل « السيول » .

(٣) السهول : جمع سهل وهو : أرض منبسطة لاتبلغ الهضبة ، وهي خلاف « الحَزْن » .

(٤) سورة النحل الآية (١٥) .

(٥) جمع سنام ، وهي : كتل من الشحم محدَّبة على ظهر البعير والناقة ، وهي من كل شيء أعلاه .

(٦) الكدى : جمع كدية ، وهي : الأرض الغليظة أو الصلبة التي لا تعمل فيها الفأس .

والروابي[١] كذلك ؛ لأن تردّ البحَار عنْ وجه الأرض ؛ كي لا يحيط بها من جميع الجهات .

وجُعلَ من الجبال أوطيةً ، وطرقًا ، و[ ][٢] لتسيل فيها خلجان[٣] البحَار ، والأنهَار ؛ لتصل النَّاس بحوائجهم فيها بالسفن ، وتَصل الحيتَان إلى نواحي الأقطار ؛ ولدخولها في تلك الخلجان ، ولإخراج الأصداف ، والجَواهر منهَا ، ولولا ذلك لكان البحرُ مُنحازًا من ناحيةٍ منَ الأرض ، ولمْ تَصلْ منافعه إلى الخَليقَة .

وجُعلت الجبَال أيضًا مخازنَ للميَاه العذبة فتَتَفَجَّرَ منهَا العيون[٤] ، والأنهَار إلى البلدان ، وجعل البحرُ ملاصقًا للأرض ، ومُمَازجًا لهَا العذبُ ، والمالحُ ؛ لتمتزج رطوبة الماء بيبوسَة الأرض ، فتختلطُ رطوبة الماء بيبوسَة الأرض فيصلح من ذلك الخلَق ، والتَصويرُ من النبات ، والحيوَان ، وسَائرَ المخلوقات ؛ لأنَّ اليَابسَ لا يتصوَّر منه الصور ، والسَائلُ كذلكَ لا يطبع منه التصوير ؛ فَخُلق الماءُ سائلاً لهذه الحكمة ؛ ولتسري أيضًا فيه السفن بالجري ، ولولا ذلك لما صَحّ جَريَها ، ولا صَحّ تصرف حيوانه فيه .

وخلق البحر أيضًا متحركًا على الدوام لئلا يجمد فيصير أرضًا بالسكون فتبطل الحكمة ؛ لأن البرد طبعُ الماء ، والبرد يجمد ، ويبرد ، ييبس فكسرت كثرة حركته برودته .

---

(١) الرَّوَابي : جمع رابية ، وهي : ما ارتفع من الأرض .

(٢) بياض في الأصل .

(٣) خلجان : جمع خليج وهو : امتداد من الماء المتوغل في اليابس ، والنُهير يقتطع من النهر الكبير إلى جهة ينتفع بها ، ويجمع أيضًا خُلج .

(٤) العيون : جمع عين وهي : ينبوع الماء ينبع من الأرض ويجري ، وفي القرآن الكريم ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ وتجمع أيضًا : أعين .

وسُلطت عليه رِيَاح الهَواء من كل جهة ؛ لئلا يسكن ؛ ألا ترى الماءَ كيف ينعقد حجَارةً وثلجًا إذا اشتد عليه البرد ؟ .

وكذلك أيضًا يتحرك بتحرك حيوانه السَّاكن في جَوفه ، فذوابُّ البَحرِ تحرك البحر من باطنه بحركتها أبدًا فيه ، فبحركتهم حرَّكته ، وحَرَكَته سبب حياة حيوانه ، فافهم .

وخلق البحر مالحًا ؛ لئلا ينتن[1] ، ويتغير بطول المكث ؛ فيهلك حيوانه برائحته ، وكأن الهواء يحمل بتحرك الرياح عفونة رائحته فيلقيها على وَجه الأرض فيهلك مَا عليها بعفونته ، فخُلقَ مالحًا لهذه الحكمة/ ؛ ٨/ب
ولتكُون ملوحتُه دبَاغًا لأهوية العَالَم العفنة المضرَّة ، الكائنة من العفونات في نواحي الأرض ، والبلدان ، فتحمل الرِّيَاح أهوية البحَار ؛ فتمتزج بأهوية البلدان ، فتقطع الأهوية العفنة ، وتَدبغُها ؛ فاستقَام العيش بحكمة الصَّانع الحكيم ، وله الحمدُ .

وَخَلَقَ البحر الآخرُ حُلوًا ؛ ليصح بعذوبته العيش لجميع المخلوقَات ، ولو كان مَالحًا ، أو مرًا لأهلك الخليقة ، ولانفسَد نظام المملكة ، ألا تَرَى البحرَ كيف لا يَثبت في سواحله نبات ولا شَجر ؟ .

ثم خَلق الهَواء مُحيطًا بالبحر والأرض ، وَجعله ألطف منهما ؛ لتصح الحَركة فيه ، والقيام ، والقُعود ، والتنفس ، وذَلك كُله أسباب البقاء ، ولو كان مثلهمَا كثيفًا ، أو سَيالاً مثل الماء لم تَصح به الحكمة .

وثمَّ خُلقَ متخلخلاً[2] جدًا ، مُتحركًا في جميع الجهَات ليسوق السَّحاب إلى البلاد فينزل فيها المَطر ، ويَنْتفع النَّاس بإخراج الحُبوب من

(١) يَنْتُن : تخبث رائحته .

(٢) متخلخلاً : أي غير متضام .

الزُّروعَات ، ويَروِّح عنهم شدة الحَرارات المفرطة[١] ، ويُذهب عنهم حَرارة بَاطن الأَجسَام ، فتتغذى برَطوبته في التَّنفس المخلوقات ، وغَير ذلك من الحكمة .

ثمَّ خَلق لونَهُ على هذه الدِّقة المُحكمة ، لتنفذ فيه الأبصَارُ إلى منَافعهَا ، فتقبل الصُّور ، والألوان فيوصل بذلك إلى جَميع المَنافع .

ثم جُعلَ يتحَرَّك في وقت دُون وقت ؛ لأنَّه لو كَانَ متحركًا أبدًا لانتثرت[٢] مَنه الحُبوب ، ولأثَارَ الغُبار الدَّائم ، وطمست به العُيون ، وتكسَّرت أغصَان الأشجار ، وتَهدَّمت منه المبَاني ، ولم يصح معهُ عيش ؛ فجُعل سَاكنًا في وقت ، ومُتحركًا في وقت لتصح حركته ، وسكونه الحكمةُ؛ لأنَّ الهواء ريحٌ سَاكنةٌ ، والريحُ أهويةٌ متحركةٌ .

ثم خُلقت النَّار ألطف من الكُل ؛ كي لا تظهر ؛ ولو ظَهرت صُورتها ، وكَانت مثل الأرض ، والماء ، والهواء لأضَرت بأبصَار الخَلائق / مثل ١/٩ أ
البَرق[٣] ، والَّذي لو دَامَ لهلك النَّاس به .

ثم جَعلها تظهر في الأجسَام للمنافع من التَّسخين ، ولأن يستضَاء بهَا في وقت الحاجة إليهَا ، وخلقت حارة في غاية الحرارة للتسخين والنُّضج ؛ ولأن تُسيل الجَامدَات ، ويختلط بغليانها الماء ، والأرض ، والهَواء ، فتلتئم الخلقة من الجميع ، ولولاهَا ما صحَّ شيء من ذلكَ .

ثُمَّ انظُر إلى السَّمَاء وخلقتها : فإنَّها جسمٌ معتدل ، في غاية الاعتدال ، لا كثيفٌ جدًا فيقع إلى أسفل من الأرض ، ولا سَيَّال مثل الماء ، فيسيل

(١) المفرطة : المجاوزة للحَدِّ والقَدْر .

(٢) انتثرت : تفرقت .

(٣) البَرْق : الضوء يلمع في السماء على إثر انفجار كهربائي في السحاب .

أجزاؤهُ ، فتبطل ، ولا مُتخلخل مثل الهواء ، فتنحل أركانُه ، وتنتشر كواكُبه ، وتنسدُّ أرجاؤهُ ، فتخرب الهيئَةُ ، ولاَ خفي مثل النار فتحتاج إلى مادَّة ليظهر وجودَهَا ؛ لأن النار ملتهبَة ، أكل بعضهَا بعضًا ، ولَو كانت مثل النارً لأكلت السماءُ بعضها بعضًا ، وانخرم نظامَهَا مع كلِ لحظةٍ ، وانعدمت مع كل طرفةٍ .

ولم تخلق أيضًا أجفّ وألطف ممَّا هي عَلَيه فتصعَدُ عَنْ مَقَامها لخفَّتهَا ، فتذْهَبُ ، وتزولُ عَنْ مكَانها ، بل خلقتَ في غَاية من الاعتدالَ ، لَا كَثَيفةً جدًا ، ولا لطيفة جدًا ، بَل معتدلة بين ذلكَ ، فرفعت حين ذلكَ بلا عمَد تُرى ، بل بتعديل خالقها الذي خلقها في غاية الإتقانِ .

وهكذا كل سماء في نفسهَا ، ومقَامهَا على غاية الاعتدالِ ، لا تَحتمل الصعودَ إلى ما فوقَها ، ولا السفُول إلى مَا تَحتَهَا .

ثُمَّ انْظُر إلى حَرَكَة الأفلاك لا سَريعَة جداً ، ولا بطيئَةً جدًا ، ولا واقفة طرفة عين ؛ فلو كانت سريعةً جداً في الحَرَكَة ، أسرع ممَّا هي عَليه لكان الليل
٩/ب في طول نفسُ النهار كذلكَ ، والشَّهرَ والسنةَ[(١)] كذلكَ منْ سَاعةَ ويوم ، فلم يكن للأَبصَار ثَباتٌ ، بل كان يُرقب الليل والنَّهار كما يرقب البَرق ، فيجيءُ النهار قبل اللَيل كَمجيء البرق ، ويَجيء الليل بَعد / النَّهار كذَهَاب البَرق ، فلم يكن يُبصْرُ أحدٌ وشدَهُ ، وكانت تَبطل فُصول السَنة من الرَّبيعَ ، والصَّيف ، والخَريف ، والشتَاء ، ولم تَصح خلقة الأشيَاء على مَا هي عليه .

ولم تخلق أيضًا بطيئة جدًا ، فيكون النَّفس الواحدُ من شهر ، والسَّاعة من سَنَةٍ ، فيسئم[(٢)] النَّاس بالحركة الدَّائمة ، والسُّكونِ الدَّائمً ، فيهلك

---

(١) تكررت عبارة : «كذلك الشهر والسنة» في الأصل ، وتم حذفها .

(٢) يسئم : يمل .

الخَلق، والنَّبات ، وكل شيء .

ولم تكن أيضًا واقفة أبدًا ، فتكون الدُّنيا إمَّا ليلاً دَائمًا ، فلا يُبصر أحدٌ رشدًا ، ويَهلك بالبَرد الدائم والسكون الدَائم ، وإمَّا نهارًا دائمًا ، فيهلك بالحرِّ الدائم ، كل ما[1] على وجه الأرض بالحركة الدائمة ، بل خُلقت مُعتدلة الحركة ، في غَاية الحكمة ، لا يجوز أنْ تكون إلَا كَما هي .

ثمَّ انْظُر إلى لونها ، كيف جعلها الله أحسن الألوان للأبصَار ، ولونَها إلى الخضرة ، وهو أحسن شيء ، وأنفعه للأبصَار ، ولو كانَتْ سوداء مَظلمة لأهلَكت الخليقةُ بشدَّة خلقتها ، ووحشتها ، ولأخذ الخلق الهولُ[2] ، والفزعَ من منظرهَا ؛ لَعظم جرمَها ، فكانت طبَاعُهم تفسدُ منَ الرعب ؛ لأن الشيء المظلم مرعبٌ مفزع . ألا تَرَى إلى وحشة اللَّيل مع قلة ثَباته ، وامتزاجه بأنوار الكَواكب ، ولون السماء؟ .

وكذلك لو خلقت حمرَاء ، أو بيضاء ، فلَو كانت نورانيةً لأطمسَت[3] الأبصَارَ بالنظر إليهَا من أول مرَّة ينظر إليهَا ، ألا تَرى إلى الشَّمس لا يقدر أحدٌ أن يتبيَّن جُرمَها مع صغرَهَا .

وكَذلك لو كَانت حَمراء مع عَظم جرمَها ، أو في لَون غير هَذَا الذي هي به لأضرَّ ذلك بالخَليقَة ، فلا يليقُ بها إلا مَا هي عليه من تدبير الحكيم العَليم .

ثم زَيَّنَهَا بالكَواكب فجاءت في غَاية الحسن والجمال بكَواكبَها ، فاهتَدَى الخلقُ بهَا في ظُلمَات البرِّ ، والبَحرَ إلى جَميع المقَاصد ، وعلموا

---

(١) رسمت في الأصل « كلما» .

(٢) الهول : الفزع .

(٣) طمست : شوهت ، أو محت وأزالت ، ويقال : طمست الريح الآثر .

مقدار الزمَان ، والسَّاعَات ولو لَم تكن الكواكِب لم يهتَدَ إلى شيء ، ولا عرِفَ ذلكَ .

١/١٠ أ **وأمَّا حِكْمَة الشَّمس** / والقمَر ، والخُنَّس (١) ، وجميع كَواكب السَّماء ، فكُل واحد منها مَوضُوعٌ على عَملٍ وحكمَةٍ ، ليست لغَيْره ، لا تكمل المملكة إلاَّ بذَلكَ العَمل .

فَالقَمر لمعرِفَة الشُّهُور والحساب ، والترطيب ، والتبريد في جميع العَالَم .

وكذلكَ الشمسُ للضيَاء ، والحساب ، والتسخين .

وكذلكَ البُروج لفصُول السنَة ؛ الرَّبيع ، والخَريف ، والصَّيف ، والشتاء ، ولحصُول الجوارِ الكُنَّس فيها صَاعدَةً ، وهَابطةً إذا حلَّت الشَّمسُ ، أو القمرُ ، أو أي كَوكَبَ كان في أي بُرْج كَانَ أحدَث الله في أمرِه من هَذَا العَالَم مَا شَاكل البرج والكَوكَب ، والوَقْتُ ، والفصلُ .

وكذلك كل كَوكب في السَّمَاء يحدث الله بطلُوعهَا وغُروبهَا على الأرض كُل يَوم وليلة ، بلَ في كُلِّ ساعة ، ونفس في هذَا العَالَم جميع ما تنزل من أمور الدِّين ، والدنيَا من خير ، أو شر ؛ لأنَّ الله ما خلق السموات والأرضَ ، وما بينهما باطلاً وهو أن يخلق شيئًا لغَيْر معنىً ، أو لغَيْر حكمة ، بل لا يُحدثُ اللَّهُ في هَذا العَالَم مَوْتًا ، ولا حيَاة ، ولَا فقراً ، ولا غنَى ، ولَا نومًا ، ولَا يقظةً ، ولا ضحكًا ، ولا بكاءً ، ولا شيئًا مِنَ الأشياءِ ، إلا في

(١) الخُنَّس : الكواكب كلها ؛ لأنها تخنس في المغيب ، أو لأنها تخفى بالنهار ، وقيل : هي الكواكب السَّيَّارة دون الثابتة ، وقال الفراء : إن المراد بها في القرآن : زحل ، والمشترى ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد ؛ لأنها تخنس في مَجراها ، وتكنس - أي تستتر - كما تكنس الظباء في المكانس : وسميت خنساً لتأخرها ؛ لأنها الكواكب المُتَحَيِّرة التي ترجع وتستقيم .

زَمَان ، ووقت ، والزَّمان هُوَ حَرَكَةُ الفَلَك بما فيه ؛ فَبحَرَكَته التي هي الطلوع طلعتَ في هذاً العَالَم المحدثات كلهَا بالإيجَاد وبَغرُوبه غربَه عنْ هذاً العالم الموجُودَات بالإعدام والنفاد ، والطلوع ، والغرُوب للفَلَك مع كل نفس .

وكذلك المحدثات طالعةً ، وغَاربةً في هذَا العَالَم مع كل نفس ، وإنَّما تتحرك الأفلاك بالأمر النازل والصَّاعد ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى بعد ذكر السَّموات : ﴿ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾(١) ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾(٢) .

فقوله : ﴿ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ هو حدوث / ما يَحدُث في هَذا العَالَم ١٠/ب من الأمور السَّماويَّة ، ثمَّ يَعرُج إلَيه هُو ذهَاب مَا في هَذَا العَالَم ، ورجُوعه ، وليسَ عندَ السماء منَ الكوكَب إلا مَا جعَلَ فيهَا معَ كُل حَرَكَة .

والمقدورات جَاريةٌ على العبَاد إلَى حين وقُوف الفَلك عن الدَّوَرَان ، وَهوَ الوقتُ الموعُودُ بالقيَامَة العَامَّة لجَميع الخلق ، فدلَّ هَذَا التَدبير المحكم ، والصَّنعَةُ المتقنَةُ التي هي في غَاية الحكمة على صَانعٍ حكيمٍ ، عَالمٍ ، قدير ، ليسَ كمثله شيءٌ ، وهوَ السميعُ ، العليمُ ، البَصيرُ .

واعلمْ أن انتبَاه قلبك لتعظيم الصَّانع عند فهم الحكمة الدَّالة على الصَّانعِ هو تجلي صفات الصَّانعِ لقلبك ، فافهم ذلكَ وتفطن له ، واستزد منه جهدك .

---

(١) سورة الطلاق الآية (١٢) .

(٢) سورة السجدة الآية (٥) .

فصل

فِي النَّظرِ فِي الأَجسَاد الجُزْئِيّة المُرَكَّبَة مِنْ العَوَالِم الكُلِّيَّة

اعلمْ أن كل مَا في هذا العَالَم منْ الأجْسَاد الجُزْئيَّة التي هي الحَيَوَانُ، والنباتُ، وجميع مَعَادن الأرض إنَّمَا تركَّبت كلهَا منْ أربعة أشْيَاءَ من الأرضِ، والماءِ، والهواءَ، والنَّار.

فالمعَادن خلقها الله تعالى للمنَافع، والزينَة، والبيع، والشراء، ولدفع المُضار منَ القتال للاحتراز، وغيره، ولجلب المنافع العَامَّة، وذلكَ مثل الذَّهَب، والفضَّة، والجوهَر، والحديد، والصفر[١]، والرصاص التي ينتفعُ بهَا، لا قوَامَ للعَالَم[٢] إلا بهَا، ومَنَافعها كثيرة لا تحصى، ولا تخفى حتى لو عجز المِلْحُ[٣] الذي هوَ أَحد المعَادنَ لفسدَ العَالم بعدَمه؛ لأنها كانت تفسد الأمزجةَ وتتعطل الفوائد التي خلقَ لهَا، وفي ذلك الفَسَاد للعَالم، فكيف بسَائرهَا من الحديد، وغيره!.

فارجع بصرك في مصنوعات البارىء تعالى، لعلّ الله أن يفتح بصيرتك، فتشاهد الحق على مَا هُوَ عَلَيه.

(١) الصُّفْر بالضم الذي يُعمل منه الأواني، وأبوعبيدة يقوله بالكسر، والأصْفران: الذهب، والزعفران وقيل: الوَرْسُ والزعفران.

(٢) في الأصل «العالم».

(٣) المِلْحُ: المادة التي تجعل لماء البحر طعمه الخاص، ويمكن الحصول عليه من طبقات الأرض الملحية، أو الملاحات البحرية التي تتكون بعد تبخر الماء، ويستخدم في حفظ الطعام وتطييبه بوجه خاص.

وخَلَقَ اللَّهُ المعَادنَ / عَلَى صفَات مختلفَة من الشدَّة ، واللِّين ، ١١/أ
والكثرة ، والقلَّة ، وَمَا بين ذلك ليتخذَ منْهَا الآلاتِ ، والزينَة المَحبوبة التي هي سبب عمارَة الدنيا ؛ لأنَّ الزينة سببُ المحبَّة ، والمحبَّة سبَبُ العمَارة ، وَمَنَافعهَا أكثر من أن تُحصى ، لكن نبهنا العقول بنبذَة منها لعلّ اللَّهَ أن يمنَّ بالفتَح المبين من عنده .

وأمَّا النَّبات فإنه مخلوق لغذاء الحيوان كله ، ولمنافعه ، حتى لو عجزتْ آلةُ الحرث المتخذة من الخشب لفسدَ العَالَم .

وكذلك الحيوانُ أيضًا خلقه الله تعالَى ، وسخَّر بعضهُ على بعضٍ ، وَجَعل بعضه طعمًا لبعضٍ ، كل ذلك لقوام العَالمِ ، وكماله .

وأمَّا كيفيَّة تَرْتيب خلقة هَذه الأشيَاء كلهَا ، ووَجهُ الحكمة في خلقتها على هَيئَاتهَا التي هي عَليه ، فهوَ بَحرٌ وَاسعُ الأطراف(١) ، لا يتم أبدًا ، وسنذكرُ مَنْ ذلكَ طرفًا في كَيفيَّة خلقة الإنسان ليكونَ تنبيهًا على غيره إن شاء اللَّه .

ونذكر منه هنَا وَجهًا واحدًا مختَصرًا على وَجه الإجمَال وذلك أن تعلم أن كل جزء من جميع المخلوقَات بمنزلة عضو من أعضائك ، لو نقص من أعضَائكَ ، أو كانَ عَلَى غَيْرِ هيئَته التي رَكبَ عَليها مثل الفَرج ، أو اليد ، أو القلبَ ، انفسد نظام الجسد .

وكذلك لو أنَّ الحديدَ كان على غير هَيئَته انبطل الحرث الذي هوَ سبب العيش ، وانبطلت الغراسةُ ، والحفرُ ، والقتَال ، وَفَسَدَ العَالَم ، وكذلكَ سَائر المعَادن ، والنبات ، والحيوان .

ويكفيك النظر في تركيب جسدك لتستدل بذلك على ترتيب الحكمة

(١) الأطراف : النواحي ، والجوانب .

في الحيوان والنبات، والمعَادن، وَجميع المخلوقَات إن شاء الله .

فصل

اعلمْ أن جسدَ الإنسان مركب من الأصول الأربعَة الَّتي تقدَّم ذكرها، تفصَّلت هذه الأربَع / إلى العظم والمخ(١)، والَعصب(٢)، والعروق(٣)، والدم، واللحم، والجلَد، والظفر، والشعر، هذه جملة الجسد، وُضعَ كل نوع منها لحكمة، لولاها لم يكن الجسد . ١١/ب

فالعظام : منها تركيب هيئة الجسد على مَا هوَ عَليه بضم بعضهَا إلى بعض، وَلم يجعل عظمًا واحدًا؛ لأنه كان يكون مثل الحجر لا يتحرك، بل هي عَددٌ معلومٌ، لكلِّ جزء من الجَسَد عددٌ من العظام، لو نقصَ منهَا واحدٌ، أو زَاد فيها واحدٌ تعطَّلت بنْيَةُ الجسَد، وكانت وبالاً عليه، فانظر الذي جعلها عظامًا متعددةً، ولم يجعَلهَا واحَدًا، وخصَّها بهذا العدد، ما أحكمهُ وأعلَمه .

ثمَّ لمّا كانَت عظامًا كثيرة؛ لأجل الحَركة لم يكُن لينظم بعضَهَا إلَى بعض حين صوَّر منها الجسَد إلاَّ بإلصَاق بعضهَا إلى بعض فلم يكن بد من رابط لَهَا فخلق العضلات(٤)، والعَصبَ، وربط العظام بهَا بعضهَا إلى بعضٍ، ولو كان العَصبُ أقوى ممَّا هوَ، أوْ ألينَ ممَّا هوَ لم تصح حركة الجسمٍ، ولا تصرفَت الأعضاء في منافعها .

ثم خَلَقَ المخ في العِظام في غَايَة الرُّطوبَة؛ ليرطب يبس العظام،

---

(١) المخ : معظم المادة العصبية في الرأس، أو هو الدماغ كله إلا المخيخ والقنطرة والبصلة .

(٢) العصب : شبه خيوط بيض يسري فيه الحس والحركة من المخ إلى البدن، والجمع أعصاب .

(٣) العروق : مجرى الدم في الجسد .

(٤) العضلات : جمع عضلة وهي : كل لحمة مجتمعة مكتنزة ممتلئة في عصبة فهي عضلة .

وشدتهَا، ولتقوى العظام برطُوبته، ولولا ذلكَ لضعفت قوتهَا، وانخرمَ نظام الجسَد بضعفها .

ثمَّ خلَقَ اللَّحم، وعباَّهُ على هَيئَة العظام، وَسد به خلل الجسم كله، فصار مستويًا لحمةً واحدةً، واعتدلتَ هيئة الجسد به، واستوت، ولو كانَ أيبَس ممَّا هوَ عليه لم تَلْتَئم أو سيَّالاً لم تَلتَصق، فلا يجوز أن يكون إلا على صورته التي خُلقَ فيها .

ثمَّ خلقَ العروق في جميع الجسَد، جَداول لجريَان الغذاء فيهَا إلَى أركان الجسَد كلِّه، لكل موضع من الجسَد عدَدٌ معلومٌ من العُروقَ، صغَاراً، أو كبَارًا؛ ليأخذ الصغير من الغذَاء حَاجَتَهُ، والكبيرُ حَاجَتَهُ، ولو كانت أكثر ممَّا هي أو أنقص، أو على غير مَا هي عليه منَ / الترتيب ما صَحَّ ١/١٢
منَ الجسَد شيءٌ .

ثم أجرى الدم في العروق سيَّالاً خَاثرًا [١]، ولو كان يابسًا، أو أكثف ممَّا هو عليه لم يجر في العُروق، ولو لم يكن خاثرًا، أو كانَ ألطف ممَّا هُو لم تتغذ به الأعضَاء ثمَّ كسى اللَّحم بالجلد ليستره كله، كالوعَاء عليه، ولولا ذلك لكاَنَ قشرًا أحمر، وفي ذلك هَلاكهُ .

ثمَّ كسَاه الشعرَ وقَاية للجلد، ومَا لمْ يكن فيه شعرٌ جُعلَ له اللباس عوضًا منهُ، وجعل أصوله مغروزَةً في اللحم، وليَّن أصولهَ، ولو كانت يَابسةً مثل الإبر لم يهنه بذلك عيش، وجعلَ الأشْفَارَ [٢] وقاية للعَيْنَين، ولولاَ ذَلكَ لأَهلكهما الَغبارُ والسَّقط، وَجعلَ الأشفارَ عَدداً معلومًا لينظر من خلالهَا، ولم يجعلهَا طبقَةً واحدةً فكانت تمنع النظر .

(١) خاثرًا: الخثورة ضد الرقة، ويقال: خثَرَ اللبن بالفتح، يَخثُرُ بالضم، خثُورة .

(٢) الأشفار: جمع شُفر وهي: حروف الأجفان التي ينبت عليها الشعر - وهو الهدب - وحرف كل شيء، شُفْره، و شَفيره كالوادي ونحوه .

وخلقَ الأسنَانَ بعدَ هَذا كله ، وبَعد رضَاعة مدةً طويلةً ليعتَاد الرضَاع ، ويتعلمه ، ولم يخلق الأسنَان له مع خلقته كلها كي لا (١) يضرّ بأمِّه في حال رضَاعه بالعضِّ ، فالصبية حال الرضَاعَ لَا يصلح له الغذاء ، فإذا تَرعْرَعَ ، واشتدَ وصلحَ للغذَاء خلق له الأسنَان ، وجعلهَا نوعين ؛ بعضَهَا محدود الأسنَان ، وهي التي للقطع ؛ يقطعُ بهَا المأكول ، وبَعضها مبسُوطة ، وهي التي للطحن ، ولولا ذلك مَا صحَّ من الجسد شيءٌ ؛ فسبحان اللَّه مَا أكثر الآيَات الدَّالة عليه ، ولكنَّا لا نبصر إلا بتوفيق اللَّه تعالى .

ثمَّ لَمَّا كان الغذاء ، والمأكول شديداً كثيفًا ، ولم يكن ليجري في الفم إلى الحلق ، وهوَ كذلكَ أتبع اللَّه تَعَالَى في الفم عينًا نباعةً(٢) على الدَّوام أحلى من كل شيء حُلْو ، وأعذب من كل شيء عذب ، فيحرك اللِّسَان الغذاء ويمزجه بذلك الماء فيعُودُ زلقًا فيتخدر في الحَلق بلا مؤونَة ، وإذا عدمت تلك العين بالجفو من المرض لم يمض على الحلق شيء/ . ١٢/ب

ولَمَّا كَانَت الحرارةُ تخرج من الجوف كسرت تلك العين عَاديةَ تلك الحرَارة على الدَّوَام .

وهكذا كل عَظْم ، وعرْق ، وقليل أو كثير من الجَسَد على هَذه الحكمَة ، وأكثر ، ولوْ تتبَّعَت ذلَك لطال بهَا الكلام ، لكن بالقَليل يتوصَّلَ إلى الكثير إن شاءَ اللَّه .

ثم خَلقَ الأظْفَارَ لتشد أطراف الجسَد لئلا تنكَسر الأطراف . وليحَك بهَا في موضع الحاجَة .

فانظر هذا الترتيب الغريب مَا أعجَبَهُ ، حتى أنَّ الشعرَ ، والظفرَ لَمَّا كان

---

(١) رسمت في الأصل « كيلا » .

(٢) العين الجارية هي لحمة في جانب الحلق قرب اللهاة تسمى اللوزتين .

يطول ، فيحتاج إلى جزّه[1] كيفَ يكون الحال لو كان يُحسُّ بجزّه كسائر الأعضَاء ، وعلى مثلَ هَذَا الترتيب تركبت أجسام الحيوان ، والنبات كله ، وكل مَا يتركب من جميع المخلوقَاتِ في غَايَة الحكمةِ الدَّالة على الصَّانع الحكيم .

ثمَّ خلقَ في باطن الجَسَد أعضَاء رَئيسيَّة جعَل كل عضو منهَا على عَمَل مخصُوص ، وجعَل في كلِّ عَضو قوى فَعَّالَة بإذْنه ، لا قوامً للجَسَد إلا بهَا ، مثل المَعدَةَ ، والطحَال ، والكبدً ، والمُرارة ، والرَئة ، والقلب ، والدماغ ، وجعل فيهَا القوى الجاذبة ، والماسكَة ، والهاضمة ، والغَاذيَة ، والنَاميَة ، والدَّافعَة ، والمصورة ، وفي وَضع هَذه القَوىَ في هذه الأعضَاء ، وتخصَيص كل عضو منها بقوَّة غير مَا خَصَّ غيره حكمة عَظيمة دالة على الصَّانع ، فتفطن لهاً من ذلكَ أَعَانَكَ اللَّهُ ، ولو تعطَّل من هَذه الأعضاء ، والقوى واحداً تعطّلَت البنْيَةُ كلها ، ثم خلق له الحواس[2] في مواضعَها الخاصة بها اللائقة ؛ فجعَل اللمس في اليَد ، والسَّمعُ في الأُذن ، والبَصَر في العَيْن ، والذَّوْقُ في الفَمِ ، والشَّمُّ في الأَنفِ ليدرك بكل واحدٍ منهمَا ما ينفعُه ، وَمَا يضره بهَا .

وجعل الجوارح كالآلات ، ولو تعطل شيء منَ الجوارحِ والحواسِ لانخرم نظام الكل .

وهكذا كل شيء في غَايَة الإتقان / ، لا يجوز تحويلُهُ عمَّا هُوَ عَليه ، ولو كانَ على غير ما هو عليه لانخرم نظام العَالَم كله . ١٣/أ

فَقَدْ دلَّتِ الأجسَاد على صَانِع قديمٍ ، مُدبِّرٍ حكيمٍ ، عَالمٍ متصفٍ بكل

---

(١) جزة : قطع ما زاد منه على الأنامل .

(٢) الحواس : المشاعر التي خلقها الله للإنسان ليدرك بها الأشياء .

وصف[١] كريم .

ثم انْظُر إلى أعجب من هذا كله ، وأغرب ، وذلكَ أن هذَا الترتيب العظيم ، والنَّظْم المحكم الجسيم الذي رتبت الأجساد عليها إذا زَال الروح القَائم بهَا ، المصرف لهَا ، كيفَ تفسد جملتها ، ويَنخرم نظامهَا ، فلا قيَام للأجسَاد إلا بالأرواح .

وفي معرفَة الأروَاح هوَ الشأن كُلهُ ، وَالخير أجمعُه وفيهَا الدلالة الكبرى على البَاريَ سبحانه ، كما قَال عليه السَّلام :

« مَن عَرِفَ نفسهُ عرف ربَّه » والنفس تُسمَّى روحًا ، والروح تُسمَّى نفسًا[٢] .

وَقَدْ تكلمَ الناسُ في معرفَة النفس والرَّوح فقالَ قومٌ : الروح هي النفس ، والنفس هي الروح ، وإنَّمَا همَا اسمَان بمعنىً واحد ، واحتجوا بقول النبي - عليه السَّلام - : « إنَّ اللَّه قَبض أروَاحنَا »[٣] ، وبقوَل بلال للنبي ﷺ : « أخذ بنفسي الَّذي أخذ بنَفسكَ » .

وَهَذَا لَيسَ فيه حجةٌ قطعيَّةٌ على أنهما شيءٌ واحد ؛ فإن الحديث الواحد أخبر فيه عنْ الروح ، والحديث الآخر أخبر فيه عنْ النفس ؛ لأن النفسَ وَالرُّوح تَنامَان ، ويَتَوفَّيَان في النَّوم ، وفي الموت .

---

(١) في الأصل « خلق » وما أوردناه أولى ، والله أعلم .

(٢) أورده الحافظ السخاوي في كتابه « المقاصد الحسنة » حديث رقم (١١٤٩) وقال : حديث «من عرف نفسه فقد عرف ربه » قال أبو المظفر بن السمعاني في الكلام على التحسين والتقبيح العقلي من القواطع أنه لا يعرف مرفوعاً وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي - يعني من قوله - . وكذا قال النووي : إنه ليس بثابت وقيل في تأويله : من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء .

(٣) أخرجه القاضي عياض في كتاب « الشفا» (٢/ ٣٤٩) وابن عبد البر في «الاستذكار» (١/ ١٠٨)، (١/ ١١٨) .

وقَالَت طائفةٌ : الروح غيرَ النفس - وهَذا هُو الحق - فإنَّ أخلاق النَّفس غير أخلاق الروح ، وأخلاق الروح غير أخلاق النَّفس ، فطَبْعُ النفس الهوى ، والشَّهوة ، والأمرُ بالسوءِ ، والجَهلِ ، وطبعُ الروح العَقل ، والعِلم ، والتدبير ، والفهم .

ومتى لم تُمنع النفس من طَبعها لم تَرجع عنه ، ولم تَمنعها إلا الرُّوح ؛ فإن قُلت : إن الكفار والفُجار لا علمَ لهم ، ولا تَدبير ، فاعلمْ أنّ لهم علمًا وفهمًا ، وتدبيرًا في أمور دُنياهم ، ومَعَايشهم ، ومَذاهبهم / . ١٣/ب

فَصلٌ

فِي مَعْرِفَةِ النَّفْسِ والرُّوحِ

أمَّا الجوهر الرُوحاني النفيس(١) العَالي فتعرف ذَاته(٢) من جهة مُخالفتها لذَوات الأجساد .

فاعلمْ أنَّ الروح مُخالف للجسم في التَّركيب ؛ لأن الجسم مُؤلف من أجزاء كثيرة ، لا تُحصى ، كَانَ أصلها الافتراق والتَلاشي(٣) ، والروح لَيس بأجزاء مُتآلفة بعضها إلى بَعض مثل الجسَد ، بل هُو شَيء واحد ، غير مُركب ؛ - أعنِي تَركيبَ الجسد - الذي رُكب من أربعة أشياء : تُراب ، ومَاء، وهَواء ، ونَار .

فافهمْ وحدانية الروح ؛ فإنَّه ليس ثنتين ، ولا ثَلاثة ، ولا أكثر ، إنَّمَا هُو جوهر ، فَرد ، رُوحاني في غَاية اللَطافة ، وهكذا كل روح في نَفسه فَرد .

والروح مُخالف أيضًا للجسم في التَقْييد بالحُدود؛ لأن الجسم مَحدود بجهَات ؛ إذَا أقبل على جهة انْحاز عن أُخرى ، والروح مُطلق غَير مُقيد - أَعني قُيود الجسَد - الحاصرة له عن التَّصرف في كل جهة ؛ فإنه لَيس جهة أَولى به من جهة ، وإنَّمَا قيوده الجَهل ، والمُخالفات ، والظُّلمات .

والروح مُخالف للجسَد في الكثافة ؛ لأنَّ الجِسم ثقيل كثيف .

---

(١) النفيس : عظيم القيمة يرغب فيه .

(٢) ذاته : ذات الشيء ، حقيقته وجوهره .

(٣) التلاشي : الفناء .

والروح في غَاية البَسط الروحاني ، واللطافة الرُّوحانية وإنما ثقَّله الأوزَار[١] الثقال ، وكَثافته رُكونه إلى الأشيَاء ، وشَغَفَه[٢] باتباع الهَوى ، وقُصوره عنَ الإدراكَات .

والروح مُخالف للجسم في التفاحم ، والمُزاحمة ؛ لأن الجسم يُرد بَعضه بعضًا ، ويُزاحم بَعضه بعضًا ، والروح لَيس كذلك ؛ لو اجتمع مائة ألف ألف روح لا يُزاحم بعضها بَعضًا ، وإنَّما مُزاحمة الأرواح بالعَداوة ، والغَضب ، وسُوءِ الأخلاق ، والتنَاكر ، وغير ذلك مما يقع به التَّبَاين ، والاختلاف .

والرُّوح أيْضًا مُخالف للجسم في التمكن ، واحتياج الجسم إلى المكان ضَروري ، واحتياج الرُّوح إليه جَائز ، وهو حَامل الجسَد ، ومُحركه ، ومُسكنه ، والقَائم / به ، ويَبطل بزوال الروح عنه ، ولا يَبطل الرُّوح بزَوال ١٤/أ الجسَد عنه ، فبينهما بَونْ[٣] كبير في الاحتياج إلى المكَان ؛ فإن الجسم يحتاج إلى مكان يَعتمد عليه ، ويَستقر فيه ، ولو زال عنه هوَى[٤] ، ولتكدُّك[٥] .

والروح غَير مُحتاج إلى مكان أعني حَاجة الجسَد بل هو المكان للجسم ، والجِسم مَوضوع عليْه ، ولَه ، وإنَّما مكان الروح المكانة ، أو ضدَها .

والرُّوح مخالف للجسمِ في الاتصال ، والانْفصال ؛ لأنَّ الجِسم إذا

(١) شغف : إصابة قلبه ودخل فيه تحت الشغاف .

(٢) الأوزار : جمع وزر الحمل الثقيل .

(٣) البُونْ : البُونُ ، والبَوْنُ : مسافةُ مابين الشيئين .

(٤) هَوَى : سقط من علو إلى أسفل .

(٥) تكدَّك : أُرهق وتَعِب .

اتصل بشيء انْفَصل عنْ مَوضعه ، ولم يَبق فيه منه شيء ، والرُّوح لَيس كذلك ، لَيس هُو متصل بالجَسد ، ولا هُو مُنفصل عَنه انْفصَالاً يتركه بالكُلية لانْفصَاله عنه ، ولا دَاخل فيه دُخولاً يحصره ، ويَضمه فيه كالوعاء المُحتوى علىَ الشَّيء فيحجبه[١] عن غَيره ، ولا خَارج عنه ، وإنَّمَا اتصالَه به الوصال خُروجًا لا يبقَى منه بالكُلية فيه أثر ، والوَصلة التي وقَعت بَيْنه ، وبيْن الجَسد في المُشَاكلة عنْد النَّفخ ؛ لأنَّ كُل جسد لا يَقْبل إلا مَا شَاكله من الأرواح ؛ فالعَلاقة وقعت بيْن الجسَد والروح منْ هَذا البَاب ، ولم تَزل تلك العَلاقة تَنشأ ، وتَنمو حتى كثر الوصال ، والود ، فلا يزال الرُّوح يَجري في مَرضات الجسد ؛ لأنه قد اتحد بَه منْ كَثرة المحَبة ، وله يَجمَع ، ويَدخر ، إلَى غير ذلك ممَّا لو ذَكرته لطَال به الكَلام .

وإذا فَهمت هَذا السر انْكشف لك سر المَوت ، وشدته ولينه في حق قَوم دُون قوم ، وأشرفت على بَحر عظيم مَن أمر الموتَ ، وعَذاب القَبر ، ونَعيمه ، وانْفصَاله أيضًا عنه من هَذا النوع ، فاستعن باللّه على الفَهم يُعينك ، وإنَّما هَذا تذكير ، واللّه المُوفق .

والروح مُخالف للجسد في الإدرَاك ؛ لأنَّ الجسم لا يُدرك الشَّيء إلا
١٤/ب بالمماسة له ، والحسِّ ، والرُّوح ليس كَذلك يُدرك الأَشياء من غَير / مماسةَ ، والقَريب والبَعيد عنده سَواء ، وإنَّما إدْرَاكَاته المَعارف ، والعُلوم والدلائل[٢] ، والبَراهين ، وإدراك الغَائب بالشَّاهد إلِى غير ذلك .

فصل

ومن أعون شيء على معرفة الروح ، وأقربه أن تعلم أن وجود الشيء

(١) فيحجبه : فيستره .

(٢) الدلائل : جمع دلالة : وهو ما يدل عليه اللفظ عند إطلاقه .

كلما علا ، وقرب من بارئه لطف جوهر ذاته ، وتروحن ، وانبسط ورقّ ، وصفا ، وكلما بعد عن الموجد كثف ، وعَظم ، وغَلَظ ، وظَهرت عليْه عوَارض الجسم ، وقيود الحدود المانعَة من البسط فيه .

ومثال ذلك بالمشاهدة أنَّ الأرض التي نَحن مخلوقون منها[١] لما كَانت في أسفل العَالم كانت أكثف الموجودات وأشدها إظلامًا ، حتى أنَّ الليل الأسود إنَّما هو ظلها .

وفَلك الماء لما كَان فَوقَها في عُلو الرتبة ، والمكَان كان أصفى منها ، وألطف ، وأبسط فَتَراه يَطلب الانبسَاط بوُجُوده أبدًا .

وفَلك الهَواء فوقه ، فجِسْمُه أغرب لطافة ، وصَفاءً وانْبسَاطًا .

وفلك النار - الذي هو الأثير فوق الهواء - ألطف ، وأرق ، وأبْسط منه ، وهو جسم تحت جسم الفَلك ، والفَلك فَوقه ، وهو أغرب من كُل مَا تحته ، وأصفى[٢] جَوهرًا ، وكُل فلكٍ ، وسَماءٍ أغرب ، وأصفى مِن الذي تحته ، وأعظم لَطَافة .

وهكذا كُلما علت جَواهر الموجُودات ، وذَواتها ، وقَربت من الآمر كَانت ذَواتها ألطف جَوهرًا ، وأبسط وُجودًا وأكثر تَروحنًا ، وإذا فهمت هَذا لمْ يَشكل عليك قولٌ في مَعرفة الروح ، وبَسطه ، ولطافته ، وتَروحنه وبَسطه بقرب من لطائف صُورة المَعلوم المُتصورة في نَفس العَالم بها ، فَذَاتك ومَا هي عَليْه من الكَثافة في عالم الدُّنيا جُسمانية ، وهي في عَالم النَّفس ، والكُرسي نفسانية ألطف منها في الجُسمانية ، وأغرب وجُودًا ،

---

(١) يقول تعالى ﴿ مِنْهَا خلقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ .

(٢) أصفى : آثر واختص من الشوائب والدوائر والدواخل فكان خاليًا صافيًا مختارًا عن غيره ويقول الله تعالى ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ .

وهي والتَّعبد بها في عَالم الروح والعَرش رُوحانية ألطف منها في النَّفسانية/ ، وأغرب ، وهي مُتصورة في العلم القَديم صُورة علمية مَعلومة ١٥/أ نورانية ، فكلما شَغل الوجود ، وبعد من العُلو كَثُف ، وأظلم ، وكُلما قَرب لَطفَ ، وتروض على هَذه الصُّورة خلقت الأشياء ، وفُطرت ، وتَمام هذا كُله ، وكماله في الكَثافة ، واللطَافة ، والقُرب ، والبُعد [من][١] الشِّرْعَة[٢] ؛ ومَعنى الشِّرعة أنَّ اللَّه -عز وجل - لما خَلق الأشيَاء ، وفَطرهَا على ما فَطَرها عليْه شَرع لها الشِّرعة ، ونَهج المنهاج[٣] ، وأمر بالإقْبَال عليْه ، والارتقاء في الدَّرجَات المقرِّبة إليْه ، ونَهى عنَ البُعد منه ، والإعرَاض عنه ، فمن ارتَقى إلى مَولاه كما أَمره صَفَّت ذواته البَواطن ، والظَواهر من الأثقَال ، والأَوزار الثِقال على حسب ما قَسَم لهم الكَبير المتعال .

وبهذه الخِفة التي ذكرنا ، والتَروحن الذي وَصَفنا مشوا على المَاء ، وطَاروا في الهَواء ، وخَرقت لهم العَوائد ، ونُشرت على قُلوبهم الفَوائد ، فسمعوا الوَحي ، والإلهام وكَانوا آية للأنام ؛ لأنَّ أَروَاحهم ، وعُقولهم جذبَت منهم النُّفوس ، والأجسام إلى حَضرة ذي الجَلال والإكرَام ، فازدَادُوا تَروحنًا برَوح القُدس ، ووَجدوا حَلاوة المحبةَ ، والأُنس : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾[٤] وبضد هَذا الوصف منْ انتكس[٥] ومَات قلبه ، واتَّبع هَواه .

وقالِ سَهل بن عبد اللَّه[٦] : أول مَن مَات من الخَلق إبْليس وبين هَذين

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) الشِّرعة : المذهب المستقيم .

(٣) المنهاج : الطريق الواضح البيِّن الظاهر .

(٤) سورة المجادلة الآية (٢٢) .

(٥) انتكس : عاد إلى ما كان عليه ، والمريض عاوده المرض والعلة .

(٦) هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رافع التستري الزاهد =

الصنفين الخَلق طَبقات من القُرب ، والبُعد ، والخفة ، والثُقْل .

أما المَشي عَلى المَاء ، وفي الهَواء ، فإنَّ الجسد يَهوي بطَبعه إلى الأرض، لا يَستقر عَلى المَاء ، ولا في الهَواء ، فهذه فطرته ، وطَبيعته ، فإذَا مَلكه الروح ، وصَرفه على عَرضه ، ولم يَملك من نَفسه شيئًا ، ولا حَركة وَاحدة حتى يكون تَابعًا ، لا متبوعًا ، كأجسَاد الأولياء مع أرواحهم ، أمشَاه الروح على عَرضه عَلى / الماء وفي الهواء ؛ لأنَّه لا يَتَصرف بحُكم طَبعه ، بل بحُكم غَيره ، فقَد رَدّه عن حُكم طَبعه إلى إرادتَه ، فأوقفه على المَاء فَلا يَغرَق ؛ لأنَّ حركة طبعه لا حُكم لها عند الرُّوحَ إلا باختياره ، وأكثر أجسَاد الخلق هي مَتبوعة ، لا تابعة ، والأرواح تابعةَ لها ؛ هي التي تَتَصرف ، والأرواح تَتَصرف بِتَصرفها مما كَسبتها الأجسَاد معاني الثُقْل ، وتصرف الأجسَاد فافهم . ١٥/ب

=الصوفي البغدادي المشهور ، ولد سنة [٢٠٣] ، وقيل : [٢٠٠]، وتوفي سنة [٢٨٣] ، وقيل سنة : [٢٧٣] . قال صاحب طبقات الأولياء : صاحب كرامات لقي ذا النون ، وكان له اجتهاد ورياضات وهو ورع سكن البصرة زماناً ، وعبدان مدة ، وكان سبب سلوكه خاله محمد بن سوار . ثم حكي من قوله أنه قال له رجل : أريد أن أصاحبك ، فقال سهل : فإن مات أحدنا فمن يصاحب الثاني ؟ قال : يرجع إلى الله تعالى ، قال: فلنفعل الآن .

انظر ترجمته : سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٠) ، طبقات الأولياء (٢٣٢) حلية الأولياء (١٠/ ١٨٩) ، شذرات الذهب (٢/ ١٨٢) .

فصل

فأمَّا وَحدَانية الرُّوح فإنَّ الجسَد إذَا قَام العرض أو الإدْرَاك بجُزء منه مثل سَواد العَين ، وإدراكه ، أو لمس اليَدَ ، وبَيَاضه ، أو ذوقَ الفَمَ ، ولونه ، لا يقوم بجُزء آخر مَن الجسَد مثل بَيَاض الظُّفر . الذي لا يكُون في الوجه فافهم هَذا جيداً .

والروح لَيس كَذلك ؛ إذا حل به العَرضُ حل بكلية ذَاته ، وأحاط بالذَّات إحاطة[1] عَامة ، غَير خاصة مثل العلم ، والحَياة ، والنُّور ، والظُّلمة من الجَهل ، وغيره من الصِّفات الحُسنى ، وجَميع الأعراض الحَالّة به لا يَقُوم عَرض من الأعراض ببَعض الرُّوح دُون بَعض ، وإنَّما ذكرنا البَعض مَجازاً ؛ لأنَّ الرُّوح ليس يتَبَعض ؛ خَلَقه البارىء على هذه الصُّورة آية له ، ودَليلاً عليه .

وفي الحديث : « **إنَّ اللَّه خَلق آدم على صُورة الرحمن** »[2] . وفي حديث آخر : «**على صورته** » ، وكَلف هذا الجوهر أمراً عظيماً ؛ الاتصاف بأوصاف بارئه ، والتَّعبد بها والتخلق بصفاته[3] على قدر طاقته ، ولا يكلف اللَّه نفساً إلا وُسعها ، ولهذه العلة جَعله اللَّه خليفةً ، والخَليفة بَدل من المُستخلف كَما وَرد في أنفس الجَواهر وأعلى الخُلفاء : ﴿وَإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ ....

---

(١) أحاط : حفظ وتعهد به .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة من صحيحه (١١٥) وكتاب الجنة (٢٨) ، وأحمد في المسند (٢/ ٢٤٤) .

(٣) في الأصل : « بأخلاقه» وما أوردناه يستقيم به المعنى . والله أعلم .

عَظِيمٍ﴾[١] .

قيل في التَّفسير : عَلى أخلاق الرُّبوبية ، وقالت عائشة - رضي اللَّه عنها - : « كَانَ خُلقه القُرآن»[٢] فهو الجوهر الكريم في / غَاية الصَّفا ، ١٦/أ
والنُّور، والنَّفاسة ، والشَرف والجَلالة، أو ضد ذلك ، أو ما بينَهُما ، وأوصاف هَذا الجَوهر خلفةٌ علية من [جُود][٣] الإله الجَواد الكَامل المُجيب ، الَّذي لا تُقبل من أحد ، بل هُو البَعيد النزيه عن القبول من شَيء ، وكَلف هَذَا الجَوهر منَ الأفعال وضع الأشياء مَواضعها على حَسب ما يَقْتضيه أمر الآمر السَّيد الكَريم ، ولذَلك قال :

﴿ مَنْ يُطِعِ الرسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه ﴾[٤] ﴿ إِنَّ الَّذينَ يُبَايعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايعُونَ اللَّه ﴾[٥] لأنَّه جَعله بدلاً منه ، فكأنه في مجاز القَول هو : كُنت سَمعه وبَصره ويَده ورجله، ومثل هَذا كَثير ، ومَن فَهم سِرّ الرُّوح فَهِم حقيقة سِر المحبَة ، والمَعرفة إن شَاءَ اللَّه .

فأَمَّا أَصل حَقيقة الرُّوح فَمِن الأمر .

اختلف النَّاس في مَعرفة الأرواح ، فَقَالت طائفة : الرُّوح ، لا يُعلم أصلاً ، واحتجوا بقَول اللَّه تَعالى : ﴿ قُل الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[٦] ومن يُطلق هَذا القَول مِن العُلماء، وإِنَّمَا عَنى لا يُعرف ، ولا يُحاط بِمقدَاره ، ولأنَّ اللَّه

---

(١) سورة القلم الآية (٤) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٩١) ، (٦ / ١٦٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى بنحوه (٢/ ٤٩٩) .

(٣) بياض في الأصل ، وكذا يقتضي السياق .

(٤) سورة النساء الآية (٨٠) .

(٥) سورة الفتح الآية (١٠) .

(٦) سورة الإسراء الآية (٨٥) .

تَعَالى قَد جَعَله أثرًا[١] من آثَاره ، وآية عَليْة من آياته .

وَأَمَّا إنْكار مَعرفته أصلاً من كُل الوّجوه فَذَلك جَهل عظيم من قَائله ؛ فإنَّ أول دَرجة في المَعرفة بالشَّيء إثبات وُجود ذَلك الشَّيء ، والإقرار أَنَّهُ مَوجود فإذا عَرف الروح أنه موجود ، وثبت بالضَّرورة النَّظرية العَقلية ، فقد عُلمَ وجودَه ، وإنْ كانَ لا يحاط به فهو آية وُجوده .

وورد عن النبي ﷺ : « مَن عَرف نَفسه عرف ربَّه[٢] وأَعْرفكم بنَفسه أَعْرفكم بربه » فقد أطلق النبي -عليْه السَّلام- القول بمعرفته ، والرُّوح لا يَقدر أحد على إنْكاره لظهور دَلائله/ وآثاره . ١٦/ب

فصل

اعلمْ أنَّ اللَّه جَل جَلاله جَعل مَعرفته أعسر[٣] المعارف ، لأنَّه لا مثل له ، وقَد فَرض اللَّه على الخلق مَعرفة ذَاته ، وأسمائه ، وصفاته ، ومَدح العَارفين به، وذَم الجَاهلين به ، والمُنْكرين لَه ؛ فَمعرفته سُبحانه إثبات وجُوده، وَتَقْديسه ، وتَنزيهه عما لا يليق به ، ووَصفه عَلى مَا هو عليه ، وما وصف به نَفسه وأمر بالبَحث ، والنَّظر ، والاستدْلال عليْه فهو مَعروف وإنْ لمْ يُكَيفَ ، ولا يُحاط به، فكذلك أكسب الرُّوح مَعنى من هَذه المَعرفة ، ليُستدل به عَليْه ؛ لأنَّه أقرب المَوجودات إليْه ، فافهم .

---

(١) الأثر : العلامة الدالة على الفاعل .

(٢) قوله من عرف نفسه ، ألف الجلال الأسيوطي في هذا الحديث مؤلفًا حاصل ما ذكره فيه أنه ليس بثابت ، ولكن معناه صحيح ، وذكر في معناه بضع أوجه ، وما ذكره المؤلف هنا قريب من ذلك فتأمل . كذا وجد على هامش الأصل .

(٣) أعسر : أتعب وأشق .

فصل

فَأمَّا من احتج بالآية : ﴿قُلْ الرُّوحُ مِنْ أمرِ ربِّي﴾[1] على أنّه لا يَعلم ، فإنَّ الآية حُجة عليه ؛ فإن الجَواب بقوله : ﴿قُل الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ ربِّي﴾ عَلى حَسب السُّؤال عنْ الرُّوح بقولهم : مَا الرُّوح ؟ وذَلك أنَّ المطالب المسؤول بِها عن المَعْلُومات أربعة : هَل ، ومَا ، وكَيف ، ولِمَ .

فأمَّا هَل : فيسأل بها عنْ حقيقة الشيء ، ووَجُوده هَل هُو مَوجود ، أم مَعدوم ؟ فيقال : نعم ، أولا ، وسُؤالهم عنْ الرُّوح لمْ يكن مِن هَذا المطَلب ؛ لأنّهم كَانوا مُقرين بوجُوده ، عَارفين بأنّه مَوجود .

وَأمَّا المطلب الثَاني الَّذي هُو «ما» فهو بَحث عن جَوهرية الشَّيء ، وطبيعته ، ومِمَّا هو ؟ ، ومنْ أي جنس هُو؟ وقَد يَجعل «أي» بدل من «كيف» في السؤال لأنَّها بدلاً منها ، وهمَا بمعنى واحد .

وَأمَّا المطلب الثالث الذي هو «كيف» فإنَّها بَحثٌ عن أحوال الشيء ، وخَواصه ، ولَوَاحِقه اللازمة لَه على أي صِفة حَال منها هو ؟ .

وأمَّا المَطلب الرابع الذي هو «لم» فإنَّه بحث عن علة[2] الشَّيء التَمَامية المُوجبة لكَونه عَلى ما هُو عليْه ، أي لِمَ كَان هكذا ، ولَم يكن عَلى كَذا ، وكَذا؟ .

وسُؤالهم في الآية / عنْ الروح إنَّما كَان عنْ مَطلب مَا أي ما هو ١٧/أ

(١) سورة الإسراء الآية (٨٥) .

(٢) العلة : المرض الشديد الشاغل : وفي الفلسفة : ما يترتب عليه أمر آخر بالاستقلال ، أو بواسطة انضمام غيره إليه ، فهو علة لذلك الأمر ، والأمر معلول له ، وعلة الشيء : سببه .

الرُّوح؟ ومنْ أي شَيء هُو ؟ فلذلكَ كان الجَواب عنْ حقيقة المَسؤول عنْه ، وممَّا هُو يدلَ عليْه من الآية حَرفَ الجر في قوله : ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ومصداق ذَلك مَا ثَبت فِي الصحيح من الحديث عنْ عبد الله بن مسعود قال : « بينما أنا أمشي مع رسول اللَّه ﷺ في خرب [١] المدينة ، وهو يتوكأ على عسيب [٢] ، فمرّ بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح ، فقال رجل منهم : يا أبا القاسم : ما الروح؟ فسكت ، فقلت : إنه يوحى إليه ، فلما انجلى عنه ، قال : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ... الآية ﴾ [٣] .

فقد تَبين أنَّ سُؤالهم إنَّما كَان «بما» فأجَابهم عنْ قَوله : ﴿ الرُّوحُ مِنْ أَمرِ رَبِّي ﴾ [٤] ولمْ يَسألوه عن وُجُوده ، فيقول : نَعم ، أو لا .

كيف هُو كالأجسَام أو هو على صفة كَذا وكَذا ، ولو كان لأجابهم بأنَّه على صفة كَذا وكَذا ، كما أجاب عنْ ربِّه حين سَألوه عنه ، ونَزلت : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [٥] ولَو كَان سُؤالهم أيضًا عن علة كَونه على مَا هُو عليْه دُون أنْ يكون على غَيرها لأجَابهم بأنه كَان عَلى حَالة كذا ، أو كَذا؛ لأجل كَذا وكَذَا .

وَحَرف الجَر يَدل على أنَّه لمْ يكن سُؤالهم عنْ المَطَالب الثلاثة ، وإنَّما سَألوه «بما» ، فكان الجَواب عن حَقيقة مَا سَألوه عنه؛ أي ممَّا هُو ، ومَا هُو فقال :

﴿قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [٦] وهو تَفسير السُّؤال الأول عنْ الرُّوح ،

---

(١) الخرب : موضع الخراب منها .

(٢) العسيب : جَريدة النخل المستقيمة يكشط حوصها .

(٣) سورة الإسراء (٨٥) .

(٤) سورة الإسراء الآية (٨٥) والحديث في فتح الباري (٦/ ٢٥٣) .

(٥) سورة الإخلاص الآية (١) .

(٦) سورة الإسراء الآية (٨٥)

فأجاب بهذا الجَواب ، وليس بَعد بيان اللَّه - عز وجل - بيَان في هذا الجوَاب .

وقالت طَائفة : الرُّوح هو الدَم ، وتَسمية الرُّوح دَمًا مَجازٌ ، وإنَّمَا هُو سَبب من أسبَاب الحَياة في بَعض الحَيوان ، ومن الحَيوان من لَيس له دم ، ويُوصف / بالرُّوح ، والملائكة والروحَانيون لا دَم لهم . ١٧/ب

وقالت طائفة : الرُّوح هو النَّفَسُ الدَاخل والخَارج ، وهَذا أيْضًا مَجاز ، وإنَّمَا أطلقوه لَمَّا رأوه لا يَستغنى عنْه ، وإنما التَّنفس سبب من أسبَاب الحَياة ، وقَد يُوجد من الحَيوان مَا لا يَتَنفس ، وإذَا تَنَفس مَات ، كالحُوت ومَا أشبهه .

وقالت طائفة : الرُّوح هو الحَياة ، وهَذا القول أيْضًا إنَّمَا وَصفُ صفة من صفات الرُّوح ، لا ذَاته ؛ لأنَّ الحَياة عَرض من الأعراض .

وقَد صَح وثبت أنَّ الأرواح تَقبض ، وتَتَوفى ، وتَموت ، وتُعذب ، وتُنعم ، وَهَذه صفة الجَواهر ، والذوات ، لا صفات الأعراض .

وقالت طائفة : الرُّوح جسم لَطيف ، وهَذا القَول أقرب الأقوال إلى الحق ؛ لأنَّ وصفَهم لَه باللطافة يَدل عَلَى أنَّه ليس كَالأجسَام الكَثيفة .

وقالت طائفة : الرُّوح لَطيفة مُودعة في الأشباح(١) ، وهذا القَول يُشارك الذي قَبله في اللطافة ، وهُو قولٌ حسن ، متحذر(٢) قائله من كَثافَة الجسم .

وقالت طائفة : الرُّوح جَوهر رُوحَاني مُنبسط ، وهَذا القَول قَريب من القَولين اللذين قَبله ، وهَذا القَول أعدل الأقوال ؛ لأنَّه قَال فيه جَوهر

---

(١) الأشباح : جمع شبح ، وهو : مابدا لك شخصه غير جلي من بعد ، وشبح الشيء : ظله وخياله .

(٢) متحذر : متيقظ أو خائف .

رُوحاني بَسيط ؛ أي جوهرية ذَاته رُوحانية مُنبسطة ، والرُوحاني في اللغة الَّذي نَزل القُرآن بها : «مَنْ خَلَقَهُ اللَّهُ رُوحًا بلا جَسد » ويُقال : روَّح الرَّجل رَوْحًا إذا كَان أحدَ قدميه مُنبسطًا ، ويُقال أَيْضًا قَصعة رَوْحًا قَريبة القَعر أي مُنبسطَة مُتوسعة .

هَذا يَدل على بَسط الرُّوح ؛ فإنَّه لَيس كَالجسم الكَثيف وإلا فلأي شَيء انْفرد بتَسمية الرُّوح مِن الأَجسَاد . وانْفَرد الجسم عنْهَ باسمه دُون الرُوحانيَة .

١/١٨ **وقالت** طائفة : الأَرواح / نُور من نُور اللَّه -عز وجل- وحَياته من حَياته ، وهَذا قولٌ صَوابٌ حسنٌ ، وأَراد قائله أنَّه نُور من أَنواره المُحدثة عَن مَعنى اسمه النُّور القَديم ، وحَياة مُحدثة عنْ مَعنى حَياته القَديمة ، وهُو مثل قَول ذِي النُّون : «الروح شُعاع الحَقيقة عَلى إِضافَة المِلْك » .

وقال قومٌ : رُوح القُدس من ذَات اللَّه ، وهَذا القَول أيضًا عَلى إضَافة المِلْكِ أي ذَات رَوح القُدس المُحدَثة مِن مَعاني ذَاته القُدوس القَديمة .

وقالت طَائفة : الرُّوح أَمر من أمر اللَّه ، غير مَخْلوق ، وإنَّمَا أَرَادوا بهَذا القَول رُوح الوَحي ، والقُرآنَ ، وهُو أَولى باسم الرُّوح ؛ لأنَّ به حَيَيت الأَرواح ، والوُجُود كُله .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾(١) .

فصل

الأمر هو الرُّوح ، والرُّوح هُو الأمر ، وهُو عَلى ضَربين : قَديم ، ومُحدث ، فالقَديم كَلام اللَّه ، وصِفته ، والمُحدث أَرواح المَوجودات التي

(١) سورة الشورى الآية (٥٢) .

حَدثت عن معنى أمره ، ورُوح الوَحي القَديم كمَا أُوجد عَنْ مَعنى اسْمه «العليم» العلُوم كُلها ، وعَنْ مَعنى اسْمه «المؤمن» إيمَان العَالمين أجمعين ، فكَذلك في جَميع الأسماء ، والصِّفات ، وهَذا أصل عظيم ، يُزيل الإشكال كُله .

وأما منْ اعتقد في صفات الخَلق ، وأرواحهم أنَّها غَير مخلوقة فقد ضَلَّ ضَلالاً بَعيدًا ، وهو مَن أهل الجَهل ، ولَيس مِنْ أهل العِلم في شَيء ؛ قال اللَّه -عز وجل - :

﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾[١] ، وقال فِيه : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾[٢] .

فهو أمر مِن أمر اللَّه ، ورُوح منه ، كما قَال :

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[٣] ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ[٤] كمثل آدم ... الآية ﴾[٥] ، فمن[٦] أطلق من العُلمَاء الموثوق / بهم عَلى الرُّوح أنَّه لَيس مَخلوق ، فَإِنَّمَا أراد القَديم ، وأمر اللَّه القَديم ، ووَحيه ، وهُو رَوح الوُجود ١٨/ب
بالحَقيقة ، وحَياته .

ومنْ أطلق عليْه الخَلق فإنَّمَا أراد أرواح المَوجودات وجَواهر ذَواتهم البَاطنة ، وكَذلك مَنْ أطلقَ منهم عَلى الإيمان أنَّه لَيس بمَخلوق ، إنَّمَا يَعني صفة المُؤمن العَلي جَل جَلالَه ، وإيمَانه الَّذي يُصدق بِه نَفسه وأفعَاله .

---

(١) سورة النساء الآية (١٧١) .

(٢) سورة مريم الآية (٢١) .

(٣) سورة الإسراء الآية (٨٥) .

(٤) سقطت « عند الله » من الأصل .

(٥) سورة آل عمران الآية (٥٩) .

(٦) زاد في الأصل « يدخل » وحذفت لإتمام معنى السياق -والله أعلم .

ومَنْ أطلق على الإيمَان الخَلق فإنَّمَا يَعني إيمان الخَليقة المَوجود في البَواطن والقُلوب ، والحُلول دُخول في الشَّيء ، وصفة الجَليل جَل جَلاله ، لا تَحل أبدًا في شَيء ، ومن أجل جَهل الدُّخول ، وأجل الحُلُول[١] بهذه المَعاني وَقَعوا فيما وَقَعوا فيه من التّكفر والضلال .

فصل

فالأرواح كلها مَخْلوقة ، أمر من أمر اللَّه ، بَان اللَّه منها وبانَت منه ، وهي غَير مُتنَاسبة ، لا مُتنَاسخة ، وَلا تَخرج من جسم ، وتُبعث في غَيره تَذوق المَوت ، وتَتَنعم بتَنعم البَدن ، وتُعَذب بعَذَابه ، هَذا هُو الشَّرع الَّذي جَاءت به الكُتب ، ونَطَقت به الرُّسُل ، ومَا سوَاه بَاطل ، فالرُّوح أمر من أمر اللَّه ، كَمَا قال اللَّه- عز وجلَ- :

﴿ قُل الرُّوحُ منْ أَمْـرِ رَبِّي ﴾[٢] وهُو تَفسير على حَسب مَا سُئل عَنْه ، ولَيس بَعد بيان اللَّه في هَذا الجَواب بيان ، والأمر هو «كن» الصَّادر عنْ الإرادة ، والقَول القَائم بالنَّفس كما قال :

﴿ إنَّمَا قَوْلُنَا لشَيْء إذا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ ﴾[٣] أي كُنْ عَلَى صُورة مَا أردت منك أنْ تكون بلاَ تَأخير ، فالرُّوح أراد منه أنْ يكون على هَذه الصُّورَة، فهو كَلمة اللَّه تَعَالى : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروح منه ﴾[٤]، ﴿إنَّ مَثَلَ عيسَى ﴾ إلى قوله : ﴿ كُنْ ﴾[٥] فإذا فَهمت سر الرُّوح وماهيئة خَلقته أشرَفت على سر القَدر العَام لجميع الخَلائق كَائنًا مَا كَانوا ، وكَيْف يَنفخ

(١) الحلول : القول بأن الله حال في كل شيء علي غير ما قال به أهل السنة ، وهو مذهب باطل .

(٢) سورة الإسراء الآية (٨٥) .

(٣) سورة النحل الآية (٤٠) .

(٤) سورة النساء الآية (١٧١) . (٥) سورة آل عمران الآية (٥٩) .

الرُّوح / في المخلوقات عنْد استعدادها لقَبول الأرواح بالسَّعادة ، أو ١٩/أ
بالشَّقاوة ، ومَا بَيْن ذَلك ، وأجلَه ، ورزقه ، وصنَاعَته ، وجَميع ما يكون من كُل شَيء يَمشي على بَطنه ، أو عَلى أربع ، أوَ على رجلين ، أو مَلَك ، أَو شَيطان ، أو مَنْ وُصف بصفة ، كُل قَد قَبل منْ وجود اللَّه مَا يليق به ، ولا يَجوز أنْ نَقْبل أكثر منَ الَّذي قَبل ؛ لأن ذَلك القُبول في حَقه هُو الكَمال ، وإنْ كانَ أنْقص منْ غَيره ؛ لأنَّه يَقوم في مَقامه قيامًا ، لا يَقوم فيه غيره ممَّن هُو فَوقه ، أو دُونه ؛ لتكمل حكمة اللَّه في خَليقته الَّتي هِي في نِهاية الحكمة، وفي غَاية الجَمال .

والقَدر سر اللَّه في خَليقته : واللَّه أحسن كُل شَيء خَلقه ، وإذَا فَهمت أيضًا سر الرُّوح أشرفت عَلى مَعنى قَول الرسُول ﷺ : « مَنْ عَرف نَفْسه عَرف ربَّه»(١) .

وقد قَال اللَّه تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُون ﴾(٢) فَهمَّنا اللَّه وإيَّاكَ الفَهم المُقرب منه ، المُوصل إليْه إنَّه عَلى كُل شَيء قَدير ، وصلى اللَّه عَلى مُحمد .

فصل

قال اللَّه عز وجل : ﴿ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيه مِنْ رُوحِي ﴾(٣) ، وقَال : ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيه مِنْ رُوحِه ﴾(٤) فبعد التَّسوية كان النَّفخ ، وذَلك عنْد اعتدَال خلْقة الجَسَد، واستْوائه تجلت إليه صُورة الرُّوح المنفوخ فيه ، كما

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سورة الذاريات الآية (٢١) .

(٣)سورة ص الآية (٧٢) .

(٤) سورة السجدة الآية (٩).

يَتجلى[١] شُعاع الشمس منْ وُجود الشَّمس على جميع العَالم فتستنير بها ظَاهر وجود العَالم كُله ، أَعني العَالم الظَّاهر ، وتَنْتشر الحَركات في جَميعها فَتَجلى شُعاع الشَّمس فيه - أعني العَالم - فلو قَدرت أنْ تكون الأَرض كُلها مَصْقُولة في صَفاء المرآة لظَهَرت صُورة الشَّمس في جميع
١٩/ب الأَرض كما تَظهر في المرآة ، وكما تَظهر في وُجود البحَر والمَاء ، الذي / هُو أصفى من الأرض وَجُودًا ، وأشَد صقالاً .

وهكذا لو قَدرت جَميع أجزاء الموجودات في غَاية الصَّفاء ، والصقال، لتجلت أشعة[٢] الشمس في كل جزء منها صُورة كَاملَة ، وبهذا المَعنى ظَهرت جَميع الأشياء الظَّاهرة للأبصار ، فالَّذي يُرى على وُجود الأشياء إنَّمَا هُو نُور الشَّمس المُتجلى منها .

واعلمْ أنَّه لَيس لهذا الشُّعاع المذكور المُتجلى على وجود الأشياء وجودٌ بذَاته ، بل أصل وُجوده مُستمد من وجود الشَّمس على الدوَام مع كُل نَفس ، وَطَرفه ، وفيضات[٣] التَّجلي دائمة مُستمرة بدَوام وجُود الشَّمس ، ومَّما يَنبغي أنْ تَفهم أنَّ تَجلي الشُّعاع المذكور ليس هُوَ بمعنى انْفصَال النُّور من نُور الشَّمس كانْفصال جُزء من جُزء حتى يُقال إنَّه زَال عن قُرص الشَّمس جُزء من نُورها ، ثم تَجلى ، في هَذا العَالم لَيس الأمرَ كَذَلك ، إنَّمَا هو بمعنى أنَّه حَدث عنْ طُلوع الشَّمس في هَذا العَالم ذلك الشُّعاع المذَكور ، وقرص الشَّمس لم يتغير عنْ حاله ، ولم يَنفصل فِيه شَيء .

وأَمَّا وُجود الشَّمس سَبب لحُدوث الشُّعاع مع الدَّوام ، والشُّعاع مُناسب للنُّور الَّذي في قُرص الشَّمس نِسبةً نُورانيةً ، لكنه لَيس مِثله ،

(١) تَجلَّى : انكشف وظهر .

(٢) رسمت في الأصل بالتاء المفتوحة .

(٣) فيضات : جمع فيضة وهو : الكثير الغزير .

والشُّعاع يُنظر إليْه ، ويَتَبين صُورته عَلى الموجودات(١) ، ووجود الشَّمس لا يَقدر أحدٌ أنْ يَتَبينه إلا الخَطرة(٢) ، أو اللحظَة(٣) مع بُعدها عن الأبصار وامتزاج العَالم بظُلمَات الأجسَام ، فتعلق الرُّوح بالأجسَاد كتعلق الشُّعاع بالموجُودات .

قال ابْن عَطاء(٤) ، وغيره منَ المَشَايخ : الرُّوح شُعاع الحَقيقة ؛ فبالرُّوح استنار الجَسَد ، وظَهرت الحَركَات والحياة .

١/٢٠ وقَال ذُو النُّون(٥) : بنْية الإنْسَان رَايَة/ كُل مُسمى رُؤية للحَقيقة إلى قَوله ؛ لأنَّها مُنبسطة عَلى الأَشْيَاء كانْبساط نُور الشَّمس عَلى كُل شَيء .

---

(١) رسمت في الأصل « الموجدات » .

(٢) الخطرة : ما يخطر بالقلب ، ويقال : ما ألقاه إلاخطرة بعد خطرة أي حيناً بعد حين .

(٣) اللحظة : الوقت القصير بمقدار لحظة العين .

(٤) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي البغدادي الزاهد العابد المتأله المتوفى في ذي القعدة [٣٠٩] قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٥٥) : راج عليه حال الحلاج وصحَّحه ، فقال السُّلمي : امتحن بسبب الحلاج وطلبه حامد الوزير وقال : ما الذي تقول في الحلاج ؟ فقال : مالك ولذلك ؟ عليك بما ندبت له من أخد الأموال وسفك الدماء ، فأمر به ففكت أسنانه فصاح : قطع الله يديك ورجليك ، ومات بعد أربعة عشر يوماً ، ولكن أجيب دعاؤه فقطعت أربعة حامد : قال السلمي : سمعت عمرو بن حمدان يذكر هذا ، قال الذهبي : قيل إن ابن عطاء فقد عقله ثمانية عشر عامًا ثم ثاب إليه عقله . تاريخ بغداد [٥/ ٢٦] ، طبقات الأولياء [٩/ ٦١] ، شذرات الذهب [٢/ ٢٥٧] ، طبقات الصوفية [٢٦٥] .

(٥) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم ، وقيل : فيض بن أحمد ، وقيل : فيض بن إبراهيم أبو الفيض ، وقيل : أبو الفياض الأحميمي ذو النون المصري شيخ الديار المصرية ، ولد في أواخر أيام المنصور ، وتوفي سنة [٢٤٥] ، وقيل [٢٤٦] وهو نوبي الأصل من الموالي وكانت له فصاحة وحكمة وشعر ، وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ، فأنكرعليه عبد الله بن الحكم ، واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة فاستحضره إليه ، وسمع كلامه ، ثم أطلقه فعاد إلى مصر وتوفي بها ودفن بقرافتها . تاريخ بغداد [٨/ ٣٩٣] ، حلية الأولياء [٩/ ٣٣١] سير أعلام النبلاء [١١/ ٥٣٢] .

والشُّعاع قَد ملك وجُود العَالم كُله قبل وجُود الرُّوح أغرب من وُجود الشُّعاع ، لكن في الأمثلة تَنبيه للعقُول فالرُّوح بيْنه وبَيْن بارئه مُنَاسبة من جهة النُّورية المَذكورة ، فَليس له حَياة إلا بتجلي الحَق سُبحانه له عَلَى الدَّوام .

واعلمْ أنَّ البَارىء سُبحانه مُتجلى ، ظَاهر أبدًا ، لا يُوصف بالغَيبوبة والأفُول(١) تعالى عَنْ ذلك .

وإنَّما الأشياء هي التي حَجَبَت بَعضها بَعضًا بالغَفلات والظُّلمات ، ولو قَدرَت غُيوب الشَّمس ، ولمْ يكن لَها ظُهور لشُعاعها على المَوجودات ، والكَواكب ، والأفلاك لانطمست الأشياء ، ولم يَظهر وُجودها .

كَذَلك لو قَدرت غَيبة البَارىء سُبحانه لمْ يَظهر شَيء دُونه، ولا كَان للأشْيَاء وُجود ألبَتة بحال، فَبالحقيقة ليس الظَّاهر على الأشيَاء إلا نُور الشَّمسَ الَّذي هو الشُّعَاع ، ولَولا وجُود قُرص الشَّمس لمْ يكن للشُّعاع وجود ، فَبالَحقيقة إنَّمَا ظَهرت الأشيَاء بظُهور قُرص الشَّمس ، فالشَّمس هِي الظَّاهرة المَرئية .

وكذلك بالحَقيقة لَيس الظَّاهر إلا اللَّه وحدهُ ، ألا كُل شَيء مَا خَلا اللَّه بَاطل .

والشَّمس في نَفسها وَاحدة ، والأشعة المُتجلية مُتعددة بتَعدد ذَوات العَالم ، وَجَواهره القَابلة لشُعاع الشَّمس ؛ فتتجلى في كُل عَين شَمسٌ ، وفي كُل مرآة صَقيلة(٢) شمسٌ وفي كُل مَوضع من البَحر ، والأرض ، والهَواء شَمسٌ فلو كَانت جَواهر الأرض كُلها صَقيلة صَافية ، كالهَواء

(١) الأفُول : الغياب ، وفي القرآن الكريم ﴿ فلَمَّا أفَلَ قال لاَ أُحبُّ الآفلينَ ﴾ .

(٢) صقيلة : أي مصقولة ، ويقال : صقل السيف ، وصقل المرآة : أي جلاها .

والبَحر لظَهر في كُل جُزء شَمس كما تَظهر الصُّور في المَرآئي .

وأنْشَد الشَّاعر : في هذا المعنى : / وهو عباس بن مرداس : ٢٠/ب

كَانُوا أَمَامَ المُؤْمنين دُرية والشَّمس يَومَئذ عَليْهم أَشْمُس

يُريد أنَّ لمعان الشَّمس ، وشُعاعها ، وصُورتها المُتجلية ، منها في كُل بَيضة ، وآلة مَصقولة شمسٌ ، والدُرية : «الحَلقة» .

وكَذلك تتجلى الأرواح من أمر مُوجدها في ذَات كُل رَوح من جَميع الخَلق صُورة كاملة ، وذاتًا[1] مصورة ، ولذَلك كَانت ألطف المَوجُودات ، وأغْربها وُجودًا ، فافهم فهمنا اللَّه وإيَّاك .

ولما كَان الرُّوح بهَذه الصُّورة ، وتَعلق الجسَد فمن أراد اللَّه به خيرًا أبقاه عَلى حَالة الصَّفاء ، والنُّورية ، فَزَاده ، فاشْتَاق إلى مَنبعه ، وتَعلق قَلبه بالوَطن الَّذي وُجد فيه ، فَهو يَطلب الخُروج من هَذا العَالم الجُسماني فإنْ أصابته أوسَاخ المَكدُورَات[2] ، والمُخَالفات نَظر بالتَّوبة في التَّطهير ، والتَّخليص ، والتَّصفية لَعله يَلحق بالمحَلِّ الأعلى ؛ لأنَّه في هَذا العَالم الجُسماني غَريب عنْ وَطنه ، ومَعدنه ، فلمَّا لَمْ يَكن بُد من تَعلقه بالبَدن ليكمل لَه العُبودية الرُّوحانية ، والعبَادة الجُسمانية صَار الجسم لَه أخًا ، وقَريبًا ، وصَاحبًا ، فاحْتَال الرُّوحَ عَلى جَذب الجسَد إلى وَطنه ومَعْدنه بالعُلوم الرُّوحانية والطَّاعات الرِّضوانية .

فمنْ أعانه التَّوفيق وَصل بعون اللَّه إلى مَا لا عَيْن رأت ، ولا أُذُن سَمعت ، ولا خَطر على قَلب بشر ، ومنْ كَانَ بضد هَذا الوَصف ، تَراكَمت عَليْه الظُّلمات ، وخَاض بَحر المُخالَفات ، وكَان بضد ما تقدم ؛ لأنَّ ذَلك

(١) في الأصل « ذاة » .

(٢) المكدورات : جمع كدرة : وهي ضد الصفو .

منَ المُقربين ، وهَذا من المُبعدين ، وذَلك من النُّورانيين، وهَذا من الظُّلمانيين وَمَا بَيْن هَذين طَبقَات لا تُحصى على حَسب الصفَاء، وامْتزَاج الظُّلمات والنُّور .

١/٢١ **واعلمْ** أنَّ تعلق الرُّوح بالجسَد هُو سَبَب / السَّعادة الكُبرى أو ضدها ؛ لأنَّه لما تعلق بالجسد نظر إلى هَذا العَالم الظاهر عَالم الملك عَلى ثُقُب[١] خَمس ، وهي مَواضع الحَواس الخَمس ، فميز بين الألوان، والهَيئات على ثُقب العَين ، بحَاسة البَصر ، وبالشَّم بين الرَّوائح ، وأجنَاسها على ثُقب الأنف، وبالذَّوق بَين المَطْعُومات على ثُقب الفَم ، وبالسَّمع بين أجْناس الأصوات عَلى ثُقب الأذُن، وباللمس بين أنواع المَلْمُوسات على ثُقب اللمس ، فَحصل الفَرق بين الحَسن والقَبيح منْ جَميع مَعلومات العَالم بوَاسطة تَحسين الشَّرع، وتَقْبيحه ، واستدل بمعلُومَاته عَلى صَانعها ، وَمُبدعها وبالدُّنيا عَلى الآخرة، فَرَفع همته إلى بَارئه ، وإلى عَالم الآخرة ، فاسْتَقامتْ بنيتُه عنْد ذَلك، فكَان قَائمًا مُستَويًا على صرَاط مُستقيم ، وفي أحسن تقويم : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[٢] .

فهو يَطلب الخُروج منْ هَذا العَالم إلى مَنبعه وَوَطنه، فطلب طَريقًا يَخرج عَلَيْه منْه ، فلمن يَجد إلا العلم النَّافع ، والعَمل الصَّالح .

والعِلم النَّافِع ما انْتَفع العَبد به في الدُّنيا ؛ بأن يَدُلَّه على اللَّه ، والدَّار الآخرة .

والعَمل الصَّالح ما كَان للَّه فيه رضًا ، فالتزم هَذين الأصلين ، فلمْ يَنسب أنْ عَجل له أذْواق الرُّوح ، والنَّعيم المَخْصوصة بعِبَاد اللَّه المُقربين ؛

---

(١) ثُقُب : جمع ثُقب وهو : الحرق النافذ .

(٢) سورة التين الآية (٤) .

لأنَّ العلم باللَّه تَعالَى ، والمَعرفة به ، لا نَعيم أنعم منه .

وكذلك العَمل له ؛ لا جَنة تُشبهه ، فالتزم الرُّوح والجَسَد ، والعلم ، والعَمل إلى حين الأجل ، وإنْ اقتصر الرُّوح على مَا أدْرك من مَعلوماته عَلى ثُقب حَوَاس الجسَد ، وشغف[1] بها ، وعكف عَليْها ، صَار مُكبّاً عليها ، فانتكص أعلاه ، وكان بِضد مَا تقدم : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ ﴾[2] إلى العَالم الأرضي .

قال اللَّه تَعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾[3] ، ﴿ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ ﴾[4] وبَين هَذين الصِّنفين / طَبقات ؛ مَرة يكْبُو العَبد ، ومَرة ٢١/ب يَستقيم ، فافهم فَهمك اللَّه ، فهكذا شَاهده أهل البَصَائر بلا مرية في ذلك .

فصل

واعلمْ أنَّه إنَّمَا ضَلَّ الخَلق كُلهم كَافرهم ، ومُبتدعهم ، وفَاسقهم من أجل التباس صفَات الخَلق عليهم بصفَات الخالق ، ومن أجل غَيبة الآخرة ، وحُضور الدُّنيا ؛ لأنَّه لمَّا نَظر الرُّوح عَلى ثُقب الحَواس إلى مَعلوماته المَحْسوسَات ، وفي هَذا العَالم رسخت صُورها في خَياله وانْتَقَشت مُنطبعة في ذَاته ، فإذَا ذُكر له مَذكور من صفات البَارىء حَمله عَلى مَا عَهد ؛ لأنَّه لم يَعهد إلا ذَلك ، مثل اليَد إذا ذُكر لَه ، حَمله على الجَارحة[5] أو البَصر ، أو الوُجوه ، أو أي مَذكور ذُكر لَه مِنْ علم ، أو غَيره ، حَمَله على مَا عهد ،

---

(١) شغف : الشغاف : غلاف القلب : وقرأ ابن عباس ﴿قد شغفها حبًا﴾ وقال : دخل حبه تحت الشغاف .

(٢) سورة الملك الآية (٢٢) .

(٣) سورة التين الآية (٥) .

(٤) سورة الفرقان الآية (٤٤) .

(٥) الجارحة : العضو العامل من أعضاء الجسد كاليد والرجل .

فَلابُد من تَمييز صِفات الخَالق من صِفات خَلقه .

وكَذَلكَ الآخرَة لمَّا كَانت غَائبة والدُّنيا حَاضرة سَبق الحَاضر إلى نَظر الخَلق ، فاشْتَغلوا بهِ عن الغَائب ، وأهلُ العقلِ نظروا بِعكس هَذَين النَّظرين في أُمور البَارىء ، وأُمور الآخِرة .

فأمَّا النَّظر في أُمور البَارىء تعالى ، فَعلى أصلين : النَّظر في الوَاحد ، والنَّظر فِي صِفات الوَاحد .

فمنْ أُصول النَّظر في الوَاحد سُبحانه أنْ تَعلم أنَّ الشَّيء الوَاحد بالحَقيقة هُو الشَّيء الَّذي لَيس لوجُوده نهاية يَنْتهي إليْها ؛ لأن النِّهاية غَاية المَوجود ، وحدٌّ له لا يَتَعداه ، فإذَا اتخذَ بالنِّهاية أخَذَته القسمة ؛ لأنَّ وَرَاء تلك النِّهاية شَيء آخر مِن جنسه ، أو من غَير جنسه .

فإنْ قُلت : كَيف لمْ تُزاحمه الأشياء ، وهُو لا نهاية لَه ، ومَا لا نهاية لَه فهو الوُجود وحده فَقط ؟ ولا وجُود لشَيء مَعه ألبتةَ ؛ لأنَّه لو كَان مَعَه شيء لحدّه ، ونَحن نجد الأشياءَ مَوجودةً .

فالجَواب أنَّ البَيْنُونة وَقَعت بين القَديم ، والمُحدث فقد باين[1]

٢٢/أ المَخْلوقات بقِدَمِه / كَمَا بَاينوه بحُدوثهم .

وكَذلك بَاينهم بجَميع أوصافه ، كَما بَاينوه بجَميع صِفاتهم فَافهم .

والأشياء أيْضًا لا وجُود لَها مَعه إلا بإيجاده في كُل طَرفة .

والوَاحد من وجه آخر أيْضًا هُو الَّذي لا مثَالَ لَه ، ولا نَظير ، ولا شَبيه منْ جَميع المَوجودات ، كَمَا يُقال : فُلان وَاحدَ عَصره ، أي لا قَرين له[2] ،

(١) باين : غَايره وخالفه .

(٢) القرين : المقارن والصاحب .

فإذَا لمْ يَكن لَهُ مثل ، ولا شَبيه فَهو وَاحد ، فَرد لا يُشبهه شَيء ، لا في وُجوده ، ولا في صِفاته .

ومن هَذا الفَصل تَفهم وحدانية الصِّفات ، فإنَّ بَصره مُحيط بجميع المَوجودات كُلها عَلى كثرتها ، ومُحيط بذَاته ، وعلمه مُدرك لذَاته ، ولجميع المَعْلومات عَلى كثرتها ، وهكذا جَميع صَفاته .

فصل

وَاعلمْ أنَّ اللَّه -عز وجل- كَانَ قَديمًا ، أوليّاً[1] بلا بدَاية ، ولمْ يكن مَعه شَيء من الأشياء بوجه ولمْ يكن للأشياء ، ولا عَلى حَال مَعه في أزليته وُجود ألبتَة ؛ لأنَّها لَو كَانت مَوجودة لمْ تخل إمّا أنْ تكون مُحدثة أو قديمة ، فَإن كَانت مُحدثة فَقد وجدت بَعد أنْ لم تَكن ؛ فلمْ تكن مَعه في الأزل .

وإن كانت قَديمة ، فلا يَجوز أنْ يُقَال فيها مُحدثة ؛ لأنَّ القَديم مَا لمْ يُحدثه غَيره ، وقد وجد بالضَّرورة حَدثها ؛ لأنَّها قَد ظَهر فيها أثر الصَّنعة ، والحُدوث ؛ فبطل القِدم لها ، وصَح الحدث .

ومن أثبت القدم للموجودات ألزمه أن يُطلق أنَّ اللَّه تَعَالى لمْ يَخلق شَيئًا ، ولا أبدعَه ، وكَانْت الأشياء مَوجودة بذَواتها على قَوله ، وهَذا هُو المُحال[2] لأنَّه قَد ظهر وجُودها بغَيرها ، فإنْ جَعَل المَوجودات مَعه كالظِّل مَعَ الشَّخص ، والعلة مَعَ المَعْلول ، فَقد ضَلَّ ، فَإنْ جَعله مثل فعله مُساويًا ؛ لأنَّ العلة مُساوِيَة للمعلول في الضَّرورة ؛ لأنَّ المَعْلول يَصْدَر عنْ العلة ، لضَرورَة في العِلة ، لا تمتنع العَلة بتلك الضَّرورة / عن وُجود المَعلول عنَّها ؛ ٢٢/ب

(١) في الأصل : «ولياً» والصواب ما أوردناه مما يقتضيه السياق .

(٢) المُحَال : مالا يمكن وجوده .

فالعلة مُضطرة لوجُود المَعلول عنها ؛ والظِّل مَوجود عنْ الشّخص وجُودًا ضَرورِيًا ، لا يمتنع عنْ ذلك ، والإله لَيس بمضطرٍّ ؛ لأنَّه إذَا كَان مُضطرًا فقد اضْطره غيره ، فإذَا لم يَبق إلا إثبات الاخْتيار للَّه تعالَى يُوجد متى شَاء وكَيف شَاء ، ويَترك إيجَادَ مَا شَاء ، ومتَى شَاء علَى مَا سَبق به علمه ، وإرَادته من التَّرتيب والتَّقْديم والتَّأخير ، وتَرك الإيجَاد ، ووجُود الإيجَاد ، وهَذه صَفة الإله ، ومَا سَوى ذَلك مُضطر ؛ فَقَد كَانت الأشياءَ عَدمًا مَحضًا[١] ، وكَان اللَّه ، ولَا شَيء مَعه في أحديته ، ولا ثَاني في أزله مُدركًا لجميع مَعلوماته في حَال عَدمها كما يدركها الآن في حَال وجُودها ، استَوى في حَقه الوجُود والعَدم ، فَلا زيادة في إدرَاكه في حَال وجُودها ، ولا نُقصان في إدْرَاكه في حَال عَدمهَا ، ولم ينبغِ هَذا الإدراك إلا للإله ؛ لأنَّ المَخْلوق لا يُدرك الشَّيء وهُو عَدم .

وبهذا الإدْرَاك بَاين جَميع خَليقَته ، ولمْ يكن مثلها ؛ لأنَّ المُحدث كَمَا تَقَدم لا يُدرك الشَّيء حتَّى يكون مَوجودًا مَعه ، ومَا دَام مَعدومًا عَنْه لا يُدركه فإنَّ العَالم من الخَلق لا يكون عَالمًا حتى يَتعَلم العلم بمَعلومه ، فيضطر إلى المَعلوم أنْ يكُون سَابقًا على علمَه ، ولا يُبصر الشَّيءَ حتى يَحضر بين يَدَيه بعد أنْ كَان غَائبًا ، ولا يَقدرَ علَى الشَّيء حتى يكون فَاعلاً لَه ، ولا يُكلم الشَّيء حتى يَحضر ، ولا يَسمعه حتَّى يَتكلَّم بين يَديه ؛ لأنَّ صفاته حَادثة ، مَع مُدركَاتها فلا يُدرك إلا في حين[٢] حُدوثها ، وحُدوث المُدركَات مَعها .

وكَذلك إذَا زَالت عنْه مُبصراته ، ومُدركاته لمْ يُدركها ؛ لأنَّ صفاته أعراض غير بَاقية ، إلا بحُكم التَّجديد ؛ فإنْ أُحدث لَه مُدرك أُحدَث له

---

(١) المحض : كل شيء خلص حتى لا يشوبه شيء يخالطه .

(٢) الحين : وقت غير معلوم من الدهر طال أو قصر ، وقال الله تعالى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ ومعناها هنا : وقت حدوثها .

إدْراك آخر / . ٢٣/أ

والبَارِيء سُبحانه بخلاف ذَلك ؛ كَان في الأزل ولا شَيء معه مُدركًا لذاته، ولجَميع مَخْلوقَاته قَبل وُجُودها ؛ لأَنَّ صفَاته لمْ تَحدث له ، وهو الآنَ حينَ وُجُودها يُدركَها ذَلك الإدْراك ، لمْ يَتَجدد لَه إدْراك بتَجدد المُدركَات ، ولا زَاد بها حين وُجدت بَيانًا ، فيكمل إدْراكه بعدَ نُقصانَه ، فإن أعدم الموجودات ، وَصَيرَها(١) كَما كَانت أول مَرَّة بَقي كَمَا كَان مُدركًا حين وُجودها ؛ لأنَّ صفاته لَيْست أعراضًا ، فتَزيد ، أو تَنقص باخْتلاَف المُحدثات ، تَعالى اَللَّه عُلوًا كَبيرًا ؛ فقد استَوى عنْده وجُودها ، وعَدَمها ، والعَدَم ضد الوجود ؛ لأنَّه سُبحانه في الأزَل ، لا شَيء مَعَه ، وليس في ذَاته سوى ذَاته ، لا يَجُوز أن يُقال : إن للأشيَاء في ذَاته أجزاء ، وتكون مُنطَبعةَ ، أوَ مُصورة في الذَّات ، بَل إدْراكهَ غَير المُدرك ، والَعلم غَير المَعلوم ، والبَصر غَير المُبصر ، والقُدرة غَير المَقْدور .

وليست هَذه الصِّفة ، والإدْراك إلا لَه ، ولا يُعرف بها(٢) إلا إيَّاه ؛ ألا تَراه يَقُول :

﴿ إنَّمَا قَولُنَا لشَيءٍ إذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ ﴾(٣) فَلا يَقُول لَه إلا بمُدرك مَعلوم ، ولا يَقول كُن إلا لمعدوم غَير كائن ، فلو كَان مَوجودًا لكَان كُن بلا فائدة(٤) ، ولو لمْ يكُن مُدركًا لمْ يَقُل لَه كُن ، فافهم .

والله تعالى يقول : (٥) ﴿ فَإنَّ اللَّه لَغَنيٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ (٦) لا يَشغله

---

(١) صَيَّرَهُ : حوله وأعاده .

(٢) في الأصل : « به» وهو خطأ .

(٣) سورة النحل الآية (٤٠) .

(٤) في الأصل « فلا بده » »ونظن أن ما أوردناه هو الصواب والله أعلم .

(٥) سقطت «الفاء » من أول الآية . (٦) سورة آل عمران الآية (٩٧) .

وجُودهم كَالعلة مَع المَعْلول ، ولا يَزيده إدراكًا ، ولا يُعجزه عَدمهم ، ولا
يُفقده إدْراكًا ألا تراه يقول : (١) ﴿ وأَنَّ اللَّه عَلامُ الْغُيوبِ ﴾(٢) فَهو المُنفرد
بإدْراك الغَيب ؛ لأنَّ الغَيب ضد الحُضور : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطلعَكُمْ عَلَى
الْغَيْبِ ﴾(٣) لأنَّه لَيس في طاقة المَخلوق ذَلك الإدْراك ، فإذَا أطلعه على ما
غَاب عَنْه أوجده ، فَلم يكن غَائبًا ، وذلك قَوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن
رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾(٤) وما/ دَام لم يُدركه فهو غَيب عَنه ، واللَّه تَعالى بخلاف ٢٣/ب
ذَلك ؛ ليس عنده غَيب بوجه ، ولا حَال ، لا في حال عَدم الأشيَاء ، ولا في
حَال وجُودها ؛ ألا تراه كَيف يَقول : ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ أي في أزَله ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ﴾(٥) ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ(٦) بَصيرًا ﴾(٧) ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرًا ﴾(٨) ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾(٩) إلى غير ذَلك من الآيات الوَاردة
في هَذا المَعنى .

ومن شَأن علم البَارئ تَعالى إدْراك المَوجودات وهي مَعدومة ، وهو لا يُقَدِّر إلا عَلى ما عَلم ، ولا يُبصر إلا ما عَلم، ولا يُريد إلا ما عَلم ، ولا يخاطب بكلامه إلا ما عَلم ، ولا يخلق إلا ما عَلم ، فقد استوى في حقه وُجود الأشياء ، وعَدمها .

---

(١) سقطت « الواو » من أول الآية .

(٢) سورة التوبة الآية (٧٨) .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٧٩) .

(٤) سورة آل عمران الآية (١٧٩) .

(٥) سورة الأحزاب الآية (٤٠).

(٦) في الأصل « بكل شيء » وهو خطأ وما أوردناه هو الصواب بإذن الله .

(٧) سورة الفتح الآية (٢٤) .

(٨) سورة الأحزاب الآية (٢٧) .

(٩) سورة النساء الآية (١٢٦) .

ولنفرض سُؤالاً على مَنْ يَقُول بِقِدم العَالم مِن الفَلاسفة ، وغيرهم ونبيّن أولاً مَذهبهم .

فالذي يَقوله الفَلاسفة : إنَّ العَالم قَديمٌ ، وإنَّ اللَّه يَعلم الكُليات ، ولا يعلم الجُزئيات ، وإنَّ بَعث الأَجسَاد مُحال ، ويَحملون البَعث على بَعض الأرواح ، فيقال لَهم في وُجُود الأَشيَاء عنْه سبُحانه : إنْ قُلتم إنَّه أبدعها بلا زَمان ، بل كَوجود الظِّل مَع الشَّخص فَقد أقْررتم أنَّه أبدَعها ، والمبدع[1] هو المُخترع المُحدث ، وإنْ قُلتم إنَّها لم تزل كما هي فقد أطْلَقتم أنَّهُ لمْ يُبدع شيَئًا ، ولا أوجد مَوجودًا ، وأنَّ الأشياء قَائمة بأنَفسها .

فإنْ قَالوا : إنَّمَا إيجادها فَيضًا ، وجُودًا عنْ وجُوده ؛ لأنَّه يَنْبوع الوُجود - وهَذا مِن ألفاظهم - .

قيل لهم : ذلك الفَيض الَّذي أطْلقتموه عنْ وُجُوده فاض بمعنَى انْفصَال شَيء عَن شَيء أم أوجده مِن العدم المَحض بعد أنْ لمْ يكن ؟ .

فإن قَالوا : عنْ وجُوده بمَعنى انْفصال شَيء عنْ شَيء فكفَى به كُفرًا ، وجَهلاً ، فلابد إذًا من الرجُوعَ إلى إيجَاده مِن العَدم الذي هُو ضِدَ الوُجُود بالضرورة / العَقلَية التي لا محيص عنها . ٢٤/أ

فإن قَالوا : العَدم اسم ، لا يقع إلا عَلى مُسمى موجود .

قيل لهم : فالعدم إذًا مَوجود ، فلم يُوجد البارىء ولا اختراع موجودًا ؛ وكم من اسم يطلَق على غير مُسمى موجود ، مثل قولهم : لا دَاخل العالم ، ولا خَارجه شيء ، وهَذا مِن جُملة الأسْمَاء ، والمعلومات .

ومثل قولهم : اجْتماع الضدين ، وكون الجسم في مكانين مُحال ،

(١) المبدع : البديع وفي القرآن الكريم ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

وهذه مُسميات لمَعْلومات غير موجُودات ، ومثل قول اللَّه عز وجل : ﴿وَلَو رُدّوا لَعَادوا لمَا نُهُوا عَنْه ﴾(١) فهذا من علمه بما لَم يكن أنْ لو كَان كَيْف كَانَ يكون ؟ . فكَذَلكَ علمه بالأشْياء قَبل وُجودَها يعلم كَيف تكون إذا كانت ، ولَيس لَها قَبل كَونها وُجود، فالقدم إذًا من الأسْماء المُطْلقة على مَا لا وُجود له ، فلابد من الرُّجوع إلى ذلك ؛ لأن البارىء تعالى لم يخلق من ذَاته شَيئًا ، ولا كان مَعه شيء .

فإن قالوا : أوجد الوُجود من العَدم اخْتراعًا بِلا زَمان كالظّل مَعَ الشَّخص ، وهَذَا من إطْلاق الأكابر منهم .

قيل لهم : قَد أثْبتم إيجَادها لا من شَيء ، والعَقْل يُدرك بالضَّرورة أنَّها كَانت بَعد أن لمْ تكُن ؛ إذْ قد فرق العَقل بيْن حَالتي العَدم ، والوُجُود ، فَقَد ثَبت حَدَثها ، وانْتَفى القَدم عنْها .

وبَقي الكلام معَهم في قولهم : أوْجَدها معًا بلا زَمان .

فنقول لهم : أخْبرونا عنْ المُخترع المُبدع سُبحانه ، هَل قَامت بذَاته صفة ضَرُوريّة أكْرهته عَلى الإيجَاد والإبْداع للأشْيَاء بلا زَمان ؟ . أو قَامت بذَاته صفة المَشيئة والاختيار لإيجاد الأشيَاء بلا زمان ؟ .

فإن قالوا : بالصِّفة الأولى الضَّروريّة ، وهي حَقيقة مَذْهبهم ؛ لأنَّهم يُسمونه علة ، والعلة(٢) مُساوية للمَعْلول في الضَّرورَة فكَفى بذَلك جَهلاً وكُفران .

وإنْ قَالوا بالصِّفة التي تُوجب للبَارئ العز ، والجَلال ، وهِي المَشيئة

---

(١) سورة الأنعام الآية (٢٨) .

(٢) العلة : « في الفلسفة» ما يترتب عليه أمر آخر بالاستقلال أو بواسطة انضمام غيره إليه ، فهو علة لذلك الأمر ، والأمر معلوم له ، والعلة من كل شيء سببه .

والاخْتيـار ، ويَنْفي عَنْه الضَّرورة قيل لَهم من أين / أطْلقتم إيجَاده إيَّاهَا ٢٤/ب
كَالظِّل مَع الشَّخص مَعًا ؟ بل[١] زمَان ، وحَكم المَشيء ، والمُخْتَار أَنْ لا
يَتَرَجح أحد الوَصفين في حقه ، وهو الإيجاد ، أو تَرك الإيجاد ، بَل هُما
في حق المُريد ، والمُخْتَار سَواء ، ولا يَتَرجح هَذا عَلى هَذا ، ولاَ هذا على
هَذا فَيُوجد إذَا شَاء ، ويترك الإيجَاد متى[٢] شَاء .

هذا حكم المُريد ، والمُختار ، والمَشيء ، ومَا سوى هَذا فهو المُضطر المَجْبور ، كَاضْطرار العلة مَع المَعْلول التي تُنافي حُكم الإَلهية .

فإن قالوا : سَبَق في عِلمه ، وإرَادته أنْ يُوجد الأشْيَاء هكذا كَالظِّل مَع الشَّخص بلا زَمَان .

قيل لهم : وسَبَق في علمه وَإرادته أنْ يُوجدَ متى شَاء ، ويترك الأشْياء متى شَاء مع أن دَعواهم أنه سَبق في علمه وجُودها كَذلك محال ؛ لأنَّه لم يَرد به الشرع ، ولا شَهد به العقل ؛ فإن القَديم بالحقيقة خلاف المحدث من جميع الجهات ؛ فالقَديم هو الذي لم يزل بنَفسه موجوداً .

والمُحدث هو الذي لم يزل معدومًا حتى أوجده المريد لإيجاده ، والمَوجود مُخالف لفعله من كل جهة ؛ فإنَّ القَديم لا يَتطرق إليه الفَساد ، ولا البُطلان[٣] ؛ بل لاَ يَزال أبدًا كَما لم يزل أزلاً .

والمُحدث يَتَطرق إليْه الصَّنعة ، والتَّغير ، والبُطلان من حَالة إلى حَالة أبدًا ، وهُو العدم ، لأنَّه لا قُوام له بنَفسه ؛ فالوُجود له عَارية[٤] ومَجاز ،

---

(١) في الأصل «بلى» .

(٢) في الأصل « ما» .

(٣) البطلان : الضياع .

(٤) العارية : ما تعطيه الغير على أن يعيده إليك ، وكل عارية مستردة .

ومُستعار ، ولَو كَان الوجُود لَه حَقيقة لأشبَه الوُجود الحَقّ سُبحانه ، ألا كُل شَيء مَا خَلا اللَّه باطل قال وتعالى : ﴿كُل شَيء هَالك إلا وجهه﴾[١] .

فبهذا[٢] تفهم أنه لا يسع مع وجُوده شَيء ؛ لأنَّ البُطلان يَتَطرق إلى الأشْياء أبدًا مَع الخَطَرات فَمَا أوجده المُوجد الحقّ من البَاطل لو أمسك تَجديد الإيجَاد عَنْه طَرفة عَيْن لانْعَدم بلا زمان في أسْرع من طرفة عَيْن ، وذَلك إن كان لا يُريد بقَاءه ، سَواء كان المُوجود رُوحَانيًا / ، أو جُسمانيًا ، فكَمَا أن القَديم سُبحانه لا يَطرأ عَلى وُجوده عَرَض ، ولا بَطل في الأَزَل والآباد[٣] كذلك يَطرأ على المُحدث أبد الآباد ، وآثَار الصَّنْعة مُخالفة بأن الحقّ موجود بنَفسه ، لا يَطرأ عليْه شَيء ، وهَذا مَوجود بغَيره يَطرأ عليْه كُل شيء . ١/٢٥أ

فإن استَدلوا عَلى وجُود الأشْياء عنْه فَيضًا وجودًا كوجود شُعاع الشَّمس عن الشَّمس ، وفَيض النُّور عنْها عَلى كل موجُود ، وقالوا : لَم تَزل فَيضَات الخَيرات ، والفَضَائل فَائضة عن وجوده كما لم يزل النور فَائضًا عن وجود الشَّمس .

قلنا : أخْطأتم من وَجه ، وأصبتم من وجه ؛ أصَبتُم من وجه استدلاَلكم بفَيض الوُجود عنه كَفَيض نُور الشَّمس عنْ وجُود الشَّمس .

وأخْطَأتم من وجه آخر حيْث قُلتم لم تَزل كَذلك فَائضة ، فإنَّه لَو قُدّر للشَّمس إرادة لأن يَفيض النُّور عنْها على الموجودات حتَى تفيض في وقت إرادتها للفَيْض ، ولاَ تَفيض حين لا تُريد الفَيض لكان الاستدلال حقًا .

وكذلك الظِّل مَع الشخص ، ولو قدّر للجسم إرادة لأن لاَ يكُون عنه

---

(١) سورة القصص الآية (٨٨).

(٢) في الأصل : « فهذا» .

(٣) الآباد : جمع أبد وهو الدهر ، ويقال : لا أفعل ذلك أبد الآبدين : وأبد الآباد : مدى الدهر .

ظل في وقت إرادته لذلك ، وأن يكون عنه ظل في وقت إرادته لكان الاستدلال حقًا ، وإنَّمَا هَربوا من أن يكون الوُجود محدثًا ؛ لأنهم قالوا : هي مَعْلوماته ، فلو زالت عنه في وقت أو حين[1] لطرأ على صفاته في تلك الحَال خلاف ما هُو عَليه في حال وجودها معه ، وهو الجَهل ، والعَجز ، وعدم الإدْرَاك في زعمهم .

هذا هو التَّنْزيه عنْدهم ، وقَد وقَعوا في أشرُّ مما هَربوا عنه ، وهُو رؤية القدم للمُحدثات ، وافْتقَار[2] البَاري إلَى الموجودات أن تكون معه ، كَافْتقَارها هي إليْه، فصَار لا يكْمل إلا بهَا ، وبوجُودها معَه ، فَصارت هي المُكَمِلة له ، والمُضطرة له، وكَفى بهذَا جَهلاً وكفرًا . / ٢٥/ب

ونَحن بحمد اللَّه نَقول بما انْعقد عليْه إجْمَاع العقُول الرَّاجحة ، وهم الرُّسُل، وأتْباعهم ، وبما نَطق به القُرآن ، والسنن ، وهُو أنَّ الأشْيَاء لم تكُن أزلاً مَعَه ، وهُو يُدْركهَا في حَال عَدمها كَما يُدركها حين أوجدها ؛ الحَالتان عنْده سَواء، ولا نَهرب كَما هَربوا هم من أنْ تكون مَعْدومة خيفَة دُخول النَّقص عليْه ، فإن النَّقص إنَّما يلزم لمَن يَقُول بأنَّه لا يُدرك الشَّيء إلا إذا كان مَوجُودًا ، وهذه صفة المَخْلوق[3] ، فلو فقدنَاه الإدْرَاك في حال عَدَمها ، وأوجَدْناه الإدْراك في حَال وجُودها لزمَنا ذلك .

وإنما نقول : إنه يُدرك في الحالة الوَاحدة مَا يُدرك في الحالة الأُخرى من غَير زيادة ، ولا نُقصان ، ودَليلنا على إدْراكه إيَّاها ، وهي مَعْدومة قَوله عز وجل : ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[4] أيْ فِي أزَلـه ، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى

---

(١) الحين : وقت من الدهر طال أو قصر ، وفي القرآن الكريم ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾ .

(٢) الافتقار : احتياجه إليها .

(٣) بلغ : كذا على حاشية الأصل .

(٤) سورة الأحزاب الآية (٤٠) .

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[١] ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ[٢] بَصِيرًا ﴾[٣] ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴾[٤] ولا يَجوز أن يُقال في كُل هذه كان يكون كَونًا ؛ ولِذَلك قال أهل العلم : كان هُو اللَّه عز وجلَ .

وقال النبي عليه السلام في الحديث المشهور : « **أول مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلم ، قال له : اكتب** »[٥] الحديث .

فأثبت للأشْياء أوّلية ، وأنّ القَلم سَابق للأشياء في الحقِيقة ، وأنّ القَلم مخلوق .

وفي حديث آخر : « **أول ما خَلقَ اللَّهُ تَعالى العقل** »[٦] الحديث إلى قوله : «**مَا خَلَقت خَلقًا أَحبُّ إِليَّ مِنك** » . وقوله عليه السلام : « **كَانَ اللَّهُ ، وَلا شَيء مَعه** »[٧] .

وقوله [تعالى]: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾[٨] ، و : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾[٩] في التفسير معنى أنّه

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٢٧) .

(٢) في الأصل « بكل شيء » وهو خطأ .

(٣) سورة الفتح الآية (٢٤) .

(٤) سورة النساء الآية (١٢٦) .

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٨) .

(٦) صحيح : أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٩) ، (٩/ ١٥٢) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤١) ، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٢٠٥) .

(٧) على هامش الأصل : قوله : « أول ماخلق الله العقل» قال السخاوي في المقاصد الحسنة : قال ابن تيمية واتبعه غيره : إنه كذب موضوع بالاتفاق ا . هـ.

قلت : أورده السخاوي رقم [٢٦٩] وبهامش الكتاب « حديث موضوع » .

(٨) سورة مريم الآية (٩).

(٩) سورة الإنسان الآية (١) .

قد أتى .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾[١] فأثبت للخَلق بَدأة ، ومثل هذا كثير .

والإجماع أيْضًا قَد انعقد عَلى ذَلك من الصَّحَابة والتَّابعين ، والمُحدِّثين وغَيرهم / من العُلماء والعَوام . ١/٢٦

فقَالَ أبُو بكر الصِّديق - رضي الله عنه - في دُعائه[٢] : « اللَّهم إنَّك بَدأت الخَلق مِن غَير حَاجة بك إليْهم » .

فانْظر إلى هَذه المَعرفة الكَاملة من الصِّديق - رضي اللَّه عنه - في قوله : «بَدأتَ الخَلق » ، فَجَعل للخَلق بداية ، ثم قال : « من غَير حاجة بك إليْهم » ؛ أي من غير حَاجة بك إلى إيجَادهم ؛ لأنَّك الغَني عنْهم في حَال عَدَمهم ، ووجُودهمْ ، وكَذلك قَالَ علي - رضي الله عنْه - حين ذَكر بَدء الخَلق ، وخَلقت نُور مُحمد عليْه السلام .

وكَذلك العُلماء اتَّفقوا عَلى البدَاية ، وأنَّ للوجود افْتتاحًا ، لمْ يكن قبل ذلك إلا البَارىء وحده .

قال الجنيد :[٣] التَّوحيد إفْراد القدم[٤] من الحدث ، وعلمك وإقْرارك

(١) سورة العنكبوت الآية (١٩) .

(٢) زاد في الأصل كلمة « قال » وحذفت لزيادتها على السياق .

(٣) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريري الخزاز البغدادي الشافعي إمام الصوفية ولد سنة نيف وعشرون ومائتين وتوفي سنة [٢٩٨] وقيل [٢٩٧] ، قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٦٦) شيخ الصوفية . . . . . تفقه على أبي ثور وسمعه من السري السقطي وصحبه ، ومن الحسن بن عرفة وصحبه أيضًا الحارث المحاسبي ، وأبا حمزة البغدادي وأتقن العلم ثم أقبل على شأنه وتأله ، وتعبد ، ونطق بالحكمة ، وقل ما روى تاريخ بغداد [٧/ ٢٤١] ، ديوان الإسلام [٦٤٢] .

(٤) القدم من الحدث : الذي مضى على وجوده زمن طويل ، وعند علماء الكلام : الموجود الذي =

بأنَّ اللَّه فَرد فِي أزَليته ، لا ثَاني معه .

وقال الشبلي(١) : جَل الوَاحد المعروف قَبل الحُدود ، وَقَبل الحرُوف .

ولو تتبعنا كَلام أهْل العِلم فِي ذَلك لَطَال الكَلام .

وقد أخْرج اللَّه علم العَدد ، والحسَاب ، وجَعله أعظْم آية عَلى وحدَانيته ، فَالعدد كُله يَنْشأ من الوَاحد ، وَلَيْس الوَاحد عَددًا في نَفْسه ، فإذَا أردت أنْ تَعُدَّ عددًا مَا قلت : واحد ، فتبتديء بالواحد ، فإذا ذَكرت الواحَد لمْ يكن للاثنين مع الواحد وجود ، ولا ذكر ، وكان الواحَد موجودًا فقط ، ولا يجوز أن يقال فيه عدد ؛ أي لا يُسمى باسم الاثْنين ولا الثلاثة ، ولا الأربعة ، ولا باسْم شيء من العدد الذي بعدَ ذلك ، وإنَّما يُقال فيه واحد فقط .

ولا يُشاركه في الاسْم أيْضًا مَا جَاء بعده من العدد حتى يَنْتَهي إلى آخر العَشرة ، فإن زدت عددًا آخر ، وقلت : أحَد عَشَر ، فإنَّمَا تَبْتَديء بتَسْمية عَشَرة أُخرى ، ويكُون الحَادي عشر مثل الوَاحد من العَشْرة ؛ لأنه هو / ، ٢٦/ب
وهكذا وَاحد وعشْرون إنَّما هُو تكرير العَشَرات ، فَليس يُشارك الوَاحد شَيئًا من العَدد لا في الاسْم ، ولا في المَعنى فَهو في نَفْسه لَيْس بعدد ، فإذَا قُلت وَاحد ، وسكَت لَمْ يكن مَعه شَيء ، فَهو بِمَنزلَة قَول النَّبي عليه السَلام :

=ليس لوجوده ابتداء .

(١) هو أبو بكر دلف بن جُحدر بن يونس ، وقيل : جعفر بن يونس ، وقيل : جعفر بن دلف البغدادي الشبلي شيخ الطائفة ، ولد سنة (٢٤٧) وتوفي سنة (٣٣٤) قال الغزي : العارف الزاهد صاحب الأحوال ، والمقامات الشيخ أبو بكر الصوفي البغدادي الفقيه المالكي صاحب الجنيد . وقال الذهبي : كان فقيهاً عارفاً بمذهب مالك ، وكتب الحديث عن طائفة ، وقال الشعر وله ألفاظ وحكم وحال ، وتمكن ، ولكن كان يحصل له جفاف دماغ ، وسكر ، فيقول أشياء يعتذر عنه فيها باءُ لا تكون قدوة . ديوان الإسلام (١٢٧٣) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٦٧) .

«كَان اللَّه ، ولا شَيء مَعه ، فَردٌ في أَزَليَته قَبل وُجُود جَميع الأَشْياء »[١] كما هُو الوَاحد فرد ، إذَا ذكرته قَبل ذكر الأعداد ، فإذا أردت ذكر عدد قلت : اثْنين ، ثَلاثة ، أربَعة ، خَمسة ، ستَة ، سَبعة ، إلَى عشرة ، إلى مائة ، إلى ألف ، إلى عشرة آلاف إلى مائة ألَف إلى ألف ألَف ، إلَى مَا لا نهَاية له ، ولا آخر ؛ لأن العدد لا آخر لَه ، ولا نهايَة .

كذَلك أمرُ البَارىء عَز وجَل كان واحدًا قبل وجُود الأشْياء ، ثم خَلق القَلم ، واللَّوح ، والمَخْلُوقات ، وأخْرج الأشْيَاء ، شَيئًا بَعد شَيء بالإيجَاد ، والإبْداع[٢] إلى ما لا نهاية له ، ولا آخر أبَد الآباد ؛ فإن مَقْدورَات البَارىء لا نَهاية لها ، ولا غَاية ؛ لأن كُل مَوجُود أوجَده يَطْرأ عَليْه من الأعْراض مَا لا نَهاية لَه ، كَما لا نهاية للعَدد ، وكَمَا أنَّ الوَاحد أول العشرَة ، فتَزيد وَاحدًا بَعدَ وَاحد إلى تسعةَ ، فيكمل العَدد في التسعة ؛ لأنَّه وترٌ من ثَلاثة ثلاثة ، وكُل وَاحدً من الثلاثة وترٌ[٣] ، أوتر كُل وَاحدٍ صاحبه مَن حَيث هُو كُل ، وتر وَاحد في نَفسه، فافْهم .

وكَـذلك البَـارىء جل جـلاله يُوجـد الشَّـفع ، وهو الـوتر ، يُوترها بنَفسه، فإذا عددت ثلاثة ، وزدت العدد إلَى تسعة صارت ثلاثَة ، وثلاثة ، وَثلاثة ، وكل ثلاثة وتر في نفسها للاثْنينَ ، فأوتر كُل وَاحد من عدد الثلاثة العَددين ، كما أوتر كُل وَاحدٍ من الثَّلاثة لغَيره من الاثنين .

فإذَا زدت عَاشراً عَلى التسعة أيضًا رجع العَدد كُله واحدًا ، فَقُلت عَشـرةَ ، وَصَارت العَشـرة بالإضَافـة إلى / العـشْرين إلى الثَـلاثين إلى ٢٧/أ الأربعين، إلى التِّسْعين بمَنزلة الوَاحد مَن العَشرَة ؛ فَالعَشرة وَاحد في

(١) سبق تخريجه منذ قليل .

(٢)الإبداع : «عند الفلاسفة» إيجاد الشيء من عدم .

(٣) الوتر : من العدد ماليس بشفع .

نَفسها ، وَالعشْرون بمنزلة الاثْنين من العَشرة ، والثلاثون بمَنزلة الثلاثة ، والأرْبَعون بمَنْزلة الأرْبعة ، فإذا وَصَلت إلى التِّسعين صَارت بمنزلَة التِّسْعة ، ثَلاثُون ثَلاثُون ثَلاثُون ، فكَانَت تسْعُونَ كَما كَانت ثَلاثَةَ وثَلاثة وثَلاثة تسعة ؛ فأوتر كُل واحد من الثلاثين الاثْنين من ثَلاثين ثلاثين . فإذا زدتَ عَشرة عَادت المائة شَيئًا واحدًا ، بمَنْزلة العَشرةَ للعَشَرات ، وبمَنْزلةَ الوَاحد للعَشرة الوَاحدَة ، فَقُلت : مائة عَددٌ واحدٌ . فإنْ زدت مائةً أُخرَى كَانت بمَنزلة الاثْنين للوَاحد من العَشَرة ، وبمَنزلة العشْرين لَلعَشرَات ، حَتَى يَنْتَهي إلى التِّسع مائة ، فَيكوَن كُل ثَلاث مائة وتر ، كَما يكون كُل واحد من ثَلاثة ثَلاثة وتر ، في عَدد التسعة ، وكُل وَاحد من الثلاثين وتر الاثْنين منَ الثَلاثين ثَلاثين . فإنْ زدت مائة صَارت ألفًا شَيئًا وَاحدًا بمَنْزلةَ الوَاحد منَ العَشرة ، والمائة من الآلاف ، فَيَمشي هَكَذا إلى عَشْرة آلافَ إلى مئي[1] الآلاف ، إلى الألف الآلاف ، إلى مَا لا آخرَ لَهُ .

والوَاحد أبدًا مَع الجُملة منه يَنْشأ العَدد ، وإليْه يَرجع حَقيقة ، ومَعْنى كَذلك البارىء عَز وجل ، منهُ ابْتَدأت الأشْياء ، وبه تَنشَأ ، وَهُو مَعَها ، وإليْه يَرجع ، فكَمَا أنه لَولا الوَاحد الذي يزاد أبدًا ، فَينشأ منه العدد شيئًا بعد شَيء ، لم يوجد عَدد ، فكَذلك لَولا اللَّه عَز وجل الَّذي هُو أول الأشْيَاء ، وهُو يُنْشيء الأشْيَاء شَيئًا بَعد شَيء وإليْه يَرجع كُل شَيء ، لَمْ يُوجد شَيئًا من الأشْياء : ﴿**هُوَ الأول والآخر والظَّاهر والبَاطن**﴾[2] كما هو الواحد ، أول العدد ، وآخره ، وأوسطه الذي هُو ظَاهره ، ومَعنَاه الَّذي هُو بَاطنه فَافهم ، فَهَّمنا الله وإياك / . ٢٧/ب

فإذا أسْقَطت العَدد من آخره ، ورَجَعت إلى أوْليَته أسْقَطت العَدد ألفًا

---

(١) مئي : جمع مائة .

(٢) سورة الحديد الآية (٣) .

ألفًا ، ومائةً مائة ، وعَشْرة عَشْرة ، وواحدًا وَاحدًا ، فَيَذْهب العَدد كُله حتى يَنْتهي إلَى الوَاحد، فَلا يبقى عدد ، ولا مَعْدود فَيبقى الوَاحد ، فَلا تَقْدر أنْ تُجزئه فِي نَفسه، فتسقطه ؛ لأنه ليس اثنين ، ولا ثلاثة ، وإنما هو واحد، لا يتجزأَ ، لَيْس بعَدد ، ولا يَبقى إلا الواحد، فلو قدرت إسْقاط الواحد بعَينه(١) حين لم يَقْدر عَلى تَجزئته ، وتَبْعيضه لم يُوجد عدَد ، ولا مَعدود بوجه ، ولا حال .

فكذلك لَو قَدرت إعْدام المَوجُودات من الكَثرة شَيئًا بعد شيء ، حَتى تنتهي إلى الوَاحد -عزَّ وَجَل- لانعَدمت الأَشْياء كما انْعدم العَدد به بحلّك لأجْزَائه حَتى انتهيت إلى الواحد، ولم يبق إلا الله ، فلا تَقْدر على أن تُسميه باسْم الاثْنين ، ولا غَيره ، ولا أن تُجزّئه .

فَلو قَدرت عَدم الإله جَل جَلاله لم يُوجدْ شَيئًا مَعه من الأَشْيَاء مُحال ؛ لأنَّ الأَشْيَاء قَد وجدت بِه فَافهم فَهَّمك الله .

فإنه قد جاز أن يَسْقط العَدد كُله بالتَّحليل(٢) بعد التَّركيب حَتى يَنْتهي إلى الوَاحد ، ولا يكون مَعه شَيء من العَدد ، ولمْ يَجُز أنْ يُسقط الواحد ؛ لَأنه لا يَنْحل مَا لَيس بمركب .

فكَذَلك البَارىء عز وجل ، كَان وَحده ، ولا بُد من وجُوده ، فهو واجب وجُوده ، لا مَحالة ، كما وجود الواحد شَرط وَاجب فِي وجود الأعْدَاد ، ولَيست الأعداد شَرطًا في وُجود الوَاحد ؛ فقد ثَبت الأولية لواحد العَدد ، وثَبتت التَّبعية للعَدد بعدَه ، كَما ثَبتت الأولية للبَارىء جل جَلاله ، وثَبت الحدوث بَعد أوْليته لجميع المَخْلُوقات ولله الحَمد والمنَّة عَلى الهِداية .

---

(١) عينه : ذاته ونفسه .

(٢) التحليل : حلل الشيء أعاده إلى عناصره ، يقال : حلل الدم ، وحلل البول ، ويقال : حلل نفسية فلان : درسها لكشف خباياها ، وهو أي التحليل - ضد التركيب .

١/٢٨ فإنْ اعْتَرضك قلة الفَهم ، وقُلت : لا أفهم القسمة التي / ذكرت في العَدد ، وكُل وَاحد فِي نَفسه من العَدد لا يَتجزأ ، فَزدْني بَيَانًا(١) .

فَاعلمْ أنك إذَا أَرَدت قسمة المائة قُلت : نصفها خَمسون ، ورُبعها خَمسة وعشْرون ، وثُلثها ثَلاثة وثَلاَثون ، ويَبقَى وَاحد من المَائة ، زَائد عَلى الثَّلاثة أَثْلاَث ، فَلا تَقدر عَلى قسمته ؛ قُلت : كُل وَاحد ثَلاثة ثَلاثة ، وكُل وَاحد فِي نَفسْه لا يَتَجزأ .

وكَذلك العَشْرة نصفها خَمسة ، وثُلثها ثَلاثة ، ويَبقى وَاحدٌ من العَشرة ، فَلا تَقدر عَلى قَسمته ؛ لأَنَّه وَاحد في نَفسه ، لا يَتَجزأ ، فإن زدت عَلَيْه اثْنين قَسَّمته ، فَقُلتَ : كُل وَاحد ثُلث الثَّلاثة ، وكُل وَاحد فِي نَفْسَه لا يتجزأ .

فَالعَدد كُله يَنْقسم عَلى العَشر ، والتِّسع ، والثُّمن ، والسُّبع ، والسُّدس ، والخُمس ، والرُّبُع ، والثُّلث ، والوَاحد في نَفْسه لا يَنقسم أبدًا ، كَذلك المَخْلوقات كُلها تَألَّفت من الأفراد الَّتي هي الجَواهر ، فَضُم جَوهر إلى جَوهر فكَانت أعداد المَخْلُوقَات لا تَتَنَاهى ، كَما ضم أفراد العَدد بَعضها إِلَى بَعض ، فكَان العَدد لا يَتَنَاهى ، فَأفراد العَدد بِمنزلة الجَواهر التي تَألفت مِنها المخلوقات .

وكل جَوهر في نفسه فرد ، لا يتجزأ ، دَلالة على الواحد جَل جَلاله ، ولو أخذت جسمًا وَاحدًا من المخلوقات مثل جسد الإنْسان ، وجدته(٢) تَألف من أعدَاد لا تُحصى من الجَواهر ، ضُم بعضها إلَى بَعض حتى صار جسمًا واحدًا فسمى باسم الواحد ، وهُو في نَفسه أعدادَ كثيرة ، كَما أن اسْم الوَاحد واقع عَلَي الألف ، والألفُ في نَفْسه عَدد كثير فكَما أن الوَاحد ضَم

(١) بيانًا : الحجة ، والمنطق الفصيح .

(٢) زادت الهاء على كلمة «وجدت» حتى يتم المعنى ويستقيم .

العَدد الألف بَعضه إلى بَعض فَصَار به وَاحداً ، كَذلك اللّهُ جَلَّ جَلاله هُو أَول الأَشْياء ، وَاحداً ، وضَمّ أَجزاء المَخلوقات بَعضها إلى بَعض ، وأَلَّفها حتى صَارت شَيْئًا وَاحدًا ، حتى أنَّ مُلكه كُله إنَّمَا هُو شَيء وَاحد ، ومُلك واحد لرب وَاحد ، لا يُقال / لَه مُلْكان ، وَلا ثَلاثة ، ولا أَربعة ، إنما مُلكه ٢٨/ب سُبحانه مُلكٌ وَاحد ، لمَلك وَاحد ، وإن كَثرت العَوالم إلى مَا لاَ يحصى فيضم عَالم إلى آخر إلى مائة أَلف عَالم ، أو أكثر ، أو أَنقص ، فيَرجع الكُل واحد ، معتمد على مَلك واحد ، متعبد لواحد ، كمَا كَانت أَجْزاء الجسَد كله جواهر لا تحصى ، وضَمها الجِسم ، فكانَت به واحد .

فَسُبحان اللَّه مَا أكثر دلائله ، وَما أَبيْن وَحْدانيته ، وأُلوهيته ، ولَو كَان غَير مَا ذكرت لك لم يجز بوجه ولا حال ، وهو حقيقة معنى قوله عز وجل :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[١] لمن فهمه الله ذلك .

فانْظر بهَذا النَّظر في جَميع المَخْلوقات من الذَّرَّة[٢] إلى ما فَوقَها ، لَولا الوَحْدانية لَمَّا وُجدَت بوجه ؛ فإن جسم الذَّرَة من أعداد لَا تُحصى ، ومعنى الوحدانية ضَمهاَ حتى صَارت مَوجُودة ، ولَو قُدرَت افْتَراق أَجْزائها بَعضها من بعض لتَلاشت ، وانْعَدمت ، ولم توجد .

كذلك لو قُدرت افْتراق جَميع العَوالم بَعضها من بعض ، وافْتراق جَواهرها بَعضها من بعض ، وزَال عنْها اسْم الوَحدانَية التي تُمسكها لَفسدَت ، ولمْ تُوجد ، مثال ذَلك أنْ تُقدر طَرح أَجْزاء جَسدكَ ، فتحلله من تركيبه ، وهُو وَاحدٌ في نَفسه فَسقط اليَد من الذِّراع ، والأَصَابع من اليد ، والرأس من العُنق ، والأَعضاء بعضها من بعض ، فتكثرت وتَفَصلت بعضها من بعض ثمَّ تَفَصل كُل عُضوٍ بعضَه من بَعض ، فَيَتلاشى الجَسد ، ولا يُوجد .

(١) سورة الأنبياء الآية (٢٢) .

(٢) الذرة : أصغر جسم في عنصر ما يصح أن يدخل في التفاعلات الكيميائية .

فصل

فَإن أردت التَّركيب بالتَّقدير ، كَمَا كَان أول مَرة عَاد وَاحدًا ، وظَهر وُجُوده، وَاستَقَامَ ، فَلم يَظهر وُجوده ، ولا استَقَامَ أَمْره حتَّى صَار وَاحدًا ، ١/٢٩أ وهكذا أجْزَاء الأرض انْضَمت بَعضها إلى بعض ، فَصَارت / واحدًا ، ولو قُدرت انْفصال أجْزائها بعضها من بعض لتَلاشت .

وهكذا جسم البحر لَو فَصلته خلجانًا[1] خلجانًا ، ونُقطة نُقطة لتَلاشى، وإذا قدرت ضَم أجْزَائه بَعضهَا إلى بَعض ظَهر وجُوده ، واستَقام أمره .

وهكذا الهَواء ، والأفْلاك ، والسَّمَاوات ، وجَميع المَخْلوقات كَائنًا مَا كَان .

وهكذا الأرْواح كُل رَوح وَاحدٌ في نَفسه ، وبضَم بَعضهَا إلى بَعض صَارت عَالمًا وَاحدًا ، وبِضَمهَا إلى الأجْسام فَصَارت مَع الأجْسَام كَشيءٍ وَاحد استَقام أمْرها .

وَمن هَذا نَفهَم قَوله عليه السَّلام : « الجَمَاعة رَحمة ، والفُرقة عَذاب»[2] ؛ فإنَّ هَذه هي الرَّحم الوَاشحة[3] ، المتُعلقة بَعضها ببعض ،

(١) الخلْجَان : جمع خليج وهو : امتداد من الماء متوغل في اليابس والنهير يقتطع من النهر الكبير إلى جهة ينتفع به فيها .

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند من حديث النعمان بن بشير مسند أحمد (٤/ ٢٧٨) وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (٣٦٩) : وهو عند القضاعي والديلمي من حديث النعمان ، وأخرجه الديلمي أيضًا من حديث جابر رفعه . وكلاهما سنده ضعيف ا. هـ مجمع الزوائد للهيثمي : (٥/ ٢١٧) .

(٣) الواشحة : المرتدية الوشاح المرصع بالجواهر ويقصد المؤلف -رحمه الله- أن تلك الدنيا التي =

المُؤتلفة بَعضها إلى بَعض ، فَصارت شَيئًا وَاحدًا ، ومُلكًا وَاحدًا لمَلك وَاحد، رَحيم ، رَاحم : « وَمَن فَارق الجَماعة شبرًا فَقد خَلع ربْقة[١] الإسلام من عنقه »[٢] ﴿وَلَه[٣] مَنْ في السَّموات والأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانتُونَ﴾[٤] . وتَفَّهم هَذا جدًا تَفهم مَعنَى جَهنم في الوُجود ، وكيف كان سَبب العَذاب ، والفَساد ، ولأي شيء خُلقت جَهنم عَلى صُورتها المَذكورة في القُرآن ، والأَخْبَار ، والفَزع الأكبر ، والأصغر ، وتَفهم منه صُورة النَّعيم ، ودار النَّعيم لأهل الحَق .

ويُفهم من ذَلك لأي شَيء وقَع القِتال ، والعَذاب في دَار الدُّنيا ، وفي دَار الآخرة .

ويُفهم منه فَساد هَذا العَالم عنْد قيام السَّاعة ، واقرأ قوله عز وجل : ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَال﴾[٥] وتَفَهَّم ، واسْتَعن بالله يُعينك ، ولَيس يُمكن أكثر من هذا التَّفهم بالعِلم ، واللَّهُ أعلم .

فإذَا فَهمت مَا تَقدم تَبيّن أنه لَيس في العَالم فَراغ بوجه ، ولا عَلى حَال ، والفَراغ الَّذي يَتوهمه النَّاس إنَّمَا هُو الهَواء ، وكَيف يَكون الهَواء فَراغًا؟ / وهُو أعْظَم خلقة من الأرْض ، والمَاء ، وإنَّمَا هُو جسم يَأخُذه ٢٩/ب
الطُّول ، والعَرض ، والعُمَق ، فَليس في العَالم إذًا فراغ ، فَاتَّصلت المَوجُودات بَعضها ببعض كُل جَوهر إلى الَّذي يَليه ، وكُل جِسم إلى

=ازينت وائتلفت صارت شيئاً واحداً باختلاف جوهرها .

(١) الربقة : بالكسر حبل فيه عدة عُرى تشد به البُهم ، والواحدة من العرا « ربقة» .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري في صحيحه (٩/ ٩) ، مسلم (٥٥) أبو داود (٤٧٥٨) الحاكم (١/ ١١٧) .

(٣) زاد في الأصل كلمة « أسلم » .

(٤) سورة الروم الآية (٢٦) .

(٥) سورة إبراهيم الآية (٤٦) .

الَّذي يَليه ، وانزمت[(١)] زَمّاً منضغطًا ؛ حتى لا يُمكن انفصال بَعضها من بعض ؛ فإن انْفصل جَوهر من جوهر ، أو جسم منْ جسم حَصل الهَواء بَيْنهما ، فَلم يكن ثَمَّ فَراغ بوجه ، فَحقٌ أقول : إنّ العَالَم قد اتّحد وصار جسمًا واحدًا ، ولو قُدرت من الْعَوالم مائة ألف أَلف عَالم لابُدّ لها من هذا التَّوجيه يَتصل عَالم بعالم فيَكون الكُل عَالَمًا وَاحدًا .

وكَذلك عَالم الأرواح تَآلفت أيضًا ، واتصل بعضها ببعض ، كل جنس إلى جنس ، فَإن تَناكرت ، وانْفَصل بعضَها من بعض ، فَالتَّناكر أيْضًا خَلق مَوجود بيْنهمَا بمنزلة الهَواء للأجسام ، وإنمَا كَانَت هَذه الصّورة للموجودات حتى صارت كالمَاء في الإناء إذا امتلائه لا فَراغ فيه ؛ لأن وجُود الوَاحد الحق الذي لا نهَاية له قدَ أكْشَفَ مَخلوقاته ، وزمَّها ، فهو الذي صَيَّرها شَيئًا واحدًا ؛ لأنها من موجودها بمنزلة المعلوم في نفس العالم به ، المحيط به ، فلو كان في الملك آلهة إلا اللَّه لَذهب كُل إله بملكه ، وانحَاز ناحية عن غيره ، وانْفصلت الأشْياء بَعضها من بعض ، وأدّى ذَلك إلى التَّلاشي المذكور فيما تَقَدم في تَقسيم الجَواهر ، وتَحليلها ، ولم يكن إله وَلا مَألوه ، فَالحق إذًا هي الوَحدَانية ، والبَاطن[(٢)] هي الكثرة كما قال تعالى :

﴿ ذَلكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ مَا[(٣)] يَدْعُونَ مِنْ دُونه هُوَ البَاطلُ ﴾[(٤)] والبَاطل هُو العَدم الذي لا يَجوز أنْ يكون موجودًا ، والحَق هُو الوُجود الَّذي لا يَجوز أن يكُون مَعدُومًا ، والحقُّ هو الشَّيء الوَاضح الظَاهر ، البَين ، والباطل هو الشيء الخَفي الَّذي لا وجود له ، فلما إن كَان البَارىء عز وجل

(١) انزمت : شدت وضمت جيداً .

(٢)الباطل : نقيض الحق ، وما فسر أو سقط حكمه .

(٣) في الأصل « وأنّمَا » .

(٤) سورة الحج الآية (٦٢).

هُو الوُجود الحَق كَانت أفْعَاله / الشَّيء الخَفي الذي لا وُجود له ، فلمّا أن ١/٣٠أ
كَان البَارئُ عز وجل هو الوُجود الحَق ، كانت أفعاله كلها حَقّاً ، فتَحقق وجُودها بِهِ ، وبَقى وجُودها بِمُوجدها الباقي الحقّ .

ولما أن كانَ البَاطل لا وجود له كَان كُل مَن ادّعى إلهًا بَاطلاً ، بضد ذَلك ، فَبطل وُجود من ادّعى ذلك ، وكان بِعرض البطلان والفَسادَ أبد الآباد ، ولذلك كانت جَهنم دار فساد .

قال الله عز وجل : ﴿ سَيَجْزِيهِم وَصْفَهُمْ ﴾[1] ، وقال : ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِي مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[2] .

ولَمَّا كانَ إلههم الذي ادعوه لا وجود له إلا في أوْهَامهم[3] وظنونهم الكاذبة كانت النَّار جَزاؤهم ، ومَولاهم علَى ذَلك المَعنى ؛ لأن النَّار لا ظُهور لَها إلا في جسم تأكله ، وتُفْنيه ، فَلو انْعدم الكُفر ، والعصْيان من الوجود لم يَكن للنَّار وُجود .

ولما كانَ العدم الذي هو البَاطل لا شَيء أظْلم منه ، ولا أخفى كانت جهنم سَوداء مُظلمة ﴿ إِنَّ الشِّرك لظُلْمٌ عَظيم ﴾[4] والظُّلْم ظُلمات ، وعَلى هَذا المَعنى استقر جميعه في صفات جَهنم ، ومَا وَرَد فيها ، وفي أهلها ، وتَعْذيبهم تَجدها مُوافقة لِعقَائدهم ، وأعمالهم ، وبالضِّد من ذلك دار النعيم .

ولَمّا كَانت دَار الدُّنيا مُمتزجة[5] مِن العَالمين ، وكَان فيها الخَير والشَّر ،

(١) سورة الأنعام الآية (١٣٩) .

(٢) سورة الحديد الآية (١٥) .

(٣) الأوهام : جمع « وهم » وهو مايقع في الذهن من الظنون والخواطر .

(٤) سورة لقمان الآية (١٣) .

(٥) ممتزجة : مختلطة بغيرها .

ومن كل العَالمين - أعني الجنة والنار - زوجين اثنين كانت دَار كون ، وفَساد ، فإذا فُصلَتْ من الامتزاج بالقيامة عنْد غَلبة الشَّر على الخير فَسدت الدُّنيا ، ومُيز الخَبيث من الطَيب ، وعَادِ كل واحد إلى عُنصره ، ولمْ يكن بَعد الدُّنيا دَار إلا الجَنَّة ، أو النَّار .

فصل

وَاعلمْ أن العوالم[١] كلها هي أفعَال الله ، ومَخلوقاته فَليس في الوُجود
٣٠/ب إلا اللّه / وأفْعَاله ، وجَميع مَا خلق من العَوالم مُلكٌ وَاحدٌ كما تَقَدم، بمنزلة جَسد واحد، وعلمهُ ، وصفاتهُ مُحيطَة بجُزْئيات المخلوقات وكُليّاتها ، وإذا أردت أن تَفهم ذَلك فهمًا شَافيًا ويتبيّن لَك بُطلان مَذهب من يقول إنه يعلَم الكُليات ، ولا يعلم الجزئيات .

وبُطلان أيْضًا من يقول بإضافة أفْعَال المَخلوقات إلى أنْفُسها ، وأنَّه لَيس في الوُجود فَاعل إلا الله وحده ، فانْظر إلى قول الله جل جلاله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم﴾[٢] . فذكر الإِنْسَان بجُملته مُجملاً ، ولم يَذكر أجزاءه ولا أفعاله .

ثمَّ إذا أرَاد أن يُبين إحاطة علمه ، وقُدرته بجميع أجزائه ، وأفعَاله ، ذكره عُضوًا عُضوًا ، وجُزءًا جُزءًا ، فذكر أصْل خلقته ، وأولها فقال : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾[٣] . ولا يَذكر الذَّاكر بكلامه ، ولا يَصف إلا مَا يَعْلم بعلمه ، ويَراه ببَصره ، ويُحيط به إحَاطة كَاملة ثمَّ ذكَر أنّه خَلقه من سُلالة ، ثم من نُطْفة ، ثمَّ من علقة ، إلى أنَ قال :

---

(١) العوالم : جمع « عَالَم » وهو الخلق كله ، وكل صنف من أصناف الخلق كعالم الحيوان وعالم النبات .

(٢) سورة التين الآية (٤) .

(٣) سورة الواقعة الآية (٥٨ ، ٥٩) .

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاه خَلْقًا آخَرَ﴾[١] فَوَصف أطوار خلقته على مَا هي عَليه إلى حين خُروجه طفلاً ، ثمَّ إذَا أراد ذكر أجزائه وَصفَ وَجهه ، فيقول : ﴿مُكبّاً عَلَى وَجْهه﴾[٢] ، ﴿تَعْرفُ فِي وُجُوهِهِمْ﴾[٣] ﴿وَابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾[٤] ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾[٥] .

وإذا ذكر البصر قال : ﴿وَأَبْصَارُكُمْ﴾[٦] ، وإذا ذكر الأُذن قال : ﴿فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾[٧] ، ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾[٨] ، ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾[٩] ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾[١٠] ﴿السِّنَّ بِالسِّنِّ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ﴾[١١] ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾[١٢] ﴿حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾[١٣] ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾[١٤] ﴿أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ﴾[١٥] ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾[١٦] ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[١٧] ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[١٨] ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[١٩] ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[٢٠] ﴿حَبْلِ / الْوَرِيدِ﴾[٢١] . ١/٣١

فَيَصف الجَسَد عُضواً عُضواً ، إذَا أَراد ذكر أجْزائه ، فإذا وَصفه بجُملته قال : الإنسانُ فإذا وصف أفعاله قَال : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي

(١) سورة المؤمنون الآية (١٤) .
(٢) سورة الملك الآية (٢٢) .
(٣) سورة المطففين الآية (٢٤) .
(٤) سورة آل عمران الآية (١٠٧) .
(٥) سورة غافر الآية (٦٤) .
(٦) سورة الأنعام الآية (٤٦) .
(٧) سورة لقمان الآية (٧) .
(٨) سورة البلد الآية (٨، ٩)
(٩) سورة يس الآية (٨) .
(١٠) سورة الأنفال الآية (١٢)
(١١) سورة المائدة الآية (٤٥) .
(١٢) سورة الطارق الآية (٧) .
(١٣) سورة العاديات الآية (١٠) .
(١٤) سورة البقرة الآية (١٧٤) .
(١٥) سورة المائدة الآية (٣٣) .
(١٦) سورة المائدة الآية (٦) .
(١٧) سورة النور الآية (٣٠)
(١٨) سورة البقرة الآية (٧) .
(١٩) سورة ق الآية (٣٧) .
(٢٠) سورة الحاقة الآية (٤٦) .
(٢١) سورة ق الآية (١٦) .

الصُّدُورِ﴾[١] ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ ﴾[٢] الآيـة ، ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾[٣] ﴿يأْكُلُوا ويَتَمَتَّعُوا ﴾[٤] ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إلا كِبْرٌ ﴾[٥] ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾[٦] ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[٧] ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾[٨] ﴿السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ﴾[٩] .

فَيَصِف أوصاف بنْيَته ، وأوصَاف أفْعَاله ظَاهِرًا ، وبَاطنًا ، كَذلك المُلك كله إذا ذكره بجملته قَال : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ ﴾[١٠] ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيماً﴾[١١] ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيم ﴾[١٢] و﴿بَصِير﴾ [١٣] و﴿ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير ...﴾[١٤] .

فإذا أراد ذكر أجزاء الملك كله عالمًا عالمًا ، وجنسًا جنسًا ، وشَخصًا شَخصًا ذَكره بمَا هُو عليه ، فيقول : ﴿ رَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾[١٥] فتجد ذلك كمَا ذكره لا زيَادة ، ولا نقصان ، ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾[١٦] ، ﴿الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[١٧] ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾[١٨] ﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾[١٩] ﴿ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ ﴾[٢٠] ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾[٢١] ﴿ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾[٢٢] ﴿ رِيحًا

---

(١)سورة غافر الآية (١٩) .
(٢) سورة الملك الآية (١٣) .
(٣) سوة البقرة الآية (٦٠) .
(٤) سورة الحجر الآية (٣) .
(٥) سورة غافر الآية (٥٦).
(٦) سورة محمد الآية (٣٠).
(٧)سورة الأنفال الآية (٢).
(٨) سورة النور الآية (٢) .
(٩) سورة المائده الآية (٣٨) .
(١٠)سورة الرعد الآية (١٦) .
(١١) سورة الأحزاب الآية (٤٠).
(١٢) سورة البقرة الآية (٢٣١) .
(١٣) سورة الملك الآية (١٩) .
(١٤) سورة البقرة الآية (٢٠).
(١٥) سورة الرعد الآية (٢).
(١٦) سورة الرحمن الآية (١٠) .
(١٧) سورة نوح الآية (١٦).
(١٨) سورة يونس الآية (٥).
(١٩) سورة التكوير الآية (١٦).
(١٠) سورة الأعراف الآية (٥٤) .
(٢١) سورة الواقعة الآية (٧٥).
(٢٢) سورة الروم الآية (٤٦).

صَرْصَرًا ﴾[١] ﴿ يُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَال ﴾[٢] ﴿ أَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾[٣] .

﴿ يُرِيكُمُ الْبَرْق ﴾[٤] ﴿ يُسبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْده ﴾[٥] ﴿ يُرْسِلُ الصَّوَاعق﴾[٦] ﴿ سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾[٧] ﴿ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلام ﴾[٨] ﴿ لِتَأْكُلوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[٩] ﴿ الْخَيْلَ [و] الْبِغَالَ [و] [١٠] الحَمير ﴾[١١] ﴿ الإبل ﴾[١٢] ﴿ الْبَقَر اثْنَيْن﴾[١٣] ﴿الْمعز اثْنَيْن﴾[١٤] ﴿ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنه﴾[١٥] ﴿ عَلَى رِجْلَيْن ﴾[١٦] ﴿ عَلَى أَرْبَع﴾[١٧] ﴿ طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيه﴾[١٨] ﴿ الجنة ﴾[١٩] ﴿ النَّار ﴾[٢٠] ﴿الْعَرْش الْعظيم﴾[٢١] ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض ﴾[٢٢] ﴿ التِّين وَالزَّيْتُون﴾[٢٣] ﴿ الْبَلَد الأمين ﴾[٢٤] ﴿ مِنْ طُورِ سَيْنَاء ﴾[٢٥] ﴿ شَجَرة تخرج﴾[٢٦] و ﴿ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾[٢٧] .

---

(١) سورة فصلت الآية (١٦) .
(٢) سورة الرعد الآية (١٢) .
(٣) سورة النبأ الآية (١٤) .
(٤) سورة الرعد الآية (١٢) .
(٥) سورة الرعد الآية (١٣) .
(٦) سورة الرعد الآية (١٣) .
(٧) سورة النحل الآية (١٤) .
(٨) سورة الشورى الآية (٣٣) .
(٩) سورة النحل الآية (١٤) .
(١٠) سقطت « الواو » من الأصل .
(١١) سورة النحل الآية (٨) .
(١٢) سورة الأنعام الآية (١٤٤) .
(١٣) سورة الأنعام الآية (١٤٤) .
(١٤) سورة الأنعام (١٤٣) .
(١٥) سورة النور الآية (٤٥) .
(١٦) سورة النور الآية (٤٥) .
(١٧) سورة النور الآية (٤٥) .
(١٨) سورة الأنعام الآية (٣٨) .
(١٩) سورة البقرة الآية (٣٥) .
(٢٠) سورة البقرة الآية (٢٤) .
(٢١) سورة التوبة الآية (١٢٩) .
(٢٢) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .
(٢٣) سورة التين الآية (١) .
(٢٤) سورة التين الآية (٣) .
(٢٥) سورة المؤمنون الآية (٢٠) .
(٢٦) سورة المؤمنون الآية (٢٠) .
(٢٧) سورة إبراهيم الآية (٣٥) .

و﴿ واللَّيْلِ إذا يَغْشَى ﴾[١]، ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾[٢]، ﴿الشَّفَق﴾[٣]
٣١/ب ﴿الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ ﴾[٤] / ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾[٥] ﴿ قَوم نوح ﴾[٦]، ﴿ قَوم موسى﴾[٧]، و﴿عاد﴾[٨]، ﴿ ثمـود﴾[٩] ﴿ قوم إبراهيم ﴾[١٠]، ﴿قوم لوط﴾[١١] ﴿فرعون﴾[١٢] ﴿ آل[١٣] فِرعون﴾[١٤] ﴿ هَامان ﴾[١٥] ﴿ قارون ﴾[١٦] ﴿ أَبي لهب﴾[١٧] ﴿ امرأته حمالة الحطب﴾[١٨] ﴿ بني آدم﴾[١٩]. ﴿ الجن﴾[٢٠] ﴿ الإِنس﴾[٢١] ﴿الملائكة﴾[٢٢] ﴿ الصراط﴾[٢٣] ﴿ الموازين﴾[٢٤] ﴿ حور مقصورات﴾[٢٥] ﴿ سِدر مخضود﴾[٢٦] ﴿ شجـرة الزقوم ﴾[٢٧] ﴿ الدرك الأسفل﴾[٢٨] ﴿الدرجاتَ العُلى ﴾[٢٩]، ﴿ والنخل والزرع مختلفًا أُكُلُه ﴾[٣٠].

---

(١)سورة الليل الآية (١).
(٢)سورة الليل الآية (٢).
(٣)سورة الإنشقاق الآية (١٦).
(٤)سورة التكوير الآية (١٨).
(٥)سورة الفجر الآية (١).
(٦)سورة الأعراف الآية (٦٩).
(٧)سورة القصص الآية (٧٦).
(٨)سورة التوبة الآية (٧٠)
(٩)سورة التوبة الآية (٧٠)
(١٠)سورة التوبة الآية(٧٠).
(١١)سورة هود الآية (٧٠).
(١٢)سورة الأعراف الآية (١٠٣).
(١٣) في الأصل « إلى ».
(١٤)سورة البقرة الآية (٤٩).
(١٥)سورة القصص الآية (٦).
(١٦)سورة القصص الآية (٧٦).
(١٧)سورة المسد الآية (١).
(١٨)سورة المسد الآية (٥).
(١٩)سورة الأعراف الآية (٣١).
(٢٠)سورة الأنعام الآية (١٢٨).
(٢١)سورة الأنعام الآية (١٢٨).
(٢٢)سورة البقرة الآية (٣٠).
(٢٣)سورة الفاتحة الآية (٦).
(٢٤)سورة الأنبياء الآية (٤٧).
(٢٥)سورة الرحمن الآية (٧٢).
(٢٦)سورة الواقعة الآية (٢٨).
(٢٧)سورة الصافات الآية (٦٢).
(٢٨)سورة النساء الآية (١٤٥).
(٢٩)سورة طه الآية (٧٥).
(٣٠)سورة الأنعام الآية (١٤١).

﴿الزيتون﴾[١] ، ﴿ الرمان ﴾[٢] ﴿ من كُل الثـمرات﴾[٣] ، ﴿المشرقين﴾[٤] ﴿المغربين﴾[٥] ﴿ المشارق﴾[٦] ﴿المغارب﴾[٧] ، ﴿يخلق مَا لا تعلمون ﴾[٨] .

وَعَلى الجُملة ، فَلا أقدر عَلى وصف بَعض مَا ذكر اللّه تَعالى بكلامه ، وَوَصفه لأجزاء المَخلوقات حتى الذَّرة والخَردلة[٩] ، فقد قال : ﴿ إنَّ اللّه لا يَظْلمُ مثْقَالَ ذَرَّة ﴾[١٠] ﴿ وَإنْ كَانَ مثْقَالَ حَبَّة منْ خَرْدَل ﴾[١١] ﴿ وَمَا تَسْقُط منْ وَرَقَة ﴾[١٢] ﴿ وَلا رَطْب وَلا يَابِسٍ ﴾[١٣] حتى قوله جَل وعزّ : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ منْكُمْ منَ الغَائط ﴾[١٤] .

فَهُوَ يَصف الوُجودَ كُله ظَاهراً ، وبَاطنًا ، وأفْعَاله ، وحَركاته ، وأجْزَاء أجْـزَائه ، وَلا يَصف الواصف ، ولا يَذكـر الذَّاكـر إلا مَـا يَرى ، ويُشـاهد ، ويَعلم ، فَتبّاً للقَائلين : إنَّه يَعلم الكُليات ، ولاَ يَعلَم الجُزئيات ، وَتبّاً لمَن يَقول : إنْ أحداً يَفعل فعلاً في الوُجود كُله ، واللّه يَقُول :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولَكنَّ اللّهَ قَتلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ... الآية﴾[١٥] .

وَيَعمْ ذَلك قوله عَز وجَل :

---

(١)سورة الأنعام الآية (١٤١). (٢)سورة الأنعام الآية (١٤١).

(٣)سورة البقرة الآية (٢٢٦). (٤)سورة الرحمن الآية (١٧).

(٥)سورةالرحمن الآية (١٧). (٦)سورة المعارج الآية (٤٠).

(٧) سورة النحل الآية (٨) . (٨)سورة المعارج الآية (٤٠).

(٩) الخردلة : نبات عشبي حريف من الفصيلة الصليبية ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق تستعمل بذوره في الطب ، ومنه بذور يتبل بها الطعام ، والواحدة خردلة ، ويقال : ما عندي من كذا خردلة والجمع خرادل .

(١٠) سورة النساء الآية (٤٠) . (١١)سورة الأنبياء الآية (٤٧) .

(١٢) سورة الأنعام الآية (٥٩). (١٣) سورة الأنعام الآية (٥٩).

(١٤) سورة المائدة الآية (٦) . (١٥) سورة الأنفال الآية (١٧) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾(١) ، وقوله : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٢) ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾(٣) .

وَأَمَّا النَّظر في ذَلك من جهة العَقل ، فإنَّ الأجْسَاد إنَّمَا هي جمَادات ، لا حراك لَها ، وَلا إدرَاكَ أيْ جسم كَان من المَخْلُوقَات ، وإنَّمَا الأفْعال ، والإدْرَاك للأرْواح هي تَصرف الأجْسَاد ، فَهِي لَها كَالآلات للأرْواح .

١/٣٢ والإدْراك / العلمي وَغَيره إنَّمَا هي للأرْواح أيْضًا فَهي كُلها أعراض كَائنة ، ومَخْلوقة في الأرواح بَعدَ أن لَمْ تكن فيها ؛ فالإرَادَات ، والقَدَر ، والعُلوم ، والفكر والآلام ، واللّذات ، والنَّوم ، واليَقظة ، والحَركة ، والسُّكون ، والمَوتُ ، والحيَاة ، والصَّبر ، والفَرج ، والجَزَع(٤) والمحبة ، والبغضة .

وبالجملة كل صفة ، أو عرض قَائم بِالأرواح إنَّما هُو مَخلوقٌ فِي الأرْوَاح ، بِمَعنى الجَبر ، والاختيار .

فإذا كَان الفعل اختياريًا خُلقَ له الاخْتيار في ذَلك الوقت في الأرواح ، وتحركتَ الأجْسَاد ، وإذَا كَانَ جَبرًا خُلق فيه جَبرًا ، فكانَ الجَبر على الرُّوح والجَسد سَواء ؛ لا يَنْفَكَ عَنْه وَاحدٌ منهما ، ولَو كَانَ الأمر للأرواح تفعل ما يُريد ، لكانت أرواح جَميع المَخْلوقَات كُل وَاحد منهما يَفعل مَا يريد ويُحب ، ويُجانب مَا يكره ، ولاتَّبع كُل وَاحد مُراده وهَواه : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَن فِيهِنَّ ﴾(٥) فَافْهَم فَهَّمك اللّه .

---

(١) سورة الجاثية الآية (١٣) .

(٢) سورة الصافات الآية (٩٦) .

(٣) سورة المدثر الآية (٣١) .

(٤) الجزع : ضد الصبر .

(٥) سورة المؤمنون الآية (٧١) .

وَمِنْ أَعْجب شَيء ، وأَغْربه في هَذا المَعنى أنَّ أرواح الملائكة[١] ، والمُقربين، والحَمَلة ، والحَافِّين ، لَمَّا كَانوا في محَل القُرب ، والمُشَاهدة ، والسَّمَاع للوَحي كَانت أفْعَالهم ، وحَركَاتهم بغَير اخْتيار منهم ، وكَانت تَنْفعل انْفعَالاً ، وذَلك أنَّ الإنْسَان إذَا شَاهد مَلَكًا عَظيمًا ذَا هَيْبَة ، وسَطوَة دَخَلت ذَاته منه هَيبةً ، ورَهْبَةً ، وتَوَاضعًا ، وذلَة ، واسْتكَانَة[٢] ، وطَاعة ، فإن أمره بشَيء لَمْ يَمتنع من الاسْتجابة للطَّاعَة ، فكَيفَ بمَلك المُلوك الَّذي لا يَسع كَلامه إلا بِسَمعه الَّذي وَسِعَ ذَاته ، ولَا يَحمل نَظَره وقُدرته شَيء غَيره .

٣٢/ب وكذلك ورد أنَّه ينْظر إلى العَرش فَيتسع أضعاف ما هو / علَيه ، ويَثْقل على الحَملة ، أو كما وَرد ، قَال جبريل - عَلَيْه السلام - : « وكَيفَ لَو رَأَيتَ إسْرَافيل أنْ العَرش لَعَلى كَاهله ، وإنَّه لَيَتَضَاءَل[٣] لعظمة الله حَتى يَعود كالوصَع[٤] » . ﴿يُسبحون اللَّيل والنَّهار لا يَفْتُرون﴾[٥] .

ولذلك كَانت دَورات الأفْلاك ، والنُّجوم لا يَفْتر طَرفة عيْن ، ولا أقَل ، ولَا أكثر ؛ قائمة من المَشْرق إلى قُرب الاسْتواء ، ثم مُستوية في قيامهَا في حَال الاسْتواء ، ثم رَاكعة بَعدَ الزَّوال وسَاجدة في حَال الغُروب ، ثَمَّ دَائرة طائفة حَولَ الأرض أبدًا ، لا تَسْتَطيع العصيَان ، ولَا المُخالفة ، فَصَارتَ الطَّاعة والانْقياد لَها طَبعًا مطبوعًا ثَمَّ كُلما بَعدت الأشْياء عن مُشاهدة الحَضرة العَليةَ شَاهدت أنْفسها ، وذوَاتها ، وذهلت عنْ مُشاهدة مَالكها ، وبارئها ، فَتوهَمت أنَّها فَاعلة ، إلى غير ذلك مما دَخلَ عليها من

(١) هناك « واو » زائد في الأصل حذفت لاستقامة المعنى .

(٢) الاستكانة : الذل والخضوع .

(٣) يتضائل : ينضم بعضه إلى بعض . ويصغر حجمه .

(٤) الوصَع : طائر أصغر من العصفور ، وفيه تسكين الصاد أيضًا والجمع وصْعَان .

(٥) سورة الأنبياء الآية (٢٠) .

فَسائد العَقَائد ، وَالأفْعَال ، فمن هُنا دَخلت عليْها الآفَات[١] ، ومَن أضَاف حَركة وَاحدة إلى شَيء من المَخْلوقات ، فَقَد أشْرك فَلابُدَّ لَكَ من تَوحيد الأفْعال ، فَلا يَتم التَّوحيدَ إلا به .

فصل

وَاعلمْ أنَّ التَّوحيد في نَفْسه ثَلاث مَراتب : تَوحيد الأفْعَال ، وتوحيد صِفات الفَاعل ، وتوحيدَ وُجود ذَات الفَاعل :

المرتبة الأولى : توحيد الأفْعَال .

وهُو إضَافة الأفْعال ، والمَفْعُولات كُلها إلى اللَّه وأنَّه خَالق الذرَّة ، وأفْعَالها ، والفيل وأفْعَاله ، والعَرش ، وأفعاله ، وخالق أعيْان الموجودات كُلها ، وأفعَالها على كَثَرتها واخْتلافها فسُبحان مَن لا يَشْغَله شَأنٌ عن شأن ؛ لأنَّ الفعل من فَاعلين مُحالٌ في العقل ، والله يقول :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٢] ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[٣] ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾[٤] .

١/٣٣ ولو كانت أفعال / العباد ، وحَركاتهم في ظَواهرهم ، وبواطنهم مُطابقة [. . . .][٥] لأدّى ذَلك إلى أنَّ العَاجز قَادر ، والقَادر عَاجز ، وهَذا مُحال ؛ لأنَّ الحركَات لَو كانتَ للعباد لكَانت باخْتيَارهم ، والاخْتيار ، والقُدرة لَيس للعَبد بهما علمٌ قبل حُدوثها فيه ، وَلا قَبل الفعل ، ولا يَقدر

(١) الآفات : جمع آفة ، وهي العاهة .

(٢) سورة الصافات الآية (٩٦) .

(٣) سورة الأنفال الآية (١٧) .

(٤) سورة النساء الآية (٧٨) .

(٥) بياض في الأصل .

أَيْضًا على رَدها بَعد أن حَدثت فيه ، ولا بعد الفعل ، فإذا لم يكن له بها علم قبل الفعل ، ولا قبل حُدوثها فيه، ولا قُدرة لَه عَلى ردّها بَعد الفعل ؛ لم يَبق إلا أنَّهَا مُحدثة فيه في حين الفعل ، ثمَّ تَزول بزَوال الفعل فإنْ أُريد منه فعل آخر أخذت لَه اخْتيَار آخَر وقدَرة أخرى ، وإنَّمَا الأشْياء كُلها كَمَا قَالَ تَعَالى في بعض الكُتب : « كُنت سَمعه وبَصره » الحديث . كَما ورد « فَبي يَسمع وَبي يُبصر » أيْ بي يُحرك سَمعه وبَصَره، وكُل شَيء منه، ومن العَالم لكن للولي بِحكم الوِلاية ، وللعدو بحكم اللَّعنة ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾[1] .

فَتَوحيد **الأَفْعَال** رُؤية الأشْياء ، وجَميع حَركات الأشْياء، مِن عنْد اللَّه، وأنَّ الأشْيَاء بِيد القُدرة كَالآلَة بِيد الصَّانع .

ولَقد أخرج الله صنعة الخيال آية عَظيمة عَلى توحيده، فَلا تَظُنن أنَّ الخَيال، أو شَيئًا من المَخلوقات من حيْث فعلها هو سُبحانه ؛ إنْ هُو لَعبٌ ولَهو، بَل يُشاهدُهَا كُل أحد من مَقامه، وذَلك أنَّ الصُّور التي يَتكَلم صَاحب الخَيال فيها يَظن الظَّان أن تلكَ الحَركَات للخَيال، وليس هِي إلا للمُتكلم فِي الخَيال ، والمُحرك للصُّور الخيالية .

فكذلك كل جُزء من المخلوقات ظاهرًا ، أو باطنًا ينفعل عن كلام الله تَعَالى، وعنْ صِفاته القَائمة بكل شيء الذي هو أقْرَب إلى كُل شَيء مِن كُل شيء .

ويَظن الظَّان أن الحركات / مُضافة للأشْياء، والظَّن أكْذب الحَديث بَيان . ٣٣/ب

فإن قُلت : زِدني بَيانًا .

---

(١) سورة النجم الآية (٤٣) .

فَاعلمْ أن الإنْسان قَد يُكلم إنْسَانًا بكَلام يُرضيه ، فَيظهَر البشر ، والرِّضا عَلى بَشرةَ المُخاطب ويُكلمه بكلام يؤذيه فيَتَغير بجُملته ظَاهرًا ، وبَاطنًا ، ويُكلمه بكَلام يُغْضبه فَيغضَب ، ويَظهر في ظَاهره الغَضب ، وَبكلام يُضحكه فَيضْحك ، وبكَلام يُبكيه ، أو خَبر يُحزنه ، فَيحزن ، ويَبكي إلى غَير ذَلك ممَّا كَثر تعدَاده ، حَتَّى أنَّ الكَلمة بيْن الخَلق لتُوقع بيْنهم العَداوةَ ، والبَغْضاءَ ، حتى يُؤدي ذَلك إلى الحُروب ، والقَتلَ ، والشُّرور العَظيمة ، والمتكلم بها إنَّما تكلم بكَلمةَ أو كلمات ، واللَّه تَعالى يقول : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(١) .

والذَّات مُتكلم بالكَلام الَّذي وَسع وُجود الذَّات ، وَبكَلامه قَد ذُكر كُل شَيء كَما قَال تَعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾(٢) .

فَالوجُود كُله قَد ذُكره بكَلامه ، فَهُوَ يَتكون عنْ كَلامه القَائم بنَفسه ، ويَتَصرَف في جَميع حَركَاته وَسُكُونَه .

وقد قَال رسولُ الله ﷺ لبعض أصْحَابه : « مَالَه ، ضَرب اللَّهُ عُنقه ، أليس هَذا خَير ؟ »(٣) فَقَال الرَّجل : في سَبيل اللَّه يا رسول الله ، فَضُربت عُنقه في سبيل اللَّه ، فَكيف بكلام رَبِّ العَالمين .

فاتلُ كتابَ اللَّه ، وانْظر أيْ مذكور ذكره تجد صُورة المذْكور في الوجُود كَمَا ذَكر بلاَ زيادة ، ولا نُقصان : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(٤) والَذي حَدث عنْ كلامه في بَاطن الوُجود هي الرَّوحَانيات ؛ لأنّ الرُّوح نَفحة في الجَسد ، والجَسد مُتحَرك ، وسَاكن بالرَوح ، ولَيْس لَه حَركة

(١) سورة النحل الآية (٤٠) .

(٢) سورة التكوير الآية (٢٧) .

(٣) رواه مالك في الموطأ [٩١١] .

(٤) سورة النحل الآية (٤٠) .

بنفسه إنَّمَا هُو جَماد، ولا للمَنْفوخ الَّذي هُو الرُّوح حَركة بنَفسه ، ولا وُجود / إلا بإدَامة النَّفخ من النَّافخ ، فالجسد يتحرك [. . . .][(١)] / ، والنَّفخة صَادرة عنْ النافخ بالضَّرورة ، فالمخلوقات كُلها عَلى هَذا لم تَملك من ظَواهرها ، ولا من بَواطنها قَليلاً ، ولا كَثيرًا . ١/٣٤

والنَّفخ من البَارىء عَلى مَا يَليق به سُبحانَه ، فالذَّرة ، والبَعوضة إذا رفعت رجْلها ، أو جَناحها ، أو وَضعَته فاللَّه يَرفعه ، ويَضعَه ، والعيْن إذا فَتحها النَّاظر بها ، أو غَضها فاللَّه يَفْتحه ، ويَغُضه ، والرِّجْل هو محركها ، ومُسكنها ، واللَّه يَقْبض الوُجود كُله ، ويَبْسُطه ، وإليْه يَرجع الأمر كله ، لا إله إلا هو .

فإذا فهمت مَا تَقَدم من أنَّ الوُجود كُله يَتكون عَن سَماع الكَلام فَسأضْرب لَكَ في ذَلك مَثَلاً لَعلّ اللَّه أن يَفْتَح بَصيرتَكَ لفهم الفَائدة فيه ، بمنِّه ، وذَلك أن تقدّر نَفسْك من حَملة القرآن العَظيم ، وقد حصل القَرآن كَله مَحفوظًا عنْدك ، وقَائمًا بقَلبك ، ثمَّ تُريد أنْ تَقْرأه ، فَقُدِّر أنْ لو قَدرت أنْ تقرأه جملة واحدة في حَالَ واحدة ، فَتخرج كَلمات القُرآن من أوله إلى آخره خروجًا واحدًا ، في حَال واحدة ، ولا يُمكنك ذَلك إلا بأَن تَقدر أن تجَعل ذَاتك كُلها ، وَوجُودك مُتكلمًا بجميع أعضَائك ، ومَفَاصلك ، وعُروقك ، وتكون كُل عُضو مُتكلمًا بآية ، وحَرف عَلى حياله ، فيقول لسانك : بسم اللَّه ويقول العضو الَّذي يليه : ﴿الرَّحْمَن الرَّحِيم﴾[(٢)] والَّذي يَليه : ﴿الْحَمدُ للَّه رَبِّ العَالَمينَ﴾[(٢)] والذي يليه : ﴿الرَّحْمَن الرَّحيم﴾[(٢)] هكَذا إلى قَوله : ﴿مِنَ الْجنَّةِ وَالنَّاس﴾[(٣)] .

وقدِّر أن يَتأثر بكلامك كُل مَذْكور ذَكَرته في حَالة وَاحدة ، حتَّى تكون

(١) بياض بالأصل . (٢) سورة الفاتحة الآية (١ ، ٢ ، ٣)

(٣) سورة الناس الآية (٦) .

في جُملة وافرة قراءَتك وتلاوتَك مثل قَول إبراهيم بن أدهم[١] للجَبل : تَحرك فتَحرك الجَبل بقَوله تَحرك .

وهذا المثل وإنْ لَم يَكن في حَقك حَقيقَة لعَجزك عَنْ الكَلام بالقُرآن كُله ، فَإنَّهُ في حق البَاريء تعالَى / حقيقة ؛ لأنَّ اللَّه تَعالى لَيس كَلامَه حَرفًا بَعد حَرف ، ولا كَلمة بَعد كَلمة بتَرتيب ، وإنّمَا البَاريء جَل جَلاله مُتكلم بالكَلام الَّذي وَسع وُجود الذَّاتَ ، وَهُو المَعنى القَائم بالقَول الَّذي في النَّفس ، فَيَصدر عنْ المَعَاني القَائمة بذَات البَاريء تَعالَى ، مَا شَاكَل تلكَ المَعَاني جُملة وَاحدة في جَميع العَالمينَ مَا حضَر منها ، ومَا غَاب كَمَا قَالَ : ﴿ويَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[٢] . ٣٤/ب

فَصدر عَن هَذه الآية من العَوالم مَا لَم يَعلم ، وَهي مَوجودة في مُلك الله ، والكَلمة قَائمة بِها ، ومَكونة لوُجُودها .

وكَذَلك كُل مذكور في القُرآن ، كما قَال تَعالى : ﴿إنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمينَ﴾[٣] .

ومنْ هَذا المَعنى يُفهم معنى : سَبَق المَقَادير ، وقول النبي ﷺ : « كُتب في الذِّكـر كُل شَيء » ، ﴿ وكُل شَيء أَحْصَيناهُ في إمام مُّبين ﴾[٤] . فبقوله : ﴿تبَّتْ يَدَا أَبي لَهَب وتَبَّ﴾[٥] في الأزَل كَان أَبُو لَهَب ، وصفَاته في كُتب المَقَادير ؛ لأنَّ الكَلَام قَديمٌ ، وَفي أَصْلاب الآباء ، وَفي وُجود الدُّنيا ، وفي

(١) إبراهيم بن أدهم : إمام حبر زاهد عابد ولي محدث ثقة شهير عارف كبير صاحب أحوال وحكم وفقه وورع .

(٢) سورة النحل الآية (٨) .

(٣) سورة التكوير الآية (٢٧) .

(٤) سورة يس الآية (١٢) .

(٥) سورة المسد الآية (١) .

الآخرة ، وفي أبَد الأبد ؛ لأنَّ الكَلمة قَائمة به ، ومكونَة به ، وبصفَاته ، فَلا مَحيص له عَنْها ، لا في الأزَل ، ولا في وجُود الدُّنيا ، ولاَ في الأَبَد .

وكذلك لَو لمْ يَتكلم بقَوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾(١) لم يكن مُؤمن ولا إيمان ، ولَو لَمْ يَذكـر الزَّاني ، والزَّانيـة لمْ يَكن زنا ، ولا زَاني ، ولا زَانية .

ولو لمْ يَذكر المُصلين ، والخَاشعين لمْ يكن شَيء من ذَلك ، وكَـذلك اسْتَقَر كُل مَذكور ، لَعلَّكَ تُشْرف عَلى مَعنى قَول النَّبي ﷺ ، وتَعلَم أنَّ مَا أَصابكَ لم يكُن ليخطئك ، ومَا أخْطأكَ لمْ يكن ليُصيبك(٢) فإنَّ الكَلام قَديم ، لمْ يَزل قَائمًا بِذَات البَارىء تَعالى ، ولا يَزال لا تَبْديل لكَلمات الله .

والكَلام الأزلي هُو الكَلام الأبدي ، لمْ يتغير ، ولا يتَغير ، ولا يَتجَدد عَليْه كَلام ، فَيتكلم بِمَا لمْ / يَتكلم وهكذا جَميع صِفات البَارىء تَعالى . ١/٣٥

فَإنْ قُلت : قَد تَجدُ كَافرًا ذَكره بالكفر ، فكَان كَافرًا ، أو عَاصيًا ، ثمَّ كَان بَعد ذلك مُؤمنًا طَائعًا ، أو تَائبًا بَعد العصيان .

فَاعلمْ أنَّ هَذا لا يَتَناقض ، فـارجع نَظرك إلى القُـرآن تَجده قَـد ذَكـره بالكُفر ، ثمَّ بالإيمَان ، أو بالمَعْصية ثمَّ بالتوبَة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا(٣) ثُمَّ كَفَرُوا ﴾(٤) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾(٥) .

فلم يكن له مَحيص عنْ المعنَيين جَميعًا ، وعنْ ألف مَعنى أنْ ذَكره بها ،

---

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند بنحوه [٥/ ١٨٥ ، ١٨٩] .

(٣) في الأصل : ﴿إن الذين كفروا ثُمَّ آمنوا ﴾ .

(٤) سورة النساء الآية (١٣٧) .

(٥) سورة التحريم الآية (٨) .

ومن هَذا المَعنى يُفهم أنَّ علم القُرآن هُو البَحر الَّذي لا سَاحل لَه ، فإنَّه وَصف اللَه عَلى مَا هُو به ، ووصَف أفعَاله عَلى مَا هي عَليه ، فيحق أنْ يَقول عَلي -رضي الله عنه - : لو شئت لأوقَرت سَبْعين بَعيرًا من تَفسير فَاتحة الكتاب ، فانْظر إلى قَوله عز وجل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾[1] .

هَل رَأيت هَذه المَوجودات كُلها إلا مُستمرة في تَسْخيرها ، لمْ يَقف طَرفة عَيْن ، هَذا ؛ لأن الآية قَائمة بها ، وهكذا كُل مَذكُور ، فَلو أمْسَكَ عنْ التَّكلم سُبحانه لمْ يكن لِهَذه المَذْكُورَات وجُود وقَامت القيامة ، وانْخرم هَذا العَالم ، وانْتَثرت النُّجومَ ، وزَال حُكم اللَّيل والنَّهار بقوله :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾[2] وعَلقها بإذَا انْشق فِي المُستقبل ، لابُد ولا مَحالة .

وبقوله : ﴿ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[3] ارتفعت لابد ، ولا محالة إلى أجل مسمى ، كما قَال أيضًا : ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾[4] فافَهم فهمك الله .

فإنَّ البَلادة وقلَّة الفَهم من أوصَاف مَن لا يُبَالي اللَّه به بَالة ، ولولا قَول اللَّه تَعالى لنبيه عليْه السلام : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[5] مَا بَيَّنَ لَهُم حرفًا واحدًا ، ولا قَدر عَلى ذلك .

---

(١) سورة النحل الآية (١٢) .

(٢) سورة الإنشقاق الآية (١) .

(٣) سورة الرعد الآية (٢) .

(٤) سورة لقمان الآية (٢٩) .

(٥) سورة النحل الآية (٤٤) .

ولولا قول اللَّه للعلماء في مواطن ذواتهم ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾[(١)]/ لم يكن عالم يبين حرفًا . ٣٥/ب

ولولا قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾[(٢)] لم يكن كاتم ، ولا مكتوم لأنَّ القرآن قائم بجميع بواطن المخلوقات ، كما تقدم بسمعه من قامت به هذه الآية : ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾[(٣)] ولا يسمع من قال له : ﴿فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾[(٤)] ولا حول ولا قوة إلا باللَّه ، فالجسد ، والأجساد كلها لا حركة لها ، ولا سكون إلا بالأرواح ، ولا قوام للأرواح ، ولا وجود إلا بإدامة المتكلم التكلم ؛ لأن الروح من المتكلم بمنزلة المصدر الصادر عن المتكلم ما دام متكلمًا ظهرت الكلمات عنده ، فلو أمسك عن التكلم طرفة عين لم يكن للأرواح وجود ، وكانت تنعدم بلا زمان ، كما ينعدم مصدر الكلام الصادر عن المتكلم إذا لم يرد المتكلم ، ويبقى المتكلم قائمًا بكلامه القائم بنفسه الدائر في خلده ، الذي لم يزل قائمًا به .

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٨٧) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٧٤) .

(٣) سورة التغابن الآية (١٦) .

(٤) سورة لقمان الآية (٧) .

فصل

المَرتبة الثَانية من مَراتب التَّوحيد ، وهُو تَوحيد الصِّفات

اعْلم رَحمك اللَّه أنْ هَذا المَقَام من التَّوحيد ، قلَّ مَا تُبَيِّنه العبارة ، وإنَّمَا هُو من علم القُلوب ، ومَن ظَن أنَّ حَقيقة علمه مُسْتَوفَى في الكُتب ، والصُّحف فَلَيس لَه من مَقام المَعْرفة إلاَ مَقام كُل نَاقص مؤوف[١] ، وكَيْف يكُون ذَلك ، وسَيد المُرسَلين ، وإمام جَميع العَالمين قَد أظهَر العَجز فيه ، وقَال : « لا أُحصي ثَناءً[٢] عَليْك أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْت عَلى نَفْسك »[٣] وإنما ألقَى العُلماء منه تَنْبيهات لتَنْتَبه العُقول إلى ذلك ، فتَكُون سَابحة عَاكفة هنالك .

وَلَولا أنَّ اللَّه تَبارك وتَعالى امتنَّ على عباده بأن أوْجد لَهم في الوُجود عنْ كُلِّ مَعنى من أسْمائه وَصفَاته صفَات كَثيرة خلَقَهم بها ، وأمَرهُم بالتَّخلق بها لَمَا فَهموا أبدًا مَعَاني / صَفات الخَالق سُبحانه ؛ لأنَّ أمرَ اللَّه

١/٣٦ تَعالى أمر عَظيم لا تَناله الألْسُن[٤] فَأَوْجد البَصر ، والعلم ، والسَّمع ، والحياة [. . . .][٥] والإرادة ، والكَلام ، والرَّحمة ، والرَّأفة ، والكَرم ، والجُود ، والسِّيادة ، والمُلك ، والعِزة ، والقُدرة ، والعَفو ، والإحْسَان ، والطَّهارة ، والقُدس .

---

(١) مؤوف : أصابته آفة وهي العلة .

(٢) الثناء : المدح .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٥٨) .

(٤) الألسن : جمع لسان عضلة مستطيلة تتحرك في الفم عند الكلام ومضغ الطعام ، وبها يكون التذوق والبلع .

(٥) بياض بالأصل .

وبالجُملة جَميع الصِّفات أوجد عَلى مَعْناها في الوُجود مَعاني نستدل بها عَلَيْه ، إلا اسْم اللَّه تَعالى وَحده ، وَصفة الألوهية ، فَإنَّه لَمْ يُوجد في الوُجود كُله مَن تَسمى اللَّه ؛ لأنَّه لَمْ يَخلق فَي الوجود صفة الأَلوهية ، وغَاية مَا وَصل إليه فرعون أن قَال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إله غَيْرِي ﴾[1] على لفظ النكرة ، وَلم يقل : أنا اللَّه ، وقال أيضًا : ﴿ أَنَا رَبُّكُم الأَعْلَى ﴾[2] هَذا من أجل أنَّ مَعاني الأسْمَاء كُلها قَد ظَهرت في الوجُود كُله ، فأوجد العلم المُحدث عنْ علمه ، والحَياة عنْ حَيَاته ، وَالقُدرة عَن قُدرته ، والإرَادة عَنْ إرادَته ، والسَّمع كُله والإبْصار عنْ سَمعه وبَصره ، والكَرم عنْ جُوده ، وَالرَّحمة والعزَّة عَنْ رَحْمتَه ، وقُوته ، هكذا إلى جَميع مَا اتَّصف به .

ومَع هَذا كُله ، وإنْ أوجد تلك المَعاني ليُستَّدل بها على صفاتها بأنَّها كُلها مُرتبطة بأضْدَادها ؛ فَلذَلك كَانت صفَاتَ اللَّه آحادًا ، لا يُشبهها شَيء ، ومثال ذَلك أَنَّ المَخْلوق يكُون عَالما فَيُسَمى بذَلك لاتِّصَافه بصفَة العلم ، ولَكن قَد ارْتَبَط علمه بضدّه من الجَهل ، فإنَّه من حَيث أدرك علمه مَا أَدرك من المَعلوم ، فَقَدْ غَابَ عنْ علَمه أكثرَ ممَّا عَلم ، فَمن حَيْث عَجز علمه عَنْ مَن غَاب عنْه فقَد عَاد جَهْلاً مَن وَجه .

وكَذَلك بَصره من حَيْث أدرك مُبْصرات مَا ، وغَاب عَن بَصره أكْثر مما أدْرك ، فَقد عَمي بَصَره عن ذَلك ، وقُدرته ، وحَيَاته ، وكَرمه ، وسيَادته/ ٣٦/ب وجَميع صفات العباد كَذَلك ، كُل صفة مَقْرونة[3] مُرتبطة بضدها أبد الآبدين ، وَدَهر الدَّاهرين .

وَصفات البَارىء سُبحانه لَيْست كَذلك ؛ لأنَّ صفَات العلم من اللَّه

---

(١) سورة القصص الآية (٣٨) .

(٢) سورة النازعات الآية (٢٤) .

(٣) مقرونة : مصاحبة .

مُدركة لذَات البَارىء تَعالى ولجميع المَعْلومات ، فَلم تَخف عَلَيْه من علمه بذَاته ، وَلا مِن عِلمه مَخلوقاته مَا أوجده ، ومَا لَمْ يُوجده شَيء فَلَيس لَه ضد يَرتَبط به .

وكَـذلك قُـدرته لأنَّه لا يَقـدر إلا عَلى مَـا عَلـم ﴿ وَهُو بِكل شَيء عليم ﴾(١) .

وكَذلك لا يُوجد إلا مَا عَلم ، وكَذلك جَلاله ، وكبرْيَاؤه غَير مُرتبط بضد . وكبْر المخلوق المَحمود ، والمَذموم(٢) ، وعِزّهُ المَحمود والمَذموم مرتبط بضده ، فَإنه وإن كان عزيزاً وكبير القدر ، وجليلاً بالله ، فإنَّه ذَليل للَّه ، وصَغير حَقير(٣) بَيْن يَديه ، وَهكذا جَميع الصِّفات .

وقَد نَبَّهتك لبَعضها لتَفطن لسَائرها إنْ شَاء اللَّه ، فإنَّمَا يُشرح هَذا العِلم في الصُّدور لا في السّطور .

ألا ترى لقول الخَضر لمُوسى عليهما السَّلام : مَا علمي ، وعلْمُك ، وعلم جَميع الخَلائق في عِلم اللَّه إلا كماَ أخَذ منْقَار العُصفور منَ البَحر ، أو كَمَا قَال ، فنبّه الخَضر عليه السلامَ ، لأنّه من العلماء باللَّه إلى أمر عَظيم ، لا سَاحل لَه ، وَلا آخر .

وأضْرب لَكَ في هَذا مثلاً ممَّا ورَد في الشَّرع ليكُون لَكَ أصلاً في جَميع الصِّفَات : ورَد عنْ النبي ﷺ أنَّه قالَ لَه جبريل حين سَأله عنْ زَوال الشَّمس فَقال : لا نعم إنَّ الشَّمس جَرت بيْن لا نعَم مسيرَة خمس مائة عَام ، فكَيف تَمشي الشمس من لا نعم من أول النَّهار إلى اللَّيل ، ومن أوَل اللَّيل إلى آخر اللَّيل ، فقدِّر في نَفْسك عَظيم وجُود السَماء ، والتي فَوقها أعْظمَ منها ،

(١) سورة البقرة الآية (٢٩) .

(٢) المذموم : المعاب المُلام .

(٣) حقير : يستهان به .

والتي فَوق أعظم مِن الَّتي تَليها ، هكذا إِلى الكُرسي ، والأَرْضُون كذلك/ . ٣٧/أ

واعلمْ أنَّ هَذه الأَرض أصغر الأرضين ، كما أنَّ السَّماء الدُّنيا أصْغر السَّموات ، وانْظر إلى قَوله عليْه السَّلام في الكُرسي الَّذي وَسع السموات والأرض : « مَا السَّمَوَاتُ السَّبع ، والأَرضونَ السَّبع فِي الكُرَسي إِلاَ كَحلقةٍ مُلقاة فِي فلاةٍ[1] مِن الأَرض »[2] .

قيل : إنَّها كَحلقة من حلق الدِّرع ، أُلقيت في فَلاةٍ من الأَرض ، فانْظر نسبة السَّموات والأرضين عَلى عِظمهَا مِن الكُرسي .

ثم نبّه القُلوب فَقال : « مَا الكُرسي بما فيه فِي العَرش إلا كَحلَقة مُلقاة فِي أَرض فَلاة » فنبه النَّبي عليْه السَّلام القُلوب عَلى صِفة العَظمة تَنْبيهًا ؛ لِيَتَذكر أُولو الأَلْباب .

وقال اللَّه عز وجل : ﴿ اللَّهُ لا إِلهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم﴾[3] فَوصف العَرش بالعَظمة ، ولَيْس شَيء أَعْظم ممَّا عَظَّم اللَّه تعالى .

وإِذَا تَفهمت حَديث الحَلقة وَجدت الكُرسي مُحيطًا بالسَّموات ، والأرضَ عُلوًا ، وسُفلاً ، والعَرش قَد أَحاط بالكُل مِن جَميع الجِهات .

وَقَد رَوى أَنْس بن مَالك في وصْف عَظَمة العَرش قَال : سَأَلت النَّبي ﷺ عن عَرش ربِّ العَزة فقال : « يَا أَبَا حَمزة لَقد سَأَلتني عنْ أَمر عَظيم؛ إنَّ عَرش ربِّ العزّة لَه ثَلاثَ مِائة وسِتُّون قَائمة كَطِباق[4] الدُّنيا، سِتُّون أَلف مَرة ،

(١) الفلاة : الأرض الواسعة المقفرة .

(٢) تاريخ أصبهان لأبي نعيم (٢/ ٢٠٥) ، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٩٨) ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٣) .

(٣) سورة النمل الآية (٢٦) .

(٤) الطباق : أشياء طباق - أي- بعضها فوق بعض وفي القرآن الكريم : ﴿ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ .

بَين كُل قَائمة وقَائمة ألفَ صَحراء ، كُل صَحراء مِثل الدُّنيا ستُّون أَلفَ مَرة، فِي كُل صَحراء ستُّون أَلفَ عَالم ، كُل عَالم مِثل الثَّقلين ؛ الإنس ، والجنِّ ستون أَلف مَرة، لا يَعْلمون هَل خَلق اللَّه آدم، ولا إبليس ؟ ! إلهمهم اللَّه ، يَسْتَغْفرون لمجيء أَبي بَكر وعُمر - رحمَهما اللَّه ، ورَضي اللَّه عَنْهما - وبَيْن المَشرق والمَغرب ستون أَلفَ عَالم مِثل الجن والإِنْس بِستُّون أَلفَ مَرة ، إلهمهم اللَّهُ أَن يَلعنوا مُبْغِض أَبي بَكر
٣٧/ب وعُمر - رَحمة اللَّه ورِضوانه / عليهما » .

وهَذا الحَديثُ وإنْ لَمْ يَرد في الصَّحيح فَالأمر أعظم من ذَلك وأعظم ، وقَول اللَّه تعالى : ﴿ ويَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾(١) مصداق ذَلكَ .

وقوله : ﴿ الْحَمدُ للَّه رَبِّ العَالَمين ﴾(٢) أَيْضًا مصداق لذلك .

وروى أبو(٣) إسحاق في كتاب المَصَابيح عنْ رَسُول اللَّه ﷺ : « أنَّ اللَّه تعَالى ثمانيـة عَشر أَلفَ عالم ، الدُّنيا مِنها عَالم وَاحد » وقَال عليْه السَّلام : «إنَّ بِهَذا المغرب أَرضًا بيضًا نُورها بَيَاضَها ، وبَيَاضها نُورَها مسيرة الشَّمس فيها أَرْبَعُون يَومًا »(٤) الحديث .

وغير ذلك ممَّا ورَد في حَديث القُدرة ، وإنَّما خَفيت هَذه العَوالم بَعضها عَنْ بَعض مِنْ أَجْل أَنَّه إنَّمَا يُشاهد أهل كُل عَالم مَا يَليه من عَالمه .

والمُراد من هَذا كُله في تَوحيد الصِّفات أنَّ العَرش عَلى عَظمته بما حَوى من جَميع المَخْلُوقَات ، والعَوالم مَا عُلم ، ومَا لَمْ يُعلم بالنِّسبة إلَى عَظمة وَجُود البَارىء سُبحانه أقل مِن الجُزء الَّذي لا يَتجزأ ، بَل لا حسَّ لَه

---

(١) سورة النحل الآية (٨) .

(٢) سورة الفاتحة الآية (١) .

(٣) في الأصل « أبي » .

(٤) ابن كثير في تفسيره (٨/ ١٨٤) .

في وجُوده ، ولا مسّ في شُهوده ، وكَما أنَّ مَن في أسفَل سَافلين يَقول ، وَيُقرّ إنّ البَارئ تعالى أقرب إليْه من نَفسه لنَفسه ، ويُقَرُّ أنّ البَارئ سُبحانه أقرب للعرش كذلك يَقول العَرش ، ويُقرّ أن قرب البارئ منه كَقربه من الذي في تخوم(١) أسفَل سَافلين ، ومَن في المَشرق يقول كَذلك ، ومَن في المَغرب يقول كَذلك ، وإدْراكه لجَريان الغَذاء في عُروق النَّملة الصغيرة ، وإدْراكه لسمعها ، وبَصرها ، وصَوتها ، ومَعْرفَتها ، كَإدْراكه لجميع عَوالم العَرش ، وبُعده عنْ أوصَاف العَرش عَلى عَظمته كَبُعده عنْ أوصَاف الذَّرة عَلى حَقارتها ، ولَولا أنَّ اللّه تَبارك وتَعالى تجلّى إلى العَرش بصفة الرَّحمة كَما قَال : / ٣٨/أ

﴿ الرَّحمَنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى ﴾(٢) لما ثبَت ، ولا نَهـد(٣) وجُوده ، ولكن بلُطفه ، ورَحمته صَح منه وُجُود الخَلق سُبحانه ، ولمْ يَظهر أيْضًا للعَرش من صفة الرَّحمة مَا يَليق به ، وبحَمْله وُجُود العَرش ؛ فَإنَّ الرَّحمة صفة الذَّات ، ووصف من أوصافه(٤) الذَّات ؛ فَالرحمة عَلى سَعَة العَظمة ، والجَلال عَلى سعة الكبرياء ، كَما أنَّ الحَياة وسعَت مَا وسَع العلم ، والعلم عَلى سَعة البصَر ، والحَلْم كَذلك .

وبالجُملة كُل صفة قَد وَسعت مَا وَسعَت العَظمة ومَا وَسعت كُل صفة لا يَجُوز أنْ يَترجح وَصفٌ من أوصَاف الذَّات عَلى وَصف ؛ تَعالى وَصفه عنْ الزِّيادة ، والنُّقصان .

فتفهم هَذا ، فَقل مَا تجده إلا إشارة يَسيرة في أقْوال العَارفين ، قَلّ مَن

---

(١) تُخُوم : جمعُ تُخُمْ وهي : الحد الفاصل بين أرضين ، والمعالم التي يُهتدى بها في الطريق .

(٢) سورة طه الآية (٥) .

(٣) نهد : ارتفع وبرز .

(٤) في الأصل « خُلق من أخلاقه » ونرى ما أثبتناه أليق ، والله أعلم .

يُحكيها ، ولولا خَشْية الإنْكار من أجل قلّة فَهم السَّامع لَذكَرت من علم الصِّفات مَا لَمْ يَخْطر قَطَ عَلَى بَال مَن لَيْس من أهل هَذا الشَّأن ، ولكن ﴿فَعسى[(١)] اللَّه أَنْ يَأتي بِالفَتح أو أَمر مِن عنْده ﴾[(٢)] ولَو أَنَّه تَبارك وتَعالى أظهر من صفة جَمَاله وجَلاله للعَرش ، وجَميع المَخلوقات أكْثر ممَّا تَجلى لهَا ، وَظهرَ لَذَابت المَخْلوقات ، وتَلاشت[(٣)] شَوقًا وكَمدًا ، وتَلَفت الأَرواح ، وانْعدمت الأشْبَاح لكنَ أظْهَر للكل بمقْدَار مَا يحتمله وجودَهم ويَسْتَقيم به نَشْأهم ، وإيجَادَهم ، فإذا ألف العَرش ، وجَميع المَخلوقات ذلكَ المعنى ، ونَشَأوا عَلَيْها إلى حد يَحْتَملون مَعه أكثرَ من ذَلك الَّذي تَجلى لهم أعْطَاهم أيضًا من التَّجلَي زيَادَةً عَلى مَا تقدم بمقدَار ما يَحتملون ، والتجلي دائم بدَوام وَجُوده أبد الآباد ، يُدركون في النَفس الوَاحد مَا لم يُدركوه في النَّفس الذي قبله ، ويسمعون من الكلام ما لم يسمعوا .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحرُ مِدَادًا لِكَلِمَات رَبِّي لَنفِدَ الْبَحْرُ قَبْل أنْ تَنْفَدَ كَلمَاتُ
٣٨/ ب رَبِّي﴾[(٤)] ، ﴿ ولَوْ أنَّ / مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْده سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّه ﴾[(٥)] .

ولولا أنَّ جَهنم كُلها حجاب صرفٌ لَمَا كَان لَها ثَبات ولا وَقف ، ولَولا أنَّ الدُّنيا كُلها غَفلة لَتَلاشى وَجُودها في لَحظة ، مَع أنَّ اللَّه لَمْ يَنظر إليْها مُنذ خَلقها ، ولَولا أنّ الجَنَّة كُلها رَحمة لاَنْعدم وُجودها من نَظرة فافهمَ يا تائهًا في بِحار الأوهام ، واسلك طَريق أهل الفهم ، والإلهام .

(١) سقطت « الفاء » من أول الآية .

(٢) سورة المائدة الآية (٥٢) .

(٣) تلاشت : فَنَيت كأن لم تكن .

(٤) سورة الكهف الآية (١٠٩) .

(٥) سورة لقمان الآية (٢٧) .

فَبحق أَقُول : لَيس فِي الوجُود مَن يَسْتَحق الوَصف بالعَظَمة إلا اللَّه ، ولا مَن يَستحق الوَصف بالعلم إلا الله ، ولا بالقُدرة ، ولا بالحيَاة ، ولا بالحكمة ، ولا بجَميع الصِّفات حقَيقة ، ومَعنى إلا الله فهو الواحد الصِّفات لا إلَه إلا هو ربُّ الأَرْضين ، والسَّموات .

واعلمْ أن علم الصِّفات لا يُوجد إلا عنْد العَارفين باللَّه ، فإنَّ أهل الحَديث ، إنَّما نَقَلوا الأحَاديث وأحووهَا كَما جَاءت ، ولم يطلبوا فقه معانيها ، ولكنهم على الطريقة الحُسنى ، حتى تَظهر لَهم فِي الآخرة المَعنى الَّذي اعتقَدوه .

وكَذلك كُل مَن سَلك هَذه الطَّريقَة من الفُقهاء ، والعَوام هي الطَريقة السائلة ، والسُّنة المُسْتَقيمة ، ومَن تكلّف[١] تأويل ذَلك وفَسّر عَلى رأيه ، وفَهمه فَتَارة يُخطيء ، وتَارة يُصيب ، ومنْ هَاهُنا دَخل مَا دَخَل عَلى أهل البدع[٢] النَّاظرين بأرائهم .

والعَارفونَ المُؤْمنون الَّذين اخْتَصهم اللَّه به هُم الَّذين شَاهدوا الأمر عَلى مَا هُو عَلَيْه ، فَتَجَلى سُبحَانه لقُلوبهم في الدُّنيا كَمَا يَتَجَلى[٣] لَهم فِي الآخرة بالإبْصَار[٤] جَعَلنا اللَّهُ وإيَّاكَم منهم بِرَحْمَته ، آمين .

---

(١) تكلف : أظهر التأويل على غير حقيقته الصحيحة .

(٢) البدع : جمع بدعة ، وهي ما استحدث في الدين وليس أصلاً منه .

(٣) في الأصل « تجلى » .

(٤) يقول ابن القيم -رحمه الله- : فالبصيرة في الأسماء والصفات عند أهل البصائر عقد هذا : أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستوياً على عرشه متكلمًا بأمره ونهيه ، بصيراً بحركات العالم العالم علوية وسفلية ، وأشخاصه وذواته ، سميعاً لأصواتهم رقيباً على ضمائرهم وأسرارهم ، وأمر الممالك تحت تدبيره ، نازل من عنده وصاعد إليه ، وأملاكه بين يديه تُنفذ أوامره في أقطار الممالك ، موصوفاً بصفات الكمال منعوتاً بنعوت الجلال منزهًا عن العيوب والنقائص والمثال هو كما وصف نفسه في كتابه ، وفوق ما يصف به خلقه ، حتى لا يموت ، قيوم لا ينام ، عليم لايخفى عليه =

وقَد قَال ابْن مَسعود لَمَّا مَاتَ عُمر بن الخطاب - رضي الله عنهما -
١/٣٩ قال: إنِّي لأَحْسَب هَذا الرَّجل ذَهب بتَسعة أعْشَار / العلم، قيل لَه: أتَقول هَذا، وأصْحَاب رسول الله ﷺ كَثير، أو كَما قَال، فَقَالَ: لَست أعني العِلم الَّذي تَذهَبون إليْه، إنَّما أعني العلم باللَّه.

ولَولا طُول الكَلام لَذكَرت من ذَلك أكْثر ممَّا ذكَرنا، لكن قَد قُلت لَك إنَّمَا هُو من عِلم القُلوب، فَاسْتَعنَ باللَّه يُعينك، والسَّلام.

=مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات، بصير يرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، سميع يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهاً، ومثلاً، وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً، ووسعت الخليقة أفعالاً عدلاً وحكمة ورحمة وإحساناً وفضلاً، له الخلق والأمر، وله النعمة والفضل، وله الملك والحمد، وله الثناء والمجد، أول ليس قبله شيء، وآخر وليس بعده شيء، ظاهر ليس فوقه شيء، باطن ليس دونه شيء، أسماؤه كلها حمد ومدح وثناء، ولذلك كانت كلها حسنى، وصفاته كلها صفات الكمال، ونعوته كلها نعوت جلال وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل، كل شيء من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه.
وتَفَاوَت الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها، والعلم بفساد الشبهة المخالفة لحقيقتها ا. هـ مدارك السالكين [ج١ / ١٤٠].

المَرتَبة الثَّالثة من مَراتب التَّوحيد
وهو تَوحيد الذَّات

اعلمْ أنَّ هَذا المَقَام منَ التَّوحيد قَليل وُجوده ، لا يُوجد إلا عنْد الآحَاد ، إلا أنَّه مَن تَرَقى من تَوحيَد الأفْعَال إلى تَوحيد الصِّفات يُرجى له وقوع العلم إن شَاء اللَّه .

ومن تكلف طَلبه منْ غَير هذا الطَّريق وقع في التشبيه والإلحاد ، ولذَلك قَال النبي ﷺ : « تَفكروا في خَلق الله، وَلا تَتفكروا في ذَات اللَّه»[١] . وَإنَّمَا الطَّريق إلى علم هَذا المَقَام بالتَّفكر في الأفعَال والنَّظر ، والاسْتدلال[٢] فَإذَا أحكَموا النَّظرَ في الأفْعَال دَلَّتهم الأفعَال عَلى الصِّفات ، فَيتَجلى لهم معَاني الصِّفات القائمة بالذَّات ؛ لأنَّ الأفعال صَادرة عنْ الصِّفات .

وفي الخَبر : مَا تَجلى اللَّه لشيء إلا خَشع له ؛ ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذا القُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّه ﴾[٣] .

وقال النَّبي عليْه السلام : « الإحسَان : أنْ تَعبد اللَّه كَأنَّك تَراه ، فإنْ لمْ تكن تراه فَإنَّه يَراك »[٤] .

وقال اللَّه تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إلا هُوَ ﴾ فهذا هو علمه بنفسه : ﴿وَالمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾[٥] أي شَهدته المَلائكة ، وأُولوا العلم ،

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٣١٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٤٢) .

(٢) الاستدلال : طلب أن يدل عليه ويتخذ دليلاً منه .

(٣) سورة الحشر الآية (٢١) .

(٤)فتح الباري بشرح صحيح البخاري [٨/ ٥١٣] ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٣) .

(٥) سورة آل عمران الآية (١٨) .

قَائمًا بالقسط ، شَهدت قيامه بالمُلك كُله ، يعطي كل شيء من الملك قسطه وحَظه مِنَ كُل شَيء ، فَهكذا مَقَام مُشَاهدة الصِّفات قَائمة بالأفعَال ، ومُوجدَة لَهَا عَلى الدَّوام .

٣٩/ب والأفْعَال حُجُب/ الصِّفات كَما قَال ابن عَباس : « حُجُب الذَّات بالصِّفات ، وحُجب الصِّفات بالأفْعال ، وكَما أنه لا يَتَجلى لشَيء إلا خَشع لَه كَذلك لا يَتَجلى لقَلب عَبد مُختص إلا أحبّه ذَلك العَبد ضَرورة ، لا يَقدر عَلى الامتناع من حَبه ؛ فعَلَى قَدر الإحْسَان إليْه بالتجلي يكون الحُبّ ، وعَلى قَدر الحُب يكُون الاسْتغْراق (١) في مُشَاهدة المَوصُوف بالأسْمَاء الحُسنى الصَّادر عنْها كُل حُسن ، وجَمال ، والمَوصُوف هوَ الذَّات ، والحقيقة .

فصل

وَاعلمْ أنَّ الخَلق عَلى سَبع مَقَامات في مُشاهدة التَّوحيد ، العَامة في أول تلك المَقَامات وأدْنَاها ، والخَاصة في أعْلاهَا .

والنَّاس فيمَا بَيْن ذَلك عَلى قَدر قُربهم ، وكُل أحد من الخَلق إذَا تَفَهم هَذه المَقَامَات المَذْكُورة ميز مَقَامه منها ، وحَيْث هُو من جُملَتها ، فَأَصْحَاب المَقَام الأوَّل هُمْ الَّذين عقَدوا بقُلوبهم عَلى التَّوحيد ، ولمْ يَشْتَغلوا بالبَحث ، وصَدقوا بمَا قَد سَمعوا وهُم الجَمّ (٢) الغفير ، وحُبهم وخَوفهم عَلَى قدر مَا سَمعوا منَ أسْمَائه ، وذُكر لهم منْ وَعْده ووَعيده .

وأصْحَاب المَقَام الثَّاني هُم الَّذين سَمعوا مثْل مَا سَمع أهْل المَقَام الأوَّل ، وصَدَّقوا بمَا صَدَّقوا به ، وزَادُوا عَليْهم بالبَحث ، والنَّظر في

(١) الاستغراق : بالغ فيه .

(٢) الجَمُّ : الكثير من كل شيء ، وفي القرآن الكريم ﴿ وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾ .

المَخْلوقات، واسْتَدلوا بالموجودات عَلى المُوجد، وأكْثَر أهل علم الكَلام في هَذا المَقام وَمثلُهُم مثل قَول القَائل: مَا رَأيت شَيئًا إلا رَأيت اللَّه بَعده؛ أَيْ رَأى الشَّيء فَاسْتَدل به عَلى مُوجده.

وَأصْحَاب المَقام الثَّالث تَرقموا عنْ رُؤية المَوجُودات إلى رُؤية الإيجَاد، وعنْ مُشَاهدة المصنُوع إلى مُشاهدة الصُّنع، فإنَّ الأشْيَاء كُلها لمّا خَلقَها البَارىء عَز وجل، وكَملَت صُورة الموجودات/ لَم يكُن لهَا قيام بأنْفُسها؛ ١/٤٠ أ فَهي مُفْتَقرة إلى دَوام الإيجَاد عَلى الدَّوام ولَو تَخلى عنْها الإيجَاد طَرفة عيْن لتَلاشت؛ ﴿وَتَرى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامدةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّه الَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيء﴾[1] فَنبَّه عَلى الإيجَاد القَائم بالموجودات بقَوله: ﴿صُنْعَ اللَّه﴾ ولَمْ يَقل «مَصْنُوع اللَّه»، وأكْثَر النَّاس يَدَّعي فهم الإيجَاد وهُم عَنْ فَهمه بمَعزَل، فكيفَ بمَا فَوقه من المَقامات وهؤلاء هُم أهل المُراقبة.

ومَثل أهل هَذا المَقام مَثل قَول القَائل: مَا رَأيت شَيئًا إلا رَأيت اللَّه مَعه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾[2] بالإيجَاد: ﴿أَيْنَمَا كُنْتُم﴾[2]؛ لأنَّه لاَ يَتحرك في الوُجود حَركة إلا هُو يُحركهَا.

وأصْحَاب المقَامَ الرَّابع هُم الَّذينَ ازْدَادت مُراقَبتُهم، وقَويت مُشَاهدتهم، فَرَأوا الأشْياء باللَّه، ونَظروا به إليْها، وَمَثلهم قَول القَائل:

مَا رَأيت شيئًا إلا رَأيت اللَّه قَبله

وفيهم قَال بَعض العَارفين: «أثْبت اللَّه للعَامة المَخلوق، فَأثْبَتوا به الخَالق، وأثْبَت للخَاصة نَفْسه فَأثبتوا به المَخلوق، وَهُم أهل الجَمع، جَمعَ الحَق هِمَمَهُم[3]، فَشَاهَدوا المُلك كُله فعلاً وَاحدًا قَام بِه الوَاحد فَرأوا

(١) سورة النمل الآية ـ٨٨.

(٢) سورة الحديد الآية (٤). (٣) همم: جمع همة: وهي ماهُمَّ به ليفعل بعزم قوى.

الحَادثَات كُلها باللَّه ، وهَؤُلاء كُلهم ؛ - أعْني أهل المَقَامات الأربع - وإن اختلفَت أحوالهم فهم مع الأفعَال يُشاهدها كُل أحد منْهم عَلى مَا قُسم له من العَطاء .

وَأمَّا أهل المقام الخَامس ، والسَّادس ، والسَّابع فَغَائبون عَن الفعل كُله ، وعندهُم يُوجد مَقَام التَّوحيد الَّذي ذَكرت لَكَ في أول هَذا البَاب ، وَلا يكُون ذَلك إلا بَعد مَقَامَ المحبة ، والاَسْتغْراق في ذكَر المَحبوب ، والطَّريق إلى ذَلك تَصْفيَة/ القلب من المَحْبُوبَات سواه ، وجَلالَه بالذِّكر الدَّائم ، ٤٠/ب والإقْبَال اللازَم حتى يَعودَ كَالمرآة الصَّافية من الصَّدأ ، فَعَند ذَلك يَتَجَلى المَحبُوب إلى قَلب المُحب .

« لَم تَسعني أَرضي ، وَلا سَمَائي ، وَوَسعني قَلب عَبدي المُؤمن »[1] فَيُشاهد مَحبوبه عَلى مَا هُو عَليه ، فَمنهم مَن لا يُطيقه ، فَيطلب الرُّجوع إلى الأفعَال ليَسكن عنْه عَظيم مَا وَرد عليْه .

وَهَذا التَّوحيد هُو تَوحيد الرَّب نَفْسه بنَفسه عن عَبده بإشْهَاد العَبد لذلك ؛ أشهَده أنْ الربَّ يَنُوب عنْه مَنَابة في تَوحيده ؛ لأن هَذا لا يُنال إلا بَحُكم الفَضل ، لكن بَقي من العَبد فَضلة ، فَلذلك لمْ يُطق حَملَه .

ومن هَذا المَقَام قَوله عليه السلام : « حَركيني يا عَائشة » وقول اللَّه تعالى : ﴿وَمَا تلْكَ بيَمينكَ يَا مُوسَى﴾[2] شَغَله بذكر العَصا لئلا يَنْقطع عَنْ مُشاهدة عَظيم مَا ورد عليْه .

وقَال بَعضهم : دَخلت عَلى الشِّبْلي ، وهُو يَنْتف اللَّحم من حَاجبه بمنْقَاش ، فَسَألته فقَال : الحَقيقة بَادية إليّ ، ولا أُطيقه ؛ فَهو ذا أُدخل الأَلم

(١) ابن الجوزي في الموضوعات (٣٠) .

(٢) سورة طه الآية (١٧) .

عَلى نَفسي فَلَعَلّي أُحس به ، فَيَستتر عَني ، فَلست أَجد الألم ، ولَيْس يستتر عني ، ولَيْس لِي بِه طَاقة .

وَهَذه الحَالة ، وإنْ عَلت فَإنَّه مَع نَفسه ، وإنَّمَا كَان هَذا القَلق منْ أَجْل مَا بَقي عَلَيْه من مُشاهدة نَفْسه ؛ لأن الحَقَّ سُبحانَه لا يُطيقه شَيء ، ولَا يَقُوم لَه ، فَإنْ سَلَب [1] الحق هَذا العَبد عَنْ مُشاهدة نَفسه زَال عَنْه الإحْسَاس بنَفسه ، وحصل في المَقَام السَّادس ، ولمْ يُشاهد إلا الحق سُبحانَه ، وزال عَنْه ثُقل مَا كَان يَجدَ في المَقام الخَامس ؛ لأنَّه فيه محمول .

وقَد ذَكر النَّبي ﷺ هَذا المَقام في بَعض مَقَام الإسْراء حيث قَال :

١/٤١ « لَمْ أَرَ عنْد رُؤية / رَبي أَحداً من خَلقه ، ووَقع الطربُ والاسْتبْشار فيّ وَجعَلْت أنْتفض ، وأَميل ، كمَا يَميل القَنْديل [2] ، فَمكَثت عنْده مَا شَاء » كَلام كَثير اخْتصَرته حتَّى ردّه عَليَّ جِبريل عليْه السلام » .

وفي هَذا المَقَام قَال الصِّديق - رَضي الله عنه - : « مَن ذَاق شَيئًا من خَالص مَحبة اللَّه أَلْهَاه ذَلك عَمَّا سواه » . وهَذا تَوحيد الربِّ نَفسه بنَفسه عَنْ عَبده ، لكن حَمَله البَارئ في ذَلَك حَملاً ، وغَيّبه عنْ مُشاهدةَ نَفسه ؛ فَلذلك زَال القَلق الَّذي كَانَ في المَقَام الأول الَّذي قَبل هَذا ، ولم يَبق إلا المُشاهدة للبَارئ فَقطَ ؛ فَإنْ سَلَبَه الربُّ سُبحانه عنْ مُشاهدته لربِّه ، وَعَنْ مُشَاهدته لمشاهدته لمْ يكُنَ للعَبد ، ولا للمُشاهدة أثر ولا خَبر ، وبَقي الرَّب سُبحانه كَما لمْ يَزل ، وهَذا تَوحيد الربِّ نَفسه بنفسه لنفسه ؛ يُغيّبه عنْه وَعَنْ نَفْسه مَا شَاء ، ثُمَّ يرده بالأحْوَال السَّيئة ، والمَقَامَاتَ العَليّة ، ويُفهِّمه بَعد ذَلك مَعنى توحيد هَذا المقام .

---

(١) سلب : انتزع .

(٢) القنديل : مصباح كالكوب في وسطه فتيل يستضاء به .

وقَدْ أشَار المشَايخ من أهل المَعرفة إلى هَذا المَقام في عبَارات كَثيرة ، فقَال ابْن عَطاء : « حَقيقَة التَّوحيد نسيانَ التَّوحيد ، وهُو أنْ يكون القَائم به وَاحدًا » .

وقَال الشبلي[١] : مَا شَم الرَّائحة للتَّوحيد منْ مُصوّر عنْده التَّوحيد .

وسُئل الجُنَيد[٢] - رحمه الله - عنْ التَّوحيد فقال : مَعنىً تَضْمحل[٣] فيه الرُّسومَ ، وتَنْدرج[٤] فيه العُلوم ، ويكون اللَّه كَمَا لَم يَزل .

وقَال أبو سعيد الخرَّاز[٥] : المَقَام الذي لا بَعده مَقَام إلا الزِّيادة منه إنْ شَاء اللَّه نسيان العَبد حظَّه من اللَّه ، ونسيان حَاجته إليْه ، اقْتَطَعه قُرب اللَّه عَنْ اللَّه ، بلا وُجُود كَينُونَة ، مَع امتلاءَ ممَّا وَجد من اللَّه ، فَلمْ يَجد مُدْخَلا / ٤١/ب بَيْنه ، وبيْنَ اللَّه ، فاسْتَلبه الهُجوم عَلى اللَّه عَن وُجُود اللَّه ؛ فَسقط ، وبَقيَ اللَّه ، كَما لم يزل .

وهذا المعنى في قَوله عليْه السَّلام : « **حجَابه النُّور ، لَو كَشَفَه لأحْرَقت سبَحَاتُ وَجهِه مَا أَدْركه بَصَره من خَلقه** »[٦] فعلى قدر كَشف الحجاب يكون

(١) سبق ترجمته .

(٢) سبق ترجمته .

(٣) تضمحل : تضعف وتنحل شيئاً فشيئًا حتى تتلاشى .

(٤) تندرج : تدخل تحته وفي ضمنه .

(٥) هو أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي الخرّاز شيخ الصوفية المتوفى سنة [٢٨٦] قال الذهبي : قال السلمي : إمام القوم في كل فن من علومهم ، له مبادىء أمر عجائب وكرامات ، وهو أحسن القوم كلامًا خلا الجنيد فإنه الإمام ، قال القشيري : صحب ذا النون ، والسري ، والنّباجي ، وبشراً الحافي ، قال : ومن كلامه : كل باطن يخالف ظاهر فهو باطل . سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤١٩) ، تاريخ بغداد (٤/ ٢٧٦) ، البداية والنهاية (١١/ ٥٨) ، طبقات الأولياء (٢٢٨) حلية الأولياء (١٠/ ٢٤٦) .

(٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٣/ ٣٧٤) .

احتراق المُحب بنيران مُحبه تجلى المحبوب الَّذي لَيس كَمثله شَيء .

وأهل هَذه المَقامات الثَّلاثة مُختصون ، ومُقربون ومنهم من تَعْتريه هذه الأحوال مرة في العمر ، أو مَرة في الشهر ، أو مَرة في السنة ، ومَرة في الشهر ، ومَرة في الجمعة ، ومَرة في اليوم ، أو أقلّ أو أكثر ؛ عَلى قَدر تقْريب اللَّه له ، وهم الَّذين : ﴿ لا تَعلم نَفسٌ مَّا أُخفي لهم من قُرة[1] أعين ﴾[2] .

قَال سَهل : لا تَعلمُ نَفس منْ غَير نُفوسهم المَرحومة مَا أُخفي لهم من قُرة أعين ، هَداهم فِي الدُّنيا : و﴿طُوبى[3] لَهم وحُسنَ مآب ﴾[4] .

نَفعَنا اللَّه بِذكرهم ، ورزَقَنا ممَّا رَزَقَهم بِمنه ، وَفَضْله إنَّه عَلى كُل شَيء قَدير .

فَإن قُلت : كَيف لَمْ تَظهر هذه الأحوَال على الصَّحابة - رضي اللَّه عنْهم- ؟ .

فاعلمْ أنَّك غَافل ، أعمى عنْ أحوال الصَّحابة - رضي اللَّه عنْهم- بل أحوال الصَّحابة ، ومَقَاماتهم أعْظم ، وكُلما ذُكر عنْدهم مَوجود ، لكنَّهم أقوى من غَيرهم ، وأمكَن في الأحْوال ألا ترى إلىَ قَول أبي بكر - رضي الله عنهَ- «مَنْ ذَاق شَيئًا من خَالص مَحبة اللَّه تعالَى المُتقدمة ألْهَاه ذَلك عَمَّا سِواه » .

فتأمل هذه الكَلمة من الصديق تَجد المَقامات كُلها فيها ، وكلذلك إذَا تَأملت بذلهم نُفوسهم ، وإطْرَاحهَا بَيْن يَدي اللَّه فِي الحُروب ، وقِتَالهَم

(١) القرة : هي عين مايرضى ويسر .

(٢) سورة السجده الآية (١٧) .

(٣) طوبى : الحسنى والخير ، وفي القرآن الكريم ﴿ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ ، ويقال : اسم شجرة في الجنة .

(٤) سورة الرعد الآية (٢٩) .

القَريب ، والبَعيد في اللَّه تَعالى .

يَدل ذَلك على امتلاء بوَاطنهم بحُب اللَّه ، ومُشاهدته . وكَذلك بَذل
١/٤٢ أمْوالهم ، وخُروجهم من ديَارهم ، وصَبْرهم على الجَهد الذي لا / يَقدر غَيرهم عليْه لَيس ذَلك إلاّ عَن أمر عَظيم مَلكوا البَواطن ، وصَرَّفوها على حُكم مَحبة اللَّه .

وانْظر كَيف يُخبر اللَّه عنْ أسْرارهم في كتابه ؛ فإن القُرآن إنَّما نُزل بالثناء عَليْهم ، فانْظر إلى وصفه لبَاطن عَليّ - رضي اللَّه عنه - وزَوجه فَاطمة ، وابْنَيه الحَسن ، والحُسين - عَلى جَميعهم السَّلام - وإخْباره عنْ سَرَائرهم فى : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ﴾[١] .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾[٢] .

وإن تَفَهَمت هَذه الآيةَ حَقيقَة الفَهم عَلمت مَا ذَكرت لك ، وأنَّ بَواطنهم مَمْلؤة ، مَشْحُونة[٣] بالذَّخائر النَّفسية ، والهمم العَالية الزَّكية[٤] ، وأنَّ مُرادُهم النَّظر الَّذي هُو قُرة العيْن . وكذلك انظر كَيْف أخبر عنْ سر أبي بكر - رضي الله عنه - في سُورة ﴿واللَّيل إذا يَغْشَى﴾ حيث قال : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾[٥] وارتفاع هِمَّته إلى الغَاية القُصوى .

وكَذلك آيات القُرآن كُلها إنَّمَا نَزلت في أوصَاف الصَّحابة فمن تَفَهَّمَها

---

(١) سورة الإنسان الآية (١).

(٢) سورة الإنسان الآية (٨ ، ٩) .

(٣) مشحونة : مملوءة ومحملة .

(٤) الزكية : المباركة النمية المطهرة الصالحة . (٥) سورة الليل الآيات (١٧ : ٢٠) .

بحقيقة الفَهم أشرف في الآيات عَلى مَا ذكرناه .

وكذلك ألْفَاظهم تَدل عَلى ذَلك إلا أنَّهم كَانوا أقْوى من غَيرهم ؛ فملكوا الأحْوال ، ولمْ تَمْلكهم الأحْوَال ، وغَيرهم مَلكتهم الأحْوال لضَعْفهم عنْ أحوَال الصَّحَابة ، فَظَهرت عَليْهم الأحْوال ؛ لأنَّ قُوتهم -رضيَ اللَّه عنهم- من قُوة النَّبي عليْه السَّلام الَّذي هُو أقوى الأقْوِيَاء ؛ لأنَّه مَثَلُ مَنْ يَصْحب الإنْسَان يكُون .

وكَذلك نَبينا عليْه السَّلام كُلما شَاهده ليْلة الإسْرَاء من عَجَائب[1] أمْر اللَّه ، ومنْ حَقَائق/ القُرب الَّذي لا يَنْبغي إلا لَه عليْه السَّلَام ، إنَّمَا كَانت في أول ابْتداءَ أمْره ، ونُبوته ، ثمَّ كَانَ في بَقية عُمره كُله أعظم مُشاهَدةً ، وأقْوَى حَالاً من ابْتداء أمْره ؛ ألا تَراه يَقُول : « إنَّه ليُغان على قَلبي فأَسْتَغفر الله فِي اليَومِ سبْعين مَرَة »[2] . ٤٢/ب

ولَقدْ قَال سَهل بن عَبْد اللَّه التستري : كَلمة أمرْها عَظيم ، قَليل مَن يَفْهم حَقيقتها ، يُخبر بها عنْ نَفسه - رضي اللَّه عنْه- ؛ لأنَّه كَان من الأقْوياء ، فكَيْف بأحْوال الصَّحابة - رضي الله عنْهم - ؟ .

قال سهل : لِي أربعون سَنة أُكلم اللَّه ، والنَّاس يَظُنُّون أنِّي أُكلمهم .

فإنْ فَهمت فاحْمد اللَّه ، وإلا فسلم كُل صَنْعة لأرْبَابهَا ، ولا تُنكر مَا لَم تَفْهمَ فتَخسر أقلّ أنْصفة المؤمنيَن ، وهُو التَّصديق ، ولا حَول ولا قُوة إلا باللَّه .

---

(٢) العجائب : جمع عجيبة : وهي الروعة التي تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء ويقال : أمر عجيب ، وقصة عجيبة وعجب عاجب شديد .

(٢) البيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٥٢) ، الدر المنثور للسيوطي (٩/ ٦٣) .

فصل

فإن قلت: كَيف الطَّريق إلى هَذه المَقامات الشَّريفة؟ .

فَاعلمْ أنَّ ذَلك لا يُنال بالحركات ، والسَّعَايَات ، وإنما هُو من فَضل الله ، يَخْتَص به مَنْ يَشَاء منْ خُصوص عبَاده ، ولكنه مَع ذَلك قد جَعل بَابين ودَعا الخَلق للدُّخول عليْهَما ؛ ليَنَال ذَلكَ بفَضل وجُوده فَهُما الطَّريق المُوصل لنَيل المَرغُوب إنْ شَاء اللَّه .

وَاعلمْ أنَّ الطَّريق إليْهما هُو العلم وَالعَمل ، وقَد تَقَدَّم في هَذا الكتاب طَريق العلم ، والتَّنْبيه إليْه ، وبَقيَ أنْ يُذكر العَمل في اللَّه تَبَارك وتَعالى يَعْصمنا بكَرَمه منَ الخَطأَ ، والزَّلل[1] ؛ إنَّه عَلى كُل شَيء قَدير .

وَاعلمْ أنَّ هَذا الشأن مَبني عَلى ثَلاث مَقَامَات ؛ مَقَام الإسْلام ، ومَقَام الإيمَان، ومَقَام الإحسَان الوَاردة في حَديث جبريل إذْ سَأل[2] النَّبي عليْه السَّلام ، عنْ الإيمَان ، والإسلام ، والإحْسَان .

٤٣/أ فَالإسلام أصل وبدَاية ، والإحْسان فَرع ، ونهاية ، والإيمَان وَاسطة / رَابطة لَهُمَا .

وَمثَل الثلاثة مثَل الجسَد ، والنَّفس والرُّوح ، الجَسَد ظَاهر، والنَّفس بَاطنة، والرُّوح بَاطن الكُل ، فالإسْلام ظَاهر عَلى الجَسَد ؛ لأنَّه أعْمَال باللِّسَان ، والأرْكَان الظَّاهرة الَّتي هي الجوارح[3] الظَّاهرة .

---

(١) الزلل : جمع زَلَّة وهي السقطة والخطيئة .

(٢) في الأصل : « سأله » .

(٣) الجوارح : جمع جارحة : وهو العضو العامل من أعضاء الجسد مثل اليد ، والرجل .

والإيمَان بَاطن الإسْلام ، مُخَاطب به النَّفس ؛ لأنَّه تَصْديق بالغَيب ، والنَّفس غَائبة في الجَسَد ، مُقْبلة عَلى الهَوى ، والشهوات بكُليتها ، إلا أنَّ بقَلْبها الإيمَان بالَغَيب ، فَتَزهَد في الحَاضر ، وتُقبل عَلى الغَائب ، وهَذه صفة الإيمَان بالَغيب ، والوَعْدُ والوَعيد .

والإحسَان بَاطن الإيمَان ، مُخَاطب به الرُّوح الكَائن عنْ أمْر رَبِّي ، وفي هَذا المَقام مَعَادن أسْرَار المَعْرفة ؛ لأنَّه حَال من المُشاهدة كَما قَالَ عليْه السَّلام : « **الإحْسَان أنْ تعبد اللَّه كأنَّكَ تَراه فإنْ لمْ تكَن تَراه فَإنَّهُ يَراكَ** »[١] .

ولَيس يَخرج شَيء من أمور الدِّين التي يَعبد الخَلق بِها من عِلم أو عَمل ، أو نَهي عنْ ضدهما عَنْ هَذه المَقامات الثَّلاثة .

والنَّاس كُلهم مَأمُورون بها ، وأخذ الكُل منها بمقْدار مَا قُسم له ؛ فَمنَ النَّاس مَن غَلب عَليه مَقَام الإسْلام ، وجمد[٢] عَلى ظَاهر الشَّرَع حَتَّى منَ العُلوم ، والأعْمَال ، وخفي فَيه المَقَامَان الآخران ، وأكثر النَّاس عَلى ذَلك .

ومن النَّاس مَن غَلب عليْه مَقَام الإيمَان ، وأنَار اللَّه قَلبه به ، فَكَان الغَالب عَليْه أُمور الآخرة ، والبَحث عَنْها ، والتَّسبب لأسْبَاب النَّجَاة فيها ، وطَلب العلم لها .

قَال الله عز وجل : ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا** ﴾[٣] .

---

(١) سبق تخريجه قريباً .

(٢) جمد : صلب ضد ذاب ، والمقصود تمسك بالشرع وجمد على ظاهره ولمن يندرج في المقامين الأخريين .

(٣) سورة الإسراء الآية (١٩) .

ومنْ هَؤلاء عُلماء ، وعَامة .

ومن النَّاس مَن غَلب عليْه أمور الإحْسَان الرُّوحَانية فكَان شُغله كُله باللَّه ، وعُلومه ؛ كُلها مُتعلقة باللَّه ، ومُرَادَه كُله اللَّه .

وهؤلاء خُصوص جَميع عبَاد اللَّه ، وهُم المُقَربون من اللَّه ، وأهْل مَحبة اللَّه ، والشَّوق(١) إليْه ، والأُنْس(٢) به ، والرِّضى به ، وعَنْه ، إلى غَير ذَلك من مَقَامَات اليقين ، وثَمَرات الإيمَان ، والإسْلام .

وقد ذَكر اللَّه هَذه المَقَامَات الثَّلاثة في آيَة من كتابه ، فَقَال : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾(٣) .

هَذَا هُو المَقَام الأول ذُكر فيه الأعْمال الَّتي هي للجسُد ، ثم اتَّقوا وآمَنوا ، هَذا هو المَقَام الثَّاني ، ثَم اتَّقَوا وأحسَنُوا هَذَا هُو المقَام الثَّالث ، ذُكر فيه الإحْسَان ، واللَّه يُحب المُحْسنين ، فَهؤلاء هُم المحبون ، وأوْليَاؤه(٤) المُقَربونَ .

ونَصُّ الحَديث الجَامع لهَذه المَقَامات المَذكورة هو مَا رَوَيْنَاه في صَحيح الحَديث مُسندًا عَنْ عَبْد اللَّه بن عُمر عَنْ عُمر بن الخطاب - رضيَ اللَّه عنه - قَال : بَيْنما نَحن عنْد رسُول اللَّه ﷺ ذَات يَوم إذْ طَلع عَليْنَا رجُل شَديد بَياض الثِّياب شَديد سَواد الشَّعر لا يُرى عليْه أثَر السَّفر ، ولا يَعْرفه منَّا أحدٌ حتى جلَس إلى النَّبي ﷺ فَأسند رُكبته إلى رُكبته ، ووَضع كَفَّه عَلى فَخذه ،

(١) الأنس : الملاطفة وإزالة الوحشة .

(٢) الشوق : نزوع النفس إلى الشيء وتعلقها به .

(٣) سورة المائدة الآية (٩٣) .

(٤) أولياء : جمع ولي وهو : النصير والمحب ، والصديق والمطيع ، ويقال : المؤمن ولي الله .

فَقَال : يَا مُحمد أَخْبرني عنْ الإسْلام ، قَال رسُول الله ﷺ : « الإسْلام أَنْ تَشهد أنْ لا إله إلا اللّه وأنَّ مُحمدًا رسُول اللّه ، وتُقيم الصَّلاة ، وتُؤتي الزَّكاة ، وتَصوم رَمضَان ، وتَحُج البَيت إنْ استَطَعت إليْه سَبيلاً » .

قال : صَدقت ، فَعجبنا لَه ، يَسْأله ، ويُصدقه .

قال : فَأخبرني عنْ الإيْمَان . قَال : « أَنْ تُؤمن باللّه ومَلائكته ، وكُتبه ورُسله/ ، واليَوم الآخِر ، وتُؤمنَ بالقَدر كُله خَيره ، وشَرّه » . قال : صَدقت . ٤٤/أ

قال : فَأخْبرني عنْ الإحْسَان .

قال : « أَنْ تَعبد اللّه كَأَنَّكَ تَراه ؛ فإنْ لَمْ تكن تَراه فَإنَّه يَراك » .

قال : فأخْبرني عنْ السَّاعة .

قال : « مَا المَسْئول عَنْها بأَعْلم مِن السَّائل » .

قال : فأخبرني عنْ أمَاراتها .

قال : « أَنْ تَلد الأَمَة ربَّتها ، وأَنْ ترى الحُفاة العُراة العَالة رعاة الشَّاة يَتطَاولون فِي البُنيان » .

قال : ثمَّ انْطلق فَلبثَ مَلياً[١] ثم قَال رسُول اللّه ﷺ : « يَا عُمر أَتَدْري مَن السَّائل ؟ » .

قال : قُلت : اللّه ورَسُوله أعلم .

قَال : « فَإنّه جِبريل أَتَاكم يُعلمكم أَمْر دِينكم »[٢] .

---

(١) ملياً : الزمان الطويل ، وفي القرآن الكريم ﴿واهْجُرْنِي مَلِيًا﴾ .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان رقم (١) ، وأبو داود في سننه (٤٦٩٥) والدارقطني في السنن (١/ ٩٥) وغيرهم .

فَفي هَذا الحديث مَعاني الدِّين كُلها مُجملة[١] ، قَال فيه يُعلمكم دينكم، وأُمُور الدِّين لا تَخرج عَنْ هَذه المَقامَات الثَّلاث المَذكُورة في هَذا الحديث .

وقَد بَيَّن النَّبي عليْه السَّلام مَا أجمل فِي هَذا الحَديث بِحديث آخر في قَوله :

« **الإيمَان بِضع وسَبْعُون شُعبة** [٢] » وكُل شُعبة من شُعبه تَشْتمل عَلى أبْواب ، وفُصول من العلم ، لا نهاية لَهَا ، ولا غاية ؛ لأنَّه عَليْه السَّلام : أُوتي جَوامع [٣] الكَلم ، واختُصرَت لَه الحكمة اختصاراً .

وأنا أُبين إنْ شَاء اللَّه مَعاني هَذه الشُّعب عَلى قَدر مَا يَسّر اللَّه ، ونَسأل اللَّه أنْ يَعصمنَا جَميعًا من الزَّلل في جَميع الأُمور آمين ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمد ، وعَلى آله وسَلم تَسْليمًا .

فصل

أوَّل ذَلك مَقام الإسْلام ، وهُو مَقَام عَظيم ، وحَال شَريف مَن تَحقق به في الدُّنيا فَحَاله حَال أَهْل الجَنَّة في العُقبى [٤] ، ومَعْناه الانْقياد للأوامر ، وتَرك الاسْتقْصَاء لَها ، والإمْسَاك عنْ إذَائة مَنْ دَخل الإسْلَام ، ونَفع أهْل الإسْلام في جَميع المَخْلوقات ، وهُو دَار السَّلام .

(١) مجملة : مجتمعة غير متفرقة .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحة كتاب الإيمان رقم (٥٨) ، والبخاري في التاريخ (٥/ ١٨١) والترمذي (٢٦١٤) وغيرهم .

(٣) جوامع : يقال كلام جامع أي قلت ألفاظه وكثرت معانيه .

(٤) العقبى : اليوم الآخر .

سُبحانه مَن دَخله من جَميع المَخلوقات فَقَد سَلمَ / مِنْ الإذاية كُلها ، ٤٤/ب
وهَذِه الدَّار قَد سكنها كُل مَن دَخَل فِي مُلك اللَّه سُبحَانه .

قال اللَّه تَعالى :

﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾(١) وهو مَوجود عنْ مَعنى اسْمه السَّلام ، ومَا فِي مَعْناه مِن أسمائه تعالى .

وبِنَاء هَذه الدَّار عَلى الإقْرَار بالشَّهادة ، والصَّلاة ، والزكاة ، والصَّوم ، والحَج .

هَذه دَعَائمُه(٢) الَّذي قَام بِنَاؤه عَليْها ، كَما قَال عليْه السَّلام : « بُني الإِسْلامُ عَلى خَمَس »(٣) .

ومَا بقي من شُعب الإسْلام يَجري مَجرى تَحْسين البناء ، وتكْميله ، مصْداق مَا تقدمَ الحديث المَشْهور عنْ جَابر قَال : خَرجَ علينَا رسُول اللَّه ﷺ يومًا فَقال : « إنِّي رَأيت فِي المَنَام كَأَنَّ جبْريل عنْد رَأسي ، وميكَائيل عند رِجْلي يَقُول أَحدُهما لصَاحِبه : اضْرب لَه مَثلاً فَقال : اسْمع سَمع أُذُنك ؛ واعْقل عقَل قَلبك؛ إنَّمَا مَثلك ومَثل أُمتك كَمثل مَلك اتَّخَذ دارًا ، ثمَّ بَنى فِيها بَيْتًا ثمّ جَعل فِيها مَائدة، ثمَّ بَعث رَسُولاً يَدعو النَّاس إلى طَعَامه ، فَمنْهم مَنْ أَجَاب الرَّسُول ، ومنهم مَنْ عَصَاه ، فَاللَّه هُو المَلك ، والدَّار الإِسْلام ، والبَيْت الجنَّة ، وأَنْت يا مُحمد رَسُول المَلك ، مَنْ أجابك دَخَل الإِسْلام ، ومَنْ دَخل الإِسْلام دَخَل الجنَّة ، ومَنْ دَخَلَ الجنَّة

---

(١) سورة آل عمران (٨٣) .

(٢) الدعائم : جمع دعامة وهو عماد البيت يقوم عليه ، ويقال : هذا من دعائم الأمور أي مما تتماسك به الأمور .

(٣) صحيح : أخرجه البخاري في صحيحه [١/ ٩] ، مسلم في صحيحه كتاب الإيمان [٢، ٢٠] ، الترمذي في الجامع [٢٦٠٩] .

أَكَلَ مَا فِيها»[١] .

وكُل مَن أَسْلم فَقَد سَلم في نَفْسه ، وسَلم منْه غَيره من كُل مَن دَخَل دين الإسْلام ، وسكن دَار السَّلاَم ، وأحبه جَميع الخَلق من المُسلمين ، ومَنْ كَان بضد هَذا الوَصف فَقد آذى نَفسه ، وآذى الخَلق أجمع بقَدر كُفره وعصيانه فَوَجَبت إذَايته ، وطَرده : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾[٢] إلى آخر المعنى .

فَهَذا المَقَام الأوَّل من المَقَامَات الثَّلاثة ظَاهر ؛ لأنَّه عبادة الأجْسَاد
١/٤٥ الظَّاهرة / وشُعبه[٣] مُفْترَقة عَلى جَوارح الجَسد ، والكل مُتَعاون بعضه مع بَعض فمن شُعبه ما فرض على اللِّسان مثل الإقْرار ، والتِّلاوة ، والأذكار ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المُنكر ، وغير ذلك من طاعات اللِّسان ، وترك ضد الطّاعات التي نُهي اللِّسان عنها من شهادة الزور ، وغَير ذلك من معاصيه ، وهكذا اليد ، والعَين ، والرِجل ، وجَميع الجوارح كلها ، وجميع أعضاء الجسد .

(١) أخرجه الترمذي في الجامع [٢٨٦٠] ، الحاكم في المستدرك [٤/ ٣٩٣] ، ابن كثير في التفسير [٤/ ١٩٨]

(٢) سورة الأحزاب الآية (٥٧) .

(٣) شعب : جمع شعبة ، وهي الفِرقة من الشيء والغصن من الشجر .

فصل

الشعبة الأولى

شهادة أن لا إله إلا الله

فأول شُعب الإسْلام ظاهرًا قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ودَليل ذلك الحديث الذي رَواه أبو داود بإسناده ، وذُكر أيضًا في الصحيح عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال :

« الإيمان بِضعٌ وسَبْعُون شُعبة أفْضلها قَول لا إله إلا الله ، وأدْناها إماطة الأذَى مِن الطريق »(١) وقوله : **« أُمرتُ أنْ أقاتل الناسَ حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ، فمن قالها بِلِسانه فقد سَلِم مِن السَّيف ، والقتل »** (٢) .

وكانت حُرمة الإسلام والمُسلمين ظاهرًا في مقام الإسلام ، فإنْ أسْلم قَلبُه كما أسْلم لِسَانُه فقد سلم من عذاب الآخرة ، كما سلم من عذاب الدنيا .

وهو على ثلاثة مقامات :

المقام الأول : إقْرار اللِّسان بِالشَّهادة ظاهرًا وانقياد الجسد لأمور الإسلام والمسلمين .

---

(١) صحيح : سبق تخريجه .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري [١/ ١٣] ، [٩/ ١٣٨] ، مسلم [٣٤] كتاب الإيمان ، النسائي [١٤١٥] ، الترمذي (٢٦٠) ، ابن ماجه [٧١] .

والمقام الثاني : انْقياد النَّفس لقَبول الإسلام وترك النُّفور [(١)] ، والإباية[(٢)] عنه باطنًا ، وإلا كان صاحب النُّطق به مُنافقًا ، وبَاطنه بخلاف ما ينطق به لسانه .

والمقام الثالث : اسْتِسْلام الرُّوح ، والقلب للذي فَطر السَّموات والأرض، كما قال :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾[(٣)] فيكون إسلامه طوعًا ، ولا يكون كَرهًا ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[(٤)] وهُو بتَفْويض الجُملة إلى الله ، وإسْلام الأمور إليه ، والتَّبري عند الدَّعْوَى ، ومن الحَول والقُوة في شَيء من الأشياء إلى الله جل جلاله ، ورُؤية المُلك كُله بجَميع حَركاته وسكَناته لله ، فيكون شاهداً معنى لا إله إلا الله على الحقيقة ، ويُؤدي الشهادة ، فيكون شاهداً من الشُّهداء كما قال : ﴿ اشْهَدُوا بأَنَّا مُسْلِمُون ﴾[(٥)] .

ويَشْهَد بلسانه ، وقَلبه ، وسرّه ، ويؤدي الشهادة عند جميع المَخْلُوقات بلا إلَهَ إلا الله ، فيكون من الَذين قال الله فيهم :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إله إلا هُو والملائكة وأولو العِلْم ﴾ [(٦)] وهذه الشُّعبة قد تقدم الكلام عليها فيما تقدم من الكلام في معنى الوحدانية ، لكن ظاهر

(١) النُفُور : القوم يسرعون في أمر أو قتال أو جهاد ، والمعنى ترك ا لجهاد النفس .

(٢) الإباية : كرهه ، ولم يرضه ويقول الله تعالى : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُوره ﴾ .

(٣) سورة لقمان الآية (٢٢) .

(٤) سورة آل عمران الآية (٨٣) .

(٥) سورة آل عمران الآية (٥٢) .

(٦) سورة آل عمران الآية (١٨).

مَعْناها الذي يَلزم الخَلق كُلهم في فرض التوحيد العِلم بِه ، في هذا الموضع ينقسم قِسمين :

القِسم الأول : أن تعلم أن المُلك كله ليس له إلا الله وحده ، وملك واحد ليس باثنين ، ولا ثلاثة ، ولا أكثر .

والقسم الثاني : أن تعلم أنه ليس من مَخلوقاته ومَمالكه إلاه ولا ولد ، ولا مَن يَسْتَحق الإلهية .

فأما القسم الأول ؛ وهو امْتناع الإلهين ، أو أكثر فبُرْهَانُه[١] من القرآن قوله :

﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾[٢] فإنّ « لو » حَرف يدل على امْتناع وُجود الشيء لامْتناع وجُود غَيره ، فالفساد إذًا يمتنع وجوده في الملك لامْتناع وجود الاثنين ، أو أكثر ؛ لأنَّه لو كان إلهين لَعُلم بالضرورة أنهما غيران ، وإذا كانا غيرين فقد انحاز كل واحد من صاحبه ، وامْتاز منه ، وصار في حيز[٣] غير حيز الآخر ، وإذا انحاز فقد انحدّ بجهتين / ٤٦/أ بالضرورة .

ودليله من القرآن ﴿ **وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ** ﴾[٤] .

مَعنَى ذَهب كُل إله بِما خَلق ؛ أيْ انحاز كل واحد بملكه ، وصار في

---

(١) برهانة : حجته القوية الفاصلة البينة .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٢) .

(٣) الحَيِّز : المكان : وحيز الدار : هو ما انضم إليها من المرافق والمنافع ، ويقال : هو في حيز فلان : في كنفه .

(٤) سورة المؤمنون الآية (٩١) .

جهة ، وفي ذلك هلاك الإلهين ، أو الآلهة ، وهَلاك المَلكَين ، أو المماليك ؛ لأنّه قد صار كل واحد في محل يُحله ، وصار المحلَ حاملاً له ، وكان مُعْتمدًا على المحل ، مُفْتَقِرًا ؛ لأن يحمل وجوده ؛ لأن الجهة أوجبت له ذلك .

وكذلك المحل الحامل له مُفْتَقِر وجوده أيضًا إلى حامل آخر ؛ لأنه في جهة ، هكذا يَتَسلسل (١) .

فإن لم يُوجد حامل في غير جهة تدكدك الكل ، وانعدم ؛ لأن المحل الذي ينقطع فيه التَّسلسل ليس بعده إلا الفراغ من المحل ، وذلك الفراغ هو عدم الكل ، المحل الحامل .

فإذا عدم الحامل فسد الكل في دفعة واحدة ، وهذا يلزم الإله الواحد ، الثاني والثالث ، ولو كانوا مائة ألف ، أو أكثر ، لأن الجهات محيطة بكل محدود ، والواحد بالحقيقة هو الذي لا يحويه حيز ، ولا يحمله محل ؛ لأنه إذا لَزم الجهة أخذته القسمة ، وإذا أخذته القسمة ظهر فيه التأليف وإذا ظهر فيه التَأليف فليس بواحَد ، ولزمه الفساد والتَلاشي كما تقدم .

ولو كان ذلك لم يوجد فعل بوجه ، ولا فاعل ، وقد ظهرت الأفعال ، ووجدت بالضرورة ، فقد تبين أن الإله واحد لا يحويه مكان ، وأنه لا إله غيره .

وأما القسم الثاني اللازم فرضه لجميع الخلق أيضًا ، وهو أن يُعلم أنه ليس من مخلوقاته ، وممالكه إله ، ولا ولد ، ولا مَن يستحق شيئًا من الربوبية ، والإلهية ، ففي الجهل (٢) هلك أكثر الخلق ؛ فإن المخلوقات كلها

---

(١) يتسلسل : يتتابع .

(٢) الجهل : الجفاء والسفه وعدم العلم .

قد عُبدت من دون الله ، أول ذلك الأرض ، وهي أقرب / الموجودات ٤٦/ب
إلينا ، فإن طائفة قد هلكت في اتخاذ الأصنام (١) من الأحجار وتعظيم البيوت المبنية من التراب لشَغَفهم (٢) بها وتعظيمهم إياها .

وآخرون عبدوا النبات ، وهو عالم أرفع من الأرض حتى قد قالت طائفة لمحمد عليه السلام اجعل ذات أنواط في مسيرة إلى حُنين .

وطائفة اتخذت من الأشجار الأصنام فعبدتها .

وطائفة عبدت الحيوان ، وهو أشرف من النبات مثل البقر والخيل ، وكل حيوان جميل .

وطائفة عبدت بني آدم ، واتخذوهم آلهة مِن دون الله ، وذلك كله قد نطق به القرآن والأحاديث .

وطائفة ارتقت عن هذه الجزئيات إلى العناصر الأربعة ، وهي الأرض، والماء ، والهواء والنار .

فهلكوا فيها ، وأصنافهم يطول الكلام بِذكرهم .

وطائفة ارتقوا إلى الأفلاك ، فهلكوا بها . وآخرون بالنجوم ، والنور والظلمات . وآخرون ارتقوا عن المحسوسات إلى الملائكة والشياطين ، فهلكوا في عِبادتهم .

وطائفة ارتقوا إلى عالم النفوس ، والنفس الكلية ووقف هنا قوم من الدهرية (٣) فهلكوا .

---

(١) الأصنام : جمع صنم وهو تمْثال من حجر أو خشَب أو معدن كانوا يزعمون أنه يقربهم إلى الله .

(٢) شغفهم : لحبهم وولعهم بها .

(٣) الدهرية : فرقة من الملحدين لا يؤمنون بالآخرة يقولون ببقاء الدهر .

وطائفة ارتقت إلى عالم العقل ، فرأوه أشرف وأعلى من الكل فوقفوا ها هنا فهلكوا .

وآخرون بالخيال ، والوَهم ، في التخييلات ، والمُتَوهمات .

ومطلب الكل الإله ، والمعبود ؛ لأنه قد حصل ، وثبت بالفطرة أنه لابد من صانع ، فقد أجمعوا على الربوبية ، وإنما اختلفوا في الإله ، ما هو؟ وأي شيء هو ؟ .

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾(١) ؛ لأنَّه لو كان شيء مما توهمت هذه الطوائف كلها لم يصح أن تُنَفذ أوامر الله
١/٤٧ تعالى في جميع ملكه ، ولا صح استْواؤه / على عرشه الجامع لمخلوقاته ، ولا استيلاؤه عليه ؛ لأنه كان يكون كل أحد ، وجزء قائم بنفسه ، غني عن غيره ، وذلك هلاك الكل كما تقدم ؛ لأنه إذا قام بنفسه فقد انحاز ، وامتنع ، وذلك يؤدي إلى أن العاجز قادر ، والقادر عاجز ، وهو مُحال ، فلم يبق إلا أن يكون مصنوعًا ، وعبدًا لصانع واحد ، ومَلك واحد تُنفذ أوامره من أعلى وجود العرش إلى نجوم الأرض ، وعروق النبات ، والنمل ، وأقل المخلوقات ، في جميع الجهات .

وحينئذ يصح استواؤه على عرشه ، واستيلاؤه على مُلكه ، فتكون المماليك كلها عبيدًا له ، وداخلة في ربق (٢) العبودية ، ساجدة خاضعة تحت درجة السِّيادة ، والمُلك ، والرُّبوبية ، فهي تحت بالذِّلة ، والعُبودية ، والمَلكُ ، وهو فوقها ، بالعلوِّ عنها ، وبدَرجات المَلك ، والسِّيادة والرِّفعة ، وجَلالة القَدْر ، وعظيم القُدرة ، وغَير ذَلك من صفات الكمال ، والجلال ، الواجبة للواحد الملك ، وإذا فهمت هذا وقع لك العِلم بمعنى الاستواء

(١) سورة المؤمنون الآية (٧١) .

(٢) ربق : الربُق هو حبل ذو عرى أو حلقة لربط الدواب .

وفهمت معناه ، وقد نبَّه عليه سبحانه بقوله : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ ﴾[(١)] فقوله : ﴿ رفيعُ الدَّرَجاتِ ﴾ هي درجات السيادة ، والربوبية ، وجلالة القَدر ، وصفات الكمال التي انفرد بها .

وقوله : ﴿ ذو العرش ﴾ أي مالك العرش ؛ فالعرش بما فيه مملوك ، والكل عارف بقدره ، ساجد تحت الدرجات المتقدمة الذكر التي ليست تشبه فوقية المسافة ، والجهة ، فإذا خضع[(٢)] الكل له بالعبودية ، والذِّلة ، فقد علا على الكل بالحقيقة والمجاز ؟ ؛ لأن البارئ تعالى يُوصف بالعُلوِّ ، ولا يوصف بالسفل حقيقة ، ولا مجازًا ، والحقيقة هي فوقية العُلوِّ والمجاز[(٣)] فوقية الرُّتبة ، ورفْعة القدر ، ولا يوصف / البارئ بالتحت حقيقة ، ولا ٤٧/ب مجازًا ؛ لأن التحَت الذي هو حقيقة هو تحتيه السفل ، والتحت الذي هو المجاز هي مواضع القَدر ، وذلَّة المنزلة .

فإذا فهمت هذا فأنف عنه العُلوّ الذي هو حقيقة التمكن ، والاستْقرار ، والمماسة تكن مُصيبًا ، مُوافقًا للكتاب والسنة .

وعلى ذلك ورد حديث السَّوداء حين قال لها : « أين الله ؟ »[(٤)] قالت : في السماء ، فشهد لها بالإيمان ولم تُرد الاستقرار ، والارتقاء ، والتمكن في المكان ، وإنما أرادت أنه في العلو ، وكل ما علا في اللغة فهو سماء .

والسمو هو العلو ، والارتفاع ، وأعلى المخلوقات ، وأرفعها

---

(١) سورة غافر الآية (١٥) .

(٢) خضع : مال وانحنى ورضي بالمذلة للمخالف .

(٣) المجاز : المعبر ، وفي علم البيان : استعمال اللفظ في غير دلالته المشهورة لعلاقة ما ، ويقابل الحقيقة .

(٤) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه (٣٣) كتاب المساجد ، أبو داود [٣٢٨٤] .

العرش ، فقد علا البارئ تعالى عليه حقيقة ، ومجازًا ، برفعة الدرجات المتقدمة ، وهو الاستواء كما يُقال : استوت الشمس إذا علت في كبد السماء[(١)] ، ولم تَمِل إلى أحد الجهتين الذي هو الانحطاط عن العُلوّ ، لأنها إذا زالت عن الاستواء فقد انحطت ساجدة ، هابطة إلى الغروب ، والانحطاط خُضوع .

وكذلك إذا كانت صاعدة إلى الاستواء ، فهي أيضًا في سُفل عن الاستواء ، فلم تَعْلُ عن الكل إلا إذا استوت ، فإذا استوت فقد علت ، وعلا نورها على جميع بسيط الأرض كلها ، واستولى على الجميع ، فافهم هذه ؛ فإنه لا يُبقي شيئًا من الإشكال في معنى الاستواء إن شاء الله ، والحمد لله على التوفيق له .

وإذا فهمت معنى الاستواء ، وأنه فوق الكل بالمعنى المتقدم ، فاستواؤه على عرشه إنما هو لتنفيذ أوامره في جميع أجزاء العالم كله ، وتدبير أمور الملك كله .

وقد نبه على هذا المعنى بقوله :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يُدبِّرُ الأمْرَ ﴾[(٢)] يعني أمر العرش / والأمر ٤٨/أ
كله ما دقَّ منه ، وما جلّ وما ظهر وبطن ، فلا يتحرك قليل ، ولا كثير ، ولا يَسْكن صغير ، ولا كبير إلا وهو مُحركه ، ومُسكنه يشهد بذلك أهل العلم به سُبحانه ، من عُروق النمل إلى أعلى وُجود العرش مُتصلة بِيَد القُدرة الأزلية[(٣)] ويؤمن به المؤمنون .

---

(١) كبد السماء : أي وسطها .

(٢) سورة يونس الآية (٣) .

(٣) الأزلية : القديمة العريقة التي لا أول لها .

ومَن أضاف شيئًا من الأفعال إلى المَوجودات فلم يفهم الاستواء ، وظهر له الاعوجاج ، والميل في الاستواء ، وصار مَعبوده الذي يعبده مُتوهمًا مستحيلاً ، ومُشبهًا ممثلاً .

ولو كان ما توهمه حقًا لتدكدك الكل ، ولم يوجد إله ، ولا مألوه كما تقدم ؛ لأنه من قال : إن شيئًا تحرك بنَفسه دُون الله فإن تلك الحركة خارجة عن قُدرة الله ، قد انحازت عنه .

وإذا كان ذلك فقد حددته ، وإذا حددته لَزمه المكان ، والجهة وأخذته القسْمة ، وهذا يلزم لكل مَن يزعم أن الله في جَهة أو يعلم الكلَيات ، ولا يَعلَم الجُزئيات ، أو يتوهمه ، أو يتخيله على غير ما هو سبحانه عليه .

وقد نبه النبي عليه السلام على نفي ما يستحيل على الله تعالى من نقص المُتوهمات ، والمُتخيلات والمَحْسوسات وما لا يليق به سُبحانه في قوله عليه السلام في بعض الأحاديث : « مهما شَككتم فِي شَيء ، فلا تَشكوا بأن ربَّكم لَيس بأعور » (١) .

فيه تنبيه على الدَّجال ، وأمر بإثبات صِفات الكمال لله ، ونفي النقائص (٢) عنه ، فإن العَوَر هو النقص .

هذا هو الفرض اللازم في التوحيد لكل مَخلوق ، فإنه لابد من تمييز صفات الخالق من صفات المخلوق ، ونسأل الله العظيم توفيقه وتَثْبيته في جميع الأحوال إنه ولي التوفيق ، لا رب غيره ، ولا معبود سواه .

---

(١) بنحوه في فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج(١٠) كتاب الفتن حديث (٧١٣١) .

(٢) النقائص : جمع نقيصة وهي الخصلة الدنية التي تنقص بمقدار من المنقوص .

٤٨/ب

فصل /

الشُّعبة الثانية

الإقرار بأنّ مُحمداً رسول الله :

واعلمْ أنّ تمام هذه الشُّعبة المتقدمة قولك مُحمد رسول الله ، وهو إثبات النبوة ، والرسالة ، لا يتم توحيد عبد إلا بها ؛ لأنها لا تَفْترق .

وكل من زعم أن الرسالة يُستغنى عنها بالتوحيد فهو كافر حقًا .

قال الله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُونَ أن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّه وَرُسُله وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْض ونَكْفُرُ بِبَعْضٍ ويُرِيدُونَ أن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًا﴾[1] .

وقد قصّ الله قصة إبليس في صدر سورة البقرة ، وأخبر عن كُفره ، وهلاكه المؤبد من أجل كُفره بخصوصية آدم ، ونبوّته ، ولمْ يذكر عنه أنّه كفر بالله ، وإنما كفر بنبوة آدم التي اختص بها ، وهو معنى إبائته[2] عن السُّجود له ، كما سجدت الملائكة ؛ أي خضعت ، وتواضعت له من أجل علم الأسماء الذي عَلمه اللّه ، وأنبأهم به ، فسُجودهم إنما هو ائتمام به عليه السلام ؛ لأنه خليفة الله ، ولم يكن سجود عِبادة ﴿ إنَّ الله لاَ يأمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾[3] .

---

(١) سورة النساء الآية (١٥٠، ١٥٠) .

(٢) إبائته : عصيانه .

(٣) سورة الأعراف الآية (٢٨) .

وقد نبّه رسول الله ﷺ على هذا المعنى في قوله : « لَو جاز أن يسجد أحدٌ لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجدَ لِزَوْجِها »[١] فأخبر أنه لا يجوز ذلك .

وكذلك توقْير أصْحاب الأنبياء ، والأُمم للأنبياء وأئتمامهم بهم ، وتعزيرهم إياهم هو من ذلك السجود كتَواضع المُتعلم للمُعلم .

فالرسالة رُكن من أركان التَّوحيد لا يوجد التوحيد ولا يقبل إلا به ، قد أوجب الله ذلك على نفسه ، فالرسول هو باب الله الأعظم لا يُدخل عليه إلا منه ، ولا يُوصل إلى الله إلا به ، ومَن نظر ذلك بحقيقة النظر علم أنَّ الرسالة من التوحيد لا / يُوجد هذا إلا منها ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تُطِيْعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[٢] فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن نبيًا بنفسه بل بسرٍّ أسرّ إليه دُون غيره ، وذلك السرّ هو الغَيب الذي اطّلعوا عليه ، وخُصوا به دُون الغير وعَجز غَير النبيّ عن الإتيان به ، والأنبياء بَشر مثلنا ، فلما أتوا بمَا لَيْس في طاقة البَشر الإتيان به عَلم أنَّهم خُصوا بزيادة خارجة عن مقدور البَشر فَعُلم أنَّها من اللَّه وحده ، فوجب الإيمان بهم . ٤٩/أ

وقد نبهت الأنبياء -عليهم السلام- على هذا ؛ لأنهم حين قالوا لهم : ﴿ إن أنتُمْ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾[٣] فأجابت الرُّسل بأن قالت : ﴿ إن نَّحْنُ إلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، ولَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ ﴾[٤] .

فالمُعْجِزات[٥] ثبتت النبوات لكُل ذي عقل ، ومَن أنكر النبوة فهو مُنخلع عن غريزة العقل ، ولذلكَ يقولون في الآخرة ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أوْ

---

(١) ابن ماجة في السنن [١٨٥٢] بنحوه ، والحاكم في المستدرك [٤/ ١٧٢٢] .

(٢) سورة النور الآية (٥٤) .

(٣) سورة إبراهيم الآية (١٠) .

(٤) سورة إبراهيم الآية (١١) .

(٥) المعجزات : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد نبي تأييداً لنبوته .

نَعْقِلُ﴾[١] الآية.

فإنَّ النبيَّ ﷺ إذا جاءنا ، وتحدَّى بالنبوة ، وهو مثلنا في خلْقتنا ، وطالبناه بالبُرهان[٢] على ما ادعاه فأتى بما أعجز الأمة كلها عَلِم أن ذلك بمنزلة خلق السماء والأرض ، وجَميع الأفعال ، والجواهر التي عجز الخلق عنها ، فإنه لو كُلف الخلق أن يخلقوا أرضًا ، أو ماءً ، أو بحرًا ، أو شخصًا ، أو جوهرًا من أعيان الموجودات لعجز الجميع عن ذلك ، وأقروا أنه لا يقدر على ذلك إلا الله ، وإذا أتى النبيُّ وهو بشر مثلهم بشيء عجز الكل عنه كَعَجزهم عن خلق أعيان الموجودات عُلم أن النبوة من الله ، لا من غيره إلا لمن كانت غريزته[٣] الحُمق[٤] ، والحمد لله على المنة بأنبيائه ، فإنه لولا الأنبياء لهَلَكت بواطن الخلق بزلازل[٥] الشُكوك[٦] ، وعذاب الخيرات فبهم
٤٩/ب ثبت اليقين / واستراحت البواطن والقلوب عما جلّ بقلب كل مبعود محجوب ، فمن فهم الرسالة والمُعجزة أيقن بجميع ما أخبرت به الرسل ، وتبرهن له ذلك عيانًا ، والحمد لله ، وصلواته وسلامه على جميع أنبياء الله .

والمُعجزات التي أتت بها الأنبياء تنقسم على ضربين : الضرب الواحد : هو الوحي المُنزل عليهم بواسطة الملائكة .

---

(١) سورة الملك الآية (١٠) .

(٢) البرهان : الحجة ، برهن عليه : أقام عليه الحجة .

(٣) الغريزة : الطبيعة والسجية ، وفي علم النفس : صورة من صور النشاط النفسي وطراز من السلوك أساسه الفطرة والوراثة .

(٤) الحمق : قلة العقل .

(٥) زلازل : جمع زلزال وهو الهزة والحركة الشديدة .

(٦) الشكوك : جمع شك وهو حاله نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفي، ويتردد ويتوقف في الحكم .

والضَرب الثاني : هو خَرق العَوائد والآيات ، مثل انقلاب العَصى حيّة ، وانْفلاق البحر ، وإحياء المَوتى وتحريك الجبل ، وجَري الماء من الأصابع ، وانْشقاق القَمر ، والإسراء ، وغير ذلك مما ليس في طاقة البشر الإتيان به .

وأفضل الناس بعد الأنبياء مَن ورث منهم الأمرين جميعًا ؛ لأن العُلماء ورثة الأنبياء ؛ فورثوا في[1] مُقابلة الوحي ، فهم الوحي والإلهام والعلوم ، وتبيين ما جاءت به الأنبياء من الكتب بما آتاهم الله تبارك وتعالى من تعلم العلم ، وبما جُعل في قلوبهم من الإلهام ، والفُرقان ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[2] .

وورثوا في مقابلة المُعجزات ، والآيات ، والكرامات ، وخُروق العوائد ، فمن ورث هذين المعنيين ، فهو بمنزلة وارث المال كله ، وبذلك سُموا أبدال النبيين ؛ لأنهم بدل منهم ، وغيرهم من العلماء ، والأمم بمنزلة غير وارث المال كُله من الورثة ، كُلٌ يرث بقَدر ما قُسم له ، والكل من أفعال الله ، لا يُنال إلا بفضله ، ومن البابَ الذي أمر أن يُؤتَى منه ، فلذلك رسمناها في باب التوحيد .

واعلمْ أن الإيمان بالنبوة على ثلاثة أضرب : الضرب الأول في مقام الإسلام ؛ وهو الإقرار باللّسان بتَصديقهم ، والانقياد لهم بالجوارح ، واتِّباعهم على منهاجهم في أمور الشَرائع التي شرعوها ، وأمروا بها .

والضرب الثاني في مقام الإيمان : التصديق بالقلب خالصًا ، وإلا كان الظاهر نِفاقًا ، والاقْتداء بأحوالهم ، ومَقَامات قلوبهم ، وبواطنهم ما

---

(١) تكررت كلمة « في » في الأصل .

(٢) سورة الأنفال الآية (٢٩) .

استطاع العبد .

والضرب الثالث في مقام الإحسان : التَّعزير[(١)] ، وهو أن ينظر العبد ببصير العقل إلى تخصيص الله لهم بوحيه ، وكلامه وقدرته الصادرة عن صفاته ، فيرى أنه قد فضلهم على سائر خلقه ، واختصهم بالقُرب منه ، وجَعلهم أمناء على سرائره ، وغيبه الذي لم يطَّلع عليه سواهم ، فيرى أن الله قد رفع أقدارهم ، وأعلى مراتبهم فوق كل قَدْر ورُتْبة ، فيُعزرهم ، ويُوقرهم ، كما أمر الله تعالى ، وينظر إليهم كما يَنظر إلى الشمس في السماء ، وأرْفع .

قال الله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾[(٢)] الآية ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾[(٣)] ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾[(٤)] .

فمن صلى الله عليه وملائكتُه فقد عظّم قدرَه فوق الغايات[(٥)] ، ورفَع ذكرُه أرفع الدَّرجات ، فواجب أن يُلحظ بعَين التعظيم كما أمر الله تعالى .

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليمًا .

---

(١) التعزير : الإعانة والقوة والنصرة وفي القرآن الكريم ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ .

(٢) سورة الأعراف الآية (١٥٧)

(٣) سورة الفتح الآية (٩) .

(٤) سورة الأحزاب الآية (٥٦) .

(٥) الغاية النهاية والآخر .

الشُّعبة الثالثة

الغُسل مِن الجنَابة

لأن في حديث جبريل في حديث يَحيى بن يَعمر : ما الإسلام ؟ قال : « إقَام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، وصَوم رمضان ، والاغتسال من الجنابة »[(١)] فجعله من الإسلام .

فأما صفة الغُسل فمذكور في كُتب الفقه بأكمل ما يُحتاج إليه ، وصفته أن يبدأ المُغتسَل فيُزيل / ما أصابه من الأذى ، ثم يتوضأ وضُوءًا كاملاً ، إن شاء ، أو يترك غُسل رجليه من الوضوء حتى يَغْتسل إن شاء ، أو يَقْتَصر على الغُسل من الجنابة من الوضوء إن شاء . ٥٠/ب

ثم يبدأ فيُسمي اللهَ ، ويَنوي رَفعَ الجنابة عنه ، ويَتَمضمض ، ويَسْتَنْشق ، ويُخلِّل[(٢)] شَعر رأسه ولحْيَته ، إن كَان ، ثم يُفيض على رأسه ثلاث غَرفات ، ويَغسل الشَّعَر حتى يُبل جَلد رأسه ، ثم يَغسل شقه الأيمن ، ويتدلك[(٣)] مع الماء إلى قدمه اليُمنى ثم يغسَل شقَّه الأيسر إلى قدمَه اليُسرى ، ثم يَعُمّ جميع جسده بالماء ، والتَّدليك ، وهَذا أكمل ما ورد فيه دون أن يُسرف في الماء ، فإن الإسراف من قِلة فقه الرجل .

وأمّا وجه الحكمة فيه فإنّ الجنابة بُعدٌ وتنحي عن القُرب من الطاهر الطَّيب جل جلاله ، من قَولك للرجل سِر إلى جانب ؛ أي إلى ناحية .

---

(٦)سنن أبي داود [٤٦٧٧] ، أحمد [١/ ٥٢] .

(١) يخلل : أدخل الماء في لحيته وشعر رأسه حتى بلغ جدارها .

(٢) الدلك : الشيء بالغ في دلكه للتنظيف .

وهُو فعل حَدث تنزّه الباري تعالى عنه ، وسبح نفسَه عن قول من نسب ذلك إلَيه ؛ لأنه فعلٌ من زَوجين ، لا يَقوم إلا باجْتماعهما في اليقظة أو النَّوم .

والربُّ تعالى هو الربُّ المُنفرد ، الذي لا قرين له ، فأمر العبد بغَسل جميع الجسد ، وتطهيره ليخفّ القلب ، ويَطهُر من ثقل الجنابة ، التي هي في نهاية البُعد عن أوصاف الواحد الفرد ، ولا يليقَ إلا بالبشر ، فإذا تطهر صلح للدخول على الواحد الحق ، وأن يتلو كلامَه ، ويَذكرَه ، فتطهير الجسد ظاهرًا يُطَهِّر القلبَ من اسْتغراق الشَّهوة التي غلبته ، واسْتغرق فيها ، وغاب بها عن ذكر الله تعالى .

ومثاله مثال مَن كان في حضرة مَلك من الملوك يُذاكره ، ويَنْظر إليه ،
١/٥١ ويُسارعَ في قضَاء حوائج المَلك ، ثم غَابَ عَنه في أغراض / نفسه ، فلما أراد العَود ، والدُّخول عليه ، فإنه يتأهب(١) للدخول عليه ويتطهر بأكمل ما يقدر عليه من المعاني الأدبية .

وكذلك المغتسل ينبغي أن يتذكر مع غسل أعضاء جسده ، وجميع ما وقع فيه مما يُبعد عن الله ، ويَنوي الاغْتسال منها والتنظيف لدُخوله على ملك الملوك ، وجبار الجبابرة فهو أولى .

ألا ترى الجُنُبَ كيف مُنع من قراءة القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ لاَ يَمَسُّهُ إلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾(٢) وفي الحديث : « الطهورُ شَطْرُ الإيمانِ »(٣) ولا يكون شَطره إلا بأن تفهم حقيقة المعنى ؛ فإن الإيمان مَعْنيان ؛ معنى يُقرب إلى

---

(١) يتأهب : يستعد ويتهيأ .

(٢) سورة الواقعة الآية (٧٩) .

(٣) صحيح : أخرجه مسلم في كتاب الطهارة (١) .

الله، ويدخل عليه ، ومَعنى يُزيل ، ويُطهر ما قطع عن الله ، أو حَجب عنه ، فالطهور من هذا المعنى شطر الإيمان ، فإذا غسل المُغتسل يَدَيه فَلْيَنْو مع غَسل يديه بتَطهيرها عن تناول ما أبعده عن الله ، ونفض يديه عن الأشغال المُشغلة عن ربه .

وكذا إذا تمضمض يَنْوي تطهير الفم وتَنْظيفه من تلويث اللسان بالأقوال الخَبيثة [١] ليُصلح أن يَجري على لِسانه وفمِه ذِكر الله الطَّاهر ، المُنزه، الرَّفيع الجليل .

وبالاستنشاق والاسْتنثار إخراج اسْترواحة روائح مَحْبُوباته بالشَّوق إليها ، فإن العُشاق ، والمُحَبين يَسْتروحون روائح مَحبوباتهم من جهة أفق المحبوب .

وبتَخليل شَعر الرأس واللِّحية حَلّها من أيدي مَن يملكها ، ويُنكسها [٢] من أعلَى عليين ، بالكون مع الله إلى أسفل سافلين ، وما يقودها إلى غير الله ، فإن الناس يُنادون إلى جهنم بالنَّواصي [٣] ، واللحى ، كما ورد في القرآن ، والحديث :

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ، فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي والأقْدَامِ ﴾ [٤] وفي الحديث في سَوْق الناس إلى النار :

« أمَّا النِّساء فبالذَّوَائِب [٥] ، وأمَّا الرِّجال / فباللِّحَى » . ٥١/ب

(١) الخبيثة : الرديئة المكروهة .

(٢) ينكسها : يقلبها ويجعل عاليها سافلها .

(٣) النواصي : جمع ناصية وهو مقدمة الرأس وشعر مقدمة الرأس إذا طال .

(٤) سورة الرحمن الآية (٤١) .

(٥) الذؤابة مفرد وهي شعر مقدمة الرأس .

وكذلك الشيطان يَعقد في كل ليلة على قَافية كل عبد يُثَبطه عن الطاعات ، ويَقُوده إلى المُخالفاتَ ، والهوى والشَّهوات المُرديات[١] ، وفي ليل الغفلة المُنومة في الحياة الدنيا عن التَّيقظ والانتباه بذكر الموت وذكر حياة الآخرة .

ويَنْوي عند غُسل رأسه زوال التَّروس[٢] ، والرياسة المُوجبة للكبر الذي لا يَلَيق إلا بالكبير المتعال ، ويَنْوي عند غسل[٣] وجهه ، ويغسل تَطهيره من التوجه إلى اتِّباع الهَوى ، وَتطهيره من طلب الجاه المذموم ، وتَخْشعه لغير الله .

وفيه الأنْف إذا مر عليه يطهره من الأنفة ، وترك الانقياد للطاعة ، والحق ، ويطهره من انقياده لغير الله .

وكذلك العين من النظر ، والتطلع إلى المكروهات ومن النظر إلى غير الله بنفع ، أو ضُرٍّ ، وعند غُسل العُنُق والرَّقبة فكها مَن ربقة التَّعبد للشيطان، والهَوى ، أو لشيء دون الله حتى يتحرر من رِقِّ[٤] الأشياء كما ورد .

واعلمْ أنَّك لا تكون عبداً لله حقًا حتى تكون مما سوى الله حُرّاً .

وعند غُسل جَنْبه تطهير اتِّكائه ، وتوكله على غير الله وبغُسل وجهه إزالة اسْتعْباده لغير الله ، وظهوره وتطاوله بغير حق .

وبِغُسل صَدره إِزَالة طَلب التَّصدّر[٥] فِي المجَالس للهَوى ، ونَشر

---

(١) الموديات : المهلكات . (٢) التروس : الرياسة .

(٣) زيادة يقتضيها السياق ولعلها سقطت من الناسخ تسأل الله أن يعصمنا من الزلل .

(٤) الرق : العبودية .

(٥) تصدر : أي جلس في صدر المجلس وتقدم القوم .

الصيت[١] ، والذِّكر بغير حقّ ، وإزَالة الغل منه ، والغش .

وبغُسل البَطن تَطهير من أكل الحَرام ، والشُّبهة وإزَالة الرَّان المُتركب علَى القَلْب ، ومَا اخْتَفى في بَاطنه من المُهلكات . وبغسل المقعد ، والفَخذيْن تَطهير قُعوده ، وتَخَلفه عنْ النُّهوض إلى مَا لا يُرضي اللَّه .

وبغسل السَّاقين ، والقَدمين تَطهيرهما إلى المُسارعة في مَيادين الطَّاعة المبلغة إلى الفُوز .

١/٥٢أ وهكذا / كُل عضو في الإنْسَان فيه مَعان كَثيرة يجب تَطهيرها ليصلُح الجَسَدُ للوقُوف بيْن يَدي الطَّاهر المُقدس جَلَّ جَلاله ، فمن تَطهر طَهارة حقيقيةً طَهر بَاطنه بظَاهره ، ظَاهرةً ، ووجد طَعم الإيمَان في حَال ظُهوره في مَقَام الإيمَان ، وحَلاوة المَغْفرة بخُروج الذُّنوب منَ الجَوارح حين الطَّهارة فَيَصير بَاطنه كَالمرآة المَجلوة[٢] بإحْسان اللَّه لباطنَه ، فَيطرب الرُّوح لتجلي المُحسن الحقّ لَه في مقام الإحْسَان وهكذا كُل طَاعة ، إذا عَمل مَا ينبغي وجَد فيها بَركَات الإسْلام والإحْسَان ، فَقد انْدرجت المَقَامَات الثَّلاثة ، كُلها فيما تَقدم من الكَلاَم من هذا البَاب إذا تَفهمتها ؛ فإنَّ طَهارة الجَسد بالمَاء إسْلاَم ، واعتقَاد تطهير القلب ، والنَّفَس بمَا يُشاكل كُل عضو إيمَان ، ورية التَّأهُّب بالطَّهارة والدُّخول بها في الصَّلاَة ، والذكر إحْسَانٌ ؛ لأنه لقاء الطَّاهر القُدوس النَّزيه الأوصَاف البَعيد عنْ الأزْوَاج والحَاجَات التَّي تُوجب الجَنَابة ، وغَيرها . فَافهم فَهمنَا اللَّه وإيَّاك ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمد وعلى آله وسلم . [ولا يكْمل التَّطهير بَاطنًا ، وظَاهرًا بغَير التَّوبة ، واللَّه أعْلمً][٣] .

---

(١) الصيت : الذكر الحسن يقال : ذهب سيرته بين الناس .

(٢) المجلوة : جلى السيف والفضة والمرآة ونحوها كشف صدأها وصقلها .

(٣) هكذا وردت تلك العبارة عقب الشعبة ، ولعها تعليق من ناسخ الكتاب .

الشُّعْبَة الرَّابِعَة
الوضُوء

وهُو الطَّهارة الصُغرى من الحَدث ، والغُسل المُتَقدم الذكر الطهارة الكبرى(١) ؛ لأنَّ طَهارة الوُضوءَ إنما هي في جَوارح الجَسَد ، وأطْرافه من كُل نَاحية ، وذَلك تَخفيف من اللَّه تَعَالَى ، وتَيْسير ، والحمد للَّه ؛ فلو كُلف العَبد الغُسل كُلما أحدث لكَان تكليف مَا لا يُطيق ، إلا أن في تَطهير أعضَاء الجوارح من كُل نَاحية تَطْهير جَميعه من الحَدث الخَارج عنه ، فإنَّه إذا قدرته بيديه ، ورِجليه ، ورأسه كَان كالدائرة المُحيطة .

وفي تطهير خَارج الدَّائرة ، من كُل نَاحية تطهير جميعها ، فَلو ألقيت ضَابطًا في وَسط بطن الإنْسان بَعد أَن يَمد يديه ، ورجليه ، وعُنقه ، ثمَّ أدرت الضابط/ وجدته دائرة كَما ذكرت لك . ٥٢/ب

ومن هَذه الجَوارح المُحيطة بِالجَسَد تَدخل الذُّنُوب والمُخَالفات والحَدث عَن جَميع الجَسد .

فأمَّا كَون الوُضوء من شُعب الإيمان فَقد رَوى مُسلم بن الحَجاج بإسناده عن أبي مالك الأشعري قَال : قال رسول الله ﷺ : « **الطَّهور شطر الإيمان**»(٢) يعني الوضوء .

---

(١) الطهارة الكبرى : أي «شعبة الغسل من الجنابة» .

(٢) صحيح : سبق تخريجه .

وفي حديث آخر : « لا تُقبل صلاةٌ بِغَير طهور ، ولا صدقة من غلول »[(١)] .

وأحسن ما روي في صفة حديث رواه حمران عن عثمان بن عفان -رضي الله عنه - أنه رآه دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاثًا ، فغسلهما ، ثم أدخل يمينه في الإناء ، فمضمض ، واستنشق ، واستنثر[(٢)] ، ثم غسل وجهه ثلاثًا ، ويديه إلى المرفقين[(٣)] ثلاثًا ، ثم مسح برأسه ثم أذنيه ، ثم غسل رجليه مراراً إلى الكعبين ، ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن توضأ نحوَ وُضُوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يُحَدِّثُ فيهما نَفْسه ، غُفر له ما تقدم من ذنبه »[(٤)] .

فالوضوء الذي هو غسل الجوارح كلها مقام الإسلام وطهارة الباطن على معنى التوبة من اكتساب الجوارح إيمان وبه يكمل الوضوء .

وأما معنى الوضوء الكامل ، فأن يكون كما تقدم في الغُسل ، وهو بيّن في الحديث المروي في خروج الخطايا[(٥)] ، مع قطر الماء في كل عُضووقد تقدم الكلام عليه في الغُسل ، ويعني من ذلك الحديث الذي نورده إن شاء الله .

روى أبو صالح عن أبي هريرة أن رسولَ الله ﷺ قال : « إذا توضأ العبدُ المؤمنُ ، أو المسلمُ فغَسَل وجهَه خرج مِن وَجهه كُلُّ خطيئةٍ نظر إليها بعينيه مع

(١) أخرجه الترمذي (١) ، وأحمد في المسند (٢/ ٣٩) .

(٢) استنثر : ادخل الماء في آنفه ثم دفعه ليخرج مافيه .

(٣) المِرفق : موصل الذراع في العضد ، وكذلك المرفق ، والمَرفق من الأمر ، وهو ما ارتفقت به وانتفعت ، فمن قرأ ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴾ جعله مثل مِقْطع ، ومن قرأ ﴿مَرْفِقا﴾ جعله اسماً مثل مسجد .

(٤) صحيح : أخرجه البخاري (١/ ٥١) مسلم في كتاب الطهارة (٣، ٤) .

(٥) الخطايا : جمع خطيئة وهي تعمّد ارتكاب الإثم أوالذنب و في القرآن الكريم ﴿ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ .

١/٥٣ الماء/ أو مع آخر قطر الماء ، فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من أذنيه مع الماء ، أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كلُّ خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ، أو مع آخر قطر الماء ، حتى يخرجَ نقيًا من الذنوب »(١) .

وورد في الأخبار(٢) أن أصل الوضوء من أجل أكل الشجرة التي أكل أبونا آدمُ عليه السلام .

وأصل الحدث الذي يُوجب الوضوء إنما سببُه الأكل وما تولد من شهوة الأكل ، فبقي الأمر على أصله ، فمتى أحدث الإنسان ، وجب عليه الوضوء ، والطهارة من كل ما تولد في الجوارح من المنهيّات التي تُوجب الحساب والعقاب في عالم الإيمان ، والغيب التي هي الآخرة فهذا مقام الإيمان .

وأما مقام الإحسان والنظر بالعقل الروحاني إلى أوصاف الطاهر الطّيب جل جلاله في حين الوضوء ، فيتذكر حين الوضوء بين يَدْي من يقف فيتطهر للوقوف بين يديه ، ويتَّصف بأوصاف الطاهر النزيه عن الأكل الموجب للحدث الذي كان سبب الوضوء ليصلح للوقوف بين يدي الله نقيًا طاهرًا ، فإن سبب أكل الشجرة إنما كان إبليس اللعين ، فوجب تطهير كل ما سرت فيه تلك الأكلة التي كان سببها إبليس ؛ لأنه قد تولّد من إغوائه(٣) القَذر النجس .

وذكر الله طيب طاهر ، والوقوف بين يديه لا يكون إلا في موضع طاهر ، وبدن طاهر ، وثوب طاهر .

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم في كتاب الطهارة من صحيحه (٣٢) ، والترمذي (٣٢) .

(٢) الخبر : ماينقل ويُتحدث به قولاً وكتابة ، والمقصود به هنا : الأحاديث والآثار الواردة في تفسيرها .

(٣) إغوائه : إمْعانه في الضلال ، وفي القرآن : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ .

وكذلك السواك (١) في الفم إنما هو لهذا المعنى ؛ لزوال القلح (٢) ، وما في معناه ، كي يتنظف لذكر الله ، وكل ما أُمر العبد به من الاستحداد ، وتَقْليم الأظفار ، وغيره ؛ لأن ذلك كله مواطن القَذر ، ومقاعد الشيطان ، فوجب تطهيرها ، وتَنظيفها .

٥٣/ب والدين / مبني على النظافة ، فإذا فهمت هذه المعاني الظاهرة والباطنة تبين لك كيف يكون « **الطهور شطر الإيمان** » إن شاء الله ؛ فإن حقيقة الطهارة الطهارة من الإحداث ، والأوساخ ظاهراً ، ومن المخالفات باطنًا حتى يكون متنزهًا عن ضد الطهارة فيُشابه بعُبَّاد السموات ، والأرض ، وغير ذلك من المخلوقات ، فإنها كلها طاهرة ، مُتَنزهة عن المخالفات ، عابدة بتلك الطهارة لبارئها دائمًا سرمداً (٣) ، ما دام وجودُها باقيًا ، والحمد لله .

---

(١) السواك : عود يتخذ من شجرة «الأراك» ونحوه يستاك به .

(٢) القلح : صُفرة أوخضرة تعلو الأسنان .

(٣) السرمد : الدائم الذي لا ينقطع .

الشُّعبة الخامسة

الصلاة

وهي أكبر شُعب الإسلام بعد الشهادة لله والرسول .

فأما كونُها من شُعَب الإسلام فبيّن في حديث جبريل ، وغيره من الأحاديث ، كيف وقد روى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« **العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر** »[1] . وصفتها ، وما تحتاج إليه من أمورها كل ذلك مكتوب في كتب الفقه ، وأقل ما يجزئ العبد في فعلها ، ما رواه أبو هريرة ، وجماعة من الرواة ، رُوي أن رسولَ الله ﷺ دخل المسجد ، فدخل رجل فصلى ، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد عليه فقال : « **ارجع فصلِّ فإنك لم تُصلِّ** » فصلى ثم جاء ، فسلم ، فرد عليه ، فقال : « **ارجع فصلِّ ، فإنك لم تُصَلِّ** » فصلَّى ثم جاء ، فسلم فرد عليه فقال : « **ارجع فصلِّ فإنَّك لم تُصَلِّ** » فقال : والذي بعثك بالحق ما أُحْسِن غيره ، فعلمني ، فقال : « **إذا قُمت إلى الصلاة فكبِّر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا ، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا ، ثم اسجد حتى تَطْمئن ساجدًا / ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا ، ثم افعل ذلك في صلاتك كُلها** » . ٥٤/أ

وفي بعض الروايات : « **فإذا صنعت ذلك فقد قضيت صلاتك ، وما**

(١) سنن الترمذي (٢٦٢١) ، ابن ماجة (١٠٧٩) .

أنقصْت من ذلك فإنما تُنقصه من صلاتك »[١] .

ومنها فرائض كالصلوات الخمس ، وصلاة الجنائز ، وفي الآثار[٢] أنّ اتِّباع الجنائز من الإيمان فهي شُعبة من الإيمان ؛ أعني اتِّباع الجنائز ؛ لأنها تُذكر بالآخرة ، والوقوف بين يديه ، والجزاء والثواب ، والعقاب ، لكنا اختصرنا ذكرها ؛ لأنها من جملة الصلوات فلم نُفرد لها بابًا[٣] .

ومنها سنن كصلاة العيدين ، والاسْتسْقاء ، والكُسوف والوتر ، وركْعَتي الفجر ، ومنها فضائل كسائر النوافل .

وتأدية الصلاة وإقامة رُكوعها ، وسجودها ، وتلاوتها ظاهرًا إسلام .

فأما رُوح الصلاة ، وفهم مَعَانيها في مقام الإيمان ومقام الإحسان ؛ فإن أولَها بعد التطهير والنظافة الدُّخول على الملك الانتهاض إلى موضع الصلاة ، وهي البُقعة المقدسة من مَسجد مَبني ، وغير مَبني فالمُراد بالانتهاض ، والمَشي انْتهاض القَلب ، والباطن ، وسَيره ، ودُخوله إلى عالم المَلكُوت[٤] ، وخروجه عن عالم الدنيا حتى يدخل إلى مُتعبد الملائكة الذي وجب الإيمان بهم في العالم المقدس الذي ليس فيه ما يشغل عن الصلاة .

ثم القيام إلى الصلاة ، والمراد به قيام القلب إلى أعلى عليين بين يَدَي

---

(١) صحيح : البخاري [١/ ١٩٢] مسلم كتاب الصلاة [٤٥] أبي داود [٣٣] الترمذي [٣٠٣] النسائي [٣/ ٥٩] ابن ماجة [١٠٦٠] .

(٢) الآثار : جمع آثر ، وهو : الخبر المروي والسنة الباقية .

(٣) قوله : إن اتباع من الإيمان فهي شعبة من الإيمان وبهذا الأعتبار تكُ شعبة بها . [هكذا ورد على هامش الأصل .] .

(٤) الملكوت : عَالَم الغيب : أرواح ونفوس وعجائب ، العز والسلطان ، وملكونت الله : سلطانه وعظمته ، والملكوت مِلك لله خاصة .

الله تعالى ، ثمَّ رفع اليدين ، والمُراد به التَّخلي عن [١] جميع الأشياء بالفقر ، والفاقة [٢] إلى الله ، ثم إحضار النية ، والمراد بها التقرب إلى الله بالصلاة ، وإخراج ما في القلب سِوَى مَن أقبل عليه ، وذلك إشراف على مَن توجه إليه ، وغيبة عن غيره .

فإذا / أشرف على المطلوب برفع الحُجب الشاغلة عن القلب وقع له تعظيم المُتجلى له ، وخالطته حُرمته ، واحترامه ، فحينئذ يُحرم بتكبيرة الإحرام ؛ لأنه في موضع الاحترام والحُرمة ، فيحرم عليه النظر إلى غيره ، والاشتغال بسواه فيقول : « الله أكبر »من أن يُقبل على غيره ، أو يَلْتفت له من أجل ما عُرف من جلاله ، وقَدره وعظيم خَطره . ٥٤/ب

فـإذا وقع له جـلالـة القَـدر ، وعظيمُ الخطر أخـذ في الثناء على الله بالفاتحة ، فيقول : ﴿ الحمـدُ لله ﴾[٣] الذي هو على مـا هو عليـه ، ﴿ رب العالمين ﴾ ، أي سيد العالمين ، فتتجلى له صفة السيادة لله التي استعبد بها العالمين على كثرتهم ، ويُثني عليه بصفاته ، ويُناجيه بكلامه ، فيفهم من كلامه ومُحادثته مع الله بفاتحة الكتاب ، والسورة ، ما يوجب له الخضوع بين يديه .

فيركع لزيادة التعظيم ، بشهادة أوصاف المتكلم معه فيقول : الله أكبر منحطًا للركوعَ ، أي أكبر مما وقع في نفسي من تعظيمه ، والمراد من ركوع الجسد خضوع النفس والروح في مقام الإيمان ، والإحسان باطنًا بين يدي كبرياء[٤] الجليل العظيم ، ولذلك أمران ، يقول في رُكوعه : سبحان ربي

---

(١) في الأصل « من» .

(٢) الفاقة : الحاجة الشديدة .

(٣) سورة الفاتحة الآية (٢) .

(٤) الكبرياء : العظمة والتجبر .

العظيم ، لَمَّا شاهد من معنى التعظيم الذي خضع له ، فيرفعه الله تعالى بكرمه إلى حالته الأولى التي هرب منها إلى الركوع ؛ لأن مَن تواضع لله ؛ أي لأجل عظمة الله ، رفعه اللهُ إليه .

فإذا رفعه الله إليه شاهد العبد نعمة الله عليه في وقوعه ، فيبتدئ بالحمد والثناء ، فيقول : سمع اللهُ لمن حمدَه ، ربَّنا ولك الحمدُ حمداً كثيراً طيّباً مُباركاً ، فيجد في وُقوفه وطمأنينته حلاوة المزيد ، والنعمة التي رفعه اللهُ بها ، وهي استدعاؤه إلى القيام .

١/٥٥ فخر ساجداً شكُراً / لما أولاه فيضع وجهَه على الأرض ظاهراً ، ونفسه ورُوحه تحت الثرى[١] الذي ليس وراءه في السُّفل مُنتهى إلا نُفوس العارفين ، والأولياء ؛ لأنهم لما هو عليه من الأسماء الحُسنى ، والصفات العلى شهداء ، فيضع نفسه تحت كل تحت ، ولذلك ليس وراء السُّجود منتهى في التواضع[٢] ، والتكبير فيستصحب له ، ومَعناه ؛ أيْ الله أكبر مما شاهدت ، ووقع في نفسي من تعظيمه ، وأعلى فإذا وضع في السُّجود نفسه أسفل من كل سفل بالمعنى الذي هو الذُّل ، شاهد من سُفله علاء ربه فقال : سُبحان ربي الأعلى ، فاستدعاه ربه للرُّفوع ، والقُرب من البعد ، والمنزل الذي أنزل نفسه في سجوده ، ومَعنى التَّسبيح في الركوع ، والسُّجود ، تَنْزيه المَرْكوع له ، والمسجود له من حالة الركوع ، والسُّجود ؛ أي سُبحان مَن هو بخلاف حالة الركوع والسُّجود فلما استدعاه للرفع قعد بالعجز[٣] بين يديه ؛ لأنه لم يُطق القيام لما شاهد في السُّجود من الإجلال ، والإعظام ، فقعد بين يديه ، بالسكينة والعَجز ، وأقر بالعَجز له أن يقوم بشيء من حق قَدر ربِّه ،

(١) الثرى : التراب الندي .

(٢) تواضع : تنزه عن الكبر .

(٣) العجز : الضعف وعدم القدرة .

ولذلك أمر أن يقول في قعوده بين السجدتين رب اغْفر ، وارْحم ، وتجاوز عمّا تعلم وأنت الأعز الأكرم .

فيجد رحمة الله قد غشيته ، والمَغْفرة قد غمرته [(١)] ؛ لأنه تجلى له بوصف زائد على الوصف الأول من أجل أن الرحمة مقرونة بالضعف[(٢)] ، ومُسرعة إلى الاستكانة [(٣)] فزاد سُجودًا آخر بحكم وصف آخر فعاد بالتواضع الذي هو المراد من السجود حتى لو وجد أن يضع نفسَه في أسفل مما وضعها فيه لوضعها ، وقد وجد الله مع كل رفع وخَفض ؛ فإن الواجب على كل عبد أن يخضَعَ بنفسه من التواضع في خلاف ما هو الله عليه من / ٥٥/ب الجلال والعظَمة ، وذاك لا يُمكن أبدًا إلا مع التجلي وزيادة التعظيم ، فكلما زاد تجلي الصِّفات زاد التواضع بقدر ذلك أبدًا .

وكذلك لما زاد الإكرام زاد الشُّكر والثناءُ ، والتجلي دائمًا أبد الآبدين .

وكذلك التواضع دائم أبد الآبدين ، والشُّكر والثناء ، وجميع ما يليق بتجلي أوصاف البارئ ، والحمد لله على ما هو عليه .

ثم يدعوه ربُّه إلى الاقتراب منه ، وهو معنى القيام إلى الركعة الثانية ، فيجري له ما جرى له في الأول ، لكن بحكم الزيادة ؛ لأن الصلاة إنما هي ركعة واحدة ، فيها تمت معاني الصلاة ، وغير ذلك من الركعات تكرير .

فلا يزال ذلك دأبه [(٤)] مع مولاه مِن فهم خِطابه وشُهود أوصافه فِي

---

(١) غمرته : علته وسترته .

(٢) الضعف : ذهاب القوة .

(٣) الاستكانة : الخضوع والذل .

(٤) دأبه : جده في العمل .

قيامه وانحطاطه ، ورفوعه وأذكاره ، وسُجوده ، وجُلوسه إلى آخر صلاته حتى يمتلئ ظاهره ، وباطنه نُوراً ، وبركة ، ورحمة وسُروراً ، وتواضعًا ، وحياءً ، وغير ذلك مما لا يُحصى من أحوال المُصلِّين العارفين ، الخاشعين .

فعند ذلك يقعد في آخر صلاته ، فيأخذ في التشهد ، والشهادة لله بما هو له أهل ، والثناء كما يحب ، ويُفرد التحية والمُلك له ، والتزكية والتنزيه ، والمدح لبارئه بقول : التحيات لله الزَّاكيات لله الطيبات لله ، ويفرد العبودية له بقوله : الصلوات لله ، ويُسلِّم على أكرم الوسائط الذي هداه الله به إلى ما هو فيه : «محمد» عليه السلام، ثم يُقرّ[١] بكل ما جاء به من عند الله ، ويصلِّي عليه ، فإذا فرغ من الإقرار ، والشهادة بكل ما جاء به محمد عليه السلام من الإيمان من الغيوب والدعاء ، والسواك .

فعند ذلك تمت له النعم بتمام الصلاة ، وكمالها ، ووجب التحلل منها
٥٦/أ بتمامها فأُمر بالخروج إلى عالم الحس ، والمُلك ، فعند / ذلك قال : السلام عليكم ؛ لأنه كان في الحضرة العلية ، خارجًا عن عالم الحس ، مُودِّعًا له ، كما قال مُحمدٌ عليه السلام : « صلِّ صلاة مودِّع » [٢] ؛ لأنه خارج عن هذا العالم إلى الحضرة العلية ، فإذا قدم على هذا العالم ، وشاهد مَن حَوله من الأملاك ، والإنس ، قال : السلام عليكم ، فسلم على مَن على يمينه ، وشماله ، وحُل له ما حُرِّم عليه قبل ذلك ؛ ولذلك قال عليه السلام : «تحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم »[٣] فمن صحَّت له مثلُ هذه الصلاة وجبت له الكرامة عليها ، ومَن اعترضه الوَسْوَاس [٤] فليُجاهد ؛ يُكْتَبُ له أجرُ

---

(١) يُقَر : يعترف ويثبت . (٢) راجع مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/ ٢٩٩) .

(٣) مجمع الزوائد للهيثمي (٢/ ١٠٤) عن ابن عباس قال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه نافع مولى يوسف السلمي وهو أبو هرمز ، ضعيف ذاهب الحديث .

(٤) الوسواس : الشيطان عليه لعنة الله .

المجاهد إذا فاتته معية الإحسان ، ومن اقتطعته الغَفَلات أمثالنا ، وعدم النصيب الأوفر ، ومُشاهدة المذكور الأكبر كُتب له ما عقل .

وذلك فضل عظيم من الله ؛ لأن صلاتَه كانت في مُوجب الأدب أسرع إلى العقوبة منها أن يُكتب له ما عقل ؛ إذ لا يدري بين يدَي مَن هو ، حتى يُعْرِضَ إلى غيره بقلبه ، وهو واقف راكع ساجد بجسده ، فعليه أن يُكثر التنفلَ [1] ليجبر ذلكَ النقص ؛ فإنه مُطالبٌ به كما ورد « **إن النوافلَ جبرُ الفرائض** » ؛ لأنه لم يُؤدِّها على الوجه الذي يجب ، والمعنى الذي أُمر به ولم يُكلف الله الخلق من العبادة إلا ما يُطيقون ، لكن شُغلهم بغير ذَكر الله حرمهم ، واقتطعهم عما افترض عليهم ، ونسأل الله الكريمَ أن يتغمدَنا [2] برحمته ، ويتجاوز عن ذُنوبنا ، وتقصيرنا برحمته فلو لم تكن لنا ذُنوب إلا التقصير في أداء الفرائض لكان كافيًا ، فهذا هو روح الصلاة من حيث المعنى .

وقد انتظم فيما تقدم من الكلام المقامات الثلاثة من الإسلام ، والإيمان والإحسان ، فافهم .

٥٦/ب وأما فهمُ الصلاة من جهة تركيبها / وتفاصيل أعضائها ، وهَيئاتها فإنها على صورة عبادة العالم الكُلِّي وعلى هيئة صلاة العابدين فيه .

فالقيام إلى الصلاة ليكون مع الذين يعرجون [3] إلى الله ﴿ **تعرُجُ الملائكَةُ والرُّوحُ إليه** ﴾[4] والوقوف ليكون مع القائمين المُشاهدين ، والذِّكر ليكون مع الذاكرين ، والهُبوط ليكون مع المُنتزلين ، والركوع ليكون مع الراكعين

(١) التنفل : أن يكثر من العبادة زيادة على ما فرض عليه .

(٢) يتغمدنا : يستر ما كان منا ويغمرنا بالرحمة .

(٣) يعرجون : يرتفعون ويعلون .

(٤) سورة المعارج الآية (٤) .

الخاضعين ، والرفوع ليكون مع الصاغرين ، والسجود ليكون مع الساجدين ، والفكر ، والجَوَلان بالفهم والعقل ليكون مع السابحين السائحين الدائرين ، والحضور ليكون مع الحاضرين الروحانيين .

ووجود الراحة ، والنعيم بها ليكون مع الملائكة المقربين المشتاقين المحبين ، والخشوع ليكون مع الخائفين والكَروبين .

والمجاهدة بالأذكار ليكونَ راجمًا للشياطين كالفلكين ، وإلقاء السمع مع المراقبين ، وزَهو[1] المعاني في دعاء الفهم لتكون مع الحافظين الكاتبين ومع هذا كله فلا يَقوم بشيء من حق الله عز وجل لعظيم ما هو عليه من جلال القدر ، وعظم الخطر ، لكن يجد الراحة في شهود المنة ؛ إذ هو ربُّه على ما هو عليه من أوصافه ، ومع ذلك استدعاه إلى أن يكَون من عباده المؤمنين ، فيستْشعر في نفسه ذلك ، ويَقول : كيف ذكرني هذا الملك العظيم في نفسه حتى ينزل من جلال كبريائه إلى صفات حنانه[2] ورحمته حتى كلمَني بكلامه واستدعاني لأنْ أكَون من جُملة المُصلِّين من عباده ، فينويَ ، ويتمنى ، ويَوَد في نفسه أن لو تقرب إليه بعبادة الخلق أجمعين ، على غاية الصفاء لو قدر على ذلك فبهذا نفهم قوله : « **نيةُ المؤمن خير من عمله** »[3] .

١/٥٧ ثم يشهد / عجزه وتقصيره عن ذلك فيرجع إلى رؤية التقصير والاستغفار من قلة القيام ببعض الواجب ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يستغفر بعد كل صلاة مرات ، ورد ذلك في الصحيح ، فيتوب من الحسنات كما يتوب العاصي من السيئات ؛ لأن « حسنات الأبرار[4] سيئات

---

(١) الزهو : التفاخر .

(٢) الحنان : الرحمة ، ويقال : حنانيك : رحمة منك موصولة برحمة .

(٣) الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢٢٨) ، تاريخ بغداد (٩/ ٢٣٧) ، أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥٥) .

(٤) الأبرار : المطيعين .

المقربين»[١] ولذلك تقول الملائكة يوم القيامة : « سُبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك » على صفاء عبادتها من شَوب الكروبات .

وهذا المعنى الذي تقوله الملائكة هو الذي قاله النبيُّ عليه السلام في قوله : « لا يَدخل أحدٌ منكم الجنةَ بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنِي اللهُ برحمةٍ منه وفضل »[٢] مع اجتهاده ، وصفاء أحواله .

وليس معناه أن العملَ ليس ينفع ؛ فيكون قوله محرّضًا على ترك العمل ، بل قوله هذا مُرَغِّب في الاجتهاد لجميع ما يُقرب إلى الله تعالى ، فنبّه عليه السلام على عظيم حق الله تعالى الموجب لرؤية التقصير .

فالعبَادات كُلها لها وَجهان ، تَنْظر منهما مرة بنَظر من مَقَام العُبودية ، ومُشاهدة الرّبوبية وهو من هَذا الوجه الّذي ذَكرناه ، فَتَعرف مقدار المَعبود ، ومَا تقع عبادتك في حَقّه وجَلاله ، وقدره ، فَتكون عبادة الخَلَق أجْمعين في ذلك تَبْقَى أقل من غرز إبرة في بَحر لُجيّ ، فيُولدَ هَذا النَّظر الإجْهاد ، والانْكسار ، والخُضوع ، وَالذِّلة ، والفَقر إلى اللّه ، وجميع صفات العُبوديَة الحُسنى التي سَاعة وَاحدة منها خَير من عبادة ستين سنةً ، ومَرّة ينظر من مَقَام المنّة[٣] ، وكيْف ذكر المَلكَ الأكبر الذي اَستَعبَد العرش بما حَوى / ٥٧/ب في نَفسه لَهذا العَبد الذي لا يَدَري مَن هُو في كَثرة عباد اللّه ، ومَمَاليكه ، وكيْف ارتَّضاه للإيمان بهِ ، واستَدعاه لعِبادته ، ومناجَاته وللقُرب منه حتى

(١) قال الحافظ السخاوي : هو من كلام أبي سعيد الخرّاز ، رواه ابن عساكر في ترجمته ، المقاصد الحسنة (٤٠٤) .

(٢) **صحيح** : أخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين ، (ب ١٧ رقم ٧٧) فتح الباري (٢٩٥/١١) .

(٣) المنة : النعمة .

يَجعله من جُلسائه ، كَمَا قَال : « أَنَا جَلِيس مَن ذكرني » فيتولد من هذا النَّظر أيضًا أَحْوال كريمة ، لا يَعلم حَقيقتها إلا العَارفون مثل الحَياء الكائن عَنْ الحضور والسكر الحَادث عن رُؤية المنّة ، والمحبة المتولدة عن إحْسان اللّه ، إلى غَير ذَلك مما شرحه اللّه في قلوبَ المُختصين بهذا المَقام وهو مَعنى قول اَللّه تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَر ﴾[1] أي ذكر اللّه للعَبد في نَفسه أكبر من كُل ما يتقرب به إليْه ، فَعلى هَذين[2] الوجَهين من النَّظر دَرج العَارفون في عُلومهم، وَأعْمَالهم ، وبهما تَزكو الأعْمال عند اللّه ، نسأل الله الكريم أنْ يَمنّ علينَا بما مَنّ عليْهم فِي الدُّنيا والآخرة ، إنَّه وَلي ذَلك والقادر عليْه .

واعلمْ أن الوجود كُله بأجزائه مُصلٍّ للّه بدَوام وجُود الوجُود ، لا يَنفك عنْ الصَّلاة ، فإنَّه في مَقَام العُبودية للّه، فَمَن أدام النَّظر رأى الوُجود كُله، ظَاهرًا، وبَاطنًا مُصليًا .

ومنْ تَرك الصَّلاة فقد خَالف الخَليقة[3] كُلها ، ولذلك يُحشر مَع فرعون، وهَامَان ، كَما ورد في بعض الأخْبار أنَّ تَارك الصَّلاة يُحشر مع فَرعون ، وهَامَان؛ لأنَّه تأبَى من العُبودية والتَّواضع للّه ، كما فعل فرعون فَافهم؛ فإن الَّذي لا يخضع لأحَد هُو اللّه وحده، فَمَن صلى بجَسده، وفَعل أرْكَان الصَّلوات كما أُمر ظاهرًا، وأنزل نَفسه مَع كُل رُكن منهَا ، ومعنى من مَعَانيها البَاطنة ، وفهم رُوحه وعَقْله تلك المعاني، وشَهد المراد بكل رُكَن منها ، ومَعنى من مَعَانيها/ فقد صَلى بجسده وفعل أرْكان الصَّلوات كما أُمر ٥٨/أ
بَظاهره وبَاطنه وجُملته في عَالم الحس ، ومَقام الإسْلام ، وفي عَالم الغَيب، ومَقام الإيمَان ، وفي غَيْب الغَيب ، ومَقَام الإحْسَان، ووجَد طَعم

(١) سورة العنكبوت [الآية : ٤٥] .

(٢) في الأصل « هذا » وهو خطأ .

(٣) الخليقة : كل المخلوقات ، والطبيعة التي يخلق المرء منها .

المَعَاني الثَّلاث .

مَنَّ اللَّه علَيْنَا وعليْكم بالكَمَال فِي كُل شَيء ، آمين ، بِمنِّه ورَحمته ، وصَلى اللَّه على محمد وآله[١] .

(١) بلغ : كذا على حاشية .

الشّعبة السّادسة

الزّكاة

فأمّا كَونها من شُعب الإيمَان فَمذكور فِي حَديث جِبريل ، وهِي عَلى نَوعين : فَريضة ، ونَافلة .

فأمَّا الفَريضة : فَأربعة أنْواع ؛ زَكاة العَين ، وزكَاة المَاشية ، وزكاة الحَرث ، وزكَاة الفطر ، فَرضَها رسُول اللَّه ﷺ - أعني زكَاة الفطر - .

وأمَّا النَّافلة : فَعامة فِي كُل شَيء مِن وُجُوه البرِّ .

فأمّا زكاة العَين فَهو الذهب ، والفضة ، ومَا اتُّخذ منهما من الحلية ، إلا مَا كان منها للقُنْيَة[١] الجَائزة ، ومَا لا يَجوز اقتناؤه ففيه الزَّكاة إذَا كَانَ ذَلك كُله نصابًا ، فما فَوقه ، وحَال عَليْه حول عنْد المَالك له ، وكَان مُلكه له صحيحًا .

فأمّا نصاب[٢] الذَّهب فعشْرون ديناراً كبَاراً ، ومَفْروض الزَّكاة فيها نصف دينَار ، أو قيمته من الورَق[٣] ، ومَا زاد فَبحساب ذَلك .

وأمَّا نصَاب الفضة فَخَمس أواق ، والأُوقية[٤] : أربْعون درهمًا ،

---

(١) للقُنية : أي للتربية فهو مُقتنى ، والقنيُّ : هو المقتنى من الإبل والبقر والغنم لولد أو لبن .

(٢) النِّصاب : القدر الذي عنده تجب الزكاة .

(٣) الورَق : الفضة وفي القرآن الكريم ﴿ فابْعَثُوا أحَدَكُمْ بورقكم هذه ﴾ .

(٤) الأوقية : جزء من اثنى عشر جزء من الرطل المصري .

ومَفْروض الزَّكاة فيها خَمسة دَراهم منها ، أو قيمتها من الذَّهب ، ومَا زَاد على الخَمس أواق فبحساب ذلك .

وكَذلك مَعدن الفضة ، والذَّهب يَجري هَذا المجرى إذَا بَلغ النِّصاب فما فَوقَهُ ، لَيس فيه إلاَ الزَّكاة ، ولا ينتظر به الحَول(1) ، ولَا يَسقط زكاته الدَّين كَزكاة العَين .

٥٨/ب وَجميع مَا ذكرنا / في زكاة العَين مذكورٌ فيما رواه علي بن أبي طالب عن النَّبي ﷺ .

ورُوي عَنْه عليْه السَّلام أنَّه قَال : « **إذَا كَانت لك مائتَا درْهمٍ، وحَال عليْها الحَول ففيها خمسة دَراهم ، وليس عليك شَيء في الذَّهب حتى يكون لك عشْرون دينارًا ، ويَحول عليْها الحَول ، فَفيها نصف دينار ، ومَا زَاد فَبحساب ذَلك** »(2) .

وقال : قال رَسول اللَّه ﷺ : « **قَد عَفوت عنْ الخَيل والرَّقيق**»(3) وذكر باقي الحديث .

فصل

وَأمَّا زكَاة المَاشية فَتجب في أرْبعة أنْواع ، وهي التّي ذَكرها اللَّه في سُورة الأنْعام ، وهي : الغَنم ، والمَعز ، والإبْل ، والبَقر .

فأمَّا الغنم والمعز فَصنف واحد في الزَّكاة ؛ إذَا بَلغت أرْبعين بصغارها ، وكبَارها فَمفروض الزَّكاة فيها شَاة وَاحدة حتى تَبلغ مائة وعشرين شَاة لَيْس فيهَا إلا شَاة ، فإن زَادت عَلى المائة وعشرين واحدة فزكاتها شَاتان حتَّى تبلغ مَائتي شَاة ، لَيْسَ فيها إلا شَاتَان ، فَإنَ زَادت وَاحدة على المائتين ففيها ثلاث

(1) الحول : السنة .

(2) أبو داود (١٥٧٣) .

(3) أبو داود (١٥٧٤) ، الترمذي (٦٢٠) ، النسائي (٥/ ٣٧) .

شياه إلى ثَلاثمائة ، وما زاد على ذَلك ففي كُل مائة شَاةٌ، ومَا لَمْ تَبلغ مائة فَليس فيه شَيء حَتَّى تكمل المائة .

وَأَمَّا البَقر فإذا بَلغت ثَلاثين بصغَارها ، وكبَارها فَمفروض الزَّكاة فيها تَبيعٌ[1] وهُو ابن سَنتين حتى تَبلغ تَسعًا وثلاثين ، ليس فيها غير ذلك ، فإذا زَادت واحدة ، وكملت أربعين ففيها بَقرة مُسنة ، وهي بنت أربْع سنين إلَى أن تَبلغ تسعًا وخَمسين ، ليس فيها غير ذلك ، فإذا زَادت واحدًا ، وكَمل منها ستون فَمفروض الزَّكاة فيها تَبيعان حتى تَبلغ تَسعًا وستين لَيْس فيها غير ذَلك ، فإذا زَادت وَاحدة ، وكَمل منها سَبعون فَفيها بَقرة مُسِّنَةٌ وتبيعًا حتى / ٥٩/أ
تبلغ تسعًا وسَبعين ، لَيْس فيها غَير ذَلك ، فإذا زادت وَاحدًا ، وكمل منها ثَمانُون ففيها بَقَرتان مُسنتان، وهكذا اعتْبارها أَبدًا في كُلِّ ثلاثين تبيع ، وَفي كُل أربعين بَقرة مُسنّة .

وأمَّا زكاة الإبل فمن كان عنده خمس من الإبل ، فمروض زكاتها شَاة وَاحدة من الغنم إلى تسع ، لَيْس فيها غَير ذلك ، فإذَا كَمل منها عشر فَفيها شَاتان إلَى أربع عشْرة لَيْس فيها غير ذَلك ، فإذا كَملَ فيها عشرون فَفيها أَرْبع شياه ، لَيْس فيها غير ذلك إلى أربع وعشْرين ، ليس فَيها غير ذلك ، وتَدريجها إلى هذا الحَدّ خمس ، خَمس، خَمس مرات ، فإذا كانت خمسًا وعشرين أُخذ من الإبل نفسها ومفروضها بنْت مَخاض أنْثى ، وهي التي أمهَا حامل بغيرها إن وُجدت ، وإن لمْ تُوجد أَخذ ابن لَبونً ذكر ، وهُو الذي أمه ترضع غَيره إلى خَمس وثَلاثين ، ليس فيها غير ذلك ، فإذا زَادت واحدة ففيها بنْت لَبون[2] أنثى ، وهي بنت سنتين إلى خَمس وأربعين لَيْسَ فيها غير ذلك .

(١) التبيع : ولد الماشية .

(٢) بنت لبون : هي ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة .

فَإذَا زَادت وَاحدة فَفيها حُقّةٌ(١) وهي بنْت ثَلاث سنين ، وتَدريجها إلى هَذا الحَد عَشرة عَشرة مَرتين لَيْس فِيها غَير ذَلك حتى تَبلغ ستين .

فإذا زادت واحدة ففيها جذعة - وهي بنت أربع سنين - إلى خمس وسبعين ليس فيها غير ذلك .

فإذا زادت واحدة ففيها ابنتا لبون إلى تسعين ، ليس فيها غير ذلك ، فإذا زادت واحدة ففيها حقتان ، وتدريجها إلى هذا الحد خمس عشرة ، خمس عشرة خمس عشرة ، ثلاث مرات إلى عشرين ومائة ، ليس غير ذلك ، وتدريجها إلى هذا الحد ثلاثين .

٥٩/ب فإذا زَادت وَاحدة ففيها ثَلاث بَنَات لَبون في كُل أَرْبعين/ بنت لَبون ، وقيل حُقتان ، والأُولى أَقْيس إِلى تسع وعِشرين ، ليس فِيها غير ذلك .

فإذا زَادت واحدة فيكون فيها حُقة في الخمسين منها وابْنَتَا لَبون في الثَّمَانينَ ، وهكذا اعْتِبَارها بَعد هَذا الحد فِي كُل أَرْبعين بِنْت لَبون ، وفِي كُلّ خَمسين حُقة .

فصل

وَأَمَّا زَكاة الحرث فعلى نَوعين زَكاة الحَبِّ ، وزكاة الثِّمَار ، فَالثمار ثَلاثة أنواع : تَمر ، وزَبيب ، وزيتون ، واخْتلف فِي التِّين ، هذه كُلها أصناف مُختلِفة ، لا يُضم بَعضها إِلى بَعض .

وأَمَّا الحبُوب فعلى ثلاثة أضرب ، ضربٌ منها يُضم بَعضه إلى بعض ، فَيكون صنفًا واحدًا ، وهو القمح ، والشَّعير ، والسُّلْت(٢) .

(١) الحقة : من الإبل : من دخل في السنة الرابعة وأمكن ركوبه والحمل عليه .

(٢) السلت : ضرب من الشعير ليس له قشر كأنه الحنطة .

وضرب منها لا يُضم بعضه إلى بعض وهو مَا عدا القَمح ، والشعير ، والسُّلت من الحبُوب المَأكولة مثل الدُّخن [١] ، والذُّرة ، ومَا أشبه ذلك ، لا يُضم شيءَ منْ ذلك إلى بَعض .

والضرب الثَّالث : القَطابي [٢] مثل الحُمص ، والبَاقلاء ، والعَدس ، والتِّرمس ، وما أشبه ذلك من القطابي هَذا كُله نوعٌ واحد؛ أعْني القطابي يُضم بَعضها إلى بعض في الزَّكاة ، وتعتبر كلها بسُقْيها ، فمَا يُسقى منها بغير مَشقة من السَّماء ، والأنْهار ، والعُيون ففيه العُشْر ، إذا بلغ نصابًا .

وما يُسقى بتَعب مثل السَّواقي ، وغَير ذلك فَفيه نصف العشر .

والنِّصاب في زكاة الحَرث خَمسة أوْسق [٣] ، والوَسق ستون صَاعًا بصَاع النَّبي عليْه السلام ، والصَّاع أربعة أمداد ، والمُد رطل وثُلث ، والرَّطل اثنا عشر أُوقية ، ولا يُنتظر بزكاة الحول ، بَل تُؤدى وقْت أخذ الحُبوب لقول اللَّه تَعالى :

﴿ وءَاتوا حَقَّهُ يومَ حَصَادِه ﴾ [٤] .

وَالنَّوع الرَّابِع من الزَّكاة المَفروضة/ زكاة الفطر وهي عَلَى كُل مَنْ فَضَل ٦٠/أ
لَه قُوت [٥] يوم الفطر مقدار صَاع إنْ كَان وَحده ، أو فَضَلَ لَهُ على عَدد مَنْ يَلْزمه إخْراجها عَنه صَاع ، صاعٌ بالصاع المَدَني ، الذي ذكرناه في الزَّكاة ،

(١) الدخن : نبات عشبي من النجيليات حبه صغير أملس كحب السمسم ، ينبت بريًا ومزروعًا .

(٢) القطابي : هي قطب الرحى وهي الحديدة التي في الطبق الأسفل من الرحيين يدور عليها الطبق الأعلى ، والمراد أنها الأصناف التي تدور عليها الزكاة .

(٣) أوسق : جمع وسق ، والوسق : ستون صاعًا ، والصاع : خمسة أرطال وثلث ، وأيضًا : حمل البعير ، أو العربة ، أو السفينة .

(٤) سورة الأنعام : [الآية : ١٤١] .

(٥) قوت : القوت : ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام .

فهذه جُملة الزَّكاة المَفروضة وفُروعها مُسْتَقصَاة في كُتب الفقه .

ويَلحق بهذا البَاب الخُمْسُ(١) ، وهو من شُعب الإسْلام في الحديث الصَّحيح الَّذي رواه ابن عَباس في قصة وَلد ابن عَبد القَيس فقال لهم : «هَل تَدرون مَا الإيمَان باللَّه ؟ شَهادة أنْ لا إله إلا اللَّهُ ، وأنَّ مُحمدًا رسول اللَّه، وإقَام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، وصَوم رَمَضان ، وأنْ تُؤدوا خُمس مَا غَنمتم »(٢) ، وذكر الحَديث إلى آخره .

فَجَعَله من سهَام الإسْلام ، فهو شُعبة من شُعب الإيمَان بنص الحَديث ، ولم نُفرد لَه بَابًا ؛ لأنَّ الكلام على الزَّكاة يُغني عنه ؛ إذ هُوَ مما يَليق ببابها .

والخُمس على نَوعين : خُمس المَغنم ، وخُمس الرِّكاز(٣) ، وهُو مُلتحق بخُمس المَغنم؛ لأنَّه من دَفن الجَاهلية .

وأداء الخمس من المَغْنم والرِّكاز فَرض واجب ، ولَيْس بنَفل ، وقد ورد من الوَعيد في الغَلول ، كما ورد في الزَّكاة إذَا منعت ، أو أشد ؛ إلا أنَّ مَواضع الخُمس ، ومَواضع الزَّكاة التي توضع فيها تَخْتلف ؛ فَمَواضع الزَّكاة في الأصْنَاف التي ذكر اللَّه تعالى في بَراءة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾(٤) إلى آخر الآية .

ومَواضع الخمس في قوله :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾(٥) إلى آخر الآية .

---

(١) قوله : ويلحق ذكره بهذا الاعتبار يكون [......] الخمس شعبة ثامنة ، كذا وجد تعليقًا على هامش النص ، ومكان النقط كلمة غير واضحة .

(٢) صحيح : مسلم « كتاب الإيمان » (٣٤) ، فتح الباري (١/ ١٨٣) .

(٣) الركاز : بالكسر دفين أهل الجاهلية كأنه وكز في الأرض .

(٤) سورة التوبة : [الآية : ٦٠] . (٥) سورة الأنفال : [الآية : ٤١] .

فهذا وَجْه التَّعبد بهذه الشُّعبة في مَقام الإِسْلام لأنَّ كُل مَا تَقدم إِسْلام .

فأمَّا سر الحكمة الَّتي ظهرت للنَّاظرين في مَعَاني الزَّكاة ، واسْتعباد عباده بهـا فَعلى وُجوه منهـا أنَّ اللَّه / جَعل الزَّكاة طُهرًا للأموال والأبْدان ٦٠/ب
وَتَزْكية وتنزيهًا للنفوس والأرْواح ، وصِفَات الإحسْان فِي مَقَام الإِسْلام، والإِيمَان ، والإحسان .

فأمَّا كونها طَهُوراً للأموال فقد ورد في الصحيح عن ابن عمر : «مَن كَنَزَها فَلم يُؤدِ زَكاتَها فَويلٌ لَهُ »[١] إنَّمَا كَان هذا قبل أن تنزل الزَّكاة ، فلما نزلت جعلها الله طُهرًا للأموال .

والتَّطهر إنما يكون من النَّجاسة[٢] ، والخَبث .

وقد ورد في الصحيح أيْضًا أنها «أوْساخ النَّاس» . وذلك أن اللَّه خَلق الخَلق بحكمته ، وأفقر بَعْضهم لبعض ، وجَعل منهم الأغْنياء ، والفُقراء ، وذَوي الحَاجات المُختلفة ليَستَقيم إيجَاد الخَليقة ؛ فَلو خَلقهم كُلهم أغنياء لَبطُل الوجُود ، وكذلك لو خَلقهم فُقَراء كُلهم ، كما قال :

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سخْرِيًا ﴾[٣] .

فجعل للفُقراء ، وذوي الحَاجَات حُقُوقًا في أموال الأغْنياء ، هي مَفْرُوضة لهم لَيْس لأصْحاب الأموال فيها شَيء ، ولو كانت لهم لما وَقَع الوَعيد على مَنْ منعها به على مَنْ لَم يُصلِّ لله تَعالى في قوله :

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ

---

(١) صحيح : فتح الباري بشرح صحيح البخاري كتاب الزكاة (٣/ ٣١٨) حديث رقم (١٤٠٤) باب : ما أدى زكاته تلبس بكنز .

(٢) النجاسة : القذارة ، أشياء تمتنع الصلاة معها كالبول ، والدم ، والخمر .

(٣) سورة الزخرف : [الآية : ٣٢] .

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾[١] وهي الزَّكاة .

فالزَّكاة المفروضة لأهلها هي حق لهم على الأغنياء كما أن الصَّلاة مفروضة للَّه تَعَالى هي حق للَّه على عباده .

وكذلك تجدها حَيث جاءت في كتاب اللَّه مَقْرونة مع الصَّلاة : ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وءَاتُوا الزَّكَاةَ ﴾[٢] .

تَقْدير الكَلام : أقيموا الصَّلاة لِي ، وآتُوا الزَّكاة للفُقَراء ، وأهل الحَاجة إليْها .

وكفى بهَذا شَرَفًا ، وفَخرًا للفُقراء حيث قَرَنَ حقهم بحقه ، فَلهم في الأمْوال حقٌّ فَرضه اللَّه ؛ لأن المال مال اللَّه ، والخلق خلق اللَّه ، يعطي مَنْ
٦١/أ يشاء المقدار الذي يشاء فهذا المقدار الَّذي هُو حقوق / الغَير ، قد علم اللَّه بلَطيف علمه ، وخفي نَظره أن رُبع العُشَر من الوَرق[٣] والذهب ، والعُشر ، ونَصف العُشر منَ الطَّعام ، وربع العُشر من أربَعْين شَاة ، وغير ذَلك من نصَاب الزَّكاة أنهاَ قَائمة بأهل الحَاجة الَّذين فُرض لهم ذلك ، ويبقى النِّصاب بأيدي مَالكيه إلى وقت حاجة أخرى وعلم سُبحانه أنَّ المال لا يَطهر ، ويطيب لمَالكه حتى يخرج ذلكً القدر ، فَمُمْسك الزَّكاة إنَّمَا يَأكل أوساخ الفُقَراء ، بل دمَاءهم ، وكذلك آخذها بغَير حَقِّهاَ ، وواضعهَا في غَير حَقها ؛ لأنَّه أكل حُقوقَ الغير ، وهُم مُحتاجونَ إلى حُقوقهم .

وكذلك رآهم رسول اللَّه ﷺ لَيْلة الإسراء حيث قال : «رأَيتُ أَقْوامًا على أَقْبالهم رِقاع ، وعَلى أَدْبَارهم رِقاع، وَهُم يسرحون إلى الضَّريع ، والزَّقوم

---

(١) سورة الماعون : [الآية : ٤، ٥، ٦] .

(٢) سورة البقرة : [الآية : ٤٣] .

(٣) في الأصل : « العرقة » .

فقلت: مَنْ هَؤلاء يَا جبْريل ؟ قَال: هَؤلاء الَّذين لا يُؤدون صَدقات أَمْوالهم »[١] .

وأداء الزَّكاة أقَل درَجات الطَّهارة في الأموال .

فأمّا كَونها أيْضًا طهارة الأبْدان، والنُّفوس ، والأرواح فإن اللّه تعالى يَقول : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾[٢] .

وفي الصحيح : « عَلَى كُل سِلامى مِنَ النَّاس صَدقة »[٣] .

وأوجب تلك الصَّدَقَات المَفْروضة ، فَمَتى لم تُؤدَّ[٤] المفروضة لم تَطهر الأعْضاء بالنَّوَافل من الصَّدقات المذكورة في الحديث .

ولذَلك يُبطح مَانع الزَّكاة من المَاشية يوم القيامة للماشية ، فَتَمشي عَلَيْه بقَوائمها ، وتَنْطحه بقُرونها ؛ لأنَّ أعضاء مَاشيةَ جسده التي يتصرف بها في المَال ، كما أُمر ، ويُوصل الحقوق بها إلى أرْبَابها ، لم تَنْبسط لإعْطائها إلى أهلها ، بل تقبضت عنْ ذلك ، وانْضَمتَ بعضها إلى بَعض بالبُخل[٥] الشَّدَيد الَّذي لا بُخل أكْبر منه ؛ لأنَّ مَنع الزَّكاة أعْظم دَرَجات / البُخل ، وأدَاؤها ٦١/ب
أقَلَ دَرجَات السَّخاء[٦] ، والجُود الَّذي هُو البَسط في الأيدي ، والأعْضاء فلم يَجد في المَال حَركة ، ولا مَوضَعًا يَنْبسط فيه بالمَشي لأنَّ الحَركات ، والسَّكنات في الآخرة إنَّمَا هي على معنى الدِّيَانات لاَ يَجد العَبد إلا ما قَدّم ،

---

(١) أورده الهيثمي بتمامه في مجمع الزوائد وقال : رواه البخاري ورجاله موثقون إلا أن الربيع ابن أنس قال : عن أبي العالية أو غيره فتابعيه مجهول .

(٢) سورة التوبة : [الآية : ١٠٣] .

(٣) الطبراني في الصغير (١/ ٢٢٩) ، الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٠٤) وقال : قلت هو في الصحيح كله ، رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

(٤) في الأصل « تؤدا» وهو خطأ لأنه فعل مضارع مجزوم بحذف حرف العلة .

(٥) البخل : ضن بما عنده .

(٦) السخاء : الجود والكرم .

ولا يَتَصرف إلا فيما كَان فيه .

والمال لَه عَلاقة[1] بقَلب مَالكه ، فهو يَمْلكُه ، ويَشُده ويَضُمه إليْه ، فتلك العلاقة ، والمَال طَائعٌ لَه ، وتابعٌ لَه حَيث مَا تَصرف بالعَلاقَة التي تَجبذه بهاَ إلى ملكه ، وبطَاعة المَال له .

فالَّذي لا يُؤدي الزكاة قد أحبّ المَال الحُبّ الكُلي ، وقَال به المَال إليْه ، وباسْتغراق الحب فيه تعبَّده المَال ، وصَار ذَليلاً لمحبوبه ، كَما وَرَد في الحديث : «تَعس عَبد الدِّينار »[2] إلى آخر الحديث .

والتَّذلل[3] هُو التعبد ، فَالقَيد الذي مَال به المَال ، يَبْطحه من قيامه في المال في مَقام الإيمان ، والغَيب يوم القيامة ، وتَذلل اسْتعباده لَه ، يَصير بيْن أرجله وبعَلاقته الَّذي مَلك المَال بها ، وزمه إليْه ، وجَذَبه تمشي المَاشية عليْه في كُل نَاحية : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة ﴾[4] فافهم .

ولو تصرفت مَاشية جسده في الدُّنيا بإعْطاء الحق لمن وَجَب له لانبسطت أعْضَاء جَسده مَن قَبض البُخل ، فَوُجد هُناك مُتحركًا ، ومُتصرفًا .

ولو انْقَطعت عَلاقة الحق الَّذي أخرجه منْ قَلبه لامْتَسكت تلك العلاقة المُنْقطعة المَاشية عنْ المَشي عليْه ؛ لأنَّها حصَلَت في يد اللَّه ، وأَيدي أهلها كالزِّمَام المَانع للمَاشية عنْ المشي ؛ لأن المَال كَشخص واحد ، ومَفْروض الزَّكاة فيه عقاله كما سمَّاه أبُو بكر - رضي اللَّه عنه - عقَالاً في قوله : «لَو

---

(١) العلاقة : بالفتح الأماني ، وبالضم : الإجسام ، تأمل [هكذا على هامش الأصل] .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٤/ ٤١) ، (٨/ ١١٥) ، ابن ماجة (٤١٣٥) .

(٣) التذلل : الخضوع والاستكانة .

(٤) سورة المعارج : الآية (٤) .

١/٦٢ مَنعوني عِقَالاً »[١] أراد بَعيرًا ، وإنَّمَا سُمي عقَالاً ؛ لأنَّه / يعقل المَاشية عنْ المَشي على مَانع الزَّكاة ، ولو أخرجه عنْ ملكه إلى مُستحقه لزال ذُلّه له ، وتَعبده بالاستْغَراق فيه ؛ لأنّ المَعبود هُو المحبوب ، ولم يَبطح لَه يَوم القيامة ، وبقيت الماشيَة مَوقوفة عنْ المَشي ، ومَحْبُوسة للسُّؤال من أيْن جُمعَت ؟ ولِمَاذا؟ وفِيمَاذا؟ فَافهم فَهَّمك اللَّه .

وهكذا الحكمة أيْضًا في كَي الجباه ، والجُنوب ، والظُّهور بالعيْن الَّذي هُو الذَّهب والفضَة ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَلَا يُنْفِقُونَهَا ﴾ إلى قَوله : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾[٢] .

وحَقيقة مَعنى الكَنز الدَّفن ، والإخْفَاء والسَّتر الذي هو ضد الكشف والإظْهار ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾[٣] أي تحت الجِدَار .

وقال في قَارون : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾[٤] وهي ما أُخفي من خَزائن أمواله ؛ فالذَّهب والفِّضة لما كانت جَميع حوائج هذه الدَّار ، لا تَنقضي إلا بهما ، وعاين النَّاس ذلك منهما أحَبوهما الحبَّ البَالغ فجذبتهما القُلوب إليْها جذبًا شَديدًا بالعَلاقة التي ذكرناها قَبل هَذا حباً خَامرت سُويداء القُلوب[٥] ، ومن أحبّ شيئًا حباً كَثيراً أدْخله في سُويداء عينه إن أمْكنه ، وضَمَّه إليْه ، وألحقه بِجلده إنْ ظفر به ، ولَذلك تَرى الذَّهب والفضة لا يظهر منْهما شَيء

(١) العقال : الحبل الذي يعقل به البعير .

(٢) سورة التوبة : [الآية : ٣٤، ٣٥] .

(٣) سورة الكهف : [الآية : ٨٢] .

(٤) سورة القصص : [الآية : ٧٦] .

(٥) سويداء القلب : حبَتُه .

كَسائر الأمْوال إلا ما تَصرّف المَالكُون فيه بالمُباشرة لهما بالأيْدي ؛ فَمنْ مَلك دينارًا ربَطَه وأخْفَاه ، وحَرسه بالنَّظر إلَيْه ، والإشْرَاف عليْه بجبينه الَّذي هُو جَبهته ؛ لأنَّها مَوضع الحراسة التي فيها العَينان ، فَحيث مَا كَان المَالك لَه فهو نَاظر إليْه ، خَائف عليْه ، لا يَبْرح منْه / ومُتكئ عليْه بجَبينه ، وظَهره بمَعنى الاسْتَناد عليْه ، والاعْتمَاد والتَّوكل عليْه ؛ ولذلكَ خُصت هذه الأعْضَاء بذكر الكَي ؛ لأنَّها أعظَم أجْزاء الجَسد ، ومُوافقةً لمعاني الفتنة[1] بالذَّهب والفضة ؛ لأنَّه مُتقلب عليْها بالإسْنَاد ، والاعتمَاد ، والتَّوكؤ ، والإشْراف ، فإذَا لمْ تُؤدَّ الزَّكاة منهَ فقد اختفى الخَفاء الكُلي عن عَيْن المَالك ، والْتصَق به بالَحب الشَّديد حتى صَار كَصفة من صفَاته أوْ عُضو من أعْضَائه ؛ لأنَّ حَقيقة الحب طَلب الاتِّحَاد بالمَحْبوبَ ، فجاء به إلى المَال ، وهو مُلتصق به صَفَائح محميّة بنَار جَهنم ؛ لأنَّه لم يُرد به اللَّه ، ولم يَعْط منه حق اللَّه ، ومَا لَم يُرد به اللَّه ، ولا أعطى منه حقه فمبعود عن اللَّه ، وعن دَار كَرامته إلى دَار البُعد ، وهي النَّار ؛ لأنَّ المُراد به هَوى النَّفس ، والدُّنيا . ٦٢/ب

ولذلك يقول اللَّه يَومَ القِيامة : مَيِّزُوا مَا كَانَ لي منها ، وألْقوا سَائرها في النَّار .

﴿ لِيميزَ اللَّهُ الخَبيثَ منَ الطَّيب ويَجْعَلَ الخَبيث بَعْضَهُ على بَعْض فَيَرْكُمَهُ جَميعًا ، فَيَجْعَلَهُ فِي جهَنَّمَ ﴾[2] فَبهَذَا المَعنى يُفهم مَعنى كَوْن تلك الصَّفَائح نَارًا .

وكذلك هي هُنا مَحْميّة بنَار الحرص ، والحَمية في شدة طَلبه ، وإخْفَائه ، وكَنْزه ، ولو أخرج زكَاتَه كَما أمره اللَّه لانْقطع منْ عَلاقته عَنْ قَلبه بقَدر ذَلك المَخْرُوج وصَار في أيدي مُسْتَحقِّيه وظهر للمَلائكة ، وقَبلَه اللَّه .

(١) الفتنة : الإعجاب بالشيء والهوى به .

(٢) سورة الأنفال : [الآية : ٣٧] .

وإذَا فعل ذَلك فقد طهر المَال كُله ، ولم يَكُ كَنزًا ؛ لأنَّه قد عُلمَ قدر المال بإخَراج الزَّكاة منه ، وإذا عُلم فقد ظهر ، وانْكشف ، وزُحزح عنْ المَال ، والمال عنه بعض التَّزَحزح ، كما تقدم أيْضًا في عقال الماشية ، وبَقي عليْه المُحاسبة [١] على جُملته هل قَام بحقُوقه أم لا .

وهكذا / زكاة الأقْوَات أيضًا إذا مُنعَتْ عذابُها من نوعها ؛ أكل ٦٣/أ الضَّريع ، والزَّقوم كما ورد في حديث الإسْراء ، وثُقل الظهر ، والأجْسَاد عنْ النُّهوض ، كما ورد في الحديث :

« **إنّ بين يَديك عقبةً كؤودًا** [٢] **لا يُجاوزها إلا المخفون** » وسأله الرَّاوي عنْ المُخفين والمُثقلين ، فقال له : « **إنْ كَان لك قوت ثَلاثة أَيام فَأَنت من المُثقلين**» .

لكن الثُّقل [٣] يَتخَالف ؛ ثُقل دُون ثُقل ، وإنَّمَا الثُّقل الكُلي فيمن مَنع الزَّكاة كَمَا تَقدم ، والخفة من جَميع أنواع العَذَاب فيمن لم يَقْتصر على الفَرائض ، وتَصرف في جَميع وُجوه الصَّدقات بالنَّوافل حتى أكَمل له بها الفَرائض ؛ لأنَّ الفَرائضَ [٤] قَد داخلها أنْواع المُخالفات والتَّقصير كَما ورد في الخبر : «**إنَّ النَّوافل جبر للفَرائض** » لا سيما في الأمْوال الَّتي قَد خَالطها أنْواع الحَرام ، والشُّبهات، والبَّارئ تَعالى لا يَقْبلَ إلا الطيِّب .

فهذا معنى الزَّكاة ، ومُشاهدته في عَالم الغيب ومقام الإيمَان .

وأمَّا مقام الإحْسان بالنَّظر إلى الزَّكي سُبحانه الذي خَلق السَّخاء [٥]

---

(١) المحاسبة : المناقشة .

(٢) كؤودا : صعبة .

(٣) ثقل الشيء وزنه ، والحمل الثقيل ، وما يشق على النفس من دين أو ذنب أو نحوهما ، وأثقال الأرض ما في جوفها ، وفي القرآن : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ .

(٤) القرائض : جمع فرض ، وهو ما أوجبه الله عز وجل على عباده .

(٥) السخاء : الجود والكرم .

والكَرم ، وأفَاض عطاءه ، وفضله على جَميع المَخْلوقات في كل الأوقات ، فَيَتَزكى بأن يَتَّصف بوصف منْ أوْصَاف الزَّكي الحَق عَلى قَدر مَا يُطيق ، وأقل ذَلك الزَّكاة ؛ فَبهَا تَزكُو الأرَواح ، وتَطهر الأسرار ، فَتصلح لمجاورة الزَّكي الحق ، والقُرب مِنه في مَقَام الإحْسان .

وأمَّا كونها تَزكية للأرواح فموجود ذلك في قوله : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[1] والتَّزكية من صفات الأرواح ؛ لأنَّها وصف من صفات الزكي سُبحانه ، وهو تنزيه المُتصف بهَا عنْ رذَالة البُخل ، ووصفه بصفة الجُود ، والسَّخاء لكن التَّقصير المُقتصر عَلى أداء الزَّكاة في أقل دَرجاتها/ . ٦٣/ب

وإنَّما التَّزكية فيمن بَذَل المال في وُجوه البر كما قال فيمن وُصف بذلك : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾[2] نَزلت في أبي بكر الصِّديق -رضي اللَّه عنه - ، وإنْفاقه ماله في ذَات اللَّه .

وكذلك قوله : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُم اللَّهُ وَرَسُولُهُ ،وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاة وَهُمْ رَاكِعُون﴾[3] نَزلت في عَلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - تَصَدّق بخاتمه ، وهُو راكع في الصَّلاة ، وهَذا المعنى سنذكره في باب الزُّهد إن شَاء اللَّه .

واعلمْ أن الوُجود كُله إذَا نَظرته وَجدته مُتعبدًا لله تَعالى بالزّكاة ، كما هُو مُتعبد بجَميع شَرائع الإسْلام ؛ لأن الدِّين عند اللَّه الإسْلام : ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[4] .

---

(١) سورة التوبة : [الآية : ١٠٣] .

(٢) سورة الليل : [الآية : ١٧ ، ١٨] .

(٣) سورة المائدة : [الآية : ٥٥] . (٤) سورة آل عمران : [الآية : ٨٣] .

وإن نظرت إلى الأرض الَّتي هي أقرب الأشْيَاء إليْك وَجَدتها تُعطي أقرب الخَلق إليْها . وهُم الذين عَلى ظَهرها جَميع بَركاتَها ، لا تَبْخل عليْهم بشَيء مِمَّا عِنْدَها في فُصول العَام كُلها .

كذلك النَّبات يُعطي ما عنده ، وَجَميع أنواع الأشجَار .

وكَذلك الحَيْوان ، وكذلك البَحر والسَّموات ، والأفْلاك[١] ، والشَّمس ، والقَمر ، والنُّجوم ؛ الكُل مُتَعَاون بَعضه مَعَ بَعض ، لا يَدَّخر شَيئًا منْ قُوته، مَا عنْده في طَاعة اللَّه ، لأن الوُجود كُله فَقير بَعضهُ إلى بَعض، قَد لَزمه الفَقر وشملَته الحَاجة فَعطف بعضُهُ على بعض ، وتَعاونه في طاعةً الله ، وإعطاء مَا عنده هي زكَاته دَائمًا بدَوام وجُوده .

فمانع الزَّكاة قَد خَالف أهل السَّموات والأرض وجميع المَوْجُودات ، ولذلك وجب قتَاله ، وقَهْره ، فَافهم .

فهكذا شَاهد المُوقنون جَميع مَا دَعت إليْه الرُّسل بَيِّنًا واضحًا في كل شَيء ، وعامًا في جَميع/ الموجودات ، ولذلَك سَمَّاهم اللّه مُوقنين ، كما ٦٤/أ
قال في إبراهيم عليْه السَّلام : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾[٢] .

---

(١) الأفلاك : جمع فلك وهو : المدار يسبح فيه الجرم السماوي .

(٢) سورة الأنعام : [الآية : ٧٥] .

الشُّعْبَة السَّابِعَة

صَوم رَمَضَان

أَمَّا كونه مِن شُعب الإِسْلام فَدليله مَا تَقدم في حديث جبْريل علَيْه السَّلام .

ورَوَى طلحة بن عُبيد اللَّه أن أعرابيًا جاء إلى رَسُول اللَّه ﷺ من أهل نَجد(١) ثَائر الرأس يُسمع دَوي صَوْته ، ولا يفقه مَا يَقُول حتى دَنَا من رسُول اللَّه ﷺ فإذا هُو يَسأل عنْ الإسْلام فقال : يا رسول الله أخْبرني مَاذا فَرض اللَّه عليّ مَن الصَّلاة ؟ . قالَ رسول اللَّه ﷺ : « خَمس صَلوات إلا أنْ تَطوّع شَيْئًا » قال : فأخبرني ماذا فرض اللَّه عليّ من الصِّيام ؟ فقال : « شَهر رَمضَان إلا أنْ تَطوّع شيْئًا » . قال : فأخبرني ماذا فرض اللَّه عليّ من الزَّكاة ؟ . قال : فأخبره رسول اللَّه ﷺ شَرائع(٢) الإِسْلام .

قال : والَّذي بَعثك بالحقِّ لا أتطوّع شَيئًا ، ولا أنْقص مما فرض اللَّه عليّ شَيَئًا . فقالَ رَسُول اللَّهَ ﷺ : « أفلح وأَبيه إنْ صَدق، وأُدخل الجنَّة ، وأبيه إنْ صَدَق»(٣) .

وفي الخبر أيْضًا : « إذا سَلِمَ رَمضانُ سَلِمت السنةُ كلها » .

---

(١) نجد : من بلاد العرب ، وهو خلاف الغور ، وكل ما ارتفع عن تهامة إلى أرض العراق فهو نجد ، وهو مذكر .

(٢) الشرائع : جمع شريعة ، وهي : ما شرعه الله تعالى بعبادة من العقائد والأحكام .

(٣) صحيح : البخاري (١/ ٨١) ، مسلم في الصحيح كتاب الإيمان (٢رقم ٨) .

والتعبد به في مَقَام الإسْلام : إمْسَاك الجَسد عمّا يُضاد[١] الصَّوم من أول الفَجر إلى غُروب الشمس وفُروضه ، وسُننه بيّنة ومَشْروحه في كُتب الفقه .

وأمَّا وجه الحكمة فيه ، ومعنى التَّعبد به في مقام الإيمَان ، والإحْسَان

٦٤/ب اللذين هُما مَقَام النَّفس والرُّوح بالنية ، والحسَبة / لأجره عَلى اللَّه .

والصَّوم عن المَنْهيات المُوجبة للعَذاب في عالم الإيمَان ، فيتذكر الآخرة، ويَصوم عما يوجب العذاب في الدار الذي أُمر به[٢] .

فصل

وَأمَّا النَّعيم به في مَقام الإحْسَان الرَّوحاني العَقلي بأن يتذكر أنَّ الصَّمد[٣] الحق هو الذي يُطعم، ولا يُطعَم فيتصف به منْ ذلك المعنى على قَدر طاقته؛ لأنَّ الصَّوم معناه الإمْسَاك عن الاسْترسَال فيمَا حُظرَ على العَبد، وهو حفظ الجَوارح ، وزمّها، وإمساكها في أيام الصَّوم دون ليَاليه؛ لأن الصَّوم لا يكون إلا بالنَّهار ، فإذَا أُدخل الليل، وغابت الشمس أُرسلت الجَوارح فيما حُظرَ عليْها من المُباحَ إلى أن يَلوح الفجر .

وكذلك يُصام لرؤية الهِلال[٤] في أول الشَّهر أيْضًا ويفطر لرُؤْيته في أول الشهر الثَّاني .

---

(١) يضاد : يخالف .

(٢) بلغ : هكذا وجد على هامش الأصل .

(٣) الصمد : من أسماء الله الحسنى ، ومعناه : ثبت واستمر ، ومنه قول الإمام علي : صمداً صمداً حتى يتجلى لكم عمود الحق .

(٤) الهلال : القمر في أواخر الشهر من ليلة السادس والعشرين من إلى آخره .

والمُراد بهذا الشهر العظيم أن الليل غَيبةٌ ، والنهار حُضور ، فالنَّهار آية وجُود البَارئ ، ومُشاهدته ، والليل آية على وُجُود الأغيار دُونه ، كَمَا قَال النَّبي عليْه السَّلام :

« إنَّ اللَّه خلق الخلق فِي ظُلمة ، ثم أَفَاض عليْهم من نُّوره »الحديث ، «فَمَنْ أَصَابه مِن ذَلك النُّور اهتدى ، ومن أَخْطأه ضَل »[١] إلى آخره .

والصوم من أوصاف الرُّبوبيّة ، لا يتصف به على الكَمال إلا الله ، كما قال : ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[٢] ، وكما ورد في الحديث : «الصَّوم لي ، وأَنَا أجزي به»[٣] . فأَضافه إلى نَفسه ؛ أي لا يتصف به أحد إلا اللَّه ؛ لأنه الغَني عنْ الكُل أبد الآبدين ، ودَهر الدَّاهرين ، والمُنزه عن جميع الأغْراض ، والشَّهوات أزلاً ، وأبداً ، ولا يتصف بهذا إلا اللَّه ، ومَنْ سواه لابد له من أكل ، وعَرض مَلكًا كَان ، أو غير ؛ فالملائكة ومن أشْبههم من المخلوقات طَعامهم التَّسبيح ، والأذكار ، وشَرابهُم المحبة/ الخَالصة ، والمَعارف ، ٦٥/أ والعُلوم الصَّافية من الأكْدَار[٤] ، ومن سواهم طَعامهم وَشَرابهم ممَّا يليق بهم في دَار الدُّنيا ، وفي كُل دَار ، وقد دَعاهم البَارئ إلى الاتِّصاف بأوصافه وتَعبدهم بها على قدر طَاقتهم ، وَوسْعهم ، والصَّوم من أوصافه ، ومن أصعب الأشْياء على النُّفوس ؛ لأنَّه خَلاف ما جُبلُوا عَليْه ؛ فإن وجودهم لا يقوم إلا بمادة ، بخلاف وجود البَارئ تعالى ، الغَني عن كل شيء ، فَفرض اللَّه الصَّوم على عبَاده لكسر شهوات النُّفوس[٥] ، وقطعًا لأسْبَاب

(١) الحاكم في المستدرك (١/ ٣٠) أحمد في المسند (٢/ ١٧٦) الهيثمي (٧/ ١٩٣) وقال : رواه أحمد بإسنادين ، والبزار والطبراني ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات .

(٢) سورة الأنعام : [الآية : ١٤] .

(٣) الطبراني في الكبير (١٠/ ١٢٠) ، البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٢٣٥) ، أحمد في المسند (٢/ ٢٣٤) .

(٤) الأكدار : العكارة في أسفل القدر . (٥) النفوس : جمع نفس وهو ذات الشيء وعينه .

الاسْترقَاق ، والتَّعبد للأشياء ، فإنَّهم لو دَاموا على أغراضهم لاسْترقتهم الأشْيَاء ، واستَعبدتهم ، وقَطعتهم عن اللَّه كل القَطع ؛ فالصَّوم يقطع أسْباب التَّعبد لغير اللَّه ، ويُورث الحرية من الرِّق للشَّهوات ، والمُشبّهات ؛ لأنَّ المُراد من الإنسان أن يكون مَالكًا للأشْيَاء ، وخَليفة فيها ، لا أن تكُون مَالكَة له ؛ لأنَّه خَليفة للَّه في مُلكه ، فإذا استغرق في أغْرَاضه ، وملكته فقد أقْلَب الحكمة ، وصيرَ الفاعل مَفعولاً ، والأعلى أسفل ، كما قال تعالى : ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1] .

والهَوى إلهٌ مَعبودٌ به ، استُعْبدت الأشياء للخلق ، فالصَّوم يُورث قطع أسْباب التَّعبد لَغير اللَّه وقد علم اللَّه تعالى أن رمضَان يُغني في قطع ذَلك إذَا صامه الصائمون كما يجب ، ولذلك ورَد في الخبر : « إذا سلم رَمضَان سَلمت السَّنة كُلها » ، ومن زَاد زَادت حُريته مَا لمْ يخرج إلى ضَرر بالنَّفس والعقل ، بل الكمَال المَحض في حق الإنْسَان أنْ يملك الأشْيَاء ، ولا تَملُكه ، ويَسْتَرقها بالخلافة ، ولا تَسترقه ، فيتناول الشَّهوات في أوقاتها ، ويَضعها / ٦٥/ب
في أمَاكنها ، وهَذا هُو وصْف الرُّبوبية يتصرف في مُلكه بالتَّدبير ، ولا يَشْغله ، بل يَملكه كُل المُلك ، وتَقْهره كل القَهر .

والمراد بالصَّوم الاتِّصاف بذَلك الوصف[2] عَلى قَدر طَاقة الإنْسان ، وهُو الوقُوف عن تَناول أغْراض النُّفوس ليستَغني عنْها بنَفسه ، كمَا ورد : «لَيس الغنى عنْ كَثْرة العَرض ، إنَّمَا الغنى غِنى النَّفس»[3] .

ولما لمْ يكن له ذلك عَلى الكمَال كما هو البارئ لم يكن له بُد من تناول مَا يَحتاج إليه ؛ فَشُهود الأشياء بغَيبة مُنشئها ، واحتجابه في غَيْب غَيْبة ليل ،

(١) سورة الأعراف : [الآية : ١٤٠] .

(٢) في الأصل : « الخلق » .

(٣) صحيح : أخرجه البخاري (٨/ ١١٨) مسلم في صحيحه « كتاب الزكاة » (٤٠/ ١٤٠) .

وتَنَاولها فطر ؛ لأنَّه سُكون إليْها ، كما قَال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم الْلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾[(١)] .

وظُهوره للأشياء ، والأكْوَان بما يَلوح من أنْوار تَجليه نَهارٌ والوُقوف مَعه ، والإمْسَاك صَوم ما دام النَّهَار ، فإذا رَدهم إليهم وعليْهم ، فَقد غيبهم عنه رحمَة منه بهم ؛ لأنَّه لا يُطيق الدَّوام علىَ تلك الحَال إلا هُو الغَني الصمد الَّذي لمْ يلد ، ولمْ يولد ، فهكذا دأبهم في كُل سنة مَعَ مَا في أوقات الصلوات مَن الخُروج عن الأشياء أيْضًا إليْه ، والحًج ، وغيره من المَفْروضاتَ إذا أُديت عَلى الكَمال أورثه الحريَة الكَاملة ، ولو لمْ يكن ذَلك لما فَرضه اللَّه ؛ لأنَّ رضاه في فَرائضه ؛ وإنَّمَا التَّقصير في الفَرائض هو الذي مَلَك النُّفوس ، ونكَّس[(٢)] الرؤوس ؛ ألاَ ترى أنَّ الخَصوص قالوا : إنَّمَا الصوم الحقيقي إمساك الجَوارح عن النهي .

وقال أبو الدرداء : يا حَبذا صَوم[(٣)] الأكْيَاس[(٤)] ، وفطرهم ، كيف يَعْتبون صوم الحَمقى ، وصَبرهم .

وكذلك ورد الخبر أن الغَيبة ، والكَذب يُفسدان الصَّوم ، والنَّظر بشهوة ، إلى غير ذلك مما ورد في الأخبار ، فلو أن الفرائض أتى بها على حَسب الأَمر لكان / فيها رضى اللَّه عز وجل ، وغاية الدَّرجات ولذلك ١/٦٦
اسْتُحبت كَثرة النَّوافل ؛ لأنها جَبر لنُقْصان الفرائض ، كما ورد في الأخبار .

وَإذَا فَهمتَ هَذا عَلمت أنَّ فطَام[(٥)] النَّفس عنْ الدنيا ، والمَنْهيات هُو

(١) سورة يونس : [الآية : ٦٧] .

(٢) نكس : قلّبه وجعل أعلاه أسفله .

(٣) في الأصل : نوم » وهو خطأ .

(٤) الأكياس : جمع كيس ، والكياسة : هي الفطنة والظرف في استنباط ما هو أنفع .

(٥) الفطام : قطع الولد عن الرضاع ، والمقصود : أن يفطم الإنسان بالصوم عن شهوات الدنيا .

الصَّوم الحَقيقي لمن لاحت لَه أنْوار الاسْتهلال من اليَقين باللَّه ، والدار الآخرة ، فصام لرؤية ذَلك مُدة الحَياة الدُّنيا ، وأفطر عند اللَّه لرُؤيته ، وذَلك يوم عِيده لاستِهلال آخر عنْد خُروجه من الدنيا إلى الآخرة .

وهكذا دَأبهم في الجَنة جَزاء على ما استُعبدوا عليْه في الدنيا إذا كَانوا مع اللَّه بالمُشاهدة وقفوا بأعراضهم شَبيهًا بأيام رمضان ، وأداء الفرائض ، وإذَا أشْهَدهم الجنَان[1] كانوا مع الحُور العين ، والأكل ، وغير ذلك شَبيهًا بلَياليه ، وبخُروجهم من الفَرائض إلى المُباحات ، وتَنْقيلهم أيْضًا من دَرجة إلى دَرجة أخرى ، فطر في تلك الدَّرجة ؛ لأنهم لمْ يَذوقُوها بعد .

هكذا يَصومون لرُؤيته ، ويُفطرون لرُؤيته ، مَنَّ اللَّه عَلينا بالحُرية الكَاملة ، والكَرامة الدَّائمة بمنِّه ، وفَضله آمين .

واعلمْ أنَّ اعْتبار الصَّوم في الوُجود كُله عَام ، قَد شَمل المَوجُودات كُلها ؛ إذْ الصَّوم هُو الإمْسَاكُ وَالتَّقيد عنْ الخُروج من وضيفة مَا قيد به كُل مَوجود ، وهذا إذا نَظَرتَ الموجودات كُلها وجدت كَل واحد قَد لَزم ما قيد به ، وأمر به ، فترَى الثَّقيل قد امْتَسك في مَقَامه ، ولا ينتقل ، والخَفيف لا يَصعد عنْ مَقامه ، وكُل شيء مَزمُومٌ بزِمَام الأمر ، مَمْسُوك بإمْسَاكَ الذي يُمسك السَّمَوات والأرض أن تَزُولا .

وكذلك كُل صيام في حق كُل مَوجود ﴿ وَلَهُ أَسلَم مَن في السَّموات والأرض ﴾ ، ﴿ إنَّ الدِّينَ عنْدَ اللَّه الإسْلام ﴾[2] / ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِينًا ٦٦/ب
فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[3] ؛ لأنَّه دين اللَّه الَّذي افترضه على خليقته .

(١) الجنان : دار النعيم في الآخرة .

(٢) سورة آل عمران : [الآية : ١٩] .

(٣) سورة آل عمران : [الآية : ٨٥].

فصوم العَالِمُ ضَبْطُه نَفسه ، وإمْساكه ذَاته على الانْحياز إلى بَارئه ، وتقبضه عنْ أن يَسْترقه شيء غير اللَّهَ ، وهذا إذَا نَظرته بحَقيقة النَّظر وجدته عامًا في جَميع جَواهر العَالم ، كُله كونًا وشَرعًا ، وحَالاً ، ومَقالاً ، إلا الثقلين؛ فإنَّهم خَالفوه شرعًا ، لا كَونًا ، ولهذا المعنى ورد في الأخبار : « إنَّ للَّه في كل لَيْلة من رمضَان عتقًا من النَّار »[1] ؛ لانقطاع أسباب الهَوى الذي استَرقَت الخَلق إلا ما شَاء اللَّه .

(١) انظر كتاب « الموضوعات » ابن الجوزي .

الشُعبة الثّامِنة

الحَجّ(١)

فأمّا كَونها من شُعب الإسْلام فما تَقدم من حديث جبريل عليْه السَّلام، دليل عليْه، وغَيره من الأحَاديث، وقَوله: « من مات، ولـمْ يَحج، ولمْ يُحدث نَفسه بِحَج فَليمت إنْ شَاء يَهودياً، أَو نَصرانيًا »(٢).

وفَرضه مَرة وَاحدة في العُمر مع وجُود الاسْتطاعة وله فَرائض، وسُنن وأسرار كَثيرة؛ لأنَّه رُكن عظيم من أركان الدِّين، ولابُد من وصف كَيفية العَمل فيه ظَاهرًا، ونَبه على أسراره في كُل عَمل من أعماله، ومَوقف من مواقفه عنْد ذكر أعماله ليرتبط الظَّاهر الَّذي هُو مَقَام الإسْلام بالبَاطن الَّذي هُو مقام الإيمَان، وبالحجِّ البَاطن الَّذي هو مقام الإحْسانَ، والنَّفس والرُّوح بالبَاطن إن شَاء اللَّه.

فَأول مَا يَجب أنْ تَفهم أن البَيت مكة، أعزها الله ببطن وَاد، كما وَصَفهُ اللَّه: ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾(٣)، وَ: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾(٤) والبَطن ممَّا يَخفى، وَلاَ يَظهَر.

---

(١) الحج: أحد أركان الإسلام الخمسة وهو القصد في أشهر معلومات إلى البيت الحرام لأداء مناسك معينة، والحج الأكبر: هو الذي يسبقه الوقوف بعرفة وفي القرآن الكريم ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر ﴾ والحج الأصغر: الذي ليس فيه وقوف بعرفة، ويسمى العمرة.

(٢) الموضوعات لابن الجوزي: (٢/ ٢٠٩)، الكامل لابن عدي (٤/ ١٦٢٠)، الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٥٦).

(٣) سورة الفتح: [الآية: ٢٤].

(٤) سورة إبراهيم [الآية: ٣٧].

١/٦٧ وكـذلك الوَادي مَا انْخَـفَض / من الأرض ، والبـلاد مُـحيطة به في جَـميع النَّواحي من المَشـرق ، والمَغـرب ، والجنوب ، والشَّـمـال ، وله أربعـة أركان ؛ الرُّكن اليَمـاني منه يَلي جـهـة اليَمين ، والقُطب اليَمَـاني ، والرُّكن الشَّمالي يَلي جهة الشَّام ، والعـراقي يَلي المَشرق من طُلوع الفلك ، والرُّكن الرَّابع يلي جهة المَغرب حيث يَغرب الفلك .

وأعلاه يَلي البيت المَعمور في السَّمـوات ، وكـذلك القَلـب في بَاطن الإنْسَـان في خفـية شَبيـهـة بمكة الَّتي هي بواد ، وببطن مكة يمينه يَلي جـهـة مَلَائكة اليَمن التي هي الجنَّة ، وبَواطن اليُمن والبَركة ، وشـمـاله يلي جَـهـة مَلائكـة الشِّمال الغـلاظ الشِّداد ، الذين هـم خَدمة قَـبضـة الشِّـمال ، وهي النَّار .

والركن الآخر يلي جهة الدُّنيا شَبيهًا بالرُّكن العراقي من جهة المَشرق كما قال النبي ﷺ : « **الفتنة هاهنا** »[1] وأشار إلى جهة المَشرق ، وباب الكَعبة في نَاحية العراق .

وكـذلك بـاب القَلب ممَّا يلي الدُّنـيا من جَـوارحـه ؛ لأنَّ من جـهـة الدُّنيا تظهر الظَّواهر كلها ، وتَطلع بالإيجاد في عَالـم الدُّنيا .

والرُّكن الرَّابع مما يلي الأقدَار السَّابقة ، واللَّوح المَحـفـوظ ، والقَـضـايا الواردة عليْه من الأزل[2] القَديم ؛ لأن ما يَرد عليْه من هذه الجـهـة مغيب عنْه شَبيهًا بالمَغرب التي تَغرب فيه الأفلاك ، وجميع الحَركات .

وأعلى القَلب يلي جهة العَرش ، وهو موضع نَظر اللَّه تعالى .

ومثل الحَـرم الدائر المُحيط بالبيت مـثل مَـا أحـاط بالقَلب منْ تَجـويـف

---

(١) صحيح : البخاري (٧/ ٦٦) مسلم في صحيحه كتاب الفتن (٤٦) .

(٢) الأزل : ما لا أول له .

الجَسَد ، ومثل تَحريم الحَرم حول البيت أنْ لا يَقطع شجرة ، ولا يُنفَّر صَيده ، مثل تَحريم دَمه ، وعِرضه ، وكل شَيء منه من أجل قَلبه الَّذي هُو محل الإِيمَان .

وكذلك حَرم مَكة إنما حُرِّم ، وعُظِّم من أجل / بيْت اللّه ، وكما أنَّ ٦٧/ب
الحَرم لا يَأوي صَاحب خُربة ، بل تُقام فيه الحُدود .

كذلك لا حُرمة لمن أمر الشَّرع بأخذ الحقوق منه بأي وجهٍ كَانت .

ومثل إحاطة آفَاق السَّمَوات كلها من جَميع الجهات بالبيت مثل إحاطة عالم المَلكوت بالقَلب في الغَيب ، ومثل ارتفاع الجبَال على مكة في نَوَاحيه كلها مثل الجبلاَّت ، والغَرائز[(١)] الحسيّة التي جَبله اَللّه عليْها ، وفيه بئر زَمزم يُسْتَخرج ماؤه بالدلاء ، وهُو ماء مَختزن في مَحلِّه ، لا يُنال إلا بالاسْتقاء ، والأسباب ، وهُو مثال علم الشَّرع الظَّاهر ، لا يُنال إلا بأسَباب الطَلب ، وفي ظَاهره شبه زُعَاقٍ[(٢)] وَهو مَثل بصعُوبة العِلم على النُّفوس .

« وَمَاء زَمزم لمَا شُرب له »[(٣)] وكذلك العلم لما نوى طَالبه به ، وزَمزم العلم في خَزانة الحَفظ عنْد حَامليه ، والوَعيُ شَبيه بِحفظ مَاء زَمزَم ، وحِفظه بأيَدي أهل السِّقَاية الَّذين يَسقون الحَاج .

---

(١) الغرائز : جمع غريزة وهي : الطبيعة والسجية ، وفي علم النفس : صورة من صور النشاط النفسي وطراز من السلوك أساسه الفطرة والوراثة .

(٢) الزعاق : من الماء المر الغليظ لا يطاق شربه ، ومن الطعام الكثير الملح .

(٣) أخرجه ابن ماجة من حديث عبد الله بن المؤمل : أنه سمع أبا الزبير يقول : سمعت جابرًا يقول : سمعت رسول الله ﷺ : فذكره وأخرجه أحمد بلفظ لما شرب منه ، وأخرجه الفاكهي في أخبار مكة من هذا الوجه أيضًا باللفظين وسنده ضعيف وله شاهد عن ابن عباس أخرجه الدارقطني بزيادة عن هذا ، ورواه الحاكم من هذا الوجه وقال : إنه صحيح الإسناد إن سلم من الجارودي ا هـ .
السخاوي في المقاصد الحسنة « بتصريف » (٩٢٨) .

وفي جدار البيْت الحجَر الأسْود مَبني فيه ، مثاله سُويداء القلب ، وفيه يكُون الوَجد ، والمَواجيد التي تَطهر بتَأثير يَدي القُدرة الأزَلية ، والوَجد عبارة عنْ تَقبيل اليَد ، ومثل مَواطن الحَج ، ومَواقفه مثل مَنازل ، ومَقامَات تَحلها النُّفوس والأرواح ، والعُقول ، والأسرار ، والخَواطر ، والإرادات ، والحَواس وهُم[١] الطَّائفون في المَلكوت المُحيط بالقَلب .

والكعبة بيْت اللَّه في الأرض ، وكَذلك القَلب بيْت اللَّه على الحَقيقة ؛ لأنَّ بيْت مكة لا يَسعه « **لمْ تَسعني أَرضي ، ولا سمائي ، ووسعني قَلب عَبدي المُؤمن**»[٢] .

ودَعا اللَّه النَّاس إلى الحَج ، وفَرضه عليْهم بشَرط الاستَطاعة ، ومَعنى الحَج في اللُّغة : القَصد إلى المَحجوج له ، والزِّيارة له في كُل مَواطنه كما
١/٦٨ قيل : كَانت العَرب تحج إلى / النُّعمان وهُو مَلكُها ؛ أي تَقصده بقَضاء حَوائجها ، وهو مُشتق من المَحجة التي يَقطعها الحَاج في طَريق زيارته وقَصده إلى بَيْت اللَّه الحَرام .

---

(١) في الأصل : « المهم» وضرب الناسخ عليها ولعل ما أوردناه هو الصواب .

(٢) قوله : لم يسعني . . . . إلخ ، قال السخاوي في المقاصد : ذكره الغزالي في الإحياء وقال : فتأمل ، كذا ورد على حاشية الأصل ، وقول الغزالي - رحمه الله - غير واضح في الأصل .

قلت : ذكره السخاوي في المقاصد بلفظ « ما وسعني سمائي ولا أرضي و لكن وسعني قلب عبدي المؤمن » وقال : وذكره الغزالي في الإحياء بلفظ « قال الله لم يسعني » وذكره بلفظ «ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع » وقال مخرجه العراقي : لم أر له أصلاً ، وكذا قال ابن تيمية : هو مذكور في الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ .

ومعناه : وسع قلبه الإيمان بي ومحبتي ومعرفتي وإلا فمن قال إن الله تعالى يحل في قلوب الناس فهو أكفر من النصارى الذين خصوا ذلك بالمسيح وحده ، وقال أيضًا : - أعني السخاوي - ورأيت بخط ابن الزركشي ، سمعت بعض أهل العلم يقول : هذا حديث باطل ، يعني حديث « لم تسعني » وهو من وضع الملاحدة اهـ . المقاصد الحسنة للحافظ السخاوي حديث (٩٩٠) .

وكـذلك جـملة أسْـرار الإنسَـان نُوديت بالقَـصـد إلى اللّه في القَـلب ، وفيها يُوجد، كما ورد : « **اطْلُبنَي عنْد المُنكَسرَة قُلوبهم مِن أَجلي** » .

وأُمرَ إبراهيمُ عليه السَّلام بتَطهيره للطَّائفين ، والعَاكفين .

وكَـذلك فَعل نَبينا عليْه السَّـلام حين دَخله عُنوة(١) على المُشـركين ، طَهره من الأوثان ، والأصْنام ، وأرجَاس الجَاهلية عَام الفَتح حين فتح اللّه عليْه مكَة .

كَذلك إذَا فَتح اللّه عَلى الإنْسَـان قَلبه بالنَّصر عَلى إبْليس ، وصـفـات الجَـهل ، ودَقَـائق الشِّـرك ، طَهـرَه من التَّـمَـاثيل الَّتي تَـمـثَلت فِي القُلوَب ، وعكَفت عليْها النُّفوس الَّتِي تَوهمتَ أنها تَضر ، وتَنفع .

وقيل إنَّ الحَجَر الأسْوَد أسّودَّ منْ أيدي المُشركين ، وكذلك سُويداء(٢) القَلب بِخَواطر الشِّرك والجَهل ، ونَزَغَات الشَّيطان .

ومثل كَون النَّاس في أمصار البلاد ، وغَيْبتهم عنْ البَيت مثل غَيبة أسْرار العَـبد ، وتَصـرفهَـا فِي عَـالم الدُّنيـا ، والمُبـاح ، ومـثل تَرك الأوطان ، والقَـصد إلى مكة للحج مثَل خُروج أسـرار العَبـد من الدُّنيـا إلى اللّه ، وهُو الحَج الأكْـبَر عَلى الحَـقـيـقَـة لمن أعطيـهُ ؛ فـأول أُمـور الحَج قَطَع الطَّريق إلى البـيـت ، ومـثله قَطع مَنازل السُّلوك إلى اللّه ، ومَـا يَلقى في الـطَّريق من المَخاوف والأهوال ، والتَّيسير مثل مَـا يلقى في طَريق اللّه من الوَسـواس ، والمُكَابدة(٣) ، وضِد ذَلك لمنْ سَهَّل اللّه عليه الطَّريق إلى الوُصول إليْه .

ومثل وُصوله المِيقات ، وتَركه الأوطان وَرَاء ظَهره مِثل وُصـول أسرار

---

(١) العنوة : يقال أخذ الشيء عنوة ، أي أخذه قسرًا .

(٢) السويداء : من القلب حبته .

(٣) المكابدة : المشقة والعناء .

٦٨/ب العَبد إلى الإشْرَاف عَلى اسْتنشاق رَوائح المَلكوت / فَيرمي أُمور الدنيا وَراء ظَهره بِتَرك المُبَالات بها .

وأول مَا يعمل الحَاج في الميقات التَّجرد من ثياب المَخيط ، وكَذلك مثاله في الأسرار التَّجرد من الالْتَباس بما يَشغل عَنْ الدُّخول في طَريقة أهل السير إلى اللَّه في مَنازل السُّلوك .

ثم بَعد ذَلك الغُسل للإحْرام ، ومثاله التَّطهر منْ أوسَاخ العلل المُلوثة لَه في دَار الدُّنيا ؛ ليتَأهَب[1] للوُصول مطَهر السير ، ثَمَّ بَعد ذلك لَبَس أثواب الإحَرام ، وهُو مثال للابس الإسرار لأسباب الزُّهد .

ثمَّ صَلَّى ركعتين ، وهُو مثال الْتزَام الذّل ، والتَّواضع في طريق اللَّه لمن دَخلها ، وترك الكبر ؛ لأنَّه لا يلَيق بطريق اللَّه .

ثم بعد ذلك عقد الإحرَام ، والدُّخول فيه بالنِّية ومثاله للإسرار الالتزام للازم طَريق اللَّه ؛ لأن مَن دَخل طريقًا التزم أُموره بالعَزم ، والحَزم .

ثم بَعد ذَلك التَّلبية ، ومَعناه أن اللَّه تَعالى دَعا الخلق إليْه ، والإعراض عنْ غيره ، فإجابته : « لَبيك اللَّهم لَبيك » إجابة لدعوة اللَّه ، ومَعنى رفع الصَّوت بها ؛ لأنَّ العَبد في مَحل الغيبة لم يَصل بَعد إلى اللَّه ؛ فَرفع الصَّوت بالتَّلبية ، والاستجابة لَه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ** ﴾[2] الآية .

ومَعنى رَفع الصَّوت بها أشغالاً للقَواطع الشَّاغلة كي لا تَصده في طريق اللَّه ، لا ليسمَعه تَعالى ؛ فإنَّ اللَّه لَيس بأصم ، ولا غَائب .

---

(١) ليتأهب : ليستعد .

(٢) سورة الأنفال : [الآية : ٢٤] .

ثمَّ تَرك الصَّيد ، وقَتله ، ومثاله تَرك الحيل في أخذ الدُّنيا ، وصَيدها بالدِّين ، ولذلك أُمر بزَاد في الحج ، ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾[١] .

ثمَّ تركَ التَّطيب ، والرَّفاهة ، وهُو مثال تَرك الإسْراف ، والانْحلال من لَوازم طَريق اللَّه ، والرُّكون إلى خَدَع النُّفوس بركوب المَحظور / المُحرّم ، ومَن وَاقع شَيئًا من ذَلك في الحَج لَزمه الفدية ، والجَزاء ، ومثاله في طريق اللَّه مُعاقبة النُّفوس بالتَّوبة ، ورَد الظَّلامة ، والإقْلاع . ١/٦٩أ

ولا يَزَال كَذلك سَالكًا طَريقه حَتى يَدخل مكة فَيغتسل اغْتسالاً آخر لدخُول مكة ، وهُو مُستحب وهُو مثال لأخذ الأُهبة[٢] منْ أجل الإحْسَاس بَقُرب المُرور ، فإذَا دَخل مكة ، دَخلَ من مَوضع يُقال لَه «كَداء» ومَعْناه الكَدأ عَنْد مُشاهدة المَواطن المَلكوتية ، فإذَا دَخل مكة أمسك عنْ التَّلبية ؛ لأنَّه اسْتشعر السِّر الحضور حين حَل بسَاحة الملك ؛ إذ لَيس من الأدب رَفع الصَّوت مع الكُبراء بحَضرتهم ، ولأن حُضوره يَقْطع عنْه الشَّواغل التي تُوجب له رَفع الصَّوتَ في مَحل الغَلبة .

ثم بَعد ذلك يَمشي إلى البَيت ، ويَبدأ بالحجَر الأسود يُقبله ، ومثاله : أنَّ من دخلَ على مَلك منَ المُلوك أول مَا يسرع إلى تَقبيل يَده ، وهَذا في سُويداء القلب أبيْن ؛ لأنَّه بيْن أصبعين منْ أصابع الرَّحمن ، وفيه تَبدو أيادي المَواهب ، وآثار يَد القُدرة الأزلية في مَحل أسرار الغَيب .

ثمَّ يَطوف الجَسَد بالبيْت ، ومثاله في القَلب جَولان[٣] الأسرار في عَالم المَلكوت حَول العَرش ، ويَبدأ الطَّائف بالحَجر ، ثمَّ يعود إليْه أبدًا .

---

(١) سورة البقرة : [الآية : ١٩٧] .

(٢) الأهبة : الاستعداد .

(٣) جولات : جال الأمر في نفسه تردد .

ومن الصحابة ، وكَثير منْ العُلماء مَن يَستلم الرُّكن اليَمَاني وغَيره ، وقد اسْتَلَم رَسُول اللَّه ﷺ الرُّكن اليَمَاني أيضًا ، فمن اسْتلم الأركان، ولَمْ يَقتصر على الحَجر أشار إلى أنَّه يَتَملَق(١) ، ويركن إليْه بسرِّه في كُل شَيء ، ويَنْبسط بالإقْبال ، والمشي إليْه .

ومَن اقْتصر عَلى الرُّكن كَان السرّ أشار إليْه إلى التَّعزيز ، والتَّوقير كَما يَصنع مَن / يقبل بيد المَلك إذَا دَخل عليْه . ٦٩/ب

ثمَّ يَحفَّ به ، ويَطوف حَوله ، ولَا يَقْربه تَعزيزًا وتَوقيرًا ، وإجْلالاً حتى يَعود إليْه مَرّة أخَرى .

وصفة الطَّواف ثَلاثة خببًا ، وأربعة مَشيًا مثاله في السِّر إذَا شَاهد مَن صَافح بيمينه اسْتَفرغ الجَهد بوقَار في الحُب به ، لمَا خَالطه مَن الولَه ، ثم مضى يَستأنس(٢) بتَسكين اللَّه بمَا يُوجده من السَّكينة واللطف ، والطمأنينة ، والرَّحمة ، فَيثقل بما يَرد عليْه من الرَّحمة .

وَرد في الخَبر أنَّ الطَّائف بالبَيت يَخوض في الرَّحمة ، ثمَّ يَتنحى إلى مَقام إبْراهيم ، فَيُصلي فيه ركعتين مثله أنَّ السر حين صَافح سُبحات اليَد تَخللت مَودته أسراره ، ويَرى هَمه بتَوصيله إلى مَقَام من الخلة ، فَتَواضع ، وسَجد ، وذَل شُكرًا لَه على إنْزاله بتلك المَنزلة ، وتَوصيله إليْها .

ثمَّ يَرجع إلى الحَجر الأسود فَيُقبله كَذلك السر يَرجع إلى اليَد فَيُقبله تَقبيل رُؤية المَنَّة التي أنْزلته منزلة الخلة ، واليَقين ، ومَن رأى المنة ، وقَبلها فقد رَأى اليَد الَذي امتن عليْه ، وقَبله .

ثُمَّ يَرجع إلى الصَّفَا للدُّعاء ، كَذلك السِّر إذَا تَرك المَقَام المُتقدم ،

---

(١) تملق الرجل ، وله : تودد وتضرع فوق ما ينبغي .

(٢) يستأنس : يطمئن ويسكن .

وشَاهد المنة بتَقبيل اليَد خَرج من ذَلك إلى ربِّه بتركه الدُّعاء، وبالفَقر من جَميع الأحوال، فَيصفى قَلبه من دَقائق الشِّرك الخَفي، وإضافة الأشياء إلى نَفسه .

ثمَّ يُسرع في المَسير إلى المَروة، فَيقف عليْها، مثاله إنَّ السِّر صَعد عنْ الأشياء بخُروجه منها، وارتَقى[1] بترقيه عَلى الصَّفَا منها هَرب أيْضًا من صفا سرِّه أنْ يَراه لنفَسه مَقَامًا، أو يَرى أنَّه وَصَل إليْه بصفاه، فَيفر إلى المَروة؛ إذ لَيس من المروءة أنْ يرى شَيئًا من الأشياء / باسْتحقَاق، أو بدعًا بحضرة مَالكُه، أو وَاهبُه، بل ذَلك قَبيح، فَيفر حين يَرى ذَلك قَبيحًا إلى المَروَة . ٧٠/أ

ثم يَفر أيْضًا من مروته إلى الصَّفا، فَيُصفي سرَّه منها، ذَاهبًا، ورَاجعًا، يَفر من نُعوت رُسُومه، وَصَفاء أحواله حتَّى يَخرج منها، فإن كَان مُعتمرًا حلَق، أو قَصر، وإنْ كَان حَاجاً بَقي عَلى إحْرامه وسيَأتي الحَلق في مَواضعه إن شَاء اللَّه .

وعند ذَلك تمت وَظَائف القُدوم، ويُسمى هَذا : طَواف القُدوم : لقُدوم الخَلق على البيْت، وقُدوم السِّر عَلى القَديم الَّذي تَقدم إليْه بنعَمه، وَاستقر في جواره حتَّى خَرج من الأشياء إليْه .

ويُسمَّى أهل مكة جيران اللَّه؛ لأنَّهم سكَنوا بيْته، كذلك الأسرار إذا قَدمت عليْه، وتمت وظَائف قُدومها لم تَسكن لأحد إلا إلى اللَّه، كما قَال القَائل : طَلبت لنفسي مَوضعًا في المَلكوت، فَلم أجَد، فَضربت خَيمَتي بإزَاء[2] العَرش، فَهذا مثال النُّزول بمكة حتَّى يَخرج منْها إلى عَرفات .

ثمَّ يخرجون منْ مكة إلى عَرفات، كذلك الأسْرار إذَا حلَّت بجوار

---

(١) ارتقى : ارتفع من درجة إلى درجة .

(٢) بإزاء العرش : محاذيًا له .

اللَّه اسْتَدعاها للعَرض عليْه ، لتَعريف مَا لها ، وعَليها ، فتذكرت مَا سَلف لها ، فَبتذكره خَرجت عنْ قُربَ الجوار إلى مُشاهدة ما سَلف لها .

وعَـرفـة أعظم مَـواقف الحج ؛ لأنَّـه عَـرض على اللَّه ، ووقـوف بيْن يَديه .

ويَنزلون في طَريقهم بمَوضع يُقال لَهُ خيفُ بَني كَنانة ، في منى ، حَيث نَزل رسول اللَّه ﷺ ، وهُو قَبل عَرفة ، مثاله أن الأسْرار إذَا تَهيأت للعَرض عَلى اللَّه اعْتَرضها في الطَّريَق الخَوف منهَ ، لابد ، ولا مَحَالة . لكن الخيف مَحله في منى .

كَذلك الأسرار إذا خَافت لم تَقْنط[١] ، وتَمنت عَلى اللَّه بِحسن الظَّن عَظيم المَغفرة ، والوَسَائل .

ثمَّ يَدخلون إلى عَرفة ، كَـذلك الأسـرار إذَا حَلت بمَقـام الخَـوف ، وحُسن النُّطق بالتَّمَني / عليْه ، والرَّجاء فيه لاح لَه مَعرفة اللَّه بما هُو لَه أهل ، فَلا يَزال مُتوجهًا حَتَّى يَنْزل بها ، فَينْزلونَ بعَرفة ، ويَنْتَظرون زَوال الشَّمس للوُقوف شَبيهًا بانْتظار الأسرارَ حين حَلت بمَعرفة اللَّه بالخَوف ، والرَّجاء بما يَرد عَليها مَنه ، فإذَا زَالت الشَّمسَ أخذ الإمَام في الخُطَبة ، ومثاله في السرِّ الإنْذار لمجيئ تَجلَي المَلك الديَّان ليتأهبوا لقُدومه عَليهم ، ويُعَلمهمَ الأدب بيْن يَديه ، وكَيف يَقفون لَه بالإجْلال ، والتَّعظيم ، ثمَّ يأخذون في الصَّلاة بَعد الخُطبة ، وكَذلَك السِّر إذَا تَجلى له ظُهور الملك ، وخَضع ، وسَجد لجَلاله ، وهي صَلاة تحية لتجلَيه ، إلا أنَّها مَفْروضة ؛ لأنَّه لمْ يَظهر لهم إلا فَي وَقت فَرَضه الوَاجب لَه عَليهم ؛ لأنَّه مَوطن عَرض ، ومُحاسبة فَلا يقدم أَحد على الهَدية التي هي النَّافلة[٢] لهيئة العَرض ، والحساب ، ويُقَدِّمُون ٧٠/ب

(١) تقنط : تيئس أشد اليأس ، وفي القرآن ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ .

(٢) النافلة : ما زاد على النصيب أو الحق أو الفرض .

العَـصر إلى الظُّهـر ويَجْـمـعونهـما ؛ لأنَّ مَنْ قَدم بيْن يدي اللَّه للمُـحاسـبة والعَـرضَ لا يَنْسب نَفْسـه في المُحاسـبة ، وطَلب الخَـلاص ، ثمَّ يَقطعـه بيْن يَدي مَلك المُلوك ، فَلم تكنَ الحكمة إلا في جَمع الصَّلاتين لهذه العلة .

فإذا تَمت الصَّلاة أخذوا في الوُقوف والدُّعاء ، والإقْرار بالذُّنوب إلى غُروبَ الشَّمس ، كَذلك الأسـرار إذا عَرفـهـا اللَّه في مَقـام مُشاهـدة تَجلَي مَالها ، ومَا عليها ، وما عَمل في حَقِّه ، ومَا واقع العَبد في عُمره كُله حتى لا يبقى شَيء من مخبآته إلا تذكرها السرّ في ذلك المَقام ، فيُقر بها لبَارئه فلا يَزال يَدعو ، ويَتَضرع حتى يَجد آثار سَمَع البَارئ تَعالى ، وكَريم صَفحه ، وكَثيف[1] سَتره ، فيَجد آثار مَعنى مَا أوحى اللَّه إلى مَلائكته ، في يوم عَرفة وردّ أنَّه يُشرف على أهل عَرفة ، فيَنْظر إليْهم ، فيَقول لمَلائكته : «**انْظروا إلى عَبيدي شُعثًا غُبرًا**» الحديث إلى آخره .

فَإذا غَابت الشَّمس نَفروا[2] إلى مُزدلفـة ، وذَلك إشارة في السِّر إلى غَيبـة حَرارة المُحاسبة ، والعَرضَ عنْ الأسـرار ، والأرواح ، والنُّفـوس ، ووجد الفَرح بغيبة ضَوء كَشف العَورات فيه ، ومخبآت النُّفوس .

فإذا أسبل الليْل عليْهم لَبْسَته ألبست الأسرار أردية السِّتر الكَثيف للقَبائح ، وتَعرفت بمَغَافر المَغفرة ، فيَتوجهون إلى مُزدلفـة ، ويُصلون المغرب ، والعشاء بَعدَ مَغيب الشَّفق ؛ لأنَّه حينئذ يتم ضوء الشَّمس بالكُلية ، ويَذْهب حرهاَ .

وكذلك بكمال الْتباس السِّتر الكَثيف ، ووجود بَرد العَفو يصل العَبد إلى مَنازل الزُّلَف ، والزلْفَى من اللَّه .

---

(١) الكثيف : الغليظ الثخن .

(٢) نفروا : هجروا مكانهم .

وكـذلك الحَاج يصل إلى مُزدلفـة بعـد ذهاب الشَّفق[١] فـإذا وَصلوا مُزدلفة جَمعوا بيْن الصَّلاتيَن ؛ لأنَّهم حينئذ كَمل تَطهرهم عنْ المُخالفات بزَوال جَميع حَرارة تعب الكَد، والتَّعب من ثُقل المُحاسبة ، فكانت السُّنة تَأخير صَلاة المَغرب، وجَمعها مع العشاء ؛ لهذه اللَّطيفة؛ لتكون الصَّلاة بعد كَمال الطَّهارة ، وفَراغ السر منَ الكَد ، والتعب الَّذي تَقدم ذكره ، ولذَلك يَغْتسل الحَاج بالمُزدلفة، وهو من الأغْسال المُستحبة في الحَاج ، وهَذا الغُسل تأهبٌ لنزُول مَنزلة الزُّلفى[٢] ، والزُّلفى مَنزلة رفيعَة من القُرب : ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾[٣] .

ثمَّ يبيتون بالمُزدلفة طُول لَيلتهم، فإذا لاحَ الفَجر صَلوا الصُّبح ، ثمَّ يَقفون بالمَشعر الحَرام إلى قُرب طلوع الشَّمس ، كَذلك الأسرار إذا ظَهرت ، ونَزلت محلَّ القُرب ، ووجدت بَرد العَفو ، والتبست به أردية السِّتر نَظرت
٧١/ب شَزراً بشُعورها إلى مَحارم اللَّه ، وذكَرته / عنْد أمره ، ونَهيه، وهذا الذكر منْ أفضل الأذكَار ؛ أعني ذكر اللَّه عنْد أمره ،ونهيه، إذَا ذَكرت الأسرار أمره، ونَهيه شَعرت بالمحَارم ، والنَّواهي ،فهو ذكر في مَحل شعورها؛ كي لا تَتَدَنس[٤] بَعد التَّطهير؛ فَلهذا كَان الوُقوف بالمَشعر الحَرام بَعد المُزدلفة ، ثمَّ يُدفع الحَاج إلى منى ، ويُسرع ببطن مخسر ، ومثاله أن الأسرار إذا تَذكرت بالمشعر الحَرام أمر اللَّه، ونَهيه في محل شُعورها نَفرت عنْ ذلكَ ، وهَربت عَنْ أنْ تَقع فيها ، أعني الحُرمات شَبيهًا ببَطن مخسر ، الَّذي يُسرع الحَاج المشي فيه ؛ لأن السرَّ يَتذكر المَحارم فَينفر عنهاَ، ويَتحسر علَى مَا وقع منها، ثمَّ يَرمي

(١) الشفق : حمرة تظهر في الأفق حيث تغرب الشمس ، وتستمر من الغروب إلى قبيل العشاء ، تقريبًا .

(٢) الزلفى : المنزلة والدرجة .

(٣) سورة سبأ : [الآية : ٣٧] .

(٤) تتدنس : تتوسخ وتتلطخ .

الحَاج جَمرة العَقبة مِن أسْفلها ؛ لأنَّ مَوضع الحَسرات فِي السرِّ سَفل .

وأمَّا رَمية جَمرة العَقبة بَعد هُروبه من المَشعر وخُروجه من بَطن مخسر فَمثاله أنَّ السرِّ إذَا شَعر بذكر المَحارم ، وهَرب منها ، وتَحسر عليْها تَذكر الَّذي أوقعه فِي المُخَالفاتَ ، فَرآه بسره ، وهُو إبْليس لأنَّه مَع المَحارم ، لا يُفارقها ؛ أعنيَ إبْليس ، وعنْد رُؤية السرُّ إبْليس يُوسوس إبْليسُ إليْه ويُذكره الرجوع إليْها ، فَيرجمه رَجمًا بالغَيب ، يَرد وساوسه عليْه التي هَي جَمرات من جَمرات جَهنم ، فيحرقه ، ويَردها عليْه في السرّ ، ويَغضب عليْه اللَّه ، والغَضب جَمرة تَتَوقد ، ولذَلك سُميت جَمرات .

ثمَّ يَذبح إنْ كَان مَعه هَدي ، ومثاله[1] أنَّه إذا رَمى وَجه إبْليس بجَمراته تَذكر بنَفسه مَن يقبل وحي الشَّيطان فإذا هيَ الصِّفات البَهيميَة التي لَا تَدري مَا يرادَ بها ، فَيخدعها الشَّيطان ببلادتهَا ، فَيذكيها بالنَّحر ، والذَّبح كَي يَحصل لها ، والذَّكاء ، والفطنة[2] بذَكاتها .

ثُمَّ يَحلق رَأسه أو يَقْصر منه ، ومثاله في السِّر أنَّ الدِّماء النَّفيسية البَهيمية إذا أُهريقت / في اللَّه لتضيق مَجاري العَدو ، وفيها قَطع العَلائق ٧٣/أ عنْه التي يَتَعلق العَدو بهَا ، وهي النَّواصي التي يعقد عليْها في كل لَيلة ، الغَفلة ، ونوم الحَياة الدُّنيا عليْك لَيل طويل ، أي تَعيش كَثيرًا ، فَارقدً ، واخْلد إلى أغراضك ، فإذا قَطع العَلائق من سره فقد تَحرز من إبْليس بحَز نَاصية الرِّق لَه ، ولم يَبقَ له من الحَج إلا طواف الإفَاضة بالبَيت العَتيق ، فيتوجه الحَاج إلى طَواف الإفاضة[3] .

كذلك السِّر إذا تَحلل من العَلائق تَوجه حراً إلى سَيده ، فَيطوف به ،

(١) تكررت في الأصل : « إن كان معه هدي » ومثاله .

(٢) الفطنة : قوة استعداد الذهن لإدراك ما يرد عليه .

(٣) طواف الإفاضة : حيث ينصرف الحاج من منى إلى مكة فيطوف ويعود .

ثمَّ يرجع الحَاج إلى منى فيقيم بها ثلاثة أيام ، أو يومين ليتم رَمي الجمار ، والنَّحر ، والذَّبح أيامَ التَّشريق ، ومثاله في السِّر أن الأسرار إذا طَافت طواف الإفاضة بعد حُريتها استَشعرت بالرُّجوع إلى مُناجَاتها ، فتَرجع إلى منى ، فتَستقصي تَمام رَمي الجمار ؛ لأنَّ النُّفوس إذَا رَجعت إلى المُباحاتَ من الحَج لابد تَتمنى الرُّجوع إلى المُحرمات[١] ، فيَستقصي ذَبحًا ، ويشرق بمنى بحَرمها ، ويَرمي بَقيَة الجمار مرة بعد مرة ، تأكيدًا لحبس النُّفوس بزمام الثقاف إذا رَجعت إلى أوطان المُباحات .

فإذا تَمت أيام التَّشريق فقد تمَّ حجّهُ ، فيطوف طَواف الوَداع ، ويَرجع إلى بلادَه ، ومثاله أن السِّر إذا تَمت وَظَائف حجه ، ولمْ يكن للبشَرية بُد من الرُّجوع إلى أغَراضها ، ومُبَاحاتها طَاف برَبه طَواف المُحب إذا وَدع مَحبوبه ، وترك سرَّه عنْده ، فهذا الطَّواف طَواف المُحب ، تَذكرة بالرَجوع إليْه ، وإنْ كَان في ظَاهره أنَّه وداع ، وفرقة ، فإنه أعْظَم للحُرمة ، وأشد في تأكيد المحبة ، كما قَال عليْه السَّلام : « زُر غِباً تَزدد حُباً »[٢] .

ولأنَّ كَثرة الجُلوس عنْد المحبوب يُوجب كَثرة الأنس ، والإذْلال ويَخاف عليْه أنْ يَقع في مُخالفته بكثرَة الإذْلال ، ولأنَّ النفوس تَمل تَرك / ٧٢/ب أعراضها ، فإنْ لم تَرجع ، وواقَعت مَحظوراً[٣] بحَضرة المَلك المَحبوب في جواره ، وجَب طَردها عنْ جواره ؛ لأنَّ الذَنب يُضاعف بحَضرة المَلك العَظيم بقدر حُرمته ، وكذلك ورد في الخبر : « إنَّ الذُّنوبَ تُضاعف بمكة

(١) الحرام : مفرد محرمات وهو الممنوع من فعله .

(٢) هو عند البزار والحارث بن أبي أسامة في مسنديهما ، ومن طريق الثاني رواه أبو نعيم في الحلية من حديث طلحة بن عمرو عن عطاء بن أبي رباح ، عن أبي هريرة به مرفوعًا ، وكذا العسكري في الأمثال ، والبيهقي في الشعب وقال : إن طلحة غير قوي هذا الحديث بأسانيد هذا أمثالها . هذا كلام الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة حديث (٥٣٧) .

(٣) محظور : ممنوع .

كما تُضاعف الحَسنَات » ؛ لهذه العلة الَّتي ذَكرتك بها ، فافهم .

ولذلك ورد في الآثار : رُبَّ رَجل بخراسان أو ببلد غير خراسان أقرب إلى هذا البيْت ممن هو سَاكن فيه ، أَو كما ورد .

واعلمْ أنَّ الحج على ثَلاثة أضرب : إفْراد بالحَج ، وقِران بالحَج والعُمرة معًا ، وتمتع بالعُمرة إلى أيام الحَج ، ثمَّ يَحج .

والحج بالإفْراد أقواها ، وأصعبها ، والتَّمتع والقران أيسر ، وقد اختلف في الكُل أيهما أفضل .

وقد ذكر اللَّه الثَّلاثة أنْواع فقال في القران : ﴿ وَأتمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للَّه﴾(١) ، وقال في التمتع : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّع بالْعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ ﴾(٢) ، وقال في الحج : ﴿وَللَّهِ عَلَى النَّاسِ حجُّ الْبَيْتِ ﴾(٣) لأَنَّه الفَرض .

فَمثال الحَج مُفردًا في أسرار الحَج الخُروج من أُمور الدُّنيا بالكُلية بالقَصد إلى اللَّه دُون تَعْريج على شيء من الأشياء دُونه ، والتَّضييق الكُلي على النَّفَس طُول مُدة الحَياة الدُّنيا ، وهَذا لا يُطيقه إلا الأفراد ؛ لأَنَّه إفرادٌ لأفرادٍ ، وهُو أشبه شَيء بالمَوت ، ومَا وراءه من أُمور القِيامة ، والآخرة .

والعمرة مَأخوذة من الزيارة ، وفي لَفظها مَعنى من العمر وهي إلقْاء رمق الحياة عَلى النَّفس ؛ لأنه لولاها لم تَعْمُر الدُّنيا ، ولذلك قال : ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرة ﴾ والتمتع هو الاسْتمتاع بالمُباحات الشرعية إلى أيام الحج ، كما قال : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(٣) .

---

(١) سورة البقرة : [الآية : ١٩٦] .

(٢) سورة آل عمران : [الآية : ٩٧] .

(٣) سورة الحج : [الآية : ٧٨] .

ثمَّ يعود إلى المُباحات ، وكَذلك القران ، الإشْارة فيه إلى اقتران الرفق
١/٧٣ مع الشدّة ، كما قيل : الإيمَان شدّة في لينَ ، وسَماحة في يَقين/ .

وورد في الخبر : « إنَّ اللَّه يحب أنْ تؤتى رخصه كما يُحب أنْ تُؤتى عزَائمه »[(١)] .

وقد قَال رسُول اللَّه ﷺ في الصحيح في حجته : « لو استقبلت من أمري مَا استَدبرت لمْ أسق الهَدي ، ولجعلتها عمرة ، فمن كَان منكم ليس مَعه هدي فليحل ، ولْيَجْعلها عُمرة» فقيل له : ألعامنَا هَذا أمْ لأبد ، فَشبك رسول اللَّه ﷺ أصابعه ، وقال : « دَخلت العُمرة فيَ الحج هكذا » ثم قال : « لا بَل لأبدٍ أبدٍ »[(٢)] .

وكان عليه السلام أفرد الحجَ ، هُو ، وعَلى بن أبي طَالب ، لأنَّه أقوَى الأقوياء ، وقَد أهلَ رسول اللَّه ﷺ بالحَج والعُمرة ، كما روى أنسُ ، قام النبيَ ﷺ بذي الحليفة ، وبات بها حتى أصبح ، ثمّ ركب حتى استوت رَاحلته عَلى البَيداء[(٣)] ، وحمد اللَّه ، وسَبح ، وكبر ، ثم أهل بحج ، وعُمرة ، وأهل النّاس بهما .

وهَذا كله إبقاء على النفوس ، ورَحمة ، وسَماحة والحمد للَّه رب العَالمين ، لكن بشَرط تَرك الحَرام ، وترك الخُروج إلى الإسرَاف الذي لا يُحبه اللَّه ، ولذَلك اسْتحبت الزيارة بَعد الحج إلى قَبر النبّي عليه السّلام ؛ لأنّ السّر إذا طَاف طَواف الوَداع كما تَقدم ، ورَجع أوطان[(٤)] مُباحاته يكون رُجوعه إلى مُباحاته بالسنة ، لا باتباع الهوى ؛ لأن النبي ﷺ هو رأس السنة ومنه انْفرعت ، بل هو السُّنة كلها ، فَلهذا استحبت زيارته بعد قَضاء

(١) مسند أحمد (٢/ ١٠٨) ، سنن البيهقي الكبرى (٣/ ١٤٠) .

(٢) صحيح : البخاري (٢/ ١٩٦) مسلم في صحيحه كتاب الحج باب (١٧ رقم (١٤١) ، النسائي (٥/ ١٤٣) ، أبو داود (١٧٨٤) .

(٣) البيداء : الفلاة .

(٤) أوطان : جمع وطن ، وهو مكان إقامة الإنسان ومقره سوآء ولد به أم لم يولد .

الحَج ؛ ليكون رُجوعه إلى سُنته كما تقدم ، فهذه أسرار الحكمة في الحج مبُينَة ظَاهراً ، وبَاطنًا في المقَامات الثلاثة من الإسْلاَم ، والإيَمان ، والإحسَان فاسأل اللَّه الكريم أن لا يجَعلها حجة علينْا ، وأن يكتب لَنا في كُل خَير حظاً ، ونصيباً بِمنه ، وفَضله ، وصلى اللَّه على محمد وآله (١) .

(١) بلغ : كذا على هامش الأصل .

الشعبة التاسعة

الجهاد / ٧٣/ ب

فأمّا كَونه من شُعب الإسْلام، والإيمان، فَلا يَخفى، وقَد ورد في الحديث: «مَن لَقي اللَّه بِغَير أثر جهادٍ لَقي اللَّه وفي إيمانه ثلمة»[(١)] إشارة إلى نُقصان هذه الشعبة، وهو في حَديث علي الطويل دَعامة من دَعائم الإيمَان حيث قال: «بُني الإسْلاَم على أربع دَعائم»[(٢)]، على الصبر، واليَقين، والعَدل، والجِهاد» فَجعله دَعامة من دَعائمه، وغَير ذَلك من الشواهد.

والإجْماع مُنعقد عليْه أنه فَرض من الفُروض، إلا أنهم قَالوا على الكفاية، يَحمله بَعض عنْ بَعض وهذا الأصل، لا يُخرجه عن كونه مُعلقاً علَى الكُل، فإنَّه لُو غشيَ العَدو الأرض كُلها لكان فَرضاً مُعيناً على جَميع أهل الأرض. والجِهاد نُصر الإسلاَم بِه، أعزه اللَّه، وإذا تُرك ذُل أهل الإسلاَم بتركه.

فصل

واعلمْ أن الجهاد على ضَربين: ظَاهر، وبَاطن، والبَاطن عَلى ضربين: جِهاد النَّفس، والعَدو في مقَام الإيمَان، وجِهاد الباطن الروح.

---

(١) ثلمة: الموضع الذي انثلم وهو الذي وقع فيه خلل، والحديث عند الترمذي (١٦٦٦) والحاكم (٢/ ٢٩).

(٢) الدعائم جمع دعامة: يقال هذا من دعائم الأمور أي ما تتماسك به وتقوم عليه.

والعقل في مُكابدة الطريق الفكر اقْتباس»(١) العِلم في مقَامات الإحْسان .

فَالظاهر جِهاد الكُفار ، والمُنافقين ، والفُجار في أقْطَار الأرض ظَاهراً .

والبَاطن جهاد الشيطان ، والنُّفوس القَاطعة عن اللّه تَعالى ، وهُو الجِهاد الأكبر . ورَدَ في الخَبر ، « جئتم من الجِهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » .

وهَذا الجهاد فَرض مُعين على كُل خلق ، كَما قَال تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُو فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً ﴾(٢)

وقال : ﴿ فَقَاتِلْ في سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ ﴾(٣) .

والمقام الإحْسَاني في قَوله تعالى : ﴿وَالّذينَ جَاهَدُوا فِينا لَنَهْدِ يَنَّهُم سُبُلَنا﴾(٤) وغير ذلك مَّا يطول ذكره .

فَمن فُروض الجهاد حُسن النية فيه ، وذَلك أنْ تكون كلمة اللّه هي العُليا ، وَأن تكون في المَجُاهدة قُوة عَلى القتال / ، قال اللّه تعالى : ﴿وأَعدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قوةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ ﴾(٥) . ٧٤/أ

وأخذ العُدة ، وهُو السلاَح والثبات وعنْد اللقاء ، والأمام ، وترك الغلول ، إلى غَير ذلك من واجباته .

فأول أمور الجهاد بَعد التَّوجه إلى العَدو أن يُدعوا إلى الإسلام ، فإنْ قَبلوه ، وإلا قُوتلوا إلا أن يكُونوا ممن قَد بلغتهم الدعوة إلى الإسلامَ أو

(١) اقتباس العلم : الاستفادة منه .

(٢) سورة فاطر : [الآية : ٦] .

(٣) سورة النساء : [الآية : ٨٤] .

(٤) سورة العنكبوت : [الآية : ٦٩] .

(٥) سورة الأنفال : [الآية : ٦٠] .

تَعجلوا بالقتال فَيُقاتَلوا .

ومثال ذَلك في جهاد البَاطن أنَّ النفس الأمَّارة بالسوء[(١)] تُدعا أولاً إلى طَاعة اللَّه ، فإن أبت وَجب قتالها ، وصَدها عَن ارتكاب النَّهي .

وأمّا الشيطان فإنَّه قَد بَلغته الدَّعوة من أول الدنيا إلى آخرها ، وقد يَئس الكُل من إيمانه ، فَلا سَبيل إلى دَعوتهَ ، بل معُاجلته بالجهاد حيْث وجد ، ولفظ الجِهاد مُشتق من الجَهد ، وهو المشَقة ، والتعب .

فأمّا احتمال المشَقة فيه ظَاهراً فلا يَخفى بأنه سفر من الوَطن ، و : «السفر قطعة من العَذابَ »[(٢)] ولقاء العدو ، والمخاطرة بالنفس في مُقاتلتهَ ، فلذلك عَظُمت دَرجة المجاهد في سَبيل اللّه لَعظيم ما يلَقى ، وكثرت حَسَناته .

كما ورد في الحديث : «**إنَّ أعمال البِر كُلها في الجهاد في سَبيل اللّه كنفثةِ في بحرٍ لُجيّ** »[(٣)] .

أو كمَا وَرد ؛ لأنّه يُقاتل عن كل من وَرَاءه من المسلمين ، ولَولا الجهاد لوصل العَدو إلى مَن وَرَاءه من المُسلمين فكأنه نَابَ مَناب الكُل .

واعلمْ أن المراد من الجهاد مَا ذكره اللّه تَعالى في قوله : ﴿ **وَقَاتلوهُمْ حَتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدين كُلّهُ للّه** ﴾[(٤)] ظاهراً ، وبَاطناً ؛ أي حَتى لا يَبقى تَدين لسواه ، فإنّ الرب رب واحدً ، والمُلك كله مُلكه ، فَوجب أن لاَ يكون دين إَلاّ له ، وأنْ يكوُن الخلَق كُلهم عَلى قَلب وَاحد ، ومذهب واحد ، هذا هو

(١) السوء : كل ما يغم ويقبح .

(٢) **صحيح** : البخاري (٣/ ١٠) مسلم في صحيحه كتاب الزيارة (١٧٩) ابن ماجة (٢٨٨٢) .

(٣) لجي : متلاطم الأمواج .

(٤) سورة الأنفال : [الآية : ٣٩] .

٧٤/ب الواجب/ على جميع المخلوقات ، فمن خالف هذا ظاهراً ، أو باطناً فقد انحاز ، وافترق ، وإذا انحاز فقد ظهر الحدُّ بينه ، وبين من انحاز عنه من أهل الإسلام .

وهذا الحدّ هو الثغر الذي بين أهل الإسلام وأهل الكفر ، فوجب قتالهم حتى يرجعوا كلهم على مذهب واحد ويعطوا الجزية عن يد ، وهم صاغرون ، ويقنع منهم بذلك ، لأنه ليس بقاءهم على دينهم مع إعطاء الجزية إلا خزي بهم ، إذ لم يكن لهم في معبوداتهم من يعزهم بدينهم ضحكة بهم ، فكأنه لم يعبد في الوجود إلاّ اللّه ، فلهذه العلة قنع [١] الكفار بالجزية ، وإن لم يرجعوا إلى الإسلام ، ولا أعطوا الجزية ، قوتلوا ، وقتلوا حتى يظهر منهم ملك اللّه ، ولا يبقى لهم أثر ؛ إذ ليس بمعبوداتهم التى ادّعوها وجود ، ولا أثر .

ولما لم يكن للآلهة التي ادعوها حقيقة ، ولا وجود حرم الفرار من الزّحف ، لأنّهم ليس لهم في باطنهم من ينصرهم ، والمؤمنون إلههم الحق معهم حيث ماتوجّهوا ، وجدوا ربّهم معهم ، فهو ناصرهم ، فلا غالب لهم ، إلا إذا فعلوا أفعال الكفرة ، والفجار ودخل معهم صفات العدو في بواطنهم ، فداخلهم الرعب الذي في بواطن الكفرة من وحشة الجحد ، وبقدر فساد المسلمين يجد العدو لهم سبيلاً ومدخلاً ، ألا ترى إلى يوم حنين حيث وصف اللّه تعالى حال العجب منهم بالكثرة فقال :

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ [٢] تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [٣] .

فلولا العجب لما أصيبوا ، ولما كان النبي عليه السلام بريئاً منه ، ومن

(١) قنع : سأل الناس الإحسان راضيًا بالقليل ، وفي القرآن الكريم ﴿ وأطعموا القانع والمعتر ﴾ .

(٢) في الأصل « فلن » وهو خطأ .

(٣) سورة التوبة : [الآية : ٢٥] .

شَاء اللَّه ممن كَان حَوله ، ذلك اليَوم أنزل اللَّه سكينته ، ونصره عليْه فهزم اللَّه المُشركين .

١/٧٥ وكَذلك يوم أُحد لَمَّا عصوا الرسُول فيما أمرهم / به وجَد العَدو مدخلا بذلك العصيان ، فكان ما كان ، فما سُلطَ على أهل الإسْلاَم في كُل وقتٍ ما سُلط إلا بفَساد أحوالهم .

فَالذِي يجب أنْ يكون حَال المسلمين مَع الكَافرين ثلاثة أشياء : قتالهم حتى يَرجعوا إلى الدين ، أو قتالهم حَتى يُعطوا الجزية ، أو قَتلهم وسباهَم .

وأقل من ذَلك كُله أن يكون الجهاد قَائماً دائماً بَيْننا ، وبيْنهم بسَد الثغور[1] ، وتَثقيف الحُصون[2] .

وإنْ احتاج إلى صُلح من أجل الضعف فُعل لأجل الخُدعة بهم في المسُتقبل ، «والحرب خُدعَة »[3] ، لأن الكُفر والإيمَان ضدانَ مثل

(١) الثغور : جمع ثغر ، وهو الموضع الذي يخاف منه هجوم العدو .

(٢) الحصن : الموضع المنيع .

(٣) قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة حديث (٤٠٠) ، متفق عليه من حديث ابن المبارك عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة قال : « سمى رسول الله ﷺ الحرب خدعة » وليس عند مسلم « سمى » وانفرد البخاري به من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، واتفقا عليه أيضًا من حديث ابن عيينة عن عمر بن دينار أنه سمع جابرًا يقول : قال رسول الله ﷺ « الحرب خدعة » وكذا رواه الحميدي عن ابن عيينة ، وقال : قال سفيان : خدعة بالضم ، وأهل العربية يقولونها بالفتح ، وفي الباب عن جماعة كثيرين ، فمنه ما رواه ابن إسحاق عن عبد الله بن سهل الأنصاري ، أن عائشة قالت : ثم إن نعيم بن مسعود قال : يا نبي الله إني أسلمت ولم أعلم قومي بإسلامي فمرني بما شئت؟ فقال : أنت فينا كرجل واحد فخادع إن شئت فإن الحرب خدعة وقال : أراد أن المماكرة في الحرب ، أنفع من المكاثرة ، ومنه قول بعض الحكماء : انفاذ الرأي في الحرب أنفع من الضرب والطعن ، والمثل السائر « إذا لم تغلب فاخلب » أي اخدع ، وقال بعض اللغويين : معنى خدع : أظهر امرًا خلاف ما أبطن ومنه كان النبي ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها . أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٦١ ، ١٣٦٢) ، الترمذي (١٦٧٥) ، ابن ماجة (٢٨٣٣) ، أبو داود (٢٦٣٦) .

الليل ، والنَّهار ، فكما لا يَقوم اللّيل لوجود النَّهار كَذلك الكُفر لا يقوم لوُجود الإيمان إذا التقيا إلاّ إذَا غَابت أنوار الإيمان ، أو ضَعفت ظهر سُلطان الليل بقَدر غَيبته ، وضَعفه ، فَمثال ذلك في ظَواهر الأمر أنَّ قَبل مَبعث النبي عليه السَلام كانت الأرض كُلهَا مُظلمة ، مطبقة ، وأنوار الإيمَان غَائبة عن الأرض موجودة عنْد الملائكة ، وأهل الآخرة في الغيب .

فَلما أظهر اللّه رسوله بمكة طَلعت بظهوره شَمس الإيمَان بمكة ، فاسْتنار به من قبل من نوره بالإيمان به ، فَلم يَزل الدين يَظهر شَيئاً شيئاً ، ولكن بحكم الضعف ؛ لأنه طلَع في سَحاب مُتراكم بَعضه على بعض ، كما قال الله :

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ (١) .

فإظهار النبّي عليه السلام الإيمَان بمكة ، ودَعوة النَّاس إليه بمنزلة ظُهور نُور الشمس . ورد الكفار عليه ، واستجابتهم له ، ولأصحابه بمنزلة حجب السحاب المُتراكم المُظلم لنور الشمس في اليوم الشديد السحاب المظلم ، فلم
٧٥/ب يزل كذَلك مرة يَظهر ، ويَخفى/ ، حتى هَاجر من هَاجر من أصحابه ، وهَاجر هُو عليْه السلام . وبقي المُستضعفون بمكة حتى ظَهر النّبي عليْه السَلام بالمدينة ، وافتتح الأقطار شيئاً بَعد شيء ، حتى فَتح مكة ، واتصل النور ، والفتح حتى توفي ، وبقي الفتح ظَاهراً حتى عمر الأرض بوجود نُوره عند خُلفائه والقَائمين به من بَعده ، فلما ضعف الإيمَان الذي هُو النور بقَبضه عن الحق ؛ لمُخَالفاتهم ظهر سُلطان الليل حتى يَأتي وعد اللّه .

---

(١) سورة التوبة : [الآية : ٤٠] .

وهذا المثل المضروب للنبي عليْه السَلام بالشمس مَوجود في قول اللّه تبارك ، وتعالى :

﴿يَاأَيُّهَا النَّبي إنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدا وَمُبَشِّراً وَنَذيراً ، وَدَاعِياً إلى اللّهِ بإذْنِه،وَسِراجاً مُنِيراً ﴾[١] .

فسماه سراجاً مُنيراً ، والسِّراج هُو الشمس كما قال : ﴿وَجَعَلَ الشَمْسَ سِرَاجاً ﴾[٢] .

وجهاد العَدو ظَاهراً بالسيف ، والرمح ،والرَمي مَفهوم ، وشُروطه مَوجودة فيَ كُتب الفقه ، من طَلبها وَجَدها ، وذلك إسلام .

وجهاد الشيطان ،والنُّفوس المتصفة بأخلاق الشَياطين ،والكَفرة ، والمُنافقينَ هُو الذي خفي لبُطونه على الخَلق ، وضَعف على الجمّ الغَفير ، فغَار عليهم العَدو لتسيب ثُغوره ، وأسرهم ، وأوثقهم بحبال غروره ، فَلابد من تبيين معانيه إن شاء اللّه .

فالعَدو البَاطن هم الشياطين ، وأخلاق النُّفوس وصفاتها ، وأسلحتهم الوسَاوس .

وإلى هذا الجهاد الإشارة بقول النَّبي عليْه السلام : «المجاهد مَن جَاهد نَفْسه في طَاعة اللّه »[٣] .

والكَلام في هذا البَاب يَستدعي بَيان أحكام الخَواطر الخاطرة على القَلب ، فإنَّها هِي الأسلحة، وقد قال النَّبي عليْه السلام : « النظرة سَهم مِن

(١) سورة الأحزاب : [الآية : ٤٦] .

(٢) سورة نوح : [الآية : ١٦] .

(٣) الترمذي (١٦٢١) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٣٠٩) ، أحمد (٦/ ٢١) .

سِهام إبْليس، وإنَّما رمى الناظرُ بها حين وسوس له »(١) فقال : انظر ، فَرماه ،
١/٧٦ وإلاّ بالخطرة ، فَقَبلها ، فَنفذت / مُقاتله حتى وَصلت إلى عَيْنه ، فَنَظر فَقَتَلت صفات الصيانة ، والعفَاف(٢) من العَبد ، فَأول ما يَجب أنْ تَفهم أنَّ جَسد الإنسَان خلَق للنفس وصفاتها بمنزلة الوَطن ، والمدينة ، وهي بَاطنة فيه، والدنيا محل الجَسد ، وهي وطَنه ، والنَّفس تطلع إلى الدنيا على طَريق الحواس ، والجَوارح .

والروح بَاطنها في غَيب النَّفس ممَّا يلي الآخرة التي هي محَل المَلائكة عليهم السلام .

والشياطين غيْب في وُجود الدنيا ، فقد حَصَل الإنسان بجملته بين الدنيا والآخرة ، و المَلائكة ، والشياطين بين الدنيا ، والآخرة ، واللّه مُحيط بالجميع .

والخَواطر تأتيه من جَميع جهاته ، ظَاهراً وبَاطناً تَدعوه إلى الخَير ، والشر ، والجُنود مُتصادَمة فيه ومُتَقاتلة ، ولا تفتر(٣) طَرفة عيْن ﴿واللَّهُ يُؤيِّدُ بنصْرِهِ مِنْ يَشَاءُ﴾(٤) .

والخَواطر هي الكَلام ، فالدنيا تَتَزين(٥) للنَّفس بزينتها ، وتَدعو الخَلق إليْها ، وإلى الرَّغبَة(٦) فيها ، وعِمَارتها ، والشغل بهَا ، وكذَلك الآخرة في

(١) الحاكم (٤/ ٣١٤) الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٦٣) ، وقال : رواه الطبراني وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف .

(٢) العفاف : ترك الشهوات من كل شيء ، وغلب ذكره في حفظ الفرج مما لا يحل له .

(٣) تفتر : الفتر : لين بعد شدة ، وسكون بعد حدة ، وفي القرآن الكريم : ﴿ يسبحون الليل و النهار لا يفترون ﴾ .

(٤) سورة آل عمران : [الآية : ١٣] .

(٥) تتزين : تتجمل وتتحسن .

(٦) الرغبة : الحرص على الشيء والطمع فيه .

مُقابلتها تَدعو الخَلق إليها ، والإقْبال عليْها ، والإعراض عنْ الدنيا .

والشيطان يَدعو إلى مَاهو من المخالفات ، والعصيان ، والمَلَك يَدعو إلى ماهو عليْه من الطاعات ، وصِفات الإيمَان .

والروح الذي صِفته العقل يَدعو ، أو ينظر إلى مَا ظَهر لَه مما استحسنه ، واخْتَاره .

والنَّفس تَدعو ، وتَأمر بما فيه غَرضها ، وإرَادتها .

والبَارئ يُحرك الكُل ، ومنه يَأتي كُل خَاطر ، وقَول ، وهَذه كُلها وسَائط ، وللبَارئ تَعالى خَاطر مَنْ عَلم ، واسطة ، وهُو التوفيق ، لكنَّه يقوى في حق قَوم ، ويَضعُف في حَق قَوم آخرين عَلى حَسب إرَادَته تَعالى ، وقُوته وضَعفه فَقد صَارت الخَواطر سَبعة ، لاَ ثَامن لهَا .

أمّا الخَاطر الأول : وهُو خَاطر الدنيا / فإنَّه من نَوع لسَان الحَال ، بل هُو ٧٦/ب
أنْطق من لسَان المقَال ؛ فإنَّ الإيمَان يُذكر بالآخرة ، ويُرَغِّب فيها ، ويَنْسى الدُنيا ، فَهُما ضدان بمنزلة ضُرتين ، إنْ أرضيت إحداهَما أسْخطت الأخرى ، إلاّ أن يكَون مَاتأخذ من الدُنيا ركاباً للأخرة ، فإنَّه يَعود آخرة ؛ ، فإنَّ الرِّكاب مَا يُوصل إلى المنزل ، كما قالَ اللَّه :

﴿**فمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ**﴾(١) .

وهي الإبل المَرْكوبة ، والسفن المركوبة أيْضًا ركاب ، وكُل مَا رُكب ليُوصل إلَى غَرض الرَّاكب فَهُو ركاب ، والمرُاد بهذا أن كُل مَا يخطر من أُمور الدنيا ينظر فإن كَان مُعيناً للأخرة قُبل ورُكب ، وإن كَان مَنْسياً للآخرة مُشْغلاً عنْها طُرد ، ولمْ يَقبل ، وهَذا الخَاطر الدنياوي خَطر فِي ثَلاثة أقسامَ :

---

(١) سورة الحشر : [الآية : ٦] .

القسم الأول : التَّذكير بمَا مضَى ، وفَات من أمور الدنيا التي لا دَرك لهَا ، لأنَّه عَرض قد زَال ، فَالقَائل لهذا الخَاطر والمُستمع له من النَّاس ، ولأنَّه يولد الحُزن على الفَائتات ، والأَسف على الماضيات التي لاَ مَرجع لهَا أبداً .

والقِسْم الثاني : التَذكير بمَا يأتي مِن أمور الدنيا التي لا يدري الإنسان هَل يصلهَا أم لا يَصلها .

والقَائل لهذا الخَاطر ، والمُستمع لَه دَاخل في التذكير للدهور [(١)] وباسط للأمل الكَاذبَ الغرور والمُستغرق فيه أيضًا أحمق ؛ لأنَّه طالب لما لاَ يُدرك ، وإنْ أدرك بَعضه فَهو تَارك لما أدْركه .

والقِسم الثالث : التذكير بأُمور الدنيا الحَاضرة ، وأخذَها ، والدخول في العَمل لها .

ومنْ هَذا الخَاطر يَتولد الحرص ، وهُو سبب عِمارة الحَياة الدنيا ، المنسي للحَياة الآخرة .

والوجه في الخَلاص من غرُور هذه الخَواطر أنْ تُنْظر ، وتُعرض عَلى معيار العلم النَّافع الأُخروي فيقبل منها مَا يحتاج إليْه للّه ، وللآخرة ، وغَير
٧٧/أ ذَلك لغو [(٢)] يُطرح ، ولاَ ينظر إليْه فَيكون عند ذَلك مجُاهدا في / سَبيل اللّه ، غَانمًا من فضل اللّه .

وأما الخَاطر الثاني : الذي هُو الإيمان الأُخراوي فإنَّه مُذكر بالمؤمنات القَانتات عَلى اختلاف أنْواعهَا ، ويَنْقسم عَلى ثَلاثة أقْسَام :

---

(١) الدهور : جمع دهر ، وهو الزمان الطويل .

(٢) اللغو : كلام ونحوه لا يحصل منه فائدة ولا نفع .

القسم الأول : خَاطر إيماني يُذكر بما قَضى على العَبد في الآزَال المَاضية، وكتب لَه في الأقدَار السَالفة من أمور الدنيا، والآخرة، وهو خَاطر محمود.

فما ذكر بأمور الدنيا، وما سَبق للعَبد منها وكذَا العلم ؛ فإنَّ العَبد لاَ يقدر أنْ يزيد فيها، ولا يَنْقص منها فَيَستفيد منْ هَذاَ الخَاطر الرِّضَى، والزهد، والتوكَل، وغَير ذَلك منَ الأحوال المحَمودة، وما ذكره بأمور ما سَبق له من أُمور الآخرة.

وكَذا حال الخَوف بما سَبق، أو جَمع الهم للّه وغير ذَلك ممَّا لاَ ينحصر منْ أحوال النَّاظرين للسابقة.

والقِسم الثاني : من الخَواطر الإيمانية يَذكر العَبد في المَآل، ومَا في المَعاد من الخَيرات، والأهوال، فَيولد الفكر فيما بَعد الموت من أمور البرزَخ، والحشر والميزان، والصراط، والجَنَّة والنَّار، والحساب والغَبن (١) والخُسران، والفَوزَ والرُّجحان، فحَصل منْ هَذه الخَواطر العلم النَّافع، واليقين، والإخْلاص في العلوم، والأعمال، والنِّية المحمودة، وغَير ذَلك من أحوال الصالحين المَشغُولين بما يلقون أمَامهم منْ أُمور الدار الآخرة.

والقسم الثالث : من الخَواطر الإيمَانية يُذكر العبد بما هُو مُلابس لَه من أمور الإيمَان، وهَل هُو بصفة المؤُمنين حقا أمْ لاَ، وهَل يرضى أنْ يُفجأه الموت عَلى مَا هو عليْه أمْ لاَ، فيولد هَذا الخاطر التفتيش والبَحث على مَا هُو عليْه العبَد، وتَرك مَا لا يَنبغي وأخَذ مَا ينبغي، والاسْتعداد للموَت قَبل نُزوله بكُل محمود منَ العلم، والأعمال، والصِّفات، والأحْوال فهذا الخَاطرَ الإيماني منُقسَم/ عَلى ثَلاثة لاَ رابع لها، والخاطر الدنيوي منقسم ٧٧/ب

(١) الغبن : غبنه في البيع غبنًا، غلبه، ونقصه، وفي القرآن الكريم ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾.

على ثلاثة لا رابع لها ، وكُل وَاحد مضاد لصَاحبه ، ومُقاتل له ، إذَا تأملتهما وجدتهما جُندان مُتقاتلان عَلى الدوام ، ﴿ والله يُؤيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) .

الخَاطر الثالث : منَ الخَواطر السبعة : العَدو إبْليس – لعنه الله – فإنه عَلى ثلاثة أنْواع أيْضاً .

النَّوع الواحد : أنّه يَنهى عن فعل الخير كُله من جميع جِهاته وهُو مَعنى قوله : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ ﴾ (٢) .

الوَجه نَاه عنْ المعروف في العَقائد بالتكذيب ، والتَّشكيك ، وفي الأعمال بالصدّ عنها ﴿ويَصُدَّكُم عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ ﴾ (٣) .

والنَّوع الثَاني : الأمر بالمنُكر ، والفَحشاء ، وجَميع أنوَاع الشر ، فإنْ قُبل منه النوعان ، وإلاّ أخذ في الخَاطر الثالث ، وهُو الاحتيال في إفساد معَاني الخَير ، وفَتح أبواب الشر ، والإعانة ، والتحاض على خَاطر الدنيا ، والتثبيط(٤) والكَسل في خَاطر الإيمَان ، وغير ذلك منَ الخَواطر المحَمودة فخواطره لا يَخلو من ثَلاثة أقسام : أمر بالمنكر ، ونهي عنْ المعروف ، والحيلة في إفساء الخَير ليوقع في الشر ، فهوَ شَر كُله ، لاَ يَدعو إلا إليْه .

والخَاطر الرابع : من الخَواطر السبعة : خَاطر المَلَك ، وهُو ضد خاطر الشيطان ؛ لأنَّ المَلَك ضد الشيطان ، وهُو أيْضاً عَلى ثَلاثة أنْوَاع .

النَّوع الوَاحد أمر بالمعروف كُله .

---

(١) سورة آل عمران : [الآية : ١٣] .

(٢) سورة الأعراف : [الآية : ١٦] .

(٣) سورة المائدة : [الآية : ٩١] .

(٤) التثبيط : التعويق والإبطاء فيه .

والنَّوع الثَّاني : نَهي عن المنُكر كله ، فإنْ قُبل منه ، فهو مُراده ، وإلاّ أخذ في إبْطال مَعاني الشر ، والتَّثبيت في حفظ معَاني الخَير ، ألاّ تبطل ، والحضّ عليْها عَلى تَقوية خَاطر الإيمَان ، والخَواطر المحَمودة غيَره ، وحَلْ أضدادها ؛ فإن المَلَك كُله صفة العفية ، والشيطان شَرّ كُله صفة الجَرأة[1] ، فكلٌ فيها عَلى / ضد صَاحَبه ما يَعمل هَذا يَتركه هَذا ومَا يترَك هَذا يَعْمله ٧٨/أ هَذا ، ومَا يُصلحه هَذا يُفسده هذا ، وما يفسد هذا يصلحه هذا ، وما يحرص عليه هذا يكسل عليه هذا ، هكذا إذا بِهما أبداً إلى الوقت المَعْلوم .

والخَاطر الخَامس : من الخَواطر السبعة : خَاطر النَّفس ، وهُو عَلى ثَلاثة أنْواع أيضاً ؛ وذَلك أنَّ النفس لهَا طَبيعتان عَجيبتان في خلقتها الطبيعة الوَاحدة ، طَبيعة شَهوانية ، والأُخرى طَبيعة مَلَكية سُلَطانية ، فَبالصفة الشهوانية تَدعو أبداً إلى تَناول أغْراضها ، والاتِّسَاع فيها إلى غير حَد إنْ لمْ يكُن لهَا مَانع يَضْبطها ، ديني أو غير ديِني من مَرض أَو غَيره ، فهَذا خَاطرها الأول ، مَحله القُوة ، والشَهوانية .

وبالصفة الأُخرى تَدعو إلى العُلوّ ، والظهور والقهر ، والاسْتعلاء ، والتَّزين ، وطَلب المدح والثَّناء ، ومَا في هَذا المعنى .

وهَذا خَاطرها الثاني محله القُوة التملكة السلطانية ، وقد انْتهى الخَاطر بأقوام إلى أنْ ادَّعوا الرّبُوبية واستعبدوا غَيرهم .

وقَد انْتَهى الخَاطر الشهواني بِأقوام إلى أنْ عَبدوا غَيرهم منْ المُتَشهيات المُسْتحسنات .

وأما الخَاطر الثَّالث فإنَّه مُنقلب مَع جَميع الخَواطر التي تأتيها من غَير هَذين الصِّفتين ، فَمَرة تكون مَع خَاطر الدنيا بالتَّمني لما تُلقى إليهَا من

---

(١) الجرأة : الإقدام على المعصية .

غُرورها (١) وتَارة مع الشيطان بتَسْويلها الطلب بتَقيد مَا يأمرها به ، وتَارة مَع خَاطر الإيمَان بالكرَاهية ، والدَّعوة إلى التَّثاقل فَي أمور المعاد كُله ، وتَارة مع خَاطر الملك بقَولها : سَوف ، سوف وهكذا مَع كُل خَاطر يرد عليْها جبَانة في الخَير شُجاعة في الشَرّ فإن حُملت عَلى الشرع ، وخُولفت عَلى طَاعة ، وأذْعنت (٢) .

٧٨/ب فمن أجل غيرها ، لامن أجلها ، فَلذلك / قيل : النَّفس لاَ تصدق ، وجَعلوا إخلاصها كَذَباً ، وتَبرئها دَعوا ، وجَميع مَا تَحمل عليْه ، إنْ كَانت مُطمئنة ولَوامة ، ومَرحومة ، لاَ يُنسب شَيء إليْها ؛ لأَنَّه مَجْبولة عليها ، ولَو تركت لعَادت إلى طَبعها .

الخَاطر السادس : وهُو خَاطر الرُّوح العَقلي ، وهُو خَاطر التدبير لأمر هَذه المَملكة ، والنَّظر في جَميع الخَواطر الوَاردة عليْه مِن جَميع الجِهات ، وفيِ الخبرة « لاعَقَل كالتَّدبير » (٣) .

وفيه تُوجد الفُهوم ، و العُلوم الرَّبانية ، هَذا الشَّخص هُو الملَك ، وإليه يَجب أنْ تَرجع أمور المملكة كُلها فيختار مَا أمره الشَّرع أنْ يَختار ، ويَترك مَا أمره الشرع أنْ يترك ، ويَسْتحسن مَا أمره الشَّرع أنْ يَستحسن ، ويَسْتَقبح مَا أمره الشرع أنّ يَستقبح .

وصفة خَاطر هَذا المَلَك التثبت ، والنَّظر في جَميع مَا يَرد عليْه من الخَواطر ، فَينفذ منها مَا يجب تَنفْيده ويَرد مَا يَجب ردَّه ، وخَواطر هَذا الجَوهر الشريف وإنْ كَثرت لاَ يَخلو أيْضًا من ثَلاثة أنواع .

---

(١) غرورها : خداعها وأطماعها إياه .

(٢) أذعنت : انقادت وسلست ، ويقال : أذعن بالحق ، أقر به .

(٣) في أصل بدون « اللام ألف » والحديث عند الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٨٣) ، وقال : رواه الطبراني وفيه أبو رجاء الحنظي واسمه محمد بن عبد الله ، وهو كذاب .

النَّوع الأَول : الأمر بالتَّنزه عنْ ذي الأخلاق والأعمال ، وسفَسافها[١] ظَاهراً ، وبَاطناً .

والنَّوع الثاني : الأمر بالاتصاف بمحَاسن الأخْلاق والأعمال ، والأحوال وأعاليها ظَاهراً ، وبَاطناً .

والنَّوع[٢] الثالث : الأمر بإعْطاء جَميع مَملكته حُقوقهم ، وتَنفْيذ الأحكام الشَّرعية فِيهم .

فصل

فأمّا الخَاطر السابع : -وبه تمت الخَواطر- فَهو خَاطر البَارئ تَعالى ، وهُو عَلى ضَربين .

الضرب الوَاحد : يَأتي بوَاسطة ، وهُو جَميع مَا تقدم منَ الخَواطر كُلها ، فإنَّها مُضافة إلى غَيره مجازاً[٣] ، وإليه حَقيقة إلاّ أنَّ هَذا الخَاطر يأتي من اللَّه بواسطة مَلَك ، أو روح ، أو نَفس ، أو شَيطان أو دُنيا ، أو أخرى ، ولذَلك لمْ يكن فِيه خَير ، وبه قَامت الحجة عَلى الخَلق ؛ لأنَّه جَار عَلى الاختيارَ .

١/٧٩أ والضرب الثاني / : من خَاطر الحق ، هُو : مَاورد على سر العَبد بحكم الجَبر ، فلا يُمكن الانْفكَاك عنْه ، وفيه تُوجد الفَراسات[٤] لأَهل المعرفة ، وفيه يُوجد الحَياء والانْكسار ، والذَل للبَارئ سُبحانه وتعالى ، فإنَّ البَارئ تَعَالى مَا تجلى لشيء إلاّ خَضع له ، وخَشع ، وتَقوى في حق قَوم ،

(١) سفساف : الرديء الحقير من كل شيء وعمل .

(٢) في الأصل : « الخاطر » ولعله سبق قلم من الناس ، وما أوردناه يقتضيه السياق .

(٣) المجاز : المعبر ، وفي « علم البيان » استعمال اللفظ في غير دلالته المشهورة لعلاقة ما ، ويقابل الحقيقة .

(٤) الفراسات : جمع فراسة ، وهي : المهارة في معرفة بواطن الأمور من ظواهرها .

وَيضعف في حق آخَرين .

فهذه جُملة الخَواطر ترد على قلب العبد مع عَلى كُل خطرة مَا في نَوع منها قَوي ، وغَلب حكم عَلى العَبد ، وملَك القَلب بقدر قوته ، وغَلبته ، وَهَذا الجهاد قَد عمَّ المقَامَات كُلها مقَام الإسْلام والإيمان ، والإحسَان ، وعمَّ النَّفس ، والرُّوح والجَسد ، وهُو فرض وَاجب على الأعيان مَادام الإنْسان في الدنيا ، أنه إذَا غَلب حزب اللَّه على حزب الشيطان ، وملَكَ الرُّوح ، وانْقَادت النَّفس انْحاز [١] العَدو عنْ القلب ، ولم يكُن له في بنْيَة الإنسَان مَسكن ، ولاَ مَأوى وكَان خَارجا عن مَملكة الرُّوح ، ولمْ يَكن لَه فيها سُلطان ، ولا حُكم ، فغاية مَا يقدر عليّه بعد هَذه الحَالة أنْ يُغير على أطَراف مَملكة الروح ، وتغير الجَوارح بكَتَائب وسَاوسه ، وتعريضَاته ، فَينْبَغي إذْ ذَاك سد تلك الثُغور بَعضها و [. . . . .] [٢] وغلقها بالمُراقبة ، ومَتى لاَحت غَارة للعَدو ، وكَثُرت عليْها جُنود الكرَاهة والمخُالفة .

وفي مثل هَذا العَبد ورد في الخَبر : « **خَير النَّاس رَجُل أخذ بعِنان [٣] فَرسه في سَبيل اللَّه** » [٤] . إلى آخر الحديث .

وقَال في حديث آخر في هذا المعنى :

«**مَثل المُؤمن مثل الفَرس يَجُول في أخيته ، ثمَّ يَرجع**» [٥] .

والأخية [٦] هو الحبل [٧] الذي يربُط في رجل الفَرس فَيرعى منْ كل

---

(١) انحاز : ابتعد وتفرق . (٢) بياض بالأصل .

(٣) العنان : سير اللجام الذي تمسك به الدابة .

(٤) الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٤٦ ، ٤٦٤) .

(٥) أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٧٩) أحمد في المسند (٣/ ٣٨) .

(٦) الأخية : عروة تثبت في أرض أو حائط تربط فيها الدابة .

(٧) في الأصل : « الطبل» وهو خطأ .

جَانب ، فإذَا أراد أنْ يخرج من الحدّ الذي رَبَطته فيه الأُخية جَبذه [١] الحَبل ، فَرده ، وهكذا المؤمن إذَا ركب الرَّوح النَّفس ، والجَسد ، وكَان مَركوباً ./ بمعنى أنَّه حَاكم لَه ، كَان مُقيداً تَحت حُكمه ، فإذا أرسله في ٧٩/ب المُباحات سَرح ، فإذَا أشرف عَلى الخُروج جَذبته الأُخية ، فَرجع إلى حُكمه ، وفي مثل هَذا الفَرس قَال عليْه السلام :

«منْ خير مَعاش النَّاس لهم رجل ممسك بعنان فَرسه في سَبيل اللَّه يطير على مَتنه كُلما سمع هَيعة ، أو فَزعة ، طَار على مَتنه يَبْتَغي القَتل والموت مضانة » الحديث [٢] .

وكَذلك في الأَخبار : « إنَّ الخَيل ثَلاثة ؛ فَرس للرحمن ، وفَرس للإنْسَان ، وفَرس للشيطان [٣] » .

وورد أيضاً « الخَيل ثَلاثة: لِرجل أَجر ، ولِرَجل سِتر ، ولِرَجل وزر [٤] » .

وهكذا كُلما ورَد في الجهاد منَ المعنى ، وهَيئة ظَاهراً ، فَله حَقيقة في الجهاد الأكبر في مقَام الإيمَانَ ، و الَإحْسَان ، وإنَّما نَبهتُك عَلى هَذا لتفطن بِمعَانيه البَاقية إنْ شَاء اللَّه .

ومنْ حَقَائق الجهاد في مقَام الإحْسَان مَا تحتمله الأرواح ، والعُقول من الجهد ، وتَجلي الحقيقَة ، ومكَابدة الفكر الذي سَاعة فيه خَير منْ عبادة سَنَة ،

(١) جبذت : جذبت وفي الحديث : « فجبذني رجل من خلفي »

(٢) ابن ماجة (٣٩٧٧) .

(٣) أحمد (١/ ٣٩٥) ، الطبراني في الكبير (٤/ ٩٣) ، الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٦٠) ، وقال: رواه الطبراني وفيه مسلمة بن علي وهو ضعيف .

(٤) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الزكاة (باب ٦ رقم ٢٤) ، ابن ماجة (٢٧٨٨) .

وغير ذلك من الأحوال التي لاَ يُطيقها إلاّ الأفراد، وفرّعها، الجَم(١) الغفيرُ في مُكابدة سُلوك طَريق الحق، فافهم .

وإنَّما يصل الإنسَان إلى هذه الدَّرجة إذَا فَتح اللَّه عليه قلبه عُنوة، كَما فتح اللَّه على محمد عليْه السَلام مكةَ، ولاَ يصل إلى هَذه الدرجة إلا بالهجرة، وهي شعبة من شُعب الإيمَان، فإنَّ الإنسَان لَمَّا خُلقَ، ورُبى عَلى عَادَاته، وجبلاّته(٢) وأخلاقه، ومَع شَياطينه الموكلة به، فكان غرر الجبلات فيه، وأخلاق الجَهل، والشياطين فيه مثل لسُكْنَي المُشركين بمكة، فإذا ظَهر وَقت التَّكليف(٣) الشرعي فيه كَانَ بمنزلة ظُهور الشَارع محمد عليْه السلام بمكة، فَيظهر الإيمَان شَيئاً شَيئاً وَيظهر عليْه صفات الجَهل، والأخْلاق، والصفات، والوسَاوس الشيطانية / . فَلا يُبرئه منها إلا الهجرة، فَيهجر السوء ويَفر إلى مَواطن الديانة التي هي بمنزلة المدينَة التي هَاجر إليها النبي عليْه السلام وأصحابه، فَيؤيده اللهُ بِصفات النَّصر والعَون، والقُوة التي هي في معنى الأنْصَار . ١/٨٠

واسم المدنية يثرب، والتثريب هُو التَّحرج، والتَّعيير والتَّوبيخ(٤) فيفر العَبد عن الكَون إلى منْ هاجر عَنه من حزب الشيطان إلى مَواطن الدين من جَوارحه، ولا يزال يُهاجر إليْه كُل ناصر للَّه، ويأوي كل من هاجر إليه من خَاطر، أو صفة، أو عمل، ويُثرب عَلى نفسه، وأخْلاقه، ويُضيق عليها بالجهاد، والغَارات مَرة بعد مرة حتى يُهلك اللَّه صفة الجَهل التي هي في اعتبَار أبي جَهل، ومن تَابع الجَهل مِن صفات الإنسَان الذين هم مثل أتباع

(١) الجَم : الكثير من كل شيء، وفي القرآن الكريم : ﴿ ويحبون المال حبًا جمًا ﴾ .

(٢) جبلات : جمع جبلة، وهي : الطبيعة والخلقة .

(٣) التكليف : بالأمر، فرضه على من يستطيع أن يقوم به .

(٤) التوبيخ : اللوم، وبخه : لامه وعزله .

أبي جَهل في مَواطن المُبادرة للجِهاد ، الذي هُو في اعتبار بَدرٍ .

ثم لايزال يَقوى بجنود أنصار اللّه على من بَقي حتى يدخل الشرع قلبه عُنوة ؛ أي بالقهر والاستيلاء ، كما دخَل الشارع مكة ، وحينئذ تَتم الهجرة، ويَبقى الجهاد في نَواحي البلاء كَما قَال عليْه السلام : « لاَ هجرةً بَعد الفتح ، ولكن جهاد ونية »[١] .

وإن لمْ يصل الإنسَان إلى هذه الدَّرجة في الدنيا بالجهاد ، والرباط ، وإلا بَقي مُستضعفًا حتى تُقاسى شَدائد الأهوال في مَواطنَ المَال حتى يُصفى منه كل خُلق مذموم[٢] ، ولايَدخل الجنة إلاّ وهو طَاهر نقي من صفات الشيطان والفُجار ، والمنُافقين ، «لايَدخل الجنَّة [من في قلبه][٣] مثقالَ ذرةٍ من كبر»[٣] والفَخر ، والخُيلاء في النَّار »[٤] .

وغير ذلك مما ورَد في الأحاديث منْ صفات العُجب وأهل قَبضة الشمال التي هي من حزب الشَيطان لابُد من زَوالها ، وتَطهيرها ، وقلْعها ، إمَّا بالمجاهدة في الحَالَ ، وإمَّا بالجَهد/ والمشَقة في المال . ٨٠/ب

ونَسأل اللّه تَعالى النَّصر العزيز من لَدنه ، والتَّيسير لجَميع أُمورنا بمنه وفَضله إنَّه عَلى مايَشاء قَدير .

واعتبر الجِهاد من نَفسك وجميع شَرائع الإسلام في جَميع العَالم تَجد

---

(١) صحيح : البخاري (٣/ ١٨) مسلم في صحيحه كتاب الإمارة (ب ٢٠ رقم ٨٥) ، الترمذي (١٥٩٠) ، أبو داود (٢٤٨٩) .

(٢) المذموم : المعاب الملام .

(٣) سقطت من الأصل .

(٤) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (ب ٣٩ رقم ١٤٧) ، والترمذي (١٩٩٨] ، وأبو داود (٤٠٩١] ، وابن ماجة (٥٩) .

ذَلك بيناً ، وَاضحًا إن شَاء اللَّه ، واقرأ : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينا لَنَهدِيَنهُمْ سبُلَنا وإنَّ اللَّه لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] .

(١) سورة العنكبوت الآية (٦٩) .

ذكر العاشرة من الشعب

وهي الهِجْرَة

وقد تقدم الكَلام عليْها في الجهاد ؛ لأنَّها والجهاد مرتبطان، لا ينفك أحدهما عن صَاحبه ؛ فإنَّ الإنسَانَ لا يجاهد إلا مَنْ هجَرَه ، وإذَا أحبّه ، ولمْ يَهجره لمْ يُجاهده .

واعلمْ أن الهِجرة عَلى ضربين : ظَاهر ، وبَاطن .

والبَاطن منها عَلى ضَربين : ضَرب في مقَام الإيمان ، وضرب في مقام الإحسَان ؛ فالظَاهر منها هُو الفرار بالجَسد منْ مَواطن الفتن ، لقول النَّبي عليه السلام : «أنَا بريء منْ أهلَ ملتين تَتَراءى نَارهما »[1] فتبرأ النبي عليه السلام منهم لعَدم هذه الشعبة فيهم ، وهي الهجرة ، فهي إذاً من أعظم شُعب الإيمان ، ولقولَ النَّبي عليْه السلام وقد ذكر الفتَن فقال : «لا يَسلم لِذي دِين دينه إلاّ مَنْ فرَّ من شَاهق إلى شَاهق » .

وقال اللَّه تعالى : ﴿إنَّ الَّذين توَفَّاهُمُ المَلائكةُ ظَالمي أنْفُسهم قَالُوا فيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مستَضْعَفينَ في الأَرْض قَالُوا أَلَمْ تكُنْ أَرْضُ اللَّه وَاسعَة فَتُهَاجروا فيهَا ﴾[2] الآية ، وفي البُخاري : «والفِرار من الفتِن من الإيمَان » .

فما كَان من الإيمَان فهو من شُعبه بلا شَك .

وقال الله تَعالى[3] : ﴿لايَتَّخذ الْمُؤْمنُون الكَافِرينَ أَوْليَاءَ مِنْ دُون الْمُؤْمِنين

(١) الترمذي (١٦٠٤) ، أبو داود (٢٦٤٥) . (٢) سورة النساء الآية (٩٧) .

(٣) ذكر المؤلف -رحمه الله- أول الآية (١٤٤) سورة النساء ﴿يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخذُوا الكَافرينَ أَوْليَاءَ﴾ ثم عقبها بسورة آل عمران الآية (٢٨) وقد تم تصويبها -والله أعلم بمراده- نسأل =

وَمَنْ يَفعَل ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّه في شَيْءٍ ﴾ (١) .

١/٨١أ وقَال في آية أخرى / ﴿يَاأَيُّها الَّذين آمَنوا لاَ تَتَّخذُوا اليهُودَ وَ النَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم منْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (٢) .

فالفرارُ ظَاهراً من بيْن ظَهراني المُشركين واجب على كل مسلم .

وكذلك كُل مَوضع يُخاف فيه الفتنة في الدين من ظهور بدعة (٣) ، أو مايجر إلى كُفر في أي بلد كان من بلاد المسلمين ، فالهجرة منه وَاجبة إلى أرض اللّه الوَاسعة ، والله أعلم بحكَم مَنْ حَبسته ضَرورَة في مَواطن الفتنة .

فهذه هجرة ظَاهرة بالأبدان في مقَام الإسْلاَم ، وأما باطنها في مقام الإيمان فقد تَقدم الكَلام عليْه في البَاب الذى قَبل هَذا في آخر الجهاد ، ومعناه الفرار مما تدعو إليه النَّفس الأمَّارَة بالسوء ، والشيطان إذَا كَان الإنسَان مُستضعفًا ، مَغْلوباً بصفَاته ، وأعدائه .

وإن لمْ يَفر ، ويَركن ويَرضى ، ويُتابع فقد اتخذ الشيطان ولياً ، فيخاف التمادي حتى يَخرج عن صفة عباد اللَّه الذين قَال لهم : ﴿إنَّ عبادِي لَيس لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَان ﴾(٤) وكما قيل : المعَاصي تَزيد الكُفر كمَا الطاعات تزيد الإيمَان ، وفي هذا المعنى قال النَّبي عليْه السلام «المهاجر مَنْ هَجر السوء»(٥) .

=الله أن يعصمنا من الزلل .

(١) سورة آل عمران الآية (٢٨) .

(٢) سورة المائدة الآية (٥١) .

(٣) البدعة : ما استحدث في الدين وغيره وليس أصلاً منه .

(٤) سورة الإسراء الآية (٦٥) .

(٥) أحمد (٢/ ٢٠٦) الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٥٤) وقال : رواه أبو يعلى ، والبزار وأحمد ، ورجاله رجال الصحيح إلا على بن زيد وقد شاركه فيه حميد ، ويونس بن عبيد .

وحقيقة الهجرة في مقام الإحْسَان الذي هو مقام الروح الفرار إلى اللَّه من كل شَيء ، كمَا قال اللَّه : ﴿ففِرُّوا إلى اللَّه﴾ (١) أي من الأزواج ، ومن رُسوم النفوس ، وغير ذَلك وروي عنْ أبي هند عنْ مُعاويَة ، أن رسُول اللَّه ﷺ قال : «لا تَنْقَطع الهِجرة حتَى تنقطع التَّوبة ، حتى تَطلع الشمس مِن مغْربها»(٢) .

ذكره أبو داود في السنن .

فالهجرة التي كَانت في أول الإسلاَم كانت فراراً إلى اللَّه ، ورسُوله ، وهي الآنَ كَذلك إلى كتابَ اللَّه ، وسُنة رسُوله ، ومن يَخرج من بيته ، مهاجراً إلى اللَّه ورسُوله عَلى المعاني / الثلاثة ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أجْرُه عَلَى اللَّه﴾(٣) . ٨١/ ب

وإذَا نظَرتَ المَوجودات أيْضاً كلها ؛ أعني العَالم الكُلي ، وجدته منُافراً للقَبيح كُله ، وذلك حقيقة الهجرة ؛ لأن مَن هَجر شَيئاً يَفر منه ، ولمْ يُواقعه ؛ ﴿ففِرُّوا إلَى اللَّه إني لَكُمْ مِنْهُ نَذير مُبين﴾ (٤)

منَّ اللَّه علينا ، وعليكم بعصمته ، ولا جعلنا ممن فتنه ، وعَرضه للحَق برحمته ، وصلى اللَّه على محمد وعلى آله وسَلم تَسليماً كثيراً .

---

(١) سورة الذاريات الآية (٥٠) .

(٢) أبو داود (٢٤٧٩) .

(٣) سورة النساء الآية (١٠٠) .

(٤) سورة الذاريات الآية (٥٠) .

الشعبة الحادية عشرة

الاستقامة

أما كونها من شُعب الإسلاَم فَدليله قَول النبَّي عليْه السلام : « علَيكم بسُنتي ،وسُنة الخُلفاء الراشدين المهديين بَعدي تمسكوا بِها ، وعَضوا علَيها بالنواجذ وإيَّاكم ومُحدثات الأُمور ؛ فإنَّ كُل مُحدثة بِدعة وكُل بدعة ضَلالة » [١] وما كَان ضَلالاً فهُو ضد الهُدى ، والهُدي من الإسلاَم لِقَوله تَعالى : ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٢] .

وهي على ضربين : ظَاهر ، وبَاطن ، والظاهر تَرك مَا خالف السنة ، وهي البدَع في الأعمال ، والأقوال ، واستقَامة اللسَان والجَوارح عن المَيل إلى الأَعمال القَبيحة المخالفة للسنة ، واتباعَ الدنيا المذمومة .

والبَاطن على ضَربين : ضَرب في مقَام الإيمَان للنفس وهُو استقامة النَّفس عَن الميل إلى الأغراض الذَّميمة ، والمذَاهب المعُوجة غَير المُستقيمة ، وترك الإنكبَّاب على الدُنيا ، ومَنعها ، وكفحها عمَّا يُنكّسها ويُنفرها من النجاة الأخراوية .

وضَرب في مقَام الإحسَان للرُّوح ، والعقل ، والقَلب ، وبكمال استقامة القَلب ، والروح ، والعقَل في مقام الإحسَان تكمل استقَامة الجَوارح في مَقام الإسلاَم ، وتكمل / استقامة النَّفس في مقام الإيمَان ، فَتقبل الجُملة ٨٢/أ

(١) أبو داود (٤٦٠٧) الترمذي (٢٦٧٦) ابن ماجة (٤٢) .

(٢) سورة آل عمران الآية (١٠١) .

على اللَّه تبارك وتعالى ، ويترك المَيل إلى سواه إلاّ بأمره ، ولا يَقْدر عليه إلاّ الروحانيون المقُربون ؛ فالاستقامة في البَاطنَ ترك اعتقاد كل بدعة .

وهَذه المعَاني كُلها -ظَاهرا وبَاطناً- موجودة في قوله تعالى : ﴿إنَّ الذينَ قَالُواَ رَبُّنا اللَّه ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (١) وقال عُمر بن الخَطاب -رضي اللَّه عنه- في تَفسير قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي لمْ يُراوغوا (٢) رَوَغان الثعالب .

والثعلب بخُبثه إنَّما يطلب بنيات الطرق .

فالاستقَامه ترك بنيات الطرق ظَاهراً ، وبَاطناً ومثلها في الاعتبار من مشى في طرَيق مسلوك ، فعرض له يَمينًا وشمالاً طريق غير مَسْلوك ، ولا وَاضح ، فأخذ عليْه أفضى به ذَلك الطريق إلىَ مخدع ، وذلك المخَدع إلى مَخدع ، حتى يَتلف ولا يَجدَ مَخرجاً قَصده إلاَّ أنْ يرجع إلى الطريق الأول ، فحينئذ يَصل إلى مقصوده الذي خرَج له .

فحقيقة الاستقَامة مأخُوذة من قَولك : قَوّمت الشيء إذَا عدّلته ، وهو زَوال الاعْوجَاج والميل ، فمن لمْ يَعوج ، ولِمْ يَمل ظَاهراً في مقَام الإسَلام عن السنة ، ولا باطناً عن العَقيدة ، ولا حقيقة عن الميل لغَير اللَّه فقد استقَام .

ومن الاستقامة فَريضة ، وفَضيلة .

فأما الفَرض منها في الظاهر ؛ فَلأن لايدخل في مَذاهب (٣) المبتدعين (٤) وهي مِثال لبينات الطرق ، والفَرض منها في الباطن ألاّ يَزيغ قلبه في

---

(١) سورة فصلت الآية (٣٠) .

(٢) يراوغوا : يحيدوا ويذهبوا يمنة ويَسرة في سرعة وخديعة .

(٣) المذاهب : جمع مذهب ، وهو : الطريقة ، المعتقد الذي يُذهب إليه ، وعند العلماء : مجموعة من الآراء والنظريات العلمية والفلسفية ارتبطت بعضها ببعض ارتباط يجعلها وحدة منسقة .

(٤) المبتدعين : جمع مبتدع وهو مستحدث البدعة التي ليست من أصل الدين .

مَذاهب الزّائغين (١) وهمْ الذين عَنى رسول اللّه ﷺ في الحديث الذي رواه معاوية بن أبي سُفيان -رضي اللّه عنه - قَال معاوية : ألا إنّ رسول اللّه ﷺ قَام فينا فقال : «ألا إنّ منْ قَبلكم منْ أهل الكتاب افترقوا على اثنين وسَبعين ملة/ وأنَّ هَذه الملة ستفترق على ثَلاث وسَبعين ، اثنتان وسَبعون في النّار ، وواحدة إلى الجنَّة»(٢) . ٨٢/ب

فَمثال الاستقَامة بيْن تلك الفرق كلها مثل الحنفية دين إبْراهيم عليه السلام بيْن جَميع الأديان الخَارجة عَن دين الإسلام ؛ فإنَّ الحنيف في اللغة هُو المستقيم ، والمائل من جَانب إلى جَانب ، فإبراهيم عليه السلام [. . . . .](٣) واستقام عليْه .

وكذلك تَارك الأهواء (٤) إذا مال عن بينات الطريق ، وركب المحجة البَيضاء ، واستقَام ، وذَلك تَرك جَميع البدع في دين الإسلاَم قَولاً وعَملاً ، وترك عُقود أهل الزيغ بَاطناً ، ومَذَاهبهمَ كَثيرة ، والتَّفتيش عَليها يطول به الكَلام لكن يَتبين لك ذَلك بمعرفة الفرقة الوَاحدة ، إذا عَرفتها والتزمتهَا عَرفت أنَّ ما سواها باطل مُعَوج . فهذا فَرض الاستقامة .

وأمَا فَضيلتها ، وحَقيقتها في المَقَامات الثلاثة فهو تَقويم الظَواهر ، وتَهذيبها بأداء الشرع حتى تستقيم الجَوارح ، واللسان ، فتميل عنْ المخالفات والعصيان .

وتقويم البَواطن برياضة النُّفوس وحَمْلها على الاستقامة بتَرك الميل إلى هَذا الخَسيس الفَاني والَميل عنه إلى الإقبال على الدَّائم الباقي ، وحينئذ يكون

---

(١) الزائغين : المائلين عن الحق .

(٢) أبو داود (٤٥٩٧) .

(٣) بياض بالأصل .

(٤) الأهواء : جمع هَوَى ، وهو : ميل النفس إلى الشيء خيرًا كان أو شرًا .

العَبد كما وصفه اللّه تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقنَا الإ نْسَان في أَحْسَنِ تَقْوِيم ﴾ [١] .

وإنَّما يكون العَبد في صفة الإنْسَانية التي فارق بها غيره من الحَيوان ، والنَبات ، والجَمادات بارتقائه عنْ صفاتها إلى صفات الملائكة الكرام ، فحينئذ ارتفعت همته إلى العالم الرِّضْواني ، واشْتَاق إلى المَلأ الروحاَني ، فكان مَاشياً عَلى صِراط مُستقيم .

وقد أثنى اللّه عَلى نبيّه بحَقيقة الاستقَامة فقال : ﴿مَازَاغَ البَصرُ وَمَا طَغَى﴾ [٢] أي مَا قَال إلى النَّظر إلى سِواه ﴿ومَا طَغَى ﴾ [٣] لمْ يُجاوز حدّ الأدب في نظره .

١/٨٣ فإذا/ نَظرت الموجودات كُلها وجدتها مُستقيمة ، جَارية على مَاحولها ، غير زَائغة ، لا تميل إلى الاعْوجاج إلي غير اللّه ، هذا شَامل [٤] لجميع أجزاء الموجودات ليس منها شَيء مال إلى غير اللّه هذا شامل لجَميع أجزاء المَوجودات ، ليسَ مِنها شيء مَال إلى غير اللّه سِوى الثقلين ؛ الجنّ والإنس .

مَنَّ الله علينا بما من به عَلى أحبابه ، وأصْفيائه ، آمين ، وصلى اللّه على محمد وآله .

(١) سورة التين الآية (٤) .

(٢) سورة النجم الآية (١٧) .

(٣) سورة النجم الآية (١٧) .

(٤) شامل : يَعُمُّ ويحيط .

الشُعبة الثانية عَشرة
وهي الجَمَاعة
وهِي الألفة

فأمّا كونها من شُعب الإيمان فدليله قول النَّبي ﷺ : « منْ فَارق الجَماعة شبرًا فقد خَلع ربقة الإسلاَم من عُنقه »(١) .

فما يخلع ربقة الإسلام زَواله ، فهو إذاً من أعظم شُعب الإسلاَم .

وقال اللّه تعالى في الكَون مع الجَماعة :

﴿وَمَنْ يُشَاقق الرَّسُولَ منْ بَعْد ما تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمنِينَ نُوَلِه مَا توَلَّى وَنصلِه جهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾(٢) .

وغير ذَلك من الشواهد التي يَطول ذكرها ، وإنَّما غَرضنا الاختصار ؛ فالجَماعة هُم الذين عنى النبيّ ﷺ في الحَديث الذي أوردناه في بَاب الاستقَامة حيث قَال : «وإن هَذه الأُمة سَتفترق على ثَلاث وسَبعين ، اثنتان وسَبعَون في النَّار ،وواحدة في الجنة وهي الجَماعة » .

وسئل النَّبي عليْه السلام عن تلك الوَاحدة الناجية فقال : « منْ كَان على مَا أنا عليْه ، وأَصحابي »(٣) .

---

(١) أبو داود [٤٧٥٨] ، الحاكم في المستدرك [١/ ١١٧) ، الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٤٤) وقال : رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه خليد بن دعلج وهو ضعيف .

(٢) سورة النساء الآية(١١٥) .

(٣)أبو داود (٤٥٩٧) .

فالأُمة افترقت على هَذا العدد ، وأصل هذا الافتراق يَنحصر في أربع طَوائف .

الطائفة الواحدة : القَدرية ، وهُم المعُتزلة [(١)] افترقوا عَلى اعتزالهم على ثَماني عشرة فِرقة .

٨٣/ب **والطائفة الثانية** : المُرجئة ، افترفوا في إرجَائهم أيضاً على ثَماني عشرة / فِرقة .

والطائفة الثالثة : الرافضة [(٢)] ، افْترقُوا عَلى تَشيعهم على ثَماني عشرة فرقة .

والطائفة الرابعة : الخَوارج [(٣)] ، افترفوا في خروجهم على ثماني عَشرة فِرقة .

فهذه اثنان وسَبعون فرقة ، والثَّالثة وسَبعون هم النَاجية ، وهُم أهل السنة ، والعلم ، وهمْ الذينَ عنَى اللّه عزوجل بقوله :

﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾ [(٤)] وحبل اللّه هو القُرآن الذي هُدي به رسُوله عليْه السَلامَ ، وأصحابه .

والفِرق المذكورة هُم الذين عَنَى اللّه بقوله :

---

(١) المعتزلة : أولى المدارس الكلامية الكبرى ، تؤمن بالعقل وتحاول التوفيق بينه وبين النقل ، وتلجأ إلى التأويل ما وسعها ، وفي هذا ما باعد بينهما وبين السلف وأهل السنة ، اسسها : واصل بن عطاء ، ومن أكبر رجالها أبو هذيل ، وإبراهيم النظام .

(٢) الرافضة : فرقة من الشيعة تجيز الطعن في الصحابة سموا بذلك ؛ لأنهم رفضوا نصح زيد بن على حين نهاهم عن الطعن في الشيخين أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب .

(٣) الخوارج : فرقة من الفرق الإسلامية خرجوا على الإمام عليّ وخالفوا رأيه ، ويطلق أيضاً علي من خرج على الخلفاء الراشدين ونحوهم .

(٤) سورة آل عمران الآية (١٠٣) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [(١)] يعني رسُوله عليه السلام .

ولما كان الصَّحابة -رضوان اللَّه عليهم- مُشاهدين للرسُول ، ومتبعين لَه مُقتدين به كَانوا أيضًا لَيسوا من الفرق المُفترقة في شيء ، فلذلك قال عليْه السلام في تَفسير الفرقة الناجية : «مَن كَان على مَا أنا عَلَيْه وأَصحابي » . ولذَلك قَال أيْضاً : « أَصحابي كَالنجوم بأَيهم اقْتديتم اهْتديتم » [(٢)] .

فالجَماعة همُ النبَّي عليْه السلام ، وأَصحابه ، ومن تبعهم عَلى منَاهجهُم ، وهمْ أهل السنة .

ولَمَّا كَانت النجوم منها الكَبير الجرم ، الكَثير الضياء ، والصغير الجرم ، القَليل الضياء ، والوسَط فيما بين ذَلك ، وشبه أَصحابه بالنُّجوم كَأن أصحابه أيْضًا كذلك منهم القَوي الكثير العلم مثل الخُلفاء ، والعُلماء منهم ، والذين ظَهروا في الَدين للاقْتداء بهم ، مَنهم القَليل الضياء ، والوسط ليكونوا كُلهم أئمة يُقتدى بهَم في القُوة ، والضعف ، وجَميع الأَحوال ، إلاّ أنَّهم كَانوا كُلهم أهل علم ، فالنُّجوم كلها مُضيئة ، وفي كلها اقْتداء ، إلا أنَّ بَعضها أقوى منْ بَعض وكذلك أيضاً تابعُوها إلى يوم القيامة ، فمن عَمل صَالحاً ظاهراً ، أو باطناً أصله في كتاب / اللَّه وسُنة رسُولَ اللَّه ﷺ أو عَمل الصحابة فَهو من أهل السنة ، والجَماعة . ١/٨٤

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٥٩) .

(٢) موضوع : تفرد به جميل بن يزيد عن مالك ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جابر رفعه : فذكره .

أخرجه الدارقطني في غرائب مالك ، والخطيب في « الرواة » عن مالك ، قال الدارقطني : لا يثبت عن مالك ، ورواته مجهولون ا هـ.

راجع لسان الميزان (٢/ ١٧٣) ، الميزان (١٥١١) ، كشف الخفا (١/ ١٤٧) ، التلخيص (٤/ ١٩٠) .

فالجَماعة : ضدها الفُرقة ، ولذلك افترقت الفرق عَلى ثنتين وسَبعين ، ولم تَفترق الفرقة الواحدة ، . فقالَ النبي ﷺ فيها : « وَوَاحدة في الجنَّة » ١/٧٣
فوَصفها في قوله : وواحدة في الجَنَّة بالوحدة ، وهِي الألفة على مذهب واحد ، وبالاقْتداء بِنَبي واحد يَسوقهم إلَى ملك واحد .

واخْتلاف أهل السنة في الفتوى والمذَاهب إنَّما هُو بمعنى الاتساع ، وتَرك الضيق ، والحَرج لاَ بمعنى الاخْتلاف الذي هُو الشَّتَات (١) والفُرقة ؛ فإن النبي عليْه السلام هو إمام الصحابة ، وأخَذ الكُل منهم علمه منْ رسول اللَّه ﷺ ، ثمَّ افترقوا في الأمصار في حَياته ، وبَعد وفاتَه ، وأخذ النَّاس منهم في جَميع الأقطْار ، وأخذ الخَلف عن السلف إلى أن انْتشرت المَذَاهب والفَتاوى (٢) في الأمصار (٣) فالكُل منهم على صَواب ؛ لأنَّ الإمام واحد ، وإليه يَرجع الكُل ، وقد رَأيت في حَديث غَريب في كتاب فيه ذَكر فضائل الصَّحابة أن رسول اللَّه ﷺ قال : «**أنا مَدينة التَّقوى وأبو بكر بَابها ، وأنا مدينة الإيمَان ، وعُمر بابها ، وأنَا مدينة الحَياء، وعُثمان بابها ، وأنا مدينة العِلم وعلي بابها، وأنا مدينة الحِلم ، ومعُاوية بَابها**» (٤) .

وهَذا الخَبر وإنْ لمْ يَرد في الصحاح فإنَّ الحَال تُصدِّقه ، وتُعضده ، فإنَّه عليْه السلام المدينة الجَامعة لمعاني الديانَات كُلها ، ولا بد للمدينة من

---

(١) الشتَّات : التَّفَرق ، وأمر شتات : متشتت .

(٢) الفتاوى : جمع فتوى وهي : الجواب عما يشكل من المسائل الشرعية والقانونية .

(٣) الأمصار : المدينة الكبيرة تقام فيها الدور والأسواق والمدارس وغيرها من المرافق العامة .

(٤) الحاكم في المستدرك (٣/ ١٢٦) بنحوه ، وقال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة (١٨٩) بعد سياق عدد من روايات الحديث : وأورده صاحب الفردوس وتبعه ابنه المذكور بلا إسناد عن عبدالله ابن مسعود رفعه : « أنا مدينة العلم ، وأبو بكر أساسها ، وعمر حيطانها وعثمان سقفها ، وعلي بابها» ، وعن أنس مرفوعاً : « أنا مدينة العلم ، وعلى بابها ، ومعاوية حلقتها » وبالجملة فكلها ضعيفة ، وألفاظ أكثرها ركيكة .

أبواب ، وعلى كُل بَاب طريق ، ولو كُلف الكُل أنْ يَدخلوا على بَاب واحد لكَان الحَرج والضيق ، بل هو عليْه السلام مَدينة الخَيرات ، والصَحابة أبوابها ، و الطرق مُنفصلة من الأبواب / فمن أخذ طريقهم دَخل مدينة ٨٤/ب
الدين ، ومنْ خَالف طريقهم فَقَد خَلع ربقة الإسْلام من عُنقه ، فإنَّ المذَاهب كلهَا التي [١] فَارقت الجماعة إذا اعتبرتَها ، ونَظرتَها لم تَجد لها عنْد الصحابة ولا حَديث الرسُول ولا كِتاب اللّه أصلاً ، فَلذلك سُموا فرقاً ؛ لأنَّهم فَارقوا الإجماع .

مثال ذلك أنّ القَدري الذي يَقول إنّ أفعاله يَخْلقها هُو بزَعمه ، أو الذي يَقول مِنهم : الخَير من اللّه ، والشر من العِباد خلقهم .

والَّرافضي الذي يَسب أبا بكر ، وعُمر ، أوعائشة أو علياً ، أو عُثمان ، أو أحداً من الصحابة .

والخارجي الذي يَقول بمذهب الخَوارج ، أو المرُجئ [٢] الذي يقول بمذهب الإرجاء .

والذي يَقول : إنَّ العَالم قديم ، وإن اللّه لا يَعلم بأفعال العباد ، أو يَرى من الآراء الذي لا يَعتقده ، ولا يَعمل به أهل السنة لا تَجد لَه أَصلاً في كتابَ اللّه ، ولا فَي حَديث رسُول اللّه ، ولا في أقوال الصحابة ، ولَو كَان لنُقل كَما نُقلت أمور الدِيانات كلها .

ولَمَّا لمْ يكن لذلك مَنقْولاً لم يَبق إلا أنَّهم أحدثوا تلك المذَاهب بآرائهم ، أو أخَذوها مَن رَأي من خالف الأنبياء قبل مَبعث النَّبي عليْه

---

(١) في الأصل : « الذي » .

(٢) المرجئ : المنتسب إلى المرجئة ، وهي : فرقة إسلامية لايحكمون عن أحد من المسلمين بشيء بل يرجئون الحكم إلى يوم القيامة .

السلام ، فمثلهم في ذلك مَا رواه مالك -رضي اللّه عنه- قال : خط رسول الله ﷺ يَوماً خَطاً ، فقال : « هَذه سَبيل اللّه » ثم خط عن يَمين ذلك الخط ، وعن شماله خُطوطاً فقال : « هَذه سبل عَلى كُل سَبيل منها شَيطان يدعو إليها » ثمَّ قَرأ : ﴿وَ أنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لاَ تَتَّبِعُوا السبلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيله﴾[(١)] .

فتَلك الطُرق هى طُرق أهل الفرق ، وسَبيل اللّه هُو طريق أهل السنة ؛
١/٨٥ لأنَّهم تَابَعون لُمحمد عَليْه السَلام وهُوَ يَهدي إلى صراط / مُستقيم .

فالتمسك عَلى ذَلك الطريق هُو الجماعة ، وهُو التآلف[(٢)] مَع السالكين عليْه ، والاعوجاج عنْ ذَلك الطريق هُو الخُروج ، والافتراق عنْ الجَماعة ؛ فَلذلك كانْت هذه الشعبة التي هي الإجْماع ، و الشعبة التي هي الاستقَامة مُرتَبطتان كَشَيء وَاحد ؛ فإن الاَستقَامة هي تَرك الاعوجاج ظَاهراً ، وبَاطناً في الأعمال ، والعَقود كَما تَقدمَ والجَماعة هو التَّمسك ، والتآلف على السنة التي هي الطريق ظَاهراً في الأعمال ، وبَاطناً في القُلوب ، والإجْماع أيضًا على نَوعين : ظاهر ، وبَاطن ، والبَاطن على ضَربين : ضَرب في مقام الإيمَان ، والنَّفس ، وهو ما أجمعوا عليْه في العُقود ، وأصول الديانات ، فَهو فَرض على القلُوب اعتقاده[(٣)] .

وضَرب في مقَام الإحسَان ، وهو مُشاهدة الروح ، والعَقل إجْماع الخَليقة كُلها ممَّا حَوى العَرش كُله من المَخلوقات على التعبد لملك وَاحد ، وائتلاف الكُل على إيثاره وألُوهيته ماخَلا المخالفين مِن الجنّ

(١) سورة الأنعام الآية (١٥٣) ، والحديث أخرجه الدارمي في السنن بنحوه (١/ ٦٧) .

(٢) التآلف : الاستمالة .

(٣) اعتقاده : ما اعتقده ، والعقيدة هي : مالا يشك معتقده فيه كعقيدة وجود الله ، وبعث الرسل .

والإنْس، فَيفر السر من الفرقة إلى الاجْتِماع على توحيد اللّه سبحانه وتعالى.

والظاهر ماأجمعوا عليْه في الأعمال، ونَوازل الأحكام؛ فهو فَرض على الأجساد القَول به والعَمل، وما أجمعوا عليه، واستحسنوه في كُل زَمان، فهو إجْماع - أعني أهل السنة - لأنَّ النبي عليْه السلام قال: «**أُمتي لا تَجْتمع عَلى ضَلالة**»[1].

وإنَّما عَنَى أهل السنة، وأصنافهم - بحمد اللّه - معلومة في كل زَمان، وهمْ أهل الحديث، و الفقه والمُتصوفة كمالك وأشياخه، وأتباعه، وأبو حنيفة وشيوخه وأتباعه، والشافعي وأشياخه وأتباعه وأحمد بن حنبل، والبُخاري، وسُفيان، والأوزاعي وشُيوخهم، وأتباعهم، وإبْراهيم ابن أدهم، وسهل، والعارفون بالله /، وأشياخهم، وأتباعهم، والعَامة ٨٥/ب

---

(١) قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة حديث رقم (١٢٨٨): أحمد في المسند والطبراني في الكبير وابن أبي خيثمة في تاريخه عن أبي بصرة الغفاري مرفوعاً في حديث « سألت ربي أن لا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها » والطبراني وحده وابن أبي عاصم في السنة له عن أبي مالك الأشعري رفعه « إن الله أجاركم من ثلاث، وذكر منها وأن لاتجتمعوا على ضلالة، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم في مستدركه وأعله اللالكائي في السنة، وابن منده، ومن طريقه الضياء في المختارة عن ابن عمر رفعه «إن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة أبداً، وإن يد الله مع الجماعة، فاتبعوا السواد الأعظم، فإنه من شذ شذ في النار، وهكذا هو عند الترمذي بلفظ: «هذه الأمة» أو قال: «أمتي»، وابن ماجة وعبد في مسنده عن أنس مرفوعاً « إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواء الأعظم، والحاكم في مستدركة عن ابن عباس رفعه بلفظ « لا يجمع الله هذه الأمة على ضلالة، ويد الله مع الجماعة »، والجملة الثانية منه عند الترمذي وابن أبي عاصم وغيره عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري موقوفًا في حديث « وعليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة » زاد غيره « فإياكم والتلون في دين الله » والطبري في تفسيره عن الحسن البصري مرسلاً بلفظ أبي بصرة، وبالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة، وشواهد متعددة في المرفوع وغيره اهـ.

في العُقود أيضًا ؛ لأنَّهم تَابعون لأهل العِلم ، ومنْ سِوى هؤلاء ممن لَيس على طريقهم زَائغ .

فالجَماعة : هي التآلف على طَاعة اللّه ، كما أمر ، وذلك دين المَوجودات كُلها ؛ فَإنَّك إذا نَظرت الوجود كُله وَجدته مُتآلفاً بَعضه مَع بعض كجسد واحد ، جَمع أعضاء كثَيرة ، تَعاونت كُلها على طَاعة المؤلّف ، فإذًا الجَماعة عام ، من فَارقها خالف جَميع الموجودات ، وأحدث دينًا مُبتدعًا[١] بنفسه .

ونسأل اللّه الثبات في دين اللّه في العقود ، والأفعال والموت على مَايرضاه اللّه ، ورسُوله ، والمؤُمنون ؛ إنه على كُل شَيء قدير .

---

(١) مبتدعاً : مستحدثاً .

الشّعبة الثالثة عشرة

النّصيحة

فأمّا كَونها منْ شُعب الإيمَان فَبيّن وَاضح في الأحاديث المَشهورة عنْ جَرير ، وتميم الدَّاري ، وأبو هُريرة .

قال جَرير : أتيت النبي ﷺ ، قُلت : أتيت أُبايعك على الإسلاَم ، فَشَرط علي ، و« **والنُّصح لكل مُسلم** »[١] .

فما يشترط لصحة الإسلام فهو منه .

وروى تميم الداري ، وأبو هريرة أنَّ النَّبي ﷺ قال : « **الدين النصيحة ، الدين النصيحة** » ثلاثاً في حديث أبي هُريرة - قالوا : لمن يَا رسول اللَّه ؟ قال : للَّه ، ورسُوله ولكتَابه ، ولأئمة ، المسُلمين ، وعَامتهم »[٢] .

فَوصف النَّصيحة بأنَّهم مُعظم الدين كَما يقال : «الحجَ عرفة »[٣] ؛ أي مُعظم أركانه عرفة ، لا أنَّه لَيس للحج رُكن غير عرفة .

وكذَلك النَّصيحة ؛ لَيس مَعنى الحَديث أنَّ الدين كُله هُو النصيحة ، وإنَّما مَعناه معظم شُعب الدين النَّصيحة ، وإنَّما وصفها بِوصف العُموم ،

(١) مسند أحمد (٤/ ٣٥٨، ٣٦٦) .

(٢) **صحيح** : البخاري (١/ ٢٢) مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (ب٢٣ رقم ٩٥) النسائي (٧/ ١٥٧)، الترمذي (١٩٢٦) .

(٣) البخاري (١/ ٢٢) مسلم في كتاب الإيمان (٢٣) رقم (٩٥) ، الترمذي (٨٨٩) ، النسائي (٥/ ٢٥٦) ، ابن ماجة (٣٠١٥) .

فعمت معَاني الديانَات كُلها ؛ لأنَّه قال : « للَّه ، ولكِتَابه ولرسُوله ، ولأئمة المُسلمين وعَامتهم » فَعَظُم قدر النَّصيحة لذلك / . ٨٦/أ

ومعنى النصيحة إفراغ الجَهد بتَصحيح النِّيات والأقوال ، والأعمال .

والنَّصح يتبين بِضِده ، وهُو الغش[1] ، والتلبيس ، وسَتر العيب ، وكتْمَان الحق .

ومَعْناها مَأخوذ من النُصَاح ، وهو الخيط ، لأنَّه لاَ يتعلق به شَيء ، فكَذلك النصح في العُقود ، والأقْوال ، والأعمال لاَ يتعلق بهاَ شَيء من الغش ، والتَّدليس ، بل تكُون صَحيحة بنية سَليمة ممَّا يفسدها ويَعيبها .

ودَليله أنَّ النبي عليْه السلام مرّ برجل يَبيع الطعام فأُوحي إليْه أن أدخل يَدك فيه فإذَا هُو مبلول فقَال رسُولَ اللَّه ﷺ : « لَيس منّا مَن غَش »[2] فالنَصيحة عَامة في كُل شيء ، ومُتعبد بها الأنْبياء والأملاك فمَنْ دُونهم ، قال اللَّه تَعالى في جبريل : ﴿وَما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنين[3]﴾[4] أي بمُتهم بالغش والدلسة في التَّبليغ .

وقال عليه السلام في نَفسه : « لَيس منا منَ غَش » .

وقال الأنبياء صَلوات اللَّه عليْهم : ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[5] ، ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[6] ، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾[7] أي نَصحوا للَّه ، ونَصحوا أنفسهم ، ونَصحوا العباد ، فالنَّصيحة لَها مَراتب كمَا ذُكر في

(١) الغش : تزين غير المصلحة وإظهار خلاف ما يضمر في داخله .

(٢) أبو داود (٣٤٥٢) ابن ماجة (٢٢٢٤) أحمد (٢/ ٢٤٢) .

(٣) في الأصل : « بظنين» .

(٤) سورة التكوير الآية (٢٤) .

(٥) سورة الأعراف الآية (٦٨) .

(٦) سورة الأعراف الآية (٦٢) .

(٧) سورة الأعراف الآية (٧٩) .

الحديث : للَّه ، ولرسوله ، ولكتابه ولأئمة المسلمين ، وعامتهم .

فقد عمت المقَامات الثَلاثة مقَام الإسلاَم والإيمان والإحسَان .

فأمّا النَّصيحة للَّه عزّ وجَل ، فَأن لاَتُدخل في صفاته مَاليس منها ، أو تنسب إليْه مَاليس لَه برأيك فَتَعتقده على غَير مَا هو عليَه ؛ فإن ذَلك غَش كَما قَال تبارك وتَعالى فيما رَواه أبوهريرة عن النبي ﷺ قال الله عز وجلّ :

﴿كذَبني ابْن آدم ، ولمْ يكَن لهَ ذَلك ، وشَتمني ولمْ يكُن له ذَلك ، فأمّا تكذيبه إيّاي فَقوله : لنْ يعيدني كما بَدأني وأما شَتمه إياي فقوله : اتَخذ اللَّه ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ، ولم أُولد ، ولمْ يكُن لي كُفواً / أحد﴾ [1] . ٨٦/ ب

فَهَذا رمى اللَّه بالكذب لأن اللَّه قد أخبر بإعَادته ، والكَذّاب غَاش ، مُدلس [2] في القول ؛ لأنَّه مُلبس ، ورَماه أيْضًا بالعَجز في قُدرته ، وقُوته إذ نَفى القُدرة عنه في إعادَته ، وكَذلك رماه بالفَقر إلى اتّخاذ الصَاحبة ، والوَلد ، وهُو الغَني ، فأدخل في صفاته مَالَيس منها ، وذَلك غش وتَلبيس يَعود ضَرره على مُعتقده ، وقَائله ، وَاللَّه بريء عنْ ذَلك .

فكل من اعتقد اللَّه على ما وَصف به نَفسه ، وشَاهده عَلى مَا هُو عليْه ، ونَزَّهه [3] عمَّا لا يليق به وبلّغ ذَلك غيره منْ عباد اللَّه ليَعتقدوه عَلى ما هُو عليْه ، فقد نصح اللَّه ، ونَصح للَّه في نفسه وفي عباده .

وهذا مقَام الروح ، والعَقل في مقام الإحسَان ، وكُل مَنْ وصف اللَّه بغير ما وَصَف به نَفسه ، ونَسب إليْه مَالمْ يَنسب لنفسه ، وأمر بذلك غيره أو لمْ يَأمر ، فقد تَرَك النصيحة للَّه ، ولمْ ينصح رَبَّه ، ولا نفسه ، ولاعباد اللَّه .

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٨/ ١٦٨) أحمد (٢/ ٣١٧) .

(٢) مدلس : مخادع ، والمدلس عند أهل المصطلح : هو الراوي يروي عمن عاصره مالم يسمع منه موهماً سماعه ، أومن سمى شيخه بما لا يعرف به .

(٣) نزهه : أبعد عن وصفه بصفات النقائض ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وبهذا الوَصف أخبر اللَّه عن إبْليس حَيث قال لآدم عليْه السلام :

﴿مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [(١)] .

فرمى اللَّه بالغِش والكَذب عليه لعنة اللَّه .

وكـذَلك هو مع ذُرّية آدم من أول الدنيـا إلى آخـرها يُوسـوس إليـهم بالغش ، وزُخرف القَول ليعتقدوا اللَّه على غير ما هو عليْه ، ليس يفتر طَرفة عيْنَ هو وجُنوده عنْ رمي اللَّه بالبُهتان ، ووصفه بما لاَ يليق به ليضل عِباد اللَّه .

وعلى وَصْفه هو [(٢)] أتباعه من الإنْس الضَّالون المضلّون وإن أظهروا الإسْلام ، أولمْ يَظهروه ، وبضدهم النَّاصحون .

منَّ اللَّه علَيْنا بالنَّصيحة ، وجَعلنا منْ أهلها برحمته آمين .

والذي يَجمع هَذه المعَاني في حقِّ البَارئ ، ومَخلوقاته أنَّ الأشيَاء كُلها
١/٨٧ / خلاف اَلبَارئ تَعالى ؛ لأنَّها محدثة ، وهُو قَديم ، وجَاهلة ، وهُو عَالم ، وعَاجزة ، وهُو قدير ، وعَبيد وهُو ربٌ ، وفُقراء وهُو غني ، ومُحتاجة إلى مكان وهُو غَير مُحتاج .

وهكذا لو استقرأت أنْت ، وجَميع المَخلْوقات صفات المو‌َجودات كُلها أبد الآبدين ، ودَهر الدَّاهرين لما انقضى وَصفها لمَعاني اَلحَدث [(٣)] أبدًا ، كَما أنَّه لو وصَف البـارئ جميعُ العَـالمين مما يليق به من الكَمال لما وصَفـوا عُشر معشار ذَرة ممَّا هو عليْـه من الكَمال والجَلال ، فكل مَنْ أضاف إلى البَاري شَيَئاً من أوصاف المخَلوقات ، أو شبهه بشَيء منها فقد أدخل الغش في صفاته ، ولمْ يَنصح ، وكُل من أضاف إلى المَخلوقَات شَيَئاً مما هو عليْه فقد

---

(١) سورة الأعراف الآية (٢٠) .

(٢) في الأصل « هم » وهو خطأ .

(٣) الحدث : ضد القدم .

أدخل الغش في المخلوقات ولم ينصحها ، وهي تتبرأ منه ، ومنْ غشه .

وهذا أصل جامع كافي في هذا المعنى إن شاء اللّه ، لأن اللّه برأ نفسه أن يكون فيه شيء من سمات المحدثات ، وبرأ مخلوقاته أن يكون فيها شيء من معاني أوصافه ، وذلك فخرها ، وعزها ؛ لأنَّ المُتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زُور[١] لأنَّه مدلّس حين يَشبع بما لَيس له .

وأمّا النَّصيحة للإنْسَان في نَفسه فإنَّها عامة في كُل شَيء يُظن في مقام الإحسَان، والإيمان ، وظهر في مقام الإسلام ؛ لأن الغبد مأمور بأن ينصح نفسه وغيره ، فيكون من أفضل أهل مقام الإسلام على قدر طاقته .

وأُمر أنْ ينصح نفسه في مقام الإيمان ، وعالم الآخرة على قدر طاقته ، وأمر أن ينصح نفسه في مقام الإحسان ، والروح فيكون من أفضل أهل الإيثار[٢] للّه عز وجل ، والإقبال عليه ، والفكر فيه ، ولا يغش نفسه في شَيء على قدر طاقته ؛ فقد عمت النَّصيحة كُل المقامات .

وأمّا النَّصيحة لرسوله عليْه السلام فهو على ضربين : ضرب في حق الحاضرين معه في وقت مبعثه وهم الصَّحابة ، وضرب في حق الغائبين/ ٨٧/ب
عن وقته، وهم الذين أتوا بعده .

فأمَّا الحاضرونَ معه في وقته ، فالنصيحة في حقهم أن لا يرموه بالكذب ولا يقذفونه[٣] بالبهتان فيقولون : هو ساحر أو مجنون ، أو مسيطر ، أو طالب ملك ، فيُدْخلوا في وصفه مالم يجعله الله له ، ولو كان كذلك كان غاشًا ، بل يصفوه بالصدق ، والعفاف[٤] ، والنصح والرحمة ،

(١) صحيح : البخاري (٧/ ٤٥) مسلم في صحيحه كتاب اللباس (١٢٦) أبو داود (٤٩٩٧) .

(٢) الإيثار : تفضيل الغير على النفس .

(٣) يقذفونه : يرمونه وفي القرآن الكريم : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ نرميه به فيمحقه .

(٤) العفاف : الكف عما لا يحل ولا يجمل من قول أو فعل .

والصيانة ، والخُلق الذي وصفه الله به ، ثم يؤازروهُ ، ويعاونوهُ ، ويَنصُرُوه حتى يبلغ مرغوبه ومأموله من التبليغ ، ولا يدّخروا منْ أنفُسهم شَيئاً في نصَرته ، ومُؤازرَته ، ولو كانوا مدخرين عنه شيئاً لكانوا غَاشين له ، وحَاشى صحَابته من ذلك ؛ فإنهم لاحظوه بعين الصدق ، والكرامة ، وأفرغوا جهدهم ، وطاقتهم في نصرته ، وعَونه ، فَلذلكَ كانوا أفضل النَّاس .

وبضدهم من النصيحة كان كَفرة زَمانهم ، ومنُافقوهم فإنهم رَموه بالغش [١] والكَذب ، و أضَافوا إليْه ، وأدخلوا في وصْفه بالقول مالم يجعله اللَّهَ فيه .

والمُنافقون فيهم خَذلوهُ في مواطن النُّصرة ، وخَادعوه بقلوبهم في مَواطن الغَيبة ، ثم لَمّا تُوفِّي عليه السلام انتذبوا النصيحة فأظهروا أمره ، وبَلَّغوا سنته وقاتلوا من رَام هدم طريقته ، فكانوا في الغيبة ، والحُضور سَواء ، -رضي اللَّه عنهم - ونَفَعنا ببركتهم في الدنيا والآخرة .

وأمّا الغَائبون عنْه فَالنَّصيحة في حقِّهم أنْ يكُون حالهم معَه ، ومع طريقته كحال الصَّحابة ، بعد وَفاة نَبيهم ، فيأخذوا سُنته ، ويَنْصروه فيها غَائباً ، ويُبلِّغوها غيرهم ، كما بلَّغوها من غيرهم من غير أن يدخلوا فيها تَحريفاً ، أو كذباً ، فيغشوه ، بل كما قال : «**رَحم اللَّه من سَمع منِّي مقَالة فَبلَّغها كما سَمعهَا**» [٢] .

١/٨٨ ويَنْفُون / عنْه تَحريف الغَالين [٣] ، وانْتحال الجَاهلين وتأويل المُبْطلين ، هكذَا خَلف عَنْ سلف إلى يَوم القيامة ، فإن كَذَبوا عليَه ، وأدْخلوا

(١) الغش : هو تزين غير المصلحة وإظهار غير ما يبطن ويضمر .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/ ٢٤٧) وقال : قلت : روى ابن ماجة بعضه ، ورواه الطبراني في الأوسط ورجاله وثقوا .

(٣) الغالين : المبالغين في الأمر .

في شَريعته مَاليس منها فقد غَشُّوه .

وقال عليْه السلام : « مَن كذَب علَيَّ مُتعمداً فليتبوأ مَقْعده من النَّار » (١) .

فالنَّاصحون له أنْ ينصَحوه في إظهار أقوَاله ، وأعماله ، وأن لا يُحدثوا فيها شَيئاً بآرائهم وأنْ لاَيعملو عَملاً إلاّ بسُنته ، وعلى طَريقته .

وأمّا النصيحة لكتابه فَنفى مَارماه به المُبْطلون حيث قَالوا عنْه ﴿إفكٌ مُفترى﴾ (٢) و﴿ وسحرٌ يُؤثر ﴾ (٣) ﴿إن هذا إلا أَسَاطيرُ الأولين ﴾ (٤) ﴿إنْ هَذا إلاّ قَولُ البَشر ﴾ (٥) وغَير ذَلك مَايتنزه (٦) عنْه كتاب اللَّه جل جلاله ، بل تَصفه بمَا وَصفه به مُنْزلُه بالكَرم والبَيان ، والتَّعظيمَ ، كما قال :

﴿إنَّهُ لَقُرآن كَريمٌ في كِتَاب مَكْنُون ﴾ (٧) ﴿يس وَالْقُرآنِ الْحَكِيمِ ﴾ (٨) ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ (٩) .

﴿ولَقَدْ آتيْنَاكَ سبعاً مِنَ الْمَثَاني وَالْقُرآنِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٠) .

إلى غَير ذلك منْ أَوصاف القُرآن .

ثمَّ يقرأه بقراءةٍ حَسنة ، وصوتٍ حَسن ، كما قال النبي عليه السلام :

---

(١) صحيح : البخاري (١/ ٣٨) مسلم في صحيحه المقدمة (٣/ ٤) ابن ماجة (٣٠) .

(٢) سورة سبأ الآية (٤٣) .

(٣) سورة المدثر الآية (٢٤) .

(٤) سورة المؤمنون الآية (٨٣) .

(٥) سورة المدثر الآية (٢٥) .

(٦) يتنزه : تنزه عن الشيء بعد عنه وتصون منه .

(٧) سورة الواقعة الآية (٧٧, ٧٨) .

(٨) سورة يس الآية (١) .

(٩) سورة الدخان الآية (١ ، ٢) .

(١٠) سورة الحجر الآية (٨٧).

«زَينوا لقُرآن و بأصواتكم »[(١)] « لَيْس منَّا من لم يتغَن بالقُرآن »[(٢)] فإن تزينه من النصح له حتى يَتحبب لقَلب التالي له ، ولَقلب كل سَامع له فيقع منَ القُلوب مَواقعه ولاَ يسلك بَه مَسلك[(٣)] أغَاني الشعر ، فإن ذلك من الغش للقُرآن ، حيثَ سَلك به غَير مَسلكه ؛ ﴿ومَا علَّمْناه الشعْرَ ومَا يَنْبَغي له ﴾[(٤)] بل بخشية ، وحُزن صَادق كما قال النبي عليْه السلام : « أحسن النَّاس صَوتاً بالقُرآن من ًإذا قَرأ رَأيت أنَّه يخشى اللَّه ،وأن لايَقصد بحُسن صوته الريَاء »[(٥)] ؛ فإن ذلك يُبطل ثَمرة القُرآن ، وهُو غش في حَق القُرآن .

٨٨/ب ثم العَمل به ، فإنَّ ترك / العَمل به تَضْييع له ، وتضييعه لَيس من النُّصح ، والْتماس بَركة الفَهم فيه ، وإخْرَاج الحُكم ، والعبرَ[(٦)] منه ، وتَحليل حَلالهَ ، وتحريم حَرامه ، والوُقوف عنْد مُتشَابهه ، وتَعْليمه لغيره إذا سَأله ، ولاَ يقل فيه بتَأويل ، يَخْرج عنْ طَريق الحق إلى الرَّأي المَذْمُوم ، الذي نُهي عن تفسَير القُرآن به .

وذَلك كُله من الغش ، وترك النصح ؛ فمن نَصح القُرآن اهْتَدى ، وهَدى غَيره ، ومَنْ غشه ضَل ، وأضل غَيره ، كما قال تَعالى :

﴿يُضلُّ به كَثيراً ، ويَهْدِي به كَثيرًا ﴾[(٧)] ﴿ونُنزلُ منَ الْقُرْآن مَا هُو شفَاء ورَحْمَةٌ للْمُؤْمنين ، ولاَ يزيدُ الظَّالمينَ إلاَّ خسَارًا ﴾[(٨)] .

(١) هو عند أبي داود في سننه (١٤٦٨) ، ابن ماجة (١٣٤٢) ، أحمد في المسند (٤/ ٢٨٣)، النسائي (٢ / ١٨٠) .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٩/ ١٨٨) ، أبو داود [١٤٦٩] .

(٣) المسلك : الطريق ، المنقذ .

(٤) سورة يس الآية (٦٩) .

(٥) كنز العمال (٢٧٤٩) .

(٦) العبر : جمع عبْرَة وهي : الاتعاظ والاعتبار بما مضى وسلف .

(٧) سورة البقرة الآية (٢٦) . (٨) سورة الإسراء الآية (٨٢) .

ومنْ أعظم الغش في القُرآن ، وترك النصح لَه تأويل معَانيه على أهواء الزَّنَادقة ، وإبْطال معَانيه الظَّاهرة ، كما فعَل كَثير من الفَلاسفة الضَّالين والطَبيعيين ، حتى وصل من افْتَرائهم أنَّهم يَقُولون بالاسْتغْناء عن القُرآن ، وعن الرسُول ، ومع ذلك أنهم يَزْعمون أنهم أهْلُ العلم والفَهم للرسالة والوَحي ، والمعرفة ، وهذا الغش بعينه ، والتَّدليس (١) وَهُو أعظم ممن كَفر به جهاراً ؛ فإن النبَّي عليْه السلاَم يقول : «منْ ابْتَغى الهُدى في غيره أضلَّه اللَّه» فكيف يكُونون مُهتدين في أمور الآخرة ، والديَانَات ، والنبي -عليْهالسلام- قد شهد لهم بالضلال ؟ .

جعلنا اللَّه ، وإيَّاكم من النَّاصحين لأنْفُسنا ، ولكل ما أمرنا بالنصح لَه آمَين ، وصلى اللَّه على محُمد وآله .

وأمّا النصيحة لأئمة المسلمين ، وعامتهم فَمن النَّصيحة للأئمة ألاَّ تَخرج عليهم بالسيف ، ولا يُنكث (٢) لَهم بالعَهد فَيما بويُعوا عليْه ، وأنْ يُدعى لهم بالصلاح إذا كَان الإمام ممن يجوز فيه الإمامة وتلزم بَيْعته ، ويُطيعوه في المكْيَال ، والميزان ، وفيما أمر به من / طاعة اللّه ، وهذا حق ٨٩/أ العامة في نُصحه .

وأمّا العَاملون له ، والدَّاخلون عليْهم فحقهم أنْ يَنْصحوه ، ونُصحهم لَه أن يُبيِّنُوا له أمور العامة على مَاهي عليْه ، ولايُدلسوا ، ويقُولوا خلاف مَا شَاهَدوه ، وعَلموه منْ صَلاح ، أو فَسَاد ، ونُصحهم للعَامة أنْ يكُونوا وَاسطة خَير بيْن الأمَير والرَّعيَّة ، فَيَقُومون بالنَّصيحة في جميع العامة

(١) التدليس : دلَّس البائع : كتم عيب السلعة عن المشتري يقال : دلس فلان في البيع و في كل شيء . ودلس عليه كذا ، والمحدث في الإسناد : روى عمن عاصره مالم يسمع منه موهماً سماعه أو سمى شيخه بما لا يُعرف .

(٢) ينكث : ينقض .

بالإرْشَاد إلى كُل خَير ، ورفق .

ونَصيحة الأمير لرَعيته أنْ لاَ يَغْفَلها ويُحوطها كما أمر اللَّه ، ورسوله .

ومتى لمْ يفعل أحد منهم من أمير ، أو عَامل ، أو عَامي ذَلك فَهُو غاش .

ثم نَصيحة النَّاس بَعضهم لبَعض في المعاملات والصنَاعات ، إظهار العُيوب ، وترك التَّدليس ، وأن يُريد كُلٌ وَاحد لأخيه كما يُريد هُو لنفسه هذا هو الاخْتصار فيه ، وهو معْيار [١] حق ، وذلكَ أن يَعرض الإنْسَانَ نُفسه في كل ما يعَامل به غَيره ، فيقول : إنْ كُنتُ أريد هذا الأمر الذي أُعامل به غَيري في غَاية الصَّلاح والاتْقان إذا عاملني به غَيري ، فكذَلك يجبَ عليّ أن أُريده أيْضًا لغَيري إذا عَامَلته به ولا يريه أحسن الوَجهين ، ويَسْتر أردأهما .

والنَّصيحة داخلة في كل شيء ، وبالقليل يستدل على الكثير ، وقد قيل : لا خَير في قَوم لَيْسوا بنَاصحين ، ولا في قوم لا يحبون النَّاصحين ؛ لأنَّها إرشاد إلى أحسن الوُجوه في أُمور الدِّين ، والدنيا ، الجَامعين لكُل خَير ، وعلمٍ ، وعملٍ .

ومن فَضَائل النَّصيحة أنْ لاَيرضى الإنْسان لنفسه بالدون من المنزلة عنْد اللَّه ، فذلك من قلة نُصح الإنْسان لنفسه ، بل إنَ قدر أن لا يكون مَغْبوناً في شَيء في يوم التَّغابَن فَقد نَصح نَفْسَه ، ولم يَعبْها ، ولا غَشَّها ، وذلك إنَّما يكون لمن نَافس [٢] وأفْرغ الجَهد في النصح للَّه بالطَّاعة ، والتَّقرب / إليه . ٨٩/ب

وقد عمت النصيحة مقَام الإسْلام ، والإيمَان والإحْسَان جَميعاً ، فهذا

---

(١) معيار : مقياس .

(٢) نافس : سابق وبارا فيه من غير أن يلحق الضرر به .

المعنى إذا اعتبرته أيْضًا وجدته شَائعاً في كل الموجُودات ، لم ير قط جزء ، ولا شخص من أشخاص المُلك كله إلاّ ناصحاً مجتهداً في طَاعة اللّه مع الأنْفاس والحَركات ؛ فإن العَالم الكُلي كُله بأجْزائه مُتعبد بشَرائع الإسْلام ؛ لأنَّ الدين عنْد اللَّه الإسلام لَهُ أسْلَمَ مَنْ في السَّمَوَات وَالأرض إلاّ الثقلين[1] ففيهم النَّقص والعِصيان .

منَّ اللَّه علَيْنا بتَوفيقه ، وجَعلنا منْ خَاصة عَبيده آمين .

وصلى اللَّه على محمد وآله وسلم تَسليماً[2] .

(١) الثقلين : الجن والإنس ، في القرآن الكريم : ﴿سَنَفْرغ لكم أَيُّها الثَّقَلاَن﴾ .

(٢) بلغ مقابلة : كذا وجد على هامش الأصل .

الشعبة الرابعة عشرة والخامسة عشرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهُما شُعبتان مُرتبطتان ، كل واحدة بصاحبتها ، لأن الأمر بالشيء نَهي عن ضدِّه ، والنهي عن الشَيء أمرٌ بفعل ضدِّه ، فلذلك جعلتهمَا في باب واحدٍ .

فأمَّا كونهَا من شُعب الإيمَان فجلي في الأخبار وفي آيات القرآن .

رَوَت عائشة -رضي اللَّه عنه- في الصحيح أنَّ رسُول اللَّه ﷺ قال : **«إنَّ اللَّه خلق كل إنْسان مـن بَني آدم على ستين وثَلاثمائة مفصل ، فمن كبّر اللَّه وحمـد اللَّه ، وهلل اللَّه ، وسبح اللَّه واستغفر اللَّه ، وعَزَل حجراً من طريق ، أوشَوكه ، أو عظم ، أو أمر بِمعروف ، أونَهي عن مُنكرٍ عدد تلك الستين والثَلاثمائة السلاَمى [(١)] ،فإنه يمشي يومَئذٍ وقد زَحزح نفسه عنِ النار»** [(٢)] .

فَسَاق الأمر بالمعَرْوف والنهي عن المنُكر مَعدوداً في شُعب الإيمان ، لأن التـهليل ، والذكـر كُله / وإمـاطة الأذى الذي هو الشَـوك والعَظم ٩٠/أ والحجر ، من شعب الإيمَان .

---

(١) السَّلاَمَى : بفتح الميم هي عظام الأصابع وهي اسم للواحد والجمع .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة (٥٤) .

والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر أقوى شُعب الإيمان بوجه ، وأضعفه أيضًا بوجه آخر ؛ كما روى أبو سَعيد الخُدري قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « مَنْ رأى مُنكراً فاستطاع أن يغيّره بيده فَليغيره بِيده ، فإن لمْ يستطع فَبلسِانه فإنْ لم يَستطع فَبقَلبه ، وذلك أَضعف الإيمَان »

وفي خبر آخر «ليس وراء ذَلك من الإيمَان حَبَّة خَردَلٍ »[(١)] .

يعني أنَّ التغير بالقَلب دون اليد واللسان أضعف الإيمَان ، فَجعله من الإيمَان ، فكذلك تَغييره باللسان ، و اليد أقوى الإيمَان .

والأمر بالمعروف هُو الحجة ، كَذلك تسميته عند أهل العلم ، كما قَال اللَّه تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[(٢)] ؛ لأن الرسُل أمرتهم بالمعروف .

والنَّهي عَن المنكر هو الوقاية ؛ أي وقاء النَّاس من العَذاب ، قال اللَّه تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾[(٣)] يعني أهل المنكر إذا لم يغير عليهم . ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[(٤)] .

قال أبو بكر الصّديق -رضي اللّه عنه - سَمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : «مَامن قوم يُعمل فِيهم بالمعَاصي ، ثمَّ يقدروا على أنْ يُغيروا ولاَ يُغيروا إلاّ أَوشَكَ أنْ يَعمَّهم اللَّه بعقاب »[(٥)] .

إلاّ أنه شَرط في هذه الأخبار كُلها القُدرة ، والاسْتطاعة ، وفيها رَحمة

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه (٦٩) ، النسائي (٨/ ١١١)، الترمذي (١٧٣) .

(٢) سورة النساء الآية (١٦٥) .

(٣) سورة الأنفال الآية (٢٥) .

(٤) سورة البقرة الآية (١٩٦) .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٤٣٣٨) ، وابن ماجه (٤٠٠٩) .

عَظيمة .

فَالأمْر بِالـمعروف هُو الأمـر بِفـعل الخَـيـرات كُلهـا التي أمـر اللّه بهـا ورسُوله .

والنهي عن المُنكر هُو / النَّهي عن ارتكاب المحرمات كلها ، وهو على ٩٠/ب
مقَامات ثَلاث : مقام في الظاهر وهو الأمر بارتكاب أُمور المَعروف الظاهر ، ونهى عنْ ارتكاب المَناكر الظَاهرة .

ومقَام في البَاطن ، وهو مقَام الإيمَان ، وعالَم النَّفس ، فينهى النَّفس عن الهوى ، ويأمرُها بالتزام التقوى ،وامتثَال خَواطر المَعروف ، واجتناب خواطر المُنكر .

ومقام بَاطن في مقَام الإحْسَان ، والروح ، أمر بالتزام المَعروف الحق سُبحانه ، وإيثاره[1] ، والإقبال عليه ، ونَهى عن الإعْراض عنه ، وإيثار سواه ونَهى عنْ تَوهم إله ، فإنَّه أنكر المُنكرات[2] ، وله مَراتب في نفسه ، وَشُروط ، فَقَومٌ يجبُ عَليهم باليَد ، واللسان ، والقَلب ، وقوم باللسان والقَلب دون اليد ، وقوم بالقَلب وهو أضعف الإيمان ، وذلك على حَسب التَّمكين في الأرض .

قال الله تعالى : ﴿ الَّذينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وآتَوا الزَّكَاة وَأَمروا بِالْمعرُوفِ وَنَهَوْا عنْ الْمُنكَرِ ﴾[3] .

فأمّا تغييره باليد فللأُمراء والقُضاة وأصْحاب الأحكام .

---

(١) إيثاره : اختياره وتفضيله ، والاختصاص به .

(٢) تكررت كلمة «المنكرات» في الأصل وتم حذفها .

(٣) سورة الحج الآية (٤١) .

وأمّا تغَييره باللسان فَلرعية يأمُر بلسانه ويُذكّر فإن قبل منه ، وإلاّ استعان [١] بغيره أورَفع أمر ذَلك إلى الحَاكم إن رجَا تغييره هذا في المُجَاهدين .

وأمّا إن وقعت زَلّةٌ في أهل الستر ، وخَربةٌ[٢] في أهل العفاف فمن يستتر ، فسترها أولى ، ويأمره في السر وحده ، ولا يكشفه .

وأمّا تغييره بالقلب فإذَا أظهرت الأمراء المَناكير ، وتَركت المعروف ، ووضعت السيف والعذاب لمنْ تَعرض لهَا في ذَلك فيجب إنكاره بالقَلب والعَقد على ذَلك ، فيقول لقَلبه : اللَّهم إنَّ هذا منكرٌ ، لو قَدرت
١/٩١ لَغيَّرته/ ، وإنَّما أُنكره ، وأُنكر أهله .

ويقول في المعروف أيْضًا إذَا رأى أنَّه لاَ يَقْدر أن يَأمر به لو قَدرت لأمرت بفعل هَذا الخير الَّذي قَد ضَاع العمل به ، لكنْ يجب على العُلماء الدّاخلينَ على الأُمراء التَّلطف [٣] للأُمراء بالقَول ، ويَأمُرونهم في السِّر إذا شَهدوا المناكير فَيقولون لَه : مثلك لاَ يَليق به إلاّ مايُحمد عليْه ، ويُشكر ، وأنَّ هَذا الأمر الذي أحْدَثته الخَلقُ يكرْهُونه منك ، ويَذمونك عليه ، ونحو هَذا ممَّا يُظن أنَّه ينفع .

فهذه مَراتب الأمر بالمعُروف ، والنَّهي عن المنكر ، على الكافَّة ، لا يسقط عنْ أحد من الخلق بوَجه في حال من الأحوال ؛ لأنَّه إن سَقط عن اليد واللسان لم يَسّقط فرضَه عنّ القلب ، ولو سَقط عنْ القلب لكَان راضياً به ، وصار منْ أهل المُنكر ، وخَرج عنْ أهل المعروف ، فإن المنكر ضد المعروف ، وأهل المنكر ضد أهل المعروف ، فإذا خَرج عنْ قَوم وقع في

(١) استعان بغيره : طلب منه العون .

(٢) الخَرْبَة : الزلة ، والكلمة القَبيحة .

(٣) التلطف : الترفق والترأق ، وفي القرآن : ﴿اللَّهُ لطيفٌ بعبَاده﴾ .

ضدهُم ، وكتب منهم .

ولذلك ورَد في الخَبر : لو قتل رجلٌ رجلاً بالمَشرق ظلماً ، ورضى بهِ آخر بالمغَرب لكَان شريكه في إثمه [(١)] .

فأمّا صُورة الأمر بالمَعروف ، والنهي عن المُنكر ، فأول ما يجب على الإنْسان أنْ ينَظر نفسه ، فيأمرها بأَنْواع البر ، والعَمل بما ضَيعت منها ، ويرَى ما هي عليْه من المُنكرات ظَاهراً ، وبَاطَناً فَينهاها عنه ثم يَتعَدَى إلى أهل دَاره ، فيأمرهم وينَهاهم ، وجيرانه ، ثمَّ كلما ظهر له شَيء لزمه فَرضه حيث ما حَلَّ ، أو نزل ؛ لأن اللّه يقوَل في كتابه :

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وتَنْسَوْن أَنْفُسَكُمْ﴾ [(٢)] .

الألف في ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاس بِالبِر﴾ للتوبيخ ، والتقرير ، ولَيست بنهي ؛ لأنَّه لو نَهاه عن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر وهو في / نفسه ٩١/ب
غير مؤْتَمِر لأَدَّى ذلك إلى تضييع فرضين :

الفرض الذي لزمه في نفسه ، والفرض الذي لزمه في غيره ، فيجتمع عليه إثْمَين .

وإنما الألف على التوبيخ [(٣)] للذي يَطمع بصَلاح غَيره ، وهُو في نَفْسه فَاسد ؛ فلو اجْتمَع الصَّلاح في النَّفسَ ، والأمرَ للغَير كَان الكَمال ، وأفضل النَّاس في هذا الشأن مَنْزلةً الذي إذَا ظَهر على المنكر تغير بظُهوره عليْه ، كما ورد في الخبر : «خيارکم الذِين إذا رأوا ذُكر اللّه» [(٤)] وذَكر اللَّه منْ أعظم

(١) إثمه : ذنبه .

(٢)سورة البقرة الآية (٤٤) .

(٣) التوبيخ : اللوم والتأنيب .

(٤) الحديث عند أحمد في المسند (٦/ ٤٥٩) ، وابن ماجة (٤١١٩) .

درَجات المعروف .

فلما كَان هَذا من أمر اللَّه ذُكر باللَّه عند رُؤيته ، وبهذا تفهم أن المنكر ، والمعروف ضداَن كالليل ، و النهار ، إذا ظهر هذا غاب هذا . وفي هذا حكمة عظيمة لمن تفطن[١] لها ، فإن المعروف مأخوذ من العُرف الذي هو العَادة التي عَرِفَه الناس وعَلمُوه ، ولم يُعرف إلاّ هو .

والمنكر هو الذي أنكرته العقول ، و القلوب عنْ رؤيته ، فالمنكر لا أصل له ؛ لأنه مَجهول ، منكورٌ في أصل الخلقة ؛ فإن المعروف الحق الذي لمْ يزل ولا يَزال هو اللَّه تَعالى ، ومخلوقاته فَي المُلك والملكوت ، والعرش ، والجَبروت ، ولم تعرف إلا إيَّاه ربا ، ولم تَعرف طَاعة إلاّ طاعته ، فكَان التَّعبد به ، والقيام بحقه هو المعروف فقط ؛ فلمَّا خلق إبْليس رأى آدم - عليه السلام - وذَريتهما ، وحدثت المعاصي على أيديهما - أعني الثقلين - صَار العصيان ، والمخالفات مُنكراً ، أى أنكرته العُقول ، والقُلوب ؛ لأنَّه لم تألفه[٢] ولم تعْهَده ولا كان لَه أصلاً في العُرف الذي تقدم عند الخَلائق كُلها .

ولهذه العلة إذا كان المنكر مَخْفياً غَير ظَاهر لم يَضر غير صاحبه الذي ظهر على قلبهَ ، وجَوارحه فقط ؛ لأنَّه شبيه بأصله ، لم يَعرفه أحدٌ ؛ فإذا ١/٩٢ ظَهر وفَشَى وَجب / تَغْيير ورَدَّه أيْضًا إلى أصله بإنْكَار النُّفوس ، والألسن ، والأيدي له حتى لا يبقى إلا المعروف الذي لمْ يَزل معروفاً قديماً ، وحَديثاً .

وكَذلك إذا قَامت القيامة ، وفَنيت الدنيا الي ظهرت فيها المَناكير[٣] لم يكن للمنكر وُجود ولا للعَصيَان أثر بوجه ، ولا حَالٍ ، ولم يبق إلاّ طاعة

(١) تفطن : تنبه لها .

(٢)تألفه : تتعود عليه وتأنسه .

(٣) المناكير : جمع منكر ، وهو المجهول .

الطَّائعين الذين ﴿لاَيَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ﴾ [١] .

وانْقـاد ، وطَاع أهـل المُنكـر كُلهـم حين يَرون ﴿أن القُوة للَّه جمـيعاً﴾ [٢] ولـم يبق في الوجـود مقدار ذرَّة من العـصيان ؛ لأن الهَـوى المعبـود الذي اتخذ إلهًا منْ دُون اللَّه .

وحسب الذين يتبعون الظَّن [٣] أنَّه يَضر ، أو ينَفع فأطاعوه ، واتَّبعوه إذا ظَهر الإله الحقَ في الآخرة للجَميع في وُجوده أُفْني الهوى ، وفُنيَت طاعته التي هي المُنكر .

فاعرف العلة في الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر فإنَّ البارئ تعالى لا يُعلم في مُلكه معبوداً سواه ولا منْ يَضرُ ولا يَنْفع سواه ، ومالا يَعلمه اللَّه أنكر المُنكرات ؛ فطاعتـه إذاً هي المنكرات ﴿قُلْ أَتُنَبِـئُونَ اللَّهَ بِمَـا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ [٤] الهَوى إلهٌ معبود ؛ ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّن﴾ [٥] الآية .

﴿وَإِنَّ مَـا تَـدْعُـونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَـاطِل﴾ [٦] وكذلك شَاهدَتُه العُقول والأرْواح في مقَام الإحْسان ، وأنكرت يَقيناً أنْ يكُون عند غَيره معنى من الألوهية ، لأنَّها لمْ تعلمه ، وقَامت لها البَراهين على ذلك ، فكَما لمْ يَعلمه اللَّه تبارك وتعالى ، وشَاهدت المعروف الذي لمْ يزل ، وأمر ت ذَواتها ، وغيرها بالانْقياد [٧] له .

(١) سورة التحريم الآية (٦) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٦٥) .

(٣) الظن : إدارك الذهن الشيء مع ترجيحه ، وعلمه بغير يقين .

(٤) سورة يونس الآية (١٨) .

(٥) سورة النجم الآية (٢٨) .

(٦) سورة الحج الآية (٦٢) .

(٧) الانقياد : الخضوع والذل .

وما كانت قَط معصية إلاّ بشرك خَفي ، أوجلي ، وإقْبال على غير اللّه ، أو حُب غير اللّه أو مُشاهدة شيء يَضر أو يَنفع غير اللّه ، أو غفلة عن اللّه ، فافهم / . ٩٢/ب

وقدْ حصل في هَذا المقَام المتُقدم مقَامات الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر في مقَام الإسْلام والجَسد ، ومقام الإيمَان ، والنفس ، ومقَام الإحسان ، والرَّوح مُجملاً ، فأغنى عن تفْسيره .

فأمّا اعتبار الأمر بالمعروف في الوُجود كُله فإنَّك إذا نَظرت الأشْياء كُلها من سَماء ، وأرض ، وحَيوان ، ونَبات ، وأي موجود كَان رأيته مُصلياً ، رَاكعاً ، وسَاجداً ، ومُسَبحاً ، ومُعظماً ، ومنزهًا ، لبَارئه ، ومُتَعبداً له بجميَع أنْواع المعروف كُلها فَيقَول لك بلِسَان الحَال : كن مثلي ؛ فإنِّي مَا عَصيت قَط طرفةَ عيْن .

وكذلك إذا صَرفت بصرك إلى أهل العُقُوبات فَرأيت مطروداً ، ملعوناً[(١)] أو مَحْبوسًا ، أو مَسْجوناً ، أو مَضروباً مُعذباً ، أو أيْ نوع من العِقَاب رَأيته حلَّ بمنْ حَل .

يقول لك بلسان الحَال : لا تكن مثلي فيحل بك مَا حَلَّ بي عَاجلاً ، وآجلاً ، وذَلك نَهيٌ عن المنكر ؛ فإن الوُجود لا يَخلو عنْ خَير وشَر .

والشّر جَزاء على المنكر ، والخير جَزاء على المعروف ؛ فالشَّر الذي هو العقاب كُله يُخاطب العُقول ، حيث مَا كَانت ويَقول : منْ عمل بمُقتضى مَا خُلقت من أجله حللَت به .

والثواب كُله ، والخَير أجْمعه يَقول : منْ عمل بمقتضى ما خُلقت منْ أجله ، أكرمته ، وكُنت ثَواباً له بكلامٍ دَائم مُتصل ، غَير مُنفصل مَع

(١) ملعوناً : مبعداً من الخير .

الأنْفَاس والساعات، يَسْمعه كلُّ منْ فَتح اللَّه بَصيرته ، و ﴿أَلْقَى السَّمْعَ وَهو شَهِيدٌ﴾ [(١)] .

(١) سورة ق الآية (٣٧) .

الشعبة السادسة عشرة
العدل

قال اللَّه تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ (١) .

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (٢) .

وقال : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ (٣) وهُو العَدل .

وقال : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (٤) وهُو العَدل / . ٩٣/أ

وأمّا كَونه منْ شُعب الإيمَان فبيّن ؛ فإنَّ العَدل هُو إعْطاء كُل ذي حَق حقه ، وللَّه عَلى الخلق حق ، ولرسُوله حق ، ولملائكته حق ، ولجميع الخلق حق ، فقد عمَّ العَدل المقَامات كُلها ؛ الإسْلام ، والإيمَان ، والإحْسَان ، والذَّوات الثلاثة : الجَسد ، والنفس والرُّوح .

وكلّف (٥) العَبد إعْطاء كُل ذي حق حقَّه ، وقَد جعله علي بن أبي طالب - رضي اللَّه عنه - في حديثه الطويل وعَامة منْ دَعائم الإيمَان فقال : «الإيمَان عَلى أربع دَعَائم (٦) ، على الصَبر ، واليَقين ، والعَدل ، والجهاد » (٧) .

---

(١) سورة النحل الآية (٩٠) . (٢) سورة النساء الآية (٥٨) .

(٣) سورة النساء الآية (١٣٥) . (٤) سورة الإسراء الآية (٣٥) .

(٥) كلف : أوجب عليه وفرض .

(٦) دعائم : جمع دعامة وهي : ما يسند به الشيء وهي عماد البيت يقوم عليه ، ويقال : هذا من دعائم الأمور » أي : مما تتماسك به الأمور .

(٧) سبق تخريجه .

فما كَان دَعامة الإيمَان كيف لا يكون منه ؟ فإنَّ الأساس من البُنيان .

فأمَّا تفسير مَعنى العَدل فهو الحُكم بالحق، ووضع الحُقوق في مَواضعها ، وهُو مَعنى شَائع ، عَام في جَميع الأشْياء ؛ فللّه حق، ولكتَابه حق ،و لملائكته حق ، ولرسُله حق ،وللوَالدين حق ، وللقَرابة حَق ، وللمُسلمين حَق ،وللفُقراء حَق ،وللزوجات حق وللأولاد حق ، ولملْك اليمين حق ، وللجوار حق ،وللأصْحاب حق ، ولابن السبيل حَق ، وللعُلماء حق وللمتَعلمين حق ، وللبيَع والشراء حق .

وقد قال النبّي - عليْه السلام : «**كُلكم رَاعٍ ، وكُلكم مَسؤول عنْ رعيته**»[(١)] .

فالعَدل أنْ لاَيبخس [(٢)] أحدٌ منْ حَقه شيئاً على قَدر طَاقة الإنْسان ، وَوسعه .

فأمّا حق اللّه عَلى خَلقه فقد ورد في الخبر :

«**حق اللّه على العباد أنْ يَعبدوه ولاَ يُشركوا به شَيئاً** » [(٣)] .

والعَدل هُو الوَسط بيْن الزيادة والنقصان ؛ فالعَدل في ذلك أن لاَ ينقص منْ حقه شيء عَلى حسب مَا أُمر .

وأمَّا الزيادة على الحقِّ في حق اللّه تَعالى فَمحال [(٤)] ؛ لأنَّ حقه لايُقام به حقيقة ، فكَيف بالزِّيادة عليْه ؟

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٢/ ٦) ، أبو داود (٢٩٢٨) ، الترمذي (١٧٠٥) .

(٢) البخس : النقص ؛ والبيع بالثمن الخسيس وفي القرآن الكريم ﴿ وشَرَوهُ بثَمَن بخس﴾ .

(٣) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٤٩) ، البخاري (٧/ ٢١٨).

(٤) مُحَال : ما اقتضى الفساد من كل جهة كاجتماع الحركة والسكون في جسم واحد، ومن الأشياء، مالم يمكن وجوده ، ومن الكلام ماعدل به عن وجهه . .

ولذلك يَقُول المَلائكة يَوم القيامة : « سُبحانك ما عَبدناك حقَّ عبادتك » / ؛ لأنَّها شَاهدت التَّقصير على صَفاء عبَادتها ، وإخلاص ٩٣/ب
تَوحيدها ؛ لأنَّ البَارئ تَعالى لمْ يُكلف أحداً إلا مَا يُطيقُ ، فعَلى [١] العَبد أنْ يفعل مَا أمر به عَلى غَاية جَهده ، فإن ضَيع مما أمرَ به فَقد جَاز ، ولم يَعدل فيه ، كما ورَد في السَارق الذي يَسرق صَلاته ؛ أي نَقَص منْ كمال رُكوعها ، وَسُجودها ، فإن العَدلَ الواجب على المُصلي أن يَعْتَدل في الركوع والسجود ، والجُلوس ، والقيام ، والعَدل في القراءة أنْ يُعطي كُل حرف حقه ، ولا يَبخسه حظُّه منَ النطق ، ويتَّفهم مَعاني الآيات ويخّشع في مَواضع الخُشوع ، ويحضر قلبه في مواضع الحضور ، إلى غَير ذلك من حُقوق الصَّلاة على قدر طَاقته ، فإن ضَيع شيئاً من ذَلك فهي خدَاجٌ [٢] أَي نَاقصة قَدر ما يكون النُّقصان ، وسيجبر من النفل إن كانَ له نَفل ، أو يفعَل اللَّه في حقه يَشاء .

وهكذا جميع مافرض اللَّه تعالى مِن حقوقه على عباده ، يجري هَذا المجرى ، أيُّ فَرضٍ كَان .

فاعتبر بهذا غَيره من الفَرائض ، لأني لَو تتبعت ذلك لطَال به الكلام ، وخَرج عن حَد الاخْتصَار الذي قَصدت له في تأليف هذه الشعب .

وحد الاخْتصار في ذَلك ما ورد في تفسير قوله : « يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته ﴾ [٣] قيل في التفسير : حقه أن يُطاع فلا يُعصى ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فَلا يُكفر ، فهذه الستة أشياء جامعة لما أردنا بيانه ، وهي الطَّاعة وترك العصيان ، والذكر الدائم الكَثير ، وترك النِّسيان والشكر لجميع

---

(١) في الأصل « فعل » ولعلها سبق قلم من الناسخ -رحمه الله-

(٢) الخدَاج : النقص ، وخدج الحامل : ألقت ولدها قبل تمام أيامه ولو كان تام الخلق فهو خارج .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٠٢) .

النِّعم ، وترك التَّبديل لها .

فإنك إذا أطعته وعَصيته فقد بَخسته حقه ووجب عليْك التوبة من
١/٩٤أ النسيان ، والغَفلات [١] وإذا شكرته ، وقَصّرت في الشكر ، أو وضَعت/ النّعم في غير موضعها فقد كَفرتها ، ووجب عليك التوبة والإقْلاع ، والاستبدال لحالك .

وهذا إذَا نَظرته بحقيقة النَّظر لاَ يمر عليْك سَاعة من لَيل ، أو نَهار ، إلاّ وتَجد فيه التَّوبة ، والاَستغفار ممَّا أنت عليْه ، ألاَ تَرى سَيد المرُسلين كيْف كَان يَتوب ، ويَستغفر في اليَوم مائة مَرة فكيف بأمْثَالنا ؟ .

والتائب بصدق منَ الذنب كمن لا ذَنب له ، والحمَد للَّه .

فاجعل هذا من بالك ، اعمَل عليه ، ولا تَقل هَذا لا أقدر عليه ، ولا أقوم بحق اللَّه ؛ فإن فَعلت ذَلك كُنت من المُتهاونين [٢] بحق اللَّه ، ويخشى على المَتهاون الهَوان في دار الهَوان ؛ فإن الحُجة تَقوم على الخلق يوم القيامة بطَلب مَعاشهم ، وتجاراتهم ، فإن لم يَقْصروا في طلبها ، وأفرغوا غاية الجَهد في ذكرها ، والشغل بها ، وطَاعتها وعصيان مَن خالفهم فيها ، وهي أتعب ، وأشقّ من طَاعة اللَّه أضعافاً مضاعفَة .

فإن كان يقول الإنْسان : لا أقدر على قضَاء حقوق اللَّه .

قيل له : فكيف قَدرت على قَضاء حقُوق أغْراضك وأهوائك ، وهي أكبر مَشقة وتَعباً ؟

فلا يكُون لأحد حُجة ، والحمد للَّه الذي لمْ يُكلف المؤمنين مَالا طَاقة

(١) الغفلات : جمع غفلة وهي السهو من قلة التحفظ والتيقظ فهو غافل .

(٢) المتهاونين : المستخفين به .

لهم به ، ولو كُلف لكَان ذلك .

وقَد دعا النبي ﷺ في ذلك في آخر سورة البقرة : ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَابِهِ﴾ [١] .

فقال لَه بكرمه : قَد فَعلت . ونسأل اللَّه تبارك وتعالى أنْ يَضع لنَا البَركة فيما وهَبَنَا من نعم الدين ، والدنيا والآخرة ، وأنْ يَسمح لنا ، وأنْ يُحبب لنَا نفسه ، وطَاعتَه حتى يكون أحب إليْنا من كَل شَيء . . . آمين .

واعلمْ أن الشهادة لا تكون إلا بالعَدالة والعَدل من الشهداء الذي لاَ يمَيل [٢] في شَهادته إلى أحد من المَشْهودين لَه ، وضده شَاهد الزُّور وهو يَميل/ عن الوَسط ، لأنَّه مأخوذ من الإزورار وهو الميَلَ . ٩٤/ب

والميزان العَدل هُو الذي يكون لسانه في وسط القُبة ، لايميل إلى أحد الجَانبين فكَذلك يَنْبغي أن يكون الشاهَد لا يَميل إلى أحد الجَانبين ، فَيبخس حقَّ الآخر .

كما أنَّ الكفة إذا مَالت في الميزان بَخَست الأُخرى من حَقها .

والخَلق كُلهم اسْتعبدوا بهذه العَدالة ، وأن يكُونوا قائمين بين اللَّه ومخلوقاته في شهادتهم للَّه ولمخَلوقاته بالقسط ، فيعطوا اللَّه حقه ، وهو معنى الرُبوبية .

وللخلق حقهم ، وهو العُبودية ، فمن أضاف إلى المخَلوقات شَيئاً منْ معاني الربوبية وإن دَقَّ [٣] فقد بَخس الربوبية حقها ، أو بخَس العُبودية حقها ، وسقط عنه اسْم العَدَالة وسُمي باسْم الظُلم ؛ لأنَّه وضع الشيء في

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٦) .

(٢) يميل : يَحيد عنه ويَعْدل .

(٣) دَقَّ : صغر ، وغض وخفي معناه فلا يفهمه إلا الأذكياء .

غير مَوضعه قال اللَّه تَعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [١] .

ومَن فَهم هَذا المعنى اتضح له وَجه الحكمة في مَظلمة الشرك التي لا تُغفر ، قال اللَّه تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [٢] .

وسَيأتي الكَلام عليه في مَواضعه إنْ شَاء اللَّه .

وأمّا حق الرسُول عليْه السلام فعظيم ، لا يُقدّر أحداً قَدره أيضاً ، فإن كُل نعمة أسدى [٣] اللَّه إلى الأُمة من نعم الدين كُلها إنما كَانت على يَديه فمن كَان سَبب الهداية إلى ربِّ العَالمينَ ، والمعرفة به ، وسبب العبادة له ، وسَبب النجاة من الضلال وسبب تَنوير القَلب وشَرح الصدور ، وتَنْبيه العُقولَ ، وسَلامة النَّفس من وَحشة الكُفر ، وضيق الصدور وظُلمة الحُمق [٤] ، ومن العَذاب الدُنَياوي ، وسَبب الراحة بَعد الموت ، وسَبب النَّجاة من الخُلود في النَّار ، وسبب النَّظر إلى وجه اللَّه الكريم ، وسبب

١/٩٥ النَّجاة منْ غَضب اللَّه ، وسبب نَيل الرضوان منَ اللَّه ، وسبباً ينعم / اللَّه على عبيده أبد الآبدين ؛ فَنعَم لاتحصى كَيف نُقَدر قَدر هَذا الشخص ، أو يؤدى شُكره أبداً ؟ .

فالعدل في حَقه أن تَلحظه بعين التعزير ، والتَّوقير وتراه في المَرتبة التي جَعله اللَّه فيها ، وتُقدره قَدره الذي هو عليْه وهيهات أنَّا لك بذلك ، وقد قَرن اللّه اسْمَه مع اسْمه الذي سَما على العَرش بعظمته وجلاله ورفعته ، وكبرْيائه ، وذلَّ لاَسمه كُل شيء بالتَّعبد ، والخضوع [٥] والإقْرار ،

---

(١) سورة لقمان الآية (١٣) .

(٢)سورة النساء الآية (٤٨) .

(٣) أسْدى : أعطى وأولى .

(٤) الحُمق : قلة العقل . (٥) الخضوع : الرضى بالذل والانقياد والميل والانحناء .

كيف يَقدر قدره، أو يُؤدَّى شكره وقد أمر اللّه بتعزيره وتوقيره في آيات كثيرة من كتابه فقال :

﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ (١) ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه ﴾ (٢) وقال للصحابة : ﴿يَاأَيُّهَا الذين آمنوا لاتُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي الله -إلى قوله- لاتَرْفَعوا أصْوَاتَكم فَوْقَ صَوْت النبي وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُم لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُم وَأَنْتُم لا تشْعُرون ﴾ (٣) .

فَشخص وجل قدره عند اللّه حَبط (٤) أعمال الإسْلام من أجل رَفع الصوت عنده ، لقد جَل قدره ، وعظم خَطره .

وكذلك رفع الصوت بالآراء على سُنته ، وتقديم الرَّأي عليْها ، والتهاون بكَلامه من ذَلك المعَنى ، بل تلحظ سُنته ، وكلامه كما يَلحظ شَخصه ، واختصار القول في هذا المعنى : أن البارئ تَبارك وتَعالى جعل الخير ، والهداية ، والنَّعيم الذي في يده جل جَلاله في خَزانه مُلكه ، وجعل الشر ، والضَلال ، و العَذاب وأنواع الخِزي كُلها الذي في يَده الأخرى في خزانة مُلكه .

ثم خَاطب الخَلائق كُلهم وقال : لا ينَال أحد منَ الخَير الذي في يَدي ذَرَّة إلاّ على يَدي هذا الشخص الذي أرْسَلته إليْكم ، ولايَنال شيئًا من الشر الذي لا يَقوم له شيء ، وهو بيَدي إلاّ من أغْضب هذا الشَخص ، ولم يُطعه ، فهكذا ينبغي أنْ تفهم بعض دَرجات النَّبي ومَراتبه ﷺ .

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٩) .

(٢) سورة الفتح الآية (٨ ,٩) .

(٣) سورة الحجرات الآية (١ ، ٢) .

(٤) حبط : بطل ، وفي القرآن الكريم : ﴿ لئنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ .

٩٥/ب ومن العدل في / [. . . . . .] [١] .

كَما قال : ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فيها مِنْ كُلِّ شَيْء مَوْزُونٍ﴾ [٢]

وكذلك كُل شَيء ، كمَا نَبه عليْه في قَوله : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلا هُوَ وَالْمَلاَئِكَة وَأُولُوا الْعِلْم قَائماً بِالْقِسْط﴾ [٣] أي يُعطي كُل شَيء قسطه ، منَّ الله علَيْنا برحمته ، وفَضله ، ورَضَا عنَّا خُصماءنا بكُرمه وسَمح لنا في حُقوقه آمين .

وصلى اللَّه على محمد وآله وسَلم .

---

(١) سقطت الورقة [٩٦ أ، ب] من النسخة الخطية .

(٢) سورة الحجر الآية (١٩) .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٨) .

الشُّعبة السَّابعة عَشرة
الأَمانة

وهي من أعظم شُعب الإيمَان؛ لأن النبَّي عليْه السلام قَد نفى الإيمَان عنْ مَن لَيس بأمين.

فقال : «لاَ إيمان لِمن لاَ أمانة له »(١) .

ورَوى أبو هُريرة عنْ رسُول اللّه ﷺ : «إذا ضُيعت الأمانة فَانْتظر الساعة»(٢) .

وفي حَديث حُذيفة الذي رَواه في رفع الأمَانة قال في آخره : «فَيُصبح النَّاس يَتَبايعون ولاَ يَكاد أَحدهم يَرد الأمانه ، فَيقال : إنَّ في بَني فُلان رجل أَمين،ويقال للرَّجل مَا أَعقله ، ومَا أَظْرفَه ، ومَا أَجْلده ، وما في قَلبه مِثْقَال حبَّة خَردل من إيمَان »(٣) .

فانظُرهذه الشُّعبة ، مَا أعظم قَدرها التي يذهب الإيمَان بذَهابها .

واعلمْ ياأخي أنَّ الأمانة قَدرها عظيم ؛ لأنَّ الله عَرضها على السَّموات ،والأرض ، والجبال فأبين أنْ يَحملنها ، وأشفَقن مِنها ، وهِي

---

(١) الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة (١٢٨٤) وقال : [رواه] أحمد وأبو يعلى في مسنديهما ، والبيهقي في الشعب عن أنس به مرفوعاً اهـ ، وبها مش الكتاب : رواه السهمي من حديث ثوبان بلفظ « لا إيمان لمن لا أمانة ،ولا صلاة لمن لا وضوء له » صـ٦٥ تاريخ جرجان .

(٢) صحيح : البخاري (١/ ٢٣) .

(٣) هو جزء من حديث عند الترمذي في سننه (٢١٧٩) .

صفة بَاطنة نَزلت في جَذر[١] قُلوب الرِّجال ، يَرد العَبد المتُصف بها الشَيء الذَي أُؤتمن عليْه، واستودع إلى من ائْتَمنه ، فاسْتَودعه كَما اسْتودعه .

ويَحق لكل عَبد أن يَبكي القَيح [٢] والدَّم إنْ قَـدر على ذَلك من أجل حَملِه الأمانة ، فإنَّ قَدرها عظيم وحملها الإنسان بجَهله ، و ظُلمه .

واعلمْ ياأخي وفقنا اللَّه وإياك أن الأمانة على ضروب ، فَمنها أمانة

١/٩٧أ اللَّه ، وأمانة الرسُول وأمانة فيما / بيْن الخَلق ، قال اللَّه تَعالى :

﴿ياأيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٣] .

ومعنى لاَ تَخُونوا اللَّه فيما ائتمنكم عليْه ، ولاَ تَخونوا الرسُول فيما ائتمنكم عليه ، ولا تَخُونوا بَعضكم لِبعض فيما ائتمنكم عليْه .

فأمّا أمانة اللّه جَل جَلاله ، وتعالى عَلاؤه وشَأنه فَهي الوَديعة التي اسْتَودع اللَّه آدم ، وولده ، وأمَّنهم عليها ، وهي تَمْليكه إيَّاهم الأشياء وجعله إيَّاهم خَلفاً في مُلكه ، لأنَّه لولا الغيبة لما سُميت الأمانة أمانة ، ولا الخيانة خيانة ، فَبغيبتهم عنْ المُستخلف ظَهر الأمين منهم والخَائن ، فأول مَا مَلَكم نُفَوسهم وأَمنهم عليْها ، وأمرهم بحفظها ، وأن يَلْقُوه طَاهرين من مَعاني الخيانة كما خلقهم طَاهرين .

ثم ملّكهم بعد نُفوسهم مُلكه ، واسْتَخلفهم فيه ليكونوا فيه قَائمين بحقوق الأمانة ؛ لأنَّ من مَلكك شيئاً ، واستخلفَك عليْه فقد أمَّنك عليْه بحقَيقة الأمانة ؛ أنْ يحكم الأمين في نَفسه ، وفيما مَلك بِحُكم مَنْ

---

(١) جذر : استئصال .

(٢) القيح : إفرازات تنشأ من التهاب الأنسجة بتأثير الجراثيم الصديدية .

(٣) سورة الأنفال الآية (٢٧) .

أمَّنه ، واستخلفه وكما أمره فيكون بَدلاً من الذي أمنه على نفسه ، وعلى ملكه .

فذلك عَظُم أمر الأمانة ، والخيانة ؛ لأنَّه كُلف أنْ يَحكم في نَفسه وغَيره كحُكم اللَّه تَعالى فيه وفي غيره .

فإن قلت : كيف يَقدر أحد على هَذا ؟

فاعلمْ أن حُكم اللَّه هُوالشرع [١] الذي شَرع ، والحَد الذي حَد ، وقد كُلف العبد القِيام بما شَرع اللَّه ، وحكم عليه ، و غيره .

وكذلك ورَد في تفسير صحيح البُخاري في قوله تَعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ﴾ [٢] الآية .

قال في تفسير الأمانة : ما أمر به الشرع .

والشرع أمر بالتَّوحيد ، والإيمَان بالمؤُمنات والقيام بفُروع الإسلام ، وجميع المَشروعات فقد عمّت الأمانة مقَام الإحسَان ، والإيمَان ، والإسلام ، ظاهراً ، وبَاطناً ؛ فقد أمّنه اللَّه عَلى مقام الإسلام وفُروعه ، وعالَم الحس ، و أمّنه على مقام / الإيمَان ، وعلى نفسه في عَالم النَّفس وأمّنه ٩٧/ب عَلى مقَام الإحسَان في مقَام الرُّوح ، والعقل ؛ لأن ذَلك هُو الشرع كُله ، أمّنه عليْه ليرى أيكون أميناً في ذَلك كُله أم لاَ ؟ .

فقد عمّت [٣] الأمانة المقَامات كُلها ، فَافهم .

ولكن إنَّما يُفهم حقيقة المعَنى منها - أعْنِي الأمَانة بفهم الخِلافة ؛

---

(١) الشرع : ما شرعه الله لعباده من العقائد والأحكام .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٧٢) .

(٣) عَمت : شَملت .

فالأمين هُو الذي يكون إذا غَاب عنْ الذي أمنه كَما كَان معه في حال حضُوره .

والبارئ جَل جَلاله خلَق الخَلق طَاهرين ، واسْتخلَفهم في دَار الدُّنيا ، ثمَّ أمرهم بالإيمَان به ، والعَمل لمقتضى الإيمَان بالغيب ، فمن حفظ نَفسه في دَار الدنيا ، وحفظَ ما أمن عليْه كما كَان يَحفظ ذَلك في حال حُضوره بين يَدي اللَّه فهو الأمين .

وقد نبّه الله على هذا المعنى في مَواضع كثيرة ، فقال تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١) .

فنبه النَّاظر على أن اللَّه يعلم خَائنة الأعين ، وما تخفي الصُدور ، فلو أنَّ الناظر يعلم ، ويَتحقق أنَّ اللَّه يراه في حال النَّظر لَما نظر إلى مَا خطر عليه . وقالت امرأة العزيز ذلك : ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بَالْغَيْب﴾ (٢) فالأمانة أن يَسْتولي من الأمن سرّه ، وعلانيته ، ولاَ يُبالي على أيْ حَال اطلع عليْه إلاْ بما أمر الشرعَ بستره من نكَاح أوغيره وهذه المَسألة تَسْتَدعي فَهم معنى الخلافة ، وكَيفْ استحق إبرَاهيم ذلك دُون سَائر الخلق .

فاعلمْ أن الملائكة المُكرمين خُلقوا على مَراتب (٣) لايتعدى أحد مرتبته التي جَعل فيها ، كما قَالوا صَلوات اللَّه عَليهم : ﴿وَمَامِنَّا إِلاَّ لَه مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ (٤) .

وقد عَمَّروا العَالم كُله حتى أنَّه ليس فيه مَوضع شبر إلاّ مغمور (٥) بهم ،

---

(١) سورة غافر الآية (١٩) . (٢) سورة يوسف الآية (٥٢) .

(٣) مراتب : جمع مرتبة وهي المنزلة الرفيعة والمكانة العالية .

(٤) سورة الصافات الآية (١٩٤) .

(٥) مغمور : غطوه بفضلهم .

فالملائكة المخلقون بالأرضين الموكلون بها لاَ يَتصرفون إلاّ في مَعنى مَا خُلقوا لَه ، وصُرفوا فيه ، والملاَئكة المَخْلوقون / بالبَحر ، المُوكلون به كَذلك ، ١/٩٨
والمُوكلون بالرِّيَاح أيْضًا ، كذلك لا يَتَصرفون إلاّ في المقَام الذِي هم فِيه ، وفي الأمر الَذِي وكلوا به .

و كَذلك الموكلون بعَالم الأفلاك ، والشمس والقَمر ، والنجوم ، وأجْرام السماوات ، وحَملة الكُرسي ، والعَرش ، ومَلائكة الجنان ، ومَلائكة النَّار ، والحجُب ، وغَير ذَلك ممَّا لاَ يُحصى ، كُل منهم مَخلْوَق من نَوع مقَامه الذي وكل به وعامل بالعَمل الذي اسْتعمل فيه ، لَا يَتعداه .

و كذلك الشياطين ، والجن مَقْصورون عَلى نَوع مَا خُلقوا منه .

وكذلك الحَيوانات ، والنَّبات ، والأفلاك [(١)] الدَّائرات كل شيء منْ ذَلك قَاصر على الشَيء الذي اسْتُعمل به غَيره ، فكل واحد منهم آمنٌ في نفسه على الشَيء الذي اخْتَص به ، وهذه الأمانه المعُرّفة بالألفَ واللاَم في قوله : ﴿إِنَّا عَرَضنا الأَمَانَةَ﴾ [(٢)] مخصوصة لآدَم ، وولده ، لأنَّ اللَّه خلق آدم ، وولده من جميع المَخْلوقات ، ركب بنْيته منْ جُملة المَوجودات وعلمه الأسماء كُلها ، فَلذَلك كَان خَليفة ؛ لأنَّه صَالح لأنْ يَفهم جَميع مَعاني الموجودات كُلها .

وفي بَعض الكُتب المُنزلة : « ابن آدم خلقتُ الأشياء كُلها من أجلك ، وخَلقتك منْ أجلي » ويصدقه مْن القُرآن قوله عزَّ وجَل :

﴿وسَخَّر [(٣)] لَكُمْ مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [(٤)] فَهَذا هُو

(١) الأفلاك : جمع فَلَك : وهو المدار الذي يسبح في الجرم السماوي .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٧٢) . (٣) في الأصل « وهو الذي خلق » وهو خطأ .

(٤) سورة الجاثية الآية (١٣) .

عَالم المُلك الظاهر ، كُله مخلوق منْ أجله .

وأمَّا عالم المَلكوت فإن اللَّه يَقول : ﴿واتَّقُوا النَّار الَّتِي أُعِدتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(١) ، وَالْجَنَّةُ الَّتي أُعدَّتْ لِلْمُتَّقينَ(٢) .

فهذا عَالم الملكوت ، مخلوق من أجله ، وإبْليس إنَّما أُبلس من أجله لَمَّا لمْ يُقر بخلاَفته ، والملائكة مَصْرفون في حَوائج بني آدم ؛ فإسْرافيل
٩٨/ب مَشغول بالصُور الذي فيه أرواح بني آدم ، وجبريل مُصرفٌ / في الوَحي الذي فيه هداية بني آدم ، وميكائيل وُكل بأرزاق بني آدم وملك الموت مُسخر في قَبض أرواحهم .

والبَهائم مخلوقة لَهم ، والسقف عَرش الجنَّة ، والجنَّة مخلوقة لَهم ، فكل شيء من أجله خلق ، ولذلك خَلق في آخر الموجودات كُلها فخلق اللَّه تبارك وتعالى العَرش ، والكُرسي ، والجنّة ، والنَّار والسموات والأرض ، والنّبات وجَميع الحَيوانات .

ثمَّ خَلق بَعد ذَلك آدم حين كَملت المَوجودات ليكُون خليفة فيها ؛ لأنَّ آدم فيه منَ الأرض جُزء ، ومَن الجبال جُزء ، ومن المَاء جُزء ، ومن الهَواء جُزء ، ومن الريح جزء ، ومن النَار جزء ، ومن السحاب جزء ، ومن أخلاق الشياطين جُزء ومن أخلاق المَلائكة جُزء ، ومن جميع المَوجودات جَزء ، فَمن التُراب لَحمهُ ، ومن الجبال عَظمه ومن المَاء دَمه ، ومن الهَواء نفسه ، ومن الريح قوته ، ومن النَّار حَرارته ، وجُعل في باطن جسده القَلب ، وهو مثال للشمس في الفَلَك ، فيه تَنتشر الحَرارة فى الجَسد كالشمس في العَالم ، وجَعل فيه الرئة لتَبريد الحَرارة عن بَاطن جَسَده ، وهي مثالٌ

(١) سورة آل عمران الآية (١٣١) .

(٢) لعله يقصد الاستشهاد بقول الله عز وجل : ﴿ وَجَنَّة عَرْضُهَا السَّمَوَاتَ وَالأَرْض أُعِدَّتْ لِلْمتَّقِينَ﴾ سورة آل عمران الآية (١٣٣) .

للقَمر في العَالم الفَلكي .

وجعل فيه المعدة المشتهية للطعام ، وهي مثال للزهرة [١] في الفلك وجعل فيه المرار المهيج للغضب والحقد ، وغير ذلك من الأفعال التي تحمد مرة ، وتُذَمُّ أخرى ، وهُو مثال للمَريخ في العَالم الفَلكي .

وجَعل فيه الكَبد المصفى للدَّم ، المعُدّل للمَزاج ، وهو مِثال للمُشتري [٢] فيَ العَالم .

وجَعل فيه الطُحال إلزام ببرده ، ويَبسه وماصرفه الله فيه من بَاطن الإنْسان ، وجَعَل مثاله في الفَلك زُحَل [٣] .

١/٩٩ وجَعل فيه الدماغ المهيج للأفكار ، وغَير/ ذلك مما صُرِف فيه ، وهو مِثال لعُطَارد [٤] .

فهذه مثَالات في جَسد الإنْسان لأشخاص الأفلاك التي أقْسم اللّه بها ، وهي الجَوار الكُنَّس والشمس ، والقَمر ، وجَعل في هَذه الأعْضاء الرئيَسية قُوَى فَعالة بإذن اللَّه تَعالى ، فَمنها مُغْذى [٥] ومنها جَاذب ، ومَاسك ، ودَافع ، ومُصور ، ومُعدل ، ومُقَسم للغذاء ، وغَير ذَلك من القُوى المرُكبة في بَاطن الإنْسان ، وهي مِثال للأملاك المَصرفة للفَلك ، والكَواكب الخَدمَة لهذا العَالم بإذن اللَّه .

---

(١) الزهرة : أحد كواكب المجموعة الشمسية التسعة ، وهو ثاني كوكب في البعد عن الشمس ، يقع بين عطارد والأرض وهو ألمع جرم سماوي باستثناء الشمس والقمر .

(٢) المشترى : أكبر الكواكب السيارة في المجموعة الشمسية ، وفي الأساطير : كبير الآلهة .

(٣) زحل : أبعد الكواكب السيارة في النظام الشمسي .

(٤) عُطَارد : نجم من السيارات التسعة وهو أقربها من الشمس .

(٥) المغدى ، مكان الغدو ويقال : ماترك من أبيه مغدى ولا مرحاً : لا شبها .

وركّب أيضًا في الإنسان طبائع النّبات ، وطَبائع الحَيوانات من الأكل ، والشرب ، والمرارة ، والحَلاوة ، والخُشونة ، والبَلادة ، والحقد ، والشّجاعة ، والجُبن وجميع صفات البَهائم ، والنّبات المحمودة ، والمذمُومة ليفهم المعَاني كلها ، لكنه كُلفَ أن يصير المذموم محمودًا وكذلك جعل فيه الهمم العَالية الرّفيعة مثال للسموات العَاليات ، والهمم الدّنية السافلة مثال للأدْراَك السافلة ، وَجَعل لَه نَفسًا حَاملة لجسَده وهو مثال العَالم الكُرسي الذي وسع السموات والأرض .

وجَعَل لَه رُوحًا وعَقلاً ، وهو مثال للعَرش الحَامل للكُل ، وصفات محمودات ، وأخلاق مَذمومات ، وهي مثال للملائكة ، والشّياطين ؛ فَصفات اللين ، والرّحمة والرضوان مَثالٌ للملائكة السَماوية المُقربين ، الرّوحَانيين .

وصفات الشدّة والغلظة (١) والقُوة مثال المَلائكة الأرضية ، وأهل قبضة الشمال .

ومثال أخلاقه المذمومة مثال الشياطين ، وجعل اللّه لَه سَمعًا ، وبَصرًا ، وإرادة ، وكَلامًا ، وحياَة ، وعلمًا ، وقدرة ليفهم بها صفات بارئه ؛ فالإنْسان إذا تَفكر في جسده ، ونَفسَه ، ورُوحه وعَرفها عَرف منها
١/٩٩ جُملة الموجودات / ؛ فلهذه العلة وكلف الأمانة ، وصَار خَليفة ؛ إلاَّ أنَّه كلف أنْ يجري أخلاقه ، وأعْمالَه وأحكامه كُلها عَلى الشرع ، فيكون كُل مَا فيه مَحمودًا ، فائتمنه اللّه على نَفسه ، وعلى مخلوقاته ، وأمره أنْ يكون فيها بَدلاً منه ، وأنْ لا يخون ، ولا يُغير الأمانة فمن أيده اللّه بالتوفيق ، وأجرى أُموره على الشرع وبقي عَلى صُورة الأمانة وصَل في الآخرة إلى

---

(١) الغلظة : الشدة والعنف وفي القرآن الكريم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِي جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ . .

معنى قوله تَعالى :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ (١) .

ومنَ خَان اللَّه تَعالى ، وادَّعى الربوبية لغَير اللَّه أو لنفسه ، أو بفعل من أفعال اللَّه فقد خَان الله فيما أمّنه عليْه ، وغير الأمانة ، وجحدها ، وأراد قَلب الملك ، وقام عَلى المَلك في مُلكه ، وأفسد ، ولذلك قيل : من الذنوب ذُنوب لأيصلح للملك أنْ يعفو عنها ، ولَيس من الحكمَة العفَو ، منها خليفة استخلفه مَلك ، فَأراد قَلب دَولته عليْه ، فإنَّهَا خيانة عَظيمة ، لا يَصلح العَفو عنْها ، إذا عُثر عليه قَبل توبته ، ورُجوعه إلى الحَق ، فلذلك انقسم الخُلفاء إلى : أمُناء ، وخَونة وما بيْن ذَلك .

فقسم لهم دَاران ، دَار الكرامة ، ودَار الهَوان نسأل اللَّه الكَريم أنْ يُلهمنا رُشدنا ، ويَتوب علينْا منْ دقائق الآفَات ، وجليلها ، إنَّه كَريم ، منَّان .

وأمَّا أمانة الرسل عليْهم السلام فإنَّهم استَودعوا النَاس الشرائع التِي جَاءوا بها ، وهِي العُلوم ، والأعْمَال ، كما ورد في الحديث :

«العُلماء أُمناء الرُّسل » (٢) .

وكَلف الخَلق كُلهم طَلب العلم ، وفَرض عليْهم فَهُمْ أمناء عليْه ، وعلى العَمل به ، فهم أمناءٌ على الوَضوء ، والصَّلاة ، والغُسل ، والصوم (٣) والزَّكاة ، والحَج وعلى الاعْتقادات (٤) كُلها ، وكل مَا يلزمهم التصديق به ،

(١) سورة الإنسان الآية (٢٠) .

(٢) ابن أبي حاتم في العلل (١٥٠٦) .

(٣) زاد في الأصل كلمة « الصلاة » .

(٤) الاعتقادات : عقد فلان الأمر : صدقه وعقد عليه قلبه وضميره فصار الأمر معقود وصار فلان معتقداً .

والعِلم والعَمل .

٩٩/ب فَمن وَافق عِلمه عمله ، وسِرّه عَلنه ، وكَان جارياً على / سُنة الأنبياء فهو الأمين .

ومَن كَان بضد ذَلك فهو الخَائن ، وبيْن ذَلك دَرجات ، ولذلك تقول الأنبياء إذا سُئلوا يَومَ القيامة : ﴿لاَ عِلمَ لنَا﴾ (١) .

قال اللّه تَعالى :

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ الله ا لرسُلَ فَيقول مَاذَا أجبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلمَ لنَا إنَّكَ أنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (٢) أي أنت العالم ببواطنهم ، وماكانوا عليه ، فحينئذ تَظهر الأمانة والخيانة .

تاب اللّه عَلينا من جَليل الخيانة ، ودَقيقها آمين .

وأمَّا أمَانة النَّاس بَعضهم مَع بعض فهي الوَدائع (٣) في الأموال ، والأهْلين ، وهي التِي عبّر عنها قوله تعالى : ﴿وتَخُونُوا أمَانَاتِكُمْ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤) .

والأمَانة صفة كَريمة من عَلامة السعادة ، فمن أخذ درهمًا ، أو أقل مِن ذَلك ، أو أكثر مِنَ مَال غَيره فهو خَائن لاَ يُبرئه إلاّ ردَّه .

وكذلك من نظر نظرة إلى غير أهله بسوء ، كما قال الله تعالى ﴿ يعلم خَائنَةَ الأعْيُنِ ومَاَ تُخْفِي الصُّدُور ﴾ (٥) . وكذلك جميع الجوارح إذا تعدت إلى

(١) سورة المائدة الآية (١٠٩) .

(٢) سورة المائدة الآية (١٠٩) .

(٣) الودائع : جمع وديعة : وهو ما استودع على سبيل الأمانة .

(٤) سورة الأنفال الآية (٢٧) .

(٥) سورة غافر الآية (١٩) .

متاع الغير قد خَان غيره في ذلك ، والخيانة كلها مَذْمُومة ، مجُانبة للإيمَان، فقد عَمَّتَ الأمانة جَميع المقَامات الإسْلامية ، والإيمَانية ، والإحْسَانية ، كُلها ليرى أيكون خَائناً نَفسه أمْ لاَ ؟ .

نسأل اللّه التَّوبة مِن جَميعها آمين ، وصلى اللّه على مُحمد وآله وسلم .

الشُّعْبة الثَّامِنة عَشر
الصِّـــدْق

فأمّا كَون الصِّدق منْ شُعب الإيمَان فَقد ثَبت عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال : «عليكم بالصدق ، فإنَّ الصِّدق يهَدي إلى البر ،وإنَّ البر يهدي إلى الجنَّة ، وما زَال الرجل يَصدق ويَتَحرى الصِّدق حتى يُكتب عنْد اللّه صِدّيقًا »[١] .

فَشيء يبلغ إلى الصِّديقية/ ، التي هِي أرفع دَرَجات الإيمان كيف لا ١/١٠٠
يكُون من الإيمَان ؟

ولأن لَفظ الصدق من لفظ التَّصديق ، والتَّصديق هُو الإيمَان ، فَهو منه ، إلاّ أنَّ الصِّدق يَجري من الإيمان مجرى القُوّة من الأبدان[٢] فإذا لمْ تَكن القُوة في البدن كان ضَعيفاً بقدر مَا نَقصه من القُوة .

وكذلك الصِّدق من الإيمان ، بقدر صدق العَبد تكون قُوة إيمَانه ، ولأن الكَذب الذي هُو ضد الصدق مُجانبَ للإيمَان « كما ورد عن النبِّي عليْه السلام حينَ سُئل فقيَل له : يَارسول اللّه أيكون المؤمن بَخيلاً[٣] ؟ قال نعم ، قيل : أيكون المؤمن جَبَاناً ؟[٤] قال : نعم ، قيل أيكون المؤمن كَذوباً ؟ قال : لا »[٥] .

---

(١)صحيح : مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (١٠٥) ، والترمذي (١٩٧١) أبو داود (١) .

(٢) الأبدان : جمع بدن وهو ما سوى الرأس والأطراف من الجسم .

(٣) بخيلاً : أن يضن بما عنده .

(٤) جباناً : يهب الأشياء ولا يقدم عليها .

(٥) هو عند أحمد وابن أبي شيبة في الأدب كلاهما عن وكيع ، عن إسماعيل وابن المبارك في =

واعلمْ أن الصدق هو التحقق ، والتحقيق بصفات الصادقين ؛ لأن الصِّدق هُو الحق ، والكَذب هو البَاطل .

فحدّ الصدق هو التحقيق في الأقوال ، والأعْمال ، وأحْوال القُلوب .

وحال القلب هي حَقيقة الصِّدق ، وصدق الأقوال والأفعال النَّاطقة بِلِسان الحَال التي هِي أَصدق من لِسان المقَال .

ولذلك قَال الأشياخ من العلماء : ليس في المؤمنين أقل من الصَّادقين ، وقالوا أيضاً : الصِّدق سيف اللَّه في الأرض ، ماوضع على شيء إلاّ قَطعه ، فالصَّادق في إيمانه مَن صَدرت أقواله ، وأفْعاله عن حَال اتصف بِها قَلبه ، وهي التي سَأَل الخَليل ربَّه فقال :

﴿واجْعَلْ لي لِسَانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ﴾ [(١)] .

قِيل : ثَناءً حَسنًا ، أي يُثنى عليَّ بحق .

وقال النَبي عليْه السلام في هذا المعنى : «لَيس الإيمَان بالتحلي ، ولا بالتَّمني ،ولكنَّه مَاوَقر في القلب ، وصَدقه العَمل » [(٢)] .

فالصدق على هذا على ضربين : ظاهر ، وباطن ، فَالباطن مَحلّه القلب ، والسر ، وهُو على ضَربين - أعني البَاطن - ضرب في مقَام الإيمَان/ ١٠٠/ب
وضرب في مقَام الإحْسَان .

والظَّاهر مَحلّه الجَوارح ، والجَسد الظاهر فإذا استَوى الظاهر ، والبَاطن

=الزهد عن إسماعيل كذلك ، ولمالك في الموطأ عن صفوان بن سليم مرسلاً أو معضلاً قيل : الحديث انظر المقاصد الحسنة حديث (٧٩٦) .

(١) سورة الشعراء الآية (٨٤) .

(٢) أورده ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٢٩٠) .

فهو الصِّدق من قولهم : عود صِدق إذَا أخرجت عجم باطنه ، ووجدته مُوافقًا لظَاهره في الصَّلابة .

ألا ترى أن الصِّدق في القول هُو الذي إذا أخبرك بِشيء فقد تَحققه بقَلبه ، فإذَا وَجدته كما أخبرك عَلمت أنَّه صَادق .

والكَاذب بضد ذَلك ؛ إذَا أخْبرك بخَبر ، وهُو لا يُحققه بقَلبه ، فإذَا وَجدته بِخَلاف مَا أَخبرك به عَلمت أنَّه كَاذَب .

فهذا يُفهك أن الصِّدق اسْتواء السِّر ، و العَلانية ؛ وذَلك أنَّ اللَّه تَعالى أرسل الرسُل إلى الخَلق ، وأمرهم بالإيمَان بالغَيب ، والعَمل بمتقضى مَا أُخبروا به .

والصِّدق في ذَلك كُله ، فأمر العبد أن يكون صادقاً في مقام إسْلامه ، وصَادقاً في مقَام إيمانه ، وصَادقاً في مقَام إحْسانه ، وأنْ يَرتقي [1] في مقام إحسانه ، وأن يرتقي فِي مقَام الإحْسَان إلى أعلى دَرجات الصِّديقيّة .

والصِّديقين على قَدر طَاقته ، فَآمَنوا ، وعَملوا ، وارتَّفعوا بقَدر صدقهم في موُافقة السّر للعَلانية وانحْطوا وقصَروا بقَدر التَناقض [2] في الأَقوال والأفعَال ، والأحْوال .

قال النبي عليه السلام : «**ليس الإيمَان بِالتَّحلي ولاَ بالتَّمني**» [3] .

والتَّحلي : هُو أن يتَلبس الإنسَان بالإيمَان والإسلام ، ويَتَمنى مَا آمن به ، وأسْلم لَه دُون الأفعال ، ويَعْتري هَذا مِن ضَعَف الإيمَان وقلة قُوة البَاطن

---

(١) يرتقي : يصعد .

(٢) التناقض : الاختلاف والتعارض .

(٣) سبق تخريجه قريبًا .

التي أعطيها الصَّادقون .

وعن هذا المعنى يُسأل الناس يَوم القيامة ، قال اللَّه تعالى : ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾[1] .

١٠١/أ لأنَّ كُل من أقر للَّه بالوحدانية ، ولرسُوله بالرسالة وآمن بما جاء به / ، فهو صَادق فيما أُقر به ، وآمن ، لأنَّه شهد بالحق ، فَيُسأل عنْ صدقه ، هَل وافقت شَهادته حَاله ، أمْ لاَ ؟ .

فمن صَدَقت أحواله أقْواله ، وأفعاله نفعَه صدقه ، قال اللَّه تَعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهم﴾[2] .

وقال تعالى في قلة الصِّدق : ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ، وَلاَ أَمَانِي أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[3] .

كما قَال عليْه السَلام : «ليس الإيمَان بالتَّحلي ،ولا بالتَّمني »[4] .

فإن عُدم العَبد الصِّدق خَلفه ضده ، وهو الكَذب في الأقوال ، والأفعال ، فكان بالمَنافقين أشْبه منه بالصَّادقين ، على قدر قلة صدقه ، وكَذبه إلاّ أن المؤمنين ضدَ الكَافرين والمُنافقين ضد الصَّادقين ؛ فَإن الكَافرين جَحَدوا[5] ظَاهراً وبَاطنًا ، والمُنافقين تحلّوا بالإيمَان ظَاهراً وعُرُّوا منه باطنًا ، فكانوا كَاذبين .

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٨) .

(٢) سورة المائدة الآية (١١٩) .

(٣) سورة النساء الآية (١٢٣) .

(٤) سبق تخريجه قريباً .

(٥) جحدوا : أنكروا مع علمهم أنه الحق ، وفي القرآن الكريم ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ .

والصَّادق الحَقيقي هُو الذي عُرِّيَ من النِّفاق ولم يبق فيه شيء لاسْتَواء ظَاهره وبَاطنه ، والمنافق الحَقيقي هو الذي عُرِّيَ من الصدق ، ولم يَبق منه شيء ؛ لاخْتلاف ظَاهره ، وبَاطنه ، وما بيْن ذلك دَرجات ، بقَدر مُخالفَة الظاهر البَاطن ، أو مُوافقة البَاطن الظاهر ، فمن تَحقق بالإيمَان ، والإحسَان ظَاهراً، وبَاطناً فَهو الصِّدق .

قال اللَّه تَعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ (١) .

ومن قَل تحققه قلّت صديقّيته ، ومنْ قلّةِ الصدق خَاف الصَّحابة ، وكِبار العُلماء رضوان الله عليْهم .

وروى ابن أبي مُليكة في الصحيح : « أدركت ثلاثين من أصحاب رسُول اللَّه ﷺ كُلهم يَخاف النِّفاق عَلى نَفسه » .

وقال التيميّ : مَاعَرضت قَولي عَلى عَملي إلا خَشيت أنْ أكُون مُكذباً .

١٠١/ب وكان عُمر يَسأل عن نَفسه لحذيفة / هَل يرَى فيه شَيئاً من أسْبَاب النفاق؟

وقيل : الصَّادق هُو الذي لاَ يُبالي مَتى جَاءه الموَت ، بل الصَّادق هُو الذِي يتمنى الموت . قال اللَّه تَعالى : ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢) .

وقال بَعض العُلماء : لا يَفْزع(٣) من الموت إلاّ مُريب (٤) فإذا أردت أنْ تعرف هل أنْت صَادق أم لاَ ؟ فانظر هَل تَرضى حَالك للموت ، وعَملَك

(١) سورة الحديد الآية (١٩) .

(٢) سورة الجمعة الآية (٦) .

(٣) يفزع : يتقبض وينفر من شيء مخيف .

(٤) مريب : راب الأمر صار ذا ريبة وشك فَهو مُريب .

للحسَاب ، ونَفْسك للقاء اللّه أم لا ؟ فَبقدر صدقك تَشتّاق إلى لقاء مولاك ، فإنَ قلت : أحب البقاءَ لعلي أتوب إلى اللّهَ ، وأعمل صَالحاً ، فإن ذلك عُقوبة مَافَاتك من الصِّدق فيما سَلف من عُمرك أو عقوبة ما أنت عليْه من قلة صدقكَ في حبِّ اللّه ، ولقائه ، لأن نَفسك أشْركَت في حُبه حب غيره ولَلصَدْيقين أسرار ، وأحوال ، لا يَحل كَشْفها إلاّ الصَّادقونَ بعضهم مَع بعض لتصديقهم بها ، وأكثر النَّاس يُنكرونها عليهم بضعف مَعاني الصِّديقيّة عنْدهم فيهم ، لأنَّها دَرجة لَيس بينها وبيْن النُّبوة حَجاب إلاّ دَرجة الوَحي المَخصوص بالأنْبياء عليهم السلام ، لأن شَرط النبيَ الصِّدق ، والعصمة من ضده الذي هو الكَذب ، فلولا الأنبياء ما ظهر لهم دَليل نُبوة فَنَاهيكَ بدرَجة عُصَم (١) الأنبياء من ضدها ، فآخر دَرجات الصدّيق أول دَرجة النبيَ ، منّ اللّهَ علينا بالصدق ، وَجعلنا منْ أهْله في الدنيا والآخرة ، آمين آمين ، وصلى اللّه على محمد وآله وسلم(٢) .

---

(١) عُصم : حفظ وحمي ووقي .

(٢) بلغ مقابلة : كذا على حاشية الأصل .

الشُعبة التاسعة عشر
الوفاء بالعُهود والمواعيد

فأمّا كَون الوفاء من الإيمَان ، فإنَّ ضده من شُعب النِّفاق ؛ عنْ ابن عُمر أن رسُول اللَّه ﷺ / قَال : «أربع من كن فيه كان منُافقـاً خَالصاً ، ومَن كَانت فيه خَصلة منهن كَانت فيه خصلة من النفاق حتى يدَعها : إذَا أؤتُمن خَان ، وإذا حدّث كَذب ، وإذا عَاهد غدر ، وإذَا خاصم فَجر »[1] . ١٠٢/أ

والوفَاء بالعهد على ثَلاثة أضْـرب ، ضَـرب في حَق اللّه ، وحق دينه الذي هُو الإسْلام ، والإيمَان ، والإحْسَان ، وضرب في حقّ المؤمنين بَعضهم مع بَعض وضرب مع الكُفار .

فأمّا الوفَاء مع الكُفار بالعَهد فهم أهل الذمة[2] والصُلح المعـاهدين إذَا عُوهدُوا على ما عُوهـدوا عليْه وصُـولحـوا ويَجب الوفَاء لهم بذلك ، و حَرم ظُلمهم[3] وقـد ثبت في الصَّحيح عن النبّي عليْه السلام أنَّه قال : « منْ قتل مُعاهدًا لم يرح رَائحة الجنَّة ، وإنَّ ريحها يوجد منْ مَسيرة أربعَين عَامًا »[4] .

وفي الصحيح أيْضاً : « وذِمة المُسلمين وَاحـدة ، يسعى بِهـا أدْنَاهم ، فمن أحقر مُسلمًا ، فعليْه لعنة اللّه ، والمَلائكة والنَّاس أَجمعين »[5] .

---

(١) صحيح : البخاري ، مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (١٠٦) ، الترمذي (٢٦٣٢).

(٢) أهل الذمة : أهل الكتب السماوية وما جرى مجراهم .

(٣) في الأصل : « ظلمهم » . وهو خطأ .

(٤) صحيح : البخاري (٩/ ١٦) ابن ماجة (٢٦٨٦) .

(٥) صحيح : البخاري (٣/ ٢٦) مسلم في صحيحه كتاب الحج (ب٨٥ رقم ٤٦٧) ، الترمذي =

وقال اللَّه تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾[١] .

وعنْ أبي بكرة قَال : قَال رسُول اللَّه ﷺ : « منْ قَتل معاهدًا في غير كنَهه[٢] حرّم اللَّه عليْه الجنَّة »[٣] .

فالوفَاء مع الكُفار أن لا يُظلموا فى أنفسهم ، و لاَ في أموالهم ، ويُوفى لَهم بِشُروطهم التي اشترطت معَهم .

وأمَّا الوفاء مع المؤمنين فإذا وَعدت أخاك المؤمن بعهد فإيَّاك أنْ تُخلفه بوجه إلا من عذرقاطع ، حَائل بينك وبيْن الوفَاء .

والعُذر المقبول فى ذَلك إذَا ذكرته لمن عَاهدته ، وَوعدته مثل المرَض ، وما أشْبهه عُلم أنَّه عذرَ ضَروري فإنَّك لمْ تكتمه كذباً ، أو حِيلة تَتخلص بِها منْ خلف الوَعد عنده .

ومن العهد أن لا تَغْدر بمؤمن ، فتظلمه في نفسه أو مَاله ، فإنَّ اللَّه
١٠٢/ب ورسُوله قد / أوجب على المؤمنين ألاّ يخادع بعضهم بعضاً ، ولا يمكر بعضهم بِبَعض حِين جَعلهم إخوه فَقَال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٤] .

وقال عليْه السلام : «المُسلم أخو المُسلم ،لاَ يظلمه »[٥] .

فإذا غَدره وخَادعه لم يُوف له بعهد إخوة الإسلام . والخِداع[٦] ،

=(١٥٧٩) .

(١) سورة الإسراء الآية (٣٤) .

(٢) كنهه : إدارك حقيقته .

(٣) أبو داود (٢٧٦٠) .

(٤) سورة الحجرات الآية (١٠) .

(٥) صحيح : البخاري (٣/ ١٦٨) ، مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة(٣٢) أبو داود (٤٨٩٣) ابن ماجة (٢١١٩) .

(٦) الخداع : إظهار خلاف ما يخفيه وإرادة المكروه بك من حيث لا تعلم .

والمكر، ونَقض المواَثيق التي ربطت المُسلمين كُل ذَلك من أخلاق المنُافقين، وأفعالهم التى هي ضد أخْلاق المؤمنين؛ ولأجل كَون هَذه الأخلاق في النَّاس قيل: «لو نَبت للَمنافقين أذْناب لما قدرنا أنْ نَمشى على الطرق».

ومن العَهد الذي يَجب الوفَاء به الارْتباط لبيعة السلطان الذي اجْتمع عَلى تَوليَته فيِ كُل زَمان، والذي انْعقَد له عَهد الأَمانة بالشرع.

فإذَا لم يَرتبط، ولم يَرها فقد نَقض ميثاق البَيعة الذي ألزمه الشَّرع، وذلك خُروج عنْ الشرع.

ومن العَهد الذي يجب الوفَاء به مَا أخذه اللَّه على العُلماء في قوله: ﴿وإذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثَاقَ الَّذينَ أُوتُوا الكتَاب لتبيِّنُنّه للنَّاسِ وَلاَ تكتُمُونَه﴾ (١) فقد أخذ [الله] [العهد](٢) علَى العُلماء تبيين العلم، وكَشْفه لأهله الطالبين له، وتَعليمه لكُل جَاهل به إذَا رآه جَاهلاً(٣) وتنبيهه عَلى ما ينفعه، وذلك من الوَفاء للرسُول بالعَهد الذي عَهد إليهم حين قال للآخذين عنْه: «ليبلغ الشاهد الغائب» (٤).

وقال اللَّه تَعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِن الْبينات وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بيَّنَاهُ للنَّاسِ﴾ (٥).

فَهذا كُله مَّما أخذ على مَنْ عَلم شَيئاً أن يُعلّمه ولا يكتمه، فإنه عَهد

(١) سورة آل عمران الآية (١٨٧).

(٢) مابين المعقوفين زيادة يقتضيها السياق - والله أعلم -.

(٣) جاهلاً: جفا وتسافه، والشيء لم يعرفه، وفي القرآن الكريم: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أغنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّف﴾.

(٤) صحيح: البخاري (١/ ٢٦) مسلم في صحيحه كتاب الحج (٤٤٦) ابن ماجة (٢٣٣) الترمذي (٨٠٩).

(٥) سورة البقرة الآية (١٥٩).

اللَّه ، وعهد الرسُل إلى الخَلق .

وكذلك أخذت الأنْبياء العُهود ، والموَاثيق عَلى جَميع أُممها أنْ تُؤمن بمحمد ، وتَقبل منه إذا بُعثَ ، فكل مُؤمن به قبل مَبعثه أو حين مَبعْثه ، أو
١٠٣/أ بعد مَبْعثه فقد وفَّى بالعَهَد ، ولم يخلف الوَعد / وكل منْ لمْ يقبل منه عليه السلام . فقد نقض العهد ، وأخلف الوَعد ، وأورثه ذَلك الخُلود في النَّار ، وإنْ كَان مُؤمناً باللَّه ، وإنَّما أورث ذَلك خَلف الوَعد ، ونَقض العَهد .

فانْظر ما أعظم قدر هذه الشعبة من شُعب الإيمَان .

والوَفاء مَحمودٌ بكل لسَان ، وكذلك من العَهد تبليغ الرسُل ما أخذ اللَّه عليْهم تبليغه إلى الأُمم لا يَسعهم إلاّ الوفاءَ بما عهد اللَّه إليْهم ، فالتزمُوا الجد[١] والصبر على مَا أصابهم من الأذَى طَمعاً في تَنفيذ العَهد ، والوفاء بهَ ، فبلَّغوا أمتهم ، وعَهدوا أيْضاً إلى أُممهم ، كما عُهد إليهم ، وأوصوهم بالإيمَان بمُحمد عليْه السلام في كل قَرن ، وزمان .

قال الله تعالى : ﴿وإِذْ اخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبيِّينَ لَمَا آتَيْتكُمْ منْ كتَاب وَحكمة ثُمَّ جَاءَكُم رَسُول مُصدِّقٌ لمَا معَكُمْ لَتُؤْمنُنَّ به ولَتَنْصُرنهُ قَالَ أَأَقْرَرْتمْ وَأَخَذتُمْ عَلَى ذَلكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشهَدُوا وأَنَا مَعكُم منَ الشاهدينَ ﴾[٢] .

والوَفاء بالعُهود والمَواعيد عامٌ في كُل شيء لمن اعتْبره ، ونَظره وجَده شَائعاً في جميع الأمُور ويجمعه ثَلاثة مقَامات : مقَام الإسْلاَم في الظاهر ومقَام الجَسد ، وضَرب في مقَام الإيمَان وعَالم الغَيب ؛ لأنَّه أخذ عَليْه العهد أنْ يُؤمن بالغَيب ، والدار الآخرة ، ويَعمل فيها على قَدر طَاقته فَوجب ، عليْه الوَفاء بذلك .

---

(١) الجد : الاجتهاد .

(٢) سورة آل عمران الآية (٨١) .

وضَرب في مقَام الإحْسَان ، ومقَام الرُّوح والعَقل : لأنه قَد أخذ عليْه العَهد في الميثاق الأول أنْ لاَ يُشرك به ، ولا يُساويه بخلقه ، وأنْ يؤثره عَلى ما سواه في جَميع الأحْوال ، فقد وَجَب عليْه الوَفاء بذلك .

فقد عمّت هَذه / الشعبة المقَامات كُلها ؛ فافهم ، منَّ اللَّه علينا بصفة ١٠٤/أ
الوَفاء ، إنَّه على كُل شيء قَدير .

واعلمْ أن عَهد اللَّه تَعالى قَديم ، وذلك قبل خَلق الدنيا والأجساد ؛ فإنَّ اللَّه تبارك وتعالى لمّا برأ[1] الأرواح الروحانية الموجودات قبل خلق الأشْباح الجُسمانية وقت تَقدير المَقْدورات ، فأشهدهم رُبوبيّته ، فشهدوا ، وأمرهم بطَاعته فأطاعوا ، وذَلك أخذ أرواح بني آدم فأشهدهم وقَررهم فأقروا .

قال اللَّه تَبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾[2] .

فشهد الوجود كله له ، قال النبي عليه السلام : « **إنَّ اللَّه خلق الأرواح قَبل الأجسَاد بخَمسين ألف سَنة** »[3] .

قيل : أرواح المَوجودات كُلها ، وقال عليْه السلام : « **إنَّ اللَّه خَلق الخَلق ، وقَضى الأُقضية ، وأخذ ميثَاق النَّبيين وعَرشه عَلى المَاء** »[4] .

ثم غيّبهم في الوُجود ، فلما أوجد الجُسمانيات ، ورَبَطها بالرُّوحانيات قَررهم عَلى العَهد القَديم ، وذكرهم به ، فقال للسماء والأرض : ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[5] .

---

(١) برَأ : خلقهم وبرّأهم من العيب أو التهمة .

(٢) سورة الأعراف الآية (١٧٢) . (٣) انظر الموضوعات لابن الجوزي (١/ ٤٠١) .

(٤) انظر منحة المعبود للساعاتي (٥٥) .

(٥) سورة فصلت الآية (١١) .

وأمّا بنو آدم فذكرهم بالعَهد القَديم عَلى ألْسنَة الرسُل ، والأنْبياء ، وأمرهم بالوَفاء بعهد اللّه وأن لا ينقضوا الميثاق ، وَذلك أنْ تُعطى الربوبية حقَها ، وتلتزم العُبودية قَدرها ، ولذلك جَاء الألف واللام فِي ذِكر الميثاق لِتَعريف العَهد القديم .

فانْقسم الخَلق في دَار الدنيا إلى ذَاكر للعَهد متُذكر ، فأخذ في أسَباب الوفاء هُم المؤمنون المَعِينُون بقوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ﴾[1] .

١٠٣/ب قال ابن عَباس : هي العُهود / وإلى نَاسٍ مُتناس فاختلف الوَعد ، ونَقض العَهد .

والنَّاس في الوَفاء والخلف للعَهد دَرجات ، وجعل اللّه تبارك وتَعالى على نَفسه عَهداً ، ووَعداً ، ووعيداً للفَريقين جزاء للوَفاء والنقض ، قال اللّه تبارك وتعالى : ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [2] ومَن أوفى بعهده من الله؟ .

وقَد أنجز اللّه وعده، ووعيده للفَريقين في الدنيا والآخرة ، فَجزاء من نَقض العَهد ، وأخلف الوَعد في الدنيا اللعنة[3] ، وقَساوة القلب ، قال اللّه تبارك وتعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾[4] .

وهي النار علي قدر ما أخلف من العهد ، يكون بُعده عن اللّه ، وقَساوة قَلبه ، وخُلوده في النَّار ، وخُروجه مِنها في الدنيا ، والآخرة مُسلمًا

---

(١) سورة المائدة الآية (١) .

(٢) سورة البقرة الآية(٤٠) .

(٣) اللعنة : يقال لعنه الله : طرده وأبعده عن الخير .

(٤) سورة المائدة الآية (١٣) .

كان أو كافراً وجَزاء من أُوفى بالعهد التَّقريب ، والرَّحمة في الدنيا وعقْبى الدار[١] في الآخرة .

جَعَلنا اللَّه من أهل الوَفاء بتَوفيقه وكَرمه آمين ، وصلى اللَّه على مُحمد وآله .

(١) عقبى الدار : الجنة وفي القرآن الكريم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ .

الشُّعبة الموفية عِشرين
كَفُّ الأذى

فأمّا كونه من شعب الإيمَان فدليله مارواه ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «المُسلم مَن سَلم النَّاس من لِسانه ويَده » (١) .

وعن أبي هريرة أنَّ رسُول اللَّه ﷺ قال : «المسلم أخو المُسلم ، لاَ يَظلمه، ولا يسلمه » (٢) وذكر الحَديث .

وقال ﷺ : « سِبَابُ المسلم فسُوقٌ وقِتاله كُفر » (٣) .

فكف الأذى عَن المُسلمين من أعظم شُعب الإيمَان ، لأنَّ إذايتـهم منْ أفعال الكُفار ، فإذَاية المسلم نُقصان من كمال الإسْلام لقول النبّي عليْه السلام : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

ومن أجل هَذا جُعل الإسْلام / تحية المسلمين فيما بينهم ، ومعنى ذلك ١٠٤/أ
أنّ قَول القَائل : السلام عليكم : أي سَلمت مِني أنْ أضرك ، وأُوذيك بِظَاهري وبَاطني .

فالإذَاية على ضَربين : ضرب ظَاهر بالجَوارح ، وضرب

(١) صحيح : البخاري (١/ ٩) ، مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٦٥) أبو داود (٢٤٨١)، الترمذي (٢٦٢٧) ، النسائي (٨/ ١٠٥) .

(٢) صحيح : سبق تخريجه من قبل .

(٣)صحيح : البخاري (١/ ١٩) ، مسلم في كتاب الإيمان (١١٦) ، ابن ماجة (٦٩) ، النسائي (٧/ ١٢٢)، الترمذي (١٩٨٣) .

بالبَاطن، بَاطن القُلوب .

فأمّا الظاهر فعَلى نَوعين إذَاية في الأموال بالسرقة والأخذ، والنهب، وغَير ذَلك .

وإذاية في الأنْفس بالسب ، والضرب ، والغَمز(١) والهَمز(٢)، واللمز(٣) ، وغَير ذلك .

وأمّا الضرب البَاطن فمثل الحَسد والغلّ ، والبَغضاء والكبر عليه وظَن السوء به ، وقلة الرَّحمة ، والقَسوة عليْه ، وغَير ذلك .

وذَلك كُله مُضر بالمُسلمين ، مُؤذٍ لَهم ، وقد أمر الشرع بكف النوعين من الأذى .

وقَد هلك خَلق كثير بعدم هَذه الشعبة عندهم وذلك بحَسب قَدر الشخص الذي يُؤذي ، عَلى قَدر ذَلك يكون هَلاك المؤذى .

والمؤمنون كُلهم كبارٌ ، وإذَايتهم مُحرّمة ، ولكن منها مَا يكبر فَيكون كُفراً مثل إذَاية الأنْبياء أَو عيب شَيء منهم حتى إنَّ مَنْ قالَ في النبي : إنّ ثوبه وسخ يُريدَ بذلك عَيبه قُتلَ كفراً ، لاَ حَداً .

ومنها مايكبر فَيكون بدعة مثل إذَاء الصَّحابة ، وعيبهم ، وقد هَلك في هَذا خَلق كثير من الرَّوافض(٤) والشيعة .

(١) الغمز : إشارة القوم بعضهم إلى بعض بأعينهم وأيديهم .

(٢) الهمز : عَيب الناس في غيبتهم .

(٣) اللمز : عَيب الناس في وجوههم .

(٤) الراوفض : الروافض : فرقة من الشيعة تجيز الطعن في الصحابة ، سُموا بذلك لأنهم رفضوا نصح زيد بن علي حين نهاهم عن الطعن في الشيخين أبي بكر وعمر .

ومنها مَا يكبر فَيوصل إلى مُحاربة اللّه مثل إذاية أهل الولاية كَما ورَد في الخبَر : «من آذى لي ولياً فقد بارزني بالمحَاربة ،وأنا الثائر له في الدنيا والآخرة» (١) أو كما قيل .

ومنها مَا يكُون فِيه القِصَاص فِي الدنيا والآخرة ، مثل إذاية عَامة المُسلمين .

والإذَاية كُلها فيها القصاص في الدنيا والآخرة . ولكن لَيس من أبغض صَاحباً منَ الصَّحَابة ،أو ولَياً من الأولياء كَمن أبغض بَعض المؤمنين ، والذنب واَحدٌ ، ولكن كَبرت الإذاية على قَدر الشخص المؤذى فإذا / فهمت ١٠٤/ب هذا فكَفُّ الأذى على نَوعين :

ظاهر ، وبَاطن

النوع الظاهر : سَلامة النَّاس منْ شَر لسَانك ويَدك ، وجَوارحك .

والنوع الباطن : على نَوعين : ضَرب في مقَام الإيمَان ، وضرب في مقَام الإحْسَان .

فأمّا الضرب الأول في مقام الإيمَان فأول مَايَجب عليْك ألاّ تُؤذي نَفْسك في الآخرة بالكُفر والمؤذيات من الصِّفَات المُهلكات ، ولاَتؤذ المَلائكة الكرام في عالم الغَيب ، ولا تُؤذ ذَاتك في المَال في مقام الإيمان بدُخول النَّار ومُقَاسَات الشدائد، وأن لا تؤذي صدرك في الحَال بقلة سَلامته لَلمُسلمين .

وقد قيل : إنَّ بهذه الخَصلة كَان الإبدال إبدالاً أعني سَلامة الصدر للأُمّة وسَلامة النَّاس من شَرهم ،ومن أجلها هَرب الكبار عن النَّاس ليسلم الناس منهم ، وفي ذلك سَلامتهم .

---

(١) أورده أبو نعيم في الحلية (٤٥).

والضرب الثاني : من البَاطن مقَام الإحْسان هو أنْ لا يؤذي الإنسَان بعقله ، وإدْراكاته الرب تبارك وتعالى ، يَنْسب إليْه مَالا يَليق به ، بَل يُنزهه عما يَستحيل عليْه ، وينسب له ما لا يجب أن ينسب ، ويجوز عليه مَا يَجوز ، ولا يكُون من الذين قال الله فيهم : ﴿ إنَّ الَّذينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ ﴾[1] الآية .

قال الله عز وجل عنهم كما ورد[2] في الصَحيح عنْ أبي هُريرة قال : قال رسُول اللَّه ﷺ : «كذَبني ابن آدم ؛ولمْ يكنْ لَه ذلك ، وشَتمني ابنْ آدم ، ولمْ يكنْ لَه ذَلك »[3] الحديث إلى آخره .

فينزه مولاه عما لاَ يليق به ، وينسب إليْه مَا يليق به ، ولا يُؤذي المخلوقات أيْضًا بذلك ، فإنك إذا نَسبت إلى المخلوقات شَيئاً من معنى الرُّبوبية آذيتها غاية الإذاية ، ألاَترى إلى قَوله تَعالى ، كيْف يَصف تأذِّي ١٠٥/أ المخلوقات / بأقوال الكُفار : ﴿تَكادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتخِرُّ الجِبَالُ هَداً ﴾[4] .

ومثل هَذا في القُرآن كَثير ، وإذا كفّ العَبد آذاه عن جميع المخلوقَات ، وعن البَارئ تَعالى كَان كاملاً ، كما قال النبي عليْه السلام : «المسلم مَن سَلم المسلمون »[5] الحديث .

وقال تعالى :﴿وله أَسلم من في السموات والأرض ﴾ من جَميع المخلوقات ﴿طَوعاً ، وكَرهاً ﴾[6] فلا تُؤذِ إلاّ مَن أسلم كَرهاً ، كما أُمرت .

(١) سورة الأحزاب الآية (٥٧) .

(٢) في الأصل « ممَّا » .

(٣) بنحوه الطبراني في معجمه الكبير (١٠/ ٣٧٦) .

(٤) سورة مريم الآية (٩٠).

(٥) سبق تخريجه . (٦) سورة آل عمران الآية (٨٣) .

فإن قُلت : كيف الحِيلة [١] في السلامة ، والاتصاف بهذه الشعبة ؟ .

فاعلمْ أنّ الحِيلة في ذلك عَلى نَوعَين :

النوع الوَاحد الخُلوة ، والعُزلة في وقت فَراغك فَتجلس وحدك ، أو تَنام ، فَتسلم ، أو تَشتغل بطاعة ربك ، وذكر مولاك ، فتغنم [٢] .

والنوع الثاني : كَف جَوارحك في وقت مخالطتك ومُصاحبتك للخلق ، وحُسن ظُنونك ، وسَلامة صَدرك لهم ، فإن آذَوك ، ولمْ تُؤذهم رَبحت ربحًا عظيماً إن احتملت الأذى ؛ فإنَّ محتمِل الأذى لايخلو عنْ شيئين :

إمّا أن يعفو فَله ثواب المحسنين ، وإمّا أن يَصير إلى الآخرة ، فَيأخذ منْ حَسنات الظالم أو يُعطيه هو من سيئاته .

وبهذين النَّوعين يكبر قَدر مُخالطة النَّاس ، ويكون له فضل كَثير السلامة ، والغَنيمة ، وتَهذيب الأخْلاق ، فإن مُخالفة النَّاس فيها علم كثير فإنَّه يَستفيد بها علماً كثيراً ، ويُنبهونه على عُيوب لم تكن تَظهر له وحده ، فيكون النَّاس له كالمرآة وهو لهم كذلك ، يَظهرلَه فيها حَسَنُهُ ، وقَبيحه ، ويُروّض [٣] نفسه على اكْتساب الأخلاَق الحَسنة وطَرح الأخلاق السيئة .

وأمّا من قصّر عنْ هَذه الدرجة فإنَّه من مُخالطة الناس / على غِرر [٤] ١٠٥/ب
لاسيما في هذه الأزمنة ، فإن ضَرر المخالطةَ أكثر من نَفعها .

---

(١) الحيلة : وسيلة بارعة تحيل الشيء عن ظاهره ابتغاء الوصول إلى المقصود .

(٢) تغنم : تفوز بغير مشقة .

(٣) يروض : يهذب ويعود ، وعند الصوفية : تهذيب الأخلاق النفسية بملازمة العبادات والتخلي عن الشهوات .

(٤) الغِرَرُ : جمع غرَّة : وهي الغفلة أثناء اليقظة ، ويقال «أخذه على غِرَّة» .

وقد رَوى أبو دَاود في كتاب السنن عن عيسى بن واقد أنَّ رسُول الله ﷺ قال : «إذَا كَانت سَنة ثمانين ومائة فقلت أَحلت لأُمتي العُزلة ، والعزبة ، والترهب في رُؤوس الجبال »[(١)] .

هَذه الأسْباب ثَلاثَة ، العزبة ، والعُزلة ، والترهب أسباب السلامة .

وورد في المخَالطة ، وكف الأذى والاحْتمال أيضًا ، كثير منها ما روَاه يَحيى بن وثَّاب عنْ شَيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال : قال رَسُول الله ﷺ : «المسلم الذِي يُخالط النَّاس ، ويَصبر على أذاهم خَير مِن الذي يُخالط النَّاس، ولاَ يَصبر على أذاهم »[(٢)] .

فالمؤمن يَحتاج أنْ يَستعمل هَذين الحَديثين ، فيكون له حَظ من الخُلوة[(٣)] والعُزلة ليَأنس بذكر ربه ويَسلم النَّاس من شرّه ، وإذا خَالط النَّاس لما يَحتاج إليْه ، ومَا لابد لَه منه يُمسك نَفْسه ، وجَوارحه عنْ أذاهم ، فَيحصل له بِهذين المعنيين معَاني الإفادة ، ورَاحة السلامة الذين هُما سببا السعادة .

ومنْ جملة مَا يلحق بهَذا البَاب ، أنْ لاَ يُؤذي العَبد المخلوقات كُلها إلاّ مَا أمر الشرع بإذايته مثلَ أنْ يَلعن الإنْسان شَيئاً من الحَيوان ، أو يَسب الريح ، أو الدهر ، أو شَيئاً من المخلُوقات ؛ فإنَّ المخلوقات كُلها قَد أسلمت للَّه ، كما قال :

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[(٤)] الآية .

---

(١) الترهب في رؤوس الجبال : التعبد في صومعة بعيدة في الجبل يتخلى فيها عن أشغال الدنيا وملاذتها .

(٢) الترمذي (٢٥٠٧) .

(٣) الخُلوة : مكان الانفراد بالنفس أو بغيرها .

(٤) سورة آل عمران الآية (٨٣) .

وقالوا : البر هُو الذى لايؤذي الذر [١] .

فإذا فَهمت مَا تقدم عَلمت أنَّ هَذه الشعبة التي هي كف الأذى قد عمَّت مقَامات الإسْلام ، ومقَامات الإيمَان ، ومقَامَات الإحسَان كُلها ، ظَاهراً وبَاطناً .

منّ اللَّه علينا بما ينفَعنا ، ويسلّمنا في الدنيا ، والآخرة آمين ، وصلى اللّه على سَيدنا مَحمد وآله / . ١٠٦/أ

(١) قوله : « البؤمن لا يؤذي الذَر » تتمته « ولا يُضمر الشر » كذا وجد على هامش الأصل .

الشُعبة الإحدَى والعِشرُون
البرُورُ

فأما كونه من شُعب الإسْلام ، والإيمَان فدَليله مَاكَتب النَّبي عليْه السلام للعَلاء بن الحضرمي حين بَعثه أميراً إلى البَحرين ، فذكر فيه : «هذا كتاب مُحمد بن عبد اللّه القُرشيَ ، رسول اللّه ﷺ الأميّ إلى خَلقه كافه -ثمَّ ذكر كَلاماً كثيراً يَدعو فيه الخَلق إلى اللّه ، ثمَّ بيّن لهم الإسّلام فقال فيه : «والإسلاَم : الصلوات الخَمس ،وإيتاء الزَّكاة وحَج البيت ،وصيام شهر رَمضَان ، والغُسل من الجَنابة والطهور قَبل الصلاة ،وبرّ الوَالدين » [١] . ثم ذكر شَرائع الإسْلاَم والإيمَان إلى آخر الحَديث ، فجعل البُرور من الإسْلام .

وعن عبد اللّه قال : سألت رسول اللّه ﷺ أي الأعمال أحب إلى اللّه ؟ قال : «الصلاة لوِقتها » . قلت : ثمَّ أى ؟ قال : «بر الوَالدين » قلت : ثمَّ أي؟ قال : «الجِهاد فِي سَبيل اللّه » [٢] فَقدمه على الجِهاد الذي هُو من أعظم سِهام الإسلام .

وعنْ ابن عُمر قال : قَال رجلٌ : يارسُول اللّه أردت أنْ أُجاهد مَعك ، قال : «ألكَ أبَوان ؟» قال : نعم ، قال : «فَفيهما فجاهد »[٣] ، فَردّه عنْ الجهاد إلى البر ؛ لأنه أعظم منه ، وأوجب ، ولعظم قدر هذه الشعبة -أعنيَ البر - شَرِكَ حق الوَالدين مع حقِّه بِواو العَطف فقال : ﴿أنْ اشكُرْ لى

---

(١) الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٠) (٦/ ٢٨٤) .

(٢) صحيح : البخاري(٩/ ١٩١) ، مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٣٧)

(٣) صحيح : البخاري (٨/ ٣) أبو داود (٢٥٢٩) .

وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ (١) .

وشكر الوالدين هو برهما ، والقيام بحقوقهما ، وقال في آيه أخرى : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ (٢) .

فقرن حقهما بحقِّه ، وحيث ما ذكرهما اللَّه تعالى قرن حقهما بحقِّه ؛ فهذه الشعبة إذاً أعظم شعب الإيمان ، والإسلام ، وإنما قرن اللَّه تبارك وتعالى
١٠٦/ب حق الوالدين بحقه ، وشركه بواو العطف من أجل أن اللَّه تبارك وتعالى / خلق الولد ، وصوّره وأخرجه للدنيا ضعيفاً ، لطيفاً ، لا حيلة له ، ثم قيض له الوالدين ، وتكفلا (٣) بتربيته ؛ لأنه لا قوام (٤) له بنفسه فلم ير إلاّ يربيانه حتى وصلاّه إلى حدّ يقوم بنفسه ولو تركاه ونفسه حين خروجه إلى الدنيا ، وحين تربيته لهلك ، ولم يصح وجوده ؛ فهما كانا سبب تمام خلقته ، ونشئه ، فاللَّه هو الخالق المصوّر حقيقة ، وهم المنشآن له مجازاً .

فكما اقترن النشأ بالخلقة ، واشترك معه في سبب كمال العبد أشرك اللَّه حقهما بحقِّه وشركه بواو العطف معه في الوجوب ، ولهذا لايقدر أحدٌ أن يقوم بحقِّ أبويه ؛ لأنَّ من كان سبب خلقتك ونشئك ، كيف تقوم بحقه ، أو تقدر على شكره ؟ .

وكذلك أيضاً قرن العقوق لهما بالشرك به ، كما قرن طاعتهما بطاعته لهذه الحكمة ، فقال : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ (٥) .

---

(١) سورة لقمان الآية (١٤) .

(٢) سورة الإسراء الآية (٢٣) .

(٣) تكفلا : فرضا وأوجبا على أنفسهما تربيته والتزما بما أوجبا .

(٤) قوام : الولاية والوصاية .

(٥) سورة الأنعام الآية (١٥١) .

تقدير الكلام حَرم ربكم عليكُم ألاَّتُشركوا به شَيئاً وحرم عليكم ألاَّ تفعلوا بالوَالدين إلاَّ إحْسَانًا ، ولما كَان الشرك لايُغْفَر ، عُظّم أيْضاً قدر العقوق لاقْترانه به ، حتى يَرضى الأبوان ، فافهم .

فمن برّ وَالديه فقد برّ بارئَه ، وخَالقه ؛ لأن في برهما بره للاشتراك المتقدم ، ولأنَّه أمَر به فمن بر أمْرَه فقد برّه جَل جَلاله .

واعلمْ ياأخي أنَّ البر لا يخلو من ثَلاثة أوجه :

أحدهما : أنْ يكُون الأبوان حَيَّان ، فيلتزم العبد القيام بحُقوقهما طول الحَياة ، ويُحسن إليْهما بماله وقوله ويُؤثرهما على نفسه وزَوجه وبنيه ، وَإن كانا مُحتاجين إليه في دينهما أن يعلمهما أمور دينهما ، فيُعلمهما أُمور الدين ، ويُنبههما على كل ما يضرهما ، وينفعهما برفق ورَحمة ، ويَتأدب معهما غاية الأدب / ، ولا يَرفع صَوته عَليهما ، ولا يُحدد النَّظر إليهما ، وليطلب ١٠٧/أ
في كُل وقت رضَاهما .

هذا هُو البُرور في حال الحَياة ، وإن كَانا ميتين وَجب عليه أن يَدعو لهما في كُل وقت يُرجى [١] فيه قَبول الدعاء ، في أوقات الصلاة ، ويتصدق عنْهما ، ويفعل ما اسْتطَاع من الخَير ويُرسل إليْهما ثَوابه ويَصل أهل ودِّهما من بَعد مَوتهما ؛ فإنَّ ذلكَ كُله إذا فعله بعد موتهما تُبلغه رضا اللَّه عنه لأجل رِضَاهما عنْه حين أدخل السرور عليهما في حَال موتهما .

وإن كَان عَاقاً لَهما قبل أنْ يَموتا فقد جَعل اللَّه لكُل مؤمن فَرجاً ومخرجاً ، إذا عمل أسباب الخَير المأمور بها . وقد روى أَبو صالح عن أبي هُريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ :« من صلّى ليلة الخميس ما بين المغرب

(١) يُرجى : يُرتقب ويُؤمّل فيه الإجابة .

والعشاء ركعتين ،يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب ،وآية الكُرسي خمس مَرات و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمس مرات ،والمعُوذتين خمس مرات فإذا فَرغ من صَلاته اسْتغفر اللَّه خَمس عَشرة مرة ، وجَعل ثَوابه للوَالدين فقد أدى حقّ وَالديه عليه ، وإنْ كَان عَاقاً لهما ، وأعطاه اللَّه ما يعطي الصديقين ،والشُهداء »[(١)] .

وإنما هَذا من أجل إدخال السرور عليْهما ورضاهما عنه ، وليس هَذا من بَاب لايُصلِّي أحد عنْ أحد ، وإنّما هو من باب الهَبة[(٢)] والهَدية ؛ تصلي أَنت لنَفسك ثمَّ تَهب أجر ما وَهَبك اللَّه لَهما ، والثَّوابَ غَير الصَّلاة .

والهَدية مَقبولة في شَرعنا ، والصلة في الدنيا بالدِّينار ، والدراهم ، والصِّلة في الآخرة بالثواب ، والجَزاء من عند اَللَّه .

هَذا هُو برّ الوالدين المُسلمين في حَال حَياتهما .

وأمّا إذا كَانا مُشركين فحقهما حُسْن الصحبة لهما طُول الحَياة ،
١٠٧/ب وتَنْبيهما على الإسلام ، ومُواراتهما بعد موتهما ؛ لأن اللَّه تَعالى / يقولَ : ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[(٣)] وبعد موتهما إذا كَانا مَشركَيْن يَسقط عنْه حَقهما .

واعلمْ أن البر على ضَربين ؛ لأن ذَوات الخلق على ضربين ؛ أجساد، وأرواح لآبائهم سَبَب نشوء الأجساد إلى مرتبته من الخلقة والزمان ، فيستغني الإنْسان بنفسه في أمور دُنياه كما تقدم ، فوجب برّهم كما تقدم .

والضرب الثاني من البر لآباء الدين ، وهم الأنبياء والعلماء ، وهم أمهات المؤمنين وهُم أزواجه الذين تولد منهم الدين ، وصَلحت بهم بواطن

---

(١) انظر الفوائد المجموعة للشوكاني (٤٦) ، والإتحافات السنية (٣/ ٣٨٠) .

(٢) الهبة : العطية .

(٣) سورة لقمان الآية (١٥) .

الخَلق ، وظَواهرهم ، وهمْ الذين يحرسون الخلق من مكروهات الآخرة ، ويوصلون إليهم خيرها ، كما أن آباء الخليقة يحرسون الأبناء من مكروهات الدنيا ، ويصلون إليهم نفعها .

قال الله تعالى في لوط عليه السلام : ﴿ هَؤلاء بَنَاتي هُنَّ أَطهَرُ لَكُم﴾[1] يعني بنات قومه ، دعاهم إلى النكاح .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ النَّبيُّ أولى بِالْمُؤمنِينَ منْ أنفُسهمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهَاتُهمْ ﴾ [2] وفي قراءة عبد الله أبي بن كعب : ﴿ النَّبيُّ أولىَ بِالْمُؤمنِينَ منْ أنفُسَهمْ﴾ . وَهُوَ أبٌ لَهُمْ

وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **أنا لكم بمنزلة الوالد أُعلمكم ، فإذا أتى أحدكم الغَائط فلا يستقبل القبلة ، ولا يستدبرها** » [3] ، وذكر الحديث .

فالنَّبي عليه السلام لجميع الأمة كالأب ، وأزواجه أمهاتهم ؛ لأن منه ، ١٠٨/أ
ومن أزواجه تعلم الذكور والإناث معاني الدين كله ، ولم يتولد خيراً إلا منه ، ومنهن ، فبره ، وبرّهن أوجب من كل واجب ، وعقوقه ، وعُقوقهن أهلك من كل مُهلك .

فبرّ النبي وأزواجه نظر القلب إليه الآن ، و في كل وقت بعين الوقار[4] ، والإجلال ، والصلاة عليه ، وعليهن إلى مُنتهى الأعمار والآجال .

---

(١) سورة هود الآية (٧٨) .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٢٣) .

(٣) ذكره فضيلة الشيخ الألباني – حفظه الله – في السلسلة الصحيحة (٣/ ٢٨٩) .

(٤) الوقار : الرزانة والعلم .

١٠٨/ب والانتساب إليه ، وإلى أمهات المؤمنين انتسابًا دينيًا / محبة بالقلب ، ونُطقًا باللسان ، ولعنًا ، وبُغضًا لمن آذاه ، وآذى واحدة منهن لا يبرئ العبد في دينه سوى ذلك .

وقال النبي عليه السلام : « **الجنَّة تحت أقدام الأُمهات** »(١) ، ظاهره أن الأمهات تُلتمس رضاهن المبلغ إلى الجنة بالتَّواضع لهن ، وإلقاء النفس تحت أقدامهن بالتَّذلل لهن ، والحقيقة فيه أن أمُهات المؤمنين هنَّ معه عليه السلام أزواجه في أعلى درجة في الجنَّة ، والخلق كلهم تحت تلك الدَّرجة ، فانتهاء رؤوس الخلق في رفعة درجاتهم في الجنة ، وآخر مقام لهم في الرفعة أو مقام أقدام أمهات المؤمنين فحيث انتهى الخلق ، فمن ثمَّ ابتداء درجاتهن ،

(١) قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة (٧٣٣) بعد ذكر الحديث : [رواه] أحمد والنسائي وابن ماجة والحاكم في مستدركه من حديث ابن جريج أخبرني محمد بن طلحة - هو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - عن أبيه ، عن معاوية عن جاهمة السلمي « أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ؛ أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك فقال : هل لك من أم ؟ قال نعم ، قال : فالزمها فإن الجنة تحت رجليها »

وقال الحاكم إنه صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعقب بالاضطراب ، فقيل : هكذا كما اتفق عليه حجاج بن محمد ، وروح بن عبادة ، وأبو عاصم كلهم عن ابن جريج ، وقيل : عن معاوية إنه السائل ، أخرجه ابن ماجة أيضاً من حديث محمد بن إسحاق عن محمد بن طلحة بن عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق عن معاوية بن جاهمة قال : « أتيت النبي ﷺ فقلت يارسول الله : إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة ؟ قال : ويحك أحية أمك ؟قلت : نعم يارسول الله ، قال ويحك الزم رجلها فثم الجنة » وجعله أيضاً بلا واسطة بين محمد بن طلحة ومعاوية ، وقد أخرجه بن شاهين من جهة إبراهيم بن سعد ، عن ابن إسحاق ، فأثبته ، وتابعه محمد بن سلمة الخزاعي عن ابن إسحاق وهو المشهور عنه . وقيل عن طلحة بن معاوية أنه هو السائل ورجح البيهقي الأول ، وأخرجه أيضًا الخطيب في جامعه ، والقضاعي في مسنده من حديث : منصور بن المهاجر البزوري ، عن أبي النصر عن أنس رفعه « الجنة تحت أقدام الأمهات » قال ابن طاهر منصور وأبو النضر لايعرفان ، والحديث منكر ، وذكره أيضاً من حديث ابن عباس وضعفه .

فالجنَّة كُلها تحت أقدامهن رضوان الله عليهن ، وصلوات الله وسلامه عليهن .

وأمّا مقام النبي عليه السلام فكما ورد في حديث قتادة : « **أن الله تبارك وتعالى يقعده على العرش** » وذلك أن الله تعالى غني عن المُلك كُله ، لا حاجة له فيه ، فوهب لنبيه مكان الربوبية [1] ، ومقام الإشراف على المُلك ؛ لاستغنائه هو عنه ، فمن الذي يقدر أن يلحظه بالعين ، الذي جعله الله هو وأزواجه فيها إلا ماشاء الله من ذلك .

فهكذا ينبغي أن يلحظ النَّبي وأزواجه أزلاً ، وأبدًا ، لا حرمنا الله برّه ، وبرّهنّ في الدنيا والآخرة آمين .

وإذا فهمت هذا المعنى فهمت الحقيقة في معنى الصلاة على النَّبي عليه السلام ، وكيف تعود الصلاة عليك إذا صليت عليه ، وعلى أزواجه صلى الله عليه ، وعلى أزواجه صلاة جامعة لمعاني الإحسان ، والإنعام ، ودائمة بدوام ذي الجلال والإكرام .

واعلم أن في برور الأنبياء ، والآباء أوامر ما جاءوا به برّ البارىء تبارك وتعالى :

١٠٩/أ ﴿ وإنْ تُطيعُوهُ تَهتَدُوا ﴾ [2] .

وكما ورد : « **رضا الله في رضا الوالدين** » لأن الله أمر بذلك ، أن يُطاع الآباء ، والأنبياء ، ويُكرَّموا ، ومن امتثل أمر الله ، فقد برّ الله ، وأكرمه ،

---

(١) هذا القول شرك ، لأنه وضع المخلوق في مكان الخالق لإشرافه على الملك ، فكأنه جعل النبي ﷺ إلهًا بالإنابة ويقول الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي ولا أُشْرِك بِهِ أَحَدًا﴾ نسأل الله الهداية والسلامة من الشرك . آمين .

(٢) سورة النور الآية (٥٤) .

وعظّمه وأجلّه .

فالبرور : على هذا [ ][(١)] في جميع الأوامر ظاهرًا وباطنًا في مقام الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ؛ لأن الرسول أمر بذلك كله ، والله أمر الرسول ، فقد عمّ البرور جميع المقامات كلها لمن فهم مقام الإسلام، والإيمان ، والإحسان ، وبرّ البرّ الرحيم .

وبَرّ أوامره كلها أوجب الواجبات ، ولا يفهم حقيقة البرّ إلا من تجلّى الله له بوصفٍ من أوصافه وهم أهل الحضور .

كما ورد عن الصحابة وغيرهم أن منهم من كان يدخل الخلاء مُقنعًا ، ومنهم من كان لا يرفع طرفه إلى السماء من كثرة بُروره لحضور ربِّه في هذا المقام، مقام الإحسان أسرار من معاني البرور عظيمة .

منّ الله علينا وعليكم ببره ، وبرّ أوامره كلها ، وغفر لنا ، ولكم عقوقنا كله بمنّه ، وكرمه آمين ، وصلىّ الله على سيدنا محمد ، وآله وسلم تسليمًا كثيرًا [(٢)] .

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصل .

(٢) بلغ مقابلة : كذا على حاشية الأصل .

الشُّعْبة الثَّانِية والعِشْرُون
صِلَة الرَّحِم

أمَّا كونها من شُعب الإيمَان فدليله مافي كتاب رسُول اللَّه ﷺ الذي بعثه مع العلي بن الحضرمي إلى أهل البَحرين ، فذكر فيه : «والإسْلاَم إقام الصلوات الخَمس ،وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصيام شَهر رمضان ، والغُسل من الجَنابة ، والطهُور قبل الصَلاة ، وبر الوالدين ، وصِلة الرَّحم المسألة »(١) وذكر الحديث .

فجعل صِلة الرحم من الإسلاَم ، وشُعبةٌ من شُعبه .

وكذلك ورد في الصحيح أيْضاً عن أبي أيوب أنَّ رجلاً قال : يارسول اللَّه أخبرني بعمل يُدخلني / الجنّة قال القَوم : ما له ما له قال رسول اللَّه ١٠٩/ب
ﷺ : «أرب ما له » فقال رسول اللَّه ﷺ : « تَعبد الله ،ولا تُشرك به شيئاً ، وتُقيم الصلاة ، وتُؤتي الزكاة ، وتَصل الرَّحم ، ذرها »(٢) .

قال : كأنَّه كان على رَاحلته فاستَاق صلة الرحم مع التوحيد ، والصلاة ، والزَّكاة في قَرن(٣) واحَد .

وعن جبير بن مطعم أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : «لا يَدخل الجَنة قاطع

(١) الطبراني في معجمه الكبير (١٨/ ١٩) .

(٢)صحيح : البخاري (٢/ ١٣٠) .

(٣) القَرَنُ : الحبل يُقرن به البعيران أو أكثر والمراد أنه ﷺ قَرنَ الصلة مع الصلاة والزكاة والتوحيد في حديث واحد يحوي أعظم شعب الإيمان .

رحم»[١] والأخبار في هَذا المعنى كَثيرة .

واعلمْ أنَّ الرّحم على ضربين : رَحم قَرابةٍ وَولادة ، ورَحم إيمَان وإسْلاَم .

فأمّا رحم القرابة فعلى نوعين : ضَرب منهم يَرث ، وضَرب لا يَرث .

ومنهم من تَجب نفقته بالحُكم مثل الآباء والأبناء ومنهم من لا تَجب نفقته بالحُكم مثل الأُخوة والأخوات ، والخَال والخَالات ، وسَائر القَرابات ، لكن بالصلة ، والإحسَان .

وأمّا رحم الإيمان فهي أُخوة الإسلاَم ، والإيمَان قال الله تعالى : ﴿إنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢] .

فالإيمَان جمع بين المؤمنين ، وأوجب لكُل واحد منهم عَلى أخيه حقاً ، فإذَا اجتمع رحم الإيمَان ، ورحم القَرابة ، والولاَدة كان لَه حقّان ، حقّ القرابة ، وحق الإسلام .

وإذا انفَرد رحم الإيمَان كان له حق أخوّة الإيمان .

واعلمْ أن الصلة تكون بالمَال ، وتكون بالزِّيارة والإحسَان ، وبالصَفح[٣] في الأقوال ، و العَون في الأفعال ، وبالأُلفة في المحَبة ، والاجتماع ، وغير ذَلك من معاني التواصل والتراحم .

هذا في الدنيا ، وأمّا منْ مَات من القَرابات فصلتهم تكون بالاسْتغفار

(١)صحيح : البخاري (٨/ ٦) مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (ب٦ رقم ١٨/ ١٩) ، الترمذي (١٩٠٩) أبو داود (١٦٩٦) .

(٢) سورة الحجرات الآية (١٠) .

(٣) الصفح : العفو .

لهم ، والدعاء في الأوقات التي تُرجى فيها الإجابة لهم ، وتَنفيذ وصَاياهم ، وغَير ذلك ممَّا يُخفف عنهم أو يُدخل سُروراً عليهم .

١١٠/أ وكذلك / أيضاً رحم الإيمَان ، وصلتهم بقَطع التقاطع ، والتدابر ، وترك الهُجران إلاّ مَا أباحه الشرع منْ ذلكَ ، وصلتهم بالمَال عند الحَاجة .

ومن الصلة للرَّحمين جميعاً تَعليمهم ما يَجْهلون ، وتَنْبيههُم على ما يَنفعهم ، كما وَرد في الخبر : « نعمَ الهَدية الكَلمة منَ الحكمة يَهديها الرجُل إلى أخيه المُسلم » والإعانة على الخير بأي وجه كَانت صلةٌ ، وصدقةٌ .

وعنْ أبي هريرة قال : حدثنا محمد رسول اللَّه ﷺ - فذكر أحاديثاً منها - وقال رسول اللَّه ﷺ : « على كُل سُلامى [1] من الناس صَدقة كُل يوم تَطلع الشَمس عليه قال : يَعدل بيْن الاثْنَين ويُعين الرجل في دَابته ، فيحمله علَيْها ، ويَرفع عليها مَتاعه صَدقة ، والكَلمة الطيبة صَدقة » وذكر الحديث .

وعن أبي موسى أنَّ رسول الله ﷺ قال : «عَلى كُل مُسلمٍ صَدقة ، قيل : أرأيت إنْ لم يستَطع . قال : « يَعمل بيَديه فَينفع نَفسه ، ويَتصدق » قال : أرأيت إن لم يستطع قال : « يأمر بالمَعْرُوف والخَير » قال : أرأيت إن لم يفعل . قال ؟ «يمُسك عن الشر فإنَّها صَدقة » [2] .

فهذه أسبَاب التواصل كثيرة ، من استَعملها كان منَ الوَاصلين ، لا سيما مع القَرابة ، فإنَّها أوكد .

وقد أمر الشرع بصلة الأرحام كَثيراً ، ونهَى عن القَطيعة ، وأوجب اللعنة منه على القَاطع فقَال : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ

---

(١) السُّلامى : عظام الأصابع .

(٢)صحيح : فتح الباري (١٠/ ٤٤٧) رقم (٦٠٢٢) كتاب الأدب باب كل معروف صدقة ، و(٣/ ٢٠٧) ، (٣/ ٣٠٨) رقم (١٤٤٥) كتاب الزكاة باب على كل مسلم صدقة .

وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [١] .

وعن أبي هريرة أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « الرحم شُجنة [٢] منْ الرحمن » [٣]

وفي رواية أخرى عن عائشة -رضى اللَّه عنها- « الرحم شُجنة من
١١٠/ب الرحمن ، فَمَن وَصلها وَصَله اللَّه ومنْ قطعَها قَطعه اللَّه » / .

والصلة مأخوذة من الوصلة ، والاتِّصال الذي هو ضِد القَطع ، والانْفصَال .

والحكمة في ذَلك أنَّ النبي ، وأزواجه عليهم السلام للأُمة كالآباء ، والأُمهات ، والأمّة كالبنين كما تقدَم في بَاب برالوَالدين ، فَالمُؤمنون كُلهم إخوة كما قال عليْه السلام : « المُسلم أخو المُسلم » [٤] جمعهم رضاع لبَان فطرة الإيمَان ، فإذا لمْ تكن رَحم الإيمَان ، وكَان رحم الولادة مجردة من الإيمَان وجبت البَراءة منها كما قال إبْراهيم عليْه السلام لأَبيه ، والذين معه : ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ [٥] .

والحكمة في هَذا أنَّ الصلة نَوع من التوحيد ؟ .

لأن الأُلفة [٦] اجتماع ، والاجتمَاع اتِّحاد ، والقَطيعة افتراق ، والافْتراق كَثرة ، والكَثرة ضد التَّوحيد ، فمَن أَجل ذلك قَطع اللَّه قَاطع الرحم ؛ لأن اللَّه واحد ، لاَ يصَل إلاّ واحداً مُتصَف بالتوحيد ، وهو بَريء عنْ الكثرة جَل

(١) سورة محمد الآية (٢٢ , ٢٣) .

(٢) الشجنة : بضم الشين وضمها ، عروق الشجر المشتبكة ، ويقال : بيني وبينه شجنة رحم أي قرابة مشتبكة ، والمعنى في الحديث أنها قرابة من الله تعالى مشتبكة كاشتباك العروق .

(٣)صحيح : البخاري (٨/ ٧) ، مجمع الزوائد للهيثمي (٨/ ١٥٠) أحمد (٢/ ٢٩٥) .

(٤) سبق تخريجه .

(٥) سورة الممتحنة الآية (٤) .

(٦) الألفة : الاجتماع والالتئام .

جلاله عن ذَلك .

وإذَا نَظرت هذا في الموجودات كُلها وجدتها وَاصلة لهذا الرحم ، لا يّنفَك طَرفة عين عن التعبد لله بذلك ، فإنَّ مُلك الله كله أشخاص كثيرة ، لكن تلك الأشخاص قد عطف بعضها على بعض ، وأوصلت إعانتها إلى من يليها ، ومن يلي ذلك إلى من يليه حتى تماسك الكُل ، وصار مُلكًا واحدًا، متعاون بعضه مع بعض لملك واحد ، لو انفصل شيء من تلك الأشخاص ، ولم يُوصل إعانته إلى غَيره ، ولا وصله بذلك بطل تدبير المُلك ، ووقعت الكثرة ، والشّتّات(١) .

فإذا فهمت هذا جدًا علمت أنَّ صلة الرحم على ثلاثة أضرب : ضرب في مقام الإسلام ، وضرب في مقامِ الإيمان ، وضرب في مقام الإحسان ، وأن الصلة / قد عمّت جميع الموجودات ، والمقامات وحرَّمت القطيعة التي ١/١١١
هي الفُرقَة ، والعذاب .

وفي صلة مقام الإحسان قول الله عز وجل :

« اليوم أَرفَعُ نسبي وأضع أنسابكم ، أين المتقون» والاتّصال في حق الخَلق بَعضه ببعَض حتى يكونوا شيئًا واحدًا حقيقة ، والاتَّصال في حق البارئ تعالى الذي هو يُقارِب الذوات مُحال .

والاتَّصال المعنوي الّذي هو وصال المحَبَة ، والخلة ، والإيَمان ، والعلم، والمعَرفة ، والقُرب منه ، وَالكون في كَنَفه حقيقة ، فمَنْ وصل الرحَم الجُسمانية ، والرحم الإيمانية ، والإحسانيَة فقد وصل الله ، وكان منَ الذين يَصلُونَ ما أمرَ اللّهُ به أنْ يُوصل .

ومن قَطَعَ الرحِم قَطَعَه الله ، فإذا فهمت هذا جِدًا عَرفْتَ قَدْرَ هذه

(١) الشّتّات : التفرق .

الشُعْبَة من شُعَب الإيمان ، وكيف وجبت اللعنة لقاطع الرحم من اللّه تعالى ؛ فإنَّ العالم الكُلّى الذي هو جميع المخلوقات مُتعبد لله بشرائع الإسلام كلها ، وشُعب الإيمان أجمعها فمن ترك شُعْبَة من شُعَب الإيمان خالف الُملك كله في تعبّده . ولذلك أمر اللّه بالتّذكر والتّفكر ، وحَضَّ[1] رسُوله عليه ليقع اليقَين لكُل ماجاءت به الرُسل في قُلوب المؤمنين .

واعلم أنَّ هذه الشُعبة التي هي صلة الرحم ورد في الخبر أنَّها تزيد في العُمر ، وهذا مُشكَل ، يحتاج إلى بيان ؛ لأنَّ الله يقول :

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يَنْقُصُ مِن عُمُرِه إلاَّ فِي كِتاب ﴾[2] فمن قُدِّر أجله صغيرًا ، أو كبيرًا لاَ يقدر أن يَزيد فيه ، ولا يَنْقص منه ، كما قال تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لاَيَستَأخِرونَ سَاعَةً ولاَ يَستَقدِمُونَ ﴾[3] .

وبيان ذلك إن شاء الله ، أنَّ العُمر هو الحياة ، والحياة هي عيش الإنسان من حين يُولد إلى أنْ يموت ، وصلة الرحم سَبب للمودة ، لأنَّها
١١٢/أ عبادة تتعدى إلى الغير / فتدخل السرور إلى قلوب الموصولين بالصلة ، فَيُحبُه أهله ، فيدخل عليه بكُلِ مَسرور ، سُرور في قلبه فَتَطيب حياته بالسُرور الذي يدخل على قلبه ، وذاته ، وهو الوصَال الذي وَصَله اللّه به حيث قال : « من وَصلَهَا وَصلْتُه ، ومَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُه » .

فإذا وَصَله اللّه طَابت حياته ، ونَمت فَتنشَأ حَياته ، وتَقْوى في ساعةٍ بالبركة ، والنُمو على قَدر الوَصلَة في كِبَرِها ، وصِغَرها .

---

(١) حضَّ : حثه عليه بقوة .

(٢) سورة فاطر الآية (١١) .

(٣) سورة النحل الآية (٦١) .

والبَركة زيادة كزيادة ربْح المال التي لَيْسَت بالزمان ، وإنَّما هي بالبركة ، والنُمو .

ثم إذا مات المُواصل للرحم يَودُ أهلَهُ الذين يُحبونَه أنْ لو فَدوهُ بأنفسهم فيبقى ودَّهُم له في قلوبهم بعد مَوته ، فيذكرونه بكل خَير ، وَيَترَحّمون عليه، لأَنَّ مِثاله موجودَ في نُفوسهم ، فيكون أيضًا ذلك بمنزلة حياته ، كأنّه لم يمت .

وقد نبه النَّبي عليه السلام على هذا المعنى في حديث رواه أبو هريرة في الصحيح قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من أَحَبَ أَنْ يُبْسَطْ لَهُ فِي رِزْقِه ، ويَنْسَأَلَهُ (١) في أَثَرِه فَلْيَصِلْ رَحِمَه** » (٢) .

والأثرُ هُو بَعد الموت .

وروى كميل عن علي- رضي الله عنه- في الحديث الطويل : « **مات خَزان الأموال ، والعُلماء بَاقون مَا بقي الدَّهر أحياء ، أعيانهم مفقُودة ، وأمثالهم في القُلوب مَوجودة** » .

والعُلماء أحياء أبدًا ، لأن أثارهم بَاقية؛ فافهم .

والقاطع للرحم يُدخل الغم على الغير بغَيْر حق فَيبغضُونه ، ويبغضهم، ويتولد الحقد عنْدَهُ ، فيتنغص عليه عَيْشُه الذي هو حَياتهُ ، وتنغيص العيش نُقصان من عُمره ، لأن بركة الحياة قد زالت عنه ، التي تحصل للواصل ، وهو طيب الحياة ، ألا ترى إلى قول الله تعالى :

---

(١) يُنسأ : يؤخر .

(٢) صحيح: البخاري (٨/ ٦) مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (٢١) .

﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [١] .

١١٢/ب فمن فقد طيب الحياة فقد نَقَص عيشه ، وخَسَر عُمُره ، ألا ترى / إلى قول النبي عليه السلام : « لايَدْخل الجنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ »[٢] .

والحياة الطيبة على الحقيقة هي في الجنَّة ، والواصل للرَّحم إذا وصله اللّه يجد أذواقًا من تلك الحياة على قدر صلته ، وهي زيادة حياة على حياة ويفهم قول الله تعالى في قوله :

﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ أُولِئكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُم وَأعمَى أَبصَارَهُم﴾ [٣] .

واللعنة هي البُعد عن جِواره ، الذي هُو ضد الوصل ، والعمى ، والصم موت القلب ، والموت فقد الحياة .

فهذا بَيِّن لا إشكال[٤] فيه إن شاء الله ، وصَلى اللّهُ على مُحمد وعُلى آله وسلم .

---

(١) سورة النحل الآية (٩٧) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سورة محمد الآية (٢٢ ، ٢٣) .

(٤) إشكال : الأمر الذي يوجب التباسًا في الفهم .

الشعبة الثالثة والعشرون
إكرام الجار

فأمَّا كونه من شُعب الإيمان فإنَّ الله قد استاقه بعد التوحيد ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم في قرن واحد فقال : ﴿ وَاعبُدُوا اللهَ ولاَتُشركُوا به شَيئًا وَبالوَالدَين إحسَانًا ، وبذي القُربى وَاليَتامَى وَالمسَاكِينِ والجَارِ ذي القُربى وَالجَارِ الجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابنِ السَّبِيلِ ﴾[1] .

وفي الصحيح عن ابن شريح أن رسول الله ﷺ قال : « والله لا يؤمن ، والله لا يُؤْمنْ ، والله لا يُؤْمنْ ،قيل مَنْ يا رسولَ الله ؟ قال : « الذي لا يأمن جَارُه بَوائقَه »[2] فنفى الإيمان عنه بعدم هذه الشعبة ،والله أعلم بما أراد رسوله، هل أراد جُملة الإيمان أو أراد لا يؤمن إيمانًا كاملاً ؟ وكيف ما كان ؟ فقد صار شُعبة الإيمان .

وفي حديث آخر عن أبي هريرة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره »[3] والأخبار في هذا المعنى كثيرة .

واعلم أنَّ إكرام الجار ظاهرٌ ، وباطن .

فالظاهر على نوعين :

النوع الواحد : وهو الفرض الواجب أن لا يؤذيه ، ولا يضره ،

(١)سورة النساء الآية (٢٦) .

(٢)بوائقه : شروره ، والحديث صحيح : أخرجه البخاري (٨/ ١٢) .

(٢) صحيح : البخاري (٨/ ١٣) .

ويكف عنه شره جملة .

والنَّوع الآخر : أن يحسن إليه ويصله[١] بما قدر ، ويأمره بالمعروف ، وينهاه عن المُنكر ، وينبهه على ما ينفعه ، فإذا اجتمع المعنيان فهو الكمال ، وإذا لم يقدر على الإحّسَان فليكف عنه الأذى .

هذا هو حق الجار عليك في خاصة نفسك .

وأمَّا في خاصته فإن كان مُحسنًا إليك ، فاقبل إحسانه ، وكافئه عليه ، بما تقدر عليه من إحسَان ، أو دُعاء ؛ فإن ذلك يُثمر المحبة ، وإن كان مؤذيًا لك فليلزمك الصبر عليه ، حتى يجعل الله فرجًا[٢] ، أو التبدل به خيرًا منه إن أمكن بالرحلة ، إن لم تقدر على الصبر ؟ فإنه يقال : إن الجار السوء يشيب قبل المشيب ، روى أبو هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره قال : « **اصبر** » ثم أتاه فقال : « **اصبر** » ثم أتاه فقال : « **اصبر** » ثم أتاه فقال : عليه السلام : « **اذهب فاطرح متاعك في الطريق** » ففعل ، فجاء الناس يمرون ، فيسألونه ، فيخبرهم خبر جاره فجعل الناس يلعنونه ، فعل الله به ، وفعل ، فجاء إليه جاره ، فقال له : ارجع فإنَّك لا ترى مني شيئًا تكرهه[٣] .

وحق الجوار في أقرب الأبواب ، روت عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله إنَّ لي جارين ، فإلى أيهما أُهدي ؟ قال : « **أقربهما منك بابًا** »[٤] فالجيران نازلون في حقوقهم منزلة القرابات ، الأقرب من القرابات أبدًا أوجب ، ثمَّ الذي يليه ، وكذلك الجيران .

---

(١) يصله : يعطف عليه ويرفق به ويراعي أحواله .

(٢) فرجاً : الفرج انكشاف الهم والغم .

(٣) أحمد (١/ ٦٢ ٦٣) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٢٤) .

(٤) أحمد في المسند (٦/ ١٧٥ ، ١٨٧) .

وقد نبه النبي عليه السلام على هذا المعنى في قوله : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنَّه سيورثه »(١) .

ومن حسن الجوار بذل الماعون للجيران ؟ فإنه قد ورد في قوله تعالى ﴿ويَمنَعُونَ المَاعُونَ﴾(٢) أنه المعروف كله ، حتى ذكر القصعة(٣) ، والقدرة(٤) ، والفأس(٥) .

والماعون مُشتق من العون ، والإعانة ، فكل ما يُستعان / به على الخير ، فهو ماعون . ١١٣/أ

قال الله تعالى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثمِ والعُدوَانِ ﴾(٦) .

ومن حق الجار على الجار أن يُنبهه على ما ينفعه من أمر دينه ، وآخرته ، وينهاه عما يضره في دينه ، وآخرته ، فإنَّه يُقال : إنَّ الجار يتعلق بجاره يوم القيامة ، ويُخاصمه في حُقوقه ، وفي أنَّه لم يأمره ، ولم ينهه ، وإن أدى ذلك إلى بُغض جاره له فلا يضره ؛ فقد ورد في الآثار : « إذا رأيت القارىء محببًا في جيرانه فاعلم أنَّه مُداهن »(٧) ، وقيل « مُراءٍ »(٨) .

(١) صحيح :البخاري (٨/ ٢) مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (ب٤٢ رقم ١٤٢) أبوداود (٥١٥١) ابن ماجة (٣٦٧٣) ، الترمذي (١٩٤٢) .

(٢) سورة الماعون الآية (٧) .

(٣) القصعة : وعاء يؤكل فيه ، ويثرد فيه ، وكان يتخذ من الخشب غالباً .

(٤) القدْر : إناء يطبخ فيه ، والقدر الكاتمة : وعاء للطبخ محكم الغطاء لإنضاج الطعام في أقصر مدة ، وذلك بكتم البخار والجمع « قدور » .

(٥) الفَأس : ألة ذات يد ملساء من الخشب ، وسن عريضة من الحديد يحفر بها ، ويعزق ، والجمع «فؤوس» .

(٦) سورة المائدة الآية (٢) . (٧) مداهن : مخادع غشاش .

(٨) مرائي : أراه أنه متصف بالخير والصلاح على خلاف ماهو عليه .

وإكرام الجار جاره بأمر الدين ، وأمر الآخرة كإكرامه بأمور الدنيا ، بل إكرامه بأمور الدين أوجب ، وأفضل ؛ فإنَّ إكرامه بذلك من الخير الذي لا ينقطع وهي الآخرة ، وقد قال رسول الله ﷺ :

« خير الجيران عند الله خيرهم لجاره » (١)

هذا هو الجار الظاهر ، وإكرامه .

وأمَّا الباطن فعلى ضربين : ضرب في مقام الإيمان ، وضرب في مقام الإحسان .

فأمَّا الضرب الأول في مقام الإيمان ، فإن العالم كله مشحون بالملائكة ، فإذايتهم ، وإذاية مواطنهم - وهي مساجدهم - التي يتعبدون فيها لرب العالمين محرمة علينا ، فليس في العالم موضع شبر إلا وفيه جبهة ملك ، فالعلم كله مسجد لهم ، فإذايتهم بالمعاصي ، كما ورد في قوله تعالى :

﴿ إنَّ اللهَ يُمسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأرضَ أن تَزُولا ﴾ (٢) .

أي من معاصي العباد .

ويقال : إن للذنوب روائح إذا أذنب العبد ذنبًا ثارت منه ريح مُنتنة ، فتنفر منه الملائكة ، وتنقبض منه الأمكنة على قدر صغر الذنب ، وكبره ، ألا تسمع لقوله تعالى : **﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرنَ مِنهُ وَتَنشَقُّ الأرضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًا أن دَعَوا لِلرَّحمَنِ وَلَدًا ﴾** (٣) .

---

(١) الترمذي (١٩٤٤) .

(٢) سورة فاطر الآية (٤١) .

(٣) سورة مريم الآية (٩٠ ، ٩١) .

فإكرام هذا الجار كف الأذى عنهم / بترك العصيان ، وكشف العورات ، والقبائح للكرام المكرمين ، ألا ترى كيف أمر الشرع أيضًا بأن لا تستقبل القبلة ، ولا تستدبر لبول ، ولا غائط إكرامًا للمصلين ؟ ١١٣/ب

وكذلك تنفر الملائكة من الروائح القبيحة في الأجساد ، والأوساخ ، قال النبي عليه السلام : « **من أكل من هذه الشجرة فلا يقرب مساجدنا يؤذينا بريح الثوم** »(١) .

وكذلك : « **لا تدخل الملائكة بيت فيه كلب ولا صورة تمثال** » وذلك كله داخل في هذا المعنى ، وفيه إشارة إلى بيت القلب وتطهيره من كلب الحرص ، والغضب ، وتماثيل الشرك المُتوهمة المحبوبة ، القاطعة عن الله .

فإزالة ذلك كله إكرام للملأ الأعلى ، المجاورين للقلوب ، والأرواح ، والنُّفوس في عالم الملكوت ، والأجسام في عالم الملك .

وأمَّا الضرب الثاني الباطن في مقام الإحسان فهو مقام مُراقبة البارئ تعالى .

ومن حقائق هذا الباب إكرام نظر البارئ تعالى ، والحياء منه ، والتَّوقير له ، والإجلال ، والإخبات له ، فإنَّه الجار القريب الذي هو أقرب إلى كل شيء من كل شيء ، وإكرام هذا الجوار الكريم موجود في قوله تعالى :

﴿ تَبَارَكَ اسمُ ربكَ ذِي الجَلاَلِ وَالإِكرَامِ ﴾(٢) .

معناه هو أهل لأن يُجلّ مقامه ، ويكرم نظره ، وقربه فافهم فهمنا الله ، وأعاننا وإياك على العمل .

---

(١) صحيح : البخاري (١/ ٢١٧) مسلم في صحيحه كتاب المساجد (٧٠) أبو داود (٣٨٢٦) .

(٢) سورة الرحمن الآية (٧٨).

ألا ترى أنَّه قد ورد في الأخبار أنَّ آدم لمّا واقع الخطيئة [١] قيل له : «اخرج فإنَّه لا يجاورني من عصاني» فمن كان في الدنيا حسن الجوار ظاهرًا وباطنًا كان جزاؤه الحلول بجوار الواحد الأحد في الجنَّة على قدر حُسن جواره يكون قُربه من جوار الواحد الأحد .

ولذلك نبّه النبي عليه السلام على هذا المعنى في قوله : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»[٢] .

١١٤/أ فقوله : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» " أي من كان / يؤمن بجوار الله في الآخرة ، والرجوع إلى السكنى في جواره فليكرم جاره في الدنيا على المعاني الثلاثة المذكورة فيما تقدم .

والمقربون الذين قَاموا بحسن الجوار قد وجدوا من قُرب جوار الواحد الأحد إذًا وافى في الدنيا قبل الآخرةَ ، فأنْزلهم المَنازل الرَفيعَة من قُربه ، وسكّنهمَ المقامات الرَفيعة من جواره ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ في جنات ونَهرٍ * في مقعدِ صدقٍ عند مليك مُقتدرٍ﴾[٣] .

والجوار أخو الاعتكاف في الشرع وهُو هُو ، وأعلاه عُكوف العَبد على مولاَه في الحَال ، في مقعد الصدق عند مَليك مقتدر .

وفي الحديث أيضاً : «المَاهر بالقُرآن مع السفرة الكِرام البَررة»[٤] أي قد أُحل مَقَامهُم ، وأنزل منزلتهم .

---

(١) الخطيئة : هي الخطأ ، وهو ارتكاب الذنب أو تعمد الوقوع فيه .

(٢) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٧٤) .

(٣) سورة القمر الآية (٥٤ ,٥٥) .

(٤) صحيح : البخاري (٨/ ١٣) ، مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين (٢٤٤) الترمذي (١٦٦٧) أبو داود (٣٧٤٨) .

وعلى فَوت هَذه الحَالة نقـول : إنَّا للَّه ، وإنَّا إليْه رَاجعون ، ونَسأل اللَّه الكَريم التوبة منْ كُل ما يوجب البعد منْ جوار اللَّه ، وأنْ يرزقنا الحيَاء منه ، والإكرَام لـه ، ولِملائكتـه الكِرام المُكرمين ، صَلى اللَّه على مُحمـد وعلى آله وسَلم [(١)] .

***

(١) بلغ مقابلة : كذا على حاشية الأصل .

الشُّعبة الرَّابِعَة والعِشْرون
إكْرام الضَّيف

أمّا كونه من شُعب الإيمان فموجُود في قوله عليْه السلام : «منْ كَان يُؤمن باللّه واليَوم الآخِر فليُكرم ضَيفه » [(١)] .

وفي الصحيح أيْضًا عنْ ابن عمر أنَّ رَجُلاً سَأل رسول اللّه ﷺ أي الإسْلام خَير ؟

قال : «تُطعم الطعام » [(٢)] وذكر الحديث .

فجعل إطْعام الطعام من الإسْلام ، وهُو راجِع إلى التضيف ، وغَيره ؛ لأنَّ إطْعام الطعام من الإسلام على نوعين :

إمْا أنْ يَأتيك الزائر فُتطعمه فيكون ضَيفاً لك ، وإما أن تَدعوه فيُجيبك زَائراً لك في مَنزلك فيكون ضَيفاً بدُخوله منزلك .

لايَخلو إطْعام الطعام عن هَذين القسمين ، ولأنَّ إطعَام الطعام مِن المرُوءة [(٣)] وقالوا : « لا دِين لمن لاَ / مُروءة له » والأخبَار كَثيرة . ١١٤/أ

واعلمْ أنَّ التضيف على نَوعين : ظَاهر ، وباطن .

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٨/ ١٣) ، مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٧٤) ، الترمذي (١٩٦٧)، أبو داود (٣٧٤٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ١٣) . مسلم في صحيحه كتاب اللقطة .

(٣) المُروءة : آداب نفسية تحمل الإنسان على اتباع محاسن الأخلاق والعادات .

فأمّا الظاهر : فهُو الزائر ، والُمستزار الإنسَاني .

فأمّا الزائر : فهُو القَادم عليْك ، فإكْرَامه بثَلاثة أنْواع : بالإيوَاء ، والتَبجيل ، والقراء ، ومَنتهاه ثَلاثة أيام كما أخبر النَّبي عليْه السلام في قوله : «منْ كَان يؤمن باللَّه واليَوم الآخر فليُكرم ضَيفه جَائزته » قالوا : وما جَائزته يارسول اللَّه ؟ .

قال : «يَوم ولَيلة » [١] والضيافة ثَلاثة أيام ، فَما كَان بعد ذَلك فهُو صَدَقة عليْه ولاَ يَحل له أنْ ينوي عنده حَتى يُخرجه ، ويُؤثمه .

قالوا : كيف يؤثمه ؟ قال : «يُقيم عنْدَه ، وليس عنْده مَا يُقريه به ، فالإيوَاء يُزيل الغربة ، والخَوف عنْ الضيف ،بِوجُوده المنزل بدلاً مِن مَنزله » .

والتبجيل يُزيل عنْه وَحشة الغُربة ،ويثمر عنده الأُنس ، والقِراء يُطيب، النفْس ، ويولد المحبة .

وهَذه كُلها أعمال فَاضلة من أعمال الإيمَان ومن أجل هَذه الثلاثة كانْت الضيافة على أهل الوَبر أوجب منها على أهل المدَر [٢] لأن المنَزل والأُنس ، والقراء مُعتذر في البَادية كما لها ، وهي كُلها موَجودة في الحَاضرة ؛ فإن المُسافر يَجد المنزل في الحَاضرة ، غير مُتعذر ، ويَجد الخلق الكثير ، والطعام الكثير على اختْلاف أنْواعه .

كما ورد في الخبر : الضيافة على أهل الوَبر ، وليست على أهل المدر ، ولو لمْ يكن في التصنيف فَائدة إلاّ مَا ورد فيه أنَّ الضيف إذَا ارتحل ارتحل بذنوب أهل المنزل كيفَ وفيه منْ غير ذلك من أسرَار الجزَاء المعبر عنها

---

(١) السلسلة الضعيفة للشيخ الألباني -حفظه الله - (٧٩١) .

(٢) المَدَر : سكان البيوت المبنية .

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تعْمَلُونَ﴾ (١) حكمَ وأنوار عبّر عَنها قَول النَّبي عليْه السلام في قوله : «مَن كَان يُؤمن باللَّه والَيوم الآخر فليُكرم ضَيفه»

ففي قَوله هَذا تَنْبيه عَظيم لفَهم الجَزاء على الأعمال / مَعناه : منْ كَان يؤمن باللَّه ، واليوم الآخر ، أَي يصدق بلقاء الله ، والقدوم عليه ، فالإنسَان ضَيف في الآخرة ، قَادم على اللَّه فيؤويه ، سُبحانه في مَنزله ، ودَاره التي هي الجنَّة ، ويُعظمه ، ويَخْدُمه الولْدَان ، والعَبيد ، ويَتَلقونه بالبُشرى ، والتَّوقير ، و التبجيل (٢) ، ويكرمه بالإطْعَام ، الراحة في دَار كرامته . ١١٤/ب

فليُكرم ضيفه ؛ فإنه قادم عليْه ، ليس له مَأوى كما يَقْدم الإنْسَان غَريبا في الآخرة ليس له مأوى فيؤويه اللَّه في الجنَّة ، ويَتلقاه بالبُشرى ، والتَّرحَيب - أعنى ضَيفه - ويُثيبه اللَّه على ذَلك الترغيب ، والتوقير ، ويَخْدمه الأملاك ، والولدان ، ويُقدم إليْه القرى ، فإن اللَّه يُقدم إليه إذا دخل جَنته جَميع ما فيها منَ الأطعمة ، والكَرامة .

وهكذا صفة الأعمال كُلها منْ عمل خيراً ، أوشَراً جَزاؤه في الآخرة على مِثل العَمل في الدنيا ﴿جَزَاءً (٣) وِفَاقًا﴾ و ﴿سَيَجزيهمْ وَصْفَهُم﴾ (٤) .

وإنما نَبهتك على هَذا لَتنتبه في ألفَاظ القرآن والحَديث على معَاني الجَزاء ، فتنكَشف لَك حَقَائقها ، فإنَّها في ألفاظ الرسُول ، والقُرآن مودعة .

وكَذَلك إذا استزرت أنت غَيرك من أخ ، أوغيره إلى مَنزلك فأطعمتَه ، وأكْرَمتـه هُو منَ الإيمَان أيْضاً ، فقد سُئل رسول اللَّه ﷺ عنْ الإيمَان

---

(١) سورة الطور الآية (١٦) .

(٢) التبجيل : التعظيم .

(٣) سورة النبأ الآية (٢٦) .

(٤) سورة الأنعام الآية (١٣٩) .

فقال : «**إطعام الطعام ، وبذل السلام**»[(١)] وقال أيضًا في الكفارات والدرجات : «**إطعَام الطعام ، والصلاة بِالليل والنَّاس نِيام**» .

والأخبار في فَضل الضيافة وإطعام الطعام لا تُحصى ، فَهي شُعبة عظيمة من فَضائل الإيمَان ويُقال : أنَّ السخَاء[(٢)] على الطَعام ، فَيستر البُخل بالمال .

وأمّا البَاطن فعَلى ضربين :

ضَرب في مقَام الإيمَان ، وضرب في مقَام الإحسَان .

١١٥/أ فأمّا الضرب الأول الإيمَاني : فَاعلمْ أنَّ كُل وارد/ يرد على العَبد من الغَيب ممَّا ليس بحَاضر معَه ولا هُو مُجاوز له ، فإنَّه ضَيف بورُوده عليّه ، يجب لَه من الإكرَام ما يَليق به ، كَضَيف أبينا إبْراهيم صَلوات اللَّه عَلى نَبينا وعليْه ، وهُم المَلائكة الوَاردون على الخَلق .

قال اللَّه تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾[(٣)] وقال في لوط : ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾[(٤)] .

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ ﴾[(٥)] فإنما سُمّوا ضيفاً بقُدومهم عَليه ، ودخولهم مَنزله ، لا بأن ذَلك اسم لهم فافهم .

فأنَّ المَلائكة تَتَعاقب على الخَلق في كُل يوم ولَيْلة ، ترد منْ عند اللَّه ، مَلائكة النَّهار عند صَلاة الصبح ، فَتحفظ على الخَلق أعمالهم .

(١) هو عند أحمد في المسند (٣/ ٣٢٥) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٨٣) .

(٢) السخاء : الجود ، والكرم .

(٣) سورة الذاريات الآية (٢٤) .

(٤) سورة الحجر الآية (٦٨) .

(٥) سورة القمر الآية (٣٧) .

وكذلك مَلائكة اللَيْل أيْضاً تَرد عليهم عنْد ذهاب النَّهار ، وإقْبال الليل ، فتَحفظ عليْهم أعمالهم .

هكذا مَع كُل يَوم وليلة ، لاَ يخلو العَبد عن القَادمين عليْه ، والوَاجب على العَبد إكرامهم بما يَليق بهم منْ التَعزير ، والتَّوقير ، وقَبول إلهامهم ، وترك الأذى لهم بمَا يكرْهونه من مُخالفة العَبد وترك تَعبهم بما في كُتب الفُضول من القول ، والفعل ، وإملاَء الأعمال الصالحة علَيهم منَ الأذكَار ، والأقْوال الطيبة ليكْتُبوها فذلك إكْرامهم ، وتَضييفهم .

وكَذلك الأنْفاس ، ثمَّ الساعات ، ثمَّ الأيام والليالي قَادمة على العَبد شَاهدة له ، وعليْه إكْرَامها ، وإمْلاَؤها بالخَير ، فإنَّها صروف لا يَعمل العَبد خيراً ، ولا شَراً ، إلاّ في سَاعة منْ الزَمان أو أقل من سَاعة ، أو أكثر ، وإهانَتها (١) إملاؤها بالشر .

وكذَلك كُل وَارد من اللَّه منْ خَاطر خير ، ووَاعظ في قلب المؤمن ، أو تفهيم علم من اللَّه يجب إكرامه بالقَبول ، والامتثَال .

وأمّا الضرب الثاني من البَاطن في مقَام الإحسَان فهو تَجلي البَارئ تَعالى لقُلوب المؤُمنين ، وتَنزله إليْهم بصفات الرحمة / والتَّكْليم في كُل ١١٥/ب
ليلة ، وتَنبيههم في كُل وقت منَ التَّذكَير ، والوَعظ فيجب إكرَام تَجليه ، وتَنزله ، ومَجيئه سُبحانه : ﴿مَنْ أتَاني يَمشي أَتيته هَرولة﴾ (٢) وكَيف لا وهُو أقرب من حَبل الوَريد ، وإنَّما مَجيئه ، وتَنزله كَشف الحجُب من الغَفلة ، وغيرهاَ عنْ القُلوب ، فقد عمّ التضييف ، والإكرام جميع المقامات الثلاثة : الإسْلام ، والإيمَان ، والإحسَان ، وبقي الإكْرام في كُل مقام منْها لكل ضَيف

(١) إهانتها : إهانة الشيء : تحقيره وذله ، وفي القرآن الكريم ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ .

(٢) الهيثمي في مجمع الزوائد وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير زكريا بن نافع الأرسوقي ، السري بن يحيى وكلاهما ثقه ، ورواه البزار .

وارد فيها منْ إكرامها أكرمَه ورَفع قَدره في الحَال إنْ كان من أهل الأحوَال ، وفيً المآل إذَا قدم على ذي الجَلال ، وإن أغفلها واسْتهان [١] بها حُرمَ الإكرام، والترفيع في الحَال والمآل .

ومن هَذه الوَاردات ما يعظم قَدره، فيَزيد في قُلوب المُتلقين له إكرَاماً ، وتَرحيباً على غيره، وإن كَان الكُل مُكرماً كيَوم الجُمعة في الأيام ، كَان السلف الصالح يَأخذون الأهبة [٢] لَه عَشية الخَميس، وذَلك من الإكرام لَه .

وكانوا يتَلقونه بالتَّرحيب ، كَان إبْراهيم بن أدهم يقول في كُل صَبيحة يَوم الجمعة ، وعَشيته : مَرحباً بيَوم المزيد ، مَرحباً بالكَاتب والشهيد .

وكَذلك أوقات الصلوات عَلى غَيرها والشهور الفَاضلة كَشَهر رمضَان، وغيره ، وليْلة القَدر ،وغيرها من الليالي الفَاضلة .

وكذلك الوَاردَات كلها من اللَّه جَل وتعالى في القُلوب .

ومنْ هَذا البَاب دَخلوا إلى الاستعْدَاد لقُدوم المَوت عليهْم ، والارتقاب له ، والتأهب للقَائه ، فَمَنْ أكرم هذه الوَاردات وتَلَقَّاها بالإكْرَام ، ورَآها رسُلاً ، وواردات منَ اللَّه كَان جَزاؤه عندَ اللَّه أول دُخول الآخرة في مُنتهاها التأهب [٣] لَقُدوم رُوحه في السماوات ، حتى أن الأرض لَتَقول لأحدهم : مَرحباً بك ، لَقد كُنت أُحبك وأنْت على ظَهري ، فسترى صُنْعي ١/١١٦ بك اليَوم ، ولا يمَر بروحه عَلى مَلأ منْ المَلائكة / إلاّ تَلقته بالتَّرحيب ، والإكْرام ، فَيَقولون : رُوح طَيبة جَاءت من جَسد طَيب ، حتى لا يَبقى في الوجود إلاّ منْ يُكرمه ، ويُرحب به عَلى قَدر دَرجته .

---

(١) استهان : استخف .

(٢) الأهبة : العُدة .

(٣) التأهب : الاستعداد .

وإنْ أردت اعتْبار هَذا المعنى في الوُجود كُله فإنّ المَلائكة ، والوُجود كله ، بيْن يَدي اللَّه ، متلقى لما يرد علَيْه من اللَّه بالتَّرحيب ، والامتثال [١] والإكرام .

وهَذا مقَام الإحسَان فَافَهم فهمنا اللَّه وإيَّاك ، وأعاننا وإيَّاك على بره ، وبّر وُسَائطه المُكرمة آمين ، وصلى اللَّه على محمد وآله وسَلم .

(١) الامتثال : امتثل أمره أطاعه واحتذاه .

الشّعبة الخامسة والعِشرُون
الصمْتُ والعِيُّ(١)

أمّا كون الصمت من الإيمَان فإنّ رسُول اللّه ﷺ قال : «مَن كَان يؤُمن باللّه واليَوم الآخر فليقل خَيراً أو ليصمت »(٢) .

وفي الحديث : «الحَياء ،والعِيُّ شُعبتان منَ الإيمَان »(٣) .

وحدّ الصمت الإمسَاك ، والحبس ، فإذَا فَهمت هَذا فَاعلم أنه على ثَلاثة مَقَامات : مقَام الإسلام ،ومقَام الإيمَان ،ومقَام الإحسَان .

فأمّا الصمت في مقَام الإسلام فإنّ الكَلام يَنْقسم على قسمين : خَير ،وشَر ، وقال اللّه تعالى : ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾(٤) الآية .

وقال النبّي عليْه السلام : «وهل يكبُّ النَّاس فِي النار عَلى مَنَاخرهم إلاّ حصَائد ألسِنتهم ؟ »(٥) .

ومنْ عَد كَلامه منْ عَمله قَل كَلامه إلاّ فيما يَعنيه ، فإذَا عَلم العَبد أنَّ كَلامه منَ العَمل ؛ كَان كَسَائر الجَوارح ، لسانه ،والجَوارح كُلها سَاكنة صَامتة ، لاَ تَتكلم ، وكَلامها العَمل ، فقدَ استَوى اللسَان مَع الجوارح ،

(١) العيُّ: العجز عن التعبير اللفظي بما يفيد المعنى المقصود، والعي ضد البيان .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٨/ ١٣) مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٧٤) ، ابن ماجة (٣٩٧١)، الترمذي (١٩٦٧) .

(٣) الترمذي (٢٠٢٧) ، الحاكم (١/ ٩) .

(٤) سورة النساء الآية (١١٤) .

(٥) الترمذي (٢٦١٦) ، ابن ماجة (٣٧٩٣) ، أحمد (٥/ ٢٣٦) .

فكَما أنَّ الجَوارح لا يَجوز لها أنْ تَعمل إلاّ صَالحاً فهكذا اللسَان لا يعمل إلاّ صَالحاً وعمله هُو الكلام .

وأكثر النَّاس لم يعدّوا الكَلام من العَمل ، من طريق أنَّ اللسَان هو تُرجمان العَبد في جميع حَاجاته ، فخفّ الكَلام على النَّاس ، وهُو الذي أورد / المَوارد ، وأهلك الخَلق . ١١٦/ب

وفي اللسَان أنْواع المُهلكات مثل الكَذب ، والزور والفَخر [١] ، والاستهزاء ، والنَّميمة ، والبُهتان [٢] والغَيبة ، والحَسد ، والحَديث الذي لاَ يُفيد ، فواجب على العَبد أن يَحكم لسَانه ويَضْبطه كما يضبط سَائر الجَوارح ، ولا يَتكلم إلاّ فيما أُمر به ، والذَي أُمر بالكَلام فيه .

والصَّمتُ في عالم الحس ثَلاثة أَيْضًا ؛ ضَرب في المُباحات والاشْتغال ، التي لا بد منها ، وَضَربان في أُمور الدين ، لأنَّ أُمور الدين على ضَربينَ : خَير ، وشَر .

فأمّا أُمور الدُنيا فَيتكلم الإنسَان ، بحَوائجه في منَزله ، ومَع أهله ، ومع مَن يَبيع منه ويَشتري ممَّا لابد منه ، وذَلك كله حَسن ، ويَضْبط لسَانه عن كل جُفَاء [٣] ، وبُذاء [٤] ، فإنَّ ذَلكَ من شُعب النِّفاق .

وأمّا أُمور الخَير الدينية فالكَلام فيها بالسُّؤال عن العلم ، والجَواب فيه ، فَلا يَتكلم إلا بعلم حَق ولا يَتكلم فِي الدين بأهواء المُبتَدعة ، والمُتَعمقَين ويَتَمذهب به ، فإنَّ ذَلك جناية علَى الدين .

(١) الفخر : التباهي بما له من المحاسن .

(٢) البهتان الكذب المفترى ، وفي القرآن الكريم ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ .

(٣) الجُفَاء : ماقذف به السيل والقدر من غثاء وزبد ، وفي القرآن الكريم ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ أي مرميا لابقاء له . والقصد : القول الذي لاوزن له .

(٤) البُذاء : القول الفاحش .

والصمت عنْ ذَلك فَرض واَجب ، إلا أنْ يتكلم العَالم ، والمتُعلم فيه ، بمعنى الحكاية ، أو علَى وجه البَيان لفسَاده ، فإنَّ ذَلك علم خَير ، ومَتَى وَجد الإنسَان منْ يكْفيه ، ويكُون هُو صَامتاً كَان خيراً له .

وكذلك إذا سُئل عن فَتوى مَسألة فليصمت عنها ، ويَدفعها إلى من هُو أعلم بها منه أو لمن كُلف الفَتوى بها ؛ فَذلك طَريقة السلف .

هَذا إذا كَان عَالماً بها ، وأمَّا إذا كَان جَاهلاً فَالصمتُ عَليه واَجب ، لئلا يتكلم بالجَهل ، ويُفَتي بغَير علِم ، فَيضل ، ويَضل ، والصمت زينٌ لَلعَالم ويستُر للجَاهل .

وأمّا أُمور الشرع الدينية فإنَّ العَبد إذَا رأى عَيباً من غَيره فإنَّه مَأمور بسترٌ العَورة وأنْ لاَ يرفع الفَواحش ، ولاَ يطلب المَثالب[1] والعَورات ، وليكُف عَنها ، ويَصمت / عن الكَلام بها ، وإلاَّ كَان من الذين يُذيعون الفَواحش ١١٧/أ ويؤذي النَّاس بلسَانه ، وشَر النَّاس منْ اتَّقَاه الناس مَخَافة لسَانه ؛ إلاّ أنْ يرَى مُنكراً فَواجب عليْه أن يَنهى صَاحبه ، فيتكلم إذ ذَاك ؛ فإنَّ الصَمت هُناك قَبيح ، فإنْ رأى من يُفسد صلاته ، أو طَهارته ، أو تجارته فَلينهه ، والصمتُ عنْ ذَلك إثْم[2] .

وعَلى الجُملة المُختصرة الجَامعة في هذا البَاب فليكن لسَان العَبد عنْده بمنزلة جَارحة منْ جَوارحه كما جَعله اللَّه جارحة من الجوارح .

وليكن كَلام اللسَان عنده عَملاً من الأعْمَال ، كما جَعله اللَّه بالأعمال كُلها يَنقسم قسمين : خير ، وشر .

وكَذلك الكَلام ، فليصمت الإنسَان ، وليكف عَن الشر ، ولاَ يتكلم

(١) المثالب : جمع مثلبة ، وهي العيب .

(٢) الإثم : الذنب .

إلاّ بالخَير كما أُمر أنْ لا يفعل إلاّ خيراً ، ويترك الشر بجَوارحه كُلها .

فإذَا كَان العَبد هكذا كَان حكيماً عَاقلاً ؛ لأن الصمت حكم ، وقليل فَاعله .

وكَذلك الحُكماء قَليل ، وإذَا كَان الإنسَان حَاكمًا للسَانه عن الشر ، مُتكلماً بالخَير صَار ذَلك عَادة له ، فليثقل عَلى اللسَان الكَلام في الشرّ ، والبَاطل ، ويكرهه ، ويَنفر منه ، ويعيا ، ويكل عنه ، فيكون العي عن الكَلام في الشر صفة للسَان ، فَحينئذ يكُون بهذا الوصف الذي قَاله النبيّ عليْه السلام فيه : «الحَياء ، والعِيُّ شُعبتانِ منَ الإيمَان »[1] .

فالعي في اللسَان عنْ الشر ، وفي الجَوارح منْ أكبَر خصَال[2] الإيمَان .

ومن النَّاس مَنْ تَكل جَوارحه عنْ فعل الشر ، وتعيا ، فَلا تَمتد إلى ذَلك ، ولا تَنبسطُ ، وتَرك ذَلك هُو صَمتها ، كما أن عمل الجَوارح هُو نُطقها ؛ فإنَّ الفُقهاء[3] قَد أجمعوا على أنَّ الرجل إذا كَتب لامْرأته بيده أنْت طَالق ، ولمْ يَنطق بلسَانه أنَّ ذَلك كَلام بمنزلة قَوله : «أنْت طَالق » سَواء .

١١٧/ب فَعَلى هَذا يَصْمت العَبد بجَوارحه كُلها ، ويَضْبطها / عن الشر ، وأعظَمهم في ذَلك رُتبةً اللسَان ؛ لأنّه الترجمان ، والمُبين .

وقَد كَان من السلف الفَاضل منْ يَحبس الحُصاة في فيه ، وقاية للسَانه ؛ لعله يَصمت كما تَصمت الجَوارح ، ويكون ذَلك عَادةً لَه .

والأخبار ، والحكَايات في فَضَائل الصمت وآفات الكَلام ، وفضل الكَلام أيضاً في الكُتب أكثر منْ أن تحصى ؛ مَنّ الله عَلينا بما ينفعنا آمين .

(١) سبق تخريجه أول الشعبة .

(٢) خصال : جمع خَصْلَة وهي : خلق في الإنسان يعتاد فعله يكون فضيلة أورذيلة .

(٣) الفقهاء : جمع فقيه وهو : العالم الفطن بأصول الشريعة وأحوالها .

وأمّا المقام الثاني من الصمت في مقام الإيمان فإنَّ أول مَا يَقع عليْه بَصر الإيمَان في الغَيب النَّفس البَاطنة في الجسَد ، وهي مُحادثة إبْليس ، والمُستمعة لَه ، وهُوَ أبداً مُتكلم بأنواع الوسَاوس [١] ، و هَي مُتكلمة بأنواع التّسويل [٢] وضُروب الأماني ، والخَواطر المذمومة ، عَلى اخْتلاف أنْواعها ، ولولا هِي ماتكلم اللسَان بحرف فى الظاهر .

وخَواطرها في ذَلك تَنْقسم على نَوعين ، وإنْ كَثرت : نَوع منها يَتَفكر في مَعصية ، ويتَدبر لهَا كَيْف تكُون ؟ .

ونَوع منها في امتداد الآمَال [٣] الدُنيَاوية ، وتَدبرها ، والخَوض في أودية [٤] كيَف تكُون ؟ ومَا يكُون ؟ بل هي المتُكلمة في النوم ، واليَقظَة والصَّلاة ، والأكل ، والشرب ، وفي كُل حَال ، فَيجب على الإنسَان أن يَصمت عنْ الخَوض في ذَلك والحَديث به ، فإنه زُخرف [٥] غُرور ؛ ألاَ ترَى أنه لا يُكتب للعَبد من صَلاته إلا مَا عَقل مِنها .

هَذا منْ أجل تَحدث النَّفس في الصلاة بخَواطر أغراضها ، فكَما يَمضي باقي الصلاة بَاطلاً ، ولا تُكتب للعبدَ ، كَذلك يَمضي عُمره كله بَاطلاً ، في حين حَديثها في أي نَوع كانت فيه منَ الطاعات التي لاَ يَحضر فيها ، وتَسكتَ عنْ إفْسَادها بِالحَديثً بالعُجب [٦] ، والريَاء [٧] وغَير ذلك ، فافهم .

(١) الوساوس : جمع وسوسة وهي : حديث النفس .

(٢) التسويل : تحبيب الشر إليه وتسهيله وإغرؤه به .

(٣) الآمال : جمع أمل وهو : الرجاء ، وأكثر استعماله فيما يستبعد حصوله .

(٤) أودية : جمع وادي ، وهو : كل متفرج بين الجبال والتلال والآكام وتجمع أيضاً « وديان » .

(٥) زُخْرف : زَخْرَفَ القول : حَسَّنه بتزين الكذب .

(٦) العجب : الكبر والزهو .

(٧) الرياء : أراه أنه متصف بالخير والصلاح على خلاف ما هو عليه .

فإنْ قُلت : وكَيف تَسكت النفس ؟

١١٨/أ فاعلمْ أنّ اللّه جَل جَلاله قَد جَعل فِي مقَام الإيمَان / المؤمنات العظَائم، والأهوال الجسَام مثل الموَت، والقَبر، والحَشر، والنَّشر، والصِّراط، والحَوض، والميزان، والحسَاب، والجنَّة، والنَّار، وَجميع أُمور الآخرة، فإذَا فكر العَبد في المؤُمنات وتكَلم فيها بالفكر في عَالم الغَيب سكنت النَّفس عَنْ تَسويلها وحَديثها بالأمر بالسُوء، وانْصَرفت صَامته عن أُمور الدنيا، والبَشْر إلا فيما يَجب، وصَارت مُفكرة في كَيف يكُون حَالها في المَوت، وشَدائد الأُمة، والقَبر، وأهواله، والنَّار الكُبرى، وأهوال القيامة، وتفكر في أعَمَالها السوء، ومَاهي عليه، فَتلوم نَفسها، وتَنكسر، فَتصير لَوامة بَعد أنْ كَانت أمارة، وذَلك منْ رَحمة اللّه بها، وفي قوله : «إلاَّ مَارحم ربِّي»(١).

ولَولا الرَّحمة بها مَا زالت عنْ الأمر بالسوء أبداً، لأنَّه طَبعها، فَلا شَيء أعون عَلى صمَاتهَا وإسْكانها من النظر بالإيمَان في المؤمنات، وذَلك ليس فيه بُعد مَسافة وإنما هُو من نَظر الإيمَان في المؤمنات، والإنسَان حيث كَان قَائماً، أو جَالسًا، أو مُضطجعاً(٢) يدرُك ذَلك كُله منْ مَقامه، ويرى كَيف يُخاطبه كُل شَيء في الغَيب بلسَان الحَال وهو صَامت.

ألمْ تَسمع إلى قَول المُصطفى عليه السلام حيث قَال : «تَركت فيكم **وَاعظين : نَاطق، وصامت**» فَالنَّاطق القُرآن، والصامت المَوت، فَهذا مُتكلم وهُو صَامت فَيقول لك : أنَا الناقل لك عن هذه الدنيا الفَانية(٣) إلى الدار

---

(١) سورة يوسف الآية (٥٣).

(٢) مضجعاً : واضعاً جنبه على الأرض أو نحو ذلك.

(٣) الفانية : المنتهي وجودها.

البَاقيـة ، وأنَا الـذي أحـول بيْنَك ، وبيْن أهلك [١] وجيَرانك ، وأصحابك ، ومَالك ، ودَارك وبَنيك ، وخَدمك ، ومَرَاكبك ، وجسَدك ، ولا أُراعي شيَئاً من ذَلك ، بل آخُـذك أحببت أو كرهت فاَسْتعد لي ، فإنِّي مُستعد لك ، ألستُ هَادم اللَّذات ومُفرق الجَماعاتَ ، ومُهلك الأَولين ، والآخرين ، ومُبيد كُل جَسد / ذي رَوح من طَير في هَواء ، أوحُوت في بَحر أو وَحش بَري ، وحَيـوان إنْسي ، فَانظَر لنفسكَ ، فَلا تَظن أني أتركك ، ولَو تَركت أحـداً لتَركت الأنْبياَء ، وأهل الكَرامات عَلى اللَّه ، فانْظر لنفسك يا مسكين ، فقد مات سيد الأولين ، والآخرين محمد عليه السلام ، فكيف تطمع بالخُلد ياَ نفساً مسكينة ، بخَواطرك الكَاذبة ، ولَيس في الدنيا من يخلد . ١١٨/ب

وكذلك يُخاطبه القَبر وُهو صَامت : أنَا بيْت الدود أنَا بيْت الغُربة ، أنَا بيْت الوحشة أنَا بيَت الظلمة ، فانْظر مَا أقول لك ، إنْ كَان حَقاً أم لاَ .

ألستَ تَصير فيَّ غَريباً عنْ كُل مَانَقَلك الموت منه إليّ ، ألستَ تَرى ظُلمتي ، كَيف التراب تَحتك ، وفَوقك ، ويَمينك ، وَشمَالك ، ومن كُل جَوانبك ، ألَستَ ترى كيف يَصير جَسَدك قَيحاً [٢] ، وصَديداً [٣] ، ونَتَنًا [٤] ودُوداً ، ألَسَت تَرى وَحْشَتك فيَّ حين أسملك الخَلق كُلهم ، ولـمْ يَشْتَغلوا بك ، ولاَ أقَبلوا عليْكَ ؟ بَل انْصرفواَ ، وتَركوك ، وأسلموها .

ألست تَرى ضَيقي ؟ هَل رَأيت قَط بَيتًا على هذه الصورة ، لاَ تَجد فيَّ أيْنَ تَنصرف يَميناً ولا شمالاً ، وصدقني يا مسكين فإن كُل مَا [٥] قُلت لك

(١) تكررت كلمة « أهلك » مرة أخرى بعد كلمة « ودارك » .

(٢) القيح : إفرازات تنشأ من التهاب الأنسجة بتأثير الجراثيم .

(٣) الصديد : هو القيح الذي يفسد به الجرح .

(٤) النتن : الخبيث الرائحة .

(٥) رسمت في الأصل : « كلما » .

حق، واستعد لي بما يؤنسك فيَّ ، وما يُوَسِّعني عليك ، ومَا يُكرمك فيَّ ، ولا يهينك .

هكذا إلى مالا يُحصى من كلام الحال .

وهكذا تقول لك النَّار في الغيب : قد عظم عَذَابي ، وكثرت آلامي ، فَما أعظم سلاسلي وأغلالي ، وظلمة أهوالي ، وأنكالي[١] و مَا أشد حَرِّي ، وغَضبي ، وما أكره زقومي ، وغسليني ، ومَا أعظم ما أعددت لمن يدخلني ، فانظر لنفسك واطلب النَّجاةَ منيَ .

وكذلك تقول الجنَّة : قد كثر حريري ، وطاب نعيمي ، وجرت مياهي، وأنهاري ، وجلّ عن الوصف قدري ، فطُوبى[٢] لمن حلّ بي ، فانظر يا مسكين أن لا تنصرف / عني . ١١٩/أ

وكذلك الصراط ، وجميع الأهوال[٣] يُخاطبه كل أحد من مقامه بلسان الحال ، بأنواع من الكلام ، وضروب من العلوم المُصمِّتة للنَّفس الأمارة المُسكتة لها ، لو تَتَبعت لكان فيها أسفار من الحكمة .

وإذَا أقبلت النَّفس على ذلك ، وصغت إليه واستمعت له انكسرت عن مُحادثة إبليس ، وصمتَت عن خَواطرها المذمومة ، ورَجَعت تتكَلم باللائمة على نفسها ، كيف يكون حالي في تلك الأهوال العظام مع ضعفي ، وقَلة حيلتي ؟ ثمَّ ترجع إلى ربِّها فتسأل منه الرحمة ، وتُحسن التَّوبة ، فحينئذ يكون لها وصف من الأوصاف المَحمودة ، فإن رجعت إلى الحديث في أُمور دُنياها ، وتكلمت في ذلك بالفكر فيما لابد منه ، وهي مُنكسرة فيكون

---

(١) الأنكال : جمع نكل ، وهو : القيد . وفي القرآن الكريم : ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ .

(٢) الطوبى : الحسنى والخير ، وفي القرآن الكريم ﴿ فَطُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب ﴾ .

(٣) الأهوال : جمع هول : وهو : الأمر الشديد .

حديثها طاعة إذا كان مُعيناً للآخرة .

وهذا حال العبد في مقام الإيمان ، ومُشاهدة المُؤمنات المُغيبات المُسكتة عن الفِكر في المحظورات ، والأماني[1] الكَاذبة المَسؤولات .

فصل

وأمَّا المقام الثالث من الصمت والعيُّ في مقام الإحسان فإنَّه إذا نظر العبد في مقام المُشاهدة وشاهد العقلَ ، والسِّر فرّق مابين قَدر الخلق والخالق ، وشرف البارىء سُبحانه وفضله على سائر المخلوقات أمحت[2] الأذكار سوى ذكره ، وصمتت الأسرار عن ذكر شرف سواه مع ذكر شرفه .

وقال الله تعالى :

﴿ لَقَد أَنزَلنَا إِلَيكُم كِتَابًا فِيهِ ذِكرُكُم ﴾[3] أي شرفكم ، فإذا لاح شرفُ قدر البارىء للعقول لم يذكر قدراً مع قدره ، ولا شرفًا مع شرفه ، وامتلأ السرّ بذكره ، وصمت عن ذكر ما سواه ، ونسي باستيلاء تعظيم ذكره ذكر سوَاه ، وربَّما ارتفعت همَمُ أقوام في هذا المقام عن ذكر الذكر غيره / أن يذَكر ١١٩/ب
مع المذكور الشريف القَدر سواه ، فَيَغيب عن ذكر الذكر في الذكر شغلاً بالمذكور الأجلّ ، والشريف الأرفع جَلَ جلاله ، وتعالى عَلاؤه ، وَشأنه .

وفي هذا المقَام كان عليّ رضي الله عنه يَصفرُّ وجهه عند الوضوء ؛ لأنَّه كان يأخذ في التأهب للدُخول على المذكور العظيم في مقام الإحسان

---

(١) الأماني : جمع أُمْنيَة كل ما يتمناه الإنسان .

(٢) أمحث : أذهبت بذكره أثر ذكر غيره .

(٣) سورة الأنبياء الآية (١٠) .

عند الصلاة ، ألا تسمعه يقول : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ثم قال : وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾[١] أي في الصلاة أكبر من الصلاة ، وغيرها .

وهكذا في جميع أنواع الطاعات ، صلاة أو غيرها ألا ترى إلى قول الصديق رضي الله عنه :

من ذاق شيئًا من خالص محبة الله أنساه ذلك ما سواه .

هذا لأن ذكر جمال الله أصمت عن ذكر ما سواه من جميل ، وغيره ؛ أو لا ترى إلى حال عُثمان رضي الله عنه في مقام الإحسان ، وحُضوره فيه كيف يستحي ، ويَنقَبض حتى لا يرفع طرفه .

أولا ترى إلى مقام عُمر رضي الله عنه وهجيراه[٢] ، الله أكبر ، حين كبر قدر الله عنده ، فكان يشاهد الأشياء صغيرة في جنب كبرياء الله ، فكان يقول : الله أكبر .

أولا تسمع إلى قول النبي عليه السلام للصحابة حين نسي آية من الفُرقان فسألهم عنها فلم يُجيبوه فقال : « **أفيكم أُبي ؟** » إلى قوله له : « **ما بال أقوامٌ يُتلى عليهم كِتاب ربِّهم إلى قوله هَكذا خرجت عظمة الله من قلوب بني إسرائيل** »[٣] .

إنَّما جراء هذا كله من أجل أنَّ الأسرار لم تصمت في مقام الحضور الذي هو الإحسان ، ولا أنصت في موضع الإنصات ، وإن كانت الألسن قد أنصتت فلم ينفع ذلك الإنصات شيئًا إذ المعول على إنصات السر إلى كلام الرحمن .

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٥).

(٢) الهجيري : الدأب والعادة .

(٣) أحمد بنحوه في المسند (٥/ ٣٦٣) .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا ﴾[١] . ١٠٩/أ

وقد وصل الأمر في هذا الصمت الرُّوحاني الباطن بالصديقين إلى حد عظيم ، وعدّوه من أكبر الأشياء عليهم مثل الحديث الصحيح الذي ورد في الصحابي حين رأى الطائر الدّبسي في الصلاة فتصدق بالحائط[٢] كفارة لذلك الفكر .

وكذلك فعل عبد الرحمن بن عوف ، تحدثت نفسه في صلاة الليل بأمور التجارة التي كان أرسل بها إلى الشام فاشتغل حتى لم يدر ما كان فيه ، فتصدق بالعير كلها ، وأحمالها ، وبضائعها ، فكان ذلك آلافًا كثيرة .

فانظر هذا الصمت كيف هُو عند الرجال الأكابر .

وقد ورد في الصحيح في هذا المعنى كثير ، من ذلك حديث ما يقطع الصلاة ، فورد أنَّ رسول الله ﷺ قال : « **إذا صلى أحدكم إلى غير سترة فإنه يقطع صلاته المرأة ، والحائض**[٣] **، والكلب** »[٤] ، وفي رواية أخرى : « **الحمار، والخنزير ، واليهودي ، والمجُوسي ، والمرأة** » .

وورد أنَّه لا يقطع الصلاة شيء ، والمار هو الخاطر ، وقد نُسخ ، وتُرك العمل بقطع الصلاة في الظاهر بالحديث الآخر الذي قال فيه : « **لا يقطع الصلاة شيء** »[٥] .

وبقي حُكم الآخر في الباطن عند الراسخين[٦] في علم الناسخ ،

---

(١) سورة الأعراف الآية (٢٠٤) . (٢) الحائط : البستان .

(٣) المرأة الحائض : التي سال حيضها وبلغت سن المحيض .

(٤) صحيح : الترمذي (٧٠٤) .

(٥) أحمد (١/ ١٣٨) ، الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٩٣) ، البيهقي (٢/ ٢٧٥) .

(٦) الراسخين : جمع راسخ : وهو الذي ثبت العلم في قلبه وتمكن منه ولم تعرض له فيه شُبهة .

والمنسوخ ؛ فإن المار كما تقدم هو الخاطر ، والخاطر الذي يخطر في حين الصلاة في باطن العبد بالحديث في المرأة التي هي الإنسانية ، والمرأة الدنياوية ، والخاطر الذي يكون في الكلب الحرص ، والخاطر الحماري الذي قام بالإقام على غير الله في الصلاة الجاهل[١] بالمقام الذي هو فيه ، أو الخاطر الشبق[٢] الخنزيري في الجماع في تلك الحال ، أو الخاطر المجوسي الذي يُولد العجب في الصلاة برؤية الأفعال ، واستحسانها من النَّفس .

كما ورد أنَّ القدرية مجوس[٣] هذه الأمة ، وإنَّما كانوا مجوسًا بإضافة الأفعال إلى أنفسهم .

والحديث مع هذه الخواطر كُلها ، وترك الصمت عنها بقطع الصلاة بلا خلاف عند الجميع ، أعني أنَّه لا يُكتب له منها ما قطعت هذه الخواطر منها ، فلا يكتب له إلا عُشرها ، تُسعها ، ثُمنها ، الحديث إلى آخره .

وإنَّما يُكتب له منها ما حضر فيها مع الله ، ولذلك تُجبر الصلوات بالتَّطوع إذا كانت ناقصة هذا النقصان ، وغيره .

فالصمت في مقام الإحسان عن الحديث مع غير الله من أوجب الواجبات .

والتوبة ، والاستغفار من ترك الصمت فيه من أوجب الواجبات ، وقتاله ودرؤه[٤] واجب ، كما ورد في الحديث : « **فَلْيُقَاتله ؛ فإنّه شيطان** » .

ولكل حديث ظاهر ، وباطن كما للآيات ، فإن نسخ الحديث ظاهراً

---

(١) الجاهل : الذي لا يعرف ويتسافه .

(٢) الشبق : اشتداد الشهوة .

(٣) المجوس : قوم كانوا يعبدون الشمس والقمر والنار .

(٤) درؤه : دفعه وصده .

بقي حُكمه بَاطنًا ؛ فإنَّ الباطن مُحكم كُله .

واعلم أن قلة الصمت من العباد في هذا المقام ، إنَّما هو من قلة العلم بالله ، وقلة الحياء منه ، فنقصت الخشية بقلة العلم ، فبقيت النَّفس حيّة ، فإذا ذكر القلب ، والسِّر الله تحدثت النَّفس مع خواطرها ، وأقبلت على غيره .

ولو كان السر عالمًا بقدر شرف المذكور الذي هو قائم بين يديه ، وحاضر معه ، لاستحى أن يتحدث مع غيره[١] ، وصمت بالأدب بين يديه كما يصمت بين يدي ملك من ملوك الدنيا حياءً منه ، وخشية ، كما يصنع أهل الخشية ، والحياء مع الله في مقام الحضور الإحساني .

فقد ورد في الخبر : « **ما تجلى الله لشيء إلا خشع له** » .

وقد ورد في صفة قوم في الآثار وُصفوا فيها بالخشية ، والصمت في هذا المقام فقال في بعضها : « **إنَّهم قوم اسكتتهم خشية الله وإنَّهم هُم الفُصحاء[٢] البُلغاء** » وهؤلاء هُم الذين اتصفوا بالعي بين يدي مَليكهم ، فَتَعايا ألسنتهم ، وجميعهم / بالأدب إنصاتًا للحكيم العليم ، وإسمَاعًا له . ١٢١/أ

وكذلك أحوالهم في جميع المقامات ، ألم تسمع إلى وصف النَّبي

---

(١) « يناسب هذا المقام قول سيدي أحمد الرفاعي -رحمه الله - [هكذا بالأصل وإلا فالرفاعي من أقطاب التصوف المشهور عنهم الابتداع والبعد عن سبيل السنة فتنبه !!] أقل ما في الكلام سقوط هيبة الرب من القلب ، فاعتبره تجده موافقاً للمقامات الثلاثة أعني مقام الإسلام بصمت اللسان والجوارح ، و مقام الإيمان بصمت النفس ، ومقام الإحسان بصمت [. . .] الواحد الغفار ، فتأمل ذلك ، وتحققه تكن من الأبرار ، وتظهر لك الأسرار أفاض الله علينا الأنوار » كذا وجد التعليق على حاشية الأصل ، وقد سقطت بعض الكلمات من كلام المعلق .

(٢) الفصحاء : جمع فصيح ، وهو : من يحسن البيان ويميز جيد الكلام من رديئه ، ولسان فصيح طلق يعين صاحبه على إجادة التعبير .

عليه السلام للمُحب[١] في مقام الحُب : « حُبكَ الشَّيء يُعْمِي ويُصِمُّ »[٢] .

وهذا هو وصف الصَّامت بالحقيقة ؛ لأنَّه إذا أقبل على مَحْبُوبه ، ولم يسمع إلى سواه ، فقد صمتَ عن الحديث مع غيره .

ولعل مُعترضًا يعترض فيقول : إنَّ النَّبي عليه السلام كان يسهو في الصلاة في هذا المقام وينَسى ؛ ليَسُن ، فَشَتَان[٣] ما بين الحالتين ، ونسيان النبي إنَّما كان حُضوراً ؛ لأنَّ قرّة عينه كانت في الصلاة ، فقد يكون النِّسيان لأركان الصلاة ، وهَيئتها من كثرة الحُضور مع الله ، والإقبال على كلامه ، والتَّفهم .

وقد وصل كثير من التابعين ، والمُتأخرين في هذا المقام إلى حَدٍّ عظيم من النسيان للخلق ، فكيف بالمُصطفى عليه السلام الذي لا يقربه شيطان ولا يحضره ، ولا يحضر مكانًا فيه شيطان .

ولقد كان الشَّيْطَانُ يفرق من ظل عُمر ، ويخَافه ، ويسلك فجًا[٤] غير

---

(١) في الأصل : «وصف النبي عليه السلام للمحب» .

(٢) قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة حديث (٣٨١) : أبو داود ، والعسكري من حديث بقية بن الوليد عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم ، عن خالد بن محمد الثقفي ، عن بلال بن أبي الدرداء عن أبيه به مرفوعاً .

ولم ينفرد به بقية ، فقد تابعه أبو حيوة شريح بن يزيد ، ومحمد بن حرب كما عند العسكري ويحيى الباتلي كما عند القضاعي في مسنده ، وعصام بن خالد ، ومحمد بن مصعب ، كما عند أحمد في مسنده ، وابن مريم ضعيف لاسيما وقد رواه أحمد عن أبي اليمان عن ابن أبي مريم فوقفه ، والأول أكثر ، وقد بالغ الصغاني فحكم عليه بالوضع وكذا تعقبه العراقي ، وقال : إن ابن أبي مريم لم يتهمه أحد بكذب ، إنما سرق له حلي فأنكر عقله ، وقد ضعفه غير واحد ، ويكفينا سكوت أبي داود عليه ، فليس بموضوع ، بل ولا شديد الضعف ، فهو حسن اهـ . وهو عند أبي داود (٥١٣٠) ، وأحمد (١٩٤/٥) .

(٣) شتان : أي بَعُد وعَظُم الفرق بينهما .

(٤) الفج : الطريق الواسع البعيد .

فجه إذا رآه ، فكيف بالنَّبي عليه السلام ؟ .

فالحضور في مَقَام الإحْسَان في صلاة أو غيرها لا تصح إلا بالصَّمْت الروحاني ، وقطع الأصواتَ الخفَية ؛ لأنَّ الأصوات مُشوشة[1] مُشتَغلة ، وحينئذ إذا انقطعت فيكون متى نظر إلى الوجود كله رآه صامتًا بين يدي مليكَه ، لا يُقبل على أحد بالكلام معه ، لا ينطق إلا بلسان الحال الذي هُو أفصح من لسان المقال ، ولسان الحال صاحبه صامت ، لا يتكلم بلسان المقال ، إلا مع مُكلِّمه إذا أمره سُبحانه ، وإذا أنطقه .

فكذلك ينبغي أن يكون العبد في مقام الإحسان واحدًا من تلك المخلوقات الصامتة ، فمتى التفت إلى مخلوقٍ منها إلى جانبه أو أي مكان نظر ظاهرًا ، وباطنًا/ رآه صامتًا . ١٢١/ب

وقال له ، صمته بلسان الحال : اصْمُتْ كصمتي بين يدي مليكك ، فهناك ناطقته البَرايا[2] كلها ، وهي صامتة فعلمته ، وتأدب بها ، وكان كأحدها ، وحصل له مقام الصمت الدائم ، فاستوى عنده الحضر ، والبادية ، والخلاء ، والملأ ؛ لأنَّه لا يجد في العالم موضعًا ليس فيه مخلوق ، ولا يجد موضعًا خاليًا من الخلق بوجه ، ولا مَغرز إبرة ؛ فإن الهَواء أعظم المخلوقات الذي يَتوهَمه النَّاس خلاءً .

والمخلوقات كُلها كما تقدم صامتة ، مُتكلمة بلسان الحال للنَّاظر فيها ، مُعلمة له الصمت ، فلا يرى خلقًا إلا هكذا ، ولا يرى في كل شيء إلا الله بالدلالات[3] عليه ، ولا يسمع إلا التنبيه عليه ، والإشارة بالأدب ،

---

(١) مشوشة : مختلطة متلبسة عليه لا يستطيع أن يميز أحدهما على الأخرى .

(٢) البرايا : حثالة القوم .

(٣) الدلالات : جمع دلالة ، وهي ماجعل للدليل ، أو الدلالة من أجله .

والصَّمْتُ بين يَدَيْه ولا يرى إلا المُسبحين له بلسان الحال ، الذاكرين له ، الساجدين له ، القانتين[١] ، الخاشعين الصامتين بالهيبة ، فلو وقع بصره على ما وقع في هذا المقام في أي مكان لم ير إلا حاضرًا مُتعبدًا له بالأحوال الشريفة ، مُتأدبًا بالصمت في مقام الحُضور .

وقد عبَّر سهل بن عبد الله فقال - رضي الله عنه - عن حاله الكريمة في هذا المقام ؛ فإنَّه كان إمامًا عظيمًا ، وصدِّيقًا عليمًا ، نفعنا الله في الدنيا ، والآخرة بِحبه ، وحُب أمثاله آمين ، فقال - رضي الله عنه - : إن لي أربعين سنةَ أكلم الله ، والناس يظنون أنِّي أُكلمهم .

وإنَّما كان هذا ؛ لأنه تحقق في مقام الصمت وثبت فيه ، ورسخت قدمه فيه ، فلم يزل عنه ، نسأل الله الكريم أن يُلحقنا بعباده الصالحين ، ولا يجعل حظنا من أوصافهم وصفِهم ، آمين وصلى الله على محمد وآله وسلم[٢] .

---

(١) القانتين : المطيعين لله والخاضعين المقرين له بالعبودية ، وفي القرآن الكريم ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ والمطيلين القيام في الصلاة والدعاء .

(٢) بلغ مقابلة : كذا على حاشية الأصل .

الشُعبة السادسة والعِشرُون
الغَيرَة

أمَّا كَوْنهُا من الإيمان فقد روى أبو هُرَيْرَة أنَّ رسول اللهﷺ / قال : « إنَّ اللَّه تَعَالى يَغار ، وإنَّ المُؤمن يُغار » (١) . ١٢٢/أ

فنسب الغيرة إلى الإيمان بقوله : « إنَّ المُؤمن يَغار » .

وروى مُسلم ، والبخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «استمعوا ما يقول سيدكم » يعني سعد بن عبادة - قالها للأنصار في قصة ذكرها سعد فيمن وجد مع امرأته رجلاً « إنَّه لغيورٌ وأنا أغير منه ، والله أغير مِني » (٢) .

فجعل الغيرة من صفات الله ، وصفات رسوله ، وصفات المؤمنين ، والأخبار فيها كثيرة .

واعلم أنَّ الغيرة على معنيين : ظاهر ، وباطن .

فأما الظاهر منها فالغيرة على الحريم ، وهي على نوعين : محمود ، ومذموم .

فالمحمود فيها الغيرة في الريبة(٣) وسَد الذَّرَائِع (٤) الموجبة للريبة ، فإنَّ

(١) صحيح :البخاري (٧/ ٤٥) مسلم في صحيحه كتاب التوبة (٣٦) ،الترمذي (١/ ١١٦) .

(٢) صحيح : البخاري كتاب النكاح (١٠٧)مسلم في كتاب اللعان (١٦/ ١٧) أحمد (١٤/ ٢٤٨).

(٣) الريبة : الظن والشك والتهمة .

(٤) الذرائع : جمع ذريعة ، وهي : الوسيلة والسبب إلى الشيء .

ذلك يؤدي إلى العفّة عن المحرمات ، ولذلك ورد في الديوث[1] من الشدّة ما ورد لفقد الغيرة منه .

وتفسير معنى الغَيْرة هو كراهةُ مُشاركة الغَير .

وأمَّا المذموم منها فالغيرة في ريبة .

ومن النَّاس من يقوى فيه هذا حتى يكون بلاءً على أهله ، ويُلمهم ما لم يكن أهله يعرفوه .

روى جابر بن عتيك أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول : « **من الغيرة ما يُحب الله ، ومنها ما يَبغض الله ، فأمَّا الغَيرة التي يُحبها الله فالغيرة في الريبة ، وأمَّا التي يَبغضها الله فالغيرة في غير ريبة** »[2] .

والفرق بين الغيرة المذمومة ، والمحمودة أنَّ المحمود حفظ الحريم عن أسباب التبهرج[3] والخروج بالثِّياب المُزينة إلى المواضع التي فَيها يُنظر إلى المرأة ، فتميل النُّفوس إليها ، وتميل هي بتزينها ، وتطيبها ، ومشيها ، هذه كُلها أسباب مذمومة ، والمنع من هذا حسنٌ محمود .

وورد في وصفهن في الحديث : « **نساء كاسيات عاريات ، مائلات مُميلات ، لاَيَدْخُلن الجنَّة ، ولا يَجدْن ريحها ، وإنَّ ريحها ليُوجد من مسيرة / خمسمائة عام** »[4] . ١٢٢/ب

ومن أجل ذلك حُرِّم الحمّام على المرأة إلا لمريضةٍ ، أو نفساء[5] ؛ لأنَّها

(١) الديوث : من لايغار على أهله من الرجال .

(٢) كنز العمال (٣/ ٧٠٦٧) .

(٣) التبهرج : الباطل الرديء من الشيء ، يقال درهم بهرج .

(٤) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب اللباس (١٢٥) ، وكتاب الجنة باب (١٣) رقم (٥٢) .

(٥) نفست المرأة نفاسًا : فهي نفساء ـ أي ولدت ـ .

تهتك سترها بانكشافها في غير منزلها .

وأمَّا إذا خرجت المرأة فيما لابُد لها منه من حوائجها مُبتذلة ، مُختصرة الثياب مُختفية في مشيها فقد أباح الشرع ذلك .

روت عائشة - رضي الله عنها - قالت : خرجت سودة زوج النبي ﷺ بعدما ضُرب علينا الحجَاب لحَاجتها ، وكانت امرأة جسيمة ، تفرع النساء طولاً ، لا تخفى على مَن يعرفها ، فرآها عُمر بن الخطاب - رضي الله عنه- فقال : يا سودة أما والله ما تخفي علينا فانظري كيف تخرجين ؟ .

قالت : فانكفأت راجعةً ، ورسول اللّه في بيتي ، وإنَّه ليتعشى ، وفي يده عرق فدخلت فقالت : يا رسُول الله إني خَرجت لبعض حَاجتي فقال لي عُمر : كذا كذا قالت : فأوحى إليه ثمَّ رفع عنه ، وإنَّ العرقَ في يده ، ما وضعه فقال : « إنه قد أُذن لكن أن تخرجن لحَاجتكن »[(١)] .

وفي الحديث : « نِعم النِّساء نِساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين »[(٢)] .

وقد أُذن للمرأة أن تسأل عن دينها إذا لم يكن من يُغنيها ، وأُبيح لهُنَّ الخروج إلى الصلاة في المساجد ، وإلى المصلَّى في الأعْيَاد ، ولكن على شرط ما وصفه الله في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبي قُل لأزواَجكَ وَبَنَاتكَ وَنسَاءِ الْمُؤمِنينَ يُدنِينَ عَلَيهِنَّ من جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلكَ أدنَى أَن يُعرفنَ فَلاَ يُؤذَينَ ﴾[(٣)] .

---

(١) صحيح : البخاري (٦/ ١٥٠) مسلم في صحيحه كتاب السلام (١٧) .

(٢) البيهقي في السنن (١/ ١٨٠) .

(٣) سورة الأحزاب الآية (٥٩) .

فأمرهن بالتّستر بالجَلاَبيب[(١)] ، وأن لا يعـرضن بأنفـسـهن ، لأن يُعرفن، والله يعلَم المُفسد من المُصَلح .

وقالت عائشة - رضي الله عنها - : يرحم الله نساء المُهاجرات الأولى لما نزلت :

﴿ وليَضرِبنَ بِخُمرِهن[(٢)] عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ [(٣)] شَقَقن مُروطهن فاحتزمن بها .

وقالت : أخذن أُزرهن[(٤)] فشققنها من قِبل الحواش ، فاحتزمن بها .

١/١٢٣ وأمّا / الباطن فعلى ضربين : ضرب في مقام الإيمان ، وضرب في مقام الإحسان .

فأمّا الضرب الأول : في مقام الإيمان وعالم النَّفس فإنَّ النَّفس الأمارة بالسُّوء مُؤنثة ، مطبوعة على أكثر معاني النساء وإذا لم يكن لها عقل زاجر طلبت التَّبرج بمحاسنها ، والتَّزين بصفاتها ، وأفعالها ، والركون إلى إبليس قرينها ، فاصطحبت معه ، وقبلت وحيه ، فكانت عيبة سرّه وقعدن وحيه كالمرأة السوء التي لا يقدر زوجها على حبسها إن كان قليل الغيرة ، وكانت أقوى منه ، فتكون هذ المالكة له ، تفعل ما تَهْوى ، وهُو المملوك ؛ يجري في أغراضها ، ولا يقدر على ردها .

---

(١) الجلابيب : جمع جلباب ، وهو : الثوب المشتمل على الجسد كله ، والملاَءة تشتمل بها المرأة، وفي القرآن الكريم : ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ﴾ .

(٢) الخمر : جمع خمار ، وهو : كل ماستر ،ومنه خمار المرأة وهو ثوب تغطى به رأسها ، ويجمع أيضاً « أخمرة » .

(٣) سورة النور الآية (٣١) .

(٤) الأزر : جمع إزار وهو : ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن .

وهذه صفة النُّفوس الرَّديئة[١] الغَالبة للعُقول ، الضعيفة ، وقد نبّه النَّبي عليه السلام على هذا المعنى في قوله : « **الهوى والشهوة يغلبان العقل ، والعِلْم ، والبيان** »[٢] .

فأهل القوة ، العارفون بركاكة النُّفوس غارت عقولهم لله على نفوسهم ، فملكتها العُقول بزمام القهر ، وساستها[٣] بسياسة الحفظ ، فكانت النفوس مملوكة ، والعقول مالكة ، قائمة عليها بما أمر الشرع القيام به .

قال الله تعالى : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾[٤] .

وقد ورد في الخبر عن النبي عليه السلام في شرف العقل ما يؤدي هذا المعنى فقال في خبر فيه طُول ، يذكر فيه شرف العقل : « **لكُل قوم راعٍ ، ورَاعي العَابدين العقل ، ولِكُل أَهْل بيت قَيم**[٥] **، وقَيم بُيوت الصدِّيقين العَقلُ** » .

فهذه رعاية باطنة للنُّفوس ، وأذواتها ، وبيوت غائبة تحفظها العُقول برعَايتها ؛ لأنَّ قوله عليه السلام : « **لِكُل قَوم راعٍ** » قد عم به الرِّعاية الجُسمانية كُلها في حق كُل أحد ، وقوله : « **لكل أهل بيت قَيم** »عام أيضًا في البيوت الظاهرة كُلها ، التي تسكنها الأجساد فإذا غار العقل لله تعالى على نفسه ، وحمل النَّفس على ما أمر به كانت / النَّفس صالحة ، قانتة ، حافظة ١٢٣/ب للغيب ؛ لأنَّها ساكنة في الغيب بما حفظ الله ، فلم يصدر منها فعل إلا بما

---

(١) الرديئة : الفاسدة الخسيسة .

(٢) بنحوه ابن عدي (١/ ٢٠٠) .

(٣) ساس : تولى رياستها وقيادتها ، و دبر أمورها وقام بإصلاحها .

(٤) سورة النساء الآية (٣٤) .

(٥) القَيم : من يقوم بالأمر ويسوسه .

يُحب الله .

وتقوى هذه الغيرة في العارفين ، وتتحكم هذه الرِّعاية فيهم ، فَمنهم من يغار أن يُخرج نفس من أنفاسه لغير الله تعالى ، أو لغير ذكر الله ؛ لأَنَّه ورد في الخبر : « « ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا اللَّه فيه ، ولم يُصلوا على النَّبي ﷺ إلاَّ كان عليهم[(١)] حسرة يوم القيامة »[(٢)] .

فكيف إذا كانت في معاصي اللَّه ؟ .

فأهل العقل غاروا على أعمارهم أن تمضي ضائعة في غير طاعة الله ، أو خالية من ذكر الله ، فيخسرون ما لا درك له ، ولا خلف منه ، وهذه غيرة يا لها من غيرة ، لا تُوجد إلاّ في الذكور من الرِّجال ، وفيهم تحققت صفات الرُّجولية ، كما أثنى الله عليهم بها في قوله :

﴿ رِجالٌ [(٣)] لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الأَبْصَارُ ﴾ [(٤)] .

وقد أثنى عليهم أيْضًا بالرُّجولية في آية أخرى فقال : ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [(٥)] إلى آخر المعنى .

ولعمري إنَّ الرجل لتَشيب عَارضاه ، ومَا يستحق الثَّناء بالرُّجولية لظهور النَّفس عليْهم ، وقلة الرُّوحانية العَقلية فيهم .

---

(١) الحسرة : شدة التلهف والحُزن ، وفي القرآن الكريم : ﴿يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ الله﴾ .

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٧٩) وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٣) « رجال وأي رجال » كذا وجدت على الحاشية بالأصل .

(٤) سورة النور الآية (٣٧) .

(٥) سورة الأحزاب الآية (٢٤) .

اللّهم فَهمنا عنْك ، ووفقنَا للعَمل بأكرم الأكرمين .

وأمّا الضرب الآخر في البَاطن من الغَيرة في مقَام الإحسَان فهو مقَام منْ المعَـرفـة يَغَـارون عليْـه منه ، وهُو مـقَـام شَـريف ، لا يَتكلم فـيـه إلاّ الصِّديقـون ، والمقُـربون ، ومنْ ذَلك قَـول أبي يزيد البَسْطَامي - رضي اللّه عنْه- حين قَال لَه يحيى بن معاذ (١) : هَل لا سَألته المعَرفَة به فَقـال لَه : وَيحك : غـرتُ عليْـه من أنْ يعـرفة سواه ، وغَيـر ذَلك من الأَحـوال التي لاَ يَصلح كَشَفها منْ أسَـرار المعرفة الَتي أُمر بصِيَانتـها ، وسَترْها في مقـام الإحْسَان / عن جَميع الحُدثان . ١/١٢٤

ومنْ ذَلك مقام الصديقين من كتمان السرائر عن غير أهلها وهو المكنون وهؤلاء المتكلمون [. . .](٢) هم أهل الكشوفات والكرامات كما قال بعض أهل المعـرفـة لا يطلع على سـرائر الملك إلا الأمين لأن كشفـهـا لغـيـر أهلهـا إضاعة ، فالغيرة عليها وصيانتها كصفات الحريم من صفات الرجولة وأهلها من قـرب مقـامـاتهم أو كـان منهم ، فكمـا أباح الشَّرْعُ رُؤْيةَ القـرابة بعضـهـم لبعض ولاَ يحل ستر الحَريم عنْهم كَالأخ مَع أُخته وأُمه ، وبنْته ، والعَم ، وغَير ذَلك .

فكَذلك أَيْضًا هَذه القَرابة الأُخْرَى ، وقَد أمر النبي عليْه السلام بهَذا في قوله : «ولاَ تُؤتوا الحكمَة غَيـر أَهْلها فَتَظْلموها ، ولاَ تمنعُوها أَهْلهَـا فَتَظلموهم»؛ لأن للصدّيقين مع اللّه أسرار وكُشوفات ، لاَ تَحْتملها عُقول أكثر الخَلق .

---

(١) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ الزاهد المتوفى سنة (٢٥٨) ، قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٥) : من كبار المشايخ له كلام جيد ومواعظ مشهورة ، وعنه قال : « لست أبكي على نفسي إن ماتت ، إنما أبكي على حاجتي إن فاتت » .

(٢) سقطت الكلمة مكان النقط من الأصل .

كما قال النبي عليه السلام : «لاتُحدثوا النَّاس بِمَا لاَ تُدركه عُقولهم ؛ أَتُحبون أنْ يُكذَّب اللَّه ورسُوله ؟» .

وذكر بَعض منْ يَنْتمي (١) إلى المَحبة مَقامًا منها عند بَعض الأشْياخ فقال له بعد كَلام طَويل : هل رَأيته في لَيْلة مَرتين ، وثَلاثاً ؟ فقال : لا ، فقال : لولا أني أستحي لأخْبَرتك أنَّ مَحبتك مَعْلولة (٢) تَهتم بسوَى حبيبك ، ولاَ تَراه في ليلك ، ثمَّ قَال : لكني لاَ أدّعي مَحبته ، وعَلى ذَلك مَا اهتممت بِسواه مُنذ عَرفته ، وربَّما رَأيته في ليلة سَبع مرات .

وقال بَعضُ الأبْدَال (٣) : رأيت اللَّه مائة وعشرين مَرة ، وسألته عنْ سَبعين مَسألة أظْهرت منهاَ أربعة فأنكرها النَّاس عَليّ فأخفيت البَاقي .

فلأجل هَذا كَانت غيرة أهل الكَمال ، وبُخلهم بالأسرار لئلا تَظهر للأجَانب ، لاَ عَلى الأهل لها ، والأقَارب .

واعلمْ أنَّ الولى منَ العَامة هُو الحَريص على أخبار الأولياء ، الذين إذَا سَمع حَقاً لهم لمْ يُنكره ولاَ يَعترض عليْه / بقَول ، ولاَ عقد بل يحرص ١٢٤/ب
عليْه ، وتَموت نَفسه شَوقاً بالكمد إليْه (٤) .

والوَلى منَ الخَاصة الذي يُفيد ، ويَستَفيد ويَجد فِي أحْواله ، وعُلوماته ، وكَرامته الزِّيادة ، والمزيد .

اللهم ارزقنَا حُبك ، وحُبهم ، وأعْطنا ممَّا أعطيتهم يَا كَريم .

وأمّا غَيرَة البَارئ سبُحانه فقد فسرها النبي عليْه السلام في قوله : « إن

(١) ينتمي : ينسب .

(٢) معلولة : أي مريضة .

(٣) الأبدال : عند الصوفية إحدى طبقاتها ، يزعمون أنه إذا ذهب بدل من الأبدال حل مكانه آخر .

(٤) الكمد : كَمد الشيء - كمَدًا ، تغير لونه ، والرجل : كتم حزنه أو حزن حزناً شديداً فهو كامد .

اللَّه تَبارك وتَعالى يغَار [١] ،وغَيرة اللَّه أَلاَّ يَأتي المُؤمن مَاحَرم اللَّه عليْه » .

ومنْ غَيرة الحق سُبحانه حجَابه الأجانب ، والأباعد [٢] عنْ مَواطن القُرب منه ، قال اللَّه تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُوراً﴾ [٣] .

قال سري السقطي : هَذا حجَاب الغَيرة فلا أحد أغير من اللَّه ومنْ غَيرة الحق علي الأكابر أنَّهم إذَا سَاكنوا شَيئاً سواه ، أو لاَحَظُوا غَيره شَوش عليْهم ، وامتَحَنهم حتى يُصفى أسرَارهم له ، كَما فَعل بيُوسُف عليْه السَلام حين قَال ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [٤] -أي عنْد مَلك مصر- فَلبث في السجن بضع [٥] سنين منْ أجل ذلك .

وآدم عليْه السلام لما وطئت نَفسه عَلى الخُلود في الجنَّة ، والطمأنينة بها أُخرج منها .

وإبْراهيم عليْه السلام لمّا أعجبه إسْماعيل ابنه أُمرَ بذَبحه .

وقال بعض المشايخ : رَأيت بَعض الأوليَاء بفَرد عيْن ، فَسألته فقال : نَظرت مَرة إلى شَاب نظرة بعَيني ، فإذا كف من الهَوى قَد لطمني فطارت عَيْني كما ترى ، فَسَمعت صوتًا يَقُول : لَطمة بنَظرة ، وإنْ زدت زدْنَاك .

---

(١) صحيح : سبق تخريجه .

(٢) الأباعد : جمع الأبعد ، وهي كلمة يكنى بها عن الاسم حين الذم ، يقال : أهلك الله الأبعد .

(٣) سورة الإسراء الآية (٤٥) .

(٤) سورة يوسف الآية (٤٢) .

(٥) بضع : في العدد : من ثلاثة إلى تسعة ، فتقول بضعة عشر رجلاً ، وبضع عشرة امرأة، وكذلك، يُستعمل مع العقود فتقول : بضعة وعشرون رجلاً ، وبضع وعشرون امرأة ، ولايُستعمل مع المائة ، ولا مع الألف .

وإنَّما هَذا من أجل كبر أقدَارهم عنده ، ولَو أنَّ أقرب النَّاس إليْك ، وأحبهم عنْدك منْ ولد صَغير ، أو مَا أشبهه رَأيته يَفعل بنَفسه فعلاً يَضره ، ويُهلكه لغَارت نَفْسُك عليه ، وضَربته ، وأغْلظَت لَه في القَولَ ؛ لأنَّه يعزّ عليْك هَلاكه ، وضُره .

١/١٢٥ فمَا لنَا نَغار على أنْفُسنا التي هي أعزّ الأشياء / علينا ، ونَمنعها منْ مَواطن الهَلاك الأبدى [١] مَا هَذا إلاَّ منْ ضَعف غَيرة الإيمَان فينا ، وقلتها عنْدنا .

والغَيرة إذَا اعتبرتَها وجدتها عَامة في جَميع العَوالم ، ومقَامات الإسْلام ، والإيمَان ، والإحسَان كُلها ، وفي جَميع الأشيَاء ، لأنَّها شُعبة عظيمة منْ شُعب الإيمَان .

وهي بَاقية في الدنيا والآخرة ، فإنَّ المَلَك الكَريم جبريل عليْه السلام حين رمى بالطِّين في فَم فرعون وهُو قَد غَرق حين أرَاد أنْ يَقُول كَلمة التَّوحيد إنَّما فَعل ذَلك غَيرة لَله من أجل تمرّده [٢] علىَ اللَّه .

وكذَلك عَضَبُ جَهنم ، وتَميزها منَ الغَيظ [٣] إنَّما ذَلك غيرة للَّه على العُصاة لَه ، وكذَلك الزبانية [٤] فيها .

وكذَلك وَرد أنَّ الأرض تَستأذن ، والسماء أنْ تَخسف بمن عليها ، أوتَرميهم بعَذاب منْ فَوقهم ، إنَّما ذَلك غَيرة للَّه .

وكذَلك في الجَنة الغَيرة بَاقية منها ، فإن كُل أحد في مُلكه قَد حَجبه عنْ

---

(١) الأبدى : الذي لا آخر له .

(٢) تمرد : عصى في إصرار وعناد .

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ تكَادُ تَميَّزُ منَ الغَيْظ ﴾ .

(٤) الزبانية : سمى بها بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها .

غَيره [غَيْرة] [1] عليْه .

فَافهم قَدر هَذه الشعبة ، وغرْ عَلى نَفسك للَّه تعالى لَعلّ اللَّه يغَار لكِ ، فيحميك مِنْ كُل مكْروه ، منّ الله عَلينا ، وعَليْك بما من به عَلى أوْليائه ، وأصفيائه - آمين ، وصلى اللَّه على محمد وآله وسَلم .

(١) زائد على الأصل وبها يستقيم المعنى إن شاء الله .

الشُّعْبَةُ السَّابِعَةُ والعِشْرُون
تَرْكُ مَالاَ يَعْنِي

أمّا كونها منْ شُعب الإيمَان فَدليله الحَديث المشهور : «منْ حُسن إسْلاَم المرء تَركُه مَالاَ يَعْنيه »[١] .

فجعَل تَرك مَا لاَ يَعنى حُسن الإسْلاَم ، وحُسن الشَّيء بعضه .

ودَليل الحَديث : منْ قُبح إسْلاَم المَرء أخْذه فيمَا لاَ يَعنيه ، فَنَاهيك بهذه الشعبة شَرفاً إذَا حَسن الإسْلاَم بوُجُودها فيه ، وقَبح بفقدها منه .

وقيل للُقْمَان الحكيم : مَا بَلغ بك مَا نرَى ؟ يريُدون الفَضل قال لُقمان : صدقُ الحَديث ، وأداءُ الأمانة/ وتَركَي مَالاَ يعنيني . ١٢٥/ب

وتَفْسير مَالاَ يَعني هُو الفُضول[٢] كُله ، عَلى اختلاَف أنْواعه .

والنَّاس يُسمون منْ دَخل فيما لاَ يَعنيه فُضولياً ، فمن اشْتغل بمَا لا يَعنيه بفضول فَاته مَا يَعنيه .

فَتَرك مَالاَ يعني هُو الاشتغال ، بمَا أُمرَ العَبد به ، والإقْبَال عَلى مَا يَعود نَفْعه ، ويُثمر لَه فَائدة في دُنياه ، وآخرته ، وترك خلافه وهَذه صفة العَاقل ، وضدها صفة الأحمَق[٣] .

---

(١) ابن ماجه (٣٩٧٦) ، الترمذي (٢٣١٨) ، أحمد (١/ ٢٠١) .

(٢) الفضول : الاشتغال بما لا يعنى وما لا فائدة فيه .

(٣) الأحمق : قليل العقل .

كما ورد في الحديث الطويل الذي رَواه أبو ذَر عنْ رسُول اللَّه ﷺ فقال فيه : « وعلى العَاقل أنْ تكُون لَه سَاعَات ، سَاعة يُناجي فيها ربَّه عز وجَل ، وسَاعة يُحاسب فيها نفسه، وسَاعة يُفكر في صُنع اللَّه عَز وجَل ، وسَاعة يَخْلُو فيها لحاجته منَ المطعم ، والمَشرب ، وعلى العَاقل أنْ لاَ يَكون ظَاعنًا (١) إلاّ لثَلاث: تَزوّد لمعَاد، أَو مرمة لمعَاش ، أو لذة في غَير مُحرم ،وعلى العَاقل أنْ يَكُون بَصيراً بزمَانه مُقبلاً على شأنه ، حَافظاً للسَانه ،ومنْ حسب كَلامه منْ عَمله قَل كَلامه إلاّ فيمَا يَعْنيه » (٢) .

فالمُشتغل بمَا لاَ يَعْنيه اسْمه في لسَان العلم : المُتكلف (٣) .

وقَد أمر اللَّه نبيّه أنْ لاَ يكُون منَ المُتكلفين فقال لَه : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ﴾ (٤) .

فَما لا يَعني هو مَالاَ يَعود فيه فَائدة في دُنيا ،أو آخرة ، ومَنْ اشتغل بمَا لاَ يَعُود عليْه فيه فَائدة فَقَد ظَهر سَفهه ،وقُبح حَاله .

واعلمْ أن تَرك مَالا يَعنى على ضَربين ظَاهر في عَالم الجَسَد ، ومَقَام الإسلاَم ، وبَاطن وهُو عَلى ضَربَين :

ضرب في مقَام الإيمَان وعالم النَّفس ،وضَرب في مقَام الإحسَان ، وعَالم الرُّوح ، كَما أنَّ الإنسَان ظَاهر ، وبَاطن .

وظاهر الإنْسَان هُو جَسده ، وجَوارحه وبَاطنه هُو نَفسه ، ورُوحه ، وهُو عَلى ثَلاثة مقَامَات ، على عَدد الذَّوات : الجَسد ، والنَّفس والرُّوح ، فمن

---

(١) ظاعناً : مرتحلاً .

(٢) الترغيب والترهيب للمنذري (٣/ ١٨٩) .

(٣) المتكلف : الذي يظهر نفسه على خلاف حقيقته .

(٤) سورة ص الآية (٨٦) .

قعد بجسده مع البطّالين / (١) وسمع كلامهم بأذنه ، ونظر إليهم بعينه ، ١٢٦/أ
وخاض معهم بلسانه ، ومشى إليهم برجله ، وأمزج جوارحه في خوضهم ، واشتغل بقيل وقال ، فقد عمرّ جوارحه بما لا يعنيه في مقام الإسلام ، وتعدى ذلك إلى قلبه في مقام الإيمان ، فإنَّه يُفكر فيما تشتغل به جوارحه والأنفاس والساعات تمر عليه باطلاً ، وربّما جرّه ذلك إلى ما يعنيه ، وتركه من المحرمات ، وترك الواجبات ، أو نقصها ، وترك الفضائل(٢) ، والرَّغائب ، والأغراض عن مُراقبة اللّه ، ومَا يُغنيه من مقامات الإحسان ، فيلقى العنت .

ومن خدعته نفسُه بأمانيها ، والشَّيطان ، وأغفلته عن التأهب (٣) للآخرة ، وأطاعهما بالفكر في الأماني ، وأودية الغُرور فقد ترك مايعنيه واشتغل بما لا يعنيه ظاهراً ، وباطناً في المقامات الثَّلاثة .

ومن شغل الباطن والظاهر بما لا يعني تعلَّم مالا يهم العبد من العُلوم ، وتركه ماهُو أهم به ، فمن ترك تعلم العلم النَّافع الذي فيه إصلاح نفسه وأخذ في تعلم ما يصلح به غيره فيشتغل بعلم مُجادلات (٤) النَّاس ، وخصوماتهم ، وهُو لم يحكم إصلاح نفسه بعد ، ويقُول في اعتذاره نيَّتي بتعلم العلم ونفع النَّاس به .

ولو كان صادقاً لاشتغل بالأهم ، فالأهم ، فإذا أصلح نفسه ، فحينئذ يطلب كيف يُصلح غيره وإصلاح نفسه ، وأهله بعلم صلاح قلبه ،

---

(١) البطَّالين : جمع بَطِل ، وهو : المتكلم بالهزل .

(٢) الفضائل : جمع فضيلة ، وهي : الدرجة الرفيعة في حسن الخلق .

(٣) التأهب : الاستعداد .

(٤) مجادلات : جمع مجادلة ، وهي : المناقشة والمخاصمة ، وفي القرآن الكريم : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ .

ورياَضته عَلى إخراج الصِّفات المذمومة ، المهلكة في الآخرة مثل الحرص [١] والحَسَد [٢] ، والحقد [٣] والرياء ، والكبر ، والعُجب والتَّرؤس [٤] على الأقران ، والتَّطاوَل عَليهم [٥] ، وجُملتهاَ تَصل إلى مائة صفة مُهلكة ، وأكثر .

ثمَّ عَلم الصفات المُنجية مثل الصبر [٦] ، والرَّجاء [٧] والخَوف [٨] ، والخَشية [٩] ، والقَنَاعة [١٠] ، والزَهْد ، والرضا والمحَبّة ، والتَّواضع ، والتوكل ، والتَّوبة منْ القَليل والكَثير ، والمُراقبة ، وغَير ذَلك من صِفات القَلب / ١٢٦/ب المُنجية ، وجُملتها أيضًا تصل إلى المائة .

وهَذه الصفات المُهلكة ، والمُنجية فهي كُلها منْ نَوع مَا أخبر به النَّبي عليْه السلاَم في قَوله : « **ثَلاث مُهلكات ، وثَلاث مُنجيات ، فَأمَّا المُهلكات : فَشُح مُطاعٌ ، وهوى مُتَبع ، وإعْجَاب المَرء بِنَفسه ، وأمّا المُنجيات : فَخَشية اللَّه في السر والعَلانية ، والقَصد في الغنى والفَقر ، والعَدل في الرضَى والغَضب** » [١١] .

فالذي يشتغل بمَا لاَ يَعنيه ، فَترك بَاطنه مَشحوناً بالمهلكات ، خَالياً منَ

---

(١) الحرص : الجشع ، وشده الرغبة في الشيء .

(٢) الحسد : تمنى زوال النعمة عن المحسود .

(٣) الحقد : إضمار العداوة والتربص لفرصة الإيقاع به .

(٤) الترؤس : طلب أن يكون رئيسًا .

(٥) التطاول : التكبر والترفع .

(٦) الصبر : التجلد وحسن الاحتمال .

(٧) الرجاء : الأمل .

(٨) الخوف : انفعال في النفس يحدث لتوقع مايحدث من المكروه ، أو يفوت من المحبوب .

(٩) الخشية : الخوف بتعظيم ومهابة ، وفي القرآن الكريم ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّه منْ عبَاده العُلَمَاءُ ﴾ .

(١٠) القناعة : طلب الإحسان راضياً بالقليل ، وفي القرآن الكريم ﴿ وأَطعمُوا القَانعَ والمُعترَّ ﴾ .

(١١) الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٠) وقال : رواه البزار وفي سند ابن عباس وابن أبي أوفى محمد بن عون الخرساني وهو ضعيف جداً .

المُنجيات ، ويَطلب إصْلاح نفسه فيما يَزعم ، ولو كَان صَادقاً لأصلح نَفسه ثمَّ يَطلب صَلاح غَيره ، كَما فَعل العُلماء الصَّادقون من السَّلف الصالح .

ولذلك ورَد في الأثر : لا يُفْتى النَّاس إلا أمير ، أو مأمُور ، أو مُتكلفٌ ، فالتارك للأهم عليْه من العَلوم ، وتعديه إلى غَيره مُشتغل بمَا لاَ يَعنيه .

وهذا إذَا اعتَبرته وَجَدته عَاماً في جَميع الأحوال ، والأعمال ، والمقَامات الثلاثة .

والذين اشتَغلوا بمَا يَعنيهم هُم أهل الوَقت كَما قَالوا المُريد الصادق هُو ابن وَقته ؛ فَالمريد للَّه ، وللدار الآخرة رأى وقَته ثَلاث سَاعات ، سَاعة قَد مضت عنْه فى مَعصيةٍ ، وبَطَالةٍ فَيَتوب إلى اللَّه منها ، ويَستغفر ، ويَنْدم ويَبْكي عَليهاَ .

إمّا في طَاعة ، فَيشكر اللَّه عليها ، ويَسأله القَبول لهَا ، وسَاعة هُو فيها ، فيشتغل فيها بَما يعود عليْه فيها نَفعٌ في دينه ، وآخرته ، ولاَ تَخلو هَذه الساعة منْ ثَلاثة أحوال صالحة ؛ إما أنْ يكُونَ فيها مُشتغَلاً بعلم ينْفعه ، أوَ عمل صَالح يُقربه إلى اللَّه ، أومُباحٍ [1] يَستعين بِه عَلى طَاعَة اللَّه ، وكُل مُعين عَلى الطاعة طَاعة .

وقَد انخَدع أكْثَر النَّاس في هَذه الساعة من المُباح فَتَراه أكثر النَّهار مُشتغلاً بدُنياه ، و الحرص عَليهَا وهُوَ يقول : إنَّما أشتغل بهَذَا المُباح ليُعينني على الآخَرة ، و هُو مَخدوع بطلب التَّكاثر / والفُضول لَو عَقل . ١٢٧/أ

والساعة الثالثة هِي الآتية ، والمستُقبلة فالشغل بها ، والتَّدبير لَها تَضييع للحَاضرة .

(١) المباح : ضد المحظور ، وهو : مالا يثاب فاعله ولايأثم تاركه .

فأمّا الصادقون المُشتغلون بمَا يَعْنيهم فَجَعلوا الوقت كُله للّه مُباحاً كَان، أو غَيره ، وعن ذلك مَا ورد عنْ مَالكبْن أنَس - رضى اللّه عنه - أنه كَان يَسد أذنيه بالكُرسْف (١) لئَلا يَسمع كَلام النَّاس ، فيَحفظه فَيَشغله عمّا يَعنيه ؛ لأنه رأى ذَلك ممَّا لاَ يعنيه وذَلك بشدة حفظه .

وكَان أبُو بكر الصديق -رضى اللّه عنه - يَضع حجرًا في فيه لئلا يَتكلم بما لا يَعنيه ، والآثار عنْ الصادقين في هَذا المعنى أكثر من أنْ تُحصى ، وإيرادها يجر إلى التطويل ، وغَرضنا الاخْتصار ، والذي يُبين لك هَذا البَاب إن كُنت صادقًا في عزمك أنْ تَنظر جوارحك ، وقَلبَك ، فإنْ كَان كُل وَاحد منهما مَعموراً بما يَعود عَليك فيه فَائدة في دينك ، وآخرتك ، ودُنياكَ المَحمودة ، المعُينة لك عَلى الآخرَة فَأنت مَشغوَل بمَا يعينَك ، وإن كانت جوارحك وقلبك مشغولاً بما لا يعودُ عليك فيه فائدَة في دينك وآخرتك ، ودنياك المحمودة المعينة على الآخرة فأنت مشغول بما لا يُعينك .

وهَا أنَا أذْكُر لَك صفة المُشتغل بمَا يَعنيه ، التارك لما لاَ يعنيه لتكون لَك مرآة تنظر فيها نَفسك ، وهي صفة السلف الصالحَ -رضى اللّه عنهم - وَذلك أنْ يكَون العَبد مُقبلاً على الخَير ، مُجانباً للشر ، مُسارعاً لَما أمر به ، وندَب إليْه ، إذا قدر عليْه حَزيناً على مَا فَات ، بَريئاً من التَّكلف مُصليًا للخمس في الجَماعات إذَا أمن الفتنة ، مُجتنبًا للغيبة ، ولذكر الناس ، طويل الصَّمت ، منُفرداً بحاله ، عن النَّاس ، تَاركاً للكثير مَنْ مجَالستهم واجْتماعهم خَشية دُخول الشبهات عليْه ، وخَوفاً من تَغيير قلبه / . ١٢٧/ب

فمن اجْتمعت فيه هَذه الخصال فقد حَسُن إسلامه ، وترك مَالا يَعنيه .

فَاتخذها مرآة تنظر فيها نَفسك .

---

(١) الكرسف : القطن .

وأمّا حقيقة شُغل البَاطن بما يَعنيه فهو المعنى الذي وصفَت عائشة -رضى اللَّه عنها- به بَاطن رسوَل اللَّه ﷺ فقالت في ذلك : « **كان رسول اللَّه ﷺ كثير التفكير في تَعرف الفَاني منَ البَاقي** » .فهَذا الوَصف غَاية الكَمال في هَذا البَاب ، لا يَشغل البَطن ، والظاهر إلاّ بالذي هُو أولى .

والفَاني والبَاقي الذي ذكرتهُما يحتمل مَعنيين ، المعنى الواحد : أنّ البـاقي هو اللَّه جل جَلالَه ، والفَاني هُو مَا سواه ، فكَان النبّي ﷺ يتعرف صفات بَارئه من صفات مخلوقاته ، فَيستدل بهذا على هَذا ، وبهذا عَلى هَذا ، وهَذه أعلى المرَاتب في الشغل بما يعنى ، وهُو مقَام الإحسَانَ ، ومقَام الرُّوح .

والمعنى الآخر أنّ الآخرة بمَا فيها بَاقية إلى الآبَاد ، والدنيا فَانية ، فكان يَعتبر الدنيا ، وزَوالها ، وكَان يَعتبَر الآخرة ، وبَقاءها ، فَيَزهد في الفَاني ويَحذره ، ويَرغب في البَاقي ، ويشمر له .

وهذا مقَام الإيمَان ، ومقَام النَّفس في الغَيب فَيحصل من هَاتين الفكرتين العلم باللَّه ، وأفعاله والعلم بالدار الآخرِة ، وفَضيلتها ، وبَقائها ، والَعلم بالدَّار الدنيا وحقَارتها ، وفَنَائها .

ومن كان هكذا كان صمته فكرة ، ونظره عبرة ، وكَلامه حكمة ، لعمَارة قَلبه بالأفكار ، والأذكار فمثل هَذا القَلب في القُلوب كالبيت المَعمور فيَ البيُوت الخالية .

شغلنا اللَّه وإياك بما يعني عمَّا لا يعنى ، وأعانا بتَوفيقه على ذَلك آمين ، وصلى اللَّه على محمد وآله وسَلم (١) .

---

(١) بلغ مقابلة : هكذا على حاشية الأصل .

الشُّعْبَة الثَّامِنَة وَالعِشْرُونَ
التَّقْوَى

أما كون التَّقوى منَ الإيمَان فَلا يحتَاج إِلى استشهاد عليه؛ بشهرة / ذلك . ١/١٢٨أ

وعنْ أبي سعيد الخدري قال : جَاء رجل إلى النَّبي ﷺ فقال : يا نبي اللَّه أوصني . فقال : « عَلَيْكَ بتَقْوى اللَّهِ ؛ فإنَّهُ جِمَاعُ كُل خَيرٍ »[1] .

فوصف التَّقوى بأنها اجتماع الخير .

وقال اللَّه تبارك وتعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[2] فعلَّق الإيمان بشَرط التَّقوى ، كأنه لا يصح إِلا بهِ .

ورَوى أبو هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ يَأخُذُ عَني هَؤلاء الكَلمات فَيعمل بِهنّ ، ويُعَلم من يَعمل بِهن » . قال أبو هريرة : قلت : أنا يَا رسول الله ، فأخذ بيدي فعدّ خمسًا فقال :

« اتقِ المحارم تكُن أَعبد النَّاس ، وارض بما قَسم اللَّهُ لك تكن أَغنى النَّاس ، وأحسنْ إِلى جَارك تكن مُؤمنًا ، وأَحب للناس ما تُحب لنَفسك تكُن مُسلمًا ، ولا تكثر الضَّحك ؛ فإِنَّ كثرة الضحك تُميت القَلب »[3] .

---

(١) الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢١٥) و قال : رواه أحمد و أبو يعلى ورجال أحمد ثقات ، و في إسناد أبي يعلى ليث بن أبي سليم وهو مدلس . اهـ قلت : هذا لفظ أحمد .

(٢) سورة المائدة الآية (٧٥) .

(٣) الترمذي في جامعه الصحيح (٢٣٠٥) .

فجعل اتِّقاء المَحارم أفضل جميع العبادات .

والتَّقوى على مَعنيين : ظَاهر ، وباطن ، وهُو على ثلاثة أُصناف :

ضَرب في مقَام الإسلام ، والجَسَد .

وضَرب في مَقَام الإيمان والدَّار الآخرة ، وعالم النَّفس .

وضَرب في مقَام الإحسان ، ومقَام الرُّوح ، فقد عمّ المقامات كُلها ، وقد أكثر النَّاس القَول في حد[١] التَّقوى .

والحقيقة فيه إن شَاء اللَّه أنَّ التقوى تنزيه القَلب عنْ الأدناس[٢] ، وطَهارة البَدَن من الآثَام .

وإنْ شئت قلت : التَّقوى التحرز ، والحَذَر من مُواقَعة المُخَالفات ، وهو الذي شَبّه النَّبي عليه السلام التائب به في قوله : «التائب من الذَّنب كَمَن لا ذَنب له »[٣] فالَّذي لا ذَنب له هو المُتقي ، وليس المشبّه بالشيء كالمشبه به ، دَليله :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً ﴾[٤] .

---

(١) الحد : الحاجز بين الشيئين . ومن كل شيء طرفه الرقيق الحاد ، ومنتهاه ، ويقال : وضع حد للأمر أنهاه .

(٢) الأدناس : جمع دنس ، وهو فعل ما يشينه من أوساخ .

(٣) قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة حديث (٣١٣) : ابن ماجه والطبراني في الكبير ، والبيهقي في الشعب من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه رفعه بهذا ، ورجاله ثقات ، بل حسنه شيخنا يعني لشواهده اهـ.

والحديث عند ابن ماجه (٤٢٥٠) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٤) ، وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.

(٤) سورة الجاثية الآية(٢١) .

ويُقال : إن هذه الآية هي مبكاة العابدين إذا وقفوا على معناها ، وتذكروا ما أصابوا من الذنوب أبكتهم .

وقال في آية أخرى / : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾[(١)] . ١٢٨/أ

وَإِنَّمَا نُبين لك المُتَّقي من غيره في مَثل نَضربه ، وذلك أَنْ تَفرض رَجُلين وُلدا في الإسلام طاهرين ، نَقيين ، فَنشأا على طَهارتهمَا ، ونَقَاوتها إلى حد أَشرفَا فيه على المُخَالفات ، والمُحَرمات ، فأما الوَاحد : فَبقي على حَالته من التُّقَى ، والبَراءَة من المعَاصي ، باجتنابه لهـا إمّا كُلها ، وإمّا بعضها .

وأمّا الثاني فواقع المُحرمات ، وارتكب السَّيئَات إمّا كُلها ، وإما بَعضها .

فالبَاقي على حَالته الأُولى من الطَّهارة الأُولى والبَراءَة من الآثام[(٢)] هو المتقي ، والمُواقع لَها هو الفَاجر[(٣)] .

والرَّاجع عن الذنوب هُو التَّائب ؛ يُسمى تائبًا ، ولا يُسمى مُتقيًا إلا فيما يَجتنب في المُستقبل وقوعه ، فكل ذَنب تركه العَبد ، واجْتَنبه سُمي مُتقيًا فيه ؛ فإَنْ واَقع ذُنوبًا ، ولمْ يُواقع أُخر كَان لَه من التَّقْوى بقَدر مَا لم يُواقع مَنها فالبَراء ، والتَّحرر من مُواقعة الذُّنوب هُوَ التَّقوى كَما يَتحرز المُستتر بالاتِّقاء بالمجن عن أن تصيبه الحجارة ، والسلاح .

ألا ترى إلى قول اللّه تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ ﴾[(٤)] أي احترزوا منها

---

(١) سورة ص الآية (٢٨) .

(٢) الآثام : جمع إثم وهو الذنب .

(٣) الفاجر : الفاسق المكترث .

(٤)سورة آل عمران الآية (١٣١) .

بالتَّقوى لئلا يُصيبكم ويُواقعكم عَذابها ، وكذلك :

﴿ واتَّقُـوا يَوْمًـا لا تَجْـزِي نَفْسٌ ﴾ [١] أي احـتـرزوا منه أنْ يُصـيـبكم ، ويُواقعكم مكروه ذلك اليَوم .

والتَّقوى عام في كل شَيء ، ظاهرًا في أمور الدين ، والدنيا ، وباطنًا بتقوى المَوت ، وما بَعده منْ أُمور الآخرة كُلها .

وبَاطن ذَلك كُله ، وحقيقته تَقوى اللَّه في مقام الإحسان ؛ فَقَد عمّ التَّقوى كُل شَيء ؛ فإنّ كُل طاعة لها نقيضتها ، وتُسمى مَعصية ظاهرًا كانت الطَّاعة ، أو باطنًا ؛ فإن الطَّاعة عَلى نوعين : ظاهرٌ ، وباطنٌ .

والمعـاصي على نوعين : ظاهرٌ ، وباطن ، وهـو الذي عنى اللَّه - عـز ١/١٢٩ وجل - بقوله : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ [٢] ، فما من طاعة ظاهرة / إلا ولها ضد في الظاهر ، وكذلك أيضًا في الباطن .

مثال ذلك : الإيمَان ضـد الكُفـر ، والإقْـرَار بالتَّوحـيـد ضد الشِّـرك ، والصَّلاَة ضدها ترك الصَّلاة ، وهكَذَا إلى آخر الطَّاعات كلها ، فَمَنْ اجتنب الآثام كُلها فهـو المُتقي والذي عَسر به العبد قلبه ، وجَوارحه ، وهُو سرّه وعَلانيته ، وظَاهره ، وبَاطنه .

والجَوارح سَبعة وهي : اليد ، والرِّجل ، والفَرج ، والفَم ، والعَين ، والأنْف ، والأُذن . وعَلى كُلِّ جَارحة ضربٌ من الآثام ، وهو ظاهر الإثم ، وفيه تَنْحصر المعاصي كُلها ، الذي نصّ الشرع على تَسميتها مَعصية .

والنوع الآخر : ترك فِعل الطَّاعات التي نَص الشَّرع على تسميتها

(١) سورة البقرة الآية (٤٨) .

(٢) سورة الأنعام الآية (١٢٠) .

طاعة ؛ لأنَّه لا مَعصية أعظم من ترك الصَّلاة ، والزَّكاة ، أو تَرْك طاعة أُمرَ العبدُ بفعلها ؛ ففي هذين النوعَين تَنْحصر المعاصي كلها ، فمنْ اجتنب وُقوعَ المعاصي بجوارحه ، ولمْ يترك الطَّاعات فقد اتَّقى اللَّه في ظَاهره .

وهذان النَّوعان الكَلام فيهما يَحتاج إلى تفسير كثير ، وقد تكلم العُلماء على ذلك في جميع الكتب في الحَلال ، والحَرام ، فأغنى عنْ كلامنا نحن فيه ؛ فإنّ الفَرْجَ الذي هُو أحد الجَوارح يتعلق به من المعَاصي مِثل الزنا ، وعَمل قَوم لوطٍ ، ونكاح البهَائم ، ونكاح اليد .

وقد ذُكر في كتب الفقه ما يَتعلق على منْ فعلها ، وكذلك يتعلق به منَ التحريم مثل ما حُرم عليه من النساء نكَاحهن مثل النَّسب ، والصِّهر[(١)] والرِّضاع ، والخَامسة مع وُجود الأربع ، والمطلَّقة ثلاثة ، والأمة مع وُجود الطول للحرة ، وتعددهن يصل إلى خَمسين امرأة ، أو نَحوها فيما ذكر بَعض أهل العلم ، وذلك مَوجودَ في كتب الفقه كالأنكحَة الفاسدة ، وما جَرى مَجْراهاَ من نكاح في العدّة[(٢)] / وغيره . ١٢٩/ب

وكَذلكَ اليَد يتعلق بها أيضًا أنْواع كَثيرة ؛ كالسرقة والخيانة ، ومَنع الزَّكاة ، والحقُوق ، والضَّرب ، والقَتل ، وغير ذَلك ممَّا يتعلق بجَارحة اليد ، وأحكامها في كُتب الفقه أيْضًا كَثيرة .

وهكذا كُل جَارحة يتعلق بها جَميع المعَاصي التي نهى اللَّه عنها ، وترك جَميع الطَّاعات التي أمر اللَّه بفعلها ، فمنْ اجتنب هَذا فقد اتَّقى اللَّه بظَاهره ، وعلى قَدر مَا يقع فيه ينقصه من التَّقوى ، فافهم .

وأمّا البَاطنة فإن المعَاصي كلها إنَّما تَصدر عنْ فِعل القَلب ، وأمره ،

---

(١) الصِّهر : القريب بالزواج ، ويوصف به فيقال : هو صهري .

(٢) العدة : هي المدة التي تقضيها المرأة بعد طلاقها أو بعد وفاة زوجها . ويحددها لها الشرع .

وله أيْضًا معَاصي تَنفذ ، وتتم في السر ، دون ظهورها على الجوارح كالإصْرَار ، واعتقَاد مَالا يَجب اعتقَاده ، والريَاء .

وأنواع المعاصي المنسوبة إلى القلب شهرتها يغنى عَنْ تَفسيرها ، وهِي عَلى نَوعين أيضًا :

ترك فعل المحمود وارتكاب المذموم(١) ، فمن اجتنب بقَلبه المذموم كُله ولم يترك المحمود ، فقد اتقى باطن الإثم كله ، وكان ممنْ وَصف اللّه في هذه الآية :

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾(٢) .

وهو قسم الحرام كُله ، الظاهر والباطن .

وكُل مَاذكر في جَميع كُتب العلم ، والفقه منْ أبواب المحرمات ، والمكْرُوهات ، لا يخلوعما ذَكرناه في هَذين القسْمين الظاهرين ، والقسمين البَاطنين ، فمَنْ عَمل بهما فقد عمل بكلَ مَا ورد من العلم في أبواب المَنْهيات ، والمحرمات كُلها ، ولذلك قَال النَّبي عليْه السَلام لأبي هُريرة : «اتقِ(٣) المحَارم تكن أعبد النَّاس » .

يَعني المحَارم كُلها .

وقال سَهل -رضي اللّه عنه - « منْ أراد أن يصحّ له التَّقوى فليجتنب المعَاصي كلها » .

(١) المذموم : المَلُوم المُعاب .

(٢) سورة الأنعام الآية (١٢٠) .

(٣) في الأصل : « اتقى » .

والتَّقوى إنما تكون عنْ المعصية ، وعن المكْرُوه المُصِر ، فإنَّ الطاعة لا يتقى منها ، ولا يتُحَرّز ، وما ورد في قوله :

﴿اتَّقُوا اللَّه حَقَّ تُقَاته ﴾(١) أن يطاع ، فلا يعصى ، ويذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر ؛ مَعناه أن يُحذر أن يُنقص من طَاعته شيء ، أو أن يُعصى بالمخالفات ، أو أن يُنقص من ذكره ، أو أن يُنسى / فلا يُذكر ، أو أنْ يُنقص ١٣٠/ب
من شكره شيء ، أو أن يُكفر .

والنُّقصان منَ الذكر تَرك لبعضه ، والنقصان من الشكر تَرك لبَعضه ، وهَذا هُو المعَنى الذي ذكرتُ لك في التَّقوى قَبل هذا .

وإذا فَهمت هَذين المعنيين فَقَد فهمت التَّقوى بحقيقتها إن شَاء اللَّه ، وتفهم حقيقة معنى النَّجاة منَ التقوى في قوله تَعالى :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذينَ اتَّقَوْا ﴾(٢) لأنَّ النجاة إنَّما تكون من العَذاب ، والعَذاب لا يكُون إلاّ على معَصية أو تَرك طَاعة ، فمنْ لمْ يُواقع منها شَيئًا صحّ له النَّجاة ، فافهم .

وبقدر ما يصح له من تَقوى المعْصية ، وتَقوى تَرك الطَّاعة يصح له من النجاة ، فإن اللَّه بكرمه قد حكم ألاّ يُعذَب إلاّ من عَصى .

وإذا فهمت ما ذكرت لك تَعلم معنى قَوله تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللَّه أَتْقَاكُمْ ﴾(٣)

وقوله : ﴿إِنَّمَا يَتقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾(٤) وغير ذَلك مما وَرد في التَّقوى

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٢) .

(٢) سورة مريم الآية (٧٢) .

(٣) سورة الحجرات الآية (١٣) . (٤) سورة المائدة الآية (٢٧) .

من الجَزاء عليها عَاجلاً وآجلاً فإن هَذا الكَرم الذي ذَكره اللَّه في قوله :

﴿إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّه أتْقَاكُمْ﴾ هُو الكَرم الذَّاتي ، وهُو أفضل مِنَ الكَرم الفعلي الذي هُو السخاء ، كما رَوى أمير المؤمنين عَلي بن أبي طَالب -رَضي اللَّه عنه- قال : « سَادة النَّاس في الدُّنيا الأسْخياء[(١)] ، وسَادة النَّاس في الآخرة الأتْقياء »[(٢)] .

وبيْن السِيادَتَين من التفاوت مِثل مَا بَيْن الدنيا والآخرة .

هَذا يُبين لك مَا بَين الكَرمين مِن تَفاوت الفَضيلة ، والكَرم الذَّاتي مِن قَولك : فُلاُن على كرمٍ .

وقال النبي عليْه السَّلام : « إذَا أتَاكُم كريم قَومٍ فأكْرمُوهُ » وهو السيد النسيب الذي يُرفع لعظَم قَدره ، ونَزَاهته على الرذائل ومنه كَرائم المُلك ، وهُنّ الوَجهات المرفَعات الأقدار عنده ، ليس ذلك بأنهن يُعطين للملك شيئاً ، لكن لعظم أقدارهن عنده .

ومنه قولهم : منْ كَرم عليه مَا يَطلب هَان[(٣)] عليه ما يبذل .

١٣٠/ب ومن هذا المعنى / هو الكرم الذَّاتي . الموصوف به ربُّ العَالمين في قوله : ﴿ذُو الْجَلالِ والإكْرَامِ﴾[(٤)] أي الوجود كله يُجلّه ، ويكرمه لعظم قدره

(١) الأسخياء : جمع سَخيّ وهو : الجواد الكريم .

(٢)قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة (٥٠) ابن ماجه في سننه من حديث سعيد بن مسلمة عن محمد بن عجلان ، عن نافع ، عن ابن عمر رفعه - بهذا - وسنده ضعيف لكن روى الطبراني في الأوسط من حديث حصين بن عمر الأحمسي عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم ، عن جرير البجلي به بقصة ، وعنده أيضاً في الأوسط والصغير بسند ضعيف اهـ مختصراً وأخرجه ابن ماجه في سننه (٣٧١٢) ، و الطبراني في الكبير (٢/ ٢٧٠) والصغير (٢/ ١٢) .

(٣) هان : سهل وخف .

(٤) سورة الرحمن الآية (٢٧) .

و لأنّه نزيه ، بريء عن رذَائل الأوصاف .

وبهذا الوصف كان كَريماً في أحدية أزليته قَبل وجود الأفعَال التي تكَرَّم بها ، وجَاء على الموجودات .

وكذلك المتَّقى الذي اتَّقى الذُّنوب ظَاهراً وباطناً كُرم عند اللَّه لسَلامته من دَنيات الأفعال ، لأَن الذنب تَجرْيح في فَاعله ، و التَّجريح مُسْقط للقَدْر عنْد المَجرح ، والمعدل ، فافهم ، وأيضًا فإنَّ الطاعة في تَرك المعَاصي أكْثر منَ الطاعة للَّه في فعل الطَّاعات ، ولذلك قَالوا : لَيْس كُل مَنْ عَمل بطاعة اللَّه كان حَبيبًا للَّه ، لكن من ترك ما نهى الله عنه كان حبيبًا لله ؛ فإن الطاعة لو اجتهد[١] العبد في تكثيرها غاية الاجتهاد كان الذي بقى له من طاعة الله أكثر أضْعَافاً مضاعفة ؛ فإنَّه لاَيقدر أنْ يُطيعه بجميع أنْواع الطَّاعات .

وإذا اتَّقى المخالفات للَّه فقد أطَاعه بتَرك العصيَان للّه كُله ، فافهم .

فالشر كله هُو العصيان ، والخَير كُله هُو الطَّاعات ، فهذا في نَاحية ، وهذا في ناحية . فإذَا اتَّقى العصيان فَقَد تَرك الشرّ كُله ، وإذَا دَخل في الطَّاعة لم يَأخذها كُلها ، ولا يقدر على ذلك .

قال النَّبي عليه السلام : «إذا أمرتكم بشَيء فأتوا منه مَا اسْتَطعتم ، وإذَا نَهيتكم عنْ شَيء فَانْتَهوا »[٢] .

وقد بيّن اللَّه معنى مَاذكرناه من كَرم التَّقوى في آية من كتابه فقال :

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾[٣].

---

(١) اجتهد : بذل ما في وسعه .

(٢) صحيح :البخاري (٩/ ١١٧) مسلم في صحيحه كتاب الحج (٤١٢) ابن ماجه في السنن (٢) .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٩٢) .

والخزي ضد الإكْرام ، ولاَ يَدخل العَبد النَّار إلاّ بَمعصية ؛ فالتقوى في مَقام الإسْلَام حِفَظ الجَوارح عنْ المَنْهيات ، وعنْ نَقص الطَّاعات ، وتركها .

والتقوى في مَقام الإيمان اتقاء[١] الآخرة ، وشَدائدها ، وأهْوالها عَلى اختلاف أنْواعها كما قال : ﴿واتَّقُوا النَّارِ﴾[٢] ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللَّه﴾[٣] .

وتقوى / النَّفس وخَواطرها الدَّاعية في الغَيب إلى المَحْظور[٤] ،
١/١٣١ والصفات المُهلكة وتَقوى الشيطان في التَّخدر منه ، ومنْ إغوائه[٥] ، وأنْواع خَواطره .

والتَّقوى في مقَام الإحْسَان تقْوى اللَّه وحده ، وهُو حقيقة التَّقوى ؛ لأنَّه تقوى ماسواه منَ المخلوقات فَجاز ، وتقوى الله[٦] هي الحقيقة .

وفي هَذا المقَام للصِّديقين أحوال ، وأسْرار لا يَجدها إلاّ هُم ، من هَجمات الحقيقة ، وسَطوات التَّجلى ، وغير ذلك ، وهي ثمرة كُل تَقوى .

قال اللَّه عَز وجَل في ذلك :

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ منْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٧] . أي لعَلكم تَبْلُغون إلى التقوى بَعد العبادة ، فَوصف التقوى أنَّها ثَمرة العبادة ، وأنَّ بَعدها تكوَّن وتَحصل ، وذلَك أنَّه إذَا استنار القَلب بِنور

---

(١) في الأصل « اتقى » .

(٢) سورة آل عمران الآية (١٣١) .

(٣) سورة البقرة الآية (٢٨١).

(٤) في الأصل : « المحضور » .

(٥) إغوائه : إضلاله واغراؤه .

(٦) زيادة عن الأصل يستقيم بها المعنى . ولعلها سقطت من الناسخ .

(٧) سورة البقرة الآية (٢١) .

الفُرقان ، ورأى فَضل البَارئ على ماسواه ، وجَلالة قَدره اتقت العُقول أنْ يَفُوتها ، وتَحذرت من الإعْراض إلى سَواه ، إلى غَير ذَلَك ممَّا يَحسن ترك الكلام فيه ، ويجمل السُّكوت عنْه ؛ لأنَّ المتكلم فيه ليس هُو حَاله ، وإنْ كَان يَجدَه علمًا ، مَنّ اللَّه علينا وعليكم بما منَّ به على أوْليائه المُقربين .

فالمتَّقى كَريم القَدر ، بَريء من الريبة ، ونَزيه عنْ الرَّذائل[1] ، وطاهر من الأوساخ ، وزكى النَّفس ، ومَن اجْتمعت فيه هَذه الخصال قَرب من الزَّكي النَّزيه ، الطاهر ، البر ، الكَريم جَل جَلالَه ، قرْب الرُّتبة ، لا قُرْب المَسافة .

فافهم قرب المُقربين المتقين ، وذَلك أنْ يَنظر العقل إلى صفات بَارئه في مقَام الإحسَان ونَزَاهته ، ومَا هُو عليْه فيَتقرب فيه بالاتصاف على قَدر طَاقته .

جعلنا اللَّه وإياكم بكرمه منهم في عافية آمين ، وصلى الله على مُحمد وآله .

---

(١)الرَّذائل : جمع رذيلة وهي : الخصلة الذميمة وهي تقابل الفضيلة

الشُّعبَة التاسِعَة والعِشرُون

الوَرَع (١)

١٣١/ب أمّا كَونه من شُعب الإيمَان فَدليله الحديث المشهور في الصحيح رَوى/ النعمان بن بَشير قال : سَمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «**الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مُشتبهات لا يَعلمها كثير من النَّاس ، فمن اتقى الشَبهات فقد استبرأ(٢) لدينه وعرضه** » (٣).

فجعل اتِّقاء الشبهات استْبراء للدين ، والعرض ، والدين هُو الإسلام .

ودَخل حسن البصري مكة فَرأى غُلامًا من أولاد على بن أبي طَالب -رضي الله عنه - قَد أسند ظَهره إلى الكعبة ، وهو يَعظ النَّاس فوقف عليه الحَسن فقال : مَا مَلاك الدين ؟ فقال : الوَرع .

فَجَعل مَلاك الدين الوَرع .

وروى قتاده عنْ مطرف بن عبد اللّه أن رسول اللّه ﷺ قال : «**فَضل العِلم خَيرٌ مِن فَضل العِبادة ، و خَير دينكم الوَرع** » (٤) فجعل الورع من الدين ،

---

(١) الورع : هو التخرج والتوقي عن المحارم ، ثم استعير للتأثم من الحلال المباح .

(٢) استبرأ : طلب البرآة منه .

(٣) صحيح : البخاري (٧/ ٣٠) مسلم في صحيحه كتاب المساقاة (١٠٨) ، الترمذي في سننه (١٢٠٥)، ابن ماجه (٣٩٨٤) .

(٤) الحاكم في المستدرك (١/ ٩٢) ، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٢٠) عن حذيفة بن اليمان وقال: رواه الطبراني في الأوسط والبزار وفيه عبد الله بن عبد القدوس وثقه البخاري وابن حبان وضعفه ابن معين .

وخير الدين ، وروى من طريق آخر عن صعصعة بن سعيد ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « **فضل العلم أحب إلى من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع** » .

فالورَع شُعبة من الإيمان ، وهُو بَاب التَّقوى المتقدم قَبل هَذا ، إلاّ أنّ التَّقوى في الحَرام كُله ، والوَرَع عنْ الشبهات[1] كلها .

ولكون الشبهة قَريبة من الحَرام كَان الوَرَع أيضًا قريباً من التَّقوى ، فمرة يُعَبَّر بهذا عنْ هذا ، وبهذا عنْ هذا في مَو اضع ، ومَرة يمتاز هذا عن هذا :

لهذه العلة [2] فإن النبي ﷺ قال : « **الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، وبينهما مُشتبهات** » [3] .

فَجعل الشبهة شَيئًا زَائداً على الحلال والحَرام ، فالتَّقوى تَقع على الحرام كُله من المكَاسب ، وغيرها من الأفعال الظاهرة ، والبَاطنة كما تَقدم ، والوَرَع يقَع على الشبهة في المكَاسب وجَميع الأفعال الظاهرة ، والباطنة أيضاً فهو على ضَربين ظَاهر ، وبَاطن .

فأمّا الظاهر منه فهو الكَف عنْ القُدوم على الأعمال الظاهرة المشتبهة في عَالم الحس ، ومقَام الأجسَاد ، كما ورَد في الحديث : « **لا وَرع كَالكَف** » [4] .

---

(١) الشبهات : جمع شُبهة وهي : ما التبس من الأمر فلا يدري أحلال هو أم حرام وحق هو أم باطل .

(٢) العلة : السبب ، وفي الفلسفة : ما يترتب عليه أمر آخر بالاستقلال أو بواسطة انضمام غيره إليه فهو علة لذلك الأمر ، والأمر معلول له .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٨) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٨٣) وقال : رواه الطبراني وفيه أبو رجاء الحنطي واسمه محمد بن عبد الله وهو كذاب .

والوَرع أيضًا جَارحكمه علَى الجوارح / كُلها مثال ذلك في اللسان إذا ١٣٢/أ
عَرضت لَك كَلمة مُشتَبهة لاَتَدرى أهي غيبَة[١] أم لاَ ، فالواَجب عليْك الكف عنْ ذكرها ؛ فإنَّ من الغيبة ما هُو حَلال ، و مَا هُو حَرام ، والشبهة مَالا تدرى أَحلال هُو أم حَرام ؟ .

وكذلك في الأكل إذا عَرفت الطعام حَلالاً فَهو حلال ، وإذا عَرفته حَراماً فَهو حَرام ، وإذَا لمْ تدر أحلال هُو أمْ حَرام فهو شُبهة لاختلاطه وكذلك فيما تَتَناوله الأيدي ، والفُروج ، وتبصره الأبصار ، وتُصغي إليْه الآذَان ؛ فإن نكاح الرَّجل للمرأة على الوَجه الذي لاَ خلاف فيه حَلال ، ونكَاح الزِّنا ، وغَير ذَلك من الأنكحة الممنوعة حَرام .

ونكاح المرأة بوجه مَنعه قَوم من العُلماء ، وأباحه آخرون شُبهة ، كَالذي يَقول منَ العُلماء : للمرأة أنْ تُزوج نَفسها ، وتباشر عقد النِّكاح بنفسها إذَا كَانت رشيدة لقوله تعالى :

﴿أَنْ يَنكحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾[٢] وقوله : ﴿حَتى تَنكحَ زوْجًا غَيْرَهُ﴾[٣] وقوله: ﴿فَلاَ[٤] جُناحَ عَليْكُم فيمَا فَعَلْنَ في أَنْفُسهنَّ بالْمعرُوف﴾[٥].

وقال آخرون : لا تَجوز ؛ لقَوله جَل جَلاله : ﴿الرجَالُ قَوامُونَ عَلَى النِّساء﴾[٦] ولقَول النَّبي عليه السلام : «لا نِكاح إلاّ بِولَى»[٧].

(١) الغيبةُ : أن تذكر أخاك في غيبته بما يكره ويسؤوه ذكره .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٣٢) .

(٣) سورة البقرة الآية (٢٣٠) .

(٤) في الأصل : «الفاء» ناقصة .

(٥) سورة البقرة الآية (٢٣٤) .

(٦) سورة النساء الآية (٣٤) .

(٧) الترمذي (١١٠١) ، ابن ماجه (١٨٨٠) ، أبو داود (٢٠٨٥) .

فالأولى تَرك هَذا النِّكاح، والأخْذ بالوَلى للخُروج، والأخذ بالوَلى للخروج من الشبهة، وغَير هذا من المَسائل في الطلاق، والنكاح كثير لا ينَحصر .

وكَذلك مَشيك بالقَدم إلى طَاعة، أو في طريق مَسلوكة غير مغصوبة حَلال، ومَشيك إلى مَعصية، أو في طَريق مغصوبة حَرام، ومشيك إلى شَيء لا تدري أطاعة هُو، أم مَعصية، أو في أرض مُختلف فيها شُبهة .

وهكذا جَميع الجَوارح، وهكَذا كُله مكتوب في كتُب العِلم، في المَكَاسب، وغيرها .

وقد قَالوا : الوَرَع في المنطق أشد منه في الذهب، والفضة، وكقَولهم فيما ملكت الأيدي من المَكاسب في رجل توفى، وكان غيرَ حافظ لكسبه فمذهب طَائفة من كبار العُلماء التنزه[1] عن أخذه منْ غَير تحريم/ . ١٣٢/ب

ومَذهب طَائفة منْ كبار العُلماء أخْذه، وتَرك وزره على مَن اكتَسبه، وأنَّه حَلال .

ومَذهب طَائفة منْ كبار العُلماء تَركه كُله ومذهب مَالك : إنْ عَلم الوارث أنَّه ظَلم أقواماً بأعْيَانهم رَد الظَّلامة إليهم ، وإن لمْ يَعرف المظلومين وعَرف الظلمة تصدق بِها عَنهم، وإذَا لمْ يَعلم لهم ذَواتًا، وهَذا عدلٌ من القول إن شاء اللَّه .

والشُّبهات في جَميع الأفعال، والجوارح أكثر منْ أن تُحصى ؛ فالوَرَع عنها في الظاهرفي جميع مقَام الإسْلام تركها، والخُروج إلى البيِّن[2] الذي لا إشْكَال فيه، فإنَّ الشبهة مُشكلة، لولا إشكالها لم تُسم شُبهة .

---

(١) التنزة : تنزة عن الشيء : بعد عنه وتصون منه .

(٢) البيِّن : الظاهر الواضح .

وقَد قَال النبي عليه السلام فيها : «**لاَ يَعلمها كَثير من النَّاس**» (١) ولاشتباَهها اخْتلفوا في تَحديدهَا فقالت طائفة : الشُّبهة مَا غاب عين أصله، فلمْ يَعرَف أحلال هُو أم حَرام .

وقالت طَائفة : مَا اخْتُلف فيه ، فقَال قوم : حَلال ، وقَال قَوم : حَرام.

وقالت طَائفة : الشبهة لَيست في الأموال ؛ فإنَّ المَال لا يُعرف إلاّ حلالاً ، أو حراماً . وقالت طائفة : الشبهة أكثرها حلال .

والحقيقة في تحديدها إن شاء اللّه أنّ مالمْ يتَبين لَك ، ولمْ تقطع عليه يَقيناً أحلال هو أمْ حَرام ، فَهُو شبهة لقَول النبَّي عليْه السلام : «**الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما مُشتبهات**» فقد قامت الشبهة وجُوداً ثالثاً بين الحَلال والحَرام .

وأمّا البَاطن فَعلى ضَربين ، ومقَامين : ضَرب في مقَام الإيمَان ، والنفس ، وضَرب في مقَام الإحْسَان ، والرّوح ، والعقل .

فأمّا الضرب الأول في مقَام الإيمان فإنَّ الإيمَان في القَلب ، منبسط على المؤمنات كُلهَا ، الأخراوية ، قد أحاط بها الإيمَان والتَّصديق .

والخَواطر مُزدحمة (٢) على القُلوب من قبل النفس والهَوى ، والأمل ، والأماني ، والشياطين ، والملائكة ، ومنْ قَبل الروح ، والعَقل/ ١/١٣٣
بجَميع أنْواع الخَير ، و الشرّ في وقْت وحين ، فَيَجب الوُقوفُ على الأقْدام عَلى الخَواطر بغَير تَبيين ، وعلم .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) مزدحمة : أي تُزاحم بعضها بعضًا .

والوُقوف هُو الوَرع ، والكَف حَتى يتبيّن الشَّيء ؛ لأنّ كَثرة الخَواطر الوَاردة عَلى القلب يوجب اشتباهها ، وقد شَبه القَلب في تقَلبه بالخَواطر ، كَورقة تُحركها الرِّياح ، وقيل كالقدر[١] امتلأت غَلياناً .

فالوَرع في هَذا المَقام هُو الوقُوف ، والنظر حتى يتبيّن الأشكَال منها .

وتمتاز خَواطر المَلَك من خَواطر الرُّوح والنَّفس ، والشَّيطان ، والهَوى الدنياوي فَينفذ مَا يَجب تَنفيذه ، ويردُّ مَا يجب رده ، هذا كُله في أُمور الآخرة ، وأمور الدنيا والدين .

وأمّا الضرب الثاني البَاطن في مقَام الإحْسَان ؛ فإنَّ النَّظر والفكر في هذا البَاب ينقسم قسمين : نظَر في المخلوقات ، ونظر في خَالقَها ، والاستدلال بها عليه ؛ لأنَّه بها عُرف ، فيجب التَّوقف ، والتميز بين صفات الخَالق ، وصفَات المخلوق ، ولا يؤخذ الأمر جُزافاً[٢] فيقع العَبد فيما لاَ يَنبغي منّ التَشبيه ، والشبهات .

وقَدْ ضَل كثير من النظر في هَذا البَاب ، وزاغوا لقلة وَرعهم ، وإيثارهم الرأي ، والمعقول بقَلة الوَرع ، وترك الشَّرع المنقول فَضلُّوا وأضلُّوا وذلك كإقْدام العُقول ، والقُلوب على مَالم يتَبين لها من العُلوم ، ولذلك كَان عُمر ابن الخطاب -رضي اللَّه عنه- يقول : اتهموا الرأي ، فإنَّه إنما كَان مصيبًا منْ رسُول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم .

وقال اللَّه تعالى في هَذا المعَنى :

﴿هُوَ الَّذِي أنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَاب مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَاب وَأُخَرُ

(١) القدْر : إناء يطبخ فيه ، والقدر الكاتمة : إناء للطبخ محكم الغطاء لانضاج الطعام في أقصر مدة وذلك بكتم البخار .

(٢) الجزاف : الشيء لا يعرف وزنه ولا كيله ولاقيمته .

مَتشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾[١] الآية . ومن أجل قلة ورع الزائغين في هذا الباب وقعوا في المراء[٢] لأن الشيء إذا لمْ يتبين وقع فيه المراء .

١٣٣/ب ورد في المراء / : «المراء في القُرآن كُفر» فالوقوع في المراء عُقوبة ، ترك الورع كَذلك ، أخبر النبَّي عليه السلام في قوله : «حَرام بيّن ، وحَلال بين ، وبيْن ذَلك أُمور مُشتبهة »[٣]

فمنْ تَرك مَا شك فيه منَ الإثم كَان لما استبان لَه أترك ، ومن اجْترأ عَلى على ما شَك فيه من الإثَم يوشك أن يواقع مَا استبان له .

فإذا لمْ يكن العَبد من الراسخين[٤] فليكُن من المتُّبعين الوَرعين ، المصدقين بالتَّصميم والجَزم ، فهَي طريق السلامة ، ولا تكن مِنَ الزائغين المشبهين ، والقائلين بآرائهم .

والنَّاس في هذا البَاب ثَلاثة : رَاسخ يتبيّن له المُشتبه لرسُوخه ؛ فَصار مُحكماً في حقه .

وزَائغ أحال المعنى إلى غَير ما أُريد به ، كالذي يَعتقد في يَد اللّه جَارحة ، وفي الاسْتواء ، والاسْتقرار على المكان ، وغَير ذَلك مِن المسَائل المشتبهات ، فهذا لحق بالحَرام ؛ أيَ حَرام اعتقاده .

والثالث رجل لم يصل دَرجة الرسُوخ فالوَاجب عليه التَّصديق الجَزم[٥] بمَعنى مَا يَستحيل اعتقَاده في المَسألة ، وإمْرَار الأخبار كَما وَردَ مع

(١) سورة آل عمران الآية (٧) .

(٢) المرَاء : الشك ، وفي القرآن الكريم ﴿فَبأيِّ آلآء رَبكَ تتمارى﴾ .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) الراسخين : جمع راسخ وهو : الذي ثبت العم في قلبه وتمكن منه ولم تعترضه شبهة .

(٥) الحزم : حزم الأمر أخذ فيه بالثقة .

نَفي التَّشبيه ، والتَّمثيل وهَذا هو الورَع على الحقيقة ، وضده الاعتراض بالرَأي ، وتأويلها على الهَوى بغير دَليل قَاطع ، ولا علمٌ راسخ ، فَيجب الوَرَع والإيمان بالأخبار كما ورَدت مَع نفي التَّشبيه ، والتَعطيل .

وعليه دَرَج مَالك ، والشافعي -رحمهما اللَّه- وسُفيان الثوري ، وابْن عُيينة ، وابن المبارك والبُخاري ، والترمذي وجَميع المحدثين من السَّلف ، والخَلف في فَتواهم -رضْوان الله عليْهم- وهو الوَرع ، وهُو طَريق سَابل دَرَج عليه أكثر السلف ، وهذا هُو مَعنى الأثر الذي وَرد «إنَّما الأُمور ثَلاثة : أمر استَبَان لك رُشده فاتَّبعه ، وأمر استَبَان لك غَيه[1] فاجْتَنبه ، وأمر اشْتبه عَليك / فكلْهُ إلى عَالمه » أو كما ورد . ١٣٤/

ومن أجل هَذه المسألة وقفَ مَنْ تَوقف من الصحابة في وقت الحَرب ، ومن الفتنة التي كَانت .

وورد عنْ عَلي بن أبي طَالب -رضي اللَّه عنه- أنَّه كَان يقول لابْنه مُحمد بن الحَنفية يَوم الجَمل ، وقدمه أمامه : أقدم أقدم ، - ومُحمد يَتأخر وهُو يَلْزَمه بقائم الرمح ، فالتفت إليه مُحمد ابنه ، وقَال له : هَذه الفتنة المُظلمة العَمياء ، فوكزه[2] عليّ برمحه وقال : تقدم ، لاَ أمّ لك ؛ أتكون فتنة أبوك سَائقها ، وقَائدها ؟ فكَان عليّ يقدم عَلى أمره ؛ لأنَّه كَان منَ الراسخين ، وعلى يَقين ، وكَان مُحمد ابنه يَجبن ؛ لأنَّه كَان في مقَام الشبهَة ، والوَرع هُو الجُبن عَن الهُجوم ، والإقْدَام ، والوقوف عنْد المشكلات .

واليَقين هُو الإقدام عَلى الأشياء ببصيرة[3] والقطع في الأمر على

---

(١) غيه : ضلاله ، وفي القرآن الكريم ﴿قَدْ تَبيَّنَ الرُّشْدُ منَ الغَيِّ﴾ .

(٢) وكزه : دفعه وضربه . (٣) البصيرة : قوة الإدراك والفطنة .

علمٍ .

وهَذه هي صفة العُلماء الموثوق بهم الراسخين ، لاَيحسنه سواهم ، وكَان الثوري يَقول : إنَّما العلم الرخصَة من ثقةَ ، فأمّا التسديد فكلٌ أحد يحسنه : يَعني أنَّ التوقف ، والجُبن صفة المؤمنيَن وهُو الورَع .

ومن أجل هَذا حَسُنَ الصمت ؛ لأن الإقدام لا يحسنه كُل أحد ، وفيه وَرَد «أنَّ اللَّه يُحب البَصر النافذ عند وُرود الشبهات » فقد تبين بما تَقدم أنْ الوَرع تَرك الشبهات كُلها ظَاهراً ، وبَاطناً ، كذلك قَال إبراهيم بن أدهم -رضي اللَّه عنه - الوَرع ترك كلُ شُبُهة .

والكشف عنْ حقيقة هَذه المَسألة خطير جداً ؛ لأنّ الوَرع مَقَامه منَ الدين عظيم ، جَزاؤه خفة الحَسَاب ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيرًا﴾ (١) .

وقيل في هَذا المعنى : ثَواب الوَرع قلة الحسَاب .

وقيل في هَذا المعنى أيضاً : الوَرع الخُروج من كُل شُبهة ، ومُحاسبة النَّفس مَع كُل طَرفة ، وهَذا حال منْ أقام نفسه في الدنيا مقَّام وقوفه بين يَدي اللَّه تَبارك وتَعالَى في القيامة ؛ فقد تبين والحمد للَّه أن الورع عَامٌ في جميع مقامات الإسلام ، والجَسَد الظَّاهر ، وفي مَقَامَات الإيمان والنَّفس في البَاطن ، وفي مَقَامَات الإحسَان ، والروح العَقلي كسَائر مَقَامَات الدِّين .

فمن تبيَّن الأشياء على مَا هي عَليه فهو منَ الرَّاسخين ، ومن حَرَّفَهَا ، أو زَاد فيها ، أو نَقص بالرأي فَهو من الزَّائغين ، والمُخلِّطين ومن توقف ، فصدَّق بالشَّيء ، وآمن به على مَا هُو عليْه ، وهَرب من التأويل (٢) الباطل

(١) سورة الانشقاق (٧، ٨) .

(٢) التأويل : التفسير .

والحَرام البيّن فهو من المُهتدين .

وأصْل التَّوفيق في ذَلك كُله الوَرَع ، والوُقوف حَتى يتبيّن ، أو يَترك الشَّيء إلى عَالمه ، وإنَّمَا تتبيّن هذه المَسألة على الحقيقة بفَهم هيئة[١] العالم عَلى مَا هُو عَلَيه ، وفَهم قول النَّبي عليْه السَّلام : « الحَلالَ بَيِّن ، والحَرام بيِّن ، وبينهما مُشتبهات »[٢] .

وذلك أنَّ اللَّه تعالى خَلق الجنَّة ، والنَّار وجَعلهما دَارين ، أحدهما جهة اليَمين ، والأُخرى جهة الشِّمَال ، هَذه خَير كُلها صرْف[٣] ، وهَذه شَرٌّ كلَها صرْف ، وأنزَل الدِّين بالأمر والنَّهيَ عنْ مَعنى الدَّارين ، فالأمر هُو الحَلال لآخذه يُدخل الجنَّة ، والنهي هو الحَرام ، آخذه يَدخل النَّار .

ثم خَلَق دَار الدُّنيا بين الدَّارين ، ومنهما وبَعدهما ، فالجنَّة منَ القَبر إلى أعلى عليين ، والنَّار من القَبر إلى أسفَل سَافلين ؛ رَوضة منْ ريَاض الجنَّة ، أو حُفرة منْ حُفر النَّار .

وقال أيضًا : « وَالَّذِي نَفْس مُحمد بِيَده مَا بَعد الدُّنيا دارٌ إلا الجَنَّة ، أو النَّار »[٤] .

فهذا قَسَمٌ منَ النَّبي عليْه السَّلام أنْ لَيس بَعد الدُّنيا إلا الجنَّة ، أو النَّار ، فالنَّاس بَعد المَوت إما مُنَعَّم ، أو مُعذب في جَنة ، أو نَار ، فعلى هَذا فالنَّاس إذًا في الدُّنيا وقوف بيْن الجَنة والنَّار حَقيقة ، وهمْ لا يشعرون إلا/ المُوقنين ١٣٤/ب
منهم .

(١) الهيئة : الحالة التي يكون عليها الشيء محسوسة كانت أو معقولة .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) الصرف : الخالص لم يشب بغيره يقال : شراب صِرف غير ممزوج .

(٤) الإمام السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٢٢) .

والدُّنيا مَخلُوقة من الجنَّة ، والنَّار ؛ فَلذَلك كانت مُشبهة ؛ لأنَّها مَمْزوجة[١] منْ هَذه وَهَذه ، خلقتها على الحَقيقة من أربعة مَعَان ، مَعنيان ظَاهران للحَواس[٢] ، ومَعنيان باطنان في القُلوب ، والذَّوات ، اثنان من قبلَ الجنَّة ، واثنان من قبل النَّار ، ويَلتقيان في وُرود بعضها على بَعض ؛ فكَأنَّ ذَلك ظَاهر الدُّنيا وبَاطنها .

أمَّا الاثنان من قبل الجنة : فَالواحد الظَّاهر هو ما يُنزِّل اللَّه من عُلو إلى هَذا العَالم من الأنوار ، والأزْهَار ، والرَّوائح ، والميَاه ، والألبان ، وكُل طَيب ، وحسن ظاهر للحسن ، ويُصعد من النار في مُقابلته كُل كَريه منَ الحُرُور[٣] ، والبرود ، والظُّلمات ، والأمراض ، والأسقَام ، والشَّائكات ، وكُل مكروه ظاهر للحَواس ، فيمتزج هَذا بِهَذا ، وهَذا بهذا، فكَان عنهما وجُود ظَاهر الدُّنيا .

ويُنَزل من العُلو بالمَعنى الآخر البَاطن ، وهُو ما يُجري اللَّه تعالى في هَذا العَالم منَ الإيمَان ، والعُلوم ، والأعمال، والأذْكَار البَاطنة ، والأخلاق الحَسَنة منهَا ، والصَّلوات وجَميع أُمور الدِّيَانَات ، ويُصعد منَ النَّار في مُقَابلته الكُفر ، والشِّرك ، والنِّفاق ، والأعمال القَبيحة ، والغَضب ، وجَميع مَا يكُون منَ الفُسُوق[٤] ، والخُذْلان ، فيلتَقيان .

---

(١) ممزوجة : مخلوطة .

(٢) الحواس : جمع حاسة : وهي قوة طبيعية لها اتصال بأجهزة جسمية بها يدرك الإنسان والحيوان مايطرأ على جسمه من التغيرات . والحواس خمسة ، وهي : البصر : والسمع ، والشم ، والذوق، واللمس، وتسمى الحواس الظاهرة .

(٣) الحُرُور : جمع حَر وهو الحرارة .

(٤) الفسوق : الخروج عن أمر الله ، وفي القرآن الكريم ﴿فَسَجدُوا إلاَّ إبْليسَ كَانَ منَ الْجنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ ربِّه﴾ . أي خرج عن طاعته فهو فاسق .

فلذلك كَانت أُمور الدُّنيا كُلها مُزجاة خَيراً ، وشَراً ؛ فالأعمال ، والأحوال الوَاردة منَ الجنَّة هي التي أُحل للعبد فعلها ، وأُمر بها ، والوَاردة منَ النَّار هي التي حُرّم على العبد فعلها ، وهذا بمنزلَة قَول النبي عليْه السَّلام : « **الحَلال بيِّن والحَرام بيِّن** »[1] فإذَا امتزَجَتَ الأعمال ، والعُلوم ، والأحوال فَهي شبهة يَجب تنقيتها ، وتَصْفيتها أو الوقوف قَبل الفعل عنها .

فالورَع وَاقف بجَسده في الدُّنيا بَيْن الجنَّة والنَّار ، والدُّنيا واردة عليْه من
١/١٣٥ الآخرة مَع كُل نَفَس نَاظر إلى الحَلال والحَرام في وُرودهما / منْ غَيب اللَّه ، وعلى أيدي مَلائكته ، ونَاظر إلى الشَّر منْ سَفل على أيدي الشَّياطين ، فيترك الحَرام بالتَّقوى ظَاهراً ، وبَاطنًا ، ويَأخذ الحَلال ، وإذا اشتُبه عليْه الأمر وقف ، ولذَلك ضَاقت على الورَعين الدُّنيا .

والحَلال هُو كُل فِعلٍ انحلت عنْه المَطَالب كُلها مِنَ اللَّه ، ومن العِباد منْ أجل المَظَالم .

والحَرام هُو كُل مَا خَطر ، ومُنع من كل فعل ، فمنْ أَخَذه طُولب عليه منَ اللَّه ، والعباد ؛ فإذا قلت : لا إله إلا الله مَثلاً ، وسلم القول ، والذِّكر مَن التَّزين ، والرِّياء ، والسُّمعة ، والإعجَاب ، والشَّك ، والتَّشبيه ، وغير ذَلك مما تَمتزج مَعها حين القَول ، إن امتزج[2] فقد انحلّت عنهَا المُطَالبة ، وجَاءت من الجنَّة ، منْ عنْد اللَّه ، ورجعت إلى اللَّه .

وكَلمة الكُفر ، والشَّك ، والرِّياء ، وغير ذَلك إذَا وَرد على العَبد حُرم فعله ، ووَجب تَركه ؛ لأنَّه حَرام ، فيرد بالتَّقوى فإذا امْتَزَج العَمل ، والفعل وَجب تَنقيته ، أو الوُقوف عنْه ، وتَركه هُو الورَع ، وإلا حُوسب العَبد

(١) سبق تخريجه .

(٢) امتزج : اختلط .

حسابًا شَديدًا عليْه .

وكَذلك كل شَيء من مَنكح ، أو مَلبس ، أو مَطعم ، أو أي فعل كان إذا تَبيَّن بالشَّرع أنه حَرامَ وجب تَّركه ، وإذاً تَبيّن أنه حَلال أخذ وَفعَل إنْ اَحتيج إليْه ، فإذا امتزج وَجَب الوُقوف عنْه ؛ فعالم الدُّنيا بيْن الجَنَّة والنَّار كَالشفق[١] بيْن اللَيل والنَّهَار ، مُمتزج بظلام الليْل ، وضياء النَّهار .

ودَليل مَا تَقدم قول النَّبي ﷺ : « **حُبِّبَ إليَّ من دُنيَاكم ثَلاث : الطِّيب ، والنِّسَاء ، وجُعلت قُرّة عَيني في الصَّلاة** »[٢] فجعل الصَّلاة من الدنيا .

وفي حديث آخر : « **الدُّنيا مَلعونة ، مَلعونٌ مَا فيها إلا ذكر اللَّه ومَا وَالاه** »[٣] وفي أخرى : « **إلا عَالِم ، أو مُتعلم** »[٤] .

فجعل الذِّكر ، ومَا وَالاه من كُل خَير ، والعلم ، والعَالم من الدُّنيا ، وقال فيها : « **إذَا رأيتم رِياضَ الجنَّة فارتَعوا** »[٥] فَذكَرَ أنَّها مِنَ الجَنَّة / وردت، ١/١٣٦
فَهذا هُو المَعنى البَاطن .

والمعنى الآخر من النَّار كُل مَلعون سوى ذكر اللَّه ، ومَا وَالاه ، أو العَالم ، والعِلم المذكور في هذا الحديث المتقدم .

وقول اللَّه تعالى : ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ** ﴾[٦] وهذه أحوال ، وأعمالٌ للقُلوب ،

(١) الشفق : حمرة تظهر في الأفق حيث تغرب الشمس ، وتستمر من الغروب إلى قبيل العشاء تقريباً .

(٢) النسائي (٧/ ٦١) أحمد (٣/ ١٢٨) الحاكم (٢/ ١٦٠) .

(٣) ابن ماجه (٤١١٢) .

(٤) كتاب المجروحين لابن حبان (٢/ ٢٥٢) .

(٥) فارتعوا : فتنعموا والْهُوا .

(٦) سورة الحديد الآية (٢٠) .

والأجسَاد .

وأمَّا دَليل المَعنيين الظَّاهرين فقول النَّبي ﷺ : « إنّ النَّار اشتكَت إلى ربِّها، فأذن لها بنَفَسَين ، نَفَس في الشتَاء ، ونَفَس فِي الصَّيف »[١] الحديث إلى آخره .

وقـوله : « نَاركُم هَذه التي تُوقـدون عَليهَـا جُزءٌ من سَبعين جُـزءًا من نَار جَهنم»[٢] .

ثم وَصف المَعنى الآخر النَّازل منَ الجَنَّة فقال : « وَلولا أَنَّها ضربت بالمَاء مَرتين ما انْتَفعتم مِنها بِشَيء » .

وقال عليه السلام : « النِيل والفُرات وسَيحون[٣] ، وجَيحون مِنَ الجَنَّة » .

وقال تعالى : ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾[٤] .

وقال في عُموم جَميع مَا نَزل من الجَنَّة : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[٥] فكُل رَحمة منَ الجَنَّة من نُور، أو طيب ، وغَيره لأنَّ اللَّه يقـول فَيمـا رُوي عنه للجنَّة : « أَنْتَ رَحمَتي أرحم بِكَ مَن أشَاء »[٦] وهـذه الرحمة المَفْتوحة هي الَّتي أنزَل من المائة التي ذكر النَّبي ﷺ في قوله : « إنَّ اللَّه خَلَق مائـة رَحمة ، أَنزل إلى الأرضِ واَحـدة ، وأمسَك عنده تسـعة وتسـعين، فَإذَا كَانَ يوم القِيـامة قَبَض هَذه إلى تِلك ، فَرَحِم بهـا عباده المُؤمنينَ»[٧] وهَذَا تَصديق

(١) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب المساجد (١٨٦) أحمد (٢/ ٤٦٢) .

(٢) ابن ماجه (٤٣١٨) بنحوه ، أحمد (٢/ ٢٤٤) .

(٣) سيحون : نهر بالهند .

(٤) سورة المرسلات الآية(٢٧) .

(٥) سورة فاطر الآية (٢) .

(٦) الإمام السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٠٧) .

(٧) الحديث عند أحمد (٤/ ٣١٢) ، الحاكم (١/ ٥٦) الطبراني في الكبير (٦/ ٣٠٧) .

لقول اللَّه تعالى : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾[1] وقوله فيما رُوي عنه في الدُّنيا : «مَيزوا مَا كَان لي منها ، وأَلقوا سَائرها في النَّار » .

فالوَرَع في دَار الدُّنيا أَقَام بنَفسه هَذا المَقَام من التَّميز[2] ، فَميز أَعماله ، وأَحْواله ، وعُلومه ، وأَقْوَاته ، ويُخلصها من الأَشْبَاه ، فإذا وَرَدَ القيَامة خَفَ حسابه/ . ١٣٦/ب

والَّذي أَخذ الأمر بالتَّخليط أَمثالنا تَوقف ، فَيَطول حسَابه ، ومُناقشته على قَدر تَخليطه ، ومن كَان الحَرام غَالبًا عليْه فالنَّار أَولى بَه ، وهَذه إشارات وحكم إنْ فَهمتها فَهمت منها مَعاني الآخرة كُلها ، ووقع لَك اليقَين بهَا . وكذلك تَفهَم منها لأَي شَيَء لا تَأكل الأَرَض أجسَاد قَوم ، وتَأكل أَجَسَاد آخرين ، وتفهم منها أحوال المَعَاد كُلها إنْ شَاء اللَّه .

وكذلك يَنظر العقل في مَقَام الإحسَان أَيْضًا في المَخْلوقات ، ويَنظر منها إلى الخَالق ويَنْظر في الكتَاب ، والسُّنة ، ويكُون قَديمًا ، كَافّاً عن الإقْدَام بغَير بَيَان ، وبُرهان كتَابي ، وعَقلي ، لئلا يَقَع العَبد فيما وَقع فيه الزَّائغون الَّذين يَقولون بنَفي الصِّفات والذين يَقولون بخلق القُرآن ، والَّذين يَقولون بالتَّشبيه ، والَّذين يَقُولون بحُدوث الصِّفَات ، وغير ذَلكَ من آرائهم المُجانبة[3] لاعتقاد أهل السُّنة ، وإنَّمَا وَقَعوا في ذلك لقلة الوَرَع ، والإقْدَام ، والجرأة بآرائهم ، وتأويلاتهم الكَاذبة ، المُضلة .

منّ اللَّه علينا ، وعليكم برحمة منْ عنده ، وهداية كَاملة ، ويُسر شَامل ، وعَافية دَائمة في الدُّنيا ، والآخَرة بكَرمه آمينَ ، وصلى اللَّه على مُحمد ، وعلى آله ، وسَلم[4] .

---

(١) سورة الأنفال الآية (٣٧) .

(٢) تميز : انفرد وانعزل عن غيره ، وفي القرآن الكريم ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

(٣) المجانبة : المبتعدة . (٤) بلغ مقابلة : كذا وجد على حاشية الأصل .

الشُّعبَة الموفية ثلاثين

القناعة[١]

أمّا كونها منْ شُعب الإيمَان ، فإنَّ مكحولاً رَوى عنْ وَاثلة بن الأسقع عن أبي هُريرة قالَ : قال رسول اللَّه ﷺ : « **كُن ورعًا تكن أعبد النَّاس ، وكن قنعًا تكن أشكر النَّاس** »[٢] فجعل القَناعة أفضل مقَامات الشكر ، والشُّكر نصف الإيمان ، فكَانت القَناعة أفضل شُعب نصف الإيمَان ؛ ولأنَّها أيضًا من كُنوز البرِّ ، والبر هو شُعب الإيمان .

كما روى جابر عن رسول اللَّه ﷺ قال : « **القناعة كَنز لا يفنى** »[٣] .

وورد في / التفسير في قوله تعالى : ﴿ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾[٤] قيل : الحَياة الطيبة في الدُّنيا القَناعة . ١/١٣٧

والحياة مِنَ الإيمَان ؛ لأنَّها ليست حَياة جُسمانية .

وأيضًا فإن القَناعة غنى ، وعزٌّ بالله ، وضدها فَقر ، وذُل للغير ، وكان عليه السلام يَستعيذ باللَّه من أضدَادها كالطَمع[٥] ، والفقر وأشباههما ، ومتى لمْ يقنع العَبد لم يَشبع أبدًا ، وإنْ كَان له من المَال مَا لا يُحصى ؛ فإنَّه طَامع في الزيادة ، فاغر[٦] فَاه ، يَقول : هَل منْ مَزيد .

---

(١) القناعة : الرضا بما أعطى وقُسم فهو قانع . وقال لبيد :

فمنهم سعيد أخذ بنصيبه ومنهم شقي بالمعيشة يَقْنَع .

(٢) ابن ماجه (٧/ ٤٢) ، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣١٨) .

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٦١) .

(٤) سورة النحل الآية (٩٧).

(٥) الطمع : الرغبة في الشيء واشتهاؤه . (٦) فاغر : فاتح .

وورد في الصحيح في هذا عنْ رسول اللّه ﷺ : « لو كَان لابْن آدم واديان لابْتغى وادِيًا ثالثًا ، ولا يَملأ جَوف ابن آدم إلا التراب»[١] .

فعلى قدر ما عند الإنسان من القناعة يكُون عنده من شَبع القَلب ، والاستغنَاء باللّه ، وبالضِّد لَمن فَقد القَنَاعة ، أو بعضها ، وعلى قَدر مَا يَفقد من القَنَاعة يكُون عنْده منْ ضدها ، ويذهب منْ دينه بقَدر ذَلك ، فإمَّا أنْ يكُون مُشردًا[٢] في الأسفار في طَلب الزيادة المَذْمُومة ، مُتَّبعًا للهوى ، ومُؤْثرا الدنيا على الآخرة . فَإذَا كان مؤثرًا لطَلب الدُّنيا على طَلب الآخرة فقد نقص عَمله ظَاهرًا ، وباطنًا ؛ أعني عمل قلبه ، وجوارحه ، وذَلك نُقصان دينه .

وإن كَان فقيرًا ، ولم يَقنع فإمّا أن يَطلب المَال من غَير حلّه ، فَيسرق ، أو يغصب[٣] ، أو يُذل لأبناء الدُّنيا ، وفي ذلك ذَهَاب بعض دَينه .

كما ورد في الخبر : « مَنْ تَواضَع لغنى ذَهب ثُلثا دينه»[٤] وإنَّمَا تَواضع له بالطَّمع الّذي هُو ضد القنَاعة ، ولو قنع لكَان عزيزًا ، والطَّمع هو الفَقر الحاضر ، المُستعاذ منه ، الّذي كَاد أن يكُون كُفرا حقيقيًا .

وفي الزَّبور[٥] مكتوب : القَانع غني ، وإنْ جَاع ؛ ففي القَناعة الغِنى ،

(١) صحيح : البخاري (٨/ ١١٥) ، مسلم في صحيحه كتاب الزكاة (١١٦) الترمذي (٢٣٣٧) .

(٢) مشردًا : لامأوى له .

(٣) يغصب : يأخذه قهراً وظلماً .

(٤) قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة (١١٠٢) : البيهقي في الشعب من حديث الحسن بن بشر ، حدثت عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن ابن مسعود من قوله . وللطبراني في الصغير من حديث وهب بن راشد البصري ، عن ثابت البناني ، عن أنس مرفوعاً . بنحوه وقال : لم يروه عن ثابت إلا وهب وكان من الصالحين وهما واهيان جدًا ، وقد ذكرهما ابن الجوزي في الموضوعات ا هـ بتصريف .

(٥) الزبور : صحف داود عليه السلام .

والعز المحمود اللذان هما من أجلّ صفات المؤمنين ، وفي فقدهما / التَّعبد للغير. ١٣٧/ب

كما ورد في الخبر : « **تعس عبد الدرهم ، وتعس عبد الدِّينار** » إلى آخر المعنى(١) .

ويُقال في الفعل الثلاثي من لفظ القَناعة : « قَنَعَ » قَناعة إذا رَضي ؛ فالفاعل منه قَانع ؛ أي راض بما أوتي ، فلم تطمع نفسه في غَيره ، ومن الربَاعي «أقنع» الرجل رأسَه يُقَنِع إذا نصبه قَائمًا مُرتفعًا ، فلم يلتفت يمينًا ، ولا شمالاً ، ولم يُطَأطأ(٢) رأسه، وكان بصره تلقَاء وجْهه ، ومنه الإقناع في الصَّلاَة .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ **مُقْنِعِي رُؤُوسِهِم** ﴾(٣) أي رافعي رُؤوسهم .

فإذا فَهمت هذا فاعلمْ أن القَناعة تَظهر في الظَّاهر ، والبَاطن ، فإذا قَنع العَبد بالحلال لم يقع في الحَرام بجميع جوارحه ، كالَّذي لا يُقنعه شُرب الماء، فليشرب النبيذ(٤) الحلال ، وليقنع به فإن لمْ يقنع شَرب الحرام .

وكَذلك ينكح واحدة من النِّسَاء ، فإن لم يَقنع أُمر بالزيَادة إلى أربع ، فإن لمْ يقنع فملك اليَمين ، فإن لمْ يقنع وقَع في الحرام ، وذُلَّ بذُلِّ المعاصي .

وهكذا في كَسب الأموال، وسعي الجوارح كُلها، وأصل ذَلك كله عدم القَناعة من القلب، وإذا لمْ يقنع بقَليل المَال طَلب الزيَادة ، وطمع فيها ؛

(١) صحيح : البخاري (٨/ ١١٥) ، ابن ماجه (٤١٣٥) .

(٢) طأطأ : خفض من شأنه .

(٣) سورة إبراهيم (٤٣) .

(٤) النبيذ : شراب مسكر يتخذ من عصير العنب أو التمر أو غيرهما ويترك حتى يختمر .

فهو لا يَشبع أبدًا ، ونَاله الذُّل بالتَّعبد للهوى .

وقَالَ وهبُ - رحمه اللَّه - في هذا المعنى : إنَّ العز ، والغنى خَرجَا يَجُولان فَلقيا القَناعة فاستَقرا .

وكذلك قيل : إن العقاب عَزيز في مَطاره ، فإذا طمع في جيفة[١] مُعلقة على مَصيدة وقع عليهَا ، فتعلق في المَصيدة ، وصَار ذَليلاً .

فَالقَانع عزيز بربه ، غَني بعَطائه ، وهَذه صفة الإيمَان ، قال اللَّه تَعالى : ﴿وللَّه الْعزَّةُ ولرَسُولَه وللْمُؤْمنين﴾[٢] وقال تَعالى : ﴿ فَلا[٣] تهِنُوا وتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمنِينَ﴾[٤] .

وإنما كَانوا أعلين ، وأعزة باعتزازهم وعُلوهم باللَّه ، وحُسن العز باللَّه ١٣٨/أ كحسن الذل لَه سَواء ، وحُسن الاسْتغناء به كحُسن / الافْتقَار إليْه سَواء ؛ فالقَناعة مَقام رفيع منْ مَقَامَات الدينَ ، رَافعة لقُلوب أهلَها في الحَال إلى علنيين .

قال اللَّه تبارك وتعالى في أوصَافهم : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾[٥] .

والتعفف[٦] هو حَال القَانع ، ووُصف بالقَناعة ، وفي هذا المَعنى قيل : الفقراء كُلهم أموات إلا من أحياه اللَّه بعز القَناعة ، فيخرج من هذا أن

(١) جيفة : جثة الميت إذا أنتنت .

(٢) سورة المنافقون الآية (٨) .

(٣) في الأصل « ولا » وهو خطأ .

(٤) سورة محمد الآية (٣٥) .

(٥) سورة البقرة الآية (٢٧٣) .

(٦) التعفف : هو طلب العفة ، والعفة هي : الكف عما لا يحل ولا يجمل من قول أو فعل ، فهو عف ،وعفيف .

القناعة بالشيء : استغنائه عنْ غيره .

ويقال : مَنْ رَضي من اللَّه بالقَليل مِنَ الرزق رضي اللَّه منه بالقليل من العمل .

فصل

اعلمْ أن القَناعة على ثَلاثة أضْرب ، على عَدد الذَّوات : الجسم ، والنَّفس، والرُّوح ، وعَلى عَدد مَقَامات الإسْلام ، والإيمَان ، والإحسَان ، فضَرب ظاهر في مَقَام الإسَلام ، وعالم الحِس ، وضَربان بَاطنان في مَقام الإيمَان ، والإحسَان ، والنَفس والروح .

فأما الضرب الظاهر في مقام الإسلام فهو ما تقدم ذكره من القناعة بأمور الرزق وأمور الدنيا ، وقد تقدم شيء من الكلام عليها .

وأمَّا الضرب الباطن في مقام الإيمان فإن القلب إذا نظر بإيمانه إلى الآخرة ، ونظر إلى الدنيا ورأى مابينهما من التفاوت(١) ، والبَون(٢) قنع بالآخرة وأغنته ، وصار مُشتغلاً بما قنع به عن غيره ، وهذه حالة رفيعة ، نفع الله بذكر أهلها آمين .

وقد ورد في الآثار أن أهل القناعة يُحشرون يوم القيامة مُنطَّقين(٣) بمناطق النُّور ، على أوساطهم يُزينون أهل المحشر ، ويتعجب النَّاس من حُسنهم ، أو كما ورد .

---

(١) بالأصل « التفاوات » .

(٢) البَوْن : البعد بين الشيئين من الفضل والمزية .

(٣) مُنَطَّقين : يلبسون النطاق ، والنطاق هو : حزام يشد به الوسط ، أو ازار تلبسه المرأة تَشُده على وسطها أثناء العمل .

وأمَّا الضرب الباطن من القناعة في مقام الإحسان فإنَّه لأهل الهمم الرَّفيعة ، فإن النَّاس في القناعة درَجات ، ولهم في القناعة مقامات رفيعَة ، فمنهم من يقنع بالآخرة عن الدنيا كما قَنع أهل الدنيا بالدنيا عن الآخرة ،
١٣٨/ب ومِنهم من ارتفعت همته / ، فقنع بالله عن الكل إذا وجد فيه غنيه عن الكل ، فهؤلاء هم القانعَون بالله ، وهم الذين غلب عليهم مقام الإحسان الروحاني ، فطوبى [١] لهم ، بأي كنز قنعوا وبأي موجود ظفروا [٢] .

وقال بعض أهل هذه الهمم لأحدهم : انظر إن أعطاك جميع ما في الملك ، فلا يقنع بشيء دُونه بدَلاً منه ، أو كما قال .

فالطالبون لهذا المقام مُجدّون في طلب مرغوبهم ، لا يجدون راحة إلا بالظفر بمطلُوبهم .

وفي الخبر : « لا راحة لمؤمنٍ دونَ لِقاء ربّه » [٣] .

ومنهم من يلقاه حالاً ، ومآلاً [٤] ، كل على حسب رزقه ، وقسمه ، وهذه صفة العُقول الرَّاجحة السليمة ، الكَاملة ؛ لأن صفةَ العقل أن تَختار الأفضل على المفضول ، والكَامل على الأنقص ، وتقنع به عن غَيره ، فإن فَعل ذَلك كان منحوس [٥] الحظ لقناعته بالأنقص عن الكامل ، وبالمفضول

---

(١) طوبى : هي الحسنى والخير ، وفي القرآن الكريم ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآب﴾ .

(٢) ظفروا : فازوا ونالوا .

(٣) قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة (١٣٠٥) : وكيع في الزهد عن ابن مسعود من قوله ، ورفعه بعضهم ، واستشهد له بحديث عائشة من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، وغيره بقوله ﷺ حين سئل عن قوله : مستريح ومستراح منه : « العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله » الحديث ، قلت : وكذا من شواهده ماعند أحمد من حديث عائشة مرفوعاً في حديث « إنما المستريح من غفر له » اهـ .

(٤) المآل : المرجع .

(٥) المنحوس من أصابه النحس ، والنحس هو : جلب الضرر وسوء الحال .

عن الأفضل ، وإنَّما يَظهر هذا العين عَيانًا يوم التغَابن[1] ، وفي دَوام الخُلود، فيقف كل عقلٍ في مقامه الذي قنع به في مقام تعبده في الدنيا ، ومن ذلك المقام يكون إمدَاد مَزِيده في دار الشقاوة والسعادة .

رزقنا الله وإياكم الحظ الأكبر ، والنصيب الأوفر بمنه وكرمه آمين ، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً .

(١) يوم التغابن : يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ .

الشُّعبةُ المُوفية إحدَى وثلاثين
الإيمان(١) بالله تبارك وتعالى بالغَيب

وهذا هُو الذي يقع عليه صريح اسم الإيمان في اللغة ، وهو التصديق بالشيء ، وما سوى ذلك من شُعب الإيمان فُروع تتفرع منه .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَاأَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوكُنَّا صَادِقِينَ ﴾ (٢) أي ما أنت بمصدق لنا ، فقول اللسان : لا إله إلا الله محمد رسول الله يُسمى إقرارًا منه ، وتصديق القلب بما أقرّ به اللسان يُسمى إيمانًا ، ومعناه : التصديق بوجود الله أنه حق .

١٣٩/ب والوجود هو الله / واسم الله واقع على الذَّات فهذا الاسم العلمُ الواقع على الواجد(٣) الحق جل جلاله فلو قال الإنسان : لا إله إلا الكريم ، أو الحليم ، ولم يقل لا إله إلا الله ، لم يستقم إيمانه حتى يُقرّ ، ويُصدق بالاسم الأعظم الواقع على الواجد(٤) ، لأن الأسماء غيره واقعة على الصفات .

ومَن أقر بالصفات ، ولم يُقرّ بالذَّات لم يُصدق بموجود ، لأنَّ الصفات لا تكون إلا لموصوف ، ولا يصح وجُودها دون الذَّات ، والذَّات هو الذي عنى رسول الله ﷺ بقوله : « تفكَّرُوا في خَلْقِ اللَّهِ ، ولا تَتفكَّرُوا في

---

(١) الإيمان : التصديق ، وفي الشرع : التصديق بالقلب والإقرار باللسان .

(٢) سورة يوسف الآية (١٧) .

(٣) في الأصل «الوجود» .

(٤) في الأصل « الوجود » .

ذات الله »[١] وهو المعنى بقوله عليه السلام : « لا شخص أغير من الله ، ولا شخص أحب إليه العذر من الله » من أجل ذلك بعث المرسلين مُبشرين ، ومُنذرين، ولا شخص أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك وعد الجنة »[٢] .

فذكره الشخص واقع على وجود الذات سُبحانه وهو الذي عنى خبيب في شعره حيث قتل في الله - رحمه الله - :

وذَلك في ذَات الإِله وإن يَشأ يُبارك على أَوْصَالِه[٣]شلو ممزع

وهذا الباب ينقسم في النَّظر على ثلاثة أقسام :

نظر ظاهر في مقام الإسلام ، والحسُّ الذي هو عالم الجَسَد ، وضرب في مقام الإيمان وعالم النَّفس الأخراوَي ، وضرب في مقام الإحسان الرّوحاني .

فأمَّا الضرب الأول في عالم الأجساد فينظر النَّاظر في الأجساد فينفي الجُسمانية عن بارئه ويُؤمن ويُصدق أنَّ ربه ليس بجسم ، ولا يُشبه الأجسام، ولا الجواهر[٤] والأعراض المؤتلفة[٥] منها الأجساد ، فيصح إذ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في العرش من قول ابن عباس موقوفاً عليه ، والأصبهاني في ترغيبه ، وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن سلام ولأبي نعيم أيضاً عن ابن عباس ، وللطبراني في الأوسط ، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر ، وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكتسب قوة ، والمعنى صحيح ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا يزال الناس يتسآلون حتى يقال هكذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد في نفسه شيئاً فليقل : آمنت بالله . اهـ بتصريف .

(٢) صحيح : البخاري (٩/ ١٥١) مسلم في صحيحه كتاب اللعان (١٧) .

(٣) أوصال : جمع وَصْل وهو الصلة والهبة ، يقال : أعطاه وصلاً من ذهب .

(٤) الجواهر : جمع جوهر وهو ماقام بنفسه ، و يقابله العرض ، وهو ماقام بغيره .

(٥) المؤتلفة : المجتمعة المتوافقة .

ذاك إيمانه ببارئه وتصديقه ، ويكون مُؤمنًا بالله على ما هو عليه .

وأمَّا الضرب الثاني من النَّظر الإيماني في مقام / الإيمان ، فإنَّ العالم ١٣٩/ب
على قسمين : ظاهَر وهو ماتقدم ، وبَاطن وهو عَالم الغيب النَّفساني ، والرُّوحاني ، فينظر أيضًا في عالم النَّفس ، واختلاف النفوس ، وعظم موجودات الآخرة ، واختلافها ، فيرى عليها آثار الحدث ، ودلائله ، فينفي أن يكون ربه من قبيلها ، وإن كانت موجوداتها أشرف من عالم الأجساد فيؤمن أن ربَّه أعلى ، وأجل من ذلك وأنَّه ليس مثلها .

وأمَّا الضَّربُ الثالث من النَّظر في مقام الإحسان فينظر الأرواح صادرة من أمر ربها ، فكانت خلقتها أغرب ، وأعظم من غيرها من الأجسام والنفوس ؛ لأنَّها لطيفة جَدًا ، فيرى أيضًا عليها آثار الحدث ، فينفى [(١)] عن ربه أن يكون من قبيل الأرواح ، والعقول ، ويشهد على الوجود كله جسمانية ، ونفسانية ، ورُوحانية بالحدث ، فإن البارئ ليس من قبيل ذلك كله فيصدق به أنَّه ليس مثل شيء من الأشياء فحينئذ يصح إيمانه وتصديقه .

وقد ضل [(٢)] خلقٌ كثيرٌ في الأرواحِ ، والنفوس فقالوا بقدمها ، وآخرون بقدم الكل ، جسدًا كان أو غيره ، وآخرون نفوا الصانع ، ولم يُصدقوا به حين لم يُشاهدوه ، ولا أدركوه ، وآخرون شَبهوه .

والسلامة من ذلك كُلِّه ، أن يؤمن العبد ، ويصدق أن البارئ موجود وأنَّه ليس كمثله شيء من الوجُود ، إلا أنَّه يحتاج بقلبه أن يعتقد بتصديقه أنَّه ليس كالأشخاص ، ولا ذاته كالذَّوات ، ولا وُجوده كوجود شيء من الموجودات وإلا كان مُعتقدًا لشيء مُتوهم ، أو مُتَخَيَّل ، أو مُشبّه ، والإله

---

(١) ينبغي : النفي خلاف الإثبات وهو : أن يُنحى ويبعد مجرد التفكير بأن يكون ربه من الأرواح .

(٢) ضل : انحرف عن دين الله الحنيف .

سبحانه يتعالى عن ذلك .

وإنما يستقيم له هذا العقد ، وينتفى عنه الباطل في اعتقاده بتصديقه بتسعة أشياء بها ينتفى عن وجود الله مالا يليق به :

١٤٠/أ أولها : التصديق بوجود الله / أنَّه حق ثابت ، وأنه قديم ، لا أول به ، وأنَّه باق ، لا آخر له ، وأنه ليس بجَوهر ، وأنه ليس بجسم مؤلف من جواهرٍ ، وأنَّه ليس بعَرض من الأعَراض وأنه ليس مُختصًا بجهة ، وأنَّه ليس مُستقرًا على مكان ، ولا حالاً في شيء ، وأنَّه واحد لا ثاني معه .

فأمَّا دليل الأصل الأول من القُرآن - أعني أن وجوده حق - بقوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ ﴾ [(١)] .

ودليله من العقل ، أنَّ العالم كُله حادثٌ بعد أن لم يكن ، ولابد للحادث من فاعل بقوله :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِن غَيرِ شَيءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقونَ ﴾ [(٢)] .

أي من غير رب .

وأمّا القدم فدليله قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ ﴾[(٣)] ودليله من العقل : استحالة التسلسل ، وإذا بطل التسلسل ثبت القدم لواحد قديم .

ودليل البقاء قوله : ﴿و[(٤)] الآخِرُ﴾[(٥)] وقوله ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيهَا فَانٍ وَيَبْقَى

---

(١) سورة الحج الآية (٦) .

(٢) سورة الطور الآية (٢٥) .

(٣) سورة الحديد الآية (٣) .

(٤) في الأصل : « هو الآخر » وهو خطأ .

(٥) سورة الحديد الآية (٣) .

وَجهُ ربِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإكرامِ ﴾ (١) .

ودليله من العقل ، ما ثبت قدمه استحال عدمه ؛ لأنَّه قبل الأفعال كلها ، وكل فعل من الأفعال لا يكون بنفسه ، فكيف يعدم البارئ نفسه بفعله ، أو يعدمه غيره ، لأن كل فعل واقع في العالم فعله .

ولا يُقال أيضًا إنَّه ينعدم من ذاته ؛ لأنَّه لو جاز أن يقدم شيء بنفسه دُون أن يفعل فيه العدم لجاز أن يتكون شيء بنفسه دُون أن يكوِّنه مُكون .

ودليل مُخالفته للأشياء ، وأنَّه ليس بجوهر ولا جسم ، ولا عرض من النقل قوله تعالى : ﴿ لَيسَ كَمثله شَيءٌ ﴾ (٢) ؛ لأنَّ الأشياء كُلها لا تخلو عن الثلاثة الأشياء ، وهي : الجوهر ، والجسم والعَرض .

ودليله من العقل أنَّ الجَوهر هُو الموضوع في الحيِّز (٣) ، المحصور فيه ، فقد ظهرت فيه صورة الوضع في حيِّزه بسكونه ، والسُّكون عرض ، وحال مَعه بحدوثه في الحيز ، بعد الحركة التي صار بها إلى الخير ، وحينئذ / سكن ١٤٠/ب
في الحيز فقد ظَهر أنَّ الجَوهر مَفعول لغَيره بالبُرهان .

وأمَّا الجسم فإنَّه لو كان جسمًا لكان مُؤلفًا من جواهر كثيرة ، ولم تكن تلك الجواهر مُؤلفة إلا بعد افتراقها ، فقد ظَهرت في الجسم صُورة التأليف ، والمؤلف مفعول لغَيره .

وأمَّا العرض فلو كان عرضًا لكان حالاً في الأجسام ، والجَواهر ؛ لأنَّ العَرض لا يكون موجودًا بانفرداه ، وإنما يُوجد اللون ، أو الحركة ، وغير

---

(١) سورة الرحمن الآية (٢٦ ، ٢٧) .

(٢) سورة الشورى الآية (١١) .

(٣) الحيز : المكان ، وحيز الدار ما انضم إليه من المرافق والمنافع ، ويقال : هو في حيز فلان - أي في كنفه .

ذلك من الأعراض في الجَواهر ، والأجْسَام فإذا كان حالا فيها ، لا يُوجد إلا مَعها فقد ظَهرت فيه الصَّنعة كما ظهرت في الجِسم ، والجَوهر ؛ لأنَّه طارئ عليها .

وأمَّا دليله أنه ليس مُختصًا لجهة فقوله :

﴿ اللَّه خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَهوَ عَلَى كُلِّ شيءٍ وَكِيلٌ ﴾[(١)] ، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَينَمَا كُنتُمْ ﴾[(٢)] .

ودليله من العقل أنَّه لو كان في جهة لغابت عنه الجهة الأخرى لكونه محدودًا .

والدليل على أنَّه ليس مُستقرًا على مكان ، ولا حالاً في شيء قوله تعالى :

﴿ لاتُدْركهُ الأَبصَارُ ﴾[(٣)] ، وقوله ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلمًا ﴾[(٤)] .

ومن العقل : أنَّه لو كان على شيء ، أو في شيء لأدركته الأبصار ، والأوهام ، والأمكنة ، والحواس ، وأحاطت بما يليها منه ، والله سُبحانه يتعالى عن ذلك .

والدليل : على أنَّه وَاحِدُ من النقل قوله تعالى :

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحمَنُ الرَّحِيمُ ﴾[(٥)] .

---

(١) سورة الزمَر الآية (٦٢) .

(٢) سورة الحديد (٤) .

(٣) سورة الأنعام الآية (١٠٣) .

(٤) سورة طه الآية (١١٠) .

(٥) سورة البقرة الآية (١٦٣) .

ودليله من العقل : لو كانا اثنين لم يخلُ أن يكون الواحد أقوى من الآخر ، فالضَّعيفُ مَغْلوبٌ ، والغالب هو الإله ، أو يكونا ضعيفين لا يقدر واحد منهما على شيء ، فلا يكون واحد منهما إلهًا ، أو يكونا قَويين مُتساويين في القُوة ، لا يغلب هذا هذا ، ولَا هذا هذا فإذا أراد أحدهما إيجاد مُلك له مَنعه الآخر فلا يُوجَد / لواحد منهما فعل أبدًا . ١/١٤١

وقد ظهرت الأشياء ، ودلَّت على وَحْدَانيته ، فثبت وُجود البارئ تعالى واحدًا للعقول بالأفعال الدَّالة عليه ؛ لأن فعلاً لا يُوجد من اثنين كما تَقدم ، ولا دُون فاعل ، وكيف تكون صَنعة دُون صَانع ؟

والصَّنعةُ قبل صُنعها عدمٌ ، فما ليس بشيء ، كيف يكون شيئًا بنفسه ؟

وإلى هذا نبّه العُقول في كتابه فقال :

﴿ أَفِي اللَّه شَكٌّ فَاطِرُ السَّمَوَات وَالأَرضِ﴾ (١) ، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلَ الأَرضَ مِهَادًا وَالجِبَالَ أَوتَادًا﴾ (٢) ويقول : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّموات والأَرض واختلاف اللَّيل وَالنَّهار ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَعقِلُونَ﴾ (٣) أي يعقلون أنَّ فعلاً لا يكون دُون فاعل .

﴿ وَمِن آيَاتِه أَنْ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ﴾ (٤) كيف يكون التراب شخصًا بنفسه حتى يتحرك ، ويقوم ؟ .

وحيثما ذكر أفعاله سبحانه المُراد بها الدلالة عليه ، فإن قلت : قد ثبت لي بحمد الله دلالة الفعل على الفاعل بالبُرهان لكني لست أدرى بالبُرهان

---

(١) سورة إبراهيم الآية (١٠) .

(٢) سورة النبأ الآية (٦/ ٧) .

(٣) سورة البقرة (١٦٤) .

(٤) سورة الروم الآية (٢٠) .

هذا العالم الذي وجدت فيه هل هُو حادث مصنوع أم لا ؟ بل هكذا وجدته، ووجده غيري قبلي ، فلعله لم يزل هكذا الفلكُ[1] يدور دوره قبل دَورة إلى غير أول ، والحوادث تحت الفلك في عالم الكون والفساد يتعاقب كُل ولد مَسبوق بوَالد ، وكُل زَرع مسبوق ببذر ، وكل بيضة مسبوقة بدجاجة ، وكل ليل مسبوق بيوم ، هكذا إلى غير أول ، فأثبت لي بالبرهان حدث العالم بعدً أن لم يكن فيتم لي به قيام البُرهان على الصانع الحق .

فاعلم : أنَّ معرفة حدث العالم قد تقدم في صدر الكتاب طرف من الكلام عليه ، وله أربعة أصُول ، من فهمها تَبرهن له بالبُرهان حدثه .

أولها : إثبات الأعراض في الجواهر .

والثاني : إثبات استحالة وجود جوهر بلا عرض .

١٤١/ب **والثالث** : / إثبات حدوث العرض .

والرَّابع : استحالة وجُود حوادث لا أول لها .

فأمَّا الأول: وهو إثبات الأعراض ، فإنَّ الحركة ، والسُّكُون عرضان ، وهُما موجودان في العالم كُله ؟ فإنَّ كل جسم وجَوهر من الوجود كُله لا يخلو إمّا أن يكون ساكنًا ، أو مُتحركًا وهذا يدركه كل أحد بلا تعب فكرة ؛ فإن مَن زَعم أنَّه يدرك جسمًا أو جوهرًا لا مُتحركًا ولا ساكنًا ، فينبَغي أن يُعزَّى[2] في غَريزة العَقلَ الذي[3] ليس عنده منها شيء .

فإذا ثبت له الحركة والسكون ثبت له الأصل الثاني : وهو استحالة وُجود جوهر بلا عرض ، فإنَّه لم يعقله إلا ساكنًا أو مُتحركًا ، والحَركة

(١) الفلك : واحد أفلاك وهي : النجوم .

(٢) يُعَزَّى : يُصبر على بلواه ومصيبته .

(٣) في الأصل « التي » .

والسُّكون غير الجسم والجَوهر .

وأمَّا الأصل الثالث ، وهو إثبات الأعراض أنَّها حَادثة فإنَّ ذلك مُدرك بأقل تأمل[١] ، فإن الحركة والسكون ضدَّان ، لا يُوجد هذا إلا بعد فقد هذا ، فإذَا سكن الجَوهر ، فبالضرورة يُعلم أن السُّكُونَ حدثٌ بعد أن لم يكن بعد ذهاب الحركة ، وفنائها .

ثم إذا طرأت[٢] الحركةُ زال السكون ، وحدثت الحركة بعد أن لم تكن فيتعاقب الحركة على السكون ، والسكون على الحركة عُلِمَ بالضرورة أنَّهما حَادثان بعد أن لم يكونا في الجوهر .

والعَرَض لا يُوجد مُنفرداً بنَفسه ، لمْ يَعقل قَط حركة ، ولا سُكون ، بلا متحرك ، ولا سَاكن ولا لونَ بلا مُتلوّن ، فالجَوهر على هَذا لا يَسبق العَرَض ، ولا يُوجد إلاّ مَعه ، وفيه ، والعَرَض لا يُوجد إلا في الجَوهر .

والعَرَض حَادث ، ومالا يكون لَه وجود إلاّ مَع الحَادث فهو بالبُرهان حَادث ؛ فإنَّ جَواهر جسم السماء ، والأرض ، وكل شخص بالضرورة تعقل أنها مؤتلفة بعضها إلى بعض ، ومجتمعة حتى صارت جسمًا ، والتأليف لا يكون إلا بعد الافتراق .

وهكذا كل جوهر في الوجود لم يظهر من الغيب الذي هو العدم إلى المشاهدة التي هي الوجود إلا بحركة ، تحرك ثم سكن ، فلم يكن إلا في حين حركته / الإيجاد ثم سكن ، ثم تحرك أو سكن فيما ضرب فيه ، فلولا تجديد ١٤٢/أ
العرض له مع كل نفس لم يكن له وجود ، لأن الجوهر ليس له وجود إلا بالعرض .

(١) تأمل : تدبر واعادة النظر في الأمر .

(٢) طرأت : حدثت فجأة .

فلم يبق إلا الأصل الرابع وهو أنَّ حوادث بلا أول لها محال[1] .

والدليل عليه أنك إن قلت : إن الجواهر لم تزل تسكن ، وتتحرك قبل حركة ، وسكونًا قبل حركة إلى غير أول ، وهكذا وجدت الأشياء ، فاعلم أن قولك هذا محال .

وبفرض[2] القول في الدورة الفلكية التي نحن فيها فنقول الفلك لا يخلو أن يكون دار دورة واحدة أو دورتين ، أو أكثر ولم يدر لا واحدة ولا اثنين ، ولا أكثر .

فإن قلنا : لم يدر ، ولم يتحرك فهذا باطل بالضرورة ؛ فإن الحركة والدَّوران مشاهد فيه ، فإن قلنا ، دار دورتين فقط فالدَّورة التي قبل هذه التي نحن فيها قد انقضت ، وقضت ، وهذه التي نحن فيها لها أول ؛ لأن وجودها بعد التي انقضت .

فإن قلت : هذه الثانية باقية فهذا باطل فإن الدورة الثالثة ينقضي وجود الثانية قبلها ، وبالرابعة ينقضي[3] وجود الثالثة ، وبالخامسة ينقضي وجود الرابعة ، وبالسادسة ينقضي وجود الخامسة ، وهكذا أبدًا .

فد ظهر بالضرورة وجود السادسة بعد أن لم تكن ؛ لأنَّها بعد الخامسة وجود ، والخامسة بعد أن لم تكن ؛ لأنَّها بعد الرابعة ، وظهر وجود الرابعة بعد أن لم تكن لأنَّها بعد الثالثة ، وظهر وجود الثالثة بعد أن لم تكن ؛ لأنَّها بعد الثانية ، وظهر وجود الثانية بعد أن لم تكن ؛ لأنَّها بعد الأولى ،

---

(١) المحال : ما اقتضى الفساد من كل جهة كاجتماع الحركة والسكون في جسم واحد ، ومن الأشياء ما لا يمكن وجوده .

(٢) فرض القول : اتخذ فرضاً أو فكرة يؤخذ بها في البرهنة على حل مسألة أو قضية معينة .

(٣) ينقضي : يفنى وينقطع ويزول .

والأولى قد انقضت ولو كانت قديمة ، لبطل عدمها ؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه فبالضرورة يعلم أن الدورة الأولى حين انقضت / كان لها ١٤٢/ب
نهاية ، وهو انقضاؤها عادة على بدايتها الأولى ، وتلك الأولى هي خروجها من العدم إلى الوُجُودِ .

وهكذا كل ساكن ومتحرك من جميع الوجود وهذا الكلام في جميع الأعراض اللازمة للجواهر ، فقد ثبت لك أنَّ الجوهر لا يخلو عن العرض، وأنَّ العرض حادث على الجواهر ، لولاه لم يكن لهما وجود ، ولا يسبق واحد فيهما صاحبه ، ولا يوجد واحد فيهما منفرد بنفسه عن صاحبه .

والعَرض حادث بالضرورة ، ومالا يسبق الحادث ، ولا يوجد إلا معه فهو حادث مثله بالضرورة ، فالعالم كله حادث بعد أن لم يكن ، وبحدوثه بعد أن لم يكن دل[١] على صانعه ؛ لأنَّ فعلا لا يكون دون فاعل أصلا ؛ لأنَّه قبل أن لم يكن لا شيء ، ولا شيء كيف يكون شيئًا دون فاعل يجعله شيئًا ؟ .

واعلم أن العرض لا يبقى زمانين ؛ لأنَّ الجوهر به يتجدد وجوده أبدًا ، ومتى تجدد وجود العرض تغير الجوهر بحدوثه فيه ، عما كان عليه قبل فأكسبه حالاً لم يكن عليها ولو جاز أن يبقى العرض زمانين لجاز بقاء الجوهر دون تغيره ، ولو ثبت نفسًا واحدًا دون تغير لساوى بقاؤه بقاء البارئ تعالى ؛ لأنَّه كان يكون قائمًا بنفسه ، وهذه صفة القديم الذي لا يطرأ عليه ، وهو القيم بنفسه الباقي على ما كان عليه ، فافهم ، فهمنا الله وإياك[٢] .

---

(١) دلّ : أرشد .

(٢) بلغ مقابلة : كذا وجدت على حاشية الأصل .

الشُّعبة الثَّانية والثَّلاثونَ
الإيمان بالأسماء والصِّفات

اعلم أنَّ الكلام الذي تقدم إنَّما هو في الوُجُود الذي هو الذَّاتُ ، وهذا الباب إنّما هو في الأسماء والصفات ، فهي شعبةَ ثانية من الإيمان لابد من التَّصْديق بها ، ومن لم يُصَدِّقْ / بالصفات فقد كَذَّبَ بالقرآن والسنة ، ١٤٣/أ
وإجماعَ أهل السنة ، وكذب العقل ، وقد أفرد البخاري رضي الله عنه كتابًا ، وسماه « الرد على الجهمية » لأن جهمًا أول من تأول إبطال حقائق الأخبار في الصفات وقال الله تبارك وتعالى :

﴿ فَاعلمُوا أنَّما أُنزلَ بعِلمِ الله ﴾ (١) وقال : ﴿ وسعتَ كُلَّ شَيءٍ رحمَةً وَعِلمًا ﴾ (٢) فأثبت لنفسه العلم والرحمة ، وقال :

﴿ يُريدُونَ أن يُبَدلُوا كَلاَمَ الله ﴾ (٣) فأثبت لنفسه الكلام ، وقال :

﴿ سُبحَانَ رَبكَ رَب العِزَّةِ ﴾ (٤) أي ذو العزة ، والعزة صفة العزيز ، وقال :

﴿ ذُو الجَلاَلِ والإكرَامِ ﴾ (٥) والجلال صفة الجليل ، وقال :

---

(١) سورة هود الآية (١٤) .

(٢) سورة غافر الآية (٧) .

(٣) سورة الفتح الآية (١٥) .

(٤) سورة الصافات الآية (١٨٠) .

(٥) سورة الرحمن الآية (٢٧) .

﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ ﴾ (١) فأثبت لنفسه السمع وقال : « **العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحدة منهما قصمته**» (٢) .

وقال النبي عليه السلام : « **حِجابه النور ، لَوكشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه**» (٣) .

والبصر صفة المبصر ، ولو تتبعت هذا لطال الكلام به ، والقُرآن والحديث قد نطقا بأسماء الله تعالى ، وصفاته .

وقد ورد في ﴿ قُل هُوَ اللَّهُ أحَدٌ ﴾ (٤) أنَّها صفة الرحمن في الصحيح ، وأهل السنة ، والحديث قد نقلوا إلينا أخبار الصفات ، ونطقوا بالصفات ، فلو كَذَّبناهم فيما نقلوا من ذلك ونطقوا به وجب تكذيبهم في كل ما نقلوا من الشريعة ، وكان ذلك هدمًا للإسلام فنعوذ بالله من الضلال .

فصل

وأمَّا دليل ذلك من العقل فإن الوجود كُلَّه على اختلاف أنواعه لا يخلو من جوهر ، وهو ذاته ، وعرض حال فيه ، وهو صفته القائمة فالجوهر لا يعقل إلا هكذا ، ولو تصور جوهر بغير صفةٍ يوصف بها ، أو اسم يُسمى به لم يكن له وجود .

١٤٣/ب فإذا / فهمت فالفرق بين القديم والمحدث في هذا أنَّ الجَوَاهر مُحدثة ، وصفاتها التي هي الأعراض محدثة ، عرضت فيه بعد أن لم تَكن ، كما

---

(١) سورة المجادلة الآية (١) .

(٢) اتحاف السادة المتقين (٨/ ٣٣٨) .

(٣) اتحاف السادة المتقين (٢/ ٧٢) ، (٢/ ٧٧) ، ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٣٧٤) .

(٤) سورة الإخلاص الآية (١) .

حدث هو بعد أن لم يكن .

والبارئ سُبحانه لم يزل قديم الذّات ، قديم الصفات ، لم يطرأ عليه اسمٌ ، ولا صفة ، ولا يتغير عما كان عليه ، ولا يزداد ، ولا ينقص فلذلك لا يقال في صفاته إنّها أعراض ؛ لأنّها لم تحدث قط[1] إنما البارئ لم يزل على ما هو عليه ، ولا يزال على ما كان عليه ، فلا تُشبه ذاته الجواهر ، ولا تُشبه صفاته الأعراض ، فليس بجوهر ، ولا عرض ، فإن قال قائل : إذا قلنا بالذّات والصِّفات فلزمنا أن نقول : إنَّ البارىء مجموع من ذاتٍ ، وصفاتٍ ، ومُركب من صفات ، وذات .

قلنا : هذا خطأ عظيم في النُّطق ، فإنه بإجماعٍ من أهل العقول أنَّه لا يقال مجموع إلا فيمن اجتمع بعد افتراق ، ولا يقالُ مُركب إلاّ فيمن ركبه مُركب ، وجمعه جامع ، وهذه صفة الجواهر ، والأعراض ، والبارىء سُبحانه كما قُلنا : لم يزل ، ولايزال على ما هو عليه ، فهو لا يشبه والأشياء كلها .

ثمَّ نفرض سُؤالاً على من يقول بنفي الِّصفات طلبًا للوحدة في زعمه ، فنقول أولاً :

إذا قال القائل : زيد فنعلم أن هذه كلمة أفادت فائدة واحدة ، وهي أنَّ قولك زيد دلّنا على وجود زيد فقط ، يُعلم هذا قطعًا[2] ، فإذا قلنا : زيد عالم أفادنا قولنا معنى آخر وهو العلم ، وإلا كان قولنا : زيد عالم بمنزلة زيد زيد .

وكذلك إذا قُلنا : زيد ضَارب كان قولنا هذا بمنزلة قولنا : زيد زيد .

---

(١) قط : يقال ما فعلت هذا قط : لم أفعله فيما مضى .

(٢)قطعاً : فَصَّل بعضه وأبانه .

وهذا خلف من الكلام لمن يدعيه(١) ليس عنده من العقل ما يُخاطب به .

فكذلك إذا قُلنا : اللّه عالم مُميت ، مُصور ، يلزمه على قوله أن يُفيدنا
١٤٤/ب ذلك في الثلاثة الأسماء ما يفيد قولنا / : الله الله الله . ، ويلزمه أن يقول : إن معنى قولنا : الله قديم أن يكون بمعنى الله مُكلِّمُ مُوسَى ، ورافعُ عِيسَى ، وجاعل اللَّيْلِ سكنًا .

وإذا قلنا : الله مُربى كقولنا : الله حَي ، وإذا قلنا : الله السلام ، وإذا قلنا : الله السَّلام كقوله الله الظاهر ، والآخر ، وهذا بين الفَسَاد ، لا خفاء به ، فلا بد به من الرجوع إلى الحق فيقول :

إذا قلنا : الله العَليم أفادنا الله الوجُود ، وأفادنا العليم صفة العِلم ، وإذا قلنا : الحي أفادنا الحي صفة الحياة .

وهكذا أسماؤه وصفاته عصمنا الله من الزلل وإيَّاكم برحمته .

فالأسماء والصِّفات قديمة بقدمه ، لا يجوز أن يُقال شيء منها مُحدث بعد أن لم يكن ، فكان البارىء سُبحانه يوصف بالزيادة بعد ، ولا يجُوز أن تُفارقه ، أو تزول عنه ، فيتغير ، ويُحوَّل عما كان ، بل هُو على ما كان ولا يزال على ما كان .

فأمَّا قِدم الأسماء فإن الخلق لم يُسموا الخالق سُبحانه ، ولو سموه باسم لكان ذلك الاسم مُحدثًا ، لأنَّهم جعلوا لله اسمًا يعرف به ، لم يكن ، ولذلك لم يجز أن يُسمى إلا بما سمى به نفسه في كتابه ، أو على ألسنة(٢) أنبيائه ، فإنَّه أعلمهم بذلك ، أو اسم يوجب له الكمال ، والجلال من

---

(١) يدعيه : يزعم صحته .

(٢) في الأصل « سُنَة » .

إجماع ، أو غيره ، فإنَّ ذلك وصف له بما هو عليه ، وما كان الله عليه فهو سمَّى نفسه بذلك .

وحقيقة المعرفة بهذا الفن يحصل لك بمعرفة أربعة أشياء ، وهي : المسمِّي ، والمسمَّى ، والاسم[1] ، والتسمية .

فالمُسمِّي ، والمسمَّى واحد ، وهو الذات ، والاسم المعني الذي بين وجود المسمّى ، أو دل على صفة إن كان الاسم يدل على صفة بسموه وسَمته التي يُعرف بها عن غيره من المُسميات .

والتَّسمية هي قول المُسمِّي ، وكلامه الذي سمَّى به / نفسه ، وكلامه ١٤٤/ب
قديم ، فالكل قديم ، والحروف جعلها الله تبارك وتعالى دلالة على أسمائه ، وصفاته ، ولذلك يقول في المخلوق : سميت زيدًا تسمية .

فالتَّسمية فعل فعلته وقت تسميتك إيَّاه وقوله قُلته ، والاسم هو المعنى الذي سميته به ليُعرف ، فإن كان ذلك المعنى حقيقة في نفسه ، وإلا كان لقبًا[2] له ؛ يُعرف به .

والبارىء تبارك وتعالى سمّى نفسه في قِدمه بكلامه دون زمانٍ ، فأسماؤه قديمة بقدم كلامه ، لأنَّها من كلامه .

والكلام قديم ، لم يزل ، وأسماؤه قديمة لم تزل ، فإذا فهمت هذا فاعلم أنَّ أسماء الله تعالى تنقسمُ ثلاثة أقسام :

أسَمْاءٌ تدل على الذَّات ، وهو الوجود كشيء ومَوجود ، ومَذكور ، وما كان مثل هذا ، فهذه الأسماء تدل على المُسمِّي نفسه .

---

(١) الاسم : ما يعرف به الشيء ويستدل به عليه .

(٢) اللقب : عَلَم يطلق على الشخص للتعريف أو التشريف أو التحقير ، مثل « أمير المؤمنين » .

والقِسم الثاني أسماء تدل على ذات وصفات ذات ؛ كالحيُّ ، والعَالم ، والقَادر ، والمُريد ، والسميع ، والبَصير ، ونحو هذا .

فهذا القسم يدل على ذات ، وصفةُ ذاتٍ وهي الحياة ، والعلم ، والقُدرة، والإرادة ، وغير ذلك .

والقسم الثالث : أسماء تدل على ذات وصفة فعل ؛ كالمميت سُبحانه ، والخالق الرزَّاق(١) ، والمميت هو الله ، والصِّفة هي الموت ، والإماتة ، وهي فعل الله تعالى ، فهي صفة فعل ، لا يرجع منها إلى الذَّات .

ولو جاز ذلك لدل على أنَّ الموت قائم بذات البارىء تعالى ، وهو محال .

وكذلك الخالق هو الله ، والخلق هي الصِّفة وهي فعل ، فهي صفة فعل ، لا يرجع منها إلى الذَّات شيء .

ولو جاز ذلك لدل(٢) على أنَّ الخلق قائم بذات البارىء ، والله سبحانه يتعالى عن ذلك .

وهكذا كل صفة فعلٍ ، فالأسماء لا تخلو عن هذه الأسماء الثلاثة / . ١٤٥/أ

ثم إنَّ الأسماء كلها ،- من أي قسم كانت - لكل اسم منها معنيان ، نفي وإثبات .

فالإثبات إثبات ما يجب له حقيقة من معنى كل اسم ، والنفي نفي ما يستحيل عليه من صفات خلقه التي اتصفوا بها مجازًا ، أو حقيقة ، كالقادر مثلا ، فإن اسم القادر واقع على الله حقيقة ، ويستحيل عليه العجز فهو

---

(١) في الأصل « الرازق » .

(٢)دلَّ : لكان ذلك دليلاً ،ودلَّ : أرشد إلى ذلك .

القَادر على كل شيء ، ولا يستحقُّ التسمية بهذا الاسم إلا هُو ؛ لعدم العجز عندهَ ، وإن اتَّصف أحد من الخلق بالقُدرة فذَلك مجاز ، والله تعالى يتنزه[(١)] عن المجاز .

وهكذا اسم الخالق لله حقيقة ، ويستحيل عليه أن يخلق أحدٌ معه شيئًا ، وذلك المُستحيل منفي عنه ، أو القُدوس ؛ فإنَّ معناه الطاهر المُنزّه عن معاني الحدث ، وصفات المخلوقين ، فالطهارة ، والنَّزاهة له حقيقة ، وخِلافها الذي هو صفة المُحدثين مستحيل عليه .

وهكذا في جميع أسمائه لا يُساميه أحدٌ فيها بوجه ، وإن تسمَّى أحد بمعاني أسمائه وصفاته فإنَّ ذلك وصف مخلوقٌ ، أو مًجاز والله يتعالى عنه .

وقد أشار إلى هذا المعنى في قوله :

﴿ فَاعْبُدْهُ واصطَبِرْ لِعبَادتِهِ هَل تَعلَمُ لَهُ سَمِيًا ﴾ [(٢)] أي من يُساميه[(٣)] ، أو يُدَانيه في رُتبة الرُّبوبية وما هو عليه من أسمائه ، وصفاته .

فصل

اعلم أنَّ النظر في هذا الباب يَنقَسم ثَلاثة أقسَام كسائر الأبواب كُلها :

قِسم في عَالم الحِسِّ ، ومقام الإسْلام .

وقِسم في عَالم النَّفس ومقَام الإيمان ، وقِسم في مقَام الإحسَان ،

---

(١) يتنزه : يبعد عنه ، يعلو ويرتفع عن الاتصال بالمجاز .

(٢) سورة مريم الآية (٦٥) .

(٣) بساميه : يرتفع ويعلو إلى درجته .

وعَالم الرُّوح .

من أجل أنَّ الذوات ثَلاثة ، ولكُل ذَات صفات مُحدثة ، فَوجب أن تكون صفات البَارئ لا تُشبه صِفات جَميع الذَّوات ، كما لا تشبه ذَاته جميع الذَّوات .

فأمَّا الضَّرب الأول في مقام الإسلاَم ، وعَالم الحس فإنَّ الظَّواهر ١٤٥/ب أجسام/ وصفاتها من نَوعها كاليد مثلاً الواقع على الجَارحة الجسميَّة ، والقِدَم والعَيْنَ والوَجه ، وسَائر الصِّفات .

فإذا سَمع المؤمن ما وافق [١] ذلك في الاسميّة من صفات اللّه وَجَبَ عليه أنّ يُصدِّق أنها لَيست مثل هذه الصفات الجسميَات ، كما قال تَعالى : ﴿ وَيَبْقَى وَجهُ رَبِّكَ ﴾ [٢] فَيُعْلم أنَّ وجهه لَيس كالأوجه . وقوله : ﴿ يَدُ اللَّه﴾ [٣] وقوله : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مبْسُوطَتَان ﴾ [٤] وكقوله : ﴿ تجري بأعْيُننا ﴾ [٥] ، وكقول النَّبي عليه السَّلام : « فيَضع الجبَّار فيها قدَمه ، ويكشف عن سَاقه » [٦] وغير ذَلك من الصِّفات التي وَافقت صفات الأجسام في الاسميّة ، فينفي المؤمن جَميع ذلك عن ربِّه ، ويقول : يدٌ لا كَالأيدي ، ووجه لا كالأوجه وكَذلك سَائر الصِّفات .

وأما : الضَّرب الثَّاني في مقَام الإيمان فإنَّ النَّفس لها الإرادة ، والقُوة ، والرِّضى ، والغَضب والعَزم ، والقُدْرَة ، والكَلام الدَّائر في الخُلد ،

(١) وافق : وافق فلان بين الشيئين : جانس ولائم .

(٢) سورة الرحمن الآية (٢٧) .

(٣) سورة الفتح الآية (١٠) .

(٤) سورة المائدة (٦٤) .

(٥) سوة القمر الآية (١٤) .

(٦) صحيح : أخرجه البخاري (٦/ ١٩٨) .

والحديث وغير ذَلك من صفات النَّفس التي يكثر تعْدَادها ، ويطول جَلْبها ، فالنَّظر الحق أن تعلم أن ذلك كُله دليل علَى صفَات البَارئ ، ولكن لَيْست صفة كَصفة ، فإنَّ إرادة النَّفس تكون بتَمني ، ولغرض مَا ، والغَضب منها يكَون بألم ، وتعب ، وكُلفة ، والرضَى بابتهاج [١] ، وسُرور ، ونعيم ، وصفاتها كُلها تُحدث في النَّفس أحوالاً لا تَتَغير معها .

فالوَاجب أن يَنظر الإنسان في ذلك كُله فيعلم أن صفات البَارئ تَتَعالى عن جَميع ذَلك فيُؤمن أنَّ صفاته ليست كصفات الخلق .

وأمَّا القسم الثالث : أيْضًا في مقَام الإحسَان فإنَّ الرُّوح مَوصوف بالإدْرَاك العلمي ، والحلم ، والنَّظر ، والتَّدبير ، والقيام بمَملكة النَّفس ، والجَسد ، والقَضاء ، والحُكم فيها ، وغَير ذلك ممَّا يَطول الكَلام به ، لأنَّها كُلها أعراض موجودة بعد أن لَم تكن ، ولَيس فيها صفة في مقَام النَّفس والرُّوح إلا وهي مَربوطة بضدها ، لا يَنفك عنه أبَدًا .

والبارئ تعَالى مُنزه في أوصافه عن ذلك كُله ، فوجب على العبد أن يؤمن ، ويَشهد ، ويُقرّ أنَّ صفات الباري تعالى مُنزهةٌ عن صِفات المَخلُوقين فهو أحديُّ الذات ، واحدُ الأَسماء والصِّفات .

وقد بينَّا في بَاب التَّوحيد طرفًا من ارتباط صفات بأضدادها [٢] ، والفرق بَينها وبين صفات البَارئ في ذَلك فَلينظر هُنالك ، فقد عمّ الإيمَان بالصِّفات ، النَّظر في جَميع المقَامات ، والعَالَم كُلها ، والصِّفات كمَا قد بينا في صدر البَاب على ثلاثة أقسام : نَفسية ، ومَعْنوية ، وفعْلية .

فالنفسية : كالبَقاء ، والدَّوام ، والقِدم ، والنَّزاهة ، والرِّفْعة ،

---

(١) ابتهاج : الامتلاء سروراً ، والاستبشار .

(٢) أضدادها : المتضادات في المنطق : اللذان لا يجتمعان ، وقد يرتفعان كالأبيض والأسود .

والوحدة، وشبه ذَلك .

والمعنوية : كَالحيَاة ، والإرَادة ، والقُدرة ، والكَلام وغير ذلك .

والفعلية : كالتَّصوير ، والخَلق ، والتَّقديم ، والتَّأخير ، والصُّنع ، والإتقان [(١)] ، والإيجَاد ، وغَير ذَلك .

فالفعْلية : هي غيره وإذَا قدَّرْتَ زَوالها ، أو وُجودها استَوى ذَلك في حَق البارئ تبَارك وتَعالى ، لأنَّها فعْله .

وصِفة النَّفس لو قدّرت زَوالها بَطل وُجود الذَّات ، ولم يكن للذَّات وُجود .

وصفات المَعاني لو جاز أن تُقدِّر عدَمها لم يَبطل وجود الذَّات وخلفَ الصِّفة ضَدها ، لا يجوز في حق البارئ سبحانهُ هي صِفات المعَاني ، وصفات النفس ، أعني التَّقدير .

وقدْ أطلقَ العُلماء ، والأئمةُ في الصِّفات عبارة حَسَنة ، فقالوا فيها : لا هي هُو ، ولا هي غيره ، لأنّك إن قُلت : هي هُوَ فقد نفيتَ عنه الصّفات ، ١٤٦/ب وأَثبتَّ الذَّات مُنفردة بلا صفات وأثبت الصِّفات مُنْفردة ، وبقيت الذَّات ؛ لأنَّ قولك : هي هُو يحتمل مَعْنيين :

أحدهُما : أن تقولَ هي هُو أي الصِّفات هي الذَّات ، فتكون الذّات صفات ، وهذَا مُحال ، لأنَّ الصِّفة لا تكونَ هي الموصُوف ، لا تعرف الصِّفةُ إلا لموْصُوف ، ولا يكن لها وجود إلا بكونها قَائمة بالموْصوف الذي هُو الذَّات .

والمعنى الثاني : أن تَقول : هي غيره ، أي هي غير الذَّات ، فتفرد الذَّات

---

(١) الإتقان : الإحكام وفي القرآن الكريم ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ .

بغير صِفة ، وهـذَا مَذهب المُعتزلة [١] ، وكثير من المخالفين لأهل الإسلام .

فيَقولون عَالمٌ بِلا علم ، وقادرٌ بلا قُدرة ، ونَحو هَذا .

والصَّوَاب مَا أطلق عُلماء أهل السُّنة .

فَقالوا : لا هي هُو ، ولاَ هي غَيره ، لأنَّك إن قُلت : هي غيره فقد أثبت الغيرية ، وأنَّ الإله غيران .

وإن قُلت : هي هُو فقد نَفيت الصِّفات فافهم والعُمدة في هذا البَاب - أعني معرفة الصِّفَات المعنوية - مَعرفة عَشرة أُصول تنتظم لكَ فيها ما بقي من مَعرفة الصِّفات إن شَاء اللَّهُ ، وهي : الحيَاة ، والعلم ، والقُدرة ، والإرادة، والكَلام ، والسَّمع ، والبَصر ، وكَمال الإدْراك للطُّعوم ، والرَّوائح ، وغَير ذلك ، وأنَّه قَديم الصِّفات ، لم يَزل مَوصوفًا بها ، ولا يَزال ، وأنّه مُنزه عَن شبه الحَوادث وطُروئها عليه .

فأمَّا الأصلُ الأوَّل : وهي الحيَاة فَدليله من القُرآن ﴿ **اللَّهُ لا إله إلا هُوَ الحَيُّ القَيُّوم** ﴾ [٢] فَوصف نَفسه بالحيَاة ، لَأنَّ اسم الحي دَلَّ عَلى ذَاتٍ ، ومعنى وهي الحَياة .

ودليله : أنَّ الحَي عَلى الحَقيقة هُو الدرّاك الذي له شُعور بنفسه وبغيره .

والميت هُو الذي لا يُدرك نَفسه ، ولا غَيره ، ولا شُعور لَه بشيء ، ولَو كَان ذَلك كَذلكَ لَماَ صحَّ وُجود الأشياء عنه ، فإنّ الحيَاة شَرطَ في وُجود العَالم ، والإرادة ، وجميع الصِّفات .

(١) المعتزلة : أولى المدارس الكلامية الكبرى ، تؤمن بالعقل وتحاول التوفيق بين العقل والنقل ، وتلجأ إلى التأويل ماوسعها وفي هذا ما باعد بينها وبين السلف وأهل السنة ، أسسها واصل بن عطاء ، ومن أكبر رجالها أبو هذيل وإبراهيم النظام .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

ومن أجل هَذه اللطيفة أشار من أشار إلى أنَّ الحي هُو الاسم الأعظم ؛ لأنَّ الحَياة شَرط في وجُود جميع الصِّفَات الكاملة بالمَوصوف ، إذْ لَوْ لمْ يكن حيًا لمَا كان عَالمًا ، ولا قادرًا ، ولا مُريدًا ، ولا سَميعًا ، ولا بَصيرًا ، ولا أدرك شيئًا ، ولا صحّ فِيه وجُود شيء .

وقد ثَبت إيجاد الأشيَاء عنه ، فقَد ثَبت حَياته بالبُرهان ، والحمد لله .

وأمّا الأصلُ الثَّاني : وهُو العلم فدَليله من القُرآن : ﴿ **وَسِعْتَ كلَّ شيء رَحمةً وعِلمًا** ﴾ [1] وَدليله منَ العَقَل أنَّ الجَاهل لا يَصدر منه الفِعل المُتقن ، ولا الصنعة المُرتبة الكاملَة ، بل العالِم هُو الذي يَصدر ذَلكَ عنه .

ومن نَظر في مَخلوقات اللَّه تَبارك وتَعالى ، وإتقَانها ، وترتيب أشخاص الموجودات ، وأعْضاء الحَيوانات ، حتى النَّملة [2] ، وأقل منها يَتَبين له من لطف الخلقة ، وتزيين الصَّنعة ، وترتيب الحكمة ما يُبهر العَقَل ، واللُّب فَحينئذ يُعلم أنَّ هذا الصنع المحكم الغَريب ، والمُلك المُرتب العَجيب لا يَصدر إلا من عالمٍ عَظيم ، لا يعزب عنه مثقال ذَرة في جَميع المُلك ، ولو لم يكن عَالمًا لَما صَدر عنه شيء من ذلك ، فَقد ثَبت عِلمه بالبُرهان كَما ثَبت عِلمه بالخَبر والقُرآن ، والحمد للَّهَ .

الأَصْلُ الثَّالث : القُدرة ، أمَّا دليله من القُرآن فقوله : ﴿ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرِ** ﴾ [3] فقَدير دَلَّ على ذَاتٍ ، ومعنى ، هِي القُدرة .

ودَليله منَ العقل أنَّ العَاجز هُو الذي لا يقدر علَى شيء ، ولا يصدر

---

(١) سورة غافر الآية (٧) .

(٢) النَّمْلَة : حشرة خفيفة ضئيلة الجسم من رُتبة غشائيات الأجنحة وقسم ذاوت الحُمَة ، تتخذ مسكنها تحت الأرض وتعيش في جماعة من أفراد نوعها ، دائبة متعاونة .

(٣) سورة الحديد الآية (٢) .

منه فعل بوجه ، وقد وجدت الأفعال ضرورة ، فقد ثبتت قدرته بأقل تأمُّل ونظرَ ، والحمد لله .

الأصلُ الرَّابع : الإرادة ، أمَّا دليله من القرآن فقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفعَلُ ما يُريد ﴾ (١) ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (٢) .

ودليله منَ العقل : أنَّ الَّذي يَتصف بعَدم الإرادة هُو المُهمل في نَفسه ، ومن / كَان بصَفة الإهمَال فإنَّه لم يصرِّف قُدرَته إلى أحد الجهتين : الإيجاد ، ١٤٧/ب
أو ترك الإيجاد ، فَإنَّ القُدرة إنَّما تَصدر الأفعال عنها بصَرف الإرادة إيَّاها إلى الفعل ، ولا يترك المُريد الفعل إلا بترك الإرادة للفعل .

وكذلك التكوين بالكلام ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشيء إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون ﴾ (٣) فقدم الإرَادة علَى التكوين بالكلام ، فكَيف يصح وُجود فعل عن القدرة ، والكَلام بغير إرادة .

والإرادة مُتقدمة على الأحداث بالقُدرة والكلام فلا يكُون فعل منَ الفَاعل حتى يُريد الفَاعل ، ولو صحَّ وجود فعل بلا إرادة لكَانت أفعَاله غَير مُخصصة بالتَّقديم والتَّأخير ، والرَّفع ، والخفض ، والقَبض ، والبَسْط ، وكان يكون مُلكه مُهملاً ، كما تصدر حرارة النَّار عن النار ، والمعلول عَن العلة(٤) ، فكَان يكون مضطرًا ، والإلَه سُبحانَه وتعالى يتنزه عما يتوهمه الجاهلون ، ولو صدرت أفعاله ، أيضًا من غير إرادة كما زَعم كَثير من الضَّالين لكانت أفعاله التي أحاط بِها علْمه تَصدر عَنه جملة فِي وقت وَاحد ،

---

(١) سورة الحج الآية (١٤) .

(٢) سورة القصص الآية (٦٨) .

(٣) سورة النحل الآية (٤٠) .

(٤) العلَّة : المرض الشاغل ، وفي الفلسفة : مايترتب عليه أمر آخر بالاستقلال أو بواسطة انضمام غيره إليه فهو علة لذلك الأمر ، والأمر معلول له . والعلة من كل شيء سببه .

فلا يبقى عنده فعل يُوجده ، ويصدر عَنه ، ويكُون مُلكه ، وأفعاله محصورة، وتامة ، لا تزيد ، ولا تَنقُص ولا تَتَحول ، ولا تَتَغير ، ولا تَتَقدم، ولا تَتَأخر ، وهَذا مُستحيل من قبل أنَّ المُريد هُو الذي يُوجد مَا يشاء، ويترك إيجاد مَالم يَشأ إيجاده ، ويؤخر إيجاد ما شاءَ تأخيره إلى الوَقت الذي شاءَ تأخيره ، ويخص شيئًا بما لم يخص به غيره ، فقد دلَّت التخصيصات في الأشياء والتَّقديم والتأخير ، على إرادة البارئ تَعالى بُرهانًا بيِّنًا ، كما نطق به القرآن ، والحمد لله .

الأصل الخامس : الكَلام ، أمّا دَليله من القرآن فقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكليمًا ﴾ [١] / ﴿ مَا كَانَ لِبَشرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحيًا ﴾ [٢] وقوله ﴿يُريدُونَ أن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ ﴾ [٣] وغير ذَلك . ١٤٨/أ

ودليله منَ العقلِ : أنَّ القُرآن العَزيز ، الذي هُو كلامه ثبت بالتَّواتر ، والتَّواتر بُرهان قَاطع ، أبين من كل بُرهان فإنَّ مَن لم يَدخل مكة ولم يَرَها قط قد استَوى علمه بوجودها مَع من دَخلَها ، ورآها ، وكذَلك مصر وبغدَاد ، وجميع البُلدان المشهورة قد استوى علمه بوجودها جَميعًا مع علم مَن دَخلها ، ورآها وإنَّما ثبت هَذا بالتواتر[٤] ، والشهرة ، وثبت للعقول أنَّه كَلام اللَّه ، وأنه لَيس كلام آدمي ولا خَلق بالإعجاز الذي فيه ، فإنَّه قد أعجز الخلق كُلهم على فَصَاحتهم و نُبلهمٍ ومكِيدة عُقولهم عن أن يأتوا بسورة مثله ، أو بعشر ، أو بقرآن مثله .

---

(١) سورة النساء الآية (١٦٤) .

(٢) سورة الشورى الآية (٥١) .

(٣) سورة الفتح الآية (٥١) .

(٤) التواتر : تتابع الشيء وجاء بعضه في أثر بعض ، والمتواتر هو الخبر الذي رواه جمع لا يخشى تواطؤهم على الكذب .

ثمَّ كان الرَّسول الذي أتى به أُميًا لا يكتب ولا يقرأ ، ولا يقول الشِّعر ، فكان ذلك فيه أبينَ بيَان على أنَّه كَلام اللَّه تبارك وتَعالى ثمَّ إنَّه تحدَّ الكل ، وقَال لهم :

﴿قُل لئن اجْتَمَعَت الإنسُ والجنُّ عَلى أن يأتُوا بمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يأتُونَ بمثْلِه ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبعْضٍ ظَهيرًا﴾ [1] أي مُعينًا .

فلمَّا لم يَستطع أحد أن يأتي بمثله ، أو بمثل سُورة منه عُلم بالبُرهان القاطع ، والدَّليل السَّاطع أنَّه كَلام اللَّه جل جَلاله ، فإذا ثَبَت أنّهُ كلام ثبت أنَّه غير مخلوق ، ولو كَان كَلام بَشر لكَان مخلوقًا مثل المُتكلم به فافهم .

وَروى عن إمام العُلماء ، وسَيد الحُكَماء عَليّ بن أبي طَالب - رضي اللَّهُ عنه - حين قالت له الخَوارج : حكّمت في دين اللَّهِ المخلوقين ، فقال : واللَّه مَا حكَّمتُ مخلوقًا ، مَا حكمْتُ إلا القُرآن .

فإذَا تحققت هَذا علمًا فاعلم أنَّ كلام اللَّه تَعالى لَيس بصَوت ، ولا حَرف ، والكلام الحَقيقي هُو كلام النَّفس ، كَما قال الشَّاعر / : ١٤٨/ب

إنَّ الكَلام لَفي الفُؤاد وإنَّما　　　جُعلَ اللِّسان عَلى الفُؤاد دَليلاً

فالأصوات ، والحُروف إنَّما وُضعت دلالَات عَلى كَلام النَّفس ، ومَن قُلت له : اكتب أرضًا ، أوسَماء ، أوَ فرسًا ، أو آدميًا فكتب الذي أمليت عليّه في ورقة ، أو لَوح ثمَّ زَعم أنَّ الأرض ، أو السَّماء ، أو الفَرس هُو المكتوب في الوَرقة فاقطع طَمعك عن عَقله ، واقض بحمَاقته [2] .

ومن زَعم أنَّ حَركة شَفتَيه أو صَوته ، وكِتابته بيده في الورقة هُو عَين

---

(١) سورة الإسراء الآية (٨٨) .

(٢) الحَمَاقة : قلة العقل .

كَلام اللَّه القائم بذاته فقد زَعم أنَّ صفة اللَّه قد حلَّت بِذاته ومسَّت جَوارحه، وسكنت قَلبه .

وأي فرق بين من يقول هذا ، وبين من يَزعم من النَّصَارى أنَّ الكلمة اتحدت بعيسى عليه السَّلام ، والحرُوفُ أيضًا ، والأصوات مُختلفة ، فيها خطٌّ حَسَنٌ ، وأحسن منه ، وخط غَير حسن يُعاب عَليه صَاحبه ويضرب .

وكَذَلك الأصوات مختلفة باختلاف الخلق ، منها صَوت مُطرب (١) وَصَوت خَشين ، وصَوت يُشتم علَيه صَاحبه ، فأي صَوت منها ، وأي خط هو كلام الله منها ؟

والحُروف والأصوات مُتقدمة بَعضها على بَعْض فالألف قبل اللام ، والميم قَبل اللام ، وآخر (٢) ونهاية صفات اللَّه لا تُوصف بالَحَد والنِّهاية ، والَقَبل ، والبَعدُ ، وقع هَذا كُله فكلام اللَّه مكتُوب في المَصاحف مَقروءٌ بالألسنة مَحفوظ في القُلوب ، وليس حَالاً في مُصحف ، ولا جَارحة وقَلب ، بل هُو المَسموع ، والمفهوم .

ولو كَانت الحُروف هي نَفس كَلام اللَّه ، كَيف كَان عثمان- رضي اللَّه عنه -يَستجيز عنه أو كيف كَان يتجرأ ، أو يُقدم عَلى حرق المَصاحف بمحضر آلاف منَ الصَّحابة ، وهُم العُلماء ، القُدوة - رضي اللَّهُ عنهم - كَلا بَل عَلمَ عثمانَ والصَّحابة - رضي الله عنهُم - أنَّ كَلام اللَّه ليس بأشخاص/ ، ولا ١٤٩/أ
حُروف ، فَيُحرق بإحراق الأوراق والمداد (٣) .

(١) مطرب : حسن الصوت والأداء .

(٢) يقصد اللام ألف (لا) .

(٣) المدَار : سائل ذو لون يُكتب به وقال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ لَوْ كَانَ البَحْرُ مدَاداً لكلمَات ربِّي ﴾ .

وتبين بفعله ذلك - رَضي اللّهُ عنه - الفرق بينه وبين الحشوية المُجسِّمة التي تَزعم أنَّ كلام اللّه صوت ، وحَرف ، فَفيه أُسوة حَسنة لأهل السُّنة والحمد للّه .

الأصلُ السَّادس : البَصر ، دليله من القرآن قوله تعالى : ﴿ **وكَانَ اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ**[(١)] **بَصِيراً** ﴾ [(٢)] .

ودليله من العَقل : أنَّ البَصير هُو الذي يتصرف بنظره في مُلكه ، ويَضع الأشياء مَواضعها ، ولَوْ كان عَادمًا لصفة البَصر كَيفَ كَان يتصرف في مُلكه ، وينفذ أفعاله في جَميع مَلكوته ؟

فقد ثَبت بجميع الأفعال ، وتصرفه في مُلكه بصَره بالبُرهان البيِّن ، والحمد للّه ، لأن مَن عُدم البَصر كان به العمى ، والأعمى - وإن كان عالمًا - لا يهتدي سَبيلاً ، ولا يتصرف فيما يُحب .

الأصلُ السَّابع : السَّمع أمَّا دليله من القُرآن فقوله : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللّهُ** ﴾[(٣)] وقوله ﴿ **إِنِّي مَعَكُما أَسْمَعُ وأَرى** ﴾ [(٤)] .

ودليله من العقل : اسْتجابته لخواص عباده الأنبياء عندَ بَعثهم إلى الأُمم ، وتكذيبُهم إيَّاهم وافتراؤهُمْ عليهم بالمُعْجَزات ، فيسألونه ، ويَدعونه فيَجبهم ، ولو لم يَسمع لما أجابهم .

وقد ثبتت عُقوبات الأمم وإهلاكهم بَعد دُعاء الأنبياء ، واستجابة اللّه لهم بالبُرهان المُتواتر الذي لا شكَ فيه كَقول نُوح عليه السَّلام : ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ

(١) في الأصل : ﴿بكل شيء﴾ .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٩).

(٣) سورة المجادلة الآية (١) .

(٤) سورة طه الآية (٤٦) .

عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرينَ ديَّاراً ﴾[١] فكان استجابته لَه مُوافقًا لدُعَائه .

وكقول أيوب عليْه السَّلام : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُ وأَنْتَ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[٢] ثمَّ قال : ﴿ فاسْتَجَبْنَا لَه ﴾[٣] .

وكَقَول زكريا عليْه السَّلام : ﴿ رَبِّ لا تَذَرني فرْدًا وأَنتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ ﴾[٤] ثم قال : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَه وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ﴾[٥] وكقول ذي النون ﴿ لا إله إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[٦] ثم قال : ﴿ فاسْتَجَبْنَا لَه ﴾[٧] .

وكقول عيسى عليْه السَّلام .

١٤٩/ب ﴿ اللَّهمَّ رَبَّنا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً/ مِنَ السَّماءِ ﴾[٨] فقال اللَّهُ : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾[٩] .

وأمثال ذلك لا تحصى ، فَقد تَواتَر في حق كُل مَن غَاب عن تِلك المواطن ، كما ثَبت مُشاهدة حق كُل مَن حَضر تلك المُعجزات .

والتَّواتر والمُشافهةُ في العلم بوُجود الشَّيء سَواء في حق غير الأنبياء ، والإجَابة للأوليـاء كَثير ، وهُوَ أفضل الكَرامات ، فَيُعطيهم مَا يَسألُون ،

---

(١) سورة نوح الآية (٢٦) .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٨٣) .

(٣) سورة الأنبياء الآية (٨٤) .

(٤) سورة الأنبياء الآية (٨٩) .

(٥) سورة الأنبياء (٩٠).

(٦) سورة الأنبياء الآية (٨٧) .

(٧) سورة الأنبياء الآية (٨٨) .

(٨) سورة المائدة الآية (١١٤) .

(٩) سورة المائدة الآية (١١٥) .

ولولم يَسمعهم لَما أجابهم .

قال اللَّهُ تبارك وتَعالى في هذا المعنى : ﴿ وَإذا سَأَلَكَ عِبَادي عَنّي فإنِّي قَريبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ[1] إِذَا دَعَانِ﴾ [2] .

وعبادة العَالَم كُلها أكثرها بالأذكار سراً ، أو جَهراً ، وحركات الوجُود كُله أصوَات خفية وجلية ، وهو يَعْلم الخَلق بأقوال أسرَارِهم ، وجَهرهما كقوله .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْه وَيَتَنَاجَونَ بالإِثْمِ والعُدْوَانِ ﴾ [3] .

وكقوله : ﴿ قَد سَمِعَ اللَّهُ قَولَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ [4] ولو لم يسمَع ذَلك لَما أُعْلم به ، كَما سَمعه فَافهم .

الأصل الثَّامن : كَمَالُ الإدراك للطُّعوم والرَّوائح ، والملموسات .

أمَّا دليل إدْراكه لها من القُرآن وكقوله : ﴿ منْ بَيْنِ فَرثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائغًا للشَّارِبينَ ﴾ [5] فكَقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ [6] .

دليله على أنَّه يُدرك ما تغير طعمه ، وكقوله : ﴿ مِنْ ماءٍ غير آسِنٍ ﴾[7] دليله إدراكه للآسن[8] .

---

(١) في الأصل « الداعي » .

(٢) سورة البقرة الآية (١٨٦) .

(٣) سورة المجادلة الآية (٨) .

(٤) سورة المجادلة الآية (١) .

(٥) سورة النحل الآية (٦٦) .

(٦) سورة محمد الآية (١٥) .

(٧) سورة محمد الآية (١٥) .

(٨) للآسن : للفاسد .

وكقوله : ﴿ كُلُوا مِن طيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [(١)] .

فخص الطيب ، وهُو الحَلال ، ومَا فيه اللّذَّة أيضًا ودلَّ بتخصيصه اللذيذ أنَّه يُدرك الكَريه المطْعَم المرُّ المذاق .

وكقوله في الرَّوائح : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أذى ﴾[(٢)] وليس شيء أنتن من رائحة المَحيض ، وكقوله : ﴿ من صَلْصَال من حمَأ مَسْنُون ﴾[(٣)] أي مُنتن ، متغير ، وكقوله : ﴿ إنَّما يُريدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عنْكمُ الرِّجسَ أَهْلَ البَيْتِ ﴾ [(٤)] أي النَّتن ، كما قال تعالى : ﴿ فَزَادَتهُم رِجسًا إلى رِجسِهِم ﴾[(٥)] أي نتنهم لأنَّ الكافر رجسٌ ، نجسٌ/ . ١٥٠/أ

وقال في رائحة يُوسف عليه السلام : ﴿ إنِّي لأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [(٦)] لأنَّ كل طَيب له رائحة طَيبة ، كما كانت توجد رائحة مُحمد عليه السلام وقال : ﴿ وَلا رَطْبٍ ولا يَابِس ﴾ [(٧)] يعبر عن الملموس والرَّطب واليابس .

وقال : ﴿ نَارٌ حامِيةٌ ﴾ [(٨)] أي حَارَّة ، وإنَّما يَجد المَخلوق حَرارتها بلمسها .

وقال : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيلَ والنَّهار ﴾ [(٩)] أي بما فيهما وهكذا كثير لا تُحصى شَواهد إدراكه للأشياء من جَميع الوُجود على الكمال الأرفع .

ودليله منَ العَقل أنَّه إدْراكه لذلك كَمال وفقده نُقصان ، ولو كَان

---

(١) سورة البقرة الآية (٥٧) .
(٢) سورة البقرة الآية (٢٢٢) .
(٣) سورة الحجر الآية (٢٦) .
(٤) سورة الأحزاب الآية (٣٣) .
(٥) سورة التوبة (١٢٥) .
(٦) سورة يوسف الآية (٩٤) .
(٧) سورة الأنعام الآية (٥٩) .
(٨) سورة القارعة الآية (١١) .
(٩) سورة النور الآية (٤٤) .

يُعجزه شيء لا يُدركه لكان ناقصًا ، والإله لا يكون ناقصًا ، ولأن مخلوقاته مثل بَني آدم ، وغيرهم يُدركون جميع ذَلك بحواسهم ، وذَلك كَمال فُضِّلوا بهَ على غيرهم ، فمن لم يُدرك ذلك فهو ناقص ، فكيف يكون خلقه تبارك وتعالى أكمل منه ، فافهم .

الأَصْلُ التَّاسع : العِلم ، فإنَّه مُنزه عن شبه الحوادث وطروئها عليه .

واعلم أن البارىء تبارك وتعالى مخالف في أوصافه لجميع الأشياء ، لَيس إدْرَاكه كإدرَاك الخلق ، ولا كما يتوهمه الجاهلون ، بل هُو جل جلاله عالم بغير قلب ، ولا دماغ [(١)] ، وقابض وباسط وفاعل ، ومَالك بغير جارحة ، ومُريد بغير تمنِّي ولا فكر ومُتكلم بغير لسَان ، ولا صَوت ولا حَرف ، وسَميع بغير أذن ، ولا إصَغاء [(٢)] ، وبَصير بغير حدقة [(٣)] وجفن [(٤)] ولا مُقابلة ومدرك للطُعوم بغير شفة ، ولا ذوق ، ولا للرَّوائح بغير أنف ، ولا شَم ، وللرطَب واليَابس ، ويقلُب الليل والنَّهار بما فيها ، والقلوبَ والوجود كله بغير ملاصقة ، ولا لَمس .

وكذلك يَجيء بغير حَركة ، وينزل بغير هُبوط ، ولا سُفول ، ويغضب من غير تغير ، ولا تَشَفِّي ويَرضى من غير استئثار ، ولا طيب نَفس ، ويُحب مَن غَير سُرور ، ولا فَرح/ ، ويقرَب من غير تلاصق ، ولا اتصال ، ويَبعد ١٥٠/ب
مَن غير ثَناء [(٥)] ، وانفصال ويعلو على جميع الأشياء من غير استقرار ، ولا مكان ، بَل بعلو الرُّتبة والمكَانة وسُمو الرِّفعة ، والجلالة :

---

(١) الدماغ : الرأس ، وحشو الرأس من أعصاب ونحوها وفيه المخيخ ، والمخ ، والنخاع المستطيل .

(٢) إصغاء : حسن الاستماع .

(٣) الحدقة : السواد المستدير داخل العين ، وفي الطب : فتحة مستديرة ضيقة وسط قرنية العين وتسمى إنسان العين .

(٤) الجَفن : غطاء العين أعلاها وأسفلها . (٥) ثناء ثَنى فلاناً عن كذا ، صرفه عنه .

واحذر مذلة الوَهم والخَيال ، فإنَّ هذا الصِّراط أدق من الشُّعور ، وأحدّ من الموسى .

وأُمور البارئ كلها أجَل وأرفع ممَّا يَتوَهمه الجَاهلون .

ودَليل ذَلك من القُرآن العَزيز :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [1] وقوله : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [2] .

ودَليله : من العَقل أنَّه لو كَان يُشبه الأشياء في أوصافه لوجب عَليه مَا يجب عليها ، لأنَّ حقيقة الشبه أن يكون للوَاحد مثل مَا للآخر ، ولو كَان ذلك لما عُرف الخَالق مَن المخلوق ، ولا الرب منَ المَربوب ، ولا المالك منَ المَملُوك ؛ لأنَّه كان يلزمه مثل مَا لزمها فَيصير مَثلها ، وهي مثلُه ، وإذا كَان مثلها فَهُو وَاحد منها ، مَصنُوع كصنعتها ؛ لأنّ الأشياء مَصنُوعة ، قد شَهدت العُقول بالبَراهين القاطعة ، وضع صُورها ، وهيئة تأليفها ، وتركيبها ، فلو أشبَهَهَا في شيء من صفاته لكان مُصورًا مثلها مَصنُوعًا ، فبالضرورة القاطعة وَجب أن يكُون مُخالَفًا لها في جَميع صفَاته .

وإذَا كان مُخالفًا لها لم تُشبهه ولم يشبهها فما وَرد عليك في الشرع من المشتُبهات فإن كُنت ممَّن ينهض فيها بطريق العلم الرَّاسخ ، وإلا فارجع إلى هَذا الأصل ، وهو عليْك بأنه مخالف لجميع الأشياء ، وأنف[3] عنه مَا لا يليق به ، وهُو مَعنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [4] .

الأصلُ العَاشر : العِلم بأنَّه قديم الصِّفات ، أمَّا دليله من القُرآن فقوله

(١) سورة الشورى الآية (١١) .

(٢) سورة الإخلاص الآية (٣ ، ٤) .

(٣) انْف : تُنَزِّهه تلقى عنه مايكره .

(٤) سورة الشورى الآية (١١) .

جَل جَلاله : ﴿ وكَانَ اللَّهُ علَى كُلِّ شيء قَديرًا ﴾ [١] ﴿وكَانَ اللَّه بكُلِّ شَيء عليمًا ﴾ [٢] ﴿ وكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُون[٣] بَصِيرًا ﴾ [٤] ﴿وكَانَ اللَّهُ سَميعًا عَليمًا﴾[٥] .

وأمثال هَذا لا يُحصى ، فمعنى « كَان» في هَذه الآيات ، وما أشبهها كَان اللَّهُ في أزَله / ، ولا يَجُوز أن تُصرِّف فيقال : كاَن يكون ، ولذلك أطلق ١٥١/أ
بعض العُلماء في كان فقال :

كان هُو اللَّه أشار به إلى كأنهُ القديم جلَ جلاله .

ودليله من العقل أنَّ اللَّه جل جلاله حين أوجد الأفعال ، والموجودات ، لو لم يتقدم له العلم بوجُودها ، والقُدرة عليها ، والكلام المخاطب لَها بالتكوين ، والإرادَة ، وجميع الأوصاف المُوجبة له رُتبة الرُّبوبية ، والمُلك ، لما صَح منه وجود الأفعال ؛ لأنَّ وجُود فعل من عَاجز[٦] . جَاهل ضعيف ، غير قَوي ، ولا مُريد مُحال ، وقد وجدَت الأفعال .

فقد صحَّ قدم الصِّفات قَبلها ، وإذا صَح قدم الصِّفات قبلها استَحال عليه طُرآن الحَوادث في صفاته ، لأنَّه لو طَرأت عليه لازدَاد علمًا وقدرة ، وبصَرًا وسَمعا وغير ذَلك من أوصافه ، فكان يكمُل بَعد النُّقصان ، وعند طُروئها عليه كَان يَشتغل بالفكر ، والرواية واكتساب الفَضَائل ، فيشغله شأن عَن شأن ولو أشغله تَدبير أهل بلدة من البُلدان ، أو جَسد واحد من

(١) سورة الأحزاب الآية (٢٧) .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٤٠) .

(٣) في الأصل : « بكل شيء » .

(٤) سورة الأحزاب الآية (٩) .

(٥) سورة النساء الآية (١٤٨) .

(٦) العاجز : الذي لا يستطيع القيام بالفعل .

أجساد الحَيَوان عَن تدْبير شيء من الأكوان لبُهت [١] وتحيَّر فَبطل المُلك والحُدثان ، وكَان يكون لَه في تكميل نَفسه شُغل شَاغل على الدُّهور ، والأزمان ، سُبحان ربِّكَ رَبِّ العزة عمَّا يَقُول المُعْتزلة ، وجميع أهل الإفك[٢] والبُهْتان .

وإنَّما الحَق الذي لا يجوز غيره أن تَعلم أنَّ صفات الباريء سُبحانه قديمة بقدم ذَاته ، لم يُحدثها هُو لنفسه ، ولا حَدثت عليه ، بل كان بها من غير افتتاح وجود ، ولا تزْدَاد ، ولا تَنقص كمَا كَانت عليه ، ولا تُفارقه أبدًا ، ولا تحل في شيء أبدًا ، بل هُو مُنفرد بأوصافه عن جَميع خلقه ، ولا يخلقُ فيها بمعنى التَّبعيض شيئًا ، بل الأشياء كلُها فاضلها ومَفْضولها أرواحها ، وأجسامها مخلوقة ، لا من شيء ، والله جل جلاله ليْس مِن شيء ولا فيه ١٥١/ب على مَعنى التَّبعيض شيء ، ولا هُو مِثل/ شيء [٣] .

---

(١) بُهِت : دُهش مأخوذًا بالحجة ، وفي القرآن الكريم : ﴿فَبُهِت الَّذِي كَفَرَ﴾ .

(٢) الإفك : الكذب .

(٣) بلغ مقابلة : كذا وجدت على حاشية الأصل .

الشعبة الثالثة والثلاثون
الإيمانُ بالأقدار والقضايا الجارية على الخلق

أمَّا دليل كونُها من شُعب الإيمان فإنه في حديث جبريل صَلوات الله عليه ، الذي سأل فيه رسُول اللَّه ﷺ عن الإسلاَم والإيمان ، والإحسَان قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : « أنْ تُؤمن باللَّه وملائكته وكُتُبه ، ورُسُله ، واليَوم الآخِر، وتُؤمن بالقَدر كُله خَيره وشرَه »[1] قال : صدقت .

فجعل الإيمان بالقَدر من جملة الإيمان ومن أعداد شُعبه .

وفي حديث آخر : « ثلاثة من أَصل الإيمان : الكف[2] عن مَن قال : لا إلَه إلا اللَّه ولا يكفر بذنب ، ولا يخرج من الإسلام بعمل والجهاد ماض منذ بَعثني اللَّه إلى أن تَنال آخر أمتي الدَّجال ، لا يُبطله جور جائر ، ولا عدل عادل ، والإيمان بالأقدار »[3] .

فجعل الإيمان بالأقدار من أُصول الإيمان وحلف ابن عُمر -رضي الله عنه- فقال : والذي يحلف به ابن عُمر لَو كَان لأحدهم مِثل أحدٍ ذهبًا فأنفقه في سبيل اللَّه ما قُبل منه حتى يُؤمن بالقَدر .

فقال : « يُؤمن بالقدر فجعله منَ الإيمان . وعن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لكُل أمة مجوس »[4] ، ومجوس هَذه الأمة الذين

(١) صحيح : البخاري (١/ ٢٠) . (٢) الكف : المنع ودفع الضر .

(٣) أبو داود (٢٣٥٢) ، البيهقي (٩/ ١٥٩) .

(٤) المجوس : قوم كانوا يعبدون الشمس والقمر ويقدسون الكواكب والنار .

يقُولـون لا قَدر منّ مَات منهم فلا تشهدوا جنائزهم ، ومن مرضَ منهم فلا تعودوهم ، وهم شيعة الدَّجال وحق على اللَّه أن يلحقهم بالدَّجال»[١] .

فوصفهم بأوصاف مُجانبة للإيمان منّ أجل عَدم هَذه الشُعبة العظيمة فيهم .

واعلم أنَّ الإيمان بالقدر من أعظم شعب الإيمان ، لأنَّه منَ التَّوحيد ، فإنَّه إضافة الأفعال كُلها إلى اللَّهَ وأنَّها صَادرة عن قُدرته ، لا شَريك له فيها ، فإذا أضاف العَبد شيئًا من الأفعال إلى غير اللَّه فقد أشرك به ، وهذا يلزم كل
١٥٢/أ من / كـذَّب بالقدر ولأن تكذيب القدر تكذيب القُرآن ، والحديث ، ومن كذَّب بالقُرآن ، والحديث فقدَ كذَّب اللَّه ، ورسولهُ .

قال الله تبارك وتعالى :

﴿ إنَّا كُلَّ شَيء خلقناهُ بِقَدر ﴾ [٢] وقال ﴿ وَكُلُّ شيء فَعلُوه في الزُّبُر وَكُلُّ صَغير وكَبير مُستطرٌ ﴾ [٣] وقالَ : ﴿ وَإن منّ شَيء إلا عندنَا خَزائنهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إلا بِقَدرٍ معْلُوم ﴾ [٤] والإيمان بالقَدر : على ثلاثة أضْرب ضَرب في مقام الإسلام وضَرب في مقام الإيمان ، وضَرب في مقام الإحسَان .

فأمَّا الضَّرب الأول في مَقام الإسلام ، وعالم الحس ، فَهو أن تؤمن بأنَّ كل فعل في الوُجود الظَّاهر ظهر بحركة الحوَاس ، وأشخاص العَالمَ ، أو سُكونَ فهو فِعل للَّه ، تعالى ، لا شَريك له فِي شَيء من ذَلك ، خيراً كان

---

(١) أبو داود (٤٦٩٢) أحمد (٢/ ٨٦) الهيثمي (٧/ ٢٠٧) وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه يحيى بن سابق وهو ضعيف .

(٢) سورة القمر الآية (٤٩) .

(٣) سورة القمر الآية (٥٢ ، ٥٣) .

(٤) سورة الحجر الآية (٢١) .

أو شرًا ، طاعة أو معصية . وأمَّا الضرب الثاني البَاطن في مقام الإيمان فهو أنّ تُصدق بأن الاستطاعة ، والقُوة المنّسوبة إلى النُّفوس ، والأرواح على اكتساب الحركات ، والسَّكنات (١) إنَّما ذَلك مجازًا أعني إضافتها إلى الخلق والكل من عند اللَّه هُو يُعطي القُوة ، والاستطاعة ، ويخلقها ، ويخلق المقّدور الذي تقع عليه القُدرة والقُوة ، هذا في جميع الملكوت كُله ، والجبروت سواء كان المقدور فعلاً للنُّفوس ، أو نظرًا للعقول ، أو أي شيء كان .

وأمَّا الضرب الثالث في مقام الإحسان فهو مُقتضى علمُ اللَّه ، كما أنَّ الضَربين الأولين اللذين تقَدم ذكرهما مقتضى قدرته جل جلاله ، وهو أن ينظر العَقل ، ويؤمن أنَّ تدبير الموجودات كُلها ، ومَا يجري عليها سَبق بها علم اللَّه قبل وجود أعيانها ، فقد كان اللَّه عالمًا بالكون كُله ، وبما يكون من الكائن من الأفعال قبل وُجود الكَون ، وهذا هُو القَدْر المعلوم الذي قال فيه سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا نُنزِّلُهُ إلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾(٢) أي معلوم قبل نُزوله ، ووجوده/ . ١٥٢/ب

ولو لم يكن ذَلك كذلك على مَازعمه أهل البَاطل - لجاز على اللَّه تبارك وتعالى ضَربان منَ المُستحيل :

الضَّرب الوَاحد : أن يطرأ عليه ما لم يعلمه حين وجود الفعل الذي لم يَسبق به علمه ، وفي ذَلك إثبات حُدوث العلم عَليه ، وإضافة النَّقائص إليه

والضَّرب الثاني : من المستحيل أن يَطرأ في ملكه سُبحانه مالا يعْلمه أبدًا من الأفعال كما يقول الذي ينسب إليّه علم الكُليات دون الجزئيات ،

---

(١) السكنات : خلاف الحركات وهو توقفها .

(٢) سورة الحجر الآية (٢١) .

وغيرهم من القدرية [١] .

ولو كان ذَلك كذلك لأدَّى إلى أنَّ العَالم أجهل ، والجاهل أعلم ، وهُو مُحال ، كما أن القُدرة لو لم يتأثر عنها الكَون كله وأعماله ، وحَركاته ، وسكناته على مازَعمه المخالفون لأدّى ذَلك إلى أنَّ القَادر أعجز ، وأنَّ العَاجز أقدر ، وكان الذي يصدر من الخلق من الأفعال أكثر من الذي يَصدر عن الخالق سُبحانه وتعالى عما يقول الظَّالمون عُلوًا كبيرًا .

ومعرفة هذا ينحصر لك في تسعة أُصول تعرف بها حكمة اللَّه في أفعاله المُقدرة كُلها .

الأصل الأول : العلم بأن الله خَالق جواهر العالم كُلياته ، وجزئياته ، خلافًا لمن يقول : إنَّ العَالم الكُلي والطبيعي يُولد الجزئيات التي هي الموردات الثَّلاثة : المعادن [٢] والنبات ، والحَيَوان .

---

(١) يقول ابن قيم الجوزية -رحمه الله - عن القدرية : يشهدون أن هذه الجنايات والذنوب هم الذين أحدثوها ، وأنها واقعة بمشيئتهم دون مشيئة الله تعالى ، وأن الله لم يقدِّر ذلك عليهم ، ولم يكتبه ، ولا شاء ولاخلق أفعالهم ، وأنه لا يقدر أن يهدي أحدًا ، ولايضله إلا بمجرد البيان . لا أن يلهمه الهدي والضلال ، والفجور والتقوى ، فيجعل ذلك في قلبه .

ويشهدون أنه لا يكون في ملك الله مالا يشاؤه ، وأنه يشاء مالا يكون ، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله .

فالمعاصي ، والذنوب خلقهم وموجب مشيئتهم ، لا أنها خلق الله ، ولاتتعلق بمشيئته ، وهم لذلك مبخوسو الحظ جداً من الاستعانة بالله والتوكل عليه و الاعتصام به ، وسؤاله أن يهديهم ، وأن يثبِّت قلوبهم وأن لا يزيغها وأن يوفقهم لمرضاته ، ويجنبهم معصيته إذ هذا كله واقع ، بهم ، وعين أفعالهم ، لا يدخل تحت مشيئة الرب شيء منه . ا. هـ الكتاب مدارك السالكين (ج١ صـ٤٣٧ ، ٤٣٨) .

(٢) المعادن : جمع معدن وهو الذهب ونحوه ، وفي الكمياء : أحد المركبات غير العضوية التي =

الأصل الثاني : العلم بأن اللَّه خَالق أعمال العالمين من الحَركة والسُّكون ، والصَنائع والأَفعال ، خلافًا للقدرية ، وأمثالهم الذين يُضيفون الأفعال للمخلُوقات .

والأصل الثَّالث : العلم بأن الأعمال كسبٌ للعباد ، لأنَّها خلق لهم وأنهم لا يحيطون علمًا بأجزاء تفاصيل ما يصدَر عنهم منَ الحركات المكتسبة ، والسَّكنات ولا بإعدادها ، والخالق لا يكون خالقًا إلا أن يَعلم ما يخلق كما قال تعالى : ﴿ ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ (١) .

١/١٥٣ ولأنها أيضًا خير محض/ ، فإنهم بالضرورة يُدركون التَّفرقة بين الحركة المقْدورة بالاختيار وبين الرعدة الضرورية ، فلم يبق إلا حالة ثالثة فعبر عنها بالاكتساب وعلى ذَلك يقع الثوَّاب ، والعِقاب والكل خلق اللَّه .

الأصل الرَّابع : العلم بأنَّ أعمال الخلق كُلهم وإن كانت كسبًا لهم فإنَّها مراد الله تعالى ولو لمّ يَرد الخير ، والشر جميعًا لكان يعصى كرهًا ، ولو كان ذلك كذلك كما يزعم المُبتدعة وغيرَهم من الضالين لكان الذي يجري على إرادة إبْليس وجُنوده وأتباعه مِن المكروه أكثر من الذي يجري على إرادة اللَّه من الخير .

وفي كتاب اللَّه عز وجل دليل على أنَّه يريد الشَّر ممن أراد منه ، وهو قوله : ﴿ إنَّما يُريدُ اللَّهُ(٢) لِيُعذِّبَهُم بها فِي الْحيَاة الدُّنْيا وتَزْهَقَ أَنفُسُهم وَهُم كَافِرُونِ﴾(٣) .

=توجد في الأرض ، وقد تطلق على الحفريات المتخلفة من مواد عضوية كالزيت المعدني ، والفحم الجيري .

(١) سورة الملك الآية (١٤) .

(٢) في الأصل ﴿إنَّمَا يُريدُ اللَّه لِيُذْهَبَ عَنْكُمْ الرجسَ لِيُعذَّ بهُمْ﴾ وهو خطأ .

(٣) سورة التوبة الآية (٥٥) .

تقدير الكلام : تزهق أنفسهم على الكفر .

الأصل الخَامس : العلم بأن اللّه متفضل بالخَلق والإيجاد ، وبتكليف العباد ، لا على معنى الوَجوب ، واللزوم خلافًا للمُعتزلة التي تقول بوَجوب ذلك عليه لما فيه من مصلحة العباد ، فَإنَّ الذي يفعل ما يجب عليه يلحقه ضرر في ترك فعل ما يجب عليّه وينتفع بفعله إذا فعله ، وهَذا وصف المُضطر ، الذي يلحقهَ النَّفع ، والضرر .

والبَارىء سبحانه يتنزه عن الضرر ، وعن الحظوظ ، والأعراض فإذا لم يتضرر بترك مصلحة العِباد ، ولمّ ينتفع بِها لمّ يكن للوجوب في حقه معنى يَعود عليه .

الأصل السَّادس : العلم بأن اللّهَ يجوز عليه أن يكلف عباده مَا لا يُطيقونه خلافًا لقول المُعْتزلة ، وهذا مُشاهدٌ ، ومعلوم ، بالسَّمَع ، فإن اللّه تعالى يقولَ في كتابه : ﴿ ربَّنا ولا تُحمِّلنا ما لا طَاقة لَنَا به ﴾ [١] فإنَّهم لم
١٥٣/ب يسألوه مُحالاً ، وَلو كان تكليف مَا لا يُطاق مُحالاً لكَانت/ الآية لغوًا وذلك مُشاهَدٌ أيضًا ، لأنَّ الرُّسل خَاطبت الكُفار بالإيمَان وهم لا يُطيقونه ، وقد خاطب رسول الله ﷺ أبا جهل وغيره من الكُفار بالإيمان ، وقد أعلمه بأنهم لا يؤمنون فقال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عليهم أأنذرْتَهُم أمّ لَم تُنذرِهُم لا يُؤّمِنُونَ﴾[٢] .

وقد أمره بالإنذَار ، والتَّبليغ ، والدَّعوة ليكل إلى الإيمان ، فهذا تكليف ما لا يُطاق .

الأصل السَّابع : العلم بأن للّه إيلام الخَلق ، وتَعذيبهم من غير جُرم سَابق ، ومن غير ثَواب لَاحق ، خِلافًا للمُعْتزلة ؛ لأنه متصرف في مُلكه ،

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٦) .

(٢) سورة البقرة الآية (٦) .

لا يعدوه ؛ فالظُّلم عبارة عن تصرف المالك في مُلك غيره ، وهو مُحال على اللَّه ، إذ لا يُصادف لَسواه مُلكًا ، وذلك مُشاهدٌ في البَهَائم ، فإن ذبحها وما صبَّ عليها من أنواع المحن [١] ، والعذاب إيلام لها ولم يتقدم لها جريمة ، فإن قُلت : إن اللَّهَ يختبَرها ، ويثيبها على ذلك ويجب عليه ذلك ، فقد تقدم أنه لا واجب على اللَّه ؟ لأنه لا يتضرر بترك فعل من الأفعال ، والثَّواب منه لكائن من صح أنَّه يُثاب فضل ، ونعمة ، والعَذاب عدل وحكمة .

الأصل الثَّامن : العلم بأنَّه يفعل بعباده مَا يشاء ، ولا يَصح [أنَّه] [٢] يجب عليه رعاية الأصلَح لهم ، خلافًا للمعتزلة في قولها : إنَّ فعل الأصلح لعبَاده وَاجب عليه .

وقد قدَمنا أنَّ الوجوب لا يعقل في حق اللَّه سُبحانه ، فإن قيل : مهما قدر على فعل الأصلح لهم ثمَّ سَلكَ بهم أسباب العَذاب كان ذلك قبيحًا ، لا يليق بالحَكمة فالجواب : أنَّ القبيح هُو مَالا يُوافق الغرَض والشيء قد يكون قبيحًا عند شخص ، وحسنًا عند آخر ، لأنَّه وافق غرض أحدهما ولم يُوافق غرض الآخر ، وإن أريدَ بالقبيح مالا يوافق غرض الباريء فهو مُحال؛ لأنَّه لاغرض له فلا يُتصور منه قبيح ، بل هو الحكيْم الحق ، والحكيم مَعناه / العَالم بحقائق الأشياء ، القادر على إحكام فعلها على وفق ١/١٥٤ إرادته ، فكيف يجب عليه بوَصف الحكمة رعاية الأصلح ، وهو لا يستفيد برعاية الأصلح ثناء ، ولا ثوابًا ، ولا يدفعَ عن نفسه ضررًا ، أو رقة أو حَنة[٣] .

---

(١) المِحَن : جمع محنة وهي : البلاء الشديد .

(٢) زيادة لتوضيح المعنى .

(٣) الحنة : العداوة .

كل ذَلك على الحَكيم الحق مُحال ، والحكيم من الخلق يَرعى الأصلح نظرًا لنفسه ليستفيد نفعًا ، وثناء ، وثَوابًا عَاجلاً ، أو آجلاً أو يرفع عنّ نَفسه به رقة ، وحنة ، أو ضـررًا ، لأن لَه غـرضًا ، والبـارىء تعـالى مُنزه عن الحُظُوظ ، والأغراض .

الأصل التَّاسع : العلم بأن مَعرفة اللّه ، وطاعته واجبة بإيجاب اللّه ، وشَرعه [1] . لا بالعقل كما يقول المُعتزلة ، وغيرهم من المُخالفين ، ومَعنى كون المعرفة ، والطَّاعة وَاجبتين أنَّ في تركها ضَرر على تَاركها .

ومَعنى كون الشَرع مُوجبًا أنَّه يَعلم ما يضر ، وينفع بعد الموت .

والعقل يُفيد فَهم ذلك والإحاطة بإمكان مَا يُخبر به منه في المُستقبل ، ومن أين للعقل بمُجرده دون الشَرع أن يوجب الطَّاعة ، والمعرفة ، وأن يَعرف الحَسن والقبيح والضَّار والنَّافع وإيجابه لا يخلو من ثلاثة أوجه :

إمَّا أن يوجب الطَّاعة والمعرفة لغير فائدة ، وهو مُحال ، لأنَّ العقل لا يوجب المحال .

والوجه الثاني : أن يوجب الطَّاعة ، والمَعرفة لفائدة ، وغرض إلى المعْبود جل جلاله ، وذلك أيضًا مُحال ؛ فإنه مقدس [2] عن الفوائد والأغراض ، بل الطاعة والمعصية ، والكفر والإيمان في حقه سيان .

والوجه الثالث : أن يوجب الطاعة والمعرفة بفائدة ترجع إلى العبد ، وذلك أيضًا محال ؛ لأنَّه لا غرض في المَال ؛ لأنَّه يتعب ويتصرف عن الشَّهوات الملائمة له بسببه ، وليس في المَال إلا الثواب ، والعقاب .

---

(١) الشرع : ماشرعه الله لعباده من العقائد والأحكام .

(٢) مقدس : له العظمة والكبر وفي القرآن الكريم ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّح بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَك﴾ .

فمن أين يعلم بمجرده أن الله يُثيبه على المعرفة/ والطَّاعة ، ولا يُعاقب ١٥٤/ب عليهما؟

والطَّاعة ، والمعصية في حق الله[١] جَل جلاله يتساويان ، لا يتضرر ، ولا ينتفع بهما ، وإنما عرف الوجوب ، وامتاز [٢] الحَسن والقبيح بالشرع ؛ لأنَّ البارئ جل جلاله أرسل الرُّسل وأطلعهم عَلى مُغيبات الأُمور الضَّارة ، والنَّافعة فهم يقولون للخلق : أمامكم المُخوفات ، المُهلكات ، والمحبوبات المُنجيات ، إن نظرتم كما أمرناكم ، وأبصرتم مَا به أخبرناكم .

وإذَا أبْصرتم علمتم ، فبهم أوجب النظر الذي هو أول الوَاجبات عند أهل الأُصول وسبب العلم ، والنّجاة ، والعقل صَالح ومُهيأ لأن يُبصر مَا أخبروه ، ويرُشد إلى مَا يضره ، وينفعه إذا اقتدى بِهداهم ، وسلك مِنهاجهم [٣] .

---

(١) سقط لفظ الجلالة من الأصل وأثبته تتمة للمعنى .

(٢) امتاز : بدا فضله على مثله . وانفصل عن غيره وانعزل ، وفي القرآن الكريم ﴿وامْتَازُوا الْيَومَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ .

(٣) بلغ مقابلة : كذا وجد على حاشية الأصل .

فهرس موضوعات الجزء الأول
من شعب الإيمان

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٧٨٥١

شعب الإيمان

تأليف

الإمام الزاهد أبي محمد عبد الجليل بن موسى بن
عبد الجليل القصري
« ت: ٦٠٨ »

تحقيق

أيمن صالح شعبان — سيد أحمد إسماعيل

الجزء الثاني

دار الحديث
القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

رقم الإيداع ٧٩٤٨/ ١٩٩٦
الترقيم الدولي I.S.B.N.
977-5227-82-8

دار الحديث
طبع . نشر . توزيع

١٤٠ شارع جوهر القائد أمام جامعة الأزهر
تليفون : ٥٩١٨٧١٩ - ٥٩١٩٦٩٧ - ٥١١٣٠٣٦ فاكس : ٥٩١٩٦٩٧

الشُّعبة الرَّابعة والثَّلاثون
الإيمان بالأنبياء والرُّسُل بِالقلب

أمَّا كون هذه الشُّعبة من الإيمان فبين جدًا ، لأن الله قد حتَّم على نفسه أن لا يَقْبل الإيمان به إلا مقرونًا بالإيمان برسله ، ومن لم يفعل ذلك فهو كافر لقوله عز وجل : ﴿ يُرِيدُونَ أن يُفرِّقُوا بَيْنَ اللَّه وَرُسُله وَيَقُولُونَ نُؤْمنُ بِبَعْض وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أن يَتَّخِذوا بَيْنَ ذَلكَ سَبِيلاً أُولَئكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا﴾[١] .

ولولا الرُّسل ما اهتدى أحدٌ من الخلق ، خلافًا لمن يقول : لا فائدة في بعث الأنبياء ؛ لأن العقل يغني عنهم ، ويَهدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة .

وما زَعموه باطل ؛ فإن الأنبياء مُشاهدون لأُمور الآخرة ، والعقل محجوب عن ذلك ، فكيف يهدي إلى النجَاة بما لم يُشاهد ، وهو غيب عنه ، فإذًا لا بد من الأنبياء ، ولا غنى عنهم بوجه ، ولا حال ، بل حاجة النَّاس إلى الأنبياء كحاجة العُمى إلىَ الأدلاء [٢] ، فكما لا يمشي الأعمى إلا بدَليل فكذلك العقل أعمى في أمور الآخرة ، لا يهتدي إليها ، إلا بدليل ، وبذلك/ وصف اللَّه نبيه مُحمدًا ﷺ في التوراة فقال في وصفه : ﴿يَا أيُّها النَّبي ١/١٥٥ إنا أرسلناك شَاهدًا . ومُبشرًا ونذيرًا ، وحرزًا للأمِّيين ، أنت عبدي ورسُولي ، سَميتك المتوكل ، ليس بِفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدَفع بالسيِّئة، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه اللَّه حتى يقيم به الملة[٣] العوجاء[٤]، ويفتح به

(١) سورة النساء الآية (١٥٠ ، ١٥١)

(٢) الأدلاء : جمع دَل وهو المرشد .

(٣) الملة : الدين والشريعة

(٤) العوجاء : المنحرفة عن القصد .

أعينًا عميًا ، وأذانًا صمًا ، وقلوبًا غلفًا [(١)] .

فوصفه بأنَّه يُبصِّر من العمى ، فكل عَقل لم يتبع الرسل فهو أعمى ، يقع ويقوم في مهاوٍ لا آخر لها حتى يأتيه الموت .

فإذا لم يكن عنهم غنى ، ولم يكن منهم بد وجب تمييزهم ، ومعرفتهم من غَيرهم ، وإنَّما عرفوا بالمعجزات التي أعجزوا بها الخلق ، ولمَّا أتوا بما لَيس في طاقة البشر الإتيان بِمثله ، والأنبياء بَشر مِثل الأمم ؛ عُلم أن ذلك

(١) غُلْف : جمع غَلَف وهو الذي لم يعي الرشد كأن على قلبه غلافاً ، وفي القرآن الكريم ﴿وقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْف﴾ .

والحديث أصله في صحيح كتاب البيوع (٢١٢٥) من حديث ابن عمرو بن العاص يرويه عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه - قلت : أخبرني عن صفه رسول الله ﷺ في التوراة قال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفاته في القرآن « ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي . . . . » الحديث .

قال البخاري : تابعه - أي فُليحًا شيخ شيخه - عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال عن عطاء عن ابن سلام ، قال الحافظ [الفتح ٤/ ٤٠٢] ستأتي هذه المتابعة موصولة في تفسير سورة الفتح . قوله : -أي البخاري - « وقال سعيد ، عن هلال عن عطاء ، عن ابن سلام » سعيد هو ابن أبي هلال ، وقد خالف عبد العزيز وفليحا في تعيين الصحابي اهـ .

قلت : فعلى ماذكره الحافظ تكون العبارة الواقعة في متن الحديث المذكور في الشرح قد سقط منه «وقال سعيد » وصواب الجملة [تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة ، قال سعيد - عينه الحافظ كما سبق - عن هلال عن عطاء بن أبي سلام] هذا وقد جنح الحافظ للوفاق في تعيين الصحابي قائلاً : ولامانع أن يكون عطاء بن يسار حمله عن كل منهما ، وذكر شواهد مرسلة وبلاغات عن ابن سلام- رضي الله عنه - لكن المحفوظ عندي ضيع الإمام البخاري -رحمه الله - وشيخ الدارمي في هذا الحديث إنما هو عبد الله كاتب الليث « صدوق في نفسه لكنه صاحب تخليط هذا منها » وفي الباب عن ابن مسعود، راجع المجمع (٨/ ٢٧١) . وأم سلمة - لكنه غير محفوظ - انظرعلل ابن أبي حاتم (٢/ ٣٩١) .

المعجز إنَّما هُو من عند ربِّ العالمين علم أنه فوجب الإيمان بهم لأنهم رسُل اللَّه وأنه بعثهم إلى هداية الأمم ، فلا بُد من معرفة المعجزة ، لأنَّها شَرط في صدق الرسول ، وهوَ تمييزها من السِّحر[(١)] ، والكرامة .

فأمَّا معرفة المعجزة فتعتبر بأمرين يُغنيان عمَّا وَراء ذلك منّ الأُمور :

أحد الأمرين صلاح الرسُول في نَفسه ، وفضله على غيره ؟ فإنَّ الرسول لا يكون إلا صالحًا في غايةٍ منَ الفضل ، والعِصمة من الكذب ، والفواحش .

والأمر الثاني : تحدِّ الخلق بمعجزته ، وادّعاؤه أنَّهم لم يأتوا بمثل ما أُوتي به ، على كثرتهم ، ومعرفتهم حتى يوقفهم على العجز الضروري ، فيقول لهم : إنّ كنت عندكم سَاحراً فإن السِّحر يُتوصل إلى علمه فائتوا بمثله عَلى كثرتكم وحذقكَم[(٢)] فلما أعجزهم عنه الإتيان وعرفَ صدقه ، وَصلاحه وجب اتبَّاعه ، وحرِّمت معَصيته ، وخلافه .

وأما / السحر فالفرق بينه ، وبين المعجزة . أمران : ١٥٥/ب

أحدهما : أنَّه لا يظهر إلا على يدي رجل فاسد ، غير مرضي الحال ، ولذلك يقْتل إذا عثِر عليه .

الثاني : أنه يتوصل إليه بالتَّعليم كْل من اشتغل به ، ويبطل عند ظُهور الحق عليه ، فلا يبقى ، لأنه تخيل بل ، والخيال يبطل عند ظهور الحقائق عليه .

---

(١) السِّحْر : كل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجرى مجرى التموية والخداع .

(٢) حذقكم : أوغل في ممارسته حتى مهرفيه .

قال الله تعالى : ﴿ مَاجِئْتُم بِهِ السِّحرُ إنَّ الله سَيُبطله إنَّ الله لا يُصلِحُ عَمَلَ المفسدِين﴾(١) .

ولقد اجتمع على موسى سبعون ألف ساحر مع كل واحد منهم عصى وحبل ، فأبطل ذلك كله بعصاةٍ واحدة ، فأدخلهم في الإيمان شاءوا أم أبوا والحمد لله .

وأما الكرامة فالفرق بينها وبين المعجزة أمران :

إحداهما : أنهـا لا تكون إلا على يدي ولي ، ولا تظهـر إلا على يدي عدو .

الثاني : أنه مقر بأن كرامته بركة من بركات النبي ﷺ الذي اتبعه واستن بسنته ، ولو ادعى النبوة لبطلت كرامته على الفور ، وعاد فاسقًا(٢) ، وإنما يدَّعى أنَّها كرامة أكرم بها ببركة النبي المتبع فافهم فهمك الله .

فقد ثبتت جميع النبوات بما أتوا به الأنبياء من المعجزات الخارقة للعادات ، وثبتت نبوة نبينا محمد عليه السلام ، الذي لانبي بعده بالقرآن العظيم الذي تحدى به كافة الفصحاء (٣) البلغاء ، وهو باق بأيدي الخلق ، لم يقدر قط أحد من الخلق أن يعارض منه آية واحدة ، والحمد لله .

ومَن معجزاته : انشقاق القمر ، وتسبيح الحصى ، وإنطاق العجماء(٤) ، وجري الماء من أصابع يديه الكريمتين ، وإطعامه النفر الكثير من الطعام

---

(١)سورة يونس الآية (٨١) .

(٢) الفاسق : من خرج عن طاعة ربه . وفي القرآن الكريم ﴿فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه ﴾ .

(٣) الفصحاء : جمع فصيح : يحسن البيان ويميز جيد الكلام من رديئه .

(٤) العَجْمَاء : البهيمة . وفي الحديث ﴿ جُرح العجماء جبار ﴾ وإنما سميت عجماء لأنها لا =

اليسير ، وغير ذلك من آياته ﷺ وأقواله الصادقة التي خرجت ، وتخرج ، كما أخبر بها ، وعنها .

١٥٦/أ ومن أعظم معجزاته كونه أُميّـا ، لا يقرأ ولا يكتب ، ثـم أتى الخلق / ببحار من العلم ، لا تنفذ ، وينابيع من الحكم ، كل عقل منها يستمد . ومن أهم أصول هذا الباب أن تعلم أنَّه لا نبي بعد محمد ﷺ ، وأنَّه قد ختمت به النبوة ، كما وصف الله في قوله : ﴿ مَاكَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أحد من رِجالِكُم ولَكن رَسُول الله وَخَاتَمَ النَّبِيِّين﴾[1] .

وكل من أدرك وقته ، ولم يؤمن به ، وإن كان على طريقة نبي من الأنبياء قبله فهو كافر ، ولا يُقبل منه إيمانه ، لأنَّ جميع الأنبياء قبله قد أمرت بالإيمان به لأمتها ، وبشر به فالجاحد لنبوته ، والتارك لطريقته كافر ؛ لأنه قد كفر بأمر نبيه الذي أمره بالإيمان بمحمد عليه السلام .

قال الله تبارك وتعالى في إيمان الأنبياء به قبل مبعثه :

﴿ وَإِذْ أخذَ الله ميثَاق النَّبِيِّين لَمَا أَتَيْتُكُم [2] منْ كتَاب وَحِكْمة ثُمَّ جَاءكُمْ رسُولٌ مُصدِّقٌ لمَا مَعَكُم لَتُؤْمنُنَّ به ولَتَنْصرُنَّهُ قَال أَأَقْرَرْتُم وأَخَذْتُم عَلَى ذَلكُم إصري قالوا أقررْنَا قَالَ فَاشهَدُوا وَأنَا مَعكُم منَ الشَّاهدِينَ ﴾ [3] .

وقال عليه السلام : « لو أدركني موسى وعيسى ثم لم يؤمنا بي لأكبهما الله في النار » [4] .

=تتكلم ، وكل من لا يقدر على الكلام أصلاً فهو أعجم ، ومستعجم .

(١) سورة الأحزاب الآية (٤٠) .

(٢) في الأصل « أتيناكم » .

(٣) سورة آل عمران (٨١) .

(٤) أخرجه أحمد بنحوه (٣/ ٣٨٧) .

وإنما : أشار بهذا صلوات الله عليه من أجل أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، أتباع موسى ، وعيسى ، الذين يزعمون أنهم على الحق ، لأنهم مؤمنون بالنبوة ، فقال :

« **لو أدركني موسى وعيسى ، ثم لم يؤمنا بي لأكبهما الله في النار** » .

فكيف بغيرهما ممن هو على شريعتهما بزعمه ولم يبدل ، ولم يُغير ، ولم يَنسب إلى عيسى ما ليس هو له بأهل ، ولا افترى على الله كذبًا من اليهود ، والنصارى ؟ .

وأما من بدل ، وغيَّر فليس كلامنا عليه ، ولا يقع به اعتبار ، وإنَّما لم يصح أن نفرق بين الأنبياء بالإيمان من أجل أنهم كلهم أولاد علات [(١)]
١٥٦/ب دعوتهم واحدة إلى دين واحد ، يعبدون ربًّا واحدًا ، فمن / كذب واحدًا منهم فقد كذب جميعهم ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **كَذَّبَتْ قومُ نوح المُرسَلينَ** ﴾ [(٢)] ولم يكن نوح إلا رسول واحد ، و﴿ **كَذَّبت عادٌ المرُسلينَ**﴾[(٣)] ولم يكن لهم شيء إلا هود ، ﴿ **كَذَّبت ثَمُودُ المرُسلينَ** ﴾ [(٤)] ﴿ **كَذَّبت أَصحَابُ الأيكَةِ المرُسلينَ** ﴾ [(٥)] والأنبياء الذين[(٦)] وجب الإيمان بهم عددهم مذكور في حديث رواه أبو ذر عن النبي عليه السلام قال أبو ذر : قلت يا رسول الله : كم الأنبياء ؟ قال : « **مائة ألف ، وأربعة وعشرون ألف نبي** » قال : قلت يا رسول الله : كم الرسل من ذلك ؟ قال : « **ثلاث مائة وثلاث عشر جمٌّ غفير** »

---

(١) أولاد عَلاَّت : بنو رجل واحد من أمهات شتى ويقابلهم بني الأخياف وهم : بنو الأم الواحدة من آباء شتى .

(٢) سورة الشعراء الآية (١٠٥) .

(٣) سورة الشعراء الآية (١٢٣) .

(٤) سورة الشعراء الآية (١٤١) .

(٥) سورة الشعراء الآية (١٧٦) . (٦) في الأصل : « الذي » .

قلت : يا رسول الله : كثير طيب ؟ قال : « نعم » قلت : من كان أدلهم ؟ قال « آدم عليه السلام » قلت : يا رسول الله أنبي مرسل قال : « نعم » خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وسواه قبلا » ثم قال : « يا أبا ذر أربعة سيريانيون[1] آدم ، وشيث ، وخنوخ ، وهو إدريس ، وهو أول من خط بقلم ، ونوح، وأربعة من العرب هُود ، وشعيب،وصالح، ونبيك، يا أبا ذر [2] وأول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى ، وأول الرسل آدم وآخرهم محمد ﷺ » .

هؤلاء هم الأنبياء ، الواجب الإيمان بهم ، أكرمهم على الله محمد عليه السلام ؛ فإنَّه إمام الكل ، وسيد الجميع .

فصل

فإذا تقرر هذا فإن الإيمان في هذا الباب ينقسم ثلاثة أقسام :

قسم في مقام الإسلام ، وقسم في مقام الإيمان ، وقسم في مقام الإحسان .

فأما الأول : في مقام الإسلام فهو التصديق بهؤلاء الأنبياء الذين ظهرت أشخاصهم في عالم الحس المسمين بأسمائهم كنوحٍ ، وهود ، وشعيب ، ومن ذكر منهم إلى مبعث محمد عليه السلام ، ومن لم يذكر باسم ، وذكر مجملاً في/ سائر الأنبياء . ١/١٥٧

وأما : المقام الثاني الذي هو مقام الإيمان أن نؤمن بالله بأن نؤمن بأن جميع الأنبياء أخذوا الإيمان من الملائكة من عالم الغيب ، ومنهم تلقوا

---

(١) في الأصل : «سريانون » .

(٢) أحمد في المسند (٥/ ٢٦٦) الطبراني في الكبير (٨/ ٢٥٩) ، والبيهقي في السنن (٩/ ٤) .

االشرائع [١] ، والوحي [٢] ، و السُّنن خلافًا لمن يقول : أن العقل يُدرك النبوة وحده ؛ وذلك مذهب أكثر أهل الضلال الذين يقولون : إن عقل الإنسان هو الملك وهو النبي ، وبه يُكتفى عن كل شيء .

وأما : المقام الثالث في مقام الإحسان فهو التصديق بمقام الخصوصية للأنبياء والرسل ، وأن القدرة قد صرفت ذلك المقام عن جميع الخلق ، وغيبته عنهم ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُطلِعَكُم عَلَى الغَيبِ وَلَكنَّ الله يَجتَبي مِن رُسُلِهِ مَن يشَاء ﴾[٣] .

وقال الرسل في هذا المقام لأممهم :

﴿ إِن نَحنُ إلا بَشَرٌ مِثلُكُم ولَكِنَّ الله يَمُنُّ علَى مَن يشاءُ من عباده ﴾[٤] أي بالخصوصية ، فمقام الرسالة محجوب عن الخلق - أعني مقام الرسالة ، ولا يأتي أحد بكتاب ، ولا يشرع شريعة إلا أن يكون رسولا مطلعًا على مقام الرسالة ، لكن مقام الصديقية ، والإلهام والفهم ، والرؤيا الصادقة قد بث الله معاني ذلك في الوجود ، وندب إلى الارتقاء في تلك المقامات الشريفة ليفهم بها المؤمنون مقامات الأنبياء ، ويرتفعون على آثار الأنبياء في الدرجات .

والنبوة التي هي علو الدرجة مندوب إليها لكن على آثار [٥] الأنبياء ، والاقتداء بهم ، وذلك من بركات الأنبياء في ذلك المقام ، مقام الولاية ،

---

(١) الشرائع : جمع شريعة وهي : ماشرعه الله لعباده من العقائد والأحكام .

(٢) الوحي : مايوحيه الله إلى أنبيائه .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٧٩) .

(٤) سورة إبراهيم الآية (١١) .

(٥) آثار : جمع أثر وهو العلامة .

والصِّديقية ، والمحادثة ، ومنهم أبدال النبيين ، وورثتهم من العلماء الراسخين ، قال النبي عليه السلام : / « **إنَّ منكم مُكلمين** » وفي رواية أخرى ١٥٧/ب « **وإنَّ عُمر لمنهم** » وقال : « **الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جُزء من ستة وأربعين جُزءًا من النبوة** » [١] وقال : « **من أوتي القُرآن فقد أؤتي النبوة إلا أنَّه لا يُوحى إليه** » .

يعني أنه لا يكون رسولاً فيعلي قدر الارتقاء في درجات الصديقية ، ومقام الإلهام [٢] ، والمحادثة ، والفهم في كتاب الله ، واتِّباع نبي الله يكون ارتفاع درجة العبد في مقام النبوة التي هي ارتفاع الدرجة .

وأما : مقام الإرسال ، وشرع الشرائع فإنه مقصور ، ومحجور على أهله .

أماتنا الله وإياكم على سنته ، واستعملنا بما جاء به ، ورفع درجتنا في القرب منه آمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليمًا .

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٣٩) والهيثمي في المجمع (٧/ ١٧٢) .

(٢) الإلهام : إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر ، يخص الله به بعض أصفيائه .

الشعبة الخامسة والثلاثون

الإيمان بكُتب الله المُنزلة مِن عنده على أنبيائه عليهم السلام

أما كونه من شعب الإيمان فلا يحتاج أيضًا إلى استشهاد عليه، قال الله تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا آمنُوا بِالله وَرَسُوله والكتابِ الَّذي نَزَّلَ علَى رسُوله والكتابِ الَّذي أَنزلَ مِن قبلُ ﴾ [(١)] .

والكتب المنزلة على الأنبياء هي النبوة والوحي ، والأشخاص المُنزل عليهم هم الأنبياء ، وجملة الكتب المنزلة من عند الله تعالى المشهورة مائة كتاب ، وأربعة كُتب ، يجب الإيمان بها .

وروى أبو ذر قال : قلت يا رسول الله : كم كتاب أنزل الله عز وجل ؟ قال : « مائة كتاب وأربع كتب أنزل الله على شيث خمسين صحيفة ، وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل الله على موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان»[(٢)] .

١٥٨/أ وكذلك : يجب الإيمان بكل كتاب أنزل / الله إلى جميع الأنبياء عليهم السلام في خاصة أنفسهم ، وما أمروا بتبليغه إلى الخلق ؛ لأن الله يقول :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّه وَمَاأُنزل إلينا وَمَا أُنزلَ إلى إِبرَاهِيمَ وإسمَاعِيلَ وإسحَاقَ

---

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .

(٢) السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٤١) .

ويَعقُوبَ والأسبَاطِ ﴾ [1] .

وقال : **﴿ إنَّا أوحينا إليك كَمَا أوحَينَا إلى نُوحٍ والنَّبيِّينَ من بعده وَأَوحَينآ إلى إبراهيم ﴾** إلى قوله **﴿ وَرُسُلاً قَد قَصَصناهُم عَليكَ مِن قَبلُ وَرَسُلاً لَم نَقصُصْهُم عليكَ ﴾** [2] .

فالإيمان : بجميع ما أنزل الله على جميع الأنبياء واجب ، لأنه وحي من عند الله ، ويجزئ من ذلك كله الإيمان بالقرآن العظيم ؛ فإنه قد وجب الإيمان بكل آية منه ، وقد ذُكر فيه جميع الأنبياء عمومًا ، وخصوصًا ، وما أُنزل عليهم ؛ ففي الإيمان به إيمان بجميع الكتب ؛ لأنه مُهيمن على جميعها .

وكذلك يجب الإيمان بكل ما صح من حديث رسول الله ﷺ ، و هو شعبة من شعب الإيمان بذاته ، لكن قَرنته في باب واحد مع الإيمان بالكتب ؛ لأنه وحي ، وقد نبّه الله عنه أنه **﴿ مَاينطقُ عَنِ الهَوى إن هُو إلا وحيٌ يوُحى ﴾** [3] .

فالإيمان بحديثه واجب ، والمكذب به مكذب للرسول ، وقد زعم قوم من المتأُخرين بمجرد العقول أنهم يستغنون بالعقل عن الكتب والأنبياء ، وما زعموه باطل ؛ فإن العقل لا يستغني عن الشرع ، والشرع لا يُقبل إلا بالعقل ، لا يستغني واحد منهما عن صاحبه .

ومن أجل هذه المقالة ضل جميع الخلق إلا أتباع الأنبياء ، دليل ذلك حديث النبي عليه السلام حيث يقول : « **إن الله خلق الخلق في ظُلمة ثم أفاض**

---

(١) سورة البقرة الآية (١٣٦) .

(٢) سورة النساء الآية (١٦٣ ، ١٦٤) .

(٣) سورة النجم الآية (٣، ٤) .

عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل » [١] .

والنور الذي أفاض عليهم هو نور كتبه المُنزلة . ، كما قال :

﴿ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ [٢] ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبينًا﴾[٣][٤]﴿والنُّور / الذي أنزَلنَا ﴾ [٥] . ١٥٨/ب

وقال عليه السلام : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسُنّتي » [٦] .

وفي حديث آخر : « من اتبع الهُدى في غيره أضله الله » يعني القرآن وقال الله تعالى : ﴿ وإن تُطِيعُوه تَهْتَدُوا ﴾ [٧] .

دليله : من لم يطع الرسول فقد ضل ، فإن تقرر هذا بالإيمان بالوحي على ثلاثة أضرب كما تقدم في سائر المقامات :

ضرب : في مقام الإسلام ، وضرب في مقام الإيمان ، وضرب في مقام الإحسان .

فأما : الضرب الأول الظاهر في مقام الإسلام فأن يؤمن العبد ، ويُصدق بأن هذا القرآن ، والحديث المكتوب في الأوراق ، وهي كتب الله ، وحديث رسول الله يسّره الله بلسان نبيه للذكر ، وللعمل به فوجب على كل

---

(١) الحاكم في المستدرك (١/ ٣٠) ، أحمد في المسند (٢/ ١٧٦) ، (٢/ ١٩٧) .

(٢) سورة الأعراف : [الآية : ١٥٧].

(٣) سورة النساء : [الآية : ١٧٤].

(٤) تكررت في الأصل : ﴿ والنُّور الذي أنزل معه ﴾ ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبينًا ﴾ وحذفت .

(٥) سورة التغابن : [الآية : ٨] .

(٦) مالك في الموطأ (٨٩٩) .

(٧) سورة النور : [الآية : ٥٤] .

مؤمن يعمل جميع الإسلام بالكتاب والسُنة ؛ فإنَّ الإيمان عمل بالجوارح وتصديق بالقلب ، ونُطق باللسان ، ويجعل الإنسان أمام عمله الكتاب ، والسُنة ، وما تفرع منهما ، وشهد له منهما ، ويجتنب الآراء ، والأقوال الفاسدة ، الضعيفة ، فهذا من الإيمان بالوحي في مقام الإسلام .

وأما : الضرب الثاني في مقام الإيمان فأن يُصدق بأن هذا الكتاب والوحي هو الذي ظهر على لسان محمد رسول الله ﷺ ، وأنَّه من الأنبياء نزل من عند الله بواسطة الأملاك ، ومن اللوح المحفوظ ، كما قال تعالى فيه :

﴿ إنَّه تَذكرَةٌ فَمَن شاء ذَكَرَهُ في صُحُف مُكرمة مَرفُوعَة مُطَهَّرة بأيدِي سَفَرَة كِرامٍ بَرَرَة ﴾ (١) وفي ﴿ كِتَابٍ مَكنُونٍ لاَيَمَسُّهُ إلا المطَهَّرُونَ ﴾ (٢) .

قالوا فيه : ﴿ إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرَ ﴾ (٣) ﴿ وإن هَذا إلا إفكٌ افتَراهُ ﴾ (٤) وغير ذلك مما كذبوا به ، فيجب على كل مؤمن أن يعتقد خلاف ما قالوا ، أو
١٥٩/أ يُصدق / أنَّه من عند الله نزل على جبريل ، ثم على محمد ، ثم يسره الله بلسان نبيه عليه السلام .

وأما : الضرب الثالث في مقام الإحسان بأن يُصدق ، ويؤمن أنه قائم بذات الله ، وصفة من صفاته ، يتكلم به أزلاً ، وأبدًا فإذا نظر النَّاظر في آياته ، وتدبر في مُعجزاته ، وعجائبه تبين له أنَّه كلام الله يقينًا (٥) ، لا

---

(١) سورة عبس : الآية [١١ : ١٦] .

(٢) سورة الواقعة : [الآية : ٧٨ ٧٩] .

(٣) سورة النحل : [الآية : ١٠٣] .

(٤) سورة الفرقان : [الآية : ٤] .

(٥) اليقين : العلم الذي لا شك فيه ، وفي الفلسفة : اطمئنان النفس إلى حكم مع الاعتقاد بصحته .

سيما إذا فهم معانيه، وكان الباري هو الذي يهديه فيه ، ويُفهمه ، فحينئذ يرى في هذا المقام كيف خاطب به الوجود كله ، وكيف هو كلمة واحدة ، مُتحدة بذات الباريء ، والوجود مُتكلم بتلك الكلمة ، وكيف هو - أعني القرآن - مبين لجميع الأشياء ، ومبين لصفات الباريء وما هو عليه مما يجب له ، ويجوز عليه ، ويستحيل ، وكيف هو تبيان لكل شيء ، وكيف احتوى على علم الأولين ، والآخرين كما قال الله تعالى :

﴿ مَا فرَّطنا فِي الكتاب مِن شَيء ﴾ (١) لأن القرآن وهو تفسير ، وتبيين للصفات ، والأسماء ، أسماء الباريء ، وتفسير وتبيين لكل شيء ، فهذا مقام العلماء الرُّوحانيين ، والرَّبانيين ، وهو هُدى الله ، يهدي به من يشاء .

ومن زعم أنه يصل إلى معرفة الله وعبادته مُنفرداً بعقله فقد ردّ على الكتاب، والسنن ، وعليه الدليل ، وليقال فلان اهتدى بعقله دون الرسل ، والكتب ، ولو واحداً من الخلق وليس يجده .

فإن احتج محتج بإبراهيم عليه السلام ، وأنه نظر إلى الكوكب ، والقمر ، والشمس ، وارتقى إلى معرفة الله ، وملكوته بالنظر فإن الله يقول قبل نظره :

﴿ وكذَلِكَ نُري إبراهِيمَ مَلكُوتَ السَّمَوَاتِ والأرضِ ﴾ (٢) .

وأعلمنا أن الله علمه ، وأراه الآيات ، وتعليمه إياه هو الوحي ، حتى أنَّ تعليم الأنبياء في المنام وحي .

---

(١) سورة الأنعام : [الآية : ٣٨] .

(٢) سورة الأنعام : [الآية : ٧٥] .

وكذلك ورد في الحديث : « **رُؤيا الأنبياء وحي** » (١) .

١٥٩/ب والفلاسفة :/ هم أكيس النُّظار بالعقل المجرد ، وقد كبروا ، وابتدعوا في نظرهم فأنى هذا يضُاف إلى عقلٍ [إنما هو] (٢) يَوصّل إلى الكفر ، والبدعة ، وقد وصل بهم نظرهم إلى حد تصور لهم الباطل في صورة الحق ، وعضدوه بالبراهين ، وزعموا أن التنزيه الكامل ، والنور الساطع فيما أدركوه من الباطل ، مثل قولهم : إن الله يعلم الكُليات ، ولايعلم الجزئيات ، بوجه ، وأنَّه لو علمها لكان نقصًا في حقه جل جلاله .

والله تعالى يقول :

﴿ **وَمَا تَسقُطُ مِن ورَقَة إلاَّ يَعلَمُهَا ، وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرضِ وَلا رطبٍ وَلا يَابسٍ إلا في كِتَابٍ مُبِين** ﴾ (٣) .

فمن زعم أن هذا النظر مصيب فَليُكَفَّر بهذه الآية ، وبكل آية مثلها .

وإنَّما النَّقص الحقيقي أن لو كان ما قالوا حقا ، فإن من غاب عن علمه شيء وإن دقّ (٤) فقد نقص علمه ، وتناهى ، وإنَّما العلم الكامل ، الذي لا يتناهى ، ولا يعزب عنه شيء كبُر ، أو صغُر .

فانظر كيف انقلب الباطل عندهم حقاً والحق باطلاً حتى عضدوه بالبراهين في زعمهم ، وهذه المسألة أول ما كفروا به .

فإن قال قائل : فإنَّ في علوم النُّظار منهم ، ومن غيرهم ما هو حق ، ومُبرهن عليه ، وحكم كثيرة تقبلها العُقول السليمة ، قلنا : نعم ، لكن

(١) الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٧٦).

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) سورة الأنعام : [الآية : ٥٩] .

(٤) دَقَّ : الشيء دقه : صغر وغمض وخفى معناه .

ذلك من أقوال أنبياء كانوا قبلنا فيهم وحكماء كانوا أتباعًا لهم ، ثم حدثت بعدهم الأهواء ، وكثرت الآراء الفاسدة كآراء المبتدعة في شريعة محمد عليه السلام ، وكتحريف [١] النصارى ، واليهود لشرائع أنبيائهم ، فما وافق أقاويلهم الحق قبلناه .

كما قَال معُاذ بن جَبل -رضي اللَّه عنه- : تَلقى الحق إذا سَمعته ، فإنَّ على الحق نورٌ ، ومَا خَالف الحق ، الذي هُو الشرع رمينا به وجْه الشَياطين .

وقد ذكر المجوس أنَّه كانَ فيهم أنبياء ، وسَموهم ، وذكر اليُونانيون أنَّ امرأة منهم حاكَمت/ زوجها إلى بَعضهم ، فأصابته مَشغولاً بالتقديس ١٦٠/أ
-يعني الصَّلاة- فانتظرته مع زَوجها حتى فرغ وقال : يَا جاهلة بمقدار مَا جنتَه على نَفسها ، اعترفي بذَنبك وأعْلمي زَوجك بجنايتك عَليه ، فإنَّ السكران الذي وَاقعك في لَيلة كَذا ، وزَوجَك قائم في الَهيكل [٢] يدعو لك بدَوام البقَاء ، والسلامة قَد أجلك لما استترت [٣] عنّ أعين البَشر ، لم تبق عَين ترى عَيبك ، أو لَم تَعلمي أنَّ في مَلكوت السَّموات مَا لا يحصى عَدده وأنت فِيهم كالمكفُوفة بَين المُبصرين ، وستَلدين بَعد شَهرين خَلقًا مُشوهًا .

ثمَّ قال للزوج : عقدت نكَاح هذه المرَأة على غَير استقامة ، فحصدت منها أكثر ممَّا زَرعته ، فولدتَ شخص إنسان لَه يَدان ، ويَدان في صورة صَغيرتان ، وذكروا أنَّ رجُلاً وافاه فَقال : يا نُور الألباب [٤] إني دَفنت مَالاً في مَوضع من مَنزلي ونَسيت مكَانه ، فقام مَعه ، وجاء إلى مَنزله فأثاره، ثم

(١) تحريف الكلام : غيره عن معانيه وصرفه عنها ، وفي القرآن الكريم : ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ .

(٢) الهيكل : موضع في صدر الكنيسة يقرب فيه القربان .

(٣) في الأصل : « استرت » .

(٤) الألباب : العقول .

قال : يا أيها الممتحن ، والشاك في إنَّه لا بد أن يتلف فيك ما أثرته لك من المَال في هَذا الأُسبوع ، ثمَّ لا أستخرجه لكَ بَعدها ، فإنَّ حقًا على من تَعب بنعم اللَّه أن يَسلبه [(١)] إيَّاها ، فذَهب المال .

ومن نَوادر حِكَمهم : مِن غلَب عقله هَواه افتضح ، من غض طرفه أراح قلبه .

أيُّها الإنسان إذا اتَّقيت ربك ، وحذرت الطريق المؤدية إلى الشر ، ثمَّ تقَع في الشَّر ، لا تلم القَضاء فيما جَنيت شَر ، يُدفع خيرٌ من خَير لا ينفع ، لا شيء أشد من تَرك الشهوة ، تَحريك السَّاكن أيسر من تسكين المتحرك .

من قَل وفاؤه كثُر أعداؤه ، أحسن إن أحببت أنّ يُحسن إليكَ بالهمم العَالية ، والقرائح [(٢)] الزَّكية تَصل القُلوب إلى نَسيم العَقل الرُّوحاني ، ١٦٠/ب وتَرقى في مَلكوت الضِّياء ، والقُدرة الخَفية عن الأبصار المُحيطة بالأقطار/ ، وتَرقى في رياض الألباب المُصفات من الأدناس [(٣)] وبالأفكار يَصفو كَدَر الأخلاق المَحيطة بأقطار الهياكل الجُسمانية فعند الصَّفو ومُفارقة الكَدر تَعيش الأرواح التي لا يَصل إليها انحلال ، ولا اضْمحلال [(٤)] .

الحكمة حَياة النُّفوس ، وزارعة الخَير في القُلوب ومُثيرة الحَظ ، وحَاصدةَ الغِبطة [(٥)] وجَامعة السُّرور ولا يخبو [(٦)] نُورها ، ولا يَكبُو

---

(١) يسلبه : ينتزعه قهرًا .

(٢) القرائح : جمع قريحة وهي : من كل شيء أوله وباكورته . والقريحة من الإنسان ، طبيعته التي جبل عليها ، وملكة يستطيع بها الإنسان ابتداع الكلام وإبداء الرأي .

(٣) الأدناس : جمع دنس الوسخ والقذر .

(٤) اضمحلال : ضعف ، وانحل شيئًا فشيئًا حتى تلاشى .

(٥) الغبطة : حسن الحال والمسرة .

(٦) لا يخبو : لا سكنت ولا خمدت لهبها .

زنادها[١] ، الحكمة حُلة العقل ، وميزان العَدل ، ولسَان الإيمان ، وعَين البَيان، ورَوضة الآداب ، ومُنزاح الهُموم عنّ الأنفس ، وأَمن الخَائفين وأُنس المُستوحشين ، ومتجر الرَّاغبين ، وحَظ الدُّنيا ، والآخرة ، وسَلامة العَاجل ، والآجل ، كُل شَيء تتهيَّأ فيه رحيلة إلا القَضاء ، ليَس شيء أقرَب إلى بغير النِّعم من الإقامة على الظُّلم . فهذه حكَم [٢] صَدرت عن الأنبياء ، وعن أتباعهم من العُلماء الأولياء والحُكماءَ . وكتب بَعضهم إلى يملك زمَانه ، وقد مات ابنه ، إنَّ اللَّه تبارك وتعالى جعل الدُّنيا دَار بَلوى ، وجَعل الآخرة دَار عُقبى [٣] فَيأخذ مَا يأخذ ممَّا يُعطي ، ويبلى إذَا ابْتلَى ليجري الذُنوب الفَاضحة ، تَذهب الحجج الوَاضحة [٤] أعقلوا في ستر من أنتم ، فإن كُنتم لا تعقلون فاحذروا الدنيا ، فإن كُنتم لا تُحسنون أنَ تحذروا الدُنيا فاجّعَلوا مشوكًا ، وانّظروا أين تَضعون أقدامكم ؟واحّذروا أكل الشَّهوات فإنَّ القُلوب المُعلقة بالشَّهوات مَحجوبة عنّ اللَّه عز وجل فهذه ألفاظ تَذكر الغَيب ، والآخرة التي جَاءت بها الأنبياء ، مَن أراد أن يَقوى على طَلب الحكمة فليكف عَنّ تَمليك النِّساءَ نَفسه لاضراً أضر منَ الجهل ، ولا شَرًا أشر منَ النِّساء ، فمنّ كَانتَ الدُّنيا عنه سَائرة فلا يَشك أنَّ أعطاءه فائته ، ومُهجته [٥] عنّ الدُّنيا رَاحلة . من حَسن خُلقه غُفر ذَنبه وأُقيلت عَثرته ، ومَنّ أساء خُلقه عُوقب فِي حَياته ، ولَمّ يُصفح عن ذَلته بَعْد مَمَاته .

الدُّنيا وإن رَمَقت [٦] خَطرة مِن لَحظة مُلتفت ، يحسن بالمرء التَّعليم

(١) الزناد : أداة تدق الزند فتشتعل فينفجر البارود ، وأيضًا : العود الذي يقدح به النار .

(٢) في الأصل : « أحكام » .

(٣) عقبى : مرجع إلى الله . (٤) الواضحة : الظاهرة البينة .

(٥) مهجته : روحه .

(٦) رمقت : نظرت إليه ، ويقال : رمقه ببصره : أتبعه بصره يتعهده وينظر إليه ويرقبه .

مَادَامت بِهِ الحيَاة .

وقال بعضهم : مَا أحب أنَّ النَّفس علمت كُلما أُوعدت به ، فقيل : لم أيُّها الحكيم ؟ فقال : لأنَّها لو علمت لطَالت ، فلم يَنتفع بها مَا عندي منّ فضيلة العلم إلا علمي بأنِّي لست بعالم الاتكال على القَضاء أروحَ ، وقَلة الاسترسَالَ [١] أحزم ، إذا هَرب الحكيم من النَّاس فاطلبه ، وإذا طلبهم فاهَرب منه . هَذه كُلها حكاية حكم مَقبولة ، لأنَّها دالة على الحق ، ومَا وجد في كَلامهم مَن البَاطَل عُلم أنَّها أراء فاسدة ، دَخلت عليهم حين عُدم الأنبياء ، وأتباعهم من الحكماء .

وإنَّما الغَرض من إيلاف أقوالهم أنّ كُل كتاب وَافق الكتاب والسُّنة قُبل وما لم يُوافق طُرح [٢] ولم يقبل ، فإن الله يَقول : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [٣] أي بِغير عِلم من اللّه ، ومِن رسُوله كما قال في أية أخرى .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ - يا محمد - فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي أراءَهم .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [٤] فالهُدى إنَّما هُو من اللّه ، وهُداه هُو الكتب المُنزلة على رسُله ، لا يوصَل إلى الحق إلا بها .

جَعلنا اللّه من المُهتدين بهديه ، المُتمسكين بجُملة المتبعين لنَبيّه ، ورسُوله ، ورزَقنَا الفَهم عنه آمينَ .

---

(١) الاسترسال : في الحديث : طوّله وبسطه .

(٢) طرح : ألقى به وأبعد .

(٣) سورة الأنعام : [الآية : ١١٩] .

(٤) سورة القصص : [الآية : ٥٠] .

الشُّعبة السَّادسة والثَّلاثون
الإيمان بالملائكة

أما كون هذه الشُّعبة من الإيمان فبيِّن لا يَحتاج إلى دليل / . ١٦١/ب

قال اللَّه تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائكَتِهِ وَكُتُبِهِ ﴾ (١) .

وفي حَديث جبريل عليه السَّلام في سؤاله عن الإيمان قال : « أن تُؤمن باللَّه ومَلائكته » (٢) .

وشَواهد هذا البَاب أكثر من أن تُحصى .

واعلم - رحمك الله - أنَّ الإيمَان بالملائكة واجبٌ كالإيمان بالرُّسل ، والجَاحد (٣) للملائكة كَافرٌ ، لا يُقبل إيمَانه ، لأنَّه مكذِّبٌ بكُتب اللَّهِ ورسُله .

وعددهم لا يُحصيهم إلا اللَّه تبارك وتعالى ، فإنَّ المُلك كله ظاهرًا ، وباطنًا [و] (٤) والعرش بما حَوى معمور بهم ، لا يخلو منهم مكان ، لأنَّهم خدمة الملك كُله ، ومُتعَبدون له في جَميعَ أقطار العَالم كُلَه ، فَمنهم مَلائكة مُوكلون بالأرض ، ولا يُحصي عَددهم إلا اللَّه .

ولذلك« أمر النَّبي ﷺ أن لا تستدبر القِبلة لبول ، أو غائط (٥) إكرامًا

---

(١) سورة البقرة : [الآية : ٢٨٥] . (٢) أخرجه البخاري (١/ ٢٠) .

(٣) الجاحد : الذي ينكر وجود الملائكة مع علمه بوجودها .

(٤) سقطت من الأصل .

(٥) فتح الباري بنحوه (١/ ٤٩٨) .

للمُصلين إليها .

وفي الحديث الصحيح عن عَائشة - رضي الله عنها - أنَّها قالت : قلت للنَّبي ﷺ : « هَل أتى عليكَ يومٌ أشد من يَوم أحد ؟ قال : « لقد لقيت من قَومك ، وكَان أشد مَا لَقيت منهم يَوم العَقبة ، إذ عَرضتُ نَفسي على ابن عبْد لَيل بن عَبْد كلال فلم يُجبني إلى مَا أردت فانطلقت وأنا مهمومٌ ، على وجهي ، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثَّعالب ، فرفعت رَأسي فإذا بسحابة قد أَظلتني ، فَنظرت فإذا فيها جبريل ، فَنَاداني فقال : إنَّ اللَّه قَد سمع قول قومك لَك ، ومَا ردُّوا عليك، وقد بعَث إليك مَلك الجبال لتَأمره بما شئت فيهم ، فَناداني مَلك الجبال فسلم علي ثمَّ قال : يَا مُحمد هُو ذلك بما شئت ، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين» .

قال رسُول اللَّه ﷺ :« بَل أرجو أن يُخرج اللَّه مِن أصلابهم [(١)] من يَعبد اللَّه وحده لا يُشرك به شيئًا » [(٢)] .

١٦٢/أ فأثبت للمَلك أنَّه [(٣)] مُوكل بالجبَال/ واللَّه أعلم بمابين يَديه من المَلائكة، وأنَّه شَخص ، وأنَّه نَادى رسُول اللَّه ﷺ ومنهم مَلائكة مُوكلون بالبَحر ، وذكر أنَّ منهم مَلكًا اسمه مهليهائيل ، يُسبّح بهَذا التَّسبيح : سُبحان اللَّه العَلي الدَّاني سُبحان اللَّه تَسديد الأركان ، سُبحان من يُذهب بالليل ، ويأتي بالنَّهار سُبحان من لا يَشغله شَأن عن شَأن ، سُبحان اللَّه الحنَّان [(٤)] المنَّان [(٥)] سُبحان اللَّه في كُل مكَان . فقال : من قال هذا التسبيح مائة مَرة لم يمت حتى يَرى مَقعده منَ الجنة ، أو يُرى له .

---

(١) أصلابهم : حمع صلب وهو : الذرية .

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٣٩) مسلم في صحيحه كتاب الجهاد باب (٢٩) رقم (١١٢) .

(٣) في الأصل : « إله » وهو خطأ .

(٤) الحنَّان : الرحيم وهو من صفات الله تعالى .

(٥) المنان : المعطي الكثير العطاء .

ومنهم مُوكلون بالهَوى ، وما بين السَّماء والأرض ، ومنهم السَياحون ، الذين يتبعون مجالس الذكر ، كما ورَد في صحيح مُسلمَ عن أبي هريرة قال : إنَّ رسول الله ﷺ قال : « **إن لله مَلائكة سَيَّارة فضّل يتَّبعون مجالس الذِّكر ، فإذا وجَدوا مَجلسًا فيه ذكر قعدوا مَعهم ، وخط بعضُهم بعضًا بأجنحتهم حَتى يملأوا مَا بَينهم وبين السَّماء والأرض** » [١] وذكر الحديث إلى آخره .

ومنهم الذين ينقلون الصَّلاة لمُحمد عليه السَّلام ممن يُصلي عليه ، فهذه [٢] كلها صفات أشخاص عَالمة ، مُتكَلمة بالأذكار ، ومنهم سَاكن في السَّموات السَبعَ ، وصفهم رسول ال اللّه ﷺ ليلة الإسرَاء ، وَذكر أنَّ تسبيح أهل سَماء الدُّنيا : « سُبحان ذي المُلك والمَلكوت » ، من قَالها له مِثل ثَوابهم .

وتسبيح أهل السَّماء الثَّانية : « سُبحان ذِي العِزَّة والجَبَروت » ، من قَالَها كَان لَه مِثل ثَوابهم .

وتسبيح الثَّالثة : « سُبحان الحَي الذِي لا يَموت » مَن قَالها كَان لَه مِثل ثَوابهم .

وتسبيح أهل السماء الرَّابعة : « سُبحان القُدوس ، ربُّ المَلائكة ، والرُّوح » ، من قالها كَان لَه مِثل [٣] ثَوابهم .

وتسبيح أهل السَّماء الخَامسة : « سُبحان من جمع بين الثَّلج والنَّار » ومَن قَالها كَان لَه مِثل ثَوابهم .

---

(١) أحمد (٢/ ٢٥٢) الحاكم (١/ ٤٩٥) : الهيثمي (١٠/ ١٣٢) .

(٢) في الأصل : « فهذا » .

(٣) تكررت كلمة « مثل » في الأصل .

١٦٢/ب وتَسبيح أهل السَّماء السَّادسة : « سُبحان القُدوس ربُّ كلَّ شَيء/ » [١] من قَالها كَان لَه مثل ثَوابهم .

ومنهم خزنة الجنَّة ، ومنهم خَزنة النَّار ، ومنهم حملَة العَرش ، ومَنهم مُوكلون بَالحُجب [٢] ومنهم مُوكلون بالمطَر ، حتَى قَد ورد أنَّه لا تنزل قَطرة مِن السَّماء إلا وقَعها ملَكَ ، ومنهم مُوكلون بالأرحام وخَلق النطف [٣] .

ومُوكلون بنفخ الأرواح في الأجساد ، ومُوكلون بخلقة النَّبات ، وتَصريف الرِّياح، وجَري الأفلاك ، والنُّجوم ، ومنهم حَفَظة عَلى أعمال العباد ، ومِنهم مُوكلون بِحفظ بَني آدم ، يَحفظونه مِن أمر اللَّه ، أي بأمر اللَّه .

وَعلم الجُملة فإنَّهم عَامرون للمُلك كُله حي أنَّه ليس في العَالم مَوضع شبر إلا وَهُو مَعمور بالعباد المُكرمين ، الذين ﴿ **لا يَعْصُون اللَّه مَا أَمَرَهُم ، ويَفْعَلُونَ مَا يُؤمَرُون** ﴾ [٤] ويجمع لك ذَلك كُله عَلى الاختصار أن تَعلم أنَّ العَالم عَلى ثلاثة مَراتب : عَالم المُلك والشواهد الظاهر للحَواس والجَسد في مَقام الإسلام .

وعَالم المَلكوت البَاطن الذِي هُو عَالم الكُرسي الذِي وسع السَّموات والأرض ، وعَالم النَّفس .

والثَّالث : عالم العَرش ، والحجب ، الذي هُو عالم الرَّوحانيين ، والمُقربين من الأملاك وَعَالم الرُّوح .

---

(١) تكررت كلمة « من » في الأصل .

(٢) الحجب : جمع حجاب وهو : الساتر .

(٣) النطف : جمع نطفة : وهي : المني .

(٤) سورة التحريم : [الآية : ٦] .

والعَالم كَله مَشحُون [١] بهم من أعلاه إلى أسفله كمَا ورَد في القرآن ، والحديث ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذين يَحملونَ العَرْشَ وَمَن حَوْلَه ﴾[٢] فوصف أنَّ المَلائكة حَافين بالعرش ، وبالمُلك كُله ظَاهره ، وبَاطنه ، فالإيمان بجميعهم وَاجب . واعلم أنَّ أوصافهم ستّة أوصاف ، هي جَامعة لكل فَضيلة :

أولها : العلم الكَامل ، كما شَهد اللَّه لهم بذلك في قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أنَّه لا إله إلا هُوَ والمَلائكة ﴾[٣] فَثَنى بشَهادتهم بَعد شَهادته .

والثَّاني : العفة الكَاملة عَن الشَّهوات ، كما شَبه اللَّه نبيه يُوسف بهم في قوله : ﴿ مَا هَذا بَشَرًا / إن هَذَا إلا مَلَكٌ كَرِيم ﴾ [٤] . ١/١٦٣

الثَّالث : الاجتناب للمعصية ، كما أخبر اللَّه عَنهم في قوله : ﴿ لا يَعْصُونَ اللَّه مَا أَمَرَهُم ﴾ [٥] فلَيس فيهم من يَعصي اللَّه طَرفة عَين .

الرَّابع : الطَّاعة الكَاملة والامتثَال الكَامل في كل ما أمر به المعبُود جل جَلاله ، كما أخبر عَنهم في قوله : ﴿ ويفعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ ﴾ [٦] .

الخَامس : الذكر الدَّائم المتصل الذي لا يُداخله فُتور ولا غفلة ، ولا يَقطعه سَهو ، ولا نَوم ، كما أخبَر عنهم في قَوله : ﴿ يُسبِّحُونَ اللَّيْلَ والنَّهارَ لا يَفتَرُونَ ﴾ [٧] السَّادس : الأخلاق الحَسنة الكَاملة ، فَليس فيهم فيما بَينَهم تَحاسد ، ولا شَحنَاء ولا استطالة بَعض عَلى بَعض ، ولا شَيء يُستقبح ، رُحماء بالمؤْمنين ، مُستغفرون لَهم أشداء [٨] غِلاظ في مَواضع الشدة ، على

---

(١) مشحون : مملوء.
(٢) سورة غافر : [الآية : ٧] .
(٣) سورة آل عمران : [الآية : ١٨] .
(٤) سورة يوسف : [الآية : ٣١] .
(٥) سورة التحريم : [الآية : ٦] .
(٦) سورة التحريم : [الآية : ٦] .
(٧) سورة الأنبياء : [الآية : ٢٠] .
(٨) في الأصل : « أشد » .

من يَجب ذَلك عليّه ، نَافعون للخلق يُحسنون لهم بضُروب المَنافع ، والإحسَان ، ثمَّ مع هَذا كُله وَهب اللَّه لهم الأعمار الطَائلة ، والذَّوات القَوية على الخدمة ، إنَّ هَذا لَهو الفَضل المُبين .

واعلم أنَّ أُفضل النَّاس من تشبّه بهم في أوصافهم حتى يَكون آدميًا مَلكيًا ، وشَر النَّاس مَن تباعد من أوصافَهم حتى يكون آدميًا شَيطانيًا .

فإذَا فَهمت هَذا فاعلم أنَّ الإِيمان بهم - عليهم السَّلام - على ثَلاثة أضرب :

أحدها : العَمل بأعمالهم من امتثال [1] طَاعة المَعبود واجتناب مَعصيته .

والثَّاني : التَّصديق بوجودهم صَلوات اللَّه وسَلامه عليهم .

والثَّالث : التَّشبه بهم في أوصافهم ، وأفعالهم وعُلومهم ، وهُم في ذَلك عَلى مَراتب ، ودَرَجات ، مَرتبة فوق مَرتبة ، ودَرجة فوقَ درَجة من الأرض ، إلى حَملة العَرش ، وسُكان الحُجب ، على نحو هَذه الدَّرجات ترتيب دَرجات المِعراج الذي عَرج فِيه رسول اللَّه ﷺ إلى أن كان قاب قَوسين أو أدنى .

١٦٣/ب والمَعَارج / التي تَعرج المَلائكة وفي بَعض أحاديث الإسرَاء عن النَّبي عليه السَّلام وصف فيه مَراتب المَلائكة في دَرجات المعراج قال : « **وكأن المِعراج أُرسل من جنة الفَردوس ، مَنضود [2] باللؤلؤ ، ومَا مَن مُؤمن إلا ويُجعل له عند مَوته معراج ، أما تَرون كَيف يَتبع بَصره رُوحه ،والمعراج أحسن شيء خلقه ...** ثمّ قال في الحديث « **ومَا مِن دَرجة إلا وَعليها زُمرة من المَلائكة لَهم زجل**

(١) امتثال : امتثل أمره : أطاعه واحتذاه .

(٢) منضود : ضم بعضه إلى بعض في تناسق .

بالتَّسبيح» .

وقال اللَّه تَبارك وتَعالى في تَرتيب مَرَاتبهم : ﴿ وَمَا منَّا إلا لَهُ مَقام مَعْلُوم﴾ [(١)] فاحرص - رحمك الله - على الفكر والذِّكر ، ورَفع الهمة عن هَذا العَالم الخَسيس ، الأدْنى ، إلى المَحل الكَريم ، مَحل المَلائكة ، فإنَّهم الملأ الأعلى ، ومَن فَعل ذَلك حَصل له العلم واليَقين بوجود المَلائكة ، والعلم واليَقين زَائد على الإيمان ، فإنَّه إذَاَ ارتفع الروحَ إلى المَحل الكَريم الذيَ هُم فيه ، فيحسن روحَه بذواتهم ، فإنَّ الأرواح تشتام ، فتجد الإلهامَات ، والخَطرات المَرْضيةَ تأتيه في قلبه من ذواتهم ، وربَّما قوي الإلهام في حَق قَوم ، وربَّما كَان الكشف يقوم عَلَى حَسب مَا يكون لقُرب منهم صَلوات اللَّه وسلامه عليهم ، وأفاض علينا من بَركاتهم برحمته ، آَمين ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إنَّ الَّذين كَذَّبوا بآياتنا واسْتَكبَرُوا عَنهَا لا تُفَتَّحُ لَهُم أبوابُ السَّمَاء وَلا يَدخُلُونَ الجَنَّة حَتى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِياطِ﴾ [(٢)] .

دَليل الآية أنَّ مَن لم يُكذب بآيات اللَّه ، ولم يَستكبر عن قبولها ، والعَمل بهَا تفتح لَه أبواب السَّماء ، ولَمَّا كَان المَلائكة على مَراتب - كمَا تَقدم- منهم مَن هُو في عَالم الحُجب والعَرش ، مقاماتهم المَحبة والأُنس ، واستماعَ الوحي ، وغَير ذَلك من المقامات الرِّضوانية ، الرُّوحانية ، ومنهم من هُو في عَالم السَّموات والأرض ، أحوالهم الخوف ، والخشيَة ، والحراسة ، والمُراقبة كَالكَروبيين ، وحُرَّاس السماء ، وغير ذَلك من أحوَالهم الشريفة ، وكأحوال مَلائكة الأرض / السُّفلى وخدمة النَّار الغلاظ الشِّداد عَلى الأعداء . ١/١٦٤

ومنهم النَّازلون فِي عَالم الحِس بالأُمور السَّماوية والصَّاعدون ،

(١) سورة الصافات : [الآية : ١٦٤] .

(٢) سورة الأعراف : [الآية : ٤٠] .

وخَدمة النَّبات والأجسام ، والعَوالم كُله بضُروب الاجتهَاد .

وكَأن للعبد أيضًا ذَوات ثَلاثة : جَسد ، ونَفس ، ورُوح ، فليجتهد العَبد بجسده في طَاعة ربِّه في الطَّاعة ، واجتناب المَعصية ، وارتقاء الهمَّة إلى العُلى ، ونُزوله ، والتَّواضع إلى السُّفْلى ، وليكن في عَالم النَّفَس حَارسًا لقلبه ، وهمه عن الخطرات الشيطانية ، والهوى ، فيرجم [(١)] العَدو بشُهب [(٢)] الأذكار ، ويَتَقوى على النَّفس بالغلظة ، والشِّدة في طَاعة اللَّه حتى يَردها ويكفها فيَتشبه بملائكة السَّموات ، وليكن أيضًا بروحه ، وعقله مُفكرًا ، أو ناظرًا إلى العُلوّ ، ومُكتسبًا لأحوال المَحبة ، والرِّضى والشَوق وغير ذَلك من صفات الرُّوحانيين ، أعاننا اللَّه وإيَّاك عَلى الفَهم عنه ، والتَّقريب إليه بكُلَ مَا يُحبه ، ويرضاه ، ولا جَعلنا مِن أهل البُعد ، آمين آمين ، وصلى اللَه على محمد وآله وسلم .

---

(١) فيرجم : فيرمي .

(٢) الشهب : جمع شهاب وهو : الشعلة الساطعة من النار .

الشُّعبة السَّابِعة والثَّلاثون
الإيمان بالجنِّ والشيَّاطين

أمَّا كون هذه الشُّعبة من الإيمان فدلائلها من القُرآن والسنة كَثيرة ، منها قصة آدم مع إبليس ، وغير ذَلك من الآيات ، كقوله : ﴿ إنَّ الشَّيْطانَ لَكُم عدوٌ فاتَّخذُوه عدُوًا ﴾ (١) وكقوله في الجن : ﴿ قُل أُوحيَ إليَّ أنه استَمَعَ نَفَرٌ من الجنِّ ﴾ (٢) وقال اللَّهُ تعالى ﴿ واجْلُبْ عَلَيْهم بخَيْلك(٣) ﴾ (٤) وقال لهم رسول اللَّه ﷺ : « لَكُم كُل عَظْم ذُكرِ اسم اللَّهِ عَليه تَجدونه أوفر مَا كَان لحمًا، وَكُل بَعرة عَلَف لدَوابِّكم » (٥) .

فأثبت لَهم أكلاً ، ودَوابًا ، وخَيلاً ، ورَجلاً ، فَوجب الإيمان بأنَّهم أشخاص وأمم ، لا يعلم عددهم إلا اللَّه ، خلافًا لمن يقول : إنَّما هي أخْلاط السوداء ومَن/ زَعم هذا يَدخل عليه الكُفر مَن حيث كذَّب القُرآنَ ، والرُّسل ١٦٤/ب عليه السَّلام .

وقد ثَبَتَ في الصَّحيح عن أبي هُريرة أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « إن عِفريتًا من الجنِّ تفلت البَارحة ليقْطع علَّي صلاتي ، فأمكنني اللَّهُ منه ، فأخذته ، فدعته - يعني خنقته - فأردت أن أَرْبطه إلى سَارية (٦) من سَواري المسجد حتى تُصبحوا وتنظروا إليه كُلكم ، فذكرت قول أخي سُليمان : رب اغفرلي ، وهَب لي

---

(١) سورة الأعراف : [الآية : ٢٢] .

(٢) سورة الجن : [الآية : ١] .

(٣) سورة الإسراء : [الآية : ٦٤] .

(٤) سقط من الأصل ما بين المعقوفين .

(٥) في الأصل « فإنهم » .

(٦) السارية : عمود من الخشب ينصب عليه الشراع ، وسارية العلم قائمته ، وسارية المسجد : أحد الأعمدة التي يقوم عليها .

ملكًا لا ينبَغي لأحدٍ من بَعدي ، إنك أنت الوَهّاب ، فردّه اللّه خاسئًا » [١] .

فهل تُربط الأخلاط ، وصفات الأنفس في السَّواري ، هل هذا إلاّ زَلَلَ عظيم ممن يراه

وثبت في الصَّحيح أيضًا عن أبي هريرة قال : « **وكّلني رسول اللَّه ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت فجَعل يَحْثُو في الطعام ، فأخذْته ، وقُلت : لأرفعنك** [٢] إلى رسُول اللّه ﷺ ، فقال : إنِّي مُحتاج ، وعليَّ عيال ، وبي حاجة شَديدة . قال : فخليت عنه ، فأصبحت فقال رسول الله ﷺ : « **يا أبا هُريرة ما فَعل أسيرك البَارحة ؟** » قلت : شكا حاجة شَديدة ، وعيالاً فَرحمته ، فخليت سَبيله ، قال : « **أمَا إنَّه قد كذبك وسَيعود** » فعرفت أنَّه سيعود لقول رسول الله ﷺ « وأنَّه سَيعود» ، فرصدته [٣] فجاء ، فجعل يَحْثو من الطَّعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنّك إلى رسول اللّه ﷺ ، قال : دَعني فإني مُحتاج ، وعليّ عيالٌ [٤] فرحمته ، وخليت سبيله ، فأصبّحت ، فقال لي رسول الله ﷺ : « **يَا أبا هُريرة ما فعل أسيرك ؟** » قلت : يَا رسُول اللّه شكا حاجة شَديدة، وعيالاً فرحمته ، فخليت سَبيله ، قال : « **إنَّه قَد كَذبك وسيعود** »
١٦٥/أ فرَصدته الثالَثة فجاء فجعل يَحْثو [٥] من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك/ إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مَرات تزعم أنَّك لا تعود ، ثم تَعود . قال : دَعْني أُعلمك كلمات يَنْفعَك الله بها ، قلت : ومَا هي ؟ قال : إذا آويتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكُرسي : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَه إلا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ**

(١) صحيح : البخاري (١/ ١٣٤) ، (٦/ ١٥٦) .
(٢) في الأصل : « لأرفعك » .
(٣) فرصدته : قعد على الطريق يرقبه .
(٤) في الأصل : لأعود .
(٥) يحثو : يغترف .

سِنَةٌ وَلا نَومٌ ﴾ [١] حتى تَخْتم الآية ، فإنَّك لن يزال عليّك من اللّه حافظ ، ولنّ يَقربك شَيطان حتى تُصبح ، فخليت سَبيله ، فأصبحت ، فقال لي رسول الله ﷺ : « ما فَعلَ أسيرك البَارحة ؟» فقلت : يا رسول اللّه زعم أنّه يُعلمني كَلمات يَنفعني الله بها ، فخليت سبيله ، فقال : « مَا هي؟ » قلت : قَال لي : إذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية : ﴿ اللَّهُ لا إله إلا هُوَ الحيُّ القَيُّوم ﴾ وقال : لن يَزال عَليكَ من اللّه حَافظ ، ولا يَقربك شَيطان حتى تُصبح .

قال أبو عَبد اللّه البُخاري : وكانوا أحْرص شيء على الخَير ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنَّه صدقك ، وهُوَ كَذُوب ، تعلم من تُخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة ؟ » قلت : لا ، قال : « ذلك شَيْطان » [٢] .

فانظر هذه الصِّفة [٣] هل هي إلا صفة شَخص من الأشخاص ؟ وَهل تكون الأخْلاط والصِّفات تأتي إلى الطَّعام ، فتعرفه ، وتعلم العلم ، ومثل هذا في القُرآن كَثير ، والحديث الصَّحيح أكثر من أنّ يُحصى ، فوجب الإيمَان بالجن والشَّياطين ، لا مَحالة .

والذي يَزعم أنَّها أخلاط السَّوداء ، وما شَاكلها من صفات النُّفوس ، مع إنكاره لَعالم الشياطين كَافر بالقرآن ، والحَديث ، وجاحدٌ [٤] له ، نَسأل اللَّه السَّلامة مَن الزيَغ [٥] في جميع الأمور بمنّه وفضله ، بل الذي في الإنسان من الأخلاط السَوداويّة ، وصِفات الإباءة ، والاستكبار بِغير حَق ، والمكر ،

---

(١) سورة البقرة : [الآية : ٢٥٥] .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : (٣/ ١٣٢) .

(٣) الصفة : الحالة التي يكون عليها الشيء ويتميز بها .

(٤) جاحد : المنكر مع علمه بالشيء .

(٥) الزيغ : الميل عن الحق .

والخداع دَليل واضح على ما في الوُجود من الجن ، والشَياطين ، ولذلك من عَرفَ نفسَه عرف به سَائر المَوجودات وقال النَّبي عليه السَّلام : «الشَّباب شُعبة من الجُنون » [١] وفي حديث آخر : « يَهرم ابن آدم ويشب منه اثنتان » [٢] وذكر الحديث .

فهذه الأوصاف المركبة في حيلة الإنسان وخلقته بها يُستدل أنَّ في العَالم جنًا وشَياطين كما أن بما فيه مَن الصِّفات المحمودة والأخلاق الحسنة يستدل عَلى ما في العَالم من المَلائكة ، ملائكة الرَّحمة ، وبما فيه من الغَضب في اللَّه ، والغَيظ والغلظة ، والشِّدة ، والكبْرياء بحق ، دليل على ما في العَالم مَن المَلائكة الغلاَظ الشداد ، الذين لا يعَصون الله مَا أمرهم ، وبما فيه من صفات الرضى ، وطيبَ النَّفس ، والهَناء دَليل على مَلائكة الرِّضى ، كرضوَان وخزنة الجنة ، وبما فيه من صفات الحزَن ، والخوف والكروب [٣] والغَموم [٤] دليل على الكروبيين وأهل الخَشية ، والقلق عن الأمَلاك ، وبما فيه من الفطن والأذهَان ، والإلهامات دليل على مَلائكة الوَحي والتَّعْليم .

وهكذا استقر لي صفات الإنسان بفهم وعلمٍ ، كذلك يحصل لك

---

(١) قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة حديث (٥٨٦) : رواه أبونعيم في الحلية عن عبدالرحمن بن عابس ، وابن لال عن ابن مسعود ، والديلمي عن عبد الله بن عامر في حديث طويل ، والتيمي في ترغيبه عن زيد بن خالد كلهم مرفوعًا به . اهـ ، وتتمة الحديث « الشباب شعبة من الجنون ، والنساء حبالة الشيطان » .

(٢) قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة حديث (١٣٥٢) الحديث متفق عليه من حديث شعبة ، عن قتادة ، عن أنس مرفوعًا ، وفي الباب عن سمرة و غيره ، وفي لفظ : « يشيب ابن آدم ، ويشيب منه » اهـ وتتمة الحديث : « يهرم ابن آدم ويشب منة اثنتان : الحرص والأمل » ورواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة (١١٥) ، ابن ماجة (٤٢٣٤) و الترمذي (٢٤٥٥) .

(٣) الكروب : جمع كرب وهو : الحزن والأسى .

(٤) الغموم : جمع غم وهو : الكرب والحزن الذي يحصل للقلب بسبب ما .

اليقين [١] بِسائر الموجودات إن شاء الله .

فإذا فهمت هذه فاعلم أن الإيمان بالجن والشياطين أيضًا على ثلاثة أضرب :

ضَرب في مَقام الإِسلام ، وضَرب في ومقام الإيمَان ، وضرب في مَقام الإِحسان .

فأمَّا الضرب الأول في مَقام الإسلام فإنَّ للشَيَاطين عُلومًا ، وأخلاقًا ، وخَيلاً ، وصفات ، وأعمالاً بمقتضى أخلاقهم ، وعُلومهم ، فيجتنب الإنسان أعمَالهم ، ولا يُطيعهم بَجوارحه ظَاهرًا ، فيكون شَيطانًا منّ شَياطين الإنّس ، ومن الشَّياطين إلا المؤمنون منهم ، فإنَّهم بضد الكَافرين ، ومنهم طائعون ، ومُتصفون بالأحوال الشَّريفةَ ، التي أُمر الإنسان بها .

وأمَّا الضَّرب الثَّاني في مَقام الإيمان فهو التَّصديق بوجودهم ، وأنهم عَالَم كثير غَيْب عنا ، كما أن الإنسان عَالَم لا يحصي عددهم إلا الله في عالم/ الدُّنيا ، والهروب من وسَامهم [٢] ومعرفة خواطرهم ، وتَسّويلهم إلا المؤمنون منهم . ١٦٦/أ

وأمَّا الضرب الثالث في مَقام الإحْسَان فهو التخَلق [٣] بضد أخلاقهم ، مثل الإباء ، والعناد [٤] والكبر ، وتَرك الاتِّصاف بأوصافهم ، لأنَّ من اتصف بأوصافهم فَقد أشبههم ، ولذلك سمَّاهم اللَّه إخوان الشَّياطين ، لأنَّهم أشبهوهم وأخو الشيء شبيه أخيه ، لولا شبه فيه منه لما

(١) اليقين : العلم الذي لا شك معه ، وفي الفلسفة ، اطمئنان النفس إلى حكيم مع الاعتقاد بصحة ما يقول .

(٢) وسامهم : علاماتهم .

(٣) العناد : مخالفة الحق مع علمه به .

(٤) في الأصل : التخلف .

قرن به .

بل سمَّاهم ﴿ شَيَاطِينَ الإنس وَالجِنِّ يُوحِي بَعْـضُهُمّ إلَى بَعْضٍ زُخْرَف [١] القَوّلِ غُرُورًا﴾ [٢] .

فحقيقة الإيمان بهم التَّصديق بهم ، والبُعد من صفاتهم ، وأفْعَالهم ، وإذَا لم يَبعد العبد من أوصافهم ، وأفعالهم انحط إلَى عَالمهم ، وصارت ذاته الباطنة في أفقهم ، فلا يسمع باطنه إلا كَلامهم ، وزُخرف القول من وَحيهم ، وتشكيكهم وأمرهم بالمنكر ، والفَحشاء ، والأمّنية ، والإبعاد ، والوَسوسة [٣] والخواطر الرَّديئة كلها ، وذلك أصل كفر ، وشر في الوجود من أوله إلى آخره إلا المؤمنون منهم .

فافهم فهمنا اللَّه وإَيَّاك ، وأعاننا على البُعد من كل كافر منهم بُكل وجه وبكل مَعنى ، ولا جَعَلنا منهم ، ، ولا من إخوانهم في الدنيا والآخرة ، آمين وصلى الله على محمَد وعلى آله وسَلم .

---

(١) زخرف : الزينة وكمال الحسن .

(٢) سورة الأنعام : [الآية : ١٢٢] .

(٣) الوسوسة : التحديث بما لانفع فيه ولا خير .

الشُّعبة الثَّامِنة والثَّلاثون
الكَفّ عَنْ مَنْ قال : لا إِله إلا اللَّه

أمَّا كون هَذه الشُّعبة من الإيمان فدلائله كثيرة جدًا من القُرآن ، والسُّنة، وإجماع أهل السُّنة ، يغنيَ عن الاستشهاد على ذلك ، قال الله تعالى في ذلك :

﴿ إنَّ اللَّه لاَ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (١) .

ولو كَان كَافرًا ما غفر له ، ومن عذَّبه أخرجه بإيمانه من النَّار .

وقال الله تَعالى : ﴿ وَإن طَائفتان مِنَ الْمُؤمنِينَ اقْتَتَلوا ﴾ (٢) .

فَسماهم مُؤمنِين .

وقال النَّبي عليه السَّلام : « إذَا التَقى المُسلمان بِسَيْفَيهما فالقَاتل ، والمَقْتُول في النَّار » (٣) .

فسمَّاهم مُسلمين، وقال أيضًا عليه السَّلام في النِّساء يكفرن قيل : يكفرن باللَّه ، قال « يَكفرن الإحسان ، ويكفُرن العَشير » (٤) فهذا كُفر دون كُفر.

---

(١) سورة النساء : [الآية : ٤٨] .

(٢) سورة الحجرات : [الآية : ٩] .

(٣) صحيح : البخاري (١/ ١٥) و (٩/ ٥) مسلم في صحيحه كتاب الفتن (١٥) ، ابن ماجة (٣٩٦٤) ، النسائي (٧/ ١٢٥) .

(٤) العشير : الزوج ، والحديث صحيح : أخرجه البخاري (١/ ١٤) ، والنسائي (٣/ ١٤٨) .

وَقال أيضًا عليه السَّلام : « سِبَاب المُسلم فُسوق ، وقِتَاله كُفر » [(١)] .

ورَوى أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلاثة من أصل الإيّمان: الكف [(٢)] عمن قال : لا إله إلا الله ، ولا يُكفَّر بذنب[(٣)] ، التَّوحيد أصلٌ مِن أُصول الإيمَان » .

وما كان من أوصافه فهو شُعبة منه ، بل هو من أعظم شُعبه ، والحمد للَّه .

ومن لاَ يَرى ذَلك فهو من أهل الزَّيغ والضَّلال الذين يَقولون بالتَّكفير بالذُّنوب غُلواً [(٤)] في تعظيم الذَّنب حتى خَرَجوا عن الحد ، وإنَّما القول العدل في ذَلك ، أنَّ من ارتكب الذَّنب مُتأولاً يُحاسب وهو يرى أنَّه عاصٍ بركوبه إيَّاه ، غير مُستحلٍ له .

فهذا يُحكم لَه بحكم الإسلام ، ويؤمر بالتَّوبة منه ، والرُّجوع عنه ، فإن تاب لحق بالطَّائعين ، وإن بقي على حاله فأمره بركوبه طَريق الآخرة ، لكنّه في المشيئة بين المغفرة والعذاب ، ثم إن دخل النَّار فلا بد أن يخرج منها بإيمانه .

فالتَّكفير سَاقط عنه بكل وجه ، والحمد للَّه لخروجه من النَّار ، إذ لا يُخَلَّد في النَّار إلا كافر ، بهذا شَهد الكتاب ، والأخبار .

وأمَّا من ارتكب الذنب من غير تأويل قصد فيه الحق ، وهو عند اللَّه

(١) صحيح : البخاري (١/ ١٩) ، (٨/ ١٨) ، (٩/ ٦٣) مسلم في صحيحه كتاب الإيمان ، باب (٢٨) ، رقم (١١٦) .

(٢) الكف : الامتناع والانصراف وعدم التعرض .

(٣) أبو داود (٢٣٥٢) البيهقي (٩/ ١٥٩) .

(٤) غلوًا : مبالغة .

على خلاف ذلك ، ومن [١] غير أن يَرى نفسه عاصيًا ، بل ركبه رُكوب استحلال ، وتَركَ الواجب عليه تَرْك عناد وجُحود فهذا هو الذي يُطلق عليه التكفير ، لأنه كفر بآيات الله ، وكُتبه ، ورسُله من أجل أن الكتاب أوجب الوَاجبات ، وأحَل الحَلال ، وحرّم الحَرام ، فإذا حرَّم هذا مَا أحل اللّه ، وأحلَّ مَا حرَّم اللّه ، أو أنكر ما أوجب الله فقد كذَّب الله .

ورَدَّ عليه ، قال اللّه تعالى :

﴿ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى علَى اللّهِ كَذبًا أو كَذَّبَ بآياته ﴾ [٢] وقال :

﴿ وَلا تَقولوا لمَا تَصفُ أَلْسنَتكُمُ الكَذبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا على اللّهِ الكَذِبَ ﴾ [٣] الآية : وقال في آية أخرى :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أُنزلَ اللّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْه حَرَامًا وحَلالاً قُلْ آللّه أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [٤] .

وقَد نَسب اللّهُ مَنْ فعل هَذا للكُفر ، وقال في سُورة بَرَاءة :

﴿إنَّما النَّسيءُ [٥] زيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضلُّ به الَّذينَ كَفَروا يُحلُّونَهُ عَامًا ويُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطئوا عدَّة مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحلُّوا مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُم سُوءُ أَعْمَالِهِم ﴾ ثم قال : ﴿واللّهِ لا يَهدِي القَومَ الكَافِرينَ ﴾ [٦] .

---

(١) في الأصل : « ومن » .

(٢) سورة الأعراف : [الآية : ٣٧] .

(٣) سورة النحل : [الآية : ١١٦] . (٤) سورة يونس : [الآية : ٥٩] .

(٥) النسيء : التأخير ، وهو تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر ، زمن الجاهلية ، لكي يستباح القتال فيه ، وأيام النسيء : خمسة أو ستة ، تزداد في آخر السنة القبطية بعد شهر « مسرى » لكي تتعادل مع السنة الشمسية .

(٦) سورة التوبة : [الآية : ٢٢] .

ولو أنَّ كل مَن واقع ذنبًا وقع عليه التكفير لما دخل الجنَّة أحد من خلق اللَّه ، وبَقيت الجنة خالية ، لأن النبي ﷺ قال : « **ما مِن نبي إلا وقد عصى، أو همَّ بالمعْصية** » (١) .

فما ظنُّك بِسائر الخلق دُون الأنبياء ؟

والعَجب كُل العَجب من القائلين بالتَّكفير بالذُّنوب ، وهُم أكثر خلق اللَّه ذُنوبًا ؛ لأنَّهم يكفّرون الأَئمة ، ويخرجون عليهم بالسَّيف ، ويَقْتُلون عباد اللَّه بغير حق ، ويُبيحون مَا حرّم الله ، ولا يَرون ذلك كُله ذَنبًا ، بل يرَونه حَسَنًا ، حَقًّا واجبًا ، هل هذا إلا لأن اللَّه زَيَّن لهم سُوء أعْمالهم ؟

وكما قال في آية أخرى :

﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا** ﴾ (٢) .

هذا هُو القول العَدل في ذَلك ، والإيمان ثابت عند المُتصف به، لا يخبطه إلا ضده وهو الكُفر ، إلا أن الذنوبَ تُنقصه ، وتُضعفه ، وتُخف وزنه ، ولو أرادوا بالإحباط هذا المعنى لكان خفيفًا -أعني نقصان الإيمان وضعفه - فإن القرآن شهد بزيادة الإيمان ونقصانه .

وكذلك شهدت به السُّنة ، ولا معنى لقول من يقول : إن الزِّيادة والنُّقصان لا يُوصف بها الإيمان وإنَّما الزِّيادة والنُّقصان في الأعمال التي هي فروع الإيمان ، فإن البَارئ تعالى يقول في قلة الإيمان :

﴿ **فلا يُؤْمِنُون إلا قَلِيلاً** ﴾ (٣) والقَليل أنقص من الكَثير ، فلا شك .

---

(١) الكامل لابن عدي بنحوه (٢/ ٨١٤) .

(٢) سورة الأعراف : [الآية : ٨] .

(٣) سورة النساء : [الآية : ٤٦] .

وقد ثبت في الصَّحيح عن أبي سَعيد الخدري عن النَّبي ﷺ قـال : «يَدخل أهل الجنَّة الجنَـة ، وأهل النَّار النَّار ، ثمَّ يقُـول اللَّه : أخـرجـوا مِنْ النَّار مَنْ كَان في قَلبه مِثقال حَبَة من خَردل [١] من إِيمان » [٢] .

وفي الصحيح أيضًا عن النَّبي ﷺ قال : «يخرج من النَّار من قال : لا إله إلا اللَّه ، وفي قَلبه وزن شـعيرة من إيمان ، ويَخـرج من النَّار من قال لا إله إلا اللَّه، وفِي قلبِه بُرة من إيمان ، ويخرج مِنَ النَّار من قَال : لا إِله إلا اللَّه ، وفي قَلبه وَزْن ذَرة مِن إيمان » [٣] .

فَوصف النَّبي عليه السَّلام دَرجات النُّقصان من الذَّرة [٤] إلى مَافَوقها .

وكـذلك ثبت عن النَّبي ﷺ : « لا يَزني الزَّاني حين يَزني وهو مُـؤمن ،ولا يسرق السَّارق وهو مؤمن » [٥] الحديث إلى آخره .

إنما أراد عليه السلام إيمَانًا كَاملاً .

وقال علي بن أبي طالب – رضي اللَّه عنه – في زيادة الإيمان ونُقصانه : « إن الإيمان ليبدو لَمعة بيضاء ، فإذا عَمل العبد الصَّالحات نمت وزَادت حتى يبْيض القَلب كُله » .

---

(١) خردل : نبات عشبي حِريف من الفصيلة الصليبية ، ينبت في الحقول ، وعلى حواشي الطرق تستعمل بذوره في الطب ، ومنه بذور يتبل بها الطعام ، والواحدة : خردلة ، ويقال : ماعندي من خردلة : شيء ، والجمع خرادل .

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٢) مسلم في صحيحه (١٢١٨٩) .

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٧) ، (٩/ ١٥٠) مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٣٢٥) ، ابن ماجة (٤٣١٢) الترمذي (٢٥٩٣) .

(٤) الذَّرة : أصغر جسم في عنصر ما يصح أن يدخل في المفاعلات الكيميائية .

(٥) صحيح : البخاري (٣/ ١٧٨) ، (٧/ ١٣٦) ، مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٢٣٥) ابن ماجة (٣٩٣٦) ، الترمذي (٢٦٢٥) ، أبو داود (٤٦٨٩) .

فقد كشف - رضي اللَّهُ عنه - للعقل السر في زيادته ، فإن البياض النُوري له دَرجات لا آخر لَها في القُوة النُورية ، فإَنَ نُور الثوب الأبيض لَيس كَنور السراج ، ولا نُور السراج [١] كنُور الكَوكب ، ولا نُور الكَوكب كَنور القَمر ، ولا نُور القَمر كَنورَ الشَّمس ، ولا نُور الشَّمس كالَّذي تَسْتمد منه نُورها نُور الشمس .

وفي القُدرة : إن اللَّه يزيد الشَّمس في نُورها ويُقويِّها مائة ألف ضعف مِمَّا هِي عليه ، وأكثر من ذلك إلى غير نهايةَ إن شَاء اللَّه .

كذلك يخلق اللَّه في قلب عبد من الإيمان وأنواره ، ويُضاعفه إذا شَاء أضْعَافًا مُضاعفة عَلى غيره ، فيكون قلب وَاحد يتلألأ كَما تَتَلألأ الشَّمس ، وآخر كالقَمر ، وآخر كالنّجم [٢] وآخر أقل منه .

وقد ورد في قلوب المُشتاقين أنَّ السَّماء تَضيء بنُور قُلوبهم .

فهكذا درجات الإيمان في القُلوب ، فإنَّه لَيس قُوة إيمان مَن يُصدِّق باللَّه ، واليَوم الآخر ، وهُو مُهمل في المُخالَفات كقُوةَ إيمان مَن تَعفَّف [٣] عن بَعض المَعاصيَ دُون بَعض ، ولا قُوة إيمان مَن تعفف عن بَعضها كَقُوة إيمان مَن تَعَفَّف عن جَميعها ، ثم إنّ وَاقع شيئًا منها سارع [٤] بالخروج منها ، ولا قوة إيمان مَنّ رغب في الدُّنيا كقوة إيمان من ظهرت له أعْمَال الآخرة ، فَشمَّر إليها ، واسْتنار قلبه بأنوارها ، ولا قوة إيمان هذا كقوة

(١) السراج : المصباح الزاهر .

(٢) النجم : أحد الأجرام السماوية المضيئة بذاتها ، ومواضعها النسبية في السماء ثابتة ، ويقول الله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ .

(٣) التعفف : هو الكف عن مالا يحل لا يجمل من قول أو فعل .

(٤) في الأصل « صارع » ،

إيمان[١] من استنار قلبه بنور مولاه فآثره [٢] على من سِواه .

وكذلك في الإيثار له ، والقُرب منه دَرجات بعضها فوق بعض ، لا يُحيط بتفضيل دَرجَاتها إلا العَليم بها ﴿ هُم دَرجَاتٌ عِندَ اللَّه ﴾ [٣] وهذا هو مَذهبَ الصَّحابة ، والأئمة الفُقهاء - رضي الله عنهم - ، قَال ابن أبي مليكة أدْركت ثلاثين من أصحاب رسُول اللَّه ﷺ كُلهم يَخاف النِّفاق على نَفسه ، مَا مِنهم أحد يَقول : إنَّه على إيمان جِبريل ، ومِيكائيل .

ورَوى ابن وَهب عن مَالك ، وقد سأله عن الإيمان : أيزيد وينَقص ؟

قال : قد ذكر اللَّه زِيادته ، ونُقصانه في غير آية من القرآن ، والإيمان يَزيد .

فقلت : فبعضه أفضل من بَعض .

فقال : نعم .

وقال إبراهيم بن أبي الوَرد : سَمعت مَالكًا يَقول : الإيمان قَولٌ وعَمل، يَزيد ويَنقص .

وقاله ابن أبي جُريج ، ومَعمر ، وسُفيان ، وقال ابن نَافع عن مالكٍ : سَمعته يَقول : وأنا مؤمن ، والإيمان قول وعملٌ ، يزيد بالأعمال .

وقال اللَّهُ : ﴿ لِيزْدَادُوا إيمَانًا مَع إيمَانِهم ﴾ [٤] .

فذكر زِيادة في إيمَانهم ، وقال : ﴿ ربِّ أَرِني كَيفَ تُحيي المَوْتَى ﴾ إلى

---

(١) تكررت في الأصل : « كقوة إيمان هذا » .

(٢) فآثره : فضله على غيره .

(٣) سورة آل عمران : [الآية : ١٦٣] .

(٤) سورة الفتح : [الآية : ٤] .

قوله : ﴿ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [1] فذلك زيادة في دينه ، فهذا إبراهيم عليه السَّلام ، فما ظنُّك/ بغيره ؟ ولا يقول بزيادته ولا نُقصانه بجعل إيمانه كإيمان إبراهيم ، وجبريل ، ومُحمد ، وأبي بكر ، ويَرى الكُل سَواء . ١٦٨/ب

ولو كان الإيمَان في قُلوب الخلق على السَّواء لاستووا في الأحوال ، والأعمال ، والزهد في الدُّنيا والرَّغبة في الآخرة ، فإنَّ القُوة التي في الإيمان أثمرت الأحوال الشريفة ، والأعمال الرَّضية ، والضعف فيه أثمر الكل ، والرغبة في الفاني [2] ، والزُّهد في البَاقي ، واتباع الهَوى ، وغير ذلك .

ولو كان الإيمان في قُلوبهم على السَّواء فما بَالهم اختلفوا في الطَّاعة والعصيان ، والإقبال والإدبار ، هَل ذلك إلا من سبب النّقص والكَمال ، والضَعف ، والقُوة ؟

ولكن الكُل مُسلمون ، مؤمنون ، والحمد للَّه ، هذا مذهب أهل السُّنة ، ومن لا يقول بزيادته ، ونُقصَانه من أهل العِلم فلقوله مَعنى يرجع إلى هَذا .

وذلك أن معنى قَوله : يرجع إلى العدد تقدير أمور الإيمان ومثال ذلك : قول لا إله إلا الله ، حُروفها عَشرة لا يزاد فيها حرف ، ولا ينقص منها ، ولو زيد فيها حرف ، أو نَقص منها حرف لا نخرمت الكلمة ، وانّخرم مَعنَاها ، وكذلك جَميع أُمور الدنيا ، الإيمان قَدْ عدّدها الشَرع عُمومًا، وخُصوصًا ، فقال :

﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [سورة البقرة : الآية (٢٨٥)] وبالغيوب على اختلاف أنواعه ، وبكذا ، وبكذا ، وبكذا ، حتى استقرت

---

(١) سورة البقرة: [الآية : ٢٦٠] .

(٢) الفاني : المنتهى وجوده .

جَميع المُوقنات [١] في قُلوب المؤمنين ، فكانت عَقيدة لا يزاد فيها ، ولا يَنقص ، وهَذا المَعنى هُو الصَّحيح .

وأمَّا زيادته في نَفسه ، بمعنى النُّشوء والعظم بلا شك فيه .

كما ورد في بعض الأخبار : إذا مُدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه [٢] -يعني قلب المؤمن العَارف بنفسه ، الذي يرى المدح من فضل في حال المدح، ويرى ستر اللّه لقبائحه [٣] فيتولد في قلبه الشُّكر على ما أظهر من الجميل ، والشُّكر ، يشرح الصدر ، يوجد مَعه طعم الإيمَان ، بل هُو إيمان جديد .

وكذلك نقصانه إذا مُدح العَبد ، وأُعجب بنفسه نسي مولاه ، وقلَّ شُكره ، ونسي قبائحه ، ووجد طَعم نفسه الأمَّارة بالسُّوء ، وضعف الإيمان في نفسه .

وهكذا في ارتكاب المَعاصي ، والانهماك [٤] فيها ، حتى أنَّ من الخَلق منّ يكون وزن إيمانه مثقال حبة خَرْدل ، لكن اسم الإسلام والإيمان ينطلق على الجميع ، ولا يُذهَب [٥] الإيمان بالكلية ، إلا ضده وهُو الكفر .

وإذا تقرر هَذا ، فاعلم أنَّ هَذا المَقام على ثلاثة أضرب : ضرب في مَقام الإسلام ، وضرب في مَقام الإيمان ، وضرب في مَقام الإحسان .

فأمَّا الضّرب الأول : في مَقام الإسلام بأن تكف عن أهل الذُّنوب

---

(١) الموقنات : الثابتات المتحققات التي لا يشك فيها .

(٢) الحاكم (٣/ ٥٩١) ، الطبراني في الكبير (١/ ١٣٥) .

(٣) القبائح : جمع قبيحة وهي : ما نفر من الذوق السوي ، وما كره الشرع اقترافه .

(٤) الانهماك : انهمك فلان في الأمر : جدَّ وثابر فيه برغبة وحرص .

(٥) في الأصل : « ولا يذهب والإيمان » وحذفت « الواو » ليستقيم السياق .

لسانك بالتَّكفير ، ولا تطلق عليّهم ، وتقطع بِذلك .

وكذلك تكفَّ جَوارحك الظَّاهرة عن مقاماتهم بما تُقاتل به الكَفرة ، فتكون كالخَوارج الذّين يكفرون بالذنوب ، ويستحلون دماءَ المُسلمين ، وأموالهم ، وسبي [١] نسائهم ، وذَراريهم [٢] وقد عابوا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بتركه ذلك ، فقال ابن عباس ، : ما الذي نَقمتم على علي ؟ فقالوا : ثلاث ، حكَّم في دين اللّه الرِّجال ، ومحى اسمه من أمير المؤمنين ، وقاتل ولم يَسب .

فقال لهم ابن عباس : أفتسبون أمُكم عائشة - رضي اللّهُ عنها ؟ بل تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر كما أمرك اللّه ، ولا تقطع بِهم .

وأما الضرب الثاني : في مقام الإيمان فأن لا تعتقد فيه الكفر بقلبك ، وتكف عنه ظُنونك السوء ، كما كففت جَوارحك ، وتَعْتقد له الرَّأفة والرحمة ، وإن ظَهرت به الغلظة وتبغَض ما أمرك اللّهُ أن تبغض ، ولا تنظر [٣] بعين الأزدراء [٤] لَه ، والَعُجب بنفسك إلا أن تعتقد فيه الكُفر .

وأما الضَرب الثالث : في مقام الإحسان فإن ذَلك يتهيأ لك جَميع المَوارد

١٦٩/ب في هَذا البَاب ، وذلك أن تنظر بتَفكر عَقلك ، ورُوحك إلى ما سبق له في/ علم اللّه ، وفي التَّقدير الأول ، فلا تَدري بما يختم لَه ، ولعله أن يكون عند اللّه من الفائزين ، وأنت بضد ذلك ، فإن الأعمال بالخواتم ، فيُدخلك في الخَوف على نفسك ، وترى عيوبك فتشتغل بها عن غيرك لنظرك في مَقام الإحسان إلى علم اللّه الأزلي ، القائم بذات اللّه في غَيب الغَيب وأرفع

(١) سبى نسائم : أسرهم والسبا بياء : عشاء رقيق اسمه : السلا به سائل يحيط بالجنين في الرحم .

(٢) الذراري : الأبناء .

(٣) في الأصل « تصل » .

(٤) الازدراء : التحقير .

الدَرجات الرُّوحانية الإحسَانية ، فـلا تدري ما سبق فيه لك ، ولغيرك ، ونسأل الله الكريم أن يُحبب لنا الإيمان ، ويُزينه في قُلوبَنا ويُكرّه لَنا الكُفر ، والفُسوق والعصيان ، ويَجْعَلنا من الرَّاشدين آمين ، وصلى اللّه على محمد وآله وسَلم .

الشُعبة التاسعة والثلاثون
والشُعبة الموفية أربَعون

في النِّيَّة و الإخْلاص

أمّا كَون النيّة من الإيمان فلا يحتاج إلى دليل عليْه ، لأن أعْمال الإيمان كُلها ، ظَاهرها وبَاطنها مربوطة بها ، وتابعة لها ، فلا يَصح عمل إلا بها .

وكذلك الإخلاَص أيضًا ؛ لأنَّه من التَّوحيد ، وضده منَ الشرك .

والتوحيد هُو الإيمان ، وفي الخبر : « من أحبَّ للَّه ، وأبغض [1] للَّه ، وأعطى للَّه، ومنع للَّه فقد استكمل الإيمَان» [2] .

فجعل الإخلاَص في الأعمال كمال الإيمَان . والشواهد على كونه من الإيمَان كثيرة جدًا ، وقد جَعل قومٌ الإخلاَصَ والنيّةَ شَيئًا واحدًا ، وفرّق بَيْنهما آخرون ، وهُو الصَحيح ، وإنَّما جعلهما شيئًا واحدًا من جَعلهما من أجل أنَّهما قرينان لاَيَفْترقان أبدًا ، ولا يصح وُجود أحدهما دُون الآخر - أعني النية الصَّحيحة - فإن العمل يحتاج إلى النية والنية تَحتاج إلى إخَلاصها للمعمول لهُ ؛ لتكون صحيحة ، صَادقة ، فلما ارتبَطَا هذا الارتباط جَاز أن يُعبرَ بالواحد عَن الآخر ، فَجعلتهما في باب وَاحد ، فالإخْلاص/ رُوح النية ، والنيةُ رُوح العَمل ، ألا ترى كيف وقَع الاسم ١٥٨/أ
على النيّات كُلها بلفظ واحد في حق المؤمن والكَافر ، والمرائي [3] والمُخلص ،

---

(١) أبغض : مقت وكره .

(٢) أبو داود (٣٩١٥) ، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٠) وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه صدقة بن عبد الله السمين ضعفه البخاري وأحمد وغيرهما ، وقال أبو حاتم محله الصدق .

(٣) المرائي : يرى الناس أنه متصف بالخير والصلاح على خلاف ماهو عليه .

والطَائع ، والعَاصي ، واخْـتلف لفظ الإخْـلاص والرِّياء ، والشّـرك ، والسمعة ، والتَّزين ، وهَذه كُلها أسَامي تصحح النية ، أو تُفسدها فيُقال للمؤمن فِي أعماله : كُلها نِيات ، وللكَافر نيّات في أعماله ، وللمرائي في أعماله نِيات .

وكذلك صفات الخَلق فاشْتَركوا في اسْم النِّية ، واخْتلفوا في صحة النّية ، وفَسَادهاَ ، فسمى من صحح نيَّته بالإخلاَص مُخلصًا ، ومن أفَسد نيتـه بالرِّياء مُرائيًا ، ومنْ ربَطها بالطمع (١) طَامعًا ، ومنْ ربطَها بالشّرك مُشركًا .

والنية منْ أعمال السرّ ، تُدركها المَلائكة عليهم السَّلام ، والإخْلاص سر السرّ ، لا يُدركه أحد إلاّ اللّه ، أو من أطلعه عليْه ، دَليل ذَلك قول النَّبي ﷺ : « مَنْ همّ بِحسنة ولمْ يعَملها كُتبت له حَسنة ، ومنْ هَمّ بِسيَئة ، ولمْ يَعملها كُتبت له حَسنة » (٢) فالهمّة تَعني ابتداء النِّية ، والمَلائكة مُطَّلعونً عليها .

كما ورَدَ في الخَبر ، أنَّ المَلائكة تقول : عَبْدك فُلان همّ بِحسنة ، فيقول : « ارقبُوه ، فإنْ هُو عملها، فاكْتُبوها لَه عشراً » الحديث .

فوصْف في هَذا الحديث أنَّ المَلائكة مُطلعون عَلى الهِمة (٣) الصَّالحة ، والفَاسدة .

والهمة هي النِّية ، وأمّا الإخْلاص فقد ورد في حديث السبعة الأملاك الذي رواه مُعاذ بن جبل أنّ المَلائكة تَضرب بِالعَمل وجه صَاحبه عنْد كُل

---

(١) الطمع : الرغبة في الشيء واشتهائه .

(٢) مسلم في صحيحه (١١٨) ، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٤٥) وقال رواه الطبراني في الصغير ورجاله ثقات .

(٣) الهمة : ما هم به ليفعل بعزم قوي .

سَماء من أجل الآفة التي دَخَلت العَمل إلا الإخلاص ، والرياء ؛ فإنَّهم لا يَطَّلعون عليهما حتى يَصل العَمل إلى اللَّه ، فَيقبله ، أو يَردّه من أجل الإخْلاَص ، أو ضده الذي هو سر السَّر ﴿ وإنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (١) من السَر ، فَذلك النيّة ، سِرّ العَمل / وأخفى منه الإخلاص لها ، أوضده . ١٧٠/ب

سألت رسول اللَّه ﷺ عن الإخلاَص ما هُو ؟ قال : سألت جبريل عن الإخلاص مَاهو ؟ قال : سألت ربّ العزة عن الإخلاص ماهو ؟ قاَل : « هو سِر من سرّي ، استودعته قَلب من أَحببت منْ عِبادي » (٢) .

فالنيّة الصَحيحة بالإخلاص قد اقْترنت مَع الإخلاص اقْتران الجَوهر بالعَرض ، أعني أنه لا يُفارقها كما لا يُوجد جَوهر إلاّ بعَرض ، ولا عَرض (٣) إلاّ بجَوهر ، فلذلك عبّر مَنْ عبّر عن الإخلاص بالنِّيَّة ، وهذا في لسان العَربَ جائز يُسمَّى الشيء باسم الشَيء إذَا جَاوره أو شَاكله ، فأمّا إذا وقع التَّفصيل فإن حدّ النيّة هو قَصد البَاطن إلى الفعل ، أو همَّةُ الباطن أنْ يَفعلَ ، أو إرادته أنْ يَفعل ، كما قال اللَّه تَعالى : ﴿ ودَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حسدًا ﴾ (٤) .

وكما قيل : إنَّ نية الفَقير بمُجردها خير منْ عمل الغَني كُله ، وذلك أنَّ الفقير يَود ، ويتمنى ، رخَص الأسعار ، ورخَص جميع السّلع كُلها ، فهو يَتمنى الخَير لجميع العَالمَ ، ويودّه ضَرورة ، ومَنْ تَجديد النية بالتمني والودِ .

---

(١) سورة طه الآية (٧) .

(٢) في الأصل : وقد سأل جبريل رب العزة عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت رسول الله ﷺ عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت جبريل عن الإخلاص ماهو ؟ ولعله سبق قلم من الناسخ .

(٣) العَرَض : مايطرأ ويزول من مرض ونحوه .

(٤) سورة البقرة الآية (١٠٩) .

أيضًا ما رُوي في الإسرائيليات أنَّ رجلاً فقيرًا مرّ في مَجاعة بكُثْبَان (١) من رمل ، فَقَال في نَفْسه : لو كَان لي مثل هَذا الرمل طَعامًا لقسمته على النَّاس ، فأوحى اللَّه إلى نَبي أنْ قل له : إن اللَّه قد قَبل صدقتك ، وقد شكر حُسن نيّتك ، وأعطاك ثواب مَا لو كَان طَعامًا فتصدقْت به .

فهذا إنما ودّ (٢) وتمنى أنْ يكون لَه ، فأُعطيَ ما تمنى ، وود ، هكذا لأنَّ نيته اقترنت بالإخلاَص للَّه ، ولو اقترنت بالرِّياء والسُّمعة ، وليقال إنَّه سَخي (٣) ، أو كَريم لما قُبلت نيته ، فَحدّ النية إرادة البَاطن للفعل ، وحدّ الإخْلاص إفراد الإرادة للمُعَول لَه دون مَنْ سواه أوقُل النية / تَمني القَلب ، ١٧١/أ أو همَّت القَلب ، أو قَصد القَلب للفعل ، والإخلاص إفراد الهمّة ، والقَصد ، والتمني ، أو قُل : تَوجيه الإرادة ، والتَّمني ، والقَصد للمُعول .

واعلمْ أنَّ العَمل الظاهر بالجَوارح للنيّة ، لأنَّ النية فعل البَاطن ، والبَاطن هُو المحرك للجوارح ، فأول ما يَفعل الباطن العَمل صُورة رُوحانية في نَفسه ، ثم يحرك الجَوارح ، فيعمله على صُورة ما صَوّره .

كما قال سَهل رحمه اللَّه : النية مُقدمة العَمل فالموقنون (٤) المُسددون ، الذين صحّت أعَمالهم هم الذين إذا أرادُوا فعل شَيء فكروا في عاقبته ، فإنْ كان رُشدًا صَححوا النية التي هي فعل القَلب بالإخْلاص ، فقامت صُورة العمل في النَّفس صورة رُوحانية ، مُجرّدة من الآفات ، ثم أظهروه بالجَوارح على صُورة ما تصوّر في القلب ، فإن طرأت (٥) آفة عليْهم أمَاطوه بالكَرامة

---

(١) الكُثْبَان : جمع كثيب وهو الرمل المستطيل المُحْدَوْدِب .

(٢) الودّ : الحب .

(٣) سخي : جواد .

(٤) في الأصل « بالموقنون » .

(٥) طرأت : ظهرت فجاءة .

له حتى يتم العَمل كما تصوّر باطنًا صحيحًا .

وهكذا أيْضًا منْ نَوى شرًا ، أول مَايُصوره في نفسه صُورة ، ثم يَعمله ظاهرًا بجَوارحه ، ولذلك ورَد في الخبر : « **إذا الْتَقى المُسلمان بِسيفيهما فالقَاتلَ والمَقْتُول في النَّار** » قلنا يا رسول اللَّه : هَذا القاتل ، فما بَال المقتول؟ قال : «**إنَّه كَان حَريصًا على قَتل صَاحبه** » [١] معناه أنَّه نَوى قتله ، وأراده ببَاطنه ، فلم يَقدر على تنفيذه على حَسب مَا أراده ظاهرًا ، كما قَدر صَاحبه القَاتل ، فكان كَالقَاتل ، لأنَّه في البَاطن قاتل .

وهكذا الأمر في جَميع الأشياء ، لا يخطر في بَاطن العَبد شيء ، فَيُريده إلاّ تَصورت صُورته كَاملة في بَاطنه ، فَمِن ذَلكَ مَا يُعفى عنْه ، ومن ذَلك ما يُؤاخَذْ به .

وهذا سرٌ عظيم ، فمن همّه أشرف فحاز من العلم الآخر لها ، وأسرار من العُلوم الربانية لا مثل لها ، وكَيف يخلق اللَّه أعْيَان الموجودات عنْ الإرادة القَديمة ، دون نَصَب ، ولا تَعب ، بل كما قال : ﴿وَمَا مَسَّنَا/ مِنْ ١٧١/ب لُغُوبٍ﴾ [٢] وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ ﴾ [٣] أي تتمنى ، وانْظر إلى حَال الذي نَوى ، وقال للجَبل : تحرك ، فَتحرك ، كيْف انْفعل التَّحريك بإرادته ثم التَّسكين .

وكذلك خَرق العَوائد كلها من مَشْي على المَاء ، أوْ أي نَوع كَان من هَذا البَاب لمن فَتح اللَّه له بَصيرته ، ولنَرجع إلَى مَا كُنا بسَبيله .

اعلمْ أن تَصحيح النيَّة ، والعَمل ، وفَسَادَهما يتَضح بِمَعرفةِ العَوالم

(١) صحيح : البخاري (١/ ١٥) ، مسلم في صحيحه كتاب الفتن (١٥) ابن ماجة (٣٩٦٤) .

(٢) سورة ق الآية (٣٨) .

(٣) سورة فصلت الآية (٣١) .

الثلاثة : « عَالم المُل[١] والملكوت[٢] ، والجبروت[٣] ، التي هي علَى عدد المقَامَات الثلاثة ؛ مقام الإسْلام ، والإيمَان ، والإحسَان ، وبمعرفة هَذه العَوالم الثلاثة تصح مَعرفة الإنْسَان بنفسه إن شَاء اللّه ، فالعالم الظاهر كُله يُسمّى عالم الملك »[٤] .

ومثله من الإنْسَان الجَسد الظاهر ، وأعمال الجسد هِي الإسلاَم ، فَيحتَاج في كُل عملٍ إلى نية ، وإخلاَص .

وعالم المَلكوت هو بَاطن المُلك[٥] الظاهر ، وهُو عَالم الكُرسي ، الذي وسَع السموات والأرض وما فيهما ، ومثاله مَوت الإنْسَان نَفْسه ، وأعماله الإيمَان ، والعُقود كُلها ، ويحتاج في جَميعها إلى نيّة صَالحة ، وإخلاص كما ورد في الحديث « منْ قَال : لاَ إله إلاَّ اللّه مُخلصًا منْ قَلبه دَخل الجنَّة »[٦] .

وعالم الجَبروت هُو مَوضع تدبير المُلك ظَاهراً وبَاطنًا ، وهُو عَالم العَرش .

قال اللّه تَعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾[٧] وأمر البارئ تعالى ؛ لأنّه جَبر مَحض ؛ لأنّه لا إرادة لأمره ، ومثاله منَ الإنسان رُوحه ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[٨] .

---

(١) الملك : مايُملك ويتصرف فيه .

(٢) الملكوت : ملك الله خاصة .

(٣) الجبروت : القهر .

(٤) ما بين الأقواس مكرر في الأصل وتم حذفه .

(٥) باطن الملك : داخله .

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢٣٥) .

(٧) سورة يونس الآية (٣) .

(٨) سورة الإسراء الآية (٨٥) .

وأعماله المَواجيد ، والأحوال ، والعُلوم ، وإخلاص صَحيح ، فقد عمّت النيَّة ، والإخلاص المقامات الثلاَثة / . ١٧٢/ ب

فصل

اعلمْ أن أول ما يَبدأ الأمر عَالمَ الجبَروت جبرًا منْ خَاطر ، أو غيره من الغَيب ، فَيظهر للعَقل الذي هُو وصف الرُّوح ، فَإمّا يَقبله ، أو يردّه بالكَراهة ، بواسطة النَّفس فإنَ قَبلَه صَار نيّة ، وعقدًا مَذْمومًا في خَزانة مَلكوت النَّفَس ، وعالم النِّيات .

ثمَّ بعد ذلك تأخّر القوى في إخْراجه إلى عالم الجَسد بالحَركات ، والسَّكنات ، فمن أيده اللّه بتوفيقه وأراد تصَحيح نيَّاته ، وقَبُول أعماله أيّد الرُّوح بنور العَقل حين ظُهور الأمر والخَاطر ، فينظر إلى الأمر ، فإنْ كَان من أُمور الآخرة ، ورآه صَافيًا بالإخلاَص عقد عليْه ، وحرّك النَّفس لقَبوله ، والعَقد عليْه ، فيكون كنيّة [١] صَالحة ، فإن كَان ممَّا لا يخرج إلَى عَالم الجسد ، ويَقع في عالم المَلكوت ظهر للأملاك [٢] ، وكتب له عَمل صَالح .

وإن كَان ممَّا لا يتم إلاَّ بإخْراجه إلى عَالم المُلك والشهادة أخرجه إلى عَالم المُلك الذي هُو الجسد ، فتم .

وإن كَان من أمور الدُّنيا نظره أيْضًا ، فإنْ كان ممَّا يعود فيه نَفع دينه ، أو دُنياه عقد عليه ، إن كان مُحتاجًا إليْه وأمضاه أيضًا ، لأنَّ أُمَور الدنَيا مُعينة للآخرة ، لأنَّها ركاب لَها .

وإنْ كَان الأمر لغَير اللّه ، أو لدُنيا مَذْمُومة ، أو مَعصية أظهر قُبْحَه

(١) في الأصل « كية » .

(٢) الأملاك : جمع ملك ، و ملاك : وهو جنس من خلق الله ، ونوراني لطيف كجبريل وميكائيل .

للعَقل ، فنفر عنه ، وكَسَّل النَّفس عن قبوله ، فَيرده بالكَراهة ، فإذاَ زاد الجَبر حتى تَقبله النَّفس وجب عليْه فَسخه والتَّوبة منه ، وعقد [١] النيَّة على تَركه ، فكُتب له أيْضًا عملٌ صالح .

فَمثل هَذا تكون أعمَاله كُلها من دين أو دُنيا صَالحة ؛ لأنَّ نيته فيها كُلها للّه ، والَدَّار الآخرة ، وهذه صفة أَهلَ التَثبت ، والتَّوقف في أسرارهم كما قَال بعَضهم : كُنت بَواب قلبي سبع سِنين .

١٧٢/ب يعني أنه كَان عقله وَاقفًا على بَاب / قلبه في عالم السِّر ، فكل خَاطر أراد دُخول قَلبه نظرهُ فإن كَان من قبيل الخَير قَبلهُ ، وعَقدَ عليْه ، ونَواهُ ، وإن كَان من قَبيلِ الشَّر والهَوى أغْلقَ البَاب في وَجْهه ، وطَرده ، ولم يمكّنه من الدخُول .

قـال اللَّه تعـالى في وصف أهل الكَهف : ﴿ وكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوَصيد ﴾ [٢] يعني حارسهم باسط ذراعيه على عَتَبة البَاب ، وفنَاء الكَهف . ومنْ كَان هذا وصفه لم يَنْفك من عَمل صَالح في كل نَفَس من أنْفَاسه ، وسَاعةٍ من سَاعاته ، بأنَّ أوقاته في لَيله ، ونَهاره لا يَخْلُو من أَربعة أقسام :

ساعة يُؤدي فِيها ما افْتَرض اللَّه عليه ، وهي أجلّ الطَّاعات .

وسَاعة يَعمل فِيها فَضيلة [٣] والفَضائل تَرفع العَبد إلى الدَّرجات العُلى .

وسَاعة يَصنع فِيها مُباحًا من أكل ، أو كَسْب أو غَير ذَلك من أنْواع

---

(١) عَقَدَ النية : أكدها وصمم عليها .

(٢) سورة الكهف الآية (١٨) .

(٣) فضيلة : الدرجة الرفيعة في حسن الخلق ، وفضيلة الشيء : مزيته أو وظيفته التى قصدَت منه يقال : فضيلة السيف أحكام القطع ، وفضيلة النقل أحكام الفكر .

المُباح .

والمُبَاح إذا قُصِدَ به الاسْتعانة على الطَّاعة كان طَاعة لا مَحالة .

وساعة يكون خَاليًا ، كَسْلاَنًا ، غَير نَشيط لا يجد نَشاطًا لذكر ، ولاَ فكر ، ولا غَير ذَلك ، فلينوِ العَبد حينئذ انْتظار الفَرَج [١] ، وانتظَارُ الفَرج بالصَّبر عبادة .

ولينوِ انْتظار أوقات الفَرائض أيْضًا ، فيكون طَائعًا ، كما ورد في الحديث : « إنَّ العَبد في صَلاةٍ ما انْتَظر الصَّلاة » [٢] .

فهذه أوقات العَبد في لَيله ، ونَهاره ، لَيس فيها قسم خَامسٌ ، فإذا كَانت نيته صَالحة كانت أنْفَاسه كُلها ، وآثاره طَاعة ، وذَلك بحُسن النية ، فإن النيَّة هي التي تحسِّنُ الأعمال وبها تزكو [٣] وتكثر ، ولذَلك كَانت النّية خَيرًا من العمل ، كما ورد في الخبر : « نية المؤمن خَير من عَمله » [٤] لأن من حَسّنَ شَيئًا وأصْلَحَهُ ، وكَثره فهو أحسن من ذَلك الشَيء ، وأصلح منه ؛ لأنَّه سَبَب صَلاحه ، وخيره ، بل هُو كل خَير صدر في العمل عنْ النيَّة ، صدر ، فهي خَيرُ من العمل ، وهي / أيضًا أبلغ من العَمل ؛ لأن نية المؤُمن الصالح ١/١٧٣أ
إذَا عَملَ عَملاً للّه عز وجل ، يودّ ، ويتمنى لو كَان العَمل أصلَح ممَّا هُو

(١) الفَرَج : انكشاف الغم .

(٢) صحيح : البخاري بنحوه (١/ ٥٥) مسلم في صحيحه كتاب المساجد باب (٤٩) رقم (٢٧٤) . أبو داود في سننه (٤٧١) .

(٣) تزكو : تنمو وتزداد .

(٤) أخرجه الطبراني عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعًا « نية المؤمن خيرٌ من عمله ، وعمل المنافق خير من نيته ، وكل يعمل على نيته فإذا عمل المؤمن عملاً نار في قلبه نور» ، كذا عنده وعند العسكري من حديث النواس بن سمعان ولفظ العسكري « نية المؤمن خير من عمله ونية الفاجر شر من عمله ، وهي وإن كانت ضعيفة فبمجموعها يتقوى الحديث اهـ هكذا قال السخاوي في المقاصد الحسنة حديث (١٢٦٠) .

وأصفى ، ويتمنى أيضًا ، ويَودّ أن لو كَان أطاع اللّه بجميع أنواع الطّاعة ، ويتقرب إليْه بأنواع القُرب ، لكن لا يَقدر بجَوارحه على ذَلك .

وكـذلك يـوَدّ أن لو أطَاعـه الخَلق كلهـم ، ولـم يَعـصـوه طَرفـة عين ، ويَحزن على ما وقَع في الأمة ، والدين من فَسَاد ، حتى قَال بَعضهم : وددت إن هذا الخَلق أطاعوا ، وإنّي قُرضت بالمَقَاريض (١) .

فمثل هذه النيَّة تُبلغ أهلها مَالا تُبلغهم أعمالهم .

وكذلك أيْضًا تبلغ في المَال (٢) مالا يُبلغه العَمل ، فإن نية المُؤمن أنْ لا يكْفُر باللّه أبدًا ، ولو عُمّر في الدُنيا أبد الآبدين ، فأعطي ثَوابًا على هذه النية الخُلود (٣) في الجنَّة دار الثَّـواب أبد الآبدين ، ولـولا أنّه نوى العـصـيـان في بعض الأوقات ، وفسدت نِيته بعَض الفساد في طاعة اللّه لما دَخل النَّار وَقْتًا من الأوقات .

والأعْمَال لا تبلغ هذا المَبلغ ، ولا تُدركه ؛ فإنه لو خَلد العبد في الجنَّة على قَـدر أعـماله لمْ يَبق فيهـا إلاَّ مقـدار سَبـعين سَنة أو ستين سنة ، وعلى مقدار ما يكُون عُمره الذي أطاع اللّه فيه .

فصل

وأمّا الإخْلاص فحدّه ما تَقدم : إفْراد النية ، وتصفيتها من الخلط (٤) للّه عز وجل في حين العَمل من أوله إلى آخره ، ثم أخفى العَمل عن التحدث به مع الخَلق ، ونِسيان النَّفس له أنْ تطلع عليْه بعد تمام العَمل .

---

(١) المقاريض : جمع مقراض ، وهو ما يُقرض به الثوب أو غيره .

(٢) المآل : المرجع - يعني يوم القيامة ومآله إلى الجنّة أو النار .

(٣) الخلود : البقاء والدوام .

(٤) الخلط : الضم إليه .

قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (١) يعني في حال العَمل .

وقال في كتابه بعد تمام العَمل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾ (٢) الآية .

ففرض الإخْلاَص / الوَاجب في أعمال البر كُلها على العُمال ، أو يَستوي في قَلبه بنو آدم مَع أشخاص العَالم كُله من أرض وحَيوان ونُجوم ، وأفلاك ، ومَلائكة ، وغير ذلك . ١٧٣/ب

فكمَا أنَّه لا يُرائي بعمله لشَخص من أشخَاص العالم كُله ، فكذلك يَنْبغي أنْ يكُون مَع بني آدَم .

فإن قلت : إن بَني آدم يَنْفعون أويَضرون فإن أشَخْاص العَالم كُله أكثر شُفقة لك من بني آدم ، كالشمس مَثلاً ؛ فإنَّها نَافعة لهذا العَالم بِأسْرِه ؛ بتنويرها ، وتَسْخيرها في كل نفسٍ من الأنفاس (٣) .

وكذلك كل شَخص في الوجود غير هَؤلاء لا يُرائي العَامل بِعَمله لشيء منها .

فإن قلت : إن أشخاص العَالم ليس بِيدها شيء تَمْلك ، إنَّما الأمر فيها بيد اللَّه .

فكذلك أيضًا بنو آدم لا يَملكُون ضرًا ، ولا نَفعًا هو يُصرِّف القلوب ، ويقبضها ، ويَبْسطها وإن اعتقدت غَير ذلك وَقَعْتَ في الشِّرك الأكبر ، والرِّياء هُو الشرك الأصغر .

(١) سورة الكهف الآية (١١٠) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٦٤) .

(٣) الأنفاس : الريح تدخل وتخرج من أنف الحي ذي الرئة وفمه حتى التنفس .

واعلمْ أنه لا تَنقطع أصـول الرياء من القَلب حـتى تنقطع أسبَـابُه ، وأسبَابه خَمسة أشياء :

أحدها: الطَمع في نيل [(١)] مَنفوع .

الثاني: الرَّغبة في دفع مَضرة .

والثالث :حُب الثناء والمَدح .

والرابع: كَراهية الذَّم .

الخامس : ضَعَف اليقين ، وهو أصل الكُل ، فإنه إذا ضَعُفَ اليقين قلَّ نظر العَبـد ومشـاهدته لربّه ، وقَـوي نظره إلى الخَلق ، ورآهم الفَـاعلين باستيلاء الغَفَلة [(٢)] عليـه ، فَـيطمع فـيـهم لرُؤية صُـدور الأفـعـال عنْهُم ، فَـيَخَـافهم، ويَرجُـوهم ، ويَفْـرح بمَدَحهـم ، ويَحزن بذَمـهم فـيدخل عليـه التصنع ، والرِّياء ضَرورة لأجل هذه العلة الكَامنة [(٣)] في باطنه ، فمتى قَويت هذه الأشياء الخَمسة في القَلب قوي الريَاء ؛ لأنها فَرع عنها .

ومتى ضَعُفت ضَعُف ، ومتى انْقَلعت بالكُلية انقلع الرياء بـالكُلية ، ولا يَنْقلع بالكُلية حتى يكون بنو آدم عنده بمَنزلة أشْخَاص العَالم كُله ، كما تَقدم ، فيكُون العَامل واقفًا مع اللّه فرد الفَرد ، ويُشـاهد أشـخاص العَـالم كله ،كُل شخص واقفًا مع اللّه في عبَادة فَردًا بفرد ، لَيس فيها شيء يُرائي في حَركة واحدة من حَركاته لشخص آخر .

وهذا هُو في الخَليقة عَمَلُ السّر الذي وردت الأخبَار بتَفضيله ، وإنْ كَان صَاحبه في العَلانية ، أو في السر فإنه لا يَسمع أحدًا ولا يراه ، بل جَعل

(١) في الأصل « ليل » .

(٢) الغفلة : قلة التحفظ والتيقظ فيسهى لذلك .

(٣) الكامنة : المتوارية الخفية التي لا يفطن إليها .

سمع الله في مُقابلة سمع الخَلق ، وبَصره في مُقابلة بَصر الخلق ، فكان في غَيب الغَيب ، وسرِ السرّ عَن أبصار الخَلق ، وسمعهم .

ومن ضَعف عن هذه الدَّرجة أُمرَ بطَلب أسْبَابها ، وهو الهُروب من بني آدم إلى الخُلوة ، فيعمل في السّر مَنهم ، حَيث لاَ يَسمعونه ولا يَرونه ، فيَسمع سَمع خَالقه ، ويتزين لبَصره جل جلاله ؛ فإنَ الرِّياء إنما هو لهاتين الحَاستين - أعني السمع والبَصر - ومنها اشتقت السُّمعة [١] ، والرياء ، فالسُّمعة للسَّمع ، والرّياء للبصر ، والتَّزين يجمعهما جَميعًا بتزين لسَامعه ، ويتزيّن لرائيه ، وإلى هَذا المذكور نَدب النَّبي عليه السلام في قوله : **«الإحسَان أنْ تَعبد اللَّه كأنَّك تَراه فإنْ لمْ تكُنْ تَراه فإنَّه يَراك »** [٢] .

فإنه ما يدخل العامل في العمل يَنبغي أن يسبقَ إلى سرّه قَبل كُل شَيء ، هذا المعنى ، وذَلك أن يَنظر إلى ربه ، ويُصفي سرّه لنَظرَه ، ثمَّ يَسمعه ، ويتزين لَه .

وإذا كَان هكذا يتمنى العَامل ، ويَود أنْ لا يطَّلع أحدًا منْ خَلق اللّه على عمله ، ويَجد الرَّاحة والنشاط في العَمل ، وهُما عَلامة المُخلص المتبرم[٣] في الجمَاعة ، والنشاط في الخُلوة ، إلا مع أقوام توجد الزيادة معهم من الأشْياخ والإخْوَان ، أو رَجل نَظير أفعاله للاقْتداء به كَي يكون لَه أجر من اقْتدائه .

وتلك حَالةُ من استوى ، وكَمل من الأنَبياء والأولياء .

وعلامة المُرائي الكَسل في/ [٤] الخُلوة ، والنَّشاط في الجَمع ، وقد ١٧٤/ب

---

(١) السمعة : الصيت : ويقال : فعل هذا رياءً وسمعة ليراه الناس ويسمعوه .

(٢) **صحيح** : هو جزء من حديث أخرجه البخاري (٦/ ١٤٤) .

(٣) المتبرم : المحكم .

(٤) تكررت كلمة « في » في الأصل .

يَنشط [1] المُرائي أيْضًا في الخُلوة إذا كـان العَمل يَظهـر منه في المُسـتقـبل ، كالـذي يجتهد في دَرس العلم والتَّعليم ليظهر في المحافلَ [2] ويُثنى عليْه في المَجالس ، فـهذا أيْضًا أفعالَه ظاهرة ، وبَاطنه كُله رياء ، وكُل مَن لمْ يقنع في أفعاله كُلها ينظر اللَّه لها ، وسَمعه ، دخل الرياء لاَ مَحالة عليْه .

واعلمْ أنَّ أسباب الإخلاَص خَمسة أشْيَاء على عَدد أسْباب الرياء :

أولُّها وهي الأصل : قُـوة النَّفس باللَّه ، والمُشـاهدة له جَل جَـلاله ، ويَتَفرع عنْ النَّفس أربع فُروع :

أولها : الطَّمع فِيما عنْده من الثواب .

والثـاني : الرَّغبة في دَفع المكاره كلهـا عنْه ؛ لأنَّه شَـاهدا لكُل بيـده ، وأنَّه الضَّار النَّافع .

الثـالث : طَلب الحظُوظ عنْده وحُب المَدح والثناء منَ اللَّه ؛ لأنَّ مَن أثنى الله عليْه بِكَلامه بوصف منَ الأوصاف لا يَقدر أحد قَدَر مَا أعطى .

الرَّابع : كراهة السُّقوط من عَين اللَّه والذَّم من اللّه ، فإن مَن ذَمّه اللّه بِكَلامه ، وسَقط من عينه ذمّه الكُل ، وسَقط عنْد الكُل - أعْني في الآخِرة .

فـمن حَصلت هذه الأشيَاء الخَمسة في قَلبه جعل نظر اللّه إليْه عـوض نَظر الخَلق ، وسَمع الله عوض سَمع الخَلق ، وطمع فيما عنْد اللَّه عوضًا مما عند الخَلق ، ورغب إليْه أن يَحرسه منْ كُل مكروه عوضًا من الخلق ، وطَلب الجاه [3] عند اللَّه ، لا عند الخَلق ، وكـثرة السقـوط عند اللَّه لا عِند الخَلق ،

(١) يشط : يجور ويجاوز الحد .

(٢) المحافل : جمع محفل وهو مكان الاجتماع .

(٣) الجاه : المنزلة والقدر .

فمن كَان هكذا كَان مُخلَصًا للَّه « بفتح » وهُو من المخلصين على إخْلاَصه «بكسرها »فإن العَبد لا يكون مُخلصًا على الحقيقة حتى يُخلصه اللَّه لنفسه مَن الاسْتعباد للأشيَاء ، فيكون مُخَلصًا منها ، فَحينئذ تَصفو عبادته من رق الأشيَاء ، كما أثنى الله على أهل هذه الحَال ، فَقَال : ﴿ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِين ﴾ [(١)] .

فالفتح والكسر لَمّا لم يتملكهم العدو بشيء ، ولم يدخلوا تحت لواء سلطانه / يئس منهم فقال : ﴿ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ . ١٧٥/أ

فأضاف عبادتهم للَّه وحده ، دون من سواه ، وبذلك أثنى عليهم أيضًا سبحانه في قوله : ﴿ إنَّهُ مِنْ عِبَادنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [(٢)] قُرأت بكسر اللام وفتحها - فَأضافهم إلى اسْمه الْمضمر دُون مَنْ سواه ، فقال : عبَادنا .

وعنْ مثل هَذه الحَال أخبرَ اللّه جَل جلاَله عن أسْرار الأبرار في قوله : ﴿ إنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً ﴾ [(٣)] .

إذا تَفهمت الآية ، وَجدت فيها هَذه المعَاني الخَمسة الْمتقدمة .

وبذَلك وصَفَهم أيْضًا في قوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذي يُؤْتي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إلاَّ ابْتغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴾ [(٤)] .

فهذا أتى مَاله يطلب [(٥)] التزكية عند اللَّه ، والطهارة ، للقُرب منه ، والنَّظر إليه ، وأنْ لا يبقى في مقَام التخلف والذم ، لا لِيَطلب على أعماله

(١) سورة الحجر الآية (٤٠) .

(٢) سورة يوسف الآية (٢٤) .

(٣) سورة الإنسان الآية (٩) .

(٤) سورة الليل الآية (١٧ : ٢٠) .

(٥) في الأصل « ير طلب » .

ثَوابًا من أعراض الدنيا ، ولا جَاهًا ولا محمدة في الدنيا .

فإذا خلص العمل من أنْ يطلب عليْه ثَواب دنياوي من الخلق فهو مُخلص ، وهَذه أول دَرجات الإخلاَص ؛ فإنَّ مَن عمل للآخرة ، وليثيبه اللَّه في الآخرة فهو من المخلصين ، لكن عمله للنَّفس لأجل الجَزاء ، والجَزاء حظ من حُظوظ النَّفس .

وفوق ذلك أن يَعمل لأجل اللّه ، لأنَّه أهل أنْ يُعبد ، ويُشكر بالعبَادة ، سُبحانه ، كما عمل نبينا محمد ﷺ في هذا المقَام حين عُوتب في كثرة العِبادة فقال : « أفَلا أكُون عَبدًا شكورًا » [١] .

وبذَلك أمر اللّه نبيه عليْه السلام في قَوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [٢] أيْ كُن من الشَاكرين على أنْ رَضينَاك لعبادتنا ، وعلى أنْ جعلناك أهْلاً أنْ تَعبدنا .

وهذه أعلى رُتبة في الإخلاص ، ولَيس وَراءها مَرمى إلاَّ ترك الرُّكون إلى الإخلاَص ، وأن يَرى العَبد نفسه مُخلصًا ، فإن ذَلك شركًا خفيًّا ، قال اللّه تَعالى / في عُثمان بن عفان رضي اللَّه عنه : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ ١٧٥/ب
سَاجِدًا أَوَ قَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّه ﴾ [٣] .

فأخبر عنْ سرّه أنَه لا يرجو إلا رَحمة ربَّه مُفردًا حين صَفا سرّه عن الرَّكون إلى العَمل ، وقطع اليَأس عن النَّجاة إلاّ باللَّه .

وبذَلك أمر اللّه نبيّه عليه السَلام أيضًا في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٢/ ٦٣) ، مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين (٧٩) (٨٠) (٨١)، الترمذي (٤١٢) ، ابن ماجة (١٤١٩) ، النسائي (٣/ ٢١٩) .

(٢) سورة الزمر الآية (٦٥ ، ٦٦) .

(٣) سورة الزمر الآية (٩) .

والأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (١) لا على عبادتك ؛ فإن النَّفس إنْ طالَعت إخلاَصها كَثر عندها عَملها ، وذلك شرك خفي منها ؛ لأنها أضافت لَها فعلاً وهُو كَذب ؛ فإنَّ اللّه خالق كُل شَيء ، ولنْ ينال العَبد هذه المرتبة في الإخلاص حتى يَرى القَلب بالمُشاهدة كثرة عُمَّال اللّه ، وخدّامه في مُلكه ، ومَلكوته على مَمَر الدُهور والأزْمان ، وأنَّهم لمْ يَفْتروا قَط طَرفة عيْن عن عبادته ويرى مقدار مَا تقع عبَادته عن عبَادة العَابدين ، وهل يُحس أو يَسمعَ لها ذكر في عَبادة العَابدين ؟ فَيستحي العَبد من أن يَنْظر حينئذ إلى إخلاَصه ، ويَبقَى فَردًا مع الفَرد الحق ، لا يرجو إلاّ هُو ، ولا يَنظر إلاّ إليْه ، ولا يَتوكل إلاّ عليه ، ويَصير العَمل واحدًا من الخَلق ، لا يَركن إليْه كما لا يركن إلى شَحص من أشخاص الخَلق ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢) .

فهذا مقَام الإحْسَان الرَّوحاني والإيماَني ، بلّغ اللّه بنا ، وتَاب علينْا من جميع الآفاَت جَليّها وخَفيّها آمين آمين .

وصلى اللّه على محمدٍ وآله وسلم .

انْتهى النَّصف الأول من كتاب الشُعب بعون اللّه ، يتلوه في أول النَّصف الثَاني باب التَّوبة إنْ شاء اللّه .

كتبه العَبد الفقير ، الحَفير المُعترف بالذنوب الكثير/ (٣) . ١٧٦/أ

(١) سورة هود الآية (١٢٣) .

(٢) سورة الصافات الآية (٦٩) .

(٣) انتهى إلى هنا الجزء الأول من كتاب شعب الإيمان للإمام الحافظ أبي محمد عبد الجليل بن موسى ابن عبد الجليل الأندلسي المعروف بالقصري . ثبت الله قلوبنا على الحق وأدخلنا برحمته في جناته آمين وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وصلى الله على سيدنا مُحمد وعلى آلهِ وصَحبه وسلم تسليماً
الشُّعْبَة الحادِية والأَرْبَعُون
بابُ التَّوبَة

أمَّا كونها منْ الإيمَان فَبيِّن وَاضح ، لاَ يَحْتاج إلى اسْتشْهَاد عليْه ؛ منْ أجل أنَّ التَّوبة رُجوع منْ شَيء إلى شَيء ؛ فَهي رُجوع منَ جَميع أضَدادُ/ ١٧٨/أ شُعب الإيمَان إلى شُعبَ الإيمَان ، ودُخول في الإيمان ، وشُعبه ، ورُجوعٌ إلى اللَّه بَعد الفَرار منْه ؛ فَهي إذًا منْ أكبر شُعب الإيمَان ، وقَد جَعلها اللَّه إيمانًا في قَوله : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ، وَخُذُوهُمْ ، وَاحْصُرُوهُمْ ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُل مَرْصَد ﴾ [١] ، ثم قال : ﴿ فإنْ تَابوا﴾ ؛ أي رَجَعُوا منْ الشرك إلى الإيمان ، فهذا أيْضًا بيِّن منْ الإيمان ، كونها من شعب الإيمَان .

واعلمْ يَا أخي أنّ التّوبة قَدرها عظيم ، وأمْرُها جَسيم ، لا يُقدَر أحد قدر النِّعمة بها علَى عباده ، ولمْ يَبقَ اليوم في الأرض سَبب أرْجَى منها ، لأن البَارئ تبَارك وتَعالَى ترك بَابَها مَفْتُوحًا ، لاَ غَلَق[٢] عليْه ، إلى أنْ يَبْلغ الكتاب أجله ، وهُو طُلوع الشَّمس منْ مَغربها ، وطُلوع النَّفس على الآخرة ، ووَعَد المَغْفرة مَعْها لكُل نَوع منْ أنْوَاع المُخَالفات ، فَأيْ نعمة أعْظم منْها ، وهي أدل دَليل علَى حُسن أخْلاَق البارئ جَل وعَلا ، فإنّهَ على مَا هُو

(١) سورة التوبة الآية (٥) .
(٢) الغَلْقُ : المغلاق يغلق به .

عليْه من الجلاَل والكبْريَاء ، وعظَم السُّلطان ، والرِّفعة والسِّيادة ، يَعظم في الوُجود عصْيانه ، وتَكبُر مُخَالَفَته ، بقَدر عَظَمته وكبْريَائه ، لأنَّ عظَم الذَّنْب علَى قَدر الذي عَصى ، كما قيل : « لاَ تَنْظر إلى صغَر الذّنب ، وانْظر إلى قَدر الذي عَصَيت ، وَمَنْ وَاجهت بعصْيَانك »[1] / لكنْ عندّه منَ العَطف والحَنان ، ١٧٨/ب
والرَّحْمة ، واللطْف ، والحلم ، وغَير ذلك منْ صفَات العَفو ، والمَغْفرة مَالاَ يَعْلَمه إلاَّ هُو ؛ فبهاَ يَتُوب عَلى عبده العاصي ، ويرجع عليه ، ويُمهله حتَى يتَوب ، فَإذَا تَاب قَبلَه وتَلقّاه بما لا تُقدِّره العقُول من الإكرام والإحسان ، فدلّت التَوبة عَلى أمَر عظيم من مَعرفة مَا هُو الله عليه من الصِّفات ، وأسَرار لاَيُسَطِّرها الأقلام ، وتَذهَل عنها القُلوب ، والأحلام من أخلاق ذي الجلال والإكرَام ، ولذلك حرم اليأس فكان كُفرًا ، لأنَّه كفَر بهذه الصِّفات الحُسنى التي يُشَاهدهَا التائب فِي مقَام الإحسان الرُّوحانَي ، والآيس مَحْجُوب عَنها .

ألا يُرى أنَّ البَارئ تعالى يُعصى في هذا العالم في كل نفس من الأنفاس بأنواع العصيان كلها على ممر الدُّهور ، والأزمان من كل شيطان ، وكافر مُبتدع ، وعَاص يُسبب له مالا يليق به ، ويُصرون على ذلك ، بحلم ، وبرزق ، ويُعافي ، ويَستُر ، ثُم يَتُوب على عبده ، فإذا تاب قَبله ، وعَفَى عنَه ، وكُتب في زُمرة المُطيعين ، فَلله الحمد على ما هو عليه ربنا من صفات عُلا ، وأسمَاء حُسنى .

واعلم أنّ حد التَّوبة في اللُّغة الرّجوع فقال : « تاب فلان : أي رجع من مكان إلى مكان ، فحدها وحقيقتها رجوع من كفر إلى إيمان ، من بدعة/ ١٧٩/أ
إلى سنة ، أو من معصية إلى طاعة ، أو من غفلة إلى يقظة ، فهذه الأربعة

(١) راجع الزهد لابن المبارك (٧١) ، والزهد لأحمد (٣٨٤) . ولفظه عندهما : « لا تنظر إلى صغرى الخطيئة » .

مُحيطة بجميع التوبة ، ولايشذ [١] عنها شيء منها بحال ، فهي إذًا أول العبادات ، والأساس التي يُبنى عليها المقَامَات ، فمن لاَ تَوبة له لا مَقام له ، قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن لَم يَتُب فَأُولئكَ هُمُ الظَّالمونَ ﴾ [٢] والظالم لا مقام له حتى يَرجع عن ظلمه ، وهي أول حالة دُعي الخَلق إليها علَى ألسنَة الرُّسل ، والكُتب ؛ فإنَّ الرسل إنما يدعو الخلق أول ما تدعوهم إلى سَ تَركُ المُخَالفات ، والإقلاع عَن الزلاَّت ، وَخَلع الأنداد [٣] ، قال الله تبارك وتعالى :

﴿ فَمَن يَكفرُ بِالطَّاغُوت وَيُؤمِنُ بالله فَقَدْ استَمسَكَ بالعُروَة الوُثقَى ﴾ [٤]

فأول التوبة الإقلاع عن الذنب ظاهراً ، وباطنًا ، فالظاهر ترك الفعل ، والباطن حل الإصرار من القلب ، فإذا تركت الجوارح الفعل ، وحل القلب الإصرار عليه فقد أقلع عما كان مقيمًا فيه ، ثم الفرار مما سكن فيه ، وهو عبارة عن الرُّجوع إلى ما كان هرب عنه ، من الموافقة ، ثم العزم على ترك العود ، وهو ربط القلب على أن لا يقر من الموافقة إلى ما عنه هرب من المُخالفة ، ثمَّ النَّدم على ما فات من الحالتين ، حالة المخالفة ، وحالة الموافقة/ . ١٧٩/ب

فمن صحت له هذه الأربعة صحّت توبته ، وكانت نصوحًا لم يتعلق بها شيء سواها ، وكان صاحبها كمن لا ذنب له ؛ لأنَّ من لا ذنب له لم يتعلق به ذنب ، وهو الطائع الذي لم يُواقع الذُّنوب ، فقد شبه النبي ﷺ التائب التَّوبة النَّصوح بِمنَ لا ذنب له فقال : « التائب من الذنب كمن لا ذنب

(١) لايشذ : لا ينفرد عن هذه الأحوال بحالة خامسة .

(٢) سورة الحجرات الآية (١١) .

(٣) الأنداد : جمع ند وهو : المثيل والنظير .

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٦) .

بله»[١] .

فمثل التَّوبة كالأكسير [٢] الذي يحوّل الأعيان ويُبدّلها ، ويُقلبها ذهباً ، وجواهر .

قال الله تعالى مُنبهًا هذا المعنى :

﴿ إلا من تَابَ وآمنَ وَعَملَ عَمَلاً صَالحًا ، فَأولَئكَ يُبَدلُ اللهُ سَيِّئَاتهم حَسَنَات ﴾ [٣] فَنَص على أنّه يُبدل السيئات حسنات ، وذلك أن التائب إذا أقلع ورجع فاراً إلى ماتاب إليه ، وتبين له قُبْح مَا كَان عليه ، وصح له سوء حاله ، حصل له النَّدم ، وهو الحسرة والأسف ، لا سيما من كان عارفًا ، عالمًا بالله ، وبمقدار من عُصي ، فيتأسف ، على أحواله وأعماله القبيحة ، ويَودّ أن لوكانت أعماله صالحة ، على خلاف ما كانت عليه ، ويستَرجع عَلى مُصيبَتَها كُلما ذكرها ، أنَّه كان مُطيعًا فيما سلف ، وإنَّ معصيته كانت طاعة ، بالنَّدم الحاصل في هذه الحال ، فهذا هُو الأكسير الذي يُبدّل السيئات
١٨٠/أ حسنات ، وكتب الله بفضله مكان كل سيئة حسنة ، كما ورد في بعض/ الأخبار ، ونص عليه الكتاب في الآية المتقدمة ، فهذا الندم على ما مضى ، وسلف من العبد كمثل النية الصادقة في المُستقبل التي يكتُب العبد بها عاملاً ، ويُعطى ما نوى ، وإن لم يعمل حين عجز عن القدرة عن العمل .

واعلم أنَّ حال التائب ينحصر في ثلاثة أقسام : وهي مقامات الإسلام والإيمان ، والإحسان الثلاثة ، وعلى عدد الذَّوات الثلاثة التي هي الجسم الظاهر ، والنَّفس الباطنة فيه ، والرُّوح الذي هُو باطن الكُل .

---

(١) لا يصح : تقدم تخريجه .

(٢) الأكْسير : مادَّة مركبة كان الأقدمون يزعمون أنها تُحول المعدن الرخيص إلى ذهب .

(٣) سورة الفرقان الآية (٧٠) .

فأما القسم الأول : الظاهر في مقام الإسلام ، فالتوبة فيه رجوع الجوارح عن المُخالفات إلى أعمال الصالحات ، و الفرار من أقران السوء ، ومواضع المخالفات ، يفر بجسده من ذلك إلى مواطن الصالحات ، وتلبس الجوارح بالأعمال الصالحات .

وأما القسم الثاني : الباطن في مقام الإيمان ، فهو حل الإصرار من القلب ، وإدخال الغم والحزن ، والأسف ، والنَّدم على الذنوب عوضًا من الفرح بها ، وعزمُ القلب على فعل الطاعات ، وعلى أن لايعود إلى السيئات إلى غير ذلك من أحوال التائب في الباطن ، ويستعين على ذلك بمشاهدة القلب للمؤمِّنات في الغيب ، وتذكر أمور الآخرة ، وأهوالها ، فيُعينه ذلك على التوبة لا محالة .

وأما القسم الثالث : في مقام الإحسان ، فهو رجوع السر إلى من فرّ عنه حين المعصية ، بالانكسار والذُّل / ، والدُّعاء ، والرَّغبة ، و النَّظر إلى قدر ١٨٠/ب من عُصي ، إلى غير ذلك من حال التائبين ، وأسرار الهاربين إلى الله بالتوبة ، وقال سهل : « مقام التائب الحقيقي مقام حملة العرش » .

واعلم أنَّ العبد المنيب إذا نظر إلى حاله المتقدمة في حين البطالة بعين يقينه انكشف له سر الملكوت ، ورأى ما كان عليه ، وأين كان ، ومن أي شيء أنقذه الله تبارك وتعالى : ﴿ **وكنتُم عَلَى شَفا حُفرةٍ من النَّار فَأَنْقَذَكُم منهَا** ﴾[1] الآية ، وأعطى العلم المحجوب عنه قلوب الغافلين ، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ **كلا إنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفي سِجِّين** ﴾ [2] وفي الحديث : « **وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم** » [3] فالسيئات كتاب

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٣) .

(٢) سورة المطففين الآية (٧) .

(٣) حسن صحيح : تقدم تخريجه .

مرقوم في أسفل سافلين ، وصورتها مرسومة في ذات العبد ، كما أن الحسنات كتاب مرقوم في علّيين ، والنّار في أسفل سافلين ، والجنَّة في عليين ، ولا يدخل النار إلا بعمل يُوجب دُخولها ، فإذا عمل العبد المعصية ارتسمت وكُتبت في السفلى ، وكانت طريقًا إلى جهنم السوء ، أي وعلى الطريق تأتيه النَّار ، وتأخذه ، ولو لم يكن ذلك الطريق لما اهتدت النَّار إليه ، ولا أخذته ، وكذلك تَلتَقطهم في المحشر ، كما يَلتقط الطير حبَّ السِّمسم ، وهي أعرف بالعصَاة ، والجبابرة منهم بأنفسَهم ؛ لأن النار
١٨١/أ المحسوسَة الآن / لا تمشي إلا في حطب تأكله ، وتتوصل إليه إلى مطلوبها .

وكذلك النَّار الأخراوية لا تأتي العبيد إلا عن طريق أعمالهم المرقومة فيها ، فهي تسعى في طريق السيئات حتى تصل إلى العصاة ، فإذا وصلت إلى عبد ، وهو غير تائب ، وجدت إليه سبيلاً ، وتمكنت منه بإذن الله تعالى ، وإذا كان العبد تائبًا ، لم تجد النَّار إليه سبيلاً ، لأنَّه قد أقلع عن مقامها ، وقطع أسبابها بينه وبينها ، وسدّ أبوابها التي تدخل إليه منها ، ومثال ذلك أنّ الإنسان مثلاً إذا عمل السيئة ، وتكلم بالكلمة من شرك أو كذب أو إضلال ، أو نميمة ، أو غير ذلك من الأعمال السيئة ، ارتسمت في ذات المتكلم نكتَه سوداء ، وارتقمت في قبضة الشمال من سجِّين ، وأسفل سافلين ، فكانت طريقًا مُتصلا بدار الجحيم ، وكان العبد علىَ شفا حُفرة من النَّار ، فعلى ذلك الطريق يدخلها ، وبه تُقبل هي إليه ، لا من غيره ، فإن تاب فقد أقلع عن الحفرة ، فتأتي النَّار على ذلك الطريق في المحشر فَتَجده مقطُوعًا ، وتجد الصمت الذي هو توبة اللسَّان قد سدّ الباب ، وأغلقه في وجهها ، فلا يكون لها عليه سُلطان ، وكذلك الغض في العين ، والكف في اليد ﴿ كُفُّوا أَيدِيَكُم ﴾ (١) .

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٧٧) .

وكذلك حبس الرجل عن المخالفة / ، وقبض جميع الجوارح عن ١٨١/ب
المخالفات ، والقلب باطنًا عن العنُود [١] ، والموبقات [٢] ، والإصرار الموبق ، وهذا شر مكنون نبّه الجليل جل جلاله عليه في قوله : ﴿ لَوْ تعلَمُون عِلمَ اليَقين * لَتَرَوُنَّ الجَحيم ﴾ [٣] . ومن هذا المعنى استغاث النَّاظرون بعين اليقين ، المتَفكرون في ملكوت السموات والأرض إلى ربِّهم في قوله :

﴿ يتَفكَّرُونَ فِي خَلقِ السَّموات والأرضِ ﴾ بقولهم لربهم : ﴿ ربَّنَا مَاخَلَقتَ هَذَا بَاطلا سُبحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار ﴾ [٤] طلبوا الوقاية منها لما شاهدوها في باطن المُلك أقرب إلى الخلق من أنفسهم « **الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله** » [٥] والنار مثل ذلك ، فمن كانت هذه حاله من التوابين ، لا يخلو من محو ، وإثبات لمحو السيئات ، وتثبت الحسنات بالتذكر ، والأعمال الصالحات ، فينجلي قلبه ، ويصفو ، فيثمر ما كان تاب عنه ، ولأن الشيء الذي تاب منه أيضًا لا يخلو كما تقدم من أربعة أشياء ، إما شرك ، وإما بدعة ، أو معصية ، أو غفلة ، فالشرك على قسمين : شرك أكبر ، وشرك أصغر ، أخفى من دبيب النمل على الصفا [٦] ، فإن خلا عن الأكبر كيف يخلو عن الأصغر ؟ .

---

(١) العنود : الشديد العناد ، ويقال عَقَبَة عَنُود : صعبة والجمع : عُنُد .

(٢) الموبقات : المهلكات التي تخلد صاحبها في النار .

(٣) سورة التكاثر الآية (٥) ، (٦) .

(٤) سورة آل عمران الآية .

(٥) **صحيح** : تفرد به البخاري من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه - ١١/ ٢٧٥ كتاب الرقاق * باب الجنة أقرب إلى شراك أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك .

(٦) الصفا : جمع صُفَاة وهي : الحجر العريض الأملس . ودليله مارواه الحاكم وصححه من حديث عائشة -رضي الله عنها - مرفوعاً : الشرك أخفى من دبيب النمل . . . الحديث ، راجع ترغيب المنذري (٤٣٠٠) بتحقيقي .

والبدعة على قسمين : بدعة تنقل عن الملة ، وبدعة أخف منها لا تنقل عن الملة ، مثل ما أحدث الناس بينهم من القول ، والفعل ، وفي أمور
١/١٨٢ الدُّنيا مما لم / يكن عليه الرسول والسلف الصالح من تشديد الناس في وساوس الوضوء والاغتسال بالماء الكثير ، وترك السلام والبدء بقولهم : كيف أصبحت ، وغير ذلك مما لا يُحصى كثرة ، ويكبُر تعداده ، وإنَّما يَفطن له من شغف [١] بالعمل - بالشين - فإن خلا عن البدعة الكبرى أنى له بالسلامة من الأُخرى ؟ لا سيما في مثل هذه الأزمنة .

وكذلك المعصية أيضًا على ضربين كبائر ، وصغائر ، فإن خلا عن الكبائر « الزنا لا محالة » ﴿ **فالعين تزني وزناها النَّظر** » [٢] الحديث إلى آخره .

ولا يخلو جدٌ عن ذنب حتى تسع الكل مغفرة الله الواسعة ، وقد نبّه على سعتها بقوله :

﴿ **الَّذينَ يجتَنِبُونَ كَبَائرَ الإثمِ والفَوَاحشَ إلا اللَّمَمَ** ﴾ - وهي الصغائر ، ثم قال - ﴿ **إنَّ رَبَّكَ وَاسعُ المغفِرَةِ** ﴾ [٣] . أي وسعت الكل ؛ لأنهم إن خلوا عن الكبائر لم يخلوا عن الصغائر .

وكذلك الغفلات على ضربين : غفلة وهي موت القلب ، وترك الذكر ، ونسيان للنعم والنَّوم عن الاشتغال بالباقي بالإقبال على الفاني ، وغفلة تتخلل أحوال الذاكرين في ذكرهم ، والمُتيقظين في حال يقظتهم من

---

(١) شغف : الشغاف هو غلاف القلب ، وقرأ ابن عباس [قد شغفها حباً] وقال دخل حبه تحت الشغاف .

(٢) صحيح : أصله عند الشيخين من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - ، وقريب للفظ المذكور أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٩) من حديثه أيضاً . وفي الباب عن ابن عباس تفرد به البخاري راجع نصب الراية (٤/ ٢٤٨ ، ٢٤٩) بتحقيقي .

(٣) سورة النجم الآية (٣٢) .

نظر إلى ذكرهم ، ويقظتهم ، أو سكون إلى نفس ، أو ملاحظة خط من الخطوط ، أو ركون إلى مقام ، وحال أو انقطاع برؤية نعمة عن المُنعم ، وفي أحوال الكبرى ، عدم رؤية التقصير حتى ينقلوا / إلى أرفع مما هم فيه ١٨٢/ب فيذكرون تقصيرهم ، ويرون أنهم كانوا في غفلة ، ومنها الغان الذي في الحديث : « **إنه لَيغان** [١] **على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة** » [٢] فلا يخلو جَد عن التوبة ، وسيد الأولين والآخرين دارج فيها في كل يوم ، مع سائر المقامات ، ونسأل الله الكريم ، الرحيم ، أن يمن علينا بتوبة صادقة ، ومغفرة عامّة شاملة ، آمين رب العالمين .

فقد اندرج في هذا الكلام جميع مقامات التوبة من أولها إلى نهايتها ، مختصر غير مُرتب ، لأنِّي لم أقصد به قصداً لوعظ فيكون مُرتبًا كترتيب التواليف مُبوبًّا مُرتبًا بالحكايات ، ومحشواً من الأخبار والأحاديث ؛ لأنه لايعظ إلا من اتعظ ، ولا يُؤلف ويُرتب إلا عالم مُبرر [٣] ، وأنا لست هُنا لك ، وإنَّما قصدت في جميع فُصول هذا الكتاب تذكيراً ما ، ومُنبها إلى غرض علمي يُذكر ولا يأمر ، وينَبه ، ولا ينهى ، كما لا يخرج إن شاء الله من أقل أغراض الطلب ، ولعل وعسى تصلنا وتسعنا بركة العلم « **فإن الراتع** [٤] **حول الحِمى يوشك أن يواقعه** » [٥] .

---

(١) ليغان : أي يغطي .

(٢) **صحيح** : تفرد به مسلم من حديث الأغر - المزني كتاب الذكر * باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٧٠٢) .

قال القاضي عياض : قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه ، فإذا فتر عنه أو غفل ، عُدّ ذلك ذنباً ، واستغفر منه .

(٣) مبرر : مصدق ومزكى .

(٤) الراتع : هو الذي يَرعى كيف شاء في الخصب والسعَه .

(٥) **صحيح** : تقدم تخريجه من حديث النعمان بن بشير .

اعلم أن الذنوب تنقسم بوجه آخر على قسمين : قسمة في حق الخالق، وهو على قسمين إمّا ارتكاب نهي ، وإمّا ترك أمر ، ، فأما ترك الفرائض فلا بد من الإتيان بها مثل الصلوات ، والزكوات ، والصوت ، وغير ذلك ، وفي الحديث « ودين الله أحق أن يُقضى » [(١)] .

وأما ارتكاب النَّهي ، فيكفي منه الإقلاع وأن لا يعود .

وقسم في حق المخلوق ﷺ وهي المظَالم ، فالتوبة من هذا القسم أعسر منها من القسم الآخر ، ولا يبرئ منها إلا ردُّ المظالم على أربابها ، وهي إمَّا مالية ، أو عرضية ، أو بدنية .

فأما المال فيرده إليه ، إن كان حيًا ، أو إلى ورثته إن كان ميتًا ، وذلك مجرى عنه ، وأمّا العرْض فيُستحل منه ، وكذلك القتل ، وضرب البَدن ، وقطع الأطراف ، وغيَر ذلك يُعطى القَصاص من نفسه له ، أو يَستَحل منه إن كان حيًّا ، وإن لم يقدر على شَيء من ذلك فليكثر من الدعاء ، والاستغفار للمظلوم في أكثر الأحايين ، فإن ذلك ينجع [(٢)] إن شاء الله ، فإن التوبة مفتوح بابها ، وهي الستر الكثيف [(٣)] بين العبد وبين العذاب ، وبين الخزي والفضيحة ، والذَّم ، وقدرها في الآخرة أعظم مما يتَوهم المُتوهمِون ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) صحيح : أصله عند الشيخين من حديث الفضل بن عباس -رضي الله عنهما - وانظر اللفظة من كنز العمال (٤٠٢١٨) .

(٢) يُنْجَعُ : ينفع ويظهر أثره .

(٣) الكثيف : الغليظ المثخن.

الشعبة الثانية والأربعون
الصبر

أما كون الصبر من الإيمان فبيِّن واضح ، لا يحتاج إلى استشهاد عليه ، وقد ورد في الخبر عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : « إن الصبر رأس الإيمان » وفي الخبر « الإيمان نصفان : نصف صبر/ ، ونصف ١٨٣/ب شكر »[١] والشواهد عليه كثيرة إلا أنه من أعظم الشُعب ، وأكبر دعائم [٢] الإيمان .

واعلم أن الصبر داخل في جميع الأحوال الباطنة ، والأعمال الظاهرة ، وله بداية ، وفي أسرار المُقربين نهاية ، وهو مقام عظيم لا يثبت فيه إلا خاصة الله من عباده ، ، وما أتى الخلق ، ولا وقعوا فيما وقعوا فيه من المخالفات والآفات إلا من قلة الصبر .

فأما حد الصبر ومعناه فهو الثبات ، والوقوف في مواطن الاختبار ، والامتحان ، وبالصبر يظهر من العبيد خبثهم ، وخُلاصتهم ، أما أن تُحسَّن أخلاقهم بالصبر على المحن فَيظهر منهم الكتمان وترك الشكوى ، وتحسين الخُلق ، والاستعانة بالله ، وغير ذلك من أَصول الصبر ، فيُحسن الصبر ، ويصبر بها صبراً جميلاً .

وأما أن يظهر منهم الشكوى والضجر [٣] ، والتبرم [٤] ، والجزع [٥] ،

---

(١) لا يصح : راجع السلسلة الضعيفة (٦٢٥) للعلامة الألباني -حفظه الله- .

(٢) الدعائم : جمع دَعَامه : وهي العماد الذي يقوم عليه البُنْيَان .

(٣) الضجر : الضيق .

(٤) التبرم : يرم الشيء شنمه وضاق به .

(٥) الجزع : لم يصبر على ما نزل به .

والهلع [١] ، فيقبح حاله بعدم الصبر ، وما يظهر عليهم الاختبار ، فإن الصبر مُر مثله كمثل الشّخيرة والكير [٢] يظهر الطيب ، والخبيث .

واعلم أن الإنسان في هذه الدار لا يخلو من حال نعمة ، وحال محنة[٣] يجب عليه قضاء حَقهما ، ومن حالة أمر وحالة نهي يلزمه الوفاء بهما ، ولا يتم له حالة من هذه الأحوال إلا بالصبر .

١٨٤/أ فأما حال النعمة / ، فأن يكون الإنسان مُعافى في بدنه ، وغنيًا بما في يده، وسالمًا من المصائب ، وفي أهله ، وأقاربه ، وقيامًا ، فيجب عليه عند ذلك ، الصبر على القيام بحقوق هذه النعم ، لأنها ابتلاء من الله تعالى كما قال الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا ما ابتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكرَمَهُ وَنعَّمَهُ ﴾ [٤] ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيرِ فِتْنَةً﴾ [٥] فسماه ابتلاء وأكثر الخلق يظن الصبر أن الصبر على القيام بحقوق هذه الأشياء هين ، وليس الأمر كما تمنَّوا بل الصبر على هذه الأشياء أعظم منازل الصابرين ، وأكثر الخلق يصبرون على المحن ، ولا يصبرون على النعم ، بل تُخرجهم النَّعمة إلى الطُغيان [٦] ، والبَطَر [٧] ، والعصيان [٨] وذلك من قلة الصبر ، على النعم ، ولا يصبر عليها إلا الصِّديقون ، كما

---

(١) الهلع : أفحش الجزع ، و في الحديث [من شر مَا أُوتي العبد شحٌ هالع وجبنٌ خالع] أي يجزع فيه العبد ويحزن .

(٢) الكير : منفخة من ترق أو جلد غليظ ذو حفات عند الحداد .

(٣) محنة : البَلِيَّةُ والاختبار .

(٤) سورة الفجر الآية (١٥) .

(٥) سورة الأنبياء الآية (٣٥) .

(٦) الطغيان : جاوز الحد المطلوب ، تجبر وأسرف في الظلم .

(٧) البطر : أنكر الحق ولم يقبله واستخف النعمة فكفرها .

(٨) العصيان : الخروج من الطاعة .

قال المشايخ : « لا يصبر على حلاوة الشكر إلا صدّيق » .

وقال عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - : « ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتُلينا بالسراء فلم نصبر » .

فقد تجد الإنسان فقيرًا ، ليس عنده إلا قوت يوم ، أو شهر ، أو سنة ، أو بيده قليل من المال ، ويكون حاله مستقيمًا ، فلو اختبر وملك ألف دينار مثلا انفسد حاله ، وذهبت استقامته ، لقلة صبره عن إخراجها عن يده ، وعن القيام بحقها ، وعن الجري عن الاستكثار منها حين ذاق حلاوتها فتُخرجه إلى أُمور تُفسد حاله ، وهو يشعر بذلك ، أولا / يشعر ، وتجده ١٨٤/ب
أيضًا ضعيف البدن ، ومريضًا فيصبر ، عن الطعام ، وعلى قلته ، ثم يصير قوي البدن ، صحيحه ، ويجد لذة النعم ، فلا يقدر على ترك شهوة ، ولا صوم يوم واحد من قلة الصبر على النِّعمة ، فإذا كان الإنسان في حال النِّعم، وجب عليه الصبر على القيام بحُقوقها ، فيتخلص من عُهدتها .

وأما حال المحنة فأن يكون الإنسان فقيرًا ، أو مريضًا ، أو مُصابًا فيحتاج أيضًا إلى صبر ليَسلم من السخط (١) ، والشُّكا (٢) بغير حق ، وإظهار أمور الجاهلية في المصائب ، والأمراض من التذلل للعبيد في حال الفقر ، والقلة ، والسُؤال بغير حق ، فإنه من الفواحش (٣) ، ومن الطمع المُفسد للدين ، وغير ذلك من الآفات المُفسدة الدَّاخلة على أهل المحنة ، تكثر تعدادها ، فهاتان حالتان حالة النعمة ، وحالة المحنة ، لا تصلحان إلا بالصبر .

---

(١) السخط : الغضب .

(٢) الشكا : المرض ، جمع شكاة .

(٣) الفواحش : جمع فاحشة ، وهي مؤنس الفاحش وهو القبيح من القول والفعل .

وأما حالتا الأمر والنهي : فإن العبد مُخاطب بهما في جميع أحواله ، ولا يقدر العبد على القيام بهما إلا بالصبر ، فإن العبد يحتاج إلى صبر على مُجاهدة قلبه ، وجوارحه على القيام بالأوامر المفروضات ، والمندوبات ، وعن هاتين الحالتين خاف جبريل عليه السلام على الخلق أن لا يُثبتوا ، ويصبروا فيهما في الحديث الذي رواه أبو هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال :

١٨٥/أ **« لمّا خَلَق الله الجنة قال / لجبريل : اذهب فانظر إليها فذهب فنظر ثم جاء فقال : أي ربِّ وعزَّتِك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، ثم حَفَّها بالمكاره ، ثم قال : انظر إليها ، فذهب فنظر ثمَّ جَاء فقال وعِزَّتك لقد خَشيت أن لايَدخلها أحد ، قال : فلما خلق النَّار قال : اذهب فانظر إليها فذهب ، وجاء فقال : أي ربِّ وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فحفها بالشهوات ، ثم قال : اذهب فانظر إليها ، فذهب وجاء ، فقال : أي ربِّ ، وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو أحد إلا دخلها »** (١) .

فالمكاره التي حُفت بها الجنَّة هي المأمورات ، والمندُوبات التي دُعي العبد إلى القيام بها ، والقيام بها شاق على النَّفس ولا ينال شيء منها إلا بالصبر الكثير ، وكذلك الشهوات التي حُفت بها النَّار هي المنهيات التي زجر (٢) الخلق عن مُواقعتها ، ولا ترجع النَّفس عن المنهيات إلا بالصبر الكثير ، فهي من هَوى النَّفس ، وحياتها ، والصبر عن النهي أعظم من الصبر على الأمر ، وما صار الصِّديقون صدّيقين إلا بالصبر عن المنهيات ، فقد تجد الإنسان يُكثر العبادة ، وتخف عليَه ، وتجده عُمره كله لا يقدر على غض بصره ، وكف لسانه ، أو مُواقعة الشيء الخفيف من المنهيات ، وذلك
١٨٥/ب من أجل أن المنهيات عيش النفس ، وروحها ، والإنسان لا يخلو عن حالة/

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (٤٧٤٤) والنسائي ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح (٢٥٦٣)، وانظر ترغيب المنذري (٥١٧٥) بتحقيقي .

(٢) زجر : كف عنها .

الصبر بوجه في جميع أحواله ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (١) أي في مُكابدة (٢) المحنة ، والمشقة ، فهو من أول خروجه إلى الدنيا في مكابده مشاق التربيَة ، إلى حين التمييز فيحتمل مُكابدة التأديب والتعليم ، إلى حين التكليف ، فَليزمه مُكابدة الأوامر والنَّواهي ، والشَّهوات ، ثمَّ في حال الكسب ، والعبادة يدخل في مُكابدة الخلق ، وإذايتُهم حين مخالطتهم ، واعتزاله عنهم ، فإنهم لا يتركونه ، خالطهم ، أو اعتزلهم ، وفي دَعَوتهم إلى الله إن كان ممن يدعو الخلق إلى الله ، ويُكابد نفسه ، وإبليس وجنوده ، ومع ذلك يتخلله المصائب ، والنَّوائب (٣) ، والمخاوف فيحتاج في ذلك كله إلى صبر جميل ، إلى حين الموت ، ثم بعد ذلك تلقاه أمور الآخرة ، فإن كان التزم الصبر في الدنيا كفاه الصبر جميع مؤونة الآخرة ، واستراح وألاّ تَبدأ بالصبر من حين الموت على مشاق الآخرة حتى يفرغ منها بدخول الجنة إن كان من أهلها ، وإلا بقي في مشاق الصبر المؤبّد ، ومُكابدة النّكد (٤) المُخلد ، نسأل الله العافية .

اعلم رحمك الله أن الصبر على ثلاثة أضرب ، على عدد مقامات : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وكذلك اختلفت أسامي الصبر على ثلاثة أسماء : أولها التَّصَبُّر ، وهو تَفَعل أي تكسب ، وهو المقام الظاهر الذي تنفعل من الصبر / ، على فعل الحسنات ، وترك المُخالفات ، والتثبت ١٨٦/أ
في المصائب والشدائد ، فإنَّ الجَسَد ضَعيف ، لا يَحْتَمل إلا الاكْتساب للصبر ، والتَفَعُّل له في مَواطنه .

(١) سورة البلد الآية (٤٦) .

(٢) مكابدة : كابد الأمر ، قاسى شدته .

(٣) النوائب : جمع نائبة ، وهي ماينزل بالرجل من الكوارث والحوادث المؤلمة .

(٤) النكد : العسر والضيق .

والضَّرب الثاني في مقَام الإيمان هُو الصَّبر في مَواطن مجاهدة النّفس والعَدو ، وخطرات الهَوى في البَاطن وحَملها عَلى مُخَالفة قُطَّاع طُرق اللّه حتى تَثْبت قَدم العَبد ، فَيكُون صَابراً ، والصَّبر كَما تَقدم هُو الوُقُوف والثَّبات ؛ لأنّ التَّصبر فيه بَعض التَزلزل والاضْطراب ، والصبر ثَبات ، وَوُقوف بلا تَزلزل ، ولاَ اضْطراب ، وإنما يَسْتَعين العَبد عَلى اكْتساب هَذا المَقَام بنَظَر الإيمَان في الآخرة ، ومشَاهدة المُؤمّنات الغَيْبية من المَوت ، فَما بَعده منْ المؤمّنات ويتذكر أهْوال الآخرة ، وعَظَائمها ، وشَدائدها ، وحسَرات المَوت على دَرجاتها ؛ فَترجَع النَّفس عَنْ الهَوى ، وتَثْبت في مَواطن اللّقَاء في الجهاد البَاطن .

وأمّا الضرب الثالث في مقَام الإحسَان وعَالم الروح والعقل ؛ فَهو الاصْطبار في طلَب العلم ، بالفكر الصافي ، والنَّظر ، وطلب القرب منه ، وكَما قَيل : « إنّ العلم إنّ أعَطيته كلّك أعطَاك بَعضه » . وقليل من الخلقَ من يَصبر عَلى الفكر ، والسُّلوك في طريق الحق سُبحانه ، ومَعْنَى الاصْطبار هُو افْتعال الصَّبر ، وطلَب الزيادة من ذَلك المَقَام الذي هُو فيه ، وهذاَ مقام ١٨٦/ب الأنَبياء ، والأكَابر/ منْ الأولياء وفيه بَعض حَلاوة خَفّفت ، وإنَّما الشدائد العظام في المقام الأوّل ، قَال اللّه عَزَّ وجَل في المَقام الأول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾ [١] أيْ شُدّد عليْهم - فتَزلْزلوا بتَجرع المَرارة - ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [١] وقَال في المَقَام الأوسط : ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [٢] أيْ الوَاقفين الثَابتين الذين لاَ يَفرون عنْد اللقاء .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢١٤) .

(٢) سورة البقرة الأية (١٧٧) .

وقال في المقَام الأعلى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [١] عَلى وزن فَاعلوا أيْ افْتعَلوا الاصْطبَار .

وقَال لنَبيه عليْه السلام : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ ، وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ [٢] أي افْتعل الصَبر ، وقَال : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [٣] ومنه قَوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [٤] عَلى وزَن فَعّال ، أضاف الفعل الكَثير إليْه ؛ لأنه يتَفَعله ويطلبه ، وفي هَذا المقَام أسْرار للعَارفين ، والمقَربين في اللقاء الكَريم لاَ يَفْهمها إلا هُم ، ولاَ يَعْرفها سواهم ، جَعلنا اللّه وإياكَ منهم ، قَال النَّبي ﷺ في وصف دَاود عَلَيْه السلاَم : « كَان يصوم يَومًا ، ويُفطر يومًا ، ولاَ يَفرّ إذا لاقى/ » [٥] . ١/١٨٧

وقَال في وصَف الموقنين : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ [٦] هَذا هُو طَلب الصَّبر ، والزيادة منه ؛ لأن اليقين خَفَّفه عليهم وأعذبه حتَى عَذب عَذابه بمُشَاهدة المُوقن بَه جَل جَلاَله .

واعلمْ أنَّ أحْوال الخَلق في هَذا المقام - أعني الاصْطبار - عَلى ثَلاثة أقسام :

القسم الأول : أبناء الدنيا تَشمّروا في طَلبها بقطع الفَيافي [٧] والقفَار [٨] ، وحَفَر الجَوابي [٩] ، وتَشقيق الأنهار ، والجَري في لجج [١٠] البحار ، وغَير

(١) سورة آل عمران الآية (٢٠٠). (٢) سورة مريم الآية (٦٥) .
(٣) سورة طه الآية(١٣٢) . (٤) سورة إبراهيم الآية (٥) .
(٥) صحيح : متفق عليه ، من حديث عبد الله بن عمْرو بن العاص . الترغيب (١٤٩٨) .
(٦) سورة البقرة الآية (٢٤٩) .
(٧) الفيافي : جمع فيفاء، وهي : الصحراء الواسعة المستوية .
(٨) القفَار : المكان الخالي من الناس .
(٩) الجوابي : جمع جابية وهو الحوض الذي يجبي فيه الماء .
(١٠) اللجج : جمع لجة وهو : الماء لا يدرك قعره .

ذَلك من الحرف ، والأشْغَال في جميع الأقْطار ، تَحملوا مَرارة الصَّبر فيما يَنَالهم من المَشقات حين وَجدوا لَذة الرِّبح ، أو رَجوا الظفر بها ، وحين ذَاقوا لذة المَنْفعة بمَطلوبهم منها فتَراهم يَنَالون منْ المشَقات مَا لاَ يُوصف ، ومن التعب ، والحَر ، والبَرد ، والسَّهر وغير ذَلك فَوق الوَصف ، ولكن خَفَّفَ ذَلك ، وأعذبه لَهم اسْتشْعَار المَنْفعة بنَيْل المَطلوب ، وهَذا مقَام لا يُنكره أحد؛ لأنّه مُشاهد .

والقسم الثَّاني منَ الخلق أبناء الآخرة وأهل العبادة ، فحملوا وظائف العبادات ، ومَشاق العقَبات في طَريق اللَّه ، حين أيْقَنوا بمَا بَعد الموت ، وأنَّه لاَ بُد لهم منْ لقاء اللَّه عَز وَجل ، ورَبما وجَدوا لَذة / الأذْكَار ، وحَلاوة الخِدمة للسَيّد الجَبار ، فَسهَّل عليهْم الأمر ، وفي هَذا المَقام جُملة الصَّالحين . ١٨٧/ب

والقسم الثالث هُم أهل السير بالبَاطن ، وأهل السلوك بالقُلوب ، والأسْرار حَتى وَصَلوا إلى حَضْرة العَزيز الجبار ، فكانوا جُلسَاءه ، وأهل مُنَاجَاته ، ومَعرفته فكَان المُلك كُله ، بالإضَافة إليْه في أعينهم كل شَيء ، فآثروه علَى كُل شَيء وتَحملوا قَطع اللُجَج بالفكر الصَافي ، والذِّكر المُفردَ ، فَتَلَقَّاهُم في مَسيرهم بأضْعَاف مَا تَقربوا إليْه ، كَما ورَد عنْه « مَن تَقرّب مني شبرًا تَقربت منه بَاعًا » -فقَال : منِّي ولم يَقل منْ غيره - « ومنْ تَقرب مِني ذِراعًا تَقربت مِنه بَاعًا ، ومَن آتاني يَمْشي أتيْتُه هَرْولة » (١) .

وهذا هو مَجيْءُ سُبحانه للخُصُوص وإتْيانه قبل يَوم الحسَاب مَا هُو للنَّاس غَيْب هُو لَهم شَهادة ، وهذا هُو لقاؤه لَهم ، ولقَاؤُهم له ، وهَذا المجَيء ، والإتْيَان إنَّما هُو بمعنى التَّجلي والاستتار إذَا كَان العَبد في ستر ، وحجاب فكَشَف عنْه ذَلكَ الحجاب والسّتر ، تَجلى لَه مَا لم يَر قَبَل ذَلَك ، فكَان في حقه مَجيئًا ، وكَذلك مَجيئه في المحشر أيْضًا إذا أتى الوَقت الذي

(١) صحيح : تقدم تخريجه .

قُدر لهم أنْ يَروا رَبَّهم منه كَشَفت عنْهم الأسْتَار فَشَاهدوا مَا لمْ يَروا قَبل ذَلك ، وكَان مَجيئًا بلاَ شَك بمَعْنى التجلي لاَ بحركة ولاَ / سكُون وقد ١٨٨/أ
جَرى طَلق الكَلاَم إلى غَاية أُخرَى فَلنرجع إلى الصَّبر ، فَإذَا لقيتُهم في مقَام الصَّبر والسَّير ، والَسلوك بالتَواطن أبْصَروا أمرًا عظيمًا ، وعَايَنوا شيَئًا كَثيراً عَزيزًا فكَادت أرْكَانهم تَنْهدّ من فعل ذَلك المقَام ، كَيْف والجبَل صَار دكًا في نَفس وَاحد ؟ ، والأرض والسَّماءَ لاَ تَحمل ذَلك ، فكَيْف تَحمله أسْرارهم؟ « لمْ تَسعني أرْضي ولاَ سَمائي ووَسعني قَلب عَبدي المُؤمن »[١] .

وفي هذا المقَام منْ الاصْطبار يُسهِّل عليْهم الأنس بجمال المُتجلي أعبَاء الصَّبر ، فَلا يفرّون عنْه ، ولاَ يَذْهَبون كَما صَنع الجَبل حَتَى صَار دكًا ، وقَد أوردت في هَذا المكْتُوب قَوله : « لمْ تَسعني أرْضي ولاَ سَمائي ووَسَعَني قَلب عَبدي المؤمن » هذا من المشكلات فرأيت ألاَّ أتجاوزه حتى يَتَبَين معناه[٢] إن شاء الله ، فمعنى قوله ؛ « لم تسعني أرضي ولا سمائي » أي لَمْ يُطقني ، ولمْ يُحملني من قَوله : ﴿ لاَ يُكلفُ اللَّهُ نَفْسًا إلاَ وُسْعَها ﴾[٣] أيْ طَاقَتها ومَا في وسْعَها أنْ تَحمل ووَسعَني قلب عَبدي المُؤمن أيْ أطَاقَني ، وحَملني حين تَجليت لقلبه بَعظَمتي ، ومَا أنَا عليْه من كبريائي ، وإنَّما حَمله وأطَاقه مَمَّا أودَعه منْ أسْرار الفُهوم قُوة العُلوم ، وصَلاَبة اليَقين ، ومَا أقلَّ علم منْ يُنكر عَلى المُحققين منْ أهل طَريق اللَّه الصَّعق[٤] ، والبكاء ، والقلق ، والانزعاج ، والموت ، وما[٥] / ذَلك إلاَّ منْ أمر عَظيم يُصيب بَواطنهم ، ١٨٨/ب

---

(١) موضوع : راجع تذكرة الموضوعات (٣٠) ، اتحاف السادة المتقين (٧/ ١٣٤) .

(٢) كان من الأولى التثبت من صحة الحديث ثم لو ثبت العرش يكون إيضاح ا لمشكل واللجوء إلى التأويل .

(٣) سورة البقرة الآية (٢٨٦) .

(٤) الصعق : صَعِقَ الرجل صعقاً - بالكسر - أغمي عليه .

(٥) تكرر حرف «ما» في الأصل .

ولنَا في الجَبل أسوة ، وقَد خَرّ مُوسى صَعقًا ، وقَد صُعق النَّبي عليْه السَّلام، وكَان أبُو بكر لاَ يُسْمِع النَّاس منْ كَثرة البُكاء .

هَل أضعف صَوته عَلى قُوته إلاّ شَيء عَظيم ، وقَد غشي عَلَى عُمر بن الخَطاب عَلى قُوته ، ومَات غَيره ، وأقل أحْوَال العَاقل إنْ لَمْ يكُن يَعلم فَلا يَعْتَرض عَلى أهْل التحقيق ، ولْيُسلّم ؛ فإنْ هَذا المقَام إنْ لمْ يَصحبه أنْس الجَمال ونَسيم رَوح الجَلالَ أُهلك ، ومات ، وأُتْلف ، وكان صَاحبه منْ أكْبر الشُهداء ، جَعلنا اللَّه وإيَّاكم منْ خَاصته برحمتَه، آمين آمين ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمد خَاتم أنبيائه وسَلم تَسليمًا .

الشعبة الثالثة والأربعون
الشُّكْر

أمّا كَونه منْ شُعب الإيمان فَبيِّن ، أيْضًا ، فَإنّ ضده الكُفر . قَال اللّه عَزّ وجَل : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (١) فقرَنَه بضده ، وقَال : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونَ ﴾ (٢) وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ (٣) أي جَعلوا مكَان الشُّكر كُفرًا ، فَالشّكر إيمَان جَديد يتبين به نُقصَان الإيمَان ، وفي الخَبر : « **الإيمان نصفَان نصف صَبر ، ونصف شُكر** » والشواهد عليْه تطول .

١/١٨٩ واعلمْ رَحمنا اللّه وإيّاك أنَّ الشُّكر بَاب من التوحيد/ ولذلك عَظُم مقْدار الشُّكر ، وذَلك أنّك إنْ حدّدت الشُّكر فَقُلت : إنَّه الثَناء عَلَى المُنْعم ، وَالإقْرار بالنّعمة للمُنعم بها ، أو رُؤية النعمة منْ المُنعم فَقَد أضفت الأَفْعَال إليْه ، ولَمْ تُشرك مَعه فيها أحدًا ، وهَذا هُو التوحيد بعَينه .

فأمَّا إذَا حَدّدناه بأنَّه الثَناء عَلى المُنعم بنعَمه ، وأياديه فَهو مَأخوذ منْ قَولهم : شكر بَاب البَعَر إذا طَهر ، ودَابة شَكُور إذا طَهرت منْ السمْن فَوق الحَدّ ؛ لأنه إذَا كَتَم الذي أَعطى النعمة فَلم يُظْهرها بَالثناء عَلى معطيها ، فَقَد غَطى عليْها وإذَا ذَكر مُعطيها فَقد أظهرها ، ومنْ هَذا قَول النبي ﷺ : « **لاَ يَشكر اللّه من لاَ يَشكر النَّاس** » (٤) والتَغْطية فِي اللغة كُفر ، ومنه ﴿ أَعْجَبَ

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٧) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٧٢) .

(٣) سورة إبراهيم الآية (٢٨) .

(٤) صحيح: رواه أبوداود (٤٨١١) والترمذي (١٩٥٥) وقال: حسن صحيح وابن حبان [٢٠٧٠/ =

الْكُفَّارَ نَبَاتُه﴾ (١) أيْ الزرَّاع الذين يُغَطُّون البـذر عنْ الأعين ، والإظْهـار شكر كَما تَقدم ، وإن حَدَدناه أيْضًا بأنَّه الإقْرار بالَنعمة لواهبها ؛ فَهو منْ قَولهم : « أقر فلان بالحَق إذا اعترف به لصَاحبه » ، وضده الجُحود .

وأكثر مَا ذَمَّ اللَّه سُبحانه في كتَابه منْ لمْ يَشْكر فَقَال : ﴿ يَعْرِفُونَ نعْمَةَ اللَّه ، ثُمَّ يُنْكِرُونهَا ﴾ (٢) حين لم يعترفوا له بها ، ومثله : ﴿ وَاذْكُرُوا نعْمَةَ اللَّه﴾ (٣) يَحذر من نسْيَان الاعْتراف بالنِّعمة ، وإنْ حَددناه أيْضًا بأنَّه رُؤية
١٨٩/ب النعم منْ الْمُنعم فإنَّ ذَلك/ منْ صفَات القَلب ، وهُو أجلّ الشكر ، ويَنْتَظم فيه حُدود الشكر ، كُلها ؛ ولأنَّها إضَافة الشيء إلى واهبه ومُعْطيه ، وإذَا أَضَافه إليْه فَقَد اعترفَ لَه وأثنى به عَليْه ؛ لأنَّه جعَله فَاعلاً ومُعطيًا وكَريمًا فَهو ثَناء ، واعتْراف ، وإنْ لَمْ يَذكره باللسَان .

ومنْه قَول النبي ﷺ لبَعض الصَّحابه حين سَأله مَا يتخذ منْ الأمْوَال ذَخيرة فَقَال : « **اتخذ لسَانا ذَاكرًا ، وقَلبًا شَاكرًا** » (٤) فأمره بأنْ يكون قَلبه مُبصرًا لِمَا صَنع اللَّه مَعه ومَع جَميع الخَلق منْ الفَضائل ، والأيَادي ، فكَثره ذَخيره عنْده ، ويَسْتغني بكثرة مَا أعْطاه منْ النعم التي لاَ يُحصيها أحد منْ العَالمين ،

=موارد] ، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٨) كلهم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه - .

راجع الترغيب للمنذري (١٣٧١) وفي الباب عن النعمان بن بشير رواه عبد الله في زوائد المسند بإسناد لابأس به قاله المنذري (١٣٧٣) .

(١) سورة الحديد الآية (٢٠).

(٢) سورة النحل الآية (٨٣) .

(٣) سورة المائدة (٧) .

(٤) إسناده حسن : لكنه منقطع ، أخرجه الترمذي في التفسير (١٣٩٤) وابن ماجة ، وأحمد (٥/ ٢٧٨) كلهم من طريق سالم بن أبي الجعد عن ثوبان . ولم يسمع منه قاله أحمد ، راجع تهذيب التهذيب (٣/ ٤٣٢) .

وقال الترمذي : حديث حسن : وصدرت بذلك القول الحكم عليه في أسباب نزول القرآن للواحدي صـ٢٠٨ بتحقيقي، ثم تبين لي قول أحمد -رحمه الله - .

وعنْد ذَلك يكون غَنيًا ، وأمره أنْ لاَ يَعْمى قَلبه عنْ مَواهب اللَّه ، وعَطَايَاه ؛ فَيقل عنْده ، فَيكون فَقيراً مُفْلسًا حِين لمْ ينْتَفع بِكَثْرة مَا أُعْطِي منَ النعم والمَواهب .

ومن هَذا المَعْنى قَوله لبعَض أنْبيائه : « إذَا عَرفت أنَّ ذَلك منَي فَقَد شَكرتَني » والمَعرفة هي رُؤية القَلب أنَّ النِّعم كُلها منْ الربِّ فَعَلى هَذا لاَبد للشاكر منْ النَّظر في المَخْلُوقَات ، والفكرة فيها فَإنَّها كُلها نعم مَنّ اللَّه عَلى عبَاده ، ومَا تَنْسَّمَ روَايح الشكر من لَمْ يَخْتَص بجَاد الفكرَ ، ولاَ وَجَد لَذة النعمة من لَمْ يَعْرفها ويَشْكُر عَلَيْها .

فصل

١/١٩٠ اعلمْ أنّ الشكر على ثلاثة أقسام/ كسائر المَقَامات ، قسْم في مقَام الإسْلام ، وعَالم الحسّ ، والشهادة ، وقسْم في مَقَام الإيمان وعَالم الغَيْب ، وقسْم في مقَام الإحسَان ، وعَالم الرُّوح .

فأمَّا القسْم الأول : الظاهر فَأول مَا يجب عليْك أنْ تَعرف معنى النعمة مَا هُو ؟ ثُم تَشكر عليْها ، فَيكون الشكر جَزاء لبَعض حقها ، وإنْ كَان في لَفْظ الجَزاء تجوزعنها ؛ فإنَّه بالحَقيقة مَعنى الشكر نَفْسَه ، ومنْه شكر اللَّه تَعالى لعَباده فَإنَّه الشَّكُور ؛ أيْ المُجَازي لهم عَلى شُكْرهم بالمَزيدَ ، وعَلى عبَادتهم بالثواب ، ويُثْنى عليْهم لذلك ليس لَه مَعنى سوَى ذَلك ، وقَد وَرد في الحديَث ذَلك أيْضا حين قَالَ المهاجرون لرسُول اللَّه ﷺ : « مَا رَأيْنا مثل قَوم نَزلنا بيْن أَظْهرهم حِينَ أَنْزلُوهم في ديَارهم ، وقَاسَمُوهم أمْوَالهم فَقَالوا : لقَد خَشينا أنْ يَذْهبوا بأُجورنا ، أو كَما قَالوا يُريدون الأنْصار ، فَقال عليْه السلام :« لاَ مَا أَبَيْتم وقُلتم خَيرًا » (١) فأخبر أنَّ الثَّناء ، وقَول الخَير عَلى وَاهب النعمة

(١) لم أقف عليه .

مكافآت النِّعمة ، غير أنَّ ذلك في حق العبد مع بارئه مَجاز ؛ لأنَّ الكل منه ، فعلى هذا يتكوّن عبادة الجسد شكر اللّه ، وهو شكر الجوارح ، ومنه قوله عليه السَّلام : « أفلا أكون عبدًا شكورًا »(١) حين كُلّم في الاجتهاد ، وفي كثرة العبادة ، فيكون قيام القدمين في طاعة الله . إظهارًا منها لنعم الله عليها ، ١٩٠/ب وبسط اليد / وقبضه في الطّاعات إظهارًا منها لنعم اللّه عليها ، وذكر اللسان ، وإصغاء السمع ، وتحريك البدن كُله ، وسكونه في الطّاعة إظهارًا منها لنعم الله عليها ، وثناء بنعمته عليه لسان حال ومقال .

وتعدد العقل النّعم فيغرق في بحر الإحصاء ، فتعجز الجوارح ، والقلب عن القيام ببعض واجب حق اللّه ، فيكون عجزها ذلك شكرًا له حين عجز ، فرد الإحصاء إلى المحصي الحسيب ، ورأى ذلك كُله منه ، وإليه مُجملاً ، وتفصيلاً ، وإلى العجز ، والحيرة في كثرة تعداد النعم ينتهى عقول العقلاء في مقام الشكر ، وقد قاله المصطفى : « **لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك** »(٢) .

فأمّا معنى النعمة فإنّها مأخوذه من النَّعيم ، والنَّعيم هو اللذة ، والموافقة ، والملائمة للطبع ، والانتفاع ، وضدّه المكروه والضّار ، والمؤلم للتطبع ، وكُلما تنعّم العبد به ، أو التذّ واستراح ، وكفاه مؤونة التعب ، وانتفع به عاجلاً وآجلاً ، فهو نعمة ، فتنقسم الأشياء كُلها إلى قسمين : نافع وضار ، وملذوذ ، ومكروه ، ومنعم ومعذب ، فكلما وافقه من الضدين فهو عليه نعمة سابغة(٣) وكلما لم توافقه من الضدين ، ودفع عنه ، ولم ينزل

(١) صحيح : متفق عليه ، من حديث عائشة -رضي الله عنها- .

(٢) صحيح : أخرجه النسائي (١/ ١٠٢ ، ١٠٣) ، وأبو داود في استفتاح الصلاة ب(٣٧)، والترمذي (٣٤٩٣) ، وأحمد (٦/ ٥٨)، والبيهقي (٢/ ١٦)، كلهم من حديث أبي هريرة عن عائشة -رضي الله عنها - .

(٣) سابغة : تامة وكاملة .

به فَهو عليْه أيضًا نعمة سَابغة من حَيث دَفع عنْه مَا يُؤلمه ، ويَضره ، ويَجب عَليْه الشكر عَلى النَعمتيْن ؛ نعَم الدفع والنَّفع ، وكَذلك مَالم تَنْزل به / مما ١٩١/أ يُوافقه ويَلتذ به فَصَرفه عنْه نعَمة سَابغة عليْه منْ حَيث كَفى مَؤُونة القيام بشُكره ، وحَقه ، وكذَلك أيْضا مَا نَزل به منْ مُؤلم ، وضَار لَه فيه نعَمة سَابغة عليْه منْ حَيْث إنَّه كَفارة له ، ومَن حَيْث إنْ لمْ يكُن ذَلكَ البَلاء ، والمُؤلم أكْبر مما هُو ، هَذا مَا لمْ يكُن النَّافع ، والمُوافق ، والضار ، والمُؤلم عصْيانا فإنْ كَان عصْيانًا ، وَجبت التَّوبة منه ، ولمْ يَجب عليْه الشكر ، فإنَّ الشكر في مَوضع الاسْتغْفار ذَنب إلاَّ أنْ يَنظر العَبد فيما صُرف عنْه من الكفر والعصْيَان ؛ فَيكون ذَلكَ نعمة لشكَر اللَّه عَلى مَا صَرَف عنْه من ذَلكَ .

وكَذلك يَنْظر في جَميع الأضداد ، فَيَشكر اللَّه عَلى كُل حَسَن ، ومُوافق نزل في نَفْسه ، وجسَده ، ويَشكر عَلى مَا صرف عنْه من ضد ذَلكً ، ثمَّ بَعد يَنْظر في العَالم الأكْبر الكُلي بَعد نظره في الجُزئي فَيرىَ الأفعَال كُلها نعمًا سَابغة عَمت الخلائق ولكن أكثرهم لاَ يشَكرون فأول ما ينظر الإنسان فَي أقرب الأشياء إليْه ، وهُو نَفسه ، فَيرى كَيف صُوّر مْن نطفة في أحسن تَقْويم ، فَسوى خلقته ، وركَّب أعْضَاءه في أجْمل تَركيب ، وأَحسَن صُورة ، فَيَشكر اللَّه أنّ أحسن صُورته ، وركَّبَه سَالم الأعضَاء ، ولمْ يَجْعله عَلى خلاف ذَلك ؛ فإنَّ الإنسان من قمته إلى قَدمه للَّه ، عليه في كُل عضو ، وَعرْق وشَعر ، و بَشَر نعمٌ لاَ تُحصى ، ممَّاَ جَعل فيه ، أودَفع عنْه ، فَليَنْظر الإنْسَان إلى جلدة رَأسَه ، كَيْف جَعل عَلى دماغَه ، ويافوخه [١] وقَاية لدماغه[٢] ، ورَأسهَ ، وجَعل عليْها الشعر ، وفَي أحسن الصُور ، وقاية عَلى

(١) اليافوخ : اليافوخ الأمامي : ملتقى عظام مقدم الرأس ،

اليافوخ الخلفي : ملتقي عظام مؤخر الرأس ويكون ليتنافى في الصبي يغطيه غشاء رقيق .

(٢) الدماغ : حشو الرأس من أعصاب ونحوها وفيه المخ والمخيخ والنخاع المستطيل . وجمعها أدْمغَة .

وقاية وجمالاً على جمال ، وينْظر مَا صَرف عنْها من الآفات المُؤْلمة ، والأمْرَاض المسقمة (١) له : كَالجَرب والقُراع (٢) ، وكَثرة القمل ، ودَاء الثعلب ، وتكسّر الشعر ، وغير ذَلك منْ البَلايا النازلة بجلدة الرأس ، كيْف دُفعت عنْه ؟ و ألقى مكَانها ضدها منْ الحَسن و الموُافق النَّافع ، وهُو لاَ يَشعر بذلك .

ثمَّ انْظر إلى الدماغ كَيْف رَكب في اليَافوخ سَالماً منْ الآفات ، وجَعل لَك فيه الحسن و التَمييز ، والحفظ ، و الإمْسَاك ، و التَّخييل ، والفكر ، وغيرَ ذَلكَ منْ المَنَافع المُلذة ، و المَوُافقَة .

وانْظر مَا صَرفه عنْه من البَلايا مثل الوَرم ، و الصداع ، و الزكام ، وفَسَاد الذهْن ، و الخَيال ، وعَدم الحفظَ ، وغَير ذَلك مماَ يَطول تَعدده ، ثُم اهْبط نَاظراً في نّعم اللَّه عليْك ؛ فيَ الْعينَين ، وجَمَال صُورتهما في كَهْفيْهماَ ، لَهماَ منَ الأفات دَاء الإعْرَاض ، و إلى غَشاوَتهما التي هى الجلدة والأسفار السَاترةَ عْن الأبْصَار إذا لَم تَرد الإبْصَار ، والدَّافعة عنّهماَ الآفَاتَ ، و الغُبار ، ثمَّ إلى مَا جَعل فيهما من الحسن و الإبْصَار مماَ قَرب و بَعد من الانْظار/ ثم إلَى مَا صُرف عَنْهُما منَ العَمَى ، والعَور ، و الحَول ، و العَقى ، ١٩٢/أ
و الرَّمد و الكُمْنَة (٣) ، و الجَرب ، و البياض (٤) ، والطفرة ، ونَبْت الشَعَر ، والعرَّة ، الشَّرة (٥) ، والوجع ، والعَشا ، ودَاء البَثر (٦) ، والدمع ، والقُمل ،

(١) المسقمة : التي تطول مدة الإصابة بها .

(٢) القُراع : مرض جلدي معد يصحبه ظهور قُشور فوق منابت الشعر فيسقط .

(٣) الكُمْنَة : ظلمة في البصر بسبب مرض العصب البصري أو الشبكية أو المخ دون تغيير ظاهر في شكل العين .

(٤) البياض : بيضت العين : فقدت الإبصار .

(٥) الشَّرَّة : الحدَّة .

(٦) البثر : جمع بثرة . وهي نفخات صغار بها صديد تظهر بالجلد .

والحُمْرة (١) ، والشُعَيْرَةُ (٢) ، والشعر الزائد ، والصَداع ، وغير ذَلك ممَّا يكثر سَوْقه للَّه عليْك ، في جَميع ذَلك للَّه نَعم سَابغة ، لمْ يَشعر بها .

ثمَّ اهْبط نَاظرًا إلى الأذُنين ، وحُسْن تَركيبهما في اعْوجَاج (٣) صَمَاخيهما ليَدور الصوت فيهما فيُدرك العَبد المَسْموعَات التي يَنَال بها مَنَافعه ، وانْظر كَيْف خُلقَتَا لَكَ سَالمتين ، وركَّب فيهما السَّمع ، ودَفع عنهما الصمَم ، وجُعلتا صَامتَين ، ودَفع عنْهما الدَّوَي (٤) ، وجُعلَتا نَافذَتين مَفْتُوحَتان ، ودَفَع عَنْهمَا السدد ، وهُو أكْبر البَلاَيا (٥) ، وصَحيحَتَيْن ودفع عنهما الوَرَم ، وسَيلان الدَم ، والقَيح ، وجُعلَتاخَاوِيَتَيْن لمْ يُعمرهَا الدُّود ، وسَاكنَتَيْن لمْ يحللهما الوَجع والصُداع ، وهكَذا جُعلت نعمة ، ودَفع نعمة .

ثمَّ اهْبط إلى الفَم واللسَان ، ومَاجَعل اللَّه فيهما منْ النعم الحسان مثل النُطق ، والصَّمت ، والذَوق ، وجَمال الصُورَة ، والماء الحُلو العَذب ، والحض ، والعَض بالأسنَان ، والمَضْغ ، والطحن بالمَطَاحين ، ثَمْ سَلامَتُهما من البُكم ونُقْصَان الكَلام ، والحفر ، والأكلة ، ووَرم اللسَان ، ووَجع الإنسان وتحريكهما ، وسقوطهما ، والخُشُونه والنَّتَنْ والنَّجر (٦) وغير ذلك منْ المَرارة ، وسَيلان الدَّم ، ومَا يكثر تعْدَادُه من نعيم النَّفع/ والدَّفع . ١٩٢/ب

ثمَ انْظر فَوق ذَلك إلى أنْفك ، ومنخريك ، وجَمال وجَهك بهما ، كَيْف كانت صُورتك تَظهر لَو عُدمتَهما ، وكيف جُعْلَتا نَافذتين تَجري الأنْفاس فيهما ، التي بها حياتك ، وقَناتين لسَيلان فَضَلات الدماغ الضَّارة

(١) الحُمرة : مرض جلدي معدٍ يَحْمَر فيه موضع الإصابة .

(٢) الشُعيرة : تصغير شعرة وهي : انقلاب شعري من الهدب نحو المقلة يؤذي القرنية .

(٣) اعوجاج : انحراف عن القصد .

(٤) الدَويّ : دوي الأذن : طنينها .

(٥) البلايا : جمع بلية وهي : المحنة تنزل به .

(٦) النجر : النحت والتآكل .

بك ، لَو لمْ تَسيل علْيهما فَترمي تلك الفَضَلات عَلى تلك القَنوات ، ثمّ مَا جَعَل فيهما منْ حَاسة الشم المُدركَة للرْوائح النَّافعة ، والضَّارة ، فَتَسْتجلب مَا ينْفعك ، وتَدفع مَا يَضُرك .

ثمَّ انظر إلى صحْتهما ، وسَلاَمَتهما من الجَدْع [١] ، وعَدم الشَّم ، وسَيلان الأنْف ، والوَرَم ، والقُروح ، والنَّتن ، والبَواسير ، والحَرارة ، وكثْرة الرّعَاف [٢] ، وغير ذَلك منْ النِّعم السَابغة ، ثمَّ انْظر إلى وَجْهك وإلى حُسن تَركيبه ، وجَمال صورته ، كَيْف جُعلت فيه جُملة الحَواس البَاصرَة ، والسامعة ، والنَاطقة ، والذَائقة ، والشَّامة ، وانْظر كَيف خُلق سَويًا مُستويًا ، ورَقيق البَشرة ، فيه جَمال البَيْاض ، والحُمرة ، والرَوْنق [٣] الحَسن التَام ، وكيْف دَفع عنْه الأَوجاع ، والتَقَيح ، والخُشونة ، والبُروشة [٤] ، والكَلَف [٥] والقروح ، واللقوة [٦] ، وابْتَيار [٧] الشَّعْر من الحَاجبين ، واللحية ، وَداء الثَعلب ، وَغير ذَلك .

ثمَّ انْظر إلى الحَلق ، وكَيْف جَعله اللَّه نَافذًا إلى الدَاخل والخَارج ، ومَا جَعل فيه منْ مَنَافع إدْخال النَّفس لتَبريد حرارةَ الجَوف فَيُدخلَه بَاردًا ، ويُخْرجَه حَارًا ، ومَنَافع إدْخاله وإخراجُه التي لَو مَنْعت إدْخاله/ ١/١٩٣
وإخْراجه [٨] ، لطَفيت منْ سَاعتك ، تُدخله بغَير تَعب ، وتُخرجه كَذلك بغَير

(١) الجدع : قطع الأنف ، والمراد به هنا سلامتها من العيوب .
(٢) الرعاف : خروج الدم من الأنف .
(٣) الرونق : الحسن والصفاء .
(٤) البروشة : اختلاف اللون .
(٥) الكَلَف : نمش يعلو الوجه كالسمسم .
(٦) اللقوة : داء يعرض للوجه يُعوج منه الشّدق .
(٧) ابتيار الشعر : قطعه مستأصلاً .
(٨) تكررت جملة [التي لو منعت إدخاله وإخراجه] في الأصل .

تَعب آلافًا منْ الأنفاس في نَومك ، وليْلَتك ، ومنْ مَنَافع إدْخال الطَعام ، والشَراب عليْه ، القَائمينَ ببنْيَتك .

وانْظر إلى سعته ، ونعْمة اللَّه عليْك بذَلك لَو كَان ضَيقًا ، لمْ يَمر عليْه الطعام والشَرابَ ، والأنْفَاس ، ثمَّ انْظرَ إلى مَا دَفع عنْه منْ ضيق النَّفس والذَبحة [١] ، والبُحْة ، والجَبسة [٢] ، والخُشونة ، والخَنَازين [٣] ، والورَم وذَلك منْ آفات الخَلق ، وكَيْف يكْون حَالُك لو ابْتليت بها فَاعْدد نعم اللَّه علْيك فيمَا نَفع ، ودَفع ، ثم اهْبط نَاظر إلى الصدر ، وانْظَر حُسن خلْقَته ومَا خُلقَ لَه الصَدر ؛ فإنَّه تَنُّور [٤] البَدن ، وكير البدن ، وفيه منْسَك الأنْفَاس المُحركة للحرارة المُوقدة لنَار التَنُّور [٥] ، والصدر أيْضا حجابً على الصَدر ، والرئة ، والأعْضاء الرَئيسة ، فَهو عَليْها ستر ، وكَن [٦] منْ الآفات ، الحَارة، وانْظر إلى حُسنَ تَركيبه وجَمال سعتَه ، ومَا صُرف عنْه مَن أمراض الأوجاع، وذَاتَ الجَنْب ، والسُعال ، وضَيق النَّفس ، واليَبَسُ الكَائن من الحر ، ونَفث [٧] الدم ، وغَير ذَلك منْ آفاتَه المُهْلكة ، والمؤْلمة ، ثمَ انْظر إلى البَطن ، ومَا حوَى ، ومَا أسكْن فيه منَ الأعْضَاء الرَئيسة المدُبرة لطَلائع البدَن؛ لأنَّ بالأعضاء الرئيسة قَيام الأبدان ، ومنها تَدبر البنْية بإدْخَال الغذاء، وإمْسَاكه ، وطَحنهَ ، ونَضْجه وتَصْفيته ، وتَفْريقه في العُروق كُلها؛ ليَأخذ كُل عضو / قوامَه ، وكُل شَعَرة في البَدن غذاءَها ، وإخْراج التفل ، ١٩٣/ب

(١) الذبحة : وهي الذبحة الصدرية ألم وضيق بالصدر مع الإحساس بالاختناق والإشراف على الموت .

(٢) البحة : غلظ الصوت وخُشونه من داء ، أو كثرة صياح .

(٣) الجَبْسَة : العظم الكسير .

(٤) الخنازين : خَنزَ اللحم : أي أنتن ، ويحتمل أن يكون مراد المؤلف « الخنازير » وهو تضخم الغدد .

(٥) التنور : الذي يُخبز فيه .

(٦) كنَّ : كن الشيء ستره وصانه .

(٧) نفث : هو ما يخرجه المصدور من فيه .

والبَول ، وفَضَلات المَني ، فَجُعلت المَعدة لعمل مَخْصُوص ، والرئة لشَيء آخر ، والقَلب لشيء آخر ، والمَرار (١) لشَيَء آخَر ، والطُحال لشيء آخر ، والكلْيَتَان لشيء آخَر .

كالرئة مَثلاً جُعلت للقُوة الجاذبة للإبار ، وإدّخال النفس مَع كُل طَرفة ، ثمَّ القُوة الدافعة لإخْراجه للأَصْوَات التي يكون عنْها الكَلام ، ولَولا هَاتَان القوتان لهَلَكْتَ بتَرك التنَفس وإخْرَاجه وخَرست عنْ الكَلام .

وانْظر إلى حَال منْ ابْتَلى اللَّه رئَتَيْه بآفات السُلّ ، والقُروح ، والزكام ، والسَعلة أو النَتَن ، أو نَفث الدَّم منْ قُروح الرئة ، كَيف يكُون حاله ، وكلاَمه ، وأنْفاسه ، فكَيف لَو ذَهبت هَاتان القُوتان أو إحْدَاهما بالكلية ، لَهَلكت .

وكَذلك انْظر إلى القَلب ، فَإنَّه رئيس عظيم جَعل اللَّه عزَّ وجَل منه قُوة نَبْض العُروق البَدنيَة كُلها ، فَمنه قُوى نَبضها ، ومنه يَأْخذها ، وجَعَل منْه انْبساط رَوح الحَياة في البَدن ، وانْتشار الحرَارة في كُل طَرفة ، ونَفَس ، وأَنْت لاَ تَشعر بمَا للَّه عَلَيْك في تلك القُوى مَع كُل طَرفة ، ونَفس حتَى لَو اجْتَلت تلك القُوَة لَهَلكتَ ، ثَمْ إنَّ اللَّه سَكّنَه ، وعَافَاه منْ الخَفَقان (٢) وآمَّنه من الصُدَاع ، والفرع ، تَنَبَهه منْ العَشى (٣) ، وسَلحه منْ الورَم ، وبَلا انْقطاع وغَير ذَلك منْ أمراضه المُؤلمة ، والمُهلكة .

١/١٩٤ وانْظر كَيف يكُون حَال منْ ابْتَلى في قَلبه بالفَرع/ ، والصُدَاع ، أو الخَفَقان ، أو الوَرم ، والانْقطَاع ، والعَشى ، وأَنت في غَفلة مَّما تخلّلك منْ النِّعم البَاطنة .

(١) المَرار : هي المرارة كيس لاصق بالكبد تختزن به الصفراء التي تساعد على هضم الطعام .

(٢) الخفقان : حفق القلب زيادة عارضة في سرعة نبضات القلب لانفعال أو إجهاد أو مرض .

(٣) العشى : العمي .

ثم انْظر أيْضًا في الكَبد ، ورئَاستَه كَيف جَعل اللّه فيه القُوة المُعدلة ، والقُوة المُنْضجة للغذاء ، والمُعدلَّة للبَدن ، فَهو يُنْضج الدّم ، ويُعدله ، ويُحسنه ، ويُصفيه ، ويُغذي به البدَن بإذْن اللّه سُبحانه ، ومَا جَعل فيه من تَدبر القُوى ، فَلو اخْتَل شَيء منْ ذَلك عَليْك لَهَلكتَ ، ثمَّ أنْعَم عليْك بتَسْمينه ، وعَافَاك منْ أضْعَافه ، ومنْ الأورام ، والقُروح ، والأوجَاع ، وغَير ذَلك منْ أمْراضه ، وآفَاته التي يَطول الكَلام بذكرها ، كُل ذَلك نعم سَابغة لاَ يُقدر قَدْرُها .

وانْظر أيْضا إلى المَرار فإنّه أيْضًا رئيس عظيم ، وفيه منَ النِّعم والمَنافع مَالاَيحْصى ؛ فَمنه قُوة تُخشن المَعدة ، وقُوة تُصفى دَم الكَبد منْ الكيموس[1] ، ويُلطفَ العُروق ، وفيه قُوة تَحريك الخَلاء ، والبَول . وهذه نعم جسَام منْ عند ذي الجَلال والإكْرام .

وانْظر إلى مَا دَفع عنْها من المَضار ، والآفَات ، فإنّ آفَاتها الصَفراء ، والسوداء ، واليَرْقان[2] وغَير ذَلك .

وانْظر إلى الطُحال ، فإنَّ فيه قُوة تبرد القلب كي لا تُفسد المعدة الطعام بقوة الحرارة ، ومنه وفيه هي قوة المعدة المَاسكة التي لَولاَها لَهلك الإنْسان ، وفيه قُوة تَجذب دُرْدي[3] الدَّم منْ الكَبد إلى نَفسه فَيصيّره مَرة سَوداء بها قُوام البنْية ، واصْلاَح الجُثْة ، ولَه علل كثَيرة دَفعها اللّه عنك مثل انْتفاخ بالطحالَ ، وصَلابته ، وأوْجاعه وغَير ذَلك / ممَّا سَلَمك اللّه منهاَ ، وأنْت لا تَشعر . /١٩ب

ثمَّ انْظر أيْضًا إلى المَعدة فإنَّها مَسكن للطَّعام ، وفيهما مَسكن الشهوة

(١) الكيموس : الخلاصة الغذائية ، وهي مادة لبنة بيضاء صالحة للامتصاص.

(٢) اليرقان : مرض يمنع الصفراء من بلوغ المعي بسهولة .

(٣) دُرْدي : ماينقي منه .

التي بها يَأخذ الطَّعام والشراب ، ولَو عَدَمَتْها هلكت ، وفيها قُوة تُنْضج الطَّعَام ، وقُوة تُزْلقه ، ونَعم لاَ تحصى . وانْظر سَلامتها منْ الآفات المُضرّة لَها ؛ كفَسادها بالقيء [١] ، الذي لَو دَام عليْك لهَلَكَت ، وكَنَفْث الدم ، وَداء العَطش الكَثير ، وعَدم العَطش المُعتدل ، أو الشَهوة الكلبية التي لاَ يُشبع صَاحبها شَيء ، وانْقَطاعها بالكُلية ، أوداء العَواق والجُشَاء [٢] ، والتُخَم [٣] وسُوء الهَضم ، وعلّة الجنْس ، وتفث الدَّم ، وَغير ذَلك منْ العلل التي لَو بُليتَ بها ، ولاَزَمْتها هَلكتَ .

وكذلك انْظر إلى الأمَعاء فإنَّها جُعلت مَسْلكًا للغذاء والرياح ، وكيْف عَافَاك اللَّه فيهاَ منْ السَجَح [٤] والقَولنج [٥] والرِياح ، وَهَوام الديدان ، وحَبْس التَفل عْن إَخْراجه ، وغَير ذَلك .

ثمَّ انْظر إلى الكلَيتين والمَثانة ، ومَا فيهما منْ المَنافع ؛ فإنَّ فيهما قُوة تَجذب فَضلَة الدَّم منْ الكَبد ، وتُمصّله [٦] ، وقُوة تَصيِّره بَولاً وتُخرجه منْ المَثانة ، وقُوة تَدفع المَني ، وقُوة تَسوقه إلى الأنْثيَيْن والذكر .

وانْظر إلى مَا دَفع عنْها منْ المَضار العَظيمة مثل الخصى ، والسجح ، والقُروح ، وَبَول الدَّم ، والأَوجاع ، وحُرقة البَول ، وسَلس البَول ، وتَقْطُره ، ووَجع السرة ، أو حَبْس البَول ممَّا لَو ابتليت بِواحدة منها لعَطبت وذَهبت .

---

(١) القيء : هو ما تقذفه المعدة من الفم .

(٢) الجُشاء : الصوت يخرج من الفم عند امتلاء المعدة .

(٣) التخم : جمع تخمة وهو : داء يصيب الإنسان عند امتلاء المعدة بالطعام .

(٤) السجح : اللين والسهولة .

(٥) القولنج : مرض معوي مؤلم يصعب منه خروج البراز والريح وسببه التهاب القولون .

(٦) تمصله : يكسبه مناعة تقيه الأمراض .

ثم انْظر إلى الذكر ، والأنْثَيين ، فإنَّهما مُخْرجان للبَول ، والمني ، وبهما صَلاح البيئة ، وإقَامة / النَسْل الذي هُو حَياة الإنْسان بعَد مَوته ، ١٩٥/أ وَانْظر كَيف اجْتمَعت فيه العُروق ، ومَا في ذَلك منْ الحكمة ، والنِّعمة .

وانْظر إلى آفاته ، ومَا دَفع عنْك منها مثل الأدَحرة ، والفَتق ، والوَرم ، ودَاء الاسْترخاء ، وضَعف الشَهوة ، وانْقطاعها بالكلية ، وهي العُنَّة [1] ، أو كَره الشَّهَوُه الخَارجة عنْ الحَد ، والوَجعَ ، والقَروح ، والحكة ، والجرَب ، وكَثرة الاحتْلام ، والفقَد .

ثم انْظر إلى المُخرج ، ومَافيه منْ مَنَفعه إخْراج التفل الذي لولاه لَهَلكْت ، ومَا عَافَاك منه من دَفع المَضار عنْه مثل الوجَع ، والبَاليل ، والبَواسير ، وإخْراج السُّرَم ، وأعظْم من ذَلك كُله الداء الخَفي فإنَّه ابْتلاء منْ اللّه عزَّ وجَلَّ .

ثم انْظر إلى الوركين فإنَّهما فيهما يَلتقى عظْمَتا الظهر ، والفَخذين اللذَين بها يَتمكن الإنْسان مَنْ القيَام والقُعود واللذين لوحُرِمْتَهُما كُنت كَالحَجر والخَشب .

وانْظر إلى عَوافي اللّه فيهما منْ آفات عرق النسَاء ، وزَوال عظَمة الورك عْن مَوضعه ، والأوْجَاع ، وغَير ذلكَ ، ممَّا صَرف اللّه عنْك منْ بلائهما .

ثم انْظر أيْضًا إلى الفَخذين والساقَين ، والرجلين ؛ فإنَهما دَعائم البَدن ، وعليْهما قَوامه ، وبهما المَشي ، والحَركة ، اللذان لَولاهما لهَلكتَ ، وَما يستَجلب بِهما منْ المَنافعَ ، إلى نَفسك وأهْلك .

وانْظر عَوافي اللّه فيهما منْ الكَسرِ ، والفَكِ ، والرِياح المُؤلمة ،

(١) العُنَّة : عجز يصيب الرجل فلا يقدر على الجماع .

١٩٥/ب والفالج[١] / والخَدر[٢] ، والنَّقَاريس[٣] ، وغَير ذَلك منْ البَلايا التي صَرف اللَّه عنهما .

وكَذلك انْظر إلى يَديك اللذَين جَعَلَهما اللَّه سُبحانه للإنْسَان لخدمة الجَسد لاَ قَوم لَه إلاَّ بهما ، فَبهمَا تَحُك الجسَد كُله ، وتغْسله ، وتكْسُوه وتُجرّده ، وتُطْعمه ، وتُرجّله ، وتُكَحّلُه ، وهُما المُتصرَّفتَان في خدمة البَدن في النَّوم ، واليَقظة ، وفي كَسْب المَعاش منْ خياطة ، أو أيَّ صناعَة كَانت ، أَو أخَذ أو إعْطاء ، كُل ذَلك منافع لاَ تُحصى ، وتَعود رَاحتها ، ومَنْفعَتهما عَلى جسْمك كُله .

ثمَّ انْظر إلى عَوافي اللَّه أيْضًا فيهما ، صَرف عنْهما من القَطع ، والشَلّ ، واليُبْس ، والكسر والأوْجَاع وغَير ذَلك .

ثم انْظر إلى كُل عظم في جَسدك وكيْف ارتَبَط كُل وَاحد بصَاحبه ، واسْتَعان كُل وَاحد مع صَاحبه عَلى قَوام بنَيتك ، وكَذلك ربَاطات العظام بالعَضلات فَيهما تَنْسبط العظام ، وتَنْقَبض .

وانَظر عَوافي اللَّه تعالى في كُل عظَمة منْها ، وعَضَل منْ الكسر ، والأوَجاع ، والفَك ، وغير ذَلكَ منْ المَنافع الكَثيرة .

ثم انظر إلى اللحْم في الجلد كَالشيء في الوعاء المَحفُوظ ، وكيف جَعل اللَّه في ذَلك الجَمالَ والحُسن ، واللينَ ، والرُطُوبة ، وغير ذَلك منْ المَنافع الكَثيرَة ، وكَيْف عُوفي منْ السَلّ[٤] والذبول[٥] ، والحبوب الكَريهة

(١) الفالج : الذي تباعد ما بيْن ساقيه خلْقة (شلل يلحق نصف الإنسان طولاً) .

(٢) الخَدرْ : عراه فتورة واسترخاء .

(٣) النفاريس : مرض مؤلم يحدث في مفاصل وهو ما يسمى بداء الملوك .

(٤) السَّل : الإصابة بالسُّل .

(٥) الذبول : ذَبَلَ أي ذهبت تداوته وطراوته .

منْ الدمَاميل ، والحكَاك ، والجَرب القبيح ، والقوباء [١] ، والكَلف [٢] ، والحَشوة [٣] والرس / والبَرص ، والجُدري ، والحَصْبَة ، والبهاق [٤] الأسود ١/١٩٦ والأبْيض ، والجُذَام ، والمسامية ، والثَّاليل [٥] ، والبَواسير [٦] ، وأنْواع الحميات المهزلة ، وغَير ذَلكَ منْ البلايا التي لو ظَهرت عليْك ، وعمَّت الجسَد قْذَّرتَ نَفسك وقَذرك غيْرك ، وتَألمتَ على قَدر مَا يكون البَلاء فإن ابتلاك اللَّه ببَعض هَذه البَلايا في جَسَدك فَلا تَنْس مَا صَرف اللَّه عنْك من جملتها فقَدَ صَرف عنْك أنْواعًا فِي جَميع جسَدك لَو سَجدت لَه عَلى الجَمر ما أديتَ شُكره عَلى ذَلك .

فصل

وأمَا المقَام الثَاني منْ الشكر في عَالم الغيْب ومقَام الإيمَان . فأمّا أول مَا يَنظر لهَا العَبد في خلقة ذَاتك البَاطنة ، والتي بها حَياتك وانْتظام جَميع حَواسك ، وأعَضائَكَ ، ولَولا نفخة الرُّوح فيك لكَانت بنْيتكَ الطاهرة سَرابًا وجَواهرهَ مُتنزه ، كما كنْت قَبل نَفخة الحَياة فيك ، وكَما تكُون إذا قُبضَتْ عنْك بالُوفاة ؛ فَمَنْفَعتها أربَت عَلى كُل منفعةَ ، وهي أصل المَنافع ، وصَرف عنْها مَنْ المضَار مْثل الصَّفات المحْمودة ، والمذْمومَة التي بها سَعادة للدُنيا ، وللآخرة ؛ فإنّ ذلك غَريزة العَقل الذي لَولاه لكُنت بمَنزلة الحَجر ، والأنْعام السائبة [٧] التِي تَحمل وتُساق ، وتُركَب وتُمتَهن ، ويُتحكم فيها ،

(١) القوباء : القوبة : داء في الجسد يقشعر منه الجلد ويتجرد منه الشعر .

(٢) الكلف : نمش يعلو الوجه كالسمسم .

(٣) الحشوة : جميع ما في البطن .

(٤) البهاق : داء يذهب بلون الجلد فتظهر فيه بقع بيض .

(٥) الثاليل : الأعناق .

(٦) مرض معروف يصيب الجنسيين .

(٧) السائبة : التي كان تسيب في الجاهلية لتذر أو نحو .

١٩٦/ب فَشَرَّفَكَ اللَّه بالعَقل المُميز ، فَشَرعته عَلى/ غَيْرك منْ المَخْلُوقات وحكمتها به ، وفَضَّلك به تَفْضيلاً به تَدبر وتَفكر ، وتَسْتَجلب كُل مَنْفَعة ، وتَدفع كُل مَضَرّة ، فَلو تَفرّغت تَشكر أنْت ، وغَير يشكر معَك عنْك أبد الآبدين مَا أَدَّيت شكر ذَلك أبدًا .

وانْظر مَا صَرف اللَّه عنْك منْ ضده الذي هُو الحُمق (١) ، وكَيْف كَان يكُون حَالك ، وتَألمَ ظَاهرك وبَاطنكَ ، وضَحك الخَلق منك ، وفَزَعك ، وأَفكَارك ، وتَصرْفك ، وكَلامك ، ونَومك ، ويقَظَتك وغَير ذَلك ممَّا عُوفي عنْه بَاطنك .

ثمَّ انْظر إلى مَا تكتَسب به منْ المَنافع الأُخروية ، وتَدفع به المَضَار الأُخْروية ، التي أمركَ اللَّه بكَسْبهَا ، وأَعانك بتَوْفيقه عليْها ، وعلَى التَّداوي منْ عللها ، فيه تكتَسب الإيمَان ، وتَدفع الشرْكَ والكُفران ، والعلم ، وتَدفع الجهَل ، واليَقين وتَدفع الشك والريب (٢) ، والتواضع والحلم ، وتَدفع الكبر ، والغَضَب ، وغير ذَلك منْ الصِّفات المَحْمُودة والمَذْمُومة التي قَد بُليَت منهَا البَواطن ، وهي جَارية عَلى الخَلق مَع الأنْفاس ، وهَذه النعم والمَضَار البَاطنة في بَاطن العَبد لَو تَتَبعتها لطَال بها الكَلام ، ويَخْرج الكَلام بها إلى أنْ يكْبر جَرُم (٣) الكتَاب جدًا ، وغَرضنا الاخْتصار ، وسَيَرد منْها في بَاب حسن الأخْلاق كَثير ، إنْ شَاء اللَّه ، وإنَّما الغَرَض منْ هَذا البَابَ أنْ تَفطن لمَا
١٩٧/أ عُوفي منْه بَاطنك / من أمراض الشَّك ، والرَيب ، وتَنْعم به منْ السُكون ، والطَّمَأْنينة ، ومَا عُوفي به منْ رُعب الكُفر ، ونَعم به منْ الإيمَان ، ونَعم به منْ جَمال العَقل ، واسْتَبْشاره ، وبَهْجَته ، وعُوفي به منْ أهوَال الحُمَق ،

---

(١) الحمق : قلة العقل .

(٢) الريب : الشك وسوء الظن .

(٣) جرُم : عظُمَ .

والخُرافة ، وتَهوره ، ومَا أنْعم عليْه من سلامة الصَدر للصَّحابة ، والكُبَراء ، والفُضَلاء ، والأوْلياء ، والسَادة منْ الأصْفياء ، والمُسلمين المسْلمات ، ومَا عُوفي به منْ الغل لَهم ، والحَسد ، والوَقَيعة فيهم ، وانْظَر إلى عَظيم اسْتراحة بَاطنك منْ فتْنة الإضْلاَل ، ومَا تَنْعم بهَ منْ رُوح التَّوفيق ؛ فَإنَ بَواطَن الضَلاَل والكُفرَ ، والمَارقين (١) في هَول عظيم منْ وَحَشة الجحد ، ورُعب الكُفر ، والجَهل ، وعَمى القلب ، وهذه كُلها نعم بَاطنة يكْثر تعْدادها ، وفي مُقَابلتها نعم صَرَّفها اللَّه بكَرمه عنْك ، لَو شكَرته عَلى نعْمَة وَاحدة أَبد الآَبَدين مَا قُمتَ بشُكره ، فكَيْفَ تَشْكُرها ؟

ولكن إذَا رَأيت ذَلك كُله منه ، وشَغلت نَفْسك بالثناء عليْه ، وعَرفت قَدر نعمَه عَليْك كُنت شَاكراً ، وإذَا عَقلت ، ولَمْ تَدرِ قَدر مَا عَمل مَعَك سَاءَت حَالك ، وكَما للَّه عليْك في ظَاهرك نعم ، وَعَوافي في جَميع أعْضَائك منْ قَرنك إلى قَدمك ، وصَرَف بَلاَيا كَثيرة لاَ تُحْصَى ، كَذَلك في بَاطنك نعم كَثيرة سَابغة مُنعمة لبَاطنك ، صَرف عنْك في مُقَابلة كُل وَاحَدة منْهَما نعَم لاَ تُحصى ، فَاعْدُدها ، وَاشْكر فإنْ ابْتُليت عَرَض بَاطن ، فَأبطن فَي علاَجه ، واشكر / عَلى مَا صَرف من غيره منْ البَلايا ، فَإنْ ابْتُليت ببَلاء ١٩٧/ب
ظَاهرَ فَاصْبر وعَالجه ، إنْ شئت ، واشَكر على مَا صَرف عنْك منَ غَيرَه ، فَستَرى أنَّ النَّعم قَد غمرَتْكَ وأنْت لاَ تَشْكر ، ولاَ تُحس بها .

فصل

اعلمْ أنَّ المَحَبة أيْضا ظَاهرة ، وبَاطنة ، فأمّا الظاهرة فَقَد تَقدّمت أنْوَاعها ، والبَاطنة مَحبّة النَّفس في مَنعها هوَاها ، وسَوْقها مكْرهة إلى الطَّاعة ، وتَألم القَلب بخَواطر العَدوَ ، وصَرفها ، وهُموم القَلَب ، وأحْزَانه

---

(١) المارقين : النافذين في كل شيء لا يتعوجون فيه وهم : الخارجون من الدين .

عَلى مَا ابْتَلى به منْ التكْليفات ، ومقَاسَات أنْكاد [1] الشَياطين ، والهَوى ، وتَزين الدنيا ، وصبره عَلى إذَاية الخلق ، وانْقطاعه حَسرات عَلى الفَائتَات ، كُل ذَلك آلام بَاطنة لَه فيها أجْر المُجاهد الجهَاد الأكبر ، كَماله في تَألمه على الأمْرَاض ، والآلام الظَاهرة أجر المجاهد الجهاد الأصْغر ، فَهذه الآلاَم الظاهرة ، والبَاطنة إذَا نَظرت إلى مَا يَؤُول الحَال فيها منْ الثواب عَادت نعمًا ، فَمن قَوي فيه هَذا النَّظر صَار البلاء عنْده نعمَة ، وشكر اللَّه عَليْها ، وَسُمي شكورًا -عَلى المُبَالغة- لشكْره في السَّراء وَالضَّراء ؛ فَصَار كُل مَا في بَاطن العَبد ، وظَاهره نعمًا حسَامًا إلاَّ شَيئان فَقط ؛ وهُو العصْيان البَاطن ، والظاهر ، فإنَّه لاَ يَحل الصَّبر عليْه ، ولاَ الشكر ، ولاَ علاجَ له إلاَّ بالتَّوبة ، والاسْتغفار .

فصل

١/١٩٨ وأمّا المقَام الثَّالث/ منْ الشكر في مقَام الإحْسَان فَهُو شكر المُنْعم جَل جَلاله ، وهُو عَلى قسْمَين :

القسم الأول : ما يمدّك به مَعْ كُل نَفس من نعم صفَاته الفعْلية .

والقسْم الثاني : شُكره عَلى النعمة به سبحانه وَمَا هُو عَليْه منْ صفَاته ، ونُعوت جَلاَله ، وكَماله .

فأمّا القسْم الأول : منْ الصفات الفعْلية فإنَّه يَمدّك مَع اللحَظات ، والأنفاس ، والخَطَرات بضَروب أنْواع مَنَ النعم عَلى عَدد المَخْلُوقات أجْمَعها ، لأنَّه القَيّوم بها ، مَع كُل نَفس ، فَإذَا نَظَرت النعمة عليْك في هَذا المَقام فَحينئذ يَنْقَلب إليْك البَصر خَاسئًا وهُو حَسير ؛

فإنَّ هَذه النعم المُتَّصلة بذَلك إنَّما تَأتيك منْ خَارجك ، وليْسَت منْك ،

(١) أنكاد : جمع نكد وهو : عُسر الأمر والضيق منه .

ولاَ هي حَالَّة بك ، فَتدَعها ، بَل تَمُدك العَوالم كُلها بالنعم ظَاهرًا ، وبَاطنا ، ولَيْس تَملك منْهَا من ذَاتك قَطْميرًا (١) ، ولا فَتيلا (٢) ، بَل يَأتيك منْ العَالم الأكْبر إتْيان الأعرَاض في الأنْفاس والسَّاعات ، والأعْوام ، والجمعات ، والشهور ، والسنين ، قَدْ جَرا اللَّه الوُجود كُله ، وقَهرهُ حتَى وَصَل إلَيْك ، كُل مَا في العَالم الأكبر منْ أشخاص العَالم ، وأعْضَائه ، مَا أمر أنْ يوصله من مَنْفَعته إلَيْك .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ (٣) فأول مَا تَنْظر في أفْعاله الظاهرة في الأرض . كَيْف خُلقت لَك ، وَسُطحت يَابسة غَير سَيالة ، فَصَارت بذَلك قَرارًا ليَسْتقر عليْها الخَلق ، وبُساطًا ، كَفاهم مؤونة الوَعَر (٤) ولولا يَبَسها / لخُسف بكُل مَا عَلى ظَهرها ؛ فَيبسها نعمة ١٩٨/ب لاَزمة نَافعه لك مَع كُل طرفة ، وبَسطهَا نعمة مُتصلة أيْضًا ، في كُل نَفس يُسْتَجلب لَك من أجل ذَلك المَنافع عَلى ظَهرها ، وتَتَصرف أنْت بنَفسك أيْضًا فيما يَنْفَعكَ ، وسَاكنة هَامدة .

ولَولا سُكُونها بالجبَال الرَاسيَات مَع كُل نَفس لزلزلت بك ، واضْطربت ، ولَو كَانتَ مُتحركة يَومًا وَاحدًا لأَهْلكت مَا عَلى ظَهرها ؛ فَسُكونها لكَ فيه نعمة نَافعة ، مُنعمة لَك دَائمة بدَوام سُكونها ، وبدَوام يَبَسها ، ودَوام بَسْطَها ومتخلخلة (٥) للحَفر ، والحَرث ، والغَراسة ، ولَو كَانت كَالحَجر هَلكَ كُل ما عَلى ظَهرها .

---

(١) القطمير : القشرة الرقيقة علي النواة كاللفافة لها .

(٢) الفتيل : الخيط الذي في شق النواة .

(٣) سورة الجاثية الآية (١٣) .

(٤) الوَعْر : الغَير مُمَهد .

(٥) متخلخلة : جعلت غير مُتَضامَّة .

ثمَّ انْظر إلى مَا يَخرج منْ بَركَاتها النَّافعة المُنْعمة لَك ، ومما يَنْعقد في جَوفها ، وعلَى ظَهرها من الحجَارة ، ومَا يُصْنع منْها منْ العَوامد والطوب والآجْر [١] المُهيَّأة للبُنْيَان المُكن [٢] منْ الحَر والبرد السَاتر منْ الأعيْن ، الحَافظ منْ السرَق، والأسْوار الحَاجبة للأعْداء ، والقَنَاطر ، والأسْدَاد ، وغير ذَلك منْ منَافعها ، وإلى مَا يَخرج منْ معَادنها ، كَالحديد ذي المَنَافع ، والبَأس الشديد ، ومَا يُصْنع منْه منْ آلات الصَنَائع كلها ، والحرف كَالسكَك للحَرث، والفيسان [٣] والمَساحي [٤] للحَفر والغَرس ، وكَالإبرة ، والحَلقة ، والجلمين [٥] للخياطة ، وغيرها .

والمشْط ، والرادوخ لصَنْعَة الكتَان ، وكَالسكَاكين ، والمَسَامير ، والسُّيوف ، والرِّماح ، والسِّهام ، وآلات السلطان الَذي به صَلاَح هَذا العَالم/ بما فيه منْ البَأس الشَّديد ، والحَديد يَدخل في جَميع الأشْيَاء مَا ١/١٩٩
يُوجد دَار ولاَ موضع يَسْتَغْني عنْه ، وكَذَلك الصفر [٦] لَو لمْ تكن فيه إلاَّ مَنْفَعة المَغْزَل المُتخذ للغزل المَصْنُوع للبَاس ، وسَتر العَورة ، فكَيف بما يَتصرف فيه منْ المَنَافع .

وكَذلك جَميع المَعادن ، ومَا يخرج منها كَالشبَّ [٧] ، والمَلح ، والزرْنيخ [٨]، والزَوق [٩] ، وربُما وصَلت عِدتها - أعني المعَادن - إلى

(١) الآجر : الطوب : وهو اللّبن المُحرَق المعد للبناء (٢) المُسكن : الموُقى .

(٣) الفيسَان : جمع فأس وهو آلة ذات يد ملساء من الخشب وسن عريضة يحفر بها ويعرف .

(٤) المسَاحي : جمع مَسْحَاء وهي : آلة تساوي الأرض .

(٥) الجلمين : مايجز به الصوف . (٦) الصُّفر : النحاس الأصفر .

(٧) الشبُّ : ملح متبلور اسمه الكيميائي كبريتات الألومنيوم ،والبوتاسيوم .

(٨) الزرنيخ : عنصر شبيه بالفلزات له بريق الصلب ولونه ومركباته سامة ويستخدم في الطب وفي قتل الحشرات .

(٩) الزوق : الزئبق .

آلاف، والكُل نعمة ، وفيه منْفعة كَالذهب والفضة الغَاصيان عَلى جَميع الأشياء ، وغَير ذَلك من أنْواع المَعَادن الداخلة فِي الأدَوية ، والمُتَحدة الخَواص ، وحُليْها ، وذكْر خَواصها يَطول .

وانْظر إلى مَا تخرج الأرض ببَركَتها من النَّبات ، ومَا جَعل اللّه فِيه منْ المَتاع لنَا ، ولأنْعَامنا ، فهو عَلى ثَلاثة أنْواع :

نَوع يُغْرس عِراسة فَيَنْبت مِن عِيدان . ونَوع يُزرَع زِراعة ، وبذرًا فينْبت من حُبوبه .

ونَوع يَخْلق منْ غَير بذر ، ولاَ غرس ، وهُو الآب [1] والمَرعى ، وجَميع أشْجار الجِبال والأرض مَا لاَ يُزْرع ، ولا يُغرس .

فَإذَا نَظرت إلى البرى الذي يُنْبت في الجبال ، وغَيرها ، وجَدْتاه يُتَخذ منه آلاتي الحَرث ، والبُنْيان ، وَالأبْواب ، والأعلاَق ، والخَزائن ، والمرمات وَخَشب الإنْشاء ، والأرحى ، والعَصى للرياح ، والنَبل ، والسروج ومَا لاَ يُحصى منْ الآلات النَّافعة لجَميع الخَلق ، ومَالمْ يَصل إلى حَد أنْ يَنجر منه اتْخذ / للحَرق ، وللأفْران ، والدور . ١٩٩/ب

ومنْه الفَحم المنضج للطعام ، والمُذيب للحَديد ، وغَيره عنْد أهل الصنَاعات ، وأمّا ما يَنْبُت بنَفسه للمَرعى فَإنّه عَيْش للحَيوان ، وبه يكُون صَلاحها ، وتَسْمينها ، وقُوتها ، وكُل ذَلك نعمة لابْن آدم ، لا تُحَصى ، ومنه مَا يكون للأدَوية النَّافعة للعَلل ، والأمرَاض ، وهِي أنْواع لا تُحصى يَعَرفها أهل صنَاعَات الطب ، ومَعرفة العُشب .

فأمّا مَا يُؤكل ممَّا يُبذر بَذرًا فَهو أنَواع كَثيرة ؛ كَالقَمح ، والشعير ،

---

(١) الآب : العشب رطبه ويابسه وفي القرآن الكريم ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ .

والسلت[١] والذرة ، والفُول ، والعَدس ، وأنْواع المَأكُولات المُنعمة لبَني آدم .

وأمّا مَا يُغرس فَالزيتون المبارك، والتين والأعْناب ، والجُوز ، والرُمّان، والنخل ، وغَير ذَلك ممَّا لاَ تُحصى مَنْفعته ، ومَنَافع النَّبات ، ونعمه أكْثر منْ أنْ تُحصى .

وانْظر إلى الحَيوان المُسخر كَالإبل ، والبَقر ، والأنْعام ، والمَعز ، والوَحش ، ومَا يَهوى لكَ منْ نعم اللحُوم ، والألبان ، والأسمَان ، والأحْيَان ، والأصواف ، والأشْعَار والجُلود والرِّيش التي لاَ يَسْتغنى أحد عنها في كُل مكان .

ثَمّ انْظر إلى مَنَافعها في الحَرث ، والدراس ، وحَمل الأثْقَال عَلى الإبْل ، وانْظر إلى الخَيل ، والبغال والحَمير ، ومَالَها منَ الزينَة والمَنَافع للحَمل ، والركوب ، والجهاد ، والحَرث والدرس ، والسَّواني[٢] ، ولَولَا ذَلك لهَلك بنو آدم ، وانقَطَعت مَعَايشهم لَو تكَلفوا جَلب السِّلع ، والأثقال منْ بَلد إلى بلد وأن يَحرثوا بَأنْفسهم / ويَدْرسوا ، ومَا تَرَوْ بأن منها في ٢٠٠/أ
القَيافي[٣] سُلّط عليّه بَنو آدم بالصيد والعَقر[٤] فَيَنْتفع بلُحُومها ، وجُلَودها .

ثم انْظر إلى بَني آدم كَيْف سَخر اللَّه جَل جَلاله بعْضهم لبعض ، فَسخر لَك الآبَاء منْ صغرك يُربونك بأحْسن اللّطف حتَى تكبر فَتُخالط النَّاس فَتَجدهم قَد سُخِّرَوا فيما حُبب لَهم منْ الصنَاعات ، والحرف ؛ فَتجد نَجارين ، وخَياطين ، وكَمَارِّين ، وخَرازين ، وحَدادين ، وتُجارًا ، وفَرَّانين ، وفَلاحين ، وغَير ذَلك ممَّا يكْثر تعداده ، والكُل نَافع لَك كَاف

(١) السلت : شَعير ليس له قشر .

(٢) السواني : جمع سَانية وهي الساقية .

(٣) القيافي : جمع فيفاء وهي الصحراء الواسعة .

(٤) العقر : قطع أحد القوائم ليتمكن من الذبح .

مؤونة ذَلك الشغل الذي لو كُلفتَه بنفسك لم تَقدر عليه ، وهَلكت .

ثم انْظر إلى تآلفهم في المُدن ، والقُرى ، ورَحمة اللَّه بذلك ، ولَو ألقى بَيْنهم الفتنة والعَداوة ، والبَغْضاء كَان الهَلاك بالفتنة وضَرّ بَعْضهم لبعض ، ولذَلك جَعل اللَّه السلطان منْ أجل الأُلفة ، وجَعل السجون لأهل الفَسَاد ليَأمَن الخلق ، وتَصلح حَالهم ، فَالأمن أكبْر نعم اللَّه على عباده .

ثم انظر إلى البحار ، وسعتها ، وجريها عَلى وجْه الأرض منْ أجل بُعد المسَافات كَي تَجري فيها الفُلك بنعمة اللَّه فتُوصل المَنافع إلى الأقْطَار البعيدة ؛ فإنْ الحَيوان لاَ يَقدر عَلى تَوصيل ذَلك ، فَتكون جَالسًا في مَوضِعك وتأتيك مَنافع الهِند ، والسِّندُ (١) ، وغَير ذَلك من الأقْطار .

ثم انْظر إلى مَا يَخْرج منْه من الغذاء منْ أنْواع الحُوت الطري ، ومنْ الجَواهر ، والأَصْداف .

وانْظر إلى مُلوحتَه النَّافعة لأهْوية العَالم ؛ فإنَّه للهَواء كَالملح/ للطعام، ٢٠٠/ب يَقْطع عَفُونَاته ، ويَدفع مَضَارها في كُل نَفس ، والهَواء جَارٍ علَيْه ، يَأخذ كُل المُلوحة النَّافعة لَه .

وانْظر إلى الماء العذب ، وحَلاوته للشُّرب وانْتفاع الخَلق به ، وتَنْعمهم بذلك في شُربهم وطَبخ طَعامهم وغَسْل أوضَامهمْ (٢) وطَهورهم وإزالة أَوساخهم في الحَمامات وغَيرهَا وغَسْل ثِيابهم ، وجَري الأنْهار والعُيون

(١) السند : اسم مكان يطلق على الجزء الشمالي الغربي من الهند يتوسطه حوض نهر السِّند ، وأكثره الآن يقع في باكستان الغربية .

(٢) أوضامهم : جمع وضم : وهو مايضع عليه الجزار اللحم من خشب ونحو .

لسَقِي ثمارهم ، وزُروعهم ، وطَحن طَعامهم في الأرحية [١] ، وغَير ذَلك منْ نُزُول الأمطار في مواضع الحَاجة إليْها ، فَتُنْبت به جَميع أنْواع النَّبات المُتقدم ذكرها ، وتَنْعقد به المَعادن أيْضا ، ولَولا المَاء لذَهب هَذا العَالم ، فإنه حَياته .

ثم انْظر إلى النَّار ومَنَافع الخَلق بهـا في الطبخ للغـذاء في الدور ، والأفْران ، والأسْواق ، وفي غَير العذاء ، في الحدادة ، والصباغَة ، وغَيْر ذَلك منْ الاستصْبَاح في البيوت ، والمَساجد ، والطرق ، والأسْواق ، والليْل ، وحَاجَة الخَلق إليها كَحَاجتهم إلى المَاء ، وقَد عَدَّد اللّه النعمة بها كَما عَدَّد بالمَاء ، وقرنها بالمَاء في سُورة الوَاقعة .

ثم انظر إلى أعجب من ذلك كُله ، وهُو هَذا الذي قَد جمع الخَليقة فيه كَالحُوت في المَاء لا يُسْتَغني عنه طَرفة عيْن ؛ فَهو حَياة الحَيوان ، ولَو خَرجَوا عنْه طَرفة عين لَهلكوا كَما يَهلك الغريق في المَاء إذا عُدِم الهَواء ، ولَولا عُدم الهَواء مَا هلك .

وانظر إلى رُطوبته ، وحُسن طَعمه ، كَيْف يشربه ، ويستقيه الحيَوان
٢٠١/أ بلا مَشقه ، ولاَ صُعوبة ، ولولا / رقته لأُهلك إذَا مَلأ الجَوف كَما يُهْلك المَاء ، والتراب إذَا امتَلأ به الجَوف ، ولاَ يجد الهَواء مَسلكا فيه ، ولذَلك تَجد الهَواء إذَا كَنَف [٢] في قيعان [٣] الآبار بكَثرة مُكثه فيها ، وسُكونَه عنْ الحَركة لضيقَ أفْوَاهها ، يَقْتل بكَثَافته .

فَهذه خصلة وَاحدة منْ خِصاله ، ونعمة من نعمه ، ومنْ رقَّته ،

(١) الأرحية : جمع رَحًا وهي : حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب للطحن .
(٢) كَنَفَ : حُفظَ .
(٣) قيعان : جمع قاع .

ولَطافته ، تصرُّف الخَلق فيه في جَميع الجهات والأسْفَار ، ولَو كَان كَالمَاء ، والتراب مَا كَانوا يَخُوضَونه ، وكَيف كَانت تَنْفُذ أبْصَارهم فيه لرؤية المُبصرات ، وفي سُكونه أيْضًا ، وحَركاته ، نعَم جمّة (١) بتحريكه ، تَجري السفن ، وبها تَصفية الحُبوب ، وإذْهَاب الحَرّ ، وإصْلاح الهَواء ، وبالجملة فالهَواء ، والمَاء ، والنَّار ، والأرْض أمُهات من النعم ، لَيس منها جُزء وَاحد إلا وفيها نعم لاَ يُحصيها إلاَّ خَالقها .

ثمَّ اصْعد بنَظرك إلى عَالم السَّموات فإنَّها عَاطفة بجَميع المَنافع المَذْكورة عَلى هَذاَ العَالمَ ، ومنها تَرك الأمر كُله ، ومنها تَدبر الليل والنهار المَخلوقيْن للحَركة والسكونَ ، والنَّوم واليقَظة والرَّاحَة ، وكُلها نعم للخَلق لَولاها هَلكوا ، وبحَركة العَالم العُلوي تَنْشأ الجُمعات ، والشَهور ، والأعوام ، فَيخلَق الخَيرات في هَذا العَالم مُرتبة عَلى فُصول العَالم منْ الشتاء ، والرَّبيع ، والصيف ، والخريف .

وانْظر إلى شخص واحد من أشخاص السماء مثلا ، فستدل به عَلى الخَير كَالشمس ، فإنَّها سراج هَذا العَالم إذا طلع عليْه / استْضاء وأخذَت منه ٢٠١/ب الأبْصار نُورها ، وعَلمتَ جَميع الأشْغال ، في جَميع الأقْطار ، ثمَّ لا يَراك دَائمًا كَذلك إلى حين الأفُول (٢) ، فيكون بأُفُوله الليل ، فَتَسْتَريح الأبدان بالسُكون ، والنومَ ، هذا حَاله في طُلوعه ، وغُروبه ، ولَه حَركة أُخرى منْ الجَنوب إلى الشمال لتَسْخين هَذَا العَالم فَتَثْبت به المعَايش كُلها ، وتَصلح ، ويتضح فَي حين صُعودها ، ثم هُبوطها أيْضا إلىَ الجَنوب يأتي البَرد والشتاء فَيزرع النَاس ، ويغرسون طعامهم ، ثمَّ تَصعد عليْه فَتُصلحه .

فَالعَالم كُله مُفْتَقرًا إليْها في كُل نَفسٍ ؛ فكُل حَركة منْ حَركاتها نِعمة ،

---

(١) جَمَّة : كثيرة .

(٢) الأفول : الغياب .

وكَذلك كُل شَخص في عَالم السَّموات مثلها ، قد جَعله الله عَلى كُل عَمل نَافع لهذا العَالم ، لا يُستغنى عنه ، بل لاَ يُسْتغنى عنْ جَوهر وَاحد من جرم السَّماَء إذ لَوْ انْخَرم منه جَوهر وَاحد لتَبعه الذي يَليه . لأنَّه مُعْتَمد عليّه كَحلقة السلسلة المعُلَقة ، الوَاحدة تَحمل الأخَرى ، فَأجْزَاء السَّموات ، والعَالم مُعتمَدة ، وبَعْضها عَلى بَعض مُلْتَصقة ، مُنْتَظمة غَاية الانْتظام ، يَحمل هَذا هذا ، وهذا هذا ، ويَنْفع هَذا هذا من حَيث يَحمله ، ويَعْتَمد عليْه ، وكَذلك الآخر ؛ فكُل جَوهر من جَرم السَّماء يَفْتَقر إليه جميع أجْزَائها عَلى كَثْرتها ، فكُل جُزء يَنْفع جَميع الأجزاء ، ولَو انْخرم منها جزء لا نْهَدّ الكُل ، وانْخرم النظام ؛ لأنَّه ليس منها وَاحد يَقوم بنفسه في حَيزه ، والحمد ١/٢٠٢ للّه عَلى/ عَدد أجْزاء العَالم كُله ، وعَلى هَذا الترتيب يَنْبَغي أنْ تَفهم نعمة اللّه في جَميع المَخْلوقات ، حتَى يَتَبين لكَ العَجز عنْ الإحْصَاء ، وهي المعرفَة بالشكر وليس كل واحد يعرف صورة العجز إلا من نَظر وعلم ؛ فإن العَجز إذْ ذَاك كَما سَماه الصديق ، ويُدركه أهل التحقيق ، لا كَما يَزْعم الجَاهل الغَافل عنْ مَقام العَالم العَاقل .

ثم انظر إلى كَيْفية خلْقَتها ، فَذلك أعظم النَعم ، وكيف خُلقت مَقبيّة[1] كالخباء تَحبو منْ تَحتها ، قَد عَطفت عليْهم بأكْنَافها عَلى صُورة الحَنان ، والرَّحمة .

ذَلك بأنّها يَتنَزلُ عليْهم خَيراتها ، وبَركَاتها في كُل لَحظة ؛ لأنَّ منها مَا يَسْتمد هَذا العَالم في كُل نَفْس كُل شَيء ؛ لأنها مَحل الأمر النَازل ، وجُعلت أيضًا حجابًا لَما تَحْتَها عنْ البُروز ، والظهور لما فَوقها ؛ لأنّ سَماء الدنيا هي دُنيا بالإضَافة إلى مَا فَوقها ، فَهي أقْرب ، وأدنى ؛ لأنْ يَحمل الخَلق أنْوَارها ، وعَجَائبها ، وتَحمل خلقتهم ذَلك ، ويَصلح أمْرهم ، ولَو

(١) مقبية : على هيئة القبة .

ظَهر لَهم مَا فَوقها بلا حجاب لَهلكوا ؛ فإنَّ أُمور السماء الأولى بالإضَافة إلى الثانية كَالحَلقة المُلقاة في الفلاة ، وكَذلك الثانية ، وأهلها بالإضافة إلى مَافَوقها إلى العَرش .

وانْظر إلى أحَاديث الإسْراء ، وحَلقَة السماء تَجد هَذا بيْنًا فيه ، فَرحم اللّه هذا العَالم بأنْ جَعلها / سترَة لمَا تحتها عَما فَوقها ، فتتلقَى هي مَا يَرد ٢٠٢/ب
عليْها من عُلو بأمْلاكها ، وقُواهَا ، وتُنزله عَلى مَا تَحْتها ، هكذا سَماء سَماء إلى الجَناب .

وهكذا أيْضًا هَذه الأرض مَع التي تَحْتَها ، والتي تَحْتها مَع التى تَحتها إلى جَهنَّم عَلى هَذا الاعْتبار مَا سَفُل الأمر تَحتها كَان أشد وأطَم ، وأعَظم ، ألاَ تَرى أن النبي ﷺ قَد قَال : « فَأَشَد مَا تَجدون من الحَر فَمن السعير ، وأشَد مَا تَجدون منْ البَرد فَمن الزمْهَرير [١] ، والحمى منْ فَيح [٢] جَهنم وأنْ هَذه الحمّى من الفيح ، لَولاَ مَا امتزجت بالرَّحمة حين صعود الفَيح لذَابت الجبال لَها » [٣] .

وقَال النَّبي ﷺ : « نَاركُم هَذه التي تُوقدُون علَيْها جُزء منْ سَبْعين جُزءًا منْ نَار جَهنم ، ولَولاَ أنها ضُربت بَالمَاء مَرتين مَا انْتَفعتم منْها بشَيء » [٤] .

كَذَلك الحمَّى جُزء منْ سَبعين منْ حُمّى جَهنم ، وكذَلك أيْضا المَاء النَازل منْ السماء ، ومَعَاني الجنَّة ، والرَّحمة المُنَزلة إلى الأرْض امْتزجت مَع مَا صَعدت منْ القَيح منْ جَهنم ، وكَسر هَذا هذا ، وهذا هذا ، فكَانت منها الدنيا كُلها ، فَالتقى النور مَع الظلام ، والرَّحمة مَع الغَضب ، وكُل ضد مَع ضده فخلقت منْها الدنيا ، ومَا فيها ، وإذَا فَهمت هَذا عَلمت أنْ الجنَّة ،

---

(١) الزمهرير : شدة البرد .

(٢) القيح : إفراز ينشأ من التهاب الأنسجة بتأثير الجراثيم الصديدية .

(٣، ٤) حديثان صحيحان ، تقدم تخريجهما .

٢٠٣/أ والنَّار هُما القَائمتَان بهذه الدار / بمَا فيها لاَ يَستَغنى العَالم عنْها طَرفة عيْن ، فَهما نعْمتَان عَظيمتَان لأهل هَذه الدَّار منْ حَيْث لَيس لَهم عَيش ، ولاَ قوام إلاَّ بهما ، وَقد قَال اللَّه في الجنَّة : « أَنْت رَحمتي أَرْحم بك مَنْ أشاء »[(١)]. وقَال : « الجنَّة مائة دَرجة »[(٢)] ، وقَال في حَديث آخر : « إنَّ اللَّه خَلق مائة رَحمة ، أَنْزل منها إلى الأَرْض وَاحدة ،فبها يَتَراحم الخَلق »[(٣)] . الحدَيث إلى آخره .

فَتَفهم، وتفطن ، واشْكر عَلى جَميع مَخْلُوقَاته ؛ فإن اللَّه قَد حَمد نَفْسه عَلى ذَلك وقَال : ﴿الحَمْدُ للَّه ربِّ العَالَمين ﴾[(٤)] والعَالمين هُم الخَليقة بأسْرها . وانْظر مَنْفعة الدَّارين العَظيمتَيْن كَيْف تَصل مَنْفَعتهما إلَيْك منْ مَقَامهما، وأنْت في مَقَامك هَذا .

ثمَّ اصْعد نَاظرًا إلى الكُرسي ، فإنَّه قَد وَسع الكُل : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوات وَالأَرْض ﴾[(٥)] وهُو مَوضع حكم المَلك ، والحُكم أبدًا عَلى شَيئيْن ، وعَلى خَصْمين كَذلك ، وسع الكُرسي أهل القَضيتَيْن ووَسع الدَّارين العُلوي ، والسفلي ، فَلا يَتحرك ذَرَّة فَما فَوقها في العَالمين إلاَّ في مقَام الحُكم الذي هُو الكرسي ، فَمنَافعه قَد شَملت جَميع مَا تَحته ؛ لأنَّ الكُل منه كَحَلقة مُلقَاة في أرض فُلاة ، كما نَطق به مُحمد ﷺ ، فَنعَمه قَد شَملت مَا تَحتَه .

---

(١) صحيح : تقدم تخريجه ، وأوله « تحجت الجنة والنار . . . الحديث » .

(٢) صحيح : صححه العلامة الألباني - حفظه الله - انظر السلسلة الصحيحة (٩٢٢) ، ورواه الحاكم (١/ ٨٠) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي من حديث أبي هريره وذكر شاهداً من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنهما .

(٣) صحيح : تقدم تخريجه .

(٤) فاتحه الكتاب الآية (١) .

(٥) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

ثمَّ اصْعد إلى العَرش العظيم الذي هو موضع تَدبير/ المُلك كَما قال : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ [١] فجميع الخلق ، والكُرسي في العَرش كَحلقة الدِّرع في أرض فلاة ، قَدَّسَتهُ بعَظمته كل مَا تَحته ، ومَا في ضمنه عنْ تَجلي عَظَائم الأُمور المُدبرة ، الرَّبانية ، التي لا يُشارك في تَدَبيرها ، والنظر فيها ، وتَفْصيلها أحد من الخَلق ، فَلا يُحتمل ذَلك إلاَّ العَرش الذي أهلَ لتَفْضيل تلكَ الأُمور ، ولهَذه العلة خَصصه البَارئ بالاسْتواء فَهو مَوضع التدبر ، لاَ أنه مكان ؛ فإن الرَّبَ لا يَسعه مكان ، ولاَ يَحْتَاج إلى مكان ، فَافهم هَذا فَإنَّه مَعْنَى حَسن في الاسْتواء أيْضا فالعَرش أعظم نعم اللَّه ، بَل كُلّ نعمة منه تَرد ، فَهو الجَامع لَها في الدُنيا والآخرة أبَد الآبدينَ ، ودَهر الدَّاهرينَ ، وإلَى هَذا أنْهى نَظر النَّاظرينَ ، وشُكر الشاكرين عَلى النّعم المُحدثة فَوجب شُكرَه سُبحانه على عَدَد جَواهر العَالم كُله ، وعلى عَدد جَميع أعَراضه في جَميع أحْوال الدين والدنيا والآخرة أبد الآبدين ، ودَهر الدَّاهرين . ٢٠٣/ب

وأمّا الضَرب الثَّاني من الشكر في مقَام الإحْسَان فَهو شُكره لذاته ، وشُكره عَلى النَّعمة التي لَولاَهُم لم يَكن شَيئًا مَذْكوراً لا رَبَّ ، ولاَ مَربُوب ولاَ خَالق ، ولاَ مَخْلُوق ؛ فُهو النَّافع وَحده ، والخَالق وَحده لا سواه ؛ فكُل مَا أضيف لغيره مَجاز ؛ لأنَّه منْه حقيقة / فالشكر كُله لَه ، ومنه ، وإليْه ، لا دَعْوَى لأحد في ذَلك مَعه ، فَلمَا رَأى الشاكرون كُل شَيء مُتَصرفًا بيد القُدرة ، صَادرًا عنْ تَدبر العلم ، والإرَادة نَازلاً بَأمر الكَلمة السابقة ، وتَجلى لَهم سعة علمه ، وتَدْبَيره ، وعَظَيم قَدره ، وجَلاَله ، وكَيْف صَارت ٢٠٤/أ

(١) سورة يونس الآية (٣) .

جَميع المَخْلُوقات أقل من جَوهر بالإضَافة إلى وُجُوده ، وتَجلى لَهم بأوْصَاف الجنان ، وأسْمائه الحسَان ، ورأى منه فَيض الفَضَائل ، والخَيرات في كُل الأحَايين والأوقات ، عَلى جَميع المَوجُودات جَودًا مَحْضًا ، وكَرمًا صِرْفًا ، لاَ لِغَرض منه ، ولاَ لِعوض يَعود عليْه ، ويُبين لَهُم غِنى نَفْسه عنْ العَالمين .

لَيْس الغنى عنْ كَثرة العَرض ، إنَّما الغنى غنى النَّفس ، لاَ يَشْغله وجُود الخَلق ، ولاَ يَزيده كَونهم ، ولاَ يَضره ، ولاَ يَفْقده عَدمهم ، بَل هُو كَما هُو ، لَيْس هُو عَلى مَا هُو إلاَّ هُو ، فَعند ذَلك قالت الأسْرار وَراء حُجب الأستَار : « **الحمد للَّه الذي هُو ربنا عَلى مَا هُو عليْه** » فَرحًا به ، وسُروراً فَزادَهم نَضْره ، وصُبوراً [١] ، فَحين فَهموا ، وسَمعوا حَبْرةُ كَلامَه تَحبَّروا في حَضْرة جَلاله ، وتاهوا سكارى منْ لحظات كَماله ، فطَمعوا ، وودوا أنْ يَشكروه عَلى مَا هُو عليْه ، فَتَبيْن لَهم أنَّ ذَلك لاَ يكُون إلاّ إلَيْه .

٢٠٤/ب فَقَالوا مُسلمين شكره لَه / « **سُبحانك [٢] لا نُحصي ثَناء عليك كَما تَسْتحقه عليْك ، أنت كَمَا أثْنَيت عَلى نَفْسك** » [٣] . فَهذا شُكرهم إذا نَظروا فَوق الفَوق ، ثمَّ إذَا نَظروا به إلى جَميع المَوجُودات ، وشَاهدُوا قَيوميته بالمخْلُوقات ، رأوا جَواهر العَالم كُله مُفْتقرة في كُل لَحظة ، وأن لاَ قَوام لشيء دُون فَيض العَرض دَائمًا عليْه .

فَوجب عليْهم أنْ يَشكروه عَدد جَواهر العالم كُله ، أوله ، وآخره ، وظاهره ، وبَاطنه وعَدد مَا أجرى عليْه ، ويَجري أبد الآبدين ، ودَهر الدَّاهرين منْ أعْراضه ، فشكَروه عَلى ذَلك شكرًا مُجْملاً ، إذ لاَ يحيط بِه إلاَّ

(١) حبوراً : ابتهاج وفرح .

(٢) تكررت كلمة [سبحانك] في الأصل .

(٣) صحيح : تقدم في الشعبة الثالثة والأربعين .

هُو مفصَّلاً وإلى هذا المَعنى أشَار النَّبي ﷺ في قوله : « لَك الحَمد حَمداً كَثيراً طَيبًا مُباركًا فيه . ملءَ السَّموات ، والأَرْض ، ومَا فيهما ، ومَا بيْنَهما ، وملءَ مَا شئتَ منْ شَيء بَعد » (١) .

فَرجع صلواتُ اللَّه عليْه إلى العُموم ، والتجْميل حِين عَجز عنْ إحْصَاء التفصيل .

(١) صحيح :أخرجه مسلم (٧٧١)، (٢٠١) كتاب صلاة المسافرين من حديث علي بن أبي طالب .

الشُعبَة الرّابِعَة والأربَعُون
الــزّهــد

أمّا كَون الزهد منْ الإيمَان فَبين فِي النَّظر، وكَثير مجيئه في الخبر .

أما دَليل ذَلك فِي الخَبر فَقَوله عليْه السلام : « الدُّنيا سِجن المُؤمن ، وجَنَّة الكَافر » [١] ولَم يَسْجنه إلاَ الزُّهد الذي هُو كَمال إيمَانه/ ومَا صارت جَنَّة ١/٢٠٥ الكَافر إلاَّ لمن ذَهب إيمَانه ، أونَقُص ، ومنْه الحَديث المَروي فِي الحيَاء ، قال رسُول اللّه ﷺ : « استَحيوا منْ اللّه حَق الحَيَاء » .

- وذكر الحديث إلى قوله - : « ومَن أَراد الأخرة تَرك زينة الدنيا ، وآثر الآخرة عَلى الدنُيا ، فمن فَعل ذَلك فَقَد استَحْيا منْ اللّه حَق الحَيَاء ، والحَياء من الإيمَان » [٢] .

وَمنه حَديث علقمة : « إنَّ لكُل حَق حَقيقة ، فَما حَقيقة إيمانك » فَقَال : «عزفت نفسي عن الدنُيا» [٣] ، فَوصَف أنَّ حقيقَة الإيمان « الزُهد » .

و أمَّا من طريق النَّظر الذي لاَ شَك فيه ، فإن الآخِرة غيب ، و الرب

---

(١) **صحيح** : تفرد به مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه -(٢٩٥٦) أول كتاب الزهد .

(٢) **معلول والصواب وقفه** : على ابن مسعود ، أخرجه الترمذي (٢٤٥٨) مرفوعاً وقال : «غريب » إنما نعرفه من حديث أبان بن إسحاق عن الصباح بن محض .

وقال الحافظ المنذري : أبان والصباح مختلف فيهما ، وقد ضعف الصباح برفعه هذا الحديث ، وصوابه عن ابن مسعود موقوفاً عليه ، ورواه الطبراني من حديث عائشة مرفوعاً . الترغيب (٢٤٩٣). راجع كشف الخفا (١/ ١٣٨) .

(٣) عزفت نفسي : عَافَته وزهدت فيه .

(٤) راجع كتاب الإيمان لابن أبي شيبة [١١٤] بتحقيق الألباني .

غيب ، و الدنيا شَهادة ، لاَ تُدرك حَواس الخلق إلا هي ، ثم دَعا اللَّه الخَلق إليه ، و إلى الآخرة بكتابه ، و عَلى ألسنة رُسله ، فمن شمر[1] و أجاب إلى الدَّار الآخرة ، وَ إلىَ السلوك إلى ربه ، وزَهد فى الدنيا فَقَد صَرَّح بِحقيقة إيمَانه ؛ لأَنَّ الإيمَان تصديق بالغُيوب ، و عمل لَها .

فصل

اعلمْ أن الزُّهد يَقْتَضي أربعة أشْيَاء زَاهد ، وَ هُو العَبد ، وزُهْد وهُو حَاله، ومُزْهد وهُو العَوض ، ومَزهُود فيه وهى الدُنيا .

فأما المزهد فهو اللَّه تَعالى ، و الدَّار الآخرة والاشْتغال بأُمور الدين ظَاهراً ، و بَاطناً / و المَزهود فيه : التي هى الدنيا شَيئان فَقطَ ؛ أَحَدُهما ٢٠٥/ب
العَرض المَالي ، و الثاني الجاه النَّفسَاني .

و أما الجَاه فَإنّه تفاخر وَرياء ، وأما المال فإنه تكاثر ، واتِّباع هَوى ، وهَذان المَعنَيان يَجْمَعان مَعاني الدنيا كُلها التي أمر النَّاس بالزُّهد فيها ، فإنَّ اللَعب ، والزينة ، و اللهو هُو هَوى النفس ، ولَها يُطلب التكاثر .

و أمَّا الجاه فإنُّه رياء ، و به يَظهر التفَاخر فَمن زَهد في الجَاه ، واتباع الهَوى فَقَد زَهد في الدنيا بأسرها -أعني الدنيا المَذْمُومة- و مَعنى اتَّباع الهَوى مَا عن اللَّه والدَّار الآخرة ، فَإذَا فَهمت هَذا فَاعْلم أنَّ الدُّنيا بأسرها هُو عَلى كل مَا عَلى وجه الأرض قَال اللَّه تَعالى : ﴿ إنَّا جَعلْنَا مَا عَلَى الأَرضِ زِينَةً لَهَا﴾[2] وعَلى ظَهرها يَتَنَافس الخَلق في الجاه ، والمال، والأرض أقل و أذل ، و أحقر ما في العَالم ؛ لأنَّ نسبتها من العالم الفلكي نسبة النُّقطة الهَندسية التي هِي مَركز الضابط إذا صنَعت ، و أقلُّ كَوكَبٍ في السماء من الكواكب

(١) شَمَّر : تَهيأ وخف ونهض .

(٢) سورة الكهف الآية (٧) .

الثابتة أكبر من الأرض مرات ؛ لأن الكَوكَب يَظْهر أكبر من نُقطة الضابط ونحن في النقطة ، يَظهر لَنا أبداً نصف الفُلْك ، و يَغيب عَنَّا نصفه ، و لو كَانت الأَرض أكبر من نُقْطة لم يَظهر لنا نصف الفلك ، بل أَقَل .

هَذا / بُرهان عَقلي لاَ مدفع فيه ، ومن الأرض التي هى النُّقطة ٢٠٦/أ
مَعْمور، وغَير مَعمور ، و الذي منها غَير مَعْمور أكثر من المَعْمور ، فَانْظر ما حَصل للنَّاس من تلك النُّقطة ، و كَيف اقتَسَمُوها فَطَالب الجَاه ، و الكبر فيها غَير مَذكور في العَالم الأعلى ، و هُو لاَ يُعلَم ، ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ﴾[1] في النُّقطة ؛ أيْ جَاههم ؛ لأن نُفوسهم لَيس لَها في العُلو مَسْلك ، و لا يَرتَقُون إلى السيد الأعلى ، فهم يتطاولون في بنيان أجسادهم بعضهم على بعض ، بالفخر ، والعلو ، فكانوا بالإضافية إلى الذَّين ارْتَفعت همَمُهُمْ إلى الآخِرة العلى ، و إلى السيد المَولى تَحت أقْدَامهم كَالذَّره .

فَالدنيا ، وما عليها بالإضافة إلى ما فَوقها أقلّ من جَناح بَعوضة بالكمية ، و أقل وَزَناً بالقيمة ؛ فَإن مَلَكَ العَبدُ فيها شَيئاً ، أو دَاراً عَرضَها مَرجَع ، أو أكثر يظن أنَّه مَلَك شَيئاً، بَل لَو مَلَك جَميع أقَاليمهَا ، لَيس لَه في العَالم العلوي قَدرَ ؛ لأنَّه نُقطة بالإضَافة إلى مَا فَوقها كَما تَقدم ، مَعمورها ، وغَير مَعمورها ، فَأين مُلك من مَلكها كُلها من ملك فَقير أهل الجَنَّة الذي
٢٠٦/ب ليس في الجَنَّة أدنى منزلة منه ، وهو آخر من يدخلها ، وفي الحديث/ ينظر إلى قصوره ، وجنانه مسيرة ألف عام - الله أعلم من أي الأعوام - .

﴿ وإنَّ يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾[2] .

---

(١) سورة يس الآية (٦٧) .

(٢) سورة الحج الآية (٤٧) .

فالزهاد الذين عقولهم تعلم العلي جاههم يتسع في العالم الأعلى على قدر سعة الملكوت الأسنى (١) .

واعلم أن الجاه على ثلاث مراتب :

جاه دنياوي ، وقد تقدم ذكره ، وجاه أخروي علوي على قدر درجات أهل الجنَّة ، ومنازلهم فيما بينهم بعضهم مع بعض ، وجاه عند الرفيق الأعلى كما قال ، وهو ترتيب درجاتهم ، وعنايتهم في نفس الملك ، على قدر قربهم منه ، فإذا فهمت هذا فاعلم أنَّ : الزهد يحقر المزهود فيه ، وهو أنه على الزَّاهد فيه ، ودليله قول الله تعالى ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ (٢) لما هان عليهم ، ونظروه بعين التحقير باعوه بالبخس (٣) اليسير ، ولو كان عندهم عظيمًا كبيرًا لما أخذوا فيه شيئًا كثيرًا كما قالوا آخرًا حين عظم قدره عندهم ، ورأوا الفضل عليهم :

﴿ تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ (٤) فحلفوا بالله العظيم حين تبين لهم شرف يوسف الكريم ، ولا يحلف أحد على شيء إلا إذا عظم عنده ، ومنه قول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه : « إنَّك لزهيد » (٥) حين فرض عليهم شعيرة في
٢٠٧/أ مناجاة/ الرسول الله عليه السلام ، معناه : إنَّك مقلل محقر ، وجميع معاني الزهد في الملبس ، والمطعم ، والمسكن ، والبذاذة ، إنما هو من تحقير

(١) الأسنى : العالي المرتفع .

(٢) سورة يوسف الآية (٢٠) .

(٣) البخس : القليل والناقص .

(٤) سورة يوسف الآية (٩١) .

(٥) ضعيف : مداره علي بن علقمة الأنماري عن علي -رضي الله عنه- أخرجه الترمذي (٣٣٠٠) في التفسير وقال « حسن غريب » وابن حبان (١٧٦٤) . موارد ، وله شاهد من حديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- أورده الهيثمي وعزاه للطبراني وقال . فيه سلمة بن الفضل - مختلف فيه- المجمع (٧/ ١٢٢) .

الأشياء الدنياوية عند الزَّاهد فقصد إلى أحقر ما فيها ، وأقله فامتناه ، وأغرب ما في هذا المعنى قول النبي ﷺ : « **لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها جرعة ماء** » (١) وبهذا النظر كان النبي ﷺ ينظر الدنيا موافقة لربه .

فصل

اعلم أنّ الزاهد منه فرض ، ومنه ما هو فضل ، وينقسم كله على ثلاثة أقسام على عدد مقامات الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وعلى عدد الذَّوات الثلاثة ، الجسم ، والنفس ، والروح .

فأما القسم الأول : في مقام الإسلام فهو إيثار الأمور الدينية على الدنيا ، وترك الدنيا لها ، والأمور الدينية فيها فرائض وفضائل فالزهد أيضًا منه فرض وفضل كذلك .

فأمَّا الفرض فإنه واجب على جميع الخلق ، وأمَّا الفضل فإنّه مخصوص بخصوص .

فأمَّا الفرض الواجب ، والفضل المندوب فإنَّه ملازم لجميع الطاعات ، متعلق بها لا يفارقها من فرض ، أو نفل ، وبيان ذلك أنَّ الخلق المخلوق/ في ٢٠٧/ب
الدنيا لَّما ربتهم الدنيا من صغرهم إلى كبرهم ، ونشأوا فيها ، وتغذوا بلبانها شغفهم حبها ، لأنِ حياتهم بها ، وفيها ، فشمروا لطلبها ، واجتهدوا في اقتنائها ، فلم يكن ليزيلها عنهم إلا أمر عظيم ، إمّا زهد فيها أو موت ينقل عنها ، فأرسل الله الرسل إلى الخلق يدعونهم منها إلى عبادة الله ، وأنزل الكتب تتلى عليهم ، وتذكرهم بأحسن منها ، وأبقى لعلهم يزهدون فيها ،

---

(١) **حسن صحيح** : أخرجه الترمذي (٢٣٢١) وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجة . (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد –رضي الله عنه – ولفظه : « . . . الدنيا تعدل عند الله . . . . . الحديث » .

ولا تشغلهم عن عبادة الله ، فشرعت لهم الشرائع ، وفرضت لهم الفرائض ، ونصبت الذرائع كي يندرجوا في الزهد فيها شيئًا شيئًا ، ورغبوا في الفضائل عسى يؤثروا غيرها عليها ، فهذا دأب المرسلين مع الناس من أول الدنيا إلى آخرها .

فأول ما فرض توحيد الله ، ومعرفته ، والشغل به ، ولن ينال أحد ذلك إلا بترك الاشتغال بما يقطع عن ذلك من فضول الدنيا ولو ساعة ، أو حينًا ما ، فترك الشغل بها في ذلك الوقت فرض تدبرًا كان ، أو أكلاً ، أو شربًا ، أو شراء ، أو أي نوع كان منها ، ومن ذلك طلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم ما ضيع أحد طلبه إلا بطلب الدنيا ، والشغل بها ، وما طلب أحد العلم المفترض عليه وقتًا ما ، إلا ترك الشغل / بالدنيا ، ذلك ٢٠٨/أ
الوقت والحين ، تركه لها زهد فيها .

ثم الصلاة وأوقاتها ، بينما الناس مكبون على الشغل بها إذا صعد المؤذنون على الصوامع بأرفع الأصوات إشارة إلى تعظيم ذكر الله على غيره ؛ فأول ما ينطق به التكبير تنبيهًا على ما اشتغلوا به من النذر الحقير ، لعلهم يزهدون فيه ، ويتركونه لأداء الفرض ، فيجيبونه ، فصار عند ذلك ترك الشغل بالدنيا فرضًا عليهم ، ما دام وقت الصلاة لم تخرج ، فهم في إجابة الداعي ، وإيثاره على ترك ما هم فيه من الفاني درجات عند الله ، فمن خرج الوقت عنه ، ولم يسارع إلى الطهارة ، والصلاة ، فقد وجبت عليه العقوبة ، وآثر دنياه على دينه ، وهواه على مولاه ، فتعرض عليه التوبة ، فإن تاب ، وإلا قتل .

وفرق بينه ، وبين دنياه المذمومة ، المفرقة الحائلة بينه ، وبين دينه ، هكذا في كل يوم خمس مرات فرض عليهم ترك الشغل بالدنيا ، وتحقيرها في جنب دين الله ، في تلك الأوقات ، ويرغبون فيما سوى تلك الأوقات

في الفضائل .

وانظر إلى الزّكاة ، وأوقاتها ، وغير ذلك من الحقوق المالية إذا جاءت ، وفيها أمر بإخراج تلك الحقوق من أيديهم ، وزهدوا في ترك الرغبة / فيها ٢٠٨/ب حتى يخرجوها ، فمن وفق زهد فيها ، واستحقرها ، وأخرجها عن يده ، ومن اشتدت رغبته ، وحرصه ، وذهب الزهد من قلبه فيها بالكلية ، أمسكها ، ولم يخرجها ، ولزمه من العقوبة ما ورد الشرع بذكره .

وانظر إلى الصوم ما أبين الزهد فيه ؛ فأول ما فرض على الخلق عند طلوع الفجر ترك الأكل ، والشرب ، والجماع ، والإمساك عنه إلى الليل ، وهذه الأمور التي أمر بتركها هي أعظم أمور الدنيا .

وكذلك الحج أول ما فرض على الخلق الخروج من دنياهم ، ومفارقة أوطانهم بما حوت من أهل وغيره ، وهذه الدنيا بأسرها .

وانظر إلى الجهاد ، وكيف فرض عليهم الخروج من الدنيا بأسرها إذا لزمهم فرضه ، والتعرض للموت الحائل بين الدنيا ، وأهلها ، وقد بين الله هذا المعنى في كتابه فقال :

﴿ أَلَم تَر إلى الذين قِيلَ لَهم كُفواْ أيْديكم ﴾ - إلى قوله - ﴿ فَلَما كُتِبَ عَليهم القِتَالُ إذاً فريق منهم يَخْشَون النَّاسَ كخشْية الله ﴾ إلى قوله ﴿ وقالوا ربنا لم كَتَبتَ علينا القِتال لولا أخَّرتنا إلى أجَل قريب ﴾ فصرح لهم بالزهد في الدنيا حين أمسكهم عن الواجب فقال - ﴿ قُل مَتَاع الدنيا / قليل ﴾- فحقرها بقوله ٢٠٩/أ « قليل » والقليل هو الحقير ، ثمّ عظَّم الآخرة ، وشرفها لعلهم يرغبون فيها ، ويزهدون في الحقير فقال : - ﴿ والآخرة خير لمن اتقى ﴾ [(١)] ثم زادهم بيانًا ، وعرفهم أنهم لابد لهم ، من مفارقة دنياهم ، وأنَّهم مخرجون منها

(١) سورة النساء الآية (٧٧) .

بغير اختيارهم حين لم يخرجوا باختيارهم فقال : .

﴿ أَينَمَا تَكُونُوا يُدرِككُم الموتُ ،ولو كُنتُم فِي بُرُوجٍ مشَيَّدة ﴾ [١] وهكذا استقر كل فريضة أمر الخلق بها ، أو فضيلة ندبوا إليها تجدها مقترنة بزُهد فرض أو فضل ، ولو لم تشغل الدنيا الخَلقَ عن الفرائض المفروضة ، والفضائل الموطنة تسموا زاهدين ، حين لم تُلههم بزُخرفها عن دينهم الذي هو خير منها وإن كانوا مكتسبين لها ، ومتصرفين فيها كما كان السلف الصالح ، وإنَّما أهلك الخلق تعظيمها ، وإيثارها ، وقد أثنى الله على قوم هي بأيديهم بأحسن ثناء فقال :

﴿ رِجَالٌ لا تُلهِيهم تجارةٌ ، ولا بَيعٌ عَن ذِكرِ الله وَإقَامِ الصَّلاة وَإِيتَاءِ الزَّكاةِ﴾ [٢] فوصفهم بأن في أيديهم أموالاً يؤتون منها الزكاة ، لكن لم يلههم ذلك عن ذكر الله ، عن القيام بفرائضه ، لأنَّ غيرها أكبر ، وأشرف منها في
٢٠٩/ب قلوبهم ، وقال أيضًا في آية أُخرى ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا / تُلهِكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك ﴾ يعني أَلهَته عن الذكر ﴿ فأولئك هُمُ الخاسرون ﴾ [٣] وصفهم بالخسران حين ألهاهم الحقير عن الشيء الخطير ، وهو ذكر العلي الكبير ، فهذا هو المذموم من الدُّنيا ، و هي رغبة القلب ، وحرصه ، وتعظيمه ، وإيثاره للأشياء على ما هو أفضل منها حتى تقطعه عما أمر به ، وندب إليه .

والإحسان صنع ذلك بنفسه ، ولم تصنع الأشياء به ذلك ، بل هي ، نافعات للخلق ، غير مضرات إذا لم يضروا بأنفسهم بإيثارها على ما هو خير منها ، ورُبما كان أخذ الدنيا واجبًا على العبد ، فما يكون واجبًا كيف يُوصف

(١) سورة النساء الآية (٧٨) .

(٢) سورة النور الآية (٣٧) .

(٣)سورة المنافقون الآية (٩) .

بالذَّم على الجملة ، وأنَّ الأنبياء ، والصديقين لم يتركوها بالكلية حين كان أخذها واجبًا عليهم ، وكان رسول الله ﷺ يأكل ويشرب ، ويلبس ، ويركب ، ويسكن ، وينكح ، ويُعطي ، ويمنع ، وكانت دنياه كلها محمودة ، ومن ذم شيئًا من دُنياه أو غيرها من أموره وجب قتله بلا شك ، فكل ما أعان على فرائض الله ، وطاعته من الدنيا فهو طاعة محمودة ، وقد تكلم أبو محمد سهل [1] في هذا الغرض بكلمة من الحكمة لم يترك فيها شيئًا من العدل ، لأنه كان سيدًا في الحكماء ، ورأسًا في مهاب / ٢١٠/أ الفضلاء ، والزهاد ؛ فقال : « كلما شغلك تركه عن الله فأخذه فرض عليك » فهذا كلام موزون بميزان العدل ، بريء من التَّعصب ، والميل .

والأنبياء كلهم ، والصديقون كلهم يحذرون من الدنيا ، ويذمونها ، ويزهدون فيها ، ومنها يأكلون ، ويلبسون ، وفيها يتصرفون ، لكن إنَّما يذُمون ما يجب أن يُذم ، وهو ما بعد المزيد عن ذكر الله وطاعته ، وصد عن طلب العلم النافع ، واكتساب الفضائل .

روى أبو هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **الدُّنيا ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه** » [2] ولو أمر الخلق بترك الدنيا كلها على الجملة لهلكوا ؛ لأنَّهم لا قوام لهم إلا بها ؛ فإن قلت كيف تركها الأولياء بالكلية ؟ وهم أوتاد الأرض الذين يمشون على الماء ، ويسيرون في الهواء ، فما أعقلك عن فهم المعاني ؛ فإن هؤلاء هم الملوك على الحقيقة ، وغيرهم

(١) هو / سهل بن عبد الله بن يونس شيخ العارفين ، أبو محمد التستري الصوفي الزاهد ، صحب خاله محمد بن سوار ، ولقي في الحج ذا النُّون المصري وصحبه .

له كلمات نافعة ، ومواعظ حسنة ، وقدم راسخ في الطريق . ومن كلام سهل : « لا معين إلاَّ الله ، ولا دليل إلاَّ رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر عليه » .

توفي سنه ثلاث وثمانين ومئتين ، ويقال : عاش ثمانين سنة أو أكثر .

(٢) حسن : تقدم تخريجه . وزيادة : « إلاعالم أو متعلم » .

بالإضافة إليهم هم الفقراء المساكين ، وإن ملكوا الدُنيا بأسرها .

وانظر إلى حكاية الخضر مع موسى حين شكى إليه موسى الجوع فإذا
٢١٠/ب بظبي (١) بينهما نصفه مشوى مما يلي الخضر فأكل/ الخضر شيئًا مفروغًا منه ، فهذه هي الراحة الكبرى ، والملك العظيم في الدُّنيا ، ومنهم من تصير له الأرض ذهبًا ، وفضة ، ولو قبله لكان خازنًا ، بل يأخذ شيئًا مفروغًا منه ، وإلى هذا المعنى أشار أبو زيد في قوله : « العاجز لا يصح زُهده » يعني الزُّهد الأعلى الكامل ، ثم قال فيمن يصح زُهده : « هو أن يُعطيهم كُن ويقدرهم على الأشياء » إلى آخر كلامه .

فلا يقولون لشيء كن إلا كان ، فما يصنع من هذه حاله يُخزن المال الذي يُلهي ، ويشغل فمنهم من يأخذ رزقه من الكون متى احتاج ، ومنهم من جعلت الدنيا تخدمه ، ومنهم من جعل رزقه على يدي الخلق ، ومنهم من يكون بيده من الكسب والمال ما يعين ، ولا يشغل ، ولا يلهي ، بل هو سبب الطاعة ، وقد ورد في الصحيح عن نبينا ﷺ أنَّه خير أن تكون له جبال الأرض ذهبًا وفضة فأبى ذلك ، وبقي بحال الانفراد مع الله ، لأنَّه أعطى كن فكان ، إذا أراد إظهار كن يروي الجيش الكثير من الإناء الصغير ، ويأتيهم بالماء من بين أصابعه ، ويُشبع الخلق الكثير من الطعام اليسير ، ويزودهم منه ، إلى غير ذلك .

٢١١/أ وإنَّما/ هرب عليه السلام حين خُير أن تكون له جبال الأرض ذهبًا ، وفضة من الاشتغال ، ومن التكاثر الملهي ، فبقي بحال الانفراد ، وقطع ما خاف أن يقطعه ، كما رمى بالخميصة (٢) ، التي صلى فيها ، وكان لها علم فقال :

---

(١) الظبي : هو الغزال .

(٢) الخميصة : كساء من صوف أو خز .

« **ألهتني عن صلاتي** »[١] فاستحقر كل ما يُلهي قلّ أو كثر ، حسن أو قبح ، وزهد فيه ، ورآه حقيراً في جنب ما اشتغل به ؛ لأن راحته كانت في الصلاة ، كذلك الزّهاد الذين وجدوا لذَّة العلم ، وحلاوة العبادة ، والسُّرور بفعل شرائع الإسلام استحقروا في جنب ذلك النَّعيم كل ما ألهاهم عنه .

فصل

فأمَّا المقام الثاني من الزهد في مقام الإيمان فإنَّ العقل إذا نظر بنور الإيمان، ونظر إلى الآخرة ، وفضلها على الدَّنيا ، وبقائها وفناء الدُّنيا ، وكبرها ، وصغر الدنيا ، وعظم أهوالها ، وعذابها ، وحسابها قاس ما بين قدر الدُّنيا والآخرة ، فإمَّا خاف من العذاب والحساب ، والأهوال فزهد خوفًا من الآخرة ، واستحقر الدنيا كلها في أهوالها ، وعذابها وإمَّا رجى الثواب العظيم ، والملك المُقيم ، واستحقر الدُّنيا كلها في جنب ذلك ، فرغب في الفضائل / وزهد في الحقير ، المفضول ، فعلى هذين القسمين ٢١٨/ب انقسم الزُّهاد في هذا المقام ، وهم أبناء الآخرة الذين نظروا بالعقول الرَّاجحة فقرنوا حسن الدُّنيا بحسن الآخرة ، وشدائدها وأهوالها ، وعظائمها بشدائد الدنيا ، وأهوالها ، فوجدوا لذَّة روح الآخرة باليقين الإيماني .

فخاطبتهم الآخرة بلسان الحال ، والمقال فقالت : « انظروا قدر مابيني وبين تلك الصغيرة الحقيرة ، والذَّميمة[٢] القصيرة » فأفَّفت[٣] على الدنيا ، وثقلت عليها ، فكان معنى كلامها أفٍ أفٍ أفٍ لها معنى ؛ في حقهم

(١) صحيح : أصله في البخاري (٣٧٣) كتاب الصلاة من حديث عائشة -رضي الله عنها- .

(٢) الذميمة : التي يلام عليها ويعاب .

(٣) أفَّفَت : قالت للدنيا أُف أف .

الزُّعاق [١] الدُنياوي ، والملح البحراني [٢] بالحلو الأخراوي ، والعذاب الفُراتي ، وأظهرت لهم كف الجذب لتجذبهم إليها بالزهد فطمس من الدنيا في أعينهم جميع أنوارها ، وقبَّح حُسنها ، وجمالها منظر الدُّنيا بأسرها ، فأبدت لهم شبابها المجدد ، وبقاءها المخلد .

وقالت : « ليس عمري كعمر الدُّنيا المنكد » [٣] ولا حُسني كقبح منظرها المسود ، فهي الأمة العجوز الشمطاء [٤] المشوهة الخلق ، السوداء ، ١/٢١٢ السَّيئة الخلق ، النَّكد ، المُتبرجة لمن مضى ، ولمن يأتي ، القليلة/ الحياء الآبقة [٥] ، القاطعة عن طريق المولى ، وأنا الحرة الجارية العذراء ، الباقية الجمال ، الحسناء الحبرة [٦] ، الملاعبة ، العيناء [٧] ، العفيفة [٨] ، القاصرة [٩] ، المقصورة [١٠] ، التي لا ترى ، فشتان ما بين الزوجين ، وكثير ما بين الشيئين .

فكأن كلامها هذا ثانيًا بصقًا ، وتفلا على الدُّنيا ، فأعذب تفلها كل مالح ، وطيب حلاوته كل مرّ ، فطاب نعيمهم ، ولم تسأ ، والدنيا دُرة في أعينهم لأن ، نعيمها مالح ، وحلوها مُر زُعاق .

---

(١) الزُّعاق : الماء المر الغليظ لا يطاق شربه .
(٢) بحراني : نسبة إلى بلد البحرين : وأبحر الماء يعني مَلُحَ .
(٣) المنكر : السيء .
(٤) الشمطاء : أيْ التي اختلط اللون الأبيض والأسود في شعرها .
(٥) الآبقة : الهاربة .
(٦) الحبرة : الظاهر عليها البهاء وآثر النعمة .
(٧) العيناء : واسعة العين .
(٨) العفيفة : السيدة الخيرة التاركة للشهوات ، و الحافظه لفرجها .
(٩) القاصرة : الخجلة الحيية .
(١٠) المقصورة : المنعمة في بيت لا تتركه لتعمل .

وكذلك ورد في الأخبار أنَّ الحوراء لو تفلت في البحار المالحة لعذب ماؤها [١] ، ولو أظهرت كفها لطمس نور الشمس ، والقمر [٢] .

فافهم ، وهذا الذي عذب لهم من الدنيا إنَّما هو ما كان لله ، وأعان على الآخرة ، وكان ركابًا لها ؟ فهي على هذا ثلاثة أشياء فاضلة ، وهي الأُخرى ، وأمةٌ خادمة لها ، ولزوجها الزَّاهد ، وهي الدنيا المحمودة الخادمة للحُرة الفاضلة تخدم حتى يصل الزَّاهد إلى الآخرة والثالث هي الدنيا المذمومة ، الملهية ، التي تقدم ذكرها ، وتشويه خلقتها المزهود فيها .

فمن كان من أهل الآخرة خدمته الدنيا المحمودة ، وكانت ركابًا له ، والركاب هو المركوب ، وكل مركوب خادم ، وعبد تحت / الراكب له ٢١٢/ب المخدوم .

وكذلك ورد في الخبر : الدُّنيا ركاب الآخرة حتى تصل المخدوم إلى سيِّدتها الحرة الفاضلة فافهم ، وهذه مُشاهدة أبناء الآخرة ، فمن كان منهم كان للآخرة عاشقًا وبها واقعًا [٣] ، وللدنيا الملهية رافضًا ، ولها إذا أشغلته راكضًا [٤] .

قال الله عز وجل :

﴿ كَلاَّ بل تُحبُّون العَاجلةَ وتَذَرونَ الآخِرَةَ ﴾ [٥] .

---

(١) ضعيف : رواه أبونعيم في صفة الجنة [٣٨٦] وضعفه الألباني -حفظه الله- ضعيف الجامع (٣/ ١٢٣) .

(٢) إسناده حسن في المتابعات : قاله الحافظ المنذري (٥٣٢٦) الترغيب وعزاه للطبراني والبزار من حديث سعيد بن عامر بن خريم -رضي الله عنه- .

(٣) وامقاً : محباً .

(٤) راكضاً : أي رافعاً .

(٥) سورة القيامة الآية (٢١) .

ومن لم يكن من أبناء الآخرة ، كان من أبناء الدنيا ، وحظائها العاشقين لمذمومها كان وراءها جاريًا ، وقلبه من الآخرة خاليًا ، ولسيده ، ومولاه ناسيًا ، فتخلت لهم محاسن الدنيا المُزخرفة ، فاستحسنوها كل الاستحسان ، فأعظموها حتى خرجت من قلوبهم هيبة الإيمان .

قَال النَّبي ﷺ : « إذَا عَظَّمت أُمتّي الدِّينار والدرهم نُزعَ منها هَيبة الإيمَان»[١] فَهم في طَلبها مُشَمرون ، وهي مُتعبة لَهم ، كَالمَرأة السُّوء إذَا عَلمت أنَّ الرَّجلَ يُحبها أتْعبَته ، وأعَرضت عنْه ، وهُو رَاغب لهَا ، ومَاش في أَثَرها عَسى أنْ تُقبل ، عليْه فينَال مُراده منها ، فكُلما زَاد بها كَلفاً[٢] زَادت عليْه صُعوبة ، وَولته ظَهرها ، لأنَّ غَرضَها أن تزيد في حُبها ، وطَلبها والكَلف بها ، فَهو أبداً جَار وَرَائها ، لأنه لمْ يَشبع / مِنها ، وقَد ورَد في ١/٢١٣
الخَبر : « لاَتَنْكحوا النِسَاء فِي أدْبَارهن »[٣]

«ومنْ أَصبح وَهَمّه الآخرة جَمع اللَّه عليْه شَمله وجَعل غِنَاه فِي قَلبه ، وأتَته الدنيا، وهى رَاغمة »[٤] .

أيْ الدنيا المَحمودة ، جَعلنا اللَّه وإيَّاكم منْ الفَائزين بِرحمته آمين ، وصَلى اللَّه عَلى سَيدنا محمد و آله .

---

(١) لا يصح : راجع كشف الخفا للعجلوني (١/ ١١٢) والإتحاف (٤/ ٥١٥) .

(٢) كلف : ولَع وشوق.

(٣) صحيح: راجع ترغيب المنذري (٣٤٤٩ : ٣٤٦٧) بتحقيقي . ولفظه « لاتأتوا النساء في أدبارهن »

(٤) رواته ثقات : قاله الحافظ المنذري الترغيب (٤٤٦٧) وعزاه لابن ماجة والطبراني بإسناد لا بأس به من حديث زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قلت . له شواهد كثيرة انظر ترغيب المنذري (٤٤٦٤ : ٤٤٧٢) .

فصل

وأمّا المقَام الثالث : من الزُّهد في مقَام الإحْسَان فإنَّ العَبد إذَا نَظر في الخَالق ، و المَخْلوق كَائناً مَا كَان ، وغلبت عَليّه ذكُورة الرُّوحانية ، واستولت عليْه مَعارف العُلوم الرَّبَّانية واستَعدته مَحاسن المَعَاني الإلهية فَأدْرك فَضل مَا بَيْن الخَالق ، وَ المَخْلوق ، والمولى ، العَبد ، والقَادر ، والعَاجز ، والقَوي والضَّعيف ، والغَني عنْ كُل شَيء ، والفَقير إلى كُل شيء ، والكَبير الجَليل والزر الحَقير ، والحق الذي لاَ يَبْطل أبداً ، والبَاطل الذي يَتطرق إليه الفَناء دَائماً سَرمداً (١) .

والأول الآخر ، الظَاهر ، الباطن الذي لاَ يتقيد الحُدود الزَمانية ، والمكَانية ، والمَحْبُوس المُتحير ، المُقَيدَ بأنْواع الحُدود الحابسة لهَ في الأمامية ، والورَانية ، والفَوقية ، والتحتية ، العَبدية ، والغَالب القَاهر فَوَق عبَاده ، والمَقْهور عَلى مَرارة ، وغَير مَرارة ، فَعند / ذَلك تَجْلب مَعاني ٢١٣/ب انْفراد الوَاحد إليه عنْ المثْل ، والنّظير ، والمُعين والوَزير ، والقَليل ، والكَثير ، واَسْتيلائه عَلى المَمَالكَ أجْمع ، وكيْف انْقَادت لَه ، واعْتَرفت بيْن يَديه ، مُقرّةَ بالخُضوع ، مُتَذَلِّلَةٌ بالخُشوع .

فَعَظَّم العَقل مَا اجتَمع الكُل عنْ تَعظيمه ، وحَقر في جَنْبه ما اجْتمع الكُل عَلى تَحْقيره ، بالإضَافة إليْه فَلم يعُول عَلى شَيء ، إلاَّ عَليْه ، فَالعُقول في هَذا المقَام تَستَحقر جَميع مَا في الجنان عنْد نَظرة وَاحدة يَنْظرون إلى أَسْمائه الحُسنى أو فهم آية ، وسَمع كَلامَه منْ كَلامه القُرآن المُفرق بيْن الحَق والبَاطل والغَامض والمُشكل في جَميع الأكوان ، و عَمّ نُوره ، وهُداه أنْواع

(١) السرمد : الدائم الذي لا ينقطع .

الحُدثان ، فَإذَا كَان جَميع الخَلائق بكَلمة وَاحدة يُكلمهم ، و بنَظرة وَاحدة إلى لَمعة من سَبحات أنْواره إذاَ تَجلّتَ يَهْتدون ، ويُبصرون فَقدَ جُمعت بالكلمة والنَّظرة جَميع مَا تَفرّقَ في الأكْوان منْ أنواع النَّعيم ، وبَقي فَضلَ مَا بَيْن الوَجة الكَريم والكَلام الحكيم عَلى مُشتَهيات جَنات النْعيم ، فَزهدوا في سوى مَعْروفهم ، فَأحلّ غذاء عنْدهم ذكرَ اللَّه تَعالى وأغلى شرابهم لذيذ مَحبة اللَّه وَأجْمل لباس يَلبسونه مَاَ يُحليهم به ، ومَا يخلع عليْهم مَنْ الأنْصَاف ، والتَخلق بمَعَاني صفات اللَّه / وأجلّ مَسكن عنْدهم الغَور (١) ١/٢١٤
في كُهوف الغَيبة بهَ عمَّن سوَاه ، وأجلّ مركوب عنْدهَم الهمم الرَّفيعة الجَارية عَلى طَريق القَصد إليْه مَجالسهم مَقاَعد الصّدق ، ومَنازلَهم رَوْضَات الأنْس بالحق ، قَد ظَفروا بمَوجودَ . لَيْس ورَاءه مَطْلوب وشَبعُوا به ، فَلم يَبْق لَهَم مَرغوب ، فَهذا هُو الزُّهد الكَامل المُتَناهي ؛ لأنَّ بهَ تَنْقطع الرَّغبة ، وتنْتَهي الأماني فَيزُول فَقْرهم ، وتَنْعدم حاجَتهم فَإنَّ رَدَّهُم على الأغْيار فإنَّما ذَلك لقضَاء ، الحقُوق ، والأوطار (٢) حقُوق المَماليك والسيدات الأحْرار فَيعَلمون أنْ في تَنفيذ أمره رضَاه ، فَنَعيمهم في الحَالين به ، وهُو نَعيم النَّظر لَه ، ونَعيم الرِضى به ، وعَنّه فَتأتيهم منْ ذَلك رُؤْيَتان وَمُشَاهَدتان :

أحَدهما نَعيم الرُّؤية بمَا تَجلى منه لهَم .

والثانية نَعيم مَا أخفي في نَفسه عنْهم ، لأنه إذَا أمَرهم عَلموا مَا يَرضاه ممَّا خَفي في نَفسه عنْهم ؛ لأنه فكَان ذَلك إدْراكاً لمَا أخفي في نفسه ، وغَيْبة عنْهم ، فَهَم يَرونه ظَاهراً ، وبَاطناً فهذا حقيقَة الزُّهد ، ومُهيّة أمهَا الأمينة ، والرغبة بالعَوض العَظيم الذي لاَ يُقدِّره إلاَّ اللَّه ، ويكون مَا سواه في جَنْبه

---

(١) الغور : الغياب فيه والذهاب بداخله .

(٢) الأوطار : الأغراض .

كَالا شَيء .

ألا كل ما خلا الله باطل . . . وكل نعيم لا محالة زائل/ حقيقة قال ٢١٤/ب الله عز وجل «وسيقَ الَّذينَ اتَّقَوْا ربَّهُمْ إلى الْجَنَّةِ زُمَرًا » [1] وقال أيْضًا : ﴿وسيقَ الَّذين كفُروا إلَى جَهنم زُمَراً ﴾[2] .

والزمرة الفَوج ، والقطعة منْ النَّاس ، وجَمعها زُمَر ومَعنى الآية : أنَّ النَّاس يَدْخلون الجنّة والنَّار زُمَرة بعد زُمرة ، بترتيب ، وتَدريج عَلى قَدر رُتْبَتهم في دَرجات القُرب منْ الله ، وبُعدهم منْه بالتَّقوى وضدّه .

فَأول زُمرة تدخل الجنَّة أعَلاهم فيها دَرجة ، وأول زُمرة تَدخل النَّار أسْفَلهم فيها دَركاً ، و الزُّمرة الثانيَة بَعد الأولى تَحتَها في الجنة لأهل الجنَة ، وفَوقها في النَّار ، هكذا في الترتيب حَتى يكُون آخر مَنْ يَدخل الجنَّة في أسفل دَرجة منْ الجنَّة ، وآخرَ من يَدخل النَّار في أعلى دَرك منْ النَّار .

فصل

قال اللَّه عَز وجَل :

﴿ وسيقَ الَّذينَ اتَّقَوا ربَّهُمْ إلى الجنَّة ﴾ [3] الآية فأقرب الخَلق إلى اللَّه المُتقون ﴿ إنَّ أكْرمَكُمْ عنْدَ اللَّه أتْقَاكُمْ ﴾ [4] وقوله أتْقَى عَلى وَزن أفعل يَدل عَلى تَفاوت مَنَازلهم في التَّقوى ، عَلى عَدد الحسَاب ، لأنّ مَعنى أتقى أي أتَقَى ، فَأتقى فَأكثرهم تَقوى في أعلى دَرجة فيَ الجنة ، وأقَلهم تَقوى فى أسْفل دَرجة من الجنة ، وأكثرهم تَقوى الذي اتقى الشرك الجَلي والخَفي الآية ،

(١) سورة الزمرَ الآية (٧٣) .

(٢) سورة الزمرَ الآية (٧١) .

(٣) سورة الزمر الآية (٧٣) .

(٤) سورة الحجرات الآية (١٣) .

ظَاهره ، وبَاطنه ، واتَّقى الدُّنيا مخَافة أن تَقْطعه . واتقى رَبه مَخافة أن يَفُوته فَقَطع جَميع العَلائق دَونه ، وهَؤلاء هُم الفُقراء الزَّاهدون الصَّالحون .

قال اللَّه عَز وجَل : ﴿أولَئكَ يُجزَوْنَ الغُرفَةَ بمَا صَبَروا﴾ [١] أي صَبروا على دَرجة الإمَامة / التي طَلبوها في قولهم : ﴿واجْعَلْنا للمُتَقينَ إمَامًا﴾ [٢] ١/٢١٥
وهي دَرجة الصَّبر عَلى التقوى ؛ لأنَّه لاَ يكَون إمَاماً للمُتقين يُقْتدى بأفْعَاله، وأحواله ، إلاَّ أتقَى من غَيره ، منْ المُتقين الذَين ائْتموا به ، وقَال اللَّه عَز وجَل :

﴿وَجَعَلنَا منْهُمْ أَئمَّةً يَهْدُونَ بأَمرنَا لَمَّا صَبَروا ، وَكَانُوا بآيَاتنَا يُوقنُونَ﴾ [٣] وأهل الثقة باللَّه والدَّار الآخرة ، والصَّبر عَلى التَّقوى هُم الذين اتقُوا الدُّنيا وصَبروا عَلَى الفقر ، والزُّهد في الدنيا ، لأن حُبَّها رَأس كُل خَطيئة وفي الخَبر : « اتقْوا الدنيا واتقوا النِّسَاء » [٤] وفي الخَبر : لاَ يكون العَبد من المُتقين حتَى يَدع مَالاَ بَأس به حَذراً ممَّا به البَأس » [٥] وهَذه صُورة الحَذر من الدُّنيا، وصُورة الوَرَع والزَاهد فيهاَ .

وفي الخَبر : « الفُقراء الصُّبَّر جُلساء اللَّه ، فَهَذه أول زُمرة، والمسَاكين في الغُرفة المَذْكُوره في آية الفُرقان، والغُرفة في لسَان العَرب : « العَليَّة والعَلية من مَساكين عليِّين وعلِّيون لأُولي الألبَاب» .

---

(١) سورة الفرقان الآية (٧٥) .

(٢) سورة الفرقان الآية (٧٤) .

(٣) سورة السجدة الآية (٢٤) .

(٤) إسناده حسن : بهذا اللفظ أخرجه ابن أبي عاصم في الزهد [٢٧٧] وأصله عند مسلم في حديث طويل : « إن الدنيا خضرة . . . الحديث » وأخرجه الترمذي وأحمد(٣/ ١٩ , ٢٢ , ٦١ , ٧٤)، وابن ماجة (٤٠٠٠) والحاكم (٤/ ٥٠٥).

(٥٦) راجع إتحاف السادة المتقين ١/ ١٥٩ .

وفي الخبر أنَّ الفقراء يدخلون الجنَّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، وبأربعين خريفًا ، وهذا التفاوت ما بين الخمسمائةإلى الأربعين من أجل أنَّ الفُقراء لا يستوون في الزُّهد ، والصبر فأعلاهم درجة الذين يدخلون الجنَّة قبل الأغنياء، بخمسمائة عام ، ثم الذين يلونهم / في الفضل حتى يكون ٢١٥/ب آخرهم زُمرة الذين يدخلون قبل الأغنياء بأربعين خريفًا ، ثم يدخل فُضلاء الأغنياء ، بعد المتأخرين من فُضلاء الفُقراء .

فتكون درجة فُضلاء الأغنياء بعد المُتأخرين من فُضلاء الفُقراء ، فتكون درجة فُضلاء الأغنياء في الجنة تحت درجة المُتأخرين من فُضلاء الأغنياء في الجنة تحت درجة المتأخرين من فُضلاء الفقراء ، ثم يترتب درجات الأغنياء في الدُخول زُمرة بعد زُمرة ، على قدر تقواهم في غناهم ، وقلة أموالهم ، الكثير المال . القليل التَّقوى يكون أبدًا تحت الذي هو أكثر منه تقوى في ماله ، وأقل مالاً حتى يكون أقلهم تقوى في ماله ، وأكثرهم في أسفل درجة في الجنة ، ومصداق ما أوضحناه قول رسول الله ﷺ : « **المكثرون هم الأسفلون إلا** » قالوا : يا رسول الله : إلا من ؟» قال : « **المكثرون هم الأسفلون إلا** » قالوا : يارسول الله إلا من ؟ قال « المكثرون هم الأسفلون » حتى والله خشينا أن تكون واجبة لكل مكثر ، قال رسول الله ﷺ : « **إلا من قال بالمال هكذا ، وهكذا أربع مرات بالليل ، والنَّهار ، وقليل ماهم** » (١) .

---

(١) إسناده صحيح : قاله البوصيري في زوائد ابن ماجة(٤١٣١) مختصراً من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه - ورواه أحمد ٢/ ٤٢٨ بتمامه . وفي إسناده : « ابن عجلان» وقد اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة -رضي الله عنه - وله شاهد من حديث أبي سعيد وفي إسناده عطية العوفي . وعن أبي ذر رواه ابن ماجة ،وقال البوصيري : « إسناده صحيح رجاله ثقات » .

وهذا المستثنى الذي قاله رسول الله ﷺ إنَّما استثناه بعد التوكيد ثلاث مرات لغلبته ، والاستثناء في العربية إخراج قليل من كثير ، والإشارة به إلى
١/٢١٦ فضلاء الصحابة الذين كان بأيديهم فضل مال / حلال ، ومن أشبههم إن وجد ، وكانوا أهل إنفاق في سبيل الله ، الخير من كل جهة عن يمين ، وشمال ، وأمام ، ووراء ، كما وصف النبي ﷺ في قوله : هكذا وهكذا أربع مرات » أي في [١] كل جهة من جهات الخير ، ولولا ذلك ما خرج أحد منهم بالاستثناء من الأكثرين .

والحكمة في ذلك أن السخاء بالمال وإخراجه من اليد في طرق الخير فقر منه ، وفقد له ، فإذا فقده من يده ، وأخرجه منها ، افتقر منه ، وإذا كان ذلك فقد تشبه بالفُقراء ، لأنَّ الفقر فقد المال ، وخُلوه من اليد ، ومن تشبه بقوم فهو منهم ، فهذا يبين لك فضل الفقر على الغنى لمن أنصف ، وفضل الزاهدين على غيرهم ، وفضل درجاتهم عند الله .

بيان

قال الله عز وجل : ﴿ إنَّ الله مع الصَّابرين﴾ [٢] ﴿ إنَّ الله مَعَ الَّذين اتَّقوا وَالَّذِينَ هُم مُحسِنُونَ﴾ [٣] .

ومثله كثير ، فهذه المعيّة هي مُجالسة الحق في مقعد الصّدق حالاً في الدنيا ، ومالاً في العُقبى ، فأمّا الحال في الدُّنيا فقد ورد في الخبر : « الفُقراء جلساء الله » [٤] وإنَّما كانوا جلساءه ؛ لأنَّهم طلبوه ، وقطعوا العلائق دونه بالصبر ، والزهد فانكشفت عن قلوبهم حجب الإكثار ، وتديّنوا لمولاهم

(١) تكررت [أي في] في الأصل .
(٢) سورة البقرة الآية (١٥٣) .
(٣) سورة النحل الآية (١٢٨) .
(٤) وقفت عليه بلفظ « . . . أصدقاء الله . . . » فالله أعلم ، راجع تنزيه الشريعة (٢/ ٣١٦) .

بالإجلال له ، والإكبار فكان ثواب تركهم للدنيا وصبرهم / على فقرهم ٢١٦/ب فيها ، الجلوس مع الله ، والنّظر في المعية ، والإحسانية إلى الله ، والعلم بالله ، لأنَّ قلوبهم خالية من الحجب الحاجبة ، وهذا لا يجده في الدنيا سواهم ، لأنَّ غيرهم محجوبون بالدنيا ، وقُلوبهم مشجونة [١] بالأغيار ، ومحجوبة بالشَّهوات ، والأوطار ، فإن نظروا إلى الله ، ورفعوا قلوبهم إليه بالرغبة ، والطلب منه ، فإنَّما ينظرون إليه في أفعاله ، ويستدلون - أعني الأكابر منهم - عليه بمخلوقاته ، فهم بين الأسباب ، ومع الحجاب أبدًا لم يذوقوا شيئًا من أحوال أهل التجريد الذي وجدوا الله بالموجد ، والموجود ، والغيبة والشهود ، من غير تكييف ، ولا تحديد ، وقال قائلهم :

« فلو كنت من أهل الوجود حقيقة لغبت عن الأكوان ، والعرش ، والكرسي ، وكنت بلا حال مع الله ، واقفًا تُصان عن التذكار للجن ، والإنس » فهذا بواب خُروجهم من الدنيا ، وفقدهم للأشياء في الحال .

وأما في العقبى فإنَّ الله يقول :

﴿ إنَّ أكرَمَكُم عِندَ الله أتقَاكم﴾ [٢] أي أتقاكم لما يقطعكم ويحجبكم عنه ، والكريم على الله هو الرفيع القدر عنده ، الوجيه لديه ، ودرجة الجاه عند الله وكريم المنزلة لديه هي درجات أهل عليين أهل الشفاعة ، والمنزلة والعناية ، والقُرب ، والكرامة ، درجات الرُّتبة ، والمكانة ، والحظر ، والعناية ، ولا رتبة / فوق العناية ، فهم أهل عليين أبد الآبدين ، ودهر الداهرين فافهم . ٢١٧/أ

وأمَّا دركات أهل النَّار فإنَّهم بالضد من هؤلاء المذكورين ، أكثرهم

---

(١) مشجونة : الشجن هو القرابة وفي الحديث : « الرحم شجنة من اللّه تَعالى » .

(٢) سورة الحجرات الآية (١٣) .

مضـادة للتقـوى وأكثرهـم مـالا أسفلهم دركًـا ، وأشـدهم عـذابًا ﴿ أدخلوا آل فِرعونَ أَشَدَّ العذَابِ﴾ [١] وأقلهم مضـادة للتَّقوى ، وأقلهم مالا أعلاهم دركًا في النَّار ، وأخفُهم عَذَابًا .

قال الله عز وجل :

﴿ ولاَ يَحسَبَنَّ الَّذينَ كَفَـرُوا إنَّما نُملي لَهُـم خَيرٌ لأَنفُسِهِم إنَّمـا نُملي لهم لِيزدَادُوا إثمًا﴾ [٢] وفي الخبر عن النَّبي ﷺ : « يدخل فقراء الكفـار بعد أغنيائهم بأربعين خريفًا » [٣] وروى أنس عن النبي ﷺ « أول من يقرع باب الجـنَّة عن أمتي فُقَـراؤهم ، وأكثر أهل الجنَّة من أمـتي ضُعـفاؤهم ، وشرار أمـتي ، وأول من يُساق إلى النَّار الأقماع » قيل يا رسول الله وما الأقمـاع ؟ قال : « الذين إذا أكلوا لم يشبعوا ، وإن جمعوا لم يستغنوا » [٤] .

---

(١) سورة غافر الآية (٤٦) .

(٢) سورة آل عمران (١٧٨) .

(٣) منكر : لم أقف عليه ، ومتنه في غاية النكارة ، ولا ريب . فالصبر على الفقر إنما يثاب به المؤمن كما استفرض من النصوص الشرعية الصحيحة ، أما الكفار تتفاوت دركاتهم في النار كتفاوت كفرهم . قال تعالى ﴿ الذين كفررو وصدوا عن سبيل الله ، زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ .
وأخبر الصادق المصدوق أن أخف الكفار عذاباً أبا طالب عمه . وهذا أصح ماورد في الباب ، والله أعلم .

(٤) هذا الحديث ليس عند أصحاب الأصول ، وقد سبرت فيه الكثير دون فائدة ، وله شواهد كثيرة .

الشُعبَة الخامِسَة والأربَعُونَ
التَوَكُل

أمَّا كونه من شعب الإيمان فبين ، لأنَّه في نفسه تصديق بالمتوكل فيه ، وعليه ؛ ولأنَّ الله عز وجل شرط الإيمان ، والإسلام بوجوده فقال : ﴿وَعَلَى الله تَوَكَلُوا إن كُنتُم مُؤمِنينَ﴾ (١) ﴿وَعليه فَتَوَكلُوا / إن كُنتُم ٢١٧/ب مُسلمين﴾(٢) وقال لقمان لابنه : « يا بني ومن الإيمان بالله التوكل على الله» ، وقال بعض الصحابة : « التوكل في نظام التوحيد ، وجماع الإيمان » وقال أبو محمد سهل : « من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان » والشواهد عليه من القرآن ، والسُّنة كثيرة ، يطول سوقها إلا أن منه ما هو فرض ، وفضل .

فالفرض واجب على جميع الخلق ، وهو : ما لا يصح الإيمان إلا به ، والفضل به يكمل الإيمان .

فصل

اعلم أن مقام التوكل ينتظم من أربعة أشياء :

متوكل ، وهو العبد ، وتوكل ، وهو حال العبد ، ومُتوكل فيه ، وهو ما ينال العبد ويلحقه من جميع الأشياء ، ومُتَوكل عليه ، وهو الله .

فأمَّا حدّ التَّوكل ، ومعناه فإنَّه يُعلم من وجهين : أحدهما من جهة الحق ، والآخر : من جهة الخلق .

---

(١) سورة المائدة الآية (٢٣) .

(٢) سورة يونس الآية (٨٤) .

فأما الذي من جهة الحق ، فهو قطع السكون ، والركون إلى الأشخاص، والأسباب لِعلمه أنَّها لا تضر، ولا تنفع ولاتُعطي ،ولا تمنع .

وأمَّا الذي من جهة الخلق ، وهو السكون ،و الركون والتَّوكل على الحق لعلمه أنَّه مُدبر الأمور ، والمفوض إليه مقاليد الملك كُله، فافهم هذين المعنيين ؛ فإنَّهما جَامعَات لمعاني التَّوكل كله، لا يشذ منه شيء .

ولفظة التَّوكل التي هي التَّاء ، والواو ، والكاف ، واللام ، يعطي
١/٢١٨ معاني التَّوكل كلها لمن تدبرها ، لأنَّ لفظة التَّوكل تُعطي معنيين/ وهو توكل على وزن تَفعّل في المضاعف ، وتَوَككُل على وزن تفعلل في الأصل ، ففي لفظه كافان ساكنة وأخرى مُتحركة ، فنصف الكلمة التي هو توك يُعطي معنى التوكي على الحق ، والتوكي هو الاعتماد ، والسكون والتفويض ، وغير ذلك ، وإذا توكا ، واعتمد عليه فقد قطع الاعتماد ، والتولي على ما سواه ، ونصف الكلمة الذي هو « كل » يُعطي أيضًا معنى الوكالة ، وهو أن يكل الأمور إلى مُدبرها ، الناظر فيها كأنه قال : توك على الحق ، وكل تدبير الملك كله إليه ، فافهم .

فصل

فإذا فهمت ما تقدم فاعلم أنَّ التَّوكل على ثلاثة أقسام كسائر المقامات الثلاث :

الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، والذوات الثلاث : الجسم ، والنَّفس ، والرُّوح ، لأنَّ التَّوكل يدخل في جميع الأشياء من أمور الدُّنيا ، والأخرى ، والرُّبوبية .

فأما المقام الأول الظاهر في عالم الحس ومقام الإسلام، فإن الأمور في الظاهر شيئان دينية ، ودُنياوية ، والتَّوكل فيها يكون بسبب ، وغير سبب ،

فالدينية يتوكل عليه في أن يُعطيك العون على القيام بالأمر ، والنَّهي ، وأن يُصلح أعمالك ، ويتقبلها ، ويصرفك ، عن المنهي ولا / ولا يبتليك به ؛ فإنه لا حول ، ولا قوة إلا به ، مع التسبب لاقتناء الخير ، واجتناب الشر ، لأن ذلك عمل لا ينوب فيه عنك غيرك . ٢١٨/ب

وأمَّا الدُنياوية فإنها على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول : وهو التلبس بالأسباب في جلب منفعة ، أو دفع مضرة ، فتتوكل عليه في جلب الرزق ، والمنافع ، وتوصيلها إليك بيدك ، أو بيد غيرك حتى في رفع اللقمة إلى فيك ، وإعطاء القُوة لرفعها ، وفي تهيئة معدتك ، وأعضائك لقبُولها حتى يتهنأ العيش ، ويصل النَّفع إليك ، وتَتَوكل عليه في دفع الأسقام [1] ، والآلام بتداوٍ وغير تداوٍ .

وفي دفع السرق عنك بغَلق ، أو غير غلق ، وفي دفع المكاره ، والمضرات كلها عنك ، وعن أسَبابكَ ، ومالك ، وفيً حفظ جميع أحوالك بسبب ، وغير سبب ، فإن أسباب الدُّنيا تأتي بسبب ، وبغير سبب ، فيعتقد المكتسب ، والمُتداوي ، والحارز [2] لما له ، والغالق بيته .

والمكتسب في جميع أُموره أنَّ الكسبَ لا يجلب إليه رزقًا ، بل الكسب سبب والرزاق هو الله ، والطبيب والدواء سبب ، والشافي هو الله ، والغلق سبب ، والحفظ سبب ، والحافظ هو الله ، لا الملاح [3] ، ولا الرئيس الحاذق [4] يُنجي من الغرق ، ولا الريح ، والسفينة ، ولا الألواح ، ولا الكلب النابح ولا شيء من الأسباب ، فإن خلا قلب عبد من هذه

(١) الأسْقَام : جمع سَقم وهو المرض الذي يطول .

(٢) الحارز : أي المدُخر لوقت الحاجة .

(٣) الملاَّح : الذي يقود السفينة أو يعمل عليها .

(٤) الحاذق : حذق فلان العمل : أوغل في ممارسته حتى مَهَرَ فيه .

الاعتقادات ، نطق فقال : لولا كسبي ، وكلبي ، ومالي ، والطبيب ، والملاّح الفلاني هلكنا ، وضررنا ، فذلك شرك ، وطَعن في الإيمان يجب الاستغفار منه ، والرجوع إلى عقد الإيمان واَعتقاد التَّوكل ، وهذه المنزلة : الأول من التَّوكل علامة صحة توكل المُتسبَب فيه ، المُتحقق في طلب الحَلال .

وأمَّا **الضرب الثاني** من هذا المقام الظاهر ، فهو الخُروج عن الأسْباب ، وتركها ، والاعتماد على الله بلا سبب ، انتظاراً لما يفعل الله ، وهذا المقام لأهل القوة ، ولَيس بفرض ، وَإنَّما هو فضيلة يختص بها أهل العزة باللَّه ، ﴿**وَمَن يَتَوكَّل عَلَى اللـه فـإنَّ اللَّه عَـزيزٌ حكَيم**﴾ [(١)] وفي هذا المقام الأنبياء ، والصِّديقون ، والأولياء ، ومن أهل هذا المقام ؟ هم الذين يدخلون الجنَّة بغير حساب .

عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال : « **يدخل من أمتي الجنَّة سبعون ألفًا تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر ،بغير حساب ، قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : هُمُ الذين لا يَكْتَوُون ، ولا يسترقون ، وعلى رَبِهم يَتَوكَلُون** » الحديث إلى آخره [(٢)] .

٢١٩/ب وروواه ابن عباس من طريق آخر ، ورواه سهل بن سعد / أيضًا ، وفيه زيادة [(٣)] .

عن سلب بن سعد ، أن رسول اللهﷺ قال : « **ليدخلن الجنة من أُمتي**

---

(١) سورة الأنفال الآية (٤٩) .

(٢) صحيح : متفق عليه من حديث أبي هريرة ، البخاري(٨/ ١٤٠) ، ومسلم في الإيمان (٣٦٧) .

(٣) صحيح : متفق عليه من حديث ابن عباس -رضي الله عنه - أخرجه البخاري في الطب (١٠/ ١٣٠-١٣١)، ومسلم في الإيمان (٣٧٤) (٢٢٠) .

سَبْعون ألفًا ، أو سَبعمائةَ ألف مُتَمَاسِكُون ، آخذ بَعضُهم بعضًا ، لاَ يَدْخل أَوَّلُهم حتى يدخل آخرهم ، ووجوههم على صورة القمر ليلة البدر» [١] .

أو في قوله : « أو سبع مائة ألف تكون بمعنى الواو ؛ لأن رسول الله ﷺ لا يحدث بالشك، فيكون معنى الحديث « ليدخلن الجنة من أمتي سبعو ألفًا وسبعمائة ألف »أو بمعنى « الواو » في كلام العرب كثير ، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأَرسَلنَاه إلى مـائَة ألف أو يزيدون ﴾ [٢] معناه يزيدون ، وقولَ : ﴿فكَانَ قَابَ قَوسَين أو أدنَى ﴾ [٣] معناه : وأدنى ؛ لأن الله سبحانه لايشك ، عز عن ذلك، وجلّ .

وفي هذا المقام قيل لأبي بكر : « ألا تدعو لك طبيبًا فقال : « الطبيب أمرضني » وقد أدخل الله في هذا المقام المهُاجرين ، وأصحاب رسول اللهﷺ أخرجهم من مكة من ديارهم ، وأموالهم ، فبقوا مع الله بلا سبب ناظرين إلى ما يجري عليهم ، وكذلك كل من هاجر إليه ، وترك أهله ، وماله ، من سائر الأقطار ، وخرج بغير شيء .

وفي هذا المقام تظهر صحة التَّوكل، وصَدْقه من سقمه ، وكذبه ، وقد يكون في الفيافي [٤] والقفار [٥] فمن الأولياء من خَرج عن/ الأمصار [٦] وقطع ١/٢٢٠أ الأسباب كلها ، فيخرجون بغير زاد ، ويسكنون التيه [٧] والجبال ، وسواحل

---

(١) صحيح : متفق عليه من حديث سهل بن سعد ، البخاري (٨/ ١٤١) ، ومسلم في الإيمان (٣٧٣) (٢١٩) .

(٣) سورة الصافات الآية (١٤٧) . (٤) سورة النجم الآية (٩).

(٥) الفَيافِي : جمع فَيْفَاء وهي الصحراء الواسعة المستوية .

(٦) القِفار : جمع قَفْرٌ : وهي الخلاء من الأرض لامَاء فيها ولا كلاء .

(٧) الأمصار : جمع مِصْر وهي : المدينة الكبيرة تقام فيها الدُّورُ والأسواق والمدارس والمرافق العامة وغيرها .

(٧) التِّيه : الأرض ليس فيها علامة تدل عليها : وهي الأرض المضلة المتوهة .

البحر ، وهذا لا يُجله إلاّ صدِّيق عَظيم ، وولي كَريم ، ولا يَنْبَغي لأحد أن يتعاطاه إلا أن يدخل عليه بغير اخْتِيار ، ويكون من أهل القُوة ، فيَطرح الكل ، ويلقى على الله الكل .

ومنهم من يكون في البلاد ، ومع أبناء الجنس ، وهم الأكثرون ، ولا يضرهم ذلك إذا كانوا صادقين ، فإنَّ الله مُسخر الخلق أجمعين ، وهو حال أهل الصّفة [١] وغيرهم ، وحال المصطفى ، والنَّبيين ، كانوا مع الخلق ، وهم في مقام التوكل مع الحق ، وهذه المنزلة الثانية من التوكل علامة توكل التارك فيه للسبب التحقق في إخلاص اليقين .

وأما **الضرب الثالث** في هذا المقام الظاهر فهو الرُّجوع إلى الأسْباب بَعد الخُروج منها كما ذكرنا آنفًا ، يُرجعهم الله إلى الأسباب بعد الخروج منها كي يستوى حالهم في أحد السبب ، وتركه ، ولا يشاهدون في الحالين إلا الله ، وقد درج فيه الصحابة الكرام ، والتَّابعون الأعلام ، فكانوا يكسبون ، ويتطيبون ، ويغلقون بيوتهم ، ولا يشاهدون إلا الرازق السّاقي ، الحافظ ، ادخلهم الله في الأسباب ، قدوة يقتدى بهم ، ورحمة بنا ، وبالضعفاء أمثالنا .

٢٢٠/ب فقد كان سفيان الثوري ، وإبراهيم بن أدهم من كبار المتوكلين/ وكانوا يحصدون ، ويحفظون البساتين وكان من الأولياء المتوكلين ، صُنَّاع ، وتجار ، وغير ذلك إلا أنهم مشاهدون يد الوكيل ، واقفون بقلوبهم مع الجليل ، ينظرون تدبيره ، ويشاهدون تقديره لعلمهم أنه قد فرغ من الأمور ، فهو ينفذها ، ويسوقها في أوقاتها إلى أهلها من إعطاء ، أو منع ، أو نفع ، أو ضر .

---

(١) الصُّفَّة : مكان مظلل في مسجد المدينة كان يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول وهم أهل الصُّفَّة .

وهكذا ينبغي أن يكون المتوكل لا يتوكل ليعمل له مُراده ، ويصنع له اخْتيـاره ، إنَّمـا يتـوكل ليفـعل الله مـا يشـاء ، ويحكـم ، وإلى هذا أشـار «أبوَزيد» حين حـدّ التَّـوكل فقـال كـلامًا كـثيـرًا معناه : أنَّ التـوكل هو ترك التـمييـز لبعض الأمور دون بعض فـقـد أقيم المتوكلون في هذا المقـام على ضربين ، فمنهم من حفظ ، وكَفَى ، وأسْلم .

وأعطى مراده ، ومنهم من قُتل ، وضُرب ، وأُهلك ، وأُميت جوعًا ، كـيحيى عليه السلام ، نُشر بالمنشار ، وضُرب محمد ﷺ وأدمى ، ومـن الأنبياء من مات بالجوع ، والقُمل ، ومن الأولياء كذلك ﴿وَكَأَيِّن مِن نَبيٍّ قَاتَلَ مَعَـهُ ربِّيون كثـيرٌ﴾ [1] والكل مـتـوكلون ، قـائمـون بأحكـام التـوكل ، وذلك الفـعل بهم زائد في كـرامتـهم ، ومظـهـر لمكانتـهم ، ومن حـفظ ، وكـفى ، كـالنبي عليه السـلام وقف على رأسه رجل من الكفـار و السيف في يده ، والنَّبي نائم تحت الشـجـرة على خلوه : فـفـتح عـينَيـه ، فـقـال له الرجل : «أتخافني » قال : لا ، فقال : « مَنْ يمنعك مني » فقال : « اللّه » ، فـارتعدت يده بالسيف ، ولم يصنع / شيئًا ، ثم ولى الرجل . ٢٢١/أ

وكإبراهيم عليه السـلام حين عرض له جـبريل في كـفته المنجنيق [2] فجاءه السبب للنجاة ، وهو جبريل السلام ، فقال له : ألك حاجة ، فقال : أمَّا إليك فلا » فكفاه الله وجعل النّار عليه بردًا ، وسلامًا .

وكَهُودَ عليه السلام حين أغرى قَومُه ، وحَرْضَهم على إهلاكه بقوة التَّوكل ، فقال : ﴿ فكيـدوني جَمـيعًا ثُمَّ لا تُنظرون إنّي تَوكّلت عَلى الله ﴾ [3]

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٤٦) .

(٢) المنجنيق : آلة قديمة من آلات الحرب ، وحصار المدن كانت ترمَى بها الحجارة الثقيلة على الأسوار لتهدمها .

(٣) سورة هود الآية (٥٥ ، ٥٦) .

فعوفيي، ولم يقدروا له بشيء ، لأن الوكيل كفاه حين لم يُشاهد إلاّ يد الوكيل قابضة على نواصيهم [١] ، ألا تراه كيف قال : ﴿ مَامن دَابَّة إلا هُوَ آخذٌ بنَاصِيتها ﴾ [٢] كأنه قال لهم : وأنتم من جملة الدَّواب ، لا يتحركون إلا بتحريكه ، ولا يسكنون إلا بتسكينه ، وبمثل هذا خاطب « نوح » قومه حين أظهر عليهم قوة توكله فقال ﴿إن كَانَ كَبرَ عليكُم مَقَامي وتَذكيري بِآيات الله فَعلى الله تَوكَّلتُ ﴾ [٣] فلما أظهر لهم توكله أغراهم ، وأغضبهم ، فذكر آلهتهم فقال :

﴿ فَأجمعوا أمَركُم وشُركَاءَكُم ، ثُمَّ لا يَكُن أمرُكُم عَلَيكُم غُمَّة ثم اقضُوا إليّ ، ولا تُنظرونِ ﴾ [٤] فما استطاعوا قتله ، ولا تعجيزه .

وفي هذا المقام سُخرتَ للأنبياء ، والأولياء السبَاع والهَوَام ، ولم ٢٢١/ب يهابوها ، بل هابتهم ، لأنهم لا يشاهدون إلا المسبب في / الأسباب ، كانت بيد الغير ، أو بأيديهم ، كما قال تعالى :

﴿ قَاتِلُوهُم يُعَذّبُهم الله بِأيدِيكُم ﴾ [٥] .

فاعلم أن الأيدي ، والأسباب بيده كالآلة بيد الصانع إن شاء أمضى ، وإن شاء صرف ؛ فمنهم من يكفى ، ومنهم من لا يكفي ، ومنهم من يشفى من مرضه ، ومنهم من لا يشفى ، فاستوى عندهم كون السبب ، وعدمه ، وهذا هو التوكل الظاهر في مقام الإسْلام .

---

(١) نواصيهم : مقدمة رؤوسهم أي متمكن منهم .

(٢) سورة هود الآية (٥٦) .

(٣) سورة يونس الآية (٧١) .

(٤) سورة يونس الآية (٧١) .

(٥) سورة التوبة الآية (١٤) .

فصل

اعلمْ أن عَقَدَ التَوكل ، وربطه تَصْحيح اليقين ، وصحة اليقين أن يعلم العبد علم يقين أنَّ الله قدر المقادير ، وأنفذ الحُكم ، والتَّدبير فلا يرد ما قَدَر ، ولابُد مما حكم به ، ودبر ، وأن الله جل جلاله ، وتقدست أسماؤه جعل لكُل أحد من خلقه رزقًا معلومًا مُكيلاً ، موزونًا مُسمى باسم صاحبه ، لا يتعداه ، وًلا يرجع أبدًا إلى سواه .

ثُمَّ فضله في تنفيذ المقادير كما قَدَّره قبل تنفيذه فجراه على السِّنين لا يدخل رزق سنة على سنة أخرى ، وعلى الشُّهور لا يدخل رزق شهر على شهر آخر ، وعلى الجمع لا يدخل رزق جمعة على جمعة أخرى ، ثمَّ على الأيام لا يدخل رزق يوم على يوم آخر ، ثم على الساعات لا يدخل رزق ساعة على ساعة أخرى ، ثمَّ على الأنفاس ، لا يُدخل رزق نفس على نفس آخر ، منذ خلق الله العبد ، وخَرَج إلى الدُنيا ، وعند أوّل سُقوطه من البطن إلى آخر نفس يخرج من الجَسَد الروُح .

ولذلك قال الله عز وجل/ . ١/٢٢٢

﴿ الله الَّذي خَلَقَكُم ثُمَّ رَزَقَكُم ثُمَّ يُميتُكم ﴾ (١) فجعل الرزق بين بدء الخلقة الأولى ونزول الموت ، فكل رزق قُدر للعبد عند سقوطه من بطن أمه لا يأخذه في النفس الذي بعده ، ولا في الساعة التي بعد تلك الساعة ، ولا في اليوم الذي بعد ذلك اليوم ، ولا في الجمعة التي بعد تلك الجمعة ، ولا في الشهر الذي بعد ذلك الشهر ، ولا في السنة التي بعد تلك السنة ، وهكذا في باقي عمره ، ما قدر للعبد عند طلوع الفجر لا يناله عند طلوع

(١) سورة الرُّوم الآية (٤٠) .

الشمس ، ولا يتأخر عنه ، وما قدر له عند طلوع الشمس لا يناله عند طلوع الفجر ، ولا يتقدم له ، ولو طلبه ، بكل حيلة ، في السموات والأرض ، ولو أعانه على الحيلة فيه أهل السموات ، والأرض .

فلمَّا علم المؤمنون أنَّ الأمر هكذا توكلوا على الوكيل الذي له مقاليد المُلْك كلها ، مَوكولة ، مُفَوضة إلى تقديره ، وسكنت قلوبهم عن الطمس ، والتشوف إلى غير ما قدر ، فهم ينتظرون مجاري الأقدار كما قسمت وجريت على الأعمار ، والعُمر هو اخْتلاف الليل والنهار ، ولا ينال العبد شيء من المقدار إلا في وقت ربط به ذَلك الشيء المقدور ، والوقت هو الزَّمان الذي ينشأ نفسًا بعد نفس ، وسَاعة بعد ساعة ، ويَومًا بعد يوم ، إلى
٢٢٢/ب انقضاء الآجال / .

والزمان مُرتبط بحركات الأفلاك مزمومة بيد القدرة الأزلية زمًا لابد منه ، لاتفلت حركة واحدة عن ذلك الزَّم ، ولا تخرج عنه ، وخزائن الأرزاق في جميع الآفاق بيد الرزاق ، هو يجري الإنفاق ، ولا يخاف الإملاق [1] : ﴿ قُل لَو أَنتُم تَملكُونَ خَزَائِنَ رَحمَة رَبي إذًا لأَمسَكتُم خشيَةَ الإمْلاَقِ ، وكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا ﴾ [2] .

﴿ وَلله خَزَائِنُ السَّموات والأَرضِ ، ولكنَّ المُنافقينَ لا يَفقَهونَ ﴾ [3] فمن شهد بنور اليقين ملك البارى وزمه للأشياء على أنّه وحده يُنفق كيف يشاء فوض الأمر بالتَّوكل إليه ، واستسلم لما قدر ، وأجري عليه ، فحينئذ يكون حال المُتوكل ترك التَّدبير ، ومُشاهدة التَّقوى ، فيَصحُ يقينه ، ويُصفِّى إيمانه، ويستوي عنده منعه ، وعطاؤه ، فافهم لأي شيء يستوي المنع

(١) الإملاق : الافتقار .

(٢) سورة الإسراء الآية (١٠٠) .

(٣) سورة المنافقون الآية (٧) .

والعطاء عند أهل الصَفاء ، فَأَيْقن أنَّه لا تخرج ذرة من يده فما فَوقها إلا بمشيئته .

فصل

وأمَّا المقام الثاني منَ التَّوكل في مقام الإيمان ، فهذا التوكل في أمور الآخرة كلها ، ولا يكون إلا بسبب ، وترك المسَبب فيه مَعْصية ، وكُفران ، وبدعة .

وأسْباب هَذا المَقَام هي وظَائف الدِّين ، وشَرائع المُرْسَلين ، لاَيَتْركها إلاَّ زنْديق مَارق [1] ولاَ يَطرحَ / أسْبَابها إلاَّ مُبْتَدع ، أوَ فَاجر فَاسق، بَل قَد ١/٢٢٣
خَتَم اللَّه على نَفْسه ألاَّ يُعطى الآخرة إلاَّ بسَبب ، وأسْبَابها الإيمَان ، والتَوحيد والصَّلوات ، والزَّكوات ، والذِّكر ، وغَير ذَلك ، منْ أُمور الدِّين ظَاهراً ، و بَاطنًا ، وقَد اسْتَشَار الصحابة رضْوان اللَّه عليّهم رسُول اللَّه ﷺ في هذا التَّوكل الأُخْراوي بغَير سَبب فَمنعَهَم ذَلك ، وَورَد في الصحيح عنْ النَّبي ﷺ أنَّه كَان في جَنَازَة فَجَعل يَنْكت [2] في الأَرض فَقَال : « مَا منْكُم من أَحد إلاَّ وقَد كُتَب مقعدهُ منْ الجَنَّة والنَّار » قَالوا يَارسُول اللَّه : « أفلا نَتكل» فَقَال : «لاَ . اعْملوا فكلٌ مُيسّرا لمَاَ خُلق لَه ثم قَرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتقَى ﴾ الآيتين [3] .

ورَوى ابن عَباس قَال : قَال رسُول اللَّه ﷺ : « صِنفان من أُمّتي لَيس لَهُما فِي الإسْلام نَصِيب : المُرجئة ،والقَدَرية » [4]

---

(١) المارق : النافذ في الشيء لا يتعوج فيه وهو الخارج من دينه .

(٢) يكنت : يؤثر فيها بعود أو نحوه .

(٣) صحيح : أخرجه البخاري من حديث علي -رضي الله عنه - كتاب التفسير * باب ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ (٤٩٤٥) .

(٤) ضعيف جداً : رواه الترمذي (٢١٤٩) وابن ماجة (٦٢) وابن أبي عاصم (١/ ١٥٣ السنة) =

والمرُجئة هي التي تَتكل عَلى مَا سَبق ، ولاَ تَرى العَمل ، ولاَتَعْمل ، فَسَاوت القَدرية في شركها حين أشْركَت ، وإنَّما يَنال مَنَافع الآخرة ويُنَجَّى منْ أهْوالها ، ومَضرَاتها بالتَّوحيد ، والاجتهاد في الأعْمال مَع التَّوكل عَلى اللَّه ، وتَركَ التعْويل عَلى الأسْبَاب ، والنَّظر إلَيْهَا لأنّ العَمل خَلْقٌ منْ جُملة
٢٢٣/ب المخْلُوقات ، فكمَا يُعْتَقد في المُخْلُوقات أنَّها لاَ تَضر / ولاَ تَنْفع كَذلك في الأعْمال ، وهَذا هُو مَعنى قَول النَّبي ﷺ : « **لنْ يدخل الجنَّة أحدًا منْكم عَمَلهُ قَالوا : ولاَ أنْت يَارسُول اللَّه ؟ قَال : ولاَ أنَا : إلاَّ أنْ يَتَغمدني اللَّه بِرحَمة منْه وفَضل** » [1] .

وقد قال اللَّه عَز وجَل :

﴿**ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[2] و﴿ **وأُورثتمُوهَا بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ**﴾[3] و﴿ **إنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْملُونَ** ﴾ [4] و إنَّما مَعنى هَذه الآيَات : منْ أعطَيته إيماناً وعَملا ، وو فَقته إليْه فَقَد أعْطَيته بَرآءة يأتيني بها فَأُنَجِّيه وأُدْخله الجنَّة ، لأنّ العَمل هُو المُنجَي والنافع .

وإذَا اعْتَقد العَامل ذَلك في أعْمَاله و تَوكل عليها دَخَله العجب ، والفَسَاد ، وإنَّما يَنْتفع بِكثرة التوحيد فيها ، والتَبري منْها ، والتّوكل عَلى خَالقها .

=ضعفه الشيخ الألباني -حفظه الله - وانظر العلل المتناهية لابن الجوزي (١/ ١٥٢، ١٥٤٠) ، والتذكرة [١٥] .

(١) **صحيح** : متفق عليه من حديث عائشة -رضي الله عنها - البخاري (٧/ ١٥٧)، ومسلم في صفات المنافقين (٧٥) [باب ١٧] .

(٢) سورة النحل الآية (٣٢) .

(٣) سورة الزخرف الآية (٧٢) .

(٤) سورة الطور الآية (١٦) .

وبذلك أمر اللّه نبيّه عليه السّلام فقَال : ﴿وَلِلَّه غَيْبُ السَّمَوات وَالأَرْضِ وَإِلَيْه يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُه فَاعْبُدْهُ وَتَوكَّلْ عَلَيْه ﴾ (١) فَأمَره بالعبَادة ثم قال ﴿وَتوكَّلْ عَلَيْه﴾ لاَ عَلى عبَادَتك .

وكذلك أمره بقيام الليْل فقَال : ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمّلُ قُمْ اللَّيْلَ ﴾ (٢) وأمَره بتَرتيل القُرآن وقَال : ﴿ورَتّلِ القُرآنَ تَرْتيلاً ﴾ (٣) وأمَره كَذلك بَالذّكَر ، والأنقطَاع إليْه فقَال : ﴿واذْكُرِ اسْمَ رَبّكَ وتَبَتَّلْ إليْهِ تَبْتيلاً ﴾ (٤) أيْ انْقَطع إليْه ، ثمَّ قَال لَه بَعد ذَلك كُله :

﴿فَاتَّخذْهُ وَكيلاً ﴾ (٥) أيْ تَوكل عليْه لاَ عَلى عبَادَتك ، ولاَ تلاوتك ، ولاَ ذكْر ، ولا انقْطَاع ، فَيعَمل العَبد ، ويَتوكَّل عَلَى خَالقه أنْ يَحفَظَه في عَقله ، ويَحْفَظه فى إيمَانه / منْ الخَلل والزيغ وفي تَثبيته ، وفي إدَامته ، في حُسن الخَاتمة والثبَات في زلزَال المَوت الذي لاَ تَثْبت لَه الجبال الرَواسي . ١/٢٢٤

وصَرف الفتن في ذَلك المقَام ، وفى القَبر والمُسَاءلة ، والنَّجاة منه ، وتَسْهيل أمُور الآخرَة وأهْوال القيامةَ كُلها ، وزَلاّت الصِّراط ، وشَدَائد الحسَاب ، والميزان ، ودخول النَار والنجاة منها ، فَإنَّ الكُل بيَده ، وهُو المنجي منها ، وفي دُخول الجنَّة ونَيل السعادة فَيَعمل العَبد ، ويَتَفَرغَ إليْه في كُل الأَوْقَات ، في ذَلك ، ويَتوكَّل عليْه وحَده سُبحانه لاَ عَلى سواه .

---

(١) سورة هود الآية (١٢٣) .

(٢) سورة المزمل : الآية (١ ، ٢) .

(٣) سورة المزمل الآية (٤) .

(٤) سورة المزمل الآية (٨) .

(٥) سورة المزمل الآية (٩) .

فصل

فأمَّا المقَام الثالث: منَ التوكل في مقَام الإحسَان فَهُو التَّوكل عليْه في نَيل القُرب منه ، والفَوز به ، وهُو تَوحيد مَحض [(١)] واعْتمَاد عليه ، لهُ صَرف العلة ، يجْذب العَبد جَذبة فيفْنيه عن نفسه ، وعن تَوكله ، ويُكْرمه بالأُنْس [(٢)] به ، والظفر به سُبحانه ، وهَذا توكّل الهِمم الرَّفيعة ، والعُقول الرَّاجحة السليمة .

وأسْبَاب هَذا المقَام تَصفية الأسْرار منْ جَميع الأغْيار وسيَاحة العُقول في طُرق الأفْكَار ، ومُلازمةَ الأذْكار في أوْقَات اللّيل والنَّهار معَ الخُروج بالتوكل عنْ جَميع ذَلك ، وعنْ التَّوكل بَل يَنْظر إلى عَين الوُجود ، والمنّة ، ويتَعرض لنفحَات الرَّحمة غَير مُعْتمد عَلى الأسباب مَع كَثرة الاَجْتهاد/ . ٢٢٤/ب

ولَو تَتَقَطع الأكبَاد ، وذَلك منْ أجل أنّ الرَّب جل جَلاله رَفيع القَدر ، عَظيم الخَطر فَلو تَلفت كُل الأرواح فيه لكَان يَسيراً ، ولَو بَذلت المُهج [(٣)] كُلها فأهْلكت عليْه ، لكَان نَذراً حَقيراً ، ولَو تَقرب العباد إليه بجميع أنْواع عبَادةَ العَالمين لَمَا كَان كَثيراً .

ولاَ يُقال : أنَّ تلك الأسْباب تَستَحق مَعنى من مَعاني التَّجلى الكَريم ، فَإن ذَلك المَعْنى المُتَجلى منه لاَ يُقاس قَدر قيمته بشَيء ولاَ تَعرف لَه قيمة ،

---

(١) المحض : كل شيء خلص حتى لا يشوبه شَيء يخالطه .

(٢) الأُنْس : الأنس به ملاطفته وإزالة وحشته والمعنى أن العبد يكون في كنف الله فيفرح بذلك ويأنس .

(٣) المهج : الدم ، وقيل : دم القلب خاصة ، وخرجت مهجته - أي روحه .

ولاَ قَدر لرفْعَته وعَظيم خَطره ، فكيف يَنال بالسَّعَايَات [١] ، بَل السَّعَايَات تَعرَّض للنَفحات [٢] فَإنْ جَذبَ سرَّ عَبْد من هَؤلاء المَذْكُورين نَفسًا وَاحداً ، وأعْطَاه منه مَعْنى منْ مَعَاني المُقَربينَ ، فَقد أعطاه مَالم يُعط أحداً من العَالمين ، وَلا يَقوم بشكر ذَلك أبدَ الآبدين ، فَتوكل عَلى اللّه ، إنَّ اللّه يُحب المُتوكلين .

ومنْ أحبَّه فَقد جَذبه ، ومْن جذَبه فَعَن غَيره ، وبنَفسه أكْرَمه ، فَعند ذَلك كَان كَافيه وحَسَبُه ، من سواه ، فَلاَ يُريد ، ولاَ يَطْلب إلاَّ إيَّاه ، لاَ يُريدُون به بَدلاً ، لاَ يَبْغُون عنّه حولاً .

أرسل ذَا النُّون « وسادة » [٣] إلى أبي يَزيد البَسْطَامي يَتَوكأ عليْه ، فَقَال أبُو يَزيد لسَائقَها : قَال لأخي ذي النون : « منْ كَان أتَّكَاؤه عَلى الحَق لاَ يَحتَاج إلَى وسَادَتك » / فَقَال ذو النُّون : « هَنيئًا لهَ » فَهذا تَوكل عليْه له وبه ، ولاَ يَطيق حَمل ذلك إلاَّ المُحَلولون في تَوكلهم بغَيرهم لاَ بأنْفسهم ﴿ذَلكَ فَضْلُ اللَّه يُؤْتيه مَنْ يَشَاء وَاللَّهُ وَاسعٌ عَليمٌ﴾ [٤] حَقيقَة ، قالَ اللَّه عز وجَل : ١/٢٢٥

﴿وَالَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ منَ الْجَنَّة غُرَفًا تَجْري منْ تَحْتهَا الأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا وَنعْمَ أَجْرُ الْعَاملينَ﴾ [٥] ثم نَعتَهم فَقَال :

﴿الَّذينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٦] فَنعَتَهم بالصَّبر ، والتَّوكل .

---

(١) السَّعايات : سَعى إليْه : أي قصده وتوجه إليه .

(٢) النفحات : جمع نفحة : العطية . والطيب الذي ترتاح إليْه النفس .

(٣) الوسادة : المخدة .

(٤) سورة المائدة الآية (٥٤) .

(٥) سورة العنكبوت الآية (٥٨) .

(٦) سورة العنكبوت الآية (٥٩) .

وقول العرب : « بوَّأت الرَّجل منزلاً ، وأبأته : أنزلته » والغرفة في لسان العرب العلية فدلت الآية أنَّ أهل الصبر والتوكل هم أهل عليين ، سكنَّاهم المنازل الرفيعة ، ولذلك هم في الدُّنيا ساكنون فى المقامات بالصَّبر على اللَّه ، والتَّوكل عليه ، أجسامهم فى الأرض وبواطنهم عند الوكيل ، ثابتون عنده فى عليين بالصبر ، والصبر هو الثبات ، فكأن ثوابهم في الآخرة على حسب أحوالهم : ﴿ جزاءً وفاقًا ﴾ (١) ، لأنَّهم صبروا عن الدنيا السافلة وارتفعوا إلى مولاهم بالهمم العالية .

فصل

قال اللَّه عز وجل في إبليس : ﴿إنَّهُ ليْس لهُ سُلْطانٌ على الَّذين آمنُوا وعلى ربِّهِمْ يتوكَّلُون ﴾ (٢) .

أخبر فى هذه الآية أنَّ المؤمنين ، أهل التَّوكل خرجوا عنْ مملكة إبليس ، وسلْطنته ، وولايته ، وإنَّما خرجوا عنْ ذلك برفع الهمم إلى اللَّه ، وسكنَّاهم فى مقامات الإيمان ، والتَّوكل على الوكيل ، ومقامات الإيمان والتوكل درجات ومنازل في عليين عنْد العلى الأعلي ، والدُّنيا هي مملكة/ ٢٢٥/ب
إبليس ، وفيها يتولى سلطانه أهلها .

فالخارج عنْ سلطانه ومملكته ليْس له مأوى إلاَّ عنْد العلي الأعلى ؛ لأنَّه فارٌ من مملكة العدوّ السفلى فساكنهم حالاً في الدنيا ، ومالاً في العقبى ، وفي الغرفات والدرجات العلى ، وهذا كله يدل أنَّهم أول منْ يدخل الجنَّة ، لأنّ الجنَّة فى العلا وسقفها عرش الرَّحمن ، فإذا قاموا منْ قبورهم بالبعث قاموا إلى قصورهم بلا حساب ، وكذلك كانوا في الدنيا ،

(١) سورة النبأ الآية (٢٦) .

(٢) سورة النحل الآية (٩٩) .

قَاموا بأرواحهم منْ هَذا العَالم الخَسيس [١] الدنياوي ، ومنْ قبور أجسَادهم إلي علَيين ، فَدخَلوا المَلكوت ، والنَّاس خَارجُون عنْه ، مَشغُولون بالدُّنيا ، مُكبُوبَن عليْها ، فَوجَدوا رَوح اليقين ، ولذَّة النَّعيم باللَّه ، والدَّار الآخرَة .

وفي الخَبر أنّ قُلوب الأغنْياء لاَ تدخل مَلكوت السماء ، وفي الخَبر عنْ اللَّه : ﴿إنَّ القُلوب المُعلَقة بالشَّهوات مَحْجُوبة عَني﴾ .

فَهُم أوَّل منْ دَخل الجنَّة في الدُّنيا بالمعنى وهمْ أول منْ يدخلها حَقيقة
في العُقبى ، مصْداق مَا أوضحَناه ، مَا خَرجه أبو هُريرة في الصحيح / : أنَّ ١/٢٢٦
رسُول اللَّه ﷺ قَال : « **يَدخل من أُمتي الجنَّة سَبعون ألفاً تُضيء وجُوههم إضَاءة القَمر ليْلة البَدر ، بغَير حسَاب، قيل: ومنْ هُم يَارسول اللَّه ؟ قَال : هُم الذين لاَ يَكْتَوون ،ولاَ يَسْتَرقُون، وَعلى ربِّهم يَتوكَّلون** » [٢] .

وإذَا دَخلوها بغَير حسَاب بَقي الغَير في الحسَاب ، والجزَاء يكْتَوون بنَار جَهنم ، ومُشَاهَدتَها ، وحَرارة الحسَاب ، والسؤال عنْ الأموال ، وكَي الجباه ، والجُنوب ، والظُهور ، علَى تَرك إنْفَاقها في سَبيل الخَير التي هي سَبيل اللَّه ، وعَلى الإسْنَاد ، والتَوكي ، والاعْتماد عليْها ويَسْترقُون بالتَعوذ منْ مفزِّعَات أهوال القيَامة التي لاَ مُفزع مثْلَها ، ويَتطيرون بالدُنيا المَشْؤمة عليْهم القَاطعة لَهم عنْ الرَّاحَة من العَذَاب والحسَاب ، والفَوز بمَنازل أهل الأقْتراب ، ولذلك جَاء في الحديث المُتقَدم في صفة السابقين إلَى الجنَّة حين سُئلَ عنْهم فَقالَ : «**هُم الذين لاَ يَكْتَوون ولاَ يَسْتَرقون** » وفي بَعض الأحَاديث «**ولا يَتَطيرون وعَلى ربِّهم يَتَوكلون**» .

---

(١) الخسيس : الحقير الرذيل التافه .

(٢) صحيح : تقدم تخريجه من حديث أبي هريرة وابن عباس وسهل بن سعد -رضي الله عنهم- .

فصل

فأمّا إضَاءة وجُوههم كَالأقْمَار؛ فَإن ذَلك ثَواب تَرك نَظرهم، وتَوَجّههم إلى العَالم النوراني الأخُراوي العُلوي بالإقْبال عَلى اللّه، والدَّار الآخرة النُّورَانية، والرَّغبة فيها، والإعْراض عنْ الدنيا المُظلمة، والهُروب عنْهَا فكَانوا نُورانيين فَي أكْمل حُسَن، وجمال، وعَلى قَدر تَلبس الإنْسَان بالدنيا، وإقْبَاله عَليهاَ / يكون إظْلامه، ويَنْقص حُسنه، وجَماله، وإنْ زاد ظُلمه زَاد قُبحه، وظَلامه. ٢٢٦/ب

الظلم ظُلمات، والظلم إنَّما يكُون، ويَتَولد من حُب الدُّنيا كَما ورَد في الخَبر: « حُب الدُّنيا رَأس كُل خطيئة » وأقل الظُّلم أنْ يَبْخَس الإنْسَان نَفْسَه، ويُنْقصها منْ دَرجة الكَمال.

والكَمَال بالإقْبال عَلى اللّه، والدَّار الآخرة وتَرك التَّلبس بأُمور الدنيا، والتَّجرد منها، فإنَّ التلبس لباس لهَا، وَاللبَاس ستر وحجَاب، والحجَاب ظُلمة، والتَّجرد من حَجْبهَا كُشُوف وَوَضُوح والوضُوح نُور، وقَال النبّي ﷺ « **أنا النّذير العُريَان** » [١] أيْ المُتجرد منَ الأسْبَاب الحَاجبة المُثْقلة -« **المشُمر في طَلب اللّه والدَّار الآخرة** ».

وظاهر هَذا الحَديث مَعنى لَيْس هَذا مَوضع تَفسيره وإنَّما فَسرنا منه الحقيقة التي تَليق بِهَذا البَاب فَافهم.

وأعْظم الظلم «الشِّرك»؛ ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [٢] والشِّرك جَلي، وخَفي، والمعَاصي المتُولِدة عنْ حب الدنيا التي هِي رَأس كُل خَطيئة

(١) صحيح: أخرجه مسلم من حديث أبي موسى -رضي الله عنه- كتاب الفضائل (١٦) (٢٢٨٣).

(٢) سورة لقمان الآية (١٣).

ظُلم ، وظَلام ، ونُكَتٌ سَود في القُلوب والأرْواح ، والنُّفوس ، والأشباح ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فأولَئِكَ هُم الظَّالُمون ﴾ (١) فَأكمل النَّاس جَمالاً ، وأحْسنهم وجَهاً وحَالاً أهْل الإعْراض عنْ العَالم الدُّنياوي الأرضي الذي فيه ظُلم الخَلق كُلهم أنْفسهم ، فَأظْلمت ذَواتهم ، وقَبُحَت أحْوالهم ومَا ظَلمهم اللَّه ، ولَكن أنْفسهم يَظلمون .

وفي الخَبر أنَّ فَقيراً منْ أهل الصُّفّة / مَات فَقَال رسُول اللَّه ﷺ : «إنَّه يُبعث يَوم القيامة وَوَجْهُهُ كَالقَمر ليْلة البَدر ، ولَولا خصلة كَانت فيه لبُعث وَوَجْهه كالشَّمس الصَّاحية » ثمَّ فَسر الخصلة فَقال : « إنَّه كَان يَدَّخر حُلة الشتاء في الصيف وحُلة الصَّيف في الشِّتاء» . ٢٢٧/ب

فانْظر مَا نَقص منْ جَماله نَظره ، وتَدْبيره لصَيْفه : وشتَائه .

وأمّا دُخولهم الجنَّة بغير حسَاب ، فَإنَّهم لمْ يكن لَهْم فُضول أمْوال يُحاسَبُون عَليْها ، ولاَ كَانوا مُقْبلين عَلى الدُّنيا منافسين فيها ، بَل كَانوا مُتوكِّلين عَلى اللَّه ، وقَد فَسر النبَّى ﷺ معَنى ذَلك حين سُئل عنهم فَقال : «هُم الذين لاَ يكْتَوون ،ولاَ يَسْتَرقُون » وفي رِواية «ولاَ يَتَطيّرون ،و عَلى ربِّهم يَتوكَّلون» .

فأما قوله : « لا يكتوون » فله حق ، وحقيقة ، وظاهر ، وباطن ، وظاهره أنهم لما توكلوا على الله ، وتركوا فضول الأسباب الشاغلة ربما دخل عليهم الضر والأمراض في أجسامهم ، فلم يبالغوا في الطب توكلاً على الطبيب الرب ، والمبالغة في أخذ الأسباب نزول من التوكل على خلق الأسباب ، وآخر الطب الكيّ .

فأمّا حَقيقته ، وبَاطنه فَإنَّ الكَيّ بِالحقَيقة إنَّما هُو بنَار جَهنم ، قَال اللَّه عز

(١) سورة الحجرات الآية (١١) .

وجَـل : ﴿يَوْمَ يُحْمى عَلَيْـهَا فـي نَارِ جَهَنَّمَ فَـتُكْوى بهَـا جِـبَاهُهُمْ وجُنُوبُهُمْ ، وظُهُورهُم هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لانْفُسكُمْ فَذُوقوا مَا كُنْتُمْ تكْنزُونَ﴾ (١٢٩) / . ٢٢٧/ب

وأهْل التَّوكل لمْ تكن لَهم أمْوال يَستَنْدون إليْها ، ويَتوكؤون بالاعْتماد عَليْها ، ويَشْرُفُون بالنَّظر فيها ، فيُعْطُون ويَمْنَعون الحُقوق ، فَتكوى جُنُوبهم بها ، ويَفْقَهُون عَلَى المُحاَسبة ، والسُؤال عنْ فَضول الأمْوال فَيمْكُثون بطُول الْوقوف ، وحَرارة المُحَاسبة .

وأمّا قـوله : « ولا يَسْتَـرقُـون » يقُـول رَقَيْتُ الرُّجل رُقـيـةً : عـوَّذته ، والعَـوذة ، والمعُـاذة يَعـوذ بهـا الإنْسـان منْ فَـزع ، ودَخلت التَـاء في قَـوله يَسْتَرقـون » للمُبَالغـة فى طَلب الرَّقى أي يِسْتَفْعلون الرَّقى وذَلك منْ فَزع كَثير .

وأهل التَّوكل أهل قُوة ، وشَجاعة باللَّه وعزّة به ، قَال اللَّه عَز وجَل في وصْفِهم : ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢) .

فَهُم خَاضُوا الغَمرات (٣) بتَـوكْلهم فَـلا يَجْزَعُـون منْ الأشْيـاء ، ولاَ يَخَـافُون إلاّ مَـولاهم في كُل الحَـالاَت فَربَّمـا دَخل عَلَيْهم المرضَ ، فَتركُـوا التَّداوي وإنْ تَداوا لمْ يُبَالغُوا في أخَذ الأسْبَاب نظَراً إلى المُسيب ، والفَزع منْ الأسَباب شِرك خُفي .

حَتى لقَد قَال بَعْضُهم : « إنيّ لأسْتَحي أنْ أخاف مَع اللَّه غَيره » فكَان ثَوابهُم عَلى ذَلك في المَآل الأمن منْ مُفْزعَات جَميع الأهوال ولاَ سيما منْ تَرك الأسَبَاب ، وتَوكل بِحرَكته عليْه ، أَسْبَاب الفَزَع الدُنياوية ، وترَك الفَزع

(١) سورة التوبة الآية (٣٥) .

(٢) سورة يونس الآية (٦٢) .

(٣) الغمرات : الماء الكثير .

والمبْلَّغ منْ أُمور الدُّنيا مَحْمُود فى غَاية الحُسن ، وكَذلك قَوله : « ولاَ يَتَطَيَّرون » والتَّطير/ الشُؤم فَلا يَتشاءَمون بالأَشَياء ، فَإنَّ ذَلك نَقص فى ١/٢٢٨
التَّوكل ، بَلْ هُم نَاظرون بتَوكَّلهم إلى المَقْدور ، فلا يَتَسْخَطُون مَقَادير البَاري ، وإنْ أصَابهمَ مَا يكْرَهُون في طَريق اللّه ، فَأَثَابَهم ذَلك السَعد الكَامل فَلْيس لَهمْ في الأخرة سَبَب يَشْتَهونَه ، ولاَ يَنْظُرون ، إذْ لَمْ يكن عَلْيهم شيء مَشْؤَوم كَما كَانت الدُّنيا المَشْؤُومة عَلى أهْلها القَاطعة لَهم عنْ سَعد أهل التَّوكل ، النُّحوس المَشْؤُوم ، المُتَطَيِّر منْ أنْحَستَه الأشَيَاء ، قَطَعتهُ عنْ مَنَازل المُتوكِّلين الأحبَاب .

أمّا قَوله : ﴿ وعلَى ربِّهم يتَوكَّلون﴾[1] فَإن المُتوكل مُستَند مُتَوكِئ عَلى الوَكيل في جَميع أُموره في الدُّنيا وأَورَثه ذَلك في العُقبى الاتِّكَاء عَلى الأَرائك في مَنَازل عليين ، والغَير في مقَاسَات الحسَاب ، أو في العَذاب عَلى سُوء الاكْتساب ولصَورَة اتّكَائهم في عَليين عَلى أرَائكهم شَرح طَويل وسرٌ عَظيم جَليَل لاَ يَحْتمل هَذا المخْتصر كَشْفه .

---

(١) سورة الأنفال الآية (٨)

الشُّعْبَةُ السَّادِسَةُ والأرْبَعُون :

الرِّضَى

أمَّا كَون الرِّضَى منَ الإيمَان فَلا يَحْتاجُ إلى اسْتِشْهاد عليه ؛ فإنَّه مَنْ رَضِيَ بالله ربًا فَقَد وَجَد للإيمان / طَعمًا ، وورَد عنَ الله سُبحانه : « مَنْ لم يَرْضَ بِقَضَائِي فَلْيَتَّخِذْ ربًا سِوَاي » (١) فأمره بالخُرُوج من الإيمان . ٢٢٨/ب

وقال النبي ﷺ للوَفد : « مَا أنْتُم ؟ قالوا : مُؤمنون ، فقال : مَا علامة إيمَانكم ؟ فقَالوا : نَصبْر عَلَى البَلاء ، ونَشْكر عنْد الرَّخاء ، ونَرْضَى بمواقِعِ القَضاء ، فقال بعدَ تَمام كلامهم : « مُؤمِنُون و ربِّ الكعبة » (٢) والشَّواهد عليْه لاَ تَنْحصر (٣) .

فصل

اعلمْ أنّ حد الرضى إرادة مُقْتَرنة بطَيب ، وسُرور في الموافق المُلائم ، وإرادة مُقْتَرنة بنَفي السَّخط (٤) ، والكرَاهة في المُؤلم ، غَير المُوافَق ، ولَيْس بإرادة مُطلقة كَما أنّ السَّخط الَّذي هُو ضد الرِّضى : كَرَاهة الشيء ، مُقْترنة

---

(١) موضوع لا يصح : راجع السلسلة الضعيفة (٥٠٦) ، والإتحاف (٩/ ٦٥١) الموضعات لابن القيسراني [٨٨٤] تهذيب ابن عساكر(٦/ ١٢٨) .

(٢) ضعيف : رواه الطبراني في الكبير (١١/ ١٥٣) والأوسط من حديث ابن عباس « بنحوه » . قال الهيثمي : فيه يوسف بن ميمون ، وثقه ابن حبان ، والأكثر على تضعيفه . مجمع الزوائد (١/ ٥٤ ، ٥٥)، وراجع الإتحاف للزبيدي (٩/ ٦٤٩٦) .

(٣) أصح الشواهد قوله ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً » . انظر مقدمة رسالة الأصول الثلاثة لمحمد بن عبد الوهاب ط / مكتبة الوحدة بتحقيقي .

(٤) السخط : الغضب .

بإرادة غيره ؛ فالرِّضى اخْتيار العَبد مَا اخْتَار اللَّهُ ، مَعَ وُجود السُّرور فِي المُوافق ، وعدم السَّخط والكراهة فِي غير المُوافق الطَّبع .

وتَفْسير ذَلك أنْ لا يُريد العَبد إلاَّ مَا أراد اللهُ منْه شَرعًا ؛ فَمَعنى الرِّضى الاسْترسَال [١] مَعَ اللَّه فيما يُريد ، قالَ اللهُ تَبارك وتَعالى : ﴿ وربُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشاءُ ويَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [٢] فَنَفَى عنْهم الخيرة .

﴿ ومَا كانَ لمُؤْمنٍ ولاَ مُؤْمنَة إذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أمْرًا أن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أمْرِهِمْ ﴾ [٣] فَنَفَى أنْ تكونَ لَهُم الخيَرة منْ أمرهم . وقال :

﴿فَلاَ وربِّكَ لاَ يُؤْمنُونَ حَتَّى يُحكِّمُوكَ فيمَا شَجرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْليمًا ﴾ [٤] فهذا هو الرضى فافهمه .

والرِّضى بَاب وَاسع يَجْري فِي كُل شَيء ، كَما أنّ القَضَاء حُكم نَافذ ، جَار في كُل شَيء ، ولَيْس يَشذ عنه شيء في الظاهر والبَاطن ، إلا شيء واحدَ بوجْه مَا ، ولَيْس من كُل وَجه ، وهُوَ العصْيان للرَبِّ تَبارك وتَعالى ظاهرًا ، وبَاطنًا ؛ لأن مَنْ رَضي بالشِّرك ، والكُفر ، والبدَع ، والعصْيان ، والظُّلم مِنه أَو مِن غَيره ، فَقَد انْخَلع منَ الدِّين ، ولَيْس فِي شَيء من المُؤْمنين .

وإنَّما يَجب الرِّضى بذَلك منْ حَيث هُو تَدبيرٌ للّه ، وقَضاؤه في خَلقه ، فيَرْضَى عن اللَّه فيه قَضاءً ، وتَدْبيرًا ، وحكمًا ، وتقديرًا ، ولاَ يَرْضَى به من الخلق ، والعَباد ، بَل يَبْغض عليْه ، ويُعَادي نَفْسه ، وغَيره ، ويُقَاتل ،

---

(١) الاسترسال : الانبساط والأُنس ، والسلاسة .

(٢) سورة القصص الآية (٦٨) .

(٣) سورة الأحزاب الآية (٣٦) .

(٤) سورة النساء الآية (٦٥) .

ويقْتل ، ويأمر بالْمَعروف ، وينْهى عن الْمُنكر كَمَا أمَر اللَّهُ جَلَّ جَلالُه .

فصل

اعلمْ أنّ الرِّضَى عَلى ثلاثة أقسَام ، عَلى عَدد مَقَامَات الإسْلام ، والإيمَان ، والإحسَان .

فأمّا القسْم الأول في مَقَام الإسْلام فَهو الرِّضى عن الله فيما قدّر ، وقَضى ، وأجرى علَى العَبيد ، وعَلى جَميع الخلق في عَالَم الحس ، والشّهادة ، وهُو عَالم الدُّنيا من قَضاياه الدُّنياوية وما شَرَع لهُم من شَرائعه الدِّينية فيَرضى بما قَسم اللهُ لَهُ منَ الدُّنيا ، ولغَيره ، فإن ذَلك يَنْفي عنْه آفات الجسَد / وجَميع المُهلكات ، ويَرضى بمَا أجرَى اللَّهُ عليْه ، وعَلى غيره منَ البَلايا ، والمَصَائب . ٢٢٩/ب

فإن هذا مَوضع الرِّضى ، لأنّه ابْتلاء ، والبَلاء مُؤلم للطَّبع ، وذَلك قَضاء الله ، وقَدَره في الأمْوَال ، والأبْدَان ، فَلا يَقُول إلاّ مَا يُرْضي الرَّبَّ ، ولاَ يَسْخَط ذَلك بقلَبه ، ويَتَطلع إلى ثواب اللَّه في الآخرة ، فإنَ ذَلك يُعين عَلى الرِّضى ، فإنْ وَجَدَ الألَم في ذَلك كُله فإنّ الألَم لا يُخرجه من الرِّضى ؛ لأنَّه طَبْعُ البَشَر ، فإنْ سَخط ذَلك كُله ، وتكلّم بشَرٍّ فقدْ خَرَج من الرِّضى ، ومَن سَخط فله السَّخط ، قال النَّبي ﷺ :

« تَدْمَعُ الْعَين ، ويَحزن القَلب ، ولاَ نَقُولُ إلا مَا يُرْضي الربَّ » (١) .

وإنْ كان القَضَاء مُوافقًا لطَبعه منْ صحة ، وغنَى ، وأُنْس بالأهْلين ، وغَيـر ذَلك ، فَالرضى في هَذا المَوضع أنْ يَنْظر العَبد مَا أراد اللهُ منه في صحَّته، ومَاله ، وعوَاقبه ، فَليزد ذَلك ، ويَمْتَثله بطيب نَفس ، وسُرور ،

(١) صحيح : متفق عليه من حديث أنس - رضي الله عنه - البخاري ٢/ ١٠٥ ومسلم في الفضائل (٦٢) (٢٣١٥) . وفي لفظه « . . . . يرضى ربنا » .

ولْيَتْرُك هواه لُمراد الله ، فإنّ الرِّضى كَما تَقَدم : اخْتيار مَا اخْتَار الله ، وهَذا هُو تَرك مُراد العَبد ، فَافْهم .

وأمّا أُمُور الدِّين الشَّرعية الظَّاهرة ، فإنّ اللّهَ جَل جَلاله يَقُول : ﴿ورَضيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دينًا﴾ [1] فَيَرضى العَبد جَميع أمُور الدِّين عَلى اخْتلاف أنْواعها ، وتَطيب نَفْسه بقَبُولها ، وامْتثَال فَرائضها ، وفَضَائلها ، وأمُور الدِّين ، وإنْ كَثرت فَلا يَخْلو من أمر ونَهي .

١/٢٣٠ والبَارئ قَد رَضي بامْتثَال المأمور ورَضي بتَرك المَنْهي / وجَعل ذَلك دينًا لنَا وأمرَنَا أنْ نَرضى به ، وتَطيب أنْفُسنَا بالامْتثَال والتَّرك في المَأمور ، والمَنْهي عنْه ، عَلى وفْق رضَاه ، فَإذَا فَعل العَبد ذَلك بطيب نَفْس فَقَد رَضي عن اللّه جَل جَلاله ، وهَذا شَديد عَلى النَّفس التي عَيْشَها بالهَوَى ، ولاَ يَقْدر عَلَيْه إلا الصِّديقون ، فَلْيَسْتَعن العَبد عَلى عبَادة اللّه بالرِّضى مَا اسْتَطاع ، كَمَا قَال النَّبي ﷺ لعَبْد اللّه بنَ عُمَر : « اعْبد اللّهَ في الرِّضى » [2] فإنَّ العَمَل بالرِّضى أعلَى المقَامَات .

والرِّضى لاَ يُشَم منه رَائحة إلا مَقْرُونًا برضى اللّه ، كَما أوحى اللّهُ إلى مُوسى عليْه السَّلام : « إنَ رضَايَ في رضَاك بقَضَائي » ، وهذا هُو ذَبح النَّفس ، لأنَّه مُخَالفة الهَوى ، فَلْيَستعن العَبد عَلى ذلك بالنَّظر في جمَال دين الإسْلام ، وحُسن فَرائضه ، وفَضائله حَتَّى يَتَبَيّن جَمَالها وحُسنها ، لعقَله فَيَرضى بها ، ويَخْتَارَها ، ويَنْظر في قُبح الكُفر ، والمعَاصي حتَّى يَتَبيّن له قُبحها ، فَيَرضى بتَركها .

وتَرى كيف لمْ يَرض اللّهُ إلاَّ بالأحْسَن ، والأفْضَل ، ولمْ يَرض له

---

(١) سورة المائدة الآية (٣) .

(٢) راجع إتحاف السادة المتقين (٧/ ٣٣٨ ، ٩/ ١٩).

بقُبح المُخَالَفات ، ومَا يُورث الهَلَكات ، ولَو عَلم اللَّهُ دينًا أجْمل ، وأحْسن مَنْ دين الإسْلام لارْتَضاه لنَفْسه ، فَدينُه الذي ارْتَضاه هُو دين الإسْلام بامْتثَال فَرائضه وفَضَائله ، واجْتنَاب نَواهيه ، فَلْيَعْبد العَبد ربَّه بالنَّشَاط ، وطيب النَّفس مَا اسْتَطَاع ، ولْيأخذ من الأوامر / مَا اسْتطاع ؛ فإنَّ اللَّهَ ٢٣٠/ب يقُول :

﴿ ولاَ تَقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ إنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (١) ولْيَتْرك جَميع المَنهي وليُخَالف الهوَى ، فإنّ في ذَلك رضَى اللَّه عز وجَلّ ، ومُخَالفة الهَوى هُو تَرك المَنْهي عَنْه ، فَإذَا تَركَت النَّفس الهَوى طَاب عَيْش العَبد بوُجود لَذَّة الطَّاعات ، ووَجد فيها نَشَاط الرِّضى ، وسُروره ، فَقَد عَمَّ الرِّضى جَميع الأمُور الجَسيمة في عَالم الحس ، ومقَام الإسْلام ؛ فإنَّ القَضايا في عَالم الحس . والشَّهادة لاَ تَخلو عَنْ أربعة أنْواع : مَأمُورَات ، ومَنْهيات ، وهي الدِّينية ، وعَوافي ونعم مُوافقة للطبع ، وبَلايا ومَصَائب مُؤلمة ، فإذا اسْتَعمَل العَبد في جَميع ذلكَ رضْوَان اللَّه ، فَقد عَمل بالرِّضَى ، أعَانَنَا اللهُ وإيَّاكُم عَلى مَا يُحبه ، ويَرْضاه في يُسرٍ ، وعَافية بمَنِّه وفَضْله .

فصل

وأمّا المَقام الثَّاني منَ الرضَى في عَالَم الغَيْب ومَقَام الإيمان فَلْيَنْظر العَقل إلى عَالم الآخرة بإيمانه ، ويَنْظر إلى عَالم الدنيا ، فَلا يَرضى بالأنْقص والأدْنى ، فَقَد عَابَ اللَّهُ ذَلك ، وذَكره في كتَابه فَقَال :

﴿ إنَّ الَّذينَ لاَ يَرْجُونَ لقَاءَنَا ورَضُوا بالْحَيَاة الدُّنْيَا واطْمَأنُّوا بهَا والَّذينَ هُمْ عَنْ آيَاتنَا غَافلُونَ ﴾ (٢) المعنى إلى آخره ، ولْيَطلب العَبد مَعَالي الأخلاق ،

(١) سورة النساء الآية (٢٩) .

(٢) سورة يونس الآية (٧) .

فَيَتَّصف بَاطنه بها ، ولْيَترك سفَاسفُها[1] ؛ فإنَّ اللَّهَ يَرضى بكَمال الأخْلاق ،
١/٢٣١ ولاَ يَرْضى سَفَاسفَها ، ويَرْضَى الإيمان المُتصف به القلب / البَاطن ولاَ يَرْضى الكُفر ، قال الله تعالى : ﴿ ولاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾[2] .

ويَنْظُر إلى القَضَايا الأخْرَاوية فَيَرضَى بمَا يُجْري اللهُ منْها عليْه ، وعَلى العباد كُلهم ، ولاَ يَكُون من الذين خَاصم اللَّه في أَحْكامه ، واعْتَرضوا عليْه في قَضَائه حين غَاب عنْهم حُسن تَقْديره ، وإتقَان صُنْعه ، فَقَالوا : « إذا قدَّر اَللهُ عَلَيْنَا بالَمَعْصية وعذَّبنا عليْها فَقَد أساءَ ، وظَلَمَنا » ، فَهَربُوا من ذَلك ، وقَالوا : إنَّ الشَّرَّ من العباد ، ولاَ من الَّذين قالوا وَاجب عَلى اللهَ أنْ يَعمل لعباده الأصلح ، والألطَف .

وغَير ذلك من أقوال الزَّائغين والمارقين ، الذين لمْ يَسْتَحسنوا قَضَاءَ الله، ولمْ يَرْضوه ، فَاعْتَرضوا عليْه ، وخَاصَمُوه في أفْعَاله ، وأَحْكَامه ، وكالرَّوَافض الذين لمْ يَرضوا بخَلافة الصَّحابة ، واعْتَرضُوا عَليْهم ، ونَسبوا إليْهم مَا لا يَليقَ بهم فَفَرقُوا دينَهم ، وكَانوا شيعًا ، فَالرِّضى عن اللَّه في أحْكَام الآخرَة منْ إنْعَام ، وإهْلاَك ، ورفع ، وخَفْض ، وجَميع مَا يَجري فيها على العباد ، وَاجب كَأحْكَام هَذه الدَّار سَواء .

وإلى هَذَا المَعْنى أشَار بعضُ العَارفين حين قَال : « أرجُو أنْ أكُون عَرفت طَرفًا منَ الرِّضى لَو أدْخَلني النَّار لكُنْت بَذلك رَاضيًا » وإنَّما عنى هذا
٢٣١/ب العَارف لَو أدْخَلني / النَّار بغَير ذَنب لرَضيَ بَذلك مُوافقة لُمراد مَولاه ، فكيف والبارئ لا يُدخل النَّار أحدًا إلا باسْتَحْقَاق ، وجزاء لذَنب ارْتكَبَهُ ، ولاَ يُوقفه مَوقفًا منَ الحساب ، ولاَ يُشْهدهَ هولا منَ الأهوالَ في الآخرة إلا جزاء لعَمَل عَمله ، أو ذَنب ارْتكبه .

(١) سفاسفها : السفْسَاف : الرديء الحقير من كل شيء وعمل .

(٢) سورة الزمر الآية (٧) .

وَلَو أدْخل اللهُ العباد كُلهم جَهنم ، وصبَّ عَليْهم أنْواع العَذاب ، وهُم بُراء ولَمْ يُواقعُوا ذَنبًا ، ولاَ فَارَقوا غَيْبًا لكان واجبًا على الكُل الرِّضى بذَلك ، فإنَّه أهلَ أنْ يُرضى عنه ، ولاَ يُعْترَض عليْه ؛ إذ المُلك مُلكه ، يَحْكُم مَا يُريد ، ويَفْعل مَا يَشاء ، وإنَّما كان يَحْسن الاعتراض عليه ، والسَّخط لأفْعَاله لَو كَان مَعه إله آخر يكون قَدرَه كَقَدره ، ومُلكه كمُلكه ، فيتعدى إلى مُلك غَيره ، فَيَصُبُّ عَلى أهْله عَذَابه ، ويَجري عليْهم أحْكَامه ، وفي هذه المَنْزلة أنْزل أهل الأهْواء أنْفُسهم حِين خَاصَمُوه ، وجَوّروه[1] ، نسأل اللَّه العصمة .

فَالرِّضى وَاجب عن اللَّه في جَميع الأقْضية ، في كُل الأكْوان ؛ لأنّ قَضاءه حَسن جَميل منْ حَيث أوجده هُو ، فكَانَ في غَاية الاسْتحْسَان ؛ لأنَّه مُقْتَضى أسْمائه الحُسنى ، قَال الله جَل جَلاله :

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [2] وقال : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾[3] فَلم يخلُ عنْ الحُسن شَيء ؛ لأنَّ الأشْياءَ كُلها مُقْتَضى أسْمَائه الحُسنى ، ومَعَاني صِفَاته العُلى .

واعْلمْ : أنَّه لَو أعطى اللَّهُ لواحد منَ الخلق منَ العَقْل ، وحُسن التدبير مثل مَا أعطى لجميع العَالَمين / ثمَّ أعطى لكُل وَاحد منَ الخلْق مثل مَا أعطى ١/٢٣٢
لَذلك الشَّخص ، وزَادَهم أضْعَافًا مُضَاعفة حتَّى تَنْتَهي عُقُولهم إلى مَرْتَبة لاَ يَجدُون ورَاءها مَزيداً من العقل ، ثمَّ قَال لجَميعهم : « انْظُروا هَل تَرون في تدبِير المُلك شَين[4] ، أو يَنْقص فِيه شيء مَنَ الحُسن ، والزين ؟ ، وهَل

---

(١) حَوَّروه : مالوا عن قصده وخالفوه .

(٢) سورة الزمر الآية (٦٢) .

(٣) سورة السجدة الآية (٧) .

(٤) شين : الشين هو العيب والقبح .

يُفْند(١) أهل هَذا التَّقْرير فَيُزَال ، ويُعاد غَير هَذا التَّدْبير لَصَحّت جَميع العُقول ، وقَد خَالَطَها الذُّهول ، وقالت : « سُبحانك أنْت كَما تَقُول ، وفَوق مَا تَقُول ، ولاَ تَدبير إلاَّ تَدْبيرك الأحسن ، ولاَ تَقْدير إلاَّ تَقْديرك المُتْقَن ، وهل هذا التقْدير إلا مَقْدور قُدْرتك ، فَهل هَذا التَّدبير إلا تدَبير نَظَرك ، وعلْمك لاَ ينْفُذ ، ولاَ يَظْهر إلاَّ مَا عَلمت قبل الأكْوان ، ولا يَطرأ عَلَيْك نظر آخر ، فَتَستَفيد به علمًا آخر الآن ، فَلا تَقْضي قَضَاءً إلا في غاية الحُسن ، والاسْتحْسان ، نَحَن لا نَجد في صُنْعك منْ فُطُور ، وقد انْقَلب البَصر منْ حُسن تَدْبيرك خَاسئًا فَهُو حَسير(٢) ، فَكُل مَا أظْهرت ، وتُظْهر أبدًا ، وتَمْحُو ، أو تُثْبت دائمًا سُرمدًا(٣) ، لاَ يَجُوز تَبْديله ، ولاَ يَحْسن تَحْويله إذ لاَ يُبدَّل القَوَل لَدَيك ولاَ اعْتراض لخَلق عَلَيْك » .

قال النبي ﷺ : « **واعلمْ أنَّ مَا أَصابَك لمْ يكُن ليُخْطئك ، ومَا أخْطَأكَ لم يكُن ليُصيبَك** »(٤) .

وكُل مَوجود ظهر في أيْ حين ظَهر عَلى أيْ وَجه ظهر كَذلك ، عَلمَهُ ٢٣٠/ب ربُّنا وعَلمَ أنَّه / لاَ يَظهر إلاَّ في ذَلكَ الحين ، والوَقْت ، وعَلى تلك الصُّورَة ، والهَيئة .

فإنْ كان يجوز أن يَنْقَلب مَعْلُوله عمَّا عَلم ، فَبئس القَول ممَّن قَاله ، وبئسَ ما فَهم ، والربُّ سُبحانه عَالم بكل شَيء ، وبكل وَجْه منْ وجوه

---

(١) يُفَند : يخطئ عمله .

(٢) حسير : أي واقع في الحسرة .

(٣) السرمد : الدائم الذي لاينقطع .

(٤) حسن بالمجموع : هذا أجود مايقال في هذا الخبر ، راجع رسالة الأصول الثلاثة صـ١٣ هامش(١٤) بتحقيقي .

وهو من الأخبار المشهورة على لسان العوام « ياغلام احفظ الله . . . الحديث » .

التَّدْبير ، والتَّقْدير ، فإذا أظْهر مَوجُودًا في أيْ حين ظَهر ، وأجرى عليْه قضاء أي شَيء كان ، ثمَّ بدَّله ، أو غيّره عمَّا كانَ ، وأظْهَره في وَجه آخر ، وصُورة أخرى ، ولَو أظْهَروه في وَجُوه لاَ تُحصى ، فكَذَلك علمه ، ولَيس فيها وجْه ولاَ صُورة إلا في غايةَ الحُسن ، ونهاية الجمَال ، لاَ يَجُوز أنْ يُقال : لَو كَانت في غَيْر هَذه الصُّورة لكَان أحْسَن ، ومنْ يَزعم ذَلك فإنَّما مَعنى قَوله : لَو كَان الأمر إلَيَّ لَصَنَعْتُ أحْسنَ ممَّا صَنع اللَّهُ ، وقد عَاب القُرآن فَسَاد رَأيهم في قَوله :

﴿ لَوْ كَانَ لَنَا منَ الأمْرِ شَيْءٌ مَا قُتلْنَا هَا هُنَا ﴾ (١) فَإذا شَهد العَبد حُسن التَّقدير ، وجَمال التَّدْبير في ظاهر العَالم ، وبَاطنه رَضي بقَضَاء اللَّه عَلَيْه ، وعَلى جَميع الخَلق ، مَقَرونًا بطيب النَّفس في المُوافق ، ويَنْفي السَّخط ، والاعْتراض في المُؤلم ، ولمْ يُكلَّف العَبد ألاَّ يَجد للبلاء طَعْمًا ، منّ اللهُ علَيْنا ، وعَليْكم باليُسر والعَافية في جَميع الدُّنيا والآخرة آمين ، فصلى اللَّهُ علَى سَيِّدنا مُحمد وآله وسَلم .

فصل

وأمّا القسم الثالث من الرِّضى في مَقام الإحسان / فَهُو الرِّضى بالله ربًا ، ولاَ يَرضى بسواه كَبُر أو صَغُر مَعْبُودًا ؛ لأنَّه أهْل أنْ يَرْضَى به ، ولَيس سواه أهْلاً للرِّضَى به ربًا . ١/٢٣٣

وفي هَذا المَقام ارْتياح الأرْواح ، وانْتشار نَسيم القُرب بالأرْباح (٢) ، فَإنَّ العَبيد يَفْتَخرون ، وتَطيب نُفُوسهم ، ويَشْرَفُون إذا كَان مَواليهم عُظَماء الأقْدار ، ولَهُم مَكَانة ، وجَاه ، وكَانوا من ذَوي الأخْطَار مَعَ أنَّهم كُلهم

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٠٤) .

(٢) الأرباح : المكسب الزائد على الأصل .

عَبيد مَخْلوقُون ، فَكَيْفَ بِمَن كَانَ مَولاه سَيدَ العالمين ، ومَالك الخَلق أجْمعين .

فَهَذا المَقام من أقيمه طابَ عَيْشُه ، وصَفى من كَدره[١] نَعيمَه ، إذا نَظر إلى قدر مَولاه طار قَلبه ورَوْحُه رضًى به ، وفرحًا ، وينْظرَ إلى نَفْسه ، وقَدرها وجُنُونها[٢] ، وإلى جَسَدَه وقُدراته ، وقلبه ، ونَزَارَته[٣] ، فلا ترضى نَفْسُه ، ولاَ يَراها أهْلاً للقُرب من عبادَته ، وخِدْمَته ، ولاَ لسَانه لجَري الأذكار عليْه ، ولا شَيئًا منه للخدمَة مَنْ أَجل مَا هو مَولاه عليْه ، من الرِّفعة والعزَّة ، لأنّ المولى العَظيم لاَ يَرضى منه إلا ما يليق بمقام الرضى مَنه ، لأن الرضَى للقُرب من العبَد عن الرِّضى من الرَّبِّ، والربُّ رَاض ، لا يُقَرَّب إلا مُرتضى ، ومُصَفى ، ومُنَقى ، فَلولا اسْترواح الرَّاضينَ إلى التَّوبة مَع
٢٣٣/ب الساعات لَذَابوا منَ الحَياء إذَا نَظَروا إلى قَدْره/ وقَدْرهم ، وتَنَشَّوْا[٤] من شَمة وَاحدة من الرِّضى .

ولَقَد كان رسُول الله ﷺ على جَلاَلة قَدْره يَتُوب في اليَوم مائة مَرة من رُؤية التَّقصير في حَق ربِّه ، فكَيْفَ بِسواه ؟ وَلَكن اللهَ يَقُول في كِتابه : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ﴾[٥] .

لَقَد رَضي الله عن البَعض فَطَمع الخَلق في الرِّضى ، لأنّه سُبحانه عنْده من التَّجاوز ، كَريم الصَّفح ، وحُسن العَفو والأخْلاق على قَدر مَا عنْده من الرِّفْعة ، وجَلالة القَدر ، فَيَطيب عَيْشُهم بتَجلي تلك المَعاني الكرام ،

---

(١) كدره يقال كدر الماء : صار غير صاف . وكدر عيشه : غمَّهُ .

(٢) حنونها : الحنو : كل شيء فيه اعوجاج .

(٣) النزارة : القلة والتفاهة .

(٤) ننشوا : التنشى : أول السكر .

(٥) سورة المجادلة الآية (٢٢) .

ويُقَرّبهم ، ويُكْرِمهم فيَزيد رضاهم ، ويَعْلمون أنَّه قد رَضيهم عَلى مَا هُم عَلَيْه ، ويَسْمعُونَه يَقُول : ﴿ ولاَ يَرْضَى لعِبَاده الْكُفْرَ ﴾(١) فَيَعلَمون أنَّه قَد رَضِيَهُم للإيمان به ، ورَضِيه لَهُم ، وأَدْخَلهم دِين الإسْلام ، وشَرح صُدُورهم لَه ، ودَعَاهُم إلى نَفْسه ، والتَّقرب منَه ، فَيَعْلَمون أنَّه قَد اصْطَفَاهم، واخْتارهم ، والاصْطفاء ، والاخْتيار هُوَ الرِّضى منه جَلّ وعَلا ، فَعند ذَلك سَارَعوا إلى مَرضَاته ووَجَدوا طَعْم الإيمان بِه حَين رَضي بهم عَبيدًا، ورَضَوا به ربًا .

وهَا هُنا يَظْهر للعَقل ، والرُّوح ، في مقَام الإحْسَان منه ؛ لأنَّ الرِّضى من العَبد عن الرِّضى من الرَّبِّ ، والربُّ راض لاَ يُقرّب إلاَ مُرتَضى ، من الرِّضى العَجب العُجاب ، فيَقُول : « ليس العَجَب من رضَى الرَّاضي بكَ ، وعنْك ؛ لأنّك أهْل أنْ يُرضَى به عنْه ، وإنَّما العَجَب من رضَاك بي ، وعَني، وأنا أحْقَر ، وأقَلّ/ منَ أنْ أصْلح لشيء مما أهّلْتَني لَه إلا بفَضْلك ، ١/٢٣٤
فَهَاج السُّرور به ، وطرب الرَّوح ، فَلا تعلم نَفس مَا أُخْفي لهُمْ من قُرَّة أعين .

فإذا نَظَروا إليْه في هَذا المقَام تَبَسمت قُلوبهم فَرَحًا به ، وسُرُورًا بوُجُوده ، فَيَقُولُون : الحمد للَّه الذي كان ربنا عَلى مَا هُو عَلَيْه من الرِّفعة وَالكَمال ، فَيَنْتَهي رضَاهُم به حيَن أعْطَاهم سُؤلَهم منه ، وانْتَهت بهم أمَانيهم ؛ لأنَّ انْتهاء السُّؤال ، والأُمْنية ، هُو حُصُول المرَاد على أتمِّ وُجوه التَّمني ، فَلا يرَى به بَدلاً ، ولا عنْه في هَذا المقَام حولاً ، فَرضُوا به ، ورَضُوا عنْه في جَميع أقْضيته ، فكانوا مَع مُراده كَالميّتَ ، بيْن يَدي الغاسل ، يُقَلبه كَيف يَشَاء .

(١) سورة الزمر الآية (٧).

وقال بَعض العارفين : « العَارف سِرّه وَاقف كالماء فِي البِئر إنّ حُرِّك تَحرّك ، وإنْ تُرك سَاكنًا سكن » .

فإنْ قُلت : كَيْف هَذا ، والماء لا إرادة له ، وللعبد إرادة قد حُجب بها؟ .

فاعلم أنَّ مُراد اللَّه الذي هُو رضاه قَد ظهر فِي العلم الذي أنْزل ، وبين عَلى لسان رَسُوله ، فيَنْظُر العَبد مَا رَضي الله به من المُؤْمنيَن ، وللمؤمنين فَيَمْتَثلُه ، فَيَزُول مُراد للعبد ، وهَواه ، وكان مُتَحَرِّكًا ، سَاكنًا بإرادة اللَّه ، وأبْينَ منْ ذَلك أنْ تعلم أنّ مُقْتَضى الإرادة القديمة على نوعيَن مَراد كون ، ومراد شرع / . ٢٣٤/ب

فمُراد الشرع هُو الرِّضى ، فإذَا استَرسَل العَبد مَع مُراد اللَّه الشَّرعي ، في جَميع أموره لمْ يَبْقَ لَه إرادة ، فَافْهم سَلك الله بنا ، وبكُم سَبيل العافية فِي الدنيا ، والآخرة بِكرمه آمين ، وصلى الله على مُحمد وآله وسلم .

الشُّعْبَة السَّابِعَة والأَرْبَعون

الخَوف

أمّا كَون الخَوف من الإيمان فَبَيِّن جدًّا ، بقَوله تعالى : ﴿ وَخَافُونِ[١] إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[٢] ثمَّ جعله مَشْرُوطًا لوجود الإيمان ؛ ولأن الخَوف في نَفْسه تَصْديق بالواقع المخوف ، المُنْتظر ، ولأنَّ ضِدَّه الأمن ، ﴿ فَلا يأمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إلاَّ القَومُ الْخَاسِرُونَ ﴾[٣] .

وإنَّما خَسروا بعَدم الخوف الذي هُو تَحْقيق الإيمان ، ومَنْ فَاته التحقيق كَيف يَنْتَفِع بِالتَّصديقَ ؟ .

فصل

اعلمْ أنّ الخوف منْ أعْظم شُعب الإيمان ؛ لأنَّ بالخَوف يكُون التَّقوى ، والوَرع اللَّذان هُمَا تَرك المُخَالَفات ، والمَحْذُورات ، وبه يكُون الزُّهد ، والخُشوع ، والإخْبات[٤] ، والانْكسَار والقَبْض ، وغير ذَلك منْ امْتثَال الطَّاعات ، فَهو أصْل لكُل فَضيلة أُخْراوية ، ولَه أسَامي كَثيرة ، فَمنْ أسَاميه : الجَزَع ، والفَزَع ، والوَجل ، والخَشْية ، والإشْفاق ، والحَذَر ، والرُّعب ، والهَيْبة ، والرَّهَب ، والذُّعر ، وغَير ذلك . والاسْم العَلم لَه «الخَوف » .

فمن أسَاميه يتبيَّن حَدُّه ومَعْناه ؛ لأنَّ بَعْضها / يُفسر بعضًا ، وهُو ١/٢٣٥

(١) زاد في الأصل (ياء) في كلمة [وخافون] .

(٢) سورة آل عمران الآية (١٧٥) .

(٣) سورة الأعراف الآية (٩٩) .

(٤) الإخبات : التواضع والخشوع والاطمئنان .

جَالٍ(١) فِي جَمِيع الأشْيَاء .

وينْقَسم عَلى ثَلاثة أقْسام : خَوف في مَقام الإسْلام وعَالم الحس ، وخَوف في مَقام الإيمان وعَالم الغَيْب والدَّار الآخرة ، وخَوف في مَقام الإحْسان عنْ الأسْماء ، والصِّفات ، المُخوِّفة ، ومقام الخَوف يَقْتَضي ثلاثة أشْياء : خائف وهُو العَبد ، وخَوف وهُو حال العَبد ، ومُخَوف وهُو الشيء المهُوب ، والمخُوف منه .

فأمّا الخَوف الأول فِي عَالم الحِس ، ومقَام الإسْلام ، فَإنَّ الأمُور الحِسيّة دينية ، ودُنياوية .

والدِّينية أمر ، ونَهي ، فإذا خَاف العَبد العُقوبة عَلى المَنْهي عنْه تَركه ؛ مثال ذَلك إذا فتح عَينيه ، ووَقَع بَصَره عَلى امرأة حَسْنَاء ، أو شخص حَسن ، محرم عَليْه ، فإنْ خَاف وانْقَبَض كما أُمر ، وحُذِّر سَلم بالخَوف منْ فتْنَتها ، وإنْ لمْ يَخفْ ، ولمْ يَغُض طَرفَه جَذَبَته حتَّى تُلقيَه فِي المَهالك ، وإنْ عَرَفَت هِي الخَوف وَقَعت مَعه فِي الْعصْيان ، والخُذْلان .

وهكذا جَميع الْمَنْهيات ، وإذا خَاف فَوت المَأمور به ، وخَافَ العقاب على تَركه امتثَله ، وشمّر في طلبه ، وإذا خَاف فَوت مَنَازل العلم طَلَبه ، فَهَذه حَاله فِي كل مَأمور به ، أو مَنْهي عنه .

وأمّا الأمُور الدُّنْياوية ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق الدُّنيا ، وملأها فتنًا ،
اختبَارًا لَنا ، ثمَّ حَذّر منها كما قال : ﴿ إنَّا جَعَلْنا مَا عَلَى الأرْض / زينَةً لَها ٢٣٥/ب
لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ (٢) وقال تعَالى : ﴿ إنَّما أمْوَالُكُمْ وأوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾(٣) ﴿ وجَعَلْنَا

---

(١) جال : أي دائر فيه .

(٢) سورة الكهف الآية (٧) .

(٣) سورة التغابن الآية (١٥) .

بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَة (*)﴾ (١) وقال : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُم وأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُم ﴾ (٢) .

والحذَر هُو الخَوف ، وكُل عَدواً (٣) قاطع مخوف بلا شك ، والدنيا أعدا عدو ، وأعْظَم قاطع ، وفاتن ، فإذا خَافها العَبد وكان فيها ، ومنْها عَلى غَير أمن استَقام إيمانه ، وحَاله .

وأكْيس الخَلْق مَنْ كَان منها عَلى مثل حَد السِّنَان (٤) ؛ فَلا يَأمنها ، ولَمَّا أمنها الخلق ، واطْمأنوا منها ، ولَمْ يَخافُوها أوْقَعتهم فيما وَقَعوا فيه .

وقَال عَليْه السلام : « اتَّقُوا الدُّنْيا واتَّقُوا النِّسَاءَ » (٥) «واتَّقُوا» هُو الخَوف ، فأمر بالخَوف من الدُّنيا ، والنِّساء ، وقال : « مَن أتَى بَاب السُّلطان افْتُتن» (٦) يُحذر من الفتْنة .

فإذا كان الإنْسَان خَائفًا من الفتنة المَلْوءة منها الدُّنيا ، ورأى أنَّه لاَ بُدَّ لَه منْ مُشاهدتها في أخْذِ مَا لاَ بُد له منه من تِجارةَ أو صِناعة ، وغير ذَلك ؛ أخذه كَما أمرهَ اللَّهَ .

والخوف مُلازم لَه ، فَيَحْجزه خَوفه عنْ جَميع المَحْذُورات ، والفتن ، ويَحمله عَلى الوَرَع والزُّهد ، والَعُزلة بالقَنَاعة منَ النَّاس ، وعَلى الصَّمت طَلبًا للسَّلامة ، وغَير ذَلك ممَّا لاَ يُحصىَ .

---

(١) سورة الفرقان الآية (٢٠) . * وتكملة الآية : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ .

(٢) سورة التغابن الآية (١٤) .

(٣) كذا وردت في الأصل . والصواب : كُل عدوِ : لأنها مضاف إليه .

(٤) السنان : نصل الرمح .

(٥) **صحيح** : رواه مسلم ، تقدم تخريجه .

(٦) **صحيح** : رواه أبوداود في الصيد (الباب ٤) ، الترمذي (٢٢٥٦) ، و النسائي في الصيد (٢٣) وأحمد (٢/ ٤٤٠) من حديث ابن عباس -رضي الله عنه - .

فكذلك يخاف جوارحه أنْ تعطبه ، فيخاف لسانه كَما يَخاف السَّبع ، ١/٢٣٦ والكلب ، ويَخاف عيْنه وأُذنه / ويَده ، ورجْله ، وجَميع الجوارح أنْ يُؤذي نَفْسَه بها ، أو يُؤذي الخَلق ، وإنْ اطْمأن إلَيْها ولمْ يُخْفها رَمَتْهُ أيْضًا في المَهالكَ ، ومَن كان هكَذا كان غريبًا في الدُّنيا ، وبيْن الخَلَق ، فَهُوَ كالمُجاهَد في أرض العَدو ، ولاَ يَستَغني عنْ الخَرس ، واحشًا مُتَوحشًا ، لاَ يَطْمَئن ، ولاَ يأنس إلا بمَن كَان خَائفًا مثله ، وبمَن يَجد المزيد مَعَه من الخلق ، أو دُنْيا حَسنة تُعينه .

وقد نَدب النَّبي ﷺ ابْنَ عُمر إلى هَذا المَقام فَقَال : « **كُن في الدُّنْيا كأنَّكَ غَريبٌ ، أوْ عَابرُ سَبيل** »[١] . والغريب غير مطمئن ، وحَاله حَال المُتَوحش ، وعَابر السَّبيل كَذلكَ ، يَخاف قُطاع الطَّريق ، وسبَاع البَر ، وفَيَافيَه[٢] ، أعَانَنَا اللَّهُ وإيَّاكم عَلى طَاعَته في يُسر ، وعَافيَة ، آمين آمين ، وصَلى اللَّهُ عَلى محمد وآله .

فصل

في مَقَام الإيمان : فإنَّه مَقام عَظيم ، وخَوف جَسيم قَد شَمل المُؤَمَّنات المُغيَّبات كُلها ، فيَخَاف العَبد من نَفْسه القَائمة في جَسَده ، فَهي أعدا عَدو فَلا يَطْمئن إليْها ، ولاَ يَركن لجَذْبها وخَدْعها ؛ لأَنَّها كَما وَصَفها اللَّهُ : ﴿**لأَمَّارَةُ بالسُّوء**﴾ عَلى وزن فَعّالة ، فَهي كثيرة الأمر بالسُّوء ، لاَ تأمر إلا به ليلاً ٢٣٦/ب ونهارًا ، فَهي العَدو على الحقيقة ، صدْقها / كذب ورَجاؤها تَمنّ ، وخَوفها أمن ، ووَعدها غُرور ، وطَلَبها الرِّئاسة ، وأخْلاقها الهَلع ، والجزع ، والشُّح ، والعَجز في مَواطن الطَّاعة ، والفَخر ، والرِّياء وطَلب المدح والثَّناء .

---

(١) صحيح : تفرد به البخاري من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أول كتاب الرقاق * باب قول النبي ﷺ « كن في الدنيا . . . . الحديث » .

(٢) الفيافي : جمع فَيفَاء : وهي الصحراء الواسعة .

وعلى الاخْتصار ، فَلا يَردّ منها إلا السُّوء ، فَلا يَسْلم منْها إلا بالخوف منْها ، وإنْزالها مَنْزِلَة العَدو المُهلك الشُّجاع ، المُلقي بِذَاته فِي المَهَالك .

والخَوف منها هُو اليأس منْها أنْ تأتي بخَير ؛ فَمَقَام الخَوف الذي اسْمه اليأس لا يَصْلَحَ إلا في مَقام الخَوف من النَّفس ، واليأس من الطَّمع في النَّاس ، ويُسْتَعان عَلَى إصْلاح النَّفس والصَّوْن منَ اللّه ، يَضْرِبُها بسيَاط[1] المَخَاوف الإيمانية ؛ فإن المُخاوفَات الإيمانية قد أَحَاطت بالنَّفس في الغَيْب ، وهي لاَ تَشْعر إلاَّ إذَا ذُكِّرت ، ونُبِّهَت ، فأوّل ذلك حُضور الأَجل وكَشْف غطَاء الجسَد عنْها بالمَوت وهو أول مُشَاهَدة تُشاهد من عَالم الإيمان ، حين لاَ يَنْفع نَفْسًا إيمانها ، ولاَ تُقْبل توبة بمُعَايَنة الغَيْب .

فَهَذا المَقام منْ أعْظم المَخَاوف ، لاَ يَدري الإنْسان بمَ يُخْتم لَه ، ومَا سَبق من القَدر السَّابق في الأزل ، ولا يَظهر ذلك إلا عنْد المَوت ، فَهَذا خَوف يكْسر النُّفوس ، ويُنكس بالتَّوَاضع الرُّؤُوس ، ويُذْهب الإعْجاب ، ويُذْهل الألْباب / ، ويُقَلل الأعْمَال في أعْين العُمّال ، ويُولد الإخْلاص ، ١/٢٣٧
والتَّوحيد للوَاحد الأحد ، حتَّى يتعلَق القَلب به ، ولاَ يُعوَّل عَلى عَمل ، ولاَ شَيء إلاَّ عَلى الذي كَتَب السَّوابق ، وأظهرها فِي الخَواتم .

ولاَ يُبالغ مَع مَا في ذَلك المقَام من حسِّ ألم المَوت ، وغَصَصه[2] ، ومُشاهدة أهْواله ، وتَجلى صَفْحة مَلك المَوت بحَمله أعرافه ، وضَعف الجسْم ، وثُقل الجوارح ، وتَجَلى عَظَائم الآخرة فَي ذَلك الموطَن التي الدُّنيا فيهَا « كإصْبع ألقَيْته فِي اليَم » كَما ورَد فِي الخبر ، وأمْلاكها ، وسكَانها عَلى قَدر عظمها .

(١) سياط : جمع سوط : وهو آلة يضرب بها .

(٢) وغصصه : الغصص هو : وقوف الشيء في الحلق .

وقَد صَعق بالنبي ﷺ عَلى جَلالته عنْد رُؤية جبْريل في صُورته التي خَلقه اللَّهُ فيهاَ ، فكَيْفَ بالضُّعَفاء المساكين في ذلكَ المَوطنَ العَظيم ؟ يأتَي هَذا كُله فَجَأة ، عنْد خُروجَ العَبد من عَالم صَغير إلى عالم كَبير لم يُشاهده كان الإنْسان خائفًا ذلك المقام وعَظَمَته فكأنه يُشاهده في وقت بالتَّذكرَ ، فيأتيه ، وقَد حَصل له مَنْ تَذكره كأنه قَد شَاهده ، فَسَهلَ عليْه ، ويَكون عَليْه أخف ممن لمْ يَذْكره ، ولا خَافه ، وأتاه بغتة ، وفجأة .

ثمَّ بعد ذلك المقام يخاف القبر ، ويتذكَّر مَسْكَنه ، وضيق مكانه ، ٢٣٧/ب وهَول مَنْظره / ووَحْشَةَ غُرْبَته ، ورُعب ظُلمته ، ومُشَاهَدة أمْلاَكه ، والفتنة فيه .

قال النَّبي ﷺ : « **إنَّكم تُفْتَنون فِي القُبُور فتْنَة كَفتنة المسيح الدَّجال ، أو قريبًا من فتْنَة المَسيح الدّجّال** »(١) وكيف ينَام العَبد فيه ، عَلى يَبْس(٢) التُّراب بعد الفرش ، ويُمزَّق شَعره ، وتَسقط عيْناه ، وتَتَغيَّر وَجْنَتاه ، وتَتَفَسخ بَطْنه ، وتَنحلّ مَفَاصله ، وتجري الهوام(٣) فيه وتَنْتُن ريحه ، وكَذلك يُقال : مَا رأى أحدٌ منْزلاً إلا والقَبر أفظع منه ، وإنَه لَيُخوفَ ، ويُنَادي ، ويُهدد في كُل يَوم : « **أنا بَيْتُ الوَحْشة ، أنَا بَيْتُ الغُربة ، أنَا بَيْتُ الدُّود ، هَذا ما أعْتَدتَ لَكُم، فَمَا أعْدَدْتُم لِي** »(٤) .

ثم أعْظم من ذلك عذَابه ، أو فَوت نَعيمه ، فَهَذا أيْضًا مَوطن من

---

(١) صحيح : وهذا لفظ فاطمة بنت المنذر زوج هشام بن عروة ، أخرجه من طريقه أحمد ٦/ ٣٤٥، وأصله عند مسلم (٥٨٤) ، والنسائي ٣/ ١٣٥ والحميدي (١٧٩) ومن طريقه البيهقي ٣/ ٣٢٣ كلهم من حديث عائشة -رضي الله عنها- .

(٢) يبس : التراب الذي جف بعد رطوبة .

(٣) الهوام : وهو يطلق على كل مايدب من الحيوان كالقمل وشبهه وعلى دواب الأرض من حية، وذات سم .

(٤) **إسناده في غاية الضعف** : رواه البيهقي في شعب الإيمان(٨٢٨) من حديث أبي سعيد الخدري =

المُؤَمَّنات الغَيْبية ، مُخوف لاَ يَسْتوي مِن خَافه ، وتَذكُره مَع مَنْ نَسيه ، وأغْفله .

وفي الصَّحيح أنَّ رسول الله ﷺ كان يَسْتَعيذ باللَّه منْ عَذاب القَبر ثمَّ هَول البعَث ، ونَفْخة الصُّور التي يَفْزع لَها أهْل السَّموات والأرض ، وهَول الحَشر ، والمَوقف يَوم الحَشر المتقون إلى الرَّحمن وَفدًا والمُتَّقُون هُم الخَائفون، والمُجرمون مُنْقَطعة أعنَاقهم ، وعطاش ، وهُم الآمنُون في الدُّنيا ، ﴿ إنَّ الَّذينَ أجْرَمُوا كَانُوا منَ الَّذينَ آمَنُوا/ يَضْحَكُون ﴾[1] والضَّحك ، ١/٢٣٨ والاستْهْزاء منْ أضداد الخَوف .

ثمَّ خَوف الحسَاب ، والمُنَاقَشة ، وكَيْف يكُون العبَد مَع مَا قَدَّمت يَداه بيْن يَدي الملك الجبَّار ، وأعوانه ، ثمَّ خوف الحَوض ، وهَول العَطَش إليْه ، وأنْ لاَ يُسْقى العَبد منه ، ثمَّ خَوف الميزان الذي كَفَّتاه طِباق السَّموات والأرض ، وهُو مَنْظره وَوَزنَ الأعْمال فيه .

وخَوف الصراط ، وزَلاته ، وحدَّته ، وعثاره[2] ، ونكَباته[3] ، وخَوف رُؤية جَهنَم ، وزَبَانيتَها ، ومَا أُعدّ فيها ، وخَوف دُخولها ، وذَوق عَذابها ، ثمَّ خَوف فَوت الجَنَّة ، ونَعيمها ، مَع رُؤية مَا فيها ، ومُشَاهَدتها ، ومَا أعدّ اللَّه للخائفين فيها ، كما قالَ :

﴿ ولِمَنْ خَافَ مَقَامَ ربِّه جَنَّتَان ﴾[4] فَهذه كُلها مَخاوف ، ومُفزِّعات ، وهُو الفَزَع الأكْبر بالإضافة إلى مَخَاوف الدُّنيا ، فمن خَافها في الدُّنيا ، وأكْثر ذكرها ، واستَعْد لها أمن منها في الآخرة .

=وفي إسناده « عطية العوفي » متكلم فيه .

(١) سورة المطففين الآية (٢٩) .

(٢) عثاره : زلته . (٣) نكباته : مصائبه .

(٤) سورة الرحمن الآية (٤٦) .

كما قال تعالى : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾ (١) ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا ﴾ (٢) وقال عز وجل : « لا أجْمع عَلى عَبدي خَوفين ولاَ أمْنَين ، فَمن خَافني فِي الدُّنيا أمَّنْتُه فِي الآخرة ، ومن أمِنَني فِي الدُّنيا أخَفْتُه فِي الآخرة » (٣) .

فانْظر كَيف صار الخَوف منْ هَذه الأحْوال مُنَجيًا منْ مَخَاوفها ، وقَد ٢٣٨/ب عَاب اللَّهُ مَن لاَ يَخافها فقال : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴾ (٤) / وقال في مَدح الخَائفين :

﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ (٥) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ﴾ (٦) وغير ذلك من الآيات ، ويكْفي من جَميع ذَلك قَوله :

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ (٧) أيْ خَافوا ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ الآية . فَذكر أنَّ الخوفَ مَنْ ظَفر بِه نَجَّاه مِن مَخاوف الآخرة ، والنَّجاة هِي الفَوز والظفر .

---

(١) سورة الأنبياء الآية (١٠٣) .

(٢) سورة فصلت الآية (٣٠) .

(٣) عزاه الهيثمي للبزار مرسلاً ومسنداً، الأول عن الحسن البصري والثاني عن أبي هريرة - رضي الله عنه - وقال : « رواهما البزار عن شيخه محمد بن يحيى بن ميمون ولم أعرفه ، وبقية رجال المرسل ، رجال الصحيح ، وكذلك المسند، غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث . المجمع (١٠/ ٣٠٨) قلت : محمد بن عمرو له أوهام ؟ !! .

(٤) سورة المدثر الآية (٥٣) .

(٥) سورة الإنسان الآية (٧) .

(٦) سورة هود الآية (١٠٣) .

(٧) سورة الزمر الآية (٦١) .

فصل
في صورة هذا الخوف

اعلمْ أنَّ الآخرة كُلها كَالمراة للقَلب المُؤمن وبَاطن العَبد بإيمانه مُنْبَسط عَلى هَذه المُؤَمَّنات كُلها ، قَد تَجلى فيها ، وأحاط بها ، فَيُدركها العَبد بإيمانه، من مكانه الذي هُو فيه ، بلا مَسافة ، ويَنْظر إليْها بتَذكره إيَّاها ، ويَجري فَيها بفكْره بَغير تَنْقل جُسْمَاني ؛ فكُلما نَظر إليها ، ومَرّ بفكْره عَليْها لذَغته مَخَاوَفها ، وأكْربَته مَنَاظرها ، فَيُرَسخ في القلب المُؤَمن الخَوف بالمُشاهدة ، ويَتعظ ، ويَحيى ، ويَثبُت قائمًا في ذَلك العالم من شدة الحَذر ، فَيَتَجَافا عنْ دَار الغُرور ، ويَثْبت إلى دَار الخلود ، تَتَجافى جُنوبهم عن المَضَاجع الدُّنْيَاوية ، فلا تَضْطجع فيها قُلوبهم المُؤَمّنة ، ولاَ تنام قلوبهم بشدة المخاوف المحيطة بهم ، فإذا لاحَ لأبْصَارهم الجُسْمانية بَهجَة الدُّنيا ، وزينتها، وعِمَارتها هَاج ذِكر المَوت فِي القَلب فِي الباطن ، وهَدمها من أصَلها .

وإذا لاح للأبْصار المَباني الغَالية ، ومَا فيها من الجَواري والولدان / والحزم والأثاث لاَح لبَصر القَلب بلا زَمان ظُلمة القُبور ، ونُقل الجَميع إلِيْها، من تلك القُصور ، وسكناهم تَحت التُّراب ، والصُّخور ، فَصَار ذَلك في قُلوبَهم هَباءً مَنْثوراً . ٢٣٩/أ

وهكَذا كل مَا لاَح شَيء من الدُّنيا في البَصر حَمله البَصر إلى القَلب فَيجده مَعْموراً بمُشاهدة الآخرة ، فَيَهْدمه ضده من أصله ، ولاَ تَثْبت الدُّنيا بمُشاهدة الآخرةَ بوَجه ؛ فإنَّ الكبير الشَديد ، والعَظيم الكبير يَغْلب الصَّغير الحَقير ، فإذاَ كانَ العَبد هكذا خَائفًا للآخرة ، ونَاظراً ببصَره إلَى الدُّنيا ، خَائفًا منها الفِتنة والقطيعة ، خَالطه الخَوف ظَاهراً ، وبَاطنًا ، يَحذر هَذه ،

وهَذه ، ويأخذ من هَذه لهَذه ، كَمن يَخْشَى فِى مَوضع مُخوف كَثير المَخَاوف، ومن جَميع الجَوانب .

جعلنا اللَّهُ وإيَّاكم من حزْبه النَّاجين فِي الدُّنيا والآخرة ، فِي عافية آمين، وصلى اللَّهُ على مُحَمد وَآله .

فصل

وأمَّا المَقَام الثالث : منَ الخَوف في مَقام الإحْسان فَهُو الحقيقة في الخَوف ، وجَميع المَخَاوف بالإضافة إلَيْه كَلاَ شَيء ، بَلْ إليْه تُرجع المَخَاوف كُلها حقيقة بَعد أنْ كانت مَجَازًا ، والخَوف في هَذا المَقام الفَزع ، والهَيبة عَلى حَسب الأحْوال ؛ لأنَّه عَن مشاهدة صفَات المُخوف ، وبذلك وصَف عبَاده المُكرَّمين / من المكْرُوبين ، والرُّوحانيين ، والخدمة الأملاَك في جَميع ٢٣٩/ب العَالمين فَقال :

﴿ وَلِلَّه يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ومَا فِي الأرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١) ثمَّ قال :

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوْقِهِمْ ﴾ فَوَصَفَهُم بأنَّهم في أنْفُسهم تَحت لمَّا غَشيَهُم ، وأحَاط بهم من هيبة فَوقيَّة الرُّبُوبية ، ورُتْبة السِّيادة ، ثم قال :

﴿ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ ﴾ (٢) فَوصَفهم بالمبادرة في الأمر ، كَما يَفْعل الهَائبون عنْد مُشاهدة المُلوك ، فإذا فَهمت هَذا ، فاعْلم أنَّ هَذا المَقام الإحْسَاني يَنْقَسم على قسمين ؛ لأن صفات البَارئ جَل جَلاله عَلى ضَربين : صفات ذاتية ، وصِفات فعلية .

والفعْلية هي انْفعال الخَلق مُدَّة بَقائه ، وتَصْريفه وتَلْوينه ، وتَقْليبه في كُل نَفس ، وطَرفة ، وذَلك الجَليل الفعال : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٢) .

وذلك أنَّ المَخلوق إذا أوجده اللَّهُ ، وكان بَعد أنْ لم يكن لمْ يَتركه ، ولاَ

(١) سورة النحل الآية (٤٩) .

(٢) سورة التحريم الآية (٦) .

(٣) سورة النمل الآية (٨٨) .

تَخلى الإيجاد عنْه ، ولَو فَعل لانْعَدم عَلى الحين ، ولاَ يَجوز بَقَاؤه ، لأنَّه لَو بَقي طَرفة عين بنَفسه لاسْتغْنَى في ذَلك النَّفَس عنْ المُوجد ، وقامَ بنَفْسه ، وهَذه صفة لَيْستَ إلا للَّه ، بَلْ الأَشياء ، والتَّصْريف ، والإبْقَاء، والإيجَاد ، والتَّلوينَ ، والتَّقْليب جَارٍ عَلَيْه أبدًا .

فَالمُشَاهد لهَذا المقَام من الصِّفات الفعْليـة يَرى الأفْعَال صَادرة عن
١/٢٤٠ الموجد / جَلَ جَلاله ، وجَارية كَجَري الماءَ فَي الأوْدية ، والأنهار مُتَقلبة مُرتَعدة ، كارتعاد الميَاه ، وتَلاطم الأمْواج فَي لُجج[1] البحار ، المُجرى لذلك كله واحد يرفعَ ، ويَضع ، ويُعطي ، ويَمنع ، ويَسْتَدرج ويُمكن ، ويُقَلب القُلوب في الشُكوك والحيرات ، والإيمان واليَقين ، وتَرى في نظره ذلك ، ويعلم أنَّ الله يحدث في كل وَقْت وحين من الضلال ، والإبعاد ، والعمى ، والجَهل ، والعصيان ، والخُذلاَن في بَاطن هذا العالم عَلى قلوب الإنْس ، والجن ما لا يُحصَى .

ويَرى جَميع ذَلك نَازلاً مَع جَميع العُقُوبات عَلى القُلوب من خَزَائن الغَيْب ، وتُشاهد الآجال فَي كُل وَقت يأتي عَلى العباد . والمَخْتُوم لَهم في هَذا العَالم بِالشَّقاء أكْثر مِنَ المَخْتُوم لَهم بالسَّعادة ، والإيمان ، قَال الله عز وجل :

﴿ وإن مِن شَيْءٍ إلاَّ عِندَنا خَزَائِنُهُ ، ومَا نُنَزِّلُهُ إلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾[2] .

والمُشاهد للصِّفات الفعْلية وَاحد من جملة الأفعال لاَ يَدري بما يُواجهه المُدبر ، ولاَ ما ينزل عليْه المُقدَّر في كُل نَفس .

ومنْ هَذا المقام نطق الصَّادق الأمين المُمكن فِي النُّبوة ، المُكْثر بِالخَوف

(١) الحج : جمع لُجّ : وهو عرض البحر .

(٢) سورة الحجر الآية (٢١) .

وقال :

« يَا مُقَلِّبَ القُلوب ثَبِّتْ قَلْبِي عَلى دِينك »(١) .لأنَّ الشِّرك والكُفر والبدع، والزيغ (٢) والضلال والظُّلم والعصيان / أكثر في هَذا العَالم ٢٤٠/ب الإنْسَاني والجنِّي من التوفيق ، ومَا عَسى أَنْ يَقَع المُؤْمنون في الكَافرين ، ومَا يَقع الصَّالحون في الطَّالحون ، وأهْل الاسْتقامة في الزَّائغين ، وأهْل الذِّكر في الغافلين ، وهُداهم ، وضلالهم ، ومُخَالَفَتهم صَادرة كَما قَدّمنا مَع كُل نَفَس .

فَالمُشَاهد لذَلك المَقَام الإحْسَاني منَ الخوف قَد خَالطه رُعب مَا يُشاهد ، ويَخَاف أنْ يَطرأ عَليه مَع الطرفات ما يهلكه .

ومن هذا المَقَام قَال سرى السَقْطي : « إني لأنظر إلى أنْفي في اليَوْم كَذا وكَذا مرة مَخَافة أنْ يكون قَد اسْوَدَّ لَما أخَاف من العُقُوبة » ، وَوَرَد في صُورة العَرش : أنَّ العَرش ليئط باللَّه أطيط (٣) الرَّحل الجديد بالرَّاكب ، فَهذا الأطيط عبارة عن انْفعَال المأمور ، والمفعول عَلى الدَّوام لمَا يَصدر عَليه ، وعلَى مَنْ حوى تَقْليبَ القَلب ، وتَصْريف المُدبّر ، فَهذا الخَوف في هَذا المَقام يُشَمّر أطرَاف القَائم فيه منْ جوَانبه ، وتَفيض أجْنَاحه ، وحوَاشيه في كُل نَاحية ، ويُشَاهد المَوْجُودات كُلها مُنكَمشة ، مُنْقَبضة في أنْفسها ، فَلا يَسْكن إلى شَيء ، ولاَ يَطْمئن بِحال ، ولاَ عَمل ، ولاَ يَنْظر إلَى المَلك الحي .

---

(١) صحيح على شرط مسلم : رواه الترمذي (٣٥٢٢) من حديث أم سلمة وابن ماجة (١٩٩) والحاكم (٤/ ٣٢١)وابن حبان (٢٤١٩) من حديث النواس بن سمعان . وحسنه الترمذي وقال : في الباب عن عائشة وجابر وعبد الله من عمرو ونعيم بن عمار . وقال الشيخ الألباني - حفظه الله - هو على شرط مسلم . مشكاة المصابيح (١٠٢) .

(٢) الزيغ : الميل عن الحق .

(٣) أطيط : صَوت .

وقَد وَرَد في صفة الكروبيين أنهم من أعظم الملائكة ، وهم صُفُوف مُتَواصون ، ولَيس منَهم وَاحد يَنْظر في وجْه مَنْ إلى جَانبه ، ولاَ يُكَلمه ، ٢٤١/ب وكَذلك إسرافيل / ناظَر شاخص يَنْتَظرَ مَتَى يُؤمر ، فكَذَلكَ كُل مَن في المُلك مُنْقَبض مُنْكَمش في هَذا المَقام ، مُراقب للأمر ، فَاعْلم ذَلك .

فصل

واعلمْ أنَّ بتَصْحيح الخَوف يُخَلص التَّوحيد من دقائق[1] الشِّرك الخَفي، والجَلي ، وذَلك أنّ الخَوف فيه تَشْبيه وتَمْويه عَلىَ العُقول ، تَحْسب العُقول أنَّ الأَشْيَاء المُخوفة هِي المُهلكَة ، فيَقَع في الشِّرك ، قَال اللَّهُ عزَّ وَجَلَّ :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [2] ﴿ وإِيَّاي فَاتَّقُون ﴾ [3] .

فـأمَر بالخَـوف منه ، وَحـده ، وإذَا أمَر بالخَوف منه وَحـده لمْ يَجـز أنْ يَخاف سواه ؛ فالواجَب تَحْقيق الخَوف من اللَّه وَحْده ؛ فإنَّ الأشْياء لاَ تَفْعل شَيئًا بوجْه ، فكَيْف يُخَاف منْ لاَ يَفْعل شَيئًا ؟ وقَد نَهى اللَّهُ عَز وجَل عن خَوف غَيره ؛ لأنَّ ذَلك شِرك فقال :

﴿ إلاَّ الَّذينَ ظَلَمُوا منهُم فَـلاَ تَخْشَوْهُمْ واخْـشَوْنِي ﴾[4] والنَّهي يدل عَلى تَحْـريم المَنْهي عَنْه ، والخَوف من غَيـر اللَّه منْ عَـمل الشَّـيطان ، وضَـعف اليَقين، ودَقـائق الشِّرك الخـفيِّ ، قَال اللَّهُ عَز وجَل في تَحْقيق الخَوف من اللَّه، وتَخْليصه ، وتَوحيده لَه :

﴿ الَّذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فَاخْشَوْهُم ﴾ [5] ثمَّ أثْنى عَلى المُوَحدين بِتَحْقيق الخَوف منه ، وإخْلاَصه لَه ، دُون من سواه فَقال :

---

(1) دقائق : جمع دقيقة وهو الأمر الغامض .

(2) سورة البقرة الآية (40)

(3) سورة البقرة الآية (41) .

(4) سورة البقرة الآية (150) .

(5) سورة آل عمران الآية (173) .

﴿ فَزَادَهُم إيمانًا ﴾ إلى قوله لهم ﴿ فَاخْشَوْهم ﴾ .

١/٢٤١ ذكَّرهم ذلك أن لاَ / فَاعل إلاَّ اللهُ فقالوا : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ أيْ لاَ نَخاف سِواه ، ثمَّ أخْبر أنَّ الخَوف منْ غيره من عمل الشَّيطان فقال :

﴿ إنَّمَا ذَلكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أوْلِيَاءَهُ ﴾ (١) ثمَّ نهاهم عنْ خَوف غَيره فَقال : ﴿ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾ أيْ اعلمْ أنَّ ذَلك منْ شَرط الإيمان ، فَقَال : ﴿ إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ فَلا تَخافوا سِواي .

(١) سورة آل عمران الآية (١٧٥) .

فصل

فإنْ قلت : فإنَّ اللَّهَ عز وجَل قَد قالَ :

﴿ حَافظُوا عَلَى الصَّلَوَات والصَّلاَة الوُسْطَى وقُومُوا للَّه قَانتين ﴾ (١) ثمَّ ذَكَر الخَوف من العَدو ، فَقال : ﴿ فَإنْ خِفْتُم فَرِجَالاً أوْ رُكْبَانًا ﴾ (٢) فَاعلم أنَّ القُرآن لاَ يَتَنَاقض ، وإنَّما مَعنى الخَوف في لقاء العدو الخَوف من اللَّه أنْ يُسَلطهم عَلى المُؤمنين ، كَما قال : ﴿ ولَو شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُم ﴾ (٣) فإنَّ العَدو قَد صَحَّ في عَقيدة الإيمان أنَّه لاَ يَتحرك حَركة إلا بقدرة الله ؛ فإنَّه لاَ فَاعل سوى اللَه ، وَحده ، فَالمُوقن إنَّما يُشاهد الكُل بيَد القُدرة يُسلط مَنْ يَشَاء ، ويَنْصُر مَن يَشاء ، فإنْ قُلت : فإن النَّبي ﷺ كان يَحرس حتَّى نَزلَت : ﴿ واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٤) .

فَاعْلم أنَّ هَذا حُجة عليْك ، إنَّما كَان يَخَاف قَبل نُزول الآية رَبَّه تَسْليطه ، حَتَّى أمَّنه من التَّسْليط .

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجَل : ﴿ فَلا تَخْشَوا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾(٥) وهَذا نَزل في مَواطن الحُكم للحُكام ، والقيام فيه بالقسط ، ولاَ يَفْعل / ذلك إلا خَائف ١/٢٤٢
منَ اللَّه وحدَه ، خَالص التَّوحيد من دَقائق الشِّرك ، فإنْ قُلت : فربَّما يُذَم الإنْسانَ ، ويُلاَم من الخلق .

(١) سورة البقرة الآية (٢٣٨) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٣٩) .

(٣) سورة النساء الآية (٩٠) .

(٤) سورة المائدة الآية (٦٧) .

(٥) سورة المائدة الآية (٤٤) .

فاعلمْ أنَّ اللّهَ قَد أثنَى عَلى الخَائفين منْه وَحْدَه ، فَقَال : ﴿ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾[١] وأعْظَم النَّاس درجة في الخَوف من اللَّه وَحده أهْل الصِّدق في الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، وهُو أعْظم الجهاد ، فإنْ قُلت : فإنَّ الآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر يُخَاف عليْه القَتل ، أو الهَوان ، والضَرب ، فَقَد أعْلَمْتُك أنَّ الموحد في الخَوف إنَّما يَخَاف التَّسْليط منَ المُسَلط جَل جَلاله ؛ لأنَّ نَواصي الكُل بيَده ، فإنْ سَلط عليْه الهَلاك في ذَاته فَهلك بحق ، كان من الذين قَال الله عز وجَل فيهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾[٢] ومن الذين أثنى عليهم ، وذَم من آذاهم ، وقَتَلهم في قَوله :

﴿ إنَّ الَّذينَ يَكْفُرُونَ بآيَات اللَّه ويَقْتُلُونَ ﴾ أيْ والذين يَقتلون ﴿ الَّذينَ يأمُرُونَ بالْقسْط منَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بعذَابٍ أَليم ﴾ [٣] فَقَرنهم مَع الأنبياء ؛ لأنَّهم على مَنَاهجهم ، والأشْبَه فالأشْبَه بهم ، فإنْ قُلت : فإنَّ اللَّهَ نَهى عنْ إلْقَاء اليَد إلى التَهلكة .

فاعْلَمْ أنَّ هَذا لاَ يَتَنَاقَض ومَوضع الإلْقَاء باليد إلى التَّهلكة ، هُو عُموم ٢٤٢/ب لمْ يأمر اللَّه به ، فيَقول اللَّه له / : أنا المُهلك في هَذا الموضع ، وفي سواه ، ولمْ آمرك بإلْقَاء اليَد إلى التَّهلكة ، فأنت مَذمُوم مَحيق [٤] أنْ أُهْلكَكَ ، ولاَ تَخفْ سواي في كل حَال .

والمُتحقق في التَّوحيد في هَذا المقام سَواء ، عنْده الذَّرة ، أو الخلق كُلهم ؛ لأنَّه هُو الفَاعل في الذَّرَة وعلى يَدها ، وفي الخَلق ، وعَلى أيْديهم ،

---

(١) سورة المائدة الآية (٣٤) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٠٧) .

(٣) سورة آل عمران الآية (٢١) .

(٤) المحق : الإبادة .

فَقد تَسلَّط شَرَرة منَ النَّار فَيهلك بها ، ويَقبض الخَلق كُلهم ، فَلا يَقْدرون مَعه عَلى إذاية شَيء ، فالكَمال في هَذا المقام عنْد المُحققين به أنْ لاَ يبْقى في القَلب من خَوف المَخْلُوقين كُلهم مثقال ذَرَّة ، ولاَ أقلَّ ، ولاَ أكْثر ، ويَحصل في القلَب خَوف الخالق وَحده ، وَبذَلك أثنى عَلى العباد المُكْرمين ﴿ وهُمْ لاَ يَسْتَكبِرُونَ . يَخَافُونَ ربَّهُم من فَوْقِهِم ﴾ [1] فأخبرَ أنَّهم يَخافون ربَّهم وَحده ، لَيس في قُلوبهم مثقال ذَرة منْ خَوف سواه ، وبهَذا أثنَى اللَّه عَلى الأوْلياء ، الأصْفَياء المُتَشبهينَ بالملأ الأعْلى فَقال : ﴿ ألاَ إنَّ أوْلياءَ اللَّه لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [2] لَيس مَعنى الآية أنَّهم لاَ يَخافون اللَّه ، وإنَّما مَعنى الآية أنَّهم لاَ يَخافون سواه ، ألاَ تَرى كيْف وَصَفهم في الآية الأخْرَى بَعد هَذه الآية بالخَوف فَقَال :

﴿ الَّذينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُون ﴾ [3] والتَّقْوى / هِي الحَذر ، والحَذر هُو الخَوف . ١/٢٤٣

فإنْ قلتَ : إنَّ مُوسى عليْه السلام قَد قَال فيه : ﴿ فَخَرَجَ منْهَا خَائفًا يَتَرقَّبُ ﴾ [4] حين أجْمع آل فرعون على قَتْله ، فاعلَمْ أنَّه إنَّما يَخاف تَسْليطه كما تَقدم ، فَلمْ يَخَف إلاَّ اللَّه ، ولَمْ يَخف فِرْعَون ، ولاَ آله ، فَفَر من تَسْليط اللَّه .

والمواطن التي أمره اللَّه أنْ يَفر منها إليْه ، فَفَر بأمر اللَّه إلى اللَّه ، ألاَ تَراه كَيْف قَالَ بَعدَ ذَلك : ﴿ رَبِّ نَجِّني مِنَ القَوْمِ الظَّالمِينَ ﴾ [5] لَمَّا عَلم أنَّه لاَ

---

(١) سورة النحل الآية (٤٩ ، ٥٠) .

(٢) سورة يونس الآية (٦٢) .

(٣) سورة يونس الآية (٦٣) .

(٤) سورة القصص الآية (٢١) .

(٥) سورة القصص الآية (٢١) .

مُنَجِّي سواه ، ولاَ مُسَلِّط سواه ، وكَذلك قوله : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون ﴾ [١] إنَّما أراد بهَذا الكَلام استخْراج مَا عنْد اللَّه من القَضاء فيه ، وهَل يُسلطهم عليْه أمْ لاَ . فَلمَّا قَال لَه : ﴿ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرَى﴾ [٢] فصار لأمره ، واستَأمن ، ولَو خَافَهم دُون اللَّه لَبَقي عَلى الحَال الأول ، وكَذَلك جَرى لَه في العَصا فقال له :

﴿ وأنْ ألْقِ عصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تَهتَزُّ كأنَّها جَانٌّ ولّى مُدْبرًا ﴾ [٣] أيْ خَائفًا من اللَّه ؛ كأنه قَال لَه : مَا هَذا الفعْل العَظيم من فعْلك يَا رب ؟ فَخَاف منه فَقَال لَه : ﴿ خُذْها ولاَ تَخَفْ ﴾ [٤] فأخذها ، ولَو خَافَها لما أخذها ، فَلما أمَّنه ، ٢٤٣/ب وأظهَر لَه حُكمًا آخر أخذ بها / واستأمن ؛ لأنَّه كان في مقَام التَّعليم ، فأراه كيْف يَصْنع إذَا أرْسَله إلى فرعون ، فَلمَّا أرْسَله إلى فَرعون ، وقَد أمَّنه منْ قَتله بأيْديهم ، وتَحقق ذلك سَار آمنًا ، فلمَّا ألقى السَّحرة عصيهم ، وحبالَهم ، ورأى مَا رأى منْ فعل اللَّه في الحبَال ، والعصى أوْجَس في نَفْسه خيفَة مُوسى ، ولَيس بالخَوف الكُلي ؛ لأنَّه مُثبت بتأمين اللَّه لَه حين أرْسله .

فلمَّا شَاهد من الحبال والعصى مَا شَاهد قَال : ومَا هَذا الفعل الآخر يَا رب؟ فأمّنه أمنًا ثانيًا ، فَقَال : ﴿ قُلْنَا لاَ تَخَفْ إنَّكَ أنْتَ الأعْلَى ، وألْقِ مَا فِي يَمِينِك﴾ [٥] فمَضى لما أمر ، ولمْ يَخف أحدًا .

وكَذَلك لَو أظْهر لَه ألف فعل ، لمْ يَخف في الكل إلاَّ اللَّه ، وتَسْليطه ؛ لأنَّه مُشَاهد للصِّفَات المُخوفه المُظْهرة للأفْعال . وخَوف الدُّنيا ، والفَقَر فيها منْ دَقَائق الشِّرك الخفي ، والخَوف من الله وحده في كل حال هو

---

(١) سورة الشعراء الآية (١٤) .

(٢) سورة طه الآية (٤٦) .

(٣) سورة القصص الآية (٣١) .

(٤) سورة طه الآية (٢١) .

(٥) سورة طه الآية (٦٨ ، ٦٩) .

التوحيد. . . . .(١) من الخوف الإحساني فليس وراءه مقام ؛ لأنه عن مُشاهدة تجلي الصّفات الذاتية مَقَام الحاضرين ، العارفين ، والمحبين المَحْبُوبين، والرَّاضين ، والرُّوحَانيين ، وجَميع سُكان الحَضرة العَلية ، والرَّوضة القُدْسية عَلى اخْتلاف مَقَامَاتهم وأحْوَالهم / وأسْرَارهم مُجَالسة ٢٤٤/أ
للحَق في مَقْعد صدق ، نَزَلوا بعَرصَة(٢) التعظيم فأدَّبَتْهُم الهَيبة بآداب المُصْغِيَ للمُعلم في مَقام التَّعليم بيْن يَدي المُعلم المُتكلم الحكيم .

فَخَوفُ هَؤلاء لاَ يَعْرفه إلاَّ منْ عَلى شمَّة منْه ، أوقَف خَوفهم رُعب الجلال، وهَيبة العَظمة ، والكمال ، وفَزع العِزَّة والكبرياء ، والتَّعالي ، ودهش الملك من رفعة المُتعالي ، فَسعَة خَوفهم عَلى قَدر مَا تَجلى لَهم من عَظَمة الصِّفاتَ التَي هي عَلى سعة الذَّات فَهذا خَوف لاَ يُوزن ، ولاَ يُقَدَر قَدره ؛ لأنَّه يُوازي مَا تَجلى لَه . كَما طَلبه بَعض العَارفين في دُعائه فَقَال : اللهم ارْزُقني من الهَيبة لَك ، والتَّواضع والذِّلة في نَفسي مَا يوازي ما أنت عليْه منَ الجلاَل والعزة والعظمة ، وكُلما ظَهر لَهُم في هَذا المَقام من صفة حنَان ، أوْ رَحْمة وجَمال فإنَّها في مَهَابة الجلال ، والعزة والعَظَمة ، فَلذَلك هَابَه المُحبُّون ، والعَارفون، والرَّاضون ، وأنواع المقربينَ .

واخْتَلفت أنْواع الخَوف عنْدهم باخْتلاف المَقَامَات؛ فَخَوف المُقرب خَوف الإبعاد ، وأنَّه لاَ يُرى أهلاً لتلكَ الحَضْرة العلية ، فيُطرد ، وخَوف النَّاظر المُشَاهد: خَوف الحجَاب / وأنْ يَغْلق في وَجْهه الأبواب ؛ لأنَّ ٢٤٤/ب
بَصيرتَه لاَ تَصْلح للتنزه في ذَلك العَجب العُجَاب ، وخَوف المُحب والمُسْتَأنس : خَوف الانْقطَاعَ عَن المَحْبوب المُؤانس ، فَلاَ يُكلَّم ، ولا يُجَالس لمَا خَالط قَلبه من الحُبَ لغَيره ، والوَسْواس ، وخَوف المَحْبوب والخَليل خَوف البُغْض ، والتَّبْديل ، لإشْرافه عَلى أسْرار الجَليل وإظْهارها لنَفسه من

(١) بياض بالأصل مقدار كلمة .
(٢) العرصة : الساحة .

خارج الغليل .

وخَوف العَالم والعَارف خَوف ظُهور الأحْوال والمعارف من أجل ظُهور سَوادب أو قلَة تَناصفَ .

وخَوف الرَّاضي المَسْرور ، خَوف السخَط المُنَغص الكَدُور من أجل التَّبرم بشَيء من التَّقدير ، والكَرَاهة لأمر من أُمور التَّدبير ، وخَوف القَائم المُشْتَاقَ : خَوفَ الزَّوال والفِراق ، من أجلِ قلة وَفاء عَهد فِي المحبة أو نَقْص مِيثاق .

وخَوف الزَّاهد في الكَون الوجيه المَبْسوط خَوف الإدْلال المُورث للسُّقُوط منْ أجل تَخَطَي رِقاب الكَون ، وإنَّه مَحْظُوظ .

وهكَذَا طَبَقات أهْل عليين ، والرَّفيق الأعلى ، مَخَاوفهم ، لا ذمة لهم ، وقَابضة بالأدب أنْفُسهَم عنْهم ، فَيَشْرَبون الصَّافي الزُّلَال على بُسَاط الإنْس خَالصاَ من كَدُورَات النَّفس ، فَناهيك ثمَّ نَاهيك من مَخَاوف تَعْلم ١/٢٤٥ آداب الحضرة العلية بغَير تَعلم ، ولاَ رَويّة ﴿ أولَئكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (١) / وحزْب الله المُفْلحون ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم من قُرَّة أعْيُن جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) . وهَذا الخَوف الذي هُو الإجْلال والهَيبة لا يَزُول أبدًا ، ولاَ في الجنة ؛ لأنَّ هَيبة العزة لاَ تزولَ ، وهُو المَعْنيّ بقَول القَائل : ومنْك بَدا حُب يعز تمازجا بماء وصال كُنْت أمنت وهلته .

ولَمْ يَبق وراَؤه إلاَّ الزِّيادة منْه وخَوف مَا في نَفس المَلك لَهُم ؛ لأنَّ سعة علْمه فيهم ، وفِي غَيْرهم لاَ يُشاهدُها إلا هُوَ سبْحانه ، فَخَافوا كَيْف نُزُولَهمَ فِي نَفسه .

---

(١) سورة الواقعة الآية (١١) .

(٢) سورة السجدة الآية (١٧) .

الشعبة الثامنة والأربعون
الرَّجاء

أمَّا كَون الرَّجاء مِن الإيمان فَبيِّن جدًا ؛ لأنَّه في نَفسه إيمان ، كَما قَال تَعالى :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَة رَبِّه أحدًا﴾ (١) ولا فرق بيْن رجاء اللقاء ، والإيمان باللقاء ؛ لأنَّه رذا رَجَا لقاء ربِّه ، فَقد آمن بلقائه ، ولقوله سُبْحانه : « أنَا عنْدَ ظَنِّ عَبْدي بي »(٢) والظَّن يقين ؛ ولأن الرَّجاء ضد اليأس ، والقُنوط اللذَين هُمَا كُفر كَما قَال تَعالى :

﴿ لاَ يَيْأس مِن رَوْحِ اللَّهِ إلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُون ﴾ (٣) .

﴿ ومَن يَقْنَطُ من رَحْمَة ربِّه إلا الضَّالُّون ﴾ (٤) فإذا كَان ضد الرَّجاء كُفرًا ، وضَلالاً ، فَهُو في نَفْسه إيمَان وهُدى / والشَّواهد عليْه تَطول . ٢٤٥/ب

اعلمْ أنّ مقَام الرَّجاء يَقْتَضي ثلاثة أشياء : رَاجٍ ، وهُو العَبد ، ورَجاء وهو حال العَبد ، مَرجُو وهو اللَّه جَل جَلاله .

وحَدّ الرَّجاء : الطمع في المَرجو ، وحُسن الظَّن ، والأمل في المَرْجو ، والطَّمع فَقرٌ حاضر ؛ فالرجاء هو الفقر إلى اللَّه جَل جَلاله ، فَلذلك كَان الفَقر أشْرف المَقامات ، والرَّجاء والخَوف فرقدان (٥) ، لا يجوز افْتراقهم ،

---

(١) سورة الكهف الآية (١١٠) .

(٢) صحيح : تقدم تخريجه .

(٣) سورة يوسف الآية (٨٧) .

(٤) سورة الحجر الآية (٥٦) .

(٥) الفَرْقَدان : نَجْمَان قريبان من القُطْب .

يكسر الرّجاء شدة الخَوف كَي لا يَخْرج إلى الانهماك .

وأماني النَّفس ، فَيَعْتدل الإيمان ، والأعْمال في كفة الميزان ، ويحصل من مجموعهما حالة تُسمى الإشْفاق ، كما أن الشفق هُو الحُمرة المُمْتَزجة منْ ظَلام الليل وضياء النَّهار ، لاَ هي ليْل خَالص ، ولاَ نهار خَالص .

واعلم أنَّ الرَّجاء عَلَى ثلاثة أقسام :

قسم فِي مقام الإسْلام ، وعَالم الحِس ، وقِسم فِي مقام الإيمان ، وعَالم الغَيب ، وقِسم فِي مقام الإحْسان .

فأمّا القسم الأول : في مقام الإسْلام وعالَم الحِس ، فإنَّ أمور هَذا العَالم عَلى قِسمين : دينيّة ، ودُنياويّة .

فأمّا الدُنْياوية منها ، وهي المُقيمة لعَيشه فإنَّ البَارئ تعالى قَد قَسم أرْزَاق الخَلائق عَلى أنْواع كَثيرَة ؛ فَمنْهم منْ رَزَقه مَالاً ، ومنْهم مَنْ رَزَقَه صناعة ومنهم مَن شغله بالدين ، وجَعل رزْقه منْ حَيث / لاَ يَحْتسب ، ١/٢٤٦ ومَنْهم مَنْ أحْوجه إلى الخَدمة مَع الخَلق ، ومَنْهم مَن أحْوَجه إلى السُّؤال ، ومَنهم تُجار ، وغير ذَلكَ ، فَيَدْخل العَبد فيَ أمُور مَعَاشه عَلى الوَجْه الذي يَسَّر لَه ، كَما أمره العلم من هذه الوُجوه المُتَقدمة ، رَاجيًا لفضل الله ورَحْمَته وَحْده ، قَاطعًا طمعهَ[(١)] ورجَاءه من جميع الخلق لعلمهَ أنّهم لاَ يَضُرون ، ولاَ يَنْفعون أحَدًا ، في رزْقه ، ولاَ أنْفسهم ويَجْعل بَدَل الرَّجاء والطَّمع فيهم الرَّجَاء والطَّمع في اَلله ؛ فَعَاش بيْنَهم حَميداً عَزيزاً برجَائه لربِّه ، وطَمعه فيه ؛ لأنَّه إنْ أعطَاه مَولاه مَالاً فَمن فَضْلهَ ، ورَحْمَته ، وإنْ أعْطاه صناعة وَكَسْبًا فَبتَعْليمه ، وتَيْسيره ، وإنْ أخدمه مَع الخَلق بأجرة فبالقُوة التي أَعْطَاه مَولاه ، يَنْفَعهم كَما يَنْفَعُونه ، وإن أحْوجه إلى السُّؤال لِمَا في أيديهِم ،

(١) في الأصل [طعمه] وما أوردناه هو الصواب بإذن الله .

وكَانَ صادقًا فَطَلبًا لحقّه الذي جَعله اللّه في أيديهم ، ومَا يَلزَمُهُم منْ حُقوق السَّائل المُسلم الصَّادَق ، وذَلك لحكمة من اللّه سُبحَانه ، فَلا يَتحرك حَركة إلا طامعًا[1] في فَضل اللّه ، رَاجيًا لَه ، قَاطعًا طَمَعه ورَجاه من الخلق كُلهم ، قَلبُه مَع ربِّه بالرَّجاء ، وبَدنه مَع الخَلق مُتصرف .

(١) في الأصل [طعاماً] .

فصل

وأمَّا الأمور الدينية في مقام الإسْلام فإنَّها عَلى ضربين : أوامر ، ونَواهي .

٢٤٦/ب الأوَامر : أمْر بالحَسَنَات ، والنَّواهي / نَهي عن السَّيئات ، وقَد قَرن اللَّه الرَّجاء في كتَابه مَع النَّوعين : ﴿ إنَّ الَّذين آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات ﴾[(١)] ﴿أولَئكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّه ﴾ [(٢)] فَقَرَنَ الرَّجاء مَع العَمل ، وقَال : ﴿ إنَّ رَحْمَتَ اللَّه قَرِيبٌ منَ الْمُحْسنينَ ﴾ [(٣)] فقرن الرَّحْمة المَرْجوة بالإحْسَان ، والحَسَنات ، وهكذا العَمل الصَّالح أبدًا مَقْرون مَع الرَّجاء .

وقَال سبُحانه في المَنْهيات :

﴿ وَقِهِمُ السيِّئاتِ ، ومَن تَقِ السيِّئَات يَوْمَئِذ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ [(٤)] .

فاعلمْ أنَّ الرَّحمة المَرجوة : الوقَاية من السَّيئات وتَرك المَنْهيات ، فَامْتَثَل الرَّاجي العَمل الصَّالح ، واجْتَنَب العَمل السَّيئ رَاجيًا أنْ يُنجيه اللَّه منَ العَذَاب ، ويكرمه بالثَّواب دُون أنْ يُعوِّل عَلى أعْماله ، ويَعْتَقد أنَّها تُنَجيه ، إنَّمَا يكُونَ رَاجيًا في ربِّه ، لاَ في عَمَله ، وبذَلك وصَف اللَّه العُمَّال وأثْنَى عَلَيْهم للاقْتداء بهم فَقَال :

﴿ أمَّنْ هُوَ قَانتٌ آنَاءَ اللَّيلِ سَاجدًا وَقَائمًا يَحْذَرُ الآخرَةَ ويَرْجُو رَحْمَةَ ربِّهِ﴾[(٥)] ولَمْ يَقل : ويَرجو عَمله ﴿ إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وهَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

(١) سورة البقرة الآية (٢٧٧) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢١٨) .

(٣) سورة الأعراف الآية (٥٦).

(٤) سورة غافر الآية (٩) . (٥) سورة الزمر الآية (٩) .

اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ (١) ولـمْ يَقُل يَرْجُونَ أَعْمَالهم .

وإنَّما العَمل سَبب من عنْد اللَّه ، وهُو خَلق من جُملة المَخْلوقَات ، فكما يَعْتَقد المُؤمن أنَّ الخَلق لاَ يَضرُون ، ولاَ يَنْفَعون ، فَكَذلك / لاَ يَعْتَقد ٢٤٧/أ في عَمَله أنَّه يُنَجيه ، ويَنْفَعه ، إنَّما الأعْمال بَراءَات ، مَن أتَى بها نَجى ، وَأعطى ، ومَن لَمْ يَأت بها لـمْ تكُن لَه بَراءة تُوجب لَه عَطاء فَافهم .

وتَصْديق ذَلك كُله قَول النَّبي ﷺ : « لَن ينجي أحدكم عَمَلُه » فَهَذا هو الفَوز من العَذاب ، وقال في الثواب : « لَن يَدخل أحد الجنَّة بعَمله ، قَالوا : وَلاَ أنْت يَا رسُول اللَّه ! قَال : وَلاَ أنَا إلاَّ أنْ يَتَغَمدني اللَّهُ برَحْمة منْه وفَضْل » (٢) فَهذا كُله لئَلا يَرجو أحدٌ مَخْلوقًا ؛ فإنّ الرَّجايات من التَّوحيد مُخَلص للإيمان من دَقيق الشِّرك ؛ لأنَّه تَعْليق القَلب باللَّه وَحْده ، وطَمَعه فيه ، وقَطع طَمعه من المَخْلوقين لاَ يكُون إلا من عَقْل سَخيف إنَّما يَليق الطَّمع ، والرَّجاء فيمَن بيَده مَلكُوت كل شيء ، وفَي مثْله فَليَطْمَع الطَّامعُون ، فَهذا مَعْنى خُروج القَلب عن العَـمل لاَ أنَّه تَهاوَن بالعَمل ، فكَيْف ؟ واللَّهُ تَعالى يَقُول : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) و﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) و﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) و ﴿ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ (٦) فالنَّجاة منَ العَذاب ، والفَوز بالثَّواب لاَ يكُون إلاَّ منَ اللَّه بوَاسطة الأسْبَاب/ التي جَعَلها ، ونَصبها ، وهي الوَظَائف الدُنْيَاوية ، فَافهم . ٢٤٧/ب

(١) سورة البقرة الآية (٢١٨) .

(٢) صحيح : تقدم تخريجه .

(٣) سورة النحل الآية (٣٢) .

(٤) سورة الطور الآية (١٦) .

(٥) سورة الزخرف الآية (٧٢) .

(٦) سورة الزمر الآية (٦١) .

ومَنْ رأى غَير ذَلك ، وتَرك الأعْمال ، واتَّكَل عَلى الرَّجاء فَهُو مُرجئ خَبيث ، مُبْتَدع مَارق ، ومتمن مَغْرور جَاهل ، لَيس من الرَّجاء في شَيء .

وَفَّقَنَا اللَّهُ وإيَّاكم لمَا يُحبه ويَرْضَاه .

فَقَد تبيَّن مما قَدمنَاه أنَّ تَحْقيق الرَّجاء مُخَلص التَّوحيد للَّه عَز وجَل ، وأنَّه بَابٌ عَظيمٌ من التَّوحيد ؛ لأنَّ الرَّجاء هُو الطَّمع في المَرجو ، وتأمل القَلب لمَا يَحْصُل منه في المُسْتَقبل ، وقَد أتت الأخْبار ، وأهَمَّتْ أهل العُقول عَلى ذَمِّ الطَّامع في غَير اللَّه ؛ لأنَّ الطَّمع في غَير اللَّه شرك من حَيث توهَم أنَّ أحداً يَفْعل شَيئًا ، ويُعطي ويَمْنع ، ولَذلك ظَهرتَ قُوة تَوحيد الرَّاجين المُوحدين الذين يَرون أن لاَ فَاعل إلاَّ الله في مَواطن الامْتحان ، والتَّخْويف ، قال اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ :

﴿ أمْ حَسبْتُمْ أن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأتِكُم مَثَلُ الَّذينَ خَلَوْا من قَبْلكُم مَسَّتْهُمُ الْبَأسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّه﴾[1] .

لَمَّا زَلزلهم بالمُخوفَات في مَواطن المُهلكات من أفْعَاله الصَّادرة عن صفَاته ، حتَّى اشْتَدَّ خنَاقهم ، فكَاد يَحْصر سياقهم هَاج الرَّجاء فيهم / ١/٢٤٨
وفَارين قُلوبهم عَلى ألْسنَتهم وظَواهرهم . فقَال : ﴿ متَى نَصْرُ اللَّه ألاَ إنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ ﴾ فَاعْتَدلوا بالرَّجاء ، ولمْ يَنْحرفوا بالخَوف ، وثَبَتوا للقاء .

وهكذا الرَّجاء أخُو الخَوف وقَرينه يُثَبته ويُعينه ، فَظَهر منْهم قُوة تَوْحيد الرَّجاء حين انْقطع طَمعهم منْ جَميع الأشْياء فقَصَدوا إلى عينَ الحَق فقَالوا : ﴿ مَتَى نصْرُ اللَّه ﴾ فَعَلموا أنَّه لاَ نَاصر سواه ، وكَذلك أخبَر عَنْهم في آيَة أخْرى في قَوله :

(١) سورة البقرة الآية (٢١٤) .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وجُنُوده﴾ [(١)] فانتَدب أهْل حُسن الظَّنّ باللَّه ، وحُسن الظَّن أفْضَل مَقَامات الرَّجَاء ؛ لأنَّه يَقين في نَفْسه ، وتَوحيد ، ولَو سَاء ظَنُّهم لَهلَكُوا كَما قَال الآخرون :

﴿ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَومَ بِجَالُوتَ وجُنُوده ﴾ بلْ أخْبرَ عَنهم بقَوله :

﴿ قَالَ الَّذينَ يَظُنُّونَ أنَّهُم مُلاَقُوا اللَّه كَم من فئَة قَليلَة غَلَبَتْ فئَةً كَثيرةً بإذْن اللَّه ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرينَ ﴾ [(٢)] وحَسَّنوا ظَنهم الذِّي هُوَ يَقينهم باللَّه ، وأنَّه يَنْصرهم فكان عند ظنهم به .

ثمَّ لَمَّا كَان الالتقَاء في قَوله : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُوده ﴾ مدّوا طَمَعَهم ، وأملَهم لمَوْلاَهم مُوحدين لَه بالرَّجَاء الصِّرف الخَالص فَقَالوا لَه دُون مَن سواه مُتفَرِّغين ﴿ ربَّنَا أفْرِغْ / عَلَيْنَا صَبْرًا وثَبِّتْ أقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى ٢٤٨/ب
القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ [(٣)] أيْ فَإنّا لاَ نَرجو سواك نَاصرًا ، كَما لاَ نَخَاف إلاَّ تَسْليطَك ، فَحقق ظَنَّهم ، فَقَال : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإذْن اللَّه ﴾ [(٤)] وقيل كَما قَالوا هُمَ : ﴿ كَم مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإذْنِ اللَّه ﴾ [(٥)] .

وبضد هَذا الوَصف هُم المُنَافقون ، لَمَّا فَقَدوا التَّوحيد ، وحُسْنَ الظَّنِّ والرَّجاءَ كَانوا مُنَافقين مُشْركين ، فَقَال اللَّهُ عَز وجَل :

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِن فَوْقِكُم ومِنْ أسْفَلَ مِنكُمْ ، وإِذْ زَاغَتِ الأبْصَارُ وبلَغَتِ

(١) سورة البقرة الآية (٢٤٩) .
(٢) سورة البقرة الآية (٢٤٩) .
(٣) سورة البقرة الآية (٢٥٠) .
(٤) سورة البقرة الآية (٢٥١) .
(٥) سورة البقرة الآية (٢٤٩) .

الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وتَظُنُّونَ باللَّه الظُّنُونَا ﴾ (١) فَقررهم عَلى مَا عَلمَ اللَّهُ من ظُنُونهم به ، وجَاءَهم فيه ، ثمَّ قَال :

﴿ هُنَالكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ (٢) ثمَّ أخْبر عن سُوء ظَنِّ الْمُنَافقين به بقَوله :

﴿ إذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذينَ في قُلُوبهم مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُورًا ﴾ (٣) فَأسَاءوا الظَّنَّ باللَّه ، وقَطَعوا رَجاءَهم منه ، فَأشْركُوا وهَلكوا ، ثمَّ جَعل يَردُ الآيات في أوصَافهم إلى قوله :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ والْيَوْمَ الآخرَ﴾ (٤) هكَذَا تَقْدير الكَلام ، فَأخبر أنَّ الرَّاجين بضد الْمُنافقين بتَخْليص

١/٢٤٩ التَّوحيد في مَقَام الرَّجاء ؛ فَالرَّجَاء ألاَّ تَرْجُو أحَدًا من خَلق / اللَّه ، ولاَ تَطْمع فيه صَغيرًا كان أو كَبيرًا ، دُنْيا أو آخرة ، أزلاً وأبدًا ، مُعلق القَلب في كُل شَيء باللَّه ، مُنْقَطع القَلب من التَّعلق بغَير اللَّه ، فَصَار قَلبه فَارغًا من كُل شَيء ، لَيْس فيه مثْقال ذَرة من الرَّجاء والطَّمع في مَخْلوق ، وامْتَلأ قَلبه ، وتَعلق باللَّه ، وَحدَه فَبذَلك تَنْتَفي دقَائق الشِّرك الخَفي .

قَال اللَّهُ عَز وجَل لنَبيِّه عَلَيْه السَّلام : ﴿ قُل لا أمْلكُ لنَفْسي ضَرًا وَلاَ نَفْعًا﴾ (٥) ولَمَّا نَزلت ﴿ وأنْذرْ عَشيرَتَك الأقْرَبينَ ﴾ (٦) نَادى قَرابَته وَاحدًا بعد وَاحد فَيَقُول : يَا بَني فُلان انْظُروا لأنْفسكم ، ويَا بَني فُلان ، قَال : « يَا

(١) سورة الأحزاب الآية (١٠) .

(٢) سورة الأحزاب الآية (١١) .

(٣) سورة الأحزاب الآية (١٢) .

(٤) سورة الأحزاب الآية (٢١) .

(٥) سورة يونس الآية (٤٩) .

(٦) سورة الشعراء الآية (٢١٤) .

عبَّاس بْن عبد المُطَّلب لاَ أغْني عَنك منَ اللَّه شيْئًا ، ويَا صَفيَّة عمَّة مُحمد لاَ أغْني عَنك منَ اللَّه شيئًا ، ويَا فَاطمَةُ بنْت مُحمد لاَ أملك لَك من اللَّه شيئًا ﴾ (١) فأخْرَجَهم إلى أنْ يُعلِّقوا قُلوبهم بالحَق ، ويَعْمَلُوا لَه وَحده ، وأسْلَمَهم إلى المَرجو الحَق سُبحانه ، فيكُون كُل واحد مُتعَلقًا باللَّه وَحده ، فَردًا لفَرد فالرَّجاء مقَام عَظيم يَبْعَث عَلى الأعمال وتَحْقير للأعْمال في أعيُن العُمَّال ، وفَّقَنا اللَّهُ وإيَّاكم لمَا يُحبه ويَرضاه .

وأمّا المَقَام الثَّاني : منَ الرَّجاء في مَقام الإيمان فأول / مَا يَقع عَلَيْه فكره ٢٤٩/ب منَ الغَيْب نَفْسَه ، فيَجدهَا كَما قَال اللَّهُ تَعالى : ﴿ لأمَّارةٌ بالسُّوء ﴾ (٢) كَارهة لفعل الخَير ، جبَانَة فيه ، مَائلة إلى الهَوَى والإعْراض عن ربِّها ، ثمَّ تَجدهَا مَرحُومة بأسْباب الآخرة كَما قَال تَعالى :

﴿ إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوء إلاَّ مَا رَحمَ ربِّي ﴾ (٣) فلمَّا ظَهرت الرَّحمة فيها ، عَلى مَا هي عَلَيْه من السُّوء قَوي رَجَاء العَبد في الرَّاحم لَها بالإيمَان الَّذي لَو أجْمع الخَلق كُلهم أن يُدْخلوه في قَلب عَبد باجْتهاد منْهم مَا قَدروا عَلَى ذَلك ، ولاَ الإنْسان بنَفسه ؛ لأنّه لاَ يَمْلك من بَاطنه شَيئًا ، لاَ سيما مَع كَرَاهية النَّفس في الخَير ، وأمْرهَا بالسُّوء ، فكتب اللَّهُ الإيمَان في بَاطن العَبد برَحْمته ، وزَيَّنه وحَببه ، والزِّينة مَحْبُوبة ، وكَرّه الكُفر والفُسُوق ، والعصْيان ، والمكروه مبغُوض ، فَمن الرَّجاء في عَالم الغَيْب مُجاهدة العَدو إبْليس ، ومُخَالفة النَّفس فيما يَدعُوان إليه ، فإنَّ ذَلك من أعْمال القُلوب المَقْرونة بالرَّجاء ، ومنَ الرَّجاء مَا أمدّ بالإيمان به من التَّوفيق والهداية كَي

(١) صحيح : متفق عليه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه - أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٧١)، ومسلم في الإيمان (٣٥١) .

(٢) سورة يوسف الآية (٥٣) .

(٣) سورة يوسف الآية (٥٣) .

يَقْوى ، ويَثْبُت .

فإذا نَظَرَ المُؤمن إلى فعل اللَّه ، اللَّطيف ، الرَّحيم به في هدايته للإيمان ، قَوي رَجاؤه في رَحمة اللَّه ، ورَجا أن يُخْتَم لَه بالإيمانَ ، والتَّوْفيق ، كَمَا هَداه أولاً .

١/٢٥٠ والخاتمة أيْضًا أول مَا يَلُوح / له من الغَيب بَعد النَّفس من أحْوال الآخرة ، وكَذَلك يَنظُر إلى الكُفر ، وكَيْف صَرَفَه اللَّهُ عنه ، وكَرّهه إليْه حَتَّى كَرِهَهُ ، فَيَرْجُو أنْ يَصرفه عنْه في خَاتمَته ، ويَحْسُن ظَنُّه به في ذَلك ، ويَقُول مَا فَعل بي مَوْلاَي هَذا إلا وهُو يُريدَ أنَ يَرحَمَني ، فَيَمْتَلئ قَلْبُه بتَبَاشير الرَّجاء ، ويَرْغَب إلى اللَّه ، ألاَّ يَجْعل الإيمان عنْده عَارية [١] في كُلِّ وقت كما قَال : ﴿ ويَدْعُونَنا رَغَبًا ورَهبًا ﴾ [٢] والرَّغَبُ هُو الرَّجاء ، والرَّهَب هُو الخَوف .

وفيه كَراهية الكُفر رَجاء عظيم ؛ لأنَّ الكَرَاهية للشيء إبْعاد لَه عن مَحل الإيمان ، وهُمَا ضدان ، والضِّدان لاَ يَجْتَمعَان في مَحل وَاحد ، ولاَ يَدْخُل أحَدهما عَلى الآخر ، مَا دَامت الكَرَاهة الضِّدِّية بَيْنَهُمَا ، وفي مَعْرفة العَبد بالْكُفر رَجاء عَظيم ؛ لأنَّ بالأضداد تَتَبَيَّنُ الأشْياء ، فَتَنْفَصل بَعْضُها عن بَعْض ، فَلمَّا عرّفه بالكُفر ، وهَداه لمعرفته عَرَّفه كيف يَجْتَنبه ، كَما قَال :

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجدَيْن ﴾ [٣] فإن ظَهر لَه عند الخَاتمة فتْنَة ، تُثْبت بهَداية اللَّه ، الذي هَداه ، وعَرّفه بالمَاضي ، وبتَوْفيقه في الحَال ، وفي وُجُوب العَبد لسُوء الخَاتمة ، رَجاء عَظيم ؛ لأن مَن خَاف عَلَى زوال شَيء منه فَقَد اغْتَبَط

(١) العارية : هي ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك وكل عارية مستردة .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٩٠) .

(٣) سورة البلد الآية (١٠) .

به(١) / . ٢٥٠/ب

وهذا كُله من أسْباب التَّثبت عَلى الإيمان ، ومن الرَّجاء العَظيم مَا يُلقي اللَّه من الرَّجاء فِي القَلب ، فَيَنْشَط البَاطن ، والجَوَارح لِفعل الطَّاعات .

فَيَنْطَلق اللِّسان بالشَّهادة بلا كُلفة ، ولَو ألقى مَكَانه سُوء ظَن ، أو يأس ، لأثْمَرَ ذَلك انْغلاَق البَاطنَ ، وضيق الصَّدر ، وكَسَل الجَوَارح ، ألا تَرى أنَّ الخَلق لَو اجْتَمَعوا عَلى أنْ يُطْلقواَ لسان العَبد بالشَّهادة مَا قَدروا عَلى ذَلك ، وأنْ يَنْشَطُوا قَلبه للصَّلاة ، قَال اللهَ تعالى :

﴿ وإنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلَى الْخَاشعينَ ﴾(٢) بَل هي أثْقل عَلى تَاركها من الجَبل - أعني الصلاة - ، وذلك من كَسَل البَاطنَ لفعْلَها ، وكَرَاهَيَة لَهاَ ، ومن الرَّجاء العَظيم تَجْريد الإيمانَ ، وإدامة خُلقه فَي القَلب ؛ فإنَّ المُؤمن لا يَسْتَغْني طَرفة عيْن عَن خُلق الإيمان فِي قَلبه ، فِي كُلَ نَفَس ؛ لأنَّه كالأعْراض التِي لاَ تَبْقى زَمنين .

والعَبد رُبَّما عَصَى ، وغَفل ، وأعرض عن مَولاه ، وهُو يَصْنع به في بَاطنه هَذا الصنُّع الكَريم ، فَيَطْمع العَبد في حُسن الخَاتمة ؛ لأنَّ كُل امتَدَادَة في نَفْسها خَاتمة ؛ لأنَّ في الإمْداد قَد تمت هَي في نَفْسها ، فَيَقُول العَبد إذا عَمَل مَعي هَذا ، وأنَا فَي حال القُوة والمَعْصية ، والإعراض والغفلة ، فَعَسى أن / يَفعل ذلكَ مَعي في حال الضَّعف ، في سكَرات ٢٥١/أ الموت ، إذا اضْطررت إليْه في غَاية الاضطرَار ، وكَرهت مَا كُنَت عَليْه منَ العصْيان ، وتَمنَّيْت التَّوبة ، وإني لم أكُن عَصيْتُه قَبل ذَلك طرفة عين ، وقَال النَّبي ﷺ :

(١) اغتبط : فرح بالنعمة .

(٢) سورة البقرة الآية (٤٥) .

« لاَ يَمُت أَحـدُكم إلاَّ وَهُو يُحسن الظَّنَّ باللَّه » (١) فَهَذَا رَجاء عَظيم فِي حَق كُل مُذْنب عنْد المَوت ، فكَيف بالمُطيعين المُتَّقين .

ثم إذا نظر الرَّاجي إلى القَبر وفتْنَته ، وسُؤال المَلكَين له عن الرُّبوبية ، والرِّسَالة هَل هي حَق أَمْ لاَ ؟ فَينظر إلَى قَلبه عنْد ذَلك إنْ اعْتَرضه خَاطر سُوء في الرُّبوبية ، والرِّسَالة فَيود أن لَو خَرّ منَ السَّماء ، ولاَ يَرد عليْه ذَلك ، أو لَو قَال لَه قَائل : إنَّ اللَّهَ لَيس بحق مَوجَود ، أو النَّبي والرَّسول لَيس بحق ، أو يُنْسَب لـه الرسُول إلى الكَذب لظهر عليْه من تَغيّره ، وغَضَبه علَيه مَا يَسْفك به دَمه ، ويَسعى فِي هَلاكه إنْ قَدر .

فيَقُول : هكَذا يَفْعل مَعي بكَرمه في الآخرة عنْد المُسَاءلة إنْ شَاء اللَّه ، فَيَقوى رَجَاؤه ، وإنْ كان غَلطًا حَين أظهَر منه النُّصرة لَه ، ولِرَسُوله فِي قَلبه ، ولسَانه فِي الدُّنيا .

٢٥١/ب ثمَّ بَعد السُّؤال نَعيم القَبر أو عَذَابه ، فَيَجد الرَّاجي قَد أرصد اللَّهُ لَه / بَعد مَوته فِي الدُّنيا جَماعة من المُؤمنين يَغْسلون جَسده ، ويَحْملونه على أعْنَاقهم ، ويُدعا إليْه من الأئمَة الصَّالحين ، وجَماعة من المُؤمنين من يُصلي عليْه فَيقومون قيامًا عَلَى أرْجُلهم رَاغبين إلى اللَّه لَه ، شَافعين فيه أن يَقيَه من عَذاب القبر ، وأهواله ، وأنْ يُؤْنسَ وحْشَتَه ، وَغُرْبتَه ، وقَليلَ مَا يَرد الكَريم جَماعة من المُؤْمنَين ، هَذا إنْ شَاء اللهُ للمُذْنبين ، فكَيف نَفس يُتلقى بالرَّوح ، والرَيحان والمغفرة والرِّضْوان . ﴿ **تَتَنزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئكَةُ ألاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا** ﴾ (٢) .

وكذلك إنْ تَرك قرابة وأوْلادًا ، أو إخوانًا يَدعون لَه فِي قَبره ما ذكروه

---

(١) صحيح: انفرد به مسلم من حديث جابر -رضي الله عنه- (٢٢٠٥) (٢٢٠٦) ، ورواه أحمد (٣/ ٢٩٣)، وابن ماجة (٤١٦٧) . ولفظه « لا يموتن أحدكم . . . . الحديث » .

(٢) سورة فصلت الآية (٢٠) .

مَع مَا يَرجو من رَحـمة الله الذي هُو خَير من الكُل ، بَل هذا كُله منه ، فَهَذا من حَال العَبيد يُوجب الرَّجاء الكَثير ، ويُقَوي العَزم عَلى فعل الطَّاعات .

ثمَّ يَنْظر الرَّاجي بَعـد ذَلك في مقـام الحَشْـر ، والبَعث من القُبـور في عَالم الإيمَان ، وقيام النَّاس عَلى أرْجُلهم إجْلالاً لربِّ العَالمين ، ومُحاسَبَته إيَّاهم في أهْوال المَوقف كُلها ، فيَـجد لذلك كُله مَلك يَوم الدِّين ، الرَّؤوف الرَّحيم بالمُؤْمنين، ولا يَشُك فى أنه خَير له في المُحَاسبة من كل أحد ولو كان المُحَاسَب له والده ، وأرْحم النَّاس به ، لأَنَّه عند المُحاسَبة كَـريم سَمح ، مُتَجاوز ، ألاَ تَراه يَأمر بِالسمح / والعَفو ، والصَّفح فِيما بَيْنَهم ويُثْني عَلَيْهم ١/٢٥٢ بفعل ذَلك فَقَال :

﴿ والكَاظمينَ الغَـيْظَ وَالعَـافينَ عَنِ الـنَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحبُّ المُـحْـسنينَ ﴾ (١) ويَقول ﴿ [و]لَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٢) ﴿ وإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (٣) ويَقُول :

﴿ ادْفَعْ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾(٤) ﴿فَإذَا الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٥) أفَتَراه يكون لِمَا يأمر به مِن المُخالفين ؟ تَعالى وجَلّ عن ذَلك أكرم الأكْرَمين .

ولَقَـد وصَفَ اللَّه عن عَبد من عباده في مَعْـرض الثَّناء عليْـه - وهُو يُوسُف الصِّدِّيق - حين أخرجه إخْوتُه عَلى صَغر سنِّه ، والصَّغير مَرحوم ، فَفَرقوا بَيْنه وبَين أخيَـه ، وأمْشُوه عَلَى قَدَميه حَافياً ، وأبْكُوه ، وأجَاعُوه ،

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٣٤) .

(٢) سورة الشورى الآية (٤٣) . * سقطت [الواو] أول الآية من الأصل .

(٣) سورة الشورى الآية (٣٧) .

(٤) سورة المؤمنون الآية (٩٦) .

(٥) سورة فصلت الآية (٣٤) .

وأعْطَشُوه ، ثمَّ أَلْقُوه في ظُلمات الجُبِّ (١) ثمَّ بَاعوه عَلى عياقَة وَجْهه ، وحُسن صُورته ، وحُرِيَّة نَفسه بالبَخْس (٢) اليَسير ، وأوْحَشوا منه أباه ، وعَرَّضُوه إلى السِّجن والفتن ، ثمَّ لَمَّا أنْ ظَفر بهم ، واعْتَرفُوا بَيْن يَديه قَال لَهُم :

﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾(٣) فَأزال عن قلوبهم اليَوم خَجلة (٤) الحياء من أفْعالهم القَبيحة ، وخَشية العتاب بأقْوَاله السَّمحة المَليحة ، ثمَّ زَادهم بقَوله : يَغْفر اللَّهُ لَكُم ، فَرَفع عنْهم لَومة اللائمين ؛
٢٥٢/ب لأنَّهم لَم يُؤْذوا إلاَّ للغَافر ، ولاَ يَلُومُهم سواه بَرٌّ ، ولاَ فَاجر ، ثمَّ / زَادهم بَيَانًا آخرَ بقوله : ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أي أرحم بكم مني ، فَهذا فعل عَبد من عَباده الْمحْسنين ، فكَيف بخَالق الإحْسَان والمُحْسنين ؟ .

معَ مَا صَحّ وثَبت من شُغل الْمُصْطفى مُحمد ﷺ في تلك المَوَاطن كُلها بأمَّته ، أفتَراه يَرد خَائبًا عَلى سعة جَاهه وقبُول شَفَاعَته ؟ وهُو القَائل المَصْدوق الصَّادق : « **أُمَّتي أمَّةٌ مَرحومة ، لاَ عَذاب عليْها فِي الآخرة عذَابها في الدُّنيا الزلازل والفِتن** » (٥) وهُو عليْه السَّلام فِي نَفسه رَحمة صرْف ، كَما قَال :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾(٦) وقَد أمره بالاسْتغفار لأمَّته فقَال :

(١) الجُبّ : البئر الواسعة .

(٢) بخس : نَقَّصَ ثمنه وهُو ذو قيمة عالية . (٣) سورة يوسف الآية (٩٢) .

(٤) خجلة : عَيَّ لهم فلا يدري ماذا يصنع .

(٥) صحيح : صححه الحاكم ٤/ ٤٤٤ ووافقه الذهبي ، ورواه الطبراني في الصغير [الروض الداني] وأدخله الشيخ الألباني السلسلة الصحيحة (٩٥٩) .

(٦) سورة الأنبياء الآية (١٠٧) .

﴿ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَات ﴾[(١)] . أيأمره ، بما لاَ يُريد أن يَفْعَله أو يَأمره ، بالاسْتغْفار لَهم ، فَلا يَسْتَغْفر لَهم ، فَقَد صَح اسْتغْفاره لَهم ، وهي شَفَاعته التي اخْتَبَأها لَهم إلى يوم القيامة ، وكذلك أبوه ، وأبُونا إبْراهيم عليْه السَّلام ، فَدَعا لَهُم في زَمانه قَبل خَلقهم فقَال :

﴿ ربَّنَا اغْفرْ لِيْ وَلوَالدَيَّ وللْمُؤْمنينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحسَابُ ﴾[(٢)] وهُو أيْضًا ذُو جَاه عَظيم ، ومَقَام فِي الخلة كَريم ، وأُمَّة مُحمد أبْنَاؤه ، وأحباؤه وأتْبَاعه عَلَىٰ دِينه الحَنيفي .

وكَذَلك نُوح عليْه السَّلام فِي قَوله :

﴿ رَبِّ اغْفرْ لِيْ ولوَالدَيَّ وَلمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمنًا وَللْمُؤْمنينَ وَالْمُؤْمنَات﴾[(٣)]

وقَال النَّبي ﷺ / : « شَفَاعَتِي لأهل الكَبائر مِن أمتي »[(٤)] أتَرَوْنَها للمُتَّقين المُصْطَفين ، إنَّما هِي للمُخْلطين والمُتَلَوثين . ٢٥٣/أ

فإذا نَظر الرَّاجي بإيمانه إلى مَوطن القيامة ، وأهْوَالها ، وشَدَائدَها ، ورأى من المُحَاسَب فيها ، ومَن الشَّافع ، وأَنَّ رَجلاً وَاحدًا من أمَّته يَشْفَع يوم القيامة في عَدد رَبيعة ، ومُضر ، هَذا رَجل واحد كَريم ، فكَيف بجملة الأبدال والأوْتاد ، الشُّفَعَاء الرُّحماء الأكْباد ، عَلى كَثْرتهم من أول الإسْلام إلى يَوم الميعاد مثل الصِّدِّيق الرَّحيم ، والفَاروق الكَريم ، وعُثْمان الحَليم ، وعَلي العَليم ، وبَقية العشرة العُدول ، وأبْنَاء فَاطمة البَتُول ، وأهل السَّابقة المُهاجرين ، والأنْصار ، وخِيار التَّابعين ، والمُطهرات المُكرمات أمَّهات

---

(١) سورة محمد الآية (١٩) .

(٢) سورة إبراهيم الآية (٤١) .

(٣) سورة نوح الآية (٢٨) .

(٤) صحيح : رواه أحمد من حديث أنس -رضي الله عنه - وله طرق وشواهد « المشكاة » (٥٥٩٨-٥٥٩٩) وخرجه الشيخ الألباني في ظلال الجنة (٨٣١ ، ٨٣٢) .

الْمُؤمنين ، وسَائر العُلماء العُمَّال الأوْلياء إلى يوم الدِّين ، وَوَرد في الصَّحابة رَضيَ اللَّهُ عَنْهم أنَّ أبَا بكْر يُعطَى بَابَ الجَنَّة ، فَيُقَال لَه : أدْخلَ مَن شئتَ برَحْمة اللَّه ، واصْرف مَن شئت بعَدل اللَّه ، ويُعطى الميزان لعُمر فَيُقَالَ لَه : ثَقِّل ميزان مَن شئت برَحمَة اللَّه ، وخَفِّف ميزَان مَن شئت بعَدل اللَّه ، ويُعْطَى الصِّرَاط لعُثْمَان فَيُقال لَه : جَوِّز مَن شَئْت برَحْمَة اللَّه ، واتْرك مَن شئتَ بعَدل اللَّه ، ويُعْطى الحَوض لعَلي فَيُقَالَ لَه / اسْق مَن شئت برَحمة الله ، واتْرُك مَن شئت بعَدل اللَّه ، فَهَذه الأرْبَعة مَواطن هي أعْظم مَواطن القيامة ، وأُعْطيت لَلأربَعة لعظم جَاههم ، وهُنَاك يَظهر في مُحبِّيهم . /٢٥٣

وَوَرد في فَاطمة الزَّهراء بنْت رسُول اللَّه ﷺ ، وعَليها أنَّها سُميت فاطمة من أجْل أنَّها فَطَمَت مُحبِّيها منَ النَّار ، وهكَذا أمَّهات المُؤمنين كَيْف يكُون رقَتهُن عَلى المُحبين لَهُنَّ البَارِّين لَهنَّ ، الرَّاضين عنْهن ، والْمُصَلين عَلَيْهن ، متَى مَا ذكروهن ، وكَيْف تكُون قُلوبهُن عَلى أوْلاَدهن ، ولاَ يَخفى عَلى ذي عَقْل شفَقة الأم عَلى ولَدها ، وفدَاؤُها لَه بنَفْسها .

فَهكَذا يَشْفع الرِّجال والنِّسَاء للرِّجال والنسَاء من هَذه الأمَّة حتَّى يَظْهر يَوم القيامة من رَحْمة اللَّه ، وفَضْله مَا لاَ يَخْطر عَلَى بَالَ ، والكُل من عنْد اللَّه الكَريم .

وَوَرد أنَّ الكَعبة تُحْشر يَوم القيامة كَالعَروس المُجلاّة ، والحُجّاج مُتَمسِّكُون بأذْيَالها ، فَتَقُول لمُحمد عليْه السَّلام : شَأنك ببَاقي أُمَّتك فَقَد كَفيْتُك الحُجَاج ، فَتَسير بهم إلَى الجَنَّة ، وهُم متعلقون بها .

وأعظم من ذَلك كُلِّه أنَّ أمَّة مُحمد عليْه السَّلام يُقَامُون في المَحْشَر مقام الشُّهود العُدولَ عَلى مَن سِوَاهم من الأمَم حين يُنْكرون عَلى الرُّسل

رسالتهم، وقال النبي ﷺ : « أكرموا الشهود / فإنهم يستخرج بهم ١/٢٥٤أ
الحقوق»(١) فتنكر الأمم على الأبناء بنوتهم ، فيدعا أمة محمد فيشهد للأنبياء، وعلى الأمم ، فيقبل شهادتهم ، ومن قبلت شهادته فهو عدل ، والعدل مكرم، غير مهان ، بلاشك ، قال الله تعالى :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ (٢) مع ما ثبت ، وصح في القرآن أن الله يجزي بالحسنة عشراً إلى سبع مائة . . إلى ما لا يحصى ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ (٣) ويجزي بالسيئة مثلها إن أخذتها ، ويعفو ويصفح ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ (٤) والرجاء القوي المبين ، جعلنا الله ، وإياكم من عباده المؤمنين ، وختم لنا ، ولكم بخواتم الصالحين ، المكرمين ، في عافية ، آمين آمين ، وصلى على محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وسلم تسليماً .

---

(١) لا يصح : راجع العلل المتناهية ٢/ ٢٧٥ ، ولسان الميزان ١/ ٣١٤ والضعفاء الكبير للعقيلي ١/ ٣٢٦٥ / ٨٤ .

(٢) سورة البقرة الآية (١٤٣) .

(٣) سورة البقرة الآية (٢٦١) .

(٤) سورة النمل الآية (١٦) .

فصل

وأمَّا المَقَام الثَّالث من الرَّجاء في مقَام الإحْسان ، فَهُناك لا تُقَاس ، ولاَ تُكَال الصَّبَابَات (١) إِىَ البحار ، وهُو على ضربين ؛ لأنَّ الصِّفات عَلى ضربين فعْلية ، وذَاتية .

فأمَّا الفعلية ، فإنَّ الإحْسَان فعل اسْمه الْمُحْسن ، والإكْرام مُقْتَضى اسْمه الكَريم المُكرم ، والسَتر عن السِّتِّير السَّتَّار ، والعَفو عن العَفْو ، والغُفْران عَن الغَفُور ، والرَّحمة عَن الرَّحْمن الرَّحيم ، وحُسن الصَّنعة ، ٢٥٤/ب وإتْقَانها عن الْمُصورّ الحكيم / ، وهكَذا سَائر الأسَماء ، والصِّفات أُوجد عن مُقْتضى جَميع الأسْمَاء ، والصِّفات مَا يَليق بِمَعْنى كُل اسْم ، وصِفة لُمقْتَضى الأسْمَاء هِي أفْعَالها .

فَإذا نَظر الرَّاجي في العَالم كُله ، وصُدُوره عن أسْمَائه الحُسنى ، رَأى الخَير ، والصَّلاح ، والحُسن ، والجَمال ، والرَّحمة ، قَد عَمَّ الوُجود ، ولَمْ يَقَع الكُفر والضَّلال ، والقَبيح فيه إلاَّ كَنُقْطة في البَحر ، أو كَجَوهر وَاحد بالإضافة إلى جَميع جَواهر العَالم ؛ فإنّ القَبيح الذي هُو العصْيان ، إنَّما ظَهر في الوُجود عَلى يَدي الجن ، والإنس المُخَالفين منهم ، وَجَميع العَالمين من عباد اللّه طَائعون مُحْسنُون ، والبَارئ يَجري عَلَى الكُل في كُل نَفْس ، والإكْرام ، والإجْلال ، والإحْسان ، والإفْضال ، ولمْ يَرَوا منه قَط طَرَفة عيْن إلا الحَسن الجَميل ، أكْرَمهم بِخدْمَته ، وقَرَّبَهم من نَفْسه .

هَكَذا أشخاص العَالم كُله حَتَّى جَهَنم ، ممَّن فيها من الإملال ، وأنْواع العَذاب ، كُل شَخص منهم وكُل عضو منهَا مُنعَم عَليه ، غَير مُعذب مُشقى ، مُتَنعم بِالانْتِقام مِن الكَفَرة الفَجرة ، المُخَالفين لِمَوْلاَهم ، فَمَا عَسى

---

(١) صبابات : بقايا الماء في الإناء .

أن يَقَع بَنُو آدَم، أو الشَّيَاطين فِي جَميع العَالمين : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾[(١)] .

فإذا رأى الرَّاجي في مقَام الإحْسَان مَا أجْرَى اللَّهُ عَلى جَميع خَلقه من الإحْسان ، والإكْرَام ، اتَّسَع رَجَاؤه عَلى قَدر سعة مُلك اللَّه ، وخُدَّامه ، ومَا يَجْري عَلَيْه وعَلَيْهم من ألْطَافه ، وإحْسَانه ، وإحْسَان المُلوك الكرام ، وأهْل الفَضْل والإنْعَام ، لرَعيتهم ، وعَبيدهم ، عَلى قَدر مَرَاتبهم ، وشَرَف مَنَازلهم ، وانْتشَار أيَاديهم ، وكَرَمهم ، فَمَا ظَنُّك بسَيِّد العَالمينَ .

وإيَّاه ، فليرجع الرَّاجون ، وفي مثله فَليَطمع الطَّامعون ، وإلى مَعْرُوفه يَمْتَد آمَال الآملين ، وهُو القَائل سُبحانه : « يَا عبَادي ، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخرَكُمْ ، وإنسكُمْ وجنَّكُمْ ، قَامُوا في صَعيد وَاحد ، فَأعْطَيْتُ كُلَّ وَاحد مَسْألَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلك مما عندي إلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المَخْيَطَ إذا دَخَلَ البَحْر »[(٢)] وفي الحَديث : « إنَّ اللَّهَ خَلَقَ مائةَ رَحْمَة ، كُلُّ رَحْمَة منها طبَاق السَّموات والأرض .. الحديث »[(٣)] قيل إنَّ هَذه المائة رَحمَة هي مُقْتَضَى اسْمه الرَّحْمَن الرَّحيم .

فكُلُّ رحمة منها قَد مَلأت الوُجود كُله كامْتلاء البَحر بمَائه ، والجَو بهَوائه ، فكَيْفَ بسَائر الأسْمَاء ؟ مَا عُلم منْها ومَا لَمْ يُعْلم .

---

(١) سورة الزخرف الآية (٧٦) .

(٢) صحيح : انفرد به مسلم من حديث أبي ذر -رضي الله عنه - باب تحريم الظلم (١٠/ ٨) النووي .

(٣) صحيح : تقدم تخريجه ، وذكره المصنف كثيراً .

والضرب الثَّاني من الرَّجَاء في مقام الإحْسَان ، وهُو رَجَاء الصِّفَات الذَّاتية ، فإنَّه مَقَام الرُّوحانيين ، وخَاصة العُلماء العَارفين ، وكُلما تَقدم من الرَّجاء ، فَمنه وعَنه يَصدر ، وهُو بالإضافة إليْه كلا شَيء ، ألاَ تَسمع إلَى قَول الحَمَلة ، ومَن حَول العَرْش من الحافين ، والرُّوحانيين ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ (١) أتَراهم يَعْنُون بقَولهم : وَسعْت سعَت الظَّرفية / ٢٥٥/ب الجُسْمَانية حَاشَاهم من ذَلك هَل يَعْنُون إلا سعة الصِّفات والأخْلاق ؟ مثل العَفو ، والصَفح ، والحِلْم ، والسَمْح ، واللُّطف ، والرَّحْمَانيَّة .

ولَقَد رُوي في الأخْبار عن مُعاوية بن أبي سُفيان رَحمَه الله ، وكان حَليمًا أنَّه قَال يَومًا لجُلَسائه : « إني لآنف أنْ يكون في الوُجود سَفه لاَ يَسعه حلمي » ولذَلك كان يُؤْذَي في وَجْهه ، ولاَ يَنْتَصر لنَفْسه ، وهُو في رُتبة المَلك ، عَلَى قُدرته عَلى الانْتَصار ، فإذا كَان عَبد ضَعَيف مَخْلوق يَقُول هذا مَع أنَّ صفَته مَخْلُوقة ضَعيفة مثله ، فَمَا ظَنُّك بمَن صفَاته عَلى سعة عَظَمته ، وهي غَير مُكْتسبة ، ولاَ مَخْلُوقة ، ولاَ تَلْحَقه في ذَاته مَشقة الغضَب فَيُزيلها بكَظْمِ الْغَيْظ ، ولاَ يُعْصَى كَرهًا فَيُزيل الإكْرَاه بتَعْذيب مَن أكرهه .

كَما ورَد في الصَّحيح عن اللَّه عَز وَجل :

« يَا عبادي إنَّكم لَن تَبْلُغوا ضَري فَتَضُروني ، ولَن تَبْلُغُوا نَفْعي فَتَنْفَعُوني»(٢)

فالبَارئ لاَ يُضَر بالمَعْصية ، ولاَ يُنْفَع بالطَّاعة فَطَالَبَته المَلائَكة العَارفون بلَطيف التَملُّق (٣) ، والدُّعاء ، والتَّواضع ، والإخْبَات (٤) ، وقَولهم : رَبَّنا بمُقْتَضى صفة الرَّحمة ، التي لابد لَها أن تفعل مُقْتَضَاها في الوُجود ، وهُو

---

(١) سورة غافر الآية (٧) .

(٢) صحيح : رواه مسلم من حديث أبي ذر ، تقدم تخريجه قريباً .

(٣) التملق : التودد والتَضَرُّع فوق ما ينبغي .

(٤) الإخبات : الخشوع والاطمئنان .

صُدور الرَّحمة عَن الرَّحْمن الرَّحيم ، وبمُقْتَضى اسْمه الغَفور فَقَالت :

﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ [1] إلى آخر / المعنى ، لاَسيما ، ١/٢٥٦ وهُو الرَّحمن الرَّحيم ، وهَذَان الاسْمان يَدُلاَّن عَلى كَثْرة رَحْمته ، وعَظيم سعتها ؛ لأنَّ فَعيل في اللُّغة للتَّكْثير ، ورَحْمان الذي هُو عَلى وَزن فُعلاَن بنَاؤه أعْجَب شَيء في هَذا الْمَعْنَى ؛ لأنَّه لاَ يُقَال غَضْبان إلاّ لمَن امْتَلأ غَضَبًا ، ولاَ سكْرانَ إلاَّ لمن امْتَلأ سُكرًا ، وعَطْشَان لمَن امْتلأ عَطشًا ، ورَحْمان مَخْصُوص بالبارئ فَهُو يَدل عَلى سعة رَحْمة ذَاته ، وعَظَمَتها .

وكَذَلك صفَة العَفو ، والحلم ، وجَميع الصِّفات الحُسنى ، فَلو عَصَاه العَرش ، ومَا حوَى من جَميع العَالمين ، حَتَّى لاَ تكُون في العَالَمين من يُطيعه طَرفة عَيْن بأنْواع العَظَائم ، وأجْنَاس الكَبَائر ، العظائم ، وأجْنَاس الكَبَائر ، وواَجَهُوه بمَا لاَ يَليق به ، ونَسَبوا إليْه مَا لاَ يَحْسُن ، وكَان مُخالفتهم لَه في ذَلك كُله عَلى الكَشْف لاَ على الغَيْبة ، وقَامُوا عَلى هَذا أبَد الآبدين ، ودَهر الدَّاهرين ، مَا اسْتَطاعوا أن يَسْتَخفوه ، وأن يُغْضبُوه ، فَيُغَيِّروا حُسن خَلقه ، وسعة حلمه جَل الوَاحد الأحدَ الَّذي لاَ يُشْبِهه أحد ، قَال اللَّه جَل جَلالُه وتَقَدَّسَتْ أسْمَاؤه :

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [2] وقال : ﴿ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمَوَات والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُما فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَن ﴾ [3] فأخبر أنَّه ب/... اسْتَوى عَلى / العَرش بصفَة الرَّحمة ليُدبر الخَليقة ، والذي تَجلى للعَرش بما حَوى من الرَّحمة لَيس مُنْتَهي الصِّفَة ، بَل ستر عن العَرش .

والكُل من صفة الرَّحمة الحَنَانية قَالوا أظهَر لَهم منها أكثر مما أظهر

(١) سورة غافر الآية (٧) .

(٢) سورة طه الآية (٥) .

(٣) سورة الفرقان الآية (٥٩) .

لتدكْدكَ (١) العَرش ، والكُل من قَواعده وانْخرم النِّظام ، وهَلَكَ الكُل بسعة الرَّحمة ، ولم يكن ذَلك اسْتَواء ، وبَطَل مَعْنى الاسْتواء ، فَلم يكن العَدل فِي حَق المَخْلُوقات ، إلاَّ أن يَتَجلى لَها من الرَّحْمة مَا تَحْتمل . فَافهم .

هَذا فِي الاسْتواء ، فإنَّه مِن أغرب المَعاني المَكْتُوبة ، الْمَصُونة فِي الاسْتواء .

فَإذا نَظَر الرَّاجي في مَقام الإحْسَان إلى صفات الْمَرجُو ، ومَا هُو سُبْحانه عَلَيْه اتَّسع رَجَاؤه بقَدر مَا عَلم من صفَات المرجو ، فَلم يَرج إلاَّ تَجلِّي صفَات الْمَرجو ، وكَان طَلبه إيَّاهَا ، ولَمْ يَر في ذَلك كُله سواها ، فأمله ، وطَمعه مُعْلق به في كُل حَال ، فَهُو المَطلب الكَاملَ فَوق كُل كَمال وإليْه يَنْتَهي مَطَالب العُلماءَ ، والعُمَّال ، وبه تَشْبَع مَطَامع الطَّامعين ، وتزول حاجة الفُقَراء إليه ، والسُّؤال ؛ لأنَّه يُغْني عَن كُل شَيء ، ولاَ يُغْني منه شَيء .

وفي الخَبر : « الطَّمع فَقر حَاضر » . فَرَجَاؤهم هُو فَقْرُهم إليْه ، ولَيس فِي الأحْوال أشْرف من الفَقر إلى الغني الحميد ، فإذا افْتَقَروا إلَيْه بالطَّمع ، ١/٢٥٧ وأعْطَاهم نَفْسَه أغْنَاهم به / وسَد حَاجَتَهم ، فَلمْ يَبْق لَهم حَاجة ؛ لأنَّ الَّذي أُعْطُوا لَيس ورَاءه نهاية ، ولاَ غَاية ولاَ مَرْمَى ، فَلم يَبْق لَهم عنده حَاجة إلاَّ المَزيد من تَجَلي الصِّفَات الباطنة عَنْهم ؛ فَيطْمَعُون أن يُرَقِّيهم إلى الرُّتَب العَالية لِيُدركوا منْها ، وفيها مَا غَاب عَنْهم ممَّا طَمعوا فيه ، فَفَقرُهم الَّذي هُو الرَّجاء مَن هَذا الوَجْه لاَ يَزُول أبدًا .

فأهْل مقَامَات عليين يَرجون المزيد من كُل وجه من وجُوه القُرب ، والكرامة ممن جاز رُتب الفَضل والسِّيادة فَالْخَائفُون يَرجُون تأمِينهم من كُلِّ

---

(١) دكدك : انهدم .

أنْواع المَخَاوف التي خَافُوها ، وهَابُوها حين تَجَلّى لَهُم مَا تَجلى من الجَلال ، والهَيبة ، والعَظَمة بمَا تجلى لَهُم من صَفات الحلم والرَّحمة ، والحَنَان ، فاعْتَدَل خوفهم ، ورَجَاؤهم ، فَالخَوف يُؤدبُهم أحسن تأديب ، والرَّجاء يُقَربُهم بالبَسط أرْفع تَقريب . جَعَلنا اللّهُ وإيَّاكم منه في يُسر وعافية ، آمين آمين ، وَصَلى اللّهُ عَلى مُحمد وآله وسَلم .

الشُّعبة التاسعة والأربعون
المَحبّة لله

أمّا كَون المحَبة من الإيمان فَلا يَحْتَاج إلى استشْهاد وبَيَان ؛ لأنَّ ضد الحُب البُغض ، فَمَن أبْغَض اللَّه كَفَر بعَدائه لَهُ .

والآيات والأخبار في كَون المحبة من الإيمان كَثيرة ، قَال اللَّه عز وجَل/ : ٢٥٧/ب

﴿ والَّذِينَ آمَنُوا أشَدُّ حُبًا للَّه ﴾ [(١)] ويَعْني من ذَلك كُله قَوله تَعالى :

﴿ مَن كَانَ عَدُوًا للَّه ومَلائكتَه ، ورُسُله ، وجبْرِيلَ ، وميكَالَ فإنَّ اللَّهَ عَدوٌّ للْكَافِرِين ﴾ [(٢)] فأطلق عليْهم الكُفر بضد المحبة .

اعلمْ أنَّ النَّاس قَد تكَلموا في تَحديد المحبة ، وأكْثَروا فيه ، واختَلفوا لدقة مَعْناها ، حَتَّى أنْكَرها قَوم يُنْسَبون إلى العِلم ، ولاَ عِلم عِنْدَهم حين جَهلوا هَذا القَدر من الدِّين .

وحدُّ الحب إنْ شَاء الله يَبين من مَعْنَيَين ، وهُو : « الثبوت » ، و« الصَّفاء » ، فَيَقول : الحُبُّ هو الود الثَّابت الصَّافي ، مَأخُوذ مِن الوُد ، وهُو العُود الثَّابت والوَتَد في الأرض .

الصَّافي : أيْ الخَالص مِن الكَدَر [(٣)] ، والشَّوْب [(٤)] للمَحْبوب ،

(١) سورة البقرة الآية (١٦٥) .

(٢) سورة البقرة الآية (٩٨) .

(٣) الكَدَر : ضد الصفو .

(٤) الشَّوْب : الخلط ، وهي الأقذار والأدناس .

مَأخوذ من حَبَب الأسْنان وهُو بَيَاضها [١] ، وصَفَاؤها من الصُّفرة ، وشُوب الألوان اَلْمُغَيّرة للبَيَاض ، ومنه الْحَبّة ، وجَمعها حُبَوب ، والْحبّة بذُور البُقول أيْضًا [٢] تَنْبت فِي الأرضَ ، وتَغْرز فيها ، فَتُفْرع ، وتُثْمر .

كَذلك المحبة في القَلب ثَابتة ، وتتفرع عنها أغْصَانها عَلى الجَوارح[٣] ، ويُقال أيْضًا : أحبَّ الرَّجل بِالمكان ؛ أقَام بِه ، وثَبت ، والحَبَاحِب ذباب له شُعاع عَجِيب بالليل .

وصَفَاء نُور المحبة الثَّابتة فِي القُلوب أعْجَب ، وحبَاب الماء مُعْظَمة[٤] ، وكَذلك يَعْظم الحُب في القَلبَ بعظم المحْبُوب في القلب ، ويَثْبُت فيه حَتى ٢٥٨/١ لاَ يُرى / الْمحِبُّ ، ولاَ يَسمع إلاَ مَحبُوبه ، وإنْ كان عَلى تَبَاعد جِسْمه .

ومثل هَذا كَثير ، فالوُد إرادة ثابتة سَاكنة في القَلب صَافية من مَحَبة غَيره إلاَّ مَا يُجب أن يُحب هُو ؛ فإنَّ ذَلك يَكونَ حُبًا لَه ، فإذا فَهِمت هَذا عَلمت أنَّ الحُب يُريد للمحبوب الخَير الدائم ، واللازم الَّذي لاَ يَزول ، الصَّافي من جَميع الشَّرِّ مَع إرادة سُكون المحبوب ، وثُبوتَه فِي سُويْدَاء القَلب[٥] ، والحدقة إنْ قدر عَلى ذلك [٦] .

وكذلك ترى المحب يَطلب الاتِّصَال بِالمحْبوب حتى يَود لَو قَدر أنْ

(١) والحَبَب : بالفتح - تَنَضُّد الأسنان .

(٢) الحِبة - بالكسر - بُذُور الصحراء مما ليس بقوت وفي الحديث : « فينبتون كما تنبت الحِبَّة في حَمِيل السيل » .

(٣) جوارح الإنسان أعضاؤه - الحسّية - التي يكتسب بها الأعمال الخيرية أو الشرية كاليد والعين والرجل واللسان وغير ذلك .

(٤) وفي القاموس : وقيل نُفَّاحاته التي تَعْلوه وهي اليعاليل اهـ .

(٥) سواداء القلب : حَبتُه . في الباطن .

(٦) حدقة العين : سوادها الأعظم ، والمراد أن المحبوب لايغيب عن المحب ظاهراً ولا باطناً .

يُدخله في بَاطنه ، بَل يَطلب الاتحاد به ، حَتى يكون هُو هُو ، وهَذا الاتحاد المتَنَاهي هُو العشق الْمُفرط ، فَهَذا يُبَيَن لك مَعاني الحُب كُله - إنْ شَاءَ اللَّه - اخْتلاف أحْوالَ المُحب والمحبوب [1] .

(١) لأنه ليس كل أنواع المحبة صالحة للمحبوب الأعظم ، فمثلاً العشق لا يراد به محبة الله ولا يصح إطلاق ذلك ، وإن كانت درجة العشق من أحوال المحبة لكنها غير لائقة مع الله المحبوب الأعظم، ويصح من أنواعها التيم لله ، وسيأتي إراد ذلك .

فصل

اعلمْ أنَّ مَقام الحُبّ يَقْتَضي ثَلاثة أشْياء : مُحب ، وهُو العَبد ، وحُب ، وهُو حَال العَبد [(١)] ، ومَحْبوب وهُو المأمور بِحُبه كَائنًا مَا كَان .

والْحُب عَلى ثَلاثة أضْرُب : ضرب فِي مَقَام الإسْلام ، وضَرب فِي مَقَام الإيمان ، وضَرب فِي مَقام الإحْسان .

فأمَّـا الضَرب الأول في مَقـام الإسْلام ، وعَـالم الحس ، فَهُـو حُب اللَّه عَلى مَا أردَف العَبد وأسدَى إليه من نعـمه[(٢)] كَما وَرَدَ في الخَبَر : « أحبُّوا اللَّهَ لِمَـا يَغْـدو بكم مِن نعـمـة » ، ويُحب من الأمُـور / الظَّاهـرة مَـا أمَـر بَحُبِّـه ، ٢٥٨/ب وَالأمُور الظَّاهرة دِينيَة ، ودُنْياوية .

فأمَّا الدُّنْياوية فيُحب من المواطن مَا أحَب اللَّه ، وأمر بحُبه ، وهُو كُل مكان يُطاع اللَّهُ فيـه ، ويُذكَر مثل المسَاجِد ، كَـما ورَد في الخَبر : « أحَبُّ البِقَاع إلى اللَّه مَسَاجِدُها ، وأبْغَض البِقَاع إلى اللَّه أسْوَاقهاَ » [(٣)] .

فيُحب المساجد ، ويُفَضِّلها في حُبّه عَلى جَميع بقاع الأرض ، ويَخصّ بأرفع الحُب منـها الثَّـلاثة المساجـد : المسجـد الحـرام ، ومَسـجد النَّبي عليْه

(١) وعلى حالة المحب تعلقة محبة المحبوب الأعظم ، فإن كان حاله على هدى محمد ﷺ متابعاً فهو المعني بقوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله ﴾ .

(٢) وهذه المحبة إنما فطرت عليها النفوس وخلقت عليها الجبلات الآدمية .

(٣) إسناده حسن : قاله الحافظ (الفتح ٤/ ٣٨٩ الريان) وعزاه لأحمد والبزار والحاكم ونقل تصحيحه له .

قلت : أصله في الصحيح لمسلم (المساجد (٢٨٨) (٦٧١) من حديث أبي هريره مرفوعاً « أحب البلاد إلى الله مساجدها ، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها» .

السَّلام ، والمسجد الأقْصى [١] .

ويُحب حلَق الذِّكر ، ومَجَالس العِلم النَّافع ، فَهذا حُب مَحمود يُثابُ العَبد عليْه .

ويحبُّ من مساكنها مَا لَيس فيه سَرْفُ ؛ فإنَّ اللّه لا يُحب الإسْراف [٢] والْمُسْرفين ، وحَدّ الإسْراف مَا أَخرج من الاقْتصاد ، والتَّواضع الَّذي هُو سُكنى الأنْبياء ، والأوْلياء ، والعُلماء إلى حَد التَّطاول والرَّغبة والزِّينة المذْمُومة .

ويُحبُّ منَ اللِّباس مَا تَزين به للَّه كَما قَال :

﴿ خُذُوا زِينَتَكُم عِندَ كُلِّ مَسْجد ﴾ [٣] وهُو مَا سَتَر العَورة ورَدَّ الحَرَّ ، والبرْدَ ، ولم يَخْرج إلى الإسْراف المَبْغُوض عند اللَّه .

فكذلك من الطَّعام والشراب ، وهُو الحَلال ، ومنَ النِّساء ما أعان عَلى دِين اللَّه ، لاَ مَا أخرج وجَرَّ إلى اقْتحام المَهالك .

وعَلى الاخْتصار : يُنْظر كُلّ مَا كَان من الدنيا لله فَيُحبه ، ولاَ يَتَجَاوزه إنْ قدر ؛ فإنْ تَجاَوزه فليستغفر اللَّه ؛ فإنَّ حُبه رأس كُل خطيئة / ثم يحب ٢٥٩/أ
صلاح الدنيا بالدِّين ، والعدل ، ونُزُول الأمطار ، وحسن الحال ، والرخاء للنَّاس ولا يكون ممن يحب الفساد ، والفتن ، والَغلاء كالحكار [٤] وشبهه .

روى معاذ عن رسول الله ﷺ أنه قَال :

---

(١) وقد أتى في الحديث الصحيح : « لا تشد الرحال إلا لثلاثة » وقد تعددت الأخبار وصحت في فضل هذه المساجد الثلاثة على غيرها .

(٢) الإسْراف : في النَفَقَة والتبذير ، والسَّرَف - بفتحتين - ضد القصد .

(٣) سورة الأعراف الآية (٣١) .

(٤) أصله « حكر » احتكار الطَّعام جَمْعُه وحَبْسُه يتربص به الغلاء . وقد لعن فاعله كما ورد في الخبر .

« بِئس العَبد المُحتكر ، إنْ أرخص اللَّهُ الأسْعار حَزن وإنْ أغلاَهَا فرح » [١]
وفي لفظ آخر : « إنْ سَمع برخصٍ سَاءه ، وإنْ سَمع بغَلاء فَرح » فالمحبُّ في هذا المقَام الظَّاهر الدُّنياوي يُحب رخص الأسْعار ، ونُزولَ رَحمة الأمْطار ، والأمن ؛ فَهو يُحب الخير للخلق كُله ، لبَني آدم ، الأنْعام ، والنَّبات ؛ لأنَّ بالأمْطار ، وبالأمن صلاح بني آدم وَالَدُّنيا والدِّين .

وما أحب من مباحات الدنيا بطبعه لا يُخرجه من الحُب مَا لم يكن حرامًا . كان رسول الله ﷺ أحبَّ اللحم إليْه الذِّراع ، وكان يُحب من الشَّراب الحُلو البارد، وكان يُحب الدُّباء [٢] ، وكان يُحب النِّساء ، والطيب، والأولاد ، وكان يُحب فاطمة ابْنته رضي الله عنها حُبًا شديدًا ، وسائر أولاده ، وحفيديه الحسن والحسين ، وكان يحب من المُباحات أشياء وهُو رأس المُحبّين .

لكنه لمْ يكن يحبّ شيئًا يُلهيه عَن ذكر الله ، ولا ما فيه إسراف ، فإن ذلك يَخرج عن أنْ تكون نعمة ، بل يخَرج إلى أن تكون نقْمة [٣] وفي
٢٥٩/ب الخبر : « أحبوا الله لما أردَفكَم به / من نعمكم ، ويَغدوكم به من نعمة » [٤] ،

---

(١) إسناده واه : قاله المنذري في الترغيب (٢٥٥٦) بتحقيقي قال : « ذكره رزين العبدي في جامعه ، ولم أره في شيء من الأحوال التي جمعها إنما رواه الطبراني وغيره بإسناد واه ا هـ.
قلت : وهذا أرجح استفاده المصنِّف - رحمه الله - من ترغيب المنذري لذكره حديث معاذ بروايتين ، كما ذكر الحافظ المنذري والله أعلم .

(٢) القَرْع هو الدباء . (٣) النقمة : العقوبة .

(٤) إسناده ضعيف : مداره على عبد الله بن سليمان النوفلي ، قال الحافظ : « مقبول » أخرجه من طريقه الترمذي (٣٧٨٩) وقال : « حسن غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه . والحاكم ٣/ ١٤٩ وصححه ووافقه الذهبي ؟!! .
راجع الإتحاف ٩/ ٥٤٨ ، العلل المتناهية ١/ ٢٦٦ .

فكُل نعمة نَازلة بالعَبد يحبُّ العَبدُ رَبَّه عليها ، وذلكَ حُب الإحْسان ، كما ورد فِي الخَبر : « جُبِلَت القلوب على حبِّ من أحسن إليْها » (١) .

والبارئ جَل جَلاله قد أحسن إليْنا في كُل شَيء صَنعه بنا في حُسْن صوَرنا ، وتَركيب خلْقتنا في أحسنِ تقويم ، وكذلك في تحسِين أشخاص العَالم كُله ؛ لأنّه أحسَن كل شيء خلقَه ، وحُسنها عَائد منفعته عَلينا ؛ لأنَّها لبني آدم سُخِّرَتْ (٢) ، ومن أجله خُلقَتْ ، وكذلك كل نعمة يَعُمُّنا بها ، ونقمة صَرَفَها ، فإذا رأى العبد أنَّ الَله قد أحسن إليه في كل شيء وبكل شيء ، والقلب مجبول (٣) على حب من أحسن إليه أحَبَّه على قدر إحسانه إليْه ، ولكن الغفلة والجَهل ، والغَمَّى (٤) غَلبت ، وأظْلمت عَلى قُلوبنا .

وترى الإنسان إذا أحسن إليْه عبد مثله ، وأعطاه مَنْفُوعًا أحبه بقلبه على ذلك ، فكذلك إذا تبيَّن للعَبد إحسان اللَّه إليْه أحبه على جميع أفعاله ؛ لأنَّه قد أحسن إليه بها ، ومن أحبَّ شيئًا أحب كل شيء يتعلّق به حتى كَلبه كَما قَال الشّاعر :

أحب سحمها السودان حتَّى أحب سُحمها سُود الكلاب (٥)

هذا لأن محبوبه كان أسْود ، فإن قُلت : كيف يحب العبدُ رَبَّه على جَميع أفعاله على العموم ، والكفر والجهل ، والمخالفة أفعال / الله ،

---

(١) منكر : قاله أبو حاتم الرازي العلل (٢/ ٣٣٣، ٣٣٤) وآفة الخبر « ابن أخت عبد الرزاق » قال أبو حاتم : «يكذب » . راجع السلسة الضعيفة [٦٠٠] ، الكامل لابن عدي (٢/ ٧٠١)، الفوائد المجموعة (٨٢)، كشف الخفا (١/ ٣٩٥) .

(٢) قال تعالى ﴿ وسخرلكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ الآية .

(٣) مجبول : جبله على كذا : أي طبَّعَهُ عليه .

(٤) الغم : الكرب والحزن يحدث للقلب بسبب سرائد القلب .

(٥) السُّحْمة : السَّوَاد ، «وسحْمَهَا » سوادها .

فكيف يحب على ذلك ؟ .

فاعلم أنّ لها وجهيْنِ : مرة تنظر من العباد ، ومرة من الله ، في النظرين يختلف الأمر .

فإنك إذا نظرتَ مثلاً إلى الْجَهْل علمتَ أنّ صاحبه لا يُدرك شيئًا ، ولا يُتقنه ، ولا يُحْكمه ، فإذا نظرت إلى الجَهل ، وإلى الحكمة في خلقه ، قال لك الجَهل بلسانَ الحال : اعلم أنّ صفة البارئ منزهة عن صفة الجهل ؛ فإنَّه لو كان جاهلاً ما خلق شيئًا ولا صدر منه فعل مُتقن مُحْكم ، فقد دَلَّكَ الجهل عن معرفة البارئ سبحانه ، وعلى أنّ كُل شيء منه صَدر ، وبِعلمه أتْقنه ، وأحْكمه ، كما دَلَّكَ العلم سواء .

وكذلك الكُفر الذي هُو جَحد الإلهية [(١)] ، يقول لك بلسان الحال : لو أنّ البارئ يكون باطلاً ، ولا يكون مَوجودًا لم يكن رَبٌّ ، ولا مَربوب ، ولا مُوجد ، ولا مَوجود ، فأرشدك الكُفر إلى غَاية الإيمان ، كما أرشدك الإيمان . وأي حُسن مثلَ هذا .

وكذلك الشِّرك يقول لك بلسان الحال : لو كان مع الله شريكٌ أو ندٌّ ، أو صاحبةٌ ، أو وَلد لكان ناقصًا متحيراً ، مُحتاجًا إلى مكان يحمله ، ولَو كَان كذلك لفسدت السَّموات والأرض ، ومن فيهن ، ولم يكن ربٌّ ، ولاَ مَربوب .

وهكذا كل شيء لو تتبعت لك بتبيين هَذا في الأشياء كلها ٢٦٠/ب المتضادة[(٢)] / لطال الكلام ، وغرضنا الاخْتصار ، فاسْتعن باللَّه في نَظرك

(١) أن تكون العبادة لله ، أما الخلق والرزق وتدبير الأمر فهذا معلوم عند مشركي العربَ وغيرهم . لكنهم أنكروا أن يفرد الله بالعبادة واتخذوا لله شركاء وأنداداً .

(٢) بَيْد أن العبد يجب أن يفرق بين حقيقة الأمر الكوني ، والأمر الشرعي فالأول لا يدخل العبد في إرادته بل هو مجبور مجْبول عليْه ، ويُشاهد فيه الخير والشر حتى في الشيء الواحد كما في قوله =

يُعينك .

وقَال أهْل المَعرفة : استحسان الكَون على العُموم دليل على صحة المحبة ، واستحسانه على الخصوص يؤدي إلى فتن ، وظلمات ، لكن تحتاج إلى نظر شَديد ؛ لأنَّه صِراط جَديد ، يتبين منه إحَسان اللَّه إلى ٱلعُقول .

وأمّا الأمور الدِّينية فإنها ضربان : أوامر ، ونواهي ، فَيحب الله على إحْسانه إليْه في أن صرف لسَانه عن كَلمة الكفر ، وأطلقه بالتوحيد ، وأن أطلق جَوارحه في فعل شرائع الدين ، وصرفها عن المخالفات ، فإن ذلك أعظم الإحسان إَليه في هذا العالم .

ويحب دين الإسلام ، وعلوّه ، وظهوره ، وظهور المسلمين على الكُفر ، والكافرين ؛ فإنه ما خلق شيئًا في العالم أحسن من الحسنات ، واجتناب السَّيِّئات ، ولذلك سَماها حَسنات ، والاجتناب للمنهيات حَسنة من أعظم الحَسناتِ ، فأي شيء أحسن من ذكَر اللَّه ، وطَاعته ؟ .

=﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ وكذا فرجه ينكح به الحلال و يقع به في الحَرام ، كذا الخمر و الميسر ، كذا سم الأفاعي هذه حقائق كونية ، كذا الكفر و الإيمان فهو سبحانه وتعالى الخالق لهذه الأشياء﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ .

وليس كونه تعالى أراد هذا الأشياء -سواء كانت نافعة أو ضارة- كونه يرتضيه بل لا يرضى سُبحانه وتعالى إلا بالحقائق الشرعية ، وهي الأوامر والنواهي الواردة في كتاب الله تعالى ، و سنة رسوله ﷺ. و هذه الحقيقة مناط التكليف المفرقة بين أهل الإيمان و أهل الكفران ، فيجب الانتباه للفارق بين هاتين الحقيقتين فكل كائن فيِ الدنيا فهو إرادة اللَّه ، و ليس كل ما يريد يرضاه كما في قوله تعالى ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾فالكفر والشكر خلقه سبحانه وتعالى لكن يرضى الشكر ولا يرضى الكفر ، فإذا فهمت هذا عرفت مراد القصري - رحمه الله - واعتصمت من الزلل ومقالة أهل وحدة الوجود كأمثال ابن العربي وابن سبعين وغيرهما من أئمة الضلال الذين لا يفرقون بين هاتين الحقيقتين .

فيحب ذكر الله ، ويطلق به لسَانه ؛ ومَن أحَبَّ شيئًا أكثر من ذكره . ويحب طاعته ، ويدخل فيها .

ومَن أحَبَّ شيئًا أطاعه ، ويحب اجتناب معاصيه ، ويهرب منها .

ومَنْ أحَبَّ شيئًا أحب أن لا يعصيه ، وهَرب من عصيانه ، ويَستعين
١/٢٦١ على ذلك بالنظر في حُسْنِ الدين ، وجماله ، فرضًا فرضًا / ، ونَفلاً نفلاً حتى يتبيّن له الحسن فيه ، والإحسان من الله في هدايته إليه ؛ فإنَّ الحُسْن والجمال سَبب الحب ، والإحسان بالهداية إليه أعظم النِّعم ، وقد جُبلَت القلوب على حُب من أحسن إليْها وأنعم عليها .

ومثال ذلك على الاختصار أن ينظر في جمال التعبد للإله الكبير ، فلا شيء أجْمل من تعبد العَبد للسيد ، ولا شيء أجمل من اجْتناب التَّعبد لمن هو عبد ، ولا شيء أجمل من الإفراد للسيد بالسيادة ، لا سيما إذا كان أهلاً لها ، ولا شيء أقبح من إضافتها لمن يستحقها ، فتبين بهذا جمال معنى « لا إله إلا الله » فيُحبُّها العبدُ ، ويُقرِّبها ، حتى تكون أحبَّ إليْه من سمعه ، وبصره .

وكذلك يَنْظر في جمال الطَّهارة للتأهب بها للدخول على الملك .

ثم جمال الصَّلاة ، ركنًا ركنًا بين يدي العزيز الكبير .

وهكذا جمال الزَّكاة وزوال البُخل ، والتزكيَّة ، والطهارة من رذائل(١) البُخل ، وهكذا الصِّيام ، وجَماله ، وقافيه من كسْرِ الشهوات البهيميَّة ، والتشبه بالصفات الملكية في العفة .

وكذلك الجهاد ، وما فيه من عز الإسلام ، والحج ، وغير ذلك حتى

(١) الرذائل : جمع رذيلة وهي : الخصلة الذميمة وضدها : الفضيلة .

يتبيّن جماله ، ويُحبه القَلب ، فما خَلق الله أجمل مِن الدِّين ، ولذَلك / ٢٦١/ب قال :

﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ (١) .

فيحبُّ الدِّين ، ويحبُّ الله على إحسانه إليه به ، فعلى هذا لا ترى شيئًا أحبَّ الله به ، وفيه دينيًا كان أو دنياويًا .

(١) سورة الحجرات الآية (٧) .

فصل

وأمَّا المقام الثاني من المحبَّة في مقامِ الإيمان [١] فأوَّل ما يقع عليْه نظره من الغيْب نفسه الغائبة في جسده ، ولا شيء أحب إليْه ممَّن أحسن إلى نفسه ، فيجد الباريء تبارك وتعالى ، قد كتب الإيمان في باطنه ، وأحْسن إليه بهدايته ، النفس لقبوله [٢] ، وأنعم عليه بأن جعله من المؤمنين ، ولم يَجعل باطنه مَحَلاً للكفر به .

وينظر بإيمانه إلى الآخرة ويرى بهداية العلم ، واليقين ما أعدَّه الله فيها للمؤمنين ، وما يُحسن الله فيها إلى كل مؤمن بأنواع الإحسان ، والأيادي الأخراوية التي لا يقدر على وصفها أحد من الخلق ، ويرى بإيمانه ما يَصرف الله عن المؤمنين من أنواع العذاب والإهْلاك الأُخْراوي ، الذي لا يقوم لها الجبال ، فلا يصفه أحد إلا وهو أعظم من وصفه ، فلا يرى فيها نجاة إلا بالإيمان ، ولا إحسانًا إلا لمؤمن فيعلم قدر إحْسانَ اللَّه إليْه .

فيُحبه على قَدر إحْسانه إليه بالإيمان ، إذْ قد عَلمَ أنّ ذرة من الإيمان إذا
١/٢٦٢ وُهبَتْ لعبد ، وإن كان عاصيًا قد يخرج / من دارَ الهوان ، ولو بعد طول الأَزمان ، ولَا يخلد فيها كل الأحيان ، من أجل تلك الذرّة من الإيمان ، ثم تُدخله تلك الذرة بعد الخروج من النَّار إلى سَكَن دار سقفها عرش

---

(١) والإيمان كما سبق « التصديق بالغيب » لذا كانت أركانه ستة « الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر » وكلها غيبيات فأطلق عليها مسمى « الإيمان » .

(٢) وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وفي الحديث الصحيح «كل مولود يولد على الفطرة » وهي الانقياد لله تعالى ، والميثاق المأخوذ في عالم الذر ، هذه الفطرة هي إلهام الخير ومعرفته وإلهام الفجور أما تمييز الصواب عن طريق السمعيات والنقليات . ودل عليه قوله تعالى : ﴿ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ .

الرحمن(١) ، فصحّ ، وثبت بالبُرهان(٢) عنده أن تلك الذرَّة منه لا وزن ، ولا قدر لقيمتها في المعنى ، ولو اجتمع جميع العالَمين أن يُقدروا قَدرها لعجزوا عن ذلك ؛ إذ وصل قدرها عند الله أن ينجي من الخلود في جهنَّم ، وتورث الخلود في بحبوحة(٣) دار الكرامة ، والنَّظر إلى وَجْه اللَّه الكَريم ، فهذا إحسان من المُحسن إلى من أعطاه تلك الذرَّة ، لا يَعلم قَدْرَهُ إلاَّ المحسن بها ، لا إله إلاَّ هو .

فإذا علم المؤمن هذا أحَبَّ الإيمان ، وخلطه بلحمه ، ودمه ، وكان أحَبَّ إليْه من نفسه ، مكثر إيمانه ، واستَنار ، وصَفيَ ، فأبصر المؤمنات ، فيشتاق إلىَ الغيبَ ، ويحبّ الدار الآخرة ، ويؤثرها على الدُّنيا ، ويَشْتاق إلى الإحسان الذي كل إحسان فيه كَلاَ شيء .

وقد مدح اللَّه أهل هذا المَقام فَقال :

﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾(٤) أي تذرون حُبَّ الآخرة التي فيها النَّعيمُ المقيمُ ، والإحسان الدائم الكريم ، والتي يظهر فيها النعيمُ المقيمُ ، ويرى المولى السَّيد العظيم ، فإن قوي الإيمان اشتاق إلى الموت ، وهو أوَّل / المُؤَمِّنات ، وتأهب(٥) له ، وربما تمناه إن كان صادقًا من أجل أنَّه ٢٦٢/ب يَدخل إلى دار الإحْسان ، فيتذكر الموت مع الأحيان المدْخل إليْهَا .

وقَد قَال الصِّديق للفَاروق - رضِيَ اللَّهُ عنهما - :

(١) وفي الحديث « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » رواه البخاري من حديث أبي سعيد وأبي هريرة -رضي الله عنهما- .

(٢) البرهان : الحجة البينة الفاصلة .

(٣) بحبوحة الدار وسطها ، يقال : تبحبح إذا تمكن وتوسط المنزل والمقام .

(٤) سورة القيامة الآية (٢٠، ٢١) .

(٥) تأهب : استعد .

« إن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحبُّ إليك من الموت »[(١)] قال اللَّه تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[(٢)] ومن قَصَّر عن هذه الدَّرجة فإنه يحبُّ الموت من وجه آخر ؛ لأنَّه يُحْسن إليْه من أجل أنه يُنَبِّهه منَ الغفلة ، ويُذكره بالدار الآخرة ؛ فيجعله من الذَّاكرين ، ويُرَقق قَلبه ، ويُخَشِّعه ، وذلكَ كُله إحسَان عظيم من اللَّه ، يَجده أهل التخشع في حال تخشعهم ، وهكذا أيضًا القبر له فيه إحْسان عظيم إذا تَذكره ، وخَاف من هَوله ، ورَجا نَعيمه ، فَيُرقق قَلبه ، ويُخَشِّعه أيضًا ويَجعله من المُنيبين إلى الآخرة .

فأيُّ إحسان أعظم من هذا لأهل الإيمان ، وهكذا كل هَول من أهْوال الآخرة ، من البَعْث ، ومَا بعْدَه إذا تذكره المؤمن المُحبّ للآخرة ، الناظر إليها بإيمانه ، نفعته جميع أهوالها ، وذكَّرَته ، ولَعَشقته ، وولَدت عنْده الزُّهد ، والإنابة ، والانكسار ، والإخْبات ، وكُل وَصف مَحمود من التَّعب .

فعلى هذا لا ينظر بإيمانه إلى موجود من موجدات الآخرة إلا وله فيه إحسان ديني أُخْراويّ ، يَجد ذلك / في قلبه ، وباطنه ، وظاهره في الحال ، ويُوصله إلى كُل فَضيلة من المقامات والأحوال ، فَيَصير كل موجود من الآخرة إحسانًا له ، ولذلك إذا غفل المُحب عن ذكر الآخرة ، وما فيها من نعيم أو عذاب ، وعدم الخوف أحزنه ذلك ، وفَزع ، فلا تَستقيم أحْواله حتى يتذكر النَّار ، والأهوال ، والدار الآخرة ؛ لما فيها ، وهذا لمَا يجد من إحْسان اللَّه لبَاطنه ، بتَذكُّره لذلك . ١/٢٦٣

(١) الصديق هو أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ والفاروق الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، أخرجه ابن زبر في وصايا العلماء عند الموت صـ٣٢ ، صـ٣٣ بإسناد ضعيف منقطع .

(٢) وفي الحديث الصحيح : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » تقدم تخريجه في هذه الشعبة . سورة الجمعة الآية (٦) .

فإن كـان محبًّـا للدَّار الآخرة بصـدق ، ثبت قلبـه أبدًا فيـهـا وسكن ، وجسده في الدنيا ، لا فكرة له إلا في الآخرةً ، وكيف تكون الحال فيها ؟ .

وهذا هو الحب الذي هو : « الود » مأخوذ من الود وهو العَود الداخل في الأرض (١) ؛ فقلبه ثابت في الآخرة ، وجسده في الدنيا .

ورَوت عائشة - رضي الله عنها - عن إمام المتقين ورأس المحبين ﷺ : « **أنَّه كان يُكـثر التَّفكر فـي تعرف الفاني مـن الباقي** » (٢) والفـاني ، والبـاقي في أحد الوَجهين هُو الدُّنيا ، والآخرة ، وفِي الوَجه الثاني ، البَـاقي هُو اللَّه ، والفَاني هِي الأشياء كُلها .

« ألاَ كُلُّ شيءٍ مَا خَلاَ اللَّهُ باطلُ » .

فإذا علمت هذا فاعلمْ أنَّ صَاحب هذا المقَام لا يَنْظر بإيمانه ، تذكره إلى موجود في الآخرة مفزِّعًا كان ، أو غيره إلاّ أحبّ الله تعالى به ؛ لأنّ الله يُفَزعه به ، ويرُهبه ، ويُخوفه ، ويُزْعجه إليه ، ويُقَربه إليه / بالمُرغب فيه ، ٢٦٣/ب والمُشْتهى المستلذ ، فلا يَرَى من محبوبه شيئًا إلاّ أحبَّهُ به ، وَفيه ؛ فَالكُل إحسان من اللَّه للمُؤمن ، والقُلوب مَجْبولة على حُب من أحْسن إليْها ، فَلم عَلم الإنسان هذا المقام من الإحسان الرأي أنَّ كُل إحسان دُونه كَلاَ شَيء . منَّ اللَّه علينا ، وعَليكم بالإيمان ، وجَـعَلنا وإيَّاكم مِمَّن أحْـسن إليْـه في كُل شَيء فِي يُسر ، وعَافية ، آمين ، وصَلى اللَّه عَلى سَيدنا مُحمد وآله وسَلم .

(١) في القاموس « العُوَدّ » - بالفتح » الوتد في لغة أهل نَجْدٍ .

(٢) تقدم .

فصل

وأمّا المقَام الثالث منَ المَحبة في مَقام الإحْسَان ، فَهُو الغَاية القُصوى من المَحَبة ، وهُو حُب اللَّه لمَا هُو علَيْه ، ولمَا هُو أهْل لَه ، وهَذا المقَام الإحْسَاني هُو حُب مُتولدَ عن الرُّؤية ، كما ورَد في الخَبر : « الإحسان أنْ تَعبد اللَّه كأنك تراه »(١) فأثبت له معنى الرؤية ، فَإذا رأته القلوب باليَقين ، والعقول بالبراهين انكشف لهم جَمال الأسْماء الحُسْنَى ، والصِّفات العُلَى ، فأحبوه ؛ لأنَّه أهْل أنْ يُحَبَّ الجمال ، فَهو سُبحانه يُحبُّ نَفسه ، ويُحبه كُل مَن رآه لذَاته ، ولمَا هُو لَه أهْلٌ ؛ ولأنّه غاية اللذات العقليّة ، الروحَانية ؛ ولأنَّ كَل منفعةٍ منه ، فهو المحبوب بكل وجهٍ ، وبكل مَعْنى .

وعند العُموم من هذا الحبّ مقام حب السَّماع ، وهُو مقام حسَن شَريف ، وذلك أنَّ مَن سَمَعَ / بشخص عظيم القَدر كريم ، له خصال ١/٢٦٤
شَريفة ، وفَضَائل جمَّة(٢) أحَبَّه ضَرُورة ، كما يُحَبُّ الآن حاتم الطائي على كَرَمه ، وعنْترة على شَجاعته ، وهما ميتان ، لم يُشَاهَدا ، وكحبِّ الصَّحابة ، والفُضلاء .

والبَارئ سُبحانه قَد وصَف نَفسه بمَا هُو لَه أهل ، وأخبرت عنه الرُّسُل ، فآمن به الخلقُ ، وأحبوه لما سَمعوا عنْه مما هُو عليْه من الصِّفات الكريمة ، فهم يحبونه الحُبَّ المفترض الذي لا يثبت الإيمان إلاّ به ، وذلك أنهم لا يُريدُون الإلهية لسواه(٣) ، ولا يحبُّونها إلاّ له ، فتأبى قُلوب الموحدين أن تحبَّ الإلهية لغيره ، وتحبُّها له سبحانه وحده ، فكل مُؤمن

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ، ومسلم من حديث ابن عمر -رضي الله عنهم- وتقدم تخريجه .

(٢) الجمَّة : الكثيرة وفي القرآن : [وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا] .

(٣) « الألوهية »هي « العبادة » : اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة =

والحمد للّه ، فله مقام الحب ، وقد أثبت النَّبي ﷺ الحب لنعمان ، وكان يقع في الحُدود ، فَسبّه رجل فَنَهى عنْ سَبّه وقال : « إنَّه يحب الله ورسوله » . وأثبت له الحب لكن ابْتلي بهَوى النَّفس ، وكان ذلك خلطًا في صفاء الحُبِّ الذي مَنع أبَا بكر وعُمَر ، وغَيرهما من الوقوع فيما وقع هو فيه .

وهذا المقام الأول هو فَرض المحبة ، وأمّا فضل المحبّة ، فإنّ ذلك فضل زائد على الفرض يَختصّ به من يَشاء الذي بيده البسط ، والقبض ، يتولد ذلك الحب عن رؤية الجمال ، وكشف حُسن الكمال ، ومن رأى شيئًا جَميلاً كاملاً أحَبّه شاء أمْ أبَى لا محالة ، فالذين استدلوا عليْه / بآياته ، ٢٦٤/ب وراقبوه في عبَادَاته ، ورأوه بالعلم ، فأحبّوه حُبًّا زائدًا على حُبِّ السماع ، والإيمان .

فأعلاهم رتبة في ذلك الذين تحررت نفوسهم من رق الأغيار ، فرفَعت عن قلوبهم الحُجُب والأسْتار فلحظوا سَبحات الوجه الجميل ، أحرَقهم لَهيب الحبِّ ، المتوقد ففي حميم الغليل ، وأطارهم رَفرف الشَّوق المُقْلق ، المزْعج ، إلى حَضرة الجليل ، فأحبُّوه حين رأوه شاءوا أم أبوا ، وذلوا له ، وخَضَعُوا لجماله ، وكل مَن أحبّ شيئًا لجماله ذلَّ له ، وخَضعَ ، والخضوع ، الذُّل هو التعبد لَلمحبوب ، ويُقال : إنّ الأرواح الزكية حياتها في التجلي ، والاستنار ؛ لأنها حدث عن معاني أوْصاف البَارئ تَبارك وتعالى ، فَهي ألْطف المَوجُودات ، وأشرفها ، فهي تَشْتاق وتُنْتَزَع إلى مَعَادنها [١] التي عنها صدرت ؛ لأنها في أجسادها في دَار الدُّنيا كالغَريب عن وطنه ، قلبه مُعلق بِالوطن حتَّى يَرجع إليْه ، فليسَ لَها رَاحة إلاَّ فِي لقاء مَولاها .

=والباطنة . وقيل في تعريفها : غاية الذل لله مع كمال المحبة .

(١) مركز كل شيء مَعْدنُهُ – أصله المتفرع عليه ، والمستمد منه .

وكَذَلك ورَد في الخَبر عن النَّبي عليْه السَّلام : « لاَ رَاحَةَ لمُؤمن دُون لقَاء ربِّه »(١) فهذه الأرواحَ الشَّريفة قَد عجل لَها في مقَام المَعْرفة والمَحبة ، اللِّقَاء الكريم ؛ لأنَّه قَد صحَّ ، وثَبت أنّه مَن تقرَّب مِنَ اللَّه شبرًا تقرَّب منه ذراعًا ، ومَن تقرب منه ذراعًا تَقَرّب منه بَاعًا (٢) ، فهؤلاء المقَربون إلى رَبِّهم ، أبدًا ناظرون لجَمَالهِ ، وكَماله مُلاحظون ؛ فأحبوه الحُبَّ الخالص عن / رؤية الجمالَ ، فاستولى عليْهم ذكره ، وغَلب عليْهم حين ذاقوا خَالص لذيذ الحبّ فأنْسَاهم خَالص الحبّ كلَّ شيء سوى المحبُوب . ١/٢٦٥

قال أبو بكر الصِّديق - رضي الله عنه - : « مَن ذَاق شيئًا من خالص مَحبة الله ألهَاه ذَلك عمَّا سواه » .

وقال الله عَز وجل : « إنِّي لأطلع عَلى قَلب عَبد فَأجد الغَالب عَليه ذكري إلاَّ كُنت سَمعه الذي يَسمع به ، وبَصرَه الذي يُبصر به ، ويَده التي يَبْطش بِها ، ورِجله التي يَمْشي علَيْها ، وقَلبه الذي يَعقل به » (٣) .

ومن هَذا البَاب دَخل المَحْبوب في مقَامات التَّوحيدالخَاصيَّة من الغيبة ، والحضور ، والفَناء ، والبَقاء ، وغير ذَلك من مقَامات التَّوحيد التي لاَ تُوجد إلاَّ بَعد مَقَامات المحبَّة ؛ فَعَلاَمَة المحبَّة استْيلاء ذكر المَحبوب على القَلب ، والجَوارِح ، والذكرُ جَلاءُ القلب كما ورَد في الخبَر : « إنَّ هذه القلوب تصدَأ كما يصدَأ الحديد ، قيل : فما جَلاؤها ، قَال : « ذكرُ اللَّه ، فَالذِّكْرُ يُجليه كَما تُجْلَى المِرآةُ » (٤) فتتجلى فيه الصورُ المُحَادثة المقابلة لَها .

فكذلك القلب إذا صَفا بخالص الحب ، واسْتولى عليْه الذكر ، وجَلاه

---

(١) ضعيف : تقدم تخريجه . (٢) صحيح : تقدم تخريجه .

٣) صحيح : تقدم تخريجه ، واللفظ المذكور قريباً لرواية ابن ماجة - فضل الذكر ٢/ ٢١٨ .

(٤) إسناده ضعيف : عزاه صاحب المشكاة للبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما - وعلق العلامة الألباني : إسناده ضعيف . المشكاة (٢١٦٨) . قلت : وبنحوه عزاه صاحب =

نور الاسْتيلاء ، فَصار وَجْهًا بلا قَفا ، وتجلّى فيه المحبوب ، فحيث ما نظر لم يَر إلا محبوبه ، فبه يسمع ، وبه يُبصر ، وبه يتكلم ، وبه يتحرك ، ويسكن ، وبه في كل شيء قد أفرد محبوبه بالذكر ، وتوجَّه نَحوه في كل شيء[١] ، قال الله عز وجل عن إبراهيم الخليل بعدما / ترقّى عن حبّ كل آفلٍ : ٢٦٥/ب

﴿ إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ لله ﴿ للَّذيْ فَطَرَ السَّمَوَات والأرْضَ حَنيفًا ﴾[٢] الآية . وقال اللَّه عز وجَلّ : ﴿ واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾[٣] .

وفي الخبر الصحيح : « سِيروا سَبقَ المُفْردون ، وقيل : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : هم المُستهترون بِذكر الله »[٤] والاستهتار هو إفراد المركون مقرونًا بالافتخار ، والاهتزاز بذكره ، لاسيما إذا كان المذكور عظيم القَدر ، جليل الخَطر ، يَسْتحقر كُل شَيء عظِيم ، وجَليل فِي جَنْبه .

فَهؤلاء هُم الَّذين أحبُّوه لما هو عليْه من جَلالة القَدر ، وعظيم الرِّفعة ، وهُم عَلى دَرجات ؛ فمنهم المُحبون المُشْتَاقون ، حَالهم القَلق والحَزن ، والخنين[٥] ، ولزوم الباب ، والتَأوّه ، والأنين ، كما قيل : رُبّ نَظرة أوْرثت حُزنًا طويلاً ، يُحزنهم السَّتر ، لأنهم فراق ، ويُقلقهم التجلي بحرقة الاشتياق ، فعذابهم عذاب ، ليس كالعذاب ؛ لأنهم مغرمون بجمال سيد الأحباب قال الشاعر :

وما في الأرض أشقى من مُحبّ

=المشكاة (٢٢٨٦) للبيهقي في الدعوات الكبير .

(١) وهذه درجة العبد الرباني .

(٢) سورة الأنعام الآية (٧٩) .

(٣) سورة يونس الآية (٨٧) .

(٤) صحيح : تقدم تخريجه .

(٥) الخنين : بكاء له صوت فيه غنة .

وإن وجَـد الهَـوى حـلوَ المذاق

تـــراه بــــاكيًا فـي كـل حَال

مخـافـة فـرقـة أو لاشتيـاق

فباؤا(١) باخوا(٢) بباب الحبيب ، وتملقوا بمناجات القريب المجيب ، يَسمعون كَلامه ، ويُراقبون أعلامه ، فإذا تجلّى لهم عاشوا ، وإذا ستَرهم عنه طَاشوا ؛ لأنّ محبوبهم شَيء عظيم ، لا يصبر عنه من وَصف لَه ، فتَحقق وَصفه ، فكيَف بمن رآه بقلبه ، وأبصره ، يَستَنْفر(٣) عَون الجَهد / في طلب ١/٢٦٦
وصله بعبادته القُلوب ، والأجسَاد ولم يَدّخروا منهم شيئًا حتى تفطرت منهم الأقدام والأكباد ، فأسرارهم مشغولة بذكره ، وقد خالطهم العَجب العَجيب من حُبّه ، لا يرون شيئًا ، ولا يُكلمون مخلوقًا إلاّ ببعض قلوبهم ، كما قَال بعَض التابعين : « إنّ لي ثلاثين سنة مَا كلمت أحدًا بجملة قلبي » .

طلبُهم عيْن الجمع بالمولى الحق ، وهَمُّهم الفرار من الخلق كي لا يستنفرهم الفرق .

ومنهم المحبوبون المأخوذون عن أنفسهم ، المنعمون بروح نسيم أُنسهم ، المُغيّبُون وراء الحجاب ، والأسْتار ، والمكشوف لهم عن الغيْب والأسرار ، لأنّ من قَربه شبرًا أطلعه عَلى أسْراره ، وأحْضره مَعه من وَراء حُجبه وأستاره ، ومقام المَحبوب أعلى ، وأشحم(٤) من مقام المَحب ، وأعظم لأنّه اجتمع له مقامان : مقام المحب ، ومقام محبوب إلا أن الغالب

(١) باءوا : رجعوا وانقلبوا .

(٢) باخوا : سكنوا وفتروا .

(٣) يستنفر : يطالب النفور .

(٤) أشحم : أخص منه .

عليه مقام محبوب ، كما أنّ المحب أيْضًا محبوب ، لكن الغَالب عليه مقام مـحب ، وفي هذا المقـام - أعني مـقـام مـحـبـوب - درجـات الخلة ، والاصْطفاء .

وكذلك اطلع الخَليل إبْراهيم عَلى الأسْرار ، قال اللَّهُ عَز وجَلّ :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِيْ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ﴾[1] .

فاعلمْ أنّه أراه مَلكوت السَّـمـوات والأرض ؛ لأنَّه خَليل اللَّه ، وبعـد ذَلك مقَام الحَبيب الذي هُو الغَالب عَلى مَقام مُحمد عليْه السَّلام ، ويُعطي كُل من أهْل لَه عَلى مقدار مَا قَسم لَه منه كَان نَبيًا ، أوْ وَليًا ، والخليل / هُو ٢٦٦/ب الذي تَخَلَّلَ الحبّ أسَراره ، وتَخللت أَسْراره الَغيْب ، والحَبيب مَن شَغف الحبّ قَلبه بكثرة تَجاوز مقداره ، فَظهر منهم مقَام الإدلال ، وأقْسموا عَلى مَحْبوبهم تجَاههم عنْد ذَي الجَلال .

وفي هَذا المقَام ظَهر بَسط المُصطفى عليْه السَّلام في مواطن القَنط[2] ، حين انبـسط لطلب الشَّـفـاعة للخَلائق أجْمعين لَمّا انقـبض بأسْبَاب القَبض العظيمة جَميع العَالمين .

فأهْل هَذه المَقامـات الثَّلاث : مقَـام الحُب ومَحـبـوب ، وحَـبيب هُم الذين لا تَعلم نَفَس من غير نُفوسهم مَا أخفي لهم ، فَطوبى لَهم ، وهَنيًا لهَم ، نَفعَنا اللَّهُ بِمَحَبَّتِهم ، ولأجْعَل حظَّنا وَصفهم .

---

(١) سورة الأنعام الآية (٧٥) .

(٢) القنط : اليأس ، قال الله تعالى [لاَتَقْنَطوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ] .

فصل

واعلمْ أنّ هذا المقَام من الحبّ ، المُتولد عَن الرؤية إنَّما هو رؤية العقل والعلم ؛ لأنَّ اللَّه لا يُرى بالبَصر في الدنيا ، ولا حبه من نحو حب المستهيئات الحسَّيات ، وإنَّما هو حبّ روحَاني عَقلي ، وأماني يَقيني ، وجماله سُبحانه لا يشبهه الجمال ، وكَماله لَيس مثله كمال ؛ فإنّ ذَاته لا تحويه الأمكنة ، ولا تحيط بوَصف عَظمته جميع الأَلسنة ، ولا تبليه ، ولا تغيّره طُوَل مَمَرّ الأزمنة ، فهو الواحد في رتبة الإلهيّة ، الذي لَيس فوق رتبته رفعة دَرَجة فيرتقى إليها ، فَيَزُول عنه نقص الرتبة التي كان فيها ، وعبيدَه كلهم - أعني جميع المخلوقات - عَلى حُسنهم ، ودَرَجاتهم
١/٢٦٧ بالإضافة إليه ناقصون / ، وفي الارْتقاء إلى مَعالي الأمور مرتَفعون ، وفي السَّبق إلى مقامات التمكين ، والمكانة أبدًا متلوِّنون ، وفي قبول فَيض الجود، والكرامة ، وطلب الفَضل ، والزيادة أبدًا متغيِّرون .

والربّ مُشرف على الكل ، وعَالي على الجميع قد جاوز نهايات النهايات ، وفاق غايات الغايات في علو الرتب ، والدَّرجات ، فهو سيِّد العالمين ، وإله الخَلق أجمعين ، وحسن أياديه ، وفَيض جُوده ، وكَرمه جَار علَيْهم أبد الآبدين ، والمَمَالك بأجْمعها ، عَلى كَثْرتها يُصرّفها بيده في أطوار التصوير من أعظم المخلوقات ، إلى الذرَّة ، وأصغر منها في التَقدير ، ويركب بإتقان الحكمة ، ولطيف العِلم أجْزاء الكَبير منها والصَّغير ، ويَنْفذ

بَصره فِي كُل الموجودات ، فيبصر العظيم ، والحقير .

فجواهر العالم كله على اختلاف عوالمه ، وجميع أشخاصه ناطقة بالحال ، والمقَال مُدَّة بَقَائهم في الآباد ، والآزال بالثناء عليْه ، فلكل جَوهرة شخص لسان يُنَبِئ به عليْه ، ويُنَزهه ، ويُقرّ بالعَجز عمَّا هو عليه ، هذا حال جميع المخلوقات أبد الآبدين ، ينطق بالثناء عليه في كل حركة ونفس بثناء لا يشبه الثَناء الذي كَان في النَفَس الذي قبله ؛ لأنَّه قد ظهر له في النَفَس الثاني من حسنه وَشرف قدره أكثر مما كان ظهر له ، فما عسى أن يَصف لسان واحد من بين هذه الألسنة على / كثرتهم واختلافهم في الأزمنة ، ٢٦٧/ب
والأمكنة ، فَهو جمال لا يُشبه أنْواع الجمال ، وكمال فاق جميع رُتب الكَمال ، فكيف لا يُحبّ ضَرُورة شاء الخَلق أم أبَوا . فهو المحبوب كَونًا ، أحبّ شرعًا أو لمْ يُحب ؛ فكل مَن سمع به أحبه ، فكَيف بمن رآه بِقلبه ، وعَرفه .

فإذا سَمعت القلوب مَا ذكر عنه في الشرع المنقول ، وأبصَرت بنظرها في المَعقول أحبته ، فذلت له ، وخَضَعت ، واستعبَدَها بذل الحبّ ، فازدادت حين رفعها الله - مَن تواضع للَّه رَفَعه اللَّهُ - يَنقاد بَذل الحب ، وتَعرج بترفع الربّ في مَقام القُرب ، وتزداد بكشف الحُجب ، وَيَشربُ في حياض [1] الحبِّ ، فَيجد طَعم الفُرات العَذَب ، فَسكران وصاح [2] ، ومَثبت [3] وماح [4] ، وفان[5] عن نفسه ، وبَاق بعينه عن أنسه . . .

---

(١) حياض : جمع حوض .

(٢) صاح : أفاق .

(٣) مثبت : مُقر .

(٤) ماح : يمحو .

(٥) فان : فنى في الشيء اندمج فيه ، وبذل عليه جهده فهو فان .

وأحْوالهم كَثيرة لاَ تُحصى ، وأسرارهم خَفية لاَ تُستَقصى إلا أنَّ كلهم بذلك مَحْبُور (١) ، فرح ، مسرور ، بغنمهم لحبوبهم ، أعلى من نعيم الجَنَّة ، وعطاؤهم من بَحر صَفاء المنّة ، لكن وإن اختلفت أنواعهم فتجْمعهم ثلاثة أنواع : النوع الأول : المحب المتقرب ، الثاني : المحبوب المقرّب ، الثالث : الحبيب المحبّ .

وكلهم مَحبوب ، وحَبيب ، ومُحب ، إلاّ أنّ المقَامات بعْضها أرْفع من بعَض ، فالمحب مُتَلون ، طائر يرفرف الشوق .

والمحبوب ساكن متمكن ، مُسْتأنس بالحق ، والحبيب متسع بين ظَهراني الخلق لاَ يُوحشه كونهم ، ولا يؤنسه فَقدهم ، والكُل لمْ يَبق لهم حاجة من الحاجات إلاّ المزيد من تَجلي الصِّفات / الفَاتنات . ١/٢٦٨

والربُّ لاَ يتجلى بنوع وَاحد من التَّجلي ، بل مَرَّة يتجلى بصفة الجَمال ، ومَرة يتجلى بشرَف الكمال ، ومَرَّة برفعة التَّعالي ، والأخرَى بسعة الرحمة ، ومرَّة بوصفَ العطف ، والمنَّة ، ومَرّة بصفة العفو والحنان ، ومرَّة بصفة الجُود والإحْسان ، ومرّة بصفة جَمال العَدل ، وأخرى بصفة الفَضل ، ومرَّة بصفة العزّة ، ومَرّة بوصف الغيْرة ، ومرَّة بصفة الكبْرياء ، وأخرى بعدم الشبه للأشياء ، ومرَّة بصفة الشُكر والحَمد والثَّناءَ ، ومَرة بلطيف العِلم ، وأخرى بعَظيم الحلم . .

وهكذا يتجلى بمَعَاني أسْماء لاَ تُحصى ، وهُم يَتلوّنُون في مَعَاني أسْمائه الحُسنى ، فَلكُل مَعنى منها حُب ، وذَوق إليْهم عَذب ، وكُل مَعْنى في نَفسه لاَ يَتنَاهَى ، والمعَاني فِي سعَة الكَثرة لاَ تَتنَاهَى فَحُبهم يتَزَايد ، والتَّجلي لا يَنْقطع سَرمداً (٢) .

---

(١) محبور : مبتهج ونَضر .

(٢) السرمد : الدائم الذي لا ينقطع .

فصل

فإذا كان مَع مَولاه بهَذه المَثَابة ، فَحينئذ يَحسن منه قُبحه ، فَيُبدل سيئاته حَسنات ، ويتداركه في مَواضع هلَكَاته ، ولذَلكَ تَرى المُحب ربَّما فَعل القَبيح فيَحْسن عند المَحبوب ؛ لأنَّ المَحبوب مُحَب لَه أيْضًا ، وفي مثل ذَلك أنْشدوا :

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

وفي مثل هَذا وَرد الخَبر عنْ زَيد بن أسْلم « أنَّ اللَّهَ يُحب العَبد حتَّى يَبْلغ من حُبِّه لَه أن يَقُولَ لَه اصْنَعْ مَا شئْتَ ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ » وفي[1] / ٢٦٨/ب الصَّحيح من الحَديث في قصّة حَاطب : أنَّ عُمر بن الخطّاب قَال لرَسول الله ﷺ : دعني أضرب (*) عُنقه فإنّه قَد نَافق ، فَقَال لَه رسُول الله ﷺ : « مَا يُدريك لَعَلّ اللَّهَ قَد اطَّلَعَ عَلَى أهْلِ بَدْرٍ فَقَال اعْمَلُوا مَا شئْتُم فَقَد غَفَرْتُ لَكُم»[2] .

وما حدَّث به رسُول اللَّه ﷺ إلاَّ والأمر كذلك .

وإلى هَذه اللطيفة من أحْوال المُحبين ، والمَحْبُوبين أشار المُحققون في قَولهم :

اسْتحْسَان الكَون عَلى العُموم دَليل عَلى صحَّة المَحبة واسْتحسانه عَلى الخُصوص يُؤدي إلى حَيرة ، وظُلمات ، فإذا فَهمت هَذا فالمُحبون هُم الفَائزون الشَّاكرون ، الرَّاضُون ، ومن أوْصافهم : التَّوكل بالاعْتماد ،

(١) تكررت [وفي] في الأصل .

(*) كان بالأصل بياض فاستدرك من متن الصحيح .

(٢) صحيح : أصله عند البخاري من حديث علي -رضي الله عنه - كتاب المغازي * باب فضل من شهد بدراً (٣٩٨٢) .

والتَّسْلِيم ، والتَّفْويض لِجَميع الأمُور إلى مَحبوبهم ، قَال اللَّهُ عَز وجَلّ :

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(١) فَتوكُّلُ المُحبين سُكونهم إلى وَعيد مَحبوبهم ؛ لأنَّ مَن أَحب شَيئًا لا يُريد فُراقه ، ولأنَّ الفُرقة تَشَتُّت ، وكَثرة النَّظر في الأسباب تَشتُّت القَلب من المُحب ، ولذلك قَال اللَّهُ عَز وجَل لِحَبيبه مُحمد ﷺ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾(٢) فأمره جَلَ جَلاله بالسُّكون إليْه ، وتَفْويض الكُل إلى تَدْبيره ، ثمَّ أعلمه أنّه لَيس للمخلوق إلا قَلب وَاحد ، إنْ اشتغل بشَيْئين ، أو أشياء قاطعة عنه تشتَّت ، وافترق عن محبوبه فقال / : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾(٣) . ١/٢٦٩

ومن أغرب ما سُمع في هَذا المعنى أن رَجُلاً مرَّ بجَارية عَلى عيْن فأعْجَبَتْه فَجَعل يَنْظُر إليْها ، ولا يَلتَفت إلى سواها فأَمرته أنْ يَرُدَّ بَصره عنّها ، فَقَال لها : وكيف وقد امْتلأ كُلِّي بك ؟ فَقَالت لَه : كَيْف لَو رَأيت الجَارية الأخرى التي وَرَاءك في العيْن الأخرَى ، فإنَّها أجملُ منِّي ، فَالْتَفت وصَرَف بَصره ، ولَم يرَ شَيئًا ، قَالت لَه : مَا أحسن الصِّدق ، وأقْبح الكَذب ، ألم تَقل أقْبلت عَليْك بِكُلِّي ، فإليك عنِّي ، فَنَظر إليْها فَاحْتَجَبت عنْهَ ، ولَمْ يرَ شَيئًا .

فالمُحبون هُم المُتوكلون المُفوضون ، المُسلِّمون ، المُسْتَسْلمون ، السَّاكنون بِطُمأنينة السَّكينة عند مَحبوبهم .

ومن أوصافهم : العِلم الكَامل ، والمَعرفة التَّامة بِمَعْروفهم ، قَال النَّبيُّ

(١) سورة آل عمران الآية (١٥٩) .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٣) .

(٣) سورة الأحزاب الآية (٤) .

ﷺ : « إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ، يُحِبُّ كُلَّ عَلِيمٍ »(١) وعَلِيم عَلى وَزْن فَعِيل للتَّكْثِير ، وقَال إمام الأئمة ، وعَلِيم الملة عَلِيّ بنُ أبي طالب - رضي الله عنه - : « مَن لاَ يَعرف مَا يُحب فإنَّما يُمَارج(٢) نفسه » ، والجَهل بَعيد من أوْصاف القُدوس جَل جَلاله ، فالمحبون هُم العَارفون ، والمعرفة إنَّما تكَون بالتَّدْبير في آيات كَلام الحَبيب ، والفكر ، والنَّظر في مَصْنُوعات الحكيم ، فَقُلوبهم مَشحونة بِالأفكار ، وعُقولهَم جَائلة ، مُستَغرقة بِالنَّظر والاعْتِبار .

وقَال قَائلُهم / : ٢٦٩/ب

مَرَرْتُ عَلى الدِّيار دِيار لَيلى
أُقَبِّلُ ذَا الجِدار ، وذَا الجِدارا
فما حبّ الدِّيار أثار قَلبي
ولكن حبّ مَن سكن الدِّيارا

فالمُحبون هُم المُعْتَبِرون ، المُتَدبرون ، النَّاظرون ، المُتَفَكِّرون ، العَالِمون ، العَارِفون .

ومِن أوْصافهم : الإحْسان ، قَال اللَّهُ عَز وجَلّ :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لمْ تكن تراه فإنه يَراك ، وقَال اللَّهُ عَزَّ وَجَلّ :

﴿ وإنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسنينَ ﴾ والمعيّة تُوجب القُرب ، والرؤية توجب المُحاضرة ، والمُطالعة ، والمُشاهدة ، والمُكَاشفة ، والمُراقبة ، والحَياء ، والمُجالسة .

---

(١) سبرت عنه ، دون جدوى .

(٢) يمارج : يفتن نفسه .

إلى غير ذلك من أوْصافهم ؛ فالمحبُّون هُم المُراقبون ، المُسْتَحيون ، المُعَاينون ، الحَاضرونَ ، المُشَاهدون ، المُكاشفون ، المُطالعون ، المُجالسون ﴿فِيْ مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ والمُجالسون هُم المُخاطبون ، والمُحدِّثون ، وأهَل الأُنْس ، فَهُم المُسْتأنسون .

فصل

ومن أوْصَافِهم وأدل دَليل عَلى كَون المَحبة بَيْن أعطَافهم (١) حبّ لقاء الحَبيب الوَدود جَلّ جَلالُه ، وقال النبيُّ ﷺ : « مَن أحبَّ لَقَاءَ اللَّه أحَبَّ اللَّهُ لقَاءَهُ » (٢) فَهُم المُستوحشون من الدُّنيا وأبْنَائها ، والفَارُّون إلى الخَلَوات (٣) عنها ، وعَن أهْلها ، الغُرباء فيها ، المُسافرون ، المُقلعون عنها ، البَاكون على الرجوع إلى أوْطانهم منها ، قَال النبيُّ ﷺ / : « لاَ رَاحَةَ لِمُؤْمِنٍ دُون لِقاءِ ربِّه، ٢٧٠/ب ولَولا مَا عَجّل لهم » (٤) .

معنى من هذا اللقاء الكريم فِي الدُّنيا فِي صَلواتهم منها - قال وقرة العين فيها - وفِي خَلَوَاتهم لَطارت أرواحُهم مِن أجْسامهم صَعدًا وتلفت ، وتَفتّت أكْبَادُهم بالشَّوق كَمدًا » (٥) قال اللَّهُ عز وجل :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ (٦)

وفي الخبر : « إنما نسْمةُ المؤمن طَيرٌ يُعلق من ثمار الجنة » وقَال النبيُّ ﷺ في تعجيل اللقاء الكَريمَ فِي الدُّنيا لَهم : « أرِحْنَا بِهَا يَا بِلالُ » (٧) وقال : « وجُعِلَتْ

---

(١) أعطافهم : عطف الإنسان خانبه .

(٢) صحيح متفق عليه من حديث عائشة - رضي الله عنها - البخاري ٨/ ١٣٣ ، ومسلم في الذكرو الدعاء (١٤/ ١٥) .

(٣) الخلوات : جمع خلوة : وهي : مكان الانفراد بالنفس ، ولا تصح الخلوة الصوفية لأنها بدعة نكراء .

(٤) لا يصح : راجع أحاديث القصاص لابن تيمية (٥) ، والسلسلة الضعيفة للشيخ الألباني - حفظه الله - (٦٦٣) .

(٥) الكَمد : الحُزن المكتوم . (٦) سورة النحل الآية (٧٩) .

(٧) رواه أبو داود (٤٩٨٥) من طريق ثوبان عن « من خزاعة » -رواية مسعر - وعند أحمد (٥/ ٣٦٤) « من أسلم » ، رواه أبو داود أيضاً (٤٩٨٦) من طريق ثوبان أيضاً عن عبد الله بن محمد ابن الحنفية عن أبيه مرسلاً ، كذا رواه أحمد (٥/ ٣٧١) .

قُرَّةُ عَيْنِيْ فِي الصَّلاةِ »[١] .

ومن أوصافهم مُتابعة الحَبيب محمد ﷺ في أعماله ومَقامات بَاطنه ، وأحواله ، وقَد كَان عَليه السلام مُؤثرًا للَّه عَلى كُل شَيء ، ومُسْتَحقرًا فِي جَنب مَولاه كُل حَي ، ومُؤْثرًا للآخِرةَ الباقية عَلى هَذه الدُّنيا الفَانية .

قَال اللهُ عَز وجل :

﴿ قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِيْ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[٢] الآية أثبت لَهُم فِي هَذه الآية حُبًا في أولها بقوله : ﴿ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾ ثمَّ أعلمهم أنَّه ثَبتهم على الاتِّباع لحَبيبه حبًا ثَابتًا زائدًا على حُبهم الأول ، وفي قوله : ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ وفي زِيادة الحبّ عَلى الحبّ ليُشتد الحبّ ، وإذا اشْتد الحبّ ظهرت
٢٧٠/ب آثاره على المَحب ، وثبت أعلامه على المحبوب ولذلك / ظهرت « الباء » الثانية فِي الفعل الثَّاني الزَّائد فِي الحُبِّ فِي قوله : ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ولمْ تُخَف « الباء » فِيه بالإدْغام .

ولَولا أنّ « البـاء » ظَهرت بتَسكين الجـزم لهـا لأتلف الحُب أهلهـا ، والسُّكون هُدوء وطمأنينة ، ومَودَة ، فلذلك كَان الأئمة الأعْلام المُحبون ، المُتَّبعـون للنبيِّ عليْه السَّلام أهل تَودُّد ، وطُمـأنينة ، وأهل سُكون ، وهُم أحب أهل خَلق الله في اللِّه ، وفي رسُول اللَّه ، وقَد عُوتب الجُنَيد عَلى تَرك الحَركة ، فقـال : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾[٣] وهكذا قَال أهلُ المَعرفة : لكُلِّ حَرف ، وحَركة ، وسُكون من حُروف القُرآن عُلوم ، وأسْرار ، وفُهوم لَا تنْقضي أَبدًا .

(١) صحيح : تقدم تخريجه ، ولفظه : « حبب إلي من دنياكم . . . . الحديث » .

(٢) سورة آل عمران الآية (٣١) .

(٣) سورة النمل الآية (٨٨) .

فأهل هَذا المَقام ظَهرت على أجْسامهم ، وفي أحْوَالهم ، وأعْمَالهم المحبة ، حتَّى لمْ يَشُك أنَّهم مُحبون ، لكنَ لَمَّا كان قَوله : ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ حُب من اللَّه لَهم جَذبهم حُبه لهُم إليْه سُبحَانه ، وأوقفهم بالتَّثبت مَعه ، والتَّمكن في حُبِّه ، والثَّبات ، والوُقوف ترك الحَرَكة ، وهُو جَزم ، والجَزم قَطع للحَرَكة ، وتَسْكين لَها .

ولَيس في أحْوال الخَلق أرْفع من دَرجة التَّمكين ، وإنَّما وَرثوا ذلك باتِّباعهم المُمكَن المَكين في حبِّ ربِّ العَالَمين محمداً سيّدَ المُرْسلين ؛ فإنَّه كَان أحَب الخَلق في اللَّه ، وكَان أثْبَت في حُبه ، وأرْزَن من الجبَال الرَّواسي - صَلوات اللَّه وسَلامه عليْه وعلَى أتْباعه إلى يوم الدين .

فصل

فإن قُلت فإن قَولَه ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ مَخْصُوص باللَّه ، ومن حُب اللَّه
١/٢٧١ لَهُم ، وحُب اللَّه يَأمن من حُب / الخَلق ، وأنت إنَّما وَصَفت حُب المُحبين المَخلوق فاعلمْ أنّ الأمر كَما قُلت ، وحُبه لهم جَذبهم إليْه كَما تَقدم ، ويُحبّه لهم تأثر الحب عندهم ، وزاد ؛ لأنَّ صفاته فَعّالة في الوُجود ولا يُحب العَبد خَالقه حتَّى يُحبه خَالقه ، فَتُحببه لهم زاد الحُب عندهم ، وتأثرت بوَاطنهم بالحبّ ، كَما أنّ مشيئتهم عن مشيئته ، ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إلاَّ أن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[1] .

(١) سورة الإنسان الآية (٢٠) .

فصل

فَقَولُه ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ كَانوا مَحْبُوبين للَّه ، لابُدّ ولاَ محالة ، ومَجْذُوبين إليْه من الأشْياء القَاطعة بلاشك ، وبذلك أخْرجهم من الظُّلمات إلى النُّور ، وهُوَ أخرجهم إليه ، وتولاهم ، فكانوا في كَنَفه [١] ، وتحت تَولّيه ، ولَمَّا تَولاهم صَاروا في مُلك قَبْضته ، قَيضهم عن الأغْيار ، وأكرمهم بنفسه ، وإذا قبضهم عنده فَقد استْمسكوا بالعُروة الوُثقى ، وإذا استَمْسكوا بالعُروة الوُثقى لمْ يكُن لهم زَوال ، ولا خُروج من القَبضة ؛ لأنّ العُروة الوُثقى لاَ انْفصام لها ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ ﴾ [٢] الآية ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ ﴾ [٣] الآية .

لاسيما الإخراج الكُليّ ، والوَلاية الخاصيَّة ، فَحالهم في هَذا المقَام حَال الحُوت في الماء ، إنْ خَرج ينفس وكاد يَتلف ، وكَذلك المَحْبوبون لا يَسْتَطيعون الخُروج من عند مَحبوبهم ، ولاَ الالتفات إلى المواضع والأغيار إلا كما جَرى للحوتَ ، إذا خَرج مِن الماء .

---

(١) الكنف جانب الشيء .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٦) .

(٣) سورة البقرة الآية (٢٥٧) .

فصل

٢٧١/ب فـإن قُلت فكَيف / أقبلت الأنبيـاء عَلى الخَلق ومُخـاطبتهـم ، وعلى الأكل والشُّرب والنّكاح والأولياء الأكابر الذين وَصَفت ؟ .

فاعلمْ أنّ اللّهَ جَلّ جَلالُه وتَقَدّسَت أسْماؤه يقـول : ﴿ وأقْسطُوا إنَّ اللّهَ يُحبُّ المُقْسطينَ ﴾[1] فَمن أوْصافهم القسط ، والقسط هُو العَدل ، والعَدل وَضع الأشْيَاء مَواضعَها التي أمر اللّهُ بها ، وإعْطاء الحَق لكُل ذي حَق ، فيُشَاهدون الأشْياءَ ، ويُبَاشَرُونَها ؛ لأنّ اللّه مُنزّهٌ عن مُبَاشرةَ الأشْياء ومُلاَمَستها ، ولابدّ لهم من مُباشرة المَخلوقين لتوصيل الحق إلى كل ذي حَق، ولإخْراجِهم ، ودَعْوتِهم إلى النُّور الحَقّ من ظُلُمات الخَلق .

(١) سورة الحجرات الآية (٩) .

فصل

فإنْ قُلتَ فإن ذَلك الرُّجوع نُزول مِن أعلى إلى أسْفل ، وذَلك انْحطاط ونقص فِي وجه .

فاعلمْ أنّ ذَلك كَمال ، وزيادة ، ألا تَرى قَوله : ﴿ إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُقْسطينَ ﴾ فالحبُّ من اللَّه لازمٌ لَهم في حال قسْطهم ، والحبُّ يَتأثر عن حُبِّه لَهم في قُلوبهم ؛ فالمحبَة لا تُفارقهم ، وكُلمَا أخرجوا مُخلوقًا من ظُلمة الخَلق إلى نُور الحَقِّ ، وأوْصَلوا حَقًا إلى ذي حَق ، تَعدّى الفعل مَنهم إلى غَيرهم ، وأحبهم اللَّهُ عَلى ذلك ، وازْدادَوا حُبًا فيه إلى حُبهم ، وازْداد جَذبُهم إلى الله بحُبِّه لَهم ؛ فالحُبُّ لا يُفارقهم ، والمُشاهدة لازمة لَهُم ، فإنَّهم مَرْبُوطون ، مزمومون بزمَام العُروة الوُثقى التي لاَ انْفصامَ لَهَا ؛ لأنَّ المَحْبُوبَ الَّذي / أحبوه لا يَبطَلَ أبدًا ولا يزول ، ولا يَحول ، فلذلك لمْ يكن لها انفصَام ، وربَّما كان غفلة هؤلاء المذكورين ، ونَومهم جَماما[1] ، وزيادة لَهُم فِي المُستَقبل . ٢٧٢/أ

(١) جَماما : رَاحَةً .

فصل

قال اللَّه عز وجل في صفة المُمكن المكين مُحمد عَليْه السلام ﴿ ثُمَّ دَنَى فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ (١) فالدُّنُوّ ، والقُرب تمكّن واستمسك بالحق ، وبالتَّولي كان أبدًا في إعْطاء الحقُوق ، ومُشاهدة الخَلق ، والمُتولي مُسْتمسك بالعُلو ، وإنْ كانَ في السَّفل ، فافهم .

وأنشد بعضُ المُحبين المحبوبين في مثل هذه الحالة فقال :

تراك تَرثى للذي قَلبُه مُعلق في مَخْلبَي طائر

لاسيما وكُل مَن ذَكرنا من المَحبوبين ، الخوف ، والحذر مُحيط بهم أن لا يَنْقطعوا عن محبوبهم ، أَو يَغيبوا عنْه ، أو يَميلوا إلى سواه ، فَهُم مَع الخَلق كَالمَاشي حَافيًا بيْن الشَّوك ، فَلا أحد أكْثر خَوفًا وَحَذرًا من أهل المحبة ، وخَوفهم في حال مَحَبّتهم أحلى من كُلِّ حُلو ؛ لأنَّهم يَخافون أنْ يَفُوتَهم مَحْبُوبُهَم ، أو يَفرُّوا عنْه ، أو يَزيلوا عنْه ، فَلو فَقَدوا الخَوف لَهلكوا ؛ فالخَوف يَقْبضهم عن الأشياء ، وهُم مَع الأشْياء ؛ لأنّ من طَبع الخَوف القَبض ، ولاسيما مُصَاحبة أهل الكمال ، ومُشَاهَدتهم ، فإنها زيادة .

٢٧٢/ب وقد قال النبيُّ ﷺ في أكْمل النِّسوان عائشة / الصِّدِّيقة بنْت الصِّدِّيق الكامل صَلواتُ اللَّه على جَميعهم : « مَا نَزَلَ عَلَيَّ الوَحْيُ وأنَا فِي لِحَافِ امْرأةٍ منكُنَّ غَيْرها » (٢) فنسَب ذلك لكَمَالها ، وجعله من فضائلها .

---

(١) سورة النجم الآية (٨ , ٩) .

(٢) صحيح : انفرد به البخاري كتاب الهبة * باب قبول الهدية ، والنسائي في عشرة النساء * باب الغيرة ، والترمذي المناقب (٣٨٧٩) .

وأهْلُ الكمال المَذْكورون من كان عند الواحد مثل ما عند الآخر ؛ فكُل واحد منهم لا يُحب أن يَنقطع عن مَحْبوبه ، أو يَكُون الآخر قليلاً عن الآخر ، فَيَفيض الآخرُ عليْه ممّا عنده ، فَيَزيد هَذا وهَذا ، أو يكُون الشَّيء المَفْعُول أو المُشَاهد مَحبوبًا للّه ، وبأمر اللّه ، أو يكون الشَّيء المُشاهد ، والمُباشر عَدواً للّه ، ومَبْغُوضًا عند اللّه ، فَيُبَاشر بتَطْهيره وإزالته من مُلك اللّه ، كالكُفر والمَناكر المغيّرة ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[1] .

وهكذا المُقسطون إذْ وضعوا كل شيء في موضعه ، لمْ يَنْقُصوا من كَمال الحُبِّ ، بل يَزيدُون ، وكذلك ورد في الخبر مَا ورَدَ من فَضل الإمَام العَادل ، وإنَّه أعْظم النَّاس درجة ، وأحبّ إلى الله ، والخَلق كُلهم أئمة على جوارحهم ، ومَا اشترعوا عليه ، لكن أكْثرهم جَورة ، وفي الخَبر : « كُلُّكُم رَاعٍ ، وكُلُّكُم مَسؤولٌ عَن رَعِيّته »[2] ، لكن الجَور[3] أهْلك الكُل .

فإذا فَهمت ما تعمّدهم عَلمت أنّ الرَّاعي ، والإمام كُلما كَثرت رَعيته ، وعَظُم مُلكه ، وكان من المُقسطين كان أفْضل النَّاس ، وأقْربهم إلى اللّه ، وأعظمهم / درجة ، وأكْثرهم حُبًا ، وذلك لسر عظيم الغَور[4] من المعرفة الخاصية ، ولاح لك به مَعنى القُرب من الرُّبُوبية بالمعنى ، والرُّتبة ، والصِّفات ، لا بالمكان ، وتَقارب الذَّوات ، وتَفْهم بالحقيقة مَعنى قَول النبيِّ ﷺ : « إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدمَ عَلَى صُورَتَه »[5] فإنّ الله جَلّ جَلالُه وتَقَدّست أسْماؤه غَنيّ عن العالمين ، يوصف نفسه الربّة ، لَيس الغنى عن كثرة ٢٧٣/أ

(١) سورة التوبة الآية (١٤) .

(٢) **صحيح** : تقدم تخريجه .

(٣) الجَوْر : الميل عن القصد .

(٤) الغَور : من كل شيء قعره وعمقه .

(٥) **صحيح** : متفق عليه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه - البخاري في كتاب الاستئذان * باب بدء الأذان (٨/ ٥٠) ، ومسلم كتاب بيان صفة الجنة (١٠/ ٢٩٤) .

العَرض، لكن الغنى غنى النفس ، لا يَشغله تَدبير مُلكه ، ولا يُتعبه ، بَل يُشاهد نَفسه ، ويُشَاهد مُلكه ، وتَصرّفه ، وسَواء عنده وُجُود أو عَدمه .

وكذلك أعطى خُلفاءه ، وأحْبابَه مَعْنى من التَخلّق بأوصافه ، فأعطاهم الغنى به ، وبحُبه والإقْبال عليْه عَن كُل شَيء ؛ لأنّه الماسك لهُم عنده بحُبه لهَم ، ثمّ عطَف بهم على الأشياء فأقبلوا عليْها بتَنفيذ أوامره ، كما يَصنع هُو في مُلكه ، وكُل ذَلك لَه ، ومَن عنده ، وهَذا مَعنى عَظيم من الإحْصاء الذي نَدب إليه رَسُولُ الله ﷺ في قَوله : « إنّ للَّه تسعةً وتسْعين اسمًا مائة إلا واحد ، اللَّهُ وِترٌ يُحبُّ الوتر ، مَن أَحْصَاها دَخل الجنَّة »(١) .

فَقرب إلى الاتِّصاف ، والتّخلق بأوصاف الإله ، وأخلاقه على قَدر طاقة الإنسان ، وأعظم النّاس رُتبة أكْثرهم اتّصافًا ، وتخلُّقًا بالأسماء الحُسنى ، والصِّفات / العُلى . ٢٧٣/ب

وفي هَذه المسألة تَخبط النَّاس ، واخْتَلفوا في الغنى والفَقر ، أيُّهما أفضل ؟ .

فمن مُخطئ غَاية الخطأ يُفضِّل الأعْراض الدُّنيوية القَاطعة عن اللَّه ، ومن مُصَيب في بَعض ، ومُقَصِّر في بعض . ونحن إن شاء اللَّهُ نكشفَ الحَق فيَ هذه المسألَة حتى يتبَين لكُل مُنصَف غَير مُتَعسِّف(٢) .

---

(١) صحيح: متفق عليه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه - أخرجه البخاري (٣/ ٢٥٩). ومسلم في الذكر والدعاء (٦) .

(٢) المتعسف : عَسَف الطريق : صار فيه على غير هدى .

فصل

الغنى عَلَى ضربين ، والفَقر عَلى ضربين ، فأمّا الضِّربُ الأول من الغِنى فَهُو غِنى النَّفَس ، .

والضِّربُ الثَّاني في كَثرة المَنْقُولات ، والمُمْتَلكات ، ووُجُودها في يَد الغَنيّ ، وتَملُّكُه لها ، وتَصرّفُه فيها ، وهذا على الكمال الأرْفع لَيس إلا للإلَه الحق ، وهُو الغَنيّ بنَفْسه عنَ العَالمين ، وهُو الغَنيّ بكَثرة المماليك التي لا حَصر لها ، ولاَ نهَاية لكَثْرَتها ، وبَادتها أبد الآبدين ؛ فهُو ربُّ العَالمينَ ، ومَالك المُلك ، والخَلق أجْمعينَ .

فأمّا الوَصوف النَّفْساني الذي هُو غنَى النَّفس ، فَهُو لازم للغَنيِّ الحَقِّ ربِّ العالمين ، قَبل وُجود الكَونَ ، وبَعدَ وجُوده ، وبَعد إعْدامه إنْ شاء إعدامه بَعد وُجوده .

فأمّا الضِّرب الثَّاني وهُو وجُود المُمْتلكات في مُلك الغَنيّ ، فإن ذلك في حَقِّ اللَّه الغَنيّ سَواء وجُوده وعدمه لا يَستْغني به ، ولا يَفْتَقرُ إليه إنْ أعدمه / ١/٢٧٤ بَل هُما شَيئَان لا يَترجح أحَدُهما على الآخر .

وإذا فَهمت هَذا فَهمت مَعنى حديث النبيِّ عليْه السلام : « لَيس الغنَى عَن كَثرَة العَرَض ، وإنَّما الغنَى غنَى النَّفس »[١] فإنّ « لَيس » في اللِّسان العَربي ، والنطق الحقيقي النَّفي ، وإنما في اللِّسَان أيْضًا للحصر ، كَقَوله عز وجَل : ﴿ إنَّمَا اللَّهُ إلَهٌ وَاحِدٌ ﴾[٢] أيْ حَصرت الألوهيّة ، والوحدانية له ، لا

---

(١) صحيح : متفق عليه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه - أخرجه البخاري (٨/ ١١٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١) .

(٢) سورة النساء الآية (١٧١) .

لسواه ، ومَنَعتها من غَيره ، فالغنَى بالحَقيقة غنَى النَّفس ، وغنَى الأسْباب ، وفَقْرهَا في حَق البَارئ سيان ؛ لأنَّ الفقر هو عدم الأسباب ، فوُجُودها ، وعدمها في حقيقة سَواء .

وإلى المعنى الواحد أشَار بَعض العارفين ، وقَصّر في الآخر فَقال : «الغنى أفْضل من الفَقر ؛ لأنَّه صفة الحقِّ» فَقَال له عَارف آخر : « فَاللَّهُ غَنيٌّ بالأَسْباب إذًا ؟ » فانْقَطَع ولمْ يَنْطَقْ بحَرْف .

فصل

ومن أجل هَذه الشِّيمة كَفر القَائلون بقدَم العَالم ؛ لأنَّهم يَقُولون إنَّ الأشْياء مَعْلومَات اللَّه ، وهي مَعه كَالعلة مَع المَعْلول ، والظِّل مَع الشَّخص ، لَو زَالت عنْه لطَرأ عليْه نَقْص في صفَاته ، فَصَار عنْدَهم لاَ يكْمُل إلاَّ بها ، وجَعلوا الفَقْر النَّفْساني من صفَاته تَعالى وجَلّ ؛ لأنَّه إذا كَمُل بهَا أو بوُجُودها ، ولم يَسْتَغْن عَن كَونها ، فَقد افْتَقر إليْها ، وجَعلوا الفَقر من صَفة/ نَفْسه ، وجَعلوا الغنَى بالأعراض ، ووُجُود الأسْباب من صفاته ، ٢٧٤/ب وقَد خطّأهَم النبيُّ ﷺ فَقال : « كَان اللَّهُ ولاَ شَيءَ مَعه »(١) فَأثْبَتَ الغنَى النَّفساني عنْ جَميع الأشْيَاء للغَنيّ والحَميد جَل جَلاله .

وقال في حَديث آخر : « كان اللَّهُ ولمْ يكُن شَيءٌ غَيره »(٢) فَنَفى الغنَى بالأغْيار عَن العَزيز الجَبَّار قَبل وُجود الأغْيار ، ثمَّ لَمَّا أوجد جَل وعَز الغَنَى العَرضي قرّب المَماليك ، ووَسَّع المُمْتلكات من جَميع المَوْجُودات وفَرض عليْهم العبَادة ، ثمَّ أعلم الكُل أنَّه غنيٌّ عَنْهم ، وعنْ عبَادَتهم فَقَال : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾(٣) وقال جَل وعَز : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾(٤) أيْ كان في أزله كَما قَال النبيُّ عليْه السَّلام : «كَان اللَّهُ ولمْ يكُن شَيءٌ غيره » . فَقَولَه : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ إشارة إلى كَونه القَديم قَبْل إيجَاده الأشياء ، فأثْبَتَ لنَفسه الغنَى في الأول .

(١ ، ٢) صحيح : انفرد به البخاري ، (٩/ ١٥٢) كتاب بدء الخلق من حديث عمران ولفظه : «كان الله ولم يكن شيء غيره . . . . الحديث » .

(٣) سورة العنكبوت الآية (٦) .

(٤) سورة النساء الآية (١٣١) .

وقَوله : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ إشارة إلى الوَقت ، فأثْبَت لنَفسه الغنَى عن الكُلِّ ، فَاستَوى عنْده الوُجود ، والعَدَمُ ، فَهَذا هُو الغنَى عَلَى الإطْلَاق ، فَإن وجد من الأغْنياء المَخْلُوقين ، ١/٢٧٥ المُتَّصفين بالغنَى المَخْلوق ، ومَن حَصَل / له مَعْنَي من هَذَا الوَصف حتَّى يَسْتَوِيَ عنده وَجُود الشَيء وعَدمه ، فَقْره وغنَاه ، فَهُو الكَامل عَلى الحقيقة .

فصل

فإنْ قلت : وهَل يُوجد ذَلك أمْ لاَ ؟ .

فاعلمْ أنَّه لاَ يُوجد عَلى الكمال إلاَّ فِي المال عِند صَفوة الرِّجال المُتَّصفين بالكَمال .

ومَعْنى ذَلك أنَّ غنَى الآخرة أفضل من فَقْرها ، والأغْنياء بمَعْنى الآخرة هُم مُلوك الجنَّة ، وفُقَراء أهْل الجنَّة آخر مَن يَدْخُلها ، وأغْنياؤهم أول مَن يَدْخلها ، وقَد وَرَد فِي صفة الأبْدال أنَّهم مُلوك أهل الجنَّة .

فصل

أغْنَى أهْل الجنَّة في الأعراض أكْثرُهم مُلْكًا ، وأعْظَمهم خَولاً [1] ، وأكثرهم غنًا الغنى النَّفساني ، أكْثرهم إيثارًا للنَّظر إلى اللَّه ، وأرغبهم وأحْرَصهم عَلى المَقام في المُشَاهدة لمَن لَيس كَمثله شَيء ، والخُروج بالتَّجرد عنْ القُصور ، والتَّمتع بالحُور العيَن ، فَيُعْطيهم نَفسه ، فَغناهم بِه عنْ كُل شَيء لاَ يُشْبه ، ولاَ يُقاس بِه شَيء .

(١) خولاً : كِبْراً .

فصل

إذا ردّهم على الأغيار لأداء الحُقوق ، وقَضاء الأوطار وأراهم مَا أعطاهم ، ومَا أغْناهم به من المَاليك ، والأمْصار ، عَلموا أنَّ في ذَلك رضاه ، فَاتَّبعوا رضْوَانَه ، فَرأوا تَعلمهم برضَاه مَا في نَفْسه ، فكَان ذَلك زَيادة رُؤية عَلى رُؤية ، فَرجعوا إلى المَلك ، وأفَاضُوا بَجُودهم عَلى المَماليك
٢٧٥/ب كَما أفَاض علَيْهم مَليكهم فكانوا مَع الأشْياء / بالله ، واللَّهُ مَعهم ؛ لأنَّهم مُوحدون نُوراً إنَّ اللَّه منقذ لكُل شَيء ، لاَ يَحْتَجبون عنْه في شَيء ؛ فَهُم خَارجون عنْ الأشْياء ، وهُم مَع الأشْياء .

وقال النبيُّ ﷺ لعَلي : « يَا عليّ إنَّ اللَّـهَ يَتَجلى لَك في مَمَاليكك ، وأزْوَاجك وأهْلك ولاَ يَشْغَلك ذَلك عنْ ربِّك »(١) أو كما قال النبيُّ عليْه السَّلام في هَذا المَعنى « رأيت رَبي في أحسن صورة » أي لم يشغلني حُسن الصُّور عَن المُصور ؛ فالغنَى الكامل في الجنَّة إذا اشْتَهَى النَّظر نَظر ، ولاَ يُحتَجب عن شَيء ؛ لأنَّ بَصَائرهم كَانت مُتيَقِّظَةٌ نَافذة في الدُّنيا في كُل شَيء .

وأغْنَى النَّاس في الآخرة مُحمد بن عبد اللَّه رسولُ الله ، والأنْبياء ، والأولياء ، ثم يترتبَ الغنى إلَى آخر من يدَخل الجنةَ فالغَنيّ في الآخرة أفْضل من الفَقير بلا شَك ؛ لأنّ الذي في أسْفل دَرجة فقير ، بالإضَافة إلَى ما فَوقه لأنَّ الذيَ فَوقه أعْظم مُلكًا ، وأوسع خَولاً ، وأكْثر نظرًا فيه ، وهكذا إلى أعلاهم دَرَجة .

وأمّا الفقر بالحقيقة فَهو لأهل النار في الآخرة فإنّهم مَمْلُوكون بيد المُعَذِّبين لهُم ، مَسَاكين بيْن أيديهم ، لمْ يَمْلكوا من أنْفسهم شَيئًا ، ولاَ

(١) موضوع : راجع اللآلي ١/ ١٩٩ ، تنزيه الشريعة ١/ ٣٦٨ ، لسان (٣/ ٩١٠)، الموضوعات (١/ ٤٠٢) .

أعْطوا من الأشْيَاء قَليلاً ، ولاَ كَثيراً ، بَلْ الأشْيَاء كُلها عَلَيْهم ، قَد خَسروا رَبَّهم ، وخَسروا الجنَّة ، وخَسروا أنْفُسهم وأهْليهم ، وخَسروا كُل شَيء ، فَلَيس هُم / مِن أهْل الغِنَى فِي شَيء . فالفَقر فِي الآخرة شَر بَلا خَير . ١/٢٧٦

فصل

وأمّا أحكام الدُّنيا ، فإنّ الدُّنيا خُلقت للعبادة ولمْ تُخلق للتَّنَعُّم ، والرَّفاهية ، ولأنَّها قاطعة عن اللَّه ، وعن الدَّارَ الآخرة ، فَالفَقر فيها ، والزُّهد أفْضل بلاشك ؛ لأنَّه شعَار الأنْبياء ، ولاَ عبادةَ أفْضل من الفَقر إلى الله ، ومَن جَهِلَ هَذا ، وقَال بخَلافه ، فَقد صَرّح بحُبه للدُّنيا .

وقَد صحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ خُيِّر أن يكُون نَبيًا عبدًا ، أو نَبيًا مَلكًا فَاختَار التَّعَبُّد ، واختَار الفَقرَ عَلى الغنَى ، ولاَ كَلام لأحد مَع رسُول اللَّهَ ﷺ ، ومَا جَاء نبي ، ولا رسُول من عندَ اللَّه إلاّ بالتَّحذير من الدُّنيا ، والتَّزْهيد فيها ، ولاَ يُؤخذ الواحد منهم بوَجه أنَّه أتَى بالتَّرغيب فيها ، والاسْتكْثار مَنها ، وجَعلوا حبُها رأس كُل خَطيئة ، فأيُّ كَلام لأحد مَع هَذا .

فصل

فإنْ قُلت : فأين مَا قَدمت في صفة الخُلفاء والرُّعاة ؟ .

فاعلمْ أنّ من هُنا دُخلت الشُّبهة على الخَلق ، وقَد أعْلَمتك أنَّ ذَلك في الجنَّة ، ومثال ذلَك أنَّ غنَى الدُّنيا العَرضي الحَال فيه بخلاف حَال الآخرة ، وذَلك أنّ مُمتَلكات الآخرة موجُودة أبدًا بأيدي مَالكَيها ، ويُزَادُون منها أبدًا ، فَهُم في اتِّسَاع ، ومَزيد من الغنَى ، والمُمتَلكَات أبدًا فَمُلكُهم وَاثق مَديد/ ولا يَفْنى ، ولاَ يَنْقص . ٢٧٦/ ب

وغنَى الدُّنيا ، وأمْوالها العَرضية تَذُم صَاحبَها ويُلام إذا حَبَسها بيده ، ولَمْ يُخْرجها بالإنْفاق لها في سَبيل الخَير ، وإنَّما يُمدح بافْتقاره منها ، وفَقده لها إذا أخْرجهَا من يَده ، لاَ علَى مَا يُمسك ، فالمَدح إنَّما يَقع عَلَى الغنَى في الدُّنيا عَلى مَا يُنْفق ، لاَ على مَا يُمسك ، ولاَ يُمدح أيضًا عَلى تَمَتعه بالشَّهوات ، والاتِّسَاع في اللّذَّات ، فإنّ ذَلك مُشغل لاَ مَحالة عن اللَّه ، والدَّار الآخرة ، ومَا شَغلَ عنْ ذَلك فَهُو مَذْمُوم .

فإذا وجدْنَا في الدُّنيا خَليفة ، ورَاعيًا مُقْسطًا في رَعيته ، فَلا يكون ذَلك إلا أنْ يكُون حَاله حَال الفَقر ، وعَيْشُه عَيْش الفَقر ، يَرَى أنَّه مُسْتَخلف مَا أعطي للاخْتبار ، لمْ يَملك لَه ، كَما مَلك أهْل الجنَّة لمَا أعطوا ؛ فإنَّهم مَلكوه حقيقة ، لاَ يخرج من أيديهم أبدًا .

قَال النبيُّ ﷺ : « لَيْسَ لَكَ من مَالك إلاَّ مَا أكَلْتَ فَأفْنَيْتَ ، أو لَبِسْتَ فأبْليتَ ، أو تَصدَّقْتَ فَأمْضَيْتَ ، ومَا سِوَى ذَلكَ فَللْوَارِث ، فالدُّنيا عَارية [(١)] عند

---

(١) العارية : هي ماتعطي غيرك على أن يعيده إليك . وكل عارية مستردة .

أهلها ، مُخْتَبرون بها »[١] فالمقسط فيها حَاله حَال الفَقير ، وإنْ كان غَنيًا ؛ لأنَّه خَازن أمين ، ألا ترَى أنَّ أغْنى النَّاس في الدُّنيا إنّما هُم ملوك . . . .[٢] لم يسمَّ مَالَ بأيديهم أنَّه مَالهم ، وإنَّما سَماه بَيْت مَال المُسْلمين ، فَهُو مَالهم ، يُنْفق في حَوَائجهم ، ومَنَافعهم ، فإذا كَان المالك فَقيَر النَّفس فأكل مَال المُسلمَين ، وأنْفَقَه في أغْراضَه ، فَقَد أتلفه ، وربَّما زاد الفَقر عليْه حتى يأخذ ما بأيديهم زائدًا إلى مَا عنده من بَيْت مَالهم ، فأيُّ فَضل في هَذا ؟ .

فإن كان غنيّ النفس ، مُنَزهًا عن أكل حُقوق الخَلق الذي هُو رجْس[٣] ، وقَف بحاله على حال المُقْسطين ، وأعطى بالعَدل كُل ذَي حق حَقه ، فكَان فَقيرًا في صُورة غَنيّ كالأنْبياء ، والخُلفاء .

وكذلك أيضًا مَن وُجد من الفقراء الصَّادقين ، الَّذين لَيس بأيديهم شَيء إنَّما هُم فُقراء في صُورة الأغْنياء بالتَّعَفُّف والقَناعَة ، قَال اللَّهُ عَز وجَل : ﴿ للفُقَراءِ الَّذينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّه يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾[٤] فَنسب الجَهل إلى مَن ظَنّ أنَّهم أغْنياء ، وغفل عن كَونهم فُقراء .

(١) رواه ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٣٠) .

(٢) بياض بالأصل . مقدار كلمة .

(٣) الرجْس : القذر .

(٤) سورة البقرة الآية (٢٧٣) .

فصل

وإنَّما نَسبنا الرُّعاة إلى الفَقر في الدُّنيا ؛ لأنَّ الدُّنيا دار الصَّبر ، والصَّبر مُرٌّ ، ومَشَقَّة ، وهُم يَمنعون أنْفسَهم من التَّمتع الكَثير في الدُّنيا الذي هُو صفة أهل الأتْراب ، ودار الخَوف من غنَاهم ومن الحسَاب عَلَيْه ، وعَلى مَا مَلَكوا من الرَّعَايا ، ومن الأمْوَال ، ويَلَذون بذكر المَوت ، والانْتقال منها ، وبَاكونَ ، وخَائفون من أنْ تَقْطعهم الدُّنيا عَنَ اللَّه ، والدَّار الآخرة ، ومَن هَذه حَاله فَهُو فَقير مسْكين .

وقيل : / إنَّ عُمر بنَ عَبد العَزيز كَان يُجامع أهله ، ولا يَنْفك حتَّى يَبل صَدر امْرأته بدُموعه من خَشيةَ الله ، وهُو خَليفة اللَّه في أرضه ، فَهَذا فَقير في صورة غَنَي ، مسْكين في صُورة مَلك ، وكذلك جَمَيع الأنْبياء ، والأكَابر من الأوْلياء ، والخُلفاء ، فَهَؤلاء أيضًا في المُلك ، ولم يَقطعهم عن الله ، والدَّار الآخرة ، المُلك ، لكن حَالهم حَالَ الفَقير ، فَهُم مَنْسُوبون إلى الفَقر حَتَّى يَبْلغوا إلى دار الغنَى ، والمُلك . ٢٧٧/ب

وأعجب من هَذا كُلِّه أنّ الدُّنيا كُلها بما فيها ، من أوَّلها إلى آخرها أقَلّ عند اللَّه من جَنَاح بَعوضة ، وعُمرها كُلها في عُمر الآخرة أقَلّ من نَفَسٍ ، بَل لا يتجزأ ، فأي اسْم أولى بالدُّنيا وأحْوالها الفَقر أم الغنَى ؟ .

فصل

وأمّا الذي يتَخبط ، ويَتتبع في شَهواته ، ويَبْخل ويُمسك ، ولا يُنفق مُتملكاته ، فإنّه هالك بمَاله ، فَلا يُسأل عنْ حاله . قال الله عَز وجَل :

﴿ وأنفقُوا في سَبيلِ اللّه ولاَ تُلْقوا بأيديكُمْ إلَى التَّهْلُكَة ﴾ [(١)] نَزَلت في تَرك الإنْفَاق في سَبيل الله ، فَوصف أنّ إمْسَاك المال ، وتَركَ إنْفَاقه مَهْلَكَة ؛ فإنْ أمسكه للكبر ، والطُّغيان حق عَليْه الخُسران ، ﴿ كَلاَّ إنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى أن رآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [(٢)] فَحال الفَقر بكُل وَجه في الدُّنيا أحسن وأفْضل من الغنى .

فإن أردتَ الشِّفاء البيِّن في ذلك ، فإن الفَقر على نَوعيْن كَما تَقدم في الغنى ، فَقر من المال ، وفَقر نفساني .

١/٢٧٨ فالفَقر إلى اللَّه ، والغنَى / بالله أخَوان لاَ يَفْترقان ، ولا يَترجحان ، والفَقر إلى الخَلق ، والمال والغنى بالخلق أخَوان لا يَفْترقان ، ولا يَترجحان ؛ عَلى قَدر فَقْره بقَلبه إلى مَاله يكون غناه به ، وعَلى قَدر فَقره إلى ربِّه يكُون غناه به ، فَاثْنَان مَحمودان ، واثْنَان مذَمومَان .

فالغنَى بالمال الدُّنيوي يُولد الاسْتغْناء به ، والاسْتغْناء عَن اللّه ؛ لأنَّ صَاحبه يَطغَى به ، والطَّاغي غَني عنَ اللّه ، ويُولد الفَقر إلى المالَ ؛ لأنَّه طَالب للزِّيادة منه ، فاغر[(٣)] فاه ، يَقُول : هَل من مَزيد ، وهَذان هُما الفَقر المُنسي ، والغنَى المُطْغيَ ، وكلاَهما مُسْتَعاذ باللّه منه ، وعَلى ضده ، فَقير إلى اللّه ، غَنيٌّ به الواحد ، مَمْدُوح بإجْماع . والثَّاني مَذموم بإجماع .

---

(١) سورة البقرة الآية (١٩٥) .

(٢) سورة الأعلى الآية (٦ ، ٧) .

(٣) فاغر فاه : فغر : فتح .

ثمَّ لنَفرض غنيًا طاغيًا ظالمًا ، لا يَمْتنع من الظُّلم بمَاله ونَفْسه ، وأعوانه ، وفقيرًا مُفْسدًا لا يَمْتنع عَن سرقة ، وحُرابة[١] ، وفَساد في طَلب المَال من أجْل فَقْره ، فَالغنيّ الطاغي أكثر عصيانًا ، وأعظم إثْمًا ؛ لأنَّه قَد يَظلم أمَّة من الأمم في سَاعة واحدة ، فَيَعصي اللَّهَ في تلك السَّاعة مَا لا يَعصي الفَقير المُفسد في عُمره كُله ، فالغَني شرٌّ منه .

ثمَّ لنَفْرض غنيًا صالحًا يَعمل الصَّالحات في ماله ، وفَقيرًا صَالحًا انْقَطع إلى ربِّه ، ووَصل إلى مَولاه بحاله هذا ، يَتمتع بمَاله ، وهَذا يَتصبر عَلى إقْلاله ، الوَاحد لتشبه الأنْبياء ؛ لأنّ الأنْبياء لَيسوا مُتَنعَّمين بالدُّنيا / ٢٧٨/ب والشهوات ، وإنما يأخذون منها البلعة[٢] .

قال النبيُّ ﷺ : « إنَّ عباد الله لَيسوا بالمُنعمين »[٣] فالعُبودية في دار العبادة أفْضل بلاشك ، وإنَّما الإتْراف في الآخرة ، والأشْبه بالأنْبيَاء هُو الأَفضل بلاشكَ ، والوَاحد لا يُحاسبَ والآخر يُحاسب ، ورَبَّما نُوقش والواحد سَابق إلى الجنَّة ، والآخر مُتأخر عنه ، والسَّابق هُو المقرب ، والمُقرب أرفع درجة من المُتأخر بلاشك .

فإن قلت : فإن الغَنيّ قَد أنْفق مَاله في مَرضات الله ؟ .

فاعلمْ أنَّ الفَقير ترك المال ، وطَلبه لمَرضات اللّه ، وهَذا كُله الذي ذَكرناه إنَّما هُو في الحَلال ، وأمَّا الحَرام فَعذاب ، والشُّبهة حساب وعتابَ ، أو عَذاب مَع الحَساب والعتاب ، والتارك نَاج من هذا كُلهَ ، وسَالَم منه ، فَهُو أفْضل بلاشَك ؛ لأنَّه سَبق إلى الجنَّة ، والسابقَ مُقرَّب كما تَقدم .

(١) الحرابة : نفر من المسلمين يشهرون السلاح في وجوه الناس فيقطعون طريقهم بالسطو على المارة وقتلهم وأخذ أموالهم بمالهم من شوكة وقوة .

(٢) البلعة : الجرعة .

(٣) انظر الترغيب والترهيب (٣/ ١٤٢) ط عمارة .

فإن قُلت : فإنَّ الغَنِيَّ ربَّما أخْرَجَ مَاله كُله للَّه ، فَله الفَضل ؟ .

فاعلمْ أنه إذا أخرج مَاله كُله لمْ يَقع عليْه اسْم غَني ، وإنَّما حَصل بِذلك الفِعل فِي الفقراء وإذا فَعل ذلك فحينئذ يَلْتَحق بالفُقراء .

وأمدح ما يكون على ماله حِينئذ لتشبهه بالفُقراء الزَّاهدين ، التاركين .

فإن قلت : فإنَّ إنفاق المال وكَسْبه من الحلال مَحْمود ؟ .

فاعلمْ أنَّ تَرك المال وكَسْبه للَّه أحْمد ، فلنفرض رَجلين أحدهما قد اشْتَغل بكسب المال ، وحفْظه وإنْفاقَه في سَبيل الله ، جمعه للَّه ، وحسبه للَّه ، وأنْفقه للَّه / ، ورجلَ ترك كسب المال للَّه ، ولمْ يُمسكه لئلا يَشْغله عَن اللَّه ، ولمْ يُنْفقه لانْشغاله بالله ، ووُقُوفه للمُشاهدة مَع الله ، فَبيْنَهما فرقان ؛ لأنّ الأعمال كلها إنَّما هيَ أسباب للوصول إلى اللَّه ، والمُشَاهدة ، والكَون متعة ، فالواحد فِي الطريق ، والآخر قد جاوز الطريق . ١/٢٧٩

فإن قُلت : فلنفرض غنيًا استوى عنده الغنَى والفقر ، فلنفرض إنسانًا فقيراً اسْتوى عنده الفَقر والغنى ؛ فهُو هُو ، اسْتوى عنْده الحَالان ، فلأيّ شَيء يُمسكه والدُّنيا لمْ يُؤمر فيها بالإمْسَاك ، ولا هي دار الإمْساك ، فإن أمْسكه للغير فلَيس لَه فيه شَيء فهو إذَن فقد منه ، لا يُنسب إليه منه شيء فهو إذَن فقير منه لا يُنْسبَ إليه منه شَيء ، كما تَقَدم في الخُلفاء ، والرِّعاة ، فالفقر فِي الدُّنيا بِكل وَجْه خيَر ، وأفضل ، والغنى فِي الآخرة بكل وجه خير وأفضل .

ومن وجه آخر : أن الغنى في الدنيا في الآخرة ؛ لأنّ المكنزين هم .

وهم أشد حسابًا وأول من يدخل النار ، وهم أشد أهل النار عذابًا كما

صحت الأخبار ، حتى في الكفار ، قال الله عز وجل :

﴿ ولاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾[١] فهو أشد عذابًا ، فالمُقسطون العادلون في الدُّنيا إنَّما كانوا مقْسطين ، وعادلين ، وفاضلين من أجْل أنَّهم كانوا فُقَراء فحالهم حال الفُقراء ، وإنْ كانوا في صُورة الأغْنياء ، وإذا ثَبت أنّ أعظَم النَّاس / درجة : ٢٧٩/ب « إمام عَادل » ، فلاشَك أنّ دليل الخطاب أنّ شَر النَّاس ، وأقلهم درجة إمام جَائر .

وفي الخَبر : « كُلُّكم راعٍ ، وكُلكم مَسْؤُول عن رَعِيَّته »[٢] فإذا كان الرَّاعي كَثير الرَّعية ، جَائرًا لغناه فيهم ، فَهو شَرّ الخلق لاشك ؛ لأنَّه المُفلس الذي « قَد قَتل هَذا ، وأخذ مَال هَذا ، وضَرب هَذا ، وفَعل بِهذا فَيأخُذُونَ مِن حَسَناته »[٣] إن كانت له حَسنات ، « ويُطرح عليه من سيئاتهم »[٤] .

ولابد لهم من سيئات ، فَخَرج من مَجْموع هَذه أنّ الغنى على الحقيقة إنَّما هُو غنَى النَّفس ، وأنَّ الفَقر على الحقيقة إنَّما هُو فَقر النَّفس ، ومن كُل وَاحد مَحمود ، ومَذموم ؛ فالغنَى باللَّه عَن غَيره الذي هُو غنَى النَّفس مَحمود ، في غاية الحمد . ومَمْدوح في نهايَة المَدح ، وكلاَهما مِن فَضل اللَّه ، والفَقر إلى اللَّه في كُل شَيء مَحمود في غاية الحَمد ، وَالمَدح ، وَهُما أخوان لا يَفْترقانَ ، وكَفَّتا ميزان عدلٍ ، لا يَميلان ، ولا يَترجحان .

---

(١) سورة آل عمران (١٧٨) .

(٢) صحيح: تقدم تخريجه ، وقد كرره المصنِّف -رحمه الله- في مواطن .

(٣) صحيح : انفرد به مسلم ، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - البر والصلة (٥٩)، والترمذي (٢٤١٨) .

(٤) في الأصل [عليهم] وما أوردناه هو الصواب بإذن الله .

والغنَى عنِ اللَّه - وليَس أنَّه هُو الذي هُو غنَى النفس الطاغية - مَذموم فِي غاية الذَّم .

والفَقـر إلى غَيـر اللَّه فِي كُل شَيء مَذموم فِي غَاية الذَّم ، وكـلاهُمـا مُستعاذ بالله منهما .

فصل

نَفْس الشَيء وُجـوده ، والوُجـود عَلى ضَـربين : مُـسْتَفـاد ، وغَـير مُسْتَفاد .

٢٨٠/أ فالمُسْتَفاد لاَ يستغْنَى عَن المُسْتَفيد طَرفة عَيْن / ؛ لأنَّ قُوام وُجوده به ، والغَنى مُشْتَق مِن غَنى الرَّجل غِنًى ، فَهُو غَنيّ إذا اكْتَفى ، واجْتَرأ بالشَّيء عَن غَيره .

والفَقر مُشْتَق من قَولك : افْتَقر الرَّجل إذا احْتَاج إلى الشَّيء ، ولَمْ يَسْتغن عَنه ، فالوُجود كُله مُحتاج إلى الغَني الحق ؛ لأنَّ نَفس وُجوده في كُل نَفس ، فَالفَقر طَبعه ، وأصله ؛ لأنَّ أصله العَدم ، والغنى مُستعان لَه من غيره ، فَتَسْميته بالغَني مَجاز لا حَقيقة ، وإنَّما الغَنيَ المُطلق من جَميع الوُجوه للمُنزَّه عَن الحَاجَات . المُكْتَفِي بوَصْفه عَن المكان ، وعَن مَا يَلزم المَخْلوق من ضُروب الحَدثَ ، وأنواعَ الضَرورات ، الذي يَفيض غناه عَلى غَيره ، فَتَكْتَفي به جَميع المَوجُودات ؛ فالمُغني الوَاحد مَن قوله : غَنَّى يُغْني غنَى وإغْنَاء إذَا أغْنَى غَيره ، وأفاض عليْه الغنى ، فَهو الغَنيّ الحقيقة وَحده .

فالفقر وَصفُ الخَلق وواجب تَسْليم صفات الحق للحق ، لازم التزم صفات الخَلق للخَلق ؛ لأن غنَى الخَلق المُستَفاد من الغنَى الحق ، مُسْتَفاد أيضًا وجُوده ، وغَير قائم ، ومُكْتَف بنفسه جَوهراً كان أو عَرضًا ، فقد عاد غِنى المَخْلوق فَقراً بلاشك ؛ إذْ غنَاه مُحتاج إلى إدامته ، وله في اللسان

العربي معنى ، ومَورد : كقولك أفْقر الرَّجُل دابَّتَه إذا أعاره ظَهرها ، وأغْناه بذلك ، وكَفَاه عَن المَشي ، والتعب .

فإن ادعى / المُستعير العَارية لنَفسه كان مُتَشبّعًا بما لا يملك ، والمُتَشبع ٢٨٠/ب بمـا لا يَمْلك كَـلاَبس ثَوبي زورَ ، وإنما كـانا ثوبيَ زُور ؛ لأنَّه ظالم من وَجهين ، ومدَّعي في شيئين ؛ ادَّعى شيء غيره ، وادعاه لنفسه ، والزور كذب ، والكذب قبيح .

فدعوى الغنى للمَخْلوق حقيقة غَير جَميل ، ودَعواه للفقر أجْمل من كل جَميل ، فلاَ شَيء أجْمل عَلى جَميع العَبيد القَريب منهم ، والبَعيد من لَمسة الفَقير إلى الغنَى الحَميد .

فكذلك وَرد في الخَبر : « الفَقر أزيَن على المؤمن من العذار الحسن على خد الفرس الجواد » وأجود من ذلك الجمال المَنسوب إلَيْهم تطاول الغنى الحق ، وإشراقة بأوصاف الغنى عليْهم ، وتطاْوله بغناه عليهم ، ومَدْحه نفسه بِذلك إليهم . لائح للعقُوَل في قوله عَز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾(١) وقوله ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾(٢) وفي قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾(٣) ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾(٤) ولا أحد أحب إليْه المدح من الله ، من أجل ذلك حمد نفسه .

والله غَيور عن صفاته ، فَلْيَلْتَزم كُل مَخْلوق فَقره ، ولاَ يَتعدى طَوره ، وقَدره ، فَهَّمنا الله وإياكم عنه آمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) سورة فاطر الآية (١٥) .
(٢) سورة محمد الآية (٣٨) .
(٣) سورة العنكبوت الآية (٦) .
(٤) سورة الزمر الآية (٧) .

الشعْبة الموفية خمسين
حبُّ الرسُول عليه السلام

أمّا كون هذه الشعبة من الإيمان فبيّن ، لا يحتاج إلى دليل ، قالَ اللَّهُ عز وجل :

﴿ قُلْ إن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُـمْ / وَإِخْوَانُكُمْ وأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ إلى ٢٨١/أ قوله ﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ إلى قوله ﴿ منَ اللَّه وَرَسُوله ﴾ فتُهدد عَلى ذَلك وتُوعد فقال : ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِه وَاللَّهُ لاَ يَهْدِيْ الْقَوْمَ الفَاسقِينَ ﴾[1] .

وفي الخبر الصَّحيح عن أنس قَال : قَال رسُول الله ﷺ : « لاَ يُؤمن أحدُكم حتَّى أكون أحبَّ إليْه من وَالده ، وَولده ، والناس أجمعين »[2] وفي الناس أجْمعين : الأنبياء ، والرُّسل ، والأوْلياء .

وعنه أيضًا في الصَّحيح قَال : قال رسولُ الله ﷺ : « ثَلاث مَن كُن فِيه وَجَد حَلاوة الإيمان ، مَن كَان اللَّهُ ورسُولُه أحبَّ إليْه مِمَّا سِوَاهُما »[3] ... الحديث.

فَقَرن اللَّهُ حُبه مَع حُبه ، وزَاد لَه مزيّة بذَلك عَلى سَائر المَخْلوقات ، لقوله : « ممّا سواهما » ومَا سوى اللَّه ، ورَسُوله هُو جَميع الخَلق فتًى أو مَلك ، أو وَليّ جَلَّت رُتبته أو عَلَت مَنْزلَتهُ ، ومن نَعيم الجنة ، ومن الأهْل ،

(١) سورة التوبة : الآية [٢٤] .

(٢) **صحيح** : متفق عليه من حديث أنس -رضي اللَّه عنه- كلاهما في الإيمان البخاري ١/ ١٠ ، ومسلم الباب (١٦) رقم (٧٠) .

(٣) **صحيح** : متفق عليه من حديث أنس -رضي اللَّه عنه- الإيمان البخاري ١/ ١٠ ، و مسلم الباب (١٦) رقم (٦٧) .

والقُرابات ، ومن نَفس الإنْسان ، ومن كُل شَيء .

فلما أفرده اللَّهُ بهذه المرْتبة ، وجَب كَونها شُعبة مُفْردة من شُعب الإيمان بنَفسها ، ووَجب لَه مزيّة في الحُب عَلى سَائر الخَلق ، لاَ يَثْبت إيمان أحد ، ولاَ يقْبل إلا بكَون هَذه الشُّعَبة التي هِي حُب الرسُول من إيمانه .

ألا ترى رُهبان (١) بني إسْرائيل كانوا يُحبون أنْبياءهم ، ورُسُلهم ، ويَعبدون اللَّهَ ، ولمْ يَنْفعهم شَيء من ذَلك لعدْوَانهم مُحمد عليْه السَّلام ، وهُم مُقرُّون بأنه نبيّ / . ٢٨١/ب

فَيَالَه من شَخص مَا أكْرمه على رَبه ، وأعظم مَنزلته عنده ، وأحبه إليْه حِين لمْ يَرضَ دِين أحد إلا بحُبه ، ولا قَبلهُ إلا مقْرُونًا بحُبه .

(١) رهبان : جمع راهب : و هو المتعبد في صومعة بعيداً عن النَّاس يتخلى فيها عن أشغال الدنيا وملاذها .

فصل

اعلمْ أنَّ هَذا البَاب عَلى ثلاثة أقسام : قِسم فِي مقَام الإسْلام ، وقسم فِي مقَام الإيمَان ، وقِسم فِي مقَام الإحْسان .

فأمّا الظّاهر فِي مقَام الإسْلام فحُبّه عليْه السَّلام باللِّسان ، وإظْهار ذَلك عَلى الجَوارح بالنَصر له ، ودينه ، وسُنته ، وكَثرة الثَناء عليْه ، والصَّلاة والدُّعاء له ، والغلظة باللسان ، والمُعَاداة لمَن عَاداه ، وعادَى طَريقته ، واتِّباع سُنته فِي الأَعْمال ، ومُخَالفة الأَهْواء ، والبدع ، المُخالفة لسُنَّته .

هَذَا هُو حُبه ظاهراً في مقَام الإسْلام ، وعَالم الجَسد كَما قَال عليْه السلام : « مَن أحيَا سُنتي فَقَد أحبَّني ، ومَن أحبني كَان مَعي فِي الجنَّة » (١) .

وأمَّا حُبه فِي مقَام الإيمان فَهو وده بالقَلب حتَّى يكُون أود إليْه من كُل شَيءسوَى اللَّه عَز وجَل ، كَما قَال عَليْه السَّلام : « وَجَد حَلاوةَ الإيمَان ، مَن كان اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليْه ممَّا سِواهما » (٢) .

وأمَّا حُبه في مقَام الإحسان فَهُو أن يَنظر العقلُ إلى تشريف الله ، ومَا آتاه مِن الفَضيلَة ، والكرامة ، ورِفعة المنْزلَة عَلى جميع المخلوقات ،

---

(١) **ضعيف** : رواه الترمذي (٢٦٧٨) من طريق علي بن زيد الجدعاني عن سعيد بن المسيب عن أنس مرفوعاً و قال : « حسن غريب من هذا الوجه ».

و أسند إلى شُعبة قوله : و لا نعرف لسعيد بن المسيب عن أنس رواية إلا هذا الحديث بطوله .

وقد روى عباد المنقري هذا الحديث ولم يذكر فيه ابن المسيب .

قال الترمذي : و ذاكرت به محمد بن إسماعيل البخاري فلم يعرفه ، ولم يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس هذا الحديث و لا غيره . وراجع الضعفاء الكبير للعقيلي (٢/ ٣, ٣ / ٣٥٠) .

(٢) **صحيح** : تقدم تخريجه بلفظ « ثلاث من كن فيه . . . . . الحديث » .

فيُعَظِّمه، ويُوقِّره، ويُعزِّره، ويَلحظ ذَاته الباطنة، والظاهرة بعين التعظيم، والتَّوقير؛ فإنَّه مُعَظَّم، مُوَقَّر في جَميع العَوالم من أسفل العالم إلى أعلاه
٢٨٢/أ إلى محله الكريم الذي هو ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ فإذا فَهمت هذَا / ولابدّ من ذكر شَيء من محاسن هَذا الشَّخص الكَريم، وجَمال ذَاته الظَّاهرة، والبَاطنة حتَّى يتبين وجُوب حُبه ظاهراً، وبَاطنًا، وفي كُل عالم، ومقام؛ فإنَّ الحُسن والجمال، والإحْسَان سبب المَحبَة.

فأول ذلك أن تعلم أن القلوب مَجْبولة[1] عَلى حُب مَن أحسن إليها، وقد أحسن الرسول عليه السلام إلينا بأن كان سببَ الإيمان للجميع، فهو فَرَض الإسلام، وشَرَّع الدين، ووَفَّق العقول بالهداية، وأطلق الألسنة، بل هو سبب كل خير ظاهراً، وباطنًا؛ لأنه رحمة عامة في أصل خلْقَته، فَهِمَ ذلك مَن فَهِمَهُ، وجَهِلَه مَن جَهِلَهُ، كما قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[2] وسَنرى - إنْ شاء الله - مَا يأتي ذلك مُبينًا في صورة خلقته عليْه السلام.

فأمّا جمال شخصه الكريم الظاهر، الذي هو جسده الطَّيب الظاهر، فإن الله خلق آدم عليه السلام، وولده أجمعين على صورة حُروف اسمه عليه السلام، كي لا يُرى بالبصر إلاَّ اسمُه، ولذلك مَن أحب شيئًا لا يَرى إلا صورته، فجعل الميم الأول من مُحمد ﷺ هي الرأس، وجَعل الحاء من حروف اسمه هي اليدان، وجَعَل الميم الثانية مَن اسمه هِي البَطن، وجَعَل الدَّال هي الفَخذَان، والساقان، والقَدمان.

وهكذا صُورته في الخط القديم «مُحَمد» وعَلى هذه الصُّورة صُورة

(١) مجبولة: جَبَلَ اللّه الخلق: أيَ خلقهم. و يقال جَبله عَلى كذا، طبعه عليه.
(٢) سورة الأنبياء: الآية [١٠٧].

أهل الجنة رجالاً / ونسَاءًا ، وولْدَانًا كَي يرى اسمه فِي كل مُكرم ، ٢٨٢/ب ومَحبوب ، فَيَعم حُبه كُل شَيء بِرؤيةَ اسمه .

وإنَّما خرجت البَهائم ، والنَّبات ، والآلات ، والمعادن ، والجواهر ، والأثاث ، وسائر الأشْخَاص عن هذه الصُورة المحُمدية من أجْل أنهَّا مُستخدمة ، مملوكة لبني آدم ، مَخلوقة مِن أجْلهم ، كَي لا يُستخدم اسم الحبيب ، ولا يُستذل .

فصل

فأمّا الكُفار والمخالفون ، فإنَّهم في الباطن مَمْسُوخون ، مَنْكُوسون ، فلذلك لم تُحبه بَواطنهم ، ولَو كانت بَواطنهُم فِي أَحْسَن تَقْوِيم لأحبُوه كما أحْبه غيرهم من المؤمنين .

وأمَّا فِي الظاهر فإنهم يُحبون هذا الاسم شاؤوا أم أبوا ؛ لأنَّهم خُلقوا على الفطرَة ، وأحبَّ بعضهم بَعضًا في دار الدُّنيا ، فَظَواهرُهم على أصل الفطرَة ، وبَواطنهم مَمْسوخة [١] ، فإذا كانت الآخرة ظهَر عليهم المَسْخ البَاطن ، وتغيرت خلقتهم الظاهرة ، وتَشَوَّهت صَورتهم ، كما وردت الأخبار ، والآيات بتَشْويه خلقة الكُفار ، وانْتكَاسها ، فقال عز وجل : ﴿أفَمَن يَمْشِيْ مُكبًا عَلَى وَجْهِه أَهْدَى أمَّن يَمْشِيْ سَوِيًا ﴾[٢] وقال عز وجل : ﴿وَهُم فِيْهَا كَالِحُون ﴾ [٣] .

رَوَى أبو سعيد أن رسولَ الله ﷺ قال في تَفسيرها : « تَشويه النَّار فَتُقلص شفته العُليا حتى يَبْلغ وسط رأَسه ، وتَسْتَرخي شَفته السفلى حتى تبلغ سُرّته» [٤] وفي حديث / آخر : « إنَّ الكافر ليسحب لسانه الفرسخ ، والفرسخين» [٥]. ٢٨٣/أ

(١) ممسوخة : مسخ الشيء : حول صورته إلى أخرى قبيحة ، و منه يُقال مسخه اللّه قرداً ، و منه سُمي المسيخ أيْ المشوه .

(٢) سورة المُلك : الآية [٢٢] . (٣) سورة المؤمنون : الآية [١٠٤] .

(٤) حسن صحيح : أورده الحافظ المنذري (٥٢٢٢) و عزاه لأحمد و الترمذي و الحاكم نقل قوله : صحيح الإسناد .

(٥) ضعيف : مداره على مجهول قالوا : أبومخارق و قالوا : : أبو عجلان عزاه الحافظ المنذري للترمذي و البيهقي في الشعب . الترغيب (٥٢١٦) بتحقيقي .

و الفرسخ : مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال و الجمع فراسخ .

فأي تشويه ونكس (١) يُشبه هذا ؟ .

ومع هذا كله فقد ثبت أنّ ضرسًا من أضْراسه مثل أُحد ، فإذا كان كُل ضرس من أضراسه كأحد ، وشَّفته في أواسط رأسه ، والأُخرى في سُرّته ، ولسانه يُسحب أمْيالاً أمامه فأنّى تُشبه هذه الصورة الخِلقة الإنسانيَة المصورة على صورة محمد عليه السلام ؟ .

وورد أن المتكبرين يُحشرون أمْثال الذَّر فهذا أمسخ .

وفي الصحيح أن أبا إبراهيم يَرد في صورة

وقد مسخ الله بني إسرائيل ظاهرًا في الدنيا قرَدة ، وخنازير ، فأظهر حالهم الباطن ، ومآلهم عَاجلاً فقال : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾(٢) .

وقد ورد في الصحيح أن الفارة مسخ .

وورد أيضًا أنَّ أهل النار مَمسوخون ؛ منهم على صُورة الحيَّات ، والقِردة ، والخنازير ، والكلاب ، والشياطين ، وغَير ذلك من الحَيوانات .

وكما ورد في الرَّوافض(٣) أنهَّم كلاب أهْل النَّار لاسيما مَن خُتم له بالكفر ، فإذا ظهرت الآخرة ظهرَت معاني البواطن على الظَّواهر ، فَانْتكسَوا ، ورُدُّوا فِي أسفل سافلين بعد أن كانت ظواهرهم في أحْسَنِ تقويم .

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ

(١) النكس : نكس الشيء قلبه و غيره و جعل عاليه سافله أومقدمته آخره .

(٢) سورة المائدة : الآية [٦٠] .

(٣) الروافض : جمع رافضي : فرقة من الشيعة تُجيز الطعن في الصحابة . و سموا بذلك لأنهم رفضوا نُصح زيد بن عَلي حين نهاهم عن الطعن في الشيخين أبي بكر وعمر .

سَافِلِينَ ﴾[١] وقال : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ﴾[٢] فافهم هذا فإنه/ ٢٨٣/ب لا يَبقى على جمال صورة هذا الاسم الكريم المحمدي إلا أهل الجَنّة ، فيُحب بعضهم بعضًا لبقاء هذه الصورة المُلائمة فيهم ، رجالاً ونساءً ، فليس فيها مَسْكن ، ولاَ قَصر ولا مَوضع إلاَّ وصورة هذا الاسَم فيه ، ومَحبته شائعةَ في الجميع ، وكُل ما في الآخرة ، والجنة مما هو على غير هذه الصورة فإنه مملوك مستخدم لمن هُو على صورة هذا الاسم من لباس ، وقُصور ، ومَراكب ، وأنهار ، وأشجار ، وغَير ذلك من سائر المُتحوَلات .

وقد أُلف في حُسن صُورة جسد نبينا محمد علَيْه السلام تواليف ، وبَينوا فيها ما ظهر لهم من حاله ؛ فإن رسول الله ﷺ أجمل العالمين صُورة ، خلقه الله كذلك لأجل الحُبّ لَهُ عَلَيْه السَلام .

فَإن الجَمال مَحبوب ، ولئلا يَقع بصر أحد من الخلق على شيء من جسده فيكرهه أو يَذمه ، فيعود بذلك كافرًا ، فافهم .

وحُسن يُوسف عليه السلام ، وغيره جُزء من حُسنه ؛ لأنه على صُورة اسمه خُلق كما تقدم ، ولولاَ أنَّ اللهَ ستر جمال صُورة محمد ﷺ بالهَيبة[٣] ، والوَقار[٤] ، وأعمى عنه آخرين ، لما استطاع أحد النظر إليه بهذه الأبصار الدُّنياوية الضعيفة ، وقد وقعت لعائشة - رضي الله عنها - إبرة في ظلمة الليل في بَيتها ، فرأتها وأبْصرتها ، بنُور ضياء وجهه محمد ﷺ .

وفي الصحيح أن وجهه كان مثل الشمس ، ومثلَ البَدر[٥] ، وعلى

(١) سورة التين : الآية [٤ ، ٥] .
(٢) سورة يس : الآية [٦٧] .
(٣) الهيبة : الإجلال والتعظيم .
(٤) الوقار : الرزانة و الحلم .
(٥) البدر : القمر ليلة كماله .

قدر ما يستطيع كل أحد أن ينظر إليه ﷺ / . ٢٨٤/أ

ومنهم مَن لم يكن يملأ عَينيه منه ، وروى أنس وغَيره في صفته عليْه السلام ، قال : « كان رَبعٍ[(١)] مع القوم ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتردد » هذا لأن القصير يُحقر[(٢)] ، والبائن جداً في الطُّول يُمل[(٣)] ، ويُسْتَثْقل « ولَيس بالأبيض الأمهق[(٤)] ، ولا بالآدم[(٥)] » لأن السُّمرة فيها سواد ، والأبْيض الأمهق شبيه بالأبْرص[(٦)] ، وذلك كله مكروه ، « ليس بجعد[(٧)] قطط[(٨)] ، ولا سبط[(٩)] » والجعودة شبيه لشعور السودان[(١٠)] ، والسُّبوطة مثل شعر الروم[(١١)] ، وليس مِن الجمال الكامل هذا كُله ، كي لا يُكره شَيء منه .

وكذلك ورد أنه مَات ، وليس في رَأسه عشرون شعرة بيضًا ، أي مات ولم يظهر عليه الشيب ببياض رأسه ولحيته . والنساء يكرهنَه من الرجال ، ولا وصَل منه حَد الهِرَم[(١٢)] المُسْتَثْقل الذي كان يتعوذ منه في حياته .

فانظر كيف لم يظهر عليه شيء من الأشياء التي تظهر على أهل الهِرَم

---

(١) الربع : وسيط القامة .

(٢) يُحقَّر : يُستهان به .

(٣) يُمل : يُسْئَم منه .

(٤) الأمهق : الذي لونه أبيض ناصع البياض بغير حمرة ، و هو معيب في لون الإنسان .

(٥) الآدم : الأسود شديد السواد .

(٦) البرص : بياض يقع في الجسد لعَلَّة .

(٧) جعد : اجتمع و التوى (٨) قطط : قصير .

(٩) سَبِط : شعره مسترسل .

(١٠) السودان : بلد أفريقية تقع عَلى البحر الأحمر أهلها سود البشرة مجعدين الشعر .

(١١) الروم : جيل من ولد الروم بن عيصو شعورهم ناعمة مسترسل على أعناقهم .

(١٢) الهرم : أقصى الكبر .

كي لا يُكره ، ولا يُستثقل منه شيء فيكون ذلك كُفرًا ، فَجَمالُه رَحْمَة عظيمة بالرِّجال ، والنساء دُنيا وآخرة .

« وكان بعيد ما بين المنكبين »[(١)] هذا ليعظم في النفوس ، ويكبر في الصُدور ، فيُحَب ، وضد ذلك مكروه مُستحقر ، وفي الحديث : « ما مسست ديباجة[(٢)] ، ولا حريرة / ألين من كف رسول الله ﷺ » هذا لأن ٢٨٤/ب
الجروشة[(٣)] والخشونة مستثقلة مكروهة في اليد ، « ولا شممت رائحة من مسكة ولا عنبرة[(٤)] أطيب من رائحة رسول الله ﷺ » هذا لأن الريح [ ][(٥)] للطيِّب مكروه ، وكان ريحه أطيب من المسك ، والعنبر لا لئلا يساويه أحد في الطيب لا مسك ، ولا غيره ، فيحب ريح كل شيء كريحِه فيُساويه في الحب لِمُساواته في الطيب .

« وكان طَليع الفَم » أيْ عظيم الفم ؛ لأنَّ صغير الفم وضيِّقه مُستقبح جدًا ، « وكان أشْكَل العَينين » يعني طويل شق العَينين ، هذا أيضًا لأن ضيق العَينين ، ودقها عيْب ، ومكروه في الجمال « وكان مَنْهوش العَقْبين »[(٦)] يعني قليل لحم العقب ، وهو أجمل شيء في الرجال ، وإنما يُستحسن كثرة اللّحم في الأعقاب ، والمؤاخر في النِّساء .

وعلى الاخْتصار : فإن وصفَه ، وخَلَقه في أحسن صورة ، وأجمل تركيب ، فلا يقع بصر عليه ، ولا يسمعه أحد إلَا أحبه ، ولم يكن فيه شيء

---

(١) المنكبين : مجتمع رأس العضد و الكتف .

(٢) الديباج : نوع من الثياب سُداه و لحمته ناعمة مثل الحرير .

(٣) الجروشة : الخشونة الشديدة .

(٤) العنبر : من العُطور طيب الرائحة .

(٥) بياض بالأصل مقدار كلمة .

(٦) العَقب : هو عظم مؤخرة القدم ، و هو أكبر عظامها .

تُعثر فيه العَين ، ولا ما يُعاب ويُكره ؛ لأنّ مَن كره شيئًا منه ، وعابه فهو كافر ، حتى أن المرأة قد شربت بَوله ، ولو وجدت له طعم البول ، لما أدخلته جوفها ، ولكرهته .

وقالت عائشة : « كُنت أدْخل الخلاء بعد خُروج رسولِ الله ﷺ / منه فأجد رائحة المسك »(١) . ٢٨٥/أ

وكذلك مَنِيُّهُ عليه السلام ؛ كانت عائشة - رضي الله عنها - تَفْركه ، وما ورد في الأخَبار من غُسله فإنما ذلك على وجه التَّنظيف للثِّياب ، كما كان يغسل يده عليه السلام تنظفًا ، هذا خصوص له دون غيره .

وكذلك في مَوته لم يظهر عليه شيء يكرهه مما يَظهر على الأمْوَات ، بل كان طَيبًا حيا وميتًا .

وكذلك ثيابه كان يُعجبه الدُّون من الثياب ، وذلك لأنه في دار العُبودية ، فكان يَلبس فيها ما يوافق البذاذة العبودية ، فكان بذلك في أجمل صورة في دار الزهد ، والتعبد ، وقد قال(٢) الفقهاء - رضوان الله عليهم- : « من قال إن ثوب النبي وسخ يريد بذلك عيبه قُتِل كُفْرًا ، لا حدًا» .

فقد تبين أنه خُلق في أجمل الصُوَر ، ولباسه وأُموره كلها أجْمل الأُمور ليُحَب ، فإن الجمال مَحْبوب ، ولا يُكره ، فيكون ذلك كُفرًا .

فهذا اختصارُ وَصْفِه ظاهرًا ، فجاءت صِفاته وأعضاؤه الظاهرة في

(١) موضوع و منكر نكارة شديدة ظاهرة ، و فيه نظر بعيد جداً .
إنَّما الرسُول -ﷺ- و إخوانه الرُّسل بشر يأكل كما نأكل و يمشي في الأسواق ، و يعتريه ما يعتري البشر بَيْد أنه معصوم من الذنوب ، اصطفاه اللّه و هداه إلِى صراطه المُستقيم .
(٢) في الأصل : [قالت] .

غـاية الحسن ، والجمـال المحبـوب ، مُنَزهة عن كل شيء دقّ أو جَلّ من الشيِّن(١) والعَيب المكروه .

(١) الشَّيْنُ : ضد الزين ، و هو الأمر المُستقبح المكروه .

فصل

وأمّا جمال ذاته الباطنة ، وروحه المُقدس فمن ذا الذي يَصفه من المخلوقين، وقد أثنى عليه ربُّ العالمين فقال / : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(١) ٢٨٥/ب
ولا أعظم مما عظّم اللَّه ، فالخُلُق صفات ذاته الباطنة ، وقد ردتْ عائشة - رضي الله عنها - في الصحيح في تفسير قوله : ﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قالت : « **كان خُلُقُه القُرآنَ** » (٢) .

والقُرآن هو النور المبين الذي فيه يُستمد كُل نُور في الوُجود ، والقُرآن هو الجامع للأسْمَاء والصفات الرَّبانية، القائمة بجميع الأشياء ، أوجد اللَّه عن كل معنى من معاني أسمائه وصفاته القديمة معاني مُحدثة بها في العالمين، فأوجد العلم عن معنىَ علمهَ ، وَالرحمة عن رحمته ، والنُّور عن نُوره ، والكرم عن كَرَمه ، والحلمَ عن حلمه ، وهكذا جميع أسْمائه ، وصفاته ، فَخلَقَ نُور محمد وَذاته الباطنَة عن معاني القرآن ، وخلق كُل صفَة محمودة فيه ، والقرآن جامع المعاني الكُتب كُلها ، والمُهيمن عليها ، ولذلك يُسمى قُرآنًا .

والقُرء هو الجمع ، فهو جامع لكل نور وخير وبركة ، وحسن وجمال، ومنه يُستمد جميع العوالم .

وقد ورد في الأخبار أن أول ما خَلَقَ الله نُور محمد عليه السلام ، يَعني ذاته النُّورانية الباطنة ، ورُوي عنه عليه السلام أن « **الله خلق الأرواح قبل**

---

(١) سورة القلم : الآية [٤] .

(٢) **صحيح** : رواه مسلم من طريق قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن عائشة -رضي اللَّه عنها- راجع تفسير القُرآن العظيم (٤/ ٤٢٣ : ٤٢٥) .

الأجساد »[1] وقال عليه السلام « كُنتُ نبيًا وآدم بين الماء والطين »[2] وقال : «أنا أول الأنبياء خَلقًا ، وآخِرُهم بَعثًا »[3] ورُوي عن عالم الأمة / علي بن أبي ٢٨٦/أ
طالب - رضي الله عنه - أنه قال : « إن الله تعالى حين شاء تقدير الخليقة ، وذرأ[4] البريّة ، وإبداع المُبدعات نصب الخلق في صُور كالهباء[5] ، قبل دَحو[6] الأرض ورفع السماء ، وهو في انفراد ملكوته ، وتوحد جَبروته ، فأشاع نُورًا من نُوره فلَمَع قَبس من ضيائه فَسَطع ثم اجْتمع النُّور في وسط تلك الصور الخفية ، فوافق ذلك صورة نبينا محمد ﷺ فقال الله عز وجل : « أنت المُختار المُنتَخَب ، وعندك مُستودع نوري وهدايتي » .

ثم أخفى الخليقة في غيبه ، وعيّنها في مكْنون[7] علمه ، ثم نَصَب العَوالم ، وبَسط الزمان ، ومزج الماء ، وأثار الزبد ، وأهاج الرِّيح ، وطفا عَرشه على الماء ، فسَطح الأرض على ظهر الماء ، ثم أنشا الملائكة من أنوار ابْتدعها ، وأنوار اخْترعها ، وقرر بتوحيد نبوة محمد ﷺ ، فشهدت في السماء قبل مَبعثه في الأرض ، يَعني نُبوّته » .

ثم ذكر كلامًا كثيرًا تركته لطوله ، ثم قال : « ولم يزل الله يَحْبُو النُّور تحت الزمان إلى أن فَضَّل محمداً طاهر القنوات[8] » ، ثم قال - رضي الله

(١) موضوع : راجع تنزيه الشريعة (١/ ٣٦٨) ، و الموضوعات لابن الجوزي (١/ ٤٠١) ، و اللآلئ (١/ ١٩٩) ، والفوائد المجموعة (٣٨٢) .

(٢) موضوع : راجع تنزيه الشريعة (٢/ ٣٤١) ، و أحاديث القصاص لابن تيمية (٢٩) ، و تذكرة الموضوعات (٨٦) ، و كشف الخفا (٢/ ١٩١) ، و الأسرار (٢٧١ ، ٢٧٢) .

(٣) موضوع : مخالف لظاهر الكتاب من خلق آدم - أول نبي - أبي البشر أولاً .

(٤) ذرأ : أي خلق . و في القرآن الكريم : ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُم فِي الأَرْضِ﴾ .

(٥) الهباء : التراب الذي تطيره الريح ، و قد يُثبت في الهَواء فلا يبدو إلا في ضوء الشمس .

(٦) دَحو : دحى الشيء دحواً : بسطه ووسعه . (٧) مكنون : مستور ومختفٍ .

(٨) القنوات : جمع قناة ، و هي المجرى الذي يجري فيها الماء ، و المعنى أنه - ﷺ - قد فُضل على غيره و فضله ظاهر كما تَظهر القنوات في الأرض .

عنه - : « فَدَعَى الناس ظاهرًا ، وباطنًا ، وندبهم سرًا وإعلانًا ، واسْتدعى عليه السلام المُثَبَّتَة على العهد الذي قدمه إلى الذر قَبل النسل ، فمن وافقه قبس من مفتاح النور المتقدم / اهتدى إلى سِره واستَبشر واضح أمره ، ومَن ٢٨٦/ب
ألبَسته الغفلة استْحقه السَّخط .

فقد أعلْمك - رضي الله عنه - أن النبيَّ ﷺ عُقدَت له النبوة قبل كل شيء ، وأنه دَعى الخليقة عند خلق الأرواح وبدء الأنوار أن الله ، كما دعاهم آخرًا في خِلقه جسده آخر الزمان [1] .

ومِن هذا المَعنى قَوله تعالى :

﴿ وإذْ أخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّنَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنصرُنَّهُ ﴾ [2] إلى آخر المعنى ، فقد آمن الكل به ، فهو آدم الأرواح ، ويعسوبها كما آدم أبو الأجساد وسببها .

وكذلك ورد في الأخبار أن نور السموات من نور محمد ونور القلم من نور محمد ، ونور العرش من نور محمد ، ونور اللَّوح ، والعقل ، ونور المعرفة ، والبهاء والشمس ، والقمر ، ونور الأبْصار من نور مُحمد ﷺ [3] .

---

(١) و هذا الخبر المذكور عن علي -رضي اللّه عنه- في غاية النكارة وكان أولى للمصنف -بل يجب- أن لا يعرج على هذه الأخبار المنكرة التي ليس لها معتمد من مصنف مشهور أو موافق لظاهر الكتاب العزيز ، إنَّما بابه هذه الأخبار المصنفات الرديئة لأهل البدع و جهالة المتصوفة و الزنادقة من المتكلمة أمثال ابن العربي الطائي و ابن سبعين و غيرهما من أئمة الضلال .
فالحذر الحذر أن ننساق وراء تلك الأخبار التي لا تسمن و لا تغني من جوع . و قد أجاد المصنف في وضع هذا الكتاب لولا تلك الأخبار ، والكمال لله .

(٢) سورة آل عمران : الآية [٨١] .

(٣) **رحمك اللّه أيها القصري** ، أحكمت بناءك لهذا الكتاب لولا هذه الأخبار المكذوبة علَى رسول اللّه ﷺ فليحذر المُسلم أن يُحدث بمثل هذه الأباطيل فمن كذب علَى رسول اللّه ﷺ متعمداً فليتبوأ مقعده من النَّار . و عليك الحجة -أخي القارئ- أن تحدث بهذه الأباطيل وقد علمت حكمها .

وقال سَهل بن عبد الله التَّستري في كتاب التفسير له في قوله ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾(١) قال : الأفق المبين ما وَراء الدُّنيا ، والآخرة ؛ أيْ رأى ربَّه في عبادته له قبل بدء الخلق بألف عَام بطبائع الإيمان ومُكاشفة الغَيب بالغَيَب ، بالعَمود الكَثيف الذي خلق الله منه العرشَ ، والكُرسيّ ، وجميع الأَنوار . أَلا تراه كَيف خبّر عنه في قوله : ﴿ وَلَقَدْ رَآه نَزْلَةً أُخْرَى ﴾(٢) ﴿ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ﴾(٣) فقد تبين أن نور الوجود ، وجماله ، وخَيره في الباطن ، والظاهر إنما استْمد ، ويُستمد من نور ذاته الباطنة (٤) .

وقد سمّاه سراجًا مُنيرًا في قوله :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلى اللَّه بِإِذْنِه وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(٥) كما قال في الشَمس : « سراجًا » ؛ فذاته شمس الوَجود ، مهما يُستمد من جماله ونوره ، وحُسنه كُلِ موجود ، فكما أن الأبصار تُستمد من أشعة الشَمس المُنْبثة من القُرص إلى أقْطار العالم ، فيُرى بنُورها ، ويظهر ، وينبين كل شيء فكذلك تستمد العقول ، والبصائرَ والذَّوات من ذات المُصطفى النورانية ، التي هي شمس الوجود وسراجه فافهم .

فأول ما خلق الله نُوره عليه السلام ، في البدء ، فكان بذْرة الوجود ، وأقرب موجود ، وهو مقام الحبيب من الحبيب ، ثم نشأ عنهاَ الوجود كله ، كما تنشأ الشجرة عن البذرة ، حتى كَمُلَت الموجودات الكليات ، ثم خلق

(١) سورة التكوير : الآية [٢٣] .

(٢) سورة النجم : الآية [١٣] .

(٣) سورة النجم : الآية [٧] .

(٤) و إن كان سهلاً بن عبد اللّه من الأئمة المرضيين عند أهل السنة ، إلا أن ما ذكره مخالف لظاهر التفسير ، و قد وردت الأخبار ببيان ما في معاني الآية ، فلا يلتفت لحس باطن ، أو و جد مع النص . فكن أخي على اليقين و الحذر في تأويل القُرآن .

(٥) سورة الأحزاب : الآية [٤٥ ، ٤٦] .

آدم ، وَوَلده ، والنُّور يمد الكل من الأصل ، حتى ظَهر جَسده الظاهر في آخر الدنيا ، وكمال الخلق ، كما تظهر ثمرة الشجرة بعد كمالها ؛ فهو الأول، والآخر وعليه تقوم الآخرة ؛ لأنه الآخر كما عنه نشأت الأوائل ؛ لأنه الأول كما بظهور منزلته ، وعظيم شرفه ظهرت رُتبته ، ومَنزلته على المنازل ، وظهر دينه على الدِّين كله ، فكان هو الظاهر ، كما بتوسّله ، وخفي أسراره في مَقامات شفاعته ، خفيت أسراره مع حبيبه في غيب الغيب بدخوله عليه وحده كما يدخل الملك / . ٢٨٧/ب

فكان هو الشفيع للكل، والمُطَّلِع على السِّر ، والمُحدث في الغيب ، والمتوسل بالوسائل لخَليله (١) في الغيب عن الخِل (٢) ، لا يقوم ذلك المقام غيره شفاعة الغيب ، ورحمة للكل، فكان هو الباطن في درجات الحب ، وغيب القرب ، فكان أولاً ، وآخرًا ، وظاهرًا ، وباطنًا ، أول في الخلقة والتقدمة ، آخر في البعثة، ورجوع الكل إليه ، وانتظارهم ليومه ، وظَاهر في المنزلة ، وباطن في الوسيلة .

---

(١) الخليل : الصديق الخالص .

(٢) الخِل : الصديق المختص .

فصل

انظر قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾(١) والعالمُون هُم جميع الخَليقة ، فقد أنذر الخليقة أجمع ، وآمن الكل به في الأولية ، والآخرية ، وانتقال النور في جميع العالم ، من صلب إلى صُلب فافهم .

وانظر قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾(٢) كذلك مع قوله عليه السَّلام « إنَّ اللَّهَ قَدَّر مَقَادير الخَلائق قبل أنْ يَخْلُقَهم بِخَمْسين ألف سنة »(٣) فقد أنزل عليه أيضًا في ليلة القَدر حين قُدِّرت المقادير ، والخَلق في ظُلمة ليل العَدم ، ففي تلك الليلة أنزل عليه القُرآن حين انفصالها بظُهور فجر يوم الإيجاد والإنشاء ، حين بدأ نُورُه قبل الأشياء ، فأضاءت الأضْواء بانْفجار أنواره عليه السلام ، المُقْبَسة من نور القرآن ، وإلى عبادته الأولى الإشارة في حقائق قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾(٤) ردًا على مَن نسب إلى الله الولد .

١/٢٨٨ مَعنى ذلك / لو كان لله ولد كما تزعُمُون فأنا كُنْت أحق بذلك من غَيري ؛ لأنِّي أول العابدين ، لأنِّي أول مَخْلوق (٥) ، ولسْتُ أدَّعي أني

---

(١) سورة الفرقان : الآية [١]. (٢) سورة الفرقان الآية (٣٢) .

(٣) **صحيح** : انفرد به مسلم من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه- . راجع تفسير قوله تعالى ﴿ إناكل شيء خلقناه بقدر ﴾ تفسير ابن كثير (٤/ ٢٨٢ و ٢٨٣) .

(٤) سورة الزخرف الآية (٨١) .

(٥) ما ورد في هذا إلا حديث ضعيف أو موضوع ، فانتبه ، فإن مثل هذا لا يثبت إلا بنقل صحيح ولا يوجد .

ولده؛ بل أنا عبده ، فكيف يَنْسبون إلى غيري النبوة ، وهو لم يشهد من القُرب مَنْزلتي ، ولا من المكانة مَكانتي ، ولا من الأولية أوليتي .

وانظر أحاديث الإسراء أيضًا ، والآيات الواردة فيه ، فقد ركب البُراق ، ورَقَا المعْراج ، وركب الرَّفرف ، وجاوز مقامات الأملاك ، والأنبياء إلى أن كَان قاب قوسين أو أدْنى ، فإنما صعد عليه السلام إلى مقامه الأول الذي هو بدء النور الذي خُلق منه العَرش من نوره الأول الذي ليس بَيْنه وبَيْن اللَّه واسطة للوُجود كُله ، ومن هذا نفهم حديث قتادة الذي ورد : « أنّ الله يُجْلَس مُحمداً ﷺ على العَرش » لاسْتغْنَائه هو جل جلاله عن العالمين ، فيُقْعده مكان الربوبية ، ويهب مُلكه له لَاسْتغنائه عن الكل فيكون مُشَرَّفًا على الوَجود كله ؛ لأنّ الوجود من نوره ، ومن جماله استنار[1] .

فإذا فهمت هذا كله على الإجمال علمت أن كل حُسن في الوجود ، وكل جمال ، فمن نوره يُسْتمد ، ولَيست تظهر مَنزلته عليه السلام التي ظهرت لأهل العلم إلا في الآخرة لعُموم الخَلق ، وعُموم العُلماء ، فهو أفضل الخليقة ، وهو رحِمة للعالمين ، وعليه أُسْبغت[2] / جوامع النِّعم ، ٢٨٨/أ
وخُلعت حُلَل الجُود ، والكَرم ، وكان فضل الله عليه عظيمًا ، وهو الملقن للمحامد ، والثناء على ما أوتي من النِّعم ، والفضائل ، فقيل له محمد على وزن مُفعّل أي مُفعل بالمحامد ، يحمد على ما أعطي ، وقيل له أحمد على وزن أفعل ، أي أحمدَ من غيره ، فكان أكثر الخلق حمداً .

---

(١) أين هذا من قول الله تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ . . . ﴾ ، وقول النبي ﷺ : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم » ، وما وقع الناس في الشرك إلا من باب الغلو في الأنبياء والصالحين ، فتنبه أيها القاريء الكريم ، فلم يأت عن رسول الله نص يدل على هذا الإطراء والغلو النهي عنه .

(٢) أسبغت : أكملَ وأتمَ .

فلذلك كان لواءُ الحمد بيده ، والذي يَسْتَظل تحته كل حامد ، واللِّواء هو الراية والعلَم ، فيكون عَلَمًا لمَا جُعلت عليه من حرب أو غيره ، فيُعلم الناس ويريهم مَوضع الأمير ، وكَونه ماشيًا أو قائمًا تحتها ، أو أمامها .

وقال النبي ﷺ : « **لِكُلِّ غَادرٍ لواءٌ عند إسْتِه يُعرف به** »[1] وخص الغادر أنه عند إسْته - وهي سَوءته - لأَنه يعلم ويعرف بسوءات الغادر ، وقُبح غَدَراته ، فلواء الحمد أيضًا مُعْلمٌ بإمامة مُحمد ﷺ للكل ، ولمقاماته الشريفة التي يحمده عليها الأولون والآخرون في المقام المحمود .

منصوب على رأس محمد عليه السلام ، على رأسه تاج الوقار ، والهَيبة ، توقيره لربِّه ، وإجلاله له ، وتوقير الله له ، وإجلاله له حين خصه بما لم يخص به أحدًا ، وعليه حلل الكرامة ، وهي خلعات الجُود من الملك المَعبود في المقام المحمود ، فألبسه بذلك حُلل الثناء ، والمحامد ، فكان لباسًا لم يَلبسه أحدًا غيره ، وتَحْتَه البُراق العظيم يَلوح لَونه في آفاق[2] عَرصات[3] القيامة .

٢٨٨/ب كما يلوح البَرق بين / السماء والأرض بمركبه العظيم العالي الذي خَصّ به وحده ، في رجليه نَعلان من نور ، يُسمع صريرهما بين الخافقين ، والكل راغبون إليه في الشفاعة ، لاتِّساع جاهه ، وعظيم مَنزلَته عند حَبيبه ، فهذا جمال لا يُوازنه جمال ، وكمال لا يُدانيه كمال ، فهو حبيب رب العالمين ، وسيد المخلوقين .

---

(١) صحيح : متفق عليه من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - البخاري آخر كتاب الجهاد وقرن ابن عمر بأنس - رضي الله عنهم - ، ومسلم في الجهاد (١١ و ١٢) .

(٢) الأفق : خط دائرى يري فيه المُشاهد السماء كأنها ملتقية بالأرض ويبدو متعرجاً على اليابس ومكونًا دائرة كاملة على الماء .

(٣) عرصات : ساحات .

قال الله عز وجل :

﴿ ومَا أرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً للْعَالَمِينَ ﴾ (١) فهو المرحوم به العالم بنص هذه الآية ، فإن شئتَ أن تفهم كونه رحمة للخلائق فاعلمْ مع ما تقدم أنه حبيب الله ، المَخْصُوص بمَقام المحبة العُظمى ، فكل قَلب وروح أحبه من جميع الخلائق ، انقلب مع روحه الكريم في غيب الغَيب .

كما قال : « إنَّ الأرواح أجنادٌ مُجَنَّدة ، فما تقارب منها ائتَلَف ، ومَا تَنَاكَرَ منها اختلَف » (٢) فانفعلت أرواح العالم كله بالمحبة له ، على حبه له ، وكان أمير الأرواح كلها وسيدها ، واجتمعت على محبته كاجتماع النحل على يعسوبها وهو ملك النحل ، الجامع لها ، فاجتمعت الأرواح على حبه ، وعلى دينه ، وتوحيده ، وحب خالقه ، إذ هو الداعي إلى التوحيد في الأزلية لجميع الأرواح ، وفي كل مكان .

فكان ذلك من الأرواح إجماعًا واجتماعًا عليه ، والإجماع في الإيمان ، والتوحيد سبب الرحمة ، كما ورد في الخبر : « الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب » .

فرُحم الكل به ، صلوات / الله عليه وسلامه ، إلا من شذّ ، وأبَى أن ٢٨٨/ب
يَقْبل الرحمة ، وهم الكفار به ، وهم أقل في العالمين من الذرة في الوجود كله .

فإذا تحققت هذا كله علمتَ أنه رحمةٌ للعالمين ، وأن كل خير ، ونور وبركة شَاعت وظَهرت في الوجود ، أو تظهر من أول الإيجاد إلى آخره إنما

(١) سورة الأنبياء :[الآية : ١٠٧] .

(٢) إسناده ضعيف : صحح الحاكم إسناده ٤/ ٤٢٠ من حديث معاذ بن جبل ، وتَعقبه الذهبي بعبد الأعلى من أبي المساور قائلاً : تركه أبو داود .

هو سببه ﷺ فوجب حبه لإحسانه للكل ، وبحُسن ذاته في كل مقام ، وموطن ، فقد أحسنت ذاته لجميع الوجود ، وتجلى جمالُها في جميع جهَات العالَم ، فالوَيل لمن خاب منه وخسر .

وقد ورد عن بعض عُصاة بني إسرائيل أنه عصى الله عُمره كله ، ومَقَته أهلُ زمانه لكثرة عصيانه ، وقلة فعله للخير ، واجْتبا به ، فمات ، فأعلمه الله أنه من أهل الَجنة ، وأن الَله قَد غفر له ذُنوبَه ، فسُئل عن سبب مَغفرته فقيل : إنه فتح التوراة يومًا فرأى فيها اسم محمد مكتوبًا ، فقبله ومسح به وجهه تبركًا به ، وحُبًا له فغفر الله له جميع ذنوبه من أجل تعظيمه اسم محمد حبيبِ الله ، فحبُّه أحسن الحسنات .

والناس في حبه مقامات ، ودرجات ، فأحبهم فيه أتبعهم لسُنته في الظاهر والباطن ، والمقامات والأحوال لقوله عليه السلام في حديث لأنس : قال : قال رسولُ الله ﷺ : « مَن أحيا سُنَّتي فقد أحبَّنِي ، ومَن أحبَّنِي كان مَعِي
٢٨٩/أ في الجنة »[١] فهذا أفضل الحب ؛ لأنه / يوجب . . . . .[٢] معه في مقامات الجِنان ، والرفيق الأعلى .

وأقلهم رتبة في الحب المتلطخ أمثالنا في أوساخ المعاصي ، والمخالفات، المتعلق ، بمجرد حب القلب القاسي ، كما تقدم في حب الإسرائيلي العاصي ، وحبه نافع على كل حال ، وليس مثله عمل من الأعمال .

جعلنا اللهُ وإيَّاكم من خاصة أحبابه ، في عافية شاملة في الدُّنيا ، والآخرة ، آمين آمين .

---

(١) ضعيف : تقدم تخريجه في الشعبة الماضية .

(٢) بياض بالأصل مقدار كلمة .

ومن علامات حُبه كثرة الصلاة عليه ﷺ ، وعلى آله أفضل الصلوات وأزكاها وأطيبها ، وأنماها ، صلاةً جامعةً لأنواع الآلاء ، والأنعام ، ودائمة بِدوامِ ذِي الجلال والإكرامِ آمين ، آمين ، والحمد لله رب العالمين .

الشُعبة الحادية والخمسون

الحُبُّ في اللّهِ

أمّا كَون هذه الشعبة من الإيمان فبيِّن جدًا ، فمن ذلك ما ورد أنَّ أوثقَ عُرَى الإيمان : الحبُّ في الله ، والبُغْضُ في الله . وعن أبي ذر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « أفْضلُ الأعْمالِ الحبُّ في اللهِ ، والبُغْضُ في الله »(١) فجعل ذلك أفضل أعمال الإيمان .

وروَى أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لاَ يُؤْمنُ أحدُكم حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه »(٢) وقوله : « ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجد حلاوةَ الإيمانِ ، مَن كان اللهُ ورسولُه أحَبَّ إليه مما سِواهما ، ومَن أحبّ عبدًا لا يُحبُّه إلا لله / »(٣) ٢٨٩/ب .... الحديث .

والشواهد على هذا كثيرة جدًا .

---

(١) إسناده ضعيف : رواه أبو داود وأحمد من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - وفي إسناده راوٍ لم يسم ، قاله المنذري في الترغيب (٤٢٩٣) بتحقيقى .

(٢) صحيح : متفق عليه من حديث أنس - رضي الله عنه - البخاري ١/ ١٠ ومسلم (٧١) كلاهما في « الإيمان » .

(٣) صحيح : تقدم تخريجه في الشعبة السابقة .

فصل

اعلمْ أنَّ هذا الباب يَنْتظم من ثلاثة أشياء : مُحبّ ، وهو العبد ، وحُب وهو حاله ، ومَحْبوب ، وهو على أنواع كثيرة ، وهم المؤمنون عُمُومًا ، وخُصوصًا .

وهو على ثلاثة أقسام : قِسم في عالم الدُّنيا ، ومقام الإسلام ، وقِسم في عالم الآخرة ومقام الإيمان ، وقِسم في مقَام الإحْسان .

فأما القِسم الأول في عالم الدُّنيا ، ومقام الإسلام فيُحب العبد أهل الإسلام على إسلامهم ، ويحب لهم الصلاحَ في دينهم ، ودُنياهم ، ويَودُّ أن لو كانوا في غاية من صلاح الدِّين ، وغاية من العافية الدُّنيوية حتى لا يُصيبهم فيها مكروه ، وبذلك ينتفي عنه الحسد وغير ذلك من الصفات المُهلكة .

وميزان ذلك أن ينظر ما يحب لنفسه في ظاهر دُنياه من أمور دينه ، ودنياه فيحب ذلك لغيره من المؤمنين ، هذا ميزان عدل .

وأما القسم الثاني في مقام الإيمان : فيحب كلَّ مؤمن في عالم الغيب من الملائكة ، وأهل البرزخ من النبيين ، والمؤمنين ، فيكثّر الصلاة على الملائكة ، والنبيين ، ويُكثر الدُّعاء لسائر المؤمنين بالمغفرة ، والرحمة ، وأن يُنور الله قلوبهم ، ويُؤنس وحشتهم ، ويُفَرج كُروبهم .

وميزان ذلك أن ينظر كيف يحب أن يكون في الآخرة إذا قدم عليها ، فليحب ذلك لكل مؤمن فيها ، ويَدعو لهم بذلك . فهذا ميزان عدل لا

جَور(١) فيه .

٢/أ وأمّا القسم الثالث / في مقام الإحسان فهو أن ينظرَ إلى إرادة الله في الأزل لأهل الإيمان به ، وتخصيصهم بالهداية ، وإكرامهم بالولاية ، وحبه لهم ، فيُحبهم لحب الله لهم ، لا لغرض ، ولا لعرض ، بل لأنهم أحباء الله ، وأولياؤه ، وينظرهم بعين التَوقير والإجلَال ، كما أجلهم الله ، وقرّهم ، ويُكرمهم كما أكرمهم الله ، وهذا ميزان عظيم في تعظيم حُرمات المؤمنين ، كلهم على اختلاف أنواعهم .

فإذا فهمت هذا فاعلم أن المَحْبوبين على أنواع كثيرة :

فأول تلك الأنواع ملائكة الله الكرام صلوات الله عليهم ، وسلامه على جميعهم ، فهم أحباء الله وخُدامه ، فوجب حُبُّهم لمَعْنيين : أحدهما كثرة إحسانهم إلى الخَلق ، والثاني لذَوَاتهم ، وما خُلقوا به من جمال الطاعة ، والعفة ، وحُسن الهَيئة ، وجمال الصورة .

فأما حبهم لذواتهم فإن الله يقول فيهم :

﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أمَرَهُم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(٢) ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾(٣) وقال : ﴿ بِأيْدِيْ سَفَرَةٍ ، كِرَامٍ بَرَرَة ﴾(٤) فوصفهم بأحسن وصف وأجمل نعت .

قال عليٌّ رضي الله عنه : إنّ للّه ملائكةً لو أنّ ملكًا أهْبطَ إلى الدُّنيا ما وسِعَته لعِظَمِ خلْقَته ، وكَثرة أجْنحَته ، ومنهم مَن لو كُلفت الجنّ ، والإنس

(١) الجور : يقال جار عن الحق : أي مال وعدَ عنه ، وفي حكمه ظلم .

(٢) سورة التحريم : [الآية : ٦] .

(٣) سورة الأنبياء : [الآية : ٢٠] .

(٤) سورة عبس الآية (١٥ ، ١٦).

أن تصفه ما وصفته لبُعد ما بين منْكَبيه ، ولحُسن تركيب صورته ، ومنهم مَن
٢٩٠/ب لو تلقى في .. .. إبْهامه جميع مياه / الدنيا لوسعتها ، ولو ألقيت السُّفن
في دموع عينيه لجرت دهر الداهرين ، فهذا بحر لا يُدرك غوره [١] إلا لقيه قد
لاح [٢] » .

وتبين للعقول ، وإن لم يُشاهدوا بالأبصار فضل ذواتهم النيِّرة ، وجمال صفتهم حتى شبهت النِّسوة يُوسفَ الكريمَ الجَميلَ بهم ، فقُلن : ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[٣] .

وقد تبين لكل كامل العقل ، وناقص ، حُسنُ أخلاقهم ، ورقةُ قلوبهم ، ورحمتُهم لأهل الأرض وشفقتُهم عليهم في قوله عز وجل :

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ﴾[٤] إلى آخر المعنى .

فقد جمعوا كل فضيلة ، فهم في غاية الفضل والحسن والجمال .

وأما حُبُّهم لإحسانهم إلينا ، وقد جبلت القلوب على حبِّ مَن أحسن إليها ، فهم خُدام الملك ، والملكوت ، وهم في العالم كالقُوى في جسد ابن آدم ، ولو زالت عنه القُوى لهلك من ساعته ، وكذلك الأملاك هم المحركون للعالم ، والمتصرفون - بإذن الله وقُوته - فلَيس يأتينا خير إلا على

---

(١) غوره : عُمقه الشديد .

(٢) وهذا من الأخبار الباطلة الواردة في هذا الكتاب وهي قليلة ولله الحمد . وكان المصنف بمنئ عن إيراده لها ، والكمال لله سبحانه تعالى .

(٣) سورة يوسف الآية (٣١) .

(٤) سورة غافر الآية (٧) .

أيديهم فمنهم المُصورون لنا في الأرحام ، وفيهم النافخون فينا الأرواح ، ومنهم الحافظون لنا من بَين أيدينا ، ومن خَلْفنا ، ومن جميع هُجّامنا ، ومنهم كتبة كرام يَسْترون علينا المساوئ ، ويَذْكُرون المحاسن ، ومنهم مُوكّلون بالأرض يُمْسكُونا لنا لنَسْتَقرَّ عليها ، وكذلك الجبال ، والبحار / ١/٢٩١ والرياح وآخرون بالنَبات والأمطَار والكواكب والأفلاك يُديرونها ، وبالسموات والأرضين ، وخزنة الجنة ، والنار .

وعلى الجملة والاختصار : لَيس في العالم مغرز إبرة إلا وهو مَعْمور بهم ، ومنهم تصلنا مَنْفَعَتُهم ، وإحْسانهم في مقاماتهم في منافع الأبدان ، والأديان كمنفعة جبريل الأمين ، القوي المكين لنا ، ومحبته فينا ، وكذلك هو أحبُّهم إلينا ؛ إذ هو السفير بالوَحي إلى الأنبياء ، فكان هدي الخليقة على يديه صلوات اللّه وسلامه عليه .

وكمَنْفعة ميكائيل الرحيم المُوكل بالأرزاق ، ومَخَازن الإنفاق على جميعنا في جميع الآفاق . وكمنفعة إسرافيل الموكل بالأرواح ، الموصل لها بقوته ، ولُطفه إلى الأشباح .

وعلى الجملة ، فليس تأتينا منفعة إلا على يدي ملَك كريم ، فحُبهم واجب لذواتهم ، وإحسانهم ؛ فمن حبِّهم كثرة السلام والصلاة عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعينَ كما يُحب ربُّنا ويَرضى .

والنّوع الثاني من المحبوبين في الله : الأنبياء والرسل من بني آدم ، وهم إخوان نبيِّنا محمدَ عليه السلام وشركاؤه في النبوة ، والرسالة ، وعددهم مائة ألف نبي ، وأربعة وعشرون ألف نبي كلهم كريم فاضل في نفسه ، في أحسن الأحوال ، وأكمل الطاعات ، ولذلك كانوا قُدوة ؛ لأنهم/ أكمل ٢٩١/ب الخلق إيمانًا وأحسنهم أخلاقًا ، وأفضلِهم حُسنًا ، وجمالاً في أنفسهم

وأفعالهم ، فوجب أيضاً حبُّهم لذواتهم وحبُّهم لإحسانهم إلى الخلق ، ومَنفعتُهم لهم ، وشفاعتُهم .

فأولهم أبونا آدم ، خلَقَه اللهُ في أحسن تقويم ، ثم نفخ فيه من رُوحه ، وأسجد له ملائكتَه ، فكان إمامًا لها ، وعلمّه علمَ الأسماء ؛ فحُسنه وجَماله في علمه ، وشرف ذاته ، وعظيم إقامته ، لا يُدانيه جَمال ، وهو سبب النَّسل ، والذُّرّيّة إلى يوم القيامة ، وهو الآن في البرزخ كل من مر به من السُّعداء فرح به ، ومَن رآه من الأشْقياء بكى عليه ، وحزن .

وكذلك الأنبياء عليهم السلام كلهم رحماء ، أحرص شيء على الهداية ، ومن إحسانهم إلى هذه الأمة أنّا كنا مَخلوقين وهم مبَشرون برسولنا ، وداعون لنا ؛ كنوح حين يقول في دعائه : ﴿ ربِّ اغْفرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾[1] فأجمل ، ودعاؤه مقبول .

وكإبراهيم حين قال : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾[2] ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[3] الآيات . فدعا لنا لكل خير ، وإسماعيل ابنُه يؤمِّن على دعائه .

ومُوسى عليه السلام كيف أظهر حُبَّه في هذه الأمة حتى قال : « اللَّهُمَّ اجْعَلْني من أمةِ محمدٍ »[4] .

(١) سورة نوح الآية (٢٨) .

(٢) سورة إبراهيم الآية (٤١) .

(٣) سورة البقرة الآية (١٢٩) .

(٤) تهذيب تاريخ دمشق (٣/ ١٠١).

وعيسى عليه السلام بَشّر بمحمد ، وأمته ، وخط على اتِّباعه ، ولاسيما وقد صح أنه ينزل فينا ، ويَنصرنا على عدونا الدجال ، ويَنفعنا غاية النفع ، وكما ينصرنا ، ويَنفعنا في الأرض ، كذلك نفعنا ، ونصرنا هو وجميع الأنبياء كلهم قبل مَبْعثه بالقول والدُّعاء والوصاة والبشارة .

فوجب علينا حُبُّ الجميع لذواتهم ، وما هم عليه من الفضيلة ، والجمال والحُسن ، والكمال ، ولكثرة إحسانهم إلينا وإلى سائر المؤمنين من أممهم ، ومن مَحبتهم كثرة الصلاة عليهم ، صلى الله على نبينا وعلى الجميع منهم أفضلَ صلاة وسلم تسليمًا .

النوع الثالث من المحبوبين : أصحاب النبي ﷺ ، وأهل بيته ، وبذلك يتم إيمانُ العبد ، ويبرأ من النفاق ، فيجب أن يخص بالحبِّ أهلَ بيت النبيِّ عليه السلام كفاطمة الزَّهراء ، وأمِّها ، وبنتها ، وبَعلها ، وأعمام النبيِّ عليه السلام وقراباته ، فإن لأهل بيت النبيِّ مزيَّة على النَاس ، لا يُدرى قدرُها ، وكذلك أزواجَه المُطَهّرات ، أمهات المؤمنين .

فمن حب الجميع كثرة الصلاة عليهم ، والترحم ، والدعاء متى ذُكروا سرًا وإعلانًا ، وكذلك أصحابه الكرام ؛ كالصِّدِّيق والفاروق وذي النورين ، وعَليّ ، وباقي العشرة ، وسائرَ المهاجرين والأنصار / وغَير ذلك من ٢٩٢/ب
الصحابة ، والفُضلاء الأخيار .

رَوَى عبدُ الله بن مغفل قال : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « **اللهَ اللهَ في أصحابي ، لا تتخذوهم غَرضًا بعدي ، ومَن أحبَّهم فبِحُبي أُحِبُّهم ، ومَن أبغضهم فببُغْضي أبغضُهم ، ومَن آذاهم فقد آذاني ، ومَن آذاني فقد آذَى الله ، ومَن آذى اللهَ فيُوشِكُ اللهُ أن يأخذَه ، ومَن يأخذْه فيُوشك أن لا يُفْلِته** »[(١)] .

---

(١) **ضعيف** : رواه الترمذي (٣٨٦٢) ، وأحمد ٥/ ٥٤ ، ٥٧ من حديث عبد الله بن مغفل المزني =

ومن إجْماع أهل الحَق ، مَنْ أحَبّ أبَا بكر فَقَد أقَام الدِّين ، ومَن أحب عُمر فَقد أوضح السَّبيل ، ومَنْ أحب عُثمان فَقد استَنَار بنُور اللَّه ، ومَن أحب عَلياً فَقَد استَمْسك بالعُروة الوُثقى ، ومَن قَال الحُسنَ في أصحَاب مُحمد ﷺ فَقَد برئ من النِّفاق .

وفي الصحيح : « **آيَةُ الإيمان حُبُّ الأنصار ، وآيةُ النِّفاق بُغضُ الأنصار** »[1] ومَنَاقبُهُم وفَضائلُهم كثيرة ، كُلُّ ذلك يُنَبِّئُ على فضل ذواتهم ، وكَريم طباعهم ، وما خُصُّوا به ، والذي يَجمع لك المعنى في ذلك على الإجمال ، والاختصار أنهم اختارهم الله لصُحْبة حبيبه المُختار ، فلو علم الله خَلقًا أحسن وأفضل وأجمل منهم لاختَصَّهم بصحبة حبيبه الذي لا يَعدله شيء عنده ، فكذلك الصحابة لا يعدل بهم شيء .

١/٢٩٣ وذلك أن الفضل في المنازل إنما هو بالعلم والعمل به / الموافق لرضى الله ، والتَّخَلُّق بأوصاف العلم ، فأعلم الناس بعد الرُّسُل : « الصحابة » ؛ لأنهم كانوا في الوقت الذي تجلى الله ، وبارك بكلامه لهذا العالم ، حين مَبعث النبي ﷺ فمقامهم من المعرفة ، والعلم مقام مَن تعرَّف الله إليه ، وتجلى له ، وعلمه ، ومَن نظر الله إليه ، وأقبل عليه ، وتجلَّى له لا يُقدِّر أحد قدر ما جُعل في باطنه ، وظاهره من هذه البَركات ، وفضائل العلم والصفات ، وأنواع الخيرات ، فافهم .

=-رضي الله عنه - قال الترمذي : غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه .

قلت : تفرد به عبد الرحمن بن زياد وقيل « ابن عبد الله » وقيل : عبد الملك بن عبد الرحمن . تهذيب التهذيب (٦/ ١٦ ، ١٧٧) . « مجهول » قال ابن معين . لا أعرفه .

انظر ميزان الاعتدال (٤٤١٢) ، الكامل لابن عدي (٤/ ١٤٨٥) .

(١) صحيح : متفق عليه من حديث أنس ، البخاري ١/ ١١ ، ومسلم في الإيمان ، وفي الباب عن البراء -رضي الله عنه - متفق عليه أيضاً .

فأمّا العمل فالصحابة أطوع الخلق ؛ لأن أفعالَهم عن أمر الله لهم ، على لسان نبيِّه في كل نازلة تنزل بهم ، ولا يأمر إلا بما يُحب ويرضى ، فأطاعوه فيما أمرهم ، فوافقوا رضوانه على مشاهدة المخاطبة ، ومُكاشفة نزول الأمر .

فهُم أعظم الناس منزلةً ، وجاهًا ، وأوجب مدحًا وثناءً ، فوجد حُبُّهم لذواتهم ، وما هم عليه من جمال الفضائل ، وكريم حُسن الطبائع ، والمنازل ، وَوَجَبَ أيضًا حبُّهم لإحسانهم إلى كل مَن يأتي بعدهم ، فلهم على الكل منّة دائمة إلى يوم القيامة ؛ فإنهم كانوا العَون ، والأنصار لدين الله ، حتى ظهر واستقر ، فلولاهم ما ظهر ، ومنهم أخذ وهم سَنّوا السنن ، فلهم أجرها ، وأجر مَن عمل بها ، فلولاهم لكُنّا كفارًا من لدن التابعين / إلى يوم الدين . ٢٩٣/ب

فحبُّهم واجب لا يُنكره إلا خاسر ، فمن حبِّهم الدعاء لهم ، والرِّضى عنهم ، والترحم عليهم إذا ذُكروا سرًا وإعلانًا ، والكف عما شجر (١) بينهم ، فرضي الله عن جميعهم أفضل الرِّضوان في كل حين ، وأوان ، ونسأل الله الكريم أن يرزقنا حبَّهم ، وشفاعتَهم ، أن يعصمَنا من الإيذاية لهم ، والوقيعة في واحد فيهم . آمين وصلى الله على مُحمد وآله .

والنَّوع الرابع من المحبوبين في الله : أولياء الله ، وأوتاده في أرضه ، وهم العلماء بالله ، وبدين الله ، المُبَلغين الدين إلى الأمة ، والمرحوم بهم الخلق في كل عصر ، ولولاهم لمات الدين ؛ فحبُّهم واجب ، والدعاءُ لهم ، والترحمُ عليهم مندوب إليه ، ومُرغَّب فيه ، فهم فضلاء كرام ، في أنفسهم ، وهم بالعلم في أجمل صورة ، وهم زينة الأرض ، وجَمالُها ، والجمال محبوب ، وأي فضيلة لمن لم يكن عنده علم ؟ .

(١) شجر : اضطرب وتنازع واختلف .

ووجب حبُّهم أيضًا لإحسانهم إلى الخلق لإحياء دين الله ، وتوصيله، وكفاهم أنهم ورثةُ الأنبياء ، وأعظم العُلماء رُتبة « الأبدال » ؛ لأنهم العُلماء بالله ، والدار الآخرة ، وإنما سُموا أبدالاً ؛ لأنهم أبدال الأنبياء ، وقُلوبُهم على قلوب الأنبياء ، كما شبّه النبيُّ ﷺ أبا بكر بإبراهيم ، وعُمر بنُوح ، وعليًا بهارون ، وأبا ذر بعيسى في زُهده ، وسائر نُجَباء الصحابة / . ٢٩٤/أ

ومنهم هو القُطب الذي يُضاهي[(١)] الخضر عليه السلام ، ويُجاريه في العلم والأحوال ، وهو رحمة الله ، وغياث الأمة ، وهو زمانه في الاعتبار بدلاً من النبي عليه السلام ، ووارث بعض مقاماته في الأحوال ، وبعد القُطب الأوتاد الأربعة ، وهم في نواحي الأرض ، وجهاتُها الأربع ، كالجبال الرواسي ، تُمْسك الأرض أن تميد بكثرة الفساد والمعاصي فتمحوا حسناتهم ظُلم الظالم ، وعصيانُ العاصي عن وجه الأرض .

وهم في الاعتبار بمنزلة الخلفاء الأربعة ، بعد النبيِّ ﷺ ، وبعدهم في الرُّتبة « الأبدال » الستة ، وهم في الاعتبار بمنزلة باقي العشرة ، وبعدهم في الرتبة النُّقَباء الأربعون ، وهم في الاعتبار بمنزلة الأربعين أهل الدار ، وبعدهم في الرتبة النجباء ، وعددهم ثلاثمائة ، بمنزلة عدد أهل بدر في الاعتبار ، وبعد ذلك الصالحون المفترقون في البلاد .

فإذا مات القُطب ورث خير الأربعة مقامَه ، وورث خير الصالحين الستة مقام الرابع ، وورث خير الأربعين مقام السادس ، وورث خير الثلاثمائة مقامَ الميت من الأربعين ، وورث خير الصالحين مقام الميت من الثلاث ، فهكذا عددهم من أول الإسلام إلى آخر الدنيا .

فبهم تُرحم الأرض ، وهم الشافعون في دفع الشدائد ، ونزل

---

(١) يُضَاهي : يشابه .

الأمطار ، وغير ذلك وهم أهل الكرامات وخرق العوائد ، فإذا / أراد الله ٢٩٤/ب
خراب الدنيا لم يُبق أحدًا منهم ، جعلنا الله وإياكم من المحبين لهم ، ونفعنا بانتشار الفوائد من قلوبهم علينا ، ولا جعلنا من المنكرين لهم ، ولا عليهم آمين وصلى اللهُ على مُحمد .

والنوع الخامس من المحبوبين في الله : سائر المؤمنين فحبُّهم لما ظهر منهم من الإيمان ، والإسلام ، وتحب لهم ما تحب لنفسك ، قال الله عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾[1] فإن كان فيهم العصيان ، والمخالفة ، والظُّلم ، وغير ذلك فتكره منهم ذلك وتبغضهم [2] عليه فقط ، وتحب لهم التوبةُ كما تحبها لنفسك ، وتدعو لهم ، وتحبهم على ما ظهر منهم من الإيمان، والطاعة فقط ، وكما تحب الستر على عيوبك ، فلتحب السترَ لهم على عيوبهم ، ولا تحب أن تسمعَ الفاحشة فيهم ، وتدعو لجماعتهم بالصلاح والتوبة ، والرحمة ، وهذه كلها أعمال صالحة ، بها يُنْتَفى الحسد[3] ، والغلُّ[4] ، ولابد من هذا ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة ، ولا تدخلوا الجنةَ إلا على صورة الحبِّ في الله ، قال الله عز وجل : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** ﴾[5] .

ومن أفضل الأعمال ، سلامة الصدر للأمة ، وبذلك صار الأبدال أبدالاً ، تاب الله علينا ، وعلى جميع العاصين ، والعاصيات ، ورحمنا وإياهم في الدنيا ،وفي الموت ، وفي الآخرة آمين آمين ، وصلى الله على

(١) سورة الحجرات الآية (١٠) .

(٢) تبغضهم : تمقته وتكرهه .

(٣) الحسد : تمنى زوال النعمة عنهم . وفي الحديث (لاتحاسدوا، ولاتباغضوا ،ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا) .

(٤) الغل : العداوة والحقد الكامن .

(٥) سورة الحجر الآية (٤٧) .

٢٩٥/أ محمد / وآله وسلم .

والنوع السادس من المحبوبين في الله ، وهم الأصحاب ، والأخلاء ، والأصدقاء ، وقد جعل الله الصَديق من الأقارب ، وضمّه إليهم فقَال : ﴿ولا علَى أنفُسكُمْ أن تأكُلُوا من بيُوتكُمْ أوْ بُيُوت آبائكُم﴾ إلى قوله : ﴿ أوْ صَديقكُمْ ﴾(١) فختم بالصديق وجعل الصداقة رحمًا ، وقرابة ، وفيه وردت أخبارُ متحابين في الله ، والأخوة الخاصة في الله .

ولابد لكل أحد من خليل ، وصديق في كل عَصْر وأوَان ، وقد آخا النبيُّ ﷺ بين أصحابه ، وحالف بين المهاجرين والأنصار ، فكان يرث هذا هذا ، وهذا هذا ، كالأقارب ، وميراثه موجود في كتاب الله عز وجل في قوله : ﴿والَّذينَ عَقَدَتْ أيْمَانُكُمْ فآتُوهُم نَصيْبَهُمْ﴾(٢) حتى نزلت : ﴿ وأولُوا الأرحامِ بَعْضُهُمْ أولَى بِبَعْضٍ فِيْ كتابَ الله ﴾(٣) فهي عند مالك وغيره منسوخة إلا أبا حنيفة ، فإنه يورث بها ، وحُكمها باق عنده .

والمؤآخاة في الله عمل عظيم لا يعدل به شيء ، مَن أراد الإشراف على فضائلها فلينظر ما ألف العُلماء في باب الصُّحبة ، والأُخُوة ، ولو لم يكن فيها إلا أن الصاحب يموت وربما نسيه أقاربُه ، وصاحبُه لا ينساه ؛ فهو أحب من الأقارب ، وإن كان الواحد أرفع درجة من الآخر رفعه إلى

٢٩٥/ب درجته/ في الجنة ، ولا تطيب نفسُه حتى يكونَ مثله في الدرجة .

ولَمّا آخى النبيُّ عليه السلام عليًا - رضي الله عنه - فصلى ليلةً فقَال له : « أبْشِر يا عليّ ؛ فإني ما سألت اللهَ شيئًا إلا سألت لك مثلَه » ، وقال له

---

(١) سورة النور الآية (٦١) . في الأصل [ليس عليكم جناح] وهو خطأ .

(٢) سورة النساء الآية (٣٣) . في الأصل [عاقدت] .

(٣) سورة الأنفال الآية (٧٥) .

في حديث آخر : « أنت مَعي في قَصري في الجنة ، مع فاطمة ابْنَتي في أعلى درجة في الجنة » (١) فكذلك دعا لأبي بكر لما كان صاحبه فقال : « **اللهم اجْعلْ أبا بكرٍ معي في درجتي في الجنة** » (٢) فهكذا ينبغي أن يكون الأخُ مع أخيه ، والصاحبُ مع صاحبه ، لا يريد لنفسه شيئًا إلا أراده له إلا أن هذا الباب اليوم قليل ، نسأل الله الكريم أن يرزقَنا من الأصحاب ، ومِن كل شيء أفضل شيء إنه على كل شيء قدير ، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليمًا .

---

(١) **لا يصح** : راجع العلل المتناهية ١/ ٢١٥ .

(٢) رواه أبونعيم في الحلية ١/ ٣٣ .

الشعبة الثانية والخمسون
البغض في الله

أمّا كونه من الإيمان فقد تقدم في باب الحبِّ في الله ، وافٍ ، أوثق عُرَى الإيمان ، الحبُّ في الله ، والبُغض في الله ، وكذلك في حديث أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضلُ الأعمال الحبُّ في الله ، والبُغضُ في الله »(١) .

فجعل البُغضَ في الله أفضل الأعمال ، وجعله عليٌّ - رضي الله عنه- من دعائم الإيمان فقال في حديثه الطويل :(٢) « الإيمان / على أربعة ١/٢٩٦أ دعائم ، على الصبر ، واليقين ، والعدل ، والجهاد ، ثم قال : والجهاد على أربع شُعب : الأمر بالمعروف ، والنهيُ عن المنكر ، شنآن الفاسقين ، والصدق في المواطن » فجعل شنآن الفاسقين شعبة من الإيمان ، والشواهد عليه كثيرة جداً .

وقد قال الله أصدقُ القائلين :

﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾(٣) الآية ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾(٤) إلى آخر الآية .

---

(١) ضعيف: عزاه الحافظ المنذري لأبي داود وأحمد من حديث أبي ذر -رضي الله عنه - وقال : «وفي إسنادهما راوٍ لم يسم » الترغيب (٤٢٩٣) بتحقيقي ط دار الحديث .

(٢) لا يصح : وقد ذكره المصنف مراراً وتقدم التعليق عليه .

(٣) سورة المجادلة الآية (٢٢) .

(٤) سورة الممتحنة الآية (١) .

فصل

اعلمْ أن هذا البابَ على ثلاثة أقسام ، قسم في عالم الحس ، ومقام الإسلام ، وقِسم في عالم الغَيب ومقام الإيمانَ ، وقِسم في مقام الإحسان .

فأمّا القسم الأول : في مقام الإسلام ، فأن تُبغضَ كُلّ كافر بالله في مشارق الأرض ومغاربها ، والعُصاة ، والعُتاة [1] ، وتُبغضَ أفعالَهم ، وهذا يحتاج إلى تفصيل يأتي إن شاء الله .

وأمّا القسم الثاني في مقام الإيمان ، فأن تُبغضَ كل كافر في دار البرزخ من الفراعنة [2] ، والطُّغاة [3] ، وتُبغضَ إبليس وجُنودَه الذيَن هم في عالم الغيب ، وتُبغضَ أفعالَهم .

٢٩٦/ب **وأمّا القسم الثالث** في مقام / الإحسان ، فأن يَنظرَ إلى بُغض الله لهم في الأزل ، وغَضبَه عليهم ، ولَعْنَتَه إياهم ، وإبعادهم عن قُربه ، ومحل كرامته ، فتُبغضَهم في ذلك ، موافقة له ، لأجل عِصيانِهم له ، لا لغِرَضٍ ، ولا لِعَرَضٍ .

فإذا فهمت هذا فاعلمْ أن هذا الباب ينتظمُ من ثلاثة أشياء :

مُبغض ، وهو العبد المؤمن ، وبُغْضٌ وهو حاله ، ومُبغَض وأصنافهم كثيرة ، وأنواعهم مختلفة .

فأول الأصناف وأولاهم بالبغض والعداوة إبليس وبَنُوه عليه لعنة الله ،

---

(١) العتاه : جمع عَات . وهو : المستكبر الذي يتجاوز الحد .

(٢) الفراعنة : المُتكبرين المُتجرين الطغاة .

(٣) الطغاة : المتجاوزين للحد المطلوب .

وهو الذي عادى أبانا آدم عليه السلام ، وعادى بَنيه ، وأخرجه [١] وإياهم من الجنة ، ومن الإسلام ، والإيمان ، ومن الطاعات ، والأعمال الصالحات ، وأوقعهم في البليات [٢] ، والمهلكات الأبديات ، وحارب الله ، وخاصمه بعَدَاوتنا ، فقال بعد مُخاصمته لربِّه : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَكَ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، وعَنْ أَيْمَانِهِم ﴾[٣] إلى آخر المعنى .

وقد فرض الله علينا عداوته ، وأمرنا بها ، فقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[٤] ولولا جَهلُ بَني آدم بعداوته ، ما أطاعه أحد ، ولا يوم ، ولبقي العدو في نار الحسد يتلظَّى [٥] حتى يُنقل من الدنيا إلى نار لظى ، فإن البُغض للعدو إبعاد له ، ونفيٌ له عن محل القُرب من مُبغضيه ، ومَن أبغض شيئًا لا يُحب أن يراه ، ولا يسمع حديثَه ، ولا يهنأ عيشًا حتى يَحْتَجب عنه / . ١/٢٩٧

هذه صورة البُغض والعَداوة الكلية ، لكن إنما تحول عندنا في صورة الحب لحيله ، وخداعه ، فأنسَت النفوسُ مُجَالسته ، وانشرحت لاسْتماع وساوسَه ، لجهلهاَ بالعدو ، والصديق ، فكان ما كان من قضاءِ الله ، على يدي عدو الله .

فإنه لم تجر معصيته في العالم إلا على يدي شيطان يُوسوس ، ويأمر بها ، فإن عدم القلب بُغض الموسوس والنفور عنه ، والإبعاد له ، تصور

(١) في الأصل : [وأخرجهم] .
(٢) البليات : جمع بلية : وهي المحنة تنزل بالمرء .
(٣) سورة الأعراف الآية (١٥ ,١٦) .
(٤) سورة فاطر الآية (٦) .
(٥) اللظى : لهب النار الخالص الذي لا دخان فيه وفي القرآن الكريم ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى ﴾ .

عنده ناصحًا مُحبًا ، وبهذه الحيلة دخل على أبينا آدم في الجنة لكنه عليه السلام ، لم يكن لها عودة أبدًا ، ولم يُلدغ من جُحر مرتين ؛ لأنه ميَّزه عامة التمييز فجعله عدوًا حقًا ، وأبغضه بُغضًا صادقًا لنفوذ بَصره في المشكلات ، وتمييزه ، ومَعرفته بالعدو من الصديق ، وبذلك وصف الله المتقين في قوله :

﴿ إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طَائفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فإذا هُم مُبْصِرُونَ ﴾(١)
وهذا يَسْتَدعي مَعرفة الخواطر التي هي سهام العدو ، وقد تقدم ذكرُها في باب الجهاد ، فلتنظر هنالك ، عصمنا الله وإياكم من الفتن ، وأسبغ علينا ، وعليكم سوابغ المنن بمَنِّه وفضله ، آمين آمين وصلى الله على مُحمد وآله وسلم .

وأما الصنف الثاني من المَبغوضين فهُم إخوان الشياطين ، من أنواع
٢٩٧/ب الكفار والمنافقين / بالعداوة للأنبياء في جميع الأعصار ﴿ فإنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ الكافرين ﴾ (٢) ﴿ فإنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ للْكَافرِينَ ﴾(٣) ومنهم طُغاة ، وفراعنة ، وكبار وصغار ، فيخص كل واحد من البغض بقَدر فرعنته ، وعداوته لله ، ولرسله عمومًا ، وخصوصًا ، وإن كان الكل أعداء لكن ليس فرعون ، وعاقر الناقة ، ونمرود وأبو جهل ، ومَن قاربهم كغيره من مساكين الكفار ، ومَن لا ذكر له ، وبُغض الكل على العموم يجزي ، وذلك كله عمل صالح يؤجر العبدُ عليه .

وفي تذكرة القلب للأعداء الكفار ، ومُشاهدته إياهم علم غريب ، ولمن وفق له ، فإنهم يَقومون مقام الأنبياء ، والملائكة في الهداَية ، فإن الله قد سماهم أئمة يدعون إلى النار ، فهم أئمة إنس ، وجن ، مَنصُوبون

---

(١) سورة الأعراف الآية (٢٠١) .

(٢) سورة آل عمران الآية (٣٢) .

(٣) سورة البقرة الآية (٩٨) .

للاقْتداء في الشَّرِّ ، كالأنبياء ، والملائكة في الطرف الثاني من الخير ، فالموفق إذا سمع ذكرَهم ، وشاهدهم بقلبه وتذكر أخبارهم عمل بضد ما يدعون إليه ، وماَ عملوا به ، وأبغضهم ، وهرب بقلبه ، وعمَله من طريقهم ، فكانوا له أئمة في الخير ففي مُشاهدتهم ظاهراً ، وباطنًا فائدة عظيمة ؛ لأن بالضدِّ تتبين الأشياء ، والعارف لا يُوحشه شيء ، بل يرى سُرورَه في كل شيء ، فصار ذكر العداوة ، والبُغض عنده سروراً وفرحًا ، فافهم / . ١/٢٩٨

والثالث من المَبغوضين ، فأهل الأهواء [١] والبدع [٢] ، المخالفون لأهل السنة في العقائد ، والأعمال ، وأصنافهم أربعة ، كل صنف ينقسم على ثماني عشرة فرقة ، فيكمل عددهم في اثني وسبعين فرقة ، كما جاء في الحديث .

الصنف الواحد : الخوارج ، ورأسهم الذي قال لرسول الله ﷺ : اعدل يا محمد فإنك لم تعدل ، وقال فيه رسولُ الله ﷺ : « **يَخْرج مِن صَياصي** [٣] **هذا قَومٌ يقرأون القُرآنَ ، لَيس قُرآنُكم إلى قُرآنِهم بشِيء** » وقال فيهم : « **يَمْرُقُون** [٤] **مِن الإسْلام مُروق السَّهمِ من الرَّمِيَّة** » [٥] والمَروق هو الخروج .

ومنهم الذين خرجوا على عليٍّ ، وسُمُّوا « بالحرورية » وأصنافهم كثيرة لا تنقطع إلى يوم القيامة ، كما روى عليٌّ - رضي الله عنه - في

---

(١) الأهواء : جمع هَوى . وهو ميل النفس إلى الشيء خيراً كان أو شرًا . وقد قال الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ .

(٢) البدع : جمع بدعة : وهي : ما استحدث في الشيء وليست أصلاً موجودة فيه .

(٣) صياصي : جمع صيصة : وهي الشوكة الحائكة التي يسوى بها السرراة واللحمة ، وصيصت النخلة أثمرت . . . والمقصود في الحديث يخرج من نسله .

(٤) يمرقون : يخرجون ، ومرق السهم من الرمية : اخترقها وخرج من الجانب الآخر في سرعة .

(٥) أخرجه البخاري بنحوه (٦/ ٨٤) .

الصحيح ، قال : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول :

« يأتي في آخرِ الزمانِ قوم حدثة الأسنان ، سُفهاء الأحلام ، يقولون من قول خير البرية ، يَمْرُقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لا يُجاوز إيمانُهم حَنَاجِرَهم ، فإذا لَقيتموهم فاقتلوهم فإن في قَتْلِهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة » وقال في حديث آخر : « لئن أدركتُهم لأقتلنهم قتلَ عاد » (١) . فانظر ما أعظم بُغض النبيِّ ﷺ فيهم .

ومذاهبهم مختلفة ، منهم مَن يُكَفِّر الناس بالذنوب ، ومنهم من يحلل المحرمات ، ويحرم المحللات ، وأشياء أُخَر تبلغ إلى ثماني عشرة ، كما قدمنا / . ٢٩٨/ب

والصنف الثاني هم المعتزلة (٢) ، وهم أصناف ، ، القدَرية ، وقال عليه السلام فيهم في رواية ابن عمر : « القَدَرية مَجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » (٣) ، فانظر صورة هذا البُغض الذي أمر به ، ما أعظمه .

وقال في حديث آخر فيهم : « حَقٌّ على الله أن يُلحقَهم بالدَّجَّال » ومذاهبهم مختلفة تبلغ إلى ثمانية عشر .

والصنف الثالث « المرجئة » الذين يقولون : إن الإيمان قول بلا عمل ،

---

(١) صحيح :أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٢٤٤) ، (٦/ ٢٤٣) ،أبو داود (٤٧٦٧) .

(٢) المعتزلة : أولى المدارس الكلامية الكبرى ، تؤمن بالعقل وتحاول التوفيق بينه وبين النقل ، وتلجأ إلى التأويل ماوسعها ، وفي هذا ماباعد بينها وبين السلف الصالح وأهل السنة . أسسها واصل بن عطاء ومن أكبر رجالها أبو هُذيل وإبراهيم النَّظَّام .

ومن أقوالهم : الإيمان بالقلب واللسان مع اجتناب الكبائر فَمن فارق شيئاً كبير زال عنه الإيمان ولم يلحق بالكفر فسُمي فاسقاً ، ليس بمؤمن ولا كافر إلا أن أحكام الإيمان جارية عليه .

(٣) أبو داود (٤٦٩١) .

وأصنافهم مختلفة أيضًا ، ويبلغون إلى ثماني عشرة فرقة ، وقال النبي عليه السلام فيهم : « **صِنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب :" القدرية ، والمرجئة** »[١] وبُغضهم واجب ؛ لأنهم يرون هتك شرائع الإسلام ، وتضييع حدوده كلها، فهم شر الفرق .

والصنف الرابع « الروافض »[٢] وهم المُنْقصون لأصحاب رسول الله ﷺ ، والطاعنون في الخلافة ، والخلفاء ، وأصنافهم مُتشعبة تبلغ أيضًا إلى ثماني عشرة فرقة ؛ فمنهم مَن ينتقض الشيخين ، ومنهم مَن ينتقض عليًا ، ومنهم مَن ينتقض عثمان ، ومنهم مَن ينتقض جبريل عليه السلام ، ومُعاوية ، وأهل الشُّورى ، ويَنسبون إلى الصحابة ما لا يَليق بهم ، فبُغضهم واجب من أوجب الواجبات ، وكلها في النار ، كما ورد في الحديث .

والصنف الرابع من المبغوضين ، أهل العصيان ، والفساد من عصابة السُّنة ، وهم على ضَربين : مُجرم ، ومعترف / . ١/٢٩٩

فالمجرم مثل الظَّلمة الباغين على الفساد ، والمفسدين في الأرض ﴿**واللَّهُ لا يُحبُّ الظَّالمِينَ**﴾[٣] وورد في الخبر : « لو قُتل رجل بالمشرق ظُلمًا ، ورضِيَ به آخر بالمغرب لكان شريكَه في الوِزر » .

ومثل العصاة المجاهرين ، وقُطاع الطرق على المسلمين ، والمُنْتهكين حرم المؤمنين ، والمُستخفِّين بطاعة الله ، وأولياء الله ، المتطاولينَ على

---

(١) الهيثمي في مجمع الزوائد عن جابر (٧/ ٢٠٦) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه قرير ابن سهل وهو كذاب . ورواه أيضاً عن أبي سعيد وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه عمر بن القاسم بن حبيب وهو ضعيف ،وكذلك عطية العوفي . المجمع (٧/ ٢٠٧) .

(٢) الروافض : فرقة من الشيعة تجيز الطعن في الصحابة سُمُّوا بذلك لأنهم رفضوا نصيحة زيد بن علي حين نهاهم عن الطعن في الشيخين أبي بكر وعمر .

(٣) سورة آل عمران (١٤٠) .

الضُّعفاء ، وأهل عداوة الله ، فهؤلاء كلهم يجب هُجْرَانُهم ، وبُغْضُهم على ما هم عليه من الفَساد .

وأما الصنف المعَترف المتواضع من العصاة فإن كان عندهم صلاح ، وفساد أحب منهم الصلاَح ، وأبغض منهم الفساد ، ويُدعى لهم بالتوبة منه ، ويَظهر لهم الغلظة ، والشِّدة ، ويُبطن لهم الرحمة ، والشفقة في مواطن الأمر بالمعروفَ ، والنهي عن المنكر .

وأما نفس الإنسان الأمارة بالسوء ، المخالفة فيجب حربُها ، والشِّدة في ذات الله عليها ، حتى تَنْقَمع ، ورؤُيتها بعَين المقت(١) لها ، وأن ليس في الوجود شرّ منها ، ولا أعدا للعبد منها .

فإن قلتَ : كيف تكون نفس الإنسان عنده شراً من الكفرة ، والشياطين ؟ .

فاعلمْ علمًا حقًا ، وتيقن نفسًا صدقًا أن كل عدوٍّ في الوجود على اختلاف أنواعهم ، إنما تضر بهم على الحقَيقة أنفسهم ، فالشيطان هو أهلك
٢٩٩/ب نفسه ، فكذلك كل كافر ، وعاص باستحسان رأي / نفسه ، فإنَّ الشيطان لا يأخذ الإنسان قهراً ، وغلبة فيرميه فيَ المخالفة ، وإنما يُلقى إليه وحيًا ، وكلامًا ، فتُقبل النفس عليه ، وتَستحسنه وتَقْبَله ، وتعمل به ، أو بخاطرها المذموم ، فهي أضَرَّت بنفسها ، والشيطان أضرّ بنفسه ، فيما جنى ، ووسوس ، وكذلك كل كافر أَو عاص في الوجود ، إنما يُهلك نفسه بنفسه ، وإذا كان فرعون في الهاوية(٢) فما يضرك كونه فيها إذا لم تعلم عمله الذي يُدخل الهاَوية ، فإذا عملت ما يضرك في الآخرة ، أو يُقيم عليك حداً في

---

(١) المقت : البغض الشديد والقبح .

(٢) الهاوية : جهنم .

الدنيا ، ويُورثك الخِزي ، والعار ، فمن أضرُّ عليك من نفسك ؟ .

فنفس الإنسان شر للإنسان من كل شيء ، وأضرّ له من كل شيء فافهم هذا ؛ فإنه لا يبقى فإنه لا شيء ( )[١] في هذا الباب من معرفة النفس ، ورُؤيتها شرًا من كل شيء ، وقد حَوَّم[٢] كثيرٌ من العلماءَ على هذا الغَرض ، ولم يُصب كثيرٌ منهم إلا أطرافًا منه ، فاجعل هذا مرآة لمعرفة النفس تنظرها فيه بهذا العين ، فتبرأ من الكبر[٣] ، ومن كثير من المهلكات .

وانظر أعداءك الذين يضرونك ، من غيرها ؛ فإن ضرَّك عدو مثل أن يَشْتمك أو يضربَك ، ويؤذيَك فتُؤجرَ ، أو تصبر ، فتُحسن خُلقك ، أو يَقْتلك فتدخل الجنة ، أو يغتابك ، فهم في ضُرّهم لك نافعون ، ونَفسك بضد ذلك ، وإنما غرضها / تنفيذ هواها ، وإهلاكها إن تركت ، قال الله عز ١/٣٠٠ وجل شاهدًا لهذا المعنى فأخبر عن إبليس حين ظهرت الحقائق في الآخرة وتبين كل أحد هذا المعنى فقال : ﴿ فلاَ[٤] تَلُومُونِي ﴾ فإني ما عملت لكم شيئًا ﴿ وَلُومُوا أنفُسَكُم ﴾[٥] أي التي عملت الشر ، فلم يُكذبه البارئ في ذلك ، ولا أكذبه أحد .

وكذلك ورد في صحيح ما أخبر عنه فقال : « **إنما هِي هِي أعمالُكم تَرد عليكم فمن وجد خيراً فلْيَحمد الله**[٦] ، **ومَن وجد غيرَ ذلك فلا يَلومن إلا نفسَه** »

---

(١) بياض في الأصل .

(٢) حوَّم : دار حوله وفي الحديث [من حام حول الحمى يوشك أن يواقعه]، من قارب الآثام قَرُبَ اقترافها .

(٣) الكبر : العظمة والتجبر والإثم الكبير .

(٤) سقطت الفاء من الأصل .

(٥) سورة إبراهيم (٢٢) .

(٦) زاد في الأصل بعد لفظ الجلالة « إلا نفسه » وليست من الحديث » .

فرفع اللائمة عن إبليس ، وغيره من الخلق بحرف النفي ، وأوجبه بالاستثْناء للنفس ، وأوقعه عليها .

والشواهد على هذا كثيرة ، فترك الرضى عن النفس ومَقْتها ، ورُؤيتها أقلّ من كل نفس في الوجود ، واجب علىَ مَن عرف نفسه ، وذَلك هو حب لها ، وتُشْكر هي على ذلك ، إذا ظهرت لها حقائق الأشياء ، إما عاجلاً ، وإما آجلاً ، مَنَّ اللهُ علينا وعليكم بمعرفتها ، وتاب علينا ونجانا من غوَايتها ، ورحم نفوسَنا ، ونفوسكم رحمةً لا نَشْقَى معها أبدًا في عافية شامَلة بمَنِّه وفضلِه آمين آمين ، وصَلى الله على مُحمد وعلى آله وسلم تسليمًا .

الشُعْبة الثالثة والخمسون

الحياء

أمّا كون الحياء من الإيمان فمنصوص في الحديث الصحيح ، قال النبيُّ ﷺ لرجل من الأنصار ، وهو يَعظُ أخاه في الحياء فقال : « دَعْهُ فإن الحَياءَ مِن الإيمانِ » وقال : « الإيمان بِضعٌ وسبعون شُعبة والحياء شُعبة من الإيمان »[(١)] .

(١) البخاري (١/ ١٢) ، (٨/ ٣٥) ، أبوداود (٤٧٩٥) ، النسائي (٨/ ١٢١) .

فصل

اعلمْ أن الحياء من أعظم شُعب الإيمان ، وهو على ثلاثة أقسام : قسم في مقام الإسلام ، وقسم في مقام الإيمان ، وقسم في مقام الإحسان .

وينتظم من ثلاثة أشياء : مُسْتَحيي ، وهو العبد ، وحياء ، وهو حاله ، ومُستَحْيا منه ، وهو الربُّ .

أو مَن يجب أن يَستحيي منه ، والحياء هو التستر ، والاحْتشام أمام النظر ، ولذلك غطى النبيُّ ﷺ فخذه حين دخل عليه عُثمان - رَضي الله عنه- وقال : « أستَحيي من رجل تَسْتحيي منه الملائكة »(١) .

فأمَّا القِسم الأول في مقام الإسلام ، وعالَم الحس ظاهرًا ، فإن أعمال الجوارح الظاهرة تَنقسم على ثلاثة أقسام : قسَم نَهَى الله عنه ، وهو المعاصي ، وقسم أمر الله به ، وهو الطاعات ، وقسم يَخُص العبد في مُباحاته ، ومعيشته ، وكسبه ، والإنسان مأمور بالحياء في ذلك كلِّه .

فأما المعاصي فالحياء واجب فيها ، وفي غاية الحُسن ؛ لأن المعاصي سوءة ، فإذا واقعها العبد بجوارحه كشف ستر الحياء عنه ، فزال وظهرت ٣٠١/أ السوءات ، ولذلك قيل : « إذا لم تستح فاصْنَعَ / ما شئت »(٢) .

ومن ذلك الخبر الوارد : « لا يَزْني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن »(٣) الحديث إلى آخره ، فالإيمان المرتفع عنه في حين

(١) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٥٧) ، النسائي (٥٩٥) .

(٢) انظر العلل لابن أبي حاتم (٢٥٣٨) والطبراني في معجمه الكبير (١٧/ ٢٣٦) .

(٣) صحيح: البخاري (٣/ ١٧٨) ، (٧/ ١٣٦) ، مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب (٢٤) رقم (١٠٠ ، ١٠٥) .

المعاصي هو شعبة الحياء ، فإن الزاني إذا كشف عورته للزنا ، إنما يكشفها في خُلوة من أعين الناس ، حياءً منهم ، وإنما قل حياؤه من الله لقلة علمه بنظر الله إليه ، وكذلك السارق ، وأنواع المعاصي فلو استوى حياؤه من الله مع حيائه من الناس لم يقع في المخالفة ، والحياء من الناس في المعاصي حُسن ، وهو معنى الخبر الوارد «الحياء الخير كله »[1] .

فإن العبدَ إذا استحيى من الخلق ، أن يَفتضح عندهم ، أو يُعيّر بارتكاب النقائص ، وأن يفتَضحَ عند الحُكام فيُضرب ظهره ، أو تُقطع يدُه ، وأن يُطاف به على جماعات من الناس ، أو غير ذلك من الفضائح المسموعة المنظور إليها ، فكف عن الرذائل[2] من أجل ذلك ، حسن جداً ، وبقيت مُروءته غير ساقطة ، وقيل : « اسْتحيي من الله كما تستحيي من الرجل الصالح » .

ومن هذا المعنى يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضُه بعضاً ، فإن المؤمنين إذا اسْتحيى بعضُهم من بعض ، وقف كلُّ أحد على حَدِّه ، ولم يَهتك ستر حُرمة أخيه المؤمن في حريم ، ولا مال ، ولا شيء ، وظهر حُسن الحياء ، وجماله ؛ لأنه في غاية الحُسن ، كما ورد في الخبر : «الحياء في كل شيء حَسن ، وهو في النساء أحسن » ، وإنما كان في النساء أحسن / من أجل أن الحياءَ ستر ، كما قدَّمنا ، والمرأة كلها عورة ، فإذا كانت ٣٠١/ب كثيرة الحياء ، أوقعها الحياء في العفة ، وقصرها في كنِّ[3] الصيانة[4] ، ولم تتبرج بتبرج الجاهلية ، فإنْ خرجت في حوائجها ، كانت في ستر الحياء في

(١) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٦١) ، أبو داود (٤٧٩٦) . وسقطت كلمة «الحياء» أول الحديث من الأصل .

(٢) الرذائل : جمع رذيلة : وهي الخصلة الذميمة التي تقابل الفضيلة .

(٣) كَنَّ : كن الشيء ستره وفي القرآن ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ .

(٤) الصيانة : الحفظ في مكان آمين .

مَشْيها ، ومَلْبَسها ، وبَذَاذة هَيْئَتها حتى ترجعَ إلى كُنِّها ، وكانت ممن ذكر الله في قوله : ﴿ قُل لأزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ﴾(١) الآية .

وإن قل حياؤها لبست أحسنَ ثيابها ، وتبرجت في تطوافها ، وتعرضت بكشف محاسنها ، وقالت ، وأمالت ، فظهرت قبائحُها بزوال جمال ستر الحياء ، وفي مثلها ورد الخبرُ : « نساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ ، مائلاتٌ مُميلاتٌ ، لا يَدخلنَ الجنةَ ، ولا يَجِدْنَ رِيحهَا »(٢) الحديث .

فقد عم الحياء الرجال ، والنساء ، والصِّغار ، والكبار ، فإن الصغير إذا استحيى من الكبير ، ووقّره ، وعظَّمه ، فكان الحياءُ مُؤدبًا له أحسن تأديب ، والكبير إذا استَحيى من سنِّه ، أن يسقط من منصب ذوي الأسنان ، لم يقع فيما يقع فيه الشبابَ ، وأقبح شيء شيخ تشبه بصبي في أمور الخذلان(٣) ، فالحياء من الخلق حياء من الله ؛ لأنهم شُهوده في أرضه .

فإذا عَلم العبد أن اللهَ رقيب على جوارحه كلِّها ، وعباده شُهود عليه ، واسْتحيى منه ، ومن شهوده ، حفظ جوارحه ، وقَبَضَها عن المَنهيات ، فلم يلج (٤) له في المحسوسات شيء من المنهيات إلا ذكَّره الحياء من الله فقبضه
١/٣٠٢ عن / الذنب ، وحفظه من الوُقوع فيه ، وكان الحياءُ من الله سترًا مُسْبَلاً على العَبد ، فمُنعتَ به الجوارح مما لا ينبغي ، فكان به العبد في حَفظ صيانة الحياء في أحسنَ صورة .

---

(١) سورة الأحزاب الآية : [٥٩] .

(٢) موطأ الإمام مالك (٩١٣) .

(٣) الخذلان : التخلي عن العون والنصرة وفي الحديث : ﴿المؤمن أخو المؤمن لا يخذله﴾ .

(٤) يَلج : ولج البيت أي دَخله .

فصل

وأمّا قسم الطّاعات ، فإنّ الحياء فيها أيضًا واجب ، وذلك أن العبد أُمر بفعل الواجبات في أوقاتها ، ومواطنها على أكمل وجوهها ، بقدر طاقته ، ووسْعه ، وعلم أنّ أعماله معروضةٌ على ربِّه ، وصاعدة إليه مع الكرام الكَاتبين ، كل يوم غدوة ، وعشيًا ؛ لأنها قُربات يتقرب بها إلى الملك الأكبر ، ويَهْديها إليه ، ولو أن ملكًا من ملوك الدنيا أمر رجلاً أن يعمل له عملاً ويُتْقنَه ، ويأتيَ به في وقت معلوم ، لَبادر إلى عمله لئلا يَذْهبَ الوقتُ ، فيقعَ في خلف الوَعد ، وكانَ يَعْملُهُ في أحسن صُورة حياءً من الملك أن يُواجهَه بشيَء فيه نقصٌ ، أو بشيء حقير ، ولو أمْكَنَه أن يبيعَ نفسَه ، ويُنْفقَها على عمل ذلك الشيء كي يكونَ مّما يصلُح للملوك لفعل .

فكيف بالبارئ تعالى ملك المُلوك ، الذي تُعرض عليه الأعمال ، والقُربات بُكرة ، وعشية ، بل يراها في كل وقت ، وحين .

فإذا فكر العبدُ في عَرْضِ الأعمال على الله عز وجل اسْتحيى منه أن يتركَها ، وأن يُخْلطَ فيها ما ليسَ منها ، ومن النقص ، والتقصير فيها ، وكما يستحيي العبدُ مَن الله أن يراه حيث نهاهَ ، فكذلك أيضًا يستحَيي منه / أن ٣٠٢/ب يَفقد من حيث أمره ، وأن يُواجهَه بعمل قبيح ، ويتذكر عرضَها عليه في كل يوم وليلة ، فيوجب له الحياءَ أن لا يهدي إلى الملك الأكبر إلا ما يليق به سُبحانه ، ويَعْتَذر من التقصير في حقه سُبحانه .

ألا ترى إلى الملائكة كيف قالت في مقام الحياء من التقصير : «**سُبْحَانَكَ ما عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِك** » لأنك مُستحق أكثر من هذا لعظيم قدرك ، فالحياء يُوجب تحقير العمل من العبد ، وإن جلّ ، ويُورث الإخلاص ، والحمد ،

والاجْتهاد في تحسين الأعمال المفروضة ليلاً ، ونهاراً على ذي الجلال ، مَنّ الله علَينا بكَثرة الحياءِ منه في كل شيء بيُمنه وفضله آمين ، وصلى الله على مُحمد وآله .

وأما القسم الثالث من الحياء في أمور المعايش والمكاسب ، والمُباحات ، فإنَّ العبدَ يحتاجُ فيها إلى مخالطة الخلق ، فيحتاج إلى الحياء ، ومُعاملتهم به كي لا تسقط مُروءته ، وإن لم يُعَاملهم ، ويُخَالطهم بالحياء نسب إلى القحة(١) ، والرذائل .

ومن فضائل الحياء في المباحات ، ترك الإسراف في طلب الدنيا ، وزينتها ؛ فإن دار الدنيا دار عبادة ، فإذا تخلق بأخلاق المُسرفين ، والمُترفين فقَد خرج من ذي العبودية ، وتزيا بزي الحُرمة ، وتشبه بالسادة في دار العبودية الدنَيا ، وقد أُمر أن يكونَ عبداً فيها حتى يُنْقل إلى لبس الحرير ، والذّهب ، والفضة ، والأسْوِرة (٢) ، والتيجان (٣) ، والمَراكَب العالية ، والقُصور ، وغَير ذلك .

٣٠٣/أ فإن طلب الثروة في دار الدنيا ، والإسراف من المباني / والملابس اللينة الرقاق ، وفُرش الدِّيباج (٤) ، والحرير ، وستر الحيطان ، وغير ذلك من زخارف الدُّنيا المباحة ، فقد قَلّ حياؤه في دار العبودَية ، ألمْ تسمع إلى حديث النبيِّ عليه السلام : روَى أبو سعيد عن النبيِّ ﷺ أنه قال : «اسْتَحْيوا من الله حقَّ الحياء ، قُلنا : يا نبيَّ اللَّه : إنا نستحيي من الله والحمدُ لله ، قال : لَيس ذَلك ، ولكِن الاسْتَحْياء من الله حقَّ الحياء أن تحفظ الرَّأسَ وما وعَى ، والبَطنَ

(١) القُحَّة : أي الخالص في اللؤم .
(٢) الأسْوِرة : حلية من الذهب مستديرة كالحلقة تُلبس في المعصم أو الزند .
(٣) التيجان : جمع تاج . ما يُوضع على رؤوس الملوك مصنوعاً من الذهب ومحلى بالجواهر .
(٤) الديباج : نوع من القماش سداه ولُحْمه حرير .

وما حَـوَى ، وتَذْكُرَ المَوْتَ والبَلاء ، ومَن أراد الآخرة ترك زينة الدُّنيـا ، آثر الآخرة على الدُّنيا ، فمن فعل ذلك فقد اسْتحيى من الله حقَّ الحياء » (١) .

فالحياء في فضول الزِّينة في دار العُبودية ، فضيلة مَثُوبتها في الآخرة أعلى الدرجات من كل زينة وفضيلة في الجنات ، والحياء في ترك المَنْهيات ، وامْتثال الطَّاعات فريضة ، فقد عمَّ الحياءُ جميعَ الأمور كلِّها ، المَحْسُوسة ، فهـو خيـر كلُّه ، مَنَّ اللهُ علينا ، وعلَيْكم به آمين آمين ، وصلَّى اللهُ على مُحمد ، وآله وسلم تسليماً .

---

(١) سنن الترمذي (٢٤٥٨) ، مسند أحمد (١/ ٣٨٧) مستدرك الحاكم (٤/ ٣٢٣) . وفي أصل الحديث « أثرك » وهو خطأ .

فصل

وأمّا المقام الثاني من الحياء في عالم الغيب ومقام الإيمان ، فإن أولَ ما يقع عليه بصرُ الإيمان في عالم الغيب نفسُ الإنسان ، ثمَّ الملكان الكاتبان ، ثم جميع الملائكة الذي عمَّروا مُلكَ الله كله ، والملَكان الناظران ، أبدًا إلى
٣٠٣/ب مُهمّة النفس ؛ فإذا رأت الهمّة بالخطيئةَ قالت : أيْ ربِّ / عَبدك فُلان هَمّ بخطيئة ، فإذا علمت النفسُ أن عليها أعَينا ناظرة في الغيب ، والملكوت استَحيت ، لاسيما مع الصالحين من عباد الله ، وهُم الملائكة .

وهذا الباب يَسْتدعي الكلامَ في معرفة النفس ، فأوجب ذلك الكلامَ فيها ، وذلك أن نفسَ الإنسانِ كما قال ذو النُّون :

بسيطة مُنْبَسطة على الأشياء كانبساط نُور الشمس على كل شيء ، فإنَّ جَوهرَ النَّفسِ والرُّوح ليس كَثيفًا كالجسد ، بل بسطها كانْبساط الذَّوات الروحانية ، ولانْبساطها تتصرف بالخواطر والأفكار في جَميع العالم بلا مسافة ، فلا يردها شيء ، وتتغلغل (١) إلى عُلُو العالم ، وسُفله ، فالوجود لها كالمرآى للصور .

ومثال ذلك أنك لو قدَّرت نفسك قائمًا في بيت يكون كُله صقيلاً كالمرآىَ المنصوبة ، أو بَيت من زُجاج ذي ألوان شتى صاف ، لتجلت صُورتك قائمًا في كل مرآة منها ، في البيت كله ، فلو حركت يدك ، وأنت قائم في البيت تحرك مثالك في جميع المرآى ، أو فمك أو عينك ، أو شيئًا دق ، أو جلّ منك .

وورد في الخبر : « أنّ العرشَ جوهر يتلألأ مِلءَ الكون ، ولكُل أحد

(١) تغلغل : دخل فيه .

مثال مُنْطبع في العرش ، وكذلك الموجودات كلها تحت العرش كالمرآى أيَضًا، ما خلا الأرض ، ألا ترى أن الكواكب تثقب أجرام الأفلاك (١) ، والأهوية حتى تنطبع صُورها في الماء ، وفي الأماكن الصقيلة ، ولا / يردها ١/٣٠٤أ إلا الأرض الكثيفة .

فإذا فهمت هذا علمت أن الإنسان مُتجل بنفسه وذاته في الوجود كُله ، فإنَّ الوُجود معمور بالحياة ، والأمْلاك ، فإذا تحرك العَبد في عملٍ من الأعمال انطبعت مثالاته في المرآى فأبصره كل أحد في مقامه ، بلا مسافة ولا كُلفة إلا أن يسترَ اللهُ العبدَ في حين المعصية باشتغالهم عن رُؤيته ، كما يشتغل الجالس عما يفعل جليسه ، فلا يُبصره ، وهو معه إذا كان مُفكرًا غائبًا عنه .

وقد قال النبيُّ ﷺ لبلال : « **إني سمعت خَشف (٢) نعليك في الجنة** » (٣) ورأى مُوسى لَيلة الإسراَء قائمًا في قبره يُصلي ، ورآه في العالم العُلوي -عالم السموات - فكذلك ملك الموت ﷺ قائم في مقامه ، ويتجلى في ساعة واحدة لكل مَن يموت ، في مشارق الأرض ومغاربها ، في تلك الساعة ، وكل أحد منهم رأى ملك الموت حين تجليه لهم في مرَآى أنفسهم ، فقبضها ، ولم يبرحَ من مقامه ، فكذلك نَفس الإنسان مُنْبسطة في العالم كما تقدم .

فانظر كيف يكون حالُنا عند المعاصي ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على مُصيبة العصْيان ، فليس مثْلها مُصيبة ، فإذا عَلمَت النفسُ هذا قبضها الحياء في نفسهَا مِن عُمَّار الملكَوت ، وأسرعت إلىَ التوبة مِن كل ما سلف

---

(١) الأملاك : جمع ملك : المدار يسبح فيه الجِرْم السماوي .

(٢) خشف : صَوت .

(٣) أحمد في مسنده (٢/ ٤٣٩) .

٣٠٤/ب بها ببركة / الحياء ، وسارعت إلى محو الزلة ، وستر الفضائح المكشوفة لأهل الملكوت ، فإن العبدَ إذا أذنب نكت في قلبه نُكتة سوداء ، فيَسْوَد بها باطنُ العبد ، فيُبصره أهل الملكوت أسود عاصيًا ، ولو ظهر سوادُ الذنوب على ظواهرنا ، لهرب منا ، وافْتَضَحْنا عند الناظرين ، فكيف لا يستحيي العبدُ مِن الكرام الكاتبين ، والملائكة عُلوًا ، وسُفلاً ، وهُو مكشُوف لهم .

فصل

ثمَّ بَعد ذلك من المُغيبات المَوْت ، والقبر ، والحَشر ، والميزان ، والحسَاب ، وسَائر مَواطن القيامة ، فَإذَا فكر العَبد في تلك المَواطن كُلها ، وخَشي الفَضيحة في المَوت ، ومَا بعَده ، اسْتحيى ، فَيَقول : كَيف يكُون فَضيحَتي عنَد رسُل رَبي في الموت ، وفي القَبر ، وعَلى رُؤوس الخَلائق إذَا كُشفَ عنَّا غَطاء الدنيا ، وعُلم أنِّي عَبد سُوء ؟ فَيُزعجَه [1] الحَياء إلى ستر الفَضَائح بالتَّوبة ، وتحَسين الحَال ، بالأعمال الحَسنة .

وَوَرد في الخَبر : « لكُل غَادر لواء عند إسْته يُعرف به يَوم القيامة يُعرف بسَوْءَاته »[2] ، وكَيف بالفَضيحة عند الميزَان ، والصِّراط ، والحَوض ، إذَا لمْ يَكُن لَه مَا يَستر سَوءاته السوء ؛ أيْ من خفة وَزْن ، وزلَّة ، وطَرد عَن حَوض ، ودُخول نَار ، وكَيف يكون افْتضَاحَه عند سُكَانها ، وتعيير أهل النَّار لَه ، والعَرض عَلى اللَّه في عَالم الآخرة والقيَامة ، إلى غَير ذلك ، فَإذَا ذكر العَبد ذلك يَستحيي من كُل شَيء ظَاهرًا ، وبَاطنًا ، جَعلنا اللَّه من أهْل الحَياء ، وستَرنا في الدنيا / ، والآخرة آمين آمين ، وصلى اللَّه عَلى مُحمد ٣٠٥/أ
وآله الطَّيبين الطَّاهرين وسَلم تَسليمًا .

وأمَّا القسم الثالث من الحَياء في مقَام الإحسَان فاعلمْ أنَّ ذَلك المقَام من أعلى المقَامات ، وأشرفهَا ، فَإذا تَذكر العَبد مقَام ربِّه ، وحَيطته به ، وقُربه منه ، وتَذكر مُخالَفَاته ، ومن واجه بها ، أخذه من الحَياء مَا يَجل وَصفُه عَن الألسن ، فَتَذُوب النَّفس ، وتَخْنس[4] ، وتَنْكسَر وتَذُوب الرُّوح ، ويَعرق

(١) يزعجه : يُقلقه . (٢) صحيح : تقدم تخريجه .

(٣) يجل : يعظم قدره فلا يستطيع وصفه .

(٤) تخنس : تتوارى وتختفي .

الجَسد ، ويَود أن لمْ يكُن شيَئًا مَذكوراً ، فيَقول الستر : بأي جَد أقف بيْن يَديه ، وبأي لسان أذْكره ، وبأي بَصر أنْظر إليْه ، فيرجع طَرفه خَاسئًا ، وهُو حَسير - أيْ كليل - [١] قَصير عَن الامْتداد إلى تلك الحَضرَة العَلية ، وقد وَاقع مَا وَاقع فَلولا علمه في هَذه الحَالة تَعْظيم حلم اللَّه ، وكَشف ستره ، وأنَّه قَدَّر عليْه تلك المُخالفةَ لذَاب كَما يَذوبَ المَلح في المَاء ، فَالحَياء يُوجب لَه تبَقية الستر الذي هُو مَوضع نَظر اللَّه ، وتَصفية القَلب ، والرَّغبة إليْه ، بالذلَّة ، والانْكسار في محو الذُّنوب ، والعُيوب بالعَفو ، والصفح ، وتَظهر جَوارحه حَياءً من أنْ يقف بجَسَده في طَاعة اللَّه مُتلوثًا بالذُّنوب ، هَذه حَالة الحَياء إذَا كَان العَبد ذَاكرًا لذُنوبه .

وأمَّا إن كَان نَاسيًا لَها لاشْتغاله بالطَّاعة ، فَينَظر في مَقام الإحسان [٢]
٣٠٥/ب إلى عظَمة رَبه فَيستَحيي منْ تَقْصيره / في عَظيم حَق اللَّهَ ، وأنْ يَراه لأحد من خَلق اللَّه ، أو طَامعًا في أَحد منَ عباده ، وأنْ يَذكر نعم اللَّه عليْه ، اسْتَحيَى من كَثرة نعم اللَّه عليْه ، وقلةً شُكره ، فَيُزعجه الحَياء عَن المُبادرة إلى الشكر .

وإذَا نَظر في مقَام الإحْسَان إلى بر اللَّه به ، وإكْرامه إيَّاه ، ورَفيعه ، وحُبه لَه ، وتَقْريبه إيَّاه وجَعْله من المؤْمنين ، وتَخْصيصه لَه بما خصَه من ذكْره ، وكتَابه ، واصْطفَائه لكَلاَمه ، واخْتيَاره إيَّاه عَلى علم منه بعيُوبه ، وَذُنوبه .

كَما قَال : ﴿ وَلَقَد اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ [٣] أي عَلى علم بمَا هُم عَليه من النُّقصان ، والعُيوب النَّفْسانية ، ومُواجهة اللَّه لَه بالستر ، وَإظْهار الجَميل ، وإخْفَاء العُيوب عَلى عَظيم قَدر اللَّه ، وحَقارة النَّفس ،

---

(١) الكليل كلَّ عن الأمر : ثقل عليه وتعب منه فهو لم ينبعث فيه .

(٢) في الأصل : [الإنسان] وهو سبق قلم من الناسخ .

(٣) سورة الدخان : الآية (٣٢) .

فَيَقول الستر بالحياء في ذلك المقام الإحساني لا إله إلاَّ اللّه ، الربّ عَلى مَا هُو عَليه من جَلالة القَدر ، وعَظيم الخَطر ، يَتنزل إليّ مَنْ جَلالة عظَمته إلى سُهولة رَحمته ، وكَريم لُطفه فَخَاطبني بكلامه ، وأَظهر عَليّ أنْوَاع الإكْرام ، وكُلما وَاجهته بمُخالفة ، وغَفَلة ، وتَقصير ، وتَثاقل عَن مُسَارعة في طَاعته ، وَاجَهني سُبحانه بخَلافها ، وإلقْاء الكَف عَليّ في مقَام الحُضور وبَصره فيّ نَافذ ، وأنَا عَلى مَا أنَا عَليْه .

فَيأخذه إذ ذَاك من الحياء مَالا يَعْلمه إلاَّ اللّه ، فحينئذ يَخُوض/ العَبد ٣٠٦/أ في بَحر المَعرفة ، مَعرفة النَّفس ، فَيعرف بها الربَّ ، فَيعرف مَا هُو ؟ وبيْن يَدي مَن هُو ؟ ، وفي حضَرة مَن هُو ؟ ومَن يُخَاطب ؟ ومَن أقبل عليْه عَلى حقَارته ، وقلة نَفسه ؟ .

فَتَتجلى لَه صفة الأمر لَه بكَلامه العَزيز ، ألاَّ يَعْصيه ، ثمَّ عَصاه ، ثمَّ يَتجلى لَه عَظيم الحلَم حين عَصاه فأسبل عليْه الستر ، وأظهر المَحاسن ، وكَتَم العُيوب ، وأَمر بالتَّوبة ووَعد المَغْفرة ، ولم يُغلق باب الرُّجوع إليْه ، والاسْتكَانة(١) والإنابة(٢) .

وهكَذا لاَ يَخوض السر بَحرًا من المَعرفة فَيُوصف من أوصاف اللّه الكرام إلاَّ فَاض منه بَحر من الغَرق في الغَيب عن مُشَاهدة أَوْصاف النَّفس اللئَام .

فَيُخاطبه كُلَ وَصْف من أَوْصَاف النَّفس بلسَان الحَال ، والمَقال : انْظر مَا عَملْتَ مَع ربك ، ومَا عَمل مَعك فَلكُل وَصَف لسَان يُخاطب في دَاخل الجَنَانَ(٣) في مُقَابلة كُل وصَف منها ، يَتَجلى لَه وَصف من أوصَاف .

---

(١) الاستكانة : الذل والخضوع .

(٢) الإنابة : العودة إليه مرة بعد مرة . (٣) الجَنان : القلوب .

الرَحمن ، بضُروب الإحْسَان ، والستر والامتنان ، فَيزداد حَياء عَلى حَياء ، واسْتخزاء [١] عَلى استْخزاء ، وإخباتًا [٢] عَلى إخْبَات .

فَيَقول : الستر يَا لَيتني كُنت نَسيًا مَنسيًا ، ولمْ أكن شَيئًا مَذكورًا : فإن مثلي لا يستَاهل ، وَلا يَسْتحق ، ولاَ يَصلح لُمشَاهدة هَذه الحَضرة العَلية ، فَلا يَزال كَذلك فيمَا لاَ يَعلمه إلاّ اللَّه من أسْرَار المَعرفة ، ومقَامَات الحضُور حتَى تفْنى وتَغيبَ أوصاف العَبَد حِين قُوبل بِها أوصاف الربّ ، فَلاَح لَه حِينئذ مقَام آخر من الحَياء .

٣٠٦/ب ولَيس لَه اسْم يَقع عليْه أقرب من أنْ يُقال/ : « **حَياء الأَدب** » ، وهُو الحَياء من مُشَاهدة الصفات في مَواقفَ الحضُور ، ومجَالس القُرب ، ولَيس بَعده مقَام إلاّ الزِّيادة منه ، وَالتلوين في أنْواع حَياء الآدَاب عَلى ممَّن تَجلى الصفات الغَائبات ، فَلكُل تَجلٍ صِفة حَياء تُدهش ، وتُؤدب ، ولَكُلٍ حَياء ثواب يكرم ، ويُقرب .

منَّ اللَّه علَيْنا وعليْكم بمَا منّ به عَلى أوْليائه ، وأصْفيائه فِي الدنيا ، والآخِرة فِي يُسر ، وعَافية آمين آمينَ .

وصلى اللَّه عَلى مُحمد خَاتم النَّبيْين ، وعَلى آله وسَلم تَسليمًا كثيرًا .

---

(١) الاستخزاء : وقع في بلية وشر فافتضح ثم استحى .

(٢) إخباتًا : اطمئنانًا .

الشُعبَة الرّابعة والخمسون
حُسنُ الخلق

أمَّا كَون حُسن الخُلق من شُعب الإيمان فَبيِّن جدًا ، إلاَّ أنَّها من كَمال الإيمَان ، وفَضَائله ، رَوى أبو هُريرة أنْ رسُول اللَّه ﷺ قال : « **أكْمَلَ المؤْمنين إيمَانًا أَحْسَنُهم خُلقًا** » (١) .

فَجعل الخُلق كَمال الإيمَان ، ورَوى أبُو ذَر قَال : قُلت يَا رسُول اللَّه : أيُّ المؤْمنين أفضل ؟ قال : « **أَحْسنهم خُلقًا** » فَجعلَ حُسن الخُلق أفضل الإيمان ، ورَوى أبُو أُمامة قَال : قَال رسُول اللَّه ﷺ : «**أنَا زَعيم - أو قَال ضَمين - بَيْت في رَبض** (٢) **الجنَّة لمَنَ تَرك المراء ، وإنْ كَان مُحقًا ، وَبيْت في وسَط الجنَّة لمن تَرك الكذب وإنْ كان مازحًا وبَيْت في أعلى الجنَّة لمن حَسن خُلقه** » (٣) فَجَعل حُسن الخُلق أعلى الإيمان ؛ لأنَّه يُعلي إلى/ أعلى الدَّرجات ، ٣٠٧/أ وشواهده كَثيره .

فأمَّا مَعنى الخُلق ، فإنَّه اتصاف العَبد بجُملة الأوصاف التي أمر الشرع بالاتصاف بها جَبلة (٤) كانت في العَبد ، أو رياضة ، وكَسبًا .

وقد أكثر النَّاس القَول في معنى حُسن الخُلق فَمنْ مُصيب ، ومُقصر ، ومُخطىء ، والذي يُحققها ويُفسرها حَديث عَائشة رضي اللَّه عنْها في

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٥٨) ، أبو داود (٤٦٨٢) .

(٢) الربض : كل ما تأوي إليه وتستريح لديه من أم وزوجة وبنت وقرابة وبيت ، وفي الأصل «ربط» وهو خطأ .

(٣) أبو داود (٤٨٠٠) .

(٤) جبلة : أي فطره ، وأنشأه على تلك الأوصاف فأصبحت أصلاً وطبيعة فيه .

الصَحيح حين سُئلت عن تَفسير قَوله تعالى : ﴿ وإنّكَ لَعَلَى خُلُق عَظيم ﴾ [(١)] فقالت : « كَان خُلقه القُرآن » أيْ خَلقه بِأوصاف الرُّبوبية ، فَإنَّ القُرآن هُو الجَامع لصِّفات البَارىء تعالى .

(١) سورة القلم : الآية (٤) .

فصل

اعلمْ أنَّ هَذه الشُعبة تَنْقسم ثَلاثة أقْسَام فَقسم منها في مقَام الإسْلام ، وعَالم الحس ، وقسْم فِي عالم الغَيب ومقَام الإيمَان ، وقسم فِي مقام المشاهدة والإحْسَانَ .

فأمَّا القسم الأول في مقَام الإسْلام ، فَإنّ العَبد لاَ يَخلو من ثَلاثة أشياء ، وهي : الأوامر ، والنَّوَاهي ، ومُعاشرة الخلق ، ويَحتاج فِي ذلك كُله إلى خُلَق حَسَن .

فأمَّا قسم المنْهيات ، فَيَحتاج إلى خُلق واحد ، وصفة وَاحدة تَجمع لَه كُل فَضيلة ، وهي « العفة » [١] والصيانة [٢] فإذَا كَان العَبدَ مُتَخلقًا بالعفة عَن الرذائل ، فَقد حَسن خُلقه ، وعَظم قَدره ، وصان دينه ، ونَفْسه ، وَانْتَفت عَنه أخْلاق الرَّذالة ، والسَّفَالة [٣] كُلها ، فكَان نَزيه [٤] النَّفس بالعفة .

وأمَّا قسم الأوامر ، والمَأمُورات/ فَيَحتاج منها إلى [٥] خُلق وَاحد ، وهُو الإقْدام عَلى فعل الطَّاعات دُون غُلو [٦] ، ولَا إفْراط [٧] ، ولا تضييع من المَفْروضات شَيَئًا عَلى قدر طَاقته ، فَإنَّ ذَلك من شَجاعة البَاطن ، وقُوّته

---

(١) العفة : ترك الشهوات من كل شيء ، وغلب في حفظ الفرج مما لا يحل له .

(٢) الصيانة : الوقاية من العيب .

(٣) السفالة : الخسَّة والنذالة .

(٤) النزيه : الذي يبتعد عن كل مكروه .

(٥) في الأصل : « إلا » .

(٦) الغلو : التشدد في الحكم ومُجَاوزة حد التوسط ، وفي الآية الكريمة : ﴿ولا تَغْلُوا في دينكم﴾ .

(٧) الإفراط التضييع والتسيب في الدين ، وفي الآية الكريمة : ﴿واتَّبعَ هَوَاهُ وكَان أمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي جاوز الحد في اتباعه هواه .

وضده الجُبن [١] ، والضعف [٢] ، فإذا كان العبد شجاع الباطن ، قوي العزم لَم تكبُر عليْه أُمور الطَّاعة ، وانتفى عنه صفات الجبن ، والكَسل [٣] ، والتفْريط ، وكل صفة مذمومة .

في هَذا البَاب قَال اللَّه عَز وجَل شَاهداً عَلى هَذَيْن الخُلُقَين اللَّذين هُما الصيانة والإقْدام : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُم نَارًا ﴾ [٤] أيْ عفّوها ، وضوء نورها عَن كُل قَبيح يُوجب الجرَي بدُخول النّار ، وقَال : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه ﴾ [٥] قيل في التَفْسير : العَزائم ، فَإن احْتاج العَبد إلى رُخصة في مَوضعها أخذَها ، فإنّ ذَلك أيْضا مِن العَزم ، فإنّ كل شيء إذا كَان فِي مَوضعه حَسُن .

---

(١) الجُبن : تهيب الإقدام على ما لا ينبغي أن يخاف .

(٢) الضعف : ذهاب القوة من المرض وغيره .

(٣) كسل : تثاقل وفتر عما لا ينبغي أن يتثاقل عنه .

(٤) سورة التحريم : الآية (٦) .

(٥) سورة الزمر : الآية (١٨) .

فصل

وأمَّا قسم مُعاشرة الخَلق فَيَحتاج إلى أربَعة أخلاق تَجمع الفَضائل كُلها في هَذا البَاب مَع الخَلق ، وهي الحلم ، والبَط [١] ، والعَدل ، والإحْسَان ، فَبالحلم يَحتَمل الأذى والجَفاء [٢] ويَكْظم الغَيظ [٣] ، ويُداري الناس ، ويكون مُتَأدبًا ، ويَنْفي عَنه الطيش [٤] ، والحدّة [٥] ، وغَير ذَلك من أضداد [٦] الحلم ، وبالبَسط يكون إلفًا مَألوفًا ، مُفْشيًا للسلام ، وَاسع الصدر ، قَليل الغل [٧] والحقد [٨] ، مُتواضعًا/ ومُلاعبًا ، ومُمَازحًا بالحَق للأهل والإخوان ، ٣٠٨/أ غَير مُتكبر ، ولا مُتعجب ، إلى غَير ذَلك من أضداد البَسط المَحمود .

وبالعَدل يَستقيم حَاله ، فَينصف من نَفسه ويكون مُنصفًا ، والإنْصَاف من النَّفس من أعظَم الأخْلاق الإيمَانية ، ويَأمر غَيره بالإنْصَاف إذَا رَأى عنده انْحرافًا أو غشًا ، ويَنْفي عنه بذَلك صفات الحَيل ، والمُداهنة [٩] ، والخَديعة [١٠] والمَكر ، وبَخْس [١١] الحُقوق ، وأضداد العدل والنصف كُلها ،

---

(١) البسط : جعله بسيطًا لا تعقيد فيه ، وبسط الشيء : نشره ولاطفه .

(٢) الجفاء : البعد والترك .

(٣) يكظم الغيظ : هو الذي يكظم ويمسك على ما في نفسه عند الغضب ، وقال تعالى : ﴿وَالكَاظمينَ الْغَيظ والعَافينَ عن الناس﴾ .

(٤) الطيش : الاضطراب والانحراف ، وطاش عقله : خف وتشتت .

(٥) الحدة : الغضب وإغلاظ القول .   (٦) في الأصل : [اضطداد] .

(٧) الغل : العداوة الكامنة ، وفي القرآن الكريم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم منْ غلٍ ﴾ .

(٨) الحقد : أضمر له العداوة ، وتربص فرصة الإيقاع به .

(٩) المداهنة : إظهار خلاف ما يبطن .

(١٠) الخديعة : أظهر له خلاف ما يُخفيه ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم .

(١١) بخس الحقوق : النقص ، وفي القرآن : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أي قليل .

فَإن المَلق [١] في الدين مَعصية ، والغَضب في اللَّه مَحمود ، وهُو من العَدل ، لأنَّه توفية لحق اللَّه .

وكَذلك النُّصح من الدين ، ولاَ بُد فيه من قُوة وشدة في اللَّه ، فإنّ رسُول اللَّه كَان لاَ يَغْضَب لنَفسه ، فَإذا انتَهكت حَرمة من حُرَم اللَّه لمْ يَقُم لغَضبه شَيء ، وهُو أحْسَن لخلق اللَّه خُلقًا ، فَهذا الغَضب الذي هُو للَّه ، وَالشدّة جَمال عَلى الوَجه ، ونُور في القلب ، والغَضب للنفس بغَير حَق ظُلمة في القَلب ، وقبح ، وجَمْرة [٢] تَتَوقد في الوَجه ، والجسَد .

وأمَّا الإحسَان فيه يَمْلك الكُل ، فَيَحْسُن مُعاشرة عياله ، وأهله في الإنْفاق ، وغَير ذَلكَ ، ويُحسن إلى ملك اليَمين بالرفق ، ومَع البَهائم والحَيوان ، وبالإحسَان يَعْفو ، ويَصفح ، ويُكرم مَن أكرَمه ، فَإنْ زَاد الإحْسَان ، فَوصل مَنْ قَطعه ، وأعطى مَن حَرمه ، وعَفَى عَمَّن ظَلمه فقَد عَظُم حَظه .

٣٠٨/ب وكَان ممَّن قَال اللَّه : ﴿ **وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذينَ / صَبَرُوا ومَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظ عَظيم** ﴾ [٣] وممّن قَال اللَّه فى هَذه الآية : ﴿ **خُذْ العَفْوَ وأمُر بِالعُرْف، وأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلينَ** ﴾ [٤] .

مع قوله : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتي هِي أحْسَن** ﴾ [٥] الأربع كَلمات تَجمْعن مَحاسن الأخْلاَق كُلها ، في أمُور الدنيا ، والدين ، وقَد وَرد في تفضيلها : « **أنْ تَصل مَن قَطعك ، وتُعطي مَن حَرمك ، وتَعفوَ عَمَّن ظَلمك** » فَفي قَوله : ﴿ **خُذ العَفْوَ**

(١) ملق : تودد بكلام لطيف ، وتضرع فوق ما ينبغي .

(٢) الجمرة : القطعة الملتهبة من النار .

(٣) سورة فصلت : الآية (٣٥) .

(٤) سورة الأعراف : الآية (١٩٩) .

(٥) سورة المؤمنون : الآية (٩٦) .

وَأمُر بِالْعُرف ﴾ مَعْنَى البسط كُله الذي هُو السمح ، والتبرك إلى كُل أحد في أخلاقه ، ومُعَا شرته بمَا يَليق به ، أيْ : خُذ العَفو مِن أخْلاَق النَّاس وأسْقط مَا وَراء ذَلك .

وفي قَوله : ﴿ **وَأمُرْ بالعرف** ﴾ هُو العَدل وَإنصاف كُل أحَد من حَقه ، لأنّ الأمر بالمعروف ، والعُرف المعتاد يَقْتَضي تَوفية الحُقوق دُنيا ، ودينًا ، ﴿**وأعْرِض عَنِ الجَاهِلِين** ﴾ تقْتضي الحِلم ، والعَفو والصَّفح ، ومَا في مَعْنَاه .

وقَوله : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أحْسَنُ السَّيئة**﴾[1] يَقْتضي الإحسَان ، والمُدَاراة، ومُقَابلة الشيء بالإحسَان إلى مَا في مَعنى ذَلك ، فمن استْعمل هَذه الخصال السَّتة في ظَاهره ، فَقد جَمع الأخْلاَق الحُسنى ، وهي : العفة[2] ، والإقْدام والحلم ، والبَسط ، والعدل ، والإحسَان ، حَسَّنَ اللَّه خُلقنا ، وعَامَلنا ، وإيَّاكم في الدنيا ، والآخرة بمقْتضى سمْحه ، وعَفْوه ، وإحسَانه ، آمين وصلى اللّه عَلى مُحمد وآله وسلم .

وأمَّا **المقَام الثاني** من حُسن الخُلق في مقَام الإيمَان ، فَإنّ أول مَا يقع عليهْ بصَر الإيمَان في المُغيبات نَفْس الإنْسان ، فَينظر فَإن كَان طبَّعه الله بغَرائز[3] حَسنة ، غرزَها فيه فَليَشكر اللّه ، ولَيَسع بالرياضة في تَتْميمها ، و تَكْميلها ، فإنَّها ليَست تكْمُل إلاَّ بالشَرع ، قال النَّبي ﷺ : « **بُعثتُ لأُتمم مكَارم الأخلاق**»[4] فَالشَّرع مُراتب ، وفيه نَنظر ، ومَا كَان فيه من خُلق سَيء أُخذ في الرياضة لزَوالها ، واكْتسَاب ضدها ، وقَد نَدب الشَرعَ إلى رِيَاضة النَّفس ، واكتسَابَ الأخلاَق الحَسنة ، والرَضاع[5] بغير الطبَاع .

(١) سورة المؤمنون : الآية (٩٦) .

(٢) في الأصل : « إلا » بعد « وهي » وحذفت لتتمة السياق وتوضيح المعنى .

(٣) الغرائز : الطبيعة والسجية .

(٤) موطأ الإمام مالك (٩٠٤) .

(٥) الرضاع : اللئم . وسمي بالرضاع لأنه يمتص اللبن من الضرع لئلا يسمع غيره صوت الحلب ، =

فصل

فإنْ قُلت : فَإنّ النفّس حَرونة(١) ، مَجْبُولة(٢) عَلى الخُلق السيء ، كَيف يَحسن أخْلاقها ، وترياض ؟ .

فاعلمْ أن المؤمنات كُلها الغيبيات التي يَقع عليهْا بَصر الإيمان ، إذا نَظر الإيمَان إليّها بصدق كَانت لَه رَايضة ، ومؤدبة ، و مُعينة أحسن رياضة ، وأعظم تَأديبَ ، فأول ذَلك المَلائكة ، والشياطين ، فتجْعَلها مرآتين في الغَيب ، فَلينظر بإيمَانه ، وعقله إلي أخْلاق الشَّياطين من الإنائة ، والنفور عَن الحقَ ، والاسْتكبار ، والعُجب ، (٣) والعناد (٤) ، الجَرأة (٥) في الباطل ، والتصميم عليه ، والجَرْم (٦) ، والحدَّة ، والحيلة ، والمَكْر ، و الخديعة ، والخبث (٧) ، والغش (٨) ، والازدراء بالأقدار الرفيعة ، وغَير ذلك من أخلاَق الشَّياطين المُهلكَة الرَّذيلة الدَّنيئة(٩) والتي تأمر بها ، ويَحض عَليها من حقد ، وحَسد ، وغل ، وبخل ، و كُفر بنعْمَة ، و غَير ذَلك مما يطَول ذكره ، فَيجتنبها ، ولاَ يَقبلها ، ويَأخذ في قَلْعها من باطنه ، ثَم ينَظر إلىَ المرآة

=فيطلب منه ، والرضاعة بكسر الراء وبفتحها .

(١) حرونة : حرنت الدابة : وقفت حين طُلب جَرْيها ، ورجعت القهقري فهي حرونة .

(٢) مجبولة : أي فطرت وأُنشأت على تلك الأوصاف فأصبحت أصلاً وطبيعية فيه .

(٣) العُجب : الكبر والزهو .

(٥٤ العناد : الاستكبار ، وتجاوز الحد في العصيان .

(٥) الجرأة : الإقدام ، والشجاعة .

(٦) الجُرم : الذنب .

(٧) الخبث : صار رديئًا مكروهًا .

(٨) الغش : تزيين غير المصلحة مع إظهار غير ما يبطن فهو غاش .

(٩) الدنيئة : النقيصة .

الأخرى ، وهي ذوات الملائكة وهُم عَلى نَوعين :

مَلائكة رَحمة ، ومَلائكة عَذاب ، ويَسْتَمع لمَا تأمر به من أخْلاقها الكَرِيمة من التوَّاضع[١] ، و الانقياد[٢] ، للحقَ ، والنُّفور[٣] عَن البَاطل ، والعفةَ ، والكَرم ، والنَّزاهة عَن الرَذائل ، والحَياء والبروز للرب ، وذَوي الأقْدار ، والاسْتغفار للخَلق ، والخدمَة لهَم ، والعَطف عليهم ، والدَّعوة لَهم إلى اللَّه ، والغلظة في اللّه ، والشِّدَة عَلى إبْليس وجُنوده ، والتعزز[٤] على الطُغاة ، والجَبَابرة ، والتكبر عَليهم بالحق ، إلى غَير ذَلك مِن أخلاقهم القَاصِرة ، وصِّفاتَهم القَاهرة .

وبذلك أمر النَّبي ﷺ فقيل لَه : « جَاهد الْكُفَّارَ وَالْمُنافقينَ وَاغلُظ عَلَيْهِمْ »[٥] وقال في أصْحَابه : ﴿ أَشداءُ عَلَى الْكفَّارِ رُحَماء بَيْنهمْ ﴾[٦] ﴿ أَذلَّة عَلَى الْمُؤْمنين أَعزة عَلَى الكافرين ﴾[٧] فيتخلق بذَلك كُله وقَد تَقدم ذكر غَضَبه للّه في مقام الإسْلام ، فَلْتكن كَذلك أيْضًا علىَ إبْليس ، وجُنوده ، و صفَات النَّفس المُهلكة بَاطنًا ، حتى يَسْتقيم حَاله، وأمرَه ظَاهر ، وبَاطنًا .

واعلم أنَّ التماوت[٨] ، والتَّذَلل[٩] في غَير مَوضعه من أسوأ الخُلق ، وهُوأنوثية ، لا سيما من أخلاق الرجال المتصفين بأخَلاق/ ١/٣١٠

---

(١) التواضع : التنزه عن الكبر .

(٢) الانقياد : الخضوع والذل .

(٣) النفور : الفزع منه ، والبعد عنه .

(٤) التعزيز : التشدد والتقوي .

(٥) سورة التحريم : الآية (٩) .

(٦) سورة الفتح : الآية (٢٩) .

(٧) سورة المائدة : الآية (٥٤) .

(٨) التماوت : تظاهر بالموت وهو حي .

(٩) التذلل : طلب الخضوع وإظهاره .

الكَمال ، وهَا هُنا غَلط كَثير من النَّاس فَظَنوا أنَّ الملق ، والمداهنة مِن حُسن الخُلق ، وعدُّوا ذلك مداراة ، ولَيس كذلك .

فَإنَّ المُداراة ماسَلم فيها الدِّين ، والمدُاهنة والمَلق مَا سَلمت فيه الدنيا ، ولمْ يَسلم ، ونَقص فَيه الدين ، وكَذلك انْعكست عليْهم أشيَاء كَثيرة فَرأوا المُنكر مَعروفاً والمعروفَ منكراً ، وداهنوا عليه نفوسهم ، وجَوارحهم ، ورَضوًا به ومَعَاذ اللّه أنْ يكون هَذا حُسن خُلق ، وجبْريل عليْه السلام هُو عَدو اليَهوَد من أجل أنَّه يَأتي بالرَّحمة ، وَيأتي في العَذاب في مَواطنها وهُو أحب الملائكةَ إلى أهل الحَق ، فإذَا نظر العَبد في مقَام الإيمان إلي أوصاف المَلائكة ، والشَّياطين ، فَاتَّصفَ بالمحَمود ويَفر عَن المذموم كَان كاملاً[1] في حُسن الخُلق .

ثمَّ إنّ المؤمنات كُلها في عَالم الغَيب ، مغيبة لَه ، ورَايضَة غَاية الريَاضة ، فَإنّ أقرب مَوجود بَعد الملائكة من الغَيب حَالة الموَت ، فَإذا تَذكر الموَت هَدم صفات البَهائم ، وكَسَرَها من نَفسه ، ونَقَص حرصه الكُلي ، وجرَأته عَلى اقْتحام المهَالك التي هَي صفات السِّباع المؤُذية ، وانْكسَرت حدّة غَضبَه عَلى الخَلق بغَيَر حَق ، وذَلك من أخلاق الكلاب ، وزَالَ يَذكرُ الموَت ، والآخرة عَنه الغَفلة ، والبَلادة[2] ، والسهو ، ٣١٠/ب والذهول الذي هُو أخلاقَ الحَمير ، والبَهائم وكذلك / إذا نَظر يُبصر إيمَانه إلي جَميعَ المؤمنات في القيامة ، وأهوالها ومَواطنها ، والجنَّة ، والنَّار ، والميزان ، والصِّراط ، وعَظَائمها كَسر ذَلك حدّته ، وكبره ، وأورَثه أخلاَق الخضُوع[3] والخُشوع[4] والرَّحمة ، وارتفاعَ الهمّة عَن الخَسيس[5]

(١) في الأصل : « كلاما » .
(٢) البلادة : ضعف الذكاء .
(٣) الخضوع : الإمالة والانحناء .
(٤) الخشوع : الانخفاض والسكن .
(٥) الخسيس : حقر ورذل .

الفَاني ، ولا يَرى ببصَر إيمانه شَيئًا غَائبًا إلاّ كَان لَه رَابطاً أحسن رياضة ، ومُكّسبًا لَه الأخّلاَق الحَسنة ، ومْزيلاً عَنه ، أخلاق السهو ، المُهلكَة ، مَنَّ اللَّه علَينا ، وعليْكم بَذَلك في عَافية آمين أمين ، وصلى اللَّه عَلى مُحمد وآله

فصل

وأمّا القسم الثالث من حسن الخلق في مقام الإحسان [١] فهنُاك العَجب العُجاب ، ومَعناه يَرجع إلى الإحْصاء ، والتَّعبد بمَعاني أسماء اللّه الحُسنى ، كما ورَد في الخَبر : «إنَّ للّه تسعة وتسعين اسمًا [٢] مائة إلا واحداً، واللّه وتِر يُحب الوتر ، مَن أَحْصَاها دَخل الجَنَّة » [٣] .

ومَعْنى الإحْصَاء لهَا الحفظ لهَا ، والاتِّصاف بالقيام ، وبمعَانيها ، والتَّعبد بها ، والتَّخلق بمَعانيها عَلى حَسب مَا أمر القُرآن به من التَّعبد ، ونهَى عنْه من الخُروج عَن التَّعبد بها ، فَإن القُرآن هَو الجَامع للأسْماء ، والصفات ، وهُو مَعنى الخَبر الذي رَوَت عَائشة -رضى اللّه عنْها - في قَوله : ﴿وإنَّكَ لَعلَى خُلُق عَظيم﴾ [٤] قالت : « كَان خُلقه القرآن » [٥] فَأخْلاق النبي ﷺ من القُرآن مأخوذة ، فكَان يَنْظر إلى أوْصاف بَارئه ، وأخلاقه فيقتدي بهَا ، ويُتَعَبد لَه بها عَلى حَسَب مَا أمَر ، وقَد رُوي عنْ عائشة عنْه علَيْه السَلام / ١/٣١١
في ذَلك خَبَر ، رَوت عنْه أنَّه قَال : « تَخلَقوا بأخلاق اللّه».

فَإذَا نَظر العَبد في مقَام الإحْسَان إلي قيام البَارئ تعَالى بالموجُودات ، وصَنيعَه مَعهم ، وكَيْف فَاضت مَعاني الأسْماء ، والصِّفَات في جَميع الأشيَاء ، وتعبد بمَعانيها ، واتصف بمَا أُمر به ، من ذَلك كان كَماله ، وكَمال إيمانه عَلى قَدر تَخلُّقه ، واتصافه وتعبده بهَا ، قَال اللّه عَز وجل :

(١) في الأصل : « الأجساد » .

(٢) زاد في الأصل [من] تعد [اسما] .

(٣) صحيح : تقدم تخريجه .

(٤) سورة القلم : الآية (٤) .

(٥) صحيح : رواه مسلم من حديث عائشة - رضي الله عنها - تقدم تخريجه .

« وَلِلَّهِ الأَسماءُ الْحُسنى فَادْعُوهُ بِهَا »(١)

والدعاء هُو العبادة بالأقْوال ، والأفْعال ، والأوصاف .

وأذكر لَكَ مَعنى مُختصراً من مَعاني ذَلك إنْ شَاء اللَّه تعالى لتَستدل به عَلى غَيره ؛ فَإِنَّ هَذا بَحر لا يُدركَ غَوره(٢) ، ولاَ يُشرح في أسفار(٣) عدة ، بَل المَخُوقات كُلها في الدنيا ، والآخرة ، مُتَلونة مُتَعبدة بمعَاني الأسمَاء ، والصفات ، لاَ يَنْقضي ذَلك ، ولاَ يتَم أبَد الآبدين ، ودَهر الدَّاهرين ، وَوَرد في الخَبر أنَّ اللَّه تعالى : « خَلق مائة رَحمة كُل رَحمة منها طِباق السَّموات ، والأَرض »(٤)

قيل : إنَّ مَعْناها خلق عَن مَعنى اسْمه الرَّحمنُ الرَّحيم مائة رَحمة ، وكَما خَلق عَن مَعنى اسْمه الرَّحمن أنْواع الرَّحمة التي مَلأت الوجُود كله ، فكَذلك خَلق عَن مَعنى اسْمه الرَّحيم أنْواع العُلوم ، وَالمَعارف التي لاَ تُحصى ، ولا تَنْقضي على مَمَر الآباد والدُّهور ، وكَذلك الحُكْم عَن الحكَيم ، وكذلك والحلم عَن الحَليم ، وكذلك الرأفة عَن الرؤوف/ ، والعزة عَن ٣١١/ب
العَزيز ، والعَفو والغُفران عَن الغَفور ، والكَرم عَن الكريم ، والجَود عَن الجَواد والنُّور والبَيان عَن النُّور المبُين ، والكَلام والنُّطق عَن المُتكلم ، وكَذلك كُل اسْم وصِفة .

فَإذَا فَهمت هَذا عَلمت أنَّ من أسْمَائه المؤُمن فَسمّاك مُؤمنًا ، بَل فرض عَليْك الاتصاف بالإيمان ، و أوْصَافه لتكون مُؤمنًا حَقاً ، وعَذّب عَذاب

(١) سورة الأعراف : الآية (١٨٠) .

(٢) غوره : كل منخفض من الأرض ، ومن كل شيء قعره وعمقه .

(٣) أسفار : جمع سِفر وهو الكتاب .

(٤) أحمد في المسند (٤/ ٣١٢) ، الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٣٠٧) ، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢١٤) ، الحاكم في المستدرك (١/ ٥٦) .

الأبد مَنْ أَبَى أنْ يَتصفَ بذَلك .

وكَذلك اسْمه السلام فَنَدبك إلى أنْ تكون مُسلمًا سَالم الصَّدر ، سَالم الجَانب من كُل قَبيح ، فتَسلمَ ، ويَسلم منك كُل شَيء ، ويُدخلك دَار السَلام مُخَلداً في السَّلامة ، والأمن .

وكَذلك من أَسْمائه الرَّحمن الرَّحيم ، فَأمرك أنْ تَكُون رَحيمًا ، وكَذلك رَؤوفاً ، وكَريمًا ، وجَواداً ومُحسناً ، عَفوًا ، وغَفورًا ، وعزيزاً به ، وغَنيًا به ، وكَبير القَدر به ، ومُتكبراً على أعْدائه ، فَإنْ اعتْرضك شُبهة [1] في بَعض الأسماء فسل أَهل العِلم بها ، فإنّ هَذاَ باب لاينخرم [2] أَبَداً ، ولاَ يَعْترض عَلَيْه إلا من جَهله .

ومثال ذلك أنّ من أسمائه سُبحانه في البقرة : خَادع المنافقين قَال اللَّه عَز وجَل : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [3] .

فَإن قُلت كَيف الاتصاف بِهذا الاسم ؟ .

فَاعْلَمْ أنّ الحَرب خُدعة ، والخداع مع الأعداء في مواطنه من أحسن ١/٣١٢ الأخلاق ، والأوصاف فاستعن/ بالله يُعينك ، وارجع إلى قول عائشة رضي الله عنها ، « كَان خُلقه القُرآن » يعني رسُول ﷺ .

وانظر إلى كُل لفظة من القرآن ، فإنّها تَدل على وصف ، واسم من أسماء اللّه ، ويأمر بالتَّعبد بها خَيرًا كان أو أمرًا ، ألا تَرى إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [4] ، فأمرك بأن تتخَلق

(١) الشُّبه : الالتباس .

(٢) ينخرم : يحدث فيه ثقب .

(٣) سورة النساء : الآية (١٤٢) .

(٤) سورة التغابن : الآية (١٤) .

بصفة الكيِّس (١) ، حَتى لا تُخدع فَتكون حَذرًا ، ثم قال : ﴿ وإن تعفوا ﴾ فأمرك بخُلق العفو ﴿وَتصفَحُوا﴾ فأمرك بالتَّخلق بالصفح عن الزلل ، ﴿وتَغفِروا ﴾ فأمرك بالتَّخلق بصفة إسقاط الحقوق ، والغُفران ، والستر ، وترك الاستقصاء .

ثمَّ نبهك أنَّ ذلك من أوصافه فقال : ﴿ فإنَّ الله غَفورٌ رَحيمٌ ﴾ (٢) ثم قال : ﴿إنَّما أَموالُكُم وأَولادُكُم فتنةٌ ﴾ (٣) فَنَبهك على أن تكون مُتَخَلقا بصفة الفطنة ، والذَّكاء ، فلا تُفتتن بالفتنة ، فَتقطعك عما فطنك إليه ، وهُو قوله : ﴿ والله عِنده أجـرٌ عَظيمٌ ﴾ (٤) ، ثم نبه ، وأمر بصفة العفة عن القبيح ، والاتصاف بالكرم الذي هو التَّقوى فقال : ﴿ فاتقُّوا(٥) الله مَا استَطَعتُم﴾ (٦) وحذر من الانبتات بقوله : « ما استطعتم » « فإنّ المُنبت لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع » ثم أمر العبد أن لا يكون أصمّ الباطن فإنَّ ذلك من أخلاق البهائم ، والمَوات فقال : ﴿ واسْتمعَوا ﴾ ثمَّ أمرنا بأخلاق الانقياد . والتواضع للحق فقال :/ ﴿ وأطِيعوا ﴾ ثمَّ أمر بالجُود والكرم ، وقال : ﴿وأنفقُوا خيرًا لأنفُسكُم﴾ ثمَّ نهى عن أخلاق الشح (٧) ، والبخل فقال : ٣١٢/ب

﴿ وَمن يُوقَ شُح نَفسه فَأُولَئكَ هُمُ المفلحونَ ﴾(٨) وهكذا كل آية ، وكلمة في القُرآن لمن تدبّرها ، أيَ نوع كَانت مثل قوله : ﴿ يُوصِيكُمُ اللّه في أَولادِكُم

(١) الكيس : ظرف وفطن في استنباط ما هو نافع .

(٢) سورة التغابن : الآية (١٤) .

(٣) سورة التغابن : الآية (١٥) .

(٤) سورة التغابن : الآية (١٥) .

(٥) سقطت الفاء من أول الآية .

(٦) سورة التغابن : الآية (١٦) .

(٧) الشح : الذي يُمسك ما عنده ، ولا يجود به .

(٨) سورة التغابن : الآية (١٦) .

لِلذكرِ مِثل حظِ الأُنثَيَين ﴾ [١] إلى آخرها .

أمر الله فيها بالعدل ، وهو صفة من صفاته ، ونَهى عن الجور[٢] ، وبخس[٣] الحُقوق الذي هُو الظُّلم ، البعيد من أوصافه ، وكذلك قوله :

﴿ يَاأيها النَّبي إِذَا طَلَّقتمُ النساء فَطلَقُوهن لعدتِهنَّ ﴾ [٤] إلى آخر المعاني من السورة .

أمر بالأخلاق الحسنة من التثبت ، ومن الإبقاء ، وترك الإضرار ، وغير ذلك ، وإنَّما نَبَهتُك على هذه الآيات ، لأن معاني الأخلاق فيها أخفى من غيرها ، وهي في غيرها أبين ، كي لا تظُن أنَّ في القُرآن كلمة إلا وفيها أمر بُخلق حسن ، وأوصاف لاَ تَتَناهى حُسنى ، فإنَّ القُرآن صفة من صفات الله ، وفيه شرح لنا معاني أسمائه ، وصفاته القائمة بالموجودات كُلَها ، وعلمُ الأسماء ، والصفات أعظم العُلوم ، وأرقها ، وأوسعها ، وليس يُمكن الكلام في هذا المُختصر على ذلك ، فاستعن بالله يُعنك ،
١/٣١٣ واستهديه يَهدك ، وليس في / الأسماء مالَم يؤمر العبد بالاتصاف بمعانيه إلا اسم الله جل جلاله ، فإنه لم يُوجد عن معناه أُلوهية أمر بالاتصاف بها ، كما أوجد عن الرحمن الرحيم ، وعن العَليم العِلم ، وغَير ذلك .

ومَن أحصَى من علم الأسماء شَيئًا فقد دخل الجنَّة بذوق مَعَانيها في الدنيا على قدر إحصَائه لَها ، بل الجنة نبذة من معاني الأسَماء والصفات ،

(١) سورة النساء : الآية (١١) .

(٢) الجَور : مال وعدل عن الشيء ، وفي حكمه ظلم .

(٣) البخس : النقص .

(٤) سورة الطلاق : الآية (١) .

ألا ترى إلى قول النّبي ﷺ .:« من أحصاها دخل الجنة » [(١)] تدخلها حالاً بالمعنى ، ومآلاً بالحقيقة إن شاء الله تعالى ، ولا يدخل أحد الجنَّة حَتى يُحصيها ، يَتَخلق بمعَانيها مثال ذلك أنَّ النبي ﷺ قال :

« لا يدخل الجنَّة [من كان في قلبه] مثقال ذرة من كبر » [(٢)] فمن كان بين أهل الكبر ، وهُو بين أهل الإسلام ، ودخل النَّار لأجل كبره ، فقد ذل في نفسه ، وتصاغر ، وتواضع ، وافتقر لله الكبير ذُلاً ، وتصَاغراً ، وافتقاراً ، لايَعلم قَدره إلاّ الله ، لأنّ ذلك فاته في الدنيا ، فَإذَا ذلّ غاية الذل للعزيز ، وتَواضع للكَبير أخرج منها ، ودَخل الجنَّة ، فافهم ، فَليس يَدخلها إلا حتىَ يَتَخلق بالأخلاق الحَسنة ، وكَذلك آدم عليه السلام في قوله :

﴿ و عَلَّمَ آدَمَ الأَسماءَ كُلَّهَا﴾ [(٣)] المَخْلوقة ، كَان في أحسن صُورة ، وخُلق ، فَقَال بَعد الإحْصاء/ ﴿ وَ قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزوجك الْجنَّة ﴾ [(٤)] ثم ٣١٣/ب
لما خَدعه الشَّيطان ، ولم يَحفظ الوصاة ، ونَسي العَهد ، وكَان ذلك سُقوطًا عَن التَّخلق باسم الحافظ ، والاتصَاف بصفة الحفظ للوَصية والأمر ، وخُروجه عَن التخلق بأوصاف الذاكر الذي لاَ ينسىَ ، فَأطاع عَدوه ، فخرج بذلك من الجنة .

---

(١) صحيح : رواه البخاري كاملاً (٣/ ٢٥٩) ، (٩/ ١٤٥) ، مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء

(٢) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب (٣٩) رقم (١٤٧)، ابن ماجه (٥٩) ، (٤١٧٣) ، أبو داود (٤٠٩١) ، الترمذي (١٩٨٨) ، (١٩٩٩) ، وما بين المعقوفين سقط من الأصل .

(٣) سورة البقرة : الآية (٣١) .

(٤) سورة البقرة : الآية (٣٥) .

ثم رَجع إلى الاتصاف باسم التواب فتاب الله عليه ، وبقي حافظًا للوَصية ، وذاكرًا للعهد ، فلم يقدر إبْليس عليه بَعدها بشيء ، فمن أُحصى الأسماء وَجد أذواق الجنة ، وأشرف على مَعاني درَجاتها ، فإنها مائة درجة ، على عدد الرحمة التي عن اسمه الرحمن الرحيم ، وعلى مَعَاني الأسماء ، والصفات .

وهذا علم غريب مخصوص بأهله ، فهمنا الله ، وإياكم ، ووفَّقَنا لِمَا يُحبه ، ويرضاه .

فصل

واعلم أن أهل الجنَّة إذا دَخلوها ، وكَملُت أخلاقهم ، وأوْصافهم ، وتَجلى لَهم ربُّهم بمَعاني الأسْمَاء الحُسنى ، والصفات العُلى ، تَخلقوا بمعانيها ، وهي فَعّاله في الوجود أبداً ، وفي ذوَاتهم ، فيتصَّفون بمعَانيهاَ المخلوقة ، ويَترقّون في الاتصاف ، والتَّخلق أبدًا ، فَهُم يطلبون الانتهاء في الكمال من ذلك ؛ لأنَّ أوصافهم مَخلوقة ، قَاصرة عن أوصاف البارىء القديمة ، فهُم أبدًا طالبون الزِّيادة ، ومُتصفون بالكمال حالاً بعد حال ، ووقَتًا بعد وقت / ، والبارىء يخلع عليهم ، ويلبسهم خُلع ١/٣١٤
الحُسن ، والكمال ، والجَمال ، والإنعام ، والأفضَال ، والإكرام ، والإجلال ، الإعزاز ، وسائر معاني الأَسماء ، والصِّفات أبد الآَ بدين ، ودَهر الدَّاهرين ، فمن اشتهى لِبسة لبسها ، ومن تَمنَّى صُورة تَقلدها ، ودَخلها .

وَوَرد في الخبر أنَّ في الجنَّة سُوقًا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرِّجال والنِّساء ، فإذا اشتهى الرَّجل صُورة دخل فيها ، فَتلك الصُّور مَن اتَّصف بها يُدرك بذَلك مَا لم يُدرك من الزَّيادة ، والترقي ، أبد الابدين لا حرمنا اللَه ، وإيّاكَم دُخول الجنَّة ، وجَعلنَا من أهلها في يُسر ، وعَافية بِمنّه وكَرمه ، آمين آمين ، وصلى الله على محمدَ وآله .

الشُّعبة الخامسة والخمسون والسادسة والخمسون

الإحسان

وهُو على مقَامين ، فلذلك صار شُعبتين ؛ لأنّ النبي ﷺ قَد جَعله شَيَئين في حديث جبريل عليه السلام حين سأله عن الإحسان ؛ فقال : « أن تَعبد الله كأنك تراه » فهذا مقام « فإن لم تَكن تراه فإنَّه يَراك »[(١)] ، هذا مقام آخر .

فأمّا : كَونه من الإيمان ، فبين ؛ لأنّه في نفسه تصديق بالنّظر إلى الله في الحال ، أو تصديق بأنّ الله ينظر إليه ، إلا أنّه ثمرة الإيمان ، وأعلاه ، وخالصه ، فوقع عليه اسم الإحسان / كما أنَّ الإسلام فُروع الإيمان ، وهُو ٣١٤/ب إيمان ، لكن وقع عليه اسم الإسلام فافهم .

---

(١) صحيح : سبق تخريجه وعليه مدار كثير من الشعب .

فصل

نَتَكلم أولا على الشُّعبة الأدنى إلينا ، وهُو علمُنا أنَّ الله يرانا ، فنقول : هي على ثلاثة أقسام : قسم في مقام الإسلام ، وقسم في مقام الإيمان ، وقسم في مقام الإحسان نفسه .

فأما القسم الأول : في مقام الإسلام ظاهرًا فإن الأمور في عالم الحس ثلاثة : معاصي ، وطَاعات ، ومُباحات المعايش .

فأما قسم المعاصي : على اختلاف أنواعها ، فإنّ العبد مَأمور بأن يَعلم أنّ الله يراهَ ، فإذَا هَمّ بمَعصية ، وعَلم أنّ الله يَراه ، ويُبصره عَلى أي حالة كان ، وأنّه ﴿ **يَعلَمُ خَائِنَةَ الأَعيُن وَمَا تُخفي الصُّدُور** ﴾ (١) ، كف عن المعصية ورَجع عنها ، وإنَّما الإنسان يذهل عن نظر الله إليه فيَنسى حين المعصية أنَّه يراه ، أو يكون جَاهلاً ، فيظن أنَّ الله بعيد عنه ، بكونه على العَرش ، وهُو في الأرض ، ولا يَتَذكر .

ويَعلم أنَّه يُحرك جَوارحه حين العمل المعمول ، فيَنسَى ذلك ، أو يجهل ، فيقع في المعصية ، ولو علم وتحقق أنَّ والده أو رجُلاً كبيرًا يراه حين المعصية لكَفَّ عَنها بحصول البُرهان الإحساني عنده ، وهُو البرهان الذي أوتيه ، ورآه يوسف عليه السلام في مُراودة امرأة العزيز إيَّاه ، وهَذا البُرهان كلَّما قيل فيه من الأقوال/ فإلى هذا المعنى يَرجع ، وهُو الحقيقة فيه ، وأنَّ ١/٣١٥
الله يقول : ﴿ **وَلَقَد هَمَّت بِه ، وَهَمَّ بِهَا لَولاَ أن رأى بُرهَان ربِّه** ﴾ (٢) فأضاف البُرهان إلى الرَّب سُبحانه، والبُرهان هُو قيام الدليل الواضح القطعي بأن

(١) سورة غافر : الآية (١٩) .

(٢) سورة يوسف : الآية (٢٤) .

الله مَـوجـود حَق ، وأنَّه ناظر إلى كُل شيء ، ومُـتـصـرف بكُل شيء ، ومُحركه، ومُسكِّنه ، فمن أراه الله هذا البُرهان عند جميع المَنهيات صرف عنه السوء، والفَحشَاء من جَميع المُنكرات ، كَما قَال تعالى في الآية : ﴿ كَـذَلكَ لنَصـرف عَنهُ السُّـوء ، والفَـحشَـاء ﴾ [1] ونقـصـانه من المعـاصي حين العصيَـان ، رحـمـه عظيمة به ، لا له ، أو عصى عن جُرئه ، وهَتك حُرمة نظرة الله إليه ، وهُو يَعلم ، ويَرى أنَّه يَنظر إليه ، فكَان عصيانه بقلة المُبالات ، وهتَك حُرمة نظره كُفرًا ، أشد من كل عِصيان في الوُجَود .

قـال النَّبي ﷺ : « لايَزني الزَّانـي حين يزني ، وهُو مـؤمن » [2] يعني أنَّه مؤمن بنظر الله إليـه ، أو نظره إلى الله ، ولذلك تَرى العَاصي إذَا تَاب من المعصية وتَذكر مَعَاصيه ، وذكَر أنّ الله كَانَ يَراه في حَين عِصيانه أخزىَ ، واستَحيى منه قِلة حَيَاؤه ، من نظر الله إليه .

---

(١) سورة يوسف : الآية (٣٤) .

(٢) صحيح : سبق تخريجه .

فصل

٣١٥/ب وأمَّا : قسم الطاعات في هذا المقام الإسلامي فإن الطاعات كلها/ يستعبد بها الإنسان ، والإحسَان واجب فيها للحديث الوارد فيها :

« **الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تَراه ، فإن لم تكن تَراه فإنَّه يَراك** » [١] ، ولابد بمن علمها [٢] ، والإخلاص فيها .

فإذَا علم العَبد أنَّ الله مَوجود حَق ، وتبرهن عنده أنَّه يراه عَبده ، لا مَحالة إلا أن يَكون زنديقًا [٣] جَاحدًا ، لايُقر برب ، فإن كان مقرّ بوجوده فترك العبادة ، فإنَّما تَركها تَهاونًا نقصان البُرهان الإحساني عنده ، هذا حال المُضَيعين للفَرائض بجَهلهم بقَدر الأمر ، وقَدر أمره ؛ لأنَّه لا يعرف قدره ، وقدر أمره إلا من شمَّ رَوَائح الإحسان البُرهَانية ، والدلائل العقلية القطعية .

فَإذَا علم قَدر الأمر ، وقَدر نظره إليه سارع إلى أمره على قَدر طَاقته ، فَيَعترضه في العبادة شَوائب [٤] الرِّياء [٥] ، والعجب [٦] ، والتزين [٧] ، والآفات المفسدة للعمل ، فَيَحتاج حِينئذ في العبادة إلى

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) في الأصل : « عملها » .

(٣) الزندقة : القول بأزلية العالم ، وأُطلق على الزردشتية ، والمانوية وغيرهم من الثنوية وتُوسّع فيه فأطلق على شاك أو ضال أو ملحد .

(٤) شوائب : جمع شائبة . وهي : الشيء الغريب يختلط بغيره ، ويقال : ما فيه شوائب ليس فيه شُبَه .

(٥) الرياء : أراه أنه متصف بالخير والصلاح على خلاف ما هو عليه .

(٦) العجب : الكبر والزهو . (٧) التزين : حُسن المظهر .

إخلاص ، والإخلاص محتاج إلى مقام الإحسان ، لا غنى له عنه ، لأنَّه إذا علم أنَّ الله يَراه في حين تَزينه لعَبد مثله [وهو] [١] فَقير لا يملك شَيئًا استَنكف [٢] من ذلك ، وأخلص العبادةَ لربه ، فجعل سمع الله مكان سمع المَخلوقين ، وبَصره مكان بصرهم ، فصار يَتَزين لمولاه الذي يَنظر إليه ، ويَراه ، والذي كُل شَيء في جَنبه كلا شيء ، فإنَ غلبه انقضى/ وزَل عن ٣١٦/أ مقَام الإحسان ، ووَقع في مُشكل [٣] يُبطل العبادة ، سارع إلى الاستغفار ، والرُّجوع إلى مقَام الإحسَان ، هكذا دأبُه في جَميع المأمورات ، فَيسلم من السمعة [٤] ، والرياء للمخلوقين ، ويَسلم من العُجب ، وغَيره بمعرفته ، بقَدر مَولاه ، واستِحقَاره كُل عِبادة في حقه ، وعظيم قَدره سُبحانه .

---

(١) في الأصل : كلمة غير مقروءة ، ووضع ما يتم به المعنى .

(٢) استنكف : آنف عنه ، وامتنع عن فعله .

(٣) مشكل : التبس عليه الأمر .

(٤) السُّمعة : الصيت ، يقال : فلان ذو سمعة ورياء ، يرائي الناس ويسمعوه .

فصل

وأمَّا القسم الثالث من المُباحات ، والكَسبَّيات فإنَّ ذلك محل الغفلة[1] ، والسهو عن هذا المقام الإحساني ، فإذا تذكر العَبد أنَّ الله يَراه في تَصرف وأنه أمره باتباعه[2] ، والإقبال عليه ، وقلة الإعراض عنه .

استحيا أن يَراه مُكبًا ، على الخسيس الفاني ، مُستغرقًا في الاشتغال به ، عن ذكره ؛ وعن الإقبال على مَا يقطع عنه ، وعن الآخرة ، فَيدخل في الأشياء وقلبه مُقبل بالذكر على مولاه متذكرًا أن الله يراه كان يفرغ قلبه بين أمور الدنيا على قدر نَظره إلى نظر مولاه إليه ، فَيقبضه ذلك عن الاستكبار المُلهي ، والاشتغال ، والاسترسال بالكُلية في أمُور الدنيا .

فيكون مُتكسبًا بنيَّة صَالحة وهي العَون على طَاعة الله ، وذكره إذًا لا غنى له عَن مَعيشة ، فَإن الله أمره أن يَمشي في أرضه ، ويأكل من رزقه ، فَيَمشي بالله ، ويَكسب لله ، ويَتَحرك لله ، ويَسكن لله ؛ لأَن نيته في ٣١٦/ب اكتسابه الاَستعانة على الطَّاعة/ الذي تَحقق ، وتَبرهن عنده أنَّه يَراه ، وأنَّه المُحرك لَه في جَميع حَالاته .

منْ اكْتساب أو غَير اكْتساب ، فَقَد عَم الإحسان جَميع الأوامر الحسِّية ، الظاهرة ، ومن أجل قلة هَذه الشعبة في الجَم الغَفير كَان التكاثر ، والَطغيان ، والإقبال عَلى الدنيَا ، أوالتهاون بالأوامر ، والنَّواهي ، عَصَمنا اللَّه وإيَّاكم بمنّه وتَوْفيقه في كُل حَال آمين آمين ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمد وآله ، وسَلم تَسليماً كَثيراً .

---

(١) الغفلة : سها من قلة التحفظ والتيقن .

(٢) في الأصل « بالتبابه » وهو خطأ .

وأمّا المقـام الثاني من الإحسَان في عَالم الغَيب ، ومَقَام الإيمان ، فإنَّ العَبـد إذَا فكر في مَواطَن الآخرة من موت ، وقبر ، وحَشر ، وعَرض ، وحسَاب ، وغَيـر ذلك ، وعَلم أنَّه مَعـروض عَلى اللَّه ، في ذَلك العَالم ، ومَواطنه ، تَهيّأ لذَلك العَرْض .

كَما وَرد في الخَبر : « تَهيأوا للعَرْض الأكبر » وهُو العَرض عَلى اللَّه ، فَيَتزين للآخرة بزينة أهل الآخرة مَا اسْتَطاع ، ويَتُوب من الفَاضحات عند اللَّه ، ويرغَبَ في كُل وَقت إلَى سَيده ، ومولاه أن لاَ يهتك ستره في تلك المَواطن ، ولاَ يكْشف لَه فيها عَيْباً ، لاَ سيما إذَا قَرأت النَّفس : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[1] إلى قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ[2] ﴾ أيْ مَا أحضرت بمَا يَصلح للعَرض عَلى الله جل جلاله ، وما أشبهها من السُور ، والآيات .

فيَعلم تَحقيقًا أنَّها من المُسببات ، فإذا كَان ذَاكرًا للعرض على الله في مَواطن / الآخرة ، فأسرع إلى ما يليق بكل موطن منها مثل أن يُذكر الجنَّة ، ١/٣١٧ والنَّار ، ويَعلم أنَّ الله نَاظر إليـه في ذلك العـالمَ ، فإن كـان يَراه يصلح لسكنى الجنَّة ، وإلا طَرحه في النَّار ، وإن كان يصلح للشرب من الحوض ، وإلا رده عنه ، وإن كان يصلح للكرامة والظل في عَرصات القيامة ، وإلا أُهين ، وترك للأهوال[3] . وهكَذا جَميع المَواطَن أولها المَوتَ ، وآخرها الاستقرار في الجنَّة ، فيُسارع إلى الإصلاح ما استطاع .

نسأل الله الكريم أن لا يكشف أستارنا ، وعُيوبنا ، وأن يجعلنا من أهل كرامته ، وعنايته دُنيا ، وأُخره ، في عافية بمنّه وفضله ، وصلى الله عَلى مُحمد خَاتم النَّبين ، وعَلى آله وسَلم تَسليما .

---

(١) سورة التكوير : الآية (١) .

(٢) سورة التكوير : الآية (١٤) .

(٣) في الأصل : « الأهوال » .

فصل

وأمَّا المقام الثالث من الإحسان في مقام الإحسان ، وهو مقامه بالحقيقة ، ومابَعده فَرع عَنَه ، فَإنَّ العَبد إذَا عَلم أنَّ سره مَوضع نَظر الله منه وَجَب عليه تصفية سره أولاً ، وإصلاح ذَلك ، وتَنقيته مما يكره الله أَنه يَراه ، ويَنظر إليه في قُلوب أوليائه ، فَتَزيل الصِّفاتَ المُهلكات ، ويَطهره منها ، ويَتَصف بالمَحمُودات ، حتَى يَجعل سرّه كَالمرآة المَجلوة (١) ، لتَجلي النَّظر من الله فيه ، فَيَعتقد أولاً اعتقَادات أهلَ السنة ، ولا يَضُمر خلافها ، ويَستَحيي من الله/ أن يَنظر إليه ، وَهُو يَضمر خلاف ما يُظهر للنَّاس . ٣١٧/ب

ثمَّ بَعد ذَلك يَطهره من كُل صفة مُهلكة ، و يَجلوه بكل مَنجبة (٢) على قدر استطاعته ويكون همّه لسره أكثَر من ظَاهر كَما وَرد في الخبر : « إنَّ الله **لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم** » (٣) .

وقال ابن مسعود : السرائر السرائر اللائي تُخفين عَلى النَّاس ، وهُن عند الله بَواد (٤) ، فَإذَا أخذ العَبد في ذَلك في مقَام الإحسان ، وفرَّغ قَلبه لمولاه قَربَ الله جَل جلاله منه ؛ لَأنَّ الخَبر قَد صَح ، أنَّه قال : « **مَنْ تَقرب مِني شِبراً تَقَربت مِنه ذراعًا** » (٥) ، إلى آخر المعنى .

فيتبين له قُرب الله منه ، فَيحصل في مقام أهل العلم بالله بلا تَعلُّم من خلق ، بَل بتَعليم الله ، وتَجليه لقلبه ، فَحينئذ يَسمع مَا لم يَسمع قَبل ذَلك ،

(١) المجلوة : جلي المرآة كشف صَدَآها وصَقَلها .

(٢) منجبة : بان فضله على من كان مثله .

(٣) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه (ض١٩٨٧) ، ابن ماجة (٤١٤٣) .

(٤) بواد : ظاهر وبين .

(٥) أحمد بنحوه (٢/ ٤١٣) .

ويَفـهم مـا لـم يفـهم ، ويُحسُّ بقُرب الله منه ؛ لأنَّه أقـرب إلى الرُّوح من حَياته ، وإلى البَصير من بَصره ، وإلى كُل شَيء من نفس ذلك الشيء ، بقُرب لا يَليق إلا به ، لايَشبه قُرب المَخلُوقين ، فَحينئذ لا يَقدر العَبد أن يُشير إلَى الله بخَاطر ، ولا فكر ، ولا أن يَنظر إليه بحَركَة سره إلى جهة من الجهَات لأنَّه لَيسَ في جهة ، وَلا مكان إنَّما هُو مُتجل ، يَراه اليَقين بغَير حُلولَ [1]. ولأنَّ الإشارة هُو يشير بها سبحانه ، وهُوأقرب إلى الإشَارة من الإشـارة فَيكتَفي / ، السر بنَظر الله إليه ، ويَتبرأ هُو من نَظره ، وتَأمله . ٣١٨/أ

ويَرجع بَصر السر من العبد نَفسه في نفسه ، حَتى يَنسَى بشُغله بنظر الله إليـه ، فَهـو النَّاظر وَحـده سُبحـانه ، ومن هَا هُنا دخل العَـارفـونَ إلى مَقامَات من القُرب ، وأسرار من المعرفة ، لا يحتمل العُموم ذكرها لبلادتهم وقلة فَهمهم ، وقَد تكلم فَيها ، فأنكرت على المُتكلمين فَيها ، غَير أنَّ الحَاصَل في هَذا المقَام بالعلم يَعلم أنَّ الأشياء كُلها قُرب اللهَ منهـا كَقُرب العَالم من مَعلُوماته ؛ فَالمعلوم مَتصَور في مرآة العلم ، بغير حُلوَل ، ولا هُو طرف لَها ، فَيَخبَت العَالم به ، القَائم بمَعلومه المُحيط به .

فإن تَحرك اللسان فيه بالذكر ، أو خَطر خاطرًا بالقلب علم أنَّ الله هُو الذَّاكر ، وهُو المَذكور بالحَقيقة ، لأنَّه يجري الذكر بقُدرته ، وكلامه ، وهو أقرب إلى الذكر من الذاكر . وقد كان أبو يزيد [2] ، وغَيره من العلماء يقول في مُناجاته كَلامًا مع ربه تكلُّ عنه أفهـام الجَماهير ، وتحَير فيـه عُقـول الحُذَّاق[3] ، من غَير أهل هَذه العُلوم ، لقلة شُغلهم بها ، واشتغالهم بطريق

(١) الحلول : القول بأن الله حَالّ في كل شيء على غَير ما قال به أهل السنة ، والحلولية : فرقة من المتصوفة تعتقد مذهب الحلول .

(٢) هو طيفور بن عيسى بن سروسان أبو يزيد البسطامي الزاهد شيخ الصوفية المشهور الشائع الذكر المتوفى سنة (٢٦١) ، وله مؤلفات منها : معارج التحقيق في التصوف ، ورسائل أخرى .

(٣) الحُذَّاق : جمع حاذق وهو الذي أوغل في ممارسة الشيء حتى مهر فيه .

آخر غَيرها .

منّ الله علينا ، وعليكم بالفـهم عنه ، والعـصـمـة من الجـهل ، والإنكار ، وجعلنا من المحبين ، العَارفين الأخيَار ، أهل الأشـراف ، والأسرار آمين ، وصلى / الله على سيدنا مُحمد وآله وسلم تسليمًا . ٣١٨/ب

الشُعبة السّادسة والخمسُون
الإحسان أيضًا

وهُو قوله « أن تـعبد الله كـأنك تراه فإن لم تكُن تـراه فَإنَّه يَراك » [١] لأنهما حالتان ، وشعبتان .

اعلـم : أنّ هذه الشعبة على ثلاثة مقَامات أيضًا ؛ مقَام الإسلام ، والإيمان ، والإحسان .

والإحسان مقامه واحد ، ولكن لمَّا كانت العبادة ظَاهرًا ، وبَاطنًا ، وافترقت العوالم في الظواهر ، البَواطن انقَسم الإحسان عَلى حسب العَوالم، والمُشاهدات كَسَائر شُعَب الإيمان كُلها .

وأمَّا المقام الأول : في الظاهر ، وهُو مَقام الإسلام ، فَإنَّ العبادة كَما تَقدم ، والأمور في الظاهر على ثلاثة أضرب : أوامر ، ونواهي ومُباحات .

وهذا المقام الذي هُو : « **أن تَعبد الله كأنك تَراه** » هُو بعكس المقام الآخر الذي تقدم ، وهُو « **فإن لم تكن تَراه فإنّه يَراك** » لأنَّ ذلك المُتقدم الله نَاظرٌ فيه إليك ، وهَذا الثاني أنت نَاظر فيه إلى الله ، وبَينهما اشتراك ، وارتباط ، لكن هكذا وقع التَّفسير في الشرع ، بينهما .

فَإذَا كَان العَبد نَاظر إلى الله ، كان في مَقَام المُراقبة ، فلا يرى شيئًا في هَذا العَالم الظاهر إلا رآه حَادثًا عن القُدرة الأزَلية/ ، فَإن رأى مَعصية ، أو أسبَابها عَلم أنَّ الله خالقها ، ومنشئها ، وأنَّها صَدرت عن اسمه الفاتن ١/٣١٩

(١) صحيح : سبق تخريجه .

المُبلى بها ، المُختبر لعباده ، فسبق نظره إلى القادر ، الفَاتن بها ، إذ هُو في مقَام المُراقبة ، والعبرة ، فَيَغيب عنها بعبرته ، ومُراقَبته لاستدلاله بالصَّنعة على الصانع ، وبالفَتنة على الفاتن المُبلَى ﴿ الَّذي خَلَقَ المَوتَ والحَيَاةَ لِيَبلُوكُم أَيّكُم أحسنُ عَـمَلاً ﴾ [١] ولاموت أشد من العصيان ، ولاحياة أطيب من الطَّاعة ، وحياة الأديان ، وفي مثل هذا المَقام قال القائل : ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله بعده ، ومعه ، فَيَعصمه الله بالهروب من المفعول إلى الفَاعل ، فَهَذا دَأبه في كُل فتنة مَنهي عنها مَادَام في هَذا المقَام ، لأنَّه أُعطي نَفَاذ البَصر ، ووَرد في الَخبر : « أنَّ الله يُحب البصرَ النافذ » [٢] .

(١) سورة الملك : الآية (٢) .

(٢) موضوع : انظر تذكرة الموضوعات (١٨٨) .

فصل

فأمَّا قسم الطَّاعات الإسلامية ، فإذا تلبس العبد بعَملها في مقَام الإحسان في نفس العمل ، وتَوجه إلى بارئه فكان الله مُواجهه ، كما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ : « إذَا كَان أحدكم يُصلي فلا يَبصق قِبَل وَجهه ، فإنَّ الله قِبل وَجهه إذا صلى » [١] .

وإذا كان ناظرًا أحدكم إلى مولاه ، مُناجيًا ، ومُحادثآ ، ومُراقبًا في أي عبادة كانت غاب عن العبادة ، وعن العباد ، فسلمت/ عبادته من كل ٣١٩/ب
آفة ، تدخل على من ليس في هذا المقام ، فَيَعرج سره ، ويسبق إلى المعبود ، ويصل إليه قبل عُروج العبادة ، ورَفعها ، بل أسرع من طرفة العَين ، وكان يُوصف الذين قال فيهم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيرَاتِ وَهُم لَهَا سَابِقُونَ﴾ [٢] قيل فيها أقوال :

قيل : إنَّ اللام بمعنى « إلى » أي « هُم إليها سابقون » وقيل : إنَّ الَّلام بمعنى الباء أي « هُم بِهَا سَابقون » ، وهَذا يكون قَبل الدخول في فعلها والتلبُّس بها ، وأمَّا في حين فعلها ، فَاللام باقية على أصلها ، كَما تقول : سبق فُلان لفلان ، إذَا تَقدمه ، وجاء قَبْلَه ، قال الله عز وجل : ﴿ إنّ الَّذين سَبَقت لَهُم مِنَّا الحُسنى ﴾ [٣] ، أي تقدم ، ومَادَام العَبد في هذا المقام من السبق الإحساني ، لو أتى بأعمال الثقلين مثلا ما نظر إلى العمل نظرة واحدة ، ولا التفت إليه ، لأن نظره سابق إلى المعبود .

(١) صحيح : أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١١٢) ، مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد (٥٠) ، النسائي (٢/ ٥١) .

(٢) سورة المؤمنون : الآية (٦١) .

(٣) سورة الأنبياء : الآية (١٠١) .

وكذلك إذا عرف مقام الإحسان ، سارع إلى طاعته قدر وسعه ، فهذا حال المحب [١] الذي يعبد الله كأنه يراه في أنواع المأمورات .

(١) في الأصل : المحبين .

فصل

وأما المباحات ، وجميع أنواع التصرف في الكسب ، فإنَّ العبد إذا تحرك ، أو سكن في التّلبس بها رأى في هذا المقام الإحساني أنَّ الله مُحركه ، ومُسكِّنه ، ورأى الأفعال كلها صادرة / عن الله تعالى ، فيتحرك بالله . ١/٣٢٠
ويسكن به ، وله ويعطي لله ، لأنه ناظر إليه ، ويأخذ من الله ، لأنه المُعطي له ، ويسمع من الله ، وهذه حاله ، ما دام العبد فيها كان ذاكرًا ، حاضرًا كان في السوق أو في الخلاء [1] ، فإن لحقته الغفلة ، والذهول عن هذا المقام سارع إلى الاستغفار ، والتَّوبة من غفلاته ، وجهالاته ، وجاهد نفسه على الاعتبار ، والرُّجوع إلى مقام النَّظر ، والمُشاهدة ، منَّ الله علينا وعليكم برحمته آمين ، وصلى الله على محمد ، وآله وسلم تسليمًا .

---

(١) الخلاء من الأرض : الواسع الخالي الفضاء ، ومن الأمكنة الذي لا أحد به ، ولا شيء فيه .

فصل

وأمَّا المقام الثاني من الإحسان في مقام الإيمان ، فإن النَّاظر إذا نظر إلى الآخرة، واعتبر عظم قَدرها ، وأنَّ الدنيا فيها كإصبع أدخلته في اليم ، كما ورد في الخبر ، وعَلم بالاعتبار أنَّها أفعال الله ، نصبها في باطن الدنيا ، لقدوم الخلق عليه في تلك المواطن ، ونفسه متعبدة بالإيمان والاعتبار بتلك العظائم ، فيكبر قدر الصانع عنده على قدر عظم المصنوعات .

فأول ما ينظر إلى مَلَك الموت فيرى مَلَكًا واحدًا مهوبًا (١) عظيمًا مهولاً(٢) ، له من الأعوان كثير ، ،وهو يتولى قبض أرواح الخلائق في المشارق والمغارب ، في البر ، والبحر ، فلا يُشغله روح عن قبض أرواح واحد ، من جُملة عبيد الملك الحق ، فيقول : هذا فعل هذا الملك الواحد ، فيعلم أنَّ الأرواح إذا رأته تزهق (٣) ، وتخرج من الأجساد ، ولا تلبث ، وأنَّه يجذبها (٤) ، بقوة ذاته ، وشدة قواه من المشارق والمغارب ، كما يجذب المغناطيس قطع الحديد إليه ، وكما صُعقَ عليه السلام عند رؤية جبريل حين رآه سدَّ الأفق ، فتغير منه قدر المُستعبد لله جل جلاله .

وهكذا يمشي في المؤمنات شيئًا شيئًا ، كالملكين السائلين في القبور ، بأيديهما مرازب (٥) الحديد ، لو ضُرِبَ بواحدة منها جبل لصار دكا (٦) ،

---

(١) مهُوبًا : هابه : أجَله وعظمه وخافه .

(٢) مهولاً : مفزعًا . (٣) تزهق : تضمحل وتزول .

(٤) يجذبها : يشدها حتى يحولها عن موضعها ، وهو إخراجها من الجسد ويحولها إلى حياة البرزخ .

(٥) مرازب : جمع مرِزبَّة : المطرقة الكبيرة تكسر بها الحجارة .

(٦) دكًا : الشيء دكًا : دقه حتى ساواه بالأرض ، وفي الآية : ﴿ كلا إذا دُكّتِ الأرضُ دكًا دكا﴾ .

فكيف بأجسادهما ، وقوتهما ، وهما يسألان كل من يقبر في المشارق ، والمغارب ، ومن يموت في ساعة واحدة ، كما يقبض ملك الموت الأرواح في ساعة بل أمرهما أعظم ، وأهول من ملك الموت .

وكذلك النافخ في الصور ، وجميع أنواع الملائكة ، وعظم مجالها في الغيب ، فيرى أمرًا عظيمًا لا تصفه الألسن ؛ لأن أعظمهم يرجع على عظمته كالوصْع (١) وهو الطير الصغير .

وكذلك الكل منهم ، فيرى من مقام الإحسان بالاعتبار قدر المسخر الجبار لجميعهم ، القهار لأنواعهم ، وهكذا يَتَذَكّر ، وينظر إلى المحشر ، وَسعَة تلك الأرض المفْرُوشَة ، التي أُمْدت حتى أخذت أكناف (٢) السماوات وَالَأرضين كُلها لقيام جميع الخَلْق/ في صعيد واحد ، على ذلك البُساط ١/٣٢١ العظيم الذي يَسَع الخَلْق ، والأملاك النَّازلين فيه ، فيرى منه قدر الباسط الذي نزلت الملائكة من هيبته فيه ، وكيف يُحاسبهم في حالة واحدة ، فلا يشغله شيء عن شيء .

وكذلك يتذكّر الميزان الذي كفتاه طباق (٣) السموات والأرض ، والأملاك الخادمة له ، فسيرى منه قدر ناصبه للعدل ، والقسط والرحمة ، والفضل . وكذلك يتذكر الصراط ، وارتفاع قَناطره (٤) على متن جهنم ، ويتذكر الحوض العظيم ، حوض محمد عليه السلام ، وسعيه ، وكثرة

---

(١) الوَصْعُ ، والوَصَعُ ، والوَصِيعُ : الصغير من العصافير ، وقيل : من أولاد العصافير ، وقيل : هو طائر كالعصفور ، وقيل : يشبه العصفور الصغير في صغر جسمه ، وقيل : أصغر من العصفور وورت الكلمة في الأصل : « كالوصغ» وهو خطأ .

(٢) أكناف : جمع كنف ، كنف فلان ضمه إليه ، والكنف : جانب الشيء .

(٣) الطباق : بعضها فوق بعض ، وفي القرآن الكريم ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ .

(٤) القناطر : جمع قنطرة : جسر مبني فوق النهر يُعبر عليه . والصراط : قنطر فوق جهنم يعبر عليها إلى الجنة .

كؤوسه ، وحياض الأنبياء ، ويتذكر الجنة ، والنار ، وما هما عليه من العظم ، وما فيها من العجائب ، والعظائم ، فيعتبر بها قدر الصانع لها ، فَيمر عَلى جَميع المؤُمنَات في الغَيب ، ويَرى نَفَسه ، ويَعلم أنَّها مَعْرُوضة في تلك المَواطن كُلها ، و يُشَاهد رَبَّه فيها ، كَما ورَد .

« **إنَّكم تَرون ربَّكم كَما تَرون الشمس ضُحى ، لَيس دُونها سَحاب ، وكَما تَرون القَمر ليْلة البدر** »[١] عَلى قَدر ذَلك العَالم ، وجَلالَته ، فيَتَأهب[٢] للقاء اللَّه ، و مُشَاهدته في تلك المَواطن عَلى قَدر اسْتطاعته ، وجَهده في عَالم الإيمان ، يَرى من مقَامَ النظر الإحسَاني فيه مَالاَيَرى في هَذا العَالم الدنياوي ٣٢١/ب من مَعاني الربُوبية/ وعَظم قَدرها ؛ فإنَّ قَدر عَالم الدنيا ، وعَجَائبها ، بَالإضَافة إلى الآخرة كَالنُّقطة الوَاحدة في البحار الوَاسعة ، بَلْ أقل ، منَّ اللَّه عَلينَا و عليكم بالتَّوفيق في كُل حَال آمين ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمد و آله وسَلم .

---

(١) أحمد بنحوه (٣/ ١٦) ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١١/ ٤٤٥) .

(٢) تأهب : استعد فأعد للأمر عُدته .

فصل

و أمّـا المقَـام الثـالث من الإحسَان في مقَام الإحسَان نفْسه هُو مقَامه بالحَقيقة ، فإنّ النَّاظر فيه يَجْمع المَوجودات كُلها ظَاهراً ، و بَاطناً ، والأوائل ، و الأواخـر في نَظره ، فَيَراها كُلهـا مَع العَـرش العَظيم ، ومَـا كـان ، و مَـا يكون ، و إنْ عَظُمت ، وكَبُرت في مقَام الاعْتبار كَالجَري الذي لاَ يَجري ، بالإضافة إلى المُوجد لَها ، مَع كَونها بَاقية عَلى عظَمها ، و كَثْرَتها ، فَهَام [١] عَقْله في سَاحة التَّعظيم ، و انْفتح لَه أبْواب من مَعرفَة العَليم العَظيم ، وَوَجد شَمّة من أحوال أهل المَعرفة ، فَإن أُعطي منَها حَالاً وَاحداً في عُمره كُله ، فَليَشكر اللّه ، و ذَلك أنّه لاَ يَرى اللّه بالحقيقة حتَى يَعاف [٢] عَن الأشياء باسْتحْقَارها ، بالإضَافة إلى عظَمة اللّه .

وقَد ورَد عن النَّبي عَليه السلام في أحاديث الإسْراء ، ومَا رَأى من الآيات الكُبرى وقَال : « قَربُت إلى سَيد العَرش فَأبْصرت أمراً مهولاً ، ثم قَال بَعد ذَلك كُله - و لَمْ أر عنْد رُؤية ربي أحداً / من خَلقه » سَواء كَانت الرُؤية رُؤية ١/٣٢٢ قَلب أو عيْن ، وقَد رَأيت بَعض الفُقهاء سَأل عن هَذه المَسألة بَعض المتكلمين في هَذا الشأن فَقال لَه : لأي شيء صَعد النبي عليه السلام في المعراج ، وقَطع مسافات عليين ؟ لرُؤية ربه ، وسَماع كَلامه ، أو لَيس اللّه مَعه في الأرض أقرب من حَبل الوَريد ؟

وقَد سَألت عنْ هَذه المَسألة دهراً فلمْ أجد مَن يُشفيني فيها ، فَقَال لَه المَسؤول : إنَّ الشَيء المَرئي إنّما يَظهر في المَحل الذي يظهر فيه عَلى قَدر

(١) هام : خرج على وجهه لا يدري أين يتوجه .

(٢) عاف الشيء : كرهه فتركه .

مَوجُودات ذَلك المَحل ، فَالنَّبي عليه السلام أُخرج من هَذا العَالم إلى المَلكوت الأعلى ليُشاهد الآيات الكُبرى التي لاَ يَسمع شَيء منها في عَالم الدنيا ، فَيظَهر لَه صَانع العَالم عَلى قَدر العَالم ، وعَجَائبه ، ويَتَدَرب في مُشاهدة كُل عَالم ، حتى وَصَل إلى العَرش ، فَرأى منه عَظَمة الحَامل لَه ، واستَولى عليه التعظيم ، حتى رفعه التعظيم إلى المستوى الأعلى ، واقْتَطعه عَن جَميع الأشْيَاء ، فَتَجلى اللَّه لَه في كُل مَوطن ، عَلى قَدر ذَلك المَواطن ، فَأُعْجب السائل بِذَلك ، وزَال مَا كَان يَجد في نَفسه مِن ذَلك الخاطر .

و هكَذا النَّظر في مقَام الإحْسَان بالاعْتبار إذَا رَأى السَّموات ، والأَرَضين بما فيهن ، و مَابَيْنَهن ظاهراً ، و بَاطناً/ في الكُرسي كَحلقة مُلقاة ٣٢٢/ب
في أَرض فَلاة ، من خَلق الدرع ، و الكُرسي ، والجَنَّات ، والنَّار ، وسَائر المَخْلوقات في العَرش كَحلقة مُلقاة في أَرض فلاة بالإضَافة ، والأشْيَاء بَاقية على صُورها ، و عظمها ، ومَشي في الاعْتبار إلى المُوجد للكُل الذي لاَ يَشْغله وجُود الخَلق ، وإنْ كَثروا ، وعَظُموا لعظَم قَدره الذي لاَ يُشبهه قَدر ، قد استَوى عَليه التَّعظيم ، ولاَحت[1] له لوائح البرُوق[2] ، ولَوَامع الأنوار ، وطَوالع المُشَاهدات ، وهَام في أودية الفناء ، والبَهاء ، والغيبة و الحُضور وتَحيّر في فُسْحة العظمة ، و سَاحة الإجلال ، فإنْ كَان من أَهل الأحْوَال وَجد أَذْواقاً من أَحوال الأشَياخ المُكرمين ، أَهل المَعرفَة الدارجين عَلى مَسالك المُصطفَى ، وسَيد الأنبياء ، وقد أَنشد قَائلهم فَقال :

فَلوكُنت مِن أَهل الوُجود لَغِبْت عَن الأكْوَان والعَرش والكُرسي .

ومِن هَذا المقَام الإحساني دَخلوا إلى ذَلك فَوجوده ذوقاً[3] وحَالاً كَما

(١) لاحت : ظهرت .

(٢) البروق : الضوء يلمع في السماء على إثر انفجار كهربائي في السحاب .

(٣) في الأصل : « ودقًا » .

أدَركناه نـحن علمـاً ، وبيْن الحـال ، و العلم زيادة كَـبيـرة ، وإنَّا مـقْطُوعـون بالغَفلة عنْ الأَحوال ، وهُم ركبوا مَراكبَ السَرعة ، و المُسَابقة إلى الخَيرات عَلى مَنَاهج التَّقوى ، والسير إلى الآخرة عنْ أعراض الدنيا بالإعراض عَن الدنيا ، كَما ركب النَّبي عليه السلام/ البُراق إلى عَالم البَرزَخ ، وصعدوا ١/٣٢٣
بالفكر في طُرق المَعْقُولات ، و نَازلوا بالعَمل الصالح ، وقَطع الشواغل سَنَى الدرجات .

كَما ارتقى النَّبي عليه السلام المعراج في عَالم السَّموات ، وأيدوا بروح الإيمَان الرَّوحاني كَما ركب النَّبي عليه السلام أجْنحة الملائكة ، و جنَاح التَّأييد ، ﴿وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [1] فَطَارت بهم رَفَارف الشَوق طَلباً للقُرب من الحَق ، كَما رَكب النَّبي عليه السلام الرَّفرف المُدلى ، ودَنى منهم الجَبار ؛ لأنَّه وَعد بكلامه أنَّه « من أتَاه يَمشي أتَاه هَرولة » .

كَما دَنى الجَبار من المُصطفى فَتَدلى ﴿فكَان قَاب قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [2] و«أو» هَا هُنا بمعنى « الوَاو » أي فَكان قَاب قَوسين ، وَ أَدْنى ؛ لأن اللَّه لاَ يَشك في شَيء ، فيُذيقهم حَلاوة الوَجد ويُخرجهم من الوَجد إلى المَوجود ، ويذهلهم عنْ وجود الأشياء .

وعنْ وجود الوَجد ، والوُجود لَما سَمع قَوله : « إنَّ اللَّه يَحُولُ بَيْنَ المَرْء وَ قَلبه » [3] فيصير العبد صاحب الحَال منهم عند نَفْسه كما لم يكن ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَولَ خَلْقٍ نُعيدُهُ﴾ [4] مَالمْ يكن ويبقى مَالمْ يَزل ، فَهؤلاء هُمْ أهل الأحوال الذين دَرجوا عَلى مَنَاهج المُصطفى ، وَورثوا بَعض مَقامَاته ظَاهراً ،

(١) سورة المجادلة : الآية (٢٢) .

(٢) سورة النجم : الآية (٩) .

(٣) سورة الأنفال : الآية (٢٤) .

(٤) سورة الأنبياء : الآية (١٠٤) .

٣٢٣/ب و بَاطناً، فَلمْ يكن عُروج المُصطفى / ، و إخْباره عَن كُل مَا رَأى لأميه لاَ للإيمَان بذَلك كُله، والاقْتداء به ، والكُل يَأَخذ ما قدر له، فمن الخلق من لم يأخذ منَ ذَلك إلا التَّصديَق به - وهُو خَير كَبير - ومنهم مَن عَلم ذَلك ، ولمْ يَحُدُّه حَالاً ، وهُم سَاداتنا في الدُّنيا والآخرة ، وَعنْد اللَّه تُحتسب الفَقر والإفْلاس من أحوالهم ، و مقَامَاتهم ، نَفَعنا اللَّه بمَحبتهم ، ولاَ حَرمنا بشُؤْمنا الكَونَ مَعهم، آمين آمين ، و صَلى اللَّه عَلى مُحمد وآله وسَلم .

الشُعبة السابعة والخمسون

الذكر

أمّا كَون الذكر من الإيمان فَبين جداً ؛ لأنه تَجديَد الإيمان بالمُؤمن به بَعد تَجْديد ؛ لأنه إذاَ ذُكرَ المَذكور تَجدّد الإيمان به ، فالذكر إيمانَ على إيمان ، وتجديَد لَه ، وزَيادة إيمان ، ومنْ ذَلك حَديث عَبد اللّه بْن بشر أنَّ رَجلاً قَال لرسول الله ﷺ : إن شَرائع الإسْلام قَد كثرت عَليّ ، وإنّي قَد كَبرت ، فأَخبرني بَشيءأتَشَبَّث [١] به ، قَال « لا يَزال لسَانك رَطْباً [٢] من ذِكر الله » [٣] فَسأله عمَّا يَلزم مِن الشرائع الإيمانية فَدله عَلى أَفْضلها .

وَرَوى أبو الدَّرداء أنَّ رسول ﷺ قال : « ألاَ أُنبئكم بِخَير أعْمالكم لَكم وأزكَاها عنْد مَليككم ، وأرْفَعها في/ [٤] درَجَاتكم ، و خَير مِن إعْطَاء الذهب ١/٣٢٤ والفضة، وأنْ تلقوا عَدوكم فَتَضربوا أعنَاقهم ، ويَضْرِبوا أعناقكم ؟ قَالوا: مَاذاك يارسول اللّه ؟ قَال : ذِكر اللّه » [٥].

فأعلم عليه السلام أنَّ خَير أعْمال الإيمان الذكر .

و رَوى أبو سعيد الخُدري قَال : سُئل رسُول اللّه ﷺ عَن أي العبادة أَفضل دَرجة عنْد اللّه يَوم القيامة قَال : « الذّاكرون اللّه كَثيراً » قِيل يَا رَسول اللّه: عَليك وَمَن الغَازِي في سبِيل اللّه ؟ قَال : لَو ضَرب بِسيفه حَتى يَنكس

---

(١) أتشبث : أتعلق به وألزمه .

(٢) رطبًا : أي لم يجف لسانه من الذكر .

(٣) ابن ماجة (٣٧٩٣) ، أحمد (١٨٨١٤) ، الترمذي (٣٣٧٥) .

(٤) تكررت كلمة «في» في الأصل وتم حذفها .

(٥) الترمذي (٣٣٧٧) ، ابن ماجة (٣٧٩٠) ، أحمد (٥/ ١٩٥) .

ويختضب[١] دماً كان الذاكر أفضل » [٢] .

فأعلم عليه السلام أنّ الذّكر [٣] من العبادات الإيمانية ، وأنّه أفضلها .

فصل

اعلمْ أنّ الذكر على ثلاثة أضرب : ضرب في مقام الإسْلام الظاهر ، وضرب في مقام الإيمان الباطن ، وضرب في مقام الإحسان باطن الباطن .

فأمّا القسم الأول في مقام الإسْلام : فإنّ الأمور الظاهرة الحسية ثلاثة : أمر ، ونهي ، ومباح ، والإنسان متصرف فيها بجسده ، والجوارح في الجسد سبعة ، والمخصوص منها بالذكر « اللسان » هو المبين المُفْصح [٤] بالكلام ،
١/٣٢٥ والأذكار على أنواع فمنها : البسملة في / أوائل الأشياء ، و منها التهليل ، و منها التسبيح ، ومنها التكبير ، و منها التحميد ، ومنها الاستغفار ، و منها التبري من الحول و القوة ، ومنها السلام عند تلقي المسلمين ، ومنها التلاوة ، ومنها الدعاء ، و منها الاستعاذة ، و منها الاسترجاع ، و منها الصلاة على النبي ﷺ ، ولكل نوع منها مكان من العبادة ، و ذوق ، ومعنى .

فأمّا النّهي فإنْ أسرف العبد عليه ، ورآه أي نوع كان ، وذكر اللّه ، وما أوعد عليه حجزه الذكر عنه ، و هذا من أفضل الذكر ، فالذكر للمتواعد يوجب ترك المنهي عنه ، و يخوف منه فصار الذكر عاصماً من الوقوع في المعاصي ، فأعظم به قدراً .

---

(١) يختضب : يتلطخ .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٦٢) ، الترمذي (٣٣٧٦) .

(٣) في الأصل : « الذاكر » .

(٤) الفصيح : الطلق الذي يعين صاحبه على إجادة التعبير .

كما ورد في الحديث المشهور : « سبعة يظلهم اللّه تحت عرشه في ظله يوم لاَ ظلّ إلاّ ظله » فذكر منهم : « ورجل دعته امرأة ذات منصب ، وجمال فقال: إني أخاف اللّه ربّ العالمين » [١] فهذا القول من الذكر في هذا الموطن أفضل العبادة .

و أمَّا الأوامر ، وأنّ العبد إذا أراد فعل الطَّاعة ، فذكر من المعبود بها سارع إلى فعلها ، وكان الذكر سبباً لفعلها ، وكذلك إذا تذكر ، وذكر ما وعد اللّه من ثوابها ، وأزعجه عن المسارعة في فعل الخيرات ، وصار الذكر سبباً لفعل الخيرات كُلها/ . ١/٣٢٥

و أمَّا المباح فإنَّه محل الغفلة ، و ورد في الخبر : « ذاكر اللّه في الغافلين كالمقاتل عن الفارين » و قد نهى اللّه الإنسان أنْ يكون غافلاً ، و أمره أنْ يذكره في كُل الأحيان [٢] فقال : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾ [٣] وقال : ﴿الَّذينَ يَذْكُرون اللَّهَ قياماً وَ قُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ ﴾ [٤] فأثنى عليهم بذلك ، وذمَّ أهل الغفلة ، فعلى العبد إذا دخل محل الغفلات أنْ يذكر و يعْزم على الذكر ، فيكون كالمقاتل عن الفارين ، وكالحي بين الأموات ، فإنْ غفل ، وغلبه محل الغفلة ، فليتذكر من ذلك أن ربَّه ليس بصفة الغافلين ، و أنَّه هو مخلوق ، و ضعيف محل الغفلة ، و هي صفته ، وليقل : « سبحان من لاَ يغفل » ، ولو جاز أنْ يغفل لتدكدك [٥] الكُلُّ من الممالك عن قواعده ،

(١) صحيح : أخرجه البخاري (١/ ١٦٨) ، (٢/ ١٣٨) ، (٨/ ١٢٦) ، مسلم في صحيحه كتاب الزكاة ، باب (٣) ، رقم (٩١) ، الترمذي (٢٣٩١) ، النسائي (٨/ ٢٢٢) .

(٢) الأحيان : جمع حين : وقت من الدهر طال أوْ قصر ، وفي القرآن الكريم : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حين ﴾ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية (٤١) .

(٤) سورة آل عمران : الآية (١٩١) .

(٥) الدكداك : ما التبد منه في الأرض ولم يرتفع ، من الدَّك أي تساوى بما على الأرض .

فَيُنزهه عَن صِفته فَتَعود غَفلته ذكراً ، وتُذكره ، بِمقَام عَظِيم مِن المَعرفة .

فإذَا أكَل أو شَرب قَال : سُبحان مَن لَيس صفته هكذا سُبحان مَن لاَ يُطعم ، و إذَا نَام قَال : سُبحان مَن لاَ يَنام ، و لاَ يَنْبَغي لَه أنْ يَنام ، و لَو نَام كَيْف كَان يَكُون الحَال ؟

وإذَا جَامع قَال : سُبحان من لاَ يَزْدَوج (١) إلى شَيء ، الغَني عَن كُل شَيء ، وإذَا تَحرك أو سكن قَال : سُبحان مَن لاَ يَتَحرك و لاَ يَسْكن ، و لاَ يَحل الأمكَنة .

وهكَذا يَذكر كُل شيء في مقَام الذكر ، يَصفه الغَني الحَميد قَبل فعل الشيء ، أو مَعه أو بَعده ، فَيكون لَه كُل شَيء ذِكراً و تذكراً ، وَيُوقعه الذَكر في مقَام المَعرفة .

ولْيَجعل كُل نَوع من أنْوَاع الذكر في مَحله فَإذَا ابْتَدأ بشيء قَال : بسم اللَّه الرَّحمن الرَّحيم ، وإذَا تَلبس به قَال : لاَ حَولَ ، ولاَ قُوة إلاَّ باللَّه العَلي العَظيم ، وإذَا اصَعب عَلْيه الشيَء اسْتَغَاث بالدُّعاء ، و طَلب من اللَّه تَسْهيله ، و إذَا سَهل عَلْيه قَال : الحْمد للَّه رب العَالمين ، و إذَا أصَابته مُصيبَة قَال : إنَّا للَّهَ وَ إنَّا إليْه رَاجعُون .

وإذَا وَقع في ذَنب أو جَمُلَ عَليه استغفر اللَّه ، و إذَا رَأى شَيئاً مُخوفاً مُفزعاً اَسْتَعَاذ باللَّه ، و إذَا رَأى أسْبَاب الشركة ، و كَثرة الأشْيَاء وحد اللَّه ، وإذَا رَأى أمراً عَظيماً قَال : اللَّه أكْبَر ، و رَأى كُل شَيء عَظيم حَقيراً ، بالإضَافة إليْه كَلاَ شيء ، وإذَا رَأى عَجَباً قَال : سُبحان اللَّه ، و تَعجب من قُدرة اللَّه ، وَ إذَا رَأى الهدايَة و السنَن الصالحة تَذكر الهَادي عليه السلامَ ، فَصَلى عَلى مُحمد ﷺ .

(١) لا يزدوج : أي لا يقترن بأحد ولا مخلوق .

و هكَذا في كُل شَيء يُقَابل الشيء بمَا يُشَاكله من الذكر ، فَكَذلك وضَع الشارع الأذكار ، كُل ذكر في مَوضعه حتى أنَّه ﷺ كَان في حَركَاته إذَا صَعد / عَلى عُلو ، وأشرفَ كَبّر ، وهَلل ، فكَان يَذكر شَرف اللّه عَلى ٣٢٦/أ
الْمَوْجُودات و عُلوّه عَليها بالرُّتبة ، و الرّفعة ، وكَان عليه السَلام إذَا أسهل قَال : الحْمد للّه ؛ لأنّه السهَل [١] الوَطيء [٢] يُذهب التعب الذي يكون في الوَعر ، و ذَلك نعمة ، فَوجب الشُّكر .

فكَذلك إذَا صَعد العَبد من سُفل إلى عُلو ، فَلْيَقل لاَ حَول ، ولاَ قُوة إلاّ باللّه ، وَإذَا كَان في خَفضَ و انْحطَاط فَلْيَقل : سُبحان اللّه ، و كَذلك يَصْنَع كُل شَيء في مَوضعه ، فَيكون ذَاكراً اللّه في كُل الأحْيَان بأحسن الأذكار ، وكَان الذكر محكماً ، مُتْقَناً لصُدوره عَن الحَكمة العلية .

و إنْ الْتَزم ذكر من الأذكار ، أيْ نَوع كَان في أحْواله كُلها ، فَجَائز ، و وحَسن ، و كُلهَا فَاضل ، ولكُل وَاحد منهَا مَعنى في نَفْسه ، فَمَعنى البَسْملة : التَبرك باسم اللّه المُبارك ، وأنْ يَنوي بالبسَملة فيِ أول الفعل الحَركة و السكون ، باللّه بْتدي ، وباسْمه أتَبرك .

ومَعنى التَّهليل : إقْرار بالعُبودية وإفْرَاد لَه ، و مَعنى الحْمد : الثناء عَلى المَعبود ، و الشكر لَه ، ومَعنى التَّسبيح : التَنْزيه لَه ، و التعجب من غَرائب قُدرته .

ومَعْنى التكبير : الإعْظَام للمَعْبود ، و الإجْلال لَه ، و مَعنى الاسْتغفار : التَّوبة و الاعْتذار ، و مَعنى التَبري الذي/ هُو « لاَ حَول و لاَ قُوة ٣٢٦/ب
إلاّ باللّه » : الاسْتِعانة باللّه ، و مَعنى الدعَاء : الطلب من اللّه ، و مَعنى

(١) السهل : أرض مُنبسطة لا تبلغ الهضبة .

(٢) الوَطِيء : المنخفض اللين السهل .

الاسْتعاذة : الالْتجاء باللّه .

ومَعنى[ ][1] : الاعتصام باللّه ، ومَعنى الصَّلاة عَلى النْبي ﷺ : الحنوّ، والعَطف من اللّه عليه ، ومَعنى التلاوة و القرَاءة : الاتباع للمتْلو ، ومَعنى الاسْترجاع : السلو و العَزاء برُؤية المُلك للّه ، ومَعنى إفْشَاء السلام : التَّحية ، ورَفع الإذَاية ، ومَعنى تَركها عَلى أهل العناد ، و الكُفر ، والأهواء؛ التَأديب والإعْزاز للإسْلام ، ولكل وَاحد من هَذه الأذْكار تأثير حَسن في القَلب ، عَجيب .

و العَبد مُتَقلب طُول لَيْله ، ونَهاره في الأمر ، و النَّهي ، وَالمُباح ، وتتلون عليه الأذكار بتَلون الأحوال ، و فَّقنا اللّه ، و إيَّاكم لذكره ، و جعَلنا ممن ذَكره عنده بَأطْيَب الذكر في الدنُيا و الآخرة آمين آمينَ ، وصَلى اللّه عَلى مُحمد و آله وسَلم تَسليمًا .

(١) كلمة غير واضحة في الأصل .

فصل

و أمَّا المقَام الثاني من الذكر في مقَام الإيمَان فإنَّه سرّ ؛ لأنّ النَّفس ، والقلب غيْب ، في الجسَد ، و المُؤمنات بها كُلها غيب ، فَيَذكر العَبد إذَا نَظر إلى الإيمَان الذي جُعل في بَاطنه ، و كَيْفَ حَبَبه اللّه إليْه ، و صَرف عنْه الكُفر فَهيج فَي السر ذكر الآلاء [١] ، و النَّعماء [٢] ، و المنن ، وهَذا المُذكر يُثمر جَميع أنْوَاع الخَيرَات في البَاطن من الخَوف ، و الرَّجاء ، و الشكر ، والصبر وحُب المَولى ، و الإخْبَات لَه ، و غَير ذَلك من أنْواع العِبادات البَاطنة .

ثمَّ يَجد بَعد ذَلك أول غَائب بَعد النَّفس إبْليس و المَلائكة ، كُل يُوحي إليْه ، و يُذكره بما يَليق بكُل وَاحد منهم ، فَيَتذكر قَلبه الخَير و الشر ، فَيُبصر سَبيل الرشد [٣] ، و الغي [٤] كَمَا قَال تَعالى : ﴿ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [٥] ثمَّ يَتَذكر من المُغيبات بَعد ذَلك المَوت ، فَيَذكر هادم اللَّذات ، كَما أمر النَّبي ﷺ ، فَيُورثه ذَلك الحَزن [٦] ، و تحقير الدنيا في عينه إلى غَير ذَلك من الأحْوال الشَريفة .

ثمَّ يَتَذكر القَبر ، و أحْواله ، فَيُثمر لَه رقه القلب ، والإنابة ، وغير ذلك ، ثم النفخ في الصور ، وأهوال الموقف ، ومواطن الآخرة من حوض ،

(١) الآلاء : النعم ، وفي القرآن الكريم : ﴿ فَبِأَيِّ ءالاء رَبِّكُمَا تكذّبان ﴾ .

(٢) النَّعماء : الخفض والدَّعة . المال .

(٣) سبيل الرشد : طريق الهداية .

(٤) الغيّ : الضلال ، وفي القرآن الكريم : ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ .

(٥) سورة الأعراف : الآية (٢٠١) .

(٦) الحَزَن : الغم ، وفي القرآن : ﴿ وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّه الَّذي أذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ ﴾ .

وميزان ، وصراط ، وجنة ، ونار ، وحساب ، وغير ذلك ، فلا يمر بشيء من المؤمنات إلا أورثه ذلك حالاً ، وذكره كيف يكون الحال في ذلك الموطن ، فيثمر له ذكر الآخرة أنْواعاً من الخَيرات لا تُحصى ، و ذكر الآخرة ذكر للّه ؛ لأنَّها أفعَاله المذكرة به ، وهَذا الذكر إذَا حَصل في القَلب زَالَت الغَفْلة عَنْه ، و ابْتَهل [1] اللّسان بالذكر ، مُتضَرعاً إلى اللّه أنْ يُنَجيه ممَا يَخاف في الآخرة ، و أنْ يُؤَاتيه مما يرَجو فيها .

فَليكن هَمّ العَبد للذكر ، فَإنَّه إذَا حَصل في القَلب طَرد عَنه الغَفلة ، واستَقَام الذكر الظَاهر باللسَان ، عمَّر اللّه قُلوبنا ، و قلوبكم بالذكر النَّافع ، وختَم لَنا ، و لكم / بخَير ، و عَافية آمين آمين وصَلى اللّه عَلَى مُحمد و آله وسلم . ٣٢٧/ب

(١) ابتهل : تضرع ، واجتهد في الدعاء .

فصل

و أمَّا المقَام الثالث من الذكر في مقَام الإحسَان فَهُو إفراد المَذكور جَل جَلاله ، وفي أهله ورَد الخَبر الصحيح ، رَوى أبو هُريرة قال : كَان رسول اللَّه ﷺ يَسير في طَريق مكة ، فَمرّ علَى جَبل يُقال لَه « جَمْدان » فَقَال «سيروا هَذا جَمْدَان [١] ، سَبق المُفرِدُون - قَالوا: و مَا المُفرْدون يَا رسول اللَّه ؟ قَال: الذَّاكرون اللَّه كَثيراً » [٢] .

وفي رواية أُخرى : « الذَّين يستهترون بذِكر اللَّه يَضع الذكر عنْهم أثقالهم، و يَأتون يَوم القِيامة خِفَافاً » وهَذا الذكر يَجلو القَلب ، و يُصفيه ، و يُذكي العَقل .

ورَد في الخَبر « إنّ القُلوب تَصدأ كَما يَصدأ الحَديد ، قيل فَما جَلاؤها ؟ قَال: ذكر اللَّه » [٣] ومنه دَخل الأكابر إلى عُلوم المُشاهدة ، و الأسْرار المكْنُونة ، ورَاء الحُجب [٤] و الأستار ، وهُو عَلَى ثَلاثة أضرب :

فأمَّا الضرب الأول : فَهُو ذكر اللَّه بأفْعَاله كُلها وهُو أن يُفرد في مقَام الإحسان العَالم كُله فَيَراه مُلكا وَاحداً لمَلك وَاحد ، فَيتَذكر العَبد بذلك شَرف المُسْتَعبد لَه ، و قَيُّوميته .

فَإنْ رَأى حَدثاً ذَكره بالقَديم ، و بشَرف القَديم ، و نَزَاهته .

---

(١) جمدان : جبل بين ينبع والعيص على ليلة من المدينة ، وقيل : جمدان واد بين ثنية الغزال ، وبين أمَج ، وأمَج من أعراض المدينة .

(٢) صحيح : مسلم في صحيحه ، كتاب الذكر ، والدعاء باب (١) رقم (٤) .

(٣) العلل المتناهية لابن الجوزي (٢/ ٣٤٧) ، الكامل في الضعفاء لابن عدي (١/ ٢٥٨) .

(٤) الحجب : جمع حجاب : وهو المانع أو العازل الذي يستر ما وراءه ولا يظهره .

و إنْ رَأى عجزاً ، أو ضعفًا ، أو نقصانًا في الوجو د ، ذكره بالقوي القادر
١/٣٢٨ والكامل ، وتشرفه ، ونزاهته ، وإن رأى / مُتحيراً مَحْبوساً في حَيزه ذكَّره بالواحد [1] الذي لاَ يَتَقيد بالحُدود و إنْ رَأى تَواضعاً ، و ذُلاً ذَكَّره بالكَبير العَزيز .

و عَلى الإجْمال و الاخْتصار فَلا يَرى شَيئاً إلاّ مَصْنُوعاً قَابضاً عَن القُدرة ، فَيتَذكر منه شَرَف المَذْكُور ، و نَزاهته عَمَّا هي الحَوادث عليه ، وشَرَف فَضْله وفَيْض جُوده عَلى جَميع الحُدثان .

و هَذه أذْكار تُثْمر عَجَائب العُلوم ، و الأسْرار .

و أمَّا الضرب الثاني من إفراد الذكر في مقَام الإحسَان فَهُو مقَام من الذكر عَجيب ، و هُو ذكر العَبد ذكر اللّه لَه بكُل مَا ذَكَّره به ، فَيتَذكر كَيْفَ ذَكَّره سُبحَانه في نَفْسه ، و في المَلأ الأعلى ، بذكره القَديم ، حَتى جَعَله من الذاكرين لَه ، والتَالين لكتَابه ، و يَتَذكر كَيْف ذَكَّره بكُل وَصف به من الإيمَان ، و الإسْلاَم حتَى جَعَله من المُؤْمنين ، و المُسلمين ، و لَولا مَا ذَكَره بذَلك في نَفسه بكَلامه مَا آمن ، و لاَ أسلَم ، و لاَ ذُكر .

وكَذلك ذَكَّره بكُل مَا حَوله من رزق ، أو نعمة ، أوشَيء من أُمور الدُّنيا ، و الآخرة ، في نفسه ، كَما قَال لبَعض أنْبيائه : إنْ أتَتك قولة مسوسَة فأعلمْ أنَّني ذَكَرتُك بها ، فَيقول الذاكر في نَفسه : مَن أنا في كبَرة عباد اللّه ؟ ومَن لي أنا عَلى حقَارتي حَتى ذَكرني في نَفسه الإله العَظيم القَدر بأَنْ جَعلني
٣٢٨/ب من عباده ، و ذَكَّرني/ بكل شَيء أجراه عَليّ من أنْواع الآلاء ، والنعم الدينيَة ، و الدنياوية ، فَهَذا ذكر يُولد المَغفرة و الفَرَح بالمَعْبود ، والرَّجاء ، وغير ذَلك ممَّا لاَ يُحصى من مَقَامَات العَارفين .

---

(١) في الأصل : « الوجود » .

و كذلك إذا تذكر مُخالفاته ، وأنّ اللّه ذكّره بها في نفسه ، و علّمه ، مُخالفاً له ، وتولد عنه خوف الخاتمة ، و الحياء ، و الانكسار ، و الذل ، والتّوبة ، و غير ذلك .

فإذا تذكر العبد هذا المقام كيف ذكّره مولاه بجميع ما ذكّره به من توفيق لذكره ، و اصطفاء بكلامه ، و كيف جعله من الخائفين له الرّاجين في فضله ، وبكل نعمة دنيا وديناً ، على جلال قدره ؛ إذ هو رب العالمين ، وسيد الخلق أجمعين كاد يطير من الفرح ، و الفخر [1] بمولاه .

و الضرب الثالث من ذكر الإفراد في مقام الإحسان هو ذكر وُجود الباريء وحده مفرداً ، وليس وراءه مقام من الذكر ، وهو ذكر الاستيلاء ، والغلبة ، و ذلك أنْ يشتغل القلب بذكر اللّه وحده دون أفعاله ، حتى يغلب ذكره على ذكره للأشياء ، و هذا هو معنى قول اللّه عز وجل : **إنّي لأطلع على قلب عبد فأجد الغالب عليه ذكري إلاّ كنت سمعه الذي يسمع به ، و بصره الذي يبصر به ، و رجله التي يمشي بها ، ويده التي يبطش بها ، و عقله الذي يعقل به ، و إلاّ اتّجرت له من وراء كل تاجر جعل الهمّ همّاً / واحداً** فكفاه اللّه كل ١/٣٢٩
هم ، وكان قرة عينه ، و تولاه بنفسه ، و هذا هو الولي حقيقة - أعني ولاية الخصوص - لأنّ اللّه مولاه ، فكان الولي به يسمع ، و به يبصر ، و به يتحرك ، و يسكن ، و يتقلب في كل أحواله ، و هؤلاء هم الذين كان ثواب ذكرهم العلم باللّه الذي لايصفه واصف ، و لا يكتبه في الأوراق عازف ، جعلنا الله وإياكم من أوليائه في عافية في الدنيا و الآخرة ، آمين بفضله ، ومنّه و فضله ، وصلى اللّه على محمد و آله وسلم تسليماً كثيراً .

---

(١) الفخر : التباهي بما له من محاسن .

الشعبة الثامنة و الخمسون

العِلْم

و أمَّا كَون العلم من شُعب الإيمَان فبين ، لا يحتاج إلى دَليل ؛ لأنّ جَميع الأعمال الإيمَانية ظَاهراً ، و بَاطناً إن لم تكن بعِلم ، و إلا فهي باطل ، فهو الغرض العام الواجب عَلى كُل مُسلم .

قَال النَّبي عليه السلام : « طَلب العِلم فَريضة عَلى كُل مُسلم [١] » وفي الصحيح عن معاذ : « تَعال بنا نُؤمن سَاعة » أي نتذاكر عِلم الإيمان ، فسَمَّى عِلم التذكير إيمَانا ، و الشواهَد عليه كَثيرة جِداً .

---

(١) ابن ماجة (٢٢٤) .

فصل

اعلْم أنّ العلم ينقسم عَلى ثلاثة أقسَام : قسم ظاهر في مقام الإسلام وعالم الحس ، وَ قسم بَاطن في مقَام الإيمان و عَالم الغَيْب ، و قِسم في/ مقَام الإحسَانَ ، و هُو العلم باللَّه . ٣٢٩/ب

فأما القِسم الظاهر فَهو عَلى ثَلاثة أقسام : علم بالأوامر الشرعية ، وعلم بالنواهي الشرعية ، وعلم بالمباحات الدنياوية ، و مَدارك الحَواس الضرورية العَقلية .

فأما علِم الأمر : فهو علم الفرائض و السنن و الفضائل .

وأما علم النهي : فهو علم الحرام ، و الكَراهة والتَنْزيه .

وأما علم المُباحات فهو العلم بالدنيا ، و أهلها ، و كَيْفِية آداب المُخَالطة ، و اكتساب المعيشة .

وهذه الأقسام الثلاثة يتعلم من الشرع وطريقها السمع .

وأما مَدَارك الحَوَاس ، و العُلوم الضَرورية فقد اشّترك فيها الحيوان والعاقل ؛ فلا يحتاج إلى اكتساب ، و إنما مقصدنا الكلام على الشرعية هنا فقد عَمَّ العِلم الظواهر كلها ؛ فلا يجوز لأحد أن يعمل عملاً إلا بعلم .

وقد ورد في الحديث عن سلمان أنه قد قيل له : قد علمكم نبيكم حتى الخَرَاءة فقال : أجل ، فعلم الأمر الظاهر مَوجود في كتب الفقه ، كالعلم بالاسْتنجاء ، و الطهارة ، و الصلاة ، وما يَتَعلق بها ، و اختلاف أنواعها ، و الزكَاة ، و أنواعها ، و الصَوم ، و أنواعه ، و الَحج و الجهاد ، وغير ذلك من الأوامر .

وأما علم النهي : فَالعلم بالمحرمات كُلها عَلى اختلاف أنواعها ؛ كَالعلم بما يفَسد الطهارة و الصَلاة ، و الصوم ، و الحجَ / ، و الجهاد ، ٣٣٠/أ
والعلم بالحدود ، والأنكحة المحرمة ، والأطعمة المحرمة ، والأشربة المحرمة ، وأبواب الربا ، والأخذ والعطاء ، وغَير ذَلك كالعلم بالمكْرُوه كله .

و ذَلك مَوجود كُله فيِ كتب الفقه .

وأما علم المُباح ، و أمور الدنيا : فكَالعلم بالنكاح ؛ لأنه ليس بواجب ، و الصَيد ، وآداب الأكل والشُرب ، والجَماعَ ، والمُخالطة كُلها ، ومَعرفة الدنيا ، وأبنائها ، وأسبابها ، وهَذا كُله مَشحون به الكتب .

ومن هَذه العُلوم مَا يَلزم العَبد تَعلمه ، وهُو فَرض عين ، ومنها قَالاَ يلزمه إلا أن يشاء ، وإذَا نزلت به النَّازلة طلب علمها وتعلمها ، و مثَال ذَلك أن علم الطهارة ، والصلاة ، وَماَ أشبه ذلك فرض عليه ، مُعيّنَ ، و علم القَضَاء لَيس بِواجب عليه ، فإن ابْتلي بِالقَضاء وَجب عليه أنْ لا يَقضي إلاَ بِعلم .

و هكَذا كُل شَيء ، فَإذَا أَراد العَبد أن لا يَتحرك حَركة إِلاّ بِعلم وجد ذَلك في العلم ؛ لأنَّ العِلم وَاسع جداً .

مثال ذَلك إنْ أراد أن يسبح في نهر ، فيقول : هل للسباحة أصل في العلم أَم لاَ ؟ فَيجدها مصَوغاً عَليها ، أو مثل أن يريد أنَ يمشي في السوق للكَسب ، أو للجلوس ، أو للذكر فَيجد لذَلك كُله أصلاً في العلم ، ومثل أن يريد أن يمزح مع صَاحب/ أوَ أهله مزاحاً حَقاً ، فيجد ذَلك في العلم حَتى ٣٣٠/ب
لو أن أراد أن يُرْسل ولده يلعب أو يلعَب هو مع أقرانه بحق لوجد ذَلك في العلم .

قال اللّه تعالى : ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [1] - وقرىء بالنون - لكن مع سعة العلم قد ترك الناس العمل به ، وآثروا العَمل بالجهل ، و أُصول العلم ثلاثة : الكتاب ، و السنة ، و الإجماع ، ومَا استُنبط من هذه الأصول فَهو مردود إليهاَ ؛ لأن الفَرع من الأصل .

فعليكم باتباع العلم في جميع حركاتكم ، و سكناتكم ؛ فهو العصمة من الجهل ، و العار في الدنيا و الآخرة ، مَنَّ الله علينا ، وعليكم باتباعه في الَدنيا والآخرة آمينَ آمين و صَلى اللّه عَلى مُحمد خَاتم النَّبيين ، وعلى آله الطيبين و سَلم تَسليمًا .

(١) سورة يوسف : الآية (٩٢) .

فصل

و أمَّا القسم الثاني من العلم ، وهو العلم الباطن ، فهو العلم بالنفس ، وأخلاقها ، و خَواطرها ، و العلم بالشَّيطان وخَواطره ، و المَلَك وخَواطره ، وما يفسد الأعمال ، و العقائد ، و القلوب من رياء ، و عجب ، و غير ذلك من الصفات المُنْجيات ، وهَذا العِلم واجب عَلى كُل مُسلم ، وفَرض عَلَيْه فَرض عيْن .

فإنّ العلم بالشَّيطان ، و المَلَك مَثلاً إنْ لم يأخذ عِلم ذلك من الشرع ، و يعتقد/ فيهَم ما أمره الشرع . ١/٣٣١

والأصل إن اعتقد مذاهب الملاحدة [1] التي تعتقد في الجن أنها أخلاط السواد أوغير ذلك من المعاني ، و أنها ليست بأشخاص سِوى صِفات الأنفس .

وكذلك الملائكة ؛ يعتقدون أنها القوى ، و النفوس الحيوانية ، والعقول الإنسانية ، وكذلك أمور الآخرة كلها من أمر الموت ، و ما بعده من برزخ ، وسؤال قبر ، ونَعيمه ، وعَذَابه ، و بعث ، و نشر [2] ، و سؤال ، وميزان و حَوض ، و صراط ، و جنة ، و نار ، و جميع أمور الآخرة الواجب على العبد أن يَعلم ذلك ، و يَأخذ علمه من الكتاب والسنة ، و لاَ يَأخذ علمه من آراء الملاحدة، الذين يرون أنَ الموتَ إنما هَو انحلال تركيب الجسدَ فقط ، و لاَ يَرون عَذَاب القَبر ، ولاَ نَعيمه ، وينكرون بعث الأجساد، والجنة، والنار و يَرونها هُنا فَقط ، و غَيرَ ذَلك مِن أمور الآخرة ،

---

(١) الملاحدة : جمع ملحد ، وهو : الطاعن في الدين المائل عنه .

(٢) نَشْر : يبعث الله الموتى من قبورهم أحياء .

فَضَلوا عَنْ العلم كَما قَال اللَّه تَعالى : ﴿ وَ إِنَّ كَثيراً لَيُضلون بِأَهْوَائِهِمْ بِغَير علمٍ ﴾[١] فَواَجب عَلى العَبد أنْ يَضمر في بَاطنه علم الإيمان ، و يتعلم مَا يُجيب به المَلكين ، و يَضْمره [٢] في نَفسه ، و يَتَعلَم أمور الآخرة ، و يفكر فِيها حتى يَحصل لَه العلم و اليَقين بها .

وقَال النَّبي ﷺ : « تَعلموا اليقين فإني أَتعلمه »[٣] والخَواطر تَطرأ عَلى القلب أسرع من طرفه العين ، العلم ثبات القلب ، و صَلاحه ، و تَسأل اللَّه في كُل وقت الثبات / عَلى العلم النَّبوي ، و أنْ لاَ يُضله عنه . ألا تَسمع ١/٣٣١
لقول الرَّاسخين : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[٤] وَالهُدى هُو العلم ، وَقال النَّبي عليه السلام : « يا مُقلب القُلوب ثبت قَلبي عَلى دينك »[٥] هَل سَأله إلاَّ الثبات عَلى عِلم الدين الذي جَابه ، وأرسله بِه ، و هَداه إليْه ؟ .

فَإِذَا فَهمت هَذا عَلمت أنَّ القَلب لاَ يَسْتَغني عَن العلم طَرفة عَيْن ؛ لأنَّ كُل شَيَء يَطرَأ عليه ، وَفيه يَجب عَرضه عَلى العلم النَّبويَ ، فَيَتصوَّره القَلب كَما أمره العلم النَّبوي ، فَهذا هُو الفَرض الوَاجَب تَعْليمه ؛ فَإنّ العَقل قَائده الشرع في أُمَور الآخرة ، لاَ يَسْتَغني بنَفسه عنْه .

ثمّ بَعد ذَلك يَنْظر العَقل ، و يُفكر في أُمور الآخرة ، و يَطْلب علمها ، و الشغل به ، و يَقدر إيثَاره لعلم ، و اشْتغاله به يكوَن من عُلماء الآَخرة ، المَمدوحينَ ؛ فَالعَقل يُؤمن بَما أخبر به العلم النَّبوي ؛ لأنَّه من مُجَوَزات العُقول السليمة ، فَالعَقل يُحيره ، و لاَ يُحيلَه ، و يُحيل مَا أمرهَ العلم النَّبوي

---

(١) سورة الأنعام : الآية (١١٩) .

(٢) يضمر : يُخفي .

(٣) أبو نعيم في الحلية .

(٤) سورة آل عمران : الآية (٨) .

(٥) الترمذي (٢١٤) ، (٣٥٢٢) ، (٣٥٨٧) ، ابن ماجة (١٩٩) .

أن يُحيله في عَالم الغَيب أيْضا ، و يُوجب مَا أوجبه ، و يُحيل مَا أحاله .

وهَذه المَدارك الثلاثة هى مدارك العَقْل و عُلومه ، لاَ يَردها إلاّ المُتَّصفون بَالحُمق [١] القَائلون في الآخرة : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [٢] فَقَولهم « لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ » أي لَو كُنَّا نُؤمن ، و نُصَدق ، وقَولهم « أَوْ نَعْقِلُ » أيْ نعْقل/ علم الشرع ، الذي أُمرنَا به في الدنيا فَلم نَعْقله، بَل رَدَدناهَ ، قَال اللَّه عَز و جل : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾[٣] وقد ١/٣٣٢
كَانوا في ظَاهر الدنيا عُقَلاء ، عُلماء العَقل المُشترك ، لَكن العقل المُكْتسب العلمي من الأنْبياء لمْ يكن عنْدهم منه شَيء ، فكَانوا كَما قَال اللَّه تَعالى فيهَم : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ ﴾[٤] ثمّ حَطهم عَنْ رتُبة الأنْعام فَقال : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[٥] .

---

(١) الحُمق : قلة العقل .

(٢) سورة الملك : الآية (١٠) .

(٣) سورة العنكبوت الآية (٤٣) .

(٤) الأنعام جمع نَعم وهي الإبل خاصة ، أو الإبل والبقر والغنم .

(٥) سورة الفرقان : الآية (٤٤) .

فصل

و أمَّا القسم الثالث من العلم في مقَام الإحسَان : فَهُو العلم باللَّه الذي لاَ تُدركـه الحَواس ، و طَرِيقَـة السَّمع ، و العَقل عند أكـثر العُلمـاء ، و عَند طَائفة منهم العَمل بالعِلم أيْضًا طَريق إلى العلم .

فَمَدارك العَقْل و الشرع العلمية ثَلاثة : مَعرفة مَا يَجب للَّه سبُحانه ، ومَعرفة مَا يَجُوز عليه ، و مَعْرفة مَا يَسْتَحيل عليه .

فَالذي يجب لَه : الوُجـود الثابت ، الذي لاَ بُدَّ منه ، و البَقـاء الدَّائم أزلاً و أبداً ، والكمال المنزه بالصفـاتَ الكاملةَ ، فهذه الَثلاث واجبة له عقلاً وشرعًا .

فأما وجوب الوجود الثابت عقلاً فإن فعلاً لا يَسْتغني عن فاعل ، وقد وجدت الأفعال ضرورة، فوجب وجود الفاعل عقلاً ضرورة .

وأما وجوبه شرعًا فقوله : ﴿ آمنُوا باللَّه ﴾ (١) فأوجب الإيمـان بوجوده ثم أمر بالنَّظر ، والاعتبار في غرائبه لِيُعلم ما أَمر بالإيمَان به .

٣٣٢/ب وأما / وجوب البقاء له عقلاً أزلاً ، وأبداً فَبُطلان التسلسل في العَقل؛ فَإنَّه لَو كَان مُحدثاً لَوجب افتقاره إلى فَاعل ، و هكذا أبدًا يَتَسلسَل حتى يَضْطر العَقل إلى قَديم وَاجب لَه القِدَم ضَرورة ، و إذَا ثَبت قدمه اسْتحَال عَدمه .

و أمَّا و جُوب ذَلك شَرعاً فَقَوله : ﴿ كُل شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾(٢) أي

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .

(٢) سورة القصص :الآية (٨٨) .

أزلاً، وأبداً ، وقوله : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾(١) و﴿ كُل مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾(٢) وغَير ذَلك .

وأما وجوب الكمال له عقلاً بالصفات الكاملة، فقيام الدليل أنه واحد، ولو كانا اثنين لم يصح منهما وجود الأفعال فكما له أن يكون واحداً، وقيام الدليل على علمه وقدته لوجود اتقان صنعته ، واستحالة وجودها من عاجز غير عالم ، وكذلك سائر صفاته .

و أمّا وجُوب ذَلك شَرعاً فَقوله عَز و جَلّ : ﴿ وَ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾(٣) ﴿لَوْ كَانَ فيهمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّه لَفَسَدَتَا ﴾(٤) ﴿ و اللَّه بِكُل شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾(٥) ﴿ واللَّه عَلَى كُلِ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾(٦) وغَير ذَلك من آيات الصفات ، و الأَحَاديث الوَاردة في أسْمَائه ، و صِفَاته .

و أمَّا مَعرفة مَا يَجوز لَه سُبحانه فَثَلاثة ، و هي إيجَاد العَالم بَعد العَدم وإعدامه بعد الوجود ، وإعادته بعد العدم ، و تَرك إيجَاده ، و إعَادَته .

و أمَّا جَواز ذَلك في العَقل فَقيام الدليل عَلى حَدث العَالم بَعد عَدمه ، كَما أوجده بَعد عَدمه ، وكَذلك بعَدمه إنْ شَاء ؛ لأنّ وجُوده لَيس/ بوَاجب ١/٣٣٣
بنَفْسه ، بَل بِغَيره ، و إِذَا أعدمه إنْ شَاء فَيعيده إنْ شَاء كَما أوْجده بَعد العَدم أولاً .

و أمَّا إخْبار الشرع عَن جَواز ذَلك فَقَوله : ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يعِيدُهُ ﴾(٧)

---

(١) سورة الحديد : الآية (٣) .

(٢) سورة الرحمن : الآية (٢٦، ٢٧) .

(٣) سورة البقرة : الآية (١٦٣) .

(٤) سورة الأنبياء : الآية (٢٢) .

(٥) سورة البقرة : الآية (٢٨٢) .

(٦) سورة البقرة : الآية (٢٨٤) .

(٧) سورة يونس : الآية (٤) .

و ﴿ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾(١) و ﴿ كُل مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾(٢) و﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾(٣) ﴿ وَيُرِيدُ ﴾(٤) وغَير ذَلك من الأخْبار الشرعية عَن أحْوال العَالم ، والبَارِىء قَادر ، لاَ يُعجزه شَيء .

و أمَّا مَعرفة مَا يَسْتَحيل عليه جَل جَلاله فَثَلاثة : العَدم ، و المِثْل ، والنَّقائصُ .

فأمَّا اسْتحَالة عَدمه أولاً ، و آخراً في العَقل ، فَلو لمْ يكن الفَاعل لمْ يكن فِعل ، و قد وجدت الأفْعَال ، فَاسْتحالَ عَدم الفَاعل .

و كَذلك يَستحيل عَدمه في المُستقبل لا سْتحَالة عَدمه القَديم ، و دَليله مِن الشرع قَوله عَز و جَلّ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾(٥) أيْ مِن غَير خَالق ، و غَير ذَلك .

و أمَّا استحاله مماثلته للأشْياء من العَقل فإنَّه لَو كَان مثلها لَوجب لَه مَا يَجب لَها ، و جَاز علْيه مَا يَجوز عَلَيها ، و ذَلك بُطلاَن الحَقَائق في انْقلاب الوَاجب جَائزاً ، و الجَائز مُسْتَحيلاً ومن الشرع قَوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٦) ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدَ ﴾(٧) وغَير ذَلَك .

و أمَّا اسْتحَالة النَّقَائص عَليه من العَقل ؛ فَإنَّه لَو كَان نَاقصًا لَلَزمَته الآفَات و لَمْ يَجب لَه التَّقْديس ، و التَبْرِئة ، و الإله لاَ يَكون موؤفاً ناقصَاً ،

(١) سورة الروم : الآية (٢٧) .

(٢) سورة الرحمن : الآية (٢٦) .

(٣) سورة الحج : الآية (١٨) .

(٤) سورة الحج : الآية (١٤) ، وتتمة الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ .

(٥) سورة الطور : الآية (٣٥) .

(٦) سورة الشورى : الآية (١١) .

(٧) سورة الإخلاص الآية (٤) .

ودليله من الشَرع ، قَوله عَز وجَلّ : ﴿ سُبْحَان رَبكَ رَب الْعزَّة عَمَّا يَصفُون ﴾[١] / ﴿ وَمَا رَبُّك بِغَافِلٍ ﴾[٢] ﴿ وَ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّة ﴾[٣] وغير ذَلك . ٣٣٣/ب

---

(١) سورة الصافات : الآية (١٨٠) .

(٢) سورة الأنعام : الآية (١٣٢) .

(٣) سورة سبأ : الآية (٣) .

فصل

واعلم أنَّ العَقل أشرف موجود ، وبه تُكتَسب الفَضائل بتَوفيق اللّه تَعالى ، ورَحمته ، و لَه طُرق إلى العُلوم ، وأعوان ، لاَ يَسْتغني عَنْها فَمن طَرقه ، و أعوانه : الحَواس الخَمس التي هي السمع المُدرك للأصوات على اخْتلافها ، والبَصر المُدرك للألوان ، وسُطوح الأجسَاد و هَيآتها ، واللمس المُدَرك للَملمُوسات ، وأنْواعها ، و الذَّوق المُدرك للطعوم ، وأنْواعها ، والشَّم المُدرك للرَّوائح و أنْواعها ، فَهَذه أعوَانه فيِ الظاهر التِي يقتنص بِها الفَوائد .

ولَه في البَاطن أعوان أُخر ، فَمنها القُوة المتخيلة ، وهِي التِي تطبع أمثلة الصور المَحْسُوسة المدركة بِالحَواسَ المُتقَدمة الذكر .

ومنها القُوة الحَافظة التي تَحفظ ، وتحصي ، مَا يَدرس العَبد من العُلوم السَّمعية ، والصور المَرئية المحفوظة ، وهي التِي آفتَها النسيان ومَنها القُوة الذاكرة ، يتذكر العقل بها ما حفظ ، وتَخيلَ فتشاهده كما قيلَ : «اذكر غائبًا تره » .

ولولا الذكر ما شاهده، ولا رآه، ومنها القوة الظَّنية الوَهْمية المُتصَرفة في الجسمانيات المَجَاليات وبَعض المُمكنَات ، وأكْثَرها كَذب ، كَما ورَد في الخَبر : « الظَّن أكْذبَ الحَديث » ، ومنها القُوة الفكْرَية الجَائلة [1] في المَعْقُولات ، ومَدَارك هَذه القُوى المُتَقدمة كُلها ، فَتَميز بيْن الوَاجب ، والجَائز ، والمُسْتحيل ، فيَحَدث عَنْ ذَلك القُوة الإِيمانيِة/ المُصدقة بالغَائبات ، ١/٣٣٤

---

(١) الجائلة : الطائفة .

وَالْمُخْبَر عَنْهَا ، أو المُكذبة الجَاحدة [١] فإذَا نَظر العَقل بحَواسه في المَحْسُوسات عَلم أنَّ ربَّه لَيس من قَبيلَ المَحْسُوسَات ، ولاَ يُدركَ بالحَواس .

وكَذَلك يَنْظر في القُوة المَتخيلة ، فَيعلم أنَّه لَيس من قَبيل المُتخَيلات ، ولاَ يُدرك بالخَيال ؛ لأنَّ المُتَخيل إنَّما هُو صُورة للمَحْسوس .

وكَذَلك يَنْظر في القُوة الحَافظة فَيَعلم أنَّ رَبَّه لاَ يُحصر ، ولاَ يُحاط به ، فَيُضبط ويُزَم ، كَسَائر المَحْفُوظات ، والمَزْمُومات .

وَكَذَلك يَتَذكر مَا حَفظ ، وتَخيل ، ورأى فَيعلم أنَّه لَيس من قَبيل مَا تَذكر ، وعَهد من المَعْهُودات ، وَكَذَلك يَنْظر في الوَهْمية الظَّنية ، فَيَعلم أنَّه لَيس من قَبَيل المُتَوهمات ، ويَنْظر بالفكْرية ، فَيُلحق كُل شَيء بشَكله ، فَيَستَدل عَلى ربه ، ويَعلم أنَّه مُخالفَ لجَميع المدُركَات ، فَيُصَدق بالقُوة الإيمانية أنَّه مَوجود ، لَيس كَالمَوجُودات ، ويَجْحَد المُكذبة أنْ يكونَ مثل شَيء من المُحدثات ، فَأوجب للَّه مَا يَجب ، وجَوَّز عليه مَا يَجوز ، وأحَال عنْه ما يَستحيل ، وله في كل قوة منها فائدة عظيمة من حيث أنه ينفي عن اللَّه أنَّه لَيس مُتَوهماً ، ولاَ محسوساً ولا متخيلاً ، ولا محبوساً مخالطًا به ، إلى أمثال ذَلك .

وأمَّا طَريق العمل فإن طائفة من خيار العلماء تقول : إن من عمل بالعلم ، وأخلص ، علمه اللَّه من لدنه علماً ، وله دَلائل من القُرآن والسنة/ ٣٣٤/ب
قال اللَّه جَل جلاله : ﴿[٢] إنَّ تَتَّقُوا اللَّه يَجْعَلْ لَكُم فُرقَانا ﴾[٣] وفي الخَبر « من

---

(١) الجاحدة : المنكرة : جحد الأمر أنكره مع علمه به . وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوا رُسُلَهُ ﴾ .

(٢) زاد في الأصل [واو] في أول الآية .

(٣) سورة الأنفال : الآية (٢٩) .

عَلم بِما وَرَّثه اللَّه عَلم مَالمْ يَعلم »[١] إلا أنَّه لا بُد لصاحب هذا المقام يورد ذلك على أدلة الكتاب والسنة فإن كان مما يجب أو يجوز على اللَّه قبله وصدقه به وإن كان مما يستحيل عَلْيه نفاه وجَحده ، من اللَّه علينا وعليكم بتوفيقه وهدايته ، وأيدنا وإيَّاكم بروح متصل الإمدَاد من عنده في الدُنيا والآخرة بمنه وفضله .

آمين

وصَلى اللَّه عَلى خَاتم النَبيين وسلم تسليمًا

(١) تذكرة الموضوعات لابن الجوزي (٢٠) .

الشُّعبة التاسِعة و الخَمسُون

اليقِين

أمَّا كَون اليَقين من الإيمان فَبَين ، لأنَّ الإيمان لاَ يَثبت إلاَّ به ، فإنَّه حَقيقة الإيمان وأسَاسَه ، وقَال النَّبي - ﷺ - لأَبي هُريرة : « اَذهب بنّعلَيَّ هَاتين ، فمن لقيت من وَراء هَذا الحَائط ، يَشهد أن لاَ إله إلاَّ اللَّه مُستيقناً بها قَلبه ، فَبَشره بالجنة »(١) .

فَذكر يَقين القَلب في الإيمان ، وقَال عَليّ -رضي اللَّه عنه- : « الإيمان عَلى أربع دَعائم : عَلى الصَّبر ، واليَقين ، والعَدل ، والجهاد » فَجَعله دَعامة الإيمان ، به يثبت .

ولذلك قال ابن مسعود : « اليَقين الإيمان كُله » لأنَّ بثباته يَثْبت الإيمان ، وبزَواله زَوال الإيمان ، وبه يَطْمئن القَلبُ ويَسكن/ ، قَالَ اللَّه - عَز وجَلّ - ١/٣٣٥ لإَبراهيم -عليه السلام- ﴿ أَوَ لَمْ تُؤمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيطْمَئن قَلْبي﴾(٢) واَليَقين هو المطالعة والمعاينة .

وإنْ شئت قُلت : الْمُكَاشفة والْمُشَاهدة للشَيء الْمُصدق به ، وهو على ثلاثة أضربَ ، ضَرب في عَالم الحس ومَقَام الإسْلام ، وضرب في عالم الغَيب ومقام الإيمان ، وضرب في عَالم الغيب ومقَام الإحسَان .

فأمَّا الضرب الأول فَهو اليَقين بالأنْبياء والرسل ، ومَا جَاءت به من الشرائع الإسلامية ، فإنهم شرعوا الشَرائع في عالم الحس ، كما أخبروا عن الغيب وهم ظاهرون مع الخلق ، ولا يثبت الإيمان إلا باليَقين بأنَّهم أنْبياء .

(١) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمَان (٥٢) .

(٢) سورة البقرة : الآية [٢٦٠] .

فصل

اعلم أنَّ طَريق اليَقين بِهم عَلى ضَربين ، أحَدهما : يَقين التواتر ، والثاني يَقين المعجزة .

فأما التَّواتر فَقد تَواتر بنَقْل الكَافَّة عَن الكَافَّة وجُود الأنْبياء في الدنيا ، فَلا يَشُك أحد أن نَبينا مُحمداً - ﷺ - بُعث بمكة ، وهَاجَر إلى المدينة ، ومات بها ، وأنَّه المَدفُون المَزور الآن قَبره بالمدَينة ، وكَذلك سَائر الأنْبياء المُتقدمين قَبله ، وإنْ لمْ يُشاهد قُبورهم ، فَقَد تَواتر بِنَقل الأُمم من اليَهود والنَّصارى وغَيرهم .

إنهم كَانو بُعثوا في الدنيا إلى الخَلق ، كَنُوح وهود وشُعيب إلى عيسى -عليه السَلام- / كَتَواتر بوجُود مَكة والعراق والشَامِ وغَير ذَلك ، وإن لم ٣٣٥/ب
يَدخلها الإنسان ، ولاشاهدها ، بل أيقن بذلك ، بتواتر النقل عن وجودها فكذلك يُؤمن بتواتر النقل عن وجود الأنبياء ، وبَعثهم إلى الأُمم .

وأمَّا يَقين المُعجزة ، فإنَّهم لَمَّا طولبوا بيقين مَا أتوابه ، وادَّعوه من الأنباء ، أتوا بالمُعجزات الخَارقة للعادة ، ظَاهراً للحس ، فَحَصل اليقين بهم من جهة المُعجزة أنَّهم أنبياء مُرسلين ، فإذا ثبت أنهم أنبياء مرسلون ، وَجَب إتَباعهم في الشرائع الإسْلاَمية وغَيرها ، والعَمل بِذلك عَلى اليَقين ، فَمن حَصل له اليَقين بوُجودهم ومُعجزاتهم .

ثَبت لَه أنَّ الإسلام حَق بلا شَك ، فهو يعمل على بينة وبصيرة ، أيْ يَعمل عَلى يَقين بالمَعبود ، وإنَّه ثَبَات عَلى أعْمَال الإسلام ، وعَلى ترك المَنْهيات ، وإنْ لَمْ يَعمل ويترك عَلى يَقين ، لمْ ينفعه ذَلك ، وكَذلك سَائر المُبَاحَات الدُنيوية ، لاَ يُثاب عَلى شَيء يَنْوي بِه الصَّلاح ، إن لم يكن مُوقناً .

فَقَد تَبين أنَّ اليَقين دَاخل في الأُمور الشرعية كُلها ، المُتعبد بها الإنْسَان .

فصل

وأمَّا الضرب الثاني من اليَقين في مقَام الإيمان وعَالم الغَيب ، فإنَّه اليَقين بالدَّار الآخرة ، قال اللَّه -عَز وجَل- : ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُم يُوقنونَ﴾(١) وهُو مقَام عَزيز ، وهو علَى دَرجات ، وأقل دَرجة منه/ ماثبت به الإيمان ، ٣٣٦/أ
واطمأن به القَلْبُ .

ذلك أنَّ الأنبياء لَمَّا ثَبت نبوتهم بالمُعجزات الخَارقة للعَادات ، علَمت العُقول بالبراهين القَاطعة الضرورية أنَّهم صَادقون في كُل مَا أخْبروا به عَيْناً كَان أوشَهادة ، وتَبَرهن عنْد العُقول أنَّهم لاَ يَكْذبون ، ولاَ يَجوز عليهم الكَذب ، فكُل مَا أخبروا عنَه فَهو كَما أخبروا ، من غير زيادة ولا نُقْصان ، لأنَّهم عَن اللَّه أخبروا ﴿ وَمَن أَصْدَقُ مِن اللَّه حديثا ﴾(٢) .

فَأيقنت القُلوب بكل مَا أخبروا به من أمور الغيب ، وانتفى عنها الريب(٣) في أنَّهم أنْبياء(٤) ؛ لأنَّ النَّبي مَعْناه الخَبير والمُخبر ، فإنَّه يُخبر الغير بالغيبيات التي اطلع عليها ، فَلولا ذَلك مَا نُبىء ، ولاسمِّي نبيًا ، لأنَّه لم يكن نَبياً لنَفس ، فإنَّ أحداً لاَ يَشك أنَّ النَّبي إنْسان ، وإنَّما كَان نَبياً بالخَبر واليَقين بالحَقيقة ، إنَّما وقَع بِالخبر الذِي أتى بِه النَّبي ، والشرع الذِي شُرَع .

ومِن شَرَع الأنْبياء الإِخبار عَن الغُيوب ، فَقد حَصل بِحمد اللَّه اليَقين

(١) سورة النمل : الآية [٣] .

(٢) سورة النساء : الآية [٨٧] .

(٣) الريب : الظن و الشك و التهمة . و ريب المنون : حوادث الدهر .

(٤) زاد بعدها فِي الأصل « أم لا » و حذفت لاتمام السياق .

بالأنْبياء من هَذا الوَجه ، وثَبت به الإيمان لكُل مُؤمن والحْمد للّه ، وهُو أول دَرجة من اليَقين ، وَوراءه دَرجات من علَم اليَقين بما يَتَفَاضل المُوقنون ، كَما وَرَدَ في الخَبر « لَيس المُخبر كالمُعاين »(١) .

٣٣٦/ب وكَما قَال المؤمن : لَو كُشف الغطَاء/ مَا ازْددَت يَقيناً ، وكَما قَال عُمر ابن الخطاب -رضي اللّه عنه- في صَفة المُوقن : « إنَّه يَنْظر إلى الآخرة من وَراء ستر رَقيق » ، وإنَّما تَوصل إلى هَذا المقَام بترداد الفكر ، وَالنَّظر في أُمور الآخرة ، والتَّفهم لكتاب اللّه -عز وجَلّ- الذي هُو اليَقين ، وأخبَار الرسُول التي هي وحيٌّ ، قَال اللّه -عز وجَلّ- في القَرآن : ﴿ إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَريم وَمَا هُوَ بقَوْل شَاعر﴾(٢) إلى قَوله :﴿ وإنَّه لَتَذْكرَةٌ للْمُتَّقين﴾(٣) إلى قوله : ﴿وَإنَّهُ لَحَقُّ اليَقين ﴾(٤) أيْ إذَا تحققت الشيء على ما هو به ، فقد أيقنت به .

كما قال اللّه -عز وجَلّ- في الذاريات : ﴿ فَوَرَب السَّمَاء والأَرْض إنَّه لَحَقٌ مثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطقُون ﴾(٥) ، وقال في سُورة النور ﴿ يَوْمئذ يُوَفيهمُ اللَّه دينهُمُ الْحَق ، ويَعْلَمُونَ أنَّ اللَّه هُوَ الْحَقُ الْمُبين﴾(٦) أي يوقنُون أنَّ اللّه حَق ، إذَا كُشف الغطاء ، ورَأوْا أنَّ القُوة للّه جَميعاً .

وبذَلك سميت القيامة الحَاقة ، لأنها تُحقق الأشْيَاء الغائبة عنْد مُبصْريهَا إذَا قَامت ، ولاَ يَشك في شَيء منها ، فَعلم اليَّقين مَوجود في القُرآن والسُّنة ، وَإذَا قرأ التالي الآية مِن القُرآنَ ، والحَديث منَ السنة ، وتَفهم مَا

(١) الكامل في الضعفاء لابن عدي (١/ ٢٠٣) ، أحمد في مسنده (١/ ٢٧١) .

(٢) سورة الحاقة : الآية [٤٠ : ٤١] .

(٣) سورة الحاقة : الآية [٤٨] .

(٤) سورة الحاقة : الآية [٥١] .

(٥) سورة الذاريات : الآية [٢٣] .

(٦) سورة النور الآية : [٢٥] .

أخْبرت به ، لاَحت لَه دَلاَئل علم الآخرة ، وحَصل لَه اليَقين ، قَال اللَّه -عز وجَلّ- : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾[١] وهذا المقام الناس/ فيه ١/٣٣٧
على حالين مِن الكَشْف :

كَشف علمي مأخوذ من الكتاب والسنة وبراهين العقل المكتَسبة من الأنبياء .

وكشف آخَر من قبيل الرؤية مَخْصَوص به أهل الكُشُوفات ، وذلك من نوع كَشْف مريم ابنة عمران ، حين رأت الملك ، ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً ﴾ ولم تكن نَبيَّة ولاَ رسُولاً ، لأنَّ المَرأة لاَ تكون إماماً ، ومن قَبيل قَول الصَّحابي -يَوم أحد- وهُو أَنْس بن النَّضر ، عَمَّ أنس ، حِيَن لَقي سَعد بِن مُعَاذ ، فَقال لي : إلى أين يَا سعد ؟ .

[قال سعد][٢] إني أجد ريح الجنَّة دُون أُحد ، فَهذا عَبد أخبر عَن وَجْده حِين كُشف لَه عَن الآخرة فَوجد ريحَها ، كَما وجَد يَعقوب ريح يُوسف -عَليهما السلام- عَلى مَسافة بعيدة ، وأمثال هذا من أخبار المكاشفين المُوقنين يَطول ذكرها ، وقَد رَأى النَّبي - ﷺ - الجنَّة والنَّار في عَرض الحَائط .

وقال : « الجنَّة أقرب إلى أحدكم مِن شسع[٣] نَعله ، والنَّار كَذلك[٤] » وكَما ينّظر الميت إلى الآخرة ، والأملاك حوله ، ولم يزل في مكانه ، والناس حوله جلوس ، لاَ يَرون ما يرى حين كشف له الغطاء ، فإنَّ الآخرة غَيْب في باطن الدنيا ، كما النفس غيب في الجَسد ، فكما يعلم يقيناً أنَّ

(١) سورة التكاثر الآية : [٥ : ٦] .
(٢) ما بين المعقوفين زيادة عَلى الأصل يتطلبها السياق .
(٣) الشَّسْعُ : سير يُمسك النعل بأصابع القَدم .
(٤) صحيح : البخاري (٨/ ١٢٧) أحمد (١/ ٣٨٧) .

النفس تحرك الجسد ، وتظهر أسرارها فيه وَعليه ، لأنه ملكها ، فكذلك الآخرة رَوح الدنيا ، هي المُحركة لنا ، والقائمة بها ، فهي تظهر أسرارها وأحكامها ، فَإذَا نَظرَ / النَّاظر ، وفكر في الآيات والأحاديث ، واشْتغل ٣٣٧/ب بالفكر والإقبال عَلى الآخرة ، نَظَر إلى الآخرة ، فرآها غَيباً في الدنيا ، كما تَنْظر إلى نَفسه غَيْباً في الجسَد ، فيوقن بهاَ ، فَعَليك بطَلب علم اليَقين ، جَعلنَا اللَّه وإيَّاكم من الموُقنين ، أهل السعَادة في الدنيَا والآخَرة ، آمين ، آمين ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمد ، وآله ، وسَلم تَسليمَا .

فصل

وأمَّا الضرب الثالث من اليَقين في مقَام الإحسَان ، فَهُو اليَقين باللَّه -جَل جَلاله- والنَّاس فيه درجات عَلى قَدر نُفوذ بَصَائرهم في مقامَات المُشاهدة .

فأول درجة منه ما ثبت به الإيمان وانتفى[1] به الريب ، وبعدها ما يقوى به الإيمان من البراهين العقلية النظرية ، وبعد ما يترك من السكينة في قلوب المؤمنين ، وهو مزيد من اللَّه لمن شاء من عباده ، وكشف لبصائر الموقنين ، فينظروا إليه في مَلكوت الغَيب بنوره الذي به ظهر كُل مَوجود .

قَال النَّبي - ﷺ - : « إنَّ اللَّه خَلق الخلق في ظُلة ، ثمّ أَلقى عليهم من نُوره ، فَمَن أَصابَه مِن ذَلك النُّور اهتدى ، ومن أَخطأه ضَلَّ » فَتفاضل الموقنين والمبصرين عَلى قَدر مَا أصابهم من ذَلك النور ، وكُشف لَهم منه ، قال اللَّه -جَل جَلاله- : ﴿ وَمنْ آيَاته اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[2] فَالليل ظُلة ، به تَخفى الأشْيَاء ، ولاَ تَظهر فَتُعدم عَن الأبْصار ، فَهُو دَليل عَلى المُعْدم ، وَعَلى الإلهية البَاطلة / ، فَقَد دَلَّ الليل عَلى وجُود البَاري ، كَما دَلَّ النور ٣٣٨/أ الذي هُوَ النَّهار والشَمس ، والقَمر .

مثَال ذَلك أنَّ الليل يَعدم الأشْياء من الأبْصار ويُخفيها ، وينَام الخَلق فيه ، وَلاَ يَبْقى لَهم حس ، فيقول : لَو كَان الإله عَدماً وبَاطلاً ، لم يُوجد فَعل ولاَ مَوجود ، لأنَّه لاَ ظُلة أخفى منَ العَدم ، والعَدم لَيس بشيء ، فَكيف يُوجد شَيئاً ؟ وقَد ظَهرت الأشياءَ ، وَوُجدت ، فَعُلم أنَّ الصَانع لَها

---

(١) انتفى : لم يثبت .

(٢) سورة فصلت الآية [٣٧] .

واحد (١) حَق ، فَقد دَلَّ الظلام عَلى وجُوده -سبحانه- دَلاَلة قَطْعية .

وأمَّا النَّهار والأنْوارفَهي أجْلى (٢) وأوضح ، وذَلك أنَّ النَّهار الذي هُو الضيـاء ، به تَظْهر الأشَيـاء ، تُبين، وتُرى ، لأنَّ الضيـاء عَلى سُطوح المُبصَرات ، وَهُو يجَليها ، وهُو مُتصل بالأبْصار المُبصرةَ للألوان ، وصُور الأشْيَاء ، وذَلك الضياء فَائض عَن قُرصَ الشَّمس ، فَإن القُرص سَبب لَه ، فَلولا النُّور لم تَظهرَ الأشيـاء ، فَالنُّور هُو شدة ظُهور الوجُود ، وغَاية وضُوحه ، وبه ظَهرت الأشياء كَما تَقدم .

﴿اللَّه نُور السَّموات والأَرض﴾(٣) به ظَهرت الأشياء وَوُجدت ، ولو لم يكن موجوداً لما ظهرت أبداً ولاوجدت فَلو قُدر عَدمه وغَيْبته عَن الوُجود طَرفة عَيْن ، لانْعَدم الوُجود بأسْره في تلك الطرفة ، ولم يكن أبداً ، كَما لَو ٣٣٨/ بقَدرت كُسُوفاً (٤) عظيماً يَأتي بَغْتة(٥) ، فَيَكسف الشمس كُلها ، ولاَ يَبقى شَيئاً مِن النيرات(٦) ، لَمَّا ظَهر شَيء من الأشْيَاء ، ولانْعَدمت الأشيَاء من الأبصار .

فَالحَقيقة أنَّما يَرى عَلى الأشياء النور الذي يُظهرهَا ، وكَذلك بالحَقيقة لاَ تَرى العُقوَل في الوجُود الأنوار (٧) الذي به ظَهرت الأشياء كُلها ، وَبه تَرَى الأشياء ، وتُبصر ، والأشياء كُلها أَصلهَا لاَ من شيء لَيس من طَبَعها ، وَوَصْفها ظُهور بنَفسها ، فَطَبعها الرُّجوع إلى التَّلاَشي (٨) والعدمَ ، الذي هُو

(١) في الأصل « موجود » .

(٢) أجلى : أكشف .

(٣) سورة النور : الآية [٣٥] .

(٤) الكسوف : احتجاب نور الشمس أو نقصانه بوقوع القمر بينها و بين الشمس ، و هُو للشمس كالخسوف للقمر .

(٥) بغتة : فجأة و بهتة .

(٦) النيرات : جمع نير : المضيء المُشرق .

(٧) تكررت كلمة الأنوار في الأصل .

(٨) التلاشي : الفناء .

أصلها ، وَوُجود البَاري ، وكَونه ، وإرَادته يَمْنَعها من التلاَشي ، ويُظهرها بكَونه مَوجُوداً ، فَهُو الظَّاهر حَقيقة ، وكُل شَيء مَا خَلا اللَّه بَاطل .

وقَد أخبر اللَّه عَنْ رأس المُوقنين ، وإمَام المُشاهدين ، إبْراهيم الخَليل -عليه السلام- فَقَال : ﴿ إنِّي أَرَاكَ وَقَومَكَ في ضَلال مُبين ، وَكَذَلك نُري إبْرَاهيم مَلَكُوت السَّمَوات وَالأَرْضِ وَليَكُونَ منَ المُوقنين ﴾(١) ثمَّ أخبر عَن مُشَاهدته ، وسَدَاد نظره ومكَاشفته فَقَال : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْه اللَّيل رَأى كَوكَباً ، قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ -أيْ غَابَ وذَهب- قَال لاَ أُحب الآفلين﴾(٢) ثم كَذلك في القَمر والشَّمس ، ثم كَذلك في جَميع المَفْطُورات .

فَقَال : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهي للَّذي فَطَر السَّمَوات وَالأرْضَ حَنيفاً، وَمَا أَنا من المُشركينَ ﴾(٣) به شَيئاً من الأشيَاء ، لأنَّها آفلة (٤) زائلة ذَاهبة أزَلاً وأبداً، وإنَّما وجهت وجهي للفَاطر (٥) لَها من العَدم ، الذي هُو أصلها ، ولَيس بمفْطُور/ ولا آفل ، فَلم يَغب عَن الوُجود أزلاً ، ولاَ يَغيب أبداً ، فَملَكوت ١/٣٣٩ السَّموات والأرَض الذي أراه -سُبحانه- هُو رؤيته ، علَيه السلام ، مُلكه ، سُبحانه ، للأشياء ، وكَيف قَامت به لاَ بأنْفسها .

﴿ قُلْ مَنْ بيَده مَلَكوتُ كُل شَيْء ﴾(٦) فالكل بيده يَزُمُّه (٧) ويُظهره ويُجيد مُلكه ، وهي صَنعته للأشياء بالقدرة ، فكان يَرَى الصانع في الصنعة ظاهراً به لاَ بنَفسها ، وتَقول العَربَ : مَلكت العَجين ، أمْلكهُ ملكاً ، إذَا أجدت

(١) سورة الأنعام : الآية [٧٤ : ٧٥] .

(٢) سورة الأنعام : الآية [٧٦] .

(٣) سورة الأنعام : الآية [٧٩] .

(٤) أفل : غاب و خَفي .

(٥) الفاطر : هُو اللَّه سُبحانه و تَعالى الذي أوجد العَالم و خَلقه فهو مفطور -أيْ العَالم- .

(٦) سورة المؤمنون : الآية [٨٨] .

(٧) يزمُّهُ : أيْ بيده حركته و سكونه فيقال : في يديه زمام الأمر .

عجنه ، وصَنَعت عَجينة ، فَملكوت اللَّه للأشياء هُو صَنعة لهَا ، وكَيْفية قيامه بها ، بالصنْعة والإيجاد والإنشاء ، وإظْهاره لهَا به لاَ بأنْفسها ، فَهذه كَاشَفةَ المُوقنين ، ومُشاهدة المُوحدين ، وهُم فيها دَرجاَت عَلَى قَدر مَا قُسم لهم مِن ظُهَور النور المُبين ، لاَ يُرى -سبحانَه- إلاَّ بنُوره ، ولاَ يشْهَد إلاَّ بحُضوره .

وانْظر إلى إمَام المُعتبرين ، الخَليل -عليه السلام- كَيف سَلك هَذا المَسْلَك في نَظَره القَويم ، فَلْم يَنْظر إلاَّ إلى الكَواكب ، ولم يَنْظر إلى غَيْره من الأشياء المجسمة غَيره ، وإن كَثرت في عينه ، لأنَّ الكَواكب يُظهرها بنُوره ، وهُو أوضح وجُوداً منها ، لأنَّ الوجُود هُو الظُهور ، والنُّور أشد ظُهوراً من غَيره من الأجسَادَ ، فَهُو ظَاهر في نَفسه ، وظَهر به غَيره ، ثمَّ أفل أنفَ[١] منه ، وارتَقى[٢] إلى القَمر الذي هُو أشد ظُهوراً منه ، ثمَّ إلى الشَّمس التي هي أكمل/ نُوراً ، ثمَّ لَّما رَأى الأُفُول والتَّغير لاَزماً للكُلَ ، تَبَرأ[٣] مِن الكُلَ ، وتَوجه بنَظره إلى الذي لم يأفل ، ولاَ يَأفل أبداً .

(١) أنفَ : تنزه عنه وكرهه .

(٢) ارتقى : صعد ، وارتفع إلى ما هُو أعلى .

(٣) تبرأ : تباعد و تخلى عنهم .

فصل

إذَا فَهمت مَا تَقدَّم وتَحَققت ، فَاقرُن [١] إليْه تلاوة كَلام اللَّه ، الذي نَزله إلَى صَدرك حتى حَفظْتَه ، وأنْطَق به لسَانك وأعلمك [٢] كيف تتلوه؟ فإنّه هُو يلقي التلاوة فيَ قلبك ، وَينْطَق به لسَانك ، فكَلاَمه في قلبك ولسانك ، وهو أقرب إليك منك فاستمع لما يُوَحى ، وإنما سُمي العبد تالياً ، والتالي في لسان العرب هو التَابع ، فسمي القارئ تالياً ؛ لأنَّه تَال -أيْ تَابع- أي يتلو بعد أن ألقى المتلو عنه وهو المحرك لسان عبده بالتلاوة ، فإذَ كَان هو المخاطب لك ، وأنت مُناجٍ [٣] له في مقام المناجاة والمجالسة ، فاجعل جسدك المخلوق من الجبلات والطوائر [٤] الأربع بِمنزلة الجَبل وبَاطنه الخَفي فِي السر عَن الحواس .

الوَادي الأيمن ، والوَادي في لسان العرب ما اختفى من الأرض ، وهُو من جانب الباطن الأيمن ﴿وأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمَينِ﴾ [٥] وهو مَحَلَ الإيمَان ، والحكمة يَمَانية والإيمان يَمَان : ﴿ وأصْحَابُ الْمَيْمَنَة ما أَصْحَابُ الْمَيْمَنَة ﴾ [٦] ﴿ وَ السَّموات مطويَّاتٌ بيَمينه ﴾ [٧] وفيه البقعة المباركة الحافظة للكتاب المبارك ﴿ وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [٨] وبه كَانت مُباركة من

---

(١) فاقرن : أيْ يجمع و يضم إليه .

(٢) في الأصل « و أعْلم » .

(٣) المُناجِ : هُو الذي يسر إليه حديثاً .

(٤) الطوائر : جمع طور : و هُو التغيير التدريجي الذي يحدث فِي بنية الكائنات الحية و سلوكها .

(٥) سورة الواقعة : الآية [٢٧] .

(٦) سورة الواقعة : الآية [٨] .

(٧) سورة الزمر : الآية [٦٧] .

(٨) سورة الأنعام : الآية [٩٢] .

الشَّجرة، وَهي في هَذا الاعْتبِار شَجرة التَّوحيد في هَذا المقَام ، برؤية كُل شَيء من اللَّه وباللَّه .

١/٣٤٠ وهي/ الكَلمة الطيبة التي ﴿ أَصْلها ثَابت﴾[١] أيْ راسخ في سر السر وفرعها في السماء ، ﴿ إليْه يَصْعَدُ الْكَلمُ الطَّيِّبْ ، والْعَمَلُ الصَّالحُ يَرْفَعهُ ﴾[٢] فاجعل لسَانك من وَراءك وفي قَلبك ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحيَ إلِيْكَ من كتَاب رَبكَ﴾[٣] ولْتستمع لما يُوحى ، فَستُنَادى ويغْشاك من نُور المُتجلي لَك في كلاَمه ، ويُقَال من شِهاب قَبس ضيائه مَايُوضح لَك الحَق المُبين .

قال جَعفر بن محمد الصادق -رضي اللَّه عنه- : « وَاللَّه لقَد تَجَلى اللَّه لخلقه في كلامه ، ولكنْ أكَثرهم لاَ يَعلمون » أو كَما قَال : وقَال -عز وجَلّ- : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشعاً مُتَصَدعاً مِنْ خَشْيَة اللَّه ﴾ ثم قَال : ﴿ وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفكَّرُونَ ﴾[٤] .

فهذان الطريقان اللذان هما النظر المُتقدم ، وسَماع كَلام اللَّه ، هُما طَريق اليقين وفيهما يوجد الحق المُبين ، وباليقين تفَاضل النَّاس ، وهي أعزُّ مَا نَزل من السَماء ، وفيه تَظْهر أعْلام القدرة ، وتَخرق[٥] العَوائد لمن أُريد به طَريقَها، فيه مَشوا عَلى المَاء ، وفي الهَواء ، وزلت لَهم السباع والهوام[٦] ورَأوْا الآيات وعَجَائب الكشف والكَرامات .

---

(١) سورة إبراهيم : الآية [٢٤] .

(٢) سورة فاطر : الآية [١٠] .

(٣) سورة الكهف : الآية [٢٧] .

(٤) سورة الحشر : الآية [٢١] .

(٥) تخوف العوائد : تخالف الأحوال العادية المألوفة و تأتي بأشياء فوق العادة تسمو ، و ترتفع عن مقدرة البشر .

(٦) الهوام : جمع هامة : و هى كُل ذي سُم يقتل سُمه .

وتَغيَّر عَن حَال مُكَاشفة اليقين بالسبات (١) ، وهي حالة بين النوم عَن الدنيا ، واليقَظة بالآخرة ، والنَّاس في الدنيا ، يَنَام بالإقْبال عَليها ، فَإذَا مَاتوا عَنْها بالموت ، أو الانْقطاع إلى اللَّه والدَّار الآخرة ، أَيْنَتهُوا وهُم منها في حَالة بيْنَ حَالتين ، وتَحْسَبهم أيقَاظاً وهم رقود عنها فالمكاشفة أبداً ، باليَقين حَالة أهلها كَالسنة بَيْن النّوم واليَقظة ، وقال اللَّه -عز وجلّ- : ﴿الَّذين آمَنُوا وَكَانُوا يتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَى في الْحَيَاةِ الدنيا ﴾(٢) .

والفرقان هو الذي جَزاء التَّقوى من البشرى ، والبشرى هي الرؤية الصَّالحة ، والرُّؤية عَلَى ضَربين : رُؤية النَّوم المعهود ، ورُؤية المُكَاشفة ، قَال النَّبي -عليه السلام- : ﴿ لمْ يَبق بَعدي مِن النُّبوة إلاَّ المُبَشِرات ﴾(٣) .

وقد قال اللَّه -عَز وجَلّ- في مُشاهدة النَّبي -عليه السلام- ومُكاشفة للغُيوب ليلة الإسراء ، « وَمَا جَعلْنا الرؤيَا الْتي أَرَيْنَاك إلاَّ فِتْنَة لِلنَّاسِ ﴾(٤) فَسَمَّاها رُؤيا .

قَال ابن عباس -رضي اللَّه عنه- : « هي رُؤيا عَين أُريها رسُول اللَّه -ﷺ- ليلة الإسْراء » وذكر النَّبي -عليه السلام- حَديث الإسْراء ، وما رأى إلاَّ آخره ، ثم قال : « ثم نزلت فَاسْتيقظت فإذا أنا بِمكة » فَذكر في الصحيح أنَّه نَزل من مقَام العُلو الذي رَقى إلْيه بالمعُراج وغَيره ، وإنَّه اسْتَيقظ حين شَاهد هَذا العَالم ، لأنَّه قَد كَان نام عَنه بالخُروج مِنه ، والإقْبَال عَلى غَيره .

ورَوى مُسلم والبُخاري أيضاً عَن مالك بن أبي صَعْصَعة قَال : قَال

---

(١) السبات : النومة الخفيفة كنوم المريض و الشيخ المسن .

(٢) سورة يونس : الآية [٦٣ : ٦٤] .

(٣) صحيح : البخاري (٩/ ٤٠) ، ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٣٧٥) .

(٤) سورة الإسراء : الآية [٦٠] .

١/٣٤١ النَّبي - ﷺ - « **بَيْنما أنَا عند البَيت ، أَو قَال في الَحطِيم**[١] **بَيْن/ النائم واليقظان، إذ جَاءني ثلاثة نَفر** »[٢] فَعَبر عَن حَالة بيْن حَالتين ، وهُو السبات الذي هو كالسِّنَة ، فإنَّ المُفكر والنَّاظر في الفرق بين العالم الفاني والعالم البَاقي ، والدنيا والآخرة حَاله حالةُ بَيْن حَالتين ، فَإذا فَهمت هَذا لم تُشكل عَليك شَيء مِن أمر المُكَاشفة وخَرق العَوائد ، لأنَّها مِن عَالم الملكوت المُتصل بِعَالم المَلك .

والنَّاس في الكَشف عَلى أنْواع شَتى ، كُل مُكَاشف ، ومُنادي بما أُريد به ، وقال الجُنيد ، مَشى قَوم باليقين عَلى المَاء ، ومات آخرون بالعَطش ، وَهُم أرْجَح منهم يقينًا ، رزَقنا اللَّه وإيَّاكم مَبَرة[٣] الموقنين ، وجَعَلنا من أهل اليقين التام ، في عَافية كَاملة من جَميع المحن[٤] في الدنيا والآخرة ، بيمنه وكَرمه، آمين آمين ، وصلى اللَّه عَلى مُحَمد ، وعَلى آله الطَّيبين ، وسَلم تَسليمًا .

---

(١) الحطيم : بناء قُبَالة الميزاب من خارج الكعبة .

(٢) صحيح : البخاري (٤/ ١٣٣) ، مسلم في صحيحه (١٥٠) .

(٣) المَبَرَّة : موضع و مكان البر .

(٤) المِحن : جمع محنة و هي البلاء الشديد و المصائب التي تصيب الإنسان .

الشُّعبة الموفية الستين
كَراهة الكُفرِ بِالله

وهُو، والإيمَان باللَّه قَريبان لاَ يَفْترقَان، فَأما دَليل كونه من الإيمان فبَيّن، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَانَ وَ زينَهُ في قُلُوبِكُمْ، وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَ الفُسُوق ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن باللَّه فَقَدْ اسْتَمسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾(٢).

فَقرنه بالإيمان معاً، إذ هما لا يفترقان.

وفي الصَّحيح عن أنس: « ثلاثٌ مَن كُن فيه وَجَد حَلاوة الإيمان، مَن كَان اللَّه ورسُوله أَحب إليه مما سواهما، ومَن أَحب عَبداً لاَ يُحبه إلاَّ للَّه (٣)، ومَن يَكْرَه أنْ يَعود في الكُفر بَعد إذَ أنْقذه اللَّه منه، كَما يكره أَن يُلقى في النَّار »(٤) فَذكر أنَّ هَذه الشُعبة التِي هِي كَراهة العَود في الكُفر، بِها توجدُ حَلاوة الإيمَان التي هِي أعلى المقامات.

---

(١) سورة الحجرات : الآية [٧].

(٢) سورة البقرة : الآية [٢٥٦].

(٣) في الأصل [إلاَّ اللَّه].

(٤) النسائي كتاب الإيمَان (٤٣)، الطبراني في معجمه الكبير (٨/ ٣١٤).

فصل

اعلم أنَّ الكفر على ضربين : كفر هو الجحود ، الشرك ، وكفر هو كفر النعم ، وفي الصحيح في صفة النساء « يكْفُرنْ الإحْسَان ، ويكفرن العشير »(١) .

وقال اللَّه -عز وجلّ- : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّه كُفْرًا ﴾(٢) .

فإذَا فَهمت هَذا ، فَاعلم أنَّ كَراهة الكفر عَلى ثَلاثة أضرب ، ضرب في مقَام الإسلام ، وضَرب في مقام الإيمان ، وضَرب في مقَام الإحسان ، ولما كَانت نعم اللَّه قَد شَملت الوجُود كُله ، ظَاهراً وباطنا ، كَما قال تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُم نعمهُ ظَاهِرة وبَاطِنَة ﴾(٣) والباري -سبحانه- هُو المنعم بها ، وهُو الحق المُبين المَوجود ، الذي لاَ بُد منه ، ولاَ غنى عنْه ، وجب أنْ لاَ يُكفر به ، وَلاَ يُجحد وُجوده ولاَ تُكْفَر نعمه ظَاهراً وبَاطناً .

فأمَّا الضرب الأول في مقام الإسْلام ، فالوَاجب عَلى العَبد أنْ يكفر بكل مَا يُدعى من دُونه من إله ، وأن يكره ذَلك كُله ، ويَكْره العَود والدُّخول في ذلك كله أيْنَ كان ومَن كان ، وإذَا تَلبَّس بأفعال الطاعة للَّه ، كَره أن
١/٣٤٢ يُضيف شَيئاً منها إلى غَير اللَّه ، وأنْ يُشرك فيَها غَيره ، ويكْره / العصيان والمَخالفات للَّه ، فإنَّ ذَلك كُفر النَّعم .

وقَال النَّبي -عليه السلام- : «سِباب المُسلم فُسوق ، وقتاله كُفر »(٤) وقال

(١) صحيح : البخاري (١/ ١٤) ، (٢/ ٤٦) ، النسائي (٣/ ١٤٨) .

(٢) سورة إبراهيم : الآية [٢٨] .

(٣) سورة لقمان : الآية [٢٠] .

(٤) صحيح : البخاري (١/ ١٩) ، (٨/ ١٨) ، (٩/ ٦٣) ، مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (ب٢٨) =

اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وكَرَّهَ إليكُمْ الكُفْرَ والفُسُوقَ والعصْيَان ﴾[١] فكَذلك يكره أنْ يُضيف شيئاً من نعم اللَّه الظاهرة إلى غير اللَّه ، فَإن ذَلك من دَقائق الشرك ، بل يَرى كُل شَيء من اللَّه ، وقَلبه مُطمئن إليه ، ولسَانه شَاكر لَه ، غَير كَافر .

وإذَا تَلبَّس بالمُباحَات والكسبيات فَلا يُريد بها غَير اللَّه ، ولاَ يَطغى بها ، ويَستكبر ، وليكره ذَلك كُله ، فإنَّه من كُفر النعم ، ودَقائق الشرك ، فَقَد عَمَّ كَراهة الكُفر ، والعَود منها ، جَميع الظواهر كُلها ، جَليَها[٢] ودَقيقها ، وكَذلك يَكْره كَلام المُلحدة[٣] والجُلوس مَعهم ، والأخْذُ من مُراسَلَتهم بالأدلال[٤] ، والتآنس بهم ، فإنَّ ذَلك كُله سَابق إلى الكُفر .

قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ يَأيُّهاَ الَّذين آمَنوا لاَ تَتَّخذُوا اليَهُودَ وَ النَّصارى أولياء﴾[٥] وقال : ﴿ لاَ يَتَّخذَ المُؤْمنونَ الكَافرينَ أولياءَ ﴾[٦] وإنما أمر بالكراهة لمذاهبهم في هذه الآيات ، وإذا كره العبد كل كفر في بلاد الكفر كلها ، وهو في موضعه جالس ، ودان أن ذلك كله عاد إيمانا باللَّه ، حتى لا يوجد كفر به ، أجر على ذلك ، وكان من أكبر الحسنات ، كما أنه لو أحب ذلك واستحسنه لكان كفراً .

=رقم (١١٦) ، الترمذي (١٩٨٣) ، (٢٦٣٥) النسائي (٧/ ١٢٢) ، ابن ماجة (٦٩) ، (٣٩٣٩) ، (٣٩٤٠) .

(١) سورة الحجرات : الآية [٧] .

(٢) جَليلها : عظيمها .

(٣) الملحدة : الطاعنين في الدين المائلين عنه .

(٤) الإدلال : التساهل في المعاملة حتى يَجرؤ عليه .

(٥) سورة المائدة : الآية [٥١] .

(٦) سورة آل عمران : الآية [٢٨] .

فَالوجب عَلى كل عبد أن يكره كل شرك في الوجود ، وأن يكره للعود فيه بلسانه وقلبه وجوارحه / كما يكره أن يلقى في النار . ٣٤٢/ب

عصمنا اللّه وإيَّاكم من جَميع أنْواع الكُفر ، ومن النَّار في كل حَال من أحوال الدنيا والآخرة ، آَمين آمين ، وصلى اللّه علىَ مُحمد وآله ، وسلَم تَسْلِيمًا .

فصل

وَ أمَّا الضرب الثاني في هذا المقام ، في مقام الإيمان ، فإن الآخرة غَيْب ، وقلب العبد محل الإيمان ، وهو غيب أيضاً ، وقد أمر العَبد بالإيمان بالآخرة ، وتَرك الكُفر بها .

والكراهة من وصف القلب ، فيكره الكُفر بشيء من أُمور الآخرة ، والشك في شيء منها ، ولاَ يَطمئن إلى الخَواطر الرَدية[1] الدالة على الَشَّك والكفر بالآخرة ، فَإنها ترد على القلوب فتنة واختباراً ، بَل يَنْفر عنها ولاَ يَقبلها ، وَيَكره ذَلك ، ويتبرأ منه ، ويطمئَن بقلبه إلى ضدها ، فبذلك يوجد حَلاوة الإيمَان ، وطمأنينة الأمن من حَيرات الشكوك والكفر ، ويكره أَن يعتقد في الموت وما بعده من قَبر وبَرزخ ، وحشر ، وسؤال ، وصراط ، وجنَّة ، ونَار وغَير ذَلك من أُمور الآَخرة ، مذَاهب المُلحدة ، وإن يَجحَد شيَئاً من ذَلك فَيكون مُؤمناً كَمَا أُمر .

(١) الردية : أيْ المهلكة .

فصل

وأمَّا الضرب الثالث من هذا المقام في مقام الإحسان ، فهو كراهية الكفر به في غيب الغيب فإنَّ الخَواطر طَارئة عَلى القُلوب اختباراً ، ألاَ ترى إلى كراهة النَّبي -عليه السلام- للكُفر في هَذا المقام ، والاستغاثة إلى اللَّه بالدُّعاء .

١/٣٤٣ فَقَال : « يَا مُقلب القُلوب ثَبت قَلبي عَلى دِينك »(١) / حين شَاهد الوجود كله بين أصبعين ، يقلبه كَيف يَشاء ، فهو أعظم الناس كراهَة للكفر وهو سيد الأولين والآخرين ، وكَذلك الراسخون(٢) في العلم حيث قَالوا ﴿رَبَّنا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعدَ إِذْ هَدَيتَنَا﴾(٣) لما كَرهَت قُلوبهم الزيغ (٤) استَغَاثوا إلى اللَّه في صَرفه عَنها ، وحين شَاهدوا من مقَام الإحْسان تَصْريفه للوجُود كُلَه ، وَتَقْليبه إيّاه ، وكَراهة ذَلك يَدل عَلى أمرٍ عَظيم .

وهُو اغتباطهم(٥) باللَّه الذي لاَ مثل لَه ، وبدينه الذي لاَ دين أَحْسَن منه ، فَعَلى قَدَر مَا يكُونَ الشَيء نفسياً ، يكُون الاغتبَاط بهَ ، وكَراهة الزَّوال عَنه في الحَال وفي المَآل ، فَلذلك كَرَّه الكُفر في الحَال ، وفي الخَاتمة قَبل حُلولها ، فَاستَغاثوا إلى اللَّه فَي سُؤال الثَّبات حَالاً ومَآلاً عند الخَاتمة ، فَدل ذَلك عَلى عَظِيم كرههم للكُفر باللَّه ، واغتباطهم بمولاهم .

(١) الترمذي (٢١٤) ، (٣٥٢٢) ، (٣٥٨٧) ، أحمد في المُسند (٣/ ١١٢) ، ابن ماجة (١٩٩) .

(٢) الراسخون : جمع راسخ : وهُو الذِي تمكن فيِ قَلبه العِلم فلم تعرض له شبهة .

(٣) سورة آل عمران : الآية [٨] .

(٤) الزيغ : الميل عن الحق .

(٥) اغتباطهم : و هي أن يتمنى المرء مثل ما للمغبوط من النعمة من غير أن يتمنى زوالها عنه .

وكَذلك يَنبغي للعَبد أن يكره، ويَرُدُّ مَا يَرد عَلى القُلوب والعقول ، من خَواطر التَّشبيه والتَّجسيم ويَوَد أن يَصف ربَّه ، ويُنزهه عمَّا وَصف هُو نَفسه ونَزَّهه .

وقَد قَال النَّبي - ﷺ -لأصْحَابه حين سَألوه عما يكرهون مما يجدون في نفوسهم ، مما يرد عليها اختباراً من اللَّه ، ومن العَدو فَقَال : « **أَوَجَدتُّموه؟ ذلك مَحض الإيمان** » الحمد للَّه الذي رَدَّ كَيده إلَى الوَسوسة ، فَجَعل كراهية ذلك كُله مَحض الإيمان ، ولاسيَما وقد صَح في العقول/ ، وثَبت أنَّ مَن ٣٤٣/ب كَفر باللَّه فَقد خسر خُسران الأبد .

خَسر نَفسه والجنة وخسر عباد الله المؤمنين ، وأعظم من ذلك كله خسر ربَّه ، وحَق عليه العذاب الشديد والنكد (١) المؤبد (٢) ، فَيحق أن يكره الكفر ، ويستغاث إلى اللَّه في كل حِين في صَرفه ، عَسَاه يَصْرفه عَن العَبد ولاَ يوقعه فيه أبداً حَالاً ومَآلاً .

إذ يصرف عن حوار السيد العظيم الذي لا مثل، ولا يُقدر أحد قدره ، ولا يَصَف الواصفون أجمعون -ولو خلدوا أبد الآبدين- مقدار ذَرة ممَّا هُو عليه ربنا -جَل جَلاله- من شَرف القَدر، ونَزاهة النَّفس ، فكيف لا يَغتبط به سُبحانه ، وهُو عَلى مَا هُو عليه ، ولولا فَضل اللَّه ورَحمته ، وحنانه وَكَرمه مَا استْحق بَصر من الأبْصار المخلوقة أن يمتد إلى النَّظر إلى حَضرة جَلاله ، ولاَ يَتنَعم في حُسَن جَماله ، صِيانة لذلك الكمال الأرفع ، وإكراماً لِذلك الجمال الذي حاز المحاسن أجمع .

وقال بَعضهم مَجَاز القَول مِن الشعر لكِن كَرمه وحسن أياديه ،

---

(١) النكد : الشؤم العَسر .

(٢) المؤبد : إلى ما لا نهاية .

وصَنائعه ، وتَحَنّنه وكَريم صفاته فاضت بالجود كُل القَبض ، عَلى المُحسن والمُسيءَ ، وبَسطهم بإنعَامه ، وأفْضاله ، حَتى يَطمع فيه كُل أحد ، وفي مثله
١/٣٤٤ فَلْيَطمع الطَّامعون ، لا فَرّقَ اللّه / بَيْننا بينه في حَال مَن الأحْوال ، وجَعَلنا وإياكم من حَزبه ، وألبَسنا وإيَّاكم ثَوب عَافيته ، ومنَنّه ولا أزال عنَّا وعَنْكُم لباس العَافيةَ فيَ الدنيا والآخرة ، آمين آمين .

وصَلى اللّه عَلى مُحمدٍ وعَلى آله ، وسَلم تَسْليماً .

الشعبة الحادية والستون
الإمامة

أمَّا كَون الإمامة من الدين والإيمان فبّين لاَ خفاء به ، فإنَّ فيها التَّوحيد الذي هو الاجتماع، وَالاجتماع اتحاد، والافتراق كَثرة، والَتوحيد هُو الإيمان، ولأنَّ النَّبي - عليه السلام - أمر بطاعة الأمير ، ففي طاعته طاعة الرسول ، وطاعة الرسول طاعة الله .

وقد ثبت في الصحيح عن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يخرجُ قوم مِن أُمتي يَقرأون القُرآن ، ليس قِراتكم إلى قراتهم بشيء ، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيءيقرأون القرآن يَحسبون أنَّه لهُم وهو عليهم ، لا يُجاوز صلاتهم تَرَاقيهم ، يمرقون مِن الإسلام كمَا يمرق السَهم من الرَميَّة »[١] لو يعلم الجيش الذين يُصيبُونهم ما قضى لَهُم على لسان نبيهم ﷺ لَنكَلُوا[٢] عن العمل ، وذكر الحديث .

وإنَّما خَرجوا مِن الذين وسُموا خَوارج لخُروجهم عَن طاعة الأمير ، فإذا هم ذلك إلى الخَروج عن الدَّين ، فكيف لا تكون الإمامة ورُؤيتها مِن أعظم شُعب الإيمان .

١/٣٤٤ وورى مسلم / عن عبد الله ابن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أنَّ الحَرُورية[٣] لما خرجت وهو مع علي - رضي الله عنه - قالوا لا حكم إلا الله ، فقال علي-رضي الله عنه - كلمة حق أريد بها باطل ، إنَّ رسول الله

(١) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الزكاة (١٥٦) ، أبو داود (٤٧٦٨).

(٢) النكل : القيد : وفي القرآن : ﴿ إنَّ لَدَيْنَا أنكَالاً وَجَحِيماً ﴾ .

(٣) الحَرُورية : فرقة من الخوارج الذِين خرجوا عَلى عليّ وشيعته .

ﷺ وصف نَاسًا يمرقون من الدين ، إني لا أعرف صفتهم في هؤلاء ، وذكر باقي الحديث فخرجوا من الدين ، وقد رَأوا الحُكم لله وحده ، فلم ينفعهم ذلك .

فصل

ومن شرائط الإمامة الذُّكورية، والإسلام، والحرية، والعقل، والنسب القُرشي، والعدالة، والكفاءة في تدبير الأمور وتنفيذها، والعلم.

فأمَّا الذكورية : فلأنَّ المرأة عورة، لا تُباشر الأمور بنفسها، ولا يجوز لها التَّقدم أمام القوم للاقتداء بها، وفي الخبر « ذل قوم تُدبرهم امرأة ».

وأمَّا الإسلام : فإنَّ الكُفر لا يعلو الإسلام، وذلك نَقيض الدين، قال الله - عز وجل - ﴿ لايَتَّخِذ المُؤمِنُونَ الكَافِرِينَ أَولِيَاءَ ﴾ (١).

وأمَّا الحُرية : فإنَّ العبد ناقص بالرِّق (٢)، وغير مقبول الشهادة، وفي ذلك قلب الحِكمة من جَعل المملوك ملكا.

وأمَّا العقل : فلأنَّ الأحمق (٣) غير مُخاطب بشيء، والتكليف ساقط عنه.

وأمَّا النسب القُرشي : فلقول الله تعالى : ﴿ يَأيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقوا الله وكُونُوا مَعَ الصَّادقين ﴾ (٤) وهُم قُريش، لقول الله - عز وجل - في آية أخرى ﴿ للفُقراء المُهَاجرينَ الَّذينَ أُخرجُوا مِن ديَارِهِمْ وأموَالِهم يبتَغُونَ فَضلاً مِنَ الله ورضوَانًا / ، وينصُرُونَ الله ورسوله، أولَئكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٥) ولقول ١/٣٤٥
النبي ﷺ «قدموا قُريشًا ولا تَقدمُوها» (٦).

(١) سورة آل عمران : الآية [٢٨].
(٢) الرق : المملوك أو العبد.
(٣) الأحمق : قليل العقل.
(٤) سورة التوبة : الآية [١١٩].
(٥) سورة الحشر : الآية [٨].
(٦) تاريخ بغداد (٢/ ٦١).

وأمّا العدالة : فذلك من كمال الإمامة ، لأنَّه جعل الاقتداء به ، ونصب للتأسي بهديه ، فينبغي له أن يكون أفضل النَّاس في وقته ، وقال النبي – عليه السلام – « **اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر ، وعمر** »(١) .

وأمَّا الكفاءة فلأنَّه نُصِّب لتدبر الخلق الكثير ، ولا تنضبط له أُموره إلا أن يكون ذا جدة ومنة في نفسه ورأيه ، ولا يلحقه جُبن ولا خَور(٢) عن إقامة الحدود ، وضربَ الرقاب والجهاد ، وغير ذلك .

وأمَّا العلم فلأنه يحكم أمور النَّاس ، فيجب عليه أن لا يكون جاهلا ، فيُنفذ الأمور بالجهل ، وذلك ضلال ، قال الله عز وجل لخليفته في أرضه داود : ﴿ **يا داوُد إنَّا جعلنَاكَ خَليفةً في الأرض فَاحكُمْ بَينَ النَّاسِ بِالحقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضلَّكَ عَن سَبيلِ الله** ﴾(٣) فإذا اجتمع في الإمام هذه الخصال فهُو الكامل الفاضل ، الواجب حقه ، والاقتداء في جميع الأشياء به ، لبراءته عن الظلم والنَّقائص .

---

(١) الترمذي (٣٦٦٢) ، ابن ماجة (٩٧) .

(٢) الخَور : الضعف و الانكسار .

(٣) سورة ص : الآية [٢٦] .

فصل

فإن عُدمت شروط العدالة الكاملة في الإمام ، وظهر منه ظلم وإذاية ، فليصبر على ذلك حتى يأتي أمر الله ، وليدع له بالصَّلاح ، فإنَّ في صلاحه صلاح المُسلمين ، ولا يخرج عليه بالسيف فإنَّ ذلك خروج عن الدين ، إلا أن يظهر منه كفر أو شيء عظيم يجب خلعه به ، فلأهل / الحل والعقد ٣٤٥/ب
خلعه، ونصب غيره من الأئمة القرشيين ، فالطاعة للإمام دين يُدان الله به ، فإذا ثبت هَذا ، فاعلم أنَّ هذا المقام على ثلاثة أضرب ، الضربان واجبان ، والثالث فضيلة على عدد مقامات الإسلام ، والإيمان ، والإحسان الثلاثة .

فأمَّا الضرب الأول الظَّاهر في مقام الإسلام ، فواجب على العبد أن يُطيع الإمام فيما أمره به من طاعة الله ، وأن لا يخرج عليه بالسيف ، وأن يُطيعه فيما كان من شأن الإمام ، وذلك الدَّنانير والدَّراهم ، والمكيَال والميزان ، والصلاة والخُطب والأعياد ، والأحكام والدَّعوة ، إن دعاه أَجابه ، وإن لم يدعه فلا يتكلف ما لم يُدع إليه ، فهذا كُله في الإمام الذي وجبت له الإمامة بالشرع ، واتَّفق أهل العلم أنَّه إمام .

فصل

وأمَّا الضرب الثاني في مقام الإيمان ، فهو اعتقاد بالقلب الذي هُو محل الإيمان ، كما دخل في طاعته بظاهر جده ، ويبغض من خرج عن طاعته وقام عليه ، وقال سَهل بن عبد الله : من لا يرى السلطان في زمانه فهو زنديق [1] يعني أنَّه لا يعتقد إمامته ، وقد تقدم ذكر الأحاديث التي وردت في الخوارج ، فذلك كافٍ في اعتقاد الإمامة .

(١) الزنديق : هو كل من يؤمن بالزندقة و هى : القول بأزلية العَالم و أطلق عَلى الزردشتية و المانوية و غَيرهم من الثنوية ، و تُوسع فِيها فَأطلقت على كُل شَاك أو ضال أو ملحد .

فصل

وأمَّا الضرب الثالث في مقام الإحسان ، فإنَّ ذلك فضيلة ، تُعين على اعتقاد الإمامة مخصوص بها أهل / الاعتبار في حُكم الله ، وفعله للأشياء ١/٣٤٦
وذلك أنَّ الله تعالى جعل الإمام في الأرض ، آية [١] عظيمة علَى توحيده ، لأنَّه جعله خليفة على خلقه بدلاً منه .

فليعتبر الإنسان الإمامة ، فيرى وجه الحكمة فيها ، فإنَّها من التَّوحيد ، وذلك أنَّ الخلق خُلقوا في الدنيا ، وأعدادهمَ كثيرة لا تُحصى ، وإرادتهم مُختلفة في جميع الَأنواع ، فلو كان النَّاس مسيبين بغير إمام لاختلفت الآراء والأهواء ، واختلف الناس وأذى بعضهم بعضًا .

وأدى ذلك كله إلى فساد العالم ، وقتل بعضم بعضًا ، وسرق أمتعتهم، وقطع طريقهم ، وغصب أبكارهم [٢] ، ونساءهم ، وغير ذلك ، فجمع الله الكُل على إمام واحد ، يخوفهم بالسوط [٣] ، والحبس والسيف والقطع والتنكيل [٤] ، وغير ذلك ، فاستقام أمرهم ، ورجع الكل شيئًا واحداً ، وأصلح الله بالسلطان الدنيا والدين جميعًا ، كما صلح بالوحدانية كل شيء : ﴿ وَلَو كانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [٥] فهو آية عظيمة على توحيد الله .

---

(١) في الأصل « إنه » .

(٢) أبكارهم : جمع بكر و هي الفتاة العذراء التي لم تتزوج .

(٣) السوط : ما يضرب به من جلد سواء أكان مضفوراً أم لم يكن .

(٤) التنكيل : عاقبه بما يردعه و يردع غيره من إتيان مثل صنيعه .

(٥) سورة الأنبياء : الآية [٢٢] .

فصل

فإذا فهمت هذا، وجب عليك الإيمان بخلافة أبي بكر - رضي الله عنه - في زمانه ، فهُو أهلٌ لها ، وأحق بها ، وكذلك عُمر - رضي الله عنه - استخلفه الصديق بعده ، وهو أهل لها وأحق بها .

وكذلك عُثمان - رضي الله عنه - استخلفه أهل الشُورى والعدل
بنظرهم / وهو أهل لها ، وقُتل مظلومًا . ٣٤٦/ب

وكذلك علي - رضي الله عنه - إمام عدل ، وهُو أهل لها ، وأحق بها ، ولا تنظر إلى مُقاتليه فإنَّهم بُغاة [١] ، قال النبي - عليه السلام - في عَمَّار : « تقتله الفئة الباغية » [٢] .

وكان من أصحاب علي - رضي الله عنه - ويُحسن الظَّن بعائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - فإنَّها إنَّما قصدت إطفاء نار الفتنة ، فلم تقدر على ذلك ، وتُحسن الظَّن بسائر الصحابة ، وتعتقد فيهم أنَّهم قصدوا الخير باجتهادهم ، وإن أخطأوا في الاجتهاد ، وتلتمس لهم أحسن المخارج ، ثمَّ كذلك الأمر في الحسين ، وهو خلع نفسه لسيادته ، وخوفه على دينه ، وإرادته الإصلاح بين المسلمين ، ثمَّ كذلك الأمر في قريش إلى يوم القيامة ، باق .

ويلحق بهذا الباب الإيمان بالمهدي ، فإنه إمام عظيم في زمانه ، وظُهوره وقت اضطراب أمور الناس ، وحاجتهم إلى إمام ، يجتمعون إليه ويُبايعونه ، فوجب القيام بحقه ، والنَّصر له ، وقد صحح الترمذي حديث

(١) بُغاة : جمع باغي . وهُو الظالم المستعلي .

(٢) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الفتن (٧٠, ٧٢) .

المهدي ، وأنَّه يملأ الأرض قسطًا وعدلا ، كما مُلئت جورًا وظُلمًا [١] .

ونظر عليّ إلى ابنه الحسن - رضي الله عنه - فقال : « إنَّ ابني هذا سيد كما سماه رسول الله ﷺ سيخرج من صُلبه رجل يُسمى باسم نبيِّكم يُشبهه في الخُلق ، ولا يشبهه في الخلق ، يملأ الأرض عدلاً »/ . ١/٣٤٧

فهذا نص أنَّ أخلاقه كأخلاق النبي ، وأفعاله صادرة عن أخلاقه ، فأفعاله كأفعال النَّبي ، وهو رجل عظيم وإمام كريم ، رُتبة إمامته مقصورة عليه ، لا يطمع فيها كل أحدٍ ، يُشبه أفعاله ، وأخلاقه بأفعال النبي ﷺ .

وقال النبي ﷺ في القيام إلى الصلاة : « **لا تقوموا حتى تروني** » [٢] يعني حتى تروا شخصي « **إذا توجهت إلى الصلاة ، فقوموا إلى الصلاة** » يقول هذا للمصلين ، وفيه إشارة حسنة غريبة إلى معنى المهدي ، أنه لا تقوموا مع كل من يدعي الهداية ، ويدعو النَّاس إلى الاقتداء به ، فإنَّ الإمام في الصلاة إنَّما وضع للاقتداء ، والائتمام .

فقال لا تقُوموا حتى تروا صورتي التي تُشبه أخلاقي وأفعالي ، والمحكم لشبهي يعني في الخُلق ، ولا يشبهني في الخلق ، فإنَّ هذا الشَّخص الذي أظهر الله فيه أخلاق نبيه وصفته ، وجرت أفاعله على وفق أفعاله ، واجب نصره والقيام معه وحبه ، جعلنا الله وإياكم من عباده الصالحين ، وحزبه المهتدين آمين ، آمين ، وصلى الله على محمد ، وعلى آله الطيبين ، وسلم تسليماً .

---

(١) جَوراً : جار جوراً . مال و عَدل عن الطريق .

(٢) صحيح : البخاري (٢/ ٩) ، الترمذي (١٤٣) ، (١٩٥) .

الشُّعبة الثانية والسِّتون
الإيمان بفناء هذا العالم الدُّنياوي

وهُو موته عند موت الخلق أجمعين ، والنَّفخة الأولى .

أمَّا كونه من شعب الإيمان/ فلا يحتاج إلى دليل لإجماع أهل الإيمان ٣٤٧/ب
والشرائع عليه ، ولا يُكذِّب به إلا زنديق دَهري [(١)] والذين يرون بقدم العالم، ولا يرون فناءه لقدمه عندهم ، فيرون دوام الدنيا ودوام النَّسل فيه إلى غير نهاية ، وذلك تكذيب للكتاب والنَّبيين .

قال الله عز وجل : ﴿وَيومَ يُنفَخُ في الصور فَصَعقَ مَن في السَّموات ومَن فِي الأرضِ إلاَّ مَن شَاء الله﴾ [(٢)] أي من الملائكة ، مثل ملك الموت وغيره ، ثم يموتون بعد ذلك .

وقال الله عز وجل : ﴿ كُلُّ مَن عليها فانٍ ﴾ [(٣)] ، ﴿ كُلُّ شَيء هَالِكٌ إلا وَجهه ﴾ [(٤)] .

وأما الأحاديث فأكثر من أن تُحصى ، وروى ابن عمر قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا وبيده كتابان فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان؟ **قُلنا: لا يا رسول الله ﷺ ألا تخبرنا ؟ فقال للذي في يده اليُمنى هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنَّة ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، فلا يُزاد فيهم ولا**

---

(١) الدهري : الملحد الذي لا يؤمن بالآخرة و يقول ببقاء العَالم .

(٢) سورة الزمر : الآية [٦٨] .

(٣) سورة الرحمن : الآية [٢٦] .

(٤) سورة القصص : الآية [٨٨] .

يُنقص منهم ، ثم قال للذي في شماله ، هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النَّار وآبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يُزاد فيهم ولا ينقص فيهم أبدا » (١) .

وذكر أنهم أجمل على آخرهم ، ونفى الزِّيادة الأبدية فيهم كما زَعَمَت المُلحدة ويلحق بهذا الباب ، الإيمان بالأشراط المتقدمة بين يدي النفخة
١/٣٤٨ الأولى ، وهو شُعبة أيضًا من الإيمان ، لكنه من أشراط الساعة وعلاماتها/ فقرنته بها في باب واحد .

وروى عبد الملك بن حبيب مرفوعًا ، عن ابن عباس - رضي الله عنه ، قال : سمعت عُمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول : **« سيكون قوم من هذه الأمة يكذبون بالرحم ، ويكذبون بالدَّجال ، ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها »** فذكر الحديث إلى آخره إلى قوله : **« فلئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وثمود »** (٢) .

قال عبد الملك : من كذَّب شيئًا ممَّا ذكر عمر في حديثه ، استُتيبَ ، فإن تاب وإلا قُتل ، وقد صحت الأحاديث في الأشراط ، وأجمعت الأمة على الإيمان بها ، وإنَّما خُصِّص الإيمان بهذه الأشياء من أجل أنَّها مُنذرة بقيام الساعة ، وإتيان الآخرة ، التي وجب الإيمان بها إيمان بالآخرة ، ألا ترَى أنَّ الناس يؤمنون عند طلوع الشمس من مغربها فلا يُقبل إيمانهم ، كالذي لا يُقبل إيمانه حين رُؤية الآخرة بالموت .

والأشراط كثيرة منها خُروج نار بأرض الحجاز تُضيء أعناق (٣) الإبل

(١) الترمذي (٢١٤١) ، أحمد (٢/ ١٦٧) .

(٢) إتحاف السادة المتقين للزبيدي (٢/ ٣٧٠) .

(٣) أعْنَاق : جمع العُنق . و هى و صلة بين الرأس و الجسد .

ببصرة، وخروج كنز من ذهب يَحسُرُ [١] عنه الفُرات ، وظُهور الدَّجالين، وكثرة الزلازل ، وقبض العلم ، ورفع القُرآن ، وتقارب الزمان ، وكثرة الفتن ، والهرج ، وهو القتل ، وكثرة المال حتى لا يوجد من يقبله ، وتطاول النَّاس في البُنيان ، وتلد الأمة ساداتها ، وفتح قسطنطنية العُظمى مدينة الروم بالتكبير / والتهليل على سُورها . ٣٤٨/ب

وخُروج الدجال ، وخروج المهدي ، ونُزول عيسى في وقته ، وخسف بالبيداء [٢] وجزيرة العرب ، وخسف [٣] بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وتخريب البيت بمكة ، والدجال [٤] والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، وفتح السد ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والريح يرسلها الله عز وجل فتقبض روح كل مؤمن وفساد أحوال الخلق .

ورُجوع النَّاس إلى دين آبائهم ، وعبادة اللاة والعزى ، وتكليم السباع للإنس ، وعذبة سوط الرجل إياه ، وشراك [٥] نعله ، وفخذه، وتكلمهم الشجر والحجارة ، وغير ذلك ، وإنما ظهرت هذه الآيات الخارقة للعادات ، من أجل أن السّاعة كالحامل المُثقل التي قريبٌ ولادتها ، فليظهر منها أثر الولادة ، وكذلك الساعة إذا قربت ، ظهرت آياتها وعلاماتها .

---

(١) يَحْسَر : ينكشف الماء من النهر حتى تبدو ا الأرض .

(٢) البيداء : الفلاة .

(٣) خسف : يقال : خسف اللّه بهم الأرض : غيبهم فيها .

(٤) ذكر « الدجال » قبل قليل ، و لعله سبق قلم .

(٥) الشراك : سَير النعل عَلى ظهر القَدم .

فصل

اعلم أنَّ القيامة والساعة عامة وخاصة .

فالعامة هي النَّفخة الأولى في الصَّور ، حين يُصعق الخلق و يَموت الكُل ، فَلا يَبقى إلاَّ اللَّه .

و الخَاصة هي المَوت في حَق كُل إنْسان ، و في الخَبر : « من مَات قَامت قيامته »(١) وبَين يَدَي الموت و المُعاينة يَرى كُل إنْسان مَعَاني الأشْراط والفتن ، فَفي المَوت تُكلم النَّاس الأشياء الصَّامتة والجَوارح مُخْبرة تَشْهد وتَنْطق عَمَلْه ، و تُظْهر لَه أشيَاء ، ومَنْ يَدْعوه إلى غَير اللَّه ويفتنته .

وفي الحَديث : « إنَّكم تُفتنون [في القبور] (٢) قَريباً مِن فتنة المَسيخ الدَّجال»(٣) .

ورَوى مُسلم في صَحيحه عن أبي سعيد الخُدري قَال : لَمَّا رَجَع رسُول اللَّه - ﷺ - من غَزْوة تبوك ، سَألوه عن السَّاعة فَقال رسُول اللَّه - ﷺ- : « لا تَأتي مِائة سَنَة ، و عَلى الأرض نَفْس منفوسة اليوم»(٤) .

فهذه قِيامة ذَلك القَرن ، وإنما هي موت أهله وفي الصحيح عَن عَائشة

---

(١) قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة حديث (١١٨٣) : رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً ولفظه : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته » و للطبراني من حَديث زيادة بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال : « يقولون القيامة القيامة ، و إنَّما قيامة المرء موته » ومن رواية سفيان بن أبي قيس قال : شهدت جنازة فيها علقة ، فلما دفن قَال : «أما هذا فقد قامت قيامته » .

(٢) في الأصل « مثل أو » و هُو خطأ .

(٣) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الصحابة باب (٥٣) ، رقم (٢١٩) .

(٤) صحيح : مسلم في صحيحه (٢٢٦٩) .

-رضي اللّه عنها- قَالت : كَان الأعراب يَسْألون عَن السَّاعة فَينظر إلى أحدث إنْسان منهم فَيقول : « **إنْ يَعش هَذا ، لمْ يُدركه الهَرم** [1] **حتى قَامت عَليْكم قِيَامتُكم** » يعني الموت ، فالموت قيامة مُستمرة من أول الدنيا إلى آخرِها ، فإنَّ المَوت مكْتُوب عَلى أهْله مُذ خُلُقوا منها .

(١) الهَرِمُ : الشيخ يبلغ أقصى العمر و الكِبَر .

فصل

وأمَّا القيامة العَامة التي تَعم كُل مَنْ يَقُوم عَليها ، في النَّفخة الأُولى ، وفيها الفائدة العُظمى التي يَكُون العَبد بها مُؤمناً .

اعلم أنَّ هَذا العَالم الظاهر ، خَلقه اللَّه للفَنَاء ، كَما خَلق العَالم الأُخروي للبَقاء ، وذَلك أنَّ العَالم إنَّما خُلق من أجل بني آدم ، كَما قَال اللَّه -تعالى- ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرض جَمِيعًا ﴾(١) . من حيوان ونبات ومَعدن ، وكَذَلك البَحر وغَيره ، كَما قال : ﴿وهو الذي(٢) سَخرلَكُم البَحْرَ﴾(٣) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم اللَّيلَ والنَّهارَ ، وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ وَالنجُومَ ﴾(٤) ﴿ وَسَخْرَ لَكُمْ مَا في السَّموات وَالأرض جَميعاً منْهُ ﴾(٥) فَهذه نصوص أنَّ العَالم لم يُخلق لذاته بَل من/ أجْل غَيره ، فَأول مَا خَلق اللَّه العَالم فَلما كَمُل ، وثَّم خَلق بني آدم ، وجَعَلهم خَلقاً فِيه ، فمن أجل ذَلك قُدم خَلقه قَبل خَلق الخُلفاء . ٣٤٩/ب

ورَوى مُسلم في صحيحه ، عَن أبي هُريرة قَال : أخذ رسُول اللَّه -ﷺ- بيدَي فَقال : « خَلَقَ اللَّه التُربة يَوم السبت ، وخَلق فِيها الجِبال يَوم الأحد، والشَّجر يَوم الاثنين ، والمكروه يَوم الثلاثاء ، والنُّور يَوم الأربعاء -يَعني النيرات والعلويات- وبَث فِيها الدَّواب يَوم الخَميس ، وخَلق آدم بَعد عَصر يَوم

(١) سورة البقرة : الآية [٢٩] .

(٢) في الأصل : ﴿ وَسَخرلَكُمْ البَحْرَ ﴾ .

(٣) سورة النحل : الآية [١٤] .

(٤) سورة النحل : الآية [١٢] .

(٥) سورة الجاثية : الآية [١٣] .

الجُمعة»[١] في آخر الخَلق ، وآخر سَاعة من النَّهار ، فيما بَيْن العَصر إلى الليل ، فهَذا نص جَلي [٢] ، وكَذلك إذَا نظَرت بالعقل ، وَجَدت الأمر لبَني آدم ، فإنَّ الحَيوان كُله إنَّما خُلق للتسْخير [٣] والرُكوب والأكل والمنافع لِبَني آدم -عليه السلام- .

وكَذلك النَّبات كُله لم يخلق إلاَّ لعَيْش الحَيَوانات ، التي تَعود مَنْفَعتها عَلى بَني آدم ، ولعيْش بَني آدَم ، وكَذلك المَعادن والحجَارة والأرض ، وكَذلك البَحر والهَواء وتلك النَّار ، والمَاء والسَّحاب والأفلاك [٤] ، إنَّما تَحركت من أجْل الليْل والنَّهار ، اللذَين هُما مَعَايش وسكن ، لبني آدَم ، وللفُصول الأربعة التي بها قَوامهم ، فَعَلى بَني آدم حَنَّت العُلويات ، وإليْه صَعدت واستقَرت عنْده السفْليات .

١/٣٥٠ فكَان من العَالم كَالقَلب من الجَسد/ ، الذي هُو مَوضع الفكر ، وتَدبير الجسَد ، وكَذَلك ورَد « إذَا صَلح القَلب صَلح الجسَد ، وإذَا فَسد فَسد الجسَد » فما قوام الإيمَان باللَّه ، والصلاح في الخُلفاء الآدميين ، بَقي العَالم جَارياً عَلى هَذا النظام ، وإذَا فَسَد دين الخُلفاء الآدميين ، ولمْ يَبق في الأرض مَنْ يَقُول اللَّه ، قَامَت القيامة عَلى الكُل ، وفَني [٥] كل مَنْ عليها ، لأنَّ الدين كَان المُراد مِنْ الكُل ، فَإذَا انْقطع لمْ يكن في إقَامة هَذا العَالم فَلْيَره .

قَال النَّبي -عليه السلام- : « لاَ تَقوم السَاعة حَتى تُعْبَد اللاة والعُزى ،

---

(١) مسلم في صحيحه (٢١٤٩) .

(٢) جلي : واضح و ظاهر وبين .

(٣) التسخير : السخرة هو الذي يقوم بالخدمة للإنسان بلا أجر و لا ثمن .

(٤) الأفلاك : جمع فلك و هُو الجرم السماوي و المدار الذِي فيه النجوم .

(٥) فَنَى : باد و انتهى و جوده .

ويَرجع النَّاس إلى دين آبَائهم »[١] .

وقد روى مسلم في صحيحه -في حديث طَويل- رَواه عَبد اللَّه بن عُمر ، ذكر فيه قَال رسُول اللَّه - ﷺ- : « يَخرج الدَّجال في أُمتي فَيمكث أَرْبَعين -لاَ أدري أَربعين يَوماً أَو شَهراً أَو سَنة- فَيَبعث اللَّه عليه عيسى ابْن مَريم كأَنَّه عُروة بن مَسعود ، فَيطْلبه فَيُهلكه ، ثمَّ يمكث النَّاس سَبع سِنين ، لَيس بين اثنين عدَاوة ، ثمَّ يُرسل اللَّه ريحاً بَاردة من قبل الشام ، فلا تُبقي عَلى وجْه الأَرض أحداً في قَلبه مثْقَال ذَرة من خَير أو إيمَان ، إلاَّ قَبَضته ، حتى لَو أنَّ أَحدكم دَخل في كَبد [٢] جَبل ، لدخلت عليه حتى تَقْبضه ، سَمعته من رسُول اللَّه - ﷺ- قَال :
٣٥٠/ب «فَيبقى شرار النَّاس في خِفة الطَّير وأَحْلام السبَاع ، لاَ يَعْرفون مَعْروفاً ، ولاَ يُنْكرون مُنكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستحيون ؟ فيقولون : مَا تَأمرنا؟ فَيَأمُرهم بِعبادة الأَوْثان ، وهُم في ذَلك دارٌ[٣] رزقهم ، حَسنٌ عَيْشهم ، ثمَّ يُنْفخ في الصَّور » [٤] وذكر بَاقي الحَديث .

فَنَص في هَذا الحَديث أنَّ السَّاعة لاَ تَقُوم وَفي الأَرض مُؤمن ، وفي المُوطأ عَن أَبي الأَحْوص ، عَن عَبْد اللَّه أنَّ رسُول اللَّه - ﷺ- قَال : « لاَ تَقُوم الساعة إلاَّ عَلى شرار الخَلق ، ولاَ تَقُوم السَّاعة حتى لاَ يُقال في الأَرض اللَّه اللَّه »[٥] .

والأَخْبَار في هَذا كَثيرة ، فَهَذا يَدلكُ أنَّ الساعة لاَ تَقُوم إلاَّ عَلى أَهْل الكُفر ، فإنَّ الكفر سبب فساد هذا العالم ، فإن ابْن آدم قَلب العَالم ، فَإذَا

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٣/ ٧٦) .

(٢) كبد في بطن الجَبل .

(٣) دَارٌ : كثر خيره .

(٤) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الفتن (١١٦) . (٥) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الفتن (٢٣٤) النسائي (٣٥) ، (٢٢١٧) .

فسَد القَلب فسَد الجسَد ، فإنَّ الكُفر والعصيان هُما الفَساد بعينه ، فَقَد بَان وظَهر أنَّ العَالم إنَّما خُلق من أجْل بَني آدَم ، فَإذَا ذَهب بَنُو آدم ، فسَد هَذا العَالم ، وبَقَاؤهُ مَا بَيْن النفخَتين للأمَد [1] الذي قَدَّره اللَّه ، إنَّما ذَلك حتى تَنبت الأجسَاد في الأرض ، فَيُبْعَثون بالقيامة الأخرى للبقَاء أبَداً .

---

(١) الأمد : الغاية و النهاية .

فصل

وَ اعلم أنَّ لأهل التَيَقظ [١٣٦] والإقْبال عَلى اللّه حَالة شَريفة من أُمور القيامة ، وهُم أهْل الانْتباه من نَوم الغَفلة الدنياوية وأهل الحَياة الحَقيقية ، الذَين أمَاتوا أنْفسهم في ذَاتَ اللّه قَبل المَوت ، وبَادروا بالتأهب للقَاء اللّه

١/٣٥١ فَهُم مُشَاهدون/ للقيامة ، وأحْوالها ، وهُم أهْل الفَناء عنْ الدنيا والاشْتغال بِها ، فأقَاموا بِاليقين قيامتهم قَبل أنْ تَقوم عَلَيْهم .

فكَانوا كَما قَال النَّبي -عليه السلام- ، لابْن عُمر : « وَعِدَّ نَفسك في أهل القُبور » فَهؤلاء جَاءهُم المَوت ، وهُم قَد لاَقُوا مُعَاينة وغصصة [٢] ، كَما ورَد في المَوت ، أنَّه أشد من ألف ضَربة بالسَّيف ، وكَذَلك تَرك هَوىً من مَحْبُوبات النَّفس ، أصْعَب عَليها من ألف ضَربة بالسَّيف ، فَالمَوت يُحقه لَهم ، وهُم سَابقون إلى لِقَاء اللّه ، قَال اللّه تَعالى- : ﴿فَتَمنَّوا الْموتَ إن كُنتُم صَادقِينَ﴾ [٣] .

واعلم أن المجاهد في سبيل الله يخفف عليه الموت من أجل ملاقاة العدو ، ومشاهدته للموت ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْل أَنْ تَلقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [٤] .

وكَذلك أهل الجهاد الأكْبر المعنيون بقَوله : ﴿ وَ الَّذينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُم سُبُلَنَا ﴾ [٥] مُشاهدون للمَوت ، وذَائقون غصصه ، ومُتَحملون

---

(١) التيقظ : تنبه للأمر و فطن إليه .

(٢) غصصه : و قف في حلقه و قَال اللّه تَعالى في كِتابه : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ ﴾ .

(٣) سورة الجمعة : الآية [٦] .

(٤) سورة آل عمران : الآية [١٤٣] .

(٥) سورة العَنكبوت : الآية [٦٩] .

مَرارته ، وهم في الدنيا من مُفَـارقة الهَوى ، والمَحْبُوبات ، والصبـر عَلى المكروهَات ، والمَوت بالحَقَيقة إنَّما هُو مُفَارقة الدنيا ، والمَحبوبات كُلها ، وأهْل هَذه الحَالة الشَـريفـة في هَذه الأعْـصَـار [١] ، غَـيـر مَـوجـودين في الأمْصَار[٢] ، ولمْ يُشَاهد منهم إلاَّ أخْبارهم في الكُتب ، نَفَعنا اللّه وإيَّاكم بذكرهم ، ولاَ جَعله حُجة علينا بكَرمه ، فَإنَّه لَيس عنْدنا من أحْوالهم إلاَّ فَهمها فَقَط ، وصَلى الآه عَلى مُحمَد وعَلى آله ، وسَلمَ تَسليمَاً .

---

(١) الأعْصَار : جمع عصر : و هُو الزمن ينسب إلى ملك أو دولة : يُقال عصر هارون الرشيد ، وعَصر البحار و الكهرباء و في التاريخ العصر القَديم ، و هكذا .

(٢) الأمصَار : جمع مصر ، و هى المدينة الكبيرة تقام فيها الدور والأسواق و المدارس و غَيرها من المرافق العامة .

الشُّعْبَة الثالثة والستُّون/ ٣٥١/ب

الإيمان بدار البرزخ وأحواله وبقاء الأرواح فيه وعذابه ونعيمه ، وسُؤال مُنكر ونكير وجميع أحوال دار البرزخ

وَ أمَّا كَون هَذه الشعبة من الإيمان فبَيِّن ، لأنَّه تصْديق بالغَيب ، والذي أخْبرت به الرسل ، وذكَره القُرآن ، في آيات كَثيرة ، والإجْماع قَد أصْفَقَ[1] عَلى ذَلك من أهْل السنة ، والمُكَذب به كَافر زنْديق ، والبَرزخ[2] مكان ، وزَمان وحَال .

فَأمَّا المَكان فَمن القَبر إلى عليين ، وتَعْمُره أرواح السعداء ، ومن القَبر إلى سجْين[3] ، تعمره أرواح الأشقاء وأما الزمان فهو مدة بَقَاء الخَلق فيه ، من أوَل مَن مَات أو يَموت من الجنّ والإنْس إلى يَوم يُبْعثون .

وَ أمَّا الحَال فإمَّا مُعَذَّب أو مُنَّعم أو مَحْبوس ، حتى يَتَخلص بالسؤال من المَلكَين الفَتَّانين ، هَذا كُله الإيمان به وَاجب ، والأخْبار قدَ تَواتَرت به ، وَالقُرآن قَد أفْصَح به ، والعَقل مُجوز لَه ، غَير مُحيل لَه .

والبَرزخ مَعْناه الحَاجز بَيْن الشيئين ، ولَمَّا كَانت دَار الدنيا دَار العبادة والفَناء ، والآخرة دَار الجَزاء والبَقاء أبَداً ، كَان البَرزخ دَار نُزول لأهلَ دَار

(١) أصفق : اتفق .

(٢) البرزخ : الحاجز بين شيئين و هُو ما بين الموت و البعث و من مات فقد دخل البرزخ .

(٣) السِّجين : واد في جَهنم ، و موضع فيه كتاب الفجار لقوله تَعالى : ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سجين﴾ .

الدُنيا ، حَتى يلتحق أجْمعهم بين الدنيا والآخرة البَاقية ، فَدَار البَرزخ إذًا لَيس بدَار فَنَاء دَائم ، بَل هُو محَل لاَ بُد من الانْتقال منه ، ومن أجل ذَلك ، كَان نَعيم الأرواح وعَذَابها منه ، لأَنَّها تُشَاهد الدَّار الآخرة البَاقية ، بمَا فيها
١/٣٥٢ مِن عَظيم الثواب والعِقَاب ، فَيَتَنَعم بذَلك أو يَتَعَذب/ عَلَى حَسب الحَال .

فصل

وأول أحْوال البرزخ تَلقي الملائكة حين خُروج الرُّوح من الجَسَد ، بالبُشرى أو بالهَوان [(١)] فمن بَيْنَ فَارح مُحب للرحلة من دَار الفَنَاء ، ومنْ بين كَاره ، عَلى قَدر مَا يُشاهد كُل أحد من الإكْرام والهَوان ، ومَعنى ذَلك أنَّ الرسَل لما جَاءت بالشرائع منْ عنْد مُرسلها ، انْقسم الخَلق إلى قَابل ومُكرم لأمر اللَّه ، وإلى راد ومؤذ لأنبيَاء الله ، وأوامر الله ، فَلمَّا حَان الرحيل من هَذه الدَّار إلى الآخرة ، جوزي الفريقان وفاقًا [(٢)] على أعمالهم ، لأن الآخرة جَزاء عَلى مَا تَقدم في دَار الدُنيا ، فَافهم .

ثمَّ بَعد ذَلك سُؤال المَلكين الفَتَّانين في القَبر ، ومَعنى ذَلك أنَّ الخَلق في الْتزام الشرائع وقَبول الإيمان ، لهم من الاخْتبار لأمر اللَّه ، ومن النَّظر فيه في أمَر الرسل ، ومَا جاءت به ، وهُوَ المُعبر عنْه بأول الوَاجبَات عنْد عَرض الشرائع عَلى العُقول ، فَيَعتَقد كُل أحَد في قَلبه وَسره عَلى حَسَب مَا قَدَّر لَه ، حين تَعرضهم أفكار النَّظر ، والفكر فيما جاءت به الرسل من أُمور الغَيْب ، فَمن بَيْن مُنْكر جَاحد ، أوشَاك مُرتَاب ، ومن بيْن مُؤمن مُصدق ، ومُوقن مُطَمئن ثابت ، هَذه حَال الكُلّ ، مُدَّة الدنيا من أول مَا وجَبت عليهم الوَاجبات ، إلى حينَ المَوت .

فلمَّا حَصَل الخَلق في الآخرة ، فُتنُوا بالخَبر عن عَقَائدهم/ وأحْوالهم ٣٥٢/ب
جَزَاءً وِفَاقاً ، وكَذَلك يَقول الملكَان للمَسْؤل : قَد عَلمنا أنْ كَنت لمؤمناً ، ولاَ

---

(١) الهوان : الذل و التحقير وفي القرآن الكريم :﴿ فَيَقُولُ رَبي أَهَانَنِ ﴾ .

(٢) وفاقاً : أيْ لائم و جانس بين أعمالهم في دار الدنيا و جزاؤهم في دار الآخرة ، فَقَال اللَّه ﴿جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ .

دَريت ولاَ تلَيت ، وعَلى الشك جئت ، وعليه مُت وعَلى حَسَب اخْتلاف الخَلق في الدنيا ، ثمَّ بَعد ذَلك يُفَتح لِكُل عَبد بَاب إِلى الجنَّة ، وبَاب إِلى النَّار ، يَنْظر إِلى مَقْعد منهما .

ومَعنى ذَلك أنَّ الرسل جَاءت من عنْد اللَّه ، وفَتَحت للعُقول أبْوَاب دين الإسْلاَم حين عَرضَته عَلى العُقولَ ، وحين وجُوب الوَاجبَات ، وأمَرت بالدخول فيه ، وفَتَحت بالذكر للجَزاء عَلى ذَلك لمنَ التْزَم أبْواب الجنة لَلعُقول ، وأمرت بالإعْراَض عَن الفكر ، وفَتَحت أَبْوابه للعُقول بالذكر لِفتحه ، وجَزَاء عَاقبَته وأمَرت بِالتزام الطَّاعات ، وتَرك المَعاصي .

وذَكرت للعُقول مَن التَزم الطَّاعات ودَخلها جُوزي بالجَنَّة ، ودَخلها ، ومَنْ أعرض وأبَى وقَع في الكُفر ، ودَخل النَّار فكان ذَلكَ الذكر كُله ، فَتحاً وإظهَاراً لأبواب الجنَّة ولَهُما -أعني الجنَّة والنَّار- فَمن بَيْن دَاخل ، مَفْتُوح لَه بدُخوله في الإسَلاَم ، والشرائع ، وَمن بين خَارج جَاحد ، فَيقالُ للعَبد ذَلك الوَقت : هَذا مَقْعدك من الجنَّة أو النَّار ، أو بدَّلك اللَّه بهً مَقعداً من الجنَّة أو النَّار ، كَما صَنَع هُو بنفَسه في دَار الدُنيا ، فَافهم .

١/٣٥٣ ثمَّ بَعد ذَلك ، يُوسع لَه قَبره ، ويَشرح لَه صَدره ، وذَلك جَزاء/ انْشراح صَدره بالإسْلاَم ، واتساعه لقَبوله ، أو يَضيق عَليْه جَزاء بحَرج صَدره ، وضيقهَ عن قَبول الإيمان والشرائع ، فَيفتح لكُل وَاحد مَدَّ بَصره ، فَالكافر لم يمتد بصر إيمانه في أُمور الرُّبوبية والآخرة فَيَرى وَاحداً ، فَلذلك كَان قَبره أضيق الضيق ، وأمَّا المُؤمن فَيفتح لَه عَلَى قَدر مَد بصَره ، واتسَاع إيمَانه ، وتَجَافي (١) رُوحه عَن دَار الغُرور (٢) ، وإقْبَاله عَلى ربه والدَّار

---

(١) تَجافي : تباعد .

(٢) الغُرور : الطمع و الجراءة و يُقال غرته الدنيا : أيْ خدعته و طمعته بِالباطل ، و في القُرآن : ﴿مَا غرَّكَ بِربكَ الكَريم﴾ .

الآخرة، فافهم .

ثم يَقترن بكُل أحد جَزاء عَمله ، إن خيراً فخَيرًا ، وإنْ شَراً فشَراً ، ولشَرح بتلك المَعاني -التي هي جَزاء الأعْمال- طول كثير ، وأذْكر منها طَرفاً يَسيراً ، يَسْتَدل به عَلى غَير ذَلك إنْ شَاء اللَّه ، وورَد في الحَديث « إنَّما نسمة المؤمن طَير يعلق مِنَ ثِمار الجنَّة »[1] .

وكَذلك كَانت نسمة المُؤمن الذَّاكر هَا هُنا ، تَطير بالأفكَار ، وتَسْرح بالنَّظر والاعْتبار ، وتُقْطف بالذكر من أغصان الحكمَة ، والأذكار في جَولاتها في المُلك والمَلكُوت ، وورَد في الحديث : « أنَّ غراس الجنَّة ، سُبحان اللَّه ، والحَمد لِله ، ولاَ إله إلاَّ اللَّه ، واللَّه أكْبَر »[2] وكَذلك سَائر الأذْكار فَافهم .

وورَد في الحَديث أنَّ مَن أدخل عَلى مُؤمن سُروراً ، خَلق اللَّه لَه من ذَلك السُّرور مَلكاً يُدخل عليه في قَبره ، ويُؤْنسه إلى يَوم القيامة[3] ، فانْظَر لَمَّا كَان السُرور يُطيب قَلب المُؤمن ، ويُزيل هَمه ويُؤنسه / كَان الجزَاء عَلى ٣٥٣/ب
ذَلك في مَحل الوَحشة ، مُوافقاً لعمل العَبد ، فَدخل عليه مَلَك في أحسن صُورة، لأنَ السُّرور أحسن شَيء فاسْتَدل بِهَذا كُله عَلى سَائر الأعْمال ، حَسنها وقبيحها .

فإنَّ اللَّه يَقول : « سَيَجْزيهمْ وَصْفَهُمْ، إِنَّهُ حكيمٌ عَليمٌ »[4] فَيَبقى كُل أحد فيما قُدر لَه نَاظراً إلى دَار الخُلود ، التي تَرد منها عَلى أهْل البَرزخ مَعاني العَذاب والنَّعيم فَيَفزع الكَافر من هولَ ذلك المَنظر ، فَيقول : ربّ لا تُقم السَّاعة ، ويَفْرح المؤمن لَمَّا يَرى من عَظيم دَار الخُلود ، فَيقول : رب أقم

(١) ابن ماجة (٤٢٧١) ، النسائي (٤/ ١٠٨) ، أحمد (٣/ ٤٥٥) .

(٢) الطبراني في معجمه الكَبير (١٠/ ٢١٤) .

(٣) الحاكم في المُستدرك (٤/ ٢٧٠) ، الطبراني (٢/ ٥١) .

(٤) سورة الأنعام : الآية [١٣٩] .

السَّاعة ، وهُما كَالنَّائمين ، لأنَّ النَّوم أخو المَوت .

ووَرَدَ في الحَديث أنَّه يُقَال للُمؤمن : نَمْ نَوم العَروس ، الذي لاَ يوقظه إلاَّ أحب أهْله إليْـه ، وقَـدسَـمَّى اللَّه النوم وَفـاة ، في قَـوله : « وَهُوَ الَّـذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيلِ »[١] .

كمَا قَال : « اللَّه يَتَوَفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِها »[٢] فكأن النائم يَرى في منَامه المَرَائي [٣] الحَسَنَة ، المؤْنسة المُنعمة المُفرحة ، وكَذَلك المُؤمن الميْت السعيد بمَا يَرى ، ويُشـاهد من دَار الخلودَ وكَـمَـا أنَّ النائم يَرى المَرآى المُفْـزعـاتَ ، ويَتَردى[٤] من الجبَال العَاليات ، ويجْزَع [٥] من الحَيات والأهْوال الفَاظعات ، فكَذلك مَنَ يُشـاهد من الأمـوات دَار الخُلودَ ، النَّار الكُبـرى مع مَـا يَتَّـصل بالفَرِيقين ، ويُباشر كُلَ وَاحد مِنْهم في ذَاته من النَّعيم والعَذاب .

(١) سورة الأنعام : الآية [٦٠] .

(٢) سورة الزمر : الآية [٤٢] .

(٣) المَرائي : جمع رؤيا . و هُو مَـا يُرى أثناء النوم و كلمة رُؤيا تُستخدم فِي الرؤى الخيرة التي لا تُخالف الشَرع أمَّا ما خالف فيسمى حِلْم .

(٤) يتردى : يسقط من المرتفعات .

(٥) الجزع : عدم الصبر عَلى ما يرى من الأهوال .

فصل/ ٣٥٤/أ

فإنْ قُلت أنَّ المَيت إذا مَات ، انْجلَّت [١] أجْزاءه في أعيننا ، ولاَ نُشاهد من هَذا كُله شَيئاً ، ولاَ نَعْلم الأرواح أيْن صَارت ؟ وهَل هِي بَاقية أمْ حَالها حَال الأجساد سِوى الإيمان بِما وردَ مِن الأخْبار فيها ؟

فاعلمْ يا أخي ، أنَّك لَو تَفكرت وتَذكـرت في الوُجـود والآيات والأخبـار مُسْتَعيناً باللّه لَعلمت ألاَّ تَرى أنَّك إذَا فكرت الآن ، ونَظرت في أهْل بَلدك كُلهم بَل جَـميع البُلدان في المشَارقَ والمغـارب ، ومـافـيـهـا من الحيَوان والإنسَان ، تَعلم يقيناً أنَّ لكُل واحد رُوحاً ، قَد سَرت في العالـمَ ، وهي غَيْب عنَّا ، لاَ تَراها ولاَ نُشاهدها بِأبْصَارنا .

وكَذلك في العَالـم من أرَواح الجن ، والملاَئكة مَا لاَ يُحصى ، والكُل سَار في الوُجـود ، مُتصرف لاَ يُزاحم أحداً حداً ، ولايضيق عليه ، فَتَعلم أنَّها مَوجودة ، ولَسْنَا نُشَاهدها بالبصَر من ذَلك كُله شَيئاً ، فَكَذلك إذَا خرجت الأرواح من الأجسَاد ، بَقِيت في عَالـم البَرزخ مُنَعمة أومُعَذبة ،ولاَ نُشَاهدها بِأبْصَارنا بَل بِالعِلم .

وكَـمـا يُشـاهد الـرَّجل نَائماً إلى جَنْبك ، وتَعلم قَطعاً أنَّ كُل نَائم في مَشارق الأرض ومَغاربها ، في كُل لَيْلة تَخرج أرْوَاحهم إلى عَـالـم النَّوم ، يَتَوفى البـاري لَهـا ، وَالأجْسَاد كُلها مُلقاة عَلى الأرض ، لَيْسَ فيهـا إلاَّ التَّنفس ، وتلْكَ / الأرواح تَسْرَح في العَالم ، وهي مَوجُودة حَيَّة حتَى تَرجع ٣٥٤/ب بالانْتباه إلىَ عَالم اليَقظة ، فكَذلك الأموات ، أجسَادهم في القُبور سَاكنة وأرواحُهم في المُلك مُنعمة أو مُعذبة ، وهِي مُتصلة بِالقُبور والأجسَاد ،

---

(١) انجلت : تفرقت .

كَاتصَال روح النَّائم بجَسَده إلى يَوم يُبعثون .

فإنْ قُلت : فإنَّ أجسَاد الأحْياء غَير مُنحلَّة [١] ، ولم تخرج الأرواح في النَّوم منها بالكُلية ، وأجسَاد الأموات مُنحلَّة ، ولا تُشاهد لها حساً .

فاعلمْ يَا أخي أنَّ الأرواح لَمَّا كَانت حين الحيَاة الدنيا في أجسَادها ، مُتَطَلعة عَلى الحَواس إلى عَالم الدنيا ، فكَانت آثار الروح ودلاَئله تظهر في الجسَد ظُهوراً وَاضحاً ، لإقْبَاله عَلى الجسَد في عَالم الدنيا ، فلما توجَّه بالمَوت إلى عَالم الآخرة ، أدْبَر عنْ الدنيا بالكلية ، فخفيت حَركَاتها بَالكُلية عَن أهْلَ هَذه الدَّار الدَنيا .

كَما صَح عنْ الحديث ، عَنْ العلاء ، أنَّ رسُول اللَّه -ﷺ- قَال : « ألمْ تَروا الإنْسَان ، إذَا مَات شَخص بَصره [٢] ؟ قَالوا : بَلى ، قَال : فَذَلك حين يتَبع بَصره نَفْسه » [٣] فَهو بَاطن مُسْغرق مَجْذوب بالكُلية إلى الآخرة ، محدد النظر ، مجتمع التوجه إلى الآخرة ، والآخرة تَجْذبه إَليها في البَاطن كُل الجَذب ، مُحركات الكُل وآثارهم ، وإحْسَاسهم أخراوية ، فلا يُدرك أهل الدنيا مَا تُحس الأرواح والأجساد من نَعيم وعَذاب / لأنَّ الآخرة لاَ تُدرك بالحَواس ، فالجسَد في الغيَب ، والرُّوح مُتَّصل به اتِّصَالاً حَقَيقياً ، لأن المُؤالفة التي كَانت بينهما في الدنيا ، تُوجب الاتصَال بَيْنهما في البَرزخ ، ويُمنع من افتراقهما بالكُلية ، فافهم . ١/٣٥٥

فَقَد ورَد في صفة العُلماء الأموات معَ الخلق الأحياء ، إنَّ أعْيانهم مفقُودة ، وأمْثَالهم في القُلوب مَوجُودة ، فكَيف بالجسَد مَع الروح ، الذي

---

(١) مُنحلة : أيْ راجعة إلى عناصرها الأصلية .

(٢) شخص بصره : فتح عَينه و لم يطرف متأملاً أو منزعجاً .

(٣) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الجنائز (٩) .

قَد وقَعَت المُؤالفة بينهما في دَار الدنيا .

وانْطَبَعت صـورة الجسـد في ذات الروح انطبـاع لصـورة في المرآة الصافية المُشفَّة ، التي هى وَجْه من جَميع وجوهها ، وظَاهرها وبَاطنها الذي تَتَجلى الصُّورة في جَمَلها ، ويَتَصور فيها ، فَلذلك لَزم كُل رَوح جسَده في فَترة يَسرح حَيث سرح ، ويَنْصرف ، وهُو مُتـصَل به كَالنَّائم إلى جَنْبك ، كَالحصاة المُلقاة والرُّوح مُتَّصل به ، وهُو مُتَصرف في عَالم المَنَام .

حـتَى أنَّ النَّائـم ربما يَرى أنَّه يُجَامع المَرأة في بَلد بَعيـد ، من مَـوضع جسَده ، ويَرْكب الفَرس ، ويَمْشي في مَوضعه الذي فـيه جسَده ، ويَفْـرح ويَسير ويَفْـزَع ويَتَعذب في نَومه ، والجَالسَ عَلى رَأسه لاَ يُشـاهد ذَلك ، لاسيمَا « **وأنَّ القَبر إمَـا رَوضَـة من رياض الجنَّة ، أَوحُـفرةَ من حُـفـر النَّار** »(١) «**والقَبر أَول منزل من مَنَازل الآخرة** »(٢) ، والآخرة غيب ، فَأحوال القَبر أيْضاً غَيب ، ولَيْست من أحْوال الدنيا المَحْسوسةَ ، لذلَك لمْ يظهر فيها نَار ولاَ رَوضَـة/ ، لأنَّ ذَلَك كُله في بَاطن القَبر غَيْب ، ولَيس في ظَاهره ، وكَـذلك إقْعَاد الميت وسُؤاله وجَميع أحواله غيْب ، إنَّما ذَلك في باطن الدنيا التِي هِي [غير(٣)] الآخرة .

---

(١) الترمذي و الطبراني معا ، عن أبي سعيد ، و الطبراني فقط في ترجمة مسعود بن مُحمد الرملي ، من معجمه الأوسط عن أبي هريرة كلاهما به مرفوعاً و سند كل منهما ضعيف ا هـ السخاوي في المقاصد الحسنة حديث (٧٥٨) .

(٢) أحمد في مُسنده (١/ ٦٣) .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

فصل

اعلمْ يَا أخي أنَّ الأرواح إذا قُبضت بالمَوت ، لا تَخرج إلاّ بأجسَاد لَطيفة ، وهي بَاطن هَذه الأجسَاد الكَثيفة ، وبها يَعْمُر البَرزخ إلىَ يَوم تَتركب عليها هَذه الأجسَاد المُنحلة ، وتلك الأجسَادَ اللطيفة هي الأسَورة ، والنسم التي ورَد ذكرها في الحَديث ، وَهي الطير « **إنَّما نِسمة المُؤمن طَير يعلق مِن ثمار الجنَّة** »[1] .

وورَد أنَّ أرواح السعداء في حَواصل طَير خضر ، وأرواح المؤمنين في حواصل طير بيض ، وأرْواح الكُفار في حَواصل طَير سُود [2] ، فَسمَّاها في الحَديث « نسماً وطَيراً ، وليست بطَير عزيه كَما زَعم كثر من الخَلق ، وقَد ذَكر النَّبي -عليَه السلام- في حَديث الغرل ، حين استشاره الصَّحابة في الغرْل فَقَال : « **مَا عَليْكم ألاَّ تَفْعلـوا ذَلك ، فإنَّهـا لَيْسَت نسمـة كَائنة ، كَتَب اللَّه أنْ تَخْرج، ألاَ هي خَارجة** »[3] فَسَماها نسماً ، وقَال في الحَديث الآخر : « **إنَّما نِسمة المُؤمن طَير ، وأرْوَاح المُؤمنين في حَواصل طَير** »[4] ومعْنى في حَواصل طَير مِن الحُصول ، أيْ هي حاَصلة فيها ، كَما تَقول : النَّفس حَاصلة في الجسَد وسُميت طَيراً لِسُرَعة سَيرها ، وَلطَاقة حركتها ، فافهم فهمنا اللَّه وإيَّاك .

---

(١) سبق تخريجه قريباً .

(٢) الترمذي (١٦٤١) ، أحمد (٦/ ٣٨٦) .

(٣) صحيح : البخاري (٣/ ١٩٤) ، (٥/ ١٤٨) ، (٩/ ١٤٨) ، أبو داود (٢١٧٢) .

(٤) سبق تَخريجه قَريبًا .

فصل

ومنْ حقَائق الإيمان بهذَا الباب أن يَعد العَبد نفسه منْ/ أهْل القُبور ، ١/٣٥٦
ويَجْعل الجسَد للروح كَالَقبر وبُعَثَت فيه بالخلوة والإخْلاَص عَن الخَلق ، وتَعلق الأرواح بالعالم الآخروي العُلوَي فَتَسْري ، ويطَير مَع النَّفس في المَلكوت بالفكر ، ويَتَنَعم بأنْواع الذكر ، فَيكُون في روضة من رياض الجنَّة ، يَأوي إلى ربَه في كُل حَالَ ، كَما ورَد في أرواح السعداء مَن أهَل البَرزخ ، أنَّها تَأَوي إلى قَنَاديل مُعلقة تَحت العَرش ، ومثلهم من المُقَربين في الدنيا ، الذي قَال : « طَلَبت النَّفس مَوضعاً في المُلك فَلَم أجد ، فَضَربت خَيمتي في إزَاء العَرش» ، جَعَلنا اللَّه وإيَّاكم من السعْداء في الدُنيا والآخرة ، آمين آمين ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمد وآله ، وسَلَم تَسليمًا .

الشعبة الرابعة والستون

الإيمان بالبعث من القبور ، وبعث الأجساد مع الأرواح ،وخروجها من دار البرزخ إلى دار الخلود

أمَّا كونها من الإيمان فبَين ، لاَ يَحْتاج إلى دَليل ، لأنَّ اللَّه قد نسب جاحد ذَلك إلى الكُفر ، فَقَال : « وَ قَالَ الَّـذين كَفَرُوا أئذاَ كُنَّا تُراباً و آبَاؤُنَا أَئنَّا لَمُخْرَجُون »[١] ، ﴿وقَال الَّذينَ كفَرُوا هَلْ نَدُلُكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إذَا مُزقْتُمْ كُلَّ ممزق ، إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيد ﴾[٢] والسنة والإجْماع قَد اصْطَفقا[٣] عَلى ذَلك .

اعلمْ أنَّ البَعث هُو إثَارة الشيء وتَحريكه / وإخْراجه من مَوضع إلى آخر ، ولَمَّا كانت دار البَرزخ دَار انْتقال ورَحلة ، ولمْ تكن دَار دَوام ، وكَانَت الآخِرة هِي البقَاء الدَّائم ، والخُلودَ السرمد[٤] . ٣٥٦/ب

فَلذلك وجَب انْحلال الأجسَاد الدنيوية في دَار البَرزخ ، كَي يَنْشَأ نَشأ آخَر ، أكْبَر وأفْخَم ممَّا هي عَليه ، فَتعْمُر الدار العُظمى التي هي دَار البَقاء الأَبَدي ، بأجسَاد عَظيمَة بَاقية ، فَتَنحَل الأجسَاد ، وتَأكلهَا الأَرض في البَرزخ ، والقُدرة تُصرفها في العَفن ، وتَطحن أجْزائها حَتى تَعود كَما كَانَت أول مَرة ، فَيترك اللَّه المَاء مِن تَحت العَرش كمني الرِّجال ، فَيُثْبت الأجسَاد به بِغَير وَاسطة آدمي .

---

(١) سورة النمل : الآية [٦٧] .

(٢) سورة سبأ : الآية [٧] .

(٣) اصفقا : اتفق .

(٤) السرمد : الدائم الذِي لا ينقطع .

بَل كَما خُلق آدم - عليه السلام ، فَلذلك لاتفنى تلك الأجسَاد ، كمَا لمْ يَفن جَسد آدَم ، لأنَّ اللّه صَورها بقُدرته وقُوته للبقَاء بغيَر وَاسطة ، وكُل مـا خُلق بواسطة الذَّكـر والأنْثَى لأبُد ، أنْ يَفْنى ، أو يَطرأ عليْـه زيادة في البَعث ، كَأجسَاد الأنْبياء التي لاَ تَأكُلهـا الأرض ، لاَ بُد أنْ يُزاد فيهَا حتَى يكون الكُل عَلى صُورَة آدمَ الذي خَلقـه اللّه بيَده أول مَرة ، أو عَلى صُورة منْ خَلقه ، للبقَاء فِي الدَّار البَاقيَة الآخِرة ، مِنَ أهْل الشمال فتكون الأجسَاد كُلها باقية .

كمَا أنْ أزْوَاجها ، ونفُوسها باقية ، كبَقَاء أجسَام الكَواكب ، النَّيرات ، وأجرام الأفلاك والسَّموَات ، التي صورها اللّه بقُدرته بغَير نَسْل ، فَلا تَفنى ، ولاَ تَنحل ، إلاَّ أنْ يُريد صَانعهاَ تبْديلها وإفْنائهَا ، فَأَجسَاد الآدمَيين تفنى وتَأكُلها الأرض .

كَما صَحَّ عن النبَّي - ﷺ - في حديث أبي هريرة أن رسول الله قال : «**مَا بيْن النَّفختين أَربعون ، ثمَّ ينزل مِن السماء مَاء ، فَينبتون كمَـا يَنْبُت البَقْل**» ، وليَس من الإنْسان شيء إلاَّ يفنى ، إلا عَظم وَاحد ، وهُو عَجْبُ الذَّنب (١) منه يَركُبَ الخَلق يَوم القيامة (٢) .

فَقَد بين النبَّي - عليْه السلام - ، في هَذا الحَديث - صُورة البَعث غَاية البيَان في قَوله : « **كَما يَنبت البقْل** » فإنَّ البَقل يَفنى في كُل سَنة ، ويَنْبت بالمَاء النَّازلَ عليـه ويحـيى ، لأنَّ بُذوره في الأرض ، وهي الحـبَّـة التي هي في النبَّات ، كعَجْبُ الذنب مِن الإنسان ، وفي الحَديث : «**فيَنْبتُون كَما تَنْبت الحَبة**

(١) عجب الذنْب : هُو العظم المحدد أسفل الصلب و هُو مكان الذنب من ذوات الأربع -بفتح ثم سكون- .

(٢) صحيح : البخاري (٦/ ١٥٨) ، (٦/ ٢٠٨) ، مسلم في صحيحه كتاب الفتن باب (٢٨) رقم (١٤١) .

في حَميل السيل » (١) ، والحبة إذَا نزَل عليْها المَاء جَذَبت غذائها منْ الأرض ، والمَاء ، [. . . . . .] (٢) وكَان منها النَّبات ، وكَذلك عَجَبُ الذنَب حَبة نَسل بَني آدم إذَا فَني الكُل منهم ، ونَزل عليْه المَاء الذي هُو من جنْسه مَاء كمَنيِّ الرجال ، فَيُنبت به الأجسَاد للبَعث والحيَاة البَاقية .

ورَوى أبَو رزين ، العُقيلي ، قَال : قُلت يارُسول اللّه ، كيْف يُعيد اللّه الخَلق ، ومَا آية ذَلك في خَلقه ؟ فَقال : أما مررت بوادَي قَومك جَدباً ، ثمْ مَررت به يَهتز خَضراً ؟ قُلت : نَعم ،قَال : فَتلك آية اللّه فِي خَلقه ، ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوتَى﴾ (٣) .

وقال اللّه -عَز وجَل- : ﴿ونزلْنَا منَ السَمَاء مَاء مُبَاركاً فَأنْبَتْنَا به جَنَّات وَحَبَّ الحصيد وَالنَّخْلَ بَاسِقَات لَهَا طَلْعٌ نَضيدٌ رِزْقًا/ لِلْعبَاد وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾. ٣٧٧/ب

ثمّ قَال : ﴿كَذلكَ الْخُرُوج﴾ (٤) أيْ خُروج الأجسَاد بالبعث إذَا نَزل عليها الماء ، الذي هُو منْ جنْسها كمنِّي الرِّجال ، فَعجب الذنَب إذَا نَزَل عليْه هَذا المَاء المذْكُور جَذب إليْه كُل مَا انْحل منْ الجسَد في العَالم في حَال الحَياة والموت فإنَّ ذَلك مَحْفُوظ ، وجواهره مَصُونة في خَزائن العَالم ، التِي هِي الأصُول ، الأرض والمَاء والهَواء والنَّار .

وقال اللّه -عَز وجَل- : ﴿قَدْ عَلمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ منْهمْ وَعِنْدَنَا كتَابٌ حَفيظٌ﴾ (٥) فيجذب ذَلك كُله عَجب الذنب بإذْن اللّه ، كَما يَجْذب حَجر

---

(١) حميل السيل : ما يحمله السيل من الغثاء والطين و الحَديث جزء من سابقه . انظر تَخريجه .

(٢) بياض بالأصل .

(٣) أحمد في المُسند (٤/ ١١) و الآية من سورة البقرة : الآية [٧٣] .

(٤) سورة ق : الآية [٩ : ١٠ : ١١] .

(٥) سورة ق : الآية [٤] .

المَاس الحَديد ، فَيرد كُل شَيء أخذ من الجَواهر شَيئاً إلى عَجب الذنب ، فَيركب عليْه خلق الأجسَاد مَرة ثَانية ، كَما خُلق منه أَول مَرة . قَال النبي -عليْه السلام- : «كُل ابْن آدم تَأكله الأَرض إلاَّ عَجبَ الذنْب ، منه خُلق وفيه يُركب»[١] وقَد ضَرب اللَّه -عزَ وجَل- لإبْراهيم -عليْه السلام- مَثلاً عَجَباً في بَعث الأجسَاد ، أَراه فيه صُورة اليَقين حين سَأله ذَلك ، فَقال : «رَبِّ أَرني كَيْفَ تُحْيي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصرهُنَّ إِلَيْكَ »[٢] .

أيْ ضُمهنَّ إليك -عَلى قراءة مَنْ قرأ بضَم الضاد- أيْ أملهنَّ إليْك ، بضم التعاليم والأشْلاَء ، والنِّدَاء كَما تَعلمَ جَوارح الصيد ، فَتَتَزجر إذَا زَجرَت ، وتَأْتي إذَا دُعيت ، فَهَذا مثل ضَربه اللَّه ، المُراد به المُمثل به ، وهي
١/٣٥٨أ الأُصول الأربعَة التي هي الأَرض / والمَاء والهَواء والنَّار ، والمُتَركب ، والمَخْلوق منْها جَميع مَا في هَذه الدَّارالدنيوية من الأجسَاد الحَيَوانية والنَباتية والمعدنية ، فَيقول -سُبحانه- لخَليله إبْراهيم ، كَما أَنَّك إذَا دَعوت الطَّير الأَربعة ، فَأتتك ، وأجَابتك حَيَّة أو مقَطَّعة -عَلى قراءة مَن قَرأ بكَسر الصَّاد ، من قَوله ﴿فصرهن إليك﴾[٣] . أي قطِّعهنَّ- فكَذلك إذَا دَعوت أنَا هَذه الأُصول الأربعة التي هي أَسرع إجابة إليَّ منْ الطَّير إليْك ، إذَا دَعوتها من الجبال فَأتاك كُل وَاحد ، أو كُل جُزء منْ الجَبَل ، الذي جَعلته عَليْه ، سَعياً أَي جَرْياً ، كذَلك الجبلات الأَربع ، التيَّ خُلقت منها الأَجسَام كُلها ، إذَا دَعوت كُل وَاحد ، وكُلَّ جُزء منْ مكانه ، أجَابني وَأسرع ، فركَّبت منهَا جَميع الأجسَاد ، كَذلك فَعلتَ في أَول الدنيا إلى آخرها ، وكَذلك أفعَل في النَّشأة

(١) صحيح : سبق تخريجه .
(٢) سورة البقرة : الآية [٢٦٠] .
(٣) سورة البقرة الآية (٢٦٠) .

الآخرة ، إذا رَجع كُل جُزء وجَوهر إلى أصله ، أدعوه مَرة ثَانية ، فَيجيبني كَمَا أجَابني أول مَرة ، بل الإجَابة آخَراً أهْون عَلى المَخلْوق من هَذه الأربعة منْ الإجَابة أولاً ، لأنَّه قَد تعوَّد الإجَابة ، عَرف طَريق الدِّعوة إلى بَارئه ودَاعيه .

قَال اللَّه - عزَ وجَل - : «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ»(١) الهَاء في « عَليه » عَائدة عَلى المَخلوق العَودُ أهْوَن عليْه - من البدَاء ، لأنَّ الكُلّ عَلىَ اللَّه هَيَن ، ولاَ (٢)/ يجوز أنْ يكون شَيء أهون عليْه من شيء ، جَل اللَّه عَن ذَلك - فَلو كَان شَيء أهون عليْه من شيء ، لَلَحقه في الصَعَب مَشَقة ، وَجد في السهل رَاحة ، وذَلك في حقه مُستحيل . ٣٥٨/ب

قال اللَّه -عَز وجَل - : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣) ولذلك قَال - عَز وجَل - في آخَر المَثل « وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٤) أيْ عزيزٌ لاَ يَمْتنع عليْه ، ولاَ تُعجز قُدرته شَيء ، حكيم في صُنعه ، يُحكم الأشياء ، ويُزمّها ، ويُتْقنها ، فَتحل الأجسَام إذَا شَاء ، ويُركبها بحكمته إذَا شَاء للبقَاء ، تَركيبًا لاَ يَنْحل بعَده ، لأنَّه خلقَها للبَقاء كَما خَلقَنَا أولاً للفنَاء ، فلذلك انْحلت أولاً .

(١) سورة الروم : الآية [٢٧] .

(٢) تكررت كلمة « لا » في الأصل .

(٣) سورة ق : الآية [٣٨] .

(٤) سورة البقرة : الآية [٢٦٠] .

فصل

انْقَسم المُنْكرِون لبعث الأجسَاد إلى أقْسَام ثَلاثة .

فَمن قَائل باسْتحالة ذَلك واسْتبعَاده ، وهم الكُفار العُمي الذين قَالوا : «ذَلكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ »[(١)] رد اللَّه عَليْهم قَولهم ويُنَبِّههُم لَو فَطَنوا ، فَقَال :﴿ **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فيهَا رَوَاسِيَ** ﴾[(٢)] الآية ، يَقُول اللَّه -عَز وجَل - مَن قَدر عَلى إيجَاد العَالم من عَدم إلى وُجود ، عَلى عظم العَالم وكَثرة عَجَائبه ، كَيفَ تُعجزه أجسَام لَطيفة ، وأشْبَاح ضَعيفةَ ، إنَّ هَذا لَهُو العَمى البَيِّن ، والجَهل ، العَظيم مِن قَائله .

١/٣٥٩ والقسْم الثاني من/ المُلحدة ، زَعَمت أنَّ الأرواح تُبعث فَقط لأنَّ الأجسَام قد تعذب من أَجسَام أُخرى حَيوانات ونَبات ، فَأكل جسم جسماً ، فَلو أُعيدت لكان فيَ ذَلك إبطَال أجسَام أخرى ، واللَّه تعالى يَقول : ﴿ **وإِذَا الوحُوشُ حُشِرَتْ** ﴾[(٣)] .

وفي الحديث : « **يُؤتى بِها أوفر مَا كَانت** » يَعني البهائم ، فَتَأولوا البَعث عَلى رَأيهم ، وأخرجوه عَنْ مقصوده ، هَذا جَهل عَظيم من مُنْتَحليه ، فإنَّ الأجسَاد لاَ تَأكل ولاَ تَتَغذى إلاَّ بأجزاء مُقدرة لهَا ، وأقْسَام مَقْسُومة في الأجسَام المَأكُولة ، تأخذها منها ولَا تنقص الأجسام المأكولة ، ولاَ يُبْطلهاَ ، فإنَّ الإنْسَان إذَا أكل - مثَلاً - طَائراً بجملته ، إنّما يَأخذ منه فَضْلاً زَائداً عَلى

(١) سورة ق : الآية [٣] .

(٢) سورة ق : الآية [٦ : ٧] .

(٣) سورة التكوير : الآية [٥] .

ذَات الطائر ، قَدر للأكْل لَه فيه ، ولاَ تُبطل ذَات الطائر بجملتـه ، كَالإنْسَان يَخْرج منه المَنى مِن جُملة جَسد الوَالدين ، ولـمْ يَنقْص منها شَيئًا ، فإنَّ ذَلك زَائد فيهِما .

قَـد قَـدر أنْ يُخلق منه مَـاشَـاء اللَّه منْ الأوْلاد ، ولاَ تُبطل أجـسَـام الوَالدين ، وهكذا أجسَام المَأكُولات لكُل أَكل في مَأكـوله شَيئ مُقـدر في ذاته ، يَتَغذى به ، وتَتَصور منه جِسْمه فَيَأخُذه ، ويَرمي المَأكول سَوياً ، لاَ يَنْتَطل منْه ذَاته عُضو .

قَال النبَّي - عليْه السلام - « أنَّ اللقـمة تُنْبت اللحم » (٢٠٠) أيْ تُغذيه وتُربيه بمَا يُعطيه من ا لشَيء المقُدر له فيها ، ولمْ يَقُل - عليْه السلام - / أنَّ ٣٥٩/ب اللقمة بَجُملتها هَي اللَّحم ، فإنَّ بالمشَاهدة نَرى أنَّ اللقمة تُؤخذ بالغذاء منْها مَا قُدر لَلعَبد فيها ، ويَرمى سَائرها في النقل ، والفَضلاَت .

وكـالذي يُوقد - مَثلاً - ألف مصْباح من مصْبَاح وَاحد ، فَتَتقد كُلها ولاَ تَبْطل ذَات المُصباح ، وكَذلك إذَا حَصل الغذَاء في الجسْم تَشَابه ، وخَلق اللَّه النشأ ، والإشْبَاع والنُّمو بقُـدرَته ، والغذاءَ سَبَب لَيس بيَده شَيء ، ثمَّ يَرمى في الفَضلات ، هكذا في البَعث الآخر .

يأمر اللَّه كُل شَيء أخَذ من شَيء شَيئاً ، فيزَدٍّ ذَلك ، الشَيء الزَّائر عنْه ، ويَبقى كُل شَيء كَاملاً ، كَمَا قَدره اللَّه وأحْكَمه ، فَيُعيد الأجسَام ، كَمَا أنْشأها وقَدَّرها أول مرَّة ، ولاَ يَبْطل شَيء شَيئاً ، فَهَذا بَيِّن ، لاَ خَفَى عليْه ، إلاَّ عَلى مَنْ أعمَى اللَّه بصيرتَه .

والقـسْم الثَالث : المُنكرون لبعث الأجسَام ، قَالوا : لَو بَعثت هَذه الأجسَام ، لكَانت مثْل كَمَا كَانْت في دَار الدنيا تَحتاج إلى غذاء كَغذَاء

(١٩٠) إتحاف السادة المتقين (٨١٦) .

الدنيا ، وتَحتاج إلى بَول وغائط ، وتَشيب [١] وتَهْرم [٢] ، إلى غير ذَلك من أحْوال أجسَاد أهل الدنيا والآخرة منزهة عَن هَذَا كُله ، وهَذا أيْضاً جَهل منهم ، فإنَّ الآخرة عندنا غذائها وأخْبَارها ، كُلها ، لَيس بمُسَاويَات بالكلُية لأمُور الدُنيا ، بَل هُو أطْيَبَ وألْطَف ، ولَيس فيها شَيء منْ الرجس [٣] ، وهِي كُلها حَياة ، وليَس فِيها فَنَاء ، - أعْني الجنَّة - / . ١/٣٦٠

وقَد شبَّه اللَّه أجسَام أهْل الجنَّة باللؤلؤ واليَاقُوت والمَرجان ، فَقَال : ﴿إذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤلُؤاً مَنْثُوراً﴾ [٤] وقَال ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوت والمَرْجَانَ﴾ [٥] وهَذه الأجسَام في الدُنيا لا يُسرع إليْها الفَناء - أعْني اللؤلؤ واليَاقوت والجَواهر النَّفيسة - معَ حقَارتها لأنهَّا من الدُنيا الحَقيرة ، فكيْف بأجسَام الآخرة ، التي هي الحَيَوان ، ويَاقُوتها ولُؤلؤها رَطب حيَ ، لا يَفنَى ولا يَتغير ؛ بَل يَزيد أبَداً عتَاقَة وجدَة وحُسناً ، وحَيَاة على ممَر الزَّمان والأوْقَات .

وقَد خَلَق اللَّه أجسَام الفَلك العُلوي لنَا آية ، وأجسَام الكَواكب فيها أيْضاً ، كَذَلك خَلقَها كُلها في غَاية الاعْتدال ، بحَيث لا تَفْنى مَع سُرعة حَركتها ، وطُول أعْمَارها ، إلاَّ إذَا أراد مُبْدعَها إفْنَاءَهَا أو تَبْديلها ، وأجسَام الآخرة ألْطَف ، وأجَل من أجسَام الفلك والنِّيرات ، لأنَّها حَية مُعْتدلة لَيس فيهَا منْ المَوت والانْحرَاف قَليل ولا كَثير ، وقَالت أيْضاً هَذه الطَائفة : الأجسَام إذَا هُيِّئَت وكَمُلت خلْقها ، فَاضت علَيها الأرواح ، كَما تُفيض الصُور فِي المرآئي .

---

(١) تشيب : يبيض شعره و لحيته .

(٢) تهرم : يضعفه و يبلغ أقصى الكبر .

(٣) الرجس : القذر .

(٤) سورة الإنسان : الآية [٢٠] .

(٥) سورة الرَّحمن : الآية [٥٨] .

فَلَو اعتَدلت الأجسَام لَفَاضت إليها عنْد كَمَال خَلْقها ، أرواح غَير أَرْواحها وهَذا جَهل بَل هُو كُفر فإنَّ الرُّوحَ لَيس تَفيض إلَى الجَسد الذي تَفيض إليْه ، إلاَّ بأمر الآمر ، وإرادة المُريد ، الحَق سُبحانه ، ولَو / كَان كَمَا ٣٦٠/ب زَعموا لفَاضت إليْه الأرْوَاح حَيثَ تَفيَض عَلَى كُرةٍ منْه ، ولاَ يَقدر عَلَى ردّهَا عَن ذَلك ، تَعالى اللَّه عَن قَول الزَائغين المُبْطلين .

لَو كَان قَولهم صَحيحاً ، لمَا فَاض رَوح من الصُور إلاّ إلى جَسَده ، الذي عَمَّره في الدُنيا ، لأنَّه قَد حَصلَت بَيْنَهما من الأُلفَة والعلاقة ، وتَصوَّرت صُورة الجَسد ومثاله فى ذَات الرَّوح ، بحَيث لاتَفيض إلى جَسده ، و لاَ يَعرف طَريقاً إلاَ طَريق جَسد ، فَإذَا كَان عنْد البَعث ، بَعث اللَّه كُل رَوح إلى جسَده ، وقَرنَه به ، وقَامَا جَميعاً إلى الجَزَاء والثَواب الأبدي ، ولاَيَجُوز أَيَضاً أنْ يدخل الرَّوَح في غَير جَسَده الذي عَمَّربه الدُنيا ، وأطَاع اللَّه أوعَصَاه ، فإنَّ اللَّه لاَ يُعذب جَسداً لَمْ يَعصه ، ولاَيُجازيَ إلاَّ مَن أطَاعه أو عَصَاه .

قَال -اللَّه تَعالى - «مَنْ يُحْيي العظَام وهيَ رَميم » (١) فَهَذا نَص أنَّه يُحيي الأجسَاد الدُنْيَوية بعَيْنها ، لاَ غَيْرها ، وإنَّما سَمَّى الجَزَاء جزَاء من أجْل أنَّه لشيء مُتقدم ، وعلى شَيء مُتقدم .

(١) سورة يس : الآية [٧٨] .

فصل

و مِن البَـعْث الرُّوْحـاني حَـيَـاة الأَرْواح و القُلوب بـالإيمان و العِلم ، وانْتبَاهِها مِن الغَفَلات .

قَـال اللَّه -عَـز وجَلّ- في ذَلك : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْـتًا فَأَحْيَـيناهُ وَ جعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْـشِي بِهِ في النَّاسِ ﴾[1] ولا مَوت أَشد مِن الَجهـل و الكُفر ، كَذَلك لاَ حَياة أكْمل مِن الإيمان / و العِلم . ١/٣٦١

وعَن ابن عَبـاس -رضي اللَّه عنه- في قَـوله : « اعْلَموُا أنَّ اللَّـه يُحيِي الأَرضَ بَعْدَ مَوْتها »[2] قال : يُلَيِّن قُلوباً بَعد قَسْوتها ، فَجَعلها مُخْبتة مُنيبة ، وإلاَّ فَقَد عُلِم أحْياء الأَرض بالمطَر مُشاهدة .

وقَوله « اعْلَمُوا » تَنْبيهاً أنَّ اللَّه يُحيي القُلوب الميْتة بالعلم والحكْمة ، والشَـواهد عَلَى هَذا كَـثـيـرة في أقـوال الحكمـاء والعلمَـاءَ ، والآيات ، والأخبار .

وفي الحَديث : « مـثْلَ مَـا بعـثني اللَّه بِـه مِنْ الهـدى [والعِلم][3] كمثل الغَيْث الكَثير ، أصاب أَرْضاً »[4] الحَديث إلى آخره .

فَـالعلم كَـالمطَر ، إذَا نَزل عَلى القُلوب حُـيِـيت الأَرْوَّاح به من مَـوت الجَـهل ، واهْتَـزت الجَـوارح بِالنَّـبـات العـملي ، وانبعـث الجُـملَة عَلى فِـعل

(١) سورة الأنعام : الآية [١٢٢] .

(٢) سورة الحَديد : الآية [١٧] .

(٣) زائد عَلى الأصل .

(٤) صحيح : البخاري (١/ ٣٠) .

الخَيرات ، و مَثل العَبد نَفْسَه في يَوم البَعث، قَبل يَوم البَعث ، وَصَار حَاله كَقَول القائَل : رَأى الأمَر يُفضي إلى آخره فصيَّر آخرَه أولا . أحيَا اللَّه قُلوبنا وقُلوبكم بحَياة طَيبة من عنْده ، وحَشَرنا و إيَّاكم في زُمرة المتُقين في يَوم البَعث، وَحَملنا و إيَّاكَم عَلى العَافية في جَميع أمُور الدنُيا و الآخرة ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمد وعَلى آله ، وسَلم تَسليماً .

الشُعبَة الخامِسة والسِّتوّن

الإيمان بِاليَوم الآخِر .

وهُو يَوم القِيامَة الذي يكُون فِيه بَعث الأجسَاد وغَيره من الكائِنات الأخرَاويَّة / ٣٦١/ب

فَأمَّا كَونها من الإيمان ، فإنَّ اللَّه يقُول : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (١) وفي سُؤال جبريل للنَّبي -عليهما السلام- عَن الإيمَان، قَال : « فَأَخْبِرني عَن الإيمَان ، قَال : أنْ تُؤْمن باللَّه ومَلاَئكته ، وكُتبه ، ورُسله ، واليَوم الآخِر » (٢) والإجْماع من أهل الإيمَان علْيه ، ومقداره خَمْسُون ألف سَنة ، يَظْهر في كُل نَفَس من الخَمسين ألَف سَنة من الأُمور العَظيمة مَا لاَ يقْدر قَدرهُ إلاَّ اللَّه ، وأوْله النَّفْخة الثَانية في الصُّور ، وآخِره الاسْتقَرار في الجنَّة أو النَّار .

---

(١) سورة التوبة : الآية [١٨] .

(٢) صحيح : جُزء من حديث الإيمان . سبق تخريجه .

فصل

اعلمْ أنَّ الكَلام في هَذا البَاب يَسْتَدعي الكَلام في حَدث العَالم ، أنَّ العَالم في حكم الجوار ، لصَانعه إيجادَه وإعْدَامه ، وتبْديله وتَصرْيفه ، كَيْف شَاء ، فَإذَا كَان منَ المجوزَات العَقْليَّات ، وقَد أخبَر اللَّه -سُبحانَه- بتبديله وخَبره حَق وصدَق ، لاَ يَجُوز خلاَفه .

كَمَا قَال : ﴿ يَومَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرض وَ السَّموَات...... ﴾[(١)] الآية، و﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾[(٢)] وغير ذَلك من الآيَات .

فَقَد وَجَب التَّصديق به ، وذَلك لاَ يكُون إلاَّ في يَوم القيامة ، فيه تظْهر الآيَات ، والحَوادث العظَامَ ، فَهُو اليَوم العَظيم كَمَا قَال -تعالى- : ﴿ أَلاَ يَظُنُّ أُولَئكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيم ﴾[(٣)] .

وذَلك أنَّ اللَّه -جَل جَلاله- لَمَّا خَلق العَالم ، وأكْمَله ، ورَفع العُلوي منه في مَحله ، ووَضَع السُفلي مَواضعه ، ورَتَّبَ المَوْجُودات في أكْمَل/ ١/٣٦٢
التَرتيب والاسْتواء والعَدل باستْوائه عَلى العَرش ، فَجَرى العَالم كُله عَلى سُنْته وعُرفه ، والتي خلَقه اللَّه لَها وعَلَيها ، في المُلك والمَلَكُوت ، ولمْ يَظْهر .

ولاَ يُجَلى للعَالم كُله من صفَات مُوْجده ، إلاَّ بمقدار ما يَحْتَمل ويَصح جَريه به عَلى العُرف والعَادَة ، التي أُريد منه ، وَسَتَر عَن الجَميع من قُدرته وإرَادَتَه ، وعَظَمة تجليه، مَا لَو أظْهره لاَنْخَرم النَّظام الذي أُريد منه ،

(١) سورة إبراهيم : الآية [٤٨] .

(٢) سورة الانشقاق : الآية [١] .

(٣) سورة المطففين : الآية [٤، ٥] .

وكَان تَدْبيره -سبُحانه- ذَلك في أصل التَدبير لجَميع المَخْلوقَات ، أنْ تَجري عَلى هَذاَ الحُكم والعُرف ، إلى وَقْت مَعلوم ، فَإذا أتَى الوَقت ، وانْقضى الأمد أجْراه عَلى سُنة أُخرى ، فَإذَا جَاء الأجل المُسَمَّى ، وأراد الجَليل -جَل جَلاله- لَه التَّنزل بصفات الحكمة والعَدل والرَّحمة ، إلى كُرسي الحُكم ، وفَصل القَضاء والجَزاء .

تَجَلى لهَذا العَالم بأسره ، من مَعاني أسْمائه وصفاته ، مَا لم يَعْهده العَالم قَبل ذَلك ، فَلم يَحمل ذَلك فظَهر في العَالَم كُله من الحَوادث والتَّبديلاَت ، مَا نطَقت به الأخبَار والآيات ، فَأول مَا ظَهر فعل ذَلك التَّجلي في العَرش العَظيم ، الذَي لَيس في المَخْلُوقات مثْله ، فَلمْ يَحمل العَرش ، ذَلك عَلى عظَمته ، فكَانَ أنْ يَنْهدَّ ويَتلاَشَى [1] ، فَلَولا مَا زَاده -سُبحانه- من الاتساع والقُوة والعظَمة ، لَذهب وجُوده ، لكن قَوَّاه وزاده اتَّساعاً وأمدَّهُ / ، بالجُملة ، أضْعافاً مُضاعفة ، فَصَار جُملته ثَمانية ، بَعد أنْ كَان بُجملة ٣٦٢/ب أربعة .

قَال اللّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[2] ثُم ظهر فعل ذَلك التَّجلي ، وأثره في سَائر المَخْلُوقات ، فَنَزلَت الجَبات ، واتَّسعت عَلى السَّموات ، وسَرت أمَام التَّجلي منها ، حَتى أزلفت [3] وقَربت من المُتقين ، فعَادت العُلويات السَمَاويات جنَان ، وتَشَقَّقت السَّموات ، وتَنَزلت الأمْلاك صَفاً صفاً من مقَامَاتها ، وانْتثَرت النُّجوم ، إلى غَير ذَلك ممَّا يَظْهر ذَلك اليَوم في يَمين العَرش .

وكَذَلك ظَهر في شَمال العَرش ، فَانْجلى لَجَهنم من صُفات الغَضب

(١) يتلاشى : يفنى .

(٢) سورة الحاقة : الآية [١٧] .

(٣) أزلفت : اقتربت منه .

والشَّدة فضَاقت على الخُزَّان ، وفَار بَعْضَها على بَعض ، حتى خَرجت عَلى الأَرَضين ، وسَرت في العَالم حتى صَارت الأَرْضُون والبحار نَاراً وكَذلك طَارت الأَرْواح إلى جَميع الأجسَاد بماَ تَجلى من مَعاني عَظَمة الكَلام الذي لم يعَهد مثله ، وامْتَدت الأرض تَواضَعاً أمام التَّجلي والهَيبة ، حتَى أخذَت أكْناف السَّموات والأرضين كُلها ، فَصَارت فَراشاً لَجميع الخَلق ، مَلك أوإنْسٍ أوجن ، أو حَيوان ، وتَفَجَّرت البحار بامْتدادها .

قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَيَوْمَ تَشقَّق السَّماءُ بالْغمَام ، وَنُزّلَ المَلائكة تَنْزِيلاً ﴾(١) وهَذا الغَمام هُو الذي يَأتي فيه ربُّ العزة ، ويَجيء كَما قَال : ﴿/ هَل يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ يأتيهم اللَّهُ في ظُلَلٍ منَ الغمَام ، وَالمَلائكة ﴾(٢) . ١/٣٦٣

فَأخبر -سُبحانه- أنَّ السَّماء تَشقَقُ بالغَمام، الذي يَأتي فيه ربُّ العزة ، وورَد في تَجلي مَعاني الغَضب ، في شَمَال العَرش والسُفليَات في حَديث الشَفاعة في الصَحيح ، ما يَقُول آدم وغَيره من الأنبياء ، إذَا سُئل الشفاعة «إنَّ ربِّي غَضِب اليَوم غَضباً لمْ يَغْضب قَبله مثله »(٣) .

فَهَذا نَص صَريح في الحَديث الصَحيح ، أنَّه تَجلى للعَالم من صفات الغَضب ، مَالم يَظْهر قَط في الوُجود ، منْذ خَلَقه اللَّه إلى ذلكَ اليَوم، فَلذلك تَدكْدكَت (٤) الأرض دكاً دكاً ، وكُورت الشمس والقَمر ، وانْتثرت النُّجوم وتَفَجرت البحار ، إلى غَير ذَلك ، ألاَ تَرى إلى قَوله -عَز وجَلّ- : ﴿ فَلَمَّا تَجلَّى ربُّهُ للْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً ﴾(٥) ولو كَان ذلك لَغير الجَبل ، أو للأَرض

(١) سورة الفرقان : الآية [٢٥] .

(٢) سورة البقرة : الآية [٢١٠] .

(٣) مُسند أبي عوانة (١/ ١٧١) .

(٤) دكدك : سواه بالأرض .

(٥) سورة الأعراف : الآية [١٤٣] .

كُلها لتَدكدكت ، وقَامت القيامة ، ويتَجلى عظيم عَدله في يَوم القيامة ، كَان شدة الحَساب ، وَوَضْع المَوازين القسط ، والقَناطر القَّراطية ، ويتَجلى عَظيم صَفاتَه ، الفَضل أكثر مما عهد ، يكُون مَا يكُون ذلك اليوَم من الغُفران والَصَّفح ، والتَّجاوز والَسَمح وظُهور الرَحمَة التي لاَ يوصف ، فَبذلك التَّجلي العَظيم لم يَثبت العَالم عَلى العُرف ، والعَادة المَعْهودة ، فَصَارت سُنَّة أخرى ، وذَهبت سُنة الفانيةالدُنيا في جَميع العَالم ، فافهم .

فإنَّ من أَجْل ذَلك المَجيء والتَّجلي كان وقُوف الخَلائق في ذَلك اليَوم قياَماً عَلى أَقْدَامهم ، ولْم يتواَجد من الخَلق الأقَام عَلى سَاق الإجلال ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) وقَامت المَلائكة فيه صَفاً صَفاً ، وقَام الوُجود كُله عَلى سَاق إجْلالاً لسيِّده بالحَقيقة والمَعنى .

(١) سورة المطففين : الآية (٦) .

فصل

فإنْ قُلت : فَأين يَسع هَذا الخَلق كُله ، والملائكة في هَذه الأرْض ؟ .

فاعلم أنَّ الأرض إذَا انْشَقت عَنْ الأجسَاد ، ثمَّ امْتَدت أمَام التَّجلي والهَيْبة ، أخذت في امْتدادها إلى أرجاء سَماء الدنيا ، في كُل نَاحية من الآفاق ، وذَلك مَسيرة خَمس مائة عَام ، وغلظ السَماء خَمس مائة عَام أُخرى ، وذَلك ألف سَنة في كُل نَاحية من الآفَاق ، فَقَامت الخَلائق ، ونَزلت الملائكة السَماء الدنيا ، وغيرها من المَلائكة الأرْضية ، أيْضاً في ذَلك البُساط العَظيم ، وفي امتدادها تَفجرت البَّحار ، ثمَّ مُدَّتَ أيضْاً ، كَما تَمُد الجُلد العُكَاظة .

كَمَا وَرد في الحَديث : « فزَاد امْتدادها إلى أكْناف الأرض الثانية ، وأرجَاء السَماء الثانية » وَهي أعْظم وأوْسَع من السَماء الأولى ، فَتترك في ذَلك البُساط مَليكه السَماء الثانية ، وكَذَلك تَمْتَد من أرْجَاء سَماء إلى سَماء ، حَتى تَأخذ أكْنَاف الأرْضين ، وأرْجَاء السَّمَوات كُلها ، فَينزل أهل

٣٦٤/أ كُل/ سَماء ، إذَا انْشقت بهم بالغَمام فيما يَليه من ذلك البساط ، فَتكون الأرض بساطًا للعالم كله ، قَد عمت أرجاء السموات وأكناف الأرضين ، فَتَقوم المَلائكة صَفا صَفاً في ذَلك البُساط العَظيم .

ألمْ تَسمع إلى قَول اللّه -عز وَجلّ- : ﴿ وَانْشَقَّت السَّماءُ فَهي يَوْمئذ وَاهية وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائها ﴾[1] فَإذَا قَدرت امْتداد الأرض في جَميع الآفَاق من كُل نَاحية ، حتى تَأخذ أرْجَاءَ السَّموات كُلها ، وأكْنَاف الأرض ، ظَهر لَك اتَّساعها ، وقِيام الخَلائق علَيها صَفاً صَفاً ، مَع تَراضيهم ، وحَتى لاَ يَجد

(١) سورة الحاقة الآية [١٦ ، ١٧] .

العَبد مَنفَذاً ، ولاَحَ مَعْنى قَوله : ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنّ وَ الإنْس إنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّموَاتِ وَ الأَرضِ،فَانْفُذُوا ، لاَ تَنْفُذونَ إلاَّ بسُلْطَان ﴾[١] أيْ بحجة ، فَيقَف الخَلق مَا شَاء اللَّه إلى[٢] ما شاء الله ، حَتى يُدْعَون إلَى الحسَاب ، أظَلنَا اللَّه وإيَّاكم في ظله ، يَوم لاَ ظل إلاَّ ظله ، وصَلى اللَّه عَلَى مُحَمد ، وآله ، وسَلم تَسْليماً .

(١) سورة الرَّحمن الآية [٣٣] .
(٢) في الأصل (في) .

الشُّعبة السادسة والستون

الإيمان بالحساب ، ووُقوعه على حسب أحوال الخلائق،وعلى ما أرادَه الله مِن الخِفة والتَّيسِير لِمن شاء ، وَالمُناقشة والشدة لمِن شاء

أمَّا كَون هَذه الشُعبة من الإيمان فَبيِّن ، لإجْماع أهل الشَرائع عليه ، قَال / اللَّه -عز وَجَلّ- : ﴿ إنِّي عُذتُ بربِي وَ ربِّكُم مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّر ، لاَ يُؤْمنُ ٣٦٤/ب بِيَوْم الحسَاب ﴾ [1] وقَال : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حسَاباً يَسيراً ﴾ [2] وعَن عَبد اللَّه ، أَنَّ رسُول اللَّه - ﷺ - قَال : ﴿ أولَ مَا يُقْضى بَيْن النَّاس يَوم القيامة في الدماء [3] ثمَّ يسألون عنْ الصَّلاة ﴾ وقَال تَعالى وأقْسم : ﴿ فَوَرَبكَ لَنسْألَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْملُونَ ﴾ [4] .

فصل

اعلم أنَّ الحسَاب مَقَام عَظيم ، من أعْظم مَقَامَات الآخرة ، والنَّاس فيه مُتَفَاوتون في اليَسير ، والمُناقشَة عَلى قَدر مَنَازلهم ، وعَلى حَسَب الأعْمَال، فَيسأل الرسل عَنْ تَبْليغ الرِّسَالة إلى الخَلق .

قَال اللَّه -عز وَجَلّ- : ﴿ يوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ، فَيَقُولُ مَاذا أُجِبْتُمْ قَالوا

---

(١) سورة غافر الآية [٢٧] .

(٢) سورة الانشقاق الآية [٨] .

(٣) صحيح : متفق عليه أخرجه البخاري (٩/ ٣) و النسائي (٧/ ٨٤) ومسلم في صحيحه كتاب القسامة (٢٨) وابن ماجة (٢٦١٥) (٢٦١٧) .

(٤) سورة الحجر الآية [٩٢ ، ٩٣] .

لاَ عِلم لَنَا إنَّك أَنْت عَلاَّمَ الْغُيُوب﴾[١] ، وقَال اللَّه -سُبحانه- : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ ، اتَّخذُونِي وَ أُمي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّه..... الآية﴾[٢] .

ويَسأل الكَافرونَ عَنْ الإيمَان والتَّوحيد ، وإجْابة المُرسلين ، فَلاَ يُوجد لَهم إيمَان و لاَ إجَابة فَيُؤمر بهم إلى النَّار ، ولاَ يُسألون عَنْ سَائر الأعمال ، فَيَدخلون النَّار بغير حساب ، أيْ عَلى أعْمالهم ، وهُو المَعنى بقَوله : ﴿ ولاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمجرمُونَ ﴾[٣] وقَد أُشْكلت هَذه المسألة ، والآيَات عَلى كَثير من النَّاس ، ولَيس فيها / إشْكال ، ولاَ اخْتَلاف ولأنَّ السؤال يَقع أولاً عَنْ الصَّلاة ، وهُو الإيمَان والتَّوحيد ، فَلا يُوجد ، ولاَ يَحْتَاجون إلى سُؤال عَن الفَزع . ١/٣٦٥أ

قَال اللَّه -عز وَجلّ- بَعد ذكر الكُفار : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٤] وَرَد في الصَحيح عَنْ تَفسيرها عَنْ قَول لاَ إله إلاَّ اللَّه ، فَإذَا لَمْ يُوجد لَهُم تَوحيد ، لَم يَسألوا عَنْ سَائر الذنوب والأعْمَال ، مصدَاق ذَلك من القُرآن قَوله : ﴿ ويَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي .... الآية ﴾[٥] ، وقَولَه ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾[٦] ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَائكُمْ فَدَعَوهُمْ ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾[٧] وأمثَاله كَثيرة ، وهَذا كلُه لَه سُؤال عَنّ التَّوحيد والمَعْبُودات فَقَط ، لكن كُل منهم تحيط به خطيئته ، ويجازى بها ،

(١) سورة المائدة الآية [١٠٩] .

(٢) سورة المائدة الآية [١١٦] .

(٣) سورة القصص الآية [٧٨] .

(٤) سورة الحجر الآية [٩٢ , ٩٣] .

(٥) سورة القصص الآية [٦٢] .

(٦) سورة سبأ الآية [٤٠] .

(٧) سورة القصص الآية [٦٤] .

ويشاهدها كلها صغيراً و كبيراً ويسأل المؤمنين عن التَّوحيد ، وجميع الأعمال ، وعن العمر فيما أُفْني ؟ والشباب فيما أبلي وعَنْ الأمْوال منْ أين اكتسبت ؟ وفيما أُنْفقت ؟ وعَن العلم مَا عُمل فيه ؟ وعنُ مَا دَقَّ وجَلّ .

فَلاَ يَبْقَى أحد إلاّ حُوسب وسئل ، وَرَوى أَبُو هُريرة ، أنَّ رسُول اللَّه - ﷺ - قَال : « لَتُؤَدُنَّ الحُقوق إلى أَهْلها يَوم القيامَة ، حَتى يُقَاد للشاة الجَلْحاء[1] مِن القَرناء[2] ، ويَسئل الحَجر/ الذي انكب عَلى الحجر ، ويَسئل الحَجر لِمَ نَكَأَ[3] رِجْل الرَجل »[4] . ٣٦٥/ب

وهَذا كُله في مقَام وَاحد لجَميع الخَلائق ، ولاَ يَشْغل سَريع الحسَاب شَأن عَن شَأن ، فَيَنظر كُل عَبد إلَى جَميع أعمَاله ، دَقيقها وجليلها في حَالة وَاحدة ، مَعْمولة من ذاته ، وقَائمة بذاته ، وتُنْشَر عليه دَواوين الأعْمال ، مُفَرقة على أَوْقَات الأعمار نَشراً وَاحَداً ، فَيرى جَميع عُمره كَيَوم وَاحد ، احْتَوى عَلى أَعْوام وشُهور ، مُضَمنة تَحت الأعْوام وجُمعات تَحت ضمن الشُهور ، وأيَّاماً تَحت ضمن الجُمَع[5] وسَاعات ضمن الأيام ، وأنْفَاساً تَحت ضمن السَاعات .

فَيَنظر أَعْماله كُلها دَينا دَينا ، وخيراً وشَراً ، مَسَطَّرة في اليَوم الفُلاني ، عَمَل كَذا ، وفي السَاعة الفُلانية ، كَذا كُلَّ عَمل مُرتبط بالوقَت الذي عُمل فيه ، ولاَ يَسْتَطيع أحد أن يُنكر منه حَرفاً وَاحداً ، فَيُشاهَد العَبد هَذا كُله ،

(١) الجلحاء : التي لا قرن لها من الحيوان .

(٢) القرناء : من لها قرن ، و هو : مادة صلبة بجوار الأُذن في رؤوس البقر و الغنم و نحوها ، وتكون في كل رأس قرنان غالباً .

(٣) نكأ : القرحة : قشرها قبل أن تبرأ منديت .

(٤) صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة باب (١٥) رقم (٦٠) ، الترمذي (٢٤٢٠) .

(٥) في الأصل : « الجميع » .

مُؤمناً كَان أَوْ كَافراً ، قَال اللَّه تَعالى -في مَعنى ذَلك- : « وكُل إنسَان أَلزمْناه طَائرهُ في عُنُقه وَنخرج لَـه يَوْمَ القيَامَة كتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرأ كتَابَك كَفَى بنَفْسك اليَومَ عَلَيْـك حَسيباً » (١) فَينظر كُل أحد جَميع عَمْله مَنْشوراً عَلى جَميع عُمره، وفي حَالة واحدة يَسأل كُل وُاحد بكلامه العَزيز، والمُخَاطبة وَاحدة، كَمـا أنَّه يَقُول الآن للوُجُود كُله، : كُن فَيكُون عَن كَلمته/ والوُجود عَلى اخْتلافه ، واختَلاف أحْواله لاَ يخرج عَن ضمن تلك الكَلمة الواحدة ولاَ يَشْـغله شَيء من الوُجـود عَن شَيء . بَل يفـهم كل شَيء من الوجُـود من كَلمته، مَا يَليَق به ، فَيكون عَلى مُقْتَضى مَا فَهم من الكَلمة الوَاحدة ، وكَذَلك الحسَاب يَوم القيامة ،و يُكلم الربّ للخَلق في سُؤاله إيَّاهم في حَال وَاحدة ، ويَلْقى كُل وَاحَد ما قُدر له مِن يُسر ، وهُو العَرض ، أو شدَّة وهِي المُنَاقشة . ١/٣٦٦

فَأمَّا أهْل التَّيسير فَيَدخلون الجَنَّة بغَير حسَاب ، إنَّما هُو العرض فَقط ، وَإنَّمـا يَلَقى الحسَاب أهل المُناقشـة ، ومَن نوقش الحسَاب ، عُـذب، لأنَّ المُنَاقشة في نَفْسها عَذَاب ، روَت عَائشة - رضي الله عنها - قالت : قَال رسول اللَّه -ﷺ- : « لَيس أَحد يُحاسَب إلاَّ هَلَك ، قُلت : يَا رسُول اللَّه -جَعلني اللَّه فداَك- أَلَيْس اللّه يَقُول: « فَأَمَّا مَنْ أُوتيَ كتَابَهُ بيَمينه فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حسَاباً يَسيراً »(٢) قَال : ذَلك العَرض ، مَنّ نوقش الحسَاب هَلك » (٣) وفي رواية أُخرى «لَيس ذَلك الحِسَاب ، إنَّما هُو العَرض ، مَن نوقش الحِسَاب يَوم القيامَة عُذب»(٤) .

(١) سورة الإسراء الآية [١٣ ، ١٤] .

(٢) سورة الانشقاق الآية [٧ ، ٨] .

(٢) صحيح : البخاري (٦/ ٢٠٨) ، (٨/ ١٣٩) ، مسلم في صحيحه كتاب الجنَّة باب (١٨) رقم(٨٠) .

(٤) مسلم في صحيحه كتاب الجنَّة باب (١٨) رقم (٧٩) .

فصل

أعْظَم النَّاس خفة في الحسَاب ، وأقلهُم حساباً أهْل الورَع في الدُّنيا ، وأهل المحاسبة للنَّفسَ والمتقونَ ، فإنَّهم حَاسَبوا أنْفُسهم في الدنيا ، فَلم يَبْق لَهم إلاَّ العَرض عَلى المَلك المُحاسب فَقط/ وَإنَّما مَثل ذَلك مَثَل رَجل ، ٣٦٦/ب
عَمل المَلك عَمَلاً أخْرجه إليْه ، فإنْ حَاسَب نَفسه قَبل رُجوعه إلى المَلك ، وَوَضع كُل شَيء مَوضعه ، الذي أمر به المَلك ، فَعَرض عليه عَمَلَه ، فَوَجده كَما أمر المَلك ، فَلم يكُن لَه شَيء يَتَوقف فيه ، ولاَ يُنَاقش عليه ، فكَان حسَابه كُله يَسيراً ، كَلاَ حسَاب ، وإنَّما هُو عَرض ، وإنْ خَلط في عَمله ، وَعَملَ برأيه ، وظَلم نَفْسه وَغيره ، فَإذا رَجَع إلى المَلك ، وَوَقف عَلى عَمَله سُئل وحُوسب ، و كَان أمره عَلى مَا أرَاده المَلكَ .

إذَا فَهمْتَ مَا تَقَدم ، فَالنَّاس في الإيمَان بالحسَاب عَلى ضَربين : ضَرب غَافل عَنْ مُحَاسَبة نَفْسه في الدنيا ، فَيترك الأمَر مهملاً إلى يَوم القيامة ، وهَذَا حَالُنا وحَال الجمّ(١) الغَفير .

وَضَرب آخر نَبهت عُقُولهم بالبعثة اليَقينة ، فَجعَلوا الآخر أولاً ، فَهُم مُشَاهدون للآخرة باليقين ، وَواقفون بين يَدَي اللَّه فَحَاسَبُوا أنفُسَهم في كُل يَوم ولَيْلة ، وَعَلىَ مَا سَلف لَهُم من العُمر ، فَأدى الحقُوق إلى أهلها ، واسْتَغْفروا وتَابوا من المُخَالفَات ، و استَدركوا مكَانها بالاستغفَار والحَسَنَات ، وتَهَيَّؤا وتَزَيَّنوا لَلعَرض عَلى اللَّه ، ولم يَأخذوا الأمرَ بانحراف ، فَأعلاهم دَرَجة في ذَلك المُقربون ، وأهل التَّوكل الذين لاَ حسَاب عَليهم في الآخرة ، ولاَ عقَاب ، لأنَّهم لاَقُوا ربَّهم في الدنيا/ باليقينَ ، و لم يكُن لَهم ٣٦٧/أ

---

(١) الجَم : الكثير .

رَاحة دُون لقَائه في الطَّاعات والمُنَاجاة ، فَأوْقَفهم عَلى القَليل وَالكَثير من أعَمالهم ، و نبههم عَلى مَا سلف من أعمارهم بالإلهام في أسرارهم ، فاستحيَوا وأخبَتُوا (١) في مُشَاهدته وتَنْبيه لَهم بمُحَاسَبَته .

وتَزَلْزَلَت أرْضُهم بخوف الوَعيد ، و بُعثرت مخبات أسرارهم ، فَأخْرَجت الجوارح أثقالَ مَا عَملت حين اعترفت وأقرت بما كسبت ، وحدثت بجميع ما عملت ، ولَم تكتم شيئاً مما اجترحت ، حين ألهمها بوحي الإلهام ذُو الجَلال والإكرام ، فَصَدرت إلى رَبِّها عَنْ مُخَالفها ، ورأت جَميع أعْمَالها قَائمة بذَاتها ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ، وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه ﴾ (٢) .

وقَد كَان الصَّالحون يُحاسبون أنْفُسهم في آخر النَّهار ، و عند النَوم عَلى مَا سَلَف في نَهَارهم ، و عند الفَجر عَلى مَا سَلَف في لَيْلهم ، فَيَبيتُون ويَسْتَغفرُون من الذنوب وَالتَّقصير في كُل يَوم ولَيْلة ، ويَحْمدون عَلى الطَّاعة والتَّوفيَق ، و قَدكَان عُمر بن الخطاب -رضى اللَّه عَنْه- يُحَاسب نَفْسَه ، ويَضْربُها بالدِّرة (٣) .

والمُراد منْه بالدِّرَة سَوط التَّخْويف والوَعيد ، وعَلى هَذا دَرج أهل التَّحقيق من العُلمَاء والعَارفين والأولياء والصديقين ، في القُرون الممدوحة قَبل هَذه الأزْمنة التي مَاتت فيها القُلوب والأفْئدة ، ومَنْ استوفى الحساب في الدنيا ، وتَرك الدنيا و توَكل في جَميع أموره عَلى اللَّه/ ، واشتَغل به ٣٦٧/ب
دون مَن سواه ، دَخل الجنَّة عند مفارقته للدُنيا بالموت ، بغَير حسَاب ولاَ عَذاب ، نعم وَدَخل جنَّة النَّعيم بالذِّكر والطَّاعات ، والعلم والمُكَاشفَات ،

(١) أخبتوا : خشعوا و تواضعوا .

(٢) سورة الزلزلة الآية [٧، ٨] .

(٣) الدرة : السوط : ما يضرب به من جلد سواء كان مَضْفُوراً أم لا .

قَبْلَ يَوم الحسَاب ، فَلا يَجْمع عَليهم حسَابيْن ولاَ خَوْفَين ، قَال اللَّه -تعالى- في مثل هَذه الأحْوال الكَريمة : ﴿ الَّذينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة طَيِّبين ، يَقُولونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ، ادْخُلُوا الْجنَّة بِماَ كُنْتُمْ تعَملُونَ ﴾[1] .

فَأخْبَر أنَّهم يَدْخُلون جَنَّة البَرزخ عنْد الوَفاة ، قَال : فَهُم والنَّاس بَعد هَذا في الحسَاب ، دَرجات في الجنَّة في اليُسر والثُقل والعُسر ، وأطْوَلُ النَّاس حسَاباً ، أكْثَرهم أمْوالاً وذُنوباً ، و أخَفْهُم حسَاباً ، أقَلهمُ مَالاً وذُنُوباً ، وفي الحَديث : « يَدخل الفُقراء الجنَّة قَبْلَ الأَغنياء بَخَمسمائة عَام ، وَ بأَربعين خَريفاً »[2] فَهَذا يَدُل عَلى خفة الحساب عَلى الفُقَراء ، و شَدَّته عَلى الأغنياء من قبل الأموال ، وأمَّا ثُقلهَ عَلى أَهل السَّيئات ، فَدَليله قَوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتيَ كتَابَهُ بيَمينه فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حسَاباً يَسيرًا ﴾[3] والأَخْذُ باليَمين لاَ يكُون إلاَّفي الحَسَنَات ، فإنَّ الحَسَنَات لاَ تكُونَ من جهة الشَّمال ، ولاَ يكْتُبها صَاحبَ الشمال ، فَافْهَم .

(١) سورة النحل الآية [٣٢] .

(٢) ابن ماجه (٤١٢٢) ، الترمذي (٢٣٥٣) ، أحمد (٢/ ٥١٣) .

(٣) سورة الانشقاق الآية [٧، ٨] .

فصل

و اعلم أنَّ الشيء الذي يَقع عَليه الحسَاب عَلى ثَلاث دَرَجَات ، دَرَجة في مقَام الإسْلام الظَاهر ، فيسئل عَنْ أَعمَاله الظَّاهرة ، الدينية والدنيوية ، وعُمره الظاهر ، وشَبابه وحيَاته الجُسْمَانية ، فيماَ أبلاَها [1] ؟ والدَّرَجة الثانية
١/٣٦٨ في مقام الإيمَان ، وَهُو مَا يَضُم العَبد/ من العَقيدة ، عَقيدة أهل السُنة في أُمور الإيمَان والآخرة ، ومَا تُصر عليه النَّفس أو تُضْمُرُ [2] من الثَّبات في جَميع الأعْمال ، و أَعْمال القُلوبَ كَالكبر [3] والعُجب [4] والرياَء [5] ، وسائر الصِّفات المُهْلكات التي يؤاخذ بها العَبد ، ويُسأل عَنْها .

قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَإِنْ تُبْدوا مَا في أَنْفُسكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسبْكُم بِه اللَّه ﴾ [6] اختُلف في نَسْخها عَلى قَولين وكَلاَ القَولين فيها سَائغ فَإنَّ من الذُنوب ما يُؤاخذ العَبد بهاَ ، وإن لم تَظْهر عَلى الجوارحَ ، فإنَّها عمل من أعمال القَلب ، تَتم في القَلب دُون ظُهوره عَلى الجَوارح ، كالإصْرَار والعُجب والكبر والرياء ، وغَير ذلك من الأعمال ما لاَ يتم في القلب ، إلاَّ يظهره عَلى الجَوارح ، فَهَذا مَعْفو عَنه قَال النبي -ﷺ- : « عُفي عن أُمتي مَا حَدَّث بِه نُفُوسَها ، مَا لَم تَعمل بِه وتَتَكَلم [7] »وفي الحَديث « لاَ يَدخُل الجنَّة مَن

---

(١) أبلاها : أفناها .

(٢) تُضْمرُ : تقل و تهزل .

(٣) الكبر : التعظيم و الامتناع عَلى قبول الحق معاندة .

(٤) العجب : الكبر و الزهو .

(٥) الرياء : أظهر أنه متصف بالخير و الصلاح عَلى خلاف ما هو عليه .

(٦) سورة البقرة الآية [٢٨٤] .

(٧) ابن الجوزي في زاد المسير (٢٠٤١٤) . إتحاف السادة المتقين (٧ : ٢٩٢) .

في قَلبه مثقال حَبة خَرْدل من كبر[(١)]» ودَلأئل المعنيين في الكتاب والسنة كَثير لِمَن يَدَّبرها ، ونَظر في الأخبار .

والدَّرجة الثَالثة في مقام الإحَسان مثل العلم باللَّه ، فَلا يَتوهم رَبَّه ولاَ يَتخَيله ، ولاَ يَشك فيه ، فَإنَّه مَسْئُول عَن جَميع ذَلكَ ، و عَنْ جَميع الخَطرات التي لاَ تَليق بالبَاري -سُبحانه- وضَبط هَذا المَقام الإحْسَاني ، ومقَام الإيمَان أنْ يَعلم أنَّ الأَعمال عَلى ضَربين : ضَرب لاَ يَتم إلاَّ بإخْراجه/ عَلى الجَوَارح ، فَهَذامعفو عنه ، إذَا لم يَخرج عَلى الجَوارح ، وضرب يتم في الباطن ، دون أن يخرج على الجوارح فَهَذا مَعفو عنه ، مَا لم يَعْقد عَلْيه وينفذ في الباطن ، فعلى العبد أن يناقش نفسه ، ويقيس أعماله في الظاهر والباطن في كُل وَقْت ، ويَعلم أنَّه مَسْئول عن ذلك كُله ، فَبذَلك يَخفُّ الحسَاب في الآخرة ، ويكُون العَرض دُون المُنَاقشة ، مَنَّ اللَّه عَلْينا وعَليكم باليُسر في جَميعَ أحْوال الدنيا والآخرة بكَرمه ، آمين ، آمين ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمد وعَلى آلَه ، وسَلم تَسليماً . ٣٦٨/ب

(١) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب (٣٩) رقم (١٤٧ ، ١٤٩) الترمذي (١٩٩٨) ، (١٩٩٩) ابن ماجة (٢٥٩ ، ٤١٧٣) ، أبو داود (٤٠٩١) .

الشعبة السابعة والستون
الإيمان بالميزان أنه حق وعدل

أمَّا كَون الميزان والوَزن من الإيمان ، فإن الإجماع من أهل السنة على الإيمَان به ، وقد نَطق القُرآن والسنة به قال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَنَضَع الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ ﴾ (١) ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلت مَوَازِينُهُ ﴾ (٢) و غَير ذَلك .

وَروى أبُو هُريرة ، أنَّ رسُول اللَّه -ﷺ- قَال : ﴿ كَلمتَان حبيبتان إلى الرَّحمن، خَفيفتَان عَلى اللَّسَان ثقيلتان في المِيزان ، سُبحَان اللَّه العَظيم ، سُبحَان اللَّه وَبحَمده» (٣) ورَوى عَبد اللَّه بن عَمرو بن العَاص ، قَال : قَال رسُول اللَّه -ﷺ- : « إنَّ اللَّه سَيُخلِّصُ (٤) رَجلاً من أُمتي عَلى رُؤوس الخَلائق ، فَيْنشر عَليْه تسعة وتسْعين سجلا (٥) ، كُل سجل مدَّ البَصر ، ثمَّ يَقول لَه : أتُنْكر من هَذا شَيئاً ؟ أظَلَمك كَتَبَتي الحَافظُون ؟ فَيقُول : لاَ يَارب ، فَيَقول : لَك عُذر : فَيَقول : لاَ يَارب، فَيَقُول : بَلى إنَّ لَك عنْدنا حَسَنة ، وإنَّه لاَ ظُلم عَليك اليَوم ، فَيخرُج بِطَاقة فيها أَشْهد أنْ لاَ إله إلاَ اللَّه ، وأَشْهد/ أنَّ مُحمداً عَبْده ورَسوله ، فَيقُول انظر ٣٦٩/أ وَزْنَك ، فيقَول : يَارب مَا هَذه البِطَاقة مَع هَذه السجلاَّت ، فَيقول إنَّك لاَ تُظلم ، قَال: فَتُوضع السجلات في كَفة ، والبِطاقة في كفة ، فَطَاشَت (٦) السِّجلات ،

(١) سورة الأنبياء الآية [٤٧] .

(٢) سورة القَارعة الآية [٦] .

(٣) صحيح : البخاري (٨/ ١٠٧) ، (٩/ ١٩٩) ، مسلم في صحيحه كتاب الذكر و الدعاء باب (١٠) رقم (٣١) .

(٤) سَتُخلصُ : يُسْلمه و يُنجيه .

(٥) السجلُّ : الكتاب يدون فيه ما يراد حفظه .

(٦) طاشت : خفت وزنها .

وثَقُلت البِطاقة ، فَلا يَثْقل مَع اسْم اللَّه شَيء » (١) . فَذكر في الحَديث كَفَّة المِيزان .

ورَوى أبُو الدَّرداء ، أنَّ رسُول اللَّه -ﷺ- قَال : « مَا مِن شَيء أثقل في الميزَان مِن حُسن الخُلق» ودَلاَئله كَثيرة ، وَورد في الخَبر «كَفَّتاه طباق السَّموات والأرض » فَإذاً فَهمتَ هَذا فاعلم أن الوَزن عام في كل شَيء ، ودَلاَئله في الوُجود أوْضَح مَن الشَمس ، فإنَّ المَوازين إنَّما وُضعت لمعَرفة مَقَادير الأشيَاء ، فَهي وَاسطة التَّعريف مَقَادير الأشيَاء ، والبَارئ تَعالى يَعْرف مقَادير الأشيَاء كُلها ، ويَزنُها ويَعلم وَزْنَها ، من الذَّرة فَما دُونها ، ومَا فَوقها .

ويتَعَالى عَن الجزاف (٢) ، فليس عنده شيء جُزافاً ، قال اللَّه -عَز وجَلّ- : « وَإنْ من شَيء إلاَّ عنْدَنَا خَزَائنهُ ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إلاَّ بقَدَر مَعْلُوم» (٣) «وأَنْبَتْنَا فيهاَ منْ كُلّ شَيء مَوْزُون » (٤) و قَال : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ والمَلائكةُ وأُولُوا العلم قَائمًا بالقسْط » (٥) والقسط هو الوزن والميزان ، كما قال : « وَنَضعُ المَوازين القسْطَ ليَوْم القيَامَة» (٦) « وَزنُوا بالقسطَاس المُستقيم » (٧) فقد عمَّ الوَزن والميزان كُله ، وأظْهر اللَّه لَنا في هَذه الدَّار الميزان والمكيال
٣٦٩/ب المَحْسُوس والمعقول ليظهر لنا مقادير الأشياء ، ولنتعامل بها ونَستدل/ عَلى مَوازين الآخرة ، ونُؤمن بها .

(١) الترمذي (٢٦٣٩) .
(٢) الجُزاف : الشيء لا يُعلم كيله، ووزنه .
(٣) سورة الحجر الآية [٢١] .
(٤) سورة الحجر الآية [١٩] .
(٥) سورة آل عمران الآية [١٨] .
(٦) سورة الأنبياء الآية [٤٧] .
(٧) سورة الشعراء الآية [١٨٢] .

وفي الحَديث الصَحيح « أَخْرِجُوا من النَّار مَنْ في قَلبه مثقال من إيمَان ، ونصْف مثْقَال من إيمَان ، وَوزَن شَعيرة ، ووَزَن ذَرَّة ، ومثْقَال حَبة من خَّردل وأدنى وَأَدْنى من مثْقال حَبة من خَردل من إيمان »[1] فقد عمَّ الوزَن والميزَان الوُجود كُله ، والبَواطن والظَّواهر ، وقَال عُمر بن الخَطاب -رضي اللّه عَنْه- : «حَاسِبوا أنفُسكم قَبل أنْ تُحَاسَبوا ، وزِنُوهاَ قَبلْ أنْ توزَنُوا» فَوصف أنَّ النفوس تُوزن .

(١) إتحاف السادة المتقين (١/ ١٣٩) ، (٧/ ٢٥٦) ، (٨/ ٥٦٢) ، (١٠/ ٥٦٦) .

فصل

واعلمْ أنَّ الوَزن قَد عمَّ المَقَامَات الثَّلاثة ، مقَام الإسْلام والإيمَان والإحْسَان ، فإنَّ الإنْسان بجَسَده ونَفسه وروحه .

و روحه في مقَام الإحسان في العُلو ، وجَسَده في مقام الإسْلام في السفْل ، ونَفْسه وَاسطة في مقَام الإيمَان ، ويَميل الإنْسَان بحُملته ، فَيَخف أوْ يَثْقُل علُواً أو سُفَلاً بأعْمَاله وعقَائده وعُلومه ، فإنْ قُلت : كَيفْ أزن ولَسْتُ أرى ميزَاناً ؟

فاعلم أنَّ هَذه بَلادَة [1] وغَفْلة [2] ، ألَسْتَ تَرى الوزَن كُله في الوُجود عَاماً ؟ والقسط قَد شَمل العَوالم ؟ فَترى المَوجُودات منها فَوق وتحت ، ويَمين وشَمال ، أمامَ وخَلف ، وظاهر وبَاطن ، وخَفيف وثَقيل ، وجُسْمَاني ورَوْحَاني ، وعُلو وسُفل ، و ليْل ونَهار ، وحَركَة وسكُون ، وخَير وشَر ، وقَد تمَّ كُل شَيء من ذَلك مَقَامه ، لاَ يَتَعَداه ، واعْتَدَل بذَلك الوُجود كُله ، فلو نَقَص شَيء مَن ذَلك ، لظَهر المَيل في الوُجود ، فكَذلك
١/٣٧٠ زن نفْسَك وأعْمَالك ، ظَاهراً وبَاطناً زيَادة بيَان ورَد في صِفة / الميزان أنَّ إحْدى كَفتَيه ظَلام ، والأخرى نُور .

وَورَد أيضاً « **كَفَّتَاه طِباق السَّموات والأرض** » الخَير كُله في كفة النُّور ، والشر كُله في كَفة الظَّلام ، والسَّموات كُلما عَلا وَارْتَفع ، و الأرض كُلما سَفُل واتَّضَع ، فَهذه الكَفَّتان قَد شَملت العُلويات والسُّفليات وهُو الميزان العَظيم ، ميزَان اللَّه العَظيم ، قَد وَسعت كَفَّتاه كُل شَيء في الوُجود ، وكُل

---

(١) البلادة : الحرمان من الذكاء و الإضاءة في الأمور .

(٢) الغفلة : السهو مع قلة التحفظ و عدم التيقظ ، و الإهمال .

عَمل ، فَإذاَ جَمع اللَّه الخَلائق يَوم القيامة صَار الحَسَن كُله ، من علم وَ إيمَان وخُلق ، وَعَمل خَير في كفَّة النور منَ أعْمَال جَميع الخَلائق ، وصَار السُوء كُله ، من جَهل وكُفر ، وخُلق سوء وعَمَل قَبيح ، في كفة الإظلام ، فمن لم يكن عَنده إلاّ الشَر الصَّرف ، والكُفر الخَالص ، خَلت كَفة النُور من خَيره وحَسَنَه ، فلم يكُن لَه فيهما أثر ، فَثَقُلت به كَفَّة الظلام إلى أسْفل سَافلين ، فَلم يَظهر لهم إقَامة وَزن ، لأنَّ كفَّة النُّور لَمْ يكُن فيها مثْقال حَبة خَردَل من خَير ، ولاَ أدْنى من ذَلك ، فكَان من الذين قَال اللَّه فيهم : ﴿ أُولَئكَ الَّذينَ كَفَرُوا بآيَات رَبهم وَ لقَائه فَحَبطَتْ أعْمَالُهُمْ ، فَلاَ نُقيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقيَامة وَزْنا ﴾ (١) .

و إقَامة الوزن إنَّما هُو لمن لَه في الكَفتين نَصيب ، وهَؤلاء المُرادُون بقَوله : ﴿ وأمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازينُهُ -يعني كفة النَّور- فَأمُّهُ هَاويَة ﴾ (٢) ﴿ وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازينُهُ، فَأُولَئكَ الَّذينَ خَسرُوا أنْفُسَهُمْ في جَهَنَّمَ خَالدُون ﴾ (٣) ومَنْ لم يكُن عنْده إلاّ الخَير الصرْف كَالأنْبياء / ومَنْ يَدخل الجنَّة بغَير عَذاب ، من ٣٧٠/ ب المُقربينَ الذين وَزَنوا أنْفُسهم فَخلَتَ (٤) كَفَة الظلام من شرَهم ، وثَقلت كفَّة النُور ورَجَحت بثُقل اليَقين ، ورزَانة الخُلق ، و أعمَالَهُم ، فَرفَعهم كَفَّة النُور إلى عليين ، ومَن جَاء بالحسَنات والسيئات ، من كُل شَيء ظَاهر وبَاطن ، ومن الخير والشر اتَّزَنَت حَسَناته وسَيئاته في كَفة النور والظلام ، فَمن رَجَحت حَسَناته عَلى سَيئاته بفَضل اللَّه ، سَلم من العَذاب ، وكَان من المُفلحين ، والْتحق بالفائزين الأولين من المُقربين السَابقين ، ومَن رجَحت سَيئاته ، وخفَّت حَسناته ، وأراد اللَّه تَعْذيبه ، وتَنْفيذ الحُكم والوَعيد ، دَخل النَّار وبَقي فيها بمقْدار ثُقل سَيئاته حَتَى يُقْتَصَّ منَه [فكلما] (٥) اقْتَص

(١) سورة الكهف الآية [١٠٥] .

(٢) سورة القارعة الآية [٨، ٩] .

(٣) سورة المؤمنون الآية [١٠٣] .

(٤) في الأصل : [في خلت] .

(٥) في الأصل : « فكما » .

منه مَن عَمل ، عَملَه سَقَط عَنْه شَيَئاً شيئاً ، وكَفَّة الحَسَنات التي فيها حَسَناته ، وَلَوْ مثْقال حَبة خَردل أو أقل ، تَمْنَعه أنْ يَميل كُل المَيل ، وأَن يَهوى إلى الهَاوِيَة[1] ، التي هَوَى إليها مَن لَيس لَه في كفّه الحسنات حَسَنة فكُلما اقتص منه في عَمل ، خَفت كفَّة السيئات منه وسقط قصاصه مع الأنفاس والساعات وثقُلت كفة الحسنات إلى أن تَخف إلى الغَاية ، التي تَرجح بها كفَّة النور ، فَيَرتَقي إلى الجنَّة ، ويَلحَق بأهلها .

(١) الهاوية : جهنم .

فصل

قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ كَلاَّ إنَّ كتَابَ الْفُجَّارِ لَفي سجين ﴾ (١) و﴿ إن كتَاب الأَبْرَار لَفي علّيين ﴾ (٢) وقَال النَّبي -ﷺ- : وهَل يكبُّ النَّاس علَيم نَاخرهم في نَار جَهنم إلاَّ حصَائد أَلسنَتهم » فَإذَا أَردت أنْ ترى صُورة الوَزن هَا هُنَا ، فَانظر/ إلى نَفْسك في هذا العَالم ، مَا عَلاَ فَوقَك نُور ١/٣٧١أ كُله ، وسُمو ، وارْتفَاع إلى اللَّه ، وإلى الدار الآخرة والجنَّة ، ومَا سَفُل من الدنيا إلى أَسْفل سَافلينَ ، غَفْلة وعصْيان ، وجهل وظلام ، إلى سجين ونَار جَهنمَ ، والعَبد قَائم بيْنَهما ، مَوزُونَ بحَركَاته وسكَناته في الخَير والشر ﴿ فأمَّا مَنْ طَغَى، وآثَر الحيَاة الدنيا ﴾ (٣) ولم ينْه النَّفس عَن الهَوى ، كُتب أَوزَاره في سجين ، لأنه لَيس له للسيئات في العُلو سبيل وثقلت به أوزاره ومَال به جَوره إلى النَّار ، وأسْفَل سَافلين ، لاَسيما من كفر فإن الأعَمال متعلقة بذات العبد تجَذبه من سجين إلى نفسها حيث هي مكتوبة .

ألاَ تَرى إلى قَول النبي -ﷺ- : « وَهَل يكبُّ النَّاس علَى مَنَاخرهم في نَار جَهنم ، إلاَّ حَصَائد ألسنتهم » (٤) والإكْبَاب إنَّما هُو عَلى الوَجه ، لأنَّ ذُنوب الإنْسَان خَارجة من الوَجه ، فيرتشم (٥) في سجين ، فَتَجذبه إلى نَفْسها ، فَيثْقل مَعَها سُفلاً ، فإنْ قُلت وأيُّ عَلاقة بيْن العَمل وبَيْن العَبد ؟ .

فاعلمْ أنَّ العَبد لاَ يُذْنب ذَنْباً ، إلا نُكت في قَلبه نُكْتة سَوداء ، ويَتَصَوَّر

---

(١) سورة المطففين الآية [٧] .

(٢) سورة المطففين الآية [١٨] .

(٣) سورة النازعات الآية [٣٧، ٣٨] .

(٤) الترمذي (٢٦١٦) ، ابن ماجة (٩٧٩٣) .

(٥) يرتشم : يختم في وجهه .

ذلك العَمل في ذَات العَبد ، صُورة مُصورة ، ألا تَراه إذَا ذَكره ، أبْصر عَمَله كَما عَمله ، وصُورته أيْضا مكْتُوبة في قبضة الشمال وسَجين ، فَهي كصُورة في مرآتين ، المرآة الوَاحدة سجين ، والأخرى ذَات العَبد ، فَتجَذبه بذلك المَعنى المُتصَور إلى مَحلهَا ، فإنْ كَان للعَبد عمل آخَر يَجْذبه إلى العُلو ،
٣٧١/ب ويمنعه من الثقل بالكُليةَ إلى أسْفل/ وإلاَّ صَار في الهَاوية ، يهوي أبداً بقَلبه وبَاطنه فيها ، حتى يَنْتقل بجَسَده إليها ، قَال اللَّه -عَز وجَل- : ﴿ ومَنْ يُشْرك باللَّه فكَأنَّما خَرَّ منَ السماءَ ﴾ (١) -لأنَّه لَيس فيها مَا يُمسكه عَن الهَوى به من إيمَان، ولاَ خَير مكْتُوب في عُلو- ﴿فتَخطفَهُ الطيرُ أوْ تهْوِي بِهِ الريحُ في مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٢) .

ومن ارتَفَعت همته إلى اللَّه والدَّار الآخرة وهُو في العَالم وإنْ تسمت حَسنَاته في عليين رَجَّحت به هَمَّة العُلو وارتَقى ، وخَفت أوْزَاره بالذكر والتَّوبة ، وفعَل الخَيرات والإقْبَال عَلى اللَّه -عَز وجَل- ، قَال اللَّهَ -عَز وجَل- : ﴿ كَلاَّ إنَّ كِتَاب الأبْرَار لَفي عليِّينَ ﴾(٣) وهي أيضاً مصورة في قَلبه وذَاته ، و مكْنُونة في عليِّين كَصُورة في مرآتين ، فَتجذبه إلى مَحلها ، فَافهم فَإن أذنب ذَنباً ، نُكتَ في قَلبه ، ومَال بقَدر صغر الذنب وكبره ، لأنَّ هَذا الميزان العَدل تُرَجحه الخَردلة والذَّرة ، مَن حَيثَ هُو عَدل ، فَعَلى العَبد أنْ يُسَارع إلى الاسْتغفار ومَحو الزَّلة ، وقَطَع تلك العلاقة، فَيلحق بالأولين ، والخلق بيْن هَذينَ المَقَامَين المُتقدمين دَرجات ، لاَ يحصيها إلاَّ عَلاَّمَ الغُيوب ، والمَطلع عَلى مقَادير الحَسنَات والذنوب، فَهَذا ميزان يَنْظر العَبد فيه ، ويَزن نَفْسَه كَما أمر ، ويَرى هَل مُؤثر للَّه والدَّار الآخرَة عَلى الهَوى الدنيا ؟ ويؤثر الحَسنَات عَلى السيئات والذنوب ، والعلم عَلى الجَهل وجَميع الأضدَاد ؟ .

(١) سورة الحج الآية [٣١] .

(٢) سورة المطففين الآية [٣١] .

(٣) سورة المطففين الآية [١٨] .

أو هُو بضد ذَلك ، أو هو مُسْتَو بَيْنَهما ؟ أو هَل ترجح بَعض عَلى/ ٣٧٢/أ
بَعض ، فَضل اللّه في كُتب الحَسَنة بَعشرٍ أَمْثالها ، وأكثر من ذَلك ، لاَ يُؤدَي شكره عَلى ذَلك أبداً ، عَامَلنا اللّه وإياكم في الدنيا والآَخرة بفَضله ، ولا عَامَلنا بعدله فيُهْلكنا ، آمين ، آمين ، وصَلى اللّه عَلى مُحمدَ وعَلى آله ، وسَلم تَسليماً .

الشُّعبَة الثَّامِنة والستّون

الإيمَان بِالشفّاعة

أمّا كَون الشفاعة من الإيمَان ، فَإن الإجْماع من أهل السنة على الإيمان بذَلك وقَد نَطق بها القُرآن والسُّنة ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ قُلْ للَّه الشَّفَاعَةُ جَميعاً ﴾(١) وقَال عَزَّ مَن قَائل : ﴿ وَكَمْ من مَلَك في السَّمَوات لاَ تُغْني شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ، إلاَّ من بَعْد أنْ يَأذَنَ اللَّهُ لمَنْ يَشَاءُ وَيَرضَى ﴾(٢) وقَال-عَز وجَلّ- : ﴿مَنْ ذَا الَّذي يَشْفعُ عندَهُ إلاَّ بإذْنه﴾(٣) وهي المَلائكة والأنْبياء والصَّديقين ، و أهل الجَاه على مقَادير مَراتبهم ومَنَازلهم .

فصل

اعلمْ أنَّ الشفَاعة عَامة في الدنيا والآخرة ، والظاهر والبَاطن ، فَأمَّا شفَاعة الظَّاهر ، فَإنَّ الخَلق خُلقوا في الدنيا ، لاَ يَعلمون شَيئاً ، ولاَ يَهْتَدون سَبيل مَراشدهُم المُنجية من العَذاب ، فَلولاَ إرْسَال الأنْبياء إليهم لكَانوا ضالين ، قَالَ اللَّه -تعالى- ﴿ وَكُنْتُم عَلَى شَفَا حُفْرَة منَ النَّار فَأنْقَذَكُمْ منْها﴾(٤) أيْ مُحمد -ﷺ- وكَذَلك كُل أُمة بنَبيها ، فَالشفَاعة الظاهرة وهي بالحقيقة البَاطنة / هي إخْراج الأنبياء الخَلقَ من الكُفر إلى الإيمَان ، وَمن الجَهل إلى ٣٧٢/ب
العلم ، ومَن المَعْصية إلى الطاعة ، فَقَد عَمت شَفَاعتهم الخَلق -صلوات اللَّه عَلَيهم أجَمعين- ولَم يَتَواجد إلاَّ دَخل فيها ، لأنَّهم عَلى أيديهم نَجَا مَن نَجا ، و كَذَلك العُلماء وَالمَذْكورن والهَادون ، يَشْفعون فيمَن أخْرجوه من

(١) سورة الزمر الآية [٤٤] .

(٢) سورة النجم الآية [٢٦] .

(٣) سورة البقرة الآية [٢٥٥] .

(٤) سورة آل عمران [١٠٣] .

الجَهل إلى العلم ، ومن المُخالفة إلى التوبة والطاعة ، وهُو لاَ يَشعر ، فَإذاَ صَار إلَى الآخَرة تبَيَّن للكُل أنَّهم نَجوا من النَّار عَلى أيدي الأنبياء والهَادين إنَّما هي أعْمَالَكم تُرد عَليْكم ، ومَن أخرَجه أحد لمجرد الحُبَ ، فإنَّ الحُب عَمل من الأعمال البَاطنة مُتصل بالمحبوب كَالسَيِّد والجَيل يُخرجه للشافع به ، فَافْهم .

و الشفاعة في الدنيا والآخرة عَلى ثَلاثة أقْسَام : المَلائكة ، والأنْبياء ، و المؤُمنون ، أهل الجاه كَما ورد في الحَديث : «فَتَشَفَّع النبيون والملائكة والمؤمنون » والشَفاعة بالحقَيقة كُلها للَّه -عَز وجَلّ- كَما قَال -جَل وعَلا- : ﴿قُلْ لِلَّه الشَّفَاعَة جَمِيعَاً ﴾[1] .

(١) سورة الزمر الآية [٤٤] .

فصل

فَأَمَّا شفَاعة المَلائكة ، فَقَد نَطَق بها القُرآن والسنة كَما تَقدم ، وقَال اللَّه -عَز وجَل- فيهم : ﴿ الَّذين يَحْملُونَ الْعرشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبحُونَ بحَمْد رَبهمْ ، وَ يُؤْمنُونَ به ، ويَسْتَغفرُونَ للَّذينَ آمَنُوا ، ربَّنا وَسعْتَ كُلَّ شَيء رَحْمَةً وعلْمَاً ، فَاغْفرْ للَّذينَ تَابُوا ﴾[1] إلى آخر المَعنى ، وفي آية أخُرى : ﴿ ويَسْتَغْفرُونَ لمَنْ في الأَرْض ﴾[2] فَيَتَضَرعُون للَّه بالشَّفاعة بقَولهم : ﴿ رَبَّنَا وَسعْتَ كُلَّ شَيء رَحْمَةً﴾ إلى آخر المعنى فَهَذه شَفَاعتَهم لَنا في كل وَقْت ، صلوات اللَّه وسَلامه / عَليهم ، أبد الآبدين . ١/٣٧٣

وَ أَمَّا شفَاعة الأنبياء والمؤمنين ، فَقَد تَقدم ذكرها ، فَهَذه شَفاعة الكُل منهم في الدنيا .

(١) سورة غافر الآية [٧] .

(٢) سورة الشورى الآية [٥] .

فصل
في شفاعة محمد -عليه السلام-

اعلمْ أنَّ النَّبي -ﷺ- بُعث والخَلق كُلهم في ظُلمة وعَمى، فَأول مَنْ أخرج من الخَلق وشَفَع فيه، عَليٌ، وخَديجة، وأبُو بكر، و بلال، والسَّابقَون إلى الإيمَان به، ثمَّ لَم يَزل نُوره يُخرج الخَلق من الظلمَات، بوَاسِطة وغَير وَاسِطة إلى يَوم القيامة.

و أمَّا شَفَاعته في الآخرة فَهي في ثَلاثة مَواطن: الأولى شَفَاعة المَوقف، و هى عَامة في أهْل المَوقف، في المَقام المَحمود، لاَ يَقُوم ذَلك المَقام أحد غَيره، كَما ورَدَ في الحَديث، أنَّهم يَأتُون آدم فَيردهُم إلى نُوح، ونُوح إلى إبْراهيم، وإبْراهيم إلى مُوسى، وموسى إلى عيسَى، فكُلهم لاَ يَراها لَنفسه، حتَى يأتُوا مُحَمداً عَليه السلام - فَيَشْفَع لَهم في إراحَتهم مِن مَوضعهم إلى مَا شَاء اللَّه، لأنَّه أوْسَع جَاهاً من جَميع الخَلق.

رَوى أبُو هُريرة قَال: أتى رسُول اللَّه -ﷺ- يَوماً بلَحم، فَرفَع إليه الذراع، وكَانت تُعْجبه، فَنهش فيها نَهْشَة فقَال: « **أنَا سَيد النَّاس يَوم القيامة، وهَل تَرون لم ذَلك ؟ يَجْمع اللَّه الأَولين والآخرين في صَعيد وَاحد، فيُسْمعهم الدَّاعي، وينُفذهم البَصر، وتَدْنُو**[1] **الشَّمس، فَيَبلغ النَّاس مِنْ الهَم والكَرب مَا لاَ يُطيقُون، ولاَ يَحْتَملون، فَيقُول بَعضهم لبَعض: ائتُوا آدم، فَيأتون آدم -عليه السلام- فَيقُولون لَه: أنْت أبُوالبَشر، خَلَقَك اللَّه بيَده، ونَفَخ فيك من رُوحه،** ٣٧٣/ب **وأمر المَلائكة فَسَجدوا لَك، اشْفَع لَنَا/ إلى ربك، ألا تَرى إلى مَا نَحن فيه وذَكر**

(١) تدنو : تقترب .

الحَديث بطُوله إلى قَوله : « فيَأتُونَ مُحمداً ، فيَقُولون ، أَنت رسول اللَّه ، وخَاتم الأنبياء ، قَد غفَرَ اللَّه لَكَ مَا تقَدم من ذَنبك ومَا تَأخر ، اشْفَع لَنَا إلى ربَك ، ألاَ ترى إلى مَا نَحن فيه ، قَال رسول اللَّه -صلى اللَّه عليه وسلم- فَأَنْطلق فَآتي تَحت العَرش ، فَأَقعُ سَاجداً لربي، ثم يَفْتح عَلي ويُلْهمُني من مَحَامده ، وحُسن الثناء عليه ، مَا لم يَفْتَحه عَلَى أَحد قَبلي ، ثم يَقُول: يَا مُحمد ارفَع رأسَك ، وسَل تُعط ، واشْفَع تُشَفَّع »[1] إلى آخر الحَديث .

ولَمَّا كَان الأمر عظيماً ، في يَوم عَظيم ، و ظَهَرت فيه عَظَائم الأمُور ، وغَضَب الربُّ فيه غَضَباً لم يغضبه قَبْل ذَلك خَاف كُل أحَد ممن عَظُم جَاهه ، وكَبُر قَدره عَلَى نَفْسه ، فَرد الأمر إلى مَنْ هُو أوْسع جَاهاً ، وأعظم قَدراً منه ، ولم يكُن ذَلك إلاَّ لمُحمد -عليه السلام- لأنَّه سَيد الكُل ، سَأل في وَقت الغَضب ، ومَوَاطن الشدائد ، فَلا يُرد في شَيء ، لأنَّه أيضاً إمَام الكُل في النُّبوة الأُولى ، في خَلقه الأرواح قَبْل الأشْبَاح ، كَما قَال -عليه السلام- : « أنَا أول الأنبْياء خَلقاً ، وآخرهم بَعثاً » فَحينَئذ أقَّر الكُل بنُبوته وإمَامته فكَان إمَاماً للجَميع ، فَإذَا رَجَع الأمر من الدَنيا إلى الآخرة، كَما كَانَ أول مَرة ، صَار إمَاما وشَافعاً للكُل ، فَلهَذَا كانت شَفَاعة المَوقف مَوقُوفة عليه ، فَيَشفَع للكُل ، ويَتَقَدم ويَتبعه كُل ذي فَوت ، قَال النَّبي -ﷺ- « أنَا أَول مَن يَقْرع بَاب الجَنَّة » لأنَّه إمام الجَميع، ومُتَقَدمهم ، فافهم .

(١) صحيح : البخاري (٤/ ١٦٣) ، مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٣٢٧)، الترمذي (٢٤٣٤) .

فصل

وأمَّا المقَام الثاني من شَفاعته -عليه السلام- فإنَّه خاص لأهل
١/٣٧٤أ الذُّنوب، ومَن دَخل النَّار كَما قال -عليه السلام- : «شَفَاعتي لأهل الكَبَائر / مِن أمتي »[١] وهؤلاء هُم الذين تَعلقوا بالنَّبي -عليه السلام- ، بمُجرد الحُب ولم يكن لَهم في الدنيا أعْمَال يَتَّبعون بها سُنته وطَاعته ، فيَتَّبعونه في المَوقف إلى الجنَّة كَمَا اتَّبَعوه في الدنيا ، فَلَما لم يكن لَهُم ذَلك ، أوثَقتهم[٢] أَوزارهم[٣] فيَتَعلقون بِه بالحُب ، فيُخْرِجهم بِه مِن النَّار ، ومن شَدائد الكَرب[٤] .

و رَوى أنْس ، قَال : سَمعت رسُول اللَّه -ﷺ- يَقُول : « إذا كَان يوم القيامة شُفِعْتُ ، فأَقول : يَارب أدخل الجنَّة مَن كَان في قَلبه خردلة ، فَيَدخُلون ، ثمَّ أَقول : أَدخل الجنَّة مَن كَان في قلبه أدْنى أدْنى شَيء »[٥] قَال أنْس : « كَأني أنظر إلى أصَابع رسُول اللَّه -ﷺ- يُقَلله ، وفي رواية أخرى عن أنس : « فَأَقُول رَب أُمتي..أُمتي ، فيَقول : انطلق ، فَمن كَان في قَلبه مِثقال من إيمَان فَأخْرجُوه منها، فأنطلق ، فأفعل ، ثمَّ أَرجع إلى ربي فَأحمده بمثل تَلك المحَامد ، ثمَّ أخرُّ سَاجداً ، فيقال لَه : يا مُحمد ، ارْفع رأسك ، وسَل تُعط ، واشْفع تُشفَّع ، فَأَقُول : أُمتي ... أُمتي ، فيُقال : انطلق ، فَمن كَان في قَلبه نصف مثقال من إيمَان فَأخْرجُوه مِنها ، فَأنطلق فَأفعل ، ثمَّ أَرْجع إلى ربِّي ، فَأحمده بِمثل تِلكَ المَحَامد ، ثمَّ أَخِرُّ

(١) النسائي (٣٣١) ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١١/ ٤٣٦) ، (٤٧٣٩) أبو داود والترمذي (٢٤٣٦) .

(٢) أوثقتهم : وثاقا : قوي و ثبت و صار محكما .

(٣) أوزارهم : جمع وزر، وهُو حَمْل ما يثقل الظهر من الأشياء المثقلة .

(٤) الكرب : الحزن و الهم .

(٥) البخاري في صحيحه (٩/ ١٧٩) .

سَاجداً ، فَيُقال لِي : يَا مُحمد ارفع رَأسك ، وسَلْ تُعطى ، واشْفع تُشفع ، فأقَول: أُمتي .... أُمتي ، فَيقال : انْطلق ، فَمن كَان فـي قَلبه مثْقال حَبة من خَردل من إيمَان فَأَخْرجوه منهـا ، فَأنَطلق فَأفعل .... » وذكر الحَديث إلى آخره ، فَهَذه شَفَاعتُه الخَاصة ، في أهل الذُّنوب .

فصل

و أمَّا المقَام الثالث من شَفاعة الآخرة ، فإنَّها في الجنَّة وهى/ دَائمة ، ٣٧٤/ب
وهُو مَقَام الوَسيلة ، التي لاَ تَنْبغي إلا لُمحَمد -عليه السلام- ورَوَى أبُو سَعيد الخُدري في الصَحيح ، أنَّ رسُولَ اللَّه -ﷺ- قَال : « إذَا سَمعْتم النداء ، فَقُولوا مثل مَا يَقُول ، وصَلوا عَليَّ ، فإنه من صلى عليَّ صَلى اللَّه عليه بها عَشراً ، ثمَّ سَلوا لِي الوَسيلة ، فـإنَّها مَنْزلة في الجنَّة ، لا تَنْبَـغي إلاَّ لعَبد من عـباد اللَّه ، وأنَا أَرْجُو أنْ أكُـون أنَا هُو ، فَـمن سَأل لِي الوَسيلة ، حلَت عليه الـشفـاعة »[1] وهى مُشْتَقـة من التَّـوسل ، الذي هُو الطلب والـدعـاء والتَّـشفع ، فَـالنَّبي -علَيه السـلام- فَي الجنَّة ، في قُربة من اللَّه ، بمَنزلة الوزير من المَلك ، في دَرجـة الوَسيلة يَتوسل ويَشْفَع في قضاَء الحَاجَاتَ ، ورَفع الدَّرَجات ، ويَسْتأذن في الزيارة العَليـة ، والنَّظر إلى الوجـه الكَريم ، وفَـتح أبْواب حَظَائر القُـدس ، وغَير ذَلك ، و هُو أول مَن يَتَقدم إلى الزيارة ، وأول مَن يَنظر إلى اللَّه ، وأول في كُل شَيء ، فَيَـتوسل لنَفـسه ولغَـيره ، فَـلا يَردُ عَلى الخَلقَ في الجنَان[2] خَيـر ، إلاَّ عَلى يَديه -ﷺ- فـإنه أول مَن يَرتَقي في الدَّرجـات ، فَـيـرتقي بارتِّقائه ، ويَزيد بزيادته كُل مَن في الجنَّة ، فافهم ، فَهمَنا اللَّه وإيَّاك .

وأمَّا شَفَـاعـة الأنْبياء عَليهم الـسلام ، فَيَـشْفَـعون أيضًـا بجَـاههم في

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (١/ ١٥٩) ، مسلم في صحيحه كتاب الصَلاة (١٠)، الترمذي (٢٠٨) النسائي (٢/ ٢٣) أبو داود (٥٢٢) و في الأصل كلمة « الشفاعة » و هى خطأ .

(٢) الجنان : جمع جنة و هى دار النعيم في الآخرة .

العُقبى، فمن أحَبهم ، واستَحق العقَاب بأوزَاره من أُمْتهم ، كَما يَفعل نَبْينا مُحمد -عليه السلام- بأهل الكَبَائرَ من أُمته ، وكَذلك الأملاك والمُؤمنون ، كَما ورَد في الحَديث « فَيَشْفَعَ النَّبيون ، والمَلائكة ، والمؤمنون »/ وفي الحَديث : ١/٣٧٥ «أئمَّتكم شُفعَاؤكم »[(١)] وقَال -عليه السلام- : « يَدخل الجنَّة بشَفَاعة رَجُل من أُمتي عَدد ربيعة ومُضر »[(٢)] وقَال رسُول اللَّه -ﷺ- : « ربَّ أشْعَث[(٣)] أغبر[(٤)] ، مَدْفُوع بالأبْواب ، لـو أقْسم عَلى اللَّه لأبرَّه»[(٥)] لا سيما الأبدال والفُقَراء والصَّالحون ، فَإنَّ لَهم جَاهاً كَبيراً في الدنيا والآخرة ، يَدْفَع بدعَائهم الشدائد، وبهم يُنصر الخَلق ، ويُمطرون ، ومَن دَعوا لَه في الدنيا أفلح ، ومَن شفعوا لَه في الآخرة ، شَفَّعوا فيه ، وكَذلك العُلماء المَذْكُورون ، الداعُون إلى اللَّه ، الآمرَون بالمَعْروف والنَّاهون عَن المُنكر ، ومَن أحب أهْل الخَير ، ولم ينتقصُهم فَقد وَصَل بَيْنه وبَيْنهَم بسَبَب ، وهُو الحبّ ، وتَعلق بِهم بذَلك السَبَب .

فإنْ أغْرقته ذُنوبه ، ولم يُنجه اقتداؤه بهم في الدُنيا ، شَفعوا فيه في الآخرة بذَلك السبب ، فَتَشَفَّع النَّبيون والمَلاَئكة والمُؤمنون، حَتى لاَ يَبْقى أحدَ في النَّار ، ممَّن بَيْنه وبَيْن الخَلق وَصْلة وسَبب فَيُخرج اللَّه بَعد ذلك من النَّار مَن قَال : لاَ إله إلاَّ اللَّه وتَعلق بالتَّوحيد فَقط ، ولَيس بيْنه وبين مَخلوق سَبب ، وهُم -واللَّه أعلم- أهل الأهواء والبدع ، مَنْ مَات منهم عَلى التَّوحيد ، لأنَّه لَيس لَهُم عَمل ، يُكْتب في ديوَان القَبول لمُخالَفتهم السنن ،

(١) اتحاف السادة المتقين (٣/ ١٧٥) .

(٢) الترمذي (٢٤٣٨) ، الحاكم (٣/ ٤٠٥) .

(٣) أشعث : تلبد و تعفر بالتراب و اتسخ .

(٤) أغبر : تلون بلون الغبار .

(٥) أبَرَّهُ : أجابه إلى ما أقسم عليه . و الحديث صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة باب (٤٠) رقم (١٣٠) ، و كتاب الجنة باب (١٣) رقم (٤٨) .

فَأعْمَالهم مُحْبَطة[١] ، وأهل السنة ، مُبغضون لَهم ، مُعَادون ، و هم كَذلك فَانقطعت الأسبَاب بَيْنهم وبَين الخَلق ، وبَقي لَهُم التَّوحيد المُجرد ، ومَن مَات منهم عَليه ، فَيُخرجهم اللَّه به من النَّار ، فإنَّه لاَ يَخرج مِن النَّار/ في العُقبى ، إلاَّ مَن خَرَج مِنها في الدنيا بِشَيء فَافهم. ٣٧٥/ب

قَال النَّبي -عليه السلام- في حَديث الشَّفاعة ، الذي رَواه أبُو سَعيد الخُدري ، قَال : « فَيَشْفَع النَّبيون والمَلائكة والمُؤمنون ، فَيَقول الجبار :بقيت شَفاعتي ، فيَقبض قَبضة مِن النَّار فَيُخرج أقواماً قَد امْتَحَشوا [٢] ، فَيُلقون في نهر بأفْواه الجنَّة ،يُقال لَه الحَياة ، فينبتون في حَافيه ، كَما تنبت الحبَّة في حَمِيل السَّيل [٣] قَد رَأيْتُموه إلى جَانب الصَّخرة ، فَمَا كَان إلى الشَّمس منها ، كَان أخْضر ، ومَا كَان منها إلى الظل ، كَان أصْفر ، قَال رَجْل : يَا رسُول اللَّه ، كَأنَّك رعيت الغنم بالبَادية فَيخرجُون كَأنَّهم اللؤلؤ ، فَيَجعل في رقَابهم الخَواتم ، فَيَدخلون الجنَّة ، فَيقُول أهْل الجنَّة : هَؤلاء هُم عُتقَاء الرحْمن ، أَدخلهم اللَّه الجَنة بِلا عَمل عَملُوه ، ولاَ خَير قَدَّموه ، فيُقال : لَكُم مَا رَأيتم ومِثْلَه مَعهم ».

وفي حَديث آخر : « فَأقُول -يَعني رسُول-، يَارب ائْذَن لِي فيمَن قَال : لاَ إله إلاَّ اللَّه ، قَال : لَيس ذَلك لَك ، أَو قَال إليْك ، لَكن وَعزَّتي وكَبْريَائي وعَظَمتي لأخرجن مِن النَّار مَن قَال : لاَ إلَه إلاَّ اللَّه [٤]، -قَال : أشهد عَلى الحَسن أنَّه حَدثنا به عَن أنس ،- فَلاَ يَبقى في النَّار إلا مَن حبسَه القُرآن » أي وَجَب عَليه الخُلود ، وهُم أهْل الشرك ، الذين حَقَّت عَليهم كَلمة العَذاب ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : « إنَّ اللَّه لاَ يَغفرُ أنْ يُشْرَكَ بِه ، وَ يَغْفِرُ مَا دُون ذَلكَ لِمَنْ

(١) مُحبطة : باطلة و في القرآن : ﴿ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطلها .

(٢) امتحشوا : تأججوا و تقحموا بالنار و تقلبوا بالمَحَشُّ : و هُو ما تتحرك به النار لتشتعل .

(٣) حميل السيل : هو ما حمله الماء النازل من الجبال من غثاء و طين و طمي .

(٤) مسند أبي عوانة (١/ ١٨٤) .

١/٣٧٦ يَشَاء ﴾[١] والحكمة في ذلك أنَّ المُشرك والكافر ادَّعى على البَاري/ ، ونَسَب إليه مَا لَيس له ، ولاَ يَليق به ، فَتَبرأ اللَّه من ذَلك ، وتَنَزه عنْه ، وبَعُد منه ، وكَذَلك ادَّعى الكَافر والمُشرك عَلى المخلَوق المحدث ما لَيس لَه ، وَنَسَب إليه مَا لاَ يَليق به من الرُّبُوبية ، فَانْقطع بالكُلية من اللَّه ، وتَبرأ اللَّه منه بالكلية ، فَلاَ يَبْق بَيْنه وبَيْن البَاري سَبَب ولاَ عَلاَقة ، يُخْرجه بها من النَّار ، وَلأنَّ مَعَاني الشرك والكُفر لَيس لَهَا في صفات البَاري -جَلَ وَعَلاَ- أصل ، الجَهل لَيس للَّه ، ولاَ الكَذب ولاَ الظُلم ، ولاَ صفات الكُفر التي هي ضد صفَات المُؤمنين ، واللَّه الطّيب والطاهر القُدوس ، والشرك نَجس رَجْس ، واَللَّه نُور ، والكُفر ظُلمة ، والشرك ظُلم ، والظلم ظُلمات ، وغَير ذَلك من ضد صفات المُؤْمنين ، التي أَمَرهم اللَّه أنْ يَتَحلوا بها ، ويَتَعبَّدوا لَه بهاَ ، والمُشركَون لَم يَتخَلقوا بصفَات القُدوس الظاهر ، منَ الإيمان والعلم والنُّور ، وغَير ذَلك ، بل بخلاَفه ، والخلاف لاَ يَقْرب منَ خلاَفه بوَجه ، فَلذلك انْقَطع ما بَيْنهم وبَيْنَ البَاري -تَبارك وتَعالى- فكَانوا ظَالمين لَلمخلوقَات ، حين ادَّعُوا عليها من الرُّبُوبية مَا لَيس لَهَا بوجه من الوُجوه ، لأنَّ المَخْلوق لاَ يَعود أبَداً خَالقاً ، ولاَ يَنقلب الحَقائق بوجَه أبداً ، فكانت مُظْلمة لاَ تَغفر ، فَافهم ، فَهمنا اللَّه وإيَّاك ، ونَسأل اللَّهَ الكَريم أن يَجْعَلنا من أهْل الجَاه عنْده ، والكَرامة في الدنيا والآخرة ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمدَ وعَلى آله ، وَسَلم
٣٧٦/ ب تَسليماً / .

---

(١) سورة النساء الآية [١١٦] .

الشُّعْبَة التاسِعة والسِّتّون
الإِيمَان بِالصِّرَاط

أمَّا كَون هَذه الشعبة من الإيمَان ، فإنَّ الإجْماع من أهْل السنة والشرائع قَد انْعَقَد عليه ، ومَن لم يُؤمن به ، فَهُو عنْدهم مَارق (١) ، زنْديق (٢) ، فَاسق(٣) ، وقَد نَطقت به الآيات ، والأخبَار الصحاح عَن رسُول اللَّه -ﷺ- فَوجب الإيمَان بِه .

فَصل

اعلمْ أنَّ دَلائل الصراط وآيَاته في الوُجود أبْين من الشَمس الصَّابحة (٤) وقَد عَمَّت دَلاَئله الوُجود كُله ، ظَاهرًا وبَاطناً ، فَمن آيَاته في الوُجود ، طُرق الأقْدَام في بَسيط الأرض ، فَلَيس يَمشي أحد وَلاَ يَهْتَدي ، إلاَّ عَلى طَريق وَسَبيل ، ولَولا ذَلك / لأخْطَأ النَّاس مَراشدهُم ، وضَلُّوا عَن مُرادهم ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ الَّذي جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ مَهْداً (٥) وَجعَلَ لَكم فيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تهْتَدُون﴾ (٦) والسَبيل في اللغَة هُو الطريق والصراط فَالسَبيل قَد مُدت في الأرض مِن قُطر إلى قُطر ، ومن مكَان إلى مكَان .

وكَذَلك الشوارع دَاخل البُلدان ، مِن مَوضع إلى مَوضع ، ومن بَيْت

---

(١) المارق : النافذ في كُل شَيء لا يتعوج فيه . و المقصود أنه مرق بنفسه من الإسلام فنفذ منه .

(٢) الزنديق : من يؤمن بالزندقة هي القول بأزلية العالم والزنديق هُو الكافر و الضال .

(٣) الفاسق : الخارج عن أمر ربه وفي القرآن : ﴿ إلا إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِن فَفَسَقَ عَنْ أَمرِ ربِّه ﴾ .

(٤) في الأصل « الصاحبة » .

(٥) في الأصل : (مهاداً) وما أوردناه هُو صواب الآية .

(٦) سورة الزخرف الآية [١٠] .

إلى بَيت ، فَلا يَتَصرف أحد حَيث يَتَصرف ، إلاّ على طريق وشَارع ، يهتدي عليه ، إلى مقصُوده ، وكذلك جري السفن في البحار ، من مَوضع إلى آخر ، إنَّها تَجري بتقيدين : علامات الجبال والكواكب ، فيُقدر لها طُرق
١/٣٧٧ من موضع إلى مَوضع ، تَجري على ذلك إلى مقاصدها / .

وكذلك جري المياه وانصبابها في الأنهار ، وحركات الرياح والأفلاك ، والشمس ، والقمر ، والكواكب الكل من ذلك جار على طريق محدود لا يتعداه ، وكذلك جري الغذاء في الأجسام من موضع إلى آخر وجري المخلوقات في سبيل الخلقة ليس شيء يجري إلا على سبيل لا يتعداه ، وكذلك نزول الأمر من السماء ، ونزول الملائكة وصعودها وصعود الأمر من أسفل إلى علو كل على طريق وسبيل منصوب .

قال الله عز وجل : ﴿ والسَّماء ذَات الحُبُك ﴾(١) أي الطرق ، يعني طرق الأمر النازل ، والملائكة النازلة والصَاعدة ، وكذلك القناطير(٢) والجسور(٣) المنصوبة في الأرض في الأمَاكن الوعرة (٤) والأنهار الصعبة ، دال على صراط جهنم الأُخراوي ، المضروب على متنها ، وكذلك الوجُود كُله ، لابد فيه من طريق مسلوك عليه إلى المقاصد ، حسًا وعَينًا ، فدلائل الصِّراط قد عَمَّت الوُجود كُله ، ظَاهرًا وبَاطنًا .

وخُص الصِّراط المضروب على متن (٥) جهنم بالإيمان لعظمه ، وكبَر قَدره ، لأنّه مَمَر إلى دَار السَّعادة الأبدية ، والشَّقاوة الأبدية فَهُو أعظم

(١) سورة الذاريات الآية [٧] .
(٢) القناطير : جمع قنطرة و هي جسر مقوس فوق النَّهر يُعبر عليه .
(٣) الجسور : جمع جسر و هُو المعبر الذِي يصل شاطئ النَّهر .
(٤) الوعرة : الأرض الصلبة .
(٥) متن : الظهر .

الطرق وأكبر السبل ، وذلك أنَّ الله يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فلا بُد لهم من طريق يتصرفون عليه إلى مُستقرهم من الدَّارين ، فمنهم من نزل به هذا الطريق إلى دار الشَقاوة / ومنهم من يثبت عليه حتى ٣٧٧/ب
يخلص إلى دار السعادة فكان أعظم طريق ، لنصبه لمشي الكل عليه ، فافهم .

روى أبو هُريرة ، عن النَّبي -ﷺ- قال : « **يجمع الله النَّاس ليوم القيامة ، فيقول : من كان يعبد شيئًا فليتَّبعه ، فيَتَّبع من كان يعبد الشَّمس الشَّمس ، ويَتَّبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيب** [1] **الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيه منافقوها ، ويُضرب الصِّراط بين ظَّهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل**»[2] وذكر الحديث ، وفي حديث آخر : « **فيأتيهم إلَههُم فيتَّبعونه ، ويُضرب جسر جهنم ، قال رسول الله : فأكون أول من يُجيز** » قال : فيتبعونه كما اتبعت كُل أُمة ما كانت تعبد ، كذلك يَتَّبع المُوحدون ربَّهم .

فصل

اعلم أن هذا الصراط المضروب على متن جهنم ، في عالم الإيمان والدَّار الآخرة ، وهو باطن الصِّراط المشروع ، والمسنون في الدنيا ، للسلوك وإلى القصد إلى الله وإلى طاعته ، قال الله عز وجل : ﴿ **إنَّك لمنَ المُرسلين عَلى صِراطٍ مُستَقيم** ﴾ [3] أي الطريق الذي حد القرآن والسنة لأهل الإيمان ، وهذا الصراط المشروع في الدنيا لا يظهر للحواس ، إنَّما يَظهر للعُقول مَعنى

---

(١) الطواغيت : جمع طاغوت ، وهُو كُل ما يعبد مِن دون اللّه من الجن والإنس والأصنام والأشجار والأحجار و غيرها .

(٢) صحيح : البخاري (٨/ ١٤٧) .

(٣) سورة يس الآية [٣، ٤] .

مَشروعًا ، وصراطًا مَنصُوبًا ، وما كان في الدنيا مَعنى يَظهر في الآخرة حسًا وعَقلاً ، قال الله - عز وجل - ﴿ قُل هَذِه سَبِيلي أدعُو إلى الله عَلَى بَصيرة أنَا وَمَن اتَّبَعني ﴾ [١] وقال : ﴿ وأنَّ / هَذَا صِرَاطِي مُستقيمًا فَاتَّبِعُوهُ ولاَتَتَّبعوا السبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيلِه ﴾ [٢] والصراط المضروب على مَتن جهنم ، لَم يرد نص صحيح أنَّه من حديد ، ولا من حجر ولا من تُراب ، غير أنَّه جسر مضروب على متن جهنم ، ومن زعم ذلك فليأت بِبُرهان [٣] واضح ، وسُلطان بيِّن على ذلك ، ولا يقدر على ذلك . ١/٣٧٨

فالصراط في الأُخرى هُو باطن صراط الإسلام ، وباطنه يظهر في الآخرة حسًا ، كما ذُكر ظاهرهُ مَعنى ، ويُضرب على متن جهنم للمشي عليه ، كَمَا ضُرب هَاهُنا للمشي عليه إلى طاعة الله ، والقصد إلى الله في كل شيء ، من زَلَّ عليه هُنا ، زلَّ على حقيقته هُناك ، ومن استقام هُنا ، استقام هُنام .

وفي الصحيح ، قال رجل لابن مسعود - رضي الله عنه - ما الصِّراط المُستقيم ؟ قال : تركنا مُحمد في أدناه وطرفه وعن يمينه حَواذ ، وعن يساره حواذ ، وثمَّ رجال يدعون من مر به ، فمن أخذ تلك الحواذ انتهت به إلى النَّار ، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنَّة ، ثمَّ قرأ ابن مسعود : ﴿وأنَّ هَذَا صراطِي مُستقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، ولاَتَتَّبِعوا السبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيله ﴾ [٤] . فهذا بيان ليس بعده بيان ، انظر إلى قوله في هذا الحديث : « **تركنا محمد في أدناه وطرفه في الجنَّة** » وانظر إلى قوله : « **من أخذ تلك الحواذ انتهت به إلى**

---

(١) سورة يوسف الآية [١٠٨] .

(٢) سورة الأنعام الآية [١٥٣] .

(٣) البرهان : الحجة البينة الفاصلة .

(٤) سورة الأنعام الآية [١٥٣] .

النَّار ، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنَّة وهل تجوز الناس في العقبى على الصراط/ إلا إلى الجنة ،وهل سقط عنه من سقط إلاَّ إلى النَّار » . ٣٧٨/ ب

وفي المُوطأ عن عبد الله أنَّ رسول الله -ﷺ- قال : « ضرب الله مثلاً صراطًا مُستقيمًا ، وعن جَنبي الصِّراط سُوران ، فيهما أبواب مُفتَّحة ، وعلى الأبواب سُتور مُرخَاه ، وعند رأس الصِّراط دَاع يَدعو يَقُول : استقيموا ولا تعوجوا ، وفوق ذلك داعٍ يدعو كل ما هُم عبيد ، أن يفتح شيء من تلك الأبواب ، قال : ويحك لا تفتحه ، فإنَّك إن تَفتَحه تلجه » (١) ثم فسره -ﷺ- فأخبر أنَّ الصِّراط الإسلام ، يعني صراط الدِّين والسُّنَّة .

وقال النبي عليه السلام في الصراط في العُقبى : « فأكون أول من يجيز » وكذلك هو أول من شرع الشرائع في التقدير والمبعث الدُنيوي ، وهو أول سالك عليه .

وقال عليه السلام : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل » أي على الصراط ، ودعوى الرُسل يومئذ : اللهم سلم ، سلم ، وكذلك لم يشرع الشرائع في الدنيا ، ولا ضربت الصراط ، والسبل إلا الرسل ، ليَسلم النَّاس من الضلال ، والوُقوع في النَّار ، ولذلك يقول في العقبى اللهم سلم ، سلم ، ومن شرعَ طَريقاً من رأيه ، فَقد أبتدع وضَل ، واتَّبع سبل الشيطان و زل عن الشرع وكذلك يزلَ في العقبى ، وكَذلك طُرق المَعَاصي ، وهى كُلها الحَواذ ، التي مَثلها رسُول اللَّه -ﷺ- في الخط . في الحَديث الذي رَواه عبْد اللَّه ، قَالَ : خَط لَنَا رسُول اللَّه -ﷺ- خطاً / ، فَقال : هَذا سَبيل اللَّه ، ثمَّ خَط عَن يَمين ذَلك الخَط ، وعَن شماله خُطوطاً ، فَقال : هَذه سُبل ، عَلى كُل سَبيل شَيْطان ، يَدعو إليها (٢) ثمَّ قَرأ :: ﴿ وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لاَ تَتَّبِعُوا السبُلَ ١/٣٧٩

(١) أحمد (٤/ ١٨٢) ، الحاكم (١/ ٧٣) .

(٢) مجمع الزوائد (٧/ ٢٢) ، الدارمي (١٠/ ٦٧) .

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾[١] فهذه السبل التي عَن يَمين الصراط وشماله، هي التي زَاحمت الصراط ، وضيقت جَوَانبه ، حتى صَار أحَدَّ من السيف ، وأَرَق من الشَّعر ، لأنَّ الشَّياطين تَدعوا إلَى الجانبين في كُل نَفس إلى طريقها يميناً و شَمالاً ، وتَجْذب الخَلق عَن الصراط ، فَيَفر المُؤمن بقَلبه وظَاهره من تلك الطَرِيق ، و يَبْقى عَلى الصراط مُستَقيمًا ، و هي تُزاحمه ، وتَضيق عليه يَميناً وشمالاً ، و هُو يَمشي عَلى مَا حُدَّ لَه ، وشُرع فَصار أحدَّ من السيف وأرق منَ الشعر ، وورد أيضا أنَّ في حَافتي الصراط في العقبى كلاليب وخطاطِيف معلقة مأمورة بأخذ من أُمرَت به ، كذلك تجذبه في الدنيا خطاطيف الواسوس والشهوات والمحَرمات والشبهات فتجذبه عن الاستقامة على صِراط الدين ، فافهم .

فصل

فَإذَا فَهمت هَذا ، فَلا يكن هَمك إلاَّ كيف تمشَي عَلى الصراط هَا هُنا ، وكَيف سُرعتك في الجَري إلى الخَيرات ، والمُسَابقة والهروب عَن المُخَالفَات ، فَمن ذَلك يكون السَرعة في المشي عَلى الصراط في العُقبى ، ٣٧٩/ب فَمن النَّاس مَن يَجُوز كَالبَرق ، ومنهم مَن/ [٢] يَجُوز في عَدد كثير من السنين قَال النَّبي -عليه السلام- في الصَّحيح : - يُرسل الأمَانة والرَّحم فيَقُومَان جَنبي الصراط يَميناً وشمالاً ، فيَمر أولكم كَالبَرق ، قيل : أيْ شَيء كَالبَرق ، قَال : ألم تَروا إلى البَرق ، كَيف يَمُر ويَرجع في طَرفة عيْن ؟ ثمَّ كَمر الرِّيح ، ثم كَمَر الطَّير ، وشد الرِجال تَجري بهم أعْمالهم عَلى قَدرها ، ونَبيكم قَائم عَلى الصراط، يَقُول: رب رب ، سَلم سَلم ،حَتى تَعجز أعْمَال العباد ، وحتَى يَجيء الرَّجل فَلا يَسْتطيع السَّير إلاَّ زحفاً [٣] ، وذَلك العَجز مِن العَجز عن الهُروب مِن المُخَالفات ،

(١) سورة الأنعام الآية [١٥٣] .

(٢) تكررت « من » في الأصل . (٣) مشكاة المصابيح (٥٥٧٦) .

والعَجز عَن المُسَارعة للطَّاعات ، والسير عَلى مَنَاهج التَّقوى وكَذلك ورَد في الأخْبَار أنَّ قَناطير الصراط ، جُسوره صُعود واسْتواء ونُزول عن اسْتواء ، وإنَّ لَه حَافتين ، وإنَّه مُزل مُدحض (١) ، وكَذَلك الصراط الشرعي ، الذي أمر المؤمن أن يمشي عليه ها هنا ، لا يثبت على الاسْتقامة عليه إلاَّ الأفرَاد ، ولاَ يَعْلو أو يُسرع قَطع عَقَباته ، إلا المُخفُّون من الذنوب في الدنيا ، وهُو مَضْروب عَلى مَتن جَهنم أي على ظهرهَا ، وكَذلك هذا الصراط الشرعي مضروب عَلى تَرك المَنْهيات والمُحرمات .

قَال النَّبي -ﷺ- : « حُفَّت النَّار بالشَّهوات »(٢) وورد في بَعض الأخْبار أنَّه يَصعد في قَنطرة الصراط ، ويَسْتَوي عليها ، ويَنْزل عَن الاسْتواء إلى قَنْطرة ثَانية ، وعظَمُ ارتفاعها عَلى قَدر/ المَقَام العَظيم ، وكَذلك كَان العَبد ٣٨٠/أ
في الدنيا ، إذَا لاَح لَه المُنْتَهى ، و هُو عَلى هَذا الصراط الشرعي ، يَفر عَنْه ، وممَّا يَقْبَله عَنْه إلى العُلو بالتَّضرع والدعاء إلى ربه ، وهَرب إلى العَالم العُلوي الذي هُوَ السَّموات ، ليَرقى عَن الآفَات ، ولَعَله يَبيت في العُلو ، ثمَّ يَنزل بالتَّواضع للَّه إلى الأرض ، هكَذا في جَميع الأعْمال الطَّاعات وَالمَنهيَات ، إذَا فَرَّ عنهَا وهَرب إلى ربه ، وإنْ وَقَع في مَحظور ، وزَلَّ ، بادر بالإقَالع والهَرب إلى الله ، وإلى الرجوع إلى الصراط الذي زل عنْه ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَ إنْ منكُمْ إلاَّ وَاردُهَا كَانَ عَلَى رَبكَ حَتْماً مَقْضياً ثُمَّ نُنجي الَّذينَ اتَّقَوا﴾(٣) والمُتَّقي هُو الفَار عَن المَنهي ، النَّافر عَنْه ، وإن اختَطفته الخَطَاطيف الشَّيطانية الشَّهوانية المُحرمة ، أبْصرها فَرمَاها بشُهُب (٤) الذكر ،

(١) مدحض : مزلق .

(٢) جزء من حَديث صحيح : أخرجه مسلم في كتاب الجنة من صحيحه (١) المقدمة و الترمذي (٢٥٥٩) .

(٣) سورة مريم الآية [٧١ ، ٧٢] .

(٤) الشهب : جمع شهاب . وهُو : جرم سماوي يسبح في السماء فإذا دَخل في جو الأرض =

والرَّد ، و الكَراهة لَها والبُعد ، فَسَلم منْ خدشها [١] عَلى الصراط في العُقبى ، و إنْ خَدَشته فَهَرب منها ، ونَجَا ، وفي الحَديث : « فمَخدوش نَاجٍ ، ومُكَردَس [٢] في النَّار» فَإذَا وَقَع العَبد ، وزَلَّ عن هَذا الصراط الشرعي في المَعَاصي والغَفَلات والأهواء ، فَلْيُسرع التَّوبة والإقلاع والرُّجوع ، فَإن التَّوبة تَجْذبه إلى النَّجاة في العُقبى ، كَما تجذبه المَعاصي إلى النَّار ، ثَبَّتَنا اللَّه
٣٨٠/ب وإيَّاكم ، في الدنيا والآخرة ، عَلى صراطه المُسْتقيم ، و لاَ [٣]/ جَعَلَنا ممن ضَل عَن سَبِيله ، وزَلَّ عَن طَرِيقه ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمد وآله .

=اشتعل و أصبح رماداً .

(١) في الأصل « خشدها » .

(٢) كردس : الطائفة العَظيمة من الخيل أو الجيش .

(٣) في الأصل تكررت كلمة [ولا] .

الشُّعْبَةُ المُوفِيةُ سَبْعِين

الإيمَانِ بِالحَوْضِ المَوْرُود (حَوْض مُحمد عليْه السلام)

أَمَّا كَون هَذه الشعبة من الإيمَان ، فَإنَّ الإجْماع عَلى ذَلك من أهل السنة والشرائع ، والمُكَذب به مَارق ، وقَد نَطَقت به الآيات والأخْبَار ، فَوجب الإيمَان به ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾[1] والحَوض من ٣٦٥/ب
الكوثر ، وقَال النَّبي -عليه السلام- : « أنا فَرطكم عَلى الحَوض »[2] وقَال «مِنبريَ عَلى حَوضي » وعن أنس قَال ، قَال رسُول اللَّه -ﷺ- : « بَيْنَما أَنَا أَسير في الجنَّة ، إذَا بنهر حافتاه قباب الدر [3] ، قُلت: مَا هَذا يا جبريل ، قال : هَذا الكَوثر الذي أعطاك ربُّك ، فَإذَا طِينَه ، أَو قَال : طيبه مِسْك أَذْفَر »[4] والحوض هُو مَوضع مَصَب المَاء ، ومجتمعه .

ورَوى أبو ذَر قَال : قُلت يَا رسول اللَّه : مَا آنيَة الحَوض ، قَال : «والذي نَفْس مُحمد بيَده ، لآنيتُه أَكْثر من عَدد نُجوم السماء ، في الليلة الظلماء ، مَن شرب منْه لم يَظمأ ، آخر مَاء عَليه يَشْخب [5] ، فيه ميزابان من الجنَّة ، عَرضه مِثل طُوله ، مَا بيْن عَمان إلى أَيْلَة [6] ، ومَاؤه أشَدُّ بَيَاضاً من اللَّبن ، وأَحلى من

(١) سورة الكوثر الآية [١] .

(٢) صحيح : البخاري (٨/ ١٤٨) ، (٨/ ١٥٠) ، (٨/ ١٥٨) ، (٩/ ٥٨) ، مسلم في صحيحه كتاب الفضائل (٢٥ ، ٢٦ ، ٣٢) ، ابن ماجة (٤٣٠٦) .

(٣) تكررت بالأصل « قباب الدار » .

(٤) أذفر : اشتدت رائحته ، و الحديث أخرجه ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٢١٧) و أحمد في المسند (٣/ ٢١٧) .

(٥) يَشْخب : يتفجر فينزل غزيراً .

(٦) أيلة : قَال ابن حجر في الفتح : [إِيْليَاء] : بكسر الهمزة و اللام بينهما ياء أخيرة ساكنة و قبل الألف مثلها مفتوح : أيْ بيت المقدس ، و هم من قَال [إيْلة] هنا ، و إيْلة بِفتح أوله وسكون الياء =

العَسل »(١).

١/٣٨١ أ وفي حَديث آخر ، عنْ أنس ، عَن النَّبي -عليه السلام-/ « قَدر حَوضي مَا بيْن أيلَة و صَنْعَاء من اليَمن ، وإنَّ فيه من الآنية كَعَدد نُجوم السماء»(٢) ، وعن أبي بُرزة ، قَال : سمعت رسُول اللَّه -ﷺ- لاَ مَرة ، و لاَ اثْنين ، ولاَ ثَلاثاً ، ولاَ أربعاً ، ولاَ خمساً ، يَقول : « تَردُون عَلى الحَوض ، فمن كَذب بِه فَلا سَقاه اللَّه منه ، ولاَ بُد لكُل مُؤمن يَدخل الجَنَّة أن يَشْرب منه ويَتطهر ، وإن دَخَل النَّار » وفي الصحيح عَن جَابر ، أنَّ قَوماً يَخرجون من النَّار بَعد أنْ يكُونوا منها ، فَيَخرجون كَأنهم عيدان السَّماسم (٣) ، فَيدخلون نَهراً من أنهار الجَنَّة ، فَيغتسلون فيه ، فَيَخْرجُون كَأنهم القَراطيس »(٤) ، و مثَال ذَلك في الدنيا العِلم والعَملَ بِه ، فَتَعلم العِلم وفَهْمه شُرب ، والعَملَ به تَطهر واغتسال .

وفي الحَديث : « مَثل مَا بَعثني اللَّه به من الهُدى والعلم ، كَمَثل الغَيث الكَثير ، أَصَاب أَرْضاً فكَان منها بَقية قَبلت المَاء فَأَنبتت الكَلأ (٥) والعُشب الكَثير ، وكَانت منها أَجادب أَمسكَت المَاء فَنَفَع بِها النَّاس ، فَشَربوا وسَقُوا وزرَعوا ، وأَصَاب منها طَائفة أُخرى ، إنَّما هي قِيعان (٦) ، لاَ تُمسك ولا يُنبت كَلأ فَذَلك مثل مَن فَقه في دِين اللَّه ، ونَفَعه مَا بَعثني اللَّه بِه ، وعَلم وعَلَّم ، ومثل مَن لم تَرفع

=أيضا وفتح اللام : ساحل القلزم كانت مدينة معروفة ثم خربت و هي بين مصر و الحجاز .

(١) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الفضائل (٣٦) ، الترمذي (٢٤٤٥) .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٨/ ١٤٩) .

(٣) السماسم : نبات حولي زراعي دهني ، و دُهن بزره زيت الشَّيْرج ، و مفردها : سِمْسِمَة .

(٤) القراطيس : جمع قرطاس ، و هُو : الصحف التي يكتب فيها .

(٥) الكلأ : مهموز بغير مد هُو : المرعى رطبا و يابساً .

(٦) قيعان : جمع قاع : و هِي أرض مستوية مطمئنة عمَّا يحيط بِها من الجبال والآكام تَنْصَبُّ إليها مياه الأمطار فتمسكها .

بذلك رأساً ، ولم يَقبل هدى اللَّه الذي أُرسلت به »[١] وروى هَذا الحَديث أبُو مُوسى في الصحيح ، فَهَذا نَص في الشرب وَالسَقي وغَير ذَلك ، وفي الحَديث/ « مَثَل[٢] الصلوات الخَمس كَمَثَل نَهر عذْب غَمر[٣] بباب أَحَدكم ، يَقْتَحم فِيه كُل يَوم خَمس مَرات ، فَمَا ترَون ذَلك يُبْقي من دَرنه »[٤] فَهذا مثال التَّطهير ، وكَذَلك سَائر الأعْمال المُقَربة إلى اللَّه ، كُلها تَطهير . ٣٨١/ب

فصل

اعلمْ أنَّ الحَوض دَلائله في الوجود كَثيرة ، فكُل حَوض حَسن كَريم ، في عَالم الحس دَليل عَلى ذَلك ، وقَد يَسْتعمل المُلوك والأكَابر في الدنيا الحياض الوَاسعة المُتقَنة ، الكَبيرة لعظَم أقْدارها في الدنيا ، وذَلك دَليل عَلى حيَاض الآخرة ، والعَرب تسمى المَاء حَوضاً ، وكُل مَاء طَيب عَذب بَارد في عَالم الحس دَليل عَلى مياه حياض الآخرة ، إلاّ أنَّ هَذا الحَوض العَظيم ، المَوْرود فَي الآخرة لاَ يُشَبهه حَوض ، لأنَّه صَنْعة الرب الكَريم ، ولَه طُول عَظيم ، وعَرض عَريض وَاسع ، فإنَّ حَوض كُل أحد عَلى قَدره ، وعَلى قدر المَحل والمَوطن ، وفي الحَديث أنَّ عَرضه مثل طُوله ، ووَرد أنَّه مَسيرة شَهر ، وفي خَبر كَما بَيْن الحَجر الأسود والكُوفَة[٥] ، وفي خَبر آخر : «كَما بَيْن مقَامي إلى عمَّان » أي كَما بَيْن المَدينة وعَمَّان ، وفي خَبر : « كَما بَيْن حربا وأدرج » وقَد قيل في مَعنى ذَلك : أنَّ الحَوض لَه طُول وعَرض ، وزَوَايا وأرْكَان ، فَيكُون اختلاف هَذه المَسافات -التي في الحَديث- عَلى حساب

(١) صحيح : البخاري (١/ ٣٠) .

(٢) تكررت كلمة « مثل » في الأصل .

(٣) غمر : كثُر حتى ستر مقره و فاض .

(٤) درنه : تلطخ و توسخ . و الحَديث صحيح : أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد (٢٨٤) ، الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٨٩) .

(٤) الكوفة : هي مشهورة من بلاد العراق .

ذَلك ، والحقيقة في ذَلك واللَّه أعلم ، إنَّ هَذا المَاء المُبارك والنَّهر العَظيم ، لَه
ثَلاث مَراتب / : ١/٣٨٢

المَرتبة الأولى : الحَقيقيَّة في الجَنَّة ، وفي جوار الرَّب الكَريم ، كَما ثَبت في الحَديث عَنْ أنْس قَالَ : « بَيْنَا أنَا أسير في الجنَّة ، إذا أنَا بنَهر حَافَّتَاه قباب الدَّر المُجوف ، قُلت : مَا هَذا يَا جبريل ؟ قَال : هَذا الكَوثر الذي أعْطَاك ربُّك ، فَإذا طِينه- أو قَال طِيبه- مسك أذْفر »(١) وعَنْ مُعاوية ، أنَّ رَسُول اللَّه - ﷺ- قال : « في الجنَّة بَحر المَاء ، وبَحر العَسل ، وبَحر اللَبن ، وبَحر الخَمر ، ثَمَّ تَشَقَّق الأنْهار بَعد »(٢) .

و المَرتبة الثانية : الحَوض الذي في القيامة ، ماؤه من أنْهار الجَنَّة ، كَما قَال -عليه السلام- : « يُصب فِيه ميزابانَ مِن الجنَّة ، أَحَدُهما ذَهب، والأخر فِضة » .

و المَرتبة الثالثة : هي مياه العلم ، التي جَاء بها صَلوات اللَّه عليه ، فروي من شَربها ، رواه العلَم ومُتَعلموه ومُعَلومه ، إلى يَوم القيامة ، عَلى حَسب دَرجاتهم في الشُرب ، والفَهم والذَّوق ، ومَيزَاباه الكتَاب والسُنة ، جَاء بها جبريل ومُحمد -عَليهما السَلام- خَرجت عَلى أفْواهَما -صَلوات اللَّه وَسلامَه عليهما .

وعن أبي هريرة في الصحيح أن سول الله -ﷺ- قَال : « مَا بَيْن بَيْتي وَمنْبَري رَوْضَة مِنْ رِيَاض الجَنَّة ، ومِنْبري عَلى حَوضي »(٣) فَقَد أعْلَمك أنْ منبره

(١) سبق تخريجه .

(٢) أحمد في المسند (٥/ ٥) ، السيوطي في الدر المنثور (٤٩١٦) .

(٣) صحيح : البخاري (٢/ ٧٧) ، (٣/ ٢٩) ، (٨/ ١٥١) ، (٩/ ١٢٩). مسلم في صحيحه كتاب الحج باب (٩٢) رقم (٥٠٠ ، ٥٠٢).

عَلى حَوضه ، حَالاً ومَآلاً ، لأنَّه مَوضع كَلامه ومُخَاطبته للخلَق بالعلم الذي آتاه اللَّه ، وحَيث مَا كَان -صَلوات اللَّه علْيه- فَهُو عَلى منبر النُّور العَالي/ الدَّرجات ، دَرجات البُرور والتَّرفع والإكرام ، لقَدره الكَريم ٣٨٢/ب
-صَلوات اللَّه وسَلامه عَليه- ، وقَد كَان في حَياته يَرد عليه الخَلق والوُفود ، وهُم عطَاشى من العلم ، فَيَشْربون ويَروُون بتعلمهم من رسُول اللَّه ، وروَايتَهم وأخْذَهم عَنْه ، فَينَصرفُون إلى أهْلهم ، فَيسقُونَ غيرهم ، هكَذا إلى أن تُوفي -عَليه السلام- وقَد كَانَ هُو -عليه السَلام- بَحراً عَظيماً من العلم ، كَان العلم يَنصَب عليه ، ويَنْزل من قباب العَرش ، وحَافَّات السَّموات ، وعُلَو الجنَّات ، فَيعَلم العباد ويَسقيهم من المَاء المُبارك ، إلى أن تُوفي -عليه السلام- .

فصل

فمَن تَروى العلم الشرعي ، وارتَوى بالفهم ، فَقَد شَرب ، وَوَجَد حَلاوة العلم النَّافع ، الذي لاَ شَيء أحْلى منه ، ولاَ ألذَّ منه ، وَوَجد بَرد اليَقين المَحض ، ومَن استَعَمل العلم ، فَقد تَطَهر باسْتعمالَ العلم ، واغْتَسل به ، وفي الصحيح : « إنَّ أُمتي يُدْعون يَوم القيَامَة غُراً مُحَجلين من آثار الوُضوء»(١) و قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ خُذْ من أمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهرهُمْ.... الآية ﴾(٢) وقَال -عليه السلام- : « مَنْ حَج هَذا البيت ولم يَرفث(٣) ولم يَفسق ، رَجع كَيوم وَلَدته أُمه »(٤) أيْ طَاهراً مُطهراً ، فاستعمال العلم تَطهير ، أجمل وأحسن من كُل تَطهير واغْتسال ، وكَذلك تَعلم العلم الإيمَاني لدنه أحْلى من

(١) صحيح : البخاري (١/ ٤٦) مسلم في صحيحه كتاب الطهارة (٣٥).

(٢) سورة التوبة الآية [١٠٣] .

(٣) الرَّفث : ما لا يحسن التصريح به من قول أو عمل .

(٤) ابن ماجة (٢٨٨٩) ، النسائي (٥/ ١١٤) .

كُل حُلو ، وصَفَاؤه أنْور من كُل لَبن ، ونَفَسُه أبرد عَلى الكَبد من كُل ثَلج ،
١/٣٨٣ مَا لم يُغير طَعمه/ ولَذَّته بالهَوى والابتداع ، والآراء الفَاسدة ، وإرَادة غَير اللَّه به ، فَإنَّ ذَلك كُله سَبب لطَرد المُنَافقين والمبتدعين والمُتكبرين عَن الحَوض ، فمن بَدَل هُنا وغَيَّر ، وزيد عَن الحَوض في المحشر ، كَما وَرَدت الأحَاديث بذَلك .

فصل

لَعلك(١) تَشْتَهي أنْ تَعرف مَسَافة الحَوض الكَريم ، وعَظيم قَدره ، ومَعاني الأحَاديث الوَاردة في حُدود مَسَافاته ، فَهذا كَما كَلَّ(٢) أكثر النَّاس عَن فَهمه ، والكَلام فيه .

فاعلم أنَّ اللَّه بَعث نَبيَّه -عليه السَلام- ليسقي النَّاس من هَذا المَاء الكَريم ، الذي أرسل بلسَان عَربي مُبين ، وجَزيرة العَرب هُو المَبْعوث فيها ، وقد أحَاطَت بجَزيرة العَرب ، القَبَائل من بَني آدم ، من جَميع جهات الأرض ، كَالسُّودان والأحابيش والنُوبة ، والقَبط كَالروم وفَارس ، وغَير ذَلك من القَبائل في أقْطَار الأرض ، وجَزيرة العَرب بَيْن الأُمم ، حَدها من المَدينة المُكرمة إلَى أرض الحجَاز ، إلى ديَار اليَمن ، وقَربت من أرض فَارس ، وكَذلك من نَاحية الشَام ، ممَّا يقَرب منه .

ونَزل القُرآن والشَرع بألْسنَتها ، فكَان الحَوض عَلى مقدار مَسَافة جَزيرة العَرب ، فكُل مَن دَخل دين مُحمد وشَرعه من أيْ القَبائل ، كَان لاَ بُد أنْ
٣٨٣/ب يتَعلم من اللسَان العَربي ، وإن كَان أعْجَمياً مَقْفُولاً ، ولَو كَلمة / لاَ إله إلاَّ اللَّه ، مُحمد رسُول اللَّه ، وفَاتحة الكتاب ، ومَا يُصلي به ، ويَفهم به دينه ،

(١) في الأصل « لعل » .

(٢) كَلَّ : ضعف ، ووهن من التعب .

ولَو كَان حَيْث مَا كَان من البلاد البَعيدة من جَزيرة العَرب ، فَلابُدُّ أنْ يَتَعلم من لُغة اللسَان العَربي ، مَا يَشرب به من مَاء العلم المَبْعوث به مُحمد -عليه السَلام- ، قَال اللّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَ مَا أَرْسَلْنَا من رَسُول إلاَّ بلسَان قَومه ليُبين لَهُمْ ﴾[1] وأُرسل رَسُولنا إلى كَافة الخَلق ، فَوجب علَيهم أنْ يتَعلموا كَلمة « لاَ إله إلاَّ اللّه ، مُحمد رسُول اللّه » ومَا يُقيموا به دينهم ، بلسان يُفهم ، فَحيث مَا كَان العَبد وإنْ بَعُد فَمن جَزيرة العَرَب تَعَلَّم ومن مَاء الحَوض الذي هُو عَلى سعتها شَرب ، وجَزيرة العَرب قدرها مسيرة شهر ، فيكون الحوض في المحشرَ على قَدر مَا كَان في الدنيا ، وكَذلك النَّبي -عليه السلام- بُعث بيْن الحَرمين ، كَما ورَد عنْه ذَلك ، فَافهم ، فَهمنا اللّه وإيَّاك .

و النَّاس في الشرب دَرجات ، ومَن شَرب لم يَظْمأ ، لكنَّهم طَالبون للزيادة من الشَراب ، لأنَّ لَذَّته لاَ يَصفها الوَاصفون ، ولاَ يُقدر حَلاوته المُقدرون ، فَهُم شَاربون أبَداً دُنيا وأُخرى ، سَقَانا اللّه من حَوض نَبيه الكَريم ، دُنيا وأُخرى ، وأزلاً و أبَداً ، و لاَ يَفتنا وإيَّاكم عَن دَيننا ، وعَصَمنا وإيَّاكم من الزيغ[2] والزَلل[3] ، ولاَ أهْلَكنا وإيَّاكم بالعَطش في/ مَواطن ١/٣٨٤
الشُرب ، آمين ، آمين ، وصَلى اللّه عَلى مُحمد وعَلى آله ، وسَلم تَسليماً .

---

(١) سورة إبراهيم الآية [٤] .

(٢) الزيغ : التباعد عَن طريق الحق .

(٣) الزلل : الوقوع في الخطأ و الانزلاق فيه .

الشُّعبَة الإحدى وسبعون والثانية وسبعون
الإيمان بِالجنَّة والإيمان بِالنَّار

رَأَيْنا أنْ نُقرن بَيْنَهما في بَاب وَاحد لأنَّهما قَريبتَان أبداً في الذكر ، وقَال النَّبي -عليه السَّلام- : « اذْكُروا العَظِيمتين ، الجنَّة والنَّار » فَقَرن بَيْنهما في الذكر والعِظَم.

فَأمَّا كَونهما من شُعب الإيمَان ، فإنَّهما الآخرة حقيقة ، والقُرآن والسُنة إنَّما ورَد بالدَّار الآخرة ، ولَيس يَحْتاج في ذَلكَ إلى إقَامة دَليل ، لعُموم أدلته ، قُرآناً ، وسُنةً ، وإجْمَاعاً .

فصل

اعلمْ أن الجنَّة والنَّار دَاران ، كُل منهما ضد الأُخرى ، فَمَا في هَذه من أنواع الإكرام والنَّعيم ، فَله في هَذه ضَد من الخزي والعَذاب الأليم ، فَالواحدة نُور ، والآخرة ظُلمة ، وهَذه أنْس وأمن ، وحُسن مَحض ، وهَذه وَحْشَة وفَزعَ وقُبح مَحض ، وهَذه رَاحَة ولَذَّة وسُرور مَحض ، وهَذه مَشَقة وتَنْغيص وكَرب مَحض ، ولَيس في هَذه شَيء من الخَير ، إلاَّ و في هَذه ضده من الشَر ، وَهُما مَخْلوقان قَبل خَلق الدنيا ، وقَد زَعم قَوم من أهل البدعَ ، لاَعُقول لَهم ، أنَّهما غَير مَخْلوقين الآن ، إذ لاَ فَائدة لخَلْقهمَا قَبل دُخولهما عنْدهم ، ولم يتَفطنوا لجَهلهم بالشرع للفَائدة في خلقَهما قَبل الدنيا ، ومَتى الفَائدة العَظيمة لَو غَفلَوا / . ٣٨٤/ب

وذَلك أنَّ الدنيا إنَّما خُلقت منهما جَميعاً ، تَنزلت الرَّحمة التي من الجنَّة ، وأنْواع الخَير والفَتح ، وصَعَدت مِن دَار الغَضب أنْواع الشَر والقُبحَ ،

في نَفْسهَا ، فَامْتزج المَعْينان ، فكان منهما الدنيا ، فَلم تكن الدنيا جَنة صرفاً ، ولاَ نَاراً صرفاً ، قَال اللَّه -عَز وجَل- : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ ، فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ﴾[(١)] وقَال للجَنة : « أنت رَحْمتي ، أَرحْم بِك مَنْ أشَاء » ، وقَالَ النَّبي -عَليه السلام- : « إنَّ اللَّه خَلق مائة رحْمَة ، أَنزل منها إلى الأرض وَاحدة ، وأمْسَك عنْده تسعة وتسْعين فَإذا كَان يَوم القيامة فيض هَذه إلى تلك فَرحم بِها عِبَاده المُؤمنين »[(٢)] وإنَّما تُقبض هَذه الرَّحمة التي قَام بها هَذا العَالم ، وكَان بِها كُل خَير وحَسن فيها ، فَإذَا مَيَّز اللَّه الخبيثَ من الطَيب ، من كُل شَيء من الدنيا ، فَيزول المَرح ، وتَفْسَد دَار الدنيا المَمتزجة من الفَتح والقُبح ، فَجعل الخَبيث بَعضه عَلى بَعض ، فَيركُمه[(٣)] جَميعاً ويَجْعله في جَهنم ، ويَجعل الطَيب كُله في الجَنَّة ، فَيَعود كُل شَيء إلى أصْله ، الذي خَرَج منه ، فَيفنى وجَود الدنيا و يُبقى الآخرة كَما كَانت أَول مَرة .

وَوَرد في الحَديث : أنَّ اللَّه يَقُول في الدنيا ميزوا مَا كَان لي منها ، واتقوا سائرها في النَّار . فَالمَاء والنُور والطيب والجمَال ، والخَير كُله من الجَنَّة ، والخَبيث والنَّار وكُل شَر فَمن جَهنم ، قَال النَّبي -عليه السلام- : ٣٨٥/أ « حمي من فَيْح[(٤)] جَهنم[(٥)] « الحُمَّى حَظ كُل مُؤمن من النَّار / »[(٦)] وقَال -عليه السَلام- : « نَارُكُم هَذه التِي تُوقدون جُزء من سَبعين جُزءاً من نَار جَهنم » فَهَذا نَص أنَّ هَذه النَّار من جَهنم ، وقَال : « إنَّ النَّار اشْتَكت إلى ربها ، فَقَالت: يا

---

(١) سورة فاطر الآية [٢] .

(٢) أحمد (٤/ ٣١٢) ، الحاكم (١/ ٥٦) الطبراني (٦/ ٣٠٧) .

(٣) يركمه : يجمعه و يجعل بعضه إلى بعض .

(٤) فيح جهنم : أيْ وهجها ، و يُروى من [فوح] جهنم .

(٥) صحيح : البخاري (٤/ ١٤٦) ، (٧/ ١٦٧) . مسلم في صحيحه كتاب السلام (٧٨ ، ٨٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤) . ابن ماجة (٣٤٧١) .

(٦) ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (٢٠٦) .

ربِّ ، أكَل بَعضِي بَعضاً ، فَأْذَن لِي أنْ أتَنفس ، فَأذنَ لَها بَنَفَسِين ، نَفس في الشِتَاء ، ونَفَسٌ في الصَيف ، فَأَشد مَـا تَجدون من الحَر فَمن السَعيـر ، وأَشد مَا تَجدون من البَرد فَمن الـزَمْهَرير» (١) وهَذا نَص أنَّ الحَر والبَـرد ، الذي قَام بهـما وُجُـود الدنيا مَع المَاء النَّازل من مَحل الرَّحمة ، من جهَنم والشَواهد عَلَى هَذا في الكتاب والسُنة لاَ تحصَى ، وحَلها يَطُول ، فَإذَا فَهمت هَذا عَلمت أنَّ دَلائل الجَنَّة والنَّار في الوُجود ، عامَّة ، فَلا يَقع بَصر الإنْسَان عَلى شَيء إلاَّ ولَه فيه عـبرة ، وذكَّره بالجَنَّة والنَّار ، فَالنُّور والذَهب والفضة والحَرير ، إذَا رَآَها الإنْسان تَذكَر بهاَ واعْتَبر نُور الجَنة وذَهَبها وفضَّتها وحَريرها ، وإذَا رَأى لَبناً و عَسَلاً ومَاء وَ خَمـراً ، نَظر بهـا مَـا في الجَنَّة ، وإذَا رَأى الأبْكَار والوُلْدان والخَدم الحسَان ، تَذكر مَا في الجَنَّة، وإذَا رَأى بَساتينَ الدنيا وَ جناتها وثمارَها وفَواكهـهاَ ومراكبـها ، تَذكر مَا في الجَنَّة ، و هكَذا كُل شَيء يُذكِّر بدَار الجَنَّة ، وإذَا رَأى النَّعـيم من مَرايٍ أو مَسْمـوع ، أو مَركب أو مَسْكن أوَ مَأكـول أو مَشروب ، أو مَنْكَوح أو مَلبُوس أو مُزين ، اعتبر بذَلك الدَّار التي أبْرعَ فيها ، وإذَا رأى ما في الدنيا من ظَلام وحَر وزَمهرير (٢) و سَموم (٣) ، تَذكر بهَا مَا فيَ جَـهنم منهـا ، وإذَا رَأى العَقَارب والحَيَات ، والقُيـود والأغْلال (٤) ، والسجون وَالزبَانية (٥) والكلالب (٦) والصَديد والعَذاب/ والشائكات والمُر ٣٨٥/ب
والكُربة كُله ، وجَميع أنواعَ الشَر ، يَذْكُر بها جَهنم ، ومَا أعد اللَّه فيها ، فَلا يَرى شَيئاً ، إلاَّ اعْتُبر منْه الدَار الآخرة ، و حَصل لَه اليَقين ، وكَان مَن العُلماء

(١) صحيح :مسلم في صحيحه كتاب المساجد (١٨٦) .

(٢) الزمهرير : شدة البرد .

(٣) سَموم : الريح الحارة .

(٤) الأغـلال : جـمع غُل : طوق من . . حـديد أو جلد يوضع في عنق الأسيـر أو المجـرم أو في أيديهما .

(٥) الزبانية : الشرط و سمي بعض الملائكة بها لدفعهم أهل النَّار إليها .

(٦) الكلالب : جمع كلوب و هُو الخطاف .

الراسخين [١] .

فصل

إذَا فَهمت هَذا فاعلم أنّ الجنَّة خَرجت مَعَانيها و تَطَلعت إلى هَذا العَالم الدُنيوي عَلى بَابَيْن :

فأمَّا البَابَان من الجنَّة مَحْسُوس ، فَهُو مَا يخرج من الغَيب ، ويَنْزل من العُلو مِن المَاء ، والنّور والرياح الطيبة والأهوية المُلذةَ ، وكُل خَير وحَسَن ظَاهر .

و الثاني يتَنَزل من مَعاني الدين كُلها ، كَالذكر والتَّلاوة ، والعُلوم والفُهوم ، والنَّعيم بالصَلوات وأنُوَاع العبادات ، والمُكَاشَفة اليقينية ، ووجود طعم الإيمان والأحْوال الشَريفة كُلها ، قَال النَّبي -ﷺ- : « إذَا رَأَيْتُم رِيَاض الجنَّة ، فَارْتعوا[٢] فِيها »[٣] ، يعني حلَق [٤] الذكر .

و رُوي عَن اللَّه -عَز وجَلّ- قال : « مَعْشَر الصديقين تَنَعموا بذكري فإنه لَكُم فِي الدنيا نَعيم ، وفي الآخرة جزَاء » ، وعن النَّبي -ﷺ- أنَّه قَال : « لاَ حَول ولاَ قُوة إلاَّ باللَّه العَلي العَظِيم ، كَنْز من كنوز الجنَّة [٥] ، وفي أن سُبحان اللَّه ، والحَمد للَّه ، ولاَ إله إلاَّ اللَّه ، واللَّه أكْبر غِراس الجنَّة »[٦] ، فَالحَسَنَات كُلها نَوع كَانت من قَبيل الجنَّة ، وعَليها يُقسم الجنَّة لأهلها ، والنَّعيم بِها من نَعيم

(١) الراسخين : أيْ الذين لم تعترضهم شبه لتمكنهم من العلم في قلوبهم .

(٢) فارتعوا : فالهوا و العبوا دون قيد .

(٣) إتحاف السادة المتقين (٥/ ١٧٣) .

(٤) حلَق : جمع حلقة و هى مجالس العلم و الالتفاف الدائري حول العَالم .

(٥) صحيح : البخاري (١/ ١٥٩) ، مسلم في صحيحه كتاب الدعاء و الذكر باب (١٣) رقم (٤٤)، (٤٥) .

(٦) صحيح : البخاري (٨/ ٣٧٣) مسلم في صحيحه كتاب الدعاء و الذكر باب (١٠) رقم (٣٢) .

الجنَّة ، فافهم .

و أمَّا البابَان من النَّار ، فَالأول مَا ظَهر حساً من النَّار في هَذا العَالم الدنياوي ، ومَا ظَهر من نَفَس جَهنم ، من الحَرَ والبَرد ، والفَيح ، وجَميع أنْواع المُؤذيات مثل / العَقَارب والحَيَّات ، وأنواع الشَر والظُلمات كُلها . ٣٨٦/أ

و الثاني أنْواع الكُفر والجَهل والمَعاصي كُلها ، ورَوينا عَنْ بعض عُلماء الآخرة ، أنَّه كَان جَالساً مَع أُنَاس جادلهم فَرأى شَررة من جَهنم طَارت ، فَنَزلَت عَلى قَلب وَاحد منهم ، فَظَهر منه في الحَال من الغَضب والحقد والتَغير ما بَهَت الحَاضرين ، فَهذه أربعَة أبْواب منهاَ وطَلعت الآخرةَ إلى الدنيا و بها تَمُر هُنا في كُل نَفس ، فَالجنَّة والنَّار ظَاهرتَان باليقَين للمُوقنَين مثل بُطُونهما في عَالم الدنيا ، مثل بُطون نَفس الإنسَان في جَسده ، وكَما لا يَظهرا عَلى الجَسَد حَركة ولاَ سكون ، إلاَّ من النَّفس وهى المُحركة المُسكنة للدُنيا ، قَال النَّبي -ﷺ- : « **الجنَّة أَقْرب إلىَ أحَدكم من شَسَع**[1] **نَعْله ، والنَّار [مثل ذَلك]** »[2] وقَد رآها -عليه السَلام- في صلاة الكُسوف ، وهُو قَائم يُصلي في بَاطن الدنيا في عَرض الحَائط .

فأمَّا أوْصاف الجنَّة والنَّار ، ومَا أعد اللَّه فيهما للأخْيار والأشرار ، فَلا تُحيط بها الأخْبار ، فَقَد ورَد في القُرآن والسُنةَ في أوْصَافهما ، مَا لاَ يَحْصره فَهْم ، وَلاَ يَلْحَقه وَهم ، فمن أراد فَهم بَعض مَعَانيها ، فَعليه بقراءة القُرآن ، ومَا ذَكر اللَّه في أوصاف هَذه ، وهَذه ومَا ذَكر النَّبي -ﷺ- فيَ أوْصَافهما ، وفي الأخبار والآثَار ، ومَا عَسَى أنْ يُقال في دَار سَقفها عَرش الرَّحمن ، الذي هُو مرآة التَّجلي ، أنْوار نُور الأنْوار ، فَيَقبض على من دونه في كل الجَهات وَالأقطار/ أنواع البصائر والأبصار ، كمال الحجب والأستار ، ٣٨٦/ب

(١) الشسع : سير يمسك النعل بأصابع القدم .

(٢) صحيح : البخاري (٨/ ١٢٧) . وقد تم تكملة الحديث لإ تمام المعنى .

وضياء الشمس والأقمار ، وكُل حُسن وكَمالُ وَصْف أو يُوصف في دَار القَرار ومحلَل الصَالحين والأبرار وبجَنَّة الدَرجات والمَراتب والقُصور والمَنازل والريَاضات ، والبسَاتين تَجريَ تَحتها البحر والأنْهار ، من العَسل المُصفى ، والَخمر الذي هُو عَن إذهاب العُقول مُبَّرأ .

و أمَّا الكَوثر المُطرد عَلى أحجار الياقوت ، واللؤلؤ ، والزبَرجَد (١) ، واللَّبن المَحض الأنْوار ، الذي طَعمه أبداً لاَ يَتَغير ، وأرض ذَلك السف (٢) مَفْروش مَبْسوط ، سعته عَلى قَدر سعة العَرش المُحيط ، وفي ذَلك الفرَاش الأقاليم المُقلة ، والمَدائن الآمنة الممهَدَة ، كُل إقليم لملك من المُلوك ، وكُل مكَانها مُلوك ، سعة كُل مَلك من ملوكها (٣) عَلى قَدر سعة أبْصارها وبَصائرها ، تَسرح في مُزوح سُهولها ، دَواب تَضع حوافرَها في مَواقع أبْصارها بسُرعتها كَالبرق الخَاطف ، تَحول براكبها عَلى أقَاليم مُلكه ، ومَا فيه من المَشَاهد والمَواقف ، فَلا يسأل (٤) عَنه منه شَيء ، إلاَّ وَهُو عليه وَاقفَ ، ويُدرك أقْصَاه وأدْناه ، كَما يُدرك العَارفَ المَعارف ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾(٥) وفي كُل إقْليم من أقَاليمها من العمَارة وا لسكنى ، قَد غَدا القينَات (٦) المهنى ، والمَنارة ، والمُنى ، والخَيام الحُدود ، والأسرة (٧) والَستور(٨) ، والحلي واللباس والأفراح ، والأَعراس والرَّاحة والانشراح ،

(١) الزبرجد : حجر كريم يشبه الزمرد ، و هُو ذو ألوان كثيرة أشهرها الأخضر المصري و الأصفر القبرصي .

(٢) السف : اليابس الذي لا يعجن .

(٣) في الأصل [ملكوكها] .

(٤) في الأصل « يسد » .

(٥) سورة محمد الآية [٦] . (٦) القينات : جمع قَينة و هي المغنية .

(٧) الأسرة : جمع سرير و هُو ما يُجلس أو يضطجع عليه .

(٨) الستور : جمع سِتَار : و هُو ما يُستر به و ما يوضع عَلى نوافذ البيت و أبوابه حجباً للنظر .

والأبْكار والانْبطَاح [١] ، و الوِلْدان والخَدم الملاح ، والسَريات ، والأحرار والنَّاعمات الأبكار [٢] والزُوار / ، والمُنْشَآت الجوار في الأنهار ، وخَاطرات في كُل البَرَاري [٣] ، والفرح والسرور واللَذَّة ، والحبور [٤] ، وسَماع القينات ، والحُور ، ومَحْيَاة الرُوح والرَيْحان ، والنَّعيم بَيْنهم والرضوان ، ومن كُل مَا اشتَهت النُّفوس ، وتَمنتْ مَا لاَ عَين رَأت ولاَ أُذن سَمعت ، وأَعظم من ذَلك وأكَبر مَا لاَ يَخْطر عَلى قَلب بَشر ، جَعلنا اللَّه وإيَّاكم -برحمته- من أهْلها في عَافية -آمين- ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمد ، وآله وصَحبه ، وسَلم . ١/٣٨٧

وَ أمَّا الدار الأُخرى ، جَهنم العُظمى ، فإنَّها مُظْلمة سَوداء ، تَتَوقد نيران الغَضب وتَرمي بشَررها من كَثَرة اللهب ، ومَا ظَنُّكَ بدار تَعَمَّقَتْ [٥] من الرحمة ، وأخلاقَ زبانيتها وعُمَّارها القَسَاوة والغلظة ، وهَيْئة مَنَاظرها كُلها الكَراهة والوَحشة ، ولَيس تُوصف بشَيء ، إلاَّ وَهي أعْظم منه ، وإنَّما تَفْهم صفَاتها ، ومَا أعد اللَّه فيها بمُضَادها لدَار النَّعيم ، فَمَا هي من المُؤْنسَات في هَذه ، ضدها من المُوحَشات ، وهكذا الأضطداد كُلها ، فَاسْتَقر مَا ذكر في كُل وَاحدة منها ، وقس الوَاحدة بالآخرة ، عَلى اعْتبار الضد والمُخالفة .

نَسأل اللَّه الكَريم ، البَر الرَّحيم ، أنْ لاَ يَجْعلنا من أهْل النَّار ، وأن يَعتقنا منها بكَلمة التَّوحيد ، في عَافية شَاملة ، في الدنيا و الآخرة ، آمين وصَلى اَللَّه عَلى مُحمد وعَلى آله ، وسَلم .

---

(١) الانبطاح : الانبساط .

(٢) الأبكار جمع بكر و هي الفتيات التي لم تنفض عذريتهم .

(٣) البراري : جمع برية وهي الصحراء .

(٤) الحبور : سره و نعمه .

(٥) تعمقت : بعدت إلى أسفل .

الشُعبَة الثَّالثَة والسَّبعُون

الإيمَان بِالنَّظر إِلى وَجْه اللّه الكَريم/ ٣٨٧/ ب

أَمَّا كَونه من الإيمَان ، فإنَّ الإجْماع من أَهْل السنة والشرائع مُنْعقد [١] على الإيمَان بذَلَك ، وقَد نَطق القُرآن والأَحاديث الصَّحاح ، عَن النَّبي -ﷺ- فَوجَب الإيمَان به ، ولايُنكره إلاَّ أهل الزيغ ، والمَارقين من الدين ، قَال اللّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وُجُوه يَوْمَئِذ نَاضِرَةٌ ، إِلَى ربهاَ نَاظِرَةَ﴾ [٢] وقَال ﴿لِلَّذينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزيَادَة﴾ [٣] والزِيادَة هي النَّظر إلى وَجه اللَّه الكَريم ، وفي الصَّحيح عَن أَبي هُريرة ، أنَّ أُناساً قَالَوا : يَا رسَول اللَّه هل نرى ربنا يوم القيامة ، فقال رسول الله -ﷺ- «تمارون في القَمر لَيْلة البَدر ، لَيس دُونه سَحاب ، قَالوا : لاَ ، قَال : تُمارون في الشَمس لَيس دُونها سَحاب ، قَالوا : لاَ ، قَال : فَإنَّكم تَرونه كَذلك » [٤] وذَكر الحَديث .

و عن جَابر بن عَبْد اللّه ، قَال : كُنا جُلوساً عنْد رسُول اللّه -ﷺ- إذَ نَظر إلى القَمر ، لَيْلة البدر ، فَقال : « إنكَم سَترون ربَّكم عيَاناً ، كَما تَرون هَذا القَمرَ لاَ تُضَامون في رؤيته ، فإن اسْتَطعتم أنْ لاَ تغلبوا عَلى صَلاة قَبل طُلوع الشَّمس و قَبل غَروبها فافْعلوا » [٥] .

وعن أبي سعيد الخُدري قَال : قُلنا : يَا رسول اللّه هَل نرى [٦] رَبَّنا ؟

---

(١) زاد في الأصل [عليه] و هي زائدة .

(٢) سورة القيامة الآية [٢٢ ، ٢٣] . (٣) سورة يونس الآية [٢٦] .

(٤) صحيح : البخاري (١/ ٢٠٤) الترمذي (٢٥٤٩) .

(٥) صحيح : البخاري (٩/ ١٥٦) مسلم في صحيحه كتاب المساجد (١١) ، الترمذي (٢٥٥٤) ، ابن ماجة (١٧٧) ، أبو داود (٤٧٢٩) .

(٦) في الأصل « ترون » .

قَال : هَل تُضَامون في رؤُية الشَمس إِذَا كَان صَحواً ؟» الحديث .

و عَن ابْن عُـمر قَـال : قَال رسُـول اللّه -ﷺ- : « إنَّ أدْنى أَهْل الجنَّة مَنزلة، مَن يَنظر في مُلكه مَـسيـرة أَلف سنة ، وإنّ أكرَمـهم عَلى اللّه ، مَن يَنْظر إلى وَجهه غَدوة/ وعَشية»[١] ، وقَـرأ رسُول اللَّه -صلى اللّـه عليه وسَلم - ﴿ وُجُـوهٌ يَومئَذ نَاضـرَةٌ ، إِلَى رَبَّهاَ نَاظرةٌ ﴾[٢] والشَواهد عَلى ذَلك كَثيرة جداً ، ودَلائل ذلكَ في العُقول بَيِّنة فَإنَّ الأَفْعال دلَّت عَلى وجُود البَارئ تَعالى ، و ثبت أنَّه مَوجود حَق ، فَقَد رَآته العُقول بالعلم مَوجوداً بلا شَك ، كل مُوجَد صَح وثبت وجُـوده ، ولم يكُن عَدماً ، جَاز في العُقوَل رُؤيته بالبصَر ، العَدم الذي لاَ وُجـود لَه ، وقَد أَخبر البَاري -تعالى -ورسـوله عَليه السلام- ، برؤُيته بالبصَر ، فَوجب ظُهور ذَلك لاَ مَحالة ، وإِنَّما امْتَنَعت رؤيته بالأَبصْار في الدنَيا ، لضعفها عَن إدْراكه . ١/٣٨٨

ولذَلك قَال -عز وجل- : ﴿ لاَ تُدْرِكْهُ الأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَار ﴾[٣] إذ الإدراَك هُو الإحَاطة واللُّحُوق ، والضَعيف لاَ يُطيق القَوي العَظيم ، ولاَ يَلحق الغائب النزيه ، أنَّ الأَبْصار لضَعفها لاَ تلحق من الأشْياء المَحْسُوسة ، وإن دَقْت الأَشـياء وصَغرت إلاّ البَعض والجُزء ، ولاَ تَلحق الكُل لقُصـور حَاسة البَصر ، مثَال ذَلك أنَّ الدَّرهم أو الخرُّوبة [٤] مَثَلاً ، أَو أَقل منْهاَ أَو أَكْثر لاَ تُدركـه حَاسـة البَصـر منه إلاَّ جـهـة واحـدة ، إذَا أَطْلَقـهـا عَلَى المَرئي ، ويَغيب عَنها غَير ذَلك من هَذا الشيَء ، هذا ما يَصنَع في الأَشْياء الحقيرة ، وفيـهـا أَيْضاً وَصْفٌ آخرَ من الضَعف ، وذَلك أَنَّها لاَ تطيق حـمل الإشْعاع

---

(١) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٣١١) . الترمذي (٣٣٣٠) .

(٢) سورة القيامة [٢٢ ، ٢٣] .

(٣) سورة الأنعام الآية [١٠٣] .

(٤) الحرُّوبَة : في اصطلاح الصاغة : حبَّة الخَروب يوزن بها .

الكَثير والنُّور العَظيم/ ، مثَال ذَلك نُور البَرق الخَاطف ، والشَمس لَو أدامت النَّظر إليها ، لَطُمست من أجل ضَعفها ، ولاَ يرى مَا غَاب عَنها ، ويصَير البَاطن بخلاف ذَلك ، لأنَّها تَتَقلْقَل إلى بَاطن الشَيء وتُدركه بحَقائقه ، إذَا استقام النَّظر ، وتَرى بالاسْتدلال مَا غَاب بمَا حَضر ، فَإذَا كَانت الآخرةَ ، وقَويت الأبصار ، وكَانت أنوارها وقَوارها ، وإدْراكاتها من نَوع تلك الدَّار قَويت عَلى إدراك النُّور العَظيم ، فَإنَّ الأبْصار تكُون في الآخرة نَافذَة ، قَوية عَلى الإحَاطَة فيما أُطْلقتَ عليه ، كَنُفوذ البَصَائر وإحَاطَتها ، قَال للنبي -ﷺ- : « إنَّ أَدْنى أَهل الجَنَّة مَنْزلة ، لمَن يَنْظر إلى جَنَاته وأزْوَاجه ونعيمه وخَدمه وسُرُره ، مَسيرة ألف سنة ، يَرى أَقْصَاه كَما يَرى أَدْناه »(١) فَهَذا بَصره نافذ في الأسرَّة وجَميع المُلك ظَاهره وبَاطنه ، لاَ يَغيب عَنْه شَيء ، ويَسْتَوي عنْده القَريب والبَعيد ، بخلاف بَصر الدنيا ، لقوله -عليه السَلام- : « تَرى أَقْصَاه كَما تَرى أَدْنَاه » .

فصل

فَإذَا فَهمت مَا تَقَدم ، عَلمت أنَّ البَصر النافذ لاَ تَرى في جهة ، وقَد كَان النَّبي -ﷺ- لَمَّا دَخل الجَنَّة ، لَيْلة الإسراء ، ورأى الآيَات الكُبرى ، بما كُشف لَه من عَالم المَلكُوت والآخرة ، وجَعَل لَه من نُور تلك الدَّار في بَصره ، يَرى مَن خَلفه ، كَما يَرى مَن أمَامه ، فَثَبت عَنْه -عليه السلام- أنَّه ٣٧٢/ب
قَال : « أَتَرون هَا هِي قِبْلتي ، فَواللَّه مَا يَخفي عَلي رُكُوعكم ولاَ سُجُودكم ، وإنِّي لأَراكم مِن وَرَاء ظَهري »(٢) والبَصر القَاصر لاَ يَرى إلاّ من جهة ، والبَاري لاَ يُرى من جهة ، بل كَما يَعلَمه الآن ، لاَ في جهةَ ولاَ في حَد ، كَذَلك إذا كَملتَ الأَبصار في الآخرة ، تَراه إذَا تَجلى لَها لاَ يُجد ، ولاَ في جهة ، فَإنَّ

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) موطأ مالك [١٦٧] .

البَصر هُناك ، تَابع للعلم ، مَا أدْركه العلم ، وحَقيقة أدْركه البَصر ، وكَذلك ، وحَقيقة كَشف ، وَالبَارئ -سُبحانه- يُرى في الدنيا بالعلم ، ويُرى في الآخرة بالعلم والبَصر جَميعاً ، فَأعلى أهل الجنَّة مَنْزلة ونَعيماً ، وأكْثَرهم لَذَّةَ ، أكْثَرهم نظراً إلى اللّه ، وهُو النَّعيم الذي لا مثله نَعيم ، والنَّاس في ذَلك دَرجات ، عَلى قَدر نَظَرهم بعُلو منهم في الدنيَا إلى اللَّه ، والتفاتهم بالقُلوب إلى مَولاهم ، ورَغْبتَها في العَلم باللّه ، والإيثَار لَه ، والاشْتياق إلَيه ، والُمراقَبة لَه .

فَمن كَان قَلبه ونَظره مُعلقاً بالعلم باللّه، والُمراقبة لتَجليه ، كَان جَسَده وحَاسَّته ظاهرة تَابعاً لعلمه ، وبصَره تابعًا لبصيرته ، فَكان كثرة نعيمة في الآخرة برؤية مولاه الذي كان باطنه وظاهه معلقًا بالُمراقبة والإلْتفَات إلى مَولاه ، في دَار الدنيا ، وكَان أعظم هَمّه ، ورَغْبتَه في ذكر سَيده ، والاهْتمام به ، والعلم ، والخُروج والانقطاع من الأشياء إليْه ، وإلى بمُنَاجَاته / ، والحضور مَعه في الصَلاة ، وغَير ذَلك ، فَمن كَان كَذلك كَان ٣٨٩/ب
ثَوابه في الآخرة الاتصال بعليين ، والنَّظر إلى رب العَالمين ، وعَلى قَدر رَغبة العَبد في الشهوات ، والتَّمتع بالأمور الهَوائية وقلة [١] اهْتمامه ونَظَره بالخُروج من الهَوى إلى ربَّه ، يكُون نَظره إلى ربه في الآخرة ، عَلى قَدر مَا كَان التفَاته في الدنيا إليه ، ويكُون أكثَر زَمَانه في الآخرة ، إنْ كَان سَعيداً ، مُستَغرَقاً في التَّمتع بالحُور والقُصور ، وغَير ذَلك ، والكُل حَسَن ، وبَعضُه أحسن من بَعض .

وقَد بيَّن النَّبي -ﷺ- في الحَديث الُمتقدم ذكره حَيث قَال : « **إنَّ أدْنى أَهْل الجنَّة مَنزلة ، لَمَن يَنْظر إلى جَنْاته وأزْواجه ونَعيمَه ، وخَدمه وسرره ، مَسْيرة**

---

(١) في الأصل [قلت] .

أَلف سَنة ، وإنَّ أكرَمهم على اللَّه ، مَن يَنْظر إلى وَجهـه غُدوة وعَشية »[١] فَوصَف هَذا بالنَّظر إلى المُلْك ، وَ وَصف هَذا بالنَّظر إلى الملك ، والزيادة في الجنَّة لَها أَوْقَات ومَواسم ، وبَعْضها خُصوص عَلى قَدر أوقات الصلوات والجمعات ، والأعياد والمواسم ، وعلى الشُغل باللَّه وبغَيره ، والبَاري يَتَجلى في كُل مَرة يَراه أَوْلَياؤه ، فيها صفة من صَفَاته ، فمَرة بصَفات الكَمال ، ومرة بنعُوت الجَمال الكَمال ، وَأخرَى بمَحاسن الكمال ، ومَرة بأَوْصَاف الرَّحمة والحَنَان ، ومَرة بصفة الكَرام والامْتنان ، ومَرَّه بصفَة العلم ، وأُخرى بصفة الحلم ، هَكَذا أبَد الابدين ، ودَهر/ الدَّاهرين ، ١/٣٩٣ وأَسْمَاؤه وصفَاته لاَ تَتَناهى أَبَداً ، وتحدث بجَلية أَبداً ، في المُلك من الحَسَن والجَمال ، والنَّعيم والسرور والبَركة ، والنُّور والزيادة ، والخَيرات ، مَا لَمْ يكن قَبل ذَلك فيه .

فصل

فَعَلى هَذا يكُون نَعيم الجَنَّة عَلى ضَربين : روحاني وجُسماني .

الرّوحاني نَعيمه الفَرح والسرور ، والحَبور والتَلذُّذ بِرؤية اللَّه ورضَاه ، إلى غير ذَلك .

و الجسُماني التَّمتع بِالحُور والقُصور ، والمَأكُول والمَشْروب ، إِلى غير ذَلك مِن نَعيم الجنان .

وكَذلك عَذَاب جَهنم عَلى ضَربين : روحاني وجُسماني .

الروحاني عَذاب الحجاب عنْ الرَّب -جَل جَلاله- والنَّاس مِن لِقائه ورضَاه إلى غَير ذَلك .

(١) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٣١١) ، الترمذي (٣٣٣٠) .

والجسماني عَذَاب النَّار ، واخْتلاف أنْواع عَذاب جَهنم ، جَعلنا اللَّه وإيَّاكم من أهْل السَعادة ، وخَلَّدنا وإيَّاكم في مَحل الكَرامة ، ولاَ جعلَنا من أهل الشَّقَاوة ، وعَصَمنا من دخول جَهنم بِرَحْمَته ، آمين ، وصَلى اللَّه عَلى مُحمد .

فصل

كان -عليه السلام- إذا قفل [من السَفر] (١) يقـول « **الحمـد للَّه ، الذي هَدانا لِهذا ، ومَـا كُنا لِنَهْتَدي ، لَولا أن هَدانا اللَّه -اللهم أنْت الحَـامل عَلَى الظهر ، والخَليفة في الأهل والصَّـاحب في السفر** »(٢) فالمَعيَّة / المُصَاحَبة ، وبالإعْراض ٣٩٠/ب عَن اللَّه إلى غَيره ، تكُون المُفَارقة من المَعيَّة ، ألاَ تَسْمع إلى قَوله : ﴿ **أمْ لَهُمْ آلِهَة تَمْنَعُهُمْ مِن دُوننَا ، لاَ يَسْتَطيعُونَ نَصر** (٣) **أنْفُسِهِمْ ، وَ لاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ** ﴾(٣) إِله مَعبود ، فإذَا تألَّهَ القَلب لِغَير اللَّه فَارقه .

فصل

فإن قُلت : فَإنَّ المَعيَّة فيها بَعض إشْكال فمَا مَعْناها ؟

فاعلمْ أنَّ مَعنَاهَا تَبيَّن في حَديث الإحْسَان ، في قَول النَّبي -ﷺ- «**الإحْسَـان أن تَعْبُـد اللَّه كَـأنَّك تَراه ،فَـإن لم تَكُن تَراه ، فَـإنَّه يراك** » (٤) فَذكر الرَّؤية ، فيـهـا تكُون المَعيَّـة برؤية اللَّه ، -جَل جَلاله- في الدنيا بالمعَـرفة والعلم ، وكَذلك لاَ يُصاحبَ أحدٌ أحداً ، حَتى يكُون بَيْنَهما مَعْرفَة ورُؤْية فَمَا دَام القَلب عَالماً باللَّه ، نَاظراً بالمَعْرفة إليه ، زال حجاب الجَهل به ، وإذَا

---

(١) سقطت من الأصل .

(٢) إتحاف السادة المتقين (٤/ ٣٢٨) .

(٣) سورة الأنبياء الآية [٤٣] . وقد أخطأ الناسخ و كتب ﴿ لاَ يَسْتِطيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ .

(٤) صحيح : سبق تخريجه .

انْكَشَفَ الحجَاب ، حَصَلَت المَعْية فَرأى القَلب البَاري ، قَائماً بكُل شَيء محيطًا بكل شيء ، فيراه في كل شيء ، وبكل شيء أقْرب إلى كل شيء من نُفس كُل شَيء ، بقُرب لاَ يُشبه تَداني الذَّوات ، بَعْضهَا من بَعض ، لاَ بمُلاَمسَة ، ولاَ بمُماسَّة ، ولاَ بمُلاَصَقة ، بَل بقُرب الإحَاطة ، وإدْراك القَيُّومة ، وإمْسَاك الجُملة تَعظيم القَوة وعَزيز القُدرة ، و هُو في قُربه بَعيد من كُل شَيء ، لاَ يَبعُد المَسَافة والمُفاضَلة ، ولاَ تباعد الجد والمُفارقة ، بَل يبعد النَّزاهة ، الذي لَيس مثله في نَزَاهة/ النفوس نَزَاهة ، فَقَد ثَبت أنَّ المَعيَّة ١/٣٩١
للمُحسنينَ وإذا رآه العَبد وعَرفه ، أحبه الحب الكامل ، أحْبَه لذاته ، أي لأنَّه أهل أنَ يُحبَّ ، واللَّه يُحبُّ المُحسنينَ (١) ومن أحب شَيئاً أكْثر من ذكره ، واتَّقى أن يُحال دُونه ، وخَاف أن يَزُول عنْه أو يَفُوته وتَقْواه فوجبَ له تأكيد المَعيَّة ﴿ إنَ اللَّه مَع المُتَّقين ﴾ (٢) .

ومن أحبَّ شَيئاً صبر عَلْيه وبه ، « وَ اللَّه مَعَ الصَّابرينَ » (٣) فَصبْرُه يُؤكد المَعيَّة ، وهكذا أنْواع المَقَامات الإحْسَانية ، فَحينئذ يَكُون بَاطن المُحسن وَجَهاً عَلى قَفا ، عَلى سُنَّة إبْراهيم الحَنَيف ، حَيَث قَال : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ للَّذي فَطَرَ السَّموات وَ الأَرْض حَنيفًا ﴾ (٤) أيْ مَائلاً عَن الجملة إليه ، فَحينئذ يَجْد مَولاه في كُل شَيء ، حَيث مَا أحبَّ ، وتَذكَّرَهُ في كُل شَيء ، بكل شَيء ، ويُؤثر ذكره عَلى ذكر كُل شَيء ، قَال اللَّه -جَل جَلاله- في تَحقيق ذَلك ، هَذه المَعيَة المذكُورة : « أنَا مَع عَبْدي مَا ذَكَرني، وحَيث مَا طَلبني وَجدني» (٥) لأنَّه يراه في كُل شَيء ، فَلا يُفَارقه في شَيء ، وقَال -عَز

(١) سورة آل عمران الآية [١٣٤] .

(٢) سورة البقرة الآية [١٩٤] .

(٣) سورة البقرة الآية [٢٤٩] .

(٤) سورة الأنعام الآية [٧٩] .

(٥) أحمد (٢/ ٥٤٠) .

وجَلّ- : ﴿ ومَا تكون في شأن و مَا تتلو منه من قُرآن ، ولاَ تَعْمَلون من عَمل ، إلاَّ كُنَّا علَيْكُم شُهوداً إذ تُفيضون فيه ﴾ وقَال « إنِّي لأَطَّلعُ عَلى قَلب عَبد ، فَأَجد الغَالب عَلَيه ذِكري ، إلاَّ كُنت سَمعه الذي يَسْمع به ، وبَصَره الذي يُبْصر به ، ويَده ٣٩١/ب التِي يَبطش بِها ، ورجلِه التِي يمَشي عَليها ...... الحديث إلى آخره ، فَهَذا »/ .

معنى المَعيَّة الإحسَانية ، و الصحبة الربانية ، فمن كان هنا مع مولاه ، كان في العُقبى مع مولاه ، مُؤثراً له عَلى كُل شَيء ، لأنَّه لَيس كمثله شَيء ، و يكُون ما أعطي من نعيم الجنَّة من شكله و مثله ، فلا يكون شَيء من مملكاته إلا مذكراً بمن ليس كمثله شَيء ، لأنَّ للآخرة جزاء على الأعمال والأحوال ، ﴿ جزاَ وَفاقاً ﴾(١) كما قال -عَز وجَلّ- : ﴿ من جاءَ بِالْحَسَنَة فلَهُ عَشرُ أمثالها ﴾(٢) فَالمثلية فيِ المجاز مُستقَاة فيِ كُل شَيء .

(١) سورة النبأ : الآية (٢٦) .

(٢) سورة الأنعام : الآية (١٦٠) .

زيادة بيان

اعلمْ أنَّه قَد أمر اللَّه العباد بالمعرفة به والعلم والعمل والعبادة له ، وأمرهم أن يَتوجهوا له ، وأنَ يُريدوا وجهه ، بكُل حَركة وسكون ، فإذَا كان العبد كَذَلك ، كان جَزاؤه عَلى حركاته وسكَناته كُلها كَذلك ، فَيرى اَللَّه في كُل شَيء ، كَما كان مُتَوجهاً له في كُل شَيء ، لأنَّه عَلى مِثل وصَفه ﴿سيَجْزِيهمْ وَصْفَهُمْ إنَّه حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(١) .

فصل

فَلَّما كان العامل والعابد ، والعالم والذاكر ، إنّما يَطلب من اللَّه ، ولا يَطلب اللَّه ، كان جزاؤه مَوقوفاً على مثل طَلَبه ، والمقربون طلبوا الجار قبل الدار ، وأصحاب اليمين طَلَبوا الجار قَبل الدَّار ، فَلذلَك اخْتلفت أحْوال الخَلق ، ونظرهم، ونعيمهم .

فصل

فإنْ قُلت : و كيف لا يحجب الأشياء ، إذا كان العَبد فِيها / عند اللَّه . ٣٩٢/أ

فاعلمْ أنَّه كَمَا يَكُون العَامل هُنا والعَابد والذاكر مُتَلبساً بالعَمل والعبادة، والذكر ، ويخرج بقَلبه عن النَّظر والالتفات إليها ، فَيَغيب بالمعْبود في اَلعبادة ، وبالمَعْمول له عنَ العَمل ، وبالمذكُور عن الذكر ، وبالرّكُوع له ، والسَجود له ، عن الركوع والسجود ، وهُو مُلابس لذلك كُله ، مُتَنَعم بذكره وعبَادته لَمَوْلاَه ، كَذلَك يكُون فيِ العُقبى جُوزيَ المثل بالمثل ، وهَذا لاَ إشْكَال فيه ، ولا سيما من أكثر عَمله فيِ الدنيا ، المُسيَر بِباطنه في

(١) سورة الأنعام : الآية [١٣٩] .

المَعْلومات والمَعقولات ، والنَّظر والاستدلال بالبراهين والآيات ، فَلَيس شَيء من الأشياء إلا وهُو دَليل له على اللَّه غير قاطع له عن الله ، فإذا لاح له جمال الله وجَلاَله في كُل شَيء رَغْبَته ، فآثره على كُل شيء ، فَالذي له في الدُنيا بالمَعنى ، يكون له في الآخرة بالكَشف والعَيان ، فَاحرص أَن تكُون ذَاتك البَاطنة وَجهاً بلاَ قفا ، وَمن كَان باطنه وجهاً بلا قفا ، لم يَنظر إلى موجده في جهة ، ولاَ يَتَوجه إليه ، إلى جهة دُون جهَة ، فإنه منزه مقدس عن أن يُطلَب في الجهات رَفيع ، منيع عن إَلحاقه لخَواطر الأوهام ، وتَنْبيه بالإشارات عزيز قَوي ، قيد كل شَيء مخلوق ، وَجَبرهُ وقَهر كُل عَقل/ ٣٩٢/ب
عَرف الكُل قَدره ، فلا يَقدر أحد أن يَتعدى حده وطوره [١] ، فَالوجوه في توجهها خاضعة [٢] ، والبَصائر في نَظرها إليه خاسئة [٣] خاسرة كلَّت وعَجزَت عن الإحاطة به الفهوم والعُلُوم ﴿ وَعنتِ الْوُجُوهُ لِلْحَي القيوم﴾ [٤] .

فصل

فإنْ قلت : قَد تَبيَّن لي أن بالمعرفة والعلم يُرىٰ اللَّه في الدنيا ، ويُرى بها في الآخرة ، عَلى الكَشَف والعَيان ، وطريَق المعَرفة صَعب .

فاعلمْ أنَّه هين يَسير عَلى من يَسَّره اللَّه له ، والطريق إلى اللَّه أسهل وأهون مما يتوهمه الجاهلون ، فَطَريقها أيْسر من طَريق الدنيا ، واتباع الهَوى بأضْعَاف كَثيرة ، واتباع الهَوى هُو الصَّاد عن سَبيل العِلم والمَعرفة باللَّه فَقط .

---

(١) طوره : جاوز حده وقدرته .

(٢) خاضعة : راضية بالذل .

(٣) خاسئة : ذليلة خاضعة .

(٤) سورة طه : الآية [١١١] .

فصل

اعلمْ أن الهَوى عَلى ضَربين ، هَوىً عَقلي ، وهي الآراء المُجردة التي ضَل بها الخَلق ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ ومَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبعَ هَوَاهُ ﴾(١) ﴿وإنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهوَائِهِمْ ﴾(٢) .

و هَوى نَفساني الحاجب عن طريق اللَّه ، والهَوى مُشتَّق من قَولك : هَوى الرَّجل ، يَهوى ، هَوىً ، إذَا أَحبَّ ، والحبُّ عَلى ضَربين ، كَما تَقدم في الهَوى ، لأنَّه حُب عَقلي ، وهُو الاستحسان الرأي ، فَهَوى العَقل وَحُبه استحسانه .

وحُب نَفْسَاني ، وهُو إرادة الشَيء المُستَحسن المُشْتَهى ، فَإذَا اسْتَحكم الهَوى ضَل المُتَّصف به ، وذَهب في كُل مَذهب ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَيَاطِين فِي الأَرضِ حَيْران ﴾(٣) أيْ ذَهَبت به في كُل مَذهب فصار حَيران ، أيْ ضَل ، وإذَا ضَل تَردى (٤) في المَهَاوي (٥)/ الهاوية (٦) ، ١/٣٩٣ لأنَّ لفظ الهَوى يُعطي ذَلكَ ، يَقُول : هَوى الرَّجل ، يَهوى ، هَوىً ، وهَوياً، ومنه الهاوية ، ويَقول : تَهاوت النَّاقة براكبها ، إذَا أَهْوت بها وتَردَت ، وَكُل مَن ضَل أو كَفر ، أو زَاغَ أو مَات قَلبه ، فَإنَّما ضَل بالهَوى العَقْلي والنَّفسي ، فكُل من استحسن شَيئاً بعقله وهَويهُ بقلبه اتَّبعه واتَّخذَه إلهاً مِن دُون اللَّه ، وفي الخَبر : « الهَوى إِله مَعْبود » وَلم يَبق شَيء مِن

(١) سورة القصص : الآية [٥٠] .

(٢) سورة الأنعام : الآية [١١٩] .

(٣) سورة الأنعام : الآية [٧١] .

(٤) تَرَدَّى : سقط .

(٥) المهاوي : الذلات و الذنوب و المعاصي .

(٦) الهَاوية : الشهوات التي تستهويه و في القُرآن : ﴿ أفرَأيْتَ مَن اتَّخذ إلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ .

المَخلوقات إلاَّ وقد عُبدَ من دُون اللَّه ، وأصلُ ذلك ما ذَكرت لَك .

فصل

طَريق الهُدى والمَعرفة غَير طَريق الهَوى والضَلال ، فأول ذَلك ، والأصل المُعول[١] عليه الذي لاَ بُد منه ، والمُصَاحب لكل وَجه من وجُوه الهُدى ، والخَير طَلب الهُدَى من اللَّهَ -عَز وجَلّ- فإنَّهَ لاَ هَادي سَواه ، ألاَ تَرى إلى قَول إمام المُهتْدين ، إبراهيم الخَليل حين نَظَر وفكَر واستَدل على بَارئه ، فَقَال في استصحَاب نَظَره في الأصنَام ، ثم في الكَواكب ، ثم في القمر ، ثم في الشَمس ، ثم في الجُملَة ، ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[٢] فَإذا حصَّل العَبد هَذا وعَول عليه ، فإنَّ الهُدى يكُون بأشياء ، منها النَّظر والتَّدبر والفكر في شَيْئين ، وهُمَا الوُجُود كُله ، والاسْتدلالَ به عَلى موجده ، والوحي الذَي هُو في نَفسه هُدىً ، والوَحي هُو الكتَاب والسنة ، التي هي حَديث النَّبيَ -عليه السلام- لأنَّه مَا يَنْطق عَن الهَوىَ ، إنْ هُو إلاَّوحي يُوحى ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- في حُصول الهُدى
٣٩٣/ب بَعد النَّظر/ في المَخلوقات في قصة إبراهيم : ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ، قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾[٣] .

وقَال في الوَحي : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٤] ومن أسباب الهُدى ، اتَّباع الهَادي مُحمد -عليه السلام- عَلى طَريقه .

(١) المعول عليه : اعتمد ، و اتكل عليه .
(٢) سورة الأنعام : الآية [٧٧] .
(٣) سورة الأنعام : الآية [٨٠] .
(٤) سورة الشورى : الآية [٥٢] .

قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾ (١) وقال : ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ (٢) ومن أسباب الهُدى إسلام شَارح للصَدر ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّه أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ (٣) وعَلامة الشَرح ذكرها رسُول اللَّه ﷺ قَال : « إنَّ النُّور إذَا وَقع في القلب ، انشَرح له الصَدر ، وسئل وَهَل لذَلك من عَلامة ، قَال : نَعم ، التَّجافي (٤) عَن دَار الغُرور (٥) ، والإنَابَة إلى دَار الخُلود ، والتَّأهب (٦) للمَوت قَبل نُزول المَوت » (٧) وهَذه أسبَاب الهُدى ، وتَنَوْر العُقول والقُلوب بأنوار اللَّه بلاَ شَك ، ومن أسْبَاب الهُدى ، إيمَان بصدق ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّه يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (٨) وهَذا شَرطَ شَرطه اللَّه بكَرمه عَلى نَفْسه ، فَقوله : ﴿ وَمَن يُؤمن بِاللَّه﴾ شَرط ، وَجَوابه فَعل الهَدَى ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ ، والشرط مع المَشْروط ، ومن أسَباب الهُدى التَّقوى ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ الم * ذَلِكَ الكتَابُ لاَ رَيْبَ فيه ، هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٩) وقال ﴿ إنْ تَتَّقُوا اللَّه يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ (١٠) والقُرآن هُو النُور الذي يَمشي به في الظُلمات ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّه ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّه ﴾ (١١) .

ومن أسباب تَرك الفُسوق قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : / ﴿ واللَّه لاَ يَهْدِي ٣٩٤/أ

(١) سورة الشورى : الآية [٥٣] .

(٢) سورة النور : الآية [٥٤] .

(٣) سورة الأنعام : الآية [١٢٥] .

(٤) التجافي : البُعد .

(٥) دار الغُرور : الدنيا .

(٦) التأهب : الاستعداد .

(٧) الحاكم (٤/ ٣١١) ، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٤) .

(٨) سورة التغابن : الآية [١١] .

(٩) سورة البقرة : الآية [١ ، ٢] .

(١٠) سورة الأنفال : الآية [٢٩] .

(١١) سورة البقرة : الآية [٢٨٢] .

الْقَوْمَ الْفَاسِقِين ﴾ [١] ﴿ يُضِل بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً، ومَا يُضلُ بِه إلاَّ الْفَاسقِين﴾[٢] ومن أسباب الصبر على ما أمر به العَبد ، وعن ما نُهي عَنه ، وما قُضي عَلى العَبد ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَبَشرِ الصَّابِرينَ * الَّذينَ إِذَا أَصَابتهُم مصيبة قَالُوا إنّا للَّه ، وَ إنّا إِلَيْه رَاجعُونَ ﴾ ثم قَال ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ من ربِّهِم وَرَحْمَةٌ ، وأُولَئِكَ هُمُ الْمُهتَدُونَ ﴾ [٣] فخصصهم بالهُدى ، ومن أسْبابه ، خَوف الزَيغ ، والتضرع في طَلب الهُدى ، والثَبات عَلْيه في كُل وَقت ، قَال اللَّه في سُورة الحمد التي [٤] يتلوها العَبد ، آناء الليل وأطراف النَّهار ، في مُفروضاته ونوافله ، ﴿ اهدنا الصّراط المُستَقيم﴾ [٥] وقال مادحاً للراسخين ، أولي الألباب في قَولهم بالخَوف : ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [٦] ومن أسبابه الاعتصام باللَّه والكتاب والسُنة ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَمَن يَعْتَصِمْ بالله فَقَدْ هُدَيَ إلى صِرَاط مُسْتَقيم ﴾[٧] والعَصمة والاعتصام مَأخوذ من الاتباع والتمتع ، ﴿ واللَّهُ يَعْصِمُك مِنَ النَّاس﴾[٨] ، ﴿سَآوِي إِلي جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء ﴾[٩] .

ومن أسْبَابه الألفة والاجتماع عَلى الحَق وتَرك الفُرقة والبدعة وذكر اللَّه ونعمه ، وشكره عَلى نعَمه كُلها ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَاعتَصِمُوا بِحبْلِ اللَّه جَميعاً ... الآية ﴾[١٠] إلى قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِه لَعَلَّكُم

(١) سورة المائدة : الآية [١٠٨] .

(٢) سورة البقرة : الآية [٢٦] .

(٣) سورة البقرة : الآية [١٥٥ : ١٥٧] .

(٤) في الأصل « الذي » .

(٥) سورة الفاتحة : الآية [٦] .

(٦) سورة آل عمران : الآية [٨] .

(٧) سورة آل عمران : الآية [١٠١] .

(٨) سورة المائدة : الآية [٦٧] .

(٩) سورة هود : الآية [٤٣] .

(١٠) سورة آل عمران : الآية [١٠٣] .

تهتدُون ﴾ ومن أسبابه الرِّضى عن اللَّه ، واتباع رضوانه ، قَال اللَّه / -عَز ٣٩٤/ب
وجَلّ- : ﴿ قَد جَاءكم من اللَّه نُورٌ وكتَابٌ مبين * يَهْدي به اللَّهُ مَن اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَلاَم ، ويُخْرجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بإِذْنه ، ويَهْديهم إلى صراط مُسْتَقيم ﴾[١] ومن أسْبابه تَرك الظُّلم ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وإنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدي الْقَومَ الظَّالمين ﴾[٢] ومن أسبابه تَرك العَوائد المُضرة ، والتقليدات المُضلة ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَ إِذَا قِيل لَهُم : اتَّبعُوا مَا أَنْزلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدنَا علَيْه آبَائنا ﴾[٣] ﴿ أوَ لَوْ كَان أَبَاؤُهُم لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً ولاَ يَهْتَدُون﴾[٤] ، و من أسبَابه الإنابة[٥] إلى اللَّه -عز وجل- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُضلُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهدي إليه مَن أَناب ﴾[٦] أي مَن أناب إليه ، والإنَابة حقيقة التَّوبة ، والرُّجوع إلى اللَّه .

ومن أسبابه المُجاهدة للنّفس والعدو ، ظَاهراً و بَاطنا في اللَّه ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَ الَّذينَ جَاهَدُوا فينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[٧] ومع الهداية تكون المعية الإحسانية ، كما خبرتنا الآية في قوله : ﴿ وإنَّ اللَّه لَمعَ المُحسنين ﴾[٨] ومن أسبابه العَدل والحُكم بالحق ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ فَاحكُمْ بَيْنَ النَّاس بالحَقّ ﴾[٩] ﴿ وَلاَ تُشْططْ ، واهْدنَا إلى سَوَاء الصِّرَاط ﴾[١٠] ومن أسْبَابه الصدق ، والاقتصاد ، والإمعَان ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهدي مَن هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّاب﴾[١١]

---

(١) سورة المائدة : الآية [١٥ : ١٦] . (٢) سورة الأنعام : الآية [١٤٤] .
(٣) سورة لقمان : الآية [٢٠] . (٤) سورة المائدة : الآية [١٠٤] .
(٤) الإنابة : الرجوع إلى اللَّه مرة بعد مرة والتوبة إليه .
(٥) سورة الرعد : الآية [٢٧] . (٦) سورة العنكبوت : الآية [٦٩] .
(٧) سورة العنكبوت : الآية [٦٩] . (٨) سورة ص : الآية [٢٦] .
(٩) سورة ص : الآية [٢٢] .
(١٠) الإمعان : الجدُّ ، يُقَال أمعن في الأمر : جدَّ فيه و أمعن النظر فيه .
(١١) سورة غافر : الآية [٢٨] .

و﴿ مُسرف مُرتاب ﴾(١) ومن أسْبابه تَرك أسْباب الضَلال كُلها ، وهى أَضْداد أَسْبَابه الهُدى ، والهُروب والتَّطهر منها ، مثل السَرف (٢) والكَذب ، والشَك واستحباب العَمى عَلى الهُدى والجور (٣) والصَد عن سَبيل الخَير ، ومَنْ
١/٣٩٥ صَدَّ صُدَّ / ، والفسق ، والظُلم وأعدادها كَثيرة ، ومن أسبابها التَّصديق بالآيات ، والقَدر والكَرامات ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ إنَّ الَّذينَ لاَ يُؤْمنُونَ بَآيَات اللَّه ، لاَ يَهْديهم اللَّهُ وَ لَهُمْ ﴾(٤) ومن أسبَابه الاقتداء بالأئمة المُهتدين ، الأولياء الرَاغبين إلى اللَّه -عز وجل- وإلى الدَّار الآخرةَ ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وقَالَ الَّذي آمَنَ يا قَوْمي اتَّبعُوني أَهْدكُمْ سَبيلَ الرَّشَاد﴾(٥) .

ومن أسباب الضلال ، والعَمى عَن الهُدى ، اتباع أضْداد الأئمة الرَّاغبين إلى اللَّه مثل الفراعنة الجَبَّارين ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾(٦) ، ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرعَونَ برَشيد ﴾(٧) وآل فرعون مَن تَفرعن وتَجَبر ، ودَعا إلى نَفْسه وتَعْظيمه بالحَالّ والمَعْنى ، وإنْ ادَّعَى الإسْلام ، ومن أسباب الضَلال ، والعَمى عَن الهُدى ، اتباع شيَاطين الإنس والجن ، وقَبول زُخرف القَول ، والوَساوس منهم ، قَال -عز وجل- : ﴿ومِنْ النَاسِ مَنْ يُجَادلُ في اللَّه بغَيْر علْم ، وَيَتَّبعُ كُلَّ شَيْطَان مَريد * كُتبَ عَلَيْه أَنَّهُ مَنْ تولاهُ ، فَأَنَّهُ يُضلهُ ويَهْديه إِلى عَذَابِ السَّعير ﴾(٨) ومن أسبَابه ترك

(١) سورة غافر : الآية [٣٤] .

(٢) السرف : مجاوزة الحَد .

(٣) الجور : الميل و العدول عن الحق والظلم في الحُكم .

(٤) سورة النحل : الآية [١٠٤] .

(٥) سورة غافر : الآية [٣٨] .

(٦) سورة طه : الآية [٧٩] .

(٧) سورة هود : الآية [٩٧] .

(٨) سورة الحج : الآية [٣، ٤] .

الإكْبَاب[١] عَلَى غَير اللَّه ، وتَرك التَّوجه إلى الخَسيس[٢] الفاني[٣] ، ورَفع الهَمَّة إلى اللَّه - عَز وجَل - هي الاسْتقَامَة ، قَالَ اللَّهُ - عَز وجَل - : ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٤] ، ومن أسْبَابه النَّظر والاعْتبَار في مَصْنُوعَات الجَبَّار ، وَجَوَلان الأفكَار في كُل شَيء ، وأنَّ المَوجودَات كُلَها / هي آياتُ اللَّه ، ودَلائله الدَّالة عَليه ، الهَادية لمَن اسْتَهْدَاهَا إلى اللَّه ، قَالَ اللَّهُ - عَز وجَل - : ﴿إِنَّ فِي[٥] السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ...﴾[٦] إلى قَوله : ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾[٧] فأخبر أنَّها آيات ، وقَال : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ .... إلى قوله .... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٨] وقَال ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾[٩] فَجَعل يَسرد الآيات ، فَذكر الأنعام ومَا فيها من الآيات ، والخَيل ، والبغَال ، والحَمير ، إلى قَوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١٠] ثم سَرَدَ ذكر المَاء ومـا أنبت به ، والليل والنَّهار ، والشمس والقَمر ، والنُجوم ، الألوَان المختلفة ، والبحَار وحيوانه ، ومَنَافعه ، والفُلك الجَارية ، والرياح والجبَال والأنهار ، والطرق الهَادية والعَلامات والنجوم ، ٣٩٥/ب

---

(١) الإكباب : الإقبال عليه والشغل به .

(٢) الخسيس : التافه القليل القدر .

(٣) الفاني : الذي باد وانتهى وجوده .

(٤) سورة المُلك : الآية [٢٢] .

(٥) زاد في الأصل كلمة « خَلْق » وهُو خطأ .

(٦) سورة الجاثية : الآية [٣، ٤] .

(٧) سورة الجاثية : الآية [٦] .

(٨) سورة الزخرف : الآية [٩، ١٠] .

(٩) سورة النحل : الآية [٣، ٤] .

(١٠) سورة النحل : الآية [٩] .

ثم ذكر الهداية بها وبالآيات ، وذكر في أثناء الآيات أنها للعقلاء ، ولأهل الفكر والذكر ، وقال في غير ما آية من القرآن عند ذكر المخلوقات إنها آيات لقوم يسمعون، ولأولي الأبصار ، ولأولي الألباب ، والحجر[(١)] والنُّهى[(٢)]، واليقين ، وغير ذلك مما يكثر تعداده ، يدل بذلك كله على نفسه، ومدح المتذكرين والمتفكرين ، والعالمين والعاملين ، والناظرين في
١/٣٩٦ المخلوقات ، وفي مدحهم بذلك ، ذمّ لمن لم يتفكر ولا تذكر ولا نظر/ وشبّههم بالدواب والأنعام ، فقال : ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عندَ اللَّه الصمُّ البُكمُ الَّذينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[(٣)] ومثله كثير ، وقال في الآية الجامعة لجميع الأشياء ، التي لا يشذ عنها شيء، دق أو صغر ، من البعوضة والذرة إلى ما فوقها من المخلوقات ، والملك والملكوت ، فقال : ﴿ أَوَلَم يَنْظرُوا في مَلَكُوت السَّموات وَالأرضِ ومَا خَلَقَ منْ شَيء﴾[(٤)] فأمر بإطلاق النظر في كل شيء ، فهذا هو الوجود كله ، أمر اللَّه وحسَّ على النظر والفكر فيه، وقال في النظر في آيات الوحيى : ﴿كتابٌ أنزلْنَاهُ إلَيْكَ مُباركاً ليَدَّبَّروا آياته وليَتَذَكَّر أُولُو الألْباب ﴾[(٥)] ﴿ أَفَلاَ يَتدَبَّرُونَ الْقُرآنَ ، أم على قُلُوب أَقْفَالها ﴾[(٦)] فقد تبيَّن مما ذكرنا ، أن اللَّه قد أمر بالفهم والتذكر ، والتدبر والنظر ، وهي أسباب الهداية ، فأولئك الخيرةُ أن يكون من أهل العقل والفهم والمعرفة ، والذكر والحياة الطيِّبة ، فقد فتح اللَّه الأبواب والطرق البادية إليه ، على عدد كل شيء ، أو بترك ذلك فتكون حماراً أبداً ، تحمل الأسفار، ولا ترى ما فيها ، و.ميتاً تمشي بحياتك

---

(١) الحجْر : العقل وفي القرآن الكريم : ﴿ هَلْ في ذَلكَ قَسَمٌ لِذي حِجْر﴾ .

(٢) النُّهى : العُقول .

(٣) سورة الأنفال : الآية [٢٢] .

(٤) سورة الأعراف : الآية [١٨٥] .

(٥) سورة ص : الآية [٢٩] .

(٦) سورة مُحمد : الآية [٢٤] .

الجسمانية ، تَظُن أنَّك حَي ، وأنت ميت الباطن ، أعمى ، أصم ، أبكم ، وأنت تَتَقلب في الآيات الناطقة ، لا تَراها ، ولاَ تسمع ، ولاَ تنطق بحُكمه ، وتنطق بالقُرآن ، ولا يجاوز حَنَاجرك ، لأنَّك لا تسمع إلاَّ الأصوات ، ولاَ تَرَى إلا الحُروف/ وكَذَلك تَرى عَجَائب المَخلُوقات بحَاسَة ٣٩٦/ب
رَأسك ، ولاَ ترى ما فيها من الآيات ﴿ وَكَأَيِّن مِن آيَةٍ في السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُم عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾(١) .

فصل

فقد تَبَيَّن مما جلينا ، أن اللَّه يوجد ويُرى في كُل شَيء ، وبكُل شَيء ، وفي كُل عَمل صَالح ، فإنَّ آيات اللَّه أكْثر من جواهر العالم ، وأغراضهم أضعافاً مُضاعفة ، لأنَّ في كُل شيء جوهر وعرض ، وجسم آيات لا تُحصى ، فَاستعن بالله يُعنك ، واطلب مَولاَك بِصدق تَجْدَه حَسَبَ مَا أحبَبت .

قَال اللَّه -عَز وجَلّ- فيما روي عنه « أنَا مَع عَبْدِي مَا ذَكَرني ، وحَيْثُ مَا طَلَبَني عَبْدي وَجَدني »(٢) فَإذَا كُنت كَذلك ، كُنت وَجهاً بلا قفا ، وصَحت لك المعية الإحسانية ، بعون اللَّه وهدايته ، واطلب مولاك وسافر إليه سفر الرُّوحَانيين ، واقتد بأبيك إبراهيم الخَليل -عليه السلام- متكلا على توفيقه وهدايته ، ألاَ تراه -عَليه السلام- كيف قال مخبراً لقومه عن سفره إلى ربه لعلهم يهتدون به ، ﴿ وَقَالَ إنِي ذَاهِبٌ إلَى رَبِّي سَيَهْدين ﴾(٣) فإياك تفهم من هذا السفر والذهاب قطع المسافات الجسمانية ، فالموت أقرب إليك ، وإلى كُل موجود منك إليك ، وإلى كل موجود ، فَيرتقي فِي عَالم

(١) سورة يوسف : الآية [١٠٥] .

(٢) أحمد(٢/ ٥٤٠) ، إتحاف السادة المتقين (٣/ ١٤٢) ، السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٤٩) .

(٣) سورة الصافات : الآية [٩٩] .

الخَيَال، و آفاق[١] الوهم، والظن الكاذب الزلال، وانظر بالأدب والوَقار، فإنَّ مَن لم يَتَأدب في نَظره بالآداب، سُدت في وَجهه/ الأَبواب، ١/٣٩٧
ورُد إلى سياسة الدَّواب، وقَد ذَمَّ اللَّه عنْدنَا فرعَون بسُوء النَّظر الوَهْمي، والخَيال، والظَن الكَاذب الجُسماني، فَقَالَ: «**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلى أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَاب السَّمَوات فَأَطَّلِع إلى إِلَه مُوسى وإِنِّي لأَظُنُّهُ**»[٢] فانْظُر ما أَجْهَلَه، ومَا أجفاه[٣]، ومَا أَبْلَدَ قَلبَه[٤]، وأَسْوَأَ أحواله، وعَماه، جهَله الخَيال والوَهم والحُسْبَان، والفَرعنة، والطغيان عَلى طَلَب اللَّه، بالطُّلُوع في البُنْيَان فَهو إمام المخُسئين، ومن يَتَوهم أنَّ اللَّه جَالس في السَماء من المُتجبلين، ورأس كَل جَاف، قَليلُ في الأَدَب من المُتكَبرينَ، وقَد أَحْسَنَ العَارف، حَيْث قَال - في ذَم الوَهَم والظَّن، حَيْث يقول:

تاه الخلائق في عمياء مظلمة ولم يعرفوا غير الإشارات
بالظن والهم نحو الخلق مطلبهم إلى الهوى يناجون السموات
والرب بينهم في كل منقلب محل حالاتهم في كل ساعات
ما أنْ خلو منه طرف عين لو عقلوا ولا خلا منهم في كل أوقات

جَعَلنا اللَّه وإيَّاكم مِن أَهْل السَعادة آمين.

---

(١) الآفاق: النواحي.
(٢) سورة غافر: الآية [٣٦، ٣٧].
(٣) أجفاه: أبعده.
(٤) أبلد: فتر في العمل وقصر فيه.

الشُعبَة الرّابِعَة وسَبعُون
إماطَة(١) الأذَى عَنْ الطريق

أمَّا كَونها من شُعب الايمَان / فإنَّه نَصٌ في الحَديث المروي في شُعب ٣٩٧/ب الإيمَان ، قَال النَّبي – عليْه السلام – : « الإيمَان بِضْع وسَبْعُون شُعبَة ، أعْلاَها شَهادة أنْ لاَ إِله إلاَّ اللَّه ، وأدْنَاها إمَاطَة الأذى عنْ الطريق » (٢) .

وهَذا لفظ يَحْتَمل الظواهر والبَواطن ، لعُموم لَفْظ الطريق ، ظَاهراً وبَاطناً ، إذْ الطريق يُطلَق عَلى مَحَجة الأقْدَام(٣) ، وعَلى طَريق الإسْلاَم ، وطَريق السُلوك إلى اللَّه – جَل جَلاله – فَإمَاطة الأذى عَنْ الطريق الظاهر كَإمَاطة شَوكة ، وحَجر مُؤذ ، ونَجَاسة وجيفة (٤) مُنْتنَة ، وكُل مَا فيه أذَى للمُسْلمين ، فإنَّ إزالة ذَلك عَنْ طريق المُسْلمين ، بنية صَالحة ، عَمل صَالح ، وفي الخَبر : «بيْنَما رَجُل يَمْشِي ، إذْ وَجَد غُصن شَوك ، فَأزَالَه عَنْ طَريق المُسْلمِين ، فَشكر اللَّه لَه ، فَغفَر لَه » .

وَرَوت عَائشَة –رَضى اللَّه عَنْها – أنَّ رسُول اللَّه ﷺ قال : « إنَّ اللَّه خَلق كُل إنْسَان مَن بِني آدم عَلى ستِّين وثلاثمائة مفْصَل ، فَمن كَبر اللَّه، وحَمد اللَّه ، وهَلَّل اللَّه ، وسبح اللَّه ، واسْتَغْفَر اللَّه ، عدد تلك السِّتين والثلاثُمائة السُّلامى فإنَّه يَمشي يَومَئذ وقَد زَحْزحَ نَفْسَه عَنْ النَّار » (٥) . مَن أصْلَح طَريق

---

(١) إماطة الأذى : نحَّاه و أبعده .

(٢) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الإيمان (٥٧) النسائي (٨/ ١١٠) .

(٣) المحجة : الطريق المُستقيم .

(٤) الجيفة : جثة الميت إذا أنتنت .

(٥) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الزكاة (٥٤) .

المسْلمين وسَهْلَه ، وأماط عَنْه المُؤْذيَات بنية صَالحَةَ ، شكر اللَّه لَه ذَلك ، فَلا يُحقرَ العَبد شَيئاً منْ فعل الخَير ، فإنَّه لاَ يَدري بمَا يَغْفر لَه ، ومَن قَطع طَريق
٣٩٨/أ المُسلمين / وأذاهُم بوضع النجَاسَات والمُؤْذيَات فيه ، فَقَد عَرَّض نَفْسَه للهَلاك ، ومَن إمَاطة الأذَى عَنْ الطَرَيق أيْضاً في الظاهر ، إزَالَة القَاذُورَات ، و فُضول الشَعر والأظْفَار من جَسد ابْن آدم ، وتَطْهر السبيلين والجَوارح من الأوْسَاخ ، فإنَّ ذَلك كُله أذَى ، ودَاخل في عُموم الحَديث ، قَد ورَد أيْضاً في الحَديث ، رَوى سَلمان بنْ عَامر ، قَال : سَمعْت رسُول اللَّه ﷺ يَقُول : « مَع الغُلام عَقيقته ، فَأَهْريقوا عَنْه دماً وأَميطُوا عَنْه الأَذى » (١) .

فَتَطهُر طُرق الجَوارح في الجَسد التي هي طُرق الطاعَات ، وتَطهر جَوانحه وتَراجمه من إماطَة الأذَى ، وذَلكَ كله منْ الفطرة ، التي رَغَّب الشَرع فيها ، ومن ذَلكَ السواك في الفَم ، فإنَّ الفَم طَريق لذكْر اللَّه ، وتلاوة كَتابه ، فَتُنَطقه لجري ذكْر اللَّه مَن ذَلك ، وفي الخَبر « السواك مَطْهَرة للْفَم ، مَرضَاة للرب» .

وأمَّا البَاطن ، فإنَّ الطريق هُو صراط الإسْلاَم ، والدِّين ، وقَد أحْدَث أهْل الأهْواء والمُبْتَدعة بأرائهم ذَلك المُؤْذيَات ، مَا يضر بأهْل الدين ، فوَاجب عَلى العَبد إمَاطة ذَلك وتَغيره والتحذير وكَشْف وَاضحَات الطريق عَلى مَن خَفي عَلَيْه ، وإزَالَة كُل مُؤذ للعَبد وللدين ، ولأهَل الدين ، في سَبيل المُسلمين ، ومَن هذا أيْضاً إزَالَة المُؤْذيات في سَبيل السُلوك ، والقَصد إلى اللَّه ، فَإن للشيَاطين فيْه مُؤْذيَات كَثيرَة بالوَسَاوس وتَلْبيس الطرق ، كَمَا أخْبر
٣٩٨/ب اللَّه عَنْ عَدُوه / وعَدُونا إبْليس فَقَال : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(٢) .

وهَذا نَص عَلى أنَّ الشيْطَان قَعد وَسَط الصراط المُسْتَقيم ، لإذَاية الخَلْق

(١) الترمذي : (١٥١٥) ، أحمد (١٨٤) ، الطبراني في معجمه الكبير (٦/ ٣٣٦) .

(١) سورة الأعراف : الآية [١٦] .

للسالكين عليْه ، ولقَطْعهم بمُؤْذيات عَن سُلوكها ، فَقَد عَمَّ هَذا المعنى جَميع الظواهر والبَواطن ، والعُلو والسفل ، إذْ أعْلى مَا في شُعب الإيمَان التَّوحيد ، فإذَا قُلت : لاَ إلَه إلاَّ اللَّه ، وإنَّها مَجْمُوعة من نَفي ، وإثبات النفي إمَاطة الشرك النجس كُله ، فقولُك : « لاَ إلَه » نَفْي وتَطْهير ، وإمَاطة الشرك ، والإذَاية كُلها .

﴿إنَّما المُشْرِكُونَ نَجسٌ﴾ (١) ﴿إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّه وَرَسُولَهُ﴾ (٢) .

وكذلك كل كلمة وكل عمل ، ظاهراً وباطناً ، أو كل حَسَن مُرْتبط ، بضدّه من القَبيح ، وكُل طَيب لَه ضد من الخَبيث ، وكُل سُنة خلاَفَها بدعة ، وعَلى كُل سَبيل شَيْطَان مُؤْذ ، فَوَجَب إمَاطة الأذَى عَن كُل طَريق ظَاهر وبَاطن ، يُؤذي المَنْهي في طَريقَ الأقدْام وطُرق الديَانَات ، والقَصد إلى اللَّه ، والنَّص الجَلي الذي لاَ شَك فيه في إمَاطة الأذَى عَن طَريق السلوك ، قَوله -عَز وجَل- : ﴿أولَئكَ الَّذينَ لَمْ يُرد اللَّهُ أنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ (٣) ﴿خُذْ مِنْ أمْوَالِهِمْ صَدَقَة تُطَهِّرهُمْ﴾ (٤) .

وإنَّمَا أرَادَ تطهيرهم منَ المُهْلكَات ، وأوْسَاخ المُوبقَات(٥) ، كَما قَال النبي -عليْه السلام- « ثَلاثٌ مُهْلِكَات ، وثَلاثٌ مُنْجِيَات » .

ثم فَسَّر المُهْلكَات والمؤذيَات فَقَال : « شُحٌ مُطَاع وهَوى مُتَّبع ، وإعْجاب كُل ذِي رَأي بِرَأيه » (٥) فكُلَّمَا نَهى اللَّه عَنْه ورَسُوله ، ظَاهراً وبَاطناً ، فَهُو

---

(١) سورة التوبة : الآية [٢٨] .

(٢) سورة الأحزاب : الآية [٥٧] .

(٣) سورة المائدة : الآية [٤١] .

(٤) سورة التوبة : الآية [١٠٣] . (٥) الموبقات : الكبائر من المعاصي لأنهن مُهلكات .

(٦) الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٠) وقَال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة ومن لا يعرف .

مُهْلك ومُؤْذ ، وكُل مَا أمر اللَّه ورَسُوله به ، ظَاهراً وبَاطناً ، فَهُو مُنَح ،
١/٣٩٩ فَالْمأمُور به / ضد المَنهي عَنْه ، والعَبد مَحل الأمر والنَّهي ، فَوجب عليه إمَاطة الأذى عَنْ ذَاته التي هي المَحل ظَاهراً وبَاطناً ، ويُطَهِّرها ، فإنَّه مَأمور بالسلوك الذي هُو التَّقرب إلى مَولاَه ، والمَنّهي عَنْه مُعْتَرض لَه في طَرِيقه ، وقَاطعٌ لَه ، فَإنْ ارْتكبَه وَجلٌ بذَاته فعْلاً كَان ، أو صفَة حَبَسَه عن السلوك والنُّهوض ، والقَصد إلى مَولاَه ولاَ يَصلح لمجَاورة الطَاهر القَدوس ولاَ يَصل إلى مَولاه ولا يَقْدر عَلى التَّقرب منه ، مَادام ذَلك القَاطع المؤْذي في ذَاته ، فَلْيَنْظر العَبد في ذَاته ، ولْيُمط عَنها المُؤْذيات والمُهْلكَات ، فَحينئذ يَسْبَح بَاطنَه سَبْحاً ، ويَجْري جَرياً ، ويَسْبق سَبقاً ، ويَهشُ هَشّاً بالسبق ، والتبتلَ[١] إلى مَولاَه ، قَال اللَّه - عَز وجل - لنَبيه مُحمد - عليْه السلاَم - : « **وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ ، وَتَبتلْ إلَيْه تَبْتيلاً** »[٢] أي انْقَطع إليْه انْقطَاعاً بَعد أنْ طهره ، ونَظَفَهُ من جَميع المؤذيات ، حين شَقَّ قَلبَه وشَرح صَدرَه ، وأخرج منه العَلقَة ، التي هي حَظُ الشيْطان .

وقَال جبريل : « هَذَا حَظُّ الشيطَان منكَ ياحَبيب اللَّه » وتلك العَلقَة في حَق كل عَبْده ، هي أمْ العَلاَئق المُتعَلقة بالإنْسَان » قَد أُمر بقَطعها ، وإخْراجها بالإمَاطة والتطهير ، وَحُبَ الدنيا المَذْمومة رَأس كُل خَطيئة ، فَلا علاج أنْفع في إمَاطتَها من قَطع الرأس ، فإنَّ الرأسَ إذَا قُطع لَمْ تَنْطق الأطْرافَ ، ومَتى
٣٩٩/ب قُطعت الأطْراف ، وبَقي الرَّأس ، نَشَأَت الأطراف التي هي الفُروع/ وعَادَت ، فَافْهم .

فإن حُب الدنيا[٣] هي طَلب الحَياة ، الدُنيوي ، والمَال المَطلوب للنَّفس

---

(١) في الأصل : « المسيب » كما رسمت .

(٢) سورة المزمل : الآية [٨] .

(٣) في الأصل « الذي » .

ولدَّ[١] الإباق[٢] عَن اللَّه ، والإقْبَال عَلى غَيره ، وولَّدَ[٣] طَلب الكبر ، وطَلب الرئاسَة ، والتَّفَاخر والتكَاثر ، و الإعْجَاب ، والطُغْيان ، والتَّطاول عَلى الإخْوان وغَيرهم ، والمرْآة ، والتزين والشح ، والعجب ، واتباع الهوى ، والكفر ، والشرك ، والفُجور ، والضلال ، والخُسران ، والجَهل ، والغَفْلة ، وعَمى القُلوب ، والصمم ، والحيلة ، والخداع ، والغش ، والكَذب ، والفَسَاد والإفْساد ، والسَفَه[٤] والاسْتهْزَاء ، والإبَاية ، والعنَاد ، والقَطيعَة ، والدَّعوىَ ، والظلم ، والجُور[٥].

والبغي ، والحَسَد ، والإضْرار ، وكُفر النِّعم ، والجُحُود ونَقص العُهود والإلْبَاس ، والتَّدْليس ، والغَضب والسخَط ، والجَهل ، والقَسْوة والنِّسْيَان ، والعُدْوَان ، والحرص ، والغُرور والخيَانة ، والجبن ، والإسَاءة والحَرج ، والغَضب ، والمُكَابرَة والعَجَلة ، ومَوت القلب ، والنوم له والطمعَ ، وقَفْر القَلب[٦] والكَسَل ، والزيْغ والبدْعة ، والنفَاق ، والشقَاق ، والغَضب ، والحَمية ، والتقْليد ، وغَير ذَلك مما يكثر جَلْبه وتعْدَاده ، ويَكْفيكَ منْ معْرفه ذَلك ، فَصل وَاحد أَصف لَك فِيه جَميع المُهلكَات والمُنْجيَات ، وَالقَاطعَات والمُقربَات .

وذَلك أن تَعرض النفس عَلى القُرآن والسنة وأقْوَال الصَّحَابة وعُلماء الآخرة منْ بَعْدهم فَإذَا قَرأت القُرآن والسُنَّة فَانْظُر مَا ذُكر فيه/ منْ أمر مأمُور ١/٤٠٠

---

(١) في الأصل « وولدا » .

(٢) الإباق : الهروب .

(٣) في الأصل « وولدا » .

(٤) السفه : اساءة التصرف .

(٥) الجور : العدول عن القصد ، و الظلم في الحكم .

(٦) فقر القلب : خلاؤه .

[به] (١) فإنَّه يَقُول لَك : انْظر إنْ كَان أنْتَ هكَذا ، أوْ عَلى غَيْر هَذا الوَصف ، وكَذلك كُل قَصص أو خَبَر أوْ مَثَل ، ورَد في أوْصَاف القُرون الخَالية ، من مَدح أو ذَم ، إنَّما هُو يُذْكر لَكَ عَلَى هَذَا الوجه الذي ذَكَرت لك ، وكَذلك السنة ، فَلا تَمر بك كلمة وَاحدة من القُرآن ، والسُنَّة ، وأقْوَال العُلماء المرضيين ، إلاَّ وَهِيَ لَكَ آمرَة أو زاجرة (٢) .

فَانْظر كَثْرة المُؤذيَات وعُمومَها ، قَد أحَاطَت بالإنْسَان ، وتَعلَّقَت به ، وجَذبَته إلى البُعد ، وقَطعَته عَن مَوْلاَه ، وهُو لاَ يَشْعر ، ومَتى سَعى في قَطع رَذيلَة وَاحدة من تلْكَ الرَّذَائل ، بصْدقه حَتى يُزيلهَا بالكُلية من أصَلها ، يُرجى لَه أن تَزَلْزلَتَ كُلها ، فإنَّها مُتَعلقة بَعْضهَا ببَعْض ، لاَ سيما إذَا قَطع المُهْلَك وصَار كَأنه منح يتَنافر الضَّدان كَالليْل والنَّهار ، قَال اللَّه - عَز وجل - : ﴿ إنَّ الحَسَنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ (٣) .

وقال - عز وجل - : ﴿ وَالَّذينَ جَاهَدُوا فينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٤) فَمُقْتَضى مَعْنى هَذه الآية ، أنَّ السبيل لاَ يُهتدى إليه ، إلاَّ بَعد المجاهدة ، والمجاهدة لا تكون إلا لقَاطع مُؤذ مُعْتَرض في الطريق ، ومَادَام القَاطع والسَبيل غَير ظَاهر ، ومُوَصِّل إلى المعيَّة الإحْسَانية ، التي خَتَم بها الآية في قوله : ﴿ إنَّ اللَّه لَمَعَ/ المحْسْنينَ ﴾ (٥) والإحْسَان أنْ تَعبُد اللَّه كَأنَّك تَراه ، لأنَّ السبيل (٦) قَد طُهِّر ، والمَقْصُود فيه - سُبحانه - مُتَلق عَبده بكُل نَوع من أنْوَاع البشْر والإكْرام ، فيه مَنْ تَقَرَّب ، تَقربْت منْه شبراً ومَن تقرب مني شبراً ، تَقَرَّبتُ

٤٠٠/ب

---

(١) زياده يقتضيها السياق .

(٢) زاجرة : مانعه وناهية .

(٣) سورة هود : الآية [١١٤] .

(٤) سورة العنكبوت : الآية [٦٩] .

(٥) سورة العنكبوت : الآية [٦٩] .

(٦) السبيل : الطريق .

إليْه ذراعاً ، ومَن تَقرب مني ذرَاعاً ، تَقرَّبت إليْه بَاعاً [١] ومَنْ أتَاني يَمْشي أتَيْتُه هَرولَة ، إنَّ هَذا لَهُو الفَضْلُ العَظيم ، والبر الجَسِيم ، والوَصف والخُلق الكَريم .

فصل

قال النبَّي - عليْه السلام - «الإيمَان بِضع وسَبْعُون شُعْبَة ، أَفْضَلُها قَول : لاَ إله إلاَّ اللَّه ، وأَدْنَاها إمَاطَة الأذَى عنْ الطَريق » [٢] .

فَقَوله « أدْنَاهَا » أي أقْربُها إليْكُم ، لأنَّ الإيمَان لَيس فيه شَئ دَنيء ، إنَّما هُو من القُرب ، من قَوله - عَز وجَل - «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » [٣] .

أي أقْرب ، فَنَبَّه النبَّي -عليْه السلام- عَلى أنَّ الابْتداء يَكُون بالإمَاطة ، لأنَّ القَواطع والمُؤذيات من صفَات الأنْفُس ومُشْتَهَيَاتُها ، فأول الأَشْيَاء التطهر من المؤذيات ، لأنها مانعَة من السلوك في الطريق ، وكَذَلك المُؤْذيات أيْضاً في الطرق المَحْسُوسَات ، إذَا مُنعَت أول مَا يَجبُ إزَالَتها ، فَينفَتح الطريق ، ويَصلْحُ المشي فِيها ، ويكُون أَيْضاً أدْنَى ، في قَولَه « أدْنَاهَا إمَاطَة الأذَى » .

أي لَيس شَيء أقْرب وأعْون عَلى الدنو ، والتَّقَرب من إمَاطة الأذى عَنْ طَريق اللّه ، لأنَّ الإنْسَان قَدْ يكُون مُستهيناً / في طَاعة من طَاعَات اللَّه ، ١/٤٠١ وهُو غَير مُطَهَّر من المُؤْذيات القَائمة بذَاته ، فَلا يجد رِيحَ القُرب ، ولاَ كَشْف المُشَاهَدة ، لاَ عَلى الأحْوال معَ اللَّه تَعالَى - وإنَّما مَنَعه من ذَلك عَدم إمَاطَة الأذَى القَائم بِذاته فَإنْ تَرك إمَاطة الأذَى ، وكَثْرة المُؤذيات والمُهْلكَات بذَاته ،

(١) الباع : مسافة بين الكفين إذا انبسطت الذراعان يمينًا وشمالاً .

(٢) صحيح : سبق تخريجه أول الشعبة .

(٣) سورة النجم : الآية [٩] .

نكسته (١) وأذلته ، ووضعته حتى ربما يعبد الأشياء ، وذل لها فصار عبداً لها، وملكاً مملوكاً ، بعد أن كان مالكاً لها ، ومتصرفاً منها ، بالخلافة ، التي استخلفه الله فيها ، فقلب الحكمة وعكس الأمر لأن الله خلقه في أحسن تقويم ، فصار في أسفل سافلين ، بالذل للأشياء ، والتعبد لها وحكم الخليقة والملك أن تكون الأشياء معظمة له ، وتحت ملكه وقدره ، قال الله ، - عز وجل - دالاً لمن قلب الحكمة في هذا المعنى : ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ﴾ (٢) حين ابتغيتم إلهاً من العبيد الفقراء ، المخلوقين المضطرين ، وتركتم إله العالمين وسيد الخلق أجمعين ، الذي لا يقدر قدره ولا يداني عزه وشرفه ، والذي ينبغي أن تهتر (٣) وتهتش (٤) ذوات العالمين أجمعين طرباً ، وتطير فرحاً من أجل أن كان ربها على ما هو عليه من العظمة وشرف الرتبة ، وجلالة القدر والسيادة ثم نبههم على معنى آخر ، و هو خساسة القدر (٥) ، وقلة الهمة فقال :
٤٠١/ب ﴿أغير الله / أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ﴾ (٦) كيف قلبتم الحكمة [ولقد](٧) جعلكم الله خلفاً على العالمين ، وفضلكم عليهم ، وملككم إياهم ، وخلقها ، من أجلكم ولكم ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه ﴾ (٨) فرددتم الأعلى أسفل ،والأسفل أعلى فكذلك قيل ليس شيء أهون على الله من الدنيا ، وأهون منها قلب ملكته واستعبده

(١١٣) نكسته : جعل أعلاه أسفله أو مقدمه مؤخره .

(١١٤) سورة الأعراف : الآية [١٣٨] .

(١١٥) تهتر : تفتن .

(١١٦) تهتش : تنشرح صدورها سروراً به .

(١١٧) حساسة : حقارة وذلة .

(١١٨) سورة الأعراف : الآية [١٤٠] .

(١١٩) سقطت من الأصل .

(١٢٠) سورة الجاثية : الآية [١٣] .

لَهَا ، وكَذَلك عْند اسْتَعباد عَبد لعَبد ، كَيْف بموْلاه ، وملك اسْتُعْبد لعَبده ، وملكهُ ، قَال اللَّه - عَز وجَل - ﴿ **جعَلَكُم مُلُوكاً وآتاكُمْ مَالَمْ يُؤت أَحداً من الْعَالَمين** ﴾ (١) وقال : ﴿ **هُوَ الَّذي جعَلَكُمْ خَلائف الأَرْض** ﴾ (٢) وقال النَّبي ﷺ « **إنَّ اللَّه خَلَقَ آدمَ في صورَته** » وفي حَديث آخر « **على صُورة الرَّحمن** » (٣) وكَذَلك بنوه ، ولَيْس مَعْناه الصُورة الجُسْمَانيه ، فَتَعالى اللَّه عَن شَبَه الخليقة ، وإنَّما المَعنى مَا قَدَّمت لَك من الخلافة ، فإنَّ اللَّه خَلقَ الأَشْياء منْ أَجْل بَني آدَم ، وهُم المُلوك فيها ، في الدنيَا والآخرة ، فَمثَال ذَلك في عَالم الدُنيا ، أنّ البَاري -تَبارك وتَعالَى - هُو ربُّ العَالمين ، وسَيد الخَلق أجْمعين يتَصرف في مُلكه بالتَّدبر والصنع ، ووَضْع الأَشْيَاء مَواضعها ، فَاسْتَخْلَفَ بني آدم في الأَرَض ، بما فيها منْ جَميع الأَشْيَاء ، وسَخَّر لَهُم جَميع العُلويَات / والسفْليات ، لينْظر أيشَكر فَيَعْبد شُكر المَاء أوْلاَه ، أو ٤٠٣/أ يكفر فَيَقلب الحكْمة ، فَيتَعبد لمن مَلَكه إياه ، فكَان هُو الخَليفة فيها ، وجَعل عَالم الحَيوان كُله ، عَلى أربَع قَوائم محساً ، لَيركَب عَلَيْه بالخلاَفة ، ولَيكُون مَالكًا لهُ .

وكَذَلك غَيره من المَخلوقات من نَبات وجواهر ومعادن وأرض وبحر وغَير ذلك ، وأمره بالاستواء عليه كما قال : ﴿ **ألم نَجْعَل** (٤) **الأَرْضَ مِهَاداً** ﴾ (٥) ، ﴿ **وذَلُولاً** ﴾ (٦) ﴿ **وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلاً لَعَلَكُم تَهْتَدُونَ** ﴾ (٧) ثم يَسبق

---

(١) سورة المائدة : الآية [٢٠] . (٢) سورة فاطر : الآية [٣٩] .

(٣) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (١١٥) ، كتاب الجنة (٢٨) ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١١/ ٣) ، أحمد (٢/ ٢٤٤) .

(٤) في الأصل : ﴿ و جعل لكم ﴾ وهُو تصحيف .

(٥) سورة النبأ : الآية [٦] .

(٦) سورة المُلك : الآية [١٥] .

(٧) سورة الزخرف : الآية [١٠] .

يَسبق هَذا المَعنى إلى قَوله : ﴿ وَ جَعَلَ لَكُمْ من الفُلْك وَ الأَنْعَام مَا تَركَبُونَ * لتَسْتَوُوا عَلى ظُهوره ثُم تذكروا نعْمَة رَبكُمْ إذَا استَويْتُمْ عَلَيْه ، وَ تقُولُوا سُبحَانَ الَّذي سَخر لَنَا هَذَا ، ومَا كُنَّا لَه مقرنين ﴾[١] ، إذ جَعلَنا عَلى صُورته ، وَ وَصَفنا بوَصْفه ، إذ مَلكَنا الأشياء كَما هُو الملك لَها ، وسَخرها[٢] لَنَا كما هي المُسَخَّرَة له ، فَإذا فهمت هذا ، تَبين لك معنى قَوله -عليه السلام- : « إنَّ اللَّه خَلَقَ آدَم عَلى صورته »[٣] ولم يَبق فيه مثقال ذرة من الإشكال ، و[إن][٤] كنت من الرَّاسخين .

فإنَّ اللَّه خلق آدم منتصب القامة ، لئلا يذل لغيره ، ولا يركع ولا يسجد [إلا][٥] له وكما كان الحيوان مخلوقا وغيره على صورة السخرة ، والذله ، لايَسْتطيع أن يكُون مُنتصباً مرتفعاً ، كابن آدم ، فقد
٤٠٣/ب استوى عليهما بالخلافة ، بالعلو والسيادة ، والقهر ، و الملك لها كما/ أن الباري -تعالى- مُستو عَلى عرشه وملكه بالعلو ، والرُّتبة والسيادة ، و القهر والغلبة ، ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، يُفَصِّلُ الآيَات ﴾[٦] وكذلك ابن آدم قد استَوى بالخلافة عَلى ما استخلف فيه ، وحضر بالعقل المُدبر لأمور المصالح والمماليك ، وأمر بالفكر والتذكر ، والتدبر في العالَم كُله ، ظاهراً وباطناً ، وخلق زوجه على صورة من البسط ، لا يقبل على مكان دُون مكان كما أن الباري لا يقبل على مكان دون مكان فيتدبر ويتصرف بذاته الباطنة في عمله

---

(١) سورة الزخرف : الآية [١٢ ، ١٣] .

(٢) سخرها لنا : ما يقوم لنا بالأعمال طوعاً دون اعتراض أو إبَاء بلا أجر و لا ثمن من إنسان وحيوان ودابة .

(٣) سبق تخريجه و هُو صحيح .

(٤) زيادة على الأصل يقتضيها السياق .

(٥) زيادة عَلى الأصل يقتضيها السياق .

(٦) سورة الرعد : الآية [٢] .

في كل مكان من العالم ، ليظهر تدبره وسياسته في الملك ، على حسب ما أمره المستخلف له -سبحانه- ، وأمره أن يكون على صورته -سبحانه- في التدبر والملك ، لا أن يغلب الحكمة ، فتفسد ، أو يكون عبداً لها ، فقد استبان لك معنى قول النبي ﷺ : « إنَّ اللَّه خَلَقَ آدمَ عَلى صَورته »(١) وأما الرواية الأخرى « إن الله خلق آدم على صورة الرحمن »، فَإن اللَّه -عَز وجَلّ- استوى على عَرشه ، الذي هُو ملكه كله بصفة الرحمة ، كما قال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(٢) ﴿ ثمَّ اسْتَوَى عَلَى العرشِ ﴾(٣) فلم ير الخلق الخليقة منه إلا اللطف والرحمة والفضل ، وهنيء العَيْش ، والإكرام لسعة رحمته التي اقتضاها بسم الرحمن -جَل جَلاله- ، فمَن عصاه، واستكبر
١/٤٠٣ عليه وادعى ما ليس له/ أن يدعي ، انحاز إلى غيره في زعمه ، وتأبى عن طاعة مولاه الحق ، فتركه -سُبحانه- مع ما ادعاه مرتكبًا في هواه عنه وعن العالمين ، فكان ذلك خروجًا منه عن العبودية ، وخروجًا عن ملك مالكه فانحاز عن الرحمة العامة ، الشاملة لملك اللَّه ، والخير الصرف العام لجميع العالمين ، ويأتي من الاستواء بالرحمة عليه ، فوجب طرده وقتله ، وعَذَابه وإهلاكه ، وعلى كل من اطمئن إليه من المخلوقات، وينسب إليه شيئاً من الإلوهية ، فتسلطت عليه الأشياء ، حين ترك مع ما ادعى من النسبة إليها، حين نسب إليها ما لا يليق ، فغضبت عليه أزلاً وأبداً، حين ظلمها ظلماً أزليًا ، لقطعه عليها بما لا يجب لها ،أو تسلطت عليه وقتاً ما بمقدار العصيان ، قل أو كثر ، فَهذا سبب العذاب في الوجود ، والهلاك والشر كلَه، ولو بقي على ما أريد منه،كان غريقاً في الرحمة مع جميع عباد اللَّه ، لكنه قلب الحكمة ، فصير العبد رباً ، وفي الخِلافة الفاضل مفضولاً ،

(١) سبق تخريجه .

(٢) سورة طه : الآية [٥] .

(٣) سورة يونس : الآية [٣] .

وكذلك أمر ابن ادم أن يستوي في خلافته على ما استخلف فيه بصفة الرحمة، وينظر إليها بعين الرفق، ويُدبرها كما أمره الشرع، وحد له المستخلف، و لا يكون جباراً عنيداً، و لا شيطاناً مريداً، فإن شذ شيء
٤٠٣/ب وهرب/ وعَصى مما استخلف فيه كسائر المؤذيات للخلفاء، في هذا العالم، من الشياطين والحيات والسباع والنافرات، وغير ذلك من كُل آبق، فقد سلط الخلفاء عليه، بالعقر والقتل، والخزي إلى غير ذلك من أنواع الحُكم فيكون خليفة حاكماً على صورة المستخلف له فيه، فافهم معنى قوله -عليه السلام- « **خلق آدَم عَلى صُورته**»(١) لم يستعبد الأشياء، و ارتفعت همته إلى المستخلف له إلى عليين، وتصرف روحه في الملأ الأعلى بلا مسافة لبروحته، وارتفعت صورة جسده قائماً على الأشياء، كما خلق قائماً، ولم يحن ظهره راكعاً وساجداً، لسؤال الملك الحق، وأنه قد أعطى انحناء اختيارين، ولم يجعل كالأشياء التي انحناؤها ضرورياً، لاَ يَسْتطيع أن ينقلب عن صورتها، لأنها تحت لابن آدم، وابن آدم علا عليها، فإذَا أراد أن ينحني انحناء، وخَضَع (٢) لمالكه، وإذا أراد أن يرتفع عن الانحناء للأشياء ارتفع، وإذا أراد أن ينحني عليها انحناء الرحمة، وحنو العطف، ضاع له ذلك، كما ينزل مستخلفه إليه، من صفات العظمة والجلال، إلى صفات الرَّحمة واللطف والحنان، فيميل عليها بجسده ويتنزل إليها، ويَنحني بذاته الباطنة، وينزل بالحلم والعدل والرحَمة والفضل، فافهم
٤٠٤/أ فهمك اللَّه، فليس بعد هذا البيان بيان فيما أحسب / إن شاء اللَّه، فأمط عنك المؤذيات القاطعات لك عن السلوك إلى مَولاك، فإن الطريق إليه أقرب من طرفة العين، لأنه ليس بينك وبينه واسطة، ولا رفع عليك أحد من خلقه، لأنك خليفة، فأنت تحت، وهُو عليك، وغَيرك تحت لك،

(١) سبق تخريجه .

(٢) خضع : مال و انحنى ورضي بالذل .

فأي مسافة بينك وبينه وإنَّما قطعتك القواطع ، ونكستك المؤذيات ، فهذا أقرب طريق إليه ، وأقصده ، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ (١) وإنَّما جار ما جارعن الطريق القصد ، المبلغ في أيسر مدة ، بترك إماطة الأذى عن الطريق ، كما تقدم ، وليس ينال الوصول إليه -جَل جَلاله- بكثرة اجتهاد في الأعمال مع ترك الإماطة ، لأنَّها أوساخ وخبائث (٢) ، وبعيدة عن أوصاف البعيد القدوس ، النزيه عنها ، وإنَّما منه التطهر منها ، لأنه الطاهر ، وإذا تطهر فقد اتصف بما أمره ، من التخلق بأوصافه المحدثة التي أوجدها عن معاني أوصافه القديمة ، وليس بينها وبينها حجاب ، لأنَّها فائضة ومَوجُودة عنها وبابها ، كالطهارة عن الظاهر والتقدس عن القدوس ، و العلم عن العليم ، والجود عن الكريم وهكذا كل صفة ظاهرة ، طريق مُبلغ في أَسرع [من] (٣) طرفة العين ، إلى من فاضت عن أوصافه ، ألاَ ترى إلى قوله -في القُرآن الكَريم- : ﴿ يس * وَالْقُرآنِ الحَكيمِ/ * إِنَّكَ لَمِنَ المُرسَلينَ * على صِرَاطٍ مُستَقيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزيزِ الرَّحيمِ ﴾ (٤) فنص بأن تنزيل هو الصراط المستقيم، والقرآن نزل من عند اللَّه ، و هُو الجامع لِمعَاني الأسماء والصفات . ٤٠٤/ب

فَمَن اتَّبعَه وصله إلى من يُنزل من عنده ، أيْ كلمة أحدث منه واتبعتها قادتك إليه ، فأول الخلق اقتداء مُحمد -عليه السلام- عَمل به كله ، وأوصلته كل كلمة منه إلى الغاية القصوى (٥) من القُرب ، وفي اقتدائه بكُل آية منه ، ترك أثراً فيِ الوُجود ، فكل أثر صِرَاطَ مُستَقيم ، و هِي سُنته المسَنونة

(١) سورة النحل : الآية [٩] .

(٢) خبائث : جمع خبيثة يقال : خبث الشيء صار رديئاً مكروهاً .

(٣) زيادة على الأصل يقتضيها السياق .

(٤) سورة يس الآيات [١ : ٥] .

(٥) القصوى : البعيدة .

ظاهراً و باطناً ، والأثر والسنن هو الصراط ، فافهم ، والسنن في اللغة هو الطريق ، وكذلك الشارع هو الطريق ، والأثر ، وعليه قعدت الشياطين الأنسية والجنية ، لتضل عن سبيل اللَّه ، فلا يصدنك قاطع ، ولا مؤذ عن اتباع الرسول في الظاهر والباطن ، فإنَّ باطنه هو المطهر المنزه المقدس ، المبعد عن كل خلق ، يضاد المعاني الفائضة عن أوصاف القُدوس -سُبحانه- وفي الحديث : « **كَان خُلُقه القُرآن** »[1] وكذلك ظاهره منزه عن اتباع الهوى ، والآراء الفاسدة ، والبدع المُضلة ، لأنَّه إنما اتبع ما شرع له وَحد فضل ، فكان واصلاً إلى اللَّه في كُل حَركة ، تُحرك في أسرع من طرفة ، حتى لقد قطع في ليلة واحدة في سيره ، فيِّ الأسرار ظاهراً وباطناً ، كُل مسافة ،
١/٤٠٥ وطوى في مسراه/ البُعد كله ، و القُرب أجمعه حتى خطى رقاب الكون كله ، إلى حضرة الجليل في مقامات معارج[2] المتقربين ، السالكين ، فافهم .

وتقرب إليه بجميع أنواع ما شاهد من عباده العابدين ، قولا ونيةً ، وعَقداً وعلماً ، وعَمَلاً ظَاهراً وباطنًا ، فشاهد مراتب العالم ، كُل له مقام معلوم ، ليس من النهضة والقوة ، أن يجوز ويتخطى ذلك المقام ، الذي هُو فيه ، إنَّما يمد كل أحد في مقامه ، فنهض هو -عليه السلام- في كُل مَقام ، وهابه كل من فيه ، ولذلك كان إماماً للكُل فيه ، فاقتد به جهدك ، بمن هُو عَلى منهاجه من الصحابة والصديقين ، والعلماء الراسخين ، الذين رَسَخوا في العلم ، والعَمل به ، والاقتداء بسُنة النَّبي ، ظاهراً وباطناً ، وبأحواله ومقامَات قلبه وروحه ، وعقله بَاطناً ، ولا تظنن أن هذا عسير[3] ، بَل يسير

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) المعارج : جمع معراج وهو السُلَّم أو المِصْعَد ، و القصد أن يرتقي بالطاعات إلى حضرة ربه .

(٣) عسير : صَعَب وَاشْتَدَّ .

لمن يسره اللَّه له ، وإنَّما ذلك بالإماطة كما تقدم فأمط الأذى عن ظاهرك وباطنك ، تصل بلا كلفة (١) ، فَهو القصد المُبلغ .

قَال النَّبي -عليه السلام- : « القَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا »(٢) فَنص أن بالقصد يبلغ ، وإن أبيت أن تميط الأذى عن ذاتك ، بقيت مأسوراً في الطريق ، ومَالت عن القصد بك الشياطين إلى تبيان الطرق ، حتى تموت وتُقَبر وتُبعث وتحُاسب ، وتجُازى عليك في المحشر ما قدر لك ، وحتى تجوز الصراط ، وتدخل/ الجنة إن سلمت ، وكنت من أهلها ، وحينئذ يجد أول ما وجد من ٤٠٥/ب أمَاطَ الأذى هُنا ، وسَلك قصد السبيل .

---

(١) كلفة : مشقة .

(٢) صحيح : البخاري (٨/ ١٢٢) ، أحمد (٢/ ٥١٤) .

فصل

فإن قُلت : وكيف صفة الإماطة ؟

فاعلمْ أنّ النَّبي ﷺ قَد قَال: « ثَلاَثٌ مُهْلكَات -ثم فسرها فَقال- شح مُطاع، وهَوىً مُتَّبَع ، وإعجاب كُل ذِي رأي برَأيه »[١] فوصف له الشح والهوى والإعجاب ، فتنظر إلى ذاتك ، هَل قَامت بها صفة الشُّح ؟ فَاعمل في قطعها بجهدك ، بأن تنفق عَلى نَفْسك مما أعطاك اللَّه ، بنية صالحة ، لتقوى بها عَلىَ طاعة اللَّه ، فإنَّ نَفقَة بلا نيَة لاَ يُسَمى صَاحبُها كريماً ، ثم تُنْفق عَلى أهلك -إن كانوا- بنية صالحة أيضًا ، بغير إسراف ولا تقتير ، فإنَّ التقتير شحٌ ، والإسراف تبذير ، وليس من السخاء والجود في شيء ، ﴿ إنَّ الْمُبَذرِينَ كَانوا إخوَانَ الشَّيَاطِين ﴾[٢] .

فإن لزمتك الزكاة أخرجتها بنية صالحة طيبة نفسك بذلك ، ثم جاهد نفسك بذلك ، ثم جاهد نفسك بأقل شيء فتصدق بلقمة وبثمرة وبأقل وأكثر قَليلاً قليلاً حتى تندرج نَفسك وتعلم السَخاء ، وأضيف الضيفَ ، وأصل القرابة ، فَذلك من الأخلاق ، وكل ذلك بنية ، وإخلاص ، وأطعم الطعام إلى الإخوان ، ولو مرة في السنة ، وإياك أن تحقر ما أصف لك ، ٤٠٦/أ فتحقر طاعة اللَّه ، ألاَ تَرى إلى قَول المُصطفى/ مُحمد ﷺ : « إنَّ اللَّه يُحب السخاء وَلَو عَلى تَمَرات »[٣] وجمع تمرات أقل الجمع من ثلاث إلى تسع ، وقال : « اتَّقُوا النَّار ولَوْ بِشق تَمرة »[٤] وقد تَصدقت عَائشة -رضى اللَّه عنها-

(١) الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٠) .

(٢) سورة الإسراء : الآية [٢٧] .

(٣) السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٣٩) .

(٤) صحيح : البخاري (٢/ ١٢٦) ، مسلم في صحيحه كتاب الزكاة (٦٨) .

بها ، فإن المراد بالصدقة التخلق بالجود والسخاء ، والتنزه عن القاطع المؤذي ، الذي قَدَّمتُ لك ذكره ، وإذا فعلت بنية للّه كَمَا ذَكَرت لك أحَبَّك اللّه ، كَمَا قَال : « يُحب السخاء ولو عَلى تَمراتَ» وإذا أحبك ، وجدت طعم الإيمان في قلبك ، وتأثر قلبك واستنار ، ورأيت مالم تكن ترى قبل ذلك ، حين انكشف حجاب المؤذي عن قَلبك ، وهكذا تَدرج حتى يَتَصدق ، بخروبة ، و بثمن درهم ، وربعه ، ونصفه ، وبه وكلما فعلت ذلك ، وَجدت أثر حُب ، وما أمسكت من مال لنفسك ، ولأهلك ، فَأمْسكه بنية صالحة للّه ، ليكُون ركَاباً بالآخرة ، وأخرج منه قلبك ، ولا يباله إليه ، فتقلب الحكمةَ ، فإن الدنيا ركَاب الآخرة ، والركاب هو المركوب ، والمركوب مملوك ، هُو يخدمك ، لاَ أنت تَخدمه ، وأحسن منه إلى غيرك جهدك فَلنفْسك تُحسن بموته في الحَال تجدها ﴿ لَنْ تَنَالُوا البر حتى تُنْفقُوا ممَّا تُحَبُّون﴾[1] فافهم قوله ﴿ مما تُحبُون ﴾ ، وتحرِّي الحَلاَل جَهْدك ، فَإنَّ اللَّه لا يُحب سوَاه/ وإنْ لم يكن لك مَال ، فَارض واقنع ، و أمط الفَقر والطَّمع عَن ذاتك ، تكن عزيزاً باللّه ، ولاَ تَطمع وتقتصر إلى مخلوق مثلك ، فَتقلب الحكمة كما تقدمَ ، فإنَّ الذي أعطاه هُو الذي مَنعك ، ولاَ تَقْدر أن تَمتنع أنتَ ولاَ هُو عَن ذَلك ، واختبرك وإياه بالمنع وَالعَطاء . ٤٠٦/ب

وربما كان عَطَاؤك الذي أَعْطَاك أَفضل من عَطَايه هُو ، فإنه ابتلاك بالعطاء ، كما ابتلاك بالمنعَ ، وإذا رضيت به وَقنعت ، فقد زال عنك ثُقل المُحاسبة عَلى العَطاء ، والساعات التي تلزمه دنيا وأخرى ، وأنفق بالذكر عَلى نَفسك ، فإنَّ كُل تَسبيحة صَدَقَة ، وكُل تَحميدة صَدَقة وكُل تَهليلة صَدَقة ، وكُل تكبيرة صدقةَ ، إلى غَير ذلك ، ولا تشح بنفسك عَلى رَبك في طَاعته ، فاسمح بها في حركاتك وسكناتك ، واجعلها كلها به وله ، تجده

(١) سورة آل عمران : الآية [٩٢] .

في كل طريق ، حركة وسكون ، واعمل جهدك في قطع الشح المهلك ، وإماطته عن ذلك ، ولا تتعرض للهلاك ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- ، تصديقاً لنبيه في أن الشح مُهلك ﴿ وَ أَنْفِقُوا في سَبِيلِ اللَّهِ ، ولاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إلَى التَّهْلُكَةِ﴾[١] فنزلت في تَرك الجِهَاد والنَّفَقَة فيه ، فوَصف أنَّ تَرك الإنفاق يُهْلكهُ .

---

(١) سورة البقرة : الآية [١٩٥] .

فصل

و أمَّا قوله « وهَوىً مُتَّبع » ففي الخبر : « اتَّباع الهَوى يَصد عَن سَبَيل اللَّه »
وإذا صَد عن سبيل اللَّه فَقد أضل عَن المطلوب ، وأيْ هَلاك أشد من
الضلال ، قَال/ اللَّه -تعالى- تَصديقاً لهَذا ، ﴿ وإنَّ كَثيراً لَيُضلونَ بأَهْوَائهمْ ١/٤٠٧
بغَيرِ علْمٍ﴾(١) فالهوى قَاطع وَاقف على سَبيل اللَّه ، يُضل عن اللَّه ، فعليك
بقطعه باتباع العلم ، و أعرض كل شيء على العِلم النَّافع النَّبوي ، ولا
تَعرض العِلم عن شَيء .

و الهوى عَلى ضربين : هَوى عقلي ، وهي الآراء ، و هُوى نفساني ، وهُو حبُّ الشهوات والمشتهيات ، فاجعل مكانها العلم النافع ، الذي اقتدى به مُحمد ﷺ ، وعُلَمَاء الآخرة من الصَّحابة وغَيرَهم ، فاقتد في الرأي العقلي بالنَّبي -عليه السلام- في الظواهر والبَواطن ، ودَع قول الرَّأي ، إن لم يُوافقوا الكتاب والسنة ، فإن لم تفعل ضل العقل عن السبيل ، فإذا ضل هلك ، ولم يجد ربه ، ولذلك تجد كثيراً من العلوم تولد القسوة ، والبعد والشك والكُفر ، لأنَّها آراء فاسدة .

وكذلك الهوى النَّفسَاني لا يتسع حُب الشهوات المُحرمة ، فَإنَّها قَائدة إلى النَّار ، ولا الإسراف في المُباحات ، فإن اللَّه لا يُحب المُسرفين ، وما لا يُحب فهو بعيد من اللَّه ، لأنَّه مبغوض (٢) والقائم بدَاية المَبغوض يعد مثله ، فحد من الشهوات ، ما قل (٣) بنية التقوى عَلى طاعَة اللَّه ، يكون كلها للَّه ،

(١) سورة الأنعام : الآية [١١٩] .

(٢) المبغوض : الممقوت المكروه .

(٣) في الأصل « كل » .

ولذلك يقول اللَّه تعالى يوم القيامة في الدنيا : « مَيْزُوا مَا كَانَ لِي مِنها ، وأَلْقُوا سَائرها فِي النَّار » وإذا ألقيت في النَّار تسعها أهلها للآخذون لَها ، لغير اللَّه ، ٤٠٧/ب فإن أَخَذتَها للَّه / وَصَلّتك أيضاً فِي الجنَّة إلى اللَّه ، وكانت مُعينة عَلى قطع الطريق إلى اللَّه ، فافهم .

فصل

قوله -عليه السلام- : « وإعْجَاب كُل ذِي رأي بِرأيه » فإن العُجب [١] خَيلاء القلب ، وإذا خالط العجب القَلب والعَقل ، استحسن رأيه ، واستقر به في حجبه عن رؤية كل عيب فيه ، حتى يَرى القبيح حسناً ، وذَلك الهَلاك ، قَال النَّبي -ﷺ- : « لو لم تذنبوا لَحَقَّت عَلَيكم ما هُو أشَد مِن العُجب »[٢] فَشيء يكون الذنب خيراً منه ، أيْ خير فيه ، وأقَل خصاله هذا ، ومن خصاله أنه يقطع عن اللَّه ، لأنَّ صَاحبه ناظر إلى نفسه ، ومُسْتَحسن لها ، وممن عليها ، و مزك لها وإذا فَعل ذلك حُجب عن اللَّه العَظيم [٣] الذي خلقه من نُطفة قدره يَخرج من مبال إلى مبال ، و غذَائه في ظُلمات البطَن بدم الحيض القذر ، ثم أخرجه إلى الدُنيا عَلى أم الرأس ، مخرج البول ضَعيفاً مسكيًنا مهينًا [٤] ، يستهرع في قوله وقدره ، وأفقره [٥] إلى من يطهره من ذلك ، ويسد فقره بإطعامه ، وكسوة عورته ، حتى ترعرع [٦] ، فَنظر إلى نَفسه ، فرأى جِسمَه ومَيزه وكيف ستر اللَّه الجميل بستره الجلد الظاهر ، ما

---

(١) العُجب : الكبر والزهو .

(٢) إتحاف السادة المتقين (٨/ ٤٠٨) .

(٣) ذكر المؤلف -غفر اللَّه لنا وله- ما لا يليق باللَّه مما لم يصف اللَّه به نفسه ، وتم حذفه وهو «العجيب المفاخر الذي فخره لا يدانيه فخر » .

(٤) مهيناً : حقيراً .

(٥) أفقره : احتياجه .

(٦) ترعرع : نشأ و شب .

خفي تحته من الدَّم ، الجاري في كُل جزُء منه ، علواً وسفلاً ، وكيف سُتر في بطنه شَيئاً يَضع يده على أنفه إذا خرجَ منه ، إلى الطاهر من وسخ وقَذر وبول ، وأفقره إلى مَن يُعَلمه بيَده ، التي يأكُل بها ، ويحك بهَا عُلوه وسُفله بها ، وجَعل المخاط [١] في أشرَف شيء منه وهو/ الوجه البراق [٢] ، والتُّخمة ١/٤٠٨
في فمه وحلقه ، و يجد طَعمها في فمه ، والعداوة في عينيه الكريمتين عليه ، والوسخ في أذنه ، والقلح على أسنانه ، والرائحة الثقيلة في إبطه وفخذيه وتحت ركبتيه ، والتف [٣] والأف [٤] يجب إطهاره ، وخَلق منه القُمل [٥] في جسده وفي رأسه ، من فضلات غذائه ، ثم سلط عليه الجوع والبرد والحر والمرض ، وجوفه [٦] بجميع ما يتخوف من الأعراض المسلطة عليه آناء الليل والنَّهار .

ثم مع هذا كله هو مواقع الذنوب ، وجاهل بما يراد منه ؟ ولأي شيء خُلق ؟ وفي أيْ دَار في الآخرة سكناه ؟ وحُجب عن عيوبه الظاهرة والباطنة ، وعن ما أريد منه بإعجابه المؤف [٧] المبعد ، وهل عمله هذا كله إلا ليفرغ عن إعجابه ، ويهرب من نفسه إلى الملك النزيه المجيب [٨] ، الرَّفيع ، الذي يجب أن يكون العبد أبداً متعجبًا من عجائب قدرته ، التي قَامَت الأَشياء كُلها عَلى كثرتها واختلافها ، وأظهرت عَجائب الأفعال ، ومحكمات الغرائب ، والصنائع المتقنة مع الأباد والأزال ، يُستَدل بها عَلى قدر الكبير المُتعال ، الذي أحاط بعلم واحد بجميع المعلُومات ، وصرف

---

(١) المخاط : إفراز مائي لزج تفرزه غدد أو أغشية خاصة كالأغشيه التي في الأنف .

(٢) البَّراق : الناضر اللامع . (٣) التف : القذر .

(٤) الأف : الوسخ .

(٥) القُمَّلُ : دُويبة من جنس القِرْدان إلاّ أنَّها أصغر منها .

(٦) في الأصل « وحفوفه » . (٧) المؤف : المريض .

(٨) في الأصل « العجيب » .

بقدرة واحدة جميع المقدورات جائزاً جائراً متعجباً متنزهاً في نُور السبَحات، سبَحات الوَجه الجَميل ، فَلا يَقطَعه عُجبَه بنَفْسه الحَقيرة ، ورأيه
٤٠٨/ب الفاخر عن حضرة الجليل ، ثم يَنظر إلى ما / فعله مَعَهَ مَولَاه، فَتعجب من كثرة إحسان اللَّه إليه ، وكيف سخر جميع المُلك له وإليه ، عَلى قلة قدره، وما انطوى عليه من العيوب ، ويَنْظر إلى نَفْسه بعين المقت[1] والعيب ، وإلى ربه بعين الشكر والعجب ، فسبحه في كل وقت، نظر إلى نفسه ، و مَا فعل معها ربه فسبح التَّعجب ، فيَقُول : سُبحان مَن أظهر الجَميل، وستَر القبيح ، فَهذَا دَوَاء العُجب إن شَاء اللَّه تَعَالى ، قد اندرج فيما تقدم من الكَلام ، فَلْتَجعَله دَوَاك، و ليكن لك نظران، نظر إلى قَدر ربك، وما فعَل معك ، ونَظَر إلى قَدر نفسك ، وما صنع معها مَوْلاَك، فَتَتعجب من مَولاه كما تقدم ، وتَتَعَجب من نَفسك وخيراتها ، وتَوثبها إلى مقَام العُجبَ ، الذي لاَ يكُون إلا للرب ، فتَميط العُجب عنك ، القاطع لك عن الوصول إلى مقَام العُجب العُجَاب .

وكذلك الكبرياء والرياء ، وأنواع المُهلكات لها أدوية عجيبة ، وهي كثيرة جداً ، والكلام فيها يستدعي التطويل ، وغرضنا الاختصار ، وبالقلَيل يَسْتدل الطالب النبيل ، وَليكُن مَا تَقدم ، أنَّ رَأسَ المُهلكات كلها حُب الدنيا المَذمومة ، فَأنا أذكَر لك كيف الحيلة في قَطع رَأس جميع المُهلكات ، وصِفته إماطته ، فإن في ذلك فَهم الكُل ، وقَطع إن شَاء اللَّه .

فصل

اعلمْ أن الإنسان خلقه اللَّه في الدنيا طفلاً صَغيراً ، وخَرج إِلى الدنيا فَقيراً إلى قيام بنيته ، وإصلاح نَفسه فاحتاج إلى شَيئين :

(١) المَقْت : الكراهه الشديدة .

هما : قوامه وصلاحه ، أحدهُما : يَتَنَاول الشبُهَات المعلة له ، والآخر
تَبجْيله / وإكرامه ، وحُفظه الذي هُو حَيَاة نَفسه ، ولذلك ترى الطفل في ١/٤٠٩
حَال تَربيته يَفرح ، ويضحك ويَرفع لأنَّ ذلك سُرور ذاته البَاطنة ، وحَيَاتها
وتغذية حَياة جسمه وبنيته ، ظاهره ، فلا يزال ينشأ شَيئًا شيئًا ، وحُب هذَين
الشيئين قد خَامر ظاهره وباطنه ، أعني حُب الجَاه ، الذي هُو التبجيل
والإكرام ، وحُب نيل [١] الأوطار [٢] ، التي هِي الشهَوات .

وهَذَان المَعنيان هُما الدنيا بأسرها من أجلها طلب المال ، تنافس الخلق
في طلب الرياسة والجاه ، وفيَ التنافس ، البغي والحسد والتطاول عَلى
القُرآن ، والتَفاخر والتكاثر والعَداوة ، والبَغضاء والمرآيات ، والمكر
والخديعة ، وطَلب الإهلاك وجميع الصفات النفسانية ، هكَذا أيضاً التَّنافس
في طَلَب المَال ، والإكثار منْه ، والاتساع في الإنفاق في المَطَاعم والمَشَارب
إلى غير ذَلك ممَّا يكره تعداَده ، فيَتَعلق بذَلك الحرص والحقد ، والخش [٣]
عَلى المَلك ، وَغير ذَلك من صفات البَهَائم التي غَايَتها ، وبها في المَطلب
منها تَسمينها وذبحها ، فَلما كَان آخرُ الدنيا هكَذا ، أقبل الخَلق عَلَى هَذين
المَعنيين ، ليصلوا منهما الغاية القصوى ، فَلَمّا كَانْت الدنيا دَار فَناء ،
والآخرة دَار بَقَاء ، وكَان الجَاه الحَقيقي ، والشَّهَوات الكاملة إنَّما هُو في
٤٠/ب الآخرَة دار الأفراح واللَّذات أُمر الخَلَق بطَلب هَذين المعنيين/ من مَعَادنهما ،
وأعْملوا إنه يَهُم إن لم يَفعلوا ، وبقوا عَلَى طَلَبهما ، تعلوا إلى الآخرة ،
وانْقلب الجاه الدُنيوي فِيها خمولاً [٤] ، وكبرها صغاراً [٥] ، وغَيرها ذُلاً ،

---

(١) نيل : الإدراك ، و البلوغ يقال نال الشيء : أدركه .

(٢) الأوطار : جمع وطر يقال قضى منه وطره : أي نال منه بغيته .

(٣) الخش : أي الدخول .

(٤) خمولاً : زالت آثاره .   (٥) الصغار : الذل و الضيم .

وشَهَواتها عذَاباً وتنغيضاً ونكالاً ، فَالمؤمن الناظر بتوفيق اللَّه تعالى ، فَرق بين الباقي والفاني ، والحقير والعَظيم ، فَجَرى في طلب العَظيم وتَرك الحَقير ، فَلم يَجد لذَلك دَواء ولا حيلة إلا بشَيْئَين كَمَا يَلي :

أمور الدنيا سَبَبان ، فَالأمر الواحد ، يُميط عنه جميع المُهلكات النَّفْسية ، والأمر الثاني يُميط عنه جَميع المُهلكات الشَّهوانية .

فأمَّا الفاني فهو إدخال النفس في رق العُبودية للَّه الجَليل ، الذي جَاه وجهه الكَريم لا يُدَانيه جَاه ، والذي جَاه وَجهه ، عَنت الوُجوه للحي القيوم ، والذي في لَمحة وَاحدة من النَّظر إلى جَاه وَجه ، ذي الجَلال والإكرام ، فَني كُل جَاه ، وهَلك كُلَ وَجه : ﴿ كُل مَنْ عَلَيْهَا فَان ، وَ يَبْقَى وَجْهُ ربِّكَ ﴾(١) ﴿ كُلُّ شَيء هالكٌ إلاَّ وَجهه ﴾(٢) فَافهم باباً منها في طَلب الجاه قول ربك : ﴿ وَ يَبْقَى وَجه ربك ذو الجَلاَل والإكرَام ﴾(٣) .

فإن الوَجه في اللغه هى المَنزلة الرَّفيعة ، التي يجل ، ويكرم صاحبها من أجلها ، كَجَاه المُلوك والكَبرياء ، فإن المَلك يَجل ، وَ لاَ أكرم ولا أرفَع ، مَن أجل وجهه الذي في رأسه ، وإنَّما أجَلَّ وأكرم ، ورفَع من أجل وجهه الَذي بمنزلته ، كَذَلك كُل كبر ، ألا تراه إذا عزل عن ملكه وزال وجه
١/٤١٠ مَنزَلته ، ورأسه كَيف يَبقى وَجهه الذي في رأسه وهُو جارحته / فلأي شَيء لا يُعظم ويجل ويُكرَم ، كَما كَان قَبلَ العُزلة من أجل فَنَاء وَجهه جارحته ، فَلما فَني وَجه المنزلة ، فَني الإكرام والإجلاَل له ، وكذلك الوجه أيضاً في اللغة المُقدم أوائل الأشياء عَلى سَائره ، قَال اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ آمنُوا بالَّذي أنزلَ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وجه النَّهار ﴾(٤) أي المُقدم منه ، والأول في المَعاني رَاجع إلى أول الرتبة ، ومُقَدمَة المَنْزلة ، فإنَّه إنَّما تَقَدَم في الأشْياء الأكابر ، فَانظر

(١) سورة الرحمن : الآية [٢٦ ، ٢٧] . (٢) سورة القصص : الآية [٨٨] .
(٣) سورة الرحمن : الآية [٢٧] . (٤) سورة آل عمران : الآية [٧٢] .

إلى منزلة اللَّه من ملك ، وإلى مَنزلته في قُلوب العَالمين أجمعين ، عَلى نهاياتها ، واتساعَ عَوَالمها لعل أصفقت (١) ، إلاَّ عَلى إجْلاَل مَنزلته ، و إكرام وجهه ، وهَل يَجرُؤ أحد أن يطيف شَيئاً من تلك المَنزلة لسوَاه ، بَل نزلت جَميع المَنَازل العُلويات والسفليات ، تحتَ منزلته ، وأحلت وَجه مَنزلته ، وأكرمته ، واشتغلت بالمُلاحظة ، والنَّظر إلى مَنزلته ، فَبَقيت كُل مَنْزلة في مَنْزلته ﴿ كُل مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ (٢) .

فبقيت بالمعنى والحَقيقه ففناؤها بالمعنى ، أنَّه لَيس يَذكر منزله مع منزلته ، وإن عَلمت المنازل ، لأنَّها كُلها تَحت لها ، وفناؤها بالحَقيقة أنَّ مَنْزلته قديمة ، قبل الخلق ومع الخلق وبعدها الخلق ، آن إفنائهم والمنزلة الوجه جامعة لكُل رُتبة ، لأنَّ الذي له الجَاه ، لا يكفي له حتى يكُون كَبير القَدر ، وعَظيم الخطر (٣) ، وجَليلَ ورَفيع إلى غَير ذَلك من الرتَب الرَّفيعة ، التي حَصل لَه/ بها الجاه في الخَلق فَلذلك يَنْزل الخَلق لَصَاحب المَنزلة لأنَّ ٤١٠/ب جَاهَه عَزيز ، ويَتَصَاغَرُون (٤) له لأنَّ جَاهَهُ كَبير ، ويترفَعُون لأن جَاهَهُ ، الذي هُو مَنْزلَته رَفيع ، ويكَرَّمُونَه ، لأنَّه كريم عَليهم ، ويهابونه لأنَّ جَاهه مُهَيب ، إلى غَير ذَلك مما يكثر تعداده ، وهَذا في حق اللَّه أعظم وأوجَب ، لأنَّه الحَقيقة ، فمنزلته -وجهه الكَريم- جَامعة لكُل شَيء ، عَالية ، فإذا رَاح للعبدَ ، وظهر لمحة من سبحات الوَجه الكَريم ، ذَلَّت نَفْسهَ وتصاغرت وتحاقرت ، وفني كُل عُجب لها ، وصغُر كبره ، وحقر تَعظيمها ، وفنيت جَميع الصفات النَّفسية المُهلكة الشَّيطَانية ، فَليس دَواء أنجح من إمَاطة الصفات النَّفْسية المهلَكة ، من النَّظر إلى سَبحات الوَجه الكَرَيم ، الذي العَرش بما حوى من الخدمة مُرتقبون ، ونَاظرون ، ومُتطلعون إلى مُلاحظته ، فَاحرص جَهدكَ عَلى العُلو في مقام المُراقبة والمُلاَحظة ، وانظر كَيف مَنزلة

(١) أصفقت : اضطربت و اختلفت .
(٢) سورة الرحمن : الآية (٢٦ ، ٢٧) .
(٣) عظيم الخطر : يُخشى و يُخاف منه .
(٤) يتصاغرون : يتذللون .

اللَّه من قَلبك ، واترك طلب الجاه لنفسك ، فهو -سُبحانه- يُنزل منزلتك ، و يُرتبَ رتبتك عنده ، وفي ملكوته ، وعند خلقه ، عَلى قَدر مَنزلته عندك ، وهذا فضل منه ، لأنه كان يَستحق ألا يُذكر معه مذكور ، لكَي يفضل منزلته صنع ذلك ، حتى أكرم عباده ، وأمر بإكرامهم ، فمن هذَا الباب ، فاطلب الجاه عنده وحده ، بأن لا تَرى في الوجَود إلاّ وجهه ، واقرأ أبداً/ في حالك ١/٤١١
هذه ﴿ رَبُّ السَّمَوات وَ الأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبرْ لعبادَته ﴾[١] فإن العُبودية تحت الوجود كله ، ﴿ هَلْ تَعْلَم لَهُ سَمِيًا ؟ ﴾ هَل فَي الوُجود من يُساميه ، أو يُداني منزلته ، فإنَّه أعلم بفَضيلة مَنزلتك ورَفع قَدرك ، فكثَر ذلك منه ، ومن فضله ، فعليه يَعود الثناء و المدح ، والحَمد والشكر ، لاَ إلى أحد سواه ، وإن ابتلاك بخمول أو سقوط أو ذُل في الدنيا ، ورأيته منهَ ، فَذَلكَ زيَادة في رفعتك في الآخرة ، أو جَزُ الصفَاَت نَفْسَك المُتكَبرَة ، فاشكُره ، فَذَلك كُله خَير ، وليَنبهك عَلى أنَّه ليسَ في من يجب له التقدم عَلى شَيء إلا هُو ، ﴿ كُلُّ شَيء هَالكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾[٢] فَافهم ، فَهمنا اللَّه إيَّاك ، فإنَّ هَذا يُميط عَنْك طلبَ الجَاه الدنياوي المَذْمُوم ، الجَامع للصفَات المُؤذيات ، المُهلكات النَّفسانية الصَّادرة لك عَن الوُصول إلى مَعرفة ربِّك ، ومُلاَحَظَته لوَجْهه الكَريم .

فصل

و أمَّا الضرب الثاني من حُب الدنيا الجامع ، الذي هُو حُب الشهَوات ، فَمثَله كَالشَّجَرة ، أصلها هُو الحُب في القَلب ، وتَفَرَعت أغصانُها الجَوَارح البَدَنية عن خارج ، كلما قطعت أغصانها العُقول الزاجرة بالكَف عن المحظُورات ، تسَاق من أصلها الدَّاخل ، فُروع طلب المُباحاتَ الحَلال ، فإنْ بقَلمت[٣] الأغصان بتَقصيرها الذي هُو الاقتصار عَلى مَا لا بُدَّ منه وإلاَّ/ ٤١١/

(١) سورة مريم : الآية [٦٥] . (٢) سورة القصص : الآية (٨٨) .
(٣) قَلَّمَ : أزال بعضها لتقوى .

طَالت عند فعل هَذا ، وتَشَعَّبت في كُل نَاحية ، وَاتَّسعت إلى طَلب الإسراف حَتى تَقبح صُورتها ، وتَخرج إلى المَحظورات ، فَمن أعطى قَلَع الأصل ، فَهو الذي عَرَّشَت الحِكْمَة في قَلبه ، فَتَضَرَّعَت على جَوارحه أغصانها ﴿ ذَلك فَضْل اللَّه ، يُؤْتيه مَن يَشَاء ﴾(١) .

و اعلمْ أنَّ الحِكْمَة صُورة مُحْكَمة متقنة في أَحْسن تَقْويم ، هَذه صُورة الحِكْمة في كُل شَيَء ، والحكمة علم (٢) مُحكَم ، وعَمَلٌ مُتْقَن ، فَالعَلم في القَلب ، والحكمة عَمَلٌ عَلَى الجَوَارح ، وتَفسير مَعنى الحكمة المُتقَدم هُو وَضْع الأشيَاءَ في مَوَاضعها ، اللائق بها ، التي إذَا أزيلت عَن تلك المَوَاضع ، صَارت سَفهاً (٣) ، وعَادَت عَبَثاً (٤) ، لأن الحِكمَة كما تقدم مضصدة (٥) في غَاية التَّنضيد والترتيب ، وضدها الهوى واللعب ، فإذا فهمت هذا من صورة الحكمة ، علمت أنَّ الإنسان خُلق في الدنيا ليَعمل للَّه ، وللآخرة التي يُنقل إليها ، لا ليعمل للدنيا ، فأمر العبد أنَ يَجعل حَركَاته كُلَها وسكَنَاته في الدنيا وللآخرة ولله ، عَلى ما أمَره الحكيم ، -سُبحانه- والحكيم لا يَأمر إلا بوضعَ الأشياء مواضعها ، فإذا فعل الإنسان ذلك ، كانت حركاته في الدنيا ليستعين بها في أموره الآخرة ، فصارت حركاته وسكناتهُ كُلها آخرة ، فهو سَالك عَلى سَبيل الآخرةَ ، لأنَّه لم يَخرج عنها ، وإن كانت حركَاته الدنياوية للدنيا ، وتَمتع النَّفس فيها ، زل عن طريق الآخرة في حَركاته وسكَناته ، فتَاه/ في سَبيل الهَوى ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم فِي كُلِّ ١/٤١٢ أ
وَادٍ يهيمون ﴾ (٦) ولذلك قد تَجد الإنسان الحَكيم الذي ، يَسْعى في طلب دُنيَاه للآخرة ، يُحَبُّه اللَّه ، لأنّه في سبيل الله ، إنَّ اللَّه يُحب المُؤمن

(١) سورة الحديد : الآية [٢١] .
(٢) في الأصل « على » .
(٣) سفهاً : خفَّة وطيشاً .
(٤) عبث : لا حكمة فيها و لافائدة ، و في القُرآن الكريم ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عبثاً ﴾ .
(٥) مُنَضَّدَة : مُنَسَّقَة .
(٦) سورة الشعراء : الآية [٢٢٥] .

المُحترف أبا العيال، لأجل طَلَبه الحَلال ، والكَف عن طلب التكاثر ، والإسراف الذى لاَ يُحبه اللَّه ، ﴿ وَ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَ لاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١) وَقد يجد الإنسان أيضاً في عمل ديني، طلب علم ، أو زيادة عبادة ، ونيته أن يُكرم بذلك ، ويَلي حظه من الخطط في الدنيا ، أو يبني عليه في الدنيا ، أو يُعطي عرضاً من أعراض الدنيا ، فَيَعود عَمله الديني دُنيا ، فأقلب الحكمة سفها ، فهذا الحُب الدنيوي سم قَاتل ، قد يتصور حُب الدنيا وهُو ملح أجاج (٢) مثلاً لهم الأمواج ، غرق فيه من الخلق أفواج بعد أفواج ، ﴿ وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجلَ ﴾ (٣) ، أي حُب العجل ، ﴿ كَلاَ بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ ﴾(٤) والخلق قد سكروا من هذا الشراب ، لأَنَّه خالط القلوب ، وخامر العُقول ﴿ إِنَّهُمْ(٥) لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(٦) والسكر إن عايت ولاه وغافل ولاعب ومُتطاول، ومُتفاخر ، وغَير ذلك ﴿اعلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدنيا لَعِب وَلَهْوٌ ﴾(٧) الآية و﴿وَتَتَّخذونَ مَصَانِعَ لَعَلَكُم تَخْلُدُنَ﴾(٨) و﴿أَتتركُونَ فيمَا
٤١٣/ بهَاهُنا آمنين﴾(٩) إلى قوله ﴿ بيُوتًا فَارِهين﴾(١٠) أي حاذقين فيما صنعتم وطلبتم في أمور الدنيا و الحاذق/ هُو الكَيس ، «والكَيس »(١١) من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، فما ترى كَيف صار (١٢) ؟ حذق أهل الدنيا عيباً وعبثاً وسفهاً ، لأنَّه ضِد الحكمة ، وعَلى غَير سَبيلها .

---

(١) سورة الأعراف : الآية [٢١] .
(٢) أُجاج : ما يلدغ الفم بمرارته أو مُلوحته .
(٣) سورة البقرة : الآية [٩٣] .
(٤) سورة القيامة : الآية [٢٠] .
(٥) في الأصل [فهم في سكرتهم] .
(٦) سورة الحجر : الآية [٧٢] .
(٧) سورة الحديد : الآية [٢٠] .
(٨) سورة الشُعراء : الآية [١٢٩] .
(٩) سورة الشُعراء : الآية [١٤٦] .
(١٠) سورة الشعراء : الآية [١٤٩] .
(١١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٩/ ٣٤٢) المعجم الكبير للطبراني (٧/ ٣٣٨) و المعجم الصغير أيضًا (٢/ ٣٦) . و الزيادة من مصادر التخريج .
(١٢) تكررت بالأصل كلمة « صار » .

فصل

فإن قلت : فكيف الحيلة في هذا الداء العُضال ، الذي أعيا الأطباء ، وأنا لا غنى لي عن الدنيا ، لأنَّ قوامي منها .

فاعلمْ أنَّ الحيلة فيها ، ما ذكرت لك ، وذلك أنك سائر إلى الآخرة ، في كُل نَفس من أنفاسَك كالمسافر ، وعابر السَبيل ، فَمَا أحدث من الدنيا فائتوا به ، وأعمله للآخرة ، يصير معكَ إلى الآخرة ،و لا يقطَعك عن طريق الآخرة ، ومَا أردت به الدنيا والهوى ، فأقلعَ وتب ، واستغفر ، واعمل عمَل الحُكماء ، كَما قدمت لك ، وأعْون شيء عَلى ذَلك ، أن تُخرج الدنيا عن قلبك وتعمره بالذكر للّه ، والدَّار الآخرة ، والفكر في ذلك ، وبالفكر في الدنيا ، وتقلبَها بأهلها ، فنائها وزوَالها ، وتَلاوة القُرآن ، وزَواجره [1] وتحذيره عن الدنيَا ، حتى يكون معموراً بالذكر والمخَاوف والحدد من الدنيا ، فلا تمكن قلبك من التدبر الدُنيوي ، والَتمني لها ، ومن الأمل الطَويل فيها ، والرغبة ، فَذَلك يُخرج قلبك من حُب الدُنيا ، والاشتغال بها ، فَيكون حذراً خائفاً منها ، وإن كنت منحرَفًا فيها ، وآخذًا لها ، فإنكَ إنما دخلت فيها ، وأخذتها للآخرة ، وقبلك حذرًا منها ،و مشمراً أطرافه عنها ، ولا سيما/ الفكر في زاجر القُرآن ، وإخباره عن هلاك ١/٤١٣
الأُمم الخالية كلها ، أما أخبار الرسُول -عليه السلام- والنَّظر والفكر في العَالم ، ورآه الفجائع [2] والوقَائع [3] ، والمَصَائب في الخلق ، آناء الليل وأطراف النَّهار ، فإنَّ ذلك مفرد القلب عن الدنيا والحُب لها ، والشغل بها

(١) زواجر : جمع زاجرة ، وهي النهي والانتهاء .

(٢) الفجائع : جمع فجيعة و هي المصيبة المؤلمة توجع الإنسان بفقد ما يعز عليه من مال أو حميم .

(٣) الوقائع : جمع واقعة : و هي الأحوال والأحداث التي تقع مفردة .

وذلك هُو إماطة حُبها عن القلب ، ودُخول حُب غَيرها فيه ، وغمرانه بذكر الآخرة ، وذكر اللَّه ، لابد للقلب أن يكون معموراً فأخرج عمران الدَنيا منه ، و أعمره بغيرها فَيكون جَسَدك في الدنيا وقَلبك في الآخرة ، لأنَّه مَعْمُور بها ، و لا دَواء لها إلا هذا الذي ذكرت لك ، وتطهر القلب من جميع المؤذيات ، وجلاؤه بالذكر ، والخوف والحَذر والفكر ، وهَذه صُورة الحكمة علماً وعَمَلاً ، وإنمَا أُمرت أن يكون حكيماً ، لا سَفيهًا ، وبذلك تنتظَم لك الدنيا ، وتَنَال منها ما كتب لك منها ، وما كُتب لك منها جَعله لله والدار الآخرة ، فيعود آخره كلها ، لذلك يقول- الله تعالى- يَوم القيامة عن الدنيا : « مَيزوا مَا كَان لي منْها ، وألقُوا سَائرها في النَّار » فَالأكياس [١] الموقنون بهذا الكلام جعلوه ها هُنا ، كذلك جعلوا دنياهم للَّه ، وكرهوا أن يكون شيء منها للنَّار ، لأنَّها تَجذبهم إلى النَّار « حُفَّت النَّار بالشَهوات » [٢] والشهوات اَلتي حُفَّت بها النار مالم يكن للَّه .

فصل

٤١٣/ب اعلمْ أنك لا/ يتبين لك صورة ما ذكرت لك بالحقيقة إلاَّ بمعرفة الحَق والباطل ، فَإذَا عَرفتها تجلت لك الحكمة بصورتها مجلوة ، فَرأيتها في أحسن تقويم ، وذلك أن الحق هُو المَوجود ، اَلثابت الذي لا بُد منه ولا يَزُول وجُوده ، والباطل هُو الشيء المُستحيل المتوهم أنَّه موَجود وباقَ ، فإذا طلبه في آخر أمره ، تبين لك بطلانه ، فالحق هُو اللَّه الباقي ، والدَّار الآخرة لأنَّها باقية أَبداً ، والبقاء فيها حق أبداً ، والدنيا عرض زائل ، فتوهم بقائه مُحال ، لَأنَّه يَعرض ثم يَزُول ، فَتوهم البقاء في الدُنيا بَاطل ، والعمل للبقاء فيها باطل ، وخلود أهلها فيها باطل ، لأنَّه أَرضها وسماها إذا فني أهلها عنها ،

(١) الأكياس : جمع الكيِّس و هُو الظرف و الفطانة في استنباط ما هو نافع .

(٢) صحيح : مسلم في صحيحه كتاب الجنَّة (المقدمة ١) ، الترمذي (٢٥٥٩) ، أحمد (٢/ ٢٦٠) .

وفنيت في حقهم ، وأبقيت نافعاً بَعدهم ليسكنها غيرهم ، ويَجري لهم كما جرى لهم ، فإذا تم خلق بني آدم ، فثبت بقائهم فتوهم البقاء فيها ، وتوهم بقائها ، والعمل للبقاء فيها باطل .

و أَعْظم النَّاس رُتبة في هذه المشاهدة ، المعني بقَوله : ﴿ فإنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبكَ ، ويمحُ اللَّه البَاطل -منه- وَيُحقُّ الحَقَّ بِكَلماته ﴾[1] والختم هُو الطبع ، وآخر الشيء ، فَمن طَبَع قلبه بطبائع الإيمان ، وجبله عَلى التَّصديق بكُل حَق ، وأن لا يُصدق مَوجُود البَاطَل ، وحَصَل ذَلك له طبعاً طبيعياً ، حَتى لا يَقبل سواه ، فقد خَتم عَلى قَلبه[2] ألاَّ يَقبل سواه / ، لأَنَّه انْتهى إلى آخر الطبع[3] ، فلا يُقبل سوى البَاطل ، وأمحى عنه تصور الحق بالكلية ، ١/٤١٤
ولذلك لم يقبل من الرسل أن يدخل في قُلوب المَطبوعين ذرة من التَّصديق بالحق ، فَقَال اللَّه فيهم : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيهِمْ أَأَنْذَرْتَهُم -بوجود الحق- أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُون ﴾[4] به لأَنَّهم إنما آمنوا ، إنما أدركت حواسهم من وجود الدنيا والكون فيها ، وطبعوا عَلى ذلك ، فانتهى طبع إيمانهم إلى آخره ، وآخر الشيء لَيس وراء آخره منه شيء ، فإذا ذُكر لهم شيء من الحقَ الغائب ، قَالوا : ﴿ هَذَا شَيء عَجِيبَ ﴾[5] ﴿ إنَّ هَذَا لَشَيء عُجَاب ﴾[6] ﴿ إنْ هَذَا إلا اخْتلاَق ﴾[7] إلى غَير ذلك من ألفاظهم ، وما بين هَذين الصَّفَّيْن ، الخلقُ طَبَقَات عَلى قَدر التَّصديق ، واليقين بالحق والبَاطل ، حتى يكشف غطاء الظاهر عن الكُل ، فيحق الحق ، ويزهق[8] البَاطل ، إن الباطل كَان زَهُوقاً ﴿لَقد كُنْتَ في غَفْلة مِنْ هَذا فَكَشَفْنَا عَنك غِطاءكَ فَبصركَ اليوم حديد ﴾[9] .

(١) سورة الشورى : الآية [٢٤] .
(٢) ختم على قلبه : جعله لا يَفْقَه شيء .
(٣) الطبع : الخُلق .
(٤) سورة البقرة : الآية [٦] .
(٥) سورة ق : الآية [٢] .
(٦) سورة ص : الآية [٥] .
(٧) سورة ص : الآية [٧] .
(٨) يزهق : يزول و يضمحل .
(٩) سورة ق : الآية [٢٢] .

فصل

كان رسول اللَّه ﷺ فيما رَوت عَائشة -رضي اللَّه عنها- كَثير التفكر في تعرف الفاني من الباقي ، وهكذا فكر فِي العَالمين اللذين هُما الدنيا والآخرة وفي الباقي الحق سبحانه ، والفانِي سواه، وهذا دَواء ما تقدم ذكره، لاَ دَواء له إلاَّ ذلك ، لأنَّ سيد الحُكماء مستقل به فاجعل الفكر
٤١٤/ب جَليسك وكن قائمًا بين/ العالمين ، وحارساً لقلبك أن يَدخل فيه تكذيب بالحق ، وتصديق بالبَاطل المُتقدم ذكرهما ، فَهَذه صُورة الحذر [(١)] الحارس ، وَإذا كنت كَذَلك حَارساً ، لم يلجَ[(٢)] لقلبك من حب الباطل ، أو خاطر بشيء مؤذ، إلا أمطته من قلبك ، فلا يكُن شُغلك إلا الفكر والحراسة ، وذلك يَرفع إلى حراسة القلب والجوارح فكَلما لاَح في عالَم الحس للجوَارح الظاهرة محظور [(٣)] محرم كفه عنه وغض عن النَّظر إليه وأمَاط حُبه عن القلب، وإن لم يمُط حبَّ ذلك عن القلب انغرس أصل الشَّجرة في القلب وتطلب تفريع أغصانها عَلى الجَوارح، فَالشَأن فِي قَلع الأصل وغَرس الحكمة المتقدم ذكرها فيه ، وإذا علم اللَّه الصدق من مجاهدتك هَدَاك وأعَانك وسهل لكَ الأمر ﴿ وَ الَّذِينَ جَاهدُوا فِيناَ لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنَاَ ﴾ [(٤)] وهُو على ضَربين :

سبيل النَّظر إلى الآخرة وسَبيل النظر إلى اللَّه ، والخلق ها هُنا عَلى ضَربَيْن : طالب لثَواب اللَّه ، والدَّار الآخرة ، وذَلك سَبيل مُستقيم ، وقَد أمَر اللَّه به ، لاَ فيه رَضاه .

---

(١) الحذر : التيقظ و الاستعداد .

(٢) يَلج : يدخل فيه .

(٣) في الأصل « محصور » .

(٤) سورة العنكبوت : الآية [٦٩] .

وطالب لقُرة العَين [١] بلقاء مَولاه ، والنَّظر إليه ، وذلك الطريق أقوم وأقوم ، فشرح اللَّه صدر كُل واحد منهم ، وفتح له طريق إلى مَطلوبه ، بوعده الكريم ، بقوله : ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ وفي هذا الموضع والمقام خَذل [٢] من خذل ، وعَصَم [٣]/ من عصم ، فَثَبت ، وذلك أنَّه لما شُرحت صُدورهم ، و فتحت بالعطاء قلوبهم ، فرحت النفوس بالعطاء ، ولخروجها من الضيق إلى فُسحَة التَّوحيد والآخرة ، نطَقوا بالحَكمة ، وعلم الطريق وفوائد الواهب ، فخَالطوا النَّاس ، و أكرموا وتَجلَوا وأعطو الدنيا ، فَقبلوا الإكرام والتبجيل [٤] والعطاء فمنهم من انخدع ، فرأى الدنيا كرامة ، فرجع إلى ما عنه خرج ، فوثبت [٥] نَفسه عَلى الدُنيا التي خرج منها بقلبه ، حين أَتته ، و فتنه الجاه ، والقبول أحبه ، ففتن وصار طالباً للدنيا بالآخرة يُعطل الأركان -الجوارح- عن الطاعات ، وقد بقي معه نطق بالحكمةَ التيَ شاهدها فتنة له نزل عن مقامه المُتقدم، وزهقت قدمه عنه فصار ضحكة للشيطان ، حين خَلَط عَمل الآخرة بعمل الدنيا وطَلبها ، وهُو أقبح من طلب الدَنيا ، وكذلك لكُل مَن طلَب علماً ومنها من غير هَؤلاء الأصناف ، لينال حظه من حظظ الدنيا ، فَهو أقبح من طلب الدنيا للدنيا . ١/٤١٥

قَال سحنون [٦] : لأن أطلب الدنيا بالدُّف والمزمار أحب إليّ أو خير من [أن] [٧] أطلبها بالدين ، ومن طلب الدنياَ بالدُّف والمزمار لم يطلبها للدين ،

(١) لقرة العين : سرَّ ورضي فهو قرير العين ، في القُرآن : ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها و لاَ تَحْزَن ﴾ .

(٢) خذل : باب وانقطع و تخلف و فشل . (٣) عصم : حماه و حفظه، و وقاه .

(٤) التبجيل : تعظيم القَدر . (٥) وثب : قَفَز وظَفَر .

(٦) سحنون : هو أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان الحمصي الأصل ، المغربي القيرواني المالكي الزاهد الفقيه القاضي ، صاحب المدونة المشهورة بسحنون لذكائه ، و سحنون اسم طائر بالمغرب يوصف بالفطنة و التحرز ، و قد انتهت إليه رئاسة العلم بالمغرب وتفقه به عدد كبير ، وقد توفي رحمه الله - لثلاث خلين من رجب سنه(٢٤٠) وله (٨٠) سنة .

(٧) زيادة يقتضيها السياق .

وإنَّما طَلبها للهوى ، فالواجب إماطة ذلك كُله ، لأنَّ اللَّه عرض ذلك عليه
٤١٥/ب فتنة للاختبار / ، وابتلاء الخَلق ، كَمَا قَال -تعالى- : ﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا
ابتَلاَهُ رَبُّه ، فَأَكْرَمَه ونَعَّمهُ ، فَيَقُول ربي أَكرَمَن﴾ (١) فعد ذلك كرامة ، واللَّه قَد
نَصَّ أَنَّها ابتلاء ﴿ ابتلاه﴾ ورد قول العبد آخرًا بقوله ﴿ كلا﴾ إلى قوله : في
الآية بقوله ﴿ حُباً جَماً ﴾ فإن قُلت : كيف الحيلة ، فالحيلة تَرك الحيلة ،
والخدَاع ، وإخراج (٢) حُب الدنيا من القلب بَالكُلية ، فَإن قلت ، كَيف
يتصور ذلك ، و لا غنى عنها فالجواب أن الأنبَياء والصديقين كلهم أخذوا
من الدنيا ، وكانوا فيها ، ولكنهم لم يُحبوها بل أخرجوها من قلوبهم ولم
يركنوا (٣) إليها ، بل أحبوا مولاهم ، و ركنوا إليه ، والرُّكُون إلى شَيئين لاَ
يستَقيم ﴿ مَا جَعَلَ اللَّه لِرَجُل مِن قَلبين فِي جَوفه ﴾ (٤) فأورثهم اللَّه بكرمه مقام
التمكَين ، بأن كانوا آخذين ، باركين ومُصاحبين للأشياء ، فاقدين لها ، هذا
في الأشياء التي هي أرفع من الدنيا ، فكيف بالدنيا ؟ كَمَا أَخْبَر النَّبي ﷺ في
قَوله : ﴿ لَوْ كُنْتُ مُتَّخذاً خَليلاً ، لاَ تَّخذت أَبَا بَكر خَليلاً ﴾ (٥) وأبو بكر خليله
وحبيبه في السفر والحضر (٦) ، ودنيا وآخرة ، وموتاً وحياة ثم قَال -عليه
السلام- « ولكن صاحبكم خليل اللَّه » (٧) فَأخبر عن اشتغال قلبه بتمكين اللَّه
له ، حتى لا يقطعه غَيره عنه ، فهو مع ذلك الغير ، وكذلك كان مَع نساءه
٤١٦/ب وأُمته ، ومَع وَصَائف الشرع ، وفي/ القتال والحروب يُخالط الأشياء

(١) سورة الفجر : الآية [١٥] .

(٢) في الأصل « واختراع » .

(٣) يَركَنُوا : يَميلُوا إليها و يَسكُنوا و يعتمدوا عَلَيْها .

(٤) سورة الأحزاب : الآية [٤] .

(٥) صحيح : البخاري (١/ ١٢٦) ، مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة (باب (١) رقم ٢ : ٧) ابن ماجه (٩٣) ، الترمذي (٣٦٥٩) .

(٦) الحضر : المُدن والقُرى والريف .

(٧) كشف الخفا (١/ ٢٥١) ، (٢/ ٧٠) .

ويُصاحبها ، ولا يَشغله ولاَ يَقطعه هذا كله فيِ الشيء المحبوب المكرم .

وأما الدنيا فَأقل رُتبة من هذا وأقل ، بل ينبغي الإنسان أن يَجعلها مقام العدو والقاطع ، ويفر عنها بقلبه ، فَيَأخُذها وَيلاَمسها ويَتَصرف فيها إذا احتاج إلى ذلك ، وقلبه بأفرعها فإن سطع للقلب جمال برفعتها وبهجتها ، والجمال محبوب فليتذكر عاقبتها ، وباطنها والخروج منها فإنها بالضد في الباطن ، والاستعانه فيِ هَذا كُله باللّه ، أن يَتَضَرع [١] إليه في كُل وَقت ، أن يمحو عن [٢] قلبه حبُها ، ويُثبت فيَ قلبه حبه ، فإن اللّه يمحو ما يشاء .

و اعلمْ أنَّ الحُب سَبَب الاسترقاق ، والرق ضد الحرية ، وقد أُمر العبد أن لا يسترقه الدنيا ، ولا يكون عَبداً لها ، بل قد استخلف فيها ، وجُعلت رقًا له ، وخانه وقد يحب المَولى رقيقه وعبيده ، لكن حُب المُلك والحكمة والرَّحمة المؤبدة ، فهم المشتغلون بخدمته والقائمون بحقوقه ، والخادمون لَه ، لاَ حُب الهوى ، حتى يَتَنَزل عن مقَام سيَادَته إلى مَقَام عَبدهُ ، فيعظمه ويرفعه عَلى نفسه يعبده ، « تعس عبدُ الدينار والدَّرْهَم » [٣] الحديث إلى آخره ، فإماطة حُب الدنيا من القلب ، تميط جميع المؤذيات المُهلكات / من ٤١٦/ب
جَسَد ، ومن غَير ذلك ، من جَميع المؤذيات لأَن القلب قد تَضَرَّع للّه ، واستعَبد له ، واسترق المَلك الحَق ، والخَلق مَأمورون كُلهم بهذا ، فإذَا لم تَجد نَفسك هكذا ، فَعليك بالتوبة ، والاستغفار ، والإنابة ، وَالتَّفرغ بالقَلب من الدنيا ، و إشغاله بالحكمَة والذّكر والفكر والمجاهدة ، فإنَّ ذلك الإَماطة الكُبرى ، والتطهير الأكبر ، طَهَارة مَوضع نَظر اللّه ، وَهُو القلب ، وفي ترك التطهير للقلب ، والإماطة للمؤذيات عنه ، وفي تمكين الحب للدنيا فيِ

(١) يتضرع إليه : تذلل و خضع و إلى اللّه ابتهل .

(٢) يَمْحُو : يذهب أثره .

(٣) صحيح : البخاري (٨/ ١١٥) ، ابن ماجة (٤١٣٥) .

القلب ، وترك النَّظر عنها ، وتمكينها من القلب سر عَظيم من أسرار الآخرة، لاَ يَحتمل كتبه في الأوراق فهو معنى قَوله -علْيه السَلامَ- : « إنَّما هي أَعْمَالُكم تُرَدُّ علَيْكُم » و قَول اللَّه -عَز وجَلّ- : ﴿ ووَجَدُوا مَا عَملُوا حَاضراً ﴾[(١)] ﴿ وَ مَا عَملَتْ من سُوء تَوَدُّ لَوْ أنَّ بينَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعيداً ﴾[(٢)] وأقروا قوله -عَز وجَلّ- : ﴿ مَاهَذه التَّمَاثيلُ التي أَنْتُمْ لَهاَ عاكفُونَ ﴾[(٣)] وَافهم معنى التماثيل ، فَعَليك بالإماطَة والتطهير ، استعن باللَّه جَهدك إلى المَمَات يُعنك، وتَرى منه مالَم يَخطر لك عَلى بَال ، من النَّصر والتمكينَ ، إن كُنت صَادقًا .

وقَدْ انْتَهى الكَلام إلى هَذا القَدر ، وفي أقَل الأشياء كفاية ، لمن وُفق ، وَ هَذه أربعة وسَبعون شُعْبَة وقَد تَقَدم في الأبواب ، مَاَ يكُون في الباب
٤١٨/ب الواحد شُعْبَتَان ، وأكْثَر كَالخُمس في الزكاة ، والتَّبري من/ الحول .

(١) سورة الكهف : الآية [٤٩] .

(٢) سورة آل عمران : الآية [٣٠] .

(٣) سورة الأنبياء : الآية [٥٢] .

الفهارس

فهرس موضوعات الجزء الثاني
من شعب الإيمان

الموضوع — رقم الصفحة

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٧٨٥١